الطبعة الثانية

الحياة النبوية

حياة الرسول ﷺ كأنك تعيش معه

عبد الوهاب الطريري أبا الخيل

مبرة الآل والأصحاب

الحياة النبوية

حياة الرسول ﷺ كأنك تعيش معه

مكتبة الكويت الوطنية
National Library of Kuwait

عنوان الكتاب: الحياة النبوية - حياة الرسول ﷺ كأنك تعيش معه

اسم المؤلف: عبد الوهاب الطريري أبا الخيل

نوع المطبوع: كتاب - الطبعة الثانية (مزيدة) - عدد الصفحات: ٧٦٨

السلسلة: قضايا التوعية الإسلامية (٢٧)

الناشر: مبرة الآل والأصحاب

ص. ب- ١٢٤٢١ الشامية - الرمز البريدي ٧١٦٥٥٥ - ت: ٢٥٦٠٢٠٣

ردمك: ٧-٤١-٨٤٩-٩٩٢١-٩٧٨ ISBN

حقوق الطبع محفوظة لمبرة الآل والأصحاب

الطبعة الثانية (مزيدة)

١٤٤٨ هـ - ٢٠٢٦ م

مبرة الآل والأصحاب

هاتف: ٢٢٥٦٠٢٠٣ – ٢٢٥٥٢٣٤٠ فاكس: ٢٢٥٦٠٣٤٦

ص. ب: ١٢٤٢١ الشامية – الرمز البريدي ٧١٦٥٥ الكويت

E - mail: almabarrh@gmail.com

www.almabarrah.net

بالتعاون مع

دار الظاهرية للدعاية والإعلان والنشر والتوزيع

www.daradahriah.com

الحياة النبوية

جديدة ١٤٤٧

حياة الرسول ﷺ كأنك تعيش معه

عبد الوهاب الطريري أبا الخيل

مبرة الآل والأصحاب


بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى صديقتي وشقيقتي وأمي مع أمي..؛ إلى التي شاركتني لَعِبَ الطفولة، وطُموحَ الشباب، وصحبتني في مراحل العمر، وتحملت معي هموم الحياة، وكانت لي أُنسًا ومدداً، وعونًا وبركة؛ فهي الحاضرة معنا، والمرجع لنا.. أختي: أم نايف منيرة الناصر الطريري.

وإلى زوجها: أخي وصديقي وصهري؛ أبي نايف سعود بن عبد الرحمن العصيمي.

وإلى أبنائنا: نايف، وعمر..

وبناتنا: حصة، ونوف، والعنود، وهيفاء، وديمة سعود العصيمي..

﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧٣].

شكر ودعاء

لأخي أبي عبد الرحمن عبد الله بن ناصر الصبيح رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فما كان هذا الكتاب ليتم على ما هو عليه لولا رأيه ومتابعته، فقد كان محفزاً للعزيمة، ومعينـًا بالمشورة، وكان سنداً ومدداً، ففي حرصه طاقة وعزم، وفي نصحه سداد ورشد، وكم كلمة ألقاها في ضميري فأنبتت وأثمرت وآتت أكلها، وكم شعرتُ معه أن الإنسان قليل بنفسه، كثير بأخيه، فهو المؤازر في العمل، والشريك في الإنجاز.

فأسأل الله أن يكتب له هذا العمل أجرَه، وذخرَه، وبركتَه، وأن يجزيه عني خير ما جزى أخـًا عن أخيه، وأن يتم عليه نعمته، ويتولى عني مكافأته..

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [يوسف: ١٠٠].

وأخي الشيخ د. فيصل بن علي البعداني، الذي راجع مسودة الكتاب وهو لا زال في طور التخلق والتكوين، فقرأه قراءةَ تفْلِيَةٍ وإفادة، وبنى عليه فوق بنائه، وأفادني بملحوظات دقيقة، وإضافات ثمينة، وأخذ ذلك منه الكثير من وقته وجهده، فأعاد الكتاب خلقـًا آخر أتم وأوفى، فله مني الشكر والثناء، وخالص الدعاء، فنعم والله أخو العلم هو تواضعـًا وتلطفـًا، وبرّاً وتكرمـًا، شكر الله له جَهده، وضاعف أجره، وجزاه عني خير الجزاء وأوفاه.

ولأخي د. محمد زبير جامي.

ولأخي د. أنس السرميني.

ولأخي الشيخ أحمد بن محمد الدوسري.

فقد قاموا بمراجعة الكتاب وإفادتي بملاحظات قيمة انتفعت بها.

فلهم جميعـًا خالص الشكر وصادق الدعاء.

مقدمة الطبعة الثانية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، ومن اتبع سنته واهتدى بهداه، وبعد:

فقد صدرت الطبعة الأولى من كتاب «الحياة النبوية»، وساهمت «مبرّة الآل والأصحاب» مشكورة في طباعتها، وقد انتشرت بحمد الله، وصارت مادة مقروءة ومقرَّرة في دورات ومدارس متعددة، كما تُرجمت إلى الإنجليزية، والإسبانية، والفارسية.

وقد نَفِدَتِ الطبعة الأولى، وتوجَّهت العزيمة لإعادة طباعة الكتاب.

وكنت تلقَّيت ملاحظات وتنبيهات من الإخوة المحبين الناصحين، تُصحح خطأً، أو تَقترحُ إضافةً، ولذا راعيتُ عند إعداد الطبعة الثانية أن تكون متميزة بما يلي:

تصحيح الأخطاء الطباعية التي فات استدراكها في الطبعة الأولى.

حذف التكرار في بعض موضوعاتها.

إضافة ثلاثة أبواب مهمة إلى هذه الطبعة، وهي: الرسول ﷺ والرحمة، نوم الرسول ﷺ، حبنا لرسول الله ﷺ.

فهذه الطبعة هي حقّاً منقَّحةٌ ومزيدة.

وإني لأشكر مبرَّة الآل والأصحاب على تكرمهم بإعادة طباعة الكتاب مرة أخرى، سائلًا الله لهم الأجر والمثوبة والتوفيق والبركة. والحمد لله رب العالمين.

وكتب

عبدالوهاب الطريري أباالخيل

الجمعة ١٠ صفر ١٤٤٨هـ

مقدِّمة

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

تحية من عند الله مباركة طيبة، وبعد..

فإن من أعظم منن الله علينا بعثة نبيه ﷺ فينا: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، ومن تمام هذه المنة على الأمة بقاء سيرته وسنته، وحفظ أخباره وأحواله، فإذا حياته تتنقَّل في أمّته جيلاً إثر جيل، يعرف كلُّ جيلٍ عنه ما عرفه الذين صحبوه وعاشوا معه.

ولئن كان لأصحاب النبي ﷺ شرف صحبته وفضل لقياه، فإن لأجيال أمته اللاحقة شرفَ وراثته، برواية علمه، وحفظ سيرته.

فهذا النبي الكريم ﷺ حاضرٌ بسيرته في أجيال أمته، مهما تباعدت أزمانها.

ولئن كان النبي ﷺ قد لحق بالرفيق الأعلى، فقد ظل ـ بسيرته المحفوظة الواضحة المشرقة ـ في وجدان أمته بعده حاضرا كأنما تتراءاه رأي عين، فهي تعرف عنه تفاصيل حياته، ودقائق أحواله، تعرف ملامح وجهه، وخطوات مشيه، وكلامه إذا تكلم، وتلاوته إذا قرأ،

وصلاته إذا صلى، تعرف لباسه الذي يلبسه، وطعامه الذي يأكله، وبيته الذي يسكنه، وتعرف عشرته مع أصحابه، وأنسه مع زوجاته، وحاله في كل شأنه، حتى كأنما هو حيٌّ يعيش بيننا.

ولأن النصارى لا يملكون هذا الوضوح والحضور عن نبي الله عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، استكملوا بخيالهم تصوراً محسوساً برسم الصور والتماثيل المتخيلة للمسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في أديرتهم وكنائسهم، حتى يوجدوا له حضوراً في حياتهم.

أما المسلمون فإن ما يعرفونه من سيرته ﷺ كافٍ في تصوره من غير تصوير، وتمثُّله بلا تماثيل.

فالرسول عندهم صورة، والرسول عندنا سيرة[1].

وقد سبق أن جمعت كتيباً عن البرنامج اليومي لنبينا ﷺ، وما الذي يعمله في يومه من الصباح إلى الصباح، بعنوان: «**اليوم النبوي**»، فرأيت تتميماً لذلك جمع كتاب يقدم «**الحياة النبوية**» بامتدادها وسعتها وتنوعها، وينظر إليها من زواياها المتعددة، ويروي من أحواله وهديه ما يشترك الناس فيه معه؛ فإن كتب السيرة اعتنت بالمغازي والجهاد، ولذا سميت في بداياتها بـ «**كتب المغازي**»، وتولت كتب «**الشمائل**» جانب الأخلاق، وبعض أحوال الحياة، فرأيت إعادة تقريب هذا الموضوع، بأن أذكر أحوالاً متنوعة يتكون من مجموعها تصور للهدي النبوي والحياة المحمدية في شؤونها وأحوالها المتنوعة؛ في العبادات، والعادات، والأخلاق، والمعاملات، والعلاقات، من مثل: الرسول ﷺ زوجاً، وأباً، وصدِيقاً، والرسول والقرآن، والقيام، والصيام، والرسول في المسجد، وفي السوق، وفي الطريق، ومع أصحابه، ومع الأطفال، ومع الخدم، والرسول في مجلسه، وعلى فراشه، وعلى طعامه، والرسول والذوق، والجمال، واللهو، والقراءة وهكذا..

(١) فائدة من مذاكرة مع أخي: د. عمر فاروق قورقماز.

فهو إعادة صياغة للشمائل النبوية، وعرض لأحوال الرسول ﷺ في حياته التي هي مشتركُ الحياة الإنسانية في تطبيقاتها النبوية، وتلمّستُ منها ما يتماسُّ مع حياة الناس بعامة، وما له حضورٌ في واقعهم واهتمامهم، وهو موضوع لا زال في طور التكامل، فثمةَ موضوعات مهمة هي تحت الإعداد، ولعلي أُلحقها في جزءٍ آخر إن شاء الله تعالى.

ومع أن الكتاب ما زال في طور الإعداد، إلا أني دفعت بما تيسر منه؛ عسى أن يكون ذلك محفزاً للإتمام، وميسراً للتصحيح والاقتراح، وإنه ليسرني أن أتلقى ممن يطلع عليه ما يراه استدراكـًا أو تصحيحـًا أو إضافة فكرة.

سائلاً الله أن يجعلنا من المتعاونين على البر والتقوى، والمتواصين بالحق والصبر، وأن يحشرنا في زمرة نبينا ﷺ، وأن يوردنا حوضه، ويرزقنا شفاعته، ويكرمنا بمرافقته في ﴿جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۢ﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥].

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

عبد الوهاب الطريري أبا الخيل

باشاك شهير، إسطنبول

١٢ ربيع الأول ١٤٤٣هـ

مسار الكتاب

١- هذه بعض زوايا الحياة النبوية، ولا زال ثمة جوانب أخرى بحاجةٍ إلى دراسة وتجليةٍ، فالحياة النبوية واسعةٌ ثريةٌ، فهي كالجوهرة الكبيرة، ذات الزوايا الكثيرة، من حيث نظرت إليها رأيت أنواراً وإبهاراً، ولذا فإني أستعين الله على إتمام ما تيسر منها، وسينفر آخرون لتتبعها واستيفائها.

٢- وقد اجتمعت مادة هذا الكتاب خلال سنين عديدة، وفي أوقات متفرقة، ولذا سيلحظ القارئ التفاوت في الأسلوب والمقدار بين مواضيع الكتاب للتباعد الزمني بين كتابتها، ووجدت أن إعادة تنسيقها وتحريرها لتكون على سنن واحد مما يضيق عنه الوقت والقدرة، فرأيت إخراجه كما هو، وما لا يدرك كله لا يترك جله.

٣- وربما كررت بعض القصص النبوية لتعدد الاستشهاد بها في كل موضعٍ بحسبه لكثرة دلالاتها.

٤- ربما كررت في هذا الكتاب بعض ما ذكرته في كتبي الأخرى لمناسبة المقام، وذلك أني لا أفترض أن مَن قرأ كتاباً أكمله، ولا أن مَن قرأ كتاباً قرأ الكتب الأخرى غيره.

٥- عند عزو الحديث فإني أعزو أصل الحديث إلى أهم الكتب التي أخرجته، وقد يكون في الألفاظ التي أذكرها زيادات من مصادر التخريج الأخرى فلا أستقصي ذكرها في التخريج، وما عاد الوصول إلى مجموع روايات الحديث بالأمر البعيد المنال، بعد خروج الموسوعات الجامعة، كـ«المسند الجامع المعلل» بإشراف د. بشار عواد معروف،

و«المسند الموضوعي الجامع للكتب العشرة» لصهيب عبد الجبار، وبرنامج خادم الحرمين الشريفين للسنة النبوية.

وتتبعُ الألفاظ في مصادرها هو شأن الخاصة من طلبة العلم، وهم أهدى من القطا إلى مظان ألفاظ الحديث زادهم الله توفيقـًا وتسديداً.

٦- عرضت مسودة الكتاب على الإخوة الأفاضل الذين ذكرتهم في طليعة الكتاب، والذين أفسحوا له من وقتهم واهتمامهم وقد استفدت من كثيرٍ من ملحوظاتهم التي ساعدت في اكتمال مادة الكتاب وإثرائها، فشكر الله لهم جميعـًا.

٧- دفعت بالكتاب بعد أن بذلت فيه ما بوسعي من جهد، ولكني مستبطنٌ يقينا جازما أنه لا زال بحاجة إلى مزيدِ تنقيحٍ وتحريرٍ، وحذفٍ وإضافة، لأن التجربة التي عايشتها فيمن حولي أكدت لي مقولةَ: طلب الكمال مقبرة الأعمال، وعسى أن يصل إلى يد محب ناصح يوافيني بملحوظات، وإفادات، أستدركها في الطبعة القادمةِ لتكون إبرازته الأخرى أتم وأوفى، وإني بغاية الامتنان لكل من راسلني باستدراك أو ملحوظة، أو تتمة أو إفادة، استدركها في الطبعة القادمة لتكون إبرازته الأخرى أتم وأوفى، سائلاً الله أن يجعلهم شركاء في الأجر، ولا زال العلم رحمـًا بين أهله.

جعلنا الله جميعـًا من المتواصين بالحق والصبر، المتعاونين على البر والتقوى، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الباب الأول
طلائع الكتاب

المسيرة مع السيرة

تكونت علاقتي بالسيرة النبوية وأنا في المرحلة الابتدائية، فقد أعطاني أبي كتاباً في السيرة أتذكر صور صفحاته الآن، ولا أذكر عنوانه ولا مؤلفه، فما كان هذا يهم من هو في سني حينها!

استوقفني في هذا الكتاب السرد الوصفي للسيرة، وعلق بذهني وصف غزوة بدر، وجعلت أتخيل المشهد وأتفاعل معه، وشعرت بنقلة في قراءة السيرة تختلف عن طريقة المنهج المدرسي الذي كان يقدم السيرة لنا معلومات جامدة هي أسماءٌ وأرقام، مثل: ما اسم أم الرسول ﷺ؟ ما اسم مرضعة الرسول ﷺ؟ كم عدد جيش المسلمين في بدر؟ كم عدد شهداء المسلمين في أحد؟ متى وقعت معركة الخندق؟ وهكذا..، وكأنها استبانة وليست سيرة.

ثم قرأت كتاب «**فقه السيرة**» للشيخ محمد الغزالي، وجذبني أسلوبه الأدبي الرائع، والذوق الوجداني الذي كتبه به، وسمعت أن دموعه كانت تختلط بمداده حينما كان يكتبه.

وهو كتاب مغموط القدر، لم ينل من الشهرة ما نالته كتب أُلِّفت بعده ولم تبلغ شأوه ولا قاربت، ولكن كما قيل:

فكم في العرس أبهى من عروس ... ولكن للعروس الدهرُ ساعد

ثم قرأتُ فيما بعد قراءة متوالية في كتاب «**زاد المعاد**» لابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فكان نمطاً آخر وطرازاً فريداً في عرض السيرة النبوية، واستخلاص الهدي النبوي منها، وهي قراءة ما زلت أجد ذخيرتها وبركتها في نفسي إلى يومي هذا.

وتأثرت بتلك القراءة المتفاعلة لأحاديث السيرة النبوية حينما تُقرأ على شيخنا عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فترى من انفعاله وتفاعله عجبًا! وكأنه يرى ما يُروى، ويعيش حَدَث الحديث بمشاعره ووجدانه، رأيته وحديث الإفك يقرأ عليه وقد احمرّ وجهه، وارتعدت شفتاه، وغلبه الانفعال، فلم يستطع أن يعلق على الحديث بأكثر من عبارات متقطعة، وجمل حبسها التأثر الشديد!

ورأيته يوم عرفة يحكي استشهاد النبي ﷺ على الناس، ثم قوله: «**اللهُمَّ اشْهَدْ، اللهُمَّ اشْهَدْ!**»[1]، وهو يحكي الحركة بأصبعه ويشير بها ويقول: ونحن نشهد، ونحن نشهد، ثم تلجلجت العبارات واختلطت بنشيج البكاء، ومشاهد أخرى غيرها جعلت الحياة مع السيرة ذوقًا ووجدانًا.

وممن تأثرت به في أداء السيرة النبوية: الشيخ محمد الراوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكان يروي وقائعها في خطبه بنبرته المؤثرة، وعبارته البليغة، وأدائه الرائع، وقد استوقفته يومًا وهو يهم بالخروج من قسم القرآن وسألته عن طريقة قراءة السيرة وأدائها؟ فوقف لي وانطلق في كلام مسهَب ختَمه بهذه الجملة الجامعة الرائعة: «السيرة النبوية ليست قصةً ماضية، ولكنها سنةٌ باقية».

ثم تكونت لدي حصيلة أوسع بعد أن صرت أقدم دروسًا لجمع من الزملاء أُحضِّر لها من «سيرة ابن هشام»، مع تعليق السهيلي في «الرَّوْضُ الأُنُف».

لكنَّ أتم تصورٍ للسيرة حصّلتُه كان من قراءة كتب السنة: «الصحيحين»، و«السنن»، و«المسند»، والكتب الجوامع كـ «الجمع بين الصحيحين» و«جامع الأصول» و«جامع الأصول التسعة» وغيرها، فإن هذه الكتب تروي وقائع حياة النبي ﷺ، وتفاصيل سيرته وشمائله، وما يجري في يومه، ويتكون بمجموعها تصور مكتمل للحياة النبوية، وينقلك من سيرة المغازي إلى سيرة الحياة.

ولا يزال القارئ لكتب السنة يتروى منها أحاديثَ السيرة وأحداثها، ويمعن النظر فيها، ويربط بين وقائعها حتى تتكثف لديه الصورة، ويتضح له المشهد، وترتفع عنه حجب الزمان والمكان، فكأنما هو يعيش الواقعة والواقع، فيدخل المسجد النبوي كما وُصِف،

(١) «صحيح مسلم» (١٢١٨).

ويرى النبي ﷺ خارجًا من بيته متجهًا إلى محرابه، يرمق خطوه، ويسمع قراءته، ويعرف ملامحه، ويرى إشراق محياه، ووضاءة وجهه، يعرف خطوته إذا مشى، ولحظه إذا نظر، ونبرة صوته إذا تكلم، ومجلسه إذا جلس.

وكأنما يجلس إليه مع أصحابه يعرف كل واحد منهم بملامحه وسُحنته، يسمع حوارهم وينصت إلى كلامهم، يعرف أنَّ هذا الشيخ الأسيف أبو بكر، وهذا الصارم الشامخ عمر، وذاك الأنيق الوسيم عثمان، وهذا الشاب الفَتِيِّ القوي علي، وهذا الضئيل القليل وعاءُ العلم ابن مسعود، وذياك الفتى الودود خويدمه أنس؛ رضي الله عنهم أجمعين.

وتتكون له دربة وذوق، فيعرف تكملة الحديث قبل أن يكتمل، ونهاية القصة قبل أن تنتهي، ويتوقع ما يمكن أن يقع، ويعايش القصة كأنه عاشها، ويرويها وكأنه كان فيها.

مرَّ ابن عمر رضي الله عنهما بالشعبي، وهو يحدث بالمغازي، فقال: كأنه كان شاهداً معنا، ولهو أحفظ لها مني، وإن كنت شهدتها مع النبي ﷺ[1].

وهذا الـذَّوَاق والخبرة هما اللذان كانا يُوجدان مكتملَيْن عند أئمة الحديث: مالك، وأحمد، والبخاري، وعلي بن المديني، والترمذي، وأضرابهم..

فلم تكن معرفتهم برواية السنة وتصحيحها مجرد صنعة، ولكن معها فراسة كوّنتها الممارسة وطول العشرة.

وكل من سلك طريقهم نال نصيباً من نصيبهم، وكلٌ يغترف من بحرها حسب سعة إنائه، وفتوح الله عليه.

وكلما ازدادت معرفتك بالنبي ﷺ ازددتَ إعجاباً به، وحبّاً له، وشوقًا إليه، وأيقنت بحكمة الله البالغة في اصطفائه: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحج: ٧٥]، ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وتعرفت على مواضع القدوة في الحياة النبوية، فهي الثمرة العظمى من معرفة السيرة.

---

(١) ينظر: «تاريخ ابن أبي خيثمة» (١٧٩٨)، و«معجم الطبراني الكبير» (١٣/ ١٨١)، و«تاريخ بغداد» (١٤/ ١٤٣)، و«تاريخ الإسلام» للذهبي (٣/ ٧٠).

وقد ساعدتني النشأة الأولى في بلدة الزُّلفي، وإدراكي بقايا من الحياة النجدية الأولى لقرب العهد بها.. على تصور البيئة النبوية في المدينة، ومعرفة نمط الحياة؛ لتشابه الواقع والبيئة والحال مع ما كان مُعاشاً حينها في نجد، فالأدوات هي هي بأسمائها وحقائقها: القصعة، والصحفة، والغَرْب، والرَّحل، والمحجن، والقربة، والشن، والثريد، والقديد، والأقِط، والحَيس، والتي قد تغير بعض أسمائها ولكن لم تتغير حقائقها.

ومثله نمط الحياة كالبُكور فجراً، والقيلولة قبل الظهر، والغداء صباحاً، والعشاء عصراً أو مغرباً.

وكل هذه المشاهد كانت وسيلة إيضاح قرَّبت إليَّ تصور الأحداث والأحوال، فما احتجت أن أسأل ما هو الأقط ولا الغَرْب ولا الضَّب ولا السَّعدان، ونحو ذلك؛ لأنها كلها من مألوف البيئة.

وتيسر لي تصور الحياة النبوية كما كانت، فقد أدركت بقاياها، ورأيت شواهدها، مما جعل الصورة تكتمل في مخيلتي، وقلما تحدثت عن مشهد إلا بعد أن تمثلته أمامي، وجعلت أتكلم وأنا أصف ما أراه وليس ما قرأته، وعندما كتبت كُتَيباً عن «**صفة حجة النبي** ﷺ» قال لي بعض من قرؤوه: كأنما كنا نشاهد فيلماً أو نرى مشهداً.

وسبب ذلك كثافة الصور المنقولة عن حياة النبي ﷺ، حتى صرنا نعيش تفاصيلها، وكأنا أدركناها وعشناها!

وكتب السيرة المتداولة التي اختصرت «سيرة ابن هشام» أو التي نحت نحوها، كان التركيز فيها على الغزوات والمعجزات، ولا عتب في ذلك، فقد قصدَتْ هذا القصد منذ بداية تأليفها، ولذا كان اسمها في البدايات: «المغازي».

والقارئ لها يجد عرضاً للأحداث الكبرى في حياته ﷺ، ولكن جوانب الاقتداء في حياته لا تكون مستوفاة فيها؛ فإن أحداث الهجرة والمغازي ليست حاضرة في حياة عامة المسلمين، وجوانب الاقتداء بالهدي النبوي أوسع من ذلك وأرحب، وكل مسلم متشوق لمعرفة حال النبي ﷺ في تفاصيل حياته، وسائر شأنه، وهذا ما تصدت له كتب الشمائل، وتفرقت أشتاته في كتب السنة.

وكل هذا حفزني إلى محاولة تقديم تصور أقرب للسيرة النبوية، يتجاوز سيرة الغزوات إلى أحداث الحياة، ويجمع شتات المشهد في لوحة قريبة من الاكتمال.

وهو ما سرتُ عليه في رواية أحداث السيرة وكتابتها، فأتتبع روايات الحادثة المتفرقة، وأحاول جمعها كقطع الفسيفساء؛ ليتكامل من مجموعها لوحة مكتملة الصورة، ويحصل للنفس رَواؤها وارتواؤها من مشاهد السيرة، وتتضحُ لها مواقع الاقتداء والأسوة.

وحاولت ذلك في هذا الكتاب، وفي كتاب: «**اليوم النبوي**»، و«**قصص نبوية**»، و«**كأنك معه**»، و«**حديث الغدير**»، و«**القبر المقدس**»، و«**الآثـار النبوية**»، و«**الأماكن النبوية**»، و«**السيرة اليسيرة**».

خصائص السيرة النبوية

كم هي السِّيرُ التي كتبها أصحابها أو كُتبت عنهم؟ لكن ثمة خصائص تميز سيرة النبي ﷺ عن كل السِّير التي كتبت والتي ستكتب، وهي خصائص لا يشاركه فيها غيره، ومن تلك الخصائص:

أولاً: الوضوح.

ثانيـًا: الشمول.

ثالثـًا: التكامل.

رابعـًا: اليُسر.

خامسـًا: العظمة.

وهذه نبذة توضيحية عن كل منها:

أولاً: الوضوح:

فسيرة النبي ﷺ واضحة مشرقة، ليس فيها حلقات مفقودة، ولا زوايا معتمة، ولا مناطق غموض، وإنما تقدم لنا سيرة النبي ﷺ الذي عاش قبل ألف وأربعمئة سنة وكأنه يعيش معنا اليوم، فقد عرفنا كل تفاصيل حياته، يقول أحد المستشرقين وهو يصف حياة النبي ﷺ : ذاك نبي يمشي تحت الشمس؛ لشدة وضوح حياته ونصاعتها.

والذي يقرأ سيرة النبي ﷺ يشعر وكأنه ﷺ كان يعيش في بيت من زجاج؛ فحياته شفافة ليس فيها حياة عامة وحياة خاصة؛ لأجل هذا أقول بكل ثقة: إنني أعرف عن نبيي ﷺ أكثر مما أعرف عن أبي الذي ولدني، فالنبي ﷺ نعرف مدخله ومخرجه، وحياته في بيته، ومجلسه على طعامه، وأنسه مع أهله، ويقظته ونومه، وصوت نَفَسِه إذا نام، كلّ ذلك واضح كأنما نسمعه بآذاننا، ونراه بأعيننا، في حين أنه ما من أحد إلا وعنده صندوق خصوصياته، وله أسراره التي لا يدري عنها أحد غيره، إلا النبي ﷺ فليس في حياته غموض ولا أسرار، حتى مع زوجاته، فكل إنسان له مع زوجته خصوصيات لا يريد أن تخبر بها أحداً، ولكن النبي ﷺ لم يكن يأخذ على زوجاته ألا يخبرن بشؤونه، ولم يكنّ يخفين شيئـًا من أمره!

وما من عظيم إلا كانت له نواح يحرص على سترها وكتمان أمرها، ويخشى أن يطلع الناس على خبرها. نواح تتصل بشهوته، أو ترتبط بأسرته، أو تدل على ضعفه وشذوذه، ومحمد ﷺ هو وحده الذي كشف حياته للناس جميعـًا، فكانت كتابـًا مفتوحـًا، ليس فيه صفحة مطبقة، ولا سطر مطموس، يقرأ فيه من شاء ما شاء.

وهو وحده الذي أذن لأصحابه أن يذيعوا عنه كل ما يكون منه، ويبلغوه، فرووا كل ما رأوا من أحواله في ساعات الصفاء، وفي ساعات الضعف البشري، وهي ساعات الغضب، والرغبة، والانفعال.

وروت نساؤه كل ما كان بينه وبينهن.

فأروني عظيمـًا آخر، جرأ أن يغامر فيقول للناس: هاكم سيرتي كلها، وأفعالي جميعـًا، فاطلعوا عليها، وارووها للصديق والعدو، وليجد من شاء منهم مطعنـًا عليها.

أروني عظيمـًا آخر دونت سيرته بهذا التفصيل، وعرفت وقائعها وخفاياها، بعد ألف وثلاثمئة سنة، مثل معرفتنا بسيرة نبينا ﷺ؟[1].

(١) باختصار من: «تعريف عام بدين الإسلام» لعلي الطنطاوي (ص ١٦٩-١٧٠).

ولهذا كان التابعون يأتون بكل ثقة ويقولون لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أخبرينا عما كان يصنعه النبي ﷺ في بيته[1]، فلم تقل لهم في يوم من الأيام: هذا شأن خاصٌّ بيننا، بل كانت تجيبهم بكل وضوح، وهذا مما لا يمكن أن تجده في سيرةٍ غير سيرة النبي ﷺ[2].

إن هذا الوضوح في حياة النبي ﷺ جعل أجيال المسلمين تعيش مع سيرته، وتعرف شمائله وكأنها رأي عين.

ثانياً: الشمول:

لم تكن حياة نبينا ﷺ راكدةً رتيبة، ولكنها حياة واسعة متجددة، حافلة بتنوع الأحوال وشكول أمور الحياة.

إنك ربما التقيت بشخص عمره أكثر من مئة سنة؛ لكن عندما تتحدث معه تجد أن حياته سنةٌ واحدة مكررة مئة مرة، أما حياة نبينا ﷺ فمع أنها قصيرة نسبيًّا، إلا أنها حياة عريضة ثريةٌ، حافلةٌ بتجدد الأحوال، وتنوع الظروف، وله ﷺ حال مع كل حال.

نجد النبي ﷺ وقد مر به في حياته القلة والكثرة، فهو الذي سأله عمرو بن عَبَسَة بمكة فقال: كم معك على هذا الأمر؟ فقال: «**حُرٌّ وَعَبْدٌ**»[3]، ثم نجده ﷺ يدخل مكة وحوله عشرة آلاف سيف، ويحج حجة الوداع ومعه أكثر من مئة ألف.

مرّ بالنبي ﷺ الفقر وقلة ذات اليد، حتى إنه لتمر عليه ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقد في بيته نار[4]، وربما ربط على بطنه الحجر من جهد الجوع[5]، ثم مرّ عليه ﷺ الغنى والثراء، فجُلب إليه المال ونثر أمامه في المسجد، فقسمه على الناس حثواً في الثياب[6].

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٧٦).

(٢) ينظر تفصيل هذا المعنى في: «محاضرات في السيرة النبوية» للشيخ سليمان الندوي.

(٣) «صحيح مسلم» (٨٣٢).

(٤) «صحيح البخاري» (٢٥٦٧)، و«صحيح مسلم» (٢٩٧٢).

(٥) «صحيح البخاري» (٤١٠١)، و«صحيح مسلم» (٢٠٤٠).

(٦) «صحيح البخاري» (٢٢٩٦)، و«صحيح مسلم» (٢٣١٤).

مرّ على النبي ﷺ الصحة والمرض، فقد عاش حياته ﷺ صحيحًا معافى، ثم مرض ﷺ حتى قال: «**إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ**»(١).

مرّ على النبي ﷺ الفرح، حتى كان وجهه يتهلل كأنه إناء فضة مُذهَّب(٢)، ويستنير كأنه فلقة قمر(٣)، ويمر بنبينا ﷺ الكرب حتى يتمعر وجهه من الكرب(٤).

ذاق ﷺ بهجة الأبوة، ففرح بأبنائه وبناته، وبشر أصحابه صبيحة يوم من الأيام فقال: «**وُلِدَ لِي اللَّيْلَةَ غُلَامٌ فَسَمَّيْتُهُ بِاسْمِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ**»(٥).

كما تجرَّع ﷺ ألم الفجيعة، وذاق لوعة الثُّكْل، فجلس ﷺ على شفير قبر ابنته زينب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وعيناه تهمِلان؛ يسِحّ الدمع على وجهه الشريف(٦)، ودخل على ابنه إبراهيم وهو يجود بآخر أنفاس حياته فقال: «**يَا إِبْرَاهِيمُ! إِنَّا لَا نَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَحْزَنُ القَلْبُ، وَتَدْمَعُ العَيْنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يُرْضِي رَبَّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ**»(٧).

ذاق ﷺ نشوة النصر فما طاش، ولا استخف، وإنما خشع وتواضع لله، ودخل مكة فاتحًا حوله عشرة آلاف سيف، مطأطئ الرأس لربه، خاشعًا يقرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١](٨).

---

(١) «صحيح البخاري» (٥٦٤٨)، و«صحيح مسلم» (٢٥٧١).
(٢) «صحيح مسلم» (١٠١٧).
(٣) «صحيح البخاري» (٣٥٥٦)، و«صحيح مسلم» (٢٧٦٩).
(٤) «صحيح البخاري» (٣٦٦١).
(٥) «صحيح مسلم» (٢٣١٥).
(٦) «صحيح البخاري» (١٣٤٢).
(٧) «صحيح البخاري» (١٣٠٣)، و«صحيح مسلم» (٢٣١٥).
(٨) «صحيح البخاري» (٧٥٤٠)، و«صحيح مسلم» (٧٩٤).

وانهزم أصحابه في أُحُد وشُجّ جبينه، وكسرت رَباعيته[1]، وسال الدم على وجهه[2]، وصرع أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من حوله، فما انكسر ولا تضعضع، وإنما كانت عيناه تبرُقان من تحت المغفر[3]، وكان هو الثابت الذي لا يفرّ، والصلب الذي لا ينكسر.

ومرت بالنبي ﷺ أحوال متنوعة في علاقاته، فتجد علاقاته مع المسلمين، ومع المشركين، ومع اليهود، ومع الأصحاب، ومع الأعداء، ومع الحاضرة، ومع الأعراب، ومع الصغار، ومع الكبار، وله في كل نوع من أنواع هذه العلاقات هَدْي وهُدَى.

ولتفاعله مع الحياة نجد سعة أحواله فيها، فله حال في بيته مع أهله، وحال في مجلسه مع أصحابه، وحال في المسجد، وفي الطريق، وفي السوق... ونرى شمولا وتنوعاً مع أدواره في الحياة، وكلُّ حالٍ له فيها حال، فثم حاله داعياً ومعلماً، وزوجاً وأباً وصديقاً، وحاله ذاكراً وتالياً ومصلياً، وحاله مسافراً ومقيماً، ومجاهداً ومعاهداً... إلى أحوال في الحياة كثيرة ومتنوعة..

ولتنوع هذه الأحوال في حياته ﷺ، فإنه قلما يمر حال في حياة المسلم إلا وجد هدىً في حياة النبي ﷺ وحالاً قريباً أو مشابهاً لحاله، فسيجد المفجوع في مصاب النبي ﷺ سلوة وعزاء، وسيجد الفقير في قلة ذات اليد التي مرت بالنبي ﷺ ما يؤاسيه ويواسيه، وسيجد الزوج، والأب، والصديق، والصحيح والمريض... في أحوال النبي ﷺ ما يلاقي أحوالهم وينير حياتهم.

حتى الخاطئون سيجدون في تعامل النبي ﷺ مع أخطاء الخاطئين هدياً وهدى لهم، فكل حال للنبي ﷺ فيها حال منيرة مشعة.

---

(١) الرَبَاعِيَة: هِيَ السِّنُّ الَّتِي تَلِي الثَّنِيَّةَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَلِلإِنْسَانِ أَرْبَعُ رَبَاعِيَاتٍ. ينظر: «شرح النووي على مسلم» (١٢/ ٤٨١).

(٢) «صحيح البخاري» (٥٧٢٢)، و«صحيح مسلم» (١٧٩٠).

(٣) «المعجم الأوسط» للطبراني (١١٠٤).

ثالثاً: التكامل:

قلَّما تقرأ سيرة عظيم من العظماء، إلا وتجد أن جانب العظمة في حياته قد ارتكز في ناحية واحدة، إما العظمة القيادية أو العسكرية أو العلمية أو التجارية ونحو ذلك، وغالبًا ما تجد أن جانب العظمة عند هؤلاء العظماء قد جار على جوانب حياتهم الأخرى، فقد تجده قائداً عظيمًا لكنه قاصر في حياته الاجتماعية، وتجد تاجراً ثريًّا لكنه فاشل في علاقاته، وعالمًا كبيراً متخصصًا في فنه لكنه جاهل ببقية شؤون الحياة، وهكذا..

أما النبي ﷺ فلا تأتي إلى جانب من جوانب حياته، إلا ظننت أنه قد تفرَّغ لهذا الجانب فقط، فحين تأخذ حياة النبي ﷺ داعية، ستجد أنه ﷺ عاش حياته مستنفراً للدعوة، فقد كان يدعو وهو على الطعام، وفي الطريق، وعلى المنبر، وبين أصحابه، وفي حلِّه وفي سفره.. وتجد الدعوة مبثوثة في حياته كلها، حتى تكاد تقول: إن كل حياته دعوة!

وإذا تأملت حياته زوجًا، ستظن أنه ﷺ يقضي يومه كله متنقلاً بين تسعة بيوت وتسع زوجات!

وإذا تأملت في حياته أبًا، ستجد حياة الأبوَّة مشبعة عنده، حتى كأن بناته وأحفاده همه كله..

وإن نظرت إلى حياته مع أصحابه، عجبت لقوة حضوره في حياتهم، واستيعابه لهم جميعًا على تنوعهم!

وهكذا.. كلما أتيت إلى جانب من جوانب حياته، وجدت فيه إشباعًا كاملاً؛ إذ لم يكن جانب العظمة قاصراً على ناحية من نواحي حياته، جائراً على بقية الجوانب الأخرى، وإنما كانت حياته متكاملة في كل نواحيها، بحيث إننا نستطيع أن نأخذ من كل هذا التكامل صورة واضحة للتوازن في الحياة، واستيفاء حقوقها جميعًا، فهو الذي قال: «**إِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًا، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًا، وَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًا، وَإِنَّ لِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًا**»[1]، وكانَ هذا التوازن العجيب إحدى دلائل نبوته واستقامة حياته.

(١) «صحيح البخاري» (١٩٧٥)، و«صحيح مسلم» (١١٥٩).

رابعاً: اليُسر:

من معالم سيرة النبي ﷺ يسرها وواقعيتها، وسهولة التأسِّي بها.

وكما يسَّر الله القرآن للذكر فقال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧]، فقد يسَّر سيرة النبي ﷺ وهديه للاقتداء فقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

ومن حُسنها يُسرُها، فإن الله لا يمكن أن يجعل الأسوة للأمة سيرةً فيها عنت ومشقة وعسر.

ولذا فإن الذي يقرأ سيرة المصطفى ﷺ يشعر بقربها وسهولة الاقتداء بها، بل ربما ذهب ظنه إلى أنه يستطيع أكثر منها، كما ظن ذلك بعض شباب الصحابة، فقد جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا بِها كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ؟ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَداً، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَداً، فَجَاءَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: «**أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَالله إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لله وَأَتْقَاكُمْ لَهُ؛ لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**»[(١)].

إنهم إنما تقالّوها لأنهم سألوا عن عبادات معينة، وهي القيام والصيام، بينما كانت حياة النبي ﷺ كلُّها عبادة مستديمة، كما قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حين سألها عَلْقَمَةَ قال: هَلْ كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَخْتَصُّ مِنَ الأَيَّامِ شَيْئًا؟ قَالَتْ: لَا؛ كَانَ عَمَلُهُ دِيمَةً. وَأَيُّكُمْ يُطِيقُ مَا كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُطِيقُ؟![(٢)].

ولكنه العمل اللائق لطبيعة النفس البشرية ورغائبها وطاقتها!

---

(١) «صحيح البخاري» (٥٠٦٣)، و«صحيح مسلم» (١٤٠١).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٤٦٦)، و«صحيح مسلم» (٧٨٣).

وربما قرأتَ سير عظماء كُثر، وأعجبتَ بهم غاية الإعجاب، ولكن ليس كل من تُعجب به يسهل عليك اقتفاؤه والاقتداء به، بل ربما شعرت لأول وهلة باحترام لهذه الشخصية؛ ولكنك ترى أن نمط حياته يناسبه ولا يناسب غيره.

أما الحياة النبوية فهي ذلك النمط الذي يستوعب أنماط حياة الناس جميعًا، وكل من عرف سيرته أعجب بها وأحبها، ووجد فيها مجالاً رحبًا للتأسِّي والاقتداء.

وعندما كتبت كتيبًا عن «**اليوم النبوي**»، أهديته إلى أحد أصدقائي، فلما لقيته بعد ذلك قال لي: هل تعلم أني عندما تهيأت لقراءة الكتاب تحفزت وشددت الأحزمة، وأنا أنتظر المفاجآت في برنامج النبي اليومي، فلما انتهيت فوجئت أن لا مفاجأة! وأنه نمط سهل قريب، ولم أشعر أني ارتطمت بشيء غير متوقع؛ ليس في القدرة ولا المستطاع، أهكذا كان يعيش رسول الله ﷺ؟

فقلت له: وهل تظن أن يجعل الله لنا نموذج الأسوة والاقتداء غير هذا النموذج الميسَّر؟ أليس هو النبي الذي جاء باليسر وبشَّر به بقوله: «**إِنَّ هَذَا الدِّينَ يُسْرٌ**»[1]؟!

ومَا خُيِّرَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا[2] ﷺ[3].

خامساً: العظمة[4]:

وعظمته هي كمال العظمة الإنسانية، حيث اختاره الله من بين خلقه كلهم لحمل هذه الرسالة الكونية العالمية، ولتتمثل رسالته في شخصه حيَّة تتحرك في إهاب إنسان، و﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

والعظمة إما أن تكون بالطباع والأخلاق والمزايا والصفات الشخصية، وإما أن تكون بالأعمال الجليلة التي عملها العظيم.

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٩).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٥٦٠)، و«صحيح مسلم» (٢٣٢٧).

(٣) ينظر في هذه الخصائص مقال: «ﷺ» للشيخ سلمان العودة.

(٤) ينظر: «عظمة محمد خاتم النبيين» للشيخ مصطفى الزرقا.

وإما أن تكون بالآثار التي أبقاها في تاريخ أمته وفي تاريخ العالم.

ولكل عظيم جانب من هذه المقاييس تقاس بها عظمته، أما عظمة محمد ﷺ فتقاس بها جميعًا لأنه جمع أسباب العظمة من أطرافها، فكان عظيم المزايا، عظيم الأعمال، عظيم الآثار.

والعظماء إما أن يكونوا عظماء في أقوامهم فقط، نفعوها بقدر ما ضروا غيرها، كعظمة الأبطال المحاربين، والقواد الفاتحين.

وإما أن تكون عظمة عالمية، ولكن في جانب محدود، في كشف قانون من قوانين الطبيعة، أو معرفة دواء من أدوية الأمراض، أو وضع نظرية من نظريات الفلسفة، أو صوغ آية من آيات البيان؛ قصةٍ عبقريةٍ، أو ديوان شعر بليغ.

أما محمد ﷺ فكانت عظمته عالمية، في مداها، وكانت شاملة في موضوعاتها[1].

ومن جوانب عظمته:

١ - **عظمة مكانته**: فله ﷺ الدرجة العالية الرفيعة، والمقام المحمود، واللواء المعقود، تحته آدم فمن دونه، وهو سيد ولد آدم وخليل الرحمن، «**إِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللهِ**»[2]. وهل أعظم من أن يزكيه ربه الذي خلقه، فأقسم به، وأقسم له، أقسم بعمره فقال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢]، وأقسم له فقال: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ١، ٢]، وليس أعظم من أن يصلي الله وملائكته عليه في الملأ الأعلى قبل أن يؤمر المؤمنون بالصلاة عليه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، وأن يتولى الله الذب عنه: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١]، وأن يتوعد بالعذاب الأليم من تعرض له بأذى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٦١].

---

(١) باختصار من: «تعريف عام بدين الإسلام» (ص ١٧٠).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٣٨٣).

٢- **عظمة مسؤوليته**: فكان الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ قبله يبعثون إلى قومهم، وإلى زمانهم، وأما هو ﷺ فبعث إلى الإنس والجن عامة، وبعث برسالةٍ باقية إلى قيام الساعة، فهو خاتم النبيين لا نبي بعده، ولذا فهو أكثر الأنبياء تابعاً يوم القيامة.

٣- **عظمة شخصيته**: حيث اجتمعت فيه الكمالات في خَلقهِ وخُلقه، وائتلفت فيه خصال الخير ومحاسن الأخلاق، مع استواء فطرته، وزكاء فؤاده، وقوة شخصيته، وكان عظيماً في بساطته، بسيطاً في عظمته، قريباً في سموه، يسيراً مُيَسراً، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: مَا خُيِّرَ رَسُولُ الله ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْماً، فَإِنْ كَانَ إِثْماً كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ، وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ الله ﷺ لِنَفْسِهِ، إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ الله، فَيَنْتَقِمَ لله بِهَا[١]. وقال عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا كُنْتُ أُطِيقُ أَنْ أَمْلأَ عَيْنَيَّ مِنْهُ إِجْلَالاً لَهُ[٢].

٤- **عظمة خُلُقه**: وهل أعظم من أن يزكي خُلَقه ربُّه الذي خَلَقه، فقال جل وعز: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وقوله: ﴿لَعَلَىٰ خُلُقٍ﴾ للاستعلاء المراد به التمكن، كقوله: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩]، والخُلُق العظيم هو الخُلُق الأكرم البالغ أشد الكمال المحمود، وهو أبلغ من مطلق الخلق الحسن.

ويعجز كل قلم وكل تصور عن وصف قيمة هذه الكلمة العظيمة من ربّ الوجود، وهي شهادة من الله لرسوله ﷺ يقول فيها: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]ومدلول العظمة عند الله مما لا يُدرِك مداه أحد من العالمين[٣].

وهذه العظمة الأخلاقية هي الفطرة التي جبله الله عليها، وهيأه بها: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فهو ﷺ عظيم بخُلُقه عظمةً فطريةً لا يتكلفها ولا يتصنعها.

٥- **عظمة إنجازه**: وذلك بنقله الأمة من أرجاس الوثنية إلى نقاء التوحيد، ونقلهم من الدهرية ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ﴾ [الجاثية: ٢٤]،

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٥٦٠)، و«صحيح مسلم» (٢٣٢٧).

(٢) «صحيح مسلم» (١٢١).

(٣) ينظر: «التحرير والتنوير»، و«في ظلال القرآن».

إلى الإيمان بالبعث، والحساب والجزاء، والدار الآخرة الخالدة، ونقلهم من الفوضى الأخلاقية إلى الاستقامة السلوكية، ونقلهم من نَعَرات العنصرية وعصبية الجاهلية وفخرها بالأنساب، إلى: «**النَّاسُ لآدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ، لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ إِلَّا بِالتَّقْوَى**»[(١)]. ونقلهم من ظلمات الجهالة إلى آفاق العلم وأنواره، فنقل الأمة الأمية إلى أمة: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ [العلق: ١]، ﴿وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ [القلم: ١]، ونقلهم من عماية الخرافة إلى نور الحقيقة: «**إِنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ**»[(٢)].

أَتَيتَ وَالناسُ فَوضى لا تَمُرُّ بِهِمْ ... إِلا عَلى صَنَمٍ قَد هامَ في صَنَمِ

وَالأَرضُ مَملوءَةٌ جَوراً مُسَخَّرَةٌ ... لِكُلِّ طاغِيَةٍ في الخَلقِ مُحْتَكَمِ[(٣)]

وتم كل ذلك في وقت قياسي، فخلال عشر سنين أسلمت الجزيرة العربية لربها، واتبعت رسولها، وما لَحِقَ ﷺ بالرفيق الأعلى حتى أدى الرسالة، ووفَّى البلاغ، واكتمل الدين، وتمت النعمة، وقامت الحجة، وترك الأمة على المحجة البيضاء.

٦- **عظمته في خلود رسالته**: فمنذ صدع بدعوته في مكة وإلى يومنا هذا وأتباع دينه يزيدون ولا ينقصون، ورسالته تتوسع وتتعمق، وموعود الله الصادق يتحقق: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣]، وتغير مسار التاريخ وأحداثه، وثقافة البشرية وفكرها بعد رسول الله ﷺ، ولم يقع حدث على الأرض أعظم تأثيراً وأبعد مدى في التاريخ من دعوة رسول الله ﷺ، إن التاريخ كله بعد محمد ﷺ متصل به، مرهون بعمله، وإن حادثاً واحداً لم يكن ليقع في الدنيا كما وقع لولا ظهور محمد ﷺ[(٤)].

وسيبقى دينه الدين الخالد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولا تزال طائفة من أمته قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، حتى يأتيهم أمر الله[(٥)].

---

(١) «مسند أحمد» (٢٣٤٨٩).

(٢) «صحيح البخاري» (١٠٤٠)، و«صحيح مسلم» (٩٠٤).

(٣) «نهج البردة» لأحمد شوقي.

(٤) ينظر: «موسوعة العقاد» (٢/ ١٦٠).

(٥) «صحيح البخاري» (٣٦٤١)، و«صحيح مسلم» (١٠٣٧).

ثمرات قراءة السيرة

إننا نقرأ السيرة لنقطف تلك الثمرات الوفيرة اليانعة؛ لأجل هذا سأختصر أهم ثمار قراءتها في أربع ثمرات يانعات:

أولاً: الثمرة الإيمانية.

ثانيـًا: الثمرة الوجدانية.

ثالثـًا: الثمرة العلمية.

رابعـًا: الثمرة التربوية.

وبيان ذلك كما يأتي:

أولاً: الثمرة الإيمانية:

إن الذي يقرأ سيرة النبي ﷺ، سيلاحظ أن الله عَزَّوَجَلَّ كان يُهيِّئ الأحداث لرسالة هذا الرسول العظيم ﷺ في عالم الغيب البعيد، فقد كان مجيء إبراهيم مع إسماعيل وأمه عَلَيْهِمُ السَّلَامُ إلى مكة، ليدَعَهُما في وادٍ غير ذي زرع، فتدب فيه الحياة، ويتكون مجتمع، وتعمر بلدة؛ تهيئة لبعثة محمد ﷺ فيها، ثم كان سفر هاشم إلى غزة، ومروره بالمدينة وزواجه بها، وولادة ابنه عبد المطلب بها، ثم وفاة عبد الله فيها؛ ففي المدينة وُلد جده وتوفي أبوه، وكأنما كل ذلك تهيئة لهجرة النبي ﷺ بعدُ إليها.

وكان عام الفيل في سنة مولده ﷺ، ليلفت أنظار العالم بهذا الحدث الخارق إلى البلدة التي سيبعث منها، وكل ذلك توطئة لحدث الرسالة.

إن هذه الأحداث من أحداث الغيب لا يمكن أن تقع اتفاقاً ومصادفة؛ ولكنه تقدير اللطيف الخبير.. أن تتتابع وتأتلف؛ تهيئةً لبعثة هذا النبي ﷺ، وهو ما يُحدث عند الناظر إيماناً بأن الله عَزَّوَجَلَّ كان يقدر أحداث التاريخ السحيق، حتى ائتلفت هذه الأحداث على تباعدها وتفرقها؛ ليلتقي تقدير الله في الزمان والمكان، ولتقع البعثة النبوية في أليق زمان بها وأليق مكان لها، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨].

إنها حكمة الله في تدبيره، ولطفه في تقديره، ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

كما أن الناظر إلى حياته ﷺ يجد فيها دلائل نبوته؛ إذ لا يمكن أن تجتمع هذه الكمالات في شخصٍ ما لم يكن يُمَدّ بمددٍ إلهي، لذلك كان النظر في سيرة النبي ﷺ عاملاً قويّاً في زيادة الإيمان بالله، والتصديق بالرسالة، ولما سأل هرقل أبا سفيان عن النبي ﷺ سأله أحد عشر سؤالاً ليس فيها سؤال عن معجزة، وإنما كانت أسئلته عن سيرة النبي ﷺ، فقال: هل كان من آبائه مَلِكٌ؟ هل قال هذا القول أحد قبله؟ هل يكذب؟ هل يغدر؟... إلخ، ثم قال: إن كان ما تقول حقّاً فسيملك موضع قدمي هاتين، ولو استطعت أن أخلص إليه لغسلت عن قدميه[1].

فهذا الحوار الذي دار بين هرقل وأبي سفيان، يؤكد أن هرقل إنما عرف نبوة النبي ﷺ من خلال سيرته، فسيرة النبي ﷺ تُثمر إيماناً بالله، وإيماناً بنبوة رسوله ﷺ؛ لأن تفاصيل حياته لا يمكن أن تأتلف إلا في شخصية نبي يوحى إليه من السماء.

ولما جاء ﷺ إلى المدينة انْجَفَلَ النَّاسُ إليه، قال عبد الله بن سلَام: فَكُنْتُ فِيمَنِ انْجَفَلَ، فَلَمَّا تَبَيَّنْتُ وَجْهَهُ واستبنته، عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ[2].

فإذا كانت رؤية ملامح وجهه تدل على صدقه، فإن معرفة سيرته تدل على ذلك أيضاً؛ فإن سيرته لا يمكن إلا أن تكون سيرة نبي!

(١) «صحيح البخاري» (٧)، و«صحيح مسلم» (١٧٧٣).

(٢) «سنن ابن ماجه» (١٣٣٤).

وأنا أعجب لماذا حاول المتأخرون من مؤلفي السيرة الاستكثار من المعجزات، والتوسع فيها، وإضافة معجزات لم تكن، وما حاجتهم إليها؟ وكل موقف من سيرة الرسول ﷺ، وكل جانب من شخصيته، هو معجزة من أكبر المعجزات.

وما المعجزة؟ أليست الأمر الذي يعجز الناس عن مثله؟!

إن صدقه وأمانته معجزة، ولن أسرد أمثلة كثيرة، فالمجال ضيق. ولكن أعرض مثالاً واحداً، حادثةً مررت بها في مطالعاتي مئات المرات فكنت أقرؤها على أنها خبر عادي، ثم تنبهت إليها يوماً، فجأة.. فاذا هي أعجوبة، وكم في السيرة من أمثال هذه الأخبار. كلكم تعرفون أنه لما هاجر الرسول إلى المدينة، ترك علياً مكانه ليرد الودائع التي كانت عنده لقريش، فهل فكرتم يوماً ما قصة هذه الودائع؟

يردها لقريش لا للمسلمين، إذ لم يبق أحد من المسلمين في مكة لما هاجر الرسول، لأنه كان آخر من هاجر، بقي كما بقي الربان في السفينة الجانحة، لا يتركها حتى ينزل الركاب جميعاً، ويصلوا إلى قوارب النجاة، وهذه مَنْقبة ذكرتها عرضاً.

لقد كانت سيرة حياته كلها معجزة، عجز عظماء العالم جميعاً عن أن يتركوا لهم سيرة مثلها، في كل ناحية منها عزة وعظمة، في ثباته في المعامع الحُمْر حتى كان أبطال الصحابة يحتمون به، وفي شجاعته التي تضعضع أمامها صناديدُ الرجال، وفي تواضعه للمسكين والفقير، ووقوفه للأرملة وللعجوز، في إقراره بالحق، في صدق التبليغ عن الله، حتى إنه بلغ الآيات التي نزلت في تخطئته وفي عتابه، في احترامه العهود وحفاظه على كلمته، مهما كلفه الحفاظ عليها من مشقة ونصب، سواء عنده في ذلك معاملاته الشخصية وشؤون الدولة.

وفي ذوقه وحسه المرهف، وأنه هو الذي سن آداب الطعام وقرر قواعد النظافة، في وضعه مع أصحابه إذ يعلمهم ويعمل معهم، ويعيش مثلما يعيشون، حتى كان القادم عليه ليراه، ينظر في وجوه القوم فيقول: أيكم محمد؟[1]، ولم يكن يمتاز عليهم في جلوسه، ولا في ثيابه، كان مثلهم في كل شيء[2].

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٣).

(٢) باختصار من: «تعريف عام بدين الإسلام» (ص ١٧٨-١٨٠).

ثانياً: الثمرة الوجدانية:

لا يزال المسلم يتعرَّف على النبي ﷺ من خلال سيرته حتى يحبه، وذلك أن من صفات النبي ﷺ أن من رآه بداهة هابه، ومن عرفه أحبّه، فكلما ازدادت معرفتك به ازداد حبُّك له، وازدياد حبك للنبي ﷺ يؤهلك لتكون معه في الجنة، فعَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ السَّاعَةِ، فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: «**وَمَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟**». قَالَ: لَا شَيْءَ، إِلَّا أَنِّي أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ ﷺ، فَقَالَ: «**أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**». قَالَ أَنَسٌ: فَمَا فَرِحْنَا بِشَيْءٍ فَرَحَنَا بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**»؛ قَالَ أَنَسٌ: فَأَنَا أُحِبُّ النَّبِيَّ ﷺ، وَأَبَا بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ بِحُبِّي إِيَّاهُمْ، وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ بِمِثْلِ أَعْمَالِهِمْ[1]!

ولذا عاش الصحابة رضي الله عنهم نعيم هذا الحب النبوي، فكان ﷺ أحب إليهم من أنفسهم وأبنائهم وآبائهم، قال عمرو بن العاص رضي الله عنه وهو يحكي قصة إسلامه: وَمَا كَانَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ، وَلَا أَجَلَّ فِي عَيْنِي مِنْهُ، وَمَا كُنْتُ أُطِيقُ أَنْ أَمْلَأَ عَيْنَيَّ مِنْهُ إِجْلَالاً لَهُ، وَلَوْ سُئِلْتُ أَنْ أَصِفَهُ مَا أَطَقْتُ؛ لِأَنِّي لَمْ أَكُنْ أَمْلَأُ عَيْنَيَّ مِنْهُ[2].

وقال ثمامة بن أثال لرسول الله ﷺ بعد أن أسلم: يَا مُحَمَّدُ! وَالله مَا كَانَ عَلَى الأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ، فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الوُجُوهِ إِلَيَّ، وَالله مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ، فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيَّ، وَالله مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ، فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ البِلَادِ إِلَيَّ[3]!

ولما قُدِّم زيد بن الدَّثِنة رضي الله عنه للقتل، قَالَ لَهُ أَبُو سُفْيَانَ: أَنْشُدُكَ اللهَ يَا زَيْدُ، أَتُحِبُّ أَنَّ مُحَمَّداً عِنْدَنَا الآنَ فِي مَكَانِكَ نَضْرِبُ عُنُقَهُ، وَأَنَّكَ فِي أَهْلِكَ؟ قَالَ: وَالله مَا أُحِبُّ أَنَّ مُحَمَّداً الآنَ فِي مَكَانِهِ الَّذِي هُوَ فِيهِ تُصِيبُهُ شَوْكَة تؤذيه، وأنّي جَالِسٌ فِي أَهْلِي! قَالَ أبو سُفْيَانَ: مَا رَأَيْتُ مِنْ النَّاسِ أَحَداً يُحِبُّ أَحَداً، كَحُبِّ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ مُحَمَّداً[4].

وهذه المحبة ثمرة الإيمان والصحبة، وكمال المعرفة به ﷺ.

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٦٨٨)، و«صحيح مسلم» (٢٦٣٩).
(٢) «صحيح مسلم» (١٢١).
(٣) «صحيح البخاري» (٤٣٧٢)، و«صحيح مسلم» (١٧٦٤).
(٤) «سيرة ابن هشام» (٢/ ١٧٢).

وهكذا كل من قرأ السيرة ازداد معرفة بالنبي ﷺ وازداد له حبًّا، وأثمرت تلك القراءة في قلبه ثمرة عظيمة، يرفعه الله بها في الجنة إلى منازل من أحب.

ثالثاً: الثمرة العلمية:

وذلك باستخراج الأحكام الفقهية التي تضمنتها السيرة النبوية ودلت عليها أحداثها، فإن ثمة أحكاماً كثيرة، يمكن لمن يمتلك الملكة الفقهية والقدرة على الاستنباط، أن يستخرجها من السيرة النبوية، كما هو الشأن مع السنة النبوية.

وهذا يؤكد بكل وضوح، أن السيرة لا تُقرأ للمتعة، وإنما تُقرأ للعلم؛ إذ أنها ليست قصة ماضية، ولكنها سنة باقية، وحين نقرأ السيرة وننظر إليها من هذه الزاوية، سنأخذ منها الفوائد والدروس والعبر والأحكام؛ كما فعل الإمام ابن القيم في كتابه «**زاد المعاد**»، الذي عرض فيه أحداث السيرة مع استخلاص الأحكام منها.

كما أن هناك من جرَّد الفوائد التربوية من السيرة، كما فعل الأستاذ مصطفى السباعي في كتابه «**السيرة النبوية دروس وعبر**»، والشيخ البوطي في كتابه «**فقه السيرة**»، ود. زيد بن عبد الكريم الزيد في كتابه «**فقه السيرة**»، وغير ذلك من الكتب التي عنيت باستخلاص الفوائد من السيرة النبوية.

وحين نقرأ السيرة ونستنبط منها الأحكام في حياتنا، سنجد في هدي النبي ﷺ زوجاً أحكام الزواج، وفي هديه في السفر أحكام السفر، وفي هديه في الجهاد أحكام القتال، وفي علاقاته مع المسالمين من غير المسلمين، هديه في التعامل مع الآخر، وهكذا في بقية أحواله وأمور حياته..

ومما يميز التفقه من السيرة، أَخذُ الأحكام من التطبيقات النبوية ووقائعها المتنوعة، فتكتمل النظرة إلى المسألة، ويسهل تحريرها.

فإذا نظرت إلى التعامل مع المخالف، أو التعامل مع المرأة، أو أحكام الجهاد، ونحو ذلك؛ فإن في جمع الحالات والتأليف بينها هداية إلى الحكم في كل حالة، والوقوف على الوصف المؤثر في حكم المسألة.

رابعاً: الثمرة التربوية:

وهي السلوك الذي نقتبسه من سيرة النبي ﷺ لتمثل الأخلاق الحسنة، وطريقة تطبيقها والعيش مع الناس بها، وذلك أنك ترى في السيرة كيف يعيش النبي ﷺ بحُسن الخُلق مع الناس، وكيف يضع الأخلاق في مواضعها، فيضع الحزم في موضعه، واللِّين في موضعه، وكيف يسع الناس بحسن خُلقه، وكيف يسيطر على انفعالاته، ويتحكم في ردات فعله، ويملك نفسه عند الغضب.

فمن ذلك قصة الأعرابي الذي لحق النبي ﷺ وجذب رداءه من خلفه، فمن شدة جذْبَتِه انشق الرداء، وأثَّر في صفحة عنق النبي ﷺ، وارتد النبي ﷺ وكاد أن يقع إلى الخلف، وكانت هذه ثلاث مثيرات جديرة بإثارة الغضب، ثم قال للنبي ﷺ: مُرْ لِي مِنْ مَالِ الله الَّذِي عِنْدَكَ؛ لكن ردة فعل النبي ﷺ الفورية أنه التفت ولم يُعرض، وضحك ولم يتجهَّم، وأمر له بعطاء[1]!

لقد كانت هذه ردة فعل تلقائية من النبي ﷺ، مع أن تصرف هذا الأعرابي كان غاية في الاستثارة؛ لكن ردة فعل النبي ﷺ كانت غاية في الانضباط، وعظمة الخُلُق، ومع أنها ردة فعل تلقائية فورية، إلا أنك لو تأملت الموقف على أناة وتفكر وطول تأمل، فلن تجد تصرفًا أروع وأجمل من هذا التصرف النبوي العفوي.. إنها مدرسة الأخلاق النبوية، التي نتعلم منها التربية على الحلم والانضباط، والتحكم في ردات الفعل عند الاستثارة.

وعندما تنظر إلى مهارته في افتتاح القلوب وتأليفها، وكسب محبة الناس عند التعامل معهم، وإبقاء أثر جميل في نفس كل من يلقاه، تجد أن كل من تعامل معه ﷺ لا يذكره إلا ويتذكره بحب، ويستعيد نشوة اللقاء به.

وهذا كله من هديه الذي نقتفيه، وسنته التي نتبعها ونتعبد الله بها.

---

(١) «صحيح البخاري» (٣١٤٩)، و«صحيح مسلم» (١٠٥٧).

وفرق بين أن نتحدث عن الحلم أو حسن الخلق أو الإحسان كمعان مجردة وأخلاق عامة، وبين أن نتمثلها من خلال التطبيقات النبوية الرائعة لهذه الأخلاق، وطريقة التعايش بها، فتتجلى العظمة الأخلاقية سلوكًا وممارسة، وتماسًا مع حياة الناس وتعاملاتهم، وكيف بقيت ذكراه في نفوس أصحابه أجمل ذكرى، ومرآه أحسن مرأى، وكفه ألين كف، ورائحته أزكى رائحة؛ وذلك أنها محفوفة بحسن الخلق، حتى صاروا لا ينظرون إليه إلا بعين المحبة والرضا!

ويوضح ذلك ويجليه حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: مَا مَسِسْتُ حَرِيراً وَلَا دِيبَاجًا الينَ مِنْ كَفِّ النَّبِيِّ ﷺ، وَلَا شَمِمْتُ رِيحًا قَطُّ أَوْ عَرْفًا قَطُّ، أَطْيَبَ مِنْ رِيحِ النَّبِيِّ ﷺ[1]، ولقد خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فوالله ما قال لي: أفٍّ قطّ، ولا قال لشيء فعلته: لم فعلت كذا؟ ولا لشيء لم أفعله ألا فعلت كذا؟[2].

ولذا فإن في قراءة السيرة، والتروي من مشاهدها، تربيةً للياقة النفسية على حسن الخلق، وتأهيلاً للتعامل الراقي مع الناس، لأنه اتباع مقرون بالمحبة والتعظيم للرسول ﷺ، واحتساب الفضل والأجر في الاقتداء به.

وكم ارتفعت قتامة التجهم عن وجوه الصالحين بتذكرهم بسمات الرسول ﷺ وحسن تلقيه، وذرفت شفاههم بأعذب القول وأجمل الكلام إذا تذكروا طيب حديثه، وعُمِرت قلوبهم بالمودات بينهم؛ لأنها تلقت عن سيد الخَلق ﷺ من حُسن الخُلق ما استنبت الحب في نفوسهم.

وبعد، ففي هذه الصفحات نطوف على أحوال من أحواله، ونلقي نظرات إلى زوايا من حياته، لنأخذ من أحواله لحالنا، ومن حياته لحياتنا، فإلى الحياة النبوية نقتبس نوراً ونستضيء هُدى.

(١) «صحيح البخاري» (٣٥٦١)، و«صحيح مسلم» (٢٣٣٠).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٠٣٨)، و«صحيح مسلم» (٢٣٠٩).

الوجه النبوي

غمرت أنوار وجه رسول الله ﷺ وجوه أصحابه رضي الله عنهم، فوصفوه لنا وصفًا عامًا كما وصفوه وصفًا مفصّلاً، فدعوني وإياكم نعيش مع الوصف العام لمُحيّا وجه رسول الله ﷺ.

والوصف العام: هو ذاك الانطباع المجمل الذي يشعر به من يرى وجه رسول الله ﷺ، من غير أن يُفصّل في وصف ملامحه.

١- فأول ملحظ نجده في وصف الصحابة لرسول الله ﷺ هو الجمال والبهاء، يقول البراء: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهًا، كان حَسَن الوجه مليحًا[١].

ولما سئل جابر بن سمرة رضي الله عنه: أكان وجه رسول الله ﷺ مثل السيف؟ قال: لا، بل مثل الشمس والقمر، وكان مستديراً[٢].

والتشبيه بالشمس لإشراقه ووضاءته، كما قالت الرُّبَيِّع بنت مُعَوِّذ رضي الله عنها وقيل لها: صفي لنا رسول الله ﷺ، قالت: لو رأيته لقلت إن الشمس طالعة[٣]!

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: ما رأيت شيئًا أحسن من رسول الله ﷺ، كأن الشمس تجري في وجهه[٤].

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٥٤٩)، و«صحيح مسلم» (٢٣٣٧).
(٢) «صحيح البخاري» (٣٥٥٢)، و«صحيح مسلم» (٢٣٤٤).
(٣) «مسند الدارمي» (٦١).
(٤) «جامع الترمذي» (٣٦٤٨).

والتشبيه بالقمر لجماله وملاحته، يقول جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: نظرت إلى رسول الله ﷺ في ليلة قمراء وعليه حلة حمراء، فجعلت أنظر إلى البدر وأنظر إلى وجه رسول الله ﷺ، فلرسول الله ﷺ أجمل في عيني من القمر[١].

ووصف الصحابة له ﷺ بالجمال الباهر لا يكون إلا بامتزاج الجمال بالحب والإعجاب، فإذا نظر المحب إلى جمال من يحبه، أشرق في عينه وازدهاه، وتألق نظره إليه.

أما إذا وجدت الوحشة في النفس، فإنها تحجب رؤية الجمال، ولو كان نور الشمس وضياء القمر!

فصلوات الله على من جمع جمال الخَلق والخُلق، والظاهر والباطن، فتجلى جماله لعيون أصحابه الذين نظروا إليه بحب وتعظيم.

وقول جابر بن سَمُرة عن وجهه: كان مستديراً، أي: فيه تدوير مع استطالة، فلم يكن في غاية التدوير، بل كان أسيل[٢] الوجه فيه سهولة، وهي أحلى الملامح عند العرب[٣]، قال يزيد الفارسي: كان رسول الله ﷺ جميل دوائر الوجه[٤].

البَدرُ دونَكَ في حُسنٍ وَفي شَرَفٍ ... وَالبَحرُ دونَكَ في خَيرٍ وَفي كَرَمِ

شُمُّ الجِبالِ إِذا طاوَلتَها انخَفَضَتْ ... وَالأَنجُمُ الزُهرُ ما واسَمتَها تَسِمِ[٥]

٢- وكان ﷺ أزهر اللون أبيض مُشْرَبًا بحمرة، ليس بأبيض أمهق[٦] فاقع البياض، ولا أسمر[٧]، وتزداد نصاعة وجهه إذا حفها سواد شعره، قال أبو الطفيل: رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة، فما أنسى شدة بياض وجهه مع شدة سواد شعره[٨].

---

(١) «جامع الترمذي» (٢٨١١).

(٢) الأسالة في الخد: الاستطالة وأن لا يكون مرتفع الوجنة. ينظر: «النهاية» لابن الأثير (١/ ٤٩).

(٣) «فتح الباري» لابن حجر (٦/ ٥٧٣).

(٤) «مسند أحمد» (٣٤١٠).

(٥) «نهج البردة» لأحمد شوقي.

(٦) الأمهق: هو الكريه البياض كلون الجصّ. ينظر: «النهاية» (٤/ ٣٧٤).

(٧) «صحيح البخاري» (٣٥٤٧)، و«صحيح مسلم» (٢٣٤٧).

(٨) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (١/ ٣٢١).

ولما وصفه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لمن يسأل عنه، قالوا: ذاك الأبيض المتكئ[1]، وقال أبو طالب:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثِمال[2] اليتامى عصمة للأرامل[3]

٣- كان في وجهه نضارة، تجعل من رآه يحسبه أصغر من عمره، حتى إذا رُئي مع من هم دونه في العمر رُئي بينهم شابّاً، ولذلك عندما قدم المدينة وكان معه أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصف الناس لحظة اللقاء الأول فقالوا: فظننا أن أبا بكر هو النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وذلك أن أبا بكر كان شيخاً قد شمط، وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ شاباً؛ مع أن أبا بكر كان أصغر من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ سنّاً[4].

٤- ومع هذه النضارة في وجه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وهذا الجمال، كان عليه المهابة والوقار، فمن رآه بداهة هابه، ومن عرفه أحبه، ولذلك قال عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندما حضرته الوفاة وكان قد صحب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ثلاث سنين: والله لو سألتموني أن أصف لكم وجه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ما استطعت أن أصفه لكم؛ وذلك أني لم أكن أملأ عيني منه إجلالاً له[5].

فمن مهابة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وجلاله، لم يكن الصحابة يُؤبِّدونه أبصارهم، وإنما ينظرون إليه لمحاً، وليس تحديقاً؛ لجلاله ومهابته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

مَحَبَّةُ الله أَلْقاها وَهَيبَتُهُ عَلى اِبنِ آمِنَةٍ في كُلِّ مُصطَدَمِ[6]

٥- ومن صفات الوجه النبوي: أن وجهه كان شفافاً، يشف عن أخلاقه، بحيث إن الذي ينظر إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يعرف ما جبله الله عليه من كريم الأخلاق وشريف الخصال، يقول عبد الله بن سلَام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لما قدم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ المدينة انجفل الناس إليه، فكنت فيمن جاءه،

(١) «صحيح البخاري» (٦٣).
(٢) الثمال: الغياث الذي يقوم بأمر قومه. ينظر: «تاج العروس» للزبيدي (٢٨/ ١٦٧).
(٣) «صحيح البخاري» (١٠٠٨).
(٤) «صحيح البخاري» (٣٩٠٦).
(٥) «صحيح مسلم» (١٢١).
(٦) «نهج البردة» لأحمد شوقي.

فلما رأيت وجهه واستبنته، علمت أن وجهه ليس بوجه كذاب[1]، فكان الصدق يعرف في وجهه ﷺ!

ولما حج النبي ﷺ حجة الوداع ووقف في عرفة، كان الأعراب وأهل البلاد النائية الذين أتوا إلى عرفة يزدحمون يريدون أن يروا وجه رسول الله ﷺ، فإذا استنار لهم وجهه ﷺ قالوا: هذا الوجه المبارك[2]، فكانت البركة تُقْرأ في وجه رسول الله ﷺ ويشف عنها محيّاه.

ولم يكن وجهه جامد الملامح، ولكن كان شفافاً يشف عن انفعالاته النفسية، فإذا سُرّ وفرح تطلق وجهه واستنار، حتى كأنه فلقة قمر، يقول كعب بن مالك يصف لقاءه بالنبي ﷺ بعد أن تاب الله عليه: فلما سلمتُ عليه قال وهو يبرق وجهه من السرور: «**أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ**»[3]، وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه[4].

ووصف جرير بن عبد الله البجلي سرور النبي ﷺ بمواساة وفد المضريين المجهودين الذين وفدوا عليه وقد جُمِعَ أمامه لهم كومان من طعام وثياب لهم؛ قال: فرأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مُذْهَبَة[5]، أي: كأنه إناء فضة مطليّ بالذهب.

وقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: دَخَلَ عَلَيَّ ﷺ مَسْرُوراً تَبْرُقُ أَسَارِيرُ وَجْهِهِ فَقَالَ: «**أَلَمْ تَرَيْ أَنَّ مُجَزِّزاً نَظَرَ آنِفاً إِلَى زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ وَأُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ فَقَالَ: إِنَّ هَذِهِ الأَقْدَامَ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ**»[6]، فطفح السرور على وجهه كضياء البرق:

فـــإذا نـظـرت إلـــى أســـرة وجـهـه ... بـرقـت كـبـرق الـعـارض الـمـتـهـلـل[7]

(١) «سنن ابن ماجه» (١٣٣٤).
(٢) «سنن أبي داود» (١٧٤٢).
(٣) «صحيح البخاري» (٤٤١٨)، و«صحيح مسلم» (٢٧٦٩).
(٤) «صحيح البخاري» (٤٤١٨)، و«صحيح مسلم» (٢٧٦٩).
(٥) «صحيح البخاري» (١٠١٧).
(٦) «صحيح البخاري» (٦٧٧٠)، و«صحيح مسلم» (١٤٥٩).
(٧) «الشعر والشعراء» للدينوري (٢/ ٦٦١).

وذلك فرحًا بأن مُجَزِّزاً أثبت نسب أسامة إلى أبيه، مع اختلاف لونيهما.

وكان إذا كره شيئًا عرفت الكراهية في وجهه ﷺ.

أما إذا غضب رسول الله ﷺ فإن وجهه يحمر، يقول الصحابة في وصف لحظة الانفعال هذه: كأنما يُفقأ في وجهه حَبّ الرمان[1]، وحبّ الرمان أحمر، فيحمر الوجه النبوي ﷺ.

وقال ابن مسعود يصف لحظة غضبه: فَتَغَيَّرَ وَجْهُهُ حَتَّى كَانَ كَالصِّرْفِ[2]، أي: كأنه الصبغ الأحمر.

فكان الوجه النبوي يشف عن الانفعالات، ويشف عن كريم الأخلاق، ويشف عن الجمال، وعن البهاء!

٦- وكان لوجه النبي ﷺ لمحة خاصة لا يشاركه فيها أحد، ولذلك يقول من رأى رسول الله ﷺ: ما رأيت قبله ولا بعده مثله، قالت امرأة من همدان رأته يطوف فقيل لها: شبهيه، قالت: كالقمر ليلة البدر، لم أر قبله ولا بعده مثله[3]:

وأحسن منك لم ترقط عيني ... وأجمل منك لم تلد النساء[4]

٧- ومن أجمل العبارات في وصف الوجه النبوي ﷺ وصف أنس رضي الله عنه للنظرة الأخيرة إلى وجهه ﷺ يوم وفاته، قال: كَشَفَ النَّبِيُّ ﷺ سِتْرَ الحُجْرَةِ يَنْظُرُ إِلَيْنَا وَهُوَ قَائِمٌ، كَأَنَّ وَجْهَهُ وَرَقَةُ مُصْحَفٍ، ثُمَّ تَبَسَّمَ يَضْحَكُ[5]، فقوله: كَأَنَّ وَجْهَهُ وَرَقَةُ مُصْحَفٍ، عبارة عن الجمال البارع، وحسن البشرة، وصفاء الوجه؛ ولكن تعبير أنس بورقة المصحف يحمل معاني رائعة توحي بالجلال مع الجمال، وبالتعظيم مع الحب، فهو أجمل وصف سمعته للوجه النبوي، ولا أنسى وقعه على قلبي عندما سمعته أول مرة،

(١) «سنن ابن ماجه» (٨٥).
(٢) «صحيح مسلم» (١٠٦٢).
(٣) «المعرفة والتاريخ» للفسوي (٣/ ٢٨٢).
(٤) «المستطرف في كل فن مستطرف» (ص: ٢٣٦).
(٥) «صحيح البخاري» (٦٨٠)، و«صحيح مسلم» (٤١٩).

فشعرت بمثل القشعريرة على قلبي من الهيبة، حتى إني أتذكر هذا الموقف اليوم، زمانَه ومكانَه، ونغمةَ القارئ وهو يترسل في قراءة الحديث، ولهفة الشوق العاصفة في نفسي لرؤية الوجه النبوي المقدس، بأبي وأمي ونفسي هو ﷺ.

خلاصات:

١- كان ﷺ أجمل الناس وجهاً كأن وجهه فلقة قمر.

٢- كان له مع الجمال جلال ومهابة، فلا تمتلئ الأعين من النظر إليه.

٣- كان وجهه أزهر اللون، أبيض مشرباً بحمرة.

٤- كان وجهه يشف عن أخلاقه، فليس وجهه وجه كذاب ولا مريب.

٥- كان وجهه يشف عن انفعالاته، فإذا سُرَّ استنار وجهه وأشرق، وإذا كُرِب تغير وجهه وتمعَّر، وإذا غضب احمر وجهه.

٦- ما رؤي أحد قبله ولا بعده مثله.

الباب الثاني

الرسول ﷺ وعلاقاته

الرسول ﷺ وأمه

أم النبي ﷺ هي آمنة بنت وهْب الزُّهرية، السيدة الكريمة الجليلة الفاضلة؛ التي اختارها الله عَزَّوَجَلَّ من بين نساء البشرية كلها؛ لتكون أحشاؤها القرار المكين لأطوار النشأة الأولى للنبي ﷺ قبل أن يولد، ولتكون أول من يتلقاه في طريق الحياة، فحِجْرها أول حِجْر احتضنه، ولبنها أول طعام فتق فمه، وحنانها وحبها أول حبٍّ وحنان تذوقه، وجسدها أول جسد مسّ جسده ﷺ.

وقد تلقت البشرى بإشراق أنوار بعثته قبل مولده، فعن العرباض بن سارية قال: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**إِنِّي عِنْدَ الله فِي أُمِّ الكِتَابِ لَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ، وَسَأُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِ ذَلِكَ؛ دَعْوَةِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبِشَارَةِ عِيسَى قَوْمَهُ، وَرُؤْيَا أُمِّي الَّتِي رَأَتْ أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورُ الشَّامِ**»[1].

ولذا فإن حديثنا عن السيدة الكريمة أُمّ النبي ﷺ هو حديث المُحبّ لها المعظِّم لشأنها، فهي اختيار الله من نساء الأرض كلهن، لتكون أمَّ رسول الله ﷺ، ولا نتحدث عنها إلا ونحن نتخيل النبي ﷺ يسمع كلامنا ونحن نتحدث عن أمه؛ فكيف سيكون حديثنا عنها بين يديه؟!

أولاً: آمنة وعبد الله:

يُستَشَفّ من مجموع الأخبار حبُّ آمنة الشديد لزوجها عبد الله بن عبد المطلب، ويتضح هذا الحبّ من أنها لم تتزوج بعد عبد الله، وهذه ليست عادة نساء العرب،

(١) «مسند أحمد» (١٧١٦٣).

فالعادة أن الأيِّم تتزوج فوراً بعد موت زوجها، أما السيدة الجليلة آمنة فإنها لم تتزوج بعده، واكتفت أن تعيش على ذكراه.

فلما بلغ النبي ﷺ ستَّ سنين ذهبت به إلى المدينة: فقيل إن ذلك ليزور أخواله[1]، والمقصود بأخواله هنا أخوال جدِّه عبد المطلب، وليس المقصود أخواله هو؛ لأن أخواله هم بنو زُهرة، ولا أخوال أبيه فهم بنو مخزوم، وإنما المقصود أخوال جده.

وأظن الحامل لها على السفر إلى المدينة تلك المسافة الشاسعة بطفل في السادسة من عمره؛ ليس زيارة أخوال جده، بل زيارة قبر زوجها عبد الله لتمكن حبه من قلبها فلم تمت ذكراه من نفسها بعد موته.

ثانياً: رحلة المدينة ووفاة آمنة:

وكان من صنع الله أن تذهب آمنة ومعها أم أيمن -وهي أَمَةٌ لعبد الله- وابنها نبيُّنا ﷺ وهو طفل إلى المدينة، وكأنما كانت هذه الرحلة تهيئةً للهجرة النبوية بعد ذلك إلى المدينة.

وسَكَنت آمنة في المدينة عند بني عدي بن النجار أخوال عبد المطلب، في دارٍ تسمى: «**دار النابغة**»، سكنها عبد الله حين قدم المدينة، وتوفي ودفن بها؛ ففيها قبره[2].

فسكنت آمنة عند قبر زوجها، ويا لله ويا لمشاعر آمنة وهي تعيش عند قبر زوجها الذي أحبته، وذاقت معه سعادة الحياة ذواقًا سريعًا، فبقيت آمنة شهراً في المدينة، وكانت المدينة موبوءة بحمى الملاريا[3]، فلما رجعت من المدينة هي وابنها ﷺ كانت قد أصابتها الحمى، فلما وصلت الأبواء[4] اشتد بها المرض، وحضرها الموت هناك[5]!

(١) ينظر: «سيرة ابن اسحاق» (ص٦٥).
(٢) ينظر «الطبقات الكبرى» لابن سعد (١/ ٧٩).
(٣) ينظر: «طبيب عبر الزمن» (٥٢).
(٤) الأبواء: بلدة في الطريق بين المدينة ومكة، تابعة لمحافظة «رابغ»، تبعد عن مكة (٢٠١ كم)، وعن المدينة (١٦١ كم). ينظر: «محافظة رابغ»، للأستاذ الشيخ: أحمد النعماني.
(٥) «سيرة ابن هشام» (١/ ٢٠٤).

وعندما زُرت الأبواء حيث دُفِنتْ آمنة تخيلتُها في هذه الصحراء ومعها ابنها ﷺ وحاضنته أم أيمن، وهي تنازع سكرات الموت، وتلفظ آخر أنفاس الحياة، وأمامها بُنَيها تودع الحياة وتودعه، فأقول: يا لله أيّ لوعة كانت في نفسها تلك الساعة؟! وأيّ حسرة كانت تتجرعها وهي لا تدري ما الذي سيحدث لابنها بعدها، وهي التي ستموت وتتركه في هذه الصحراء؟! ماذا ستكون حاله؟! هل سيهلك مع هذه المرأة؟! هل سيصل إلى مكة؟!

ومن المؤكد أن كل هذه الأفكار كانت تعبر في ذهنها وهي تعاني آلام سكرات الموت؛ إذ ليس أمامها إلا هذا الصبي الذي هو في السادسة من عمره.. تموت الآن في الصحراء وتدعه، كنت أتخيَّل هذه الأفكار التي يمكن أن تمر بحال أمٍّ في مثل هذا المشهد، تجمع آلام الاحتضار والفجيعة بالولد؛ ولكن ربك جل وعز كان يدبر الأمر لنبيه ﷺ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ [الضحى: ٦].

وكان ﷺ يعي هذه الحال، وتسجل عيناه المشهد بدقة، ولما دُفنت أمه حفظ قبرها، وعرف مكانها تماماً، ورجعت به أم أيمن إلى مكة.

ثالثاً: الرسول ﷺ يزور أمه:

ومرت السنوات.. وبُعث النبي ﷺ، ثم هاجر إلى المدينة، وبعد خمسين سنة من وفاة آمنة بنت وهب، إذا بالنبي ﷺ يمر بالأبواء ومعه ألف وأربعمئة من أصحابه متوجهاً إلى مكة في عُمْرة الحديبية، فلما وصل إلى الأبواء جاشت الذكريات، وتداعت المشاهد.. هنا مرَّ قبل نصف قرن من الزمان وهو طفل صغير مع أمه التي كان يتلقى حنانها، ويعيش دفء قربها، ولذة أمومتها، إلى أن وصل إلى هذا المكان.. هنا فارقت الدنيا وفارقته.. هنا ماتت، وهنا دُفنت، فجلس النبي ﷺ من الصباح إلى قريب من العصر، والجيش منتظر ما الذي جعل النبي ﷺ ينتظر ولا يسير إلى هذا الوقت؟!

فلما كان قريب العصر قام، فجعل يمشي ويتخطى القبور كأنما يقصد قبراً بعينه، فلما وصل إلى القبر الذي قصده جلس عنده[1]، وأصحابه ينظرون إليه من بُعد، فرأوه جالساً عند القبر وكأنه يتكلم مع إنسان أمامه، فلما طال جلوسه جاؤوا إليه، فوجدوه ﷺ عند قبر أمه يبكي،

(١) «المستدرك» للحاكم (٣٢٩٢).

فقال: «**اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي..**»، وكأنما جلس من الصباح ينتظر الإذن من الله؛ «**اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لأُمِّي فَلَمْ يَأْذَنْ لِي، وَاسْتَأْذَنْتُهُ أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأَذِنَ لِي، فَزُوروا القُبُور؛ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الآخِرَةَ**»[1]، ثم سوى قبرها الذي أوشك على الاندراس لبُعْد العهد.

وكان مشهداً وجدانيّاً مؤثراً، اهتاجت فيه العواطف، وحضرت الذكريات، فكان ﷺ متأثراً ومؤثراً في مشهده ذلك.

وكلما تذكرتُ هذا المشهد قلتُ: يا لله! هذه لوعة النبي ﷺ على أمه، مع أنه لم يدرك من حياتها إلا مثل الطَّيف؛ إذ العادة أن من ماتت أمه وهو في سن الطفولة المبكر، لن يتذكر شيئاً من الأحداث معها، ولن يقول: قالت وفعلت، وذهبت وأتت، بل يتذكرها مثل الخيال، ومع ذلك كان هذا حنينه إليها، والتياعه[2] لها، فكيف لو أدركها؟ كيف لو عاشت نبوته ودولته؟ كيف لو عايشته في بيوته؟ كيف سيكون بِرّ هذا النبي بها، ومعاملته لها؟ أيّ أسوة كانت ستتلقاها البشرية من حاله ﷺ مع أمه؟! ولكن لله الحكمة البالغة، يخلق ما يشاء ويختار!

رابعاً: أُمُّه بعد أُمِّه:

لئن فاتنا أن ندرك حياة النبي ﷺ مع أمه التي ولدته، فقد أدركنا حياته مع أمه التي ربَّته، وهي أم أيمن بركة الحبشية رضي الله عنها، التي استوعبت حياتُها حياةَ النبي ﷺ، فولد في حياتها وتوفي في حياتها، فهي حاضنته التي تلقته في طلائع حياته، وصارت أمَّه بعد أمِّه، فلما بلغ أشده واستوى، وآتاه الله النبوة والكتاب، بقي يعاملها معاملة الأم، في حين كانت الثقافة العربية تعامل الأَمَة كشيء من الأشياء، ومتاع من المتاع، أما المصطفى ﷺ فعاملها معاملة الابن البارّ، فروي عنه أنه كان يناديها: «**يا أُمَّهْ**»! وكان يقول: «**هِيَ أُمِّي بَعْدَ أُمِّي**»[3].

وكان يقصدها في بيتها، فيزورها كما يزور الابن أمه، ويذهب إلى زيارتها ومعه أبو بكر وعمر مبالغة في إكرامها.

---

(١) «صحيح مسلم» (٩٧٦).

(٢) الالتياع: الاحتراق من الهمّ. ينظر: «تاج العروس» (٢٢/ ١٧٧).

(٣) «تاريخ دمشق» لابن عساكر (٨/ ٥١).

وكان يُفسِحُ لها مساحة واسعة تمارس فيها سلطة الأمومة، ولذا كانت تجرؤ عليه ما لا يجرؤ عليه غيرها، قال أنس: كَانَ الرَّجُلُ يَجْعَلُ لِلنَّبِيِّ ﷺ النَّخَلَاتِ، حَتَّى افْتَتَحَ قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرَ، وَإِنَّ أَهْلِي أَمَرُونِي أَنْ آتِيَ النَّبِيَّ ﷺ، فَأَسْأَلَهُ الَّذِي كَانُوا أَعْطَوْهُ أَوْ بَعْضَهُ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ أَعْطَاهُ أُمَّ أَيْمَنَ، فَجَاءَتْ أُمُّ أَيْمَنَ فَجَعَلَتِ الثَّوْبَ فِي عُنُقِي، تَقُولُ: كَلَّا وَالَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَا يُعْطِيكَهُمْ وَقَدْ أَعْطَانِيهَا، أَوْ كَمَا قَالَتْ: وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «**لَكِ كَذَا**»! وَتَقُولُ: كَلَّا وَالله، حَتَّى أَعْطَاهَا -حَسِبْتُ أَنَّهُ قَالَ:- «**عَشَرَةَ أَمْثَالِهِ**»[1].

وقال أنس: انْطَلَقَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى أُمِّ أَيْمَنَ، فَانْطَلَقْتُ مَعَهُ، فَنَاوَلَتْهُ إِنَاءً فِيهِ شَرَابٌ. قَالَ: فَلَا أَدْرِي أَصَادَفَتْهُ صَائِمًا أَوْ لَمْ يُرِدْهُ، فَجَعَلَتْ تَصْخَبُ عَلَيْهِ وَتَذَمَّرُ عَلَيْهِ[2].

أي تلومه وتوبخه كما تفعل الأم مع ابنها إذا لم يأكل طعامه، وما كانت تجرؤ على النبي ﷺ هذه الجراءة إلا لأنه أفسح لها ذلك، وأشعرها بتقبله منها، وهي براعة في التعامل مع الأمومة؛ لتشعر الأم بمكانتها وموقعها الذي لا يشاركها فيه غيرها.

ولمعرفة الصحابة بمكانة أم أيمن في نفس النبي ﷺ، رعوا لها هذه المنزلة بالإكرام، فلما توفي النبي ﷺ قَالَ أَبُو بَكْرٍ لِعُمَرَ: انْطَلِقْ بِنَا إِلَى أُمِّ أَيْمَنَ نَزُورُهَا، كما كان رسول الله ﷺ يزورها، فلما دخلا عليها هيَّجا ما سكن من فجيعتها، وتذكرت يوم كانا يأتيانها مع رسول الله ﷺ، وها هما يدخلان عليها وليسا معه، فالتاعت وتذكرت وتهيجت تبكي، فَقَالَا لَهَا: مَا يُبْكِيكِ؟ مَا عِنْدَ الله خَيْرٌ لِرَسُولِهِ ﷺ، فَقَالَتْ: مَا أَبْكِي أَنْ لَا أَكُونَ أَعْلَمُ أَنَّ مَا عِنْدَ الله خَيْرٌ لِرَسُولِهِ ﷺ؛ وَلَكِنْ أَبْكِي أَنَّ الوَحْيَ قَدِ انْقَطَعَ مِنَ السَّمَاءِ، فَهَيَّجَتْهُمَا عَلَى البُكَاءِ، فَجَعَلَا يَبْكِيَانِ مَعَهَا[3].

إنّ ما أدركناه من خبره ﷺ مع أمه، وخبره مع حاضنته أم أيمن بعدها، فيه مشاهد الرعاية لمكانة الأم، ومساحة حبها الواسعة في النفس، وفيه تحفيزٌ على التلذذ ببرها، والتفنن في إسعادها، وإشعارها بمكانها ومكانتها.

فهنيئًا لمن لا زالت أمه تعيش في حياته، لتذيقه نعيم الطفولة مهما كبرت سنُّه، وهنيئًا لكل ابن لا يزال يتلذذ بإسعاد أمه وبرها!

---

(١) «صحيح البخاري» (٤١٢٠)، و«صحيح مسلم» (١٧٧١).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٤٥٣).

(٣) «صحيح مسلم» (٢٤٥٤).

خامساً: تتميم:

أ- نهيه ﷺ عن الاستغفار لأمه لا يعني أنها من المعذّبين، فهي ومن في زمنها من أهل الفترة المشمولين بموعود الله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقد بيّن الله أنهم لم ينذروا، فقال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [يس: ٦]، وقال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [القصص: ٤٦][(١)].

ب- لم يثبت أنه ﷺ لقي أمه من الرضاعة حليمة بنت عبد الله السعدية بعد النبوة، وقد وردتْ أخبار أنه لقيها بعد غزوة حُنين[(٢)]، ولكنها أخبار مُعْضَلة سنداً، ومستغربة متناً، فإن لقاءه بها لو حصل لكان حدثاً مذكوراً مشهوراً، والله أعلم.

خلاصات:

١- السيدة آمنة هي اختيار الله من نساء البشرية كلها، لتكون أحشاؤها القرار المكين لأطوار تخلّق النبي ﷺ قبل أن يولد.

٢- كانت السيدة آمنة شديدة الحب لزوجها عبد الله، ولذا لم تتزوج بعده.

٣- سافرت آمنة بالنبي ﷺ إلى المدينة وعمره ست سنين، لتزور قبر زوجها.

٤- توفيت في طريق عودتها من المدينة، فحفظ ﷺ المشهد وعرف القبر.

٥- عاشت أم أيمن مع النبي ﷺ لتكون حاضنته وأمه بعد أمه.

٦- كان النبي ﷺ يعامل أم أيمن معاملة الأم؛ ولذا كانت تجرؤ عليه بما لا يجرؤ عليه غيرها.

٧- لم يدرك وعي النبي ﷺ من أمه إلا ذكرى مثل الطيف، فكيف سيكون بره بها لو عاشت معه، وأدركت نبوته ودولته؟

٨- عاد النبي ﷺ بعد خمسين سنة إلى قبر أمه يزورها، فبكى وأبكى من حوله.

---

(١) ينظر في ذلك كتاب: «مجالس مع الشيخ محمد الأمين الشنقيطي»، لأحمد الشنقيطي (ص٤٠)، ففيه بسط الأدلة على ذلك، والإجابة عما يَرِدُ عليها من إشكالات.

(٢) «سنن أبي داود» (٥١٤٤).

الرسول ﷺ زوجاً[1]

الحياة الزوجية للنبي ﷺ حياة واسعة، والحديث فيها حديثٌ عذْبٌ مأنوس، وعندما نأخذ نظرة عامة لحال النبي ﷺ مع زوجاته، فستلفت نظرَنا معالمُ منها:

أولاً: أن زوجات النبي ﷺ في غاية التنوع، فهن متنوعات في قبائلهن، فمنهن القرشيات، من بطون شتى من قريش؛ فمنهن التيمية، والعدوية، والمخزومية، والأسدية، والأموية، وغير القرشيات، كجويرية بنت الحارث المصطلقية الخزاعية، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وصفية بنت حيي بن أخطب الإسرائيلية.

وهذا التنوع في القبائل يتبعه تنوع آخر في الأعمار: فنجد منهن المرأة الكبيرة الناضجة، مثل خديجة وسودة وأم سلمة، ومنهن الجارية حديثة السن كعائشة وجويرية وصفية، ومنهن ما بين ذلك.

وهناك تنوع في طبائعهن وأمزجتهن: ففيهن الحادة في طبعها، مثل أمِّنا زينب بنت جحش رضي الله عنها، فقد كان في طبعها حِدّة، ومنهن المرحة المضحكة، مثل سودة بنت زمعة رضي الله عنها، ومنهن الجارية حديثة السن تحب اللهو، كعائشة رضي الله عنها.

وهناك تنوع في آبائهن: فمنهن مَن آباؤهن أقرب أصحاب النبي ﷺ إليه، كعائشة وحفصة أبواهما أبو بكر وعمر رضي الله عنهم، ومنهن مَن آباؤهن أشد الأعداء عداوة للنبي ﷺ، مثل أم حبيبة، كان أبوها أبو سفيان من أعداء النبي ﷺ ومحاربيه قبل أن يسلم، وصفية بنت حيي، أبوها حيي بن أخطب أشد الناس عداوة للنبي ﷺ من اليهود.

(١) ينظر: «سيرة النبي ﷺ في بيته»، لشيخنا صالح بن أحمد الشامي، ومنه استفدت في هذا المبحث.

ولكن الشيء العجيب أن كل هذا التنوع احتواه النبي ﷺ، فحفظ لكل واحدة كيانها الشخصي بتميزها وطباعها ونسبها؛ لكنهن ائتلفن كلهن في بيوتات النبي ﷺ، واجتمعن على حبه، والتعلق به، والارتباط بالحياة معه ﷺ.

ثانيًا: أنهن كن يعشن مع النبي ﷺ حياة زوجية مثالية متألقة، وهي في الوقت ذاته حياة واقعية طبيعية، قد تعبر فيها بعض المشكلات التي تعطي للحياة حيوية وتجدداً.

أما إذا قيل لك: إن هناك حياة زوجية بدون مشكلات إطلاقًا، فمعنى هذا أن واحداً من الزوجين ألغى شخصية الآخر!

أما الحياة المثالية الطبيعية، فهي التي توجد فيها خلافات ومشكلات عابرة، تجدد للحياة حيويتها، دون أن توقع الحياة الزوجية في أزمة، وهذه طبيعة حياة زوجات النبي ﷺ، تعبر فيها المشكلات، فتُحدث إثارة وثراء؛ ولكنها لا تحدث أزمة وانغلاقًا، فتَحدُثُ فيها الإثارات المتوقعة من الغيرة بينهن، وربما هجرت إحداهن الرسول ﷺ يومها، وربما غضب من إحداهن فهجرها، أو غضب منهن جميعًا فهجرهن؛ ولكن هذه مشكلات تمر ولا تستقر؛ لتتجدد الحياة بعدها، فتعود أكثر توهجًا وتألقًا!

قال عمر رضي الله عنه: بَيْنَا أَنَا فِي أَمْرٍ أَتَأَمَّرُهُ، إِذْ قَالَتِ امْرَأَتِي: لَوْ صَنَعْتَ كَذَا وَكَذَا! قَالَ: فَقُلْتُ لَهَا: مَا لَكِ وَلِمَا هَا هُنَا؟ وَفِيمَ تَكَلُّفُكِ فِي أَمْرٍ أُرِيدُهُ؟ فَقَالَتْ لِي: عَجَبًا لَكَ يَا ابْنَ الخَطَّابِ، مَا تُرِيدُ أَنْ تُرَاجَعَ أَنْتَ، فَوَالله إِنَّ أَزْوَاجَ النَبِي ﷺ لَيراجِعنَهُ، وإِنَّ إِحْداهُنَّ لَتهجِرهُ اليومَ إلى اللَيْلِ، وَإِنَّ ابْنَتَكَ لَتُرَاجِعُ رَسُولَ الله ﷺ حَتَّى يَظَلَّ يَوْمَهُ غَضْبَانَ! فَفَزِعَ عُمَر وأَخَذَ رِدَاءَهُ، وانْطَلَقَ إلى نِسَاءِ النَبِي ﷺ، وجعل يطوف عليهن، فمرّ على ابنته حفصة، وعلى عائشة، وجعل يعظهن ويُغلظ عليهن: كيف تهجر إحداكن النبي ﷺ؟ أما تخفن أن يغضب الله لغضب رسوله؟ حتى مرَّ بأمّ سلمة، فأخذت عمر أخذاً شديداً حتى قال: تمنيتُ أني ما كنت تكلمتُ معها. وكان مما قالت له: يا عمر، ألم يكن في رسول الله ﷺ ما يعظ زوجاته حتى تأتي أنت فتعظهن! يا عمر، لو أن رسول الله ﷺ نهانا لانتهينا، فنحن أطوع لرسول الله ﷺ منك؛ ولكن رسول الله ﷺ أذن لنا في ذلك[1].

(١) «صحيح البخاري» (٤٩١٣)، و«صحيح مسلم» (١٤٧٩).

أي أننا نتحرك في فسحة النبي ﷺ، فإنه ﷺ أعطاهن فسحة في انفعالاتهن، حتى إنهن يغاضبنه ويهجرنه؛ لأنه أراد أن يعشن معه الحياة الزوجية المنطلقة المتعافية، التي تتحرك فيها المشاعر، وتظهر الانفعالات، ويحصل فيها التفاعل الحقيقي بين الزوجين، ولو كانت هذه المشاعر مغاضبة النبي ﷺ، ولو كانت هذه الانفعالات هجر النبي ﷺ.

ومن ذلك: تفَهُّمه ﷺ لما يقع بينهن من الغيرة، فما كان ذلك يثيره أو يوتره؛ ولكن كان يضعه في سياقه المعتاد، وضمن دوافعه الفطرية.

فقد كَانَ النَّبِيُّ ﷺ عِنْدَ عائشة، فَأَرْسَلَتْ إِحْدَى أُمَّهَاتِ المُؤْمِنِينَ بِصَحْفَةٍ فِيهَا طَعَامٌ، فَضَرَبَت يَدَ الخَادِمِ، فَسَقَطَتِ الصَّحْفَةُ فَانْفَلَقَتْ، فَجَمَعَ النَّبِيُّ ﷺ فِلَقَ الصَّحْفَةِ، ثُمَّ جَعَلَ يَجْمَعُ فِيهَا الطَّعَامَ الَّذِي كَانَ فِي الصَّحْفَةِ، وَيَقُولُ: «**غَارَتْ أُمُّكُمْ، غَارَتْ أُمُّكُمْ، كُلُوا**». فأكَلُوا، ثُمَّ حَبَسَ الخَادِمَ حَتَّى فَرغُوا، وأُتِيَ بِصَحْفَةٍ مِنْ عِنْدِ عائشة، فَدَفَعَ الصَّحْفَةَ الصَّحِيحَةَ إِلَى الَّتِي كُسِرَتْ صَحْفَتُهَا، وَأَمْسَكَ المَكْسُورَةَ فِي بَيْتِها[1]، وقال: «**إِنَاءٌ بِإِناءٍ، وَطَعَامٌ بِطَعامٍ**»[2]، قالت عائشة: فما رأيت ذلك في وجه رسول الله ﷺ.

فانظر هذا الاستيعاب لانفعال الزوجة وغيرتها، حيث اعتذر عنها أمامَ مَن عنده، وهو يقول: «**غَارَتْ أُمُّكُمْ**»! فلم يلحظوا عليه انفعالاً، ولم تلحظ عائشة في وجهه تغيراً.

ومن ذلك: أن أبا بكر اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَسَمِعَ صَوْتَ عَائِشَةَ عَالِيًا، فَلَمَّا دَخَلَ تَنَاوَلَهَا لِيَلْطِمَهَا، وَقَالَ: أَلَا أَرَاكِ تَرْفَعِينَ صَوْتَكِ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَحْجِزُهُ، وَخَرَجَ أَبُو بَكْرٍ مُغْضَبًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ: «**كَيْفَ رَأَيْتِنِي أَنْقَذْتُكِ مِنَ الرَّجُلِ؟**». قَالَ: فَمَكَثَ أَبُو بَكْرٍ أَيَّامًا، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَوَجَدَهُمَا قَدِ اصْطَلَحَا، فَقَالَ لَهُمَا: أَدْخِلَانِي فِي سِلْمِكُمَا كَمَا أَدْخَلْتُمَانِي فِي حَرْبِكُمَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**قَدْ فَعَلْنَا، قَدْ فَعَلْنَا**»[3].

---

(١) «صحيح البخاري» (٥٢٢٥).

(٢) «جامع الترمذي» (١٣٥٩).

(٣) «سنن أبي داود» (٤٩٩٩).

ثالثًا: أن النبي ﷺ كان يعيش معهن كزوج أولاً، ولم يكن يعيش مع زوجاته كإمام أو قائد أو زعيم متسلط، بل كان يدخل إليهن كزوج، ولذلك عندما سئلت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كيف كان حال النبي إذا خلا في بيته؟ قالت: كان ألين الناس، وأكرم الناس، كان رجلاً من رجالكم، إلا أنه كان ضحَّاكًا بسَّامًا، وما كان إلا بَشَراً من البشر، كان يكون في مهنة أهله -تعني خدمة أهله- يخصِف نعله، ويخيط ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه، ويعمل في بيته كما يعمل أحدكم في بيته، فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة، ولا رأيته ضرب بيده امرأة ولا خادمًا[1].

إنها باقة معطَّرة من الصفات النبوية، أحسنت أُمُّنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا رصفها في هذه الجمل الوجيزة، وبهذا البيان البليغ.

وبقي أن نفتح أبصار البصائر على معانٍ عظام:

ما كان إلا بشراً من البشر، كانت أُمَّنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تُقرِّر بشرية النبي ﷺ في التعامل الأُسَري، بحيث إنه ﷺ يدخل بيته ليس على أنه القائد أو الزعيم أو الإمام؛ ولكن على أنه الزوج، ليعيش حياة السكن الزوجي مع أهله، فتجتمع معاني العظمة المحمدية في عظمة التعامل الزوجي، وأنه ﷺ لم يكن يعيش في بيته سَمْتَه الذي يلقى به الناس؛ ولكن يعيش بساطة الحياة الأسرية وعفويتها، فلا ترى فيه زوجته إلا الزوج الوادَّ الرحيم، وهو ﷺ سيّد ولد آدم وإمام البشرية، والعظيم الذي لا تمتلئ الأعين من النظر إليه مهابة وإجلالاً، ولكنه مع ذلك يعيش في بيته ومع أهله زوجًا أولاً.

---

(١) ينظر: «مسند إسحاق بن راهويه» (١٥٥٠)، و«مسند أحمد» (٢٣٠٩٣)، و«صحيح البخاري» (٦٧٦، ٦٠٣٩)، و«صحيح ابن حبان» (٥٦٧٦)، و«مكارم الأخلاق» لابن أبي الدنيا (٣٩٧)، و«الكنى» للدولابي (٣٦٠)، و«تاريخ أبي زرعة الدمشقي» (١/ ٦٥٩-٦٦٠)، و«غرائب شعبة» لأبي الحسين بن المظفر (٨١)، و«فتح الباري» لابن رجب (٦/ ١٠٨-١٠٩)، و«فتح الباري» (٢/ ١٦٣)، (١٠/ ٤٦١).

رابعًا: الوعظ والتأديب، فإنه ﷺ كان يتعاهدهن بالوعظ، والحضّ على الخير بما لا يشق عليهن، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان رسول الله ﷺ يصلي من الليل، فإذا أراد أن يوتر أيقظني فأصلي معه[1].

وفي هذا مشهد من مشاهد الرفق في الدعوة، فإن عائشة حديثة السنّ، وما كانت تطيق صلاة النبي ﷺ الطويلة المترسلة، والتي تفطرت قدماه من طولها؛ ولذا فإنه يوقظها إذا قارب نهاية قيامه عند صلاة الوتر، رفقًا بها، وتيسيراً عليها.

وعن أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: اسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «**سُبْحَانَ اللهِ! مَاذَا أُنْزِلَ مِنَ الخَزَائِنِ، وَمَاذَا أُنْزِلَ مِنَ الفِتَنِ، مَنْ يُوقِظُ صَوَاحِبَ الحُجَرِ** -يُرِيدُ بِهِ أَزْوَاجَهُ حَتَّى يُصَلِّينَ- **رُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٌ فِي الآخِرَةِ**»[2].

وهذه الموعظة الليلية يوجهها النبي ﷺ لزوجاته في حُجَرهن، ليصلين نصيبهن من الليل، وفي قوله: «**مَاذَا أُنْزِلَ مِنَ الخَزَائِنِ، وَمَاذَا أُنْزِلَ مِنَ الفِتَنِ**»، تنبيه إلى أن صلاة الليل تهيئة لتلَقِّي فتوح الله من خزائنه، وسببٌ لدفع ما أنزل من الفتن، وحفظ الله عبادَه منها.

وكان ﷺ إذا دخل العشر الأواخر من رمضان، أيقظ أهله واستنفرهم للقيام، قالت عائشة: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا دَخَلَ العَشْرُ، شَدَّ مِئْزَرَهُ، وَأَحْيَا لَيْلَهُ، وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ[3].

ومن ذلك: تأديبهن إذا صدر منهن ما يُحْوِج إلى التأديبِ والتوجيه، قالت عائشة لرسول الله ﷺ: حَسْبُكَ مِنْ صَفِيَّةَ كَذَا وَكَذَا، تَعْنِي قَصِيرَةً، فَقَالَ: «**لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ البَحْرِ لَمَزَجَتْهُ**»! قَالَتْ: وَحَكَيْتُ[4] لَهُ إِنْسَانًا، فَقَالَ: «**مَا أُحِبُّ أَنِّي حَكَيْتُ إِنْسَانًا وَأَنَّ لِي كَذَا وَكَذَا**»[5].

---

(١) «صحيح البخاري» (٥١٢)، و«صحيح مسلم» (٥١٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٢١٨).

(٣) «صحيح البخاري» (٢٠٢٤)، و«صحيح مسلم» (١١٧٤).

(٤) أي: فعلت مثل فعله تحقيراً له، يقال: حكاه وحاكاه. ينظر: «عون المعبود» (٤/ ٤٢٠).

(٥) «سنن أبي داود» (٤٨٧٥)، و«جامع الترمذي» (٢٦٧٤).

وفي ذلك تربية نبوية في ترك وصف أحد على وجه العيب له، أو حكاية حاله على وجه السخرية منه، وانظر إلى قوله: «**لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ البَحْرِ لَمَزَجَتْهُ**». أي أن هذه الكلمة التي تظنينها يسيرة تفسد ماء البحر لو مزجت به؛ لعظم إثمها، وفي ذلك غاية التحذير من التساهل بهذا الأمر.

ودخل مرة على صفية وهي تبكي فَقَالَ: «**مَا يُبْكِيكِ؟**». فَقَالَتْ: قَالَتْ لِي حَفْصَةُ: إِنِّي بِنْتُ يَهُودِيٍّ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَإِنَّكِ لَابْنَةُ نَبِيٍّ، وَإِنَّ عَمَّكِ لنَبِيٌّ، وَإِنَّكِ لَتَحْتَ نَبِيٍّ، فَفِيمَ تَفْخَرُ عَلَيْكِ؟**». ثُمَّ قَالَ: «**اتَّقِي اللهَ يَا حَفْصَةُ**»[1]!

وهنا جمع النبي ﷺ بين مواساة صفية بمدِّ نظرها إلى نسبها الأعلى، فهي من نسل نبي الله هارون، فهو أبوها، وعمّها نبي الله موسى، وزوجها رسول الله ﷺ، فمن يفخر عليها إذن؟! ثم وجه الموعظة العاتبة إلى حفصة منبهاً على خطأ التصرف: «**اتَّقِي اللهَ يَا حَفْصَةُ**»!

وفي حجة الوداع انقطع جمل صفية وأعيا في الطريق، حتى فاتها الركب، فرجع إليها رسول الله ﷺ فإذا هي تبكي، فجعل يمسح دمعها بيده ويسكنها، ثم قَال: «**يا زَيْنَبُ، أَقْفِرِي أُخْتَكِ صَفِيَّةَ جَمَلاً**». وَكَانَتْ مِنْ أَكْثَرِهِنَّ ظَهْراً، فَقَالَتْ: أَنَا أُقْفِرُ يَهُودِيَّتَكَ! فَغَضِبَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ سَمِعَ ذَلِكَ مِنْهَا، فَهَجَرَهَا فَلَمْ يُكَلِّمْهَا حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ وَأَيَّامَ مِنىً فِي سَفَرِهِ، حَتَّى رَجَعَ إِلَى المَدِينَةِ، وَالمُحَرَّمَ وَصَفَرَ، فَلَمْ يَأْتِهَا، وَلَمْ يَقْسِمْ لَهَا، وَيَئِسَتْ مِنْهُ، فَلَمَّا كَانَ شَهْرُ رَبِيعٍ الأَوَّلِ، دَخَلَ عَلَيْهَا، فَرَأَتْ ظِلَّهُ، فَقَالَتْ: إِنَّ هَذَا لَظِلُّ رَجُلٍ، وَمَا يَدْخُلُ عَلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ، فَمَنْ هَذَا؟ فَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ[2].

فهجرها ﷺ على هذا الكلمة نحواً من ثلاثة أشهر، حتى يئست ورفعت سريرها، وكل ذلك تأديباً لها عن هذه المقالة، وكأن النبي ﷺ أغلظ على زينب على حظوتها عنده أكثر من حفصة؛ لتكرر ذلك منهن على صفية، فشدد هنا ما لم يشدد أولاً؛ لأنهن جميعاً كالبيت الواحد.

---

(١) «جامع الترمذي» (٣٨٩٤).

(٢) «مسند أحمد» (٢٦٨٦٦). وأَقْفِرِي: أي أعيريها. ينظر: «النهاية» (٣/ ٤٦٢).

خامسًا: أن زوجات النبي ﷺ عشن معه وهو الزعيم على الجزيرة العربية كلها حياة البساطة وكفاف العيش، وعندما طالبنه أن يؤثرهن بسعة النفقة ورفاهية المعيشة، هجرهن شهراً، ثم خيَّرهن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٢٨ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٢٨، ٢٩]، فاخترن كلهن الله ورسولَه والدارَ الآخرة[1]، وعشن معه على حال الكفاف التي كان يعيش عليها، ثم كان عاقبة ذلك أن قَصَرَ الله نبيه عليهن: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٢]، فهُنّ زوجاته في الدنيا، وهُنّ زوجاته في الآخرة، وهُنّ أمهاتنا أمهات المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ أجمعين.

سادسًا: الحياة الزوجية في بيت النبوة مشبعة بالحب، يتعاطى فيها الحب مع أنفاس الحياة، والحب فيها شعيرة معلنة لا تحجب ولا تُخْفى، فعن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سألت رسول الله ﷺ: أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: «**عَائِشَةُ**»[2]، هكذا جاء الجواب سريعًا صريحًا، فالحب النقي كمال يُشهر ولا يُستَر.

ويتحدث ﷺ عن زوجته خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فيقول: «**إِنَّهَا كَانَتْ، وَكَانَتْ، وإِنِّي قَدْ رُزِقْتُ حُبَّهَا**»[3].

فانظر هذا التعبير البليغ، حيث اعتبر حبَّها رزقًا رزقه الله إياه، ونعمة أنعم بها عليه!

وكما كان النبي ﷺ يعلن هذا الحب ويُشهِره، فقد كان يتفنن في تعاطيه مع أزواجه بفنون راقية من التعبير عن الحب والتلذذ بتصويره.

---

(١) «صحيح البخاري» (٢٤٦٨)، و«صحيح مسلم» (١٤٧٩).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٦٦٢).

(٣) «صحيح البخاري» (٣٨١٨)، و«صحيح مسلم» (٢٤٣٥).

فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان رسول الله ﷺ يناولني القدح فأشرب منه، ثم يأخذه مني فيديره في يده، ثم يضع فمه حيث وضعتُ فمي فيشرب، وكنت أتعرق العَرْق[1] فيأخذه مني، فيضع فمه حيث وضعت فمي[2].

فأي رسائل من الحب يحملها هذا التصرف الجميل، حين تشعر المرأة بلذة تعاطي الحب بهذه اللفتات المعبرة؟!

وعندما بيّن ﷺ الصدقات، ذكر منها: «**وَإِنَّكَ مَهْمَا أَنْفَقْتَ مِنْ نَفَقَةٍ، فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ، حَتَّى اللُّقْمَةَ الَّتِي تَرْفَعُهَا إِلَى فِيِّ امْرَأَتِكَ**»[3].

لقد كان يكفي أن يقول: نفقتك على أهلك؛ لكنه قسم الطعام لقمة لقمة، ثم جعل طريقة التعاطي له جزءاً من الشعيرة والصدقة، بأن يرفع الزوج لقمة من الطعام فيقدمها بيده إلى فم امرأته، وكأنما كان يقدم بهذا المشهد درساً في الذوق وتعاطي الحب.

سابعاً: الإشعار بالاهتمام والأهمية بين الزوجين، وكان لنبينا ﷺ في ذلك براعة ورقة وتلطُّف، فعندما سُئلت عائشة عن حال النبي ﷺ في بيته، قَالَتْ: كَانَ يَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ[4].

يَثِب إلى ذهني سؤال ثاقب يقول: وهل كانت أُمُّنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تشكو كثرة العمل ومشقته، حتى يعمل النبي ﷺ معها في بيتها، ويقوم بمعونتها وخدمتها؟

أَمَا كانت حجرتها متقاربة الجُدُر، صغيرة المساحة، بحيث لم يتجاوز طولها عشرة أذرع، وعرضها سبعة أذرع، أي: (٥ , ٣ × ٥) متر تقريباً.

---

(١) هو العَظْم إِذَا أُخذ عَنْهُ مُعْظَم اللَّحم. ينظر: «النهاية» (٣/ ٢٢٠).

(٢) «السنن الكبرى» للنسائي (٢٧٩).

(٣) «صحيح البخاري» (٢٧٤٢)، و«صحيح مسلم» (١٦٢٨).

(٤) «صحيح البخاري» (٦٧٦).

وأَمَّا العمل فيها فقد كانت تتصرَّم الشهران بتمامها وما أُوقِد فيها نار لطعام يُصنَع[1]، فهل ثَمَّة عملٌ يحتاج إلى جهد، فضلاً عن أن يحتاج إلى معونة، بحيث يكون النبي ﷺ في بيته مشغولاً بمهنة أهله؟!

إن الجواب عن هذا التساؤل: أن نبيَّك ﷺ ما كان يصنع ما يصنع لكثرة الشغل وجهد العمل؛ ولكن هناك معنىً أعمق، وهو المواساة والإشعار بالمشاركة التامة في الحياة الزوجية، وتحقيق إحدى معاني السكن إلى الزوجة: ﴿لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا﴾ [الروم: ٢١]، ولم يقل: لتسكنوا معها.

إن هذه الأعمال اليسيرة في المنزل تصل إلى قلب الزوجة، مشفوعة بمذكِّرة تفسيرية تَضِجُّ بمعاني الحب والمودة والرحمة، وتُشعِر الزوجة بالدنو القريب إلى زوجها، والامتزاج الروحي والعاطفي معه.

إن كون الرجل في مهنة أهله بأيّ عمل، وعلى أيّ صفة، رسالةُ حياةٍ تقول: هو بيتنا جميعـًا، كما هي حياتنا جميعـًا. وإن معاني الالتحام الزوجي تنسجها هذه اللمسات المُعبِّرة، فيكبر في عين زوجته بقدر تواضعه، ويَعظُم في نفسها بقدر بساطته.

ومن مشاهد هذا التعاون في خدمة الأهل: ما حدثت به عائشة أيضـًا، قالت: بَعَثَ إِلَيْنَا آلُ أَبِي بَكْرٍ بِقَائِمَةِ شَاةٍ لَيْلاً، فَأَمْسَكَ رَسُولُ الله ﷺ وَقَطَعْتُ، أَوْ أَمْسَكْتُ وَقَطَعَ، فَقَالَ الَّذِي تُحَدِّثُهُ: أَعَلَى غَيْرِ مِصْبَاحٍ؟ فَقَالَتْ: لَوْ كَانَ عِنْدَنَا مِصْبَاحٌ لَائْتَدَمْنَا بِهِ، إِنْ كَانَ لَيَأْتِي عَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ﷺ الشَّهْرُ مَا يَخْتَبِزُونَ خُبْزاً، وَلَا يَطْبُخُونَ قِدْراً[2].

لقد كان يمكن أن تساعد عائشة امرأة أخرى، ولكن النبي ﷺ اختار أن يتولى هو ذلك؛ لأن هذه الحال ليست مجرد إنجاز عمل، بل هي لحظة قرب عاطفي، وإشعار بالأهمية والاهتمام، يتسرب أثرها إلى القلب والوجدان.

ومن ذلك: مراقبة انفعالاتها وتفهمها، قال ﷺ لعائشة: «**إِنِّي لَأَعْلَمُ إِذَا كُنْتِ عَنِّي رَاضِيَةً، وَإِذَا كُنْتِ عَلَيَّ غَضْبَى**». قَالَتْ: فَقُلْتُ: مِنْ أَيْنَ تَعْرِفُ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: «**أَمَّا إِذَا كُنْتِ عَنِّي رَاضِيَةً،**

(١) «صحيح البخاري» (٢٥٦٧)، و«صحيح مسلم» (٢٩٧٢).

(٢) «مسند أحمد» (٢٥٨٢٥).

فَإِنَّكِ تَقُولِينَ: لَا وَرَبِّ مُحَمَّدٍ، وَإِذَا كُنْتِ عَلَيَّ غَضْبَى، قُلْتِ: لَا وَرَبِّ إِبْرَاهِيمَ»! قَالَتْ: قُلْتُ: أَجَلْ؛ وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ مَا أَهْجُرُ إِلَّا اسْمَكَ[1].

إن دقة الملاحظة لطريقة التعبير ومعرفة الانفعال العابر، لا يكون إلا مع مزيد الاهتمام، وليت شعري ما هي مشاعر عائشة وشعورها وهي تسمع النبي ﷺ يحكي لها هذه المراقبة الدقيقة لتعبيراتها ومشاعرها، وأيّ مكانة أحست أنها رفعت لها في نفس حبيبها ﷺ.

ثامنًا: كانت الحياة الزوجية النبوية مأنوسة باللهو الجميل، والعفوية المرحة، والتي تجدد البهجة والفرح، ومن ذلك:

١- ما أخبرت به عائشة رضي الله عنها قالت: زَارَتْنَا سَوْدَةُ يَوْمًا، فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنِي وَبَيْنَهَا، إِحْدَى رِجْلَيْهِ فِي حِجْرِي، وَالأُخْرَى فِي حِجْرِهَا، فَعَمِلْتُ لَهَا حَرِيرَةً، أَوْ قَالَتْ: خَزِيرَةً[2]. فَقُلْتُ: كُلِي، فَأَبَتْ، فَقُلْتُ: لَتَأْكُلِي، أَوْ لَأُلَطِّخَنَّ وَجْهَكِ، فَأَبَتْ، فَأَخَذْتُ مِنَ القَصْعَةِ[3] شَيْئًا فَلَطَّخْتُ بِهِ وَجْهَهَا، فَرَفَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رِجْلَهُ مِنْ حِجْرِهَا لِتَسْتَقِيدَ مِنِّي، فَأَخَذَتْ مِنَ القَصْعَةِ شَيْئًا فَلَطَّخَتْ بِهِ وَجْهِي، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَضْحَكُ، فَإِذَا عُمَرُ يَقُولُ: يَا عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ، يَا عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ! فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«قُومَا فَاغْسِلَا وُجُوهَكُمَا، فَلَا أَحْسِبُ عُمَرَ إِلَّا دَاخِلًا»**[4].

إنه مشهد للأنس البهيج، والضحك الصاخب؛ يتم بعفوية وانطلاق في بيت النبي ﷺ وبين زوجاته، يشارك فيه النبي ﷺ ضاحكًا متفاعلاً.

٢- وقالت عائشة: خَرَجْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ وَأَنَا جَارِيَةٌ لَمْ أَحْمِلِ اللَّحْمَ وَلَمْ أَبْدُنْ، فَقَالَ لِلنَّاسِ: **«تَقَدَّمُوا»**. فَتَقَدَّمُوا، ثُمَّ قَالَ لِي: **«تَعَالَيْ حَتَّى أُسَابِقَكِ»**. فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقْتُهُ، فَسَكَتَ عَنِّي، حَتَّى إِذَا حَمَلْتُ اللَّحْمَ وَبَدُنْتُ وَنَسِيتُ، خَرَجْتُ مَعَهُ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ،

---

(١) «صحيح البخاري» (٥٢٢٨)، و«صحيح مسلم» (٢٤٣٩).

(٢) الخَزِيرَةُ: لَحْمٌ يُقَطَّع صِغَارًا ويُصَبُّ عَلَيْهِ ماءٌ كَثِير، فَإِذَا نَضِج ذُرَّ عَلَيْهِ الدَّقيق، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهَا لَحْمٌ فَهِيَ عَصِيدَة. ينظر: «النهاية» (٢/ ٢٨).

(٣) القصعة: إناء طعام كبير يشبع العشرة. «تاج العروس» (٢٤/ ٥).

(٤) «السنن الكبرى» للنسائي (٨٨٦٨).

فَقَالَ لِلنَّاسِ: «**تَقَدَّمُوا**». فَتَقَدَّمُوا، ثُمَّ قَالَ: «**تَعَالَيْ حَتَّى أُسَابِقَكِ**». فَسَابَقْتُهُ، فَسَبَقَنِي، فَجَعَلَ يَضْحَكُ، وَهُوَ يَقُولُ: «**هَذِهِ بِتِلْكَ السَّبْقَةِ**»(١).

إن الأنس بهذه المسابقة المرحة ليس لحظة آنية، ولكنها فرحة ونشوة تتجدد في النفس كلما تجددت ذكراها، ولذا فإني أحسب أمنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كانت تعيش نشوة الموقف وهي ترويه، كما كانت تعيش نشوته وبهجته حينما كانت تعيشه.

ويا لله ما أروع أن يخزن الزوج في ذكريات زوجته مواقف السعادة والإبهاج، فيطفر الفرح في قلبها كلما تذكرتها.

تاسعًا: الرفق في المعاشرة، والمياسرة، وعدم المعاسرة، ومن ذلك:

ما رواه جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنه ﷺ بعد أن قضى حجه وتهيأ لطواف الوداع، قالت له عائشة تلك الليلة: يا رسولَ الله يرجع الناسُ بعمرة وحجة، وأرجع أنا بحجة! تشير إلى أنها لم تأتِ بعمرة مستقلة قبل حجها، كما صنع بقية أزواج النبي ﷺ، وإنما كانت قارنة بسبب حيضتها، فقال لها رسولُ الله ﷺ: «**يَسَعُكِ طَوَافُكِ بالبيتِ لِحَجِّكِ وعُمْرَتِكِ**». فأبتْ وقالت: يا رسولَ الله، ينطلق الناسُ بحج وعمرة وأنطلق بحج، ويرجع الناس بأجرين وأرجع بأجر واحد! قال: «**إِنَّ لَكِ مِثْلَ مَا لَهُمْ**». قالت: إني أجد في نفسي أني لم أطف بالبيت حتى حججت. وكان رسولُ الله ﷺ رجلاً سهلاً، إذا هويتْ شيئًا تابعها عليه، فدعا أخاها عبد الرحمن، فقال: «**اخْرُجِ بِأُخْتِكَ إِلَى التَّنْعِيمِ، فَإِذَا هَبَطْتَ مِنَ الأَكَمَةِ، فَلْتُهِلَّ بِعُمْرَةٍ، فَإِنَّهَا عُمْرَةٌ مُتَقَبَّلَةٌ، ثُمَّ افْرُغَا مِنْ طَوَافِكُمَا، أَنْتَظِرُكُمَا هَاهُنَا**»(٢).

إن حال السفر وبخاصة في آخره تستهلك الطاقة النفسية، وعادة لا يحتمل المسافر المراجعة وهو على وشك المسير، ولكن النبي ﷺ كان بغاية اللياقة للمياسرة، وتفهم رغائب النفس.

وانظر إلى وصف جابر: وكان ﷺ رجلاً سهلاً إذا هويت شيئًا تابعها عليه. إنه وصف لهذه المياسرة والسهولة، وحسن المعاشرة، والرفق بالأهل، وملاقاة رغباتهم.

---

(١) «مسند أحمد» (٢٦٢٧٧).

(٢) «صحيح البخاري» (١٧٨٨)، و«صحيح مسلم» (١٢١١).

عاشراً: إعطاء الزوجة مكانتها، بالإفضاء إليها بما في النفس، وقبول مشورتها الصائبة، ومن ذلك:

١- حال النبي ﷺ عندما عاد من حراء فزعًا بعد اللقاء الأول مع المَلَك، فهدَّأت خديجة من روعه وطمأنته، ثم أشارت عليه بالذهاب إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، فذهب معها وتحدث معه وسمع منه[(١)].

٢- أمْرُه الناسَ في الحديبية بالتحلل بالنحر والحلق، فتباطأ الناس لشدة تطلعهم لأداء العمرة، فغضب النبي ﷺ، ودخل على أم سلمة مغضبًا، فقالت: اخرج ولا تكلِّمْ أحداً، ثم انحر واحلق، فإذا فعلتَ تبعك الناس، فخرج ﷺ ولم يكلم أحداً، وقصد إلى هديه فنحره، ودعا الحلاق فحلق له، فتواثب الصحابة ينحرون ويحلقون حتى كاد بعضهم أن يقتل بعضًا من الغم؛ لأنهم شعروا أنهم أغضبوا رسول الله ﷺ[(٢)].

وهذا الهدي النبوي كان مخالفًا لعادة قريش، كما قال عمر رضي الله عنه: ما كنا نرى للنساء رأيًا[(٣)]، فخالف النبي ﷺ ما جرت عليه عادة قومه، واختار استشارة المرأة، وأشركها في الرأي، وهذا من دلائل نبوته ﷺ، وأنه لم يكن يستمد هديه من البيئة الاجتماعية، ولكن يتلقاها من الوحي الإلهي.

حادي عشر: وقد كان لأمهات المؤمنين وهن يحففن برسول الله ﷺ، ويطلعن من أحواله على ما لا يطلع عليه غيرهن.. دورهن في حفظ ذلك وروايته للأمة، ليتم احتواء حياته في جلوته وخلوته، وعامة أمره وخاصته، فيتحقق لأمته العلم بكل أحواله، والتأسِّي به في كل أموره.

فكانت أمهات المؤمنين العين الراصدة للأمة على خاصة أمره وما يخفى على غيرهن من شأنه، ومن ذلك:

---

(١) «صحيح البخاري» (٣)، و«صحيح مسلم» (١٦٠).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٧٣١).

(٣) «صحيح البخاري» (٢٤٦٨)، و«صحيح مسلم» (١٤٧٩).

سؤال عدد من التابعين لأمنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ما كان رسول الله ﷺ يصنع في بيته إذا كان عندك؟ فتلقَّت عائشة السؤال بحفاوة، وفتحت نافذة على بيت النبوة، لنرى منها النبي ﷺ في هذه الحالة الخاصة في بيته، ومع أهله، فقالت: كان رسول الله ﷺ إذا خلا في بيته ومع أهله ألين الناس، وأكرم الناس..[1].

ومن ذلك: روايتهن خاصة شأن النبي ﷺ المتعلق بأحكام المعاشرة والغُسْل ونحو ذلك، ومنها صفة غسل الجنابة، وقد رويت عن جمع من أمهات المؤمنين، ومنه:

١- عن مَيْمُونَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: وَضَعْتُ لِرَسُولِ الله ﷺ مَاءً يَغْتَسِلُ بِهِ، فَأَفْرَغَ عَلَى يَدَيْهِ، فَغَسَلَهُمَا مَرَّتَيْنِ مَرَّتَيْنِ، أَوْ ثَلَاثًا، ثُمَّ أَفْرَغَ بِيَمِينِهِ عَلَى شِمَالِهِ فَغَسَلَ مَذَاكِيرَهُ، ثُمَّ دَلَكَ يَدَهُ بِالأَرْضِ، ثُمَّ مَضْمَضَ وَاسْتَنْشَقَ، ثُمَّ غَسَلَ وَجْهَهُ وَيَدَيْهِ، وَغَسَلَ رَأْسَهُ ثَلَاثًا، ثُمَّ أَفْرَغَ عَلَى جَسَدِهِ، ثُمَّ تَنَحَّى مِنْ مَقَامِهِ فَغَسَلَ قَدَمَيْهِ[2].

ومنه ما يتعلق بالمباشرة للصائم:

٢- فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كانَ رَسُول الله ﷺ يُقَبِّلُ وهُو صائمٌ، ويباشرُ وهو صائمٌ، ولكنَّهُ أَمْلَكَكُم لإرْبه[3].

٣- وعنها قالت: كَانَتْ إِحْدَانَا إِذَا كَانَتْ حَائِضًا، فَأَرَادَ رَسولُ الله ﷺ أَنْ يُبَاشِرَهَا، أَمَرَهَا أَنْ تَتَّزِرَ فِي فَوْرِ حَيْضَتِهَا، ثُمَّ يُبَاشِرُهَا..[4].

وبذلك نقلت أمهات المؤمنين وجهًا من الجانب البشري لرسول الله ﷺ، وهو من مواضع الأسوة والاقتداء.

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٦٧٦، ٦٠٣٩)، و«مسند إسحاق بن راهويه» (١٥٥٠)، و«مسند أحمد» (٢٣٠٩٣)، و«صحيح ابن حبان» (٥٦٧٦)، و«فتح الباري» (٢/ ١٦٣)، (١٠/ ٤٦١).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٦٥)، و«صحيح مسلم» (٣١٧).

(٣) «صحيح البخاري» (١٩٢٧)، و«صحيح مسلم» (١١٠٦).

(٤) «صحيح البخاري» (٣٠٢)، و«صحيح مسلم» (٢٩٣).

ومن ثمَّ صارت أمهات المؤمنين مرجعًا للصحابة والتابعين في معرفة أحكام كثيرة مما يجري في بيوتهن، وكان الرجوع إليهن يجلي هذه الأحكام، ويزيل ما يُختَلفُ فيه منها، ومن ذلك:

١- عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: اختلف رهط من المهاجرين والأنصار، فقال الأنصاريون: لا يجب الغسل إلا من الدفق أو من الماء. وقال المهاجرون: بل إذا خالط فقد وجب الغسل. قال: قال أبو موسى: فأنا أشفيكم من ذلك. فقمتُ فاستأذنت على عائشة فأُذِن لي، فقلت لها: يا أماه! -أو يا أم المؤمنين!- إني أريد أن أسألك عن شيء، وإني أستحييك! فقالت: لا تستحي أن تسألني عما كنت سائلاً عنه أمك التي ولدتك، فإنما أنا أمك. قلت: فما يوجب الغسل؟ قالت: على الخبير سقطت، قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا جَلَسَ بَيْنَ شُعَبِهَا الأَرْبَعِ، وَمَسَّ الخِتَانُ الخِتَانَ، فَقَدْ وَجَبَ الغُسْلُ**»(١).

٢- عن سعد بن هشام بن عامر: أنه أتى ابن عباس فسأله عن وتر رسول الله ﷺ؟ فقال ابن عباس: ألا أدلك على أعلم أهل الأرض بوتر رسول الله ﷺ؟ قال: من؟ قال: عائشة، فأتِها فاسألها، ثم ائتني فأخبرني بردها عليك، فانطلقت إليها، فأتيت على حكيم بن أفلح فاستلحقته إليها، فانطلقنا إلى عائشة فاستأذنّا عليها، فأذنتْ لنا، فدخلنا عليها، فقالت: أحكيم؟ فعرفَتْه، فقال: نعم. فقالت: من معك؟ قال: سعد بن هشام. قالت: من هشام؟ قال: ابن عامر. فترحمت عليه وقالت خيراً -وكان أصيب يوم أُحُد- فقلت: يا أم المؤمنين! أنبئيني عن خُلُق رسول الله ﷺ، قالت: ألست تقرأ القرآن؟ قلت: بلى. قالت: فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن. قال: فهممت أن أقوم، ولا أسأل أحداً عن شيء حتى أموت. ثم بدا لي فقلت: أنبئيني عن قيام رسول الله ﷺ. فقالت: ألست تقرأ: يا أيها المزمل؟ قلت: بلى. قالت: فإن الله عَزَّوَجَلَّ افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام نبي الله ﷺ وأصحابه حولاً، وأمسك الله خاتمتها اثني عشر شهراً في السماء، حتى أنزل الله في آخر هذه السورة التخفيف، فصار قيام الليل تطوعًا بعد فريضة. قال: قلت: يا أم المؤمنين! أنبئيني عن وتر رسول الله ﷺ. فقالت: كنا نُعِدّ له سواكه وطهوره، فيبعثه الله ما شاء أن يبعثه من الليل،

(١) «صحيح مسلم» (٣٤٩).

فيتسوك ويتوضأ ويصلي تسع ركعات، لا يجلس فيها إلا في الثامنة، فيذكر الله ويحمده ويدعوه، ثم ينهض ولا يسلم، ثم يقوم فيصلي التاسعة، ثم يقعد فيذكر الله ويحمده ويدعوه، ثم يسلم تسليماً يسمعنا، ثم يصلي ركعتين بعدما يسلم وهو قاعد، فتلك إحدى عشرة ركعة يا بني! فلما سن نبي الله ﷺ وأخذه اللحم، أوتر بسبع، وصنع في الركعتين مثل صنيعه الأول، فتلك تسع يا بني! وكان نبي الله ﷺ إذا صلى صلاة أحب أن يداوم عليها، وكان إذا غلبه نوم أو وجع عن قيام الليل صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة، ولا أعلم نبي الله ﷺ قرأ القرآن كله في ليلة، ولا صلى ليلة إلى الصبح، ولا صام شهراً كاملاً غير رمضان[1].

٣- عن عبيد بن عمير قال: بلغ عائشة أن عبد الله بن عمر يأمر النساء إذا اغتسلن أن ينقضن رؤوسهن. فقالت: يا عجبا لابن عمر هذا! يأمر النساء إذا اغتسلن أن ينقضن رؤوسهن، أفلا يأمرهن أن يحلقن رؤوسهن! لقد كنت أغتسل أنا ورسول الله ﷺ من إناء واحد، ولا أزيد على أن أفرغ على رأسي ثلاث إفراغات[2].

فكانت عائشة وأم سلمة وحفصة وميمونة خزائن علم فيما اطلعن عليه من أحوال النبي ﷺ، ووعينه، وروينه للأمة من بعده.

ثاني عشر: الوفاء لهن، والعيش مع ذكراهن بجميل التذكر وحسن العهد.

فكان ﷺ يستصحب ذكراهن الحسنة، ويعيش الوفاء للعهد معهن، بحسن التواصل مع صلاتهن، وذكر الفضائل وجميل الذكرى، فعن عائشة قالت: جاءت عجوزٌ إلى النبي ﷺ وهو عندي، فقال: «**مَنْ أَنْتِ؟**». قَالَتْ: أَنَا جَثَّامَةُ المُزَنِيَّةُ، فَقَالَ: «**بَلْ أَنْتِ حَسَّانَةُ المُزَنِيَّةُ، كَيْفَ أَنْتُمْ؟ كَيْفَ حَالُكُمْ؟ كَيْفَ كُنْتُمْ بَعْدَنَا؟**». قَالَتْ: بِخَيْرٍ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ الله، فَلَمَّا خَرَجَتْ قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، تُقْبِلُ عَلَى هَذِهِ العَجُوزِ هَذَا الإِقْبَالَ؟ فَقَالَ: «**إِنَّهَا كَانَتْ تَأْتِينَا زَمَنَ خَدِيجَةَ، وَإِنَّ حُسْنَ العَهْدِ مِنَ الإِيمَانِ**»[3].

(١) «صحيح مسلم» (٧٤٦).
(٢) «صحيح مسلم» (٣٣١).
(٣) «المستدرك» (٤٠).

يا لله! كيف يسمي الزمن كله زمن خديجة؟ ثم يحتفي بمن كانت تأتيهم ذاك الزمن إكراماً لذاك العهد، وتلك العشرة، حتى لاحظت عائشة إقباله عليها باهتمام ولهفة غير معتادة، جعلتها تتساءل عن السر في ذلك، فكان الجواب النبوي: «**إِنَّهَا كَانَتْ تَأْتِينَا زَمَنَ خَدِيجَةَ**». رباه كيف لو أتت خديجة إذن؟!

وعنها قالت: اسْتَأْذَنَتْ هَالَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ أُخْتُ خَدِيجَةَ عَلَى رَسُول الله ﷺ فَعَرَفَ اسْتِئْذَانَ خَدِيجَةَ، فَارْتَاحَ لِذَلِكَ، فَقَالَ: «**اللهُمَّ هَالَةُ**». قَالَتْ: فَغِرْتُ، فَقُلْتُ: مَا تَذْكُرُ مِنْ عَجُوزٍ مِنْ عَجَائِزِ قُرَيْشٍ، حَمْرَاءِ الشِّدْقَيْنِ، هَلَكَتْ فِي الدَّهْرِ، قَدْ أَبْدَلَكَ الله خَيْراً مِنْهَا، قال: «**مَا أَبْدَلَنِي اللهُ خَيراً منْهَا، قَدْ آمَنَتْ بِي إِذْ كَفَرَ النَّاس، وصدَّقَتْنِي إذ كَذّبَنِي النَاسُ، وَوَاسَتني بمَالهَا إذ حَرَمَني النَاسُ، وَرَزَقَني اللهُ وَلَدَهَا إذ حَرَمَني أَوْلادَ النسَاء**»[1].

وفي رواية قَالَتْ: فَتَمَعَّرَ وَجْهُهُ تَمَعُّراً مَا كُنْتُ أَرَاهُ إِلَّا عِنْدَ نُزُولِ الوَحْيِ، أَوْ عِنْدَ المَخِيلَةِ حَتَّى يَنْظُرَ: أَرَحْمَةٌ أَمْ عَذَابٌ؟[2].

إنك لتعجب إذا كانت هذه لهفته لأخت خديجة، فكيف ستكون حاله لو كانت القادمة خديجة ذاتها؟ لقد توفيت خديجة ولكنها بقيت حيَّة في قلبه، وبقي وفياً لذكراها، وحسن التعاهد لمعارفها وقرابتها، ولم يطفئ هذه الذكرى واللهفة وجود تسع نسوة بعدها، يحففن بحياته ويحتفين بها.

وانظر غضبه لها ودفاعه عنها، حتى وصفت عائشة ذلك الانفعال بأنه انفعال نادر لا تراه عليه إلا حين نزول الوحي، أو رؤيته السحاب الذي يخشى أن يكون عقوبة، فانفعل غضباً حتى بلغ هذه الحالة؛ وفاءً لخديجة ودفاعاً عنها.

وكان يذبح الشاة فيرسل بها أعضاء إلى صواحب خديجة، يتعاهدهن بالبر[3]، كأنما خديجة حاضرة وهي التي ترسل لهن.

إنه الوفاء، وحسن العهد، وإن حسن العهد من الإيمان.

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٨٢١)، و«صحيح مسلم» (٢٤٣٧).

(٢) «مسند أحمد» (٢٥١٧١)، وأصله في «صحيح مسلم» (٢٤٣٧).

(٣) «صحيح البخاري» (٣٨١٦)، و«صحيح مسلم» (٢٤٣٥).

خلاصات:

١- كانت زوجات النبي ﷺ الإحدى عشرة متنوعات في قبائلهن، وطباعهن، وأعمارهن، وحال آبائهن؛ ولكن ائتلفن على محبته وتعظيمه.

٢- كانت حياتهن مع النبي ﷺ حياة واقعية، يحصل فيها الغضب، والعتاب، والهجر، والغيرة؛ لأن النبي ﷺ أفسح لهن مساحة واسعة يُعَبِّرن فيها عن انفعالاتهن.

٣- كان النبي ﷺ يعيش معهن كزوج أولاً، وليس كقائد أو زعيم، ولذا عشن معه الحياة الزوجية السوية.

٤- عشن كلهن مع النبي ﷺ حياة البساطة وكفاف العيش، واخترن الله ورسوله والدار الآخرة على التنعم بترف الدنيا وزينتها.

٥- كان ﷺ يؤدبهن ويوجههن عند الحاجة تأديباً رفيقاً وتوجيهاً حكيماً.

٦- كان الحب الزوجي شعيرة معلنة في حياة النبي ﷺ الزوجية.

٧- يكون التعبير عن هذا الحب بالكلمات العذبة واللفتات الجميلة.

٨- من شعائر الحياة الزوجية الإشعار بالأهمية والمشاركة في الاهتمام.

٩- خدمة النبي ﷺ لأهله في البيت مشاركة وجدانية، ورسالة حب واهتمام.

١٠- في بيت النبي ﷺ مشاهد من الأنس المبهج واللهو الجميل.

١١- كان ﷺ رفيقاً سهلاً، إذا هويت زوجته شيئاً تابعها عليه.

١٢- إعطاء الزوجة مكانتها بالإفضاء إليها ومشاورتها.

١٣- كان حسن العشرة متبوعاً بالوفاء وحسن العهد، ورعاية الذكرى، واستدامة المعروف.

حديثه مع أهله

أولاً: حديث الرجل مع زوجته مما يعمق العلاقة ويعمر الحياة بالود، ويجعل لكلٍّ من الزوجين حضوراً قويّاً في حياة الآخر، وهذا ما نراه ماثلاً في حياة النبي ﷺ، في لفتات جميلة من حديثه مع أهله..

فهذا ابن عباس رضي الله عنهما يصف الليلة التي بات فيها مع النبي ﷺ عند زوجته ميمونة -وهي خالة ابن عباس- يقول: نام النبي ﷺ مع أهله في طول الوسادة، ونمتُ في عرضها، قال ابن عباس: فتحدث النبي ﷺ مع أهله ساعة، ثم نام...[1].

لاحظ أنه ﷺ يُجري قبل النوم حديث التواد والمؤانسة مع زوجته، ولا يأوي إلى البيت وهو يحمل معه همومه وأتعابه، وإنما يحمل إلى البيت بهجته ومؤانسة أهله، وآخر ما تذكره منه زوجته قبل أن تنام، هو حديث المُوادة قبل النوم!

وشيء أعجب من ذلك! تقول عائشة رضي الله عنها: كان النبي ﷺ إذا أذّن الفجر قام فصلى ركعتين خفيفتين، فإن كنتُ مستيقظة تحدث معي، وإن كنت نائمة اضطجع حتى يأتي بلال فيؤْذِنه للصلاة[2].

إن معنى ذلك: أن عائشة تستفتح يومها قبل صلاة الفجر بالحديث مع النبي ﷺ، وأنه كان يراعي حالها؛ فإن كانت مستيقظة تحدث معها، وإن كانت نائمة لم يوقظها؛ لأنها إلى النوم أحوج.

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٥٦٩)، و«صحيح مسلم» (٢٥٦).

(٢) «صحيح البخاري» (١١٦١)، و«صحيح مسلم» (٧٤٣).

فانظر إلى المرأة في حياة النبي ﷺ، تنام مع حديث النبي ﷺ، وتستيقظ مع حديثه!

ثانيًا: كان النبي ﷺ ينظر إلى الحديث مع الزوجة كحاجة نفسية، تحتاج إليها المرأة حتى تأنس حياتها بزوجها، ولذلك كانت تأتيه أزواجه في رمضان إلى معتكَفه، رغم أن المعتكِف منهي عن أيّ متعة جسدية مع زوجته، فتأتيه صفية إلى المسجد في هزيع الليل..؛ لأن هناك متعة وجدانية لا بدّ منها، وهي وجبة الحديث مع الزوج..

تقول صفية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أتيت إلى رسول الله ﷺ وهو معتكف، فتحدثت معه ساعة، فلما أردتُ أن أنصرف قام معي ليَقْلِبني إلى بيتي[1]. وكان بيتها خارج المسجد، وما خرج النبي ﷺ معها ليحرسها، فإن المدينة كانت آمنة مطمئنة؛ لكن خرج معها ليؤنسها في الطريق.

ثالثًا: ومن الحديث الذي يجري بينه ﷺ وبين زوجاته، حديث التعليم، وإجابته عن تساؤلاتهن وما يستشكلنه، فيوضح المراد ويزيل الإشكال.

وهذا يبين المساحة الواسعة التي أفسحها ﷺ للحوار العلمي، تفكراً، واستنتاجًا.

ولذا أوردن عليه أسئلتهن واستشكالاتهن، فأحسنَ تلقيها واحتفى بها إجابةً وتبيينًا، قال ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ: كانت عَائِشَة زَوْج النَّبِيِّ ﷺ لَا تَسْمَعُ شَيْئًا لَا تَعْرِفُهُ إِلَّا رَاجَعَتْ فِيهِ حَتَّى تَعْرِفَهُ، وَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ حُوسِبَ عُذِّبَ**». قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ: أَوَلَيْسَ يَقُولُ الله تَعَالَى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٨]؟ قَالَتْ: فَقَالَ: «**إِنَّمَا ذَلِكِ العَرْضُ، وَلَكِنْ مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ يَهْلِكْ**»[2].

وكان له ﷺ حوارات مع زوجاته أمهات المؤمنين تبين يقظتهن في تلقي العلم، وتساؤلهن عما يُشكِل، وتجاوبه معهن بالإيضاح والبيان، ومن ذلك:

١- عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: دَخَلَتْ عَلَيَّ عَجُوزَانِ مِنْ عُجُزِ يَهُودِ المَدِينَةِ، فَقَالَتَا لِي: إِنَّ أَهْلَ القُبُورِ يُعَذَّبُونَ فِي قُبُورِهِمْ، فَكَذَّبْتُهُمَا وَلَمْ أُنْعِمْ أَنْ أُصَدِّقَهُمَا[3]، فَخَرَجَتَا وَدَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ،

(١) «صحيح البخاري» (٢٠٣٨)، و«صحيح مسلم» (١٢٧٥).

(٢) «صحيح البخاري» (١٠٣)، و«صحيح مسلم» (٢٨٧٦).

(٣) وَلَمْ أُنْعِمْ أَنْ أُصَدِّقَهُمَا: أي لم تَطِب نفسي أن أصدقهما. ينظر: «شرح السيوطي على مسلم» (٢/٢٤٨).

فَقُلْتُ لَهُ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ عَجُوزَيْنِ وَذَكَرْتُ لَهُ، فَقَالَ: صَدَقَتَا، إِنَّهُمْ يُعَذَّبُونَ عَذَابًا تَسْمَعُهُ البَهَائِمُ كُلُّهَا، فَمَا رَأَيْتُهُ بَعْدُ فِي صَلَاةٍ إِلَّا تَعَوَّذَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ[1].

٢- عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ أُمِّ المُؤْمِنِينَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**يَعُوذُ عَائِذٌ بِالبَيْتِ، فَيُبْعَثُ إِلَيْهِ بَعْثٌ، فَإِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءَ مِنَ الأَرْضِ خُسِفَ بِهِمْ**». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، وفيهم أسواقهم ومن ليس منهم، فَكَيْفَ بِمَنْ كَانَ كَارِهًا؟ قَالَ: «**يُخْسَفُ بِهِ مَعَهُمْ؛ وَلَكِنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى نِيَّتِهِ**»[2].

٣- وعَنْ حَفْصَةَ قَالَتْ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنِّي لَأَرْجُو أَلَّا يَدْخُلَ النَّارَ أَحَدٌ إِنْ شَاءَ الله تَعَالَى مِمَّنْ شَهِدَ بَدْراً، وَالحُدَيْبِيَةَ**». قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، أَلَيْسَ قَدْ قَالَ الله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١]؟ قَالَ: «**أَلَمْ تَسْمَعِيهِ يَقُولُ:** ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧٢]»[3].

٤- وعن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كَانَ أَكْثَرُ دُعَاء رسول الله ﷺ: «**يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**». قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، مَا لِأَكْثَرِ دُعَائِكَ: يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ؟ قَالَ: «**يَا أُمَّ سَلَمَةَ، إِنَّهُ لَيْسَ آدَمِيٌّ إِلَّا وَقَلْبُهُ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الله، فَمَنْ شَاءَ أَقَامَ، وَمَنْ شَاءَ أَزَاغَ**»[4].

رابعًا: وكما كان النبي ﷺ متحدثًا جيداً مع زوجاته، كان أيضًا مستمعًا جيداً معهن، ومن اللطائف المعجِبة في هذا: حديث عائشة وهي تقص على النبي حديث أم زرع، وهو حديث طويل، فيه حكاية إحدى عشرة امرأة اجتمعن وتعاهدن على أن تصف كل واحدة زوجها، فوصفت كل واحدة زوجها، فمنهن الشاكرة، ومنهن الشاكية؛ حتى قالت الحادية عشرة: زوجي أبو زرع، فما أبو زرع، أناسَ[5] من حُلِيٍّ أُذُنِي، وملأ من شحم عَضُدَي،

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٣٦٦)، و«صحيح مسلم» (٥٨٦).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٨٨٢).

(٣) «صحيح مسلم» (٢٤٩٦).

(٤) «جامع الترمذي» (٣٥٢٢).

(٥) أناس: كلُّ شَيْءٍ يَتَحرَّك مُتَدَلِّيا، تُريد أَنَّهُ حَلاَّهَا قِرَطَةً وشُنُوفًا تَنُوسُ بأُذُنَيْها. ينظر: «النهاية» (٥/ ١٢٧).

وبَجَحني[١] فبجَحت إليَّ نفسي، وجدني في أهل غُنَيمةٍ بِشِق[٢]، فجعلني في أهل صهيل وأطيط، ودائس ومنق[٣]، فعنده أقول فلا أُقَبّح، وأرقد فأتصبح[٤]، وأشرب فأتقمح[٥]، ثم قالت: خرج أبو زرع والأوطاب تمخض[٦]، فلقي امرأة معها ولدان لها كالفهدين، يلعبان من تحت خصرها برمانتين، فطلقني ونكحها، فنكحتُ بعده رجلاً سريًا، ركب شريًا[٧]، وأخذ خطيًا[٨]، وأراح علي نَعَمًا ثَريًا، وأعطاني من كل رائحة زوجًا[٩]، وقال: كلي أمَّ زرع وميري أهلك[١٠]، قالت: فلو جمعتُ كل شيء أعطانيه ما بلغ أصغر آنية أبي زرع!

فلما فرغتْ عائشة قال لها النبي ﷺ: «**أَنَا لَكِ كَأَبِي زَرْعٍ لِأُمِّ زَرْعٍ، غَيْرَ أَنِّي لَا أُطَلِّقُ**»[١١].

ولاحظ هذه الإضافة الجميلة؛ حيث أعطى عائشة هذا الأمان من مصير أم زرع مع زوجها، فقد كان أبو زرع إنسانًا كريمًا ورجلاً رائعًا، إلا أنه طلق! والنبي أفضل منه، ولن يُطلِّق!

وانظر إلى جواب عائشة رضي الله عنها قالت: بل أنتَ -بأبي وأمي- خير من أبي زرع!

---

(١) بَجَّحَنِي فَبَجِحْتُ: أَيْ فرّحَني ففَرِحْت. ينظر: «النهاية» (١/ ٩٦).

(٢) غُنَيمة بِشِقٍّ: يُقَالُ هُمْ بِشِقٍّ مِنَ العَيْشِ إِذَا كَانُوا فِي جَهْد، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَّمْ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾ [النحل: ٧]، وأصلُه مِنَ الشِّقِّ: نصفِ الشَّيْءِ. ينظر: «النهاية» (٢/ ٤٩١).

(٣) الدَّائِسُ: هُوَ الَّذِي يَدُوسُ الطَّعامَ ويدُقّه بالفدّانِ ليُخْرِجَ الحبَّ مِنَ السُّنبل، ومُنَقٍّ هُوَ الَّذِي يُنَقِّي الطَّعام: أَيْ يُخْرجه مِنْ قِشْره وتِبْنِه. ينظر: «النهاية» (٢/ ١٤٠)، (٥/ ١١١).

(٤) فأَتَصَبَّحُ: أرادَت أَنَّها مكْفيَّة، فَهِيَ تَنَامُ الصُّبْحَة. ينظر: «النهاية» (٣/ ٧).

(٥) فأَتَقَمَّح: أرادت أَنَّهَا تَشْرب حَتَّى تَرْوَى وتَرْفَع رَأْسَهَا، ينظر: «النهاية» (٤/ ١٠٦).

(٦) الأَوْطَابُ: جَمْعُ وَطْبٍ؛ وَهُوَ وِعَاءُ اللَّبَنِ، وتمخض: أَي تحرّك والمخيض من اللَّبن هُوَ الَّذِي حرك وعاؤه ليخرج زبده. ينظر: «فتح الباري» (١/ ١٨٦).

(٧) رَكب شَرِيًّا: أَيْ رَكِبَ فَرسًا يَسْتَشْرِي فِي سَيْره، يَعْنِي يَلِجُّ ويَجدّ. ينظر: «النهاية» (٢/ ٤٦٩).

(٨) وَأَخَذَ خَطِّيًّا: أي الرُّمح المنسوبُ إِلى الخَط، وهو سِيف البحر عند عُمان والبحرين؛ لأنَّها تُحمل إليه وتُثقَّف به. ينظر: «النهاية» (٢/ ٤٨).

(٩) مِنْ كُلِّ رَائِحَةٍ زَوجًا: أَيْ مِمَّا يَرُوح عَلَيْهِ مِنْ أَصْناف المَالِ أعْطاني نَصيبا وصِنْفا. ينظر: «النهاية» (٢/ ٢٧٣).

(١٠) مِيرِي أَهْلَكِ: أَيْ صِلِيهِمْ وَأَوْسَعِي عَلَيْهِمْ بِالمِيرَةِ بِكَسْرِ المِيمِ وَهِيَ الطَّعَامُ. ينظر: «فتح الباري» (٩/ ٢٧٥).

(١١) «صحيح البخاري» (٥١٨٩).

وأعجب لهذه اليقظة المشاعرية عند عائشة، حين قالت: بل أنت خير من أبي زرع، وصدقت بأبي هو وأمي ﷺ، فقد نالت به شرف الدنيا والآخرة.

خامسًا: وكان النبي ﷺ إذا تحدث مع زوجاته يختار الشيء الذي يهمهن ويعنيهن، والذي تتفاعل معه مشاعرهن، ولذلك نرى النبي ﷺ بعد أن رجع من غزوة خيبر، ودخل في بيت عائشة بعد غيابه قرابة شهر، وكانت عائشة قد وضعت لُعَبَها في فُرجَة في الجدار، ووضعت عليها ستراً، وهيّأتها لتكون بيتًا للُعَبِها، فلما دخل النبي ﷺ وفتح الباب دخل معه تيار الهواء فحرك الستر، فانكشفت اللعب، فجعل النبي ﷺ ينظر إلى اللعب ويقول: «**عَائِشُ مَا هَذِهِ؟!**».

-إنه يعرف أنها لعبها؛ لكنه تساؤل لإجراء الحديث معها، وإظهار الاهتمام بما يهمها- قالت: هذه بناتي يا رسول الله! قال: «**مَا هَذَا الَّذِي بَيْنَهُنَّ؟**». -وكانت قد جعلت بينهن فرسًا له أجنحة من جلد- قالت: يا رسول الله هذا فرس! فجاء السؤال الثالث من أجل تحريك الحديث؛ قال: «**سُبْحَانَ اللهِ! فَرَسٌ لَهُ أَجْنِحَةٌ؟!**». فقالت: يا رسول الله، أما علمت أن نبي الله سليمان له فرس لها أجنحة[1]!

وهنا نتعجب..! فإن عائشة ما عرفت سليمان إلا من محمد ﷺ؛ لكنها تجارت في الحديث؛ لأن النبي ﷺ جذب اهتمامها إليه، وتحدث معها فيما يهمها.

إن الحديث النبوي مع الزوجات هو الحديث الذي يثمر الود، ويعمّق العلاقة، ويجعل للحياة بهجة ومذاقًا، كما أن من أشد ما يطفئ وهج العلاقة الزوجية خفوت التفاعل، وطول الصمت، وكثرة الوجوم.

خلاصات:

١- كان له ﷺ حديث مع أهله قبل النوم، وحديث عند الاستيقاظ، فآخر ما تغفو عليه زوجته حديثه، وأول ما تستفتح به يقظتها حديثه.

٢- كان حديثه مع أهله تلبية للحاجة النفسية، ولذا كن يجتمعن إليه، فيتحدث إليهن وهو معتكف في المسجد.

٣- كان يتحدث إليهن فيما يهمهن ويعنيهن، وتتفاعل معه مشاعرهن.

٤- وكما كان ﷺ متحدثًا معهن باهتمام، كان مستمعًا إليهن باحتفاء.

(١) «سنن أبي داود» (٤٩٣٢).

الرسول ﷺ أباً

الأبوة هذه العاطفة الرائعة الجميلة التي يتذوقها الأب بنشوة وهو ينادي ولده: يا بني! أو يستمع لنداء ابنه: يا أبت!

وجاء أنبياء الله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يقدمون للبشرية النموذج الأكمل للأبوة، فنراها في هتاف نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ بابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾ [هود: ٤٢]، ونداء يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ ليوسف: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ﴾ [يوسف: ٥]، ونداء لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ﴾ [لقمان: ١٣]، وتتابع رسل الله آباء لذرياتهم: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗ﴾ [الرعد: ٣٨]؛ حتى جاء خاتمهم نبينا ﷺ ليعيد لهذه العاطفة استواءها الفطري، وعمقها العاطفي والتربوي.

بُعث نبينا ﷺ وقد تشوهت الأبوة في البيئة العربية إلى حدِّ التوحش الذي جعل بعض العرب يقتل ولده؛ فَيُقتلُ الأبناء خشية الفقر، وتُقتل البنات خشية العار.

تشوهت عاطفة الأبوة حتى كان إظهار الحب والرحمة بالأبناء مظهراً من مظاهر الضعف والخوَر يتحاشونه، فيُخفون عاطفة الحب الأبوي، ويكابرونها!

جاء الأشعث بن قيس إلى النبي ﷺ فسأله: «**هَلْ لَكَ وَلَدٌ؟**». قال: بلغني وأنا في الطريق إليك أنه وُلِد لي وَلَدٌ، ولأن يكون لي عشاء أُطعمه أصحابي أحبُّ إليَّ منه. فقال ﷺ: «**لَا تَقُولَنَّ ذَلِكَ؛ فَإِنَّ فِيهِمْ قُرَّةَ عَيْنٍ، وَأَجْراً إِذَا قُبِضُوا**»[1].

(١) «مسند أحمد» (٢١٨٤٠).

لقد كان الأشعث حديث عهد بجاهلية، فرأى أن إظهار ابتهاجه بولده مما لا يليق بسيادته، فكان في جواب النبي ﷺ إعادة للتوازن الفطري وإعلانًا له: «**لَا تَقُولَنَّ ذَلِكَ؛ فَإِنَّ فِيهِمْ قُرَّةَ عَيْنٍ..**».

ورأى أعرابي النبي ﷺ يقبل الحسن فقال: أتقبلون صبيانكم؟! إن لي عشرةً من الولد ما قَبَّلتُ واحداً منهم. فنظر إليه النبي ﷺ وقال: «**مَا أَمْلِكُ إِنْ كَانَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ نَزَعَ مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ؟ مَنْ لَا يَرْحَمُ، لَا يُرْحَمُ**»(١).

وهكذا.. جاء الرسول الرؤوف الرحيم، ليعلن الحب ويظهر الرحمة، ويعلم الأمة أن المشاعر الأبوية شعائر تعبدية تستنزل بها رحمة الرحمن الرحيم، **وكان من معالم أبوته الكريمة** ﷺ:

أولاً: إعلان الفرح بالأبناء، والاستبشار والتبشير بهم، فها هو يقبل على أصحابه يبشرهم ويشركهم فرحته، فيقول: «**وُلِدَ لِي اللَّيْلَةَ غُلَامٌ، فَسَمَّيْتُهُ بِاسْمِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ**»(٢).

قارن هذا الموقف بموقف الأشعث بن قيس عندما بلغه خبر ولده، لتتضح النقلة المشاعرية التي نقلهم إليها النبيُّ ﷺ؛ ليعيد الأمة من حالة الجفاء المشاعري إلى الاستواء الفطري.

ثانيًا: كان يمارس الرحمة والحب لأبنائه شعيرة ظاهرة معلنة، كان يخطب يومًا على المنبر، فجاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران، يمشيان ويعثران، فقطع كلامه ونزل من المنبر فحملهما، ثم عاد إلى المنبر ووضعهما بين يديه، ثم قال: «**صَدَقَ اللهُ: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾** [التغابن: ١٥] **نَظَرْتُ إِلَى هَذَيْنِ الصَّبِيَّيْنِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ فَلَمْ أَصْبِرْ حَتَّى قَطَعْتُ حَدِيثِي وَرَفَعْتُهُمَا**»(٣).

وتأمل كم يحمل قوله: «**فَلَمْ أَصْبِرْ**». من معاني الرحمة والإشفاق على عثرات الطفولة، والفرح بتدرج خَطْوها، ولذا قال أنس: لم أرَ أحداً أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ(٤).

(١) «صحيح البخاري» (٥٩٩٧)، و«صحيح مسلم» (٢٣١٧، ٢٣١٨).
(٢) «صحيح مسلم» (٢٣١٥).
(٣) «سنن أبي داود» (١١٠٩)، و«جامع الترمذي» (٣٧٧٤).
(٤) «صحيح مسلم» (٢٣١٦).

ثالثًا: كان ﷺ يقدم هذا الحب سحّاً غدَقاً، يغمر أبناءه حتى تتروى به نفوسهم، يصف أبو هريرة مشهداً من مشاهد الحب الأبوي الجميلة، فنقرؤه وكأنما نراه عِياناً، ونتفاعل معه وكأنا نعيشه حاضراً؛ قال أبو هريرة: خرج النبي ﷺ في نحر الظهيرة، فمشى حتى وقف بفِناء بيت فاطمة، فنادى: «**أَثَمَّ لُكَعُ، أَثَمَّ لُكَعُ؟**». وهو نداء تصغير وتمليح، أي: أين الصغير، أين الصغير؟

وسمعت فاطمة نداء أبيها، وسمع الصبي نداء جدِّه، فبادر بالخروج إليه، فأمسكته أمه واحتبسته حتى تهيئه لمقابلة أبيها الذي جاء لزيارته، فغسلته وألبسته قلادة من قَرَنْفُل يلبسها الصبيان، ثم أطلقته، فلما أبصره رسول الله ﷺ مدَّ له يديه، فتجاوب الصبي مع أبيه ومدَّ له يديه، واشتد في عَدْوه حتى ألقى بنفسه في حِجر النبي ﷺ، والتزم الصدر الرحيم، فالتزمه النبي ﷺ، وجعل يشمه ويقبله، ويَفغَر فمه ويضع فمه عليه، وهو يقول: «**اللهُمَّ إِنِّي أُحِبُّهُ، فَأَحِبَّهُ، وأَحِبَّ مَن يُحبُّه**»[1].

ورأى أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما رأى، وسمع ما سمع، وتجاوبت عاطفته مع عاطفة النبي ﷺ، فكان إذا رأى الحسن بعد ذلك دمعت عيناه، وكأنه يعيش ذاك المشهد العاطفي المؤثر، وكان يقول: ما كان أحدٌ أحبَّ إليّ من الحسن بن عليٍّ بعد ما قال رسول الله ﷺ ما قال[2].

ولنا أن نتساءل: إذا كان هذا تأثُّر أبي هريرة لما رأى ذلك المشهد، فكيف بتأثر أم الحسن فاطمة عَلَيْهَا السَّلَامُ، والتي جرى كل ذلك على مرأى ومسمع منها، أيّ طفرةِ حبٍّ وإسعاد غمرت مشاعرها ساعتها تلك!

إن هذا الإعلان عن الحب بالقُبلة الأبوية، واللمسة الحانية، وكلمة الحب الجميلة تقرع سمع الطفل وتملأ قلبه، معلنة مكانته في قلب أبيه، وإنها لوجبة مشاعرية يتلقاها الأبناء من آبائهم، لتُحَقِّق لهم الارتواء العاطفي والاستواء النفسي.

(١) «صحيح البخاري» (٢١٢٢)، و«صحيح مسلم» (٢٤٢١).
(٢) «صحيح البخاري» (٥٨٤٤).

رابعًا: ولحيوية العلاقة بينه وبين أبنائه ﷺ، كان يتطامن بهمه إلى همومهم، ويتنزل إلى مستوى عقولهم، فيلاعبهم بما يهوون، ويلاطفهم بما يحبون، ويعيش سروره بسرورهم..

كان يلاعب ابنه الحسن وهو طفل، فيخرج له لسانه، فيهش الصبي إذا رأى حمرة لسان النبي ﷺ[1]، ولا شك أنه ﷺ كان يتفاعل مع ضحكه بالضحك، ويعيش معه هذه الفرحة الطفولية.

وخرج يومًا بابنه الحسن إلى الصلاة، فوضعه إلى جنبه وصلى بالناس، فسجد في أثناء صلاته سجدة أطالها، قال شداد بن الهاد: فرفعت رأسي، فإذا الصبي على ظهر رسول الله ﷺ والنبي ساجد، فلما قضى صلاته قال الناس: يا رسول الله، إنك سجدت سجدة أطلتها، حتى ظننا أنْ قد حدث أمر أو أنه يوحى إليك، فقال: «**كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ، وَلَكِنَّ ابْنِي ارْتَحَلَنِي، فَكَرِهْتُ أَنْ أُعْجِلَهُ حَتَّى يَقْضِيَ حَاجَتَهُ**»[2].

إن ركوب الصبي ظهر أبيه رسول الله ﷺ في الصلاة، يدلنا على أن هذه حال قد ألفها وأحبها، وأن هذا الفعل كان ملاعبة اعتادها من رسول الله ﷺ، ولذا لما رأى النبي ﷺ ساجداً بادر إلى ركوب ظهره كما تعود أن يفعل! وانظر هذه السعة في قلب النبي ﷺ وخلقه، حيث ثبت ساجداً حتى يتم الصبي حاجته في الاستمتاع واللعب، وكره أن يعجله فيقطع عليه أُنسه ومتعته.

لقد جمع النبي ﷺ في هذه العبادة عبادات: سجوده لله، وإيناس الصبي وإسعاده، وتعليم الأمة حب الأطفال، والتعبد لله بإسعادهم وإدخال البهجة في حياتهم.

خامسًا: كان الحب النبوي يكبر مع الأبناء، فكما كان ﷺ يغدق الحب على بناته صغاراً، كان يغدقه عليهن كباراً، فكان يزور فاطمة رضي الله عنها في بيتها وتزوره في بيته، ويتعاطى معها مشاعر الحب وشعائره، فكانت إذا زارته قام إليها ورحب بها قائلاً: «**مَرْحَبًا بِابْنَتِي**»[3]،

(١) «مسند أحمد» (١٦٨٤٨).

(٢) «السنن الكبرى» للنسائي (١١٤١).

(٣) «صحيح البخاري» (٣٦٢٣)، و«صحيح مسلم» (٢٤٥٠).

ثم أخذ بيدها وقبَّلها، وأجلسها مكانه الذي كان جالسـًا فيه؛ مبالغة في الحفاوة والمحبة والإكرام، وإذا زارها قامت إليه ورحبت به، وأخذت بيده وقبّلته، وأجلسته مكانها، في مشهد هو غاية في الحب والاحترام والإكرام.

كان هذا الحب الأبوي الدافق من رسول الله ﷺ لابنته فاطمة، يُتلقّى بحب الابنة البارة التي تتذوق حبه، وتبادله إياه محبة واحتفاءً وبراً.

وأرسلت ابنته زينب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فداءَ زوجِها أبي العاص بن الربيع، وكان قلادتها التي ألبستها إياها أمها خديجة ليلة زفافها إلى زوجها، فلما رآها النبي ﷺ رقّ لها رقة شديدة، وقال لأصحابه: «**إِنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تُطْلِقُوا لَهَا أَسِيرَهَا، وَتَرُدُّوا عَلَيْهَا مَالَهَا، فَافْعَلُوا**»[1].

هذه الرقة الشديدة لمرأى قلادة ابنته التي أرسلتها، تجعلنا نتساءل: كيف ستكون رقته وتأثره إذا رآها هي؟ وأي عاطفة حب سيغمرها به حين يتلقَّاها؟!

إن هذه المشاعر النبوية حبّـًا ورحمة مع بناته وهن زوجات وأمهات، تبين لنا أن الأبناء يكبرون ويكبر حبهم معهم، وليسوا لعبـًا يتلهى بهم صغاراً ويهملون كباراً؛ ولذا استمر هذا الحب الأبوي النبوي مع بناته متدفقـًا غامراً وهن بنيات يدرجن في بيته، وحين كبرن وصرن أمهات يسكنّ في بيوتهن.

سادسـًا: كان النبي الأب ﷺ يجمع مع الحب الجميل حسنَ التعليم، والتربية الكريمة القائمة على الإقناع واللطف في التعليم.

كان مرة يقسم تمراً من تمر الصدقة، ومعه ابنه الحسن، وهو صبي صغير، فلما فرغ رفع ابنه ليحمله، فإذا في فمه تمرةٌ من تمر الصدقة، فأخرجها من فمه بلعابها وألقاها مع التمر، وهو يقول له: «**كَخْ كَخْ! أَلْقِهَا، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّا لَا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ؟!**»[2].

إذن: هذا المشهد يجمع الرفق في التعليم، مع الإقناع وتجلية السبب المانع.

(١) «سنن أبي داود» (٢٦٩٢).

(٢) «صحيح البخاري» (١٤٩١)، و«صحيح مسلم» (١٠٦٩).

وقوله: «**كَخْ كَخْ**»! هي كلمة تقال للأطفال في سن مبكرة تتضمن معنى النهي الرفيق؛ ولكنه ﷺ أتبعها ببيان السبب، فهو لم يأخذ التمرة من فمه شحًا بها عليه، ولكن لأنها لا تحل له، فهي من الصدقة التي تدفع للمساكين!

ثم لك أن تلاحظ قوله ﷺ: «**أَمَا عَلِمْتَ أَنَّا لا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ**». أي أنا وأنت لا نأكل منها؛ حتى يفهم هذا الطفل الصغير أن هذا حكم يشمله هو وأباه رسول الله ﷺ، وهذا تعليم للطفل، وزرع للقناعة في نفسه.

وعندما بلغه أن ابنته فاطمة جاءت إلى بيته تسأله أن يُخدمها خادمًا من رقيقٍ جيء بهم إليه، ذهب إليها ليلاً في بيتها، قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فدخل علينا رسول الله ﷺ وقد أخذنا مضاجعنا، فجلس بيننا حتى وجدت برد قدمه على صدري، ثم قال: «**أَلَا أَدُلُّكُمَا عَلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ؟ إِذَا أَوَيْتُمَا إِلَى فِرَاشِكُمَا، فَكَبِّرَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَسَبِّحَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَاحْمَدَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، فَهَذَا خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ**»[(١)].

ثم قال: «**والله لا أُخدِمُكما خَادِمًا، وَأَدَعُ أَهْلَ الصُّفَّةِ تُطْوَى بُطُونُهُمْ مِنَ الجُوعِ، ولكِنْ أبِيعُهُم وأشْتَرِي بثَمَنِهِم طَعَامًا لِأَهْلِ الصُّفَّةِ**»[(٢)].

إن الرسول الأب يعلم ويبين بإقناع، أن هذا المال مال عام لحوائج المسلمين، وأن فقراء المسلمين من أهل الصفة بحاجة إليه، وهو بهذا يُعلم ويُقنع؛ لتنتقل المعلومة مع القناعة بها إلى أبنائه وبناته وهو يربيهم ويعلمهم.

وكان ﷺ يومًا جالسًا مع أصحابه، فأرسلت إليه ابنته زينب إن ابني قد احتضر فأْتِنا، فأرسل إليها يبلغها السلام، ويقول: «**إِنَّ لله مَا أَخَذَ، وَلَهُ مَا أَعْطَى، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمّىً، فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ**». فأرسلتْ إليه تُقسم عليه ليأتينها، فقام ومعه سعد بن عبادة، وأبيّ بن كعب، ومعاذ بن جبل، ورجال من أصحابه، فأتاها، فرُفِع إليه الصبي ونفْسُه تَقَعْقَع كأنها في شنّ[(٣)]، فوضعه ﷺ في حجره وصدرُه يحشرج بآخر أنفاس الحياة،

(١) «صحيح البخاري» (٣٧٠٥)، و«صحيح مسلم» (٢٧٢٧).

(٢) «مسند أحمد» (٨٣٨).

(٣) شن: هي القربة القديمة اليابسة، يكون لها صوت إذا حُرِّكَت، شَبَّه حشرجة صدر الصبي المحتضر بصوت الشن عند تحريكه. ينظر: «النهاية» (٢/ ٥٠٦).

ففاضت عينا رسول الله ﷺ، فقال سعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما هذا يا رسول الله؟! -وكأنما عجب من رقة النبي ﷺ وبكائه لحال الصبي- فقال ﷺ: «**هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللهُ فِي قُلُوبِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ**»(١).

إنه مشهد من مشاهد التمازج العاطفي بين النبي ﷺ وبناته، حيث ترسل إليه ابنته أن يشهد مصابها، ويشاركها حزنها، وذلك لقرب مشاعره من مشاعرها، وحضوره القوي في حياتها.

وانظر إلى التوجيه الوجيز البليغ في رسالة النبي ﷺ: «**إِنَّ لله مَا أَخَذَ، وَلَهُ مَا أَعْطَى**». أي: فهذا الصبي عطاء الله، وهبه الله حين شاء، ويأخذه حين يشاء.

«**وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمّىً**». أي فهذا الصبي قد استوفى عمره الذي كتب له، وبلغ أجله الذي سُمِّي له، لم يُنْقص من عمره، ولم يُقْصر عن أجله.

«**فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ**»: وهذا توجيه نبوي إلى الموقف المطلوب في هذه الحال، وهو الصبر على المصيبة، والرضا عن الله، واحتساب الأجر وحسن الثواب منه.

فيا لله ما أوجز وأبلغ وأجمع هذه الكلمات القليلة، ممن أوتي جوامع الكلم، واختصر له الكلام اختصاراً!

ثم لما أعادت عليه الدعوة بادر بالإجابة، وتجاوب مع المصيبة، وقاسمها الحزن، ورأى أصحابُه منه مشهداً مؤثراً من مشاهد التربية النبوية والرحمة الأبوية.

سابعًا: ومن تمام المحبة والرعاية النبوية لبناته؛ تعاهدهن بالموعظة البليغة، والدعوة الحسنة للعمل الصالح، ومن ذلك: دعوته العلنية على رؤوس الأشهاد لابنته فاطمة: «**يَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ! أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنَ النَّارِ. يَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ! سَلِينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتِ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ الله شَيْئًا**»(٢).

وكم في هذا النداء من لوعة الحب، ولهفة الإشفاق، وشدة المناشدة!

---

(١) «صحيح البخاري» (١٢٨٤)، و«صحيح مسلم» (٩٢٣).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٠٦).

ومن ذلك: تَفقُّدهن في قيام الليل، وحَضُّهن عليه، فعن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ طَرَقَهُ وَفَاطِمَةَ، فَقَالَ: «**أَلَا تُصَلِّيَانِ؟**». قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّمَا أَنْفُسُنَا بِيَدِ الله، فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثنا بَعَثَنا، فَانْصَرَفَ رَسُولُ الله ﷺ حِينَ قُلْتُ لَهُ ذَلِكَ ولم يرجع إليَّ شيئًا، ثُمَّ سَمِعْتُهُ وَهُوَ مُوَلٍّ يَضْرِبُ فَخِذَهُ، وَيَقُولُ: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤]»[(١)].

وهنا نلاحظ الرفق في الموعظة.. فقد جاءت على طريقة العرض والإغراء، لا الأمر المباشر: «**أَلَا تُصَلِّيَانِ؟**». ثم نلحظ ترك الإلحاح في ذلك، مراعاة لحال الشباب، وهي حال عليٍّ وفاطمة، وهذا من حكمة الدعوة وحسن الموعظة.

ثامنًا: لقد تفتح وعي أبنائه وبناته بين يدي أكرم أب، وأعظم معلم، فتعلموا منه ووعوا عنه، وإن الأمة اليوم لتدعو في قنوتها بدعاء القنوت الذي علمه النبي ﷺ لابنه الحسن وهو صبي: «**اللهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ، وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ؛ فإِنَّك تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ، وَإِنَّه لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ، تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعالَيْتَ**»[(٢)].

وتروي الأمة حديثًا هو من جوامع الكلم وقواعد السلوك، وهو مما علمه النبي ﷺ لابنه الحسن وهو صبي، قال الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: حفظتُ من رسول الله ﷺ: «**دَعْ مَا يُرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يُرِيبُكَ**»[(٣)].

وانظر إلى قول الحسن: حفظت من رسول الله ﷺ؛ لتستشف من هذه الكلمة حرص النبي ﷺ على تعليمه هذه الكلمة الجامعة وحفظه لها.

وكان ﷺ يُعَوّذ الحسن والحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقول: «**أُعِيذُكُمَا بِكَلِمَاتِ الله التَّامَّةِ، مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ**». ثم يقول لهما: «**إِنَّ أَبَاكُمَا كَانَ يُعَوِّذُ بِهَا إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ**»[(٤)].

---

(١) «صحيح البخاري» (١١٢٧)، و«صحيح مسلم» (٧٧٥).

(٢) «سنن أبي داود» (١٤٢٥).

(٣) «جامع الترمذي» (٢٥١٨).

(٤) «صحيح البخاري» (٣٣٧١).

إن هذه الكلمات العظيمة يلقيها النبي ﷺ في مسامع ابنيه، وكما أنها تعويذ وذِكْر، فهي تربية وتعليم، تربط الطفل بتعظيم الله، والالتجاء إليه، والثقة بحوله وقوته، وكأنما يعلمهم صغاراً ما يتعوذون به كباراً.

ثم انظر إلى حديثه إليهما، وهو يخبرهما أن أباهما إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يعوذ بها أباهما إسماعيل وعمهما إسحاق عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

إنه تواصل وجداني يربط مشاعرهما بالنبوات ورسالات الأنبياء السابقة، بالقدر الذي تستوعبه مدراكهما وتعظمه نفوسهما.

وقد تعلم الحسن والحسين هذا وغيره من رسول الله ﷺ وعمرهما سبع سنوات وست سنوات على أكثر تقدير، وهو سنهما حين توفي رسول الله ﷺ، إذن: فما الذي تعلمته فاطمة وزينب ورقية وأم كلثوم في سعة أعمارهن مع أبيهن ﷺ؟

تاسعًا: ومن مظاهر الأبوة النبوية: الحفاوة بالبنات وإكرامهن وإغداق الحب عليهن، وتحطيم النظرة الجاهلية التي كانت تميل مع الأبناء كل الميل، وتتشاءم من البنات وتزدريهن، بحيث يتراوح مصيرهن بين الوأد الحسي أو المعنوي: ﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ [النحل: ٥٩].

فإذا بهذا النبي الكريم يتعالن بحب البنات والحفاوة بهن، حتى خطب على منبره فقال: «**إِنَّ فَاطِمَةَ بَضْعَةٌ مِنِّي؛ يُؤْذِينِي مَا آذَاهَا، وَيُغْضِبُنِي مَا أَغْضَبَهَا**»[1]!

إنه إعلان العاطفة الأبوية، وإظهارها وإشهارها.

بل إنه فاجأ أصحابه في مشهد عاجب، حيث خرج ﷺ إلى صلاة العصر وعلى عاتقه ابنته أمامة بنت بنته زينب، فصلى بالناس وهي على عاتقه، إذا ركع وضعها، وإذا قام رفعها[2].

(١) «صحيح البخاري» (٣٧٢٩)، و«صحيح مسلم» (٢٤٤٩).
(٢) «صحيح البخاري» (٥١٦)، و«صحيح مسلم» (٥٤٣).

إن الأنوثة في هذا المشهد أنوثة مضاعفة، فهي بنت بنته، وها هو يخرج بها إلى الناس وهي على عاتقه؛ ليقدم درساً عملياً في الحفاوة بالبنات، وليقضي على بقايا الجاهلية في النفوس التي كانت ترى في الأنثى سوءة: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩].

فما أبعد المفارقة بين من يتوارى من القوم لأنه بُشِّر بالأنثى، ومن يخرج إلى الناس وعلى عاتقه البنت الأنثى.

عاشراً: ومن حفاوته ببناته حفاوته بأبنائهن: فها هو يشير إلى ابنه الحسن ويقول: «**إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ**»(١).

فانظر إلى تأكيد أبوته لابن ابنته، في حين كانت البيئة العربية في وقته تجفو أبناء البنات، وتقول:

بنونا بنو أبنائنا وبناتُنا ... بنوهن أبناء الرجال الأباعد(٢)

وأهديت له ﷺ قلادة من جَزْع(٣) فقال: «**لَأَدْفَعَنَّهَا إِلَى أَحَبِّ أَهْلِي إِلَيَّ**». فقالت النساء: ذهبت بها ابنة أبي قحافة، فدعا ﷺ أمامة بنت بنته زينب، فعلقها في عنقها(٤).

وهذا الاحتفاء بأبناء البنات وبناتهن، إحسانٌ مضاعف إلى البنات، وإسعادٌ لقلوبهن، ويا لله ما شعور ابنته زينب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وهي ترى ابنتها ترتحل عاتق أبيها، وهو خارج بها إلى المسجد؟ وما مشاعرها وهي ترى ابنتها بين يدي أبيها، وهو يقول عنها: «**أَحَبِّ أَهْلِي إِلَيَّ**»! ويلبسها بيديه القلادة في عنقها؟ وما شعور ابنته فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وهي ترى ابنها الحسن بين يدي أبيها، وهو يحتضنه ويقبله ويقول: «**اللهُمَّ إِنِّي أُحِبُّهُ، فَأَحِبَّهُ، وأَحِبَّ مَن يُحبُّه**»(٥)؟!

إنها براعة النبي الكريم في تفجير ينابيع السعادة في القلوب!

---

(١) «صحيح البخاري» (٢٧٠٤)، و«صحيح مسلم» (٢٧٢٧).

(٢) «الحيوان» للجاحظ (١/ ٢٣٠).

(٣) جَزْع: خرز فيه بياض وسواد. ينظر: «النهاية» (١/ ٢٦٩).

(٤) «مسند أحمد» (٢٤٧٠٤).

(٥) «صحيح البخاري» (٥٨٨٤)، و«صحيح مسلم» (٢٤٢١).

حادي عشر: وكما عاش نبينا ﷺ نعيم الأبوة وغدق حبها، فقد تجرع ألم الثكل، وذاق أحزان الفراق، وتفارط أبناؤه وبناته بين يديه، وتناثرت أحزانهم بين سنوات عمره، فهو الذي فُجع في أول سنوات بعثته بابنه البكر القاسم بن محمد، وفُجع في آخر سنة من حياته بابنه الصغير الأخير إبراهيم بن محمد، وفيما بين ذلك تفرقت فجائعه ببناته وبنيه على سنوات عمره..

فها هو يشهد تغسيل ابنته زينب حين توفيت، ويقول لمن يغسلنها: «**إِذَا فَرَغْتُنَّ فَآذِنَّنِي**»، فلما فرغْنَ ناولهنّ إزاره، وقال: «**أَشْعِرْنَهَا إِيَّاهُ**»[1].

وعندما دفنت ابنته رقية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، كان جالساً على شفير القبر وعيناه تذرفان[2].

وعندما بلغ ابنه إبراهيم سنَّ المحبة والوداد -سنة ونصفاً- دخل عليه ﷺ فإذا هو يجود بآخر أنفاس الحياة، فقال: «**يَا إِبْرَاهِيمُ! إِنَّا لَا نَملك لَكَ منَ الله شَيئًا، لَوْلَا أَنَّهُ أَمْرٌ حَقٌّ، وَوَعْدٌ صِدْقٌ، لَحَزِنَّا عَلَيْكَ حُزْنًا أَشَدَّ مِنْ هَذَا؛ وَلَكنْ تَبْكِي العَيْنُ، وَيَحْزَنُ القَلْبُ، وَلَا نَقول إِلَّا ما يُرْضِي رَبنَا، وإِنَّا بفرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ**»[3].

وحتى التي بقيت بعده من بناته -فاطمة عَلَيْهَا السَّلَامُ- نُعيتْ إليه قبل وفاته، أنها أول أهله لحوقاً به[4].

وكان ﷺ في كل أحزانه الصابر المحتسب، الراضي عن الله في قضائه وقدره: «**تَبْكِي العَيْنُ، وَيَحْزَنُ القَلْبُ، وَلَا نَقول إِلَّا ما يُرْضِي رَبنَا**».

وكما قدم لأمته جمال الأبوة حبّاً ورحمة ووداداً في تعامله مع أبنائه وبناته، قدم لها مشاهد الصبر والرضا وحسن التأسِّي حين فَقْدِهم والفجيعة بهم.

---

(١) «صحيح البخاري» (١٢٥٣)، و«صحيح مسلم» (٩٣٩). وأشعرنها إياه: أي اجعلنه مما يلي جسدها، ويكون ما بعده فوقه؛ تبركاً بما لامس جسده الشريف.

(٢) «صحيح البخاري» (١٢٨٥).

(٣) «صحيح البخاري» (١٣٠٣)، و«صحيح مسلم» (٢٣١٥).

(٤) «صحيح البخاري» (٣٦٢٣)، و«صحيح مسلم» (٢٤٥٠).

وقد كان في تفارط ولده في حياته وعدم بقاء ذريته من بعده حكمةٌ ربانية في حماية أمته من الغلو في بيت النبوة، وذرية النبي ﷺ، فإذا كان الغلو قد وقع في ابن بنته وابن عمه فكيف لو بقي في الأمة ابنه وابن ابنه.

فصلى الله وسلم وبارك عليه أبـًا كريمـًا محبـًا.

وصلى الله وسلم وبارك عليه أبـًا صابراً محتسبـًا.

خلاصات:

١- جاء النبي ﷺ إلى البيئة العربية وقد تشوهت عاطفة الأبوة إلى درجة التوحش، فأعاد لها استواءها الفطري.

٢- من معالم أبوته ﷺ إعلان الفرح بالأبناء.

٣- كان يمارس أبوته مشاعر وشعائر ظاهرة معلنة أمام الناس؛ ليصحح تصوراتهم، ويعيدهم إلى فطرتهم.

٤- كان العطاء العاطفي يغمر أبناءه بالقُبلة الأبوية، والكلمة الحانية، والملاطفة الجميلة، مما يحقق الارتواء المشاعري لهم.

٥- كان ﷺ يتطامن إلى طفولة الأبناء، فيقترب بهمه إلى همومهم، ويلاعبهم بما يؤنسهم ويفرحهم.

٦- كانت عاطفته تكبر معهم إذا كبروا، ويتواصل إغداق الحب والتعبير عنه في كل مراحل حياتهم.

٧- كان ﷺ يجمع مع حنان الأبوة جمال التربية والتأديب.

٨- كان يتعاهد أولاده بالتعليم، فوعوا عنه العلم وجوامع الكلم.

٩- ومن مظاهر أبوته إشهار حبّ بنياته، والاستعلان بعاطفة الأبوة تجاههن، ونقل العرب من جهالة الجاهلية التي تزدري البنات وتجفوهن إلى استقامة الفطرة.

١٠- كان حفيـًا بأولاد بناته، محطمـًا الثقافة الجاهلية التي تميل إلى أبناء الأبناء، وتجفو أبناء البنات.

١١- كما ذاق ﷺ نعيم الأبوة وبهجة الذرية، فقد تجرع غصص الحزن وفجائع الثكل ببنيه وبناته، فكان في مصابه الصابر المحتسب، الراضي عن الله فيما أخذ وأعطى.

الرسول وإخوانه عَلَيْهِمُ السَّلَامُ

نشأ ﷺ في مجتمع أُميٍّ وثنيٍّ، مقطوع الصلة بأنبياء بني إسرائيل، وعلاقته بالنبوة هي العلاقة عبر التاريخ السحيق بنبوة إبراهيم وإسماعيل عَلَيْهِمَا السَّلَامُ التي تلاشت معالمها، وتحولت لديهم من إسلام حنيف إلى وثنية جاهلية، وإذا بهذا النبي الأمي يتحدث فيما أنزل عليه من القرآن، وفيما أوحي إليه من الحكمة، عن القافلة المباركة من أنبياء الله ورسله، فيذكر دعوتهم وأخبارهم مع أممهم، وأوصافهم وهيئاتهم وما جرى لهم.

فمن أين عرف هذا وهو الأميّ في هذا المجتمع الجاهلي، إلا أن يكون وحيًا أوحاه إليه ربه الذي أرسلهم ثم أرسله في إثرهم خاتمًا لهم، ولذا فإن ذكره المفصل لأخبار الأنبياء، هو إحدى دلائل نبوته، فلا مصدر لهذا العلم إلا الوحي.

كما أن ذكره للأنبياء قبله، محفوف بالمحبة والتكريم والتعظيم لدعوتهم ورسالتهم، وذكرهم بأحسن أوصافهم وأجمل هيئاتهم، وشتان بين خبر القرآن وحديث السنة عن الأنبياء الكرام، وتلك الصورة المشوهة المذكورة عنهم في كتب أهل الكتاب المحرفة التي تصفهم بالقبائح، وتبهتهم بالفواحش.

أما نبينا ﷺ فإن علاقته بإخوانه من أنبياء الله ورسله الذين سبقوه على تباعد أزمانهم وتفرق أوطانهم، علاقة أخوة وتأس واقتداء، كما قال ﷺ: «**الأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ**[1]، **أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ**»[2]، ولذا كان يذكرهم بالأُخوة فيقول: «**يَرْحَمُ اللهُ أَخِي مُوسَى**»[3]،

(١) العَلاَّت: الإخوة من الأب الواحد، وأمهاتهم شتى. ينظر: «الإفصاح عن معاني الصحاح» (٦/ ١٨٤).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٤٤٣).

(٣) «صحيح البخاري» (٣٤٠٥)، و«صحيح مسلم» (١٠٦٢).

وكانوا يتلقونه بلفظ الأخوة في رحلة المعراج فيرحبون به: مرحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح! فهم إخوة في الإسلام، وإخوة في النبوة.

وتتجلى أخوة النبي ﷺ للأنبياء والمرسلين قبله في معالم؛ منها:

أولاً: ذكر فضائلهم ومناقبهم:

١- ذكر ﷺ في أحاديثه عنهم فضائلهم وكريم أخلاقهم، وعبادتهم وتعظيمهم لربهم، فقد ذكر فضل يوسف عليه السلام بتسلسل النبوة في آبائه تباعًا، حين سئل فقِيلَ: يَا رَسُولَ الله؛ مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟ قَالَ: «**أَتْقَاهُمْ**». فَقَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ، قَالَ: «**فَيُوسُفُ نَبِيُّ الله، ابْنُ نَبِيِّ الله، ابْنِ نَبِيِّ الله، ابْنِ خَلِيلِ الله**». قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ، قَالَ: «**فَعَنْ مَعَادِنِ العَرَبِ تَسْأَلُونِ؟ خِيَارُهُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإِسْلَامِ، إِذَا فَقُهُوا**»[(١)].

٢- وذكر حياء موسى عليه السلام وتستره، فقال: «**إِنَّ مُوسَى كَانَ رَجُلاً حَيِيًّا سِتِّيراً، لَا يُرَى مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ اسْتِحْيَاءً مِنْهُ، فَآذَاهُ مَنْ آذَاهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَقَالُوا: مَا يَسْتَتِرُ هَذَا التَّسَتُّرَ إِلَّا مِنْ عَيْبٍ بِجِلْدِهِ: إِمَّا بَرَصٌ وَإِمَّا أُدْرَةٌ[(٢)] وَإِمَّا آفَةٌ، وَإِنَّ اللهَ أَرَادَ أَنْ يُبَرِّئَهُ مِمَّا قَالُوا لِمُوسَى، فَخَلَا يَوْمًا وَحْدَهُ، فَوَضَعَ ثِيَابَهُ عَلَى الحَجَرِ، ثُمَّ اغْتَسَلَ، فَلَمَّا فَرَغَ أَقْبَلَ إِلَى ثِيَابِهِ لِيَأْخُذَهَا، وَإِنَّ الحَجَرَ عَدَا بِثَوْبِهِ، فَأَخَذَ مُوسَى عَصَاهُ وَطَلَبَ الحَجَرَ، فَجَعَلَ يَقُولُ: ثَوْبِي حَجَرُ، ثَوْبِي حَجَرُ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَلَإٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَرَأَوْهُ عُرْيَانًا أَحْسَنَ مَا خَلَقَ الله، وَأَبْرَأَهُ مِمَّا يَقُولُونَ، وَقَامَ الحَجَرُ، فَأَخَذَ ثَوْبَهُ فَلَبِسَهُ، وَطَفِقَ بِالحَجَرِ ضَرْبًا بِعَصَاهُ، فَوَالله إِنَّ بِالحَجَرِ لَنَدَبًا مِنْ أَثَرِ ضَرْبِهِ، ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا أَوْ خَمْسًا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا﴾ [الأحزاب: ٦٩]»[(٣)].

٣- وذكر صفة قراءة داود عليه السلام وعفته في كسبه، فقال: «**خُفِّفَ عَلَى دَاوُدَ عليه السلام القُرْآنُ، فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَوَابِّهِ فَتُسْرَجُ، فَيَقْرَأُ القُرْآنَ قَبْلَ أَنْ تُسْرَجَ دَوَابُّهُ، وَلَا يَأْكُلُ إِلَّا مِنْ عَمَلِ يَدِهِ**»[(٤)].

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٣٥٣)، و«صحيح مسلم» (٢٣٧٨).

(٢) الْأُدْرَة: نَفْخَةٌ فِي الخُصْيَةِ. ينظر: «النهاية» (١/ ٣١).

(٣) «صحيح البخاري» (٣٤٠٤)، و«صحيح مسلم» (٣٣٩).

(٤) «صحيح البخاري» (٣٤١٧).

ثانياً: ذكر قصصهم وأخبارهم:

فذكر عنهم أخباراً مفصّلة تشعر بقربه منهم، واطلاعه على أحوالهم، حتى كأنهم يعيشون معه في بلدة واحدة، مع تباعد أزمانهم، وتفرق أوطانهم، وتعدد قبائلهم وأقوامهم، فمن ذلك:

١- ذكر قصة ذهاب إبراهيم بهاجر إلى مصر، فقال: «**بَيْنَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ وَسَارَةُ، إِذْ أَتَى عَلَى جَبَّارٍ مِنَ الجَبَابِرَةِ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ هَا هُنَا رَجُلاً مَعَهُ امْرَأَةٌ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَسَأَلَهُ عَنْهَا، فَقَالَ: مَنْ هَذِهِ؟ قَالَ: أُخْتِي، فَأَتَى سَارَةَ قَالَ: يَا سَارَةُ: لَيْسَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ مُؤْمِنٌ غَيْرِي وَغَيْرَكِ، وَإِنَّ هَذَا سَأَلَنِي فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّكِ أُخْتِي، فَلَا تُكَذِّبِينِي، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا، فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ ذَهَبَ يَتَنَاوَلُهَا بِيَدِهِ، فَأُخِذَ، فَقَالَ: ادْعِي اللهَ لِي وَلَا أَضُرُّكِ، فَدَعَتِ اللهَ فَأُطْلِقَ، ثُمَّ تَنَاوَلَهَا الثَّانِيَةَ فَأُخِذَ مِثْلَهَا أَوْ أَشَدَّ، فَقَالَ: ادْعِي اللهَ لِي وَلَا أَضُرُّكِ، فَدَعَتْ فَأُطْلِقَ، فَدَعَا بَعْضَ حَجَبَتِهِ، فَقَالَ: إِنَّكُمْ لَمْ تَأْتُونِي بِإِنْسَانٍ، إِنَّمَا أَتَيْتُمُونِي بِشَيْطَانٍ، فَأَخْدَمَهَا هَاجَرَ، فَأَتَتْهُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي، فَأَوْمَأَ بِيَدِهِ: مَهْيَا؟**[1]، **قَالَتْ: رَدَّ اللهُ كَيْدَ الكَافِرِ -أَوِ الفَاجِرِ- فِي نَحْرِهِ، وَأَخْدَمَ هَاجَرَ**». قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: تِلْكَ أُمُّكُمْ يَا بَنِي مَاءِ السَّمَاءِ[2].

وذكر قصة مجيء إبراهيم بإسماعيل وأمه إلى مكة، وتَرْكهم هناك بأمر الله، ثم تعاهُدهم بالزيارة، وقصة بناء الكعبة، في بسط مفصل مطول، حتى لكأن المشهد رأي العين.

٢- وذكر قصص موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وأخباره، فذكر خبر حج موسى، فقال ﷺ حين مَرَّ بِوَادِي الأَزْرَقِ: «**أَيُّ وَادٍ هَذَا؟**». فَقَالُوا: هَذَا وَادِي الأَزْرَقِ، قَالَ: «**كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ هَابِطًا مِنَ الثَّنِيَّةِ، وَاضِعًا أُصْبَعَيْهِ فِي أُذُنَيْهِ، وَلَهُ جُؤَارٌ إِلَى اللهِ بِالتَّلْبِيَةِ**»[3].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَيْسَ الخَبَرُ كَالمُعَايَنَةِ، إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أَخْبَرَ مُوسَى بِمَا صَنَعَ قَوْمُهُ فِي العِجْلِ، فَلَمْ يُلْقِ الأَلوَاحَ، فَلَمَّا عَايَنَ مَا صَنَعُوا، أَلقَى الأَلوَاحَ فَانْكَسَرَتْ**»[4].

---

(١) أي: ما حالك؟ وما شأنك؟. ينظر: «عمدة القاري» للعيني (١٥/ ٢٤٩).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٣٥٧)، و«صحيح مسلم» (٢٣٧١).

(٣) «صحيح مسلم» (١٦٦).

(٤) «مسند أحمد» (٢٤٤٧).

وعَن أبي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: أَنْتَ آدَمُ الَّذِي أَخْرَجَتْكَ خَطِيئَتُكَ مِنَ الجَنَّةِ، فَقَالَ لَهُ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ الله بِرِسَالَاتِهِ وَبِكَلَامِهِ، ثُمَّ تَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قُدِّرَ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ!**». فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى**»(١).

وذكر قصة موسى والخضر فقال: «**بَيْنَمَا مُوسَى فِي مَلَإٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: هَلْ تَعْلَمُ أَحَداً أَعْلَمَ مِنْكَ؟ قَالَ مُوسَى: لَا، فَأَوْحَى الله عَزَّوَجَلَّ إِلَى مُوسَى: بَلَى، عَبْدُنَا خَضِرٌ، فَسَأَلَ مُوسَى السَّبِيلَ إِلَيْهِ، فَجَعَلَ الله لَهُ الحُوتَ آيَةً، وَقِيلَ لَهُ: إِذَا فَقَدْتَ الحُوتَ فَارْجِعْ، فَإِنَّكَ سَتَلْقَاهُ، وَكَانَ يَتَّبِعُ أَثَرَ الحُوتِ فِي البَحْرِ، فَقَالَ لِمُوسَى فَتَاهُ: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ [الكهف: ٦٣]، ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف: ٦٤]، فَوَجَدَا خَضِراً، فَكَانَ مِنْ شَأْنِهِمَا الَّذِي قَصَّ الله عَزَّوَجَلَّ فِي كِتَابِهِ**»(٢).

٣- وذكر فهم سليمان في حكمه، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**كَانَتِ امْرَأَتَانِ مَعَهُمَا ابْنَاهُمَا، جَاءَ الذِّئْبُ فَذَهَبَ بِابْنِ إِحْدَاهُمَا، فَقَالَتْ لِصَاحِبَتِهَا: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ، وَقَالَتِ الأُخْرَى: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ، فَتَحَاكَمَتَا إِلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَضَى بِهِ لِلْكُبْرَى، فَخَرَجَتَا عَلَى سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فَأَخْبَرَتَاهُ، فَقَالَ: ائْتُونِي بِالسِّكِّينِ أَشُقُّهُ بَيْنَهُمَا، فَقَالَتِ الصُّغْرَى: لَا تَفْعَلْ يَرْحَمُكَ الله! هُوَ ابْنُهَا، فَقَضَى بِهِ لِلصُّغْرَى**»(٣).

٤- وذكر قصة نبي الله أيوب عندما تساقط عليه جراد من ذهب، قَالَ: «**بَيْنَا أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ عُرْيَانًا، فَخَرَّ عَلَيْهِ جَرَادٌ مِنْ ذَهَبٍ، فَجَعَلَ أَيُّوبُ يَحْتَثِي فِي ثَوْبِهِ، فَنَادَاهُ رَبُّهُ: يَا أَيُّوبُ، أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتُكَ عَمَّا تَرَى؟ قَالَ: بَلَى وَعِزَّتِكَ، وَلَكِنْ لَا غِنَى بِي عَنْ بَرَكَتِكَ**»(٤).

٥- وذكر أخبار زكريا ويحيى وعيسى، فقَالَ: «**كَانَ زَكَرِيَّا نَجَّاراً**»(٥)، إشارةً إلى أنه كان يأكل من عمل يده.

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٤٠٩)، و«صحيح مسلم» (٢٦٥٢).
(٢) «صحيح البخاري» (٧٤)، و«صحيح مسلم» (٢٣٨٠).
(٣) «صحيح البخاري» (٦٧٩٧)، و«صحيح مسلم» (١٧٢٠).
(٤) «صحيح البخاري» (٢٧٩).
(٥) «صحيح مسلم» (٢٣٧٩).

وقال عن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «رَأَى عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ رَجلاً يَسْرق فَقَالَ لَهُ: أَسَرَقْتَ؟ قَالَ: كَلَّا وَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، فَقَالَ عِيسَى: آمَنْتُ بِاللهِ، وَكَذَّبْتُ عَيْنِي»(١).

وهذا من تعظيم عيسى للحلف بالله تعالى، والمبالغة في تصديق الحالف بالله.

وذكر يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ ووصاته لبني إسرائيل بخمس وصايا أوحاها الله إليه، فقال ﷺ: «إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ يَعْمَلَ بِهِنَّ، وَأَنْ يَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ، وَكَادَ أَنْ يُبْطِئَ، فَقَالَ لَهُ عِيسَى: إِنَّكَ قَدْ أُمِرْتَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ تَعْمَلَ بِهِنَّ، وَتَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ، فَإِمَّا أَنْ تُبَلِّغَهُنَّ، وَإِمَّا أَنْ أُبَلِّغَهُنَّ. فَقَالَ: يَا أَخِي، إِنِّي أَخْشَى إِنْ سَبَقْتَنِي أَنْ أُعَذَّبَ أَوْ يُخْسَفَ بِي. قَالَ: فَجَمَعَ يَحْيَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي بَيْتِ المَقْدِسِ، حَتَّى امْتَلَأَ المَسْجِدُ، فَقُعِدَ عَلَى الشُّرَفِ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أَمَرَنِي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ، وَآمُرَكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ؛ أَوَّلُهُنَّ: أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ مَثَلُ رَجُلٍ اشْتَرَى عَبْداً مِنْ خَالِصِ مَالِهِ بِوَرِقٍ أَوْ ذَهَبٍ، فَجَعَلَ يَعْمَلُ وَيُؤَدِّي غَلَّتَهُ إِلَى غَيْرِ سَيِّدِهِ، فَأَيُّكُمْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ؟ وَإِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ، فَاعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا. وَآمُرُكُمْ بِالصَّلَاةِ، فَإِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لِوَجْهِ عَبْدِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ، فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَلَا تَلْتَفِتُوا. وَآمُرُكُمْ بِالصِّيَامِ، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ مَعَهُ صُرَّةٌ مِنْ مِسْكٍ فِي عِصَابَةٍ كُلُّهُمْ يَجِدُ رِيحَ المِسْكِ، وَإِنَّ خُلُوفَ فَمِ الصَّائِمِ عِنْدَ اللهِ أَطْيَبُ مِنْ رِيحِ المِسْكِ. وَآمُرُكُمْ بِالصَّدَقَةِ، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَسَرَهُ العَدُوُّ، فَشَدُّوا يَدَيْهِ إِلَى عُنُقِهِ، وَقَدَّمُوهُ لِيَضْرِبُوا عُنُقَهُ، فَقَالَ: هَلْ لَكُمْ أَنْ أَفْتَدِيَ نَفْسِي مِنْكُمْ؟ فَجَعَلَ يَفْتَدِي نَفْسَهُ مِنْهُمْ بِالقَلِيلِ وَالكَثِيرِ حَتَّى فَكَّ نَفْسَهُ. وَآمُرُكُمْ بِذِكْرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ كَثِيراً، وَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ طَلَبَهُ العَدُوُّ سِرَاعًا فِي أَثَرِهِ، فَأَتَى حِصْنًا حَصِينًا فَتَحَصَّنَ فِيهِ، وَإِنَّ العَبْدَ أَحْصَنُ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِذَا كَانَ فِي ذِكْرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ»(٢).

وهذه الأخبار المفصلة منه ﷺ عن إخوانه الأنبياء مع ما أُنزل إليه من قصصهم من القرآن، تبين حضور النبوات والأنبياء في حياته، واستحضار مواقف الأنبياء وأحوالهم،

(١) «صحيح البخاري» (٣٤٤)، و«صحيح مسلم» (٢٣٦٨).

(٢) «مسند أحمد» (١٧١٧٠).

فيذكرها ﷺ اعتباراً وتأسياً، كما تُبيِّنُ عظيم منزلتهم، فإن كل ذكره له إنما هو في سياق الاحتفاء والتكريم.

ثالثاً: لقاؤهم ليلة الإسراء والمعراج:

فذكر ﷺ لقاءه بهم في طريق الإسراء، وفي المسجد الأقصى، وفي السماوات العلى، فإذا النبي الكريم الذي تلقى وحي الله إليه بقصصهم وأنبائهم يلتقي بهم أشباحاً وأرواحاً في عالم غيب نؤمن به ولا نعلم حقيقته:

١- فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**مَرَرْتُ عَلَى مُوسَى لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عِنْدَ الكَثِيبِ الأَحْمَرِ، وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي قَبْرِهِ**»(١).

٢- وعَنْ ابن عباس، قَالَ: فَلَمَّا دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ المَسْجِدَ الأَقْصَى قَامَ يُصَلِّي، ثُمَّ التَفَتَ، فَإِذَا النَّبِيُّونَ أَجْمَعُونَ يُصَلُّونَ مَعَهُ(٢).

٣- وعن أنس بن مالك عَنْ مَالِكِ بْنِ صَعْصَعَةَ، أَنَّ نَبِيَّ الله ﷺ حَدَّثَهُمْ عن لَيْلَةِ أُسْرِيَ بِهِ قال: «**فَانْطَلَقَ بي جِبْرِيلُ حتَّى أَتَى السَّمَاءَ الدُّنْيَا، فَإِذَا فِيهَا آدَمُ، فَقَالَ: هذا أَبُوكَ آدَمُ فَسَلِّمْ عليه، فَسَلَّمْتُ عليه، فَرَدَّ السَّلَامَ ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالِابْنِ الصَّالِحِ والنَّبِيِّ الصَّالِحِ، ثُمَّ صَعِدَ بي حتَّى أَتَى السَّمَاءَ الثَّانِيَةَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ إِذَا يَحْيَى وعِيسَى -وهُمَا ابْنَا الخَالَةِ- قَالَ: هذا يَحْيَى وعِيسَى فَسَلِّمْ عليهِمَا، فَسَلَّمْتُ فَرَدَّا ثُمَّ قَالَا: مَرْحَبًا بالأخِ الصَّالِحِ والنَّبِيِّ الصَّالِحِ، ثُمَّ صَعِدَ بي إلى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ، فَلَمَّا خَلَصْتُ إِذَا يُوسُفُ، قَالَ: هذا يُوسُفُ فَسَلِّمْ عليه، فَسَلَّمْتُ عليه، فَرَدَّ ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بالأخِ الصَّالِحِ والنَّبِيِّ الصَّالِحِ، ثُمَّ صَعِدَ بي حتَّى أَتَى السَّمَاءَ الرَّابِعَةَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ إلى إِدْرِيسَ، قَالَ: هذا إِدْرِيسُ فَسَلِّمْ عليه، فَسَلَّمْتُ عليه، فَرَدَّ ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بالأخِ الصَّالِحِ والنَّبِيِّ الصَّالِحِ، ثُمَّ صَعِدَ بي حتَّى أَتَى السَّمَاءَ الخَامِسَةَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا هَارُونُ، قَالَ: هذا هَارُونُ فَسَلِّمْ عليه، فَسَلَّمْتُ عليه، فَرَدَّ ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بالأخِ الصَّالِحِ والنَّبِيِّ الصَّالِحِ، ثُمَّ صَعِدَ بي حتَّى أَتَى السَّمَاءَ السَّادِسَةَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا مُوسَى، قَالَ: هذا مُوسَى فَسَلِّمْ عليه، فَسَلَّمْتُ عليه، فَرَدَّ ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بالأخِ الصَّالِحِ والنَّبِيِّ الصَّالِحِ، فَلَمَّا تَجَاوَزْتُ بَكَى، قيلَ له:**

(١) «صحيح مسلم» (٢٣٧٥).

(٢) «مسند أحمد» (٢٣٢٤).

ما يُبْكِيكَ؟ قَالَ: أَبْكِي لأَنَّ غُلَامًا بُعِثَ بَعْدِي يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِن أُمَّتِهِ أَكْثَرُ مِمَّنْ يَدْخُلُهَا مِن أُمَّتِي، ثُمَّ صَعِدَ بي إلى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ: هذا أَبُوكَ فَسَلِّمْ عليه، قَالَ: فَسَلَّمْتُ عليه، فَرَدَّ السَّلَامَ، قَالَ: مَرْحَبًا بالِابْنِ الصَّالِحِ والنَّبِيِّ الصَّالِحِ»[(١)].

وهذا اللقاء يبين وثوق الصلة بينهم، واتفاق رسالتهم، وشهادة بعضهم لبعض، ومن ثم كان الإيمان بهم جميعًا من أركان الإيمان: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

رابعاً: ذكر أوصافهم وهيئاتهم كأنما ينظر إليهم:

وصف ﷺ هيئاتهم وصفاتهم الخَلقية كأنما أدركهم وعاش معهم، ووصفُ المظهر الحسن وتفصيلُه من دلائل الحبّ والقرب، ولذا فإن وصفهم كان بكمال صفاتهم، وكان أنبياء الله ورسله بهيئات حسنة، ولذا فليس منهم ناقص الخلق أو معيب الخِلقة، قال ابن حجر: إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ فِي خَلْقِهِمْ وَخُلُقِهِمْ عَلَى غَايَةِ الْكَمَالِ، وَأَنَّ مَنْ نَسَبَ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَى نَقْصٍ فِي خِلْقَتِهِ فَقَدْ آذَاهُ، وَيُخْشَى عَلَى فَاعِلِهِ الْكُفْرُ[(٢)].

وكان وصفه ﷺ لكمالهم الجسدي الذي هو وعاء كمالاتهم الخُلقية والعلمية، فوصف إبراهيم وموسى وعيسى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كأنا ننظر إليهم.

١- فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي رَأَيْتُ مُوسَى، وَإِذَا هُوَ رَجُلٌ ضَرْبٌ رَجِلٌ[(٣)]، كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ[(٤)]، وَرَأَيْتُ عِيسَى، فَإِذَا هُوَ رَجُلٌ رَبْعَةٌ[(٥)] أَحْمَرُ، كَأَنَّمَا خَرَجَ مِنْ دِيمَاسٍ[(٦)]، وَأَنَا أَشْبَهُ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ** عَلَيْهِ السَّلَامُ **بِهِ»**[(٧)].

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٨٨٧)، و«صحيح مسلم» (١٦٢).

(٢) «فتح الباري» (٦/ ٤٣٨).

(٣) ضَرْب: خفيف اللحم، رجِل: مسترسل الشعر. ينظر: «فتح الباري» (٦/ ٤٨٥).

(٤) حي من اليمن ينسبون إلى شنوءة وهو عبد الله بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأزد، قال الداودي: رجال الأزد معروفون بالطول. ينظر: «فتح الباري» (٦/ ٤٢٩).

(٥) رَبْعة: أي أَنَّهُ لَيْسَ بِطَوِيلٍ جِدًّا وَلَا قَصِيرٍ جِدًّا. ينظر: «فتح الباري» (٦/ ٤٨٤).

(٦) الديماس: الحمام. ينظر: «النهاية» (٢/ ١٣٣).

(٧) «صحيح البخاري» (٣٣٩٤)، و«صحيح مسلم» (١٦٨).

٢- عَنْ جَابِرٍ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «عُرِضَ عَلَيَّ الأَنْبِيَاءُ، فَإِذَا مُوسَى ضَرْبٌ مِنَ الرِّجَالِ، كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ، وَرَأَيْتُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِذَا أَقْرَبُ مَنْ رَأَيْتُ بِهِ شَبَهًا عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ، وَرَأَيْتُ إِبْرَاهِيمَ صَلَوَاتُ الله عَلَيْهِ، فَإِذَا أَقْرَبُ مَنْ رَأَيْتُ بِهِ شَبَهًا صَاحِبُكُمْ -يَعْنِي نَفْسَهُ- وَرَأَيْتُ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِذَا أَقْرَبُ مَنْ رَأَيْتُ بِهِ شَبَهًا دَحْيَةُ بْنُ خَلِيفَةَ»[(١)].

٣- عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «رَأَيْتُ عِيسَى ومُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ، فَأَمَّا عِيسَى فَأَحْمَرُ جَعْدٌ عَرِيضُ الصَّدْرِ، وَأَمَّا مُوسَى فَآدَمُ جَسِيمٌ سَبْطٌ[(٢)]، كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ الزُّطِّ»[(٣)].

خامساً: التأسِّي بهم:

كان ﷺ يتأسَّى بأنبياء الله ورسله في بلاغهم وصبرهم وهديهم، عملاً بقول الله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، ومن ذلك:

١- ما رواه عَبْدُ الله بن مسعود، قَالَ: قَسَمَ النَّبِيُّ ﷺ قَسْمًا، فَقَالَ رَجُلٌ: إِنَّ هَذِهِ لَقِسْمَةٌ مَا أُرِيدَ بِهَا وَجْهُ الله، فَأَخْبَرْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَغَضِبَ، حَتَّى رَأَيْتُ الغَضَبَ فِي وَجْهِهِ، وَقَالَ: «يَرْحَمُ اللهُ أَخِي مُوسَى! لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ»[(٤)].

وذلك أن موسى عالج بني إسرائيل أشد المعالجة، فصبر على تعنتهم وأذاهم، فكان ﷺ يتعزى بحاله، ويتأسَّى بصبره.

٢- قَالَ عَبْدَ الله بْنَ عَمْرٍو: قَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ: «أَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى الله صِيَامُ دَاوُدَ، كَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا، وَأَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى الله صَلَاةُ دَاوُدَ، كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ»[(٥)].

---

(١) «صحيح مسلم» (١٦٧).

(٢) الآدم: الأسمر، والشعر السبط: السهل. ينظر: «الإفصاح عن معاني الصحاح» لابن هبيرة (٤/ ٥٠).

(٣) «صحيح البخاري» (٣٤٣٨). والزُّطِّ: جنس من السودان. ينظر: «النهاية» (٢/ ٣٠٢).

(٤) «صحيح البخاري» (٦٣٣٦)، و«صحيح مسلم» (١٠٦٢).

(٥) «صحيح البخاري» (٣٤٢٠)، و«صحيح مسلم» (١٠٦٢).

وقد كان هذا هو ورد قيام النبي ﷺ المعتاد، كما وصفته عائشة، فذكرت أنه كان يقوم نصف الليل، ثم ينام قبل الفجر، وما أدركه الفجر عندها إلا وهو نائم، فهو مقارب لقيام داوود عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

سادساً: توقيرهم وحفظ مقامهم ومكانتهم:

١- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾** [البقرة: ٢٦٠]، **وَيَرْحَمُ الله لُوطًا، لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ، وَلَوْ لَبِثْتُ فِي السِّجْنِ طُولَ مَا لَبِثَ يُوسُفُ، لَأَجَبْتُ الدَّاعِيَ**»[(١)].

وإنما قاله ﷺ تواضعًا، والتواضع لا يحط مرتبة الكبير، بل يزيده رفعة وجلالاً[(٢)].

٢- وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: بَيْنَمَا يَهُودِيٌّ يَعْرِضُ سِلْعَتَهُ، أُعْطِيَ بِهَا شَيْئًا كَرِهَهُ، فَقَالَ: لَا وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى البَشَرِ، فَسَمِعَهُ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَامَ فَلَطَمَ وَجْهَهُ، وَقَالَ: تَقُولُ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى البَشَرِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِنَا؟ فَذَهَبَ إِلَيْهِ فَقَالَ: أَبَا القَاسِمِ، إِنَّ لِي ذِمَّةً وَعَهْداً، فَمَا بَالُ فُلَانٍ لَطَمَ وَجْهِي، فَقَالَ: «**لِمَ لَطَمْتَ وَجْهَهُ؟**» فَذَكَرَهُ، فَغَضِبَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى رُئِيَ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ الله، فَإِنَّهُ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ، فَيَصْعَقُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ الله، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ بُعِثَ، فَإِذَا مُوسَى آخِذٌ بِالعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَحُوسِبَ بِصَعْقَتِهِ يَوْمَ الطُّورِ، أَمْ بُعِثَ قَبْلِي**»[(٣)].

٣- وعندما سأل الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ رسول الله ﷺ عن أكرم الناس، أجابهم بأكرمهم عند الله فقال: «**أَتْقَاهُم**». موافقةً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وهذا شرف من جهة العمل، ولكنَّ الصحابةَ قالوا: ليس عن هذا نسألك، فظن أنهم يسألونه عن شرف النسب، فقال: «**يُوسُفُ نَبِيُّ الله، ابْنُ نَبِيِّ الله، ابْنِ نَبِيِّ الله، ابْنِ خَلِيلِ الله**»[(٤)].

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٣٧٢)، و«صحيح مسلم» (١٥١).

(٢) «فتح الباري» (٦/ ٤١٣).

(٣) «صحيح البخاري» (٣٤١٤)، و«صحيح مسلم» (٢٣٧٣).

(٤) «صحيح البخاري» (٣٣٨٣).

وهذا الشرف ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في توالي أبوّة الأنبياء؛ يعقوب وإسحاق وإبراهيم عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فذكره النبي ﷺ بهذه المنقَبَة، تواضعاً منه ﷺ، وإلا فهو سيد الناس كلهم في الدنيا ويوم القيامة، والسيادة يوم القيامة أعظم من السيادة في الدنيا، فهو مشهد يجمع الله فيه الأولين والآخرين، فالسيد فيه هو السيد على أولهم وآخرهم، وهو يوم تتحقق فيه الحقائق، وتبطل المؤهلات المزيفة، وأنواع الشرف الموهومة.

ومع ذلك لم يقل ﷺ: أكرم الناس أنا، وهو بها حقيق، ولو قالها لقالت السماوات السبع والأرضين السبع وما بينهما: صدقت وبررْت، ولكن ذكر هذا الشرف ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذه المؤهلات، وهذا من عظمة خلقه وتواضعه، وإكرامه لإخوانه أنبياء الله ورسله.

٤- وعَنْ عَبْدِ الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: إِنِّي خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى**»[(١)].

وإنما قال ﷺ ذلك تواضعاً منه، لما تُشعر به المفاضلة المعينة من انتقاص المفضول[(٢)]، وإلا فقد قال الله: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وأخبر ﷺ أنه سيّد ولد بني آدم، ولكنه ذَكَر التفضيل مجملاً دون تعيين المفضول، فلم يذكره مع أحد من الأنبياء معيناً؛ تكرمة لهم، وحفظاً لمقامهم[(٣)].

سابعاً: مؤاخاتهم وتوليهم:

جعل النبي ﷺ النبوةَ أخوةً جامعة بين الأنبياء، وإن تعددت أممهم، وتباعدت أزمنتهم.

١- فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَالأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ**»[(٤)].

(١) «صحيح البخاري» (٣٤١٢).
(٢) «فتح الباري» (٦/ ٤٤٦).
(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٣٣٨)، و«التحرير والتنوير» (٣/ ٥-٩).
(٤) «صحيح البخاري» (٣٤٤٣).

٢- وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**إِنِّي لَأَرْجُو إِنْ طَالَ بِي عُمُرٌ أَنْ أَلقَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنْ عَجِلَ بِي مَوْتٌ، فَمَنْ لَقِيَهُ مِنْكُمْ فَلْيُقْرِئْهُ مِنِّي السَّلَامَ**»[(١)].

خلاصات:

علاقة النبي ﷺ بإخوانه الأنبياء على تباعد أزمانهم وتفرق أوطانهم، هي علاقة الأخوة الوثيقة، ويتجلى ذلك في:

١- ذكر فضائلهم، وتعداد مناقبهم، عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

٢- ذكر قصصهم، وأخبارهم.

٣- لقاؤهم وصلاته بهم ليلة الإسراء في بيت المقدس، ثم لقاؤهم في منازلهم في السماوات.

٤- ذكر أوصافهم وهيئاتهم كأنما ينظر إليهم.

٥- توقيرهم، وحفظ مقامهم، ومكانتهم.

٦- ذكر مؤاخاتهم، وتوليهم.

(١) «مسند أحمد» (٧٩٧٠).

الرسول ﷺ صَدِيقاً

كانت حياة النبي ﷺ محفوفة بأصدقاء كرام قبل النبوة وبعدها، وبعد الهجرة كانت تحيطه صداقات أصحابه من رجالات المهاجرين والأنصار، ومع سعة صداقته تلك إلا أنا سنأخذ منها الأنموذج الساطع والرتبة الأولى، لنرى الصداقة كأروع ما كانت وما تكون: أصدقَها وأجملَها، وأوفاها وأكملَها، وهي تلك الصداقة التي كانت بين النبي ﷺ وصديقه أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فكان الصِّدِّيقُ صَديقـًا، وصاحبـًا وصهراً، وكان لهذه الصداقة معالمها في حياتهما، ومن معالمها:

١- تقارب العمر بينهما، فالصديق من لِداتِ النبي ﷺ ومقاربيه في العمر، يقصر عمره عن عمر النبي ﷺ سنتين وشيئـًا، والتقارب في العمر يوسع مجالات الاشتراك في الاهتمام والمعرفة وظروف الحياة.

وكما كان بينهما تقارب في العمر كان بينهما تقارب في الخلال والأخلاق، ومما يبين ذلك: وصف أبي بكر بأوصاف النبي التي كان يوصف بها قبل النبوة، فعندما قال ﷺ لخديجة بعد نزول الوحي عليه في غار حراء: «**لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي**». قالت له: كَلَّا، أَبْشِرْ فَوَاللهِ لَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَداً، فَوَاللهِ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ[1].

ومثله تمامـًا ما قاله ابن الدَّغِنَةِ حين لقي أبا بكر وهو يريد الهجرة إلى الحبشة، فقد لقيه ابن الدغنة في برك الغماد فَقَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ يَا أَبَا بَكْرٍ؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَخْرَجَنِي قَوْمِي،

(١) «صحيح البخاري» (٣)، و«صحيح مسلم» (١٦٠).

فَأُرِيدُ أَنْ أَسِيحَ فِي الأَرْضِ وَأَعْبُدَ رَبِّي، قَالَ ابْنُ الدَّغِنَةِ: فَإِنَّ مِثْلَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ لَا يَخْرُجُ وَلَا يُخْرَجُ، إِنَّكَ تَكْسِبُ المَعْدُومَ وَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ، فَأَنَا لَكَ جَارٌ؛ ارْجِعْ وَاعْبُدْ رَبَّكَ بِبَلَدِكَ[1].

فانظر إلى تطابق الوصف الأخلاقي للنبي ﷺ مع ما وُصِف به أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد كانت هذه أخلاقهما الفطرية قبل الإسلام.

٢- كما أنها علاقة قديمة سابقة للنبوة وتنزل الوحي، ثم توثقت وتعمقت بعد النبوة وسَبْقِ أبي بكر للإيمان، فكان أولَ من أسلم من الرجال، وكان سَبْقُهُ للإيمان عن معرفة سابقة بحال النبي ﷺ وسيرته، وأطوار حياته، فبادر بالتصديق للرسول بالرسالة، ولذا فإن من دلائل نبوة النبي ﷺ أنّ أول مَن آمن به هو أعرف الناس به، وأن أكثرَهم يقينًا به هو أقربُهم إليه.

٣- ولوثوق هذه العلاقة وقربها كان أبو بكر يعرف مرادات النبي ﷺ وما يمكن أن يقول قبل أن يقوله، وما يشير إليه قوله وإن لم يفصح به.

ومن ذلك: ما جرى يوم الحديبية بعد أن وافق النبي ﷺ على ما شرطته قريش في الصلح، وكانت شروطًا جائرة في نظر كثير من الصحابة، حتى جاء عمر إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ألسنا على الحق؟ قال: «**بَلَى**». قال: أليسوا على الباطل؟ قال: «**بَلَى**». قال: فلمَ نعطي الدنية في ديننا، قال: «**يَا عُمَرُ! إِنِّي عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَلَا أَفعَل إِلَا مَا يَأْمُرُنِي**». قال: أليس قلتَ لنا: إننا ندخل المسجد الحرام محلقين ومقصرين؟ قال: «**يَا عُمَرُ! هَلْ قُلْتُ إِنَّكَ تَدْخُلُهُ عَامَكَ هَذَا؟!**». قال: لا. قال: «**فَإِنَّك دَاخِلُهُ**»[2].

فلم يصبر عمر، وذهب إلى أبي بكر، فسأله كما سأل رسول الله ﷺ، فكان جواب أبي بكر هو عينَ جوابِ النبي ﷺ، مع أنه لم يكن حاضراً سؤال عمر، ولا سمع جواب النبي ﷺ له!

ولما جلس النبي ﷺ على المنبر في مرض وفاته وقال: «**إِنَّ عَبْداً خَيَّرَهُ رَبُّهُ، بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا مَا شَاءَ، وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ**». فكان أبو بكر هو الذي فقه إشارة النبي ﷺ،

(١) «صحيح البخاري» (٢٢٩٧).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٧٣١)، و«صحيح مسلم» (١٧٨٤).

وعلم مراده منها، وأن رسول الله هو العبد المخير، وأنه اختار لقاء الله، ويوشك أن يفارقهم، فأجهش بالبكاء، وجعل يقول: نفديك بآبائنا وأمهاتنا يا رسول الله!

ولم يفهم بقية الصحابة ما فهمه أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعجبوا من بكاء أبي بكر وقالوا: ما لهذا الشيخ يبكي أنْ خيَّر الله عبداً بين زهرة الدنيا وما عنده[1]؟! ثم علموا أن أبا بكر كان أعلمهم بمراد النبي ﷺ، وأن رسول الله كان هو المخيَّر.

ويا لله ولأبي بكر الذي بكى عندما ألمح النبي ﷺ إلى قرب لحاقه بالرفيق الأعلى، فكان يبكي والنبي ﷺ أمامه ينظر إليه، فكيف كانت فجيعته ولوعته عندما وقع الأمر وحصلت المصيبة بوفاة النبي ﷺ؟!

كلا؛ فقد كان يوم وفاة النبي ﷺ هو الرابطَ الجأش، المسدَّدَ القول[2]، وكان في موقفه عصمة لأمة محمد ﷺ وأمنةٌ وثباتٌ، ولكن حزنه وفجيعته من الحزن المستدخل المكتوم، حتى إني لأحسب أن الذي قتل أبا بكر ولاقى به أجلَه، هو حزنُه على رسول الله ﷺ ولوعتُه على فراقه.

٤- وكانت الرابطة المشاعرية بين أبي بكر والنبي ﷺ كأقوى وأسمى ما تكون المشاعر، ويكفي في اجتلاء رهافة هذه المشاعر وشفافيتها، حرص النبي ﷺ على صحبته في الهجرة، فقد كان الصحابة يَسْربون إلى المدينة مهاجرين، فإذا استأذن أبو بكر للهجرة استبقاه النبي ﷺ ينتظر الإذن له بالهجرة حتى يكون صاحبه.

وتتجلى رهافة مشاعر الصديق وعاطفته، عندما أتاه النبيُّ ﷺ في بيته يخبره بإذن الله له بالهجرة، قالت عائشة -وكانت حاضرة المشهد-: فقال أبو بكر: الصحبةَ يا رسولَ الله! فقال رسولُ الله ﷺ: «**الصُّحْبَة**». قالت: فوالله ما شعرتُ قطّ قبل ذلك اليوم أنّ أحداً يبكي من الفرح؛ حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ من الفرح بصحبة رسول الله ﷺ[3].

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٩٠٤)، و«صحيح مسلم» (٢٣٨٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٦٦٧).

(٣) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٩٣).

إنها لحظة لا يمكن تصنع الانفعال فيها؛ ولكنها مشاعر الفرح طفرت عارمة غامرة أقوى من أن يتحكم فيها أو يسيطر عليها، ففاضت دموعاً ذارفة ما رأتها عائشة في مشهد قبل هذا، فأيّ حُبٍّ كان هذا الحب، وأيُّ صداقة كانت هذه الصداقة والقرب؟!

فانظر حرص كلٍّ منهما على هذه الصحبة: النبي ﷺ يستبقيه ليكون صاحبه، والصديق يبكي أن وافق الرسول أن يكون هو صاحبه، وحسبك أن الله خلّد هذه الصحبة وأبقاها من بعدُ قرآناً يتلى إلى يوم القيامة: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

٥- لقد عَبَرَت حياة الصِّدِّيق مع النبي ﷺ في كل أطوارها، وبكل ما مرّ بها، فقد تغيرت أحوال النبي ﷺ وتنوَّعت يسراً وعسراً، وقلة وكثرة، وفقراً وغنىً، وبقي أبو بكر مع النبي ﷺ في أحواله هذه كلها الأقرب إليه على أيّ حال كان.

ذاق معه نشوة النصر، وتجرع معه ألم المصيبة.. عاش معه جهد الفقر، وعايش معه وفرة الغنى، وكان الثابتَ معه والأقربَ إليه يوم انهزم الناس عنه في أُحُد وفي حُنين.. إن هذه الأحوال مهما تبدلت وتغيرت حول رسول الله، فإن حال أبي بكر معه هي التي لم تتغير قرباً وحبّاً وثباتاً وصدقاً.

وفي هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة، كان أبو بكر في الغار معه، وفي الطريق المخوف إلى المدينة كان أبو بكر معه، وبعدها بعشر سنين في طريق النبي ﷺ من المدينة إلى مكة في حجة الوداع، كان النبي ﷺ آمن ما يكون وأظهر ما يكون، ومعه أكثر من مئة ألف؛ ولكن كان صاحبَه في الطريق من بينهم كلهم أبو بكر، وكانت زاملته وزاملة[1] أبي بكر واحدة[2].

٦- ولذا صار للصديق خصوصية بالنبي ﷺ، وملازمة له، فهو صاحبه الأقرب، فتجد سمره عند رسول الله، وسمر رسول الله عنده، وذلك لقضاء حوائج الناس والاهتمام بأمورهم، قال عمر بن الخطاب: كان رسول الله ﷺ يسمر مع أبي بكر في الأمر من أمور المسلمين وأنا معهما[3].

(١) الزاملة: الْبَعِير الَّذِي يحمل عَلَيْهِ الطَّعَام وَالْمَتَاع. ينظر: «فتح الباري» (١/ ١٢٨).
(٢) «صحيح البخاري» (٤٠٩٣).
(٣) «جامع الترمذي» (١٦٩).

وقال عبد الرحمن بن أبي بكر: نَزَلَ عَلَيْنَا أَضْيَافٌ لَنَا، وَكَانَ أَبِي يَتَحَدَّثُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ مِنَ اللَّيْلِ، فَانْطَلَقَ وَقَالَ: يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ، افْرُغْ مِنْ أَضْيَافِكَ...[1]، وذكر الحديث بطوله.

ومثله ما ورد عن عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: أَنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ سَمَرَا عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، قَالَ: فَخَرَجَا وَخَرَجَ، فَمَرُّوا بِابْنِ مَسْعُودٍ وَهُوَ يَقْرَأُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَقْرَأَ القُرْآنَ كَمَا نَزَلَ، فَلْيَقْرَأْهُ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ**»[2]، فذكر الحديث.

٧- ثم نلاحظ الوفاء النبوي لهذه الصداقة، ورعاية حال أبي بكر فيها، حينما نرى المكانة التي يضع النبي ﷺ فيها أبا بكر عالية لا يساميه ولا يدانيه فيها أَحَدٌ من أصحابه، يتجلى ذلك في غضبه ﷺ على صاحبه الفاروق عمر حين حصلت بينه وبين أبي بكر مغاضبة، ثم جاء أبو بكر إليه معتذراً فلم يعذره، فجاء أبو بكر إلى النبي ﷺ يقول: يا رسولَ الله، إنه كان بيني وبين عمر شيء، ثم سألته أن يغفرَ لي فلم يغفرْ لي. فقال رسولُ الله ﷺ: «**يَغْفِرُ اللهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ، يَغْفِرُ اللهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ**». ثم جاء عمر إلى النبي ﷺ، فجعل وجه النبي ﷺ يتلوَّن من الغضب وهو يقول: «**هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُونَ لِي صَاحِبِي؟ هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُونَ لِي صَاحِبِي؟ إِنِّي قُلْت: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ جَمِيعًا، فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ. وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقْتَ، وَوَاسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُون لِي صَاحِبِي؟**»؛ حتى أشفق أبو بكر عليه وقال: يا رسولَ الله، أنا كنتُ أظلم، أنا كنتُ أظلم[3].

إن سابقة أبي بكر وقربه من رسول الله ﷺ مذكورة مشكورة، وهل أعظم من أن يذكره ويشكره وهو يودع الدنيا في مرض وفاته، حين خرج على أصحابه قبل أن يموت بثلاثة أيام، فجلس على المنبر، وكانت آخر مرة رأوه فيها على منبره، فقال: «**إِنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبُو بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً خَلِيلاً، لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً، لكنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ، وَمَا من أَحَدٍ لَهُ يَدٌ عِنْدَنَا إِلَّا كَافَأْنَاهُ بِهَا، إِلَّا أَبَا بَكْرٍ، فَإِنَّ لَهُ يَداً اللهُ يُكَافِئُهُ بِهَا**»[4].

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٠٧٥).

(٢) «مسند أبي حنيفة» (١٩).

(٣) «صحيح البخاري» (٤٦٠٤).

(٤) «صحيح البخاري» (٤٦٦)، و«صحيح مسلم» (٢٣٨٢).

٨- ومع هذه الصداقة والمحبة والقرب من النبي ﷺ، فإن نبينا ﷺ لم يؤثره بعطاء أو إقطاع، ولم يستفد من القرب من رسول الله ﷺ عرَضًا دنيويًّا أو مالاً أو متاعًا، وإنما كانت أشواقه وآماله وطموحه هناك عند الله في الدار الآخرة.

يتجلى هذا الطموح في سؤال أبي بكر للنبي ﷺ وهو يذكر أبواب الجنة الثمانية وأن كل عامل يدعى من باب عمله: «**فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصِّيَامِ، وَبَابِ الرَّيَّانِ**». فقال أبو بكر: يا رسول الله، ما على مَن دُعي من باب منها من ضرورة، فهل يُدعى أحدٌ من أبواب الجنة كلها؟ فقال النبي ﷺ: «**نَعَمْ، وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ يَا أَبَا بَكْرٍ**»[1].

إن من كانت أشواقه هناك لن ينتظر عرَضًا دنيويًّا، ولن يتشوف إلى متاع زائل في عُمُرٍ عابر، وهكذا كان أبو بكر..

لقد أحبّ أبو بكر الرسول ﷺ صديقًا، وآمن به رسولاً، فكان مخلصًا في صداقته، موقنًا في إيمانه، ولا تزال تتتبع أخبار هذه الصداقة الرائعة بين الرسول ﷺ وأبي بكر، حتى توقن أن أبا بكر هو أكثر الصحابة إسعاداً للنبي ﷺ، وأعظمهم سعادة بالنبي صلَّى الله وسلَّم عليه، ورضي عن صَدِيقه وصِدِّيقه.

خلاصات:

١- كانت حياة النبي ﷺ محفوفة بأصدقاء كرام قبل النبوة وبعدها، وبعد الهجرة كانت تحيطه صداقات أصحابه من رجالات المهاجرين والأنصار.

٢- كان أبو بكر الصديق هو الصديق الأقرب إلى رسول الله ﷺ.

٣- كان بين الرسول ﷺ وأبي بكر تقارب في العمر، وتقارب في الشمائل والأخلاق.

٤- كان أبو بكر لشدة قربه من رسول الله ﷺ هو الأعلم بمرادات الرسول ودلالة قوله.

---

(١) «صحيح البخاري» (١٨٩٧)، و«صحيح مسلم» (١٠٢٧).

٥- كانت المشاعر الوجدانية بين أبي بكر والنبي ﷺ مرهفة شفافة، حتى بكى من الفرح لصحبة النبي ﷺ في طريق الهجرة.

٦- تبدلت أحوال النبي ﷺ وتغيرت ظروفه وأوضاعه؛ ولكن حال أبي بكر معه لم تتحول ولم تتغير ثباتاً ويقيناً وقرباً.

٧- كان لأبي بكر خصوصية بالنبي ﷺ، يسمر عنده في أمر المسلمين، فهو الصاحب والصديق والوزير والمشير.

٨- كان حفظ النبي ﷺ لسابقة أبي بكر ورعاية مكانته من مشاهد الوفاء وحسن العهد.

٩- لم يكن قرب أبي بكر من النبي ﷺ وحظوته عنده سبب إيثاره بغرض دنيوي، أو متاع زائل، وإنما ادخر جزاءه عند الله يكافئه به.

الرسول ﷺ والمرأة

للمرأة حضورها القوي والمؤثر في الحياة النبوية؛ زوجةً، وبنتًا، وصحابية متلقية للرسالة وعاملة بها، وحاملة لها، وقد كان التعامل النبوي مع المرأة نُقلَةً كبيرة في التعامل المجتمعي مع المرأة، فقد كان الوحي المنزل، والهدي النبوي في التعامل، يسنن طريقًا آخر يجعل للمرأة مكانتها، ويفعِّل دورها، ويحفظ حقوقها، ويرفع منزلتها، فإذا القرآن يتنزل بمساواة المرأة بالرجل في العمل والجزاء: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

ويأتي الهدي النبوي مؤكداً هذا المعنى: «**إِنَّمَا النِّسَاءُ شَقَائِقُ الرِّجَالِ**»(١).

وقد كان النبي ﷺ في هديه وتعامله مع النساء يفعِّل هذا الدور، ويؤكد هذه المكانة، ويحرر المرأة من كثير من عوائق الإرث المجتمعي الجاهلي، ويتجلى ذلك في معالم منها:

أولاً: مخالفة عادة قومه قريش في التعامل مع النساء:

فكانت قريش بخاصة والعرب بعامة لا يرون للمرأة رأيًا ولا مشورة، وإنما هي تابعة للرجل فيما يرى، وكانوا يزدرون دورها ومكانتها فيقولون: نصْرُها بكاء وبِرُّها سرقة! فجاء التعامل النبوي الكريم على غير هذا العرف المجتمعي؛ ليرفع مكانتها، وليجعل لها رأيها، ويعتبر مشورتها.

(١) «سنن أبي داود» (٢٣٦).

قَالَ عُمَرُ: وَالله إِنْ كُنَّا فِي الجَاهِلِيَّةِ مَا نَعُدُّ لِلنِّسَاءِ أَمْراً، حَتَّى أَنْزَلَ الله فِيهِنَّ مَا أَنْزَلَ، وَقَسَمَ لَهُنَّ مَا قَسَمَ، قَالَ: فَبَيْنَا أَنَا فِي أَمْرٍ أَتَأَمَّرُهُ، إِذْ قَالَتِ امْرَأَتِي: لَوْ صَنَعْتَ كَذَا وَكَذَا، قَالَ: فَقُلْتُ لَهَا: مَا لَكِ وَلِمَا هَا هُنَا؟ وَفِيمَ تَكَلُّفُكِ فِي أَمْرٍ أُرِيدُهُ؟ فَقَالَتْ لِي: عَجَباً لَكَ يَا ابْنَ الخَطَّابِ! مَا تُرِيدُ أَنْ تُرَاجَعَ أَنْتَ، وَإِنَّ ابْنَتَكَ لَتُرَاجِعُ رَسُولَ الله ﷺ حَتَّى يَظَلَّ يَوْمَهُ غَضْبَانَ! فَقَامَ عُمَرُ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ مَكَانَهُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى حَفْصَةَ، فَقَالَ لَهَا: يَا بُنَيَّةُ، إِنَّكِ لَتُرَاجِعِينَ رَسُولَ الله ﷺ حَتَّى يَظَلَّ يَوْمَهُ غَضْبَانَ؟ فَقَالَتْ حَفْصَةُ: وَالله إِنَّا لَنُرَاجِعُهُ[1].

وهذا من دلائل نبوته ﷺ فإنه لم يَسِرْ على النظام الاجتماعي لقومه؛ لأنه يستمد هديه من الوحي الإلهي، وليس من الإرث الاجتماعي؛ ولذا خالفهم في طريقة التعامل مع المرأة، فعاملها بما يليق بفطرتها وإنسانيتها.

ومن ذلك: قبوله ﷺ رأي خديجة أول نزول الوحي عليه في غار حراء، حيث ذهبت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، وأسمعته كلام النبي ﷺ، فأخذا منه ما أسكن فؤاد النبي ﷺ وهدَّأ روعه.

وكذلك قبوله مشورة أم سلمة يوم الحديبية، فعن المسور بن مخرمة، أن رسول ﷺ قال لأصحابه يوم الحديبية: «**قُومُوا، فَانْحَرُوا، ثُمَّ احْلِقُوا**». قَالَ: فَوَالله مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ، فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يَا نَبِيَّ الله، أَتُحِبُّ ذَلِكَ؟ اخْرُجْ، ثُمَّ لَا تُكَلِّمْ أَحَداً مِنْهُمْ كَلِمَةً حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ، وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ، فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَداً مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ، نَحَرَ بُدْنَهُ، وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا فَنَحَرُوا، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضاً؛ حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضاً غَمّاً[2].

وهنا نلاحظ أنه ﷺ عرض على أم سلمة حاله مع الناس، وبثها معاناته؛ شكاية واستشارة، ولذا بادرت أم سلمة بإبداء رأيها، ثم نرى حسن تلقي النبي ﷺ لهذه المشورة وعمله بها، وبالغ أثرها على الناس.

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٩١٣)، و«صحيح مسلم» (١٤٧٩).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٧٣١).

ثانياً: إشعار المرأة بمسؤوليتها، ومشاركتها في العمل لدينها:

ويبين هذا الدور للمرأة أن أول من أسلم وصدَّق الرسول ﷺ من خلق الله كلهم؛ إنسهم وجنهم، رجالهم ونسائهم: هي أمنا خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فهي أول من تلقى الرسالة من رسول الله ﷺ، وأول من احتفى باستقبالها وآمن بها، وناصر الرسول والرسالة، وكذا كان السابقات من المؤمنات؛ آمَنَّ بالدين عن قناعة راسخة، وليس استتباعاً أو تقليداً، ولذا تحملْنَ المسؤولية، وتصدّيْنَ للبذل والتضحية، فكنّ المهاجرات المجاهدات الصابرات المحتسبات، ومما يوضح ذلك:

١- حديث أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: دَخَلَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ زوجة جعفر، عَلَى حَفْصَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ زَائِرَةً، وَقَدْ كَانَتْ هَاجَرَتْ إِلَى النَّجَاشِيِّ فِيمَنْ هَاجَرَ، فَدَخَلَ عُمَرُ عَلَى حَفْصَةَ وَأَسْمَاءُ عِنْدَهَا، فَقَالَ عُمَرُ حِينَ رَأَى أَسْمَاءَ: مَنْ هَذِهِ؟ قَالَتْ: أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ، قَالَ عُمَرُ: الحَبَشِيَّةُ هَذِهِ.. البَحْرِيَّةُ هَذِهِ؟ قَالَتْ أَسْمَاءُ: نَعَمْ، قَالَ: سَبَقْنَاكُمْ بِالهِجْرَةِ، فَنَحْنُ أَحَقُّ بِرَسُولِ الله ﷺ مِنْكُمْ، فَغَضِبَتْ وَقَالَتْ: كَلَّا وَالله، كُنْتُمْ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ يُطْعِمُ جَائِعَكُمْ، وَيَعِظُ جَاهِلَكُمْ، وَكُنَّا فِي دَارٍ -أَوْ فِي أَرْضٍ- البُعَدَاءِ البُغَضَاءِ بِالحَبَشَةِ، وَذَلِكَ فِي الله وَفِي رَسُولِهِ ﷺ، وَايْمُ الله لَا أَطْعَمُ طَعَامًا وَلَا أَشْرَبُ شَرَابًا، حَتَّى أَذْكُرَ مَا قُلْتَ لِرَسُولِ الله ﷺ، وَنَحْنُ كُنَّا نُؤْذَى وَنُخَافُ، وَسَأَذْكُرُ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَأَسْأَلُهُ، وَالله لَا أَكْذِبُ وَلَا أَزِيغُ، وَلَا أَزِيدُ عَلَيْهِ، فَلَمَّا جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ قَالَتْ: يَا نَبِيَّ الله إِنَّ عُمَرَ قَالَ: كَذَا وَكَذَا؟ قَالَ: «**فَمَا قُلْتِ لَهُ؟**». قَالَتْ: قُلْتُ لَهُ كَذَا وَكَذَا، قَالَ: «**لَيْسَ بِأَحَقَّ بِي مِنْكُمْ، وَلَهُ وَلِأَصْحَابِهِ هِجْرَةٌ وَاحِدَةٌ، وَلَكُمْ أَنْتُمْ -أَهْلَ السَّفِينَةِ- هِجْرَتَانِ**»[1].

يُبْهرك موقف أسماء هذا، فهو دال على أنها كانت تؤدي دورها بوعي كامل لمسؤوليتها؛ لقد كان يمكن أن تُجيب عمر قائلة: لقد ذهبت مع زوجي يوم ذهب، وعدت معه يوم عاد. وحَسْبُها ذلك لو كانت تؤدي دورها مجرد تابعة؛ ولكنها واجهت عمر مواجهة الواثقة المُتَشَبِّعة بما عملت، ولشدة يقينها أقسمت أن ترفع ما جرى إلى رسول الله ﷺ، وقد فعلت.. وكل ذلك دليل على غاية الوثوق بأهمية الدور الذي قامت به مع زوجها جعفر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(١) «صحيح البخاري» (٤٢٣٠).

إن هذا يكشف أن المرأة كانت شريكًا حقيقيًّا فاعلاً في مشروع الدعوة النبوية، مُتَشَبِّعة بقناعتها، واعية بدورها، ولذا كان عطاؤها عطاء كثيراً طيباً مباركًا فيه، وما كان ذلك لِيَتِمَّ لو كانت تعيش بعض حالات التهميش والإقصاء والاستتباع.

إن النبي ﷺ وقد سمع مقالة عمر لأسماء لم يسارع بالجواب، وإنما سألها قائلاً: «**فَمَا قُلْتِ لَهُ؟**». فلما قالت: قلتُ له كذا وكذا، أجابها مُقَرِّراً لما قالت ومُؤكِّداً له، وهذا نوع من التربية النبوية لبناء الثقة في الذات، وإظهار اعتبار رأي المرأة.

٢- ومن ذلك: خبر هجرة أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: لَمَّا أَجْمَعَ أَبُو سَلَمَةَ الخُرُوجَ إِلَى المَدِينَةِ، منعني أهلي بنو المغيرة، وأخذ بنو أسد رهط أبي سلمة ابني سلمة، وَانْطَلَقَ زَوْجِي أَبُو سَلَمَةَ إِلَى المَدِينَةِ. قَالَتْ: فَفُرِّقَ بَيْنِي وَبَيْنَ زَوْجِي وَبَيْنَ ابْنِي. قَالَتْ: فَكُنْتُ أَخْرُجُ كُلَّ غَدَاةٍ فَأَجْلِسُ بِالأَبْطَحِ، فَمَا أَزَالُ أَبْكِي حَتَّى أُمْسِي سَنَةً أَوْ قَرِيبًا مِنْهَا، حَتَّى مَرَّ بِي رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَمِّي، أَحَدُ بَنِي المُغِيرَةِ، فَرَأَى مَا بِي فَرَحِمَنِي، فَقَالَ لِبَنِي المُغِيرَةِ: أَلَا تُخْرِجُونَ هَذِهِ المِسْكِينَةَ، فَرَّقْتُمْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ زَوْجِهَا وَبَيْنَ وَلَدِهَا! قَالَتْ: فَقَالُوا لِي: الحَقِي بِزَوْجِكِ إِنْ شِئْتِ. قَالَتْ: وَرَدَّ بَنُو عَبْدِ الأَسَدِ إِلَيَّ عِنْدَ ذَلِكَ ابْنِي. قَالَتْ: فَارْتَحَلْتُ بَعِيرِي، ثُمَّ أَخَذْتُ ابْنِي فَوَضَعْتُهُ فِي حِجْرِي، ثُمَّ خَرَجْتُ أُرِيدُ زَوْجِي بِالمَدِينَةِ. قَالَتْ: وَمَا مَعِي أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ. قَالَتْ: فَقُلْتُ: أَتَبَلَّغُ بِمَنْ لَقِيتُ حَتَّى أَقْدَمَ عَلَى زَوْجِي، حَتَّى إِذَا كُنْتُ بِالتَّنْعِيمِ لَقِيتُ عُثْمَانَ بْنَ طَلْحَةَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ أَخَا بَنِي عَبْدِ الدَّارِ فَقَالَ لِي: إِلَى أَيْنَ يَا بِنْتَ أَبِي أُمَيَّةَ؟ قَالَتْ: فَقُلْتُ: أُرِيدُ زَوْجِي بِالمَدِينَةِ. قَالَ: أَوَمَا مَعَكِ أَحَدٌ؟ قَالَتْ: فَقُلْتُ: لَا وَاللهِ، إِلَّا اللهَ وَبُنَيَّ هَذَا. قَالَ: وَاللهِ مَا لَكِ مِنْ مَتْرَكٍ، فَأَخَذَ بِخِطَامِ البَعِيرِ، فَانْطَلَقَ مَعِي يهوي بي، فواللهِ مَا صَحِبْتُ رَجُلاً مِنَ العَرَبِ قَطُّ أَرَى أَنَّهُ كَانَ أَكْرَمَ مِنْهُ، حَتَّى أَقْدَمَنِي المَدِينَةَ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَى قَرْيَةِ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ بِقُبَاءٍ قَالَ: زَوْجُكِ فِي هَذِهِ القَرْيَةِ -وَكَانَ أَبُو سَلَمَةَ بِهَا نَازِلاً- فَادْخُلِيهَا عَلَى بَرَكَةِ اللهِ، ثُمَّ انْصَرَفَ رَاجِعًا إِلَى مَكَّةَ[1].

إن هذا الصبر والمصابرة كان قناعةً بالدين، وصبراً على الشدائد فيه، وشعوراً عميقًا بالانتماء له، ولذا تأثرتْ بمنعها من الهجرة هذا التأثر، ثم غامرت بهذا السفر البعيد وحدها؛

(١) «سيرة ابن هشام» (١/ ٤٧٠).

لتشارك زوجها هجرته، وتنال شرف ما ناله، وما كانت لتُقْدِمَ على ذلك وتتحمله لولا يقينها بإيمانها، وتحملها مسؤولية دينها.

ثالثاً: فتح المجال للتعبير عن آرائهن:

فَتَحَ ﷺ آفاقَ الحوار لهنّ، وإبداء الرأي فيما يلقيه إليهن، وكان يتصدى للجواب عن أسئلتهن وآرائهن أمام الملأ بحفاوة وترحاب، بحيث جرأت النساء والفتيات أن يقفن أمامه، ويسألهن، ويبين آراءهن بنصاعة ووضوح فيما يقوله لهن، ومن ذلك:

١- حديث جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله قَالَ: شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ الصَّلَاةَ يَوْمَ العِيدِ، فَبَدَأَ بِالصَّلَاةِ قَبْلَ الخُطْبَةِ، بِغَيْرِ أَذَانٍ وَلَا إِقَامَةٍ، ثُمَّ قَامَ مُتَوَكِّئًا عَلَى بِلَالٍ، فَأَمَرَ بِتَقْوَى الله، وَحَثَّ عَلَى طَاعَتِهِ، وَوَعَظَ النَّاسَ وَذَكَّرَهُمْ، ثُمَّ مَضَى حَتَّى أَتَى النِّسَاءَ، فَوَعَظَهُنَّ وَذَكَّرَهُنَّ، فَقَالَ: «**تَصَدَّقْنَ؛ فَإِنَّ أَكْثَرَكُنَّ حَطَبُ جَهَنَّمَ**»، فَقَامَتِ امْرَأَةٌ مِنْ سِطَةِ النِّسَاءِ[(١)] سَفْعَاءُ[(٢)] الخَدَّيْنِ، فَقَالَتْ: لِمَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «**لِأَنَّكُنَّ تُكْثِرْنَ الشَّكَاةَ، وَتَكْفُرْنَ العَشِيرَ**»، قَالَ: فَجَعَلْنَ يَتَصَدَّقْنَ مِنْ حُلِيِّهِنَّ، يُلْقِينَ فِي ثَوْبِ بِلَالٍ مِنْ أَقْرِطَتِهِنَّ وَخَوَاتِمِهِنَّ[(٣)].

فهذه المرأة التي وصفها جابر أنها من سِطة النساء ليست معروفة مشهورة؛ ولكن كانت تجد الجرأة لتسأل النبي ﷺ هذا السؤال بين الناس بلا حرج ولا تهيُّب، فيتلقى النبي ﷺ سؤالها بحفاوة، ويفصل لها جواب ما سألت عنه، ويبين السبب؛ محذراً من هذه الخصال التي تسبب دخول النار، وكان من أثر ذلك تفاعل النساء ومبادرتهن بالتصدق من حليهن الذي كن يلبسنه.

٢- وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: صلى رَسُولُ الله ﷺ ثم قَالَ: «**مَجَالِسَكُمْ، مَجَالِسَكُمْ هَا هُنَا**». ثُمَّ حَمِدَ اللهَ تَعَالَى وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «**أَمَّا بَعْدُ**». ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى الرِّجَالِ فَقَالَ: «**هَلْ مِنْكُمُ الرَّجُلُ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ فَأَغْلَقَ عَلَيْهِ بَابَهُ، وَأَلقَى عَلَيْهِ سِتْرَهُ وَاسْتَتَرَ بِسِتْرِ الله؟**». قَالُوا: نَعَمْ،

---

(١) سطَة النساء: أي ليست من علية النساء، ويدل عليه قوله: «سفعاء الخدين». ينظر: «إكمال المعلم» (٣/ ٢٩٤).

(٢) السُّفْعَةُ: نَوْعٌ مِنَ السَّوَادِ لَيْسَ بِالكَثِيرِ. وَقِيلَ: هُوَ سَوَادٌ مَعَ لَوْنٍ آخَرَ. ينظر: «النهاية» (٢/ ٣٧٤).

(٣) «صحيح مسلم» (٨٨٥).

قَالَ: «**ثُمَّ يَجْلِسُ بَعْدَ ذَلِكَ فَيَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا، فَعَلْتُ كَذَا؟**». قَالَ: فَسَكَتُوا، قَالَ فَأَقْبَلَ عَلَى النِّسَاءِ، فَقَالَ: «**هَلْ مِنْكُنَّ مَنْ تُحَدِّثُ؟**». فَسَكَتْنَ، فَجَثَتْ فَتَاةٌ كَعَابٌ عَلَى إِحْدَى رُكْبَتَيْهَا، وَتَطَاوَلَتْ لِرَسُولِ الله ﷺ لِيَرَاهَا وَيَسْمَعَ كَلَامَهَا، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّهُمْ لَيَتَحَدَّثُونَ، وَإِنَّهُنَّ لَيَتَحَدَّثْنَهُ، فَقَالَ: «**هَلْ تَدْرُونَ مَا مَثَلُ ذَلِكَ؟**». فَقَالَ: «**إِنَّمَا مَثَلُ ذَلِكَ مَثَلُ شَيْطَانَةٍ لَقِيَتْ شَيْطَانًا فِي السِّكَّةِ، فَقَضَى مِنْهَا حَاجَتَهُ وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَيْه**»[1].

لقد جرأت هذه الفتاة على ما لم يجرؤ عليه الرجال ولا النساء، وقد استقبل النبي ﷺ مشاركتها، وأسس عليها بقية حديثه، ولم تكن تخشى أن تتعرض لتعنيف أو توبيخ، ولم تتجرأ الفتاة هذه الجرأة أمام رسول الله ﷺ وجمع المسلمين، إلا أنها رأت سوابق وواقعات حصل فيها نحو ذلك من مخاطبة النساء للنبي ﷺ، ورأتْ حُسن تلقيه ذلك منهن، ولذا تجرأت وهي الفتاة صغيرة السن، لتقول ما لم يجرؤ الرجال والنساء على قوله.

رابعاً: استقبال مبادرات النساء والحفاوة بها والتفاعل معها:

فعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ امْرَأَةً مِنَ الأَنْصَارِ قَالَتْ لِرَسُولِ الله ﷺ: يَا رَسُولَ الله، أَلَا أَتَّخِذُ لَكَ مِنْبَراً يَحْمِلُ عِظَامَكَ، فَإِنَّ لِي غُلَاماً نَجَّاراً؟ قَالَ: «**بَلَى، إِنْ شِئْتِ**». قَالَ: فَاتَّخَذَ لَهُ مِنْبَراً مِرْقَاتَيْنِ[2].

إن هذه المرأة التي بادرت بهذا الاقتراح، لم يمنعها وجود أبي بكرٍ وعمر وجِلَّةُ الصحابة حول رسول الله ﷺ، أن تقدم اقتراحها ومبادرتها، وكان لها السبق، فكان المنبر الذي عملته للنبي ﷺ هو الأثر الذي بقيت آثاره نحواً من سبعمئة سنة، كما أن كل المنابر في مساجد المسلمين بعد ذلك هي ثمرة هذا المبادرة المباركة، فلهذه الصحابية السبق إلى هذه السنة.

خامساً: تخصيص مجالس له مع النساء:

فعن أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ قال: قَالَتِ النِّسَاءُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: غَلَبَنَا عَلَيْكَ الرِّجَالُ، فَاجْعَلْ لَنَا يَوْماً مِنْ نَفْسِكَ، فَوَعَدَهُنَّ يَوْماً لَقِيَهُنَّ فِيهِ، فَوَعَظَهُنَّ وَأَمَرَهُنَّ، فَكَانَ فِيمَا قَالَ لَهُنَّ:

---

(١) «سنن أبي داود» (٢١٧٤).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٠٩٥)، و«سنن أبي داود» (١٠٨١). يحمل عظامك: كناية عن القعود عليه. مرقاتين: درجتين. ينظر: «عون المعبود» (١/ ٤٢١).

«مَا مِنْكُنَّ امْرَأَةٌ تُقَدِّمُ ثَلَاثَةً مِنْ وَلَدِهَا، إِلَّا كَانَ لَهَا حِجَابًا مِنَ النَّارِ». فَقَالَتِ امْرَأَةٌ: وَاثْنَتَيْنِ؟ فَقَالَ: «وَاثْنَتَيْنِ»[1].

إن هذه المرأة عندما قالت: غلبنا عليك الرجال، لم تكن تعني استئثار الرجال به عليهن، فقد كان النساء يحضرن في المسجد ويسمعن خطبه ومواعظه ﷺ؛ ولكن وجود الرجال يعوقهن أن يسألن عما يعنيهن، وأن يراجعنه فيما يردْنَ، ولذا طلبْنَ مجلساً خاصاً بهنّ.

ثم إنه ﷺ عندما حضر تحدث معهن فيما يباشر حاجاتهن، وذلك بحديثه عن ثواب الأم تفقد أبناءها، فقد كان الأمهات يُفجعْنَ بأبنائهن في المدينة لكثرة الأوبئة فيها، فكان في حديثه ذلك سلوى وتعزية لهن.

سادساً: قضاء حاجاتهن والسعي في أمورهن:

فعَنْ أَنَسٍ: أَنَّ امْرَأَةً كَانَ فِي عَقْلِهَا شَيْءٌ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً، فَقَالَ: «يَا أُمَّ فُلَانٍ! انْظُرِي أَيَّ السِّكَكِ شِئْتِ؛ حَتَّى أَقْضِيَ لَكِ حَاجَتَكِ». فَخَلَا مَعَهَا فِي بَعْضِ الطُّرُقِ، حَتَّى فَرَغَتْ مِنْ حَاجَتِهَا[2].

فإذا كانت المرأة التي في عقلها شيءٌ تطلب من رسول ﷺ هذا الطلب فيلبيه لها، فإن هذا يدل على عرف معلوم عند عامة النساء، حتى جرأت عليه هذه المرأة.

ولما جاء عدي بن حاتم إلى النبي ﷺ فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى بَيته، قال عدي: فوالله إِنَّهُ لَعَامِدٌ بِي إِلَيْهِ، إِذْ لَقِيَتْهُ امْرَأَةٌ ضَعِيفَةٌ كَبِيرَةٌ، فَاسْتَوقَفَتْهُ، فَوَقَفَ لَهَا طَوِيلاً تُكَلِّمُهُ فِي حَاجَتِهَا، حتى رحمته من طول القيام[3]، قَالَ: قُلْتُ فِي نَفْسِي: وَالله مَا هَذَا بِمَلِكٍ[4].

ومن ذلك: رعايته المسكينات منهن، وعيادتهن والسؤال عنهن، والصلاة عليهن، فعن أبي أُمامَةَ بنِ سَهلِ بنِ حُنَيفٍ الأنصارِيِّ: أنَّ رسولَ الله ﷺ كان يَعودُ مَرضَى مَساكينِ المُسلِمينَ وضُعَفائِهِم، ويَتبَعُ جَنائزَهُم، ولا يُصَلِّي عَلَيهِم أحَدٌ غَيرُه،

(١) «صحيح البخاري» (١٠١)، و«صحيح مسلم» (٢٦٣٣).
(٢) «صحيح مسلم» (٢٣٢٦).
(٣) «الأحاديث الطوال» للطبراني (١).
(٤) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٥٨٠).

وأَنَّ امرأَةً مِسكينَةً مِن أهلِ العَوالِي طالَ سَقَمُها، فكانَ رسولُ الله ﷺ يَسأَلُ عَنها مَن حَضرَها مِن جيرانِها، وأَمَرَهُم ألَّا يَدفِنوها إنْ حَدَثَ بها حَدَثٌ، فيُصَلِّي عَلَيها، فتوُفِّيَت تِلكَ المَرأَةُ لَيلاً، فاحتَمَلوها فأَتَوا بها مَوضِعَ الجَنائزِ، عِندَ مَسجِدِ رسولِ الله ﷺ ليُصَلِّيَ عَلَيها رسولُ الله ﷺ كما أمرَهُم، فوَجَدوه قَد نامَ بَعدَ صَلاةِ العِشاءِ، فكَرِهوا أن يُهَجِّدوا رسولَ الله ﷺ مِن نَومِه، فصَلَّوا عَلَيها، ثُمَّ انطَلَقوا بها، فَلَمّا أصبَحَ رسولُ الله ﷺ سَأَلَ عَنها مَن حَضَرَه مِن جيرانِها، فأَخبَروه خَبَرَها، وأَنَّهُم كَرِهوا أن يُهَجِّدوا رسولَ الله ﷺ لَها، فقالَ لَهُم رسولُ الله ﷺ: «**ولِمَ فعَلتُمُ؟! انطَلِقُوا**». فانطَلَقوا مَعَ رسولِ الله ﷺ حَتَّى قاموا على قَبرِها، فصَفّوا وراءَ رسولِ الله ﷺ كما يُصَفُّ لِلصَّلاةِ على الجَنائزِ، فصَلَّى عَلَيها رسولُ الله ﷺ[1].

ومثل ذلك: صلاته على الأمة السوداء التي كانت تَقُمُّ[2] المسجد لما ماتت ودفنت من غير أن يعلم بها، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ امْرَأَةً سَوْدَاءَ كَانَتْ تَقُمُّ المَسْجِدَ، فَفَقَدَهَا رَسُولُ الله ﷺ، فَسَأَلَ عَنْهَا، فَقَالُوا: مَاتَت، قَالَ: «**أَفَلَا كُنْتُمْ آذَنْتُمُونِي!**». قَالَ: فَكَأَنَّهُمْ صَغَّرُوا أَمْرَهَا، فَقَالَ: «**دُلُّونِي عَلَى قَبْرِها**». فَدَلُّوهُ، فَصَلَّى عَلَيْهَا، ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ هَذِهِ القُبُورَ مَمْلُوءَةٌ ظُلْمَةً عَلَى أَهْلِهَا، وَإِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يُنَوِّرُهَا لَهُمْ بِصَلَاتِي عَلَيْهِمْ**»[3].

فانظر بالغ اهتمامه بهاته النسوة الضعيفات وسؤاله عنهن وتفقدهن، ثم عتابه لأصحابه إذ لم يخبروه، ثم ذهابه إلى قبورهن وصلاته عليهن، وعندما صغَّروا أمر الأمة السوداء لم يكن صغيراً عنده ﷺ فهي أمةٌ غريبة في المدينة لا قرابة لها ولا عشيرة؛ ولكنه ﷺ هو مأوى الغرباء، وأبو الضعفاء، لا يستصغر أحداً، فالكل أُمَّتُه ورعيته، وأتباعه المؤمنون به.

سابعاً: تخصيصهن بأنواع من الخطاب الذي يباشر احتياجاتهن ولهن به خصوصية:

وهي أحاديث كثيرة تتعلق بما يخص النساء، وللشيخ صديق حسن خان كتاب «حسن الأسوة بما ثبت عن الله ورسوله من حق النسوة». جمع فيه فأوعى، ومن ذلك:

---

(١) «السنن الكبرى» للبيهقي (٧١٠٠).

(٢) أَيْ تَجْمَعُ الْقُمَامَةَ وَهِيَ الْكُنَاسَةُ. ينظر: «فتح الباري» (١/ ٥٥٣).

(٣) «صحيح مسلم» (٩٥٦).

١- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**يَا نِسَاءَ الْمُسْلِمَاتِ، لَا تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا وَلَوْ فِرْسِنَ شَاةٍ**[(١)]»[(٢)].

٢- وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النِّسَاءَ قُلْنَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: اجْعَلْ لَنَا يَوْمًا، فَوَعَظَهُنَّ، وَقَالَ: «**أَيُّمَا امْرَأَةٍ مَاتَ لَهَا ثَلَاثَةٌ مِنَ الوَلَدِ، كَانُوا حِجَابًا مِنَ النَّارِ**». قَالَتِ امْرَأَةٌ: وَاثْنَانِ؟ قَالَ: «**وَاثْنَانِ**»[(٣)].

٣- وعَنْ أُمِّ عَطِيَّةَ قَالَتْ: أُمِرْنَا أَنْ نُخْرِجَ الحُيَّضَ يَوْمَ العِيدَيْنِ، وَذَوَاتِ الخُدُورِ، فَيَشْهَدْنَ جَمَاعَةَ المُسْلِمِينَ وَدَعْوَتَهُمْ، وَيَعْتَزِلُ الحُيَّضُ عَنْ مُصَلَّاهُنَّ، قَالَتِ امْرَأَةٌ: يَا رَسُولَ الله، إِحْدَانَا لَيْسَ لَهَا جِلْبَابٌ؟ قَالَ: «**لِتُلْبِسْهَا صَاحِبَتُهَا مِنْ جِلْبَابِهَا**»[(٤)].

وهذه الأحاديث وغيرها كثير مما يتعلق بطهارة النساء وعبادتهن ونفقتهن وزينتهن، ونحو ذلك من أمورهن.

ثامنًا: تحفيزهُنَّ للعلم:

كان رسول الله ﷺ يحفز للعلم تحفيزاً عامّاً، فهمت منه النساء -ومنهن أمهات المؤمنين- أنهن معنيات بذلك، ولذا بادرن إلى طلب العلم وأدائه، ولم يفهمن خصوصية الرجال بذلك.

١- قَالَ عَبْدُ الله بْنُ رَافِعٍ: كَانَتْ أُمُّ سَلَمَةَ تُحَدِّثُ أَنَّهَا سَمِعَتِ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ عَلَى المِنْبَرِ وَهِيَ تَمْتَشِطُ: «**أَيُّهَا النَّاسُ**». فَقَالَتْ لِمَاشِطَتِهَا: لُفِّي رَأْسِي، فَقَالَتْ: فَدَيْتُكِ إِنَّمَا يَقُولُ: «**أَيُّهَا النَّاسُ**»! قُلْتُ: وَيْحَكِ، أَوَلَسْنَا مِنَ النَّاسِ؟! فَلَفَّتْ رَأْسَهَا، وَقَامَتْ فِي حُجْرَتِهَا، فَسَمِعَتْهُ يَقُولُ: «**أَيُّهَا النَّاسُ! بَيْنَمَا أَنَا عَلَى الحَوْضِ، جِيءَ بِكُمْ زُمَرًا، فَتَفَرَّقَتْ بِكُمُ الطُّرُقُ،**

---

(١) الفِرْسِن: عَظْمٌ قَليل اللَّحْم، وَهُوَ خُفُّ البَعير، كالحَافر لِلدَّابَّةِ، وَقَدْ يُسْتَعار لِلشَّاةِ فيُقال فِرْسِن شَاةٍ. ينظر: «النهاية» (٣/ ٤٢٩).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٥٦٦)، و«صحيح مسلم» (١٠٣٠).

(٣) «صحيح البخاري» (١٢٤٩)، و«صحيح مسلم» (٢٦٣٣).

(٤) «صحيح البخاري» (٣٥١)، و«صحيح مسلم» (٨٨٣).

فَنَادَيْتُكُمْ: أَلَا هَلُمُّوا إِلَى الطَّرِيقِ، فَنَادَانِي مُنَادٍ مِنْ بَعْدِي، فَقَالَ: إِنَّهُمْ قَدْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ، فَقُلْتُ: أَلَا سُحْقًا، أَلَا سُحْقًا»[1].

إن هذا الوعي عند أم سلمة، بحيث أدركت أنها مشمولة بالخطاب العام، ثم بادرت للاستماع، إنما تكوَّن من التربية النبوية المحفِّزة على التعلم للرجال والنساء.

٢- وعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ قالت: قَامَ رَسُولُ الله ﷺ فَذَكَرَ الفِتْنَةَ الَّتِي يُفْتَنُ بِهَا المَرْءُ فِي قَبْرِهِ، فَلَمَّا ذَكَرَ ذَلِكَ ضَجَّ المُسْلِمُونَ ضَجَّةً حَالَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ أَنْ أَفْهَمَ كَلَامَ رَسُولِ الله ﷺ، فَلَمَّا سَكَنَتْ ضَجَّتُهُمْ قُلْتُ لِرَجُلٍ قَرِيبٍ مِنِّي: أَيْ بَارَكَ الله لَكَ، مَاذَا قَالَ رَسُولُ الله ﷺ فِي آخِرِ قَوْلِهِ؟ قَالَ: «**قَدْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي القُبُورِ قَرِيبًا مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ**»[2].

إن أسماء كانت في حال تحفز لسماع ما يقوله النبي ﷺ، وعندما فاتها بعض ما قاله ﷺ لضجيج الناس، سألت أقرب رجل إليها! وذلك أنها كانت في حجرة عائشة والرجل في المسجد، فليس بينها وبينه إلا الستر، ولذا سألته عن قرب.

إن هذا التحفز العلمي هو ثمرة التربية النبوية للمرأة وتأهيلها.

٣- وعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ أُمِّ المُؤْمِنِينَ أَنَّهَا قَالَتْ: جَاءَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ امْرَأَةُ أَبِي طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الحَقِّ، هَلْ عَلَى المَرْأَةِ مِنْ غُسْلٍ إِذَا هِيَ احْتَلَمَتْ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**نَعَمْ، إِذَا رَأَتِ المَاءَ**»[3].

وهذا مشهد للجراءة في طلب العلم، دفعت أم سليم لتسأل عما يُستَحيا منه غالبًا، وقد تلقى رسول الله ﷺ سؤالها بجدية واهتمام، فلم ينقل أنه ضحك أو عجب، بل دافع عنها حين قالت لها أم سلمة: يَا أُمَّ سُلَيْمٍ، فَضَحْتِ النِّسَاءَ، تَرِبَتْ يَمِينُكِ[4]، فَقَال النبي ﷺ: «**بَلْ أَنْتِ، فَتَرِبَتْ يَمِينُكِ. نَعَمْ؛ فَلْتَغْتَسِلْ -يَا أُمَّ سُلَيْمٍ- إِذَا رَأَتْ ذَاكَ**»[5].

(١) «مسند أحمد» (٢٦٥٤٦)، و«صحيح مسلم» (٢٤٩).

(٢) «السنن الكبرى» للنسائي (٢٠٦٢).

(٣) «صحيح البخاري» (٢٨٢)، و«صحيح مسلم» (٣١٣).

(٤) تربت يمينك أي: افتقرت وصارت على التراب، وهي من الألفاظ التي تطلق عند الزجر ولا يراد بها ظاهرها. «فتح الباري» (١/ ٢٧٤).

(٥) «صحيح مسلم» (٣١٣).

تاسعاً: مشاركتهن في الجهاد:

وذلك في الظرف المناسب وبالطريقة المناسبة لهن، ولذا كانت مشاركتهن غالباً في الحروب القريبة من المدينة، مثل أحد والخندق.

١- فعَنْ سَهْلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ جُرْحِ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ، فَقَالَ: جُرِحَ وَجْهُ النَّبِيِّ ﷺ، وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ[١]، وَهُشِمَتِ البَيْضَةُ[٢] عَلَى رَأْسِهِ، فَكَانَتْ فَاطِمَةُ عَلَيْهَا السَّلَامُ تَغْسِلُ الدَّمَ وَعَلِيٌّ يُمْسِكُ، فَلَمَّا رَأَتْ أَنَّ الدَّمَ لَا يَزِيدُ إِلَّا كَثْرَةً، أَخَذَتْ حَصِيراً فَأَحْرَقَتْهُ حَتَّى صَارَ رَمَاداً، ثُمَّ الزَقَتْهُ، فَاسْتَمْسَكَ الدَّمُ[٣].

٢- وعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ، انْهَزَمَ النَّاسُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: وَلَقَدْ رَأَيْتُ عَائِشَةَ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ وَأُمَّ سُلَيْمٍ، وَإِنَّهُمَا لَمُشَمِّرَتَانِ، أَرَى خَدَمَ سُوقِهِمَا تَنْقُزَانِ القِرَبَ[٤]، وَقَالَ غَيْرُهُ: تَنْقُلَانِ القِرَبَ عَلَى مُتُونِهِمَا، ثُمَّ تُفْرِغَانِهِ فِي أَفْوَاهِ القَوْمِ، ثُمَّ تَرْجِعَانِ فَتَمْلَآنِهَا، ثُمَّ تَجِيئَانِ فَتُفْرِغَانِهَا فِي أَفْوَاهِ القَوْمِ[٥].

٣- وعنه قال: كان رسول الله ﷺ يغزو بأم سليم، ونسوة من الأنصار معه إذا غزا، فيسقين الماء، ويداوين الجرحى[٦].

٤- وعن الرُّبَيِّعِ بِنْتِ مُعَوِّذٍ قَالَتْ: كُنَّا نَغْزُو مَعَ رَسُولِ الله ﷺ، فَنَسْقِي القَوْمَ وَنَخْدُمُهُمْ، وَنَرُدُّ الجَرْحَى وَالقَتْلَى إِلَى المَدِينَةِ[٧].

---

(١) الرَبَاعِيَة: هِيَ السِّنُّ الَّتِي تَلِي الثَّنِيَّةَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَلِلإِنْسَانِ أَرْبَعُ رَبَاعِيَاتٍ. ينظر: «شرح النووي على مسلم» (١٢/ ٤٨١).

(٢) هشمت البيضة على رأسه: الهشم: الكسر، والبيضة: الخوذة. ينظر: «النهاية» (٥/ ٢٦٤).

(٣) «صحيح البخاري» (٢٩١١)، و«صحيح مسلم» (١٧٩٠).

(٤) خدم سوقهما: الخلاخل، وتنقزان: تنقلان. ينظر: «فتح الباري» (٦/ ٩٢).

(٥) «صحيح البخاري» (٢٨٨٠)، و«صحيح مسلم» (١٨١١).

(٦) «صحيح مسلم» (١٨١٠).

(٧) «صحيح البخاري» (٢٨٨٣).

وهنا نلاحظ أن مشاركة النساء فيما يُحسنَّه، ففاطمة كانت تعالج جراحات النبي ﷺ، وعائشة وأم سليم تسقيان القوم بما تجلبانه من الماء في القِرَب، ونساء الأنصار يداوين الجرحى، وهي أعمالٌ تناسب المرأة وتليق لها، ولم تقحم في أعمالٍ قتالية ليست من لياقتها وشأنها.

عاشراً: حماية حقوق المرأة:

فأكد ﷺ حرمة حقها، وشدد في التعدي عليه أو انتقاصه، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**اللهمَّ إِنِّي أُحَرِّجُ**[1] **حَقَّ الضَّعِيفَيْنِ: اليَتِيمِ، وَالمَرْأَةِ**»[2].

فمن حمايته ﷺ لحقوق المرأة:

١- حماية حق المرأة في الإرث، فقد كانت المرأة تُحْرَم من الميراث، ويستأثر به الرجال دونهن، فلما استشهد سعد بن الرَّبيع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأُحُد، جاءت امرأته إلى رسول الله ﷺ فقالت: يَا رَسُولَ الله، هَاتَانِ ابْنَتَا سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ، قُتِلَ أَبُوهُمَا مَعَكَ يَوْمَ أُحُدٍ شَهِيداً، وَإِنَّ عَمَّهُمَا أَخَذَ مَالَهُمَا، فَلَمْ يَدَعْ لَهُمَا مَالاً، وَلَا تُنْكَحَانِ إِلَّا وَلَهُمَا مَالٌ. قَالَ: «**يَقْضِي الله فِي ذَلِكَ**». فَنَزَلَتْ: آيَةُ المِيرَاثِ، فَبَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى عَمِّهِمَا، فَقَالَ: «**أَعْطِ ابْنَتَيْ سَعْدٍ الثُّلُثَيْنِ، وَأَعْطِ أُمَّهُمَا الثُّمُنَ، وَمَا بَقِيَ فَهُوَ لَكَ**»[3].

ولأهمية هذا الأمر وأولويته: حضر النبي ﷺ القسمة بنفسه، وتولى ذلك في دار سعد بن الربيع، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله قَالَ: خَرَجْتُ أُرِيدُ رَسُولَ الله ﷺ فِي مَسْجِدِهِ، فَلَمْ أَجِدْهُ، فَسَالتُ عَنْهُ، فَقِيلَ لِي: هُوَ بِالأَسْوَافِ عِنْدَ بَنَاتِ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ أَخِي بَلْحَارِثِ بْنِ الحَارِثِ بْنِ الخَزْرَجِ، يَقْسِمُ بَيْنَهُنَّ مِيرَاثَهُنَّ مِنْ أَبِيهِنَّ، وَكُنَّ أَوَّلَ نِسْوَةٍ وَرِثْنَ مِنْ أَبِيهِنَّ فِي الإِسْلَامِ، فَخَرَجْتُ حَتَّى جِئْتُ الأَسْوَافَ، وَهُوَ مَالُ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ، فَوَجَدْتُ رَسُولَ الله ﷺ فِي صُورٍ مِنْ نَخْلٍ، قَدْ رُشَّ لَهُ فَهُوَ فِيهِ. فَأُتِيَ بِغَدَاءٍ مِنْ خُبْزٍ وَلَحْمٍ قَدْ صُنِعَ لَهُ، فَأَكَلَ رَسُولُ الله ﷺ، وَأَكَلَ القَوْمُ مَعَهُ. ثُمَّ بَالَ، ثُمَّ تَوَضَّأَ رَسُولُ الله ﷺ لِلظُّهْرِ، وَتَوَضَّأَ القَوْمُ مَعَهُ.

(١) أُحَرِّجُ: أَيْ أُضَيِّقُه وأُحرِّمُه عَلَى مَن ظلمهما. ينظر: «النهاية» (١/ ٣٦١).

(٢) «سنن ابن ماجه» (٣٦٧٨).

(٣) «جامع الترمذي» (٢٠٩٢).

ثُمَّ صَلَّى بِهِمُ الظُّهْرَ، ثُمَّ قَعَدَ رَسُولُ الله ﷺ فِي بَعْضِ مَا بَقِيَ مِنْ قِسْمَتِهِ لَهُنَّ حَتَّى حَضَرَتِ الصَّلَاةُ، وَفَرَغَ مِنْ أَمْرِهِ مِنْهُنَّ، فَرَدُّوا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ فَضْلَ غَدَائِهِ مِنَ الخُبْزِ وَاللَّحْمِ فَأَكَلَ، وَأَكَلَ القَوْمُ مَعَهُ، ثُمَّ نَهَضَ، فَصَلَّى بِنَا[1].

فانظر كيف فرَّغ النبي ﷺ نفسه من بعد صلاة الظهر إلى ما بعد العصر، ليقسم مال سعد بن الربيع، ويحفظ حق ابنتيه وزوجته، وفي حضوره وتوليه القسمة بنفسه تأكيد لهذا الحق ورعايةٌ له، وبخاصة أنهن أول نسوة ورثن من أبيهن في الإسلام.

٢- النهي عن عضل المرأة عن الرجل الذي ترغب في زواجه، فأعاد ﷺ قرار أمر الزواج إلى المرأة، وجعل الاعتبار لرأيها واختيارها، ونهى أن يعضلها وليها، فيحول بينها وبين من ترغب فيه لغير ما بأس.

فعَنْ الحَسَن البصري: أَنَّ مَعْقِلَ بْنَ يَسَارٍ كَانَتْ أُخْتُهُ تَحْتَ رَجُلٍ، فَطَلَّقَهَا ثُمَّ خَلَّى عَنْهَا، حَتَّى انْقَضَتْ عِدَّتُهَا، ثُمَّ خَطَبَهَا، فَحَمِيَ مَعْقِلٌ مِنْ ذَلِكَ أَنَفًا، فَقَالَ: خَلَّى عَنْهَا وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَيْهَا، ثُمَّ يَخْطُبُهَا، فَحَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا، فَأَنْزَلَ الله: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٢]، فَدَعَاهُ رَسُولُ الله ﷺ فَقَرَأَ عَلَيْهِ، فَتَرَكَ الحَمِيَّةَ وَاسْتَقَادَ لِأَمْرِ الله[2].

وفي ذلك حماية للمرأة من أن تكون ضحية الخصومات بين أوليائها وزوجها، وأن على الولي أن يتحرى مصلحتها، وليس رغبة نفسه.

وجاء تأكيده ﷺ على حقها في اختيار زوجها وشريك حياتها، فقال: «**لَا تُنْكَحُ البِكْرُ حَتَّى تُسْتَأْذَنَ، وَلَا الثَّيِّبُ حَتَّى تُسْتَأْمَرَ**»[3].

حادي عشر: تعظيم قدر المرأة ودورها أُمًّا وزوجة وبنتاً وأختاً، والوصاة بها:

١- فجعل حقها أُمًّا أعلى حق وأوجبه وآكده، فلها من الحقوق الرتبة الأولى والثانية والثالثة، ثم يكون الأب بعدها، وهذه غاية التعظيم لحقها ومكانتها.

(١) «مسند أحمد» (١٥٠٢٠).

(٢) «صحيح البخاري» (٥٣٣١).

(٣) «صحيح البخاري» (٦٩٦٨)، و«صحيح مسلم» (١٤١٩).

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: «**أُمُّكَ**». قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «**ثُمَّ أُمُّكَ**». قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «**ثُمَّ أُمُّكَ**». قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «**ثُمَّ أَبُوكَ**»(١).

وعَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: جَاءَتْنِي مِسْكِينَةٌ تَحْمِلُ ابْنَتَيْنِ لَهَا، فَأَطْعَمْتُهَا ثَلَاثَ تَمَرَاتٍ، فَأَعْطَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا تَمْرَةً، وَرَفَعَتْ إِلَى فِيهَا تَمْرَةً لِتَأْكُلَهَا، فَاسْتَطْعَمَتْهَا ابْنَتَاهَا، فَشَقَّتِ التَّمْرَةَ، الَّتِي كَانَتْ تُرِيدُ أَنْ تَأْكُلَهَا بَيْنَهُمَا، فَأَعْجَبَنِي شَأْنُهَا، فَذَكَرْتُ الَّذِي صَنَعَتْ لِرَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ: «**إِنَّ اللهَ قَدْ أَوْجَبَ لَهَا بِهَا الجَنَّةَ، أَوْ أَعْتَقَهَا بِهَا مِنَ النَّارِ**»(٢).

إن الحديث هنا عن حق المرأة أُمًّا ومربية، وما أوجب الله لها من حق، وما كتب لها من أجر.

٢- وله ﷺ حديثه عن المرأة بنتًا في طور الرعاية والإعالة بتعظيم هذه الرعاية لضعفها وحاجتها للتلطف بها:

فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَنْ عَالَ جَارِيَتَيْنِ حَتَّى تَبْلُغَا، جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ أَنَا وَهُوَ**»، وَضَمَّ أَصَابِعَهُ(٣).

٣- وكذا أكد رعاية حق المرأة زوجةً وشريكةَ حياةٍ، وأوصى بالرفق بها والإحسان إليها:

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ، فَإِنَّ المَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ**»(٤).

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي**»(٥).

---

(١) «صحيح البخاري» (٥٩٧١)، و«صحيح مسلم» (٢٥٤٨).
(٢) «صحيح مسلم» (٢٦٣٠).
(٣) «صحيح مسلم» (٢٦٣١).
(٤) «صحيح البخاري» (٣٣٣١)، و«صحيح مسلم» (١٤٦٨).
(٥) «سنن ابن ماجه» (١٩٧٧).

وعن مسؤولية المرأة زوجةً وراعية في بيت زوجها: ما جاء عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالأَمِيرُ رَاعٍ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ، وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ زَوْجِهَا وَوَلَدِهِ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**»(١).

وبين ﷺ شراكتها في الأجر إذا أنفقت من طعام بيتها، فقال: «**إِذَا أَنْفَقَتِ المَرْأَةُ مِن طَعَامِ بَيْتِهَا غيرَ مُفْسِدَةٍ، كانَ لَهَا أَجْرُهَا بما أَنْفَقَتْ، ولِزَوْجِهَا أَجْرُهُ بما كَسَبَ، ولِلْخَازِنِ مِثْلُ ذلكَ، لا يَنْقُصُ بَعْضُهُمْ أَجْرَ بَعْضٍ شيئًا**»(٢).

وفي تحملها مسؤولية الرعاية، وإشراكها في أجر الإحسان من بيت زوجها، تأكيد لدورها، ورفع لمكانتها، وإشراك لها في الحياة الاجتماعية بفاعليةٍ واقتدار، بحيث صار دورها تكامليًّا مع دور الرجل.

ويظهر أثر تفعيل دور المرأة وإعلاء مكانتها في زخم الحضور النسائي في أحداث السيرة وروايات السنة، وتفاعلهن مع الأحداث ومشاركتهن فيها، ثم في رواية النساء للحديث، ومرجع الأمة إليهن، كأمهات المؤمنين، وأم عطية، وأم سليم، وأم حرام بنت ملحان، وغيرهن، وما كان ذلك ليتم لولا هذا الأفق الواسع الذي أتاحه النبي ﷺ للمرأة، ليكون لها ذلك الدور وتلك المشاركة.

خلاصات:

كان التعامل النبوي مع المرأة نُقلة كبيرة في التعامل المجتمعي مع النساء، حيث كان التعامل السائد قبلاً يهضم كثيراً من حقوقها، وينتقص مكانتها، فجاء التعامل النبوي ليعيد للمرأة مكانتها، ويفعِّل دورها، ومن معالم ذلك:

١- مخالفة النبي ﷺ عادة قومه قريش في التعامل مع النساء، حيث لم يكونوا يرون للمرأة أمراً.

(١) «صحيح البخاري» (٥٢٠٠)، و«صحيح مسلم» (١٤٦٨).

(٢) «صحيح البخاري» (١٤٣٧)، و«صحيح مسلم» (١٠٢٤).

٢- إعطاؤه للمرأة دورها، وإشعارها بالمشاركة في العمل للدين، وتحمل مسؤوليتها في ذلك.

٣- إعطاء النساء الفرصة في التعبير عن آرائهنَّ، وتطبيع ذلك.

٤- استقبال مبادرات النساء، وتقبلها.

٥- تخصيص مجالس للنساء غير تلك التي يشاركن الرجال فيها.

٦- قربه من النساء للاستماع إليهن، وقضاء حوائجهن.

٧- تخصيصهن بأنواع من الخطاب الذي يباشر احتياجاتهن الخاصة.

٨- تحفيزهن للعلم، وحضهن عليه.

٩- مشاركتهن في الجهاد بما يناسب طبيعتهن.

١٠- حماية حقوقهن، وتأكيد حقهن.

الرسول ﷺ والخدم

للخدم حضور في حياة النبي ﷺ بخدمته والعناية بشأنه، وله ﷺ حضوره في حياتهم عنايةً ورعايةً وبركةً، وحسن تعامل، وكرم خلق.

وعندما ننظر إلى حال النبي ﷺ مع الخدم، ننظر إليها عبر معالم منها:

أولاً: نلاحظ تنوع الخدم الذين كانوا حول النبي ﷺ، ففيهم الصغير مثل أنس، والكبير مثل ربيعة بن كعب الأسلمي، وعبد الله بن مسعود[1].

وفيهم الرجال كمن ذكرنا، والنساء مثل أم أيمن وبريرة.

وفيهم المسلم كهؤلاء كلهم، وفيهم غير المسلم، كالغلام اليهودي الذي كان يخدم النبي ﷺ في بيته، واليهودية التي كانت تخدم عائشة.

ومع هذا التنوع نلاحظ أن هناك قاسماً مشتركاً يجمعهم جميعاً، وهو حبهم النبيَّ ﷺ، وتفانيهم في خدمته؛ فكانوا على تنوعهم أعماراً وجنساً ودِيناً مجتمعين على محبة هذا النبي والتشرف بخدمته.

وأكثر الذين خدموه ﷺ لم يكونوا خدماً بالمعنى الشائع، بل مِن أصحابه الذين يتشوقون لخدمته حباً وتعظيماً، ولذا نسب لخدمته الكبار والسادة من الصحابة رضي الله عنهم.

(١) ينظر في تعداد من خدموا النبي ﷺ كتاب: «الفخر المتوالي فيمن خدم النبي ﷺ من الخدم والموالي»، للحافظ السخاوي، وقد ذكر السخاوي فيه نحواً من (٢١٥) ممن شرفوا بخدمة النبي ﷺ، وهؤلاء لم يكونوا يخدمون النبي ﷺ في وقت واحد؛ ولكن فيهم من خدم النبي ﷺ مدة طويلة، كأنس وابن مسعود، ومنهم من خدمه خدمةً عارضة أو مؤقتة.

ثانيـًا: يأتينا تساؤل، وهو: إذا كان هؤلاء كلهم يخدمون النبي ﷺ، فما هي مهامهم في خدمته؛ خاصة إذا عرفنا أن بيوتاته ﷺ حجرات وبيوت صغيرة، متقاربة الجدر، متطامنة السقف، قليلة المتاع، إذ لم يكن ﷺ يسكن قصراً يحتاج هؤلاء الخدم كلهم؟!

ولعل الجواب: أن مهمة الخدم مع النبي ﷺ كانت أشبه بمهمة المراسل في زمننا هذا؛ لأن بيوت النبي ﷺ لصغرها لم تكن تحتمل الادخار الكثير، فكلُّ شيءٍ يُحتاج إليه يَتطلّب إحضارَه على نحوٍ مستمر ومتوالٍ يوميـًا، فيقوم بذلك الخدم، أي: فالخادم يحضر الحطب يومـًا بيوم، ويحضر الماء يومـًا بيوم، والطعام يومـًا بيوم.

كما كان للخدم مهمة أخرى، وهي التواصل مع من يحتاج النبي ﷺ دعوتهم، فكان ﷺ يقول لأنس مثلاً: اذهب فادع أبا بكر، اذهب فادع عمر، اذهب فادع فلان، اذهب فأحضر كذا[1]، فهو كالمراسل في بيت النبي ﷺ.

ثالثـًا: نرى تعامل النبي ﷺ معهم تعاملاً احتوى قلوبهم، واجتذب حبهم، وغمر عواطفهم، حتى كان أنس رضي الله عنه إذا ذكر النبي ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقـًا، خدمته عشر سنين في السفر والحضر وأنا غلام ليس كل أمري كما يشتهي صاحبي أن أكون عليه، والله ما قال لي: أُفٍّ قط، وما قال لشيء صنعتُه: لمَ صنعتَ هذا هكذا؟ ولا لشيء لم أصنعه: لمَ لمْ تصنع هذا هكذا؟[2]، وما أمرني بأمر فتوانيت عنه أو ضيعته فلامني، فإن لامني أحد من أهله قال: «**دَعُوهُ، فَلَوْ قُدِّرَ أَوْ قُضِيَ أَنْ يَكُونَ كَانَ**»[3]، فحتى إذا أخطأ لا يكون دور النبي ﷺ عتابه؛ بل الاعتذار له.

ولذا كان هؤلاء الأصحاب يخدمون النبي ﷺ بحبٍّ شديدٍ وتفانٍ عجيب.

فكان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه هو صاحبَ نعل رسول الله ﷺ، فإذا خلع النبي ﷺ نعله، أخذها ابن مسعود فأدخلها في يديه؛ من شدة التعظيم للنبي ﷺ والحبّ له[4].

(١) «صحيح مسلم» (١٤٢٨).
(٢) «صحيح البخاري» (٦٠٣٨)، و«صحيح مسلم» (٢٣٠٩).
(٣) «مسند أحمد» (١٣٤١٨).
(٤) «صحيح البخاري» (٣٧٤٢)، و«صحيح مسلم» (٨٢٤).

وكان سفينة مولى رسول الله ﷺ يلقب بهذا الاسم؛ لأنه كان برفقة أصحابه، فحمل أكثر متاعهم، فقال له النبي ﷺ: «**احْمِلْ؛ فَإِنَّمَا أَنْتَ سَفِينَةٌ**». فكان إذا سئل عن اسمه قال: ما أنا بمخبركم، سماني رسول الله ﷺ سفينة، ولا أريد غير هذا الاسم[1]!

فانظر تمسكه بهذا الاسم، مع أن النبي ﷺ قاله له على سبيل المداعبة والإيناس، فاختار الاسم الذي وصفه به النبي ﷺ على سبيل الملاطفة، ورآه أحبَّ الأسماء إليه؛ لشدة حبه من سماه به ﷺ.

وهذا ربيعة بن كعب الأسلمي يقول: كنت أخدم النبي ﷺ نهاري كله، فإذا دخل النبي ﷺ بيته بعد صلاة العشاء تبعته فجلست عند عتبة بابه؛ لعله أن ينوبه شيء في الليل فأكون قريبًا منه، حتى تغلبني عيني فأنام[2].

فما الذي يحمل ربيعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على أن يتبع خدمة النهار بخدمة الليل، وأن يغالب النوم في عينيه ترقبًا لحاجة النبي ﷺ؛ إلا شدة الحب للنبي ﷺ والتلذذ بخدمته؟

رابعًا: من معالم تعامل النبي ﷺ مع الخدم: رعايته لهم، فكان ﷺ يراعي خدمه ويرعاهم رعاية الوالد لولده، ومن ذلك: ما حدثت به عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: أَمَرَنِي رَسُولُ الله أَنْ أَغْسِلَ وَجْهَ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ يَوْمًا وَهُوَ صَبِيٌّ، وَمَا وَلَدْتُ وَلَا أَعْرِفُ كَيْفَ يُغْسَلُ الصِّبْيَانُ، فَآخُذُهُ فَأَغْسِلُهُ غَسْلاً لَيْسَ بِذَاكَ، فَأَخَذَهُ فَجَعَلَ يَغْسِلُ وَجْهَهُ وَيَقُولُ: «**لَقَدْ أُحْسِنَ بِنَا إِذْ لَمْ تَكُ جَارِيَةً، وَلَوْ كُنْتَ جَارِيَةً لَحَلَّيْتُكَ وَأَعْطَيْتُكَ**»[3]، فتولى هو ﷺ غَسلَ وجه أسامة الغسلَ المُنقي الذي تطيب له نفسه، كما يفعل الوالد بولده.

ومن رعايته لهم زيارتهم في بيوتهم، وكم زار النبي ﷺ أنسًا وأمَّه، وصلى في بيتهم.

ومن رعايته: الدعاء لهم، يقول أنس: دعا لي رسول الله ﷺ فقال: «**اللهُمَّ أَكْثِرْ مَالَه وَوَلَدَه، وَأَطِلْ عُمُرَهُ**». فإنني اليوم لأكثر الأنصار مالاً، وإني لأكثرهم ولداً، حتى إنه يبلغ عدد ولدي أكثر من مئة[4]. وأطال الله عمر أنس، فتجاوز التسعين من عمره.

---

(١) «الاستيعاب» (٢/ ٦٨٥).

(٢) «مسند أحمد» (١٦٥٧٩).

(٣) «مسند أبي يعلى» (٤٤٥٨).

(٤) «صحيح البخاري» (٦٣٣٤)، و«صحيح مسلم» (٢٤٨١).

وهذا ربيعة بن كعب الأسلمي قال له النبي ﷺ لمّا رأى شدة حبه له وخدمته: «**يَا رَبِيعَةُ! سَلْنِي مَا شِئْتَ**». قال: أمهلني يا رسول الله حتى أفكر في أمري. يقول ربيعة: فتفكرت فوجدت أن أحسن شيء أطلبه أن يدعو لي بالجنة، فأتيته فقلت: يا رسول الله، أسألك مرافقتك في الجنة، قال: «**أَوَ غَيْرَ ذَلِكَ يَا رَبِيعَةُ؟**». فقلت: هو ذاك يا رسول الله، قال: «**فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ**»(١).

ومن ذلك: عيادته لخادمه الغلام اليهودي، عندما علم بمرضه فذهب إليه ﷺ، وعاده في بيته، وجلس عند رأسه، ثم عرض عليه الإسلام فأسلم، فخرج النبي ﷺ يطفر الفرح في وجهه، وهو يقول: «**الحَمْدُ لله الَّذِي أَنْقَذَهُ بِي مِنَ النَّارِ**»(٢).

خامسًا: كانت رعايته لهم تتبعهم أحياء وأمواتًا، فعندما فَقَدَ الأمة السوداء التي كانت تكنس المسجد سأل عنها، فقالوا: ماتت. فقال: «**أَفَلَا كُنْتُمْ آذَنْتُمُونِي، دُلُّونِي عَلَى قَبْرِها**». فذهب إلى قبرها فصلى عليها ودعا لها، وقال: «**إِنَّ هَذِهِ القُبُورَ مَمْلُوءَةٌ ظُلْمَةً عَلَى أَهْلِهَا، وَإِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يُنَوِّرُهَا لَهُمْ بِصَلَاتِي عَلَيْهِمْ**»(٣).

إن هذه المرأة التي يذهب النبي ﷺ إلى قبرها أَمَةٌ مهاجرةٌ لا قرابة لها ولا قبيلة في المدينة؛ ولكن النبي ﷺ يحتفي بها، ويسأل عنها، ويذهب إلى قبرها فيصلي عليه.

إن هذه المرأة الأمة السوداء الخادمة، هي في ميزان النبي ﷺ إنسان له كرامته، ومسلم له كل حقوق المسلمين، وإن كانت في ميزان غيره مجرد خادمة أو شيء من الأشياء.

سادسًا: برغم شدة الحب للنبي ﷺ والمهابة منه، إلا أنه لم يكن لدى الخدم رهبة أو خوف في معاملتهم معه ﷺ، بل كانوا يتصرفون بتلقائيتهم وكامل إرادتهم، يقول أنس: أرسلني النبي ﷺ يومًا لحاجة فقلت: والله لا أذهب، وفي نفسي أن أذهب لما أمرني نبي الله ﷺ، فخرجت حتى أَمُرَّ على صبيان وهم يلعبون في السوق، فقمت ألعب معهم،

(١) «صحيح مسلم» (٤٨٩).
(٢) «صحيح البخاري» (١٣٥٦).
(٣) «صحيح البخاري» (٤٥٨)، و«صحيح مسلم» (٩٥٦).

فإذا رسول الله ﷺ قد قبض بقفاي من ورائي، قال: فنظرت إليه وهو يضحك، فقال: «**يَا أُنَيْسُ! أَذَهَبتَ حَيثُ أَمَرْتُكَ؟**». فقلت: أذهب يا رسول الله[١].

وهذه بريرة عندما عتقت أبت صحبةَ زوجها مغيثٍ، فجاء إلى النبي ﷺ يستشفع به، فكلمها فيه، فقالت: يا رسول الله؛ أتأمرني؟ قال: «**لَا؛ إِنَّمَا أَنَا شَافِعٌ**». قالت: لا حاجة لي فيه[٢]. هكذا اتخذت قرارها دون أن ترى من النبي ﷺ عتاباً؛ فضلاً أن تخاف عقاباً.

لقد كان الخدم مع النبي ﷺ يعيشون إنسانيتهم كاملة، ويستوفون حقوقهم كاملة.

سابعاً: وكان في احتفاف الذين يخدمونه وملازمتهم له اطلاعٌ على بعض شأنه الذي لا يُدرَك إلا ممن كان يخدمه ويلازمه، ولذا وعوا ورووا من سنته ما لم يروه غيرهم، ويظهر هذا في سعة رواية أنس وابن مسعود عنه، واطلاعهم على ما لم يطلع عليه غيرهم، ومن ذلك: رواية أنس لحال النبي لما ذهب إلى الخياط الذي دعاه، فلم يذهب معه إلا أنس، فشهد الحال ووعاها ورواها[٣].

وحديث ابن مسعود في قيامه معه في صلاة الليل، قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ، فَأَطَالَ القِيَامَ، حَتَّى هَمَمْتُ بِأَمْرِ سُوءٍ، قَالُوا: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: هَمَمْتُ أَنْ أَقْعُدَ وأدعه[٤].

ومن ذلك: حديث ربيعة بن كعب الأسلمي، قال: كُنْتُ أَبِيتُ عِنْدَ بَابِ النَّبِيِّ ﷺ، فَأُعْطِيهِ وَضُوءَهُ، فَأَسْمَعُهُ الهَوِيَّ مِنَ اللَّيْلِ يَقُولُ: «**سَمِعَ الله لِمَنْ حَمِدَهُ**». وَأَسْمَعُهُ الهَوِيَّ مِنَ اللَّيْلِ يَقُولُ: «**الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ**»[٥]. فكان سماعه لتسبيح النبي ﷺ من الليل؛ لقربه منه، وملازمته له.

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٣١٠).
(٢) «صحيح البخاري» (٥٢٨٣).
(٣) «صحيح البخاري» (٢٠٩٢)، و«صحيح مسلم» (٢٠٤١).
(٤) «صحيح البخاري» (١١٣٥)، و«صحيح مسلم» (٧٧٣).
(٥) «جامع الترمذي» (٣٤١٦).

ثامنًا: بقي أن تعرف أن هذا النبي الذي كان كل من حوله حريصًا على خدمته، كان هو ﷺ يخدم نفسه، ويخصِف[1] نعله، ويحلِبُ شاته، ويخيط ثوبه، ويقوم بشأنه مما يمكن أن يقوم به الخدم عنه؛ لكنه التواضع النبوي العظيم، فصلى الله وسلم وبارك على هذا النبي الكريم والرسول العظيم.

خلاصات:

١- تنوع الخدم حول النبي ﷺ رجالاً ونساءً، وصغاراً وكباراً، ومسلمين ويهود.

٢- كان الذين تشرفوا بخدمة النبي ﷺ عدداً كثيراً؛ ولكنهم لم يكونوا مجتمعين في وقت واحدٍ، بل منهم من كانت خدمته عارضة أو مؤقتة، ومنهم من كانت ملازمته طويلة.

٣- كان عمل الخادم أشبه بالمراسل، فيحضر ما يحتاج إلى إحضاره، ويدعو من يحتاج إلى حضوره.

٤- كان تعامل النبي ﷺ معهم غاية في حسن الخلق؛ حتى أحبوه وتعلقوا به.

٥- كان قربهم من النبي ﷺ واحتفافهم به، من أسباب الإحاطة بأحواله، ولذا رووا من أحواله ما لا يطلع عليه إلا من كان له خصوصية ومخالطة.

٦- وكان يرعاهم ويزورهم ويدعو لهم، وتبعتهم رعايته أحياء وأمواتًا.

٧- لم تكن محبتهم للنبي ﷺ مصحوبة برهبة أو خوف، وكانوا يتصرفون بكامل إرادتهم وقناعتهم.

٨- مع وجود الخدم حوله ﷺ إلا أنه كان يخدم نفسه، فيخصف نعله، ويحلب شاته، ويخيط ثوبه.

(١) الخصف هو: ضَمُّ الشَّيْءِ إِلَى الشَّيْءِ. ينظر: «النهاية» (٢/ ٣٧).

الرسول ﷺ والأطفال

١ - كان رسول الله ﷺ يتلقى الأطفال في أول طريق الحياة فيأتيه أهل المدينة بأطفالهم رُضَّعـًا، لما يعلمون من حفاوته بهم، ولما يبتغون من بركة دعواته وأنفاسه، فيتلقاهم بحُبٍّ، ويضعهم في حِجره؛ يصف أنس هذا المشهد وقد جاء بأخيه عبد الله وليداً للتو، قد أرسلته أمه ومعه تمرات؛ قال: قَالَتْ لِي أُمِّي: يَا أَنَسُ، لَا يُرْضِعُهُ أَحَدٌ حَتَّى تَغْدُوَ بِهِ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَلَمَّا أَصْبَحَ احْتَمَلْتُهُ، فَانْطَلَقْتُ بِهِ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، قَالَ: فَصَادَفْتُهُ وَمَعَهُ مِيسَمٌ[1]، فَلَمَّا رَآنِي قَالَ: «**لَعَلَّ أُمَّ سُلَيْمٍ وَلَدَتْ؟**». قُلْتُ: نَعَمْ، فَوَضَعَ المِيسَمَ، قَالَ: وَجِئْتُ بِهِ فَوَضَعْتُهُ فِي حِجْرِهِ، قال: «**أَمَعَهُ شَيْءٌ؟**». قلتُ: نعم، تمرات، فأَخَذَهَا النَبيُّ ﷺ فَلَاكَهَا فِي فِيهِ حَتَّى ذَابَتْ، ثُمَّ قَذَفَهَا فِي فِيِّ الصَّبِيِّ، فَجَعَلَ الصَّبِيُّ يَتَلَمَّظُهَا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**انْظُرُوا إِلَى حُبِّ الأَنْصَارِ التَّمْرَ**». قَالَ: فَمَسَحَ وَجْهَهُ وَسَمَّاهُ عَبْدَ الله[2].

وعندما نتأمل هذا المشهد، نلاحظ أن أنسـًا أتى النبي ﷺ وهو منشغل، فلم يقل له: ائتني به في وقت آخر، أو: انتظر حتى أفرغ من عملي، ولكن ترك العمل وأقبل على أنس، وأخذ الصبي فوضعه في حجره.

ثم سأل: هل أرسلت أمُّه معه بشيء؟ وكأنما كان يتوقع ذلك، ثم لما حنَّكه جعل يراقب حركة الطفل، فلما لعق التمر قال: «**انْظُرُوا إِلَى حُبِّ الأَنْصَارِ التَّمْرَ**»!

(١) مِيسم: آلة الوسم، أي: لْحَدِيدَةَ الَّتِي يُكْوَى بِهَا. ينظر: «لسان العرب» (١٢/ ٦٣٦).

(٢) «صحيح البخاري» (٥٤٧٠)، و«صحيح مسلم» (٢١٤٤).

إن هذه الملاطفة تبين سرور النبي ﷺ وتفاعله مع الموقف بأُنْسٍ، وأنه كان مستمتعاً بهذه الحال، ولم يكن متعجلاً، مع أنه قد ترك شغله، بل كأنما قد فرغ من شأنه كله لاستقبال هذا الرضيع في ساعته الأولى من الحياة.

وإذا كان أنس قد نقل لنا المشهد بتفاصيله، فإنه سينقله لأمه أكثر تفصيلاً وتفاعلاً، ولك أن تتخيل أمَّ سليم وأَنسٌ يروي لها حال النبي ﷺ وحفاوته وما قال، وملاطفته للأنصار بحب التمر حتى للطفل الرضيع منهم؛ كيف سيكون شعورها وسرورها بذلك؟ وكيف سيكون شعور وسرور أبيه أبي طلحة؟

ما أروع هذه التفاصيل الصغيرة التي تحيط بالمشهد، وتشكل لوحة متكاملة الصورة، باهرة الجمال!

وجاءه أبو أسيد بابنه المنذر، فَوَضَعَهُ النبي ﷺ عَلَى فَخِذِهِ، وَأَبُو أُسَيْدٍ جَالِسٌ، فَشُغل رَسُولُ الله ﷺ بِشَيْءٍ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَأَمَرَ أَبُو أُسَيْدٍ بِابْنِهِ فَاحْتُمِلَ مِنْ فَخِذِ النَّبِيِّ ﷺ، فلما فرغ رَسُولُ الله ﷺ قَالَ: «**أَيْنَ الصَّبِيُّ؟**». فَقَالَ أَبُو أُسَيْدٍ: قَلَبْنَاهُ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «**مَا اسْمُهُ؟**». قَالَ: فُلَانٌ، قَالَ: «**وَلَكِنْ أَسْمِهِ الْمُنْذِرَ**»، فَسَمَّاهُ يَوْمَئِذٍ الْمُنْذِرَ[1].

فانظر سؤاله عن الصبي حين فرغ من شغله؟ وكيف وقع هذا السؤال على والد الصبي، والذي يشعره باهتمام النبي ﷺ به، وأنه لازال له به حاجة.

وربما وُضِعَ الصبيُّ في حجر النبي ﷺ فيبول على ثيابه، فلا ينزعج ولا يتضجر، وإنما يدعو بماء فينثره على ما أصاب ثوبه من بول الصبي، ويقدم درساً عملياً مع هذه الحالة التي تعرض لكل من يتعامل مع الأطفال، من غير أن يُشعر والدي الطفل بحرج من هذا المشهد، وإنما كان في غاية التفهم لهذه الحال المتوقعة والتقبل لها؛ فعَنْ أُمِّ قَيْسٍ بِنْتِ مِحْصَنٍ: أَنَّهَا أَتَتْ بِابْنٍ لَهَا صَغِيرٍ، لَمْ يَأْكُلِ الطَّعَامَ، إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَأَجْلَسَهُ رَسُولُ الله ﷺ فِي حَجْرِهِ، فَبَالَ عَلَى ثَوْبِهِ، فَدَعَا بِمَاءٍ، فَنَضَحَهُ وَلَمْ يَغْسِلْهُ[2].

(١) «صحيح البخاري» (٦١٩١)، و«صحيح مسلم» (٢١٤٨).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٢٣)، و«صحيح مسلم» (٢٨٧).

ولقد ذكرت أم قيس ما فعله النبي ﷺ، ولم تتحرج أو تشعر بانزعاج النبي ﷺ أو مفاجأته بذلك؛ لأنه تعامل مع الموقف بأريحية ولياقةٍ وعظمةِ خلق.

٢- فإذا كبر الأطفال قليلاً وصاروا يتفاعلون ويدركون تفاعل النبي ﷺ معهم، تدلى إلى مداركهم ملاطفة ومؤانسة، فنزل بهمه إلى همومهم، قال أنس: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقًا، وكان يدخل علينا فيضاحك أخًا لي فَطِيم -أي في الثالثة من عمره- فدخل يومًا فرأى الصبي واجمًا حزينًا، فسأل أمه: «**يَا أُمَّ سُلَيْم؛ مَا لِي أَرَى أَبَا عُمَيرٍ خَاثِرَ النَفْسِ**[١]؟». قالت: مات نُغَيرُه -وهو طائر كان يلعب به- فأقبل النبي ﷺ على الطفل وجعل يضاحكه، ويقول: «**يَا أَبَا عُمَيْرٍ، مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ؟**»[٢].

أي: أخبرني كيف مات طائرك؛ حتى يؤنس الطفل بسؤاله عما يحزنه، فيتفاعل الصبي ويروي خبر الطير وقصة موته، ثم يتفاعل ويبكي، والنبي ﷺ يفسح من همومه لهمه، ويقبل عليه باهتمام.

وكلَّما تخيلت هذا المشهد سألت: بأيِّ عينٍ كانت أم الصبي تنظر إلى هذا الحوار النبوي مع بُنَيِّها الطفل الصغير، والنبي ﷺ ينشغل به هذا التشاغل، ويشاركه همه وحزنه؟!

ومن ذلك: ما رواه أنس بن مالك قال: كان النبي ﷺ يلاعب زينب بنت أم سلمة، ويقول: «**يَا زُوَيْنِبُ، يَا زُوَيْنِبُ**»، مراراً[٣].

وهذا التصغير هو تصغير التمليح والتلطيف، مبالغةً في إيناس الطفلة وملاطفتها.

ومن ذلك: ما رواه محمود بن الربيع قال: إِنِّي أَعْقِلُ مَجَّةً مَجَّهَا[٤] رَسُولُ الله ﷺ في وَجْهِي، وَأَنَا ابْنُ خَمْسِ سِنِينَ، مِنْ دَلْوٍ فِي دَارِنَا[٥].

---

(١) أي: ثَقيل النَّفْس غَيْرُ طَيِّب وَلاَ نَشيط. ينظر: «النهاية» (٢/ ١١).

(٢) «صحيح البخاري» (٦١٢٩)، و«صحيح مسلم» (٢١٥٠).

(٣) «الأحاديث المختارة» (١٧٣٣).

(٤) المجّ: طرحُ الماء من الفم. ينظر: «شرح النووي على مسلم» (٥/ ١٦٢).

(٥) «صحيح البخاري» (٧٧)، و«صحيح مسلم» (٣٣).

إن هذه الصورة التي نقلها محمود من ذاكرة طفولته الباكرة، تحف بها صورة لم تنقل؛ فإن النبي ﷺ لا يمكن أن يفجأ طفلاً غافلاً بمجة في وجهه يفجعه بها؛ ولكن كامل الصورة تدل على أنه كان يضاحكه ويؤانسه، فتطور هذا المزاح إلى أن مجَّ في وجهه مَجّة من ماء البئر، زادت في أُنْس الصبيّ وتفاعله، وأبقى المشهد خالداً في ذاكرته.

إنه مشهد من عظمة الخلق النبوي، ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

٣- وكان ينثر حياته في حياة الأطفال، فيكون مروره بهم مروراً حاضراً وليس عابراً، يقول سَمُرة بن جندب: صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ صَلَاةَ الأُولَى[١]، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى أَهْلِهِ وَخَرَجْتُ مَعَهُ، فَاسْتَقْبَلَهُ وِلْدَانٌ، فَجَعَلَ يَمْسَحُ خَدَّيْ أَحَدِهِمْ وَاحِداً وَاحِداً، قَالَ: وَأَمَّا أَنَا فَمَسَحَ خَدِّي، فَوَجَدْتُ لِيَدِهِ رِيحًا، كَأَنَّمَا أَخْرَجَهَا مِنْ جُؤْنَةِ عَطَّارٍ[٢].

وتأمل قول سمُرة: فاستقبله وِلْدانٌ؛ إنه إشعار بابتهاج الأطفال بالنبي ﷺ، فيتلقونه في الطريق ويأنسون بملاطفته، ويتلقون منه الحنان، يناولهم إياه بكلتا يديه حين يمسح وجوههم واحداً واحداً، فينقلبون إلى أهليهم وأحدوثتهم لقيا رسول الله لهم وتلطفه بهم.

٤- وكان يعلمهم الآداب وجوامع الدين بما يستوعبه إدراكهم ووعيهم؛ فعن عمر بن أبي سلمة قال: كُنْتُ غُلَامًا فِي حَجْرِ رَسُولِ الله ﷺ، وَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ، فَقَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ: «**يَا غُلَامُ! سَمِّ اللهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ**». فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طِعْمَتِي بَعْدُ[٣].

ولاحظ أنه جاء بغاية الرفق، وجاء بضميمة من التوجيهات بحيث لا يظهر فيها العتاب على تصرف من عمر، وجعل التنبيه على فعله في آخر التوجيهات: «**وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ**».

وكان من أثر هذا التلطُّف في التعليم: أن تشربت نفس الطفل هذه التعاليم، فاستصحبها بقية عمره: فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طِعْمَتِي بَعْدُ.

---

(١) أي الأولى من العشي، وهي الظهر. ينظر: «شرح النووي على مسلم» (١٥/ ٨٥).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٣٢٩). وجؤنة العطار: سلة صغيرة يحفظ فيها الطيب. ينظر: «النهاية» (١/ ٣١٨).

(٣) «صحيح البخاري» (٥٣٧٦)، و«صحيح مسلم» (٢٠٢٢).

ومن ذلك: ما حدَّث به ابن عباس قال: كُنْتُ رديفَ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمًا فَقَالَ: «**يَا بُنَيَّ! أَلا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعَكَ اللهُ بِهِنَّ؟**». قلت: بلى، فقال: «**احْفَظْ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظْ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، تَعَرَّفْ إِلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ، وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً**»[1].

وهنا نجد استغلال النبي ﷺ لَحْظَةَ القرب وهي كون الطفل رديفه على الدابة، وهي مما يشعر بالخصوصية ويهيئ للتلقِّي، ثم النداء الأبوي: «**يَا بُنَيَّ**». ثم طرح السؤال التشويقي: «**أَلا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهِنَّ؟**». ثم ذكر له كلمات جوامع هي من قواعد الدين! وكل ذلك من الاحتفاء بالأطفال، والارتفاع بمستواهم، ولذا حفظ ابن عباس هذه الوصاة ووعاها، ورواها محفوفة بهذا المشهد البليغ المؤثر.

ومن ذلك: حديث الحسن بن علي الذي توفي النبي ﷺ وهو طفل، قال: حفظت من رسول الله ﷺ: «**دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ**»[2].

فقوله: حفظتُ، دالّ على إرادة النبي ﷺ حفظَه لهذه الكلمة البليغة الجامعة، ولذا وعاها وحفظها ورواها.

٥- وكان يتعامل معهم باعتبار لأشخاصهم وشخصياتهم، فإذا مرَّ بهم في الطريق ابتدأهم بالسلام.

مرَّ أنسٌ بصبيان فسلَّم عليهم وقال: مرَّ النبي ﷺ على غلمان فسلَّم عليهم[3].

فانظر إلى أثر فعل النبي ﷺ في نفوس هؤلاء الغلمان، وأحسب أنسًا كان منهم، حيث بقي المشهد حاضراً في نفوسهم، ومؤثراً بالاقتداء به، فإذا أنس يقتدي بالنبي ﷺ ويطبق هديه.

---

(١) «جامع الترمذي» (٢٥١٦).

(٢) «جامع الترمذي» (٢٥١٨).

(٣) «صحيح مسلم» (٢١٦٨).

٦- وكان ﷺ يحافظ على نقائهم الأخلاقي، وعلى المصداقية في التعامل معهم، قال عامر بن ربيعة: دَعَتْنِي أُمِّي يَوْمًا وَرَسُولُ الله ﷺ قَاعِدٌ فِي بَيْتِنَا، فَقَالَتْ: هَا تَعَالَ أُعْطِيكَ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ الله ﷺ: «**وَمَا أَرَدْتِ أَنْ تُعْطِيهِ؟**». قَالَتْ: أُعْطِيهِ تَمْراً، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ الله ﷺ: «**أَمَا إِنَّكِ لَوْ لَمْ تُعْطِهِ شَيْئًا كُتِبَتْ عَلَيْكِ كِذْبَةٌ**»(١).

وبذا يحافظ على الاستقامة الأخلاقية منذ الطفولة، ويصحح ما يتساهل به الآباء والأمهات من التحايل على الأطفال، مما يفقد الصدق قيمته وأهميته في نفوسهم.

٧- وكما كان للصبية حظهم من الحفاوة والرعاية النبوية، فقد كان للبنيات حظهن من الإقبال النبوي والود والرحمة.

قال أنس بن مالك: مرَّ النبي ﷺ ببعض المدينة، فإذا بِجَوَارٍ يضربْنَ بدُفِّهنَّ ويتغنين ويَقُلْنَ:

نَحْنُ جَوَارٍ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ ... يَا حَبَّذَا مُحَمَّدٌ مِنْ جَارِ

فأقبل عليهن ﷺ وهو يقول: «**يَعْلَمُ اللهُ إِنِّي لَأُحِبُّكُنَّ**»(٢).

ما أسعد هاتِه الفتياتِ الصغيراتِ وهن يَرَيْنَ النبي ﷺ يحتفي بلهوهنَّ، ويتعاطى الحبَّ معهن، ويشعرهن بالأبوة والقرب!

وثَـمّ مشهدٌ نبويٌّ أبـويٌّ لا ينقضي منه العجب، يجمع شواهد من فنون التعامل مع الأنوثة في طفولتها، ومع الطفولة في أنوثتها؛ إنه مشهد النبي ﷺ مع طفلة في نحو الرابعة من عمرها، هي أم خالد واسمها أمة بنت خالد بن سعيد بن العاص، وكان من خبرها: أن رسول الله ﷺ كان يقسم ثيابًا على أصحابه، فبقي بين يديه كساء صغيرٌ مُخطَّطٌ بأعلام صفراء وخضراء وحمراء، وكان الكساء جميلاً زاهيًا علقت به الأعين، وإذا رسول الله ﷺ يقول لأصحابه: «**مَنْ تَرَوْنَ أَنْ نَكْسُوَ هَذِهِ؟**».

(١) «سنن أبي داود» (٤٩٩١).

(٢) «سنن ابن ماجه» (١٨٩٩).

فسكت الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إكرامًا لرأي رسول الله ﷺ، وانطلقت في الأذهان أسئلة وتساؤلات: مَن التي سيؤثرها رسول الله ﷺ بهذا الكساء؟ ومَن الذي سيختاره له؟!

فقال ﷺ: «**ائْتُونِي بِأُمِّ خَالِدٍ**». فذهب الداعي إلى أبيها يخبره أن رسول الله ﷺ يدعو بُنَيَّته، فجاء بها أبوها يحملها بين يديه، حتى وضعها بين يدي النبي ﷺ، فأقبل عليها النبي ﷺ ينشر الخميصة، ثم يُلبِسُها إيَّاها بيديه الكريمتين، حتى إذا احتوى الكساء جسدها الصغير، والتمعت في عينيها فرحة الطفولة بالجديد، جعل النبي ﷺ يشاركها فرحتها، ويتفاعل مع بهجتها، فيرفع بيده الشريفة أعلام الثوب الملونة، ثم يتطامن بهمَّه إلى همِّها، وبلهجته إلى لهجتها، ويلثغ بلسانه كما تلثغ بلسانها قائلاً: «**يَا أُمَّ خَالِدٍ سَنَا**»[1]. أي: هذا جميل وحسن؛ بلغة الحبشية التي تعلمتها أم خالد حيث وُلدت!

ثم عقَّب النبي ﷺ على ذلك يدعو ويكرِّر لها الدعاء: «**أَبْلِي وَأَخْلِقِي، ثُمَّ أَبْلِي وَأَخْلِقِي، ثُمَّ أَبْلِي وَأَخْلِقِي**».

وأَلِفت الطفلة رسول الله ﷺ وأَنِست به، فجعلت تتحسَّس بيدها الصغيرة ما يلفتها في الجسد النبوي المبارك، وكان مما لفت انتباهها خاتم النبوة بين كتفيه، فذهبت تلعب به، وتتحسَّسه بأصابعها، فنهرها أبوها على لعبها هذا؛ إجلالاً لرسول الله ﷺ، وإذا العطف النبوي يغلب العطف الأبوي، فيُقْبِل عليه النبي ﷺ قائلاً: «**دَعْهَا**»!

فلتعبث الطفلة ما شاءت أن تعبث، ولتلعب ما شاءت أن تلعب، فثَمَّ رسول الله ﷺ، وثَمَّة الرحمة واللين والأبوة.

وتكبُر أم خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وتكبر في قلبها معاني هذا الموقف وذكراه الحسنة، فتتمسك بالأثر الباقي من هذا الحدث، وتحفظ الكساء حتى حالت ألوانه، ودكنت أعلامه، فهو يحفظ لها بركة كَفَّي رسول الله ﷺ، وروعة ذلك اللقاء[2].

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٠٧١).

(٢) ينظر: «مسند أحمد» (٢٥٨١١)، و«صحيح البخاري» (٣٠٧١، ٥٨٢٣)، و«سنن أبي داود» (٤٠٢٤)، و«سير أعلام النبلاء» (٣/ ٤٧٠)، و«الإصابة» (٧/ ٥٠٦)، و«فتح الباري» (٦/ ١٨٤)، (١٠/ ٢٧٩).

لقد كان يمكن أن يكتفي ﷺ بإرسال الخميصة إلى أم خالد؛ ولكنه باشر هذا الأمر بنفسه، وبكل تفاصيله؛ ليكون هذا العمل -وهو إسعاد هذه الطفلة، وإدخال السرور إليها- سُنّة نبوية تُقتفى، وأُسوة حسنة لمَن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً؛ ولذا فإنك واجدٌ لهذه اللفتة الجميلة في سيرة النبي ﷺ أخوات كُثُراً تشبهها، تُوالي تأكيد هذه السنة، وتُعيد معاني هذا المشهد.

وانظر إلى البراعة النبوية في تحويل الفعل الجميل إلى باقة من الأفعال الجميلة المعبرة، بدأها ﷺ بطَرح التساؤل لمَن يعطى الكساء؛ مما يوحي بالأهمية والانتقاء، ولذا تحوَّل الكساء إلى وسام شرف.

ثم طلبها ﷺ لتحظى باستلامه منه، ولم يرسله إليها.

ثم تولَّى ﷺ بنفسه إلباسها الكساء.

ثم أتبع ذلك بمؤانستها وملاطفتها، ومشاركتها فرحتها الطفولية.

ثم الدعاءِ لها، وتكرار ذلك الدعاء.

ثم إدنائها وتقريبها حتى لامست جسده، ولعبت بما يلفت اهتمامها منه، ثم تقريره لذلك بقوله لأبيها: «**دَعْها**»!

إنه درس نبوي يبين أن صنائع المعروف كما هي كرم وأريحية، فهي فنٌّ وحُسْن أداء.

إنه المنهج النبوي الكريم في التعامل مع الطفولة في مظاهر:

أ - الحفاوة والإيناس والملاطفة والإسعاد.

ب- القُرب والتآلف مع الطفولة، بحيث تدنو وتقرب؛ حتى تلاعب اليدُ الصغيرة الجسدَ النبويَّ الكريم.

ج- الرفق والبعد عن النهر والجفاء: «**دَعْها**».

إنها اللفتات النبوية الكريمة التي تراعي أخص مشاعر الطفولة، وتوليها هذه العناية والاحتفال[1].

(١) باختصار من كتاب «**قصص نبوية**» للمؤلف.

خلاصات:

١- كان ﷺ يتلقّى الأطفال في أول طريق الحياة، فيأتيه أصحابه بأطفالهم رضعاً يُحَنّكهم ويدعو لهم.

٢- كان يتفاعل مع الأطفال، ويتدلى بهمومه إلى همومهم وهو يلاطفهم ويؤانسهم.

٣- كان ينثر حياته في حياة الأطفال، فيعقلون عنه سلامه عليهم، ومسحه وجوههم.

٤- كان يتعاهدهم بتعليم الآداب والقيم، وحفظ جوامع الكلم.

٥- كان يحافظ على نقائهم الأخلاقي، وعلى مراعاة القيم في التعامل معهم.

٦- كان للبنيات نصيبهن من الحفاوة والملاطفة والإيناس، ومشاعر المحبة والوداد.

الرسول ﷺ والشباب

عندما ننظر إلى حال النبي ﷺ مع الشباب، نرى معالم لعلاقته معهم؛ منها:

١- الاندماج بينه وبين الشباب، بحيث إنه ﷺ حطم حواجز الأجيال، وأوجد تواصلاً بينهم وبين الأجيال التي قبلهم، فأصبح الشباب يعيشون مع مَن هم أكبر منهم في حال تمازج.

نلاحظ هذا في جلوس ابن عباس وعمره اثنتا عشرة سنة عن يمين النبي ﷺ، وكان عن يساره ﷺ أشياخ من قريش، فأُتي ﷺ بقدح فشرب منه، ثم قال لابن عباس: «**أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أُعْطِيَهُ أَعْمَامَكَ؟**». يعني: الأشياخ الذين على يساره، فقال ابن عباس بألمعية وذكاء ووثوق: لا أؤثر بفضلة رسول الله ﷺ أحداً، فأعطاه إياه[1].

لاحظ كيف تربى ابن عباس بين يدي النبي ﷺ على مجالسته ﷺ والأشياخ حوله! وكيف تكونت عنده على حداثة سنه هذه الاستقلالية والثقة في الرأي والقرار، وهذا الوعي والشعور بأهمية سؤر النبي ﷺ، وأنه شيء شريف لا يُؤثِر به أحداً!

وإذا نظرت إلى بقية الصحابة من الشباب، تجد امتزاج حياتهم بحياة النبي ﷺ، فهذا كان راكبًا مع الرسول، وهذا كان ردف النبي، وهذا كان مع النبي؛ يقول معاذ: كنت ردف النبي ﷺ على حمار ليس بيني وبينه إلا مؤخرة الرحل. ولك أن تتخيل معاذاً رضي الله عنه وهو شاب في عشرينات عمره مع الرسول ﷺ على الحمار، صدره ملتصق بظهر النبي ﷺ، ويداه تطوقان جنبي النبي ﷺ، فأيُّ قرب أقرب! ثم يناديه ﷺ مع قربه هذا باسمه كاملاً، فيقول: «**يَا مُعَاذ بن جَبَلٍ!**». فيقول: لبيك يا رسول الله، فيسكت النبي ﷺ شيئًا، ثم يقول: «**يَا مُعَاذ بْن جَبَلٍ!**». فيقول: لبيك يا رسول الله. ثم يسكت ﷺ شيئًا،

(١) «صحيح البخاري» (٥٦٢٠)، و«صحيح مسلم» (٢٠٣٠).

ثم يقول: «**يَا مُعَاذ بْنَ جَبَلٍ!**». فيقول: لبيك يا رسول الله! فيقول: «**أَتَدْرِي مَا حَقُّ الله عَلَى العِبَادِ، وَمَا حَقُّ العِبَادِ عَلَى الله؟..**» الحديث[1].

إن هذا القرب، وهذا الحوار، وهذا الإيثار بالمعلومة، وإيناس الرشد في الشاب ليعلمه معلومة يخصه بها، لا يصلح نشرها حتى لا يساء فهمها؛ كلّ ذلك يبين أيَّ مكانة كانت عنده للشباب، فيها الحب والقرب والثقة.

وفي حجة الوداع عندما كان ﷺ في عرفة، وتضيفت الشمس للمغيب وهو ﷺ على ناقته والناس حوله، وإذا به يقول لأصحابه: «**ادْعُوا لِي أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ**»[2]، فضجت عرفة تنادي: يا أسامة بن زيد! يا أسامة بن زيد! هلمَّ إلى رسول الله، وجعل زعماء الأعراب ينظرون من هو أسامة بن زيد هذا الذي استدعاه النبي ﷺ في هذا الوقت الضيق قبيل الانصراف، وخصه بهذا النداء والانتظار؟! وكأنما تخيلوه شيخاً كبيراً ذا لحية بيضاء، فبينما هم كذلك إذْ جاء شابٌّ أسودُ في الثامنة عشرة من عمره، فتوثب ناقة النبي ﷺ وجلس خلفه والتزمه، فقال الأعراب باستغراب: أهذا الذي حبسنا ابتغاؤه؟ هل كنا ننتظر هذا الشاب الصغير؟

ولذا نجد أكثر الذين كان النبي ﷺ يُردفُهم معه هم الشباب، كعبد الله بن عباس، والفضل بن عباس، ومعاذ بن جبل، وأسامة بن زيد، وسلمة بن الأكوع، والإرداف حالة قُرْبٍ واختصاص.

لقد كان النبي ﷺ يُحْكِم العلاقةَ، ويُحسنُ التمازج مع أجيال الشباب، ولذلك اختار شابّاً ليكون ردفه من عرفة إلى مزدلفة، لقد كان في حياة النبي ﷺ تمازج مع الشباب، وتحطيم لفوارق الأجيال.

٢- وكان يربي الشباب على معاني الإيمان والقيم قبل أن يلقنهم إياها علماً، فيربيهم على تعظيم الله ومحبته وإجلاله ومخافته، وعلى قيم الخير وأخلاقه، فإذا تعلموا القرآن لاقى في قلوبهم أرضاً خصبة تتقبل غيثه، وتتفاعل معه، وتنشأ عليه.

---

(١) «صحيح البخاري» (٢٨٥٦)، و«صحيح مسلم» (٣٠).

(٢) «صحيح البخاري» (١٦٦٩)، و«صحيح مسلم» (١٢٨٠).

قال جندب بن عبد الله: كنا مع النبي ﷺ فتيانٌ حَزَاوِرَةٌ[1]، فَتَعَلَّمْنَا الإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ نَتَعَلَّمَ القُرْآنَ، ثُمَّ تَعَلَّمْنَا القُرْآنَ فَازْدَدْنَا بِهِ إِيمَانًا[2].

وقال ابن عمر: لَقَدْ عِشْنَا بُرْهَةً مِنْ دَهْرِنَا، وَإِنَّ أَحَدَنا يُؤْتَى الإِيمَانَ قَبْلَ القُرْآنِ، وَتَنْزِلُ السُّورَةُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ فَيَتَعَلَّمُ حَلَالَهَا وَحَرَامَهَا، وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يُوقَفَ عِنْدَهُ فِيهَا، كَمَا تَعَلَّمُون أَنْتُمُ القُرْآنَ[3].

فكانوا يأخذون عن الرسولِ القرآن بلفظه ومعناه، ويأخذون عنه المعاني مجردة عن ألفاظه بألفاظ أُخر يتعلمونها منه ﷺ، فكان يعلمهم الإيمان، وهو المعاني التي نزل بها القرآن من المأمور به والمخبَر عنه، المتلقى بالطاعة والتصديق، ثم يحفظونها من القرآن[4].

وقال عبد الله بن عمر: رأيت وأنا غلام حديث السن رؤيا، فقصصتها على أختي حفصة، فقصَّتها على رسول الله ﷺ فقال: «**إِنَّ عَبْدَ الله رَجُلٌ صَالِحٌ. نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ الله، لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ**». فلم يزل عبد الله بعد ذلك يكثر الصلاة، حتى كان لا ينام من الليل إلا قليلاً[5].

فانظر إلى هذا التحفيز النبوي للشباب على العبادة، ثم انظر إلى أثره على الشاب عبد الله بن عمر، حيث تأثر بذلك، فعاش بقية عمره محافظًا على قيام الليل، حتى قال مولاه نافع: ما كان عبد الله ينام من الليل إلا قليلاً؛ وذلك من أثر هذا التوجيه النبوي الرفيق له إبّان شبابه.

---

(١) حزاورة: جَمْع حَزْوَرٍ وحَزَوَّرٍ، وَهُوَ الَّذِي قَارَبَ البُلُوغَ، وَالتَّاءُ لِتأنيث الجَمْعِ. ينظر: «النهاية» (١/ ٣٨٠).

(٢) «سنن ابن ماجه» (٦١).

(٣) «المستدرك» (١٠١).

(٤) ينظر: «جواب الاعتراضات المصرية» لابن تيمية (١٢).

(٥) «صحيح البخاري» (١١٢١، ٣٧٤٠)، و«صحيح مسلم» (٢٤٧٩).

٣- كما نلاحظ أن النبي ﷺ كان يغدق على الشباب بفيض غامر من المشاعر والعواطف؛ لأن الشباب أكثر تذوقًا للمشاعر وتفاعلاً معها، فنراه ﷺ يمسك بيد الشاب معاذ بن جبل، فيجعل يده في يده، ثم يقول: «**يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ!**» قال: لبيك يا رسول الله. قال: «**وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ..**» الحديث[١].

ولك أن تتخيل مشاعر معاذ بن جبل وخفقات قلبه حين كانت يده في يد النبي ﷺ، ووجه النبي ﷺ يشع في وجهه، ثم تذرف من بين شفتي النبي ﷺ كلمات الحب العذبة الجميلة، ولذلك طفر قلب معاذ وهو يسمع ذلك، وقال: وأنا والله يا رسول الله، والذي نفسي بيده؛ إني لأحبك.

ويقول عبد الله بن مسعود: علمني رسول الله ﷺ التشهد، وكَفِّي بين كَفَّيْه[٢].

لقد أخذ النبي ﷺ يده وأطبق عليها بين يديه، ثم جعل يعلمه التشهد؛ إنها لمسة عاطفية معبرة يتم التعامل فيها بحب وموادة، ولذلك حفظ عبد الله بن مسعود التشهد وعلَّمه لأمة محمد ﷺ، فأمة محمدٍ ﷺ يتشهدون في صلاتهم بهذا التشهد الذي حفظه ابن مسعود وكفه بين كفي رسول الله ﷺ.

وهذا الشاب عبد الله بن عمر.. يأتي إليه النبي ﷺ فيضع يديه على منكبيه! ولك أن تتخيل عبد الله بن عمر شابًا دون العشرين من عمره، والنبي قد وضع يديه على منكبيه.. إنها لحظة قربٍ، ولمسة حبٍّ، ثم يقول له: «**يَا عَبْدَ اللهِ! كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**»[٣]، لاحظ عذوبة الوصاة تُقَدّم في هذا الوعاء المشاعري الجميل!

٤- كان ﷺ يتفهَّم رغائب الشباب ومشاعرهم، ففي حجة الوداع كان مردفًا على راحلته الفضل بن العباس، وكان شابًا وسيمًا حسن الشعر، فأتت فتاة جميلة تسأل النبي ﷺ، فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه، فلوى النبي ﷺ عنق الفضل عنها، فأخرج الفضل عنقه من الجهة الأخرى؛ ولكنه مع ذلك لم يعنفه النبي ﷺ ولم يُقَرعه،

(١) «سنن أبي داود» (١٥٢٢).
(٢) «صحيح البخاري» (٦٢٦٥)، و«صحيح مسلم» (٤٠٢).
(٣) «صحيح البخاري» (٦٤١٦).

ولم يشتد عليه، بل الأعجب أنه لم يوبخ هذه الفتاة لأنها لا تحتمل ذلك، فوعظها بطريقة غير مباشرة، وهي وعظ الفضل برفق[1].

ومن تفهمه لرغائب الشباب: ما رواه مالك بن الحويرث قال: قدمنا على رسول الله ﷺ ونحن شببة متقاربون، فأقمنا عنده عشرين ليلة، وكان رحيماً بنا؛ فلما رأى أنا قد اشتقنا إلى أهلنا سألنا عنهم فأخبرناه، فقال: «**ارْجِعُوا إِلَى أَهْلِيكُمْ**»[2].

لقد لاحظ النبي ﷺ شوق الشباب إلى زوجاتهم، وفهم قوة الرغبة الدافعة لذلك، ولذا أمرهم باللحوق بهم، وانظر كيف أدركوا أن هذا من رحمته بهم ومعرفته بشوقهم.

ولتفهُّم النبي ﷺ لرغبات الشباب.. كان الشباب يبوحون له برغائبهم..؛ يأتي إليه شاب فيقول: يا رسول الله، ائذن لي في الزنا!! فما وبّخه ولا نهره، وإنما قال: «**ادْنُه**». فدنا الشاب حتى صار بين يديه، فقال له: «**أَتَرْضَاهُ لِأُمِّكَ؟ أَتَرْضَاهُ لِأُخْتِكَ؟ أَتَرْضَاهُ لِعَمَّتِكَ؟ أَتَرْضَاهُ لِخَالَتِكَ؟**». قال: لا والذي بعثك بالحق. قال: «**فَكَذَلِكَ النَّاسُ؛ لَا يَرضَونَهُ لِبَنَاتِهِمْ، وَلَا لِأُمَّهَاتِهِمْ، وَلَا لِأَخَوَاتِهِمْ**». ثم وضع النبي ﷺ يدَه على صدر هذا الشاب، حتى وجد هذا الشاب برد يد النبي على صدره، ثم قال: «**اللهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ**»[3].

٥- كان ﷺ يثق بالشباب ويشعرهم بالثقة، ولا يستهين بقدراتهم، ولا يهمش مواهبهم، وإنما يسند إليهم جلائل الأعمال إذا رآهم أهلاً لذلك، ولا ينقص من قدرهم صغر أعمارهم.

فالأرقم بن أبي الأرقم المخزومي كان فتى في نحو الثامنة عشرة من عمره، توفي أبوه، وكانت داره وهي على الصفا المكان الأنسب للاجتماع النبوي، فكان ﷺ يجتمع فيها بأصحابه، فكان بيته مدرسة المسلمين الأولى في مكة، وملتقاهم الآمن برسول الله ﷺ، وبقيت دار هذا الشاب ملتقى المسلمين، ومدرسة علمهم طوال فترة الدعوة السرية بمكة، وكان الأرقم يشاركهم التلقي عن رسول الله ﷺ والأخذ عنه.

---

(١) «صحيح البخاري» (١٥١٣)، و«صحيح مسلم» (١٣٣٤).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٣١)، و«صحيح مسلم» (٦٧٤).

(٣) «مسند أحمد» (٢٢٢١١).

ومن ذلك: تفعيله لقدرات الشباب، فقد قدم ﷺ المدينة ولزيد بن ثابت إحدى عشرة سنة، فحظي برعاية النبي ﷺ وثقته، ووجَّهَه لتعلم القراءة والكتابة وتعلم اللغة العبرانية، وكان كاتب الوحي بين يديه، وكان أعلم الأمة بالفرائض حتى قال ﷺ: «**وَأَفْرَضُ أُمَّتِي زَيْدٌ**»[1]، وتوفي النبي ﷺ وعمره إحدى وعشرون سنة.

وخرج ﷺ من مكة بعد الفتح فأَمّر عليها عتّاب بن أسيد وعمره نحو عشرين سنة[2]. ولك أن تتخيل عتاب بن أسيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أميراً على مكة، وفيها أبو سفيان بن حرب، وسهيل بن عمرو، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، وكبراء قريش وأشياخها، والأمير عليهم هذا الشاب العشريني؛ لكن النبي ﷺ يختار أهل القدرات الفائقة، ثم يسند إليهم المهمات، ويوليهم الثقة.

كما جهَّز جيشاً إلى الشام، ثم جعل الأمير عليهم أسامة بن زيد وعمره ثمانية عشر عاماً، وفيهم أبو بكر وعمر، ويبعثه ويعقد له اللواء، ويقول وهو يحمي سُمعة أسامة ومكانته: «**لَا تَطْعَنُوا فِي إِمَارَةِ أُسَامَةَ؛ فَإِنِّي لَأُحِبُّهُ وَأُحِبُّ أَبَاهُ، وَإِنَّهُ لَجَدِيرٌ بِالإِمَارَةِ**»[3]. فيعطيه بذلك زخماً معنوياً وحماية لمكانته.

ويرسل معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى اليمن أميراً ومعلماً، يَقْدَم على قوم أهل كتاب[4] وهو شاب ما بلغ الثلاثين من عمره.

فكان ﷺ يوظف كفاءة الشباب ولا يستهين بها، ولا يهمشها، فكان ﷺ بذلك يؤهل الجيل الثاني باكراً لتحمل المسؤولية، والاقتدار على مواجهة الأزمات.

ولذلك كان هؤلاء الشباب بين يدي النبي ﷺ طاقات فاعلة مؤثرة، ثم إن هؤلاء الشباب الذين كانوا فاعلين مع النبي ﷺ هم الذين حملوا رسالته بعده، وبلغوها للبشرية، وصار هؤلاء الشباب أشياخ الأمة بعده، وعاشوا وهم يذكرون مواقفه الجميلة المضيئة في حياتهم.

---

(١) «مسند أحمد» (١٣١٠٢)، و«جامع الترمذي» (٣٧٩٠)، و«المستدرك» (٨٠٥٧).

(٢) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٦/ ٣٤).

(٣) «صحيح البخاري» (٤٢٥٠)، و«صحيح مسلم» (٢٤٢٦).

(٤) «صحيح البخاري» (٢٣٩٥)، و«صحيح مسلم» (١٩).

٦- كان يولي الشباب عنايةً خاصة في التعليم، فهم أوعى وأقدر على الاستيعاب، وهم رسله إلى الأجيال القادمة، ولذا تظهر هذه الرعاية التعليمية في احتوائه لهم وحواراته معهم، وإجابته على أسئلتهم، ومن ذلك:

ما حدث به أبو محذورة قال: خَرَجْتُ فِي عَشَرَةِ فِتْيَانٍ مِنْ مَكَّةَ مَقْفَلَ رَسُولِ الله ﷺ مِنْ حُنَيْنٍ، فَلَقِيَنَا رَسُولُ الله ﷺ فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ وَهُوَ أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَيْنَا، فَأَذَّنُوا، فَصَرَخْنَا نَحْكِيهِ، نَهْزَأُ بِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**ائْتُونِي بِهَؤُلَاءِ الْفِتْيَانِ، فَقَدْ سَمِعْتُ تَأْذِينَ إِنْسَانٍ حَسَنِ الصَّوْتِ**». فَأَرْسَلَ إِلَيْنَا، فَقَالَ: «**أَذِّنُوا**»، فَأَذَّنَّا وَكُنْتُ آخِرَهُمْ، فَقَالَ حِينَ أَذَّنْتُ: «**تَعَالَ**». فَأَجْلَسَنِي بَيْنَ يَدَيْهِ، فَمَسَحَ عَلَى نَاصِيَتِي وَبَرَّكَ عَلَيَّ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وأَعْطَانِي صُرَّةً فِيهَا شَيْءٌ مِنْ فِضَّةٍ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله مُرْنِي بِالتَّأْذِينِ بِمَكَّةَ، فَقَالَ: «**أَمَرْتُكَ بِهِ، اذْهَبْ فَأَذِّنْ عِنْدَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ**». قُلْتُ كَيْفَ يَا رَسُولَ الله؟ فَعَلَّمَنِي التَّأْذِينَ هُوَ بِنَفْسِهِ، فَقَدِمْتُ عَلَى عَتَّابِ بْنِ أَسِيدٍ عَامِلِ رَسُولِ الله ﷺ بِمَكَّةَ، فَأَذَّنْتُ مَعَهُ بِالصَّلَاةِ عَنْ أَمْرِ رَسُولِ الله ﷺ[(١)].

وهنا نرى الاحتواء والتأليف باللمسة الحانية، والدعوة الصالحة، والعطية الكريمة، والتعليم الحسن، كيف أثر ذلك على الفتى، فبعد أن كان مبغضاً صار محباً، وبعد أن كان مستهزئاً صار موقناً، وبقي مؤذن مكة حتى وفاته[(٢)].

وعن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ عُفَيْرٌ، فَقَالَ: «**يَا مُعَاذُ! هَلْ تَدْرِي حَقَّ الله عَلَى عِبَادِهِ، وَمَا حَقُّ العِبَادِ عَلَى الله؟**». قُلْتُ: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**فَإِنَّ حَقَّ الله عَلَى العِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقَّ العِبَادِ عَلَى الله أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، أَفَلَا أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ؟ قَالَ: «**لَا تُبَشِّرْهُمْ، فَيَتَّكِلُوا**»[(٣)].

وهنا نلاحظ أن النبي ﷺ خصّ معاذاً بعلم خاص، ونهاه أن يلقيه إلى من يسيء فهمه، وبوَّب البخاري على هذا الحديث: «**باب من خص بالعلم قوماً دون قوم؛ كراهية ألا يفهموا**»[(٤)].

---

(١) «مسند أحمد» (١٥٣٧٦)، و«السنن الكبرى» للنسائي (١٦٠٨)، و«سنن ابن ماجه» (٧٠٨).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٣/ ١١٨).

(٣) «صحيح البخاري» (١٢٨)، و«صحيح مسلم» (٢٢).

(٤) «صحيح البخاري» (١/ ٣٧).

وهذا الذي خصه النبي ﷺ بهذا العلم ثقة بحسن فهمه، هو معاذ الشاب النبيه اللائق للعلم والتعلم.

ومن ذلك: عنايته بعبد الله بن مسعود في تعليمه القرآن حتى قال: حفظت من رسول الله ﷺ سبعين سورة من فيه إلى في[1].

فكان الشباب هم خزائن علم النبي ﷺ ورسله إلى الأجيال من بعده، ولذا نجد مرويات صغار الصحابة أكثر من مرويات كبارهم؛ لأسباب، أحدها: عناية النبي ﷺ بهم، واحتياج الأمة إلى علمهم لما كبروا وذهب الذين هم أكبر منهم، فاتسعت مروياتهم وأخرجوا محفوظاتهم.

٧- كان يحضهم على الجد والعبادة والمحافظة على نوافلها، فيقول عن عبد الله بن عمر: «**نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ الله، لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ!**» فَكَانَ بَعْدُ لَا يَنَامُ مِنَ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلاً[2]، ويطرق بيت علي وفاطمة ليلاً وهما شابان، فيقول: «**أَلَا تَقُومَانِ فَتُصَلِّيَانِ؟**»[3].

ومع الترغيب في التعبد، كان يحافظ على توازن العمل، وعدم الإفراط المُجهِد الذي تدفع إليه غلواء الشباب وشِرَّتُه، فعندما علم بمجيئ ثلاثة شباب إلى بيوته يسألون عن عبادته في السر، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ؟ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَداً، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَداً، فَجَاءَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: «**أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَالله إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لله وَأَتْقَاكُمْ لَهُ؛ لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**»[4].

---

(١) «مسند أحمد» (٤٣٣٠).

(٢) «صحيح البخاري» (١١٢٢)، و«صحيح مسلم» (٢٤٧٩).

(٣) «صحيح البخاري» (١١٢٧)، و«صحيح مسلم» (٧٧٥).

(٤) «صحيح البخاري» (٥٠٦٣).

وكذا عندما علم أن عبد الله بن عمرو بن العاص قد انقطع للعبادة، وكان يصوم الدهر، ويختم القرآن كل ليلة، دعاه وقال: «**صُمْ مِنَ الشَّهْرِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ**». قَالَ: أُطِيقُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، فَمَا زَالَ به حَتَّى قَالَ: «**صُمْ يَوْمًا وَأَفْطِرْ يَوْمًا**». وقَالَ: «**اقْرَأِ القُرْآنَ فِي كُلِّ شَهْرٍ**». قَالَ: إِنِّي أُطِيقُ أَكْثَرَ، فَمَا زَالَ به، حَتَّى قَالَ: «**فِي ثَلَاثٍ**»[1].

وبذا يحفز الشباب للعبادة، ويحافظ على اعتدالهم فيها بما يضمن استمرارهم، والوفاء ببقية حقوقهم.

خلاصات:

١- كانت علاقته ﷺ بالشباب وثيقة إلى درجة الاندماج، وتحطيم حواجز الأجيال.

٢- كان يربي الشباب على معاني الإيمان، والقيم وأخلاق الخير قبل أن يلقنهم إياها علماً، فإذا تعلموها تشربوها وانفعلوا بها.

٣- كان يغدق على الشباب عاطفة الحب والرعاية المشاعرية، فيتذوقون أبوته لهم.

٤- كان يخصهم برعاية تعليمية لأنهم أحفظ وأوعى، فاتسعت مروياتهم، وكانوا رسله إلى أجيال الأمة من بعده.

٥- كان يتفهَّم رغائب الشباب ونوازعهم، ويحسن الاستجابة لها، وعلاج جنوحها.

٦- كان يُفعِّل طاقات الشباب، ويوليهم ثقته، ويحملهم المسؤولية باكراً إذا تأهلوا لها.

٧- أثمر هذا التعامل النبوي مع الشباب في تخريج القادة، وتوريث الدعوة، والتواصل بين الأجيال، فصغار قوم كبار آخرين.

(١) «صحيح البخاري» (١٩٨٧)، و«صحيح مسلم» (١١٥٩).

الرسول ﷺ وأهل الصفّة[1]

١- كان الفقراء والضعفاء والغرباء محل الحفاوة والرعاية من رسول الله ﷺ يحتفي بهم ويرعاهم ويوصي بهم، ويتلقاهم ويدنيهم إليه ويقول: «**ابْغُونِي**[2] **الضُّعَفَاءَ؛ هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعَفَائِكُمْ؟!**»[3].

وكان للنبي ﷺ رعايةٌ ومواساةٌ للفقراء فيها حفظ كرامتهم ودمجهم مع المجتمع، فما أشعر فقيراً أن فقره يقصيه، أو ينقص من شأنه، كما كان ﷺ يؤهلهم تعليماً وتحفيزاً.

ومن فقراء المسلمين المشهورين أهل الصفة، فالحديث عنهم يقدم نموذجاً للتعامل النبوي مع الفقراء بعامة رعايةً وتعليماً وإعداداً.

٢- والصُّفّة هي العريش الذي كان في قبلة المسجد حينما كانت قبلته إلى الشام أول ما بُني مسجده ﷺ، فصلى النبي ﷺ في هذا العريش بضعة عشر شهراً فلما حولت القبلة إلى الكعبة المشرفة بنى النبي ﷺ في جنوب المسجد عريشاً آخر أوسع منه فكان هو مكان صلاته في مسجده ﷺ، وبقي العريش الأول شاغراً ليكون هو الصفة، ولتكون له مهمة أخرى بقيت في تاريخ الإسلام محفوظة وهي إيواء فقراء المهاجرين الذين لحقوا برسول الله ﷺ بعد ذلك.

---

(١) ينظر: كتاب «أهل الصفة بعيداً عن الوهم والخيال» لشيخنا صالح بن أحمد الشامي، ومنه استفدت في هذا المبحث.

(٢) ابغوني: اطلبوا لي. ينظر: «النهاية» (١/ ١٤٣).

(٣) «صحيح البخاري» (٢٨٩٦).

أما أهل الصفة فهم الذين هاجروا إلى رسول الله ﷺ بعدما استقر في المدينة هو وأصحابه المهاجرون الأُول، فأتوا إلى المدينة وليس لهم فيها أهل ولا مال يأوون إليه، فأسكنهم النبي ﷺ في هذه الصفة التي في مؤخر المسجد، وهم نزاع من قبائل شتى فيهم: الغفاري، والأسلمي، والسُّلمي، والدوسي، والغطفاني، وكانوا يَكثرون ويقلون بحسب وفودهم، ويقيمون مدداً متفاوتة بحسب أحوالهم، ولم يكونوا يجتمعون في وقت واحد، بل منهم من يتأهل أو ينتقل إلى مكان آخر يتيسر له أو يعود إلى قومه، ويجيئ ناس بعد ناس، فتارة يكونون عشرة وتارة يكونون سبعين أو ثمانين[1] أو أكثر أو أقل.

ونلاحظ أنهم من قبائل شتى ليس ثمة نسب يجمعهم، ولا رابطة تؤلف بينهم، ولكن النبي ﷺ أوجد بينهم رابطة عُظمى، ليست رابطة القبيلة ولا رابطة البلد، وإنما رابطة الإيمان والأخوة في الله، وقد اندمج هؤلاء على تنوعهم مع النبي ﷺ، وانصهرت علاقتهم بأقوى وأسمى رابطة وهي الحب في الله والأخوة فيه.

٣- أوى هؤلاء إلى هذه الصفة وعاشوا فيها مع النبي ﷺ حياة فيها شظف العيش وقلة ذات اليد، وكان ﷺ يواسيهم بما يتيسر عنده ويفرقهم أحيانـًا في وجبة العشاء على المسلمين ليصيبوا عشاءهم وليحقق بذلك إدماجًا لهم في المجتمع، قال عبد الرحمن بن أبي بكر: إنَّ أَصْحَابَ الصُّفَّةِ كَانُوا أُنَاسـًا فُقَرَاءَ وَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامُ اثْنَيْنِ فَلْيَذْهَبْ بِثَالِثٍ، وَإِنْ أَرْبَعٌ فَخَامِسٌ أَوْ سَادِسٌ**». وَأَنَّ أَبَا بَكْرٍ جَاءَ بِثَلَاثَةٍ، فَانْطَلَقَ النَّبِيُّ ﷺ بِعَشَرَةٍ[2].

عن بَشِيرِ ابْنِ الخَصَاصِيَةِ قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ فَدَعَانِي إِلَى الإِسْلَامِ ثُمَّ قَالَ لِي: «**مَا اسْمُكَ؟**». قُلْتُ: نَذِيرٌ قَالَ: «**بَلْ أَنْتَ بَشِيرٌ**». قَالَ: فَأَنْزَلَنِي الصُّفَّةَ فَكَانَ إِذَا أَتَتْهُ الهَدِيَّةُ أَشْرَكَنَا فِيهَا وَإِذَا أَتَتْهُ صَدَقَةٌ صَرَفَهَا إِلَيْنَا[3].

(١) ينظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١١/ ٤١).
(٢) «صحيح البخاري» (٦٠٢)، و«صحيح مسلم» (٢٠٥٧).
(٣) «حلية الأولياء» (٢/ ٢٦).

وإذا توفر التمر عند النبي ﷺ كان يقسم بينهم في كل يوم مُدّاً[1] من التمر بين كل اثنين، حتى أتوا إلى النبي ﷺ يوماً فقالوا: يا رسول الله أحرق التمر بطوننا. فوقف النبي ﷺ يخطب فيهم ويقول: «**وَاللهِ لَوْ أَجِدُ خُبْزاً وَلَحْماً لَأَطْعَمْتُكُمْ، وَلَكِنِّي لَا أَجِدُ**». ثم قال: «**كَيْفَ بِكُمْ إِذَا غَدَا أَحَدُكُمْ فِي حُلَّةٍ، وَرَاحَ فِي حُلَّةٍ، وَوُضِعَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ صَحْفَةٌ، وَرُفِعَتْ أُخْرَى وَسَتَرْتُمْ بُيُوتَكُمْ كَمَا تُسْتَرُ الكَعْبَةُ**». فقالوا: يا رسول الله، ونحن على ديننا اليوم؟ قال: «**وَأَنْتُمْ عَلَى دِينِكُمُ اليَوْمَ**». فقالوا: نحن يومئذ خير منا اليوم، نتفرغ للعبادة، ونكفى المؤنة فقال رسول الله ﷺ: «**لَأَنْتُمُ اليَوْمَ خَيْرٌ مِنْكُمْ يَوْمَئِذٍ**»[2].

وكان الفقر الذي تعرض له أهل الصفة اضطرارياً وليس اختيارياً، فهم لم يختاروا الفقر على الغنى، ولم يختاروا هذه الحال زهداً وتقشفاً، ولكن اضطرتهم إلى ذلك هجرتهم إلى رسول الله ﷺ من أوطانهم التي فيها أهلوهم وأموالهم، فقدموا المدينة لا يأوون إلى أهل ولا مال، واحتملوا حالة القلة والكفاف والشدة واللأواء إيثاراً لصحبة النبي ﷺ، مع أنهم كانوا في قبائلهم وعند أهلهم في كفاية وسعة؛ كما قال سلمة بن الأكوع: كنت تبيعاً[3]، لطلحة بن عبيد الله أسقي فرسه وأَحُسه[4] وأخدمه وآكل من طعامه، وتركت مالي وأهلي مهاجراً إلى الله ورسوله[5]، ولذا فليس في حالهم ترغيب في الفقر ولا تزهيد في الغنى[6]، فقد كان من العشرة المبشرين بالجنة أغنياء، وقد قال ﷺ: «**نِعْمَ المَالُ الصَّالِحُ لِلْمَرْءِ الصَّالِحِ**»[7]. لكنهم تخلوا عن ذلك في سبيل الهجرة إلى رسول الله ﷺ، واحتملوا لذلك هذا الفقر وقلة الطعام وقلة الكساء حتى قال أبو هريرة وهو واحد منهم: إن كنت لأرى الرجل منهم يخر من طوله من الجوع، ويجمع إزاره بيده خشية أن ترى عورته،

---

(١) المُد: هو بقدر ملء كفي الرجل المتوسط الخلقة. ينظر: «النهاية» (٤/ ٣٠٨).

(٢) «جامع الترمذي» (٢٤٧٦).

(٣) تبيعاً: أي خادماً. ينظر: «النهاية» (١/ ١٧٩).

(٤) أحسّه: أي أحك ظهره بالمِحسة لأزيل عنه الغبار ونحوه. ينظر: «شرح النووي على مسلم» (١٢/ ٥٠).

(٥) «صحيح مسلم» (١٨٠٧).

(٦) ينظر: رسالة ابن تيمية في أهل الصفة، من: «مجموع الفتاوى» (١١/ ٣٨).

(٧) «مسند أحمد» (١٧٧٦٣)، و«الأدب المفرد» (٢٩٩).

وقال سهل بن سعد: لَقَدْ رَأَيْتُ الرِّجَالَ عَاقِدِي أُزُرِهِمْ فِي أَعْنَاقِهِمْ مِثْلَ الصِّبْيَانِ مِنْ ضِيقِ الأُزُرِ خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ. فَقَالَ قَائِلٌ: «**يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ لَا تَرْفَعْنَ رُؤُوسَكُنَّ حَتَّى يَرْفَعَ الرِّجَالُ**»(١).

وحكى لنا أبو هريرة رضي الله عنه بعض ما مر به عندما كان في الصفة قال: لَقَدْ رَأَيْتُنِي وَإِنِّي لَأَخِرُّ فِيمَا بَيْنَ مِنْبَرِ رَسُولِ الله ﷺ إِلَى حُجْرَةِ عَائِشَةَ مَغْشِيًا عَلَيَّ، فَيَجِيءُ الجَائِي فَيَضَعُ رِجْلَهُ عَلَى عُنُقِي، وَيُرَى أَنِّي مَجْنُونٌ، وَمَا بِي مِنْ جُنُونٍ مَا بِي إِلَّا الجُوعُ(٢).

٤- أما حال النبي ﷺ معهم، فإنه قد أقام في هذه الصفة أول جمعية خيرية في التاريخ تعتمد على إيواء الفقراء وتعليمهم، فكان النبي ﷺ يجلس معهم في الصفة يُقرئهم القرآن، ويُعلمهم الإسلام، وكان يجوع معهم كما يجوعون، فإذا كان عنده شيء واساهم به، فما كان يستأثر بشيء دونهم، ولذا لما قُدم عليه برقيق وسألته ابنته فاطمة أن يهبها واحداً منهم يكفيها مشقة العمل في بيتها، فقال لها: «**والله لا أُخْدِمُكما خَادِمًا، وَأَدَعُ أَهْلَ الصُّفَّةِ تَطْوَى بُطُونُهُمْ مِنَ الجُوعِ، ولكِنْ أبيعُهم وأشْتري بثَمَنِهم طَعامًا لِأَهْلَ الصُّفَّةِ**»(٣). فحتى حاجة بنيته في بيتها لم تكن تسبق حاجة أهل الصفة إلى قوتهم.

ويمر به أبو طلحة فيراه يُقرئ أهل الصفة القرآن بصوت يظهر فيه أثر الجَهْد من الجوع، فلم يستطع الصبر على ما رأى، فانطلق إلى زوجته أم سُليم؛ لعله يجد عندها ما يطعمه رسولَ الله ﷺ، فلما قال لها ذلك، قالت: عندي شيء -وأشارت بكفها تقلِّلُه- عندنا نحو مُدٍّ من دقيق شعير، فإن جاءنا رسول الله ﷺ وحده أشبعناه، وإن جاء معه أحد قلَّ عنهم. قال: فاعجنيه وأصلحيه، عسى أن ندعو النبي ﷺ فيأكل عندنا.

فعمدت إلى الشعير فعجنته، ثم أرسلت ابنها أنسًا إلى نخل لهم ليأتيها بحطب تخبز عليه، فأتاها به، فعملت مما عجنت قرصًا. فقال أبو طلحة لربيبه أنس: يا بني، اذهب إلى رسول الله ﷺ فقم قريبًا منه، فإذا قام فدعه حتى يتفرق أصحابه، ثم اتبعه، حتى إذا قام على عتبة بابه قل له: إن أبي يدعوك، ولا تدع معه غيره، ولا تفضحني.

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٦٢)، و«صحيح مسلم» (٤٤١).

(٢) «صحيح البخاري» (٧٣٢٤).

(٣) «مسند أحمد» (٨٣٨).

وذهب أنس إلى رسول الله ﷺ، فوجده في مجلسه، وأصحابه حوله، نحو من ثمانين رجلاً، فقام ينتظر أن يقوم رسول الله ﷺ فيدعوه، فإذا رسول الله ﷺ يقبل عليه، فيقول: «**أَرْسَلَكَ أَبُوكَ يَا بُنَيَّ؟**». قال: نعم. فقال رسول الله ﷺ: «**لِطَعَامٍ؟**». قال: نعم. وإذا برسول الله ﷺ يقبل على أصحابه، فيقول لهم: «**قُومُوا بِاسْمِ الله، أَجِيبُوا أَبَا طَلْحَةَ**».

ثم أخذ بيد أنس فشدها بيده، وانطلقوا يسيرون إلى بيت أبي طلحة، ولا تسل عن أنس وهو يسير، ويده بيد رسول الله ﷺ، وكأنما وقع خطوات هذا الجمع تميد بالأرض حوله، ماذا سيقول لأبي طلحة، وقد أوصاه وحذَّره؟ وما حيلته وقد سأله رسول الله ﷺ، وما كان له إلا أن يجيبه ويصدقه؟ وما عساه يصنع طعامهم القليل بهذا الجمع الكثير؟

حتى إذا دنوا من بيت أبي طلحة أطلق رسول الله ﷺ يد أنس؛ فانطلق مسرعًا، ودخل على أبي طلحة، فقال: يا أبتاه، قد قلت لرسول الله الذي قلت لي، فدعا أصحابه، فقد جاءك بهم! فدفعه أبو طلحة بيده، وقال: فضحتني عند رسول الله ﷺ، أو ما علمت ما عندنا؟! فقال أنس: بلى، ولكن لم أستطع أن أقول لرسول الله شيئًا، قال لي: «**لِطَعَامٍ؟**». فكرهت أن أكذب. فكرب أبو طلحة كربًا شديداً، وأقبل على زوجته أم سُلَيم، فقال: يا أُم سُلَيم، قد جاء رسول الله ﷺ بالناس، وليس عندنا ما نطعمهم. قالت: الله ورسوله أعلم.

فخرج أبو طلحة، فقام على الباب يتلقى رسول الله ﷺ، فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى الباب، قال لمَن معه: «**اقْعُدُوا**». فجلسوا في السكة، ودخل هو وأبو طلحة، فقال أبو طلحة: يا رسول الله إنما أرسلت أنسًا يدعوك وحدك، وإنما هو قرص صنعته أم سُلَيم، وما عندنا ما يكفي مَن أَرى معك؟ فقال رسول الله ﷺ: «**ادْخُلْ وَأَبْشِرْ؛ فَإِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ سَوْفَ يُبَارِكُ فِيمَا عِنْدَكَ**».

فدخل أبو طلحة برسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**يَا أُمَّ سُلَيم! هَلُمَّ مَا عِنْدَكِ**». فجاءته بالصحفة فيها القرص، فقال لها: «**هَلْ عِنْدَكِ سَمْنٌ؟**». فقال أبو طلحة: قد كان عندي عُكَّة[1] فيها شيء من سمن. قال: «**فَأْتِ بِهَا**». فجاء بها عكة عجفاء ينظر إليها الناظر فيقول: فيها شيء أو ليس فيها شيء؟ ففتح رسول الله ﷺ رباطها،

(١) العُكّة: وعاء من جلود. ينظر: «النهاية» (٣/ ٢٨٤).

ثم قال: «**بِاسْمِ الله، اللهُمَّ أَعْظِمْ فِيهَا البَرَكَةَ**». ثم قال: «**اقْلِبِيهَا يَا أُمَّ سُلَيم**». فقلبتها، وجعل رسول الله ﷺ وأبو طلحة يعصرانها، حتى سرب منها شيء، فمسحه النبي ﷺ بأصبعه، ثم مسح به القرص، وقال: «**بِاسْمِ الله**». فانتفخ القرص، فلم يزل يصنع ذلك والقرص ينتفخ، حتى انساح في الجفنة كلها.

ثم قال لأنس: «**ادْعُ عَشَرَةً مِنْ أَصْحَابِي**». فدعا له عشرة، فوضع النبي ﷺ يده في وسط القرص، وقال: «**كُلُوا بِاسْمِ الله**». فأكلوا حوالي القرص؛ حتى ثملوا شبعاً، فما زالوا يدخلون عشرة عشرة، فيأكلون لا يرعي أحد منهم على أحد؛ حتى شبعوا كلهم، ثم دعا أبا طلحة وأم سُلَيم وأنساً، فجلسوا معه، وقال: «**كُلُوا**». فأكلوا مع رسول الله ﷺ حتى شبعوا، ثم رفع يده، وإن وسط القرص حيث وضع رسول الله ﷺ يده كما هو، فقال: «**يَا أُمَّ سُلَيم! أَيْنَ هَذَا مِنْ طَعَامِكِ حِينَ قَدَّمْتِيهِ؟**». قالت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لولا أني رأيتهم يأكلون لقلت: ما نقص من طعامنا شيء.

ثم جمعت أم سليم ما بقي فأهدته لجيرانها[1].

يا الله النبي ﷺ مع أنه مجهود من الجوع يجلس لهم يعلمهم.

ثم لما عرض عليه الطعام دعاهم معه وشاركهم الطعام كما شاركهم الجوع.

٥- وكان النبي ﷺ لخلطته بهم يَلمح من حالهم ما لا يعرفه غيره ويبادرهم بما في نفوسهم قبل أن يقولوه، وكانت تجري لهم عجائب معه ومنها: قول أبي هريرة: والله الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، إِنْ كُنْتُ لَأَعْتَمِدُ بِكَبِدِي عَلَى الأَرْضِ مِنَ الجُوعِ، وَإِنْ كُنْتُ لَأَشُدُّ الحَجَرَ عَلَى بَطْنِي مِنَ الجُوعِ، وَلَقَدْ قَعَدْتُ يَوْماً عَلَى طَرِيقِهِمُ الَّذِي يَخْرُجُونَ مِنْهُ، فَمَرَّ أَبُو بَكْرٍ، فَسَالتُهُ عَنْ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ الله، مَا سَالتُهُ إِلَّا لِيُشْبِعَنِي، فَمَرَّ وَلَمْ يَفْعَلْ، ثُمَّ مَرَّ بِي عُمَرُ، فَسَالتُهُ عَنْ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ الله، مَا سَالتُهُ إِلَّا لِيُشْبِعَنِي، فَمَرَّ فَلَمْ يَفْعَلْ، ثُمَّ مَرَّ بِي أَبُو القَاسِمِ ﷺ، فَتَبَسَّمَ حِينَ رَآنِي، وَعَرَفَ مَا فِي نَفْسِي وَمَا فِي وَجْهِي، ثُمَّ قَالَ: «**يَا أَبَا هِرٍّ**». قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «**الحَقْ**». وَمَضَى فَتَبِعْتُهُ، فَدَخَلَ، فَاسْتَأْذَنَ، فَأَذِنَ لِي، فَدَخَلَ، فَوَجَدَ لَبَناً فِي قَدَحٍ، فَقَالَ: «**مِنْ أَيْنَ هَذَا اللَّبَنُ؟**». قَالُوا: أَهْدَاهُ لَكَ فُلَانٌ أَوْ فُلَانَةُ، قَالَ: «**أَبَا هِرٍّ**». قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ الله،

(١) «صحيح البخاري» (٣٥٧٨)، و«صحيح مسلم» (٢٠٤٠).

قَالَ: «**الحَقْ إِلَى أَهْلِ الصُّفَّةِ فَادْعُهُمْ لِي**». قَالَ: وَأَهْلُ الصُّفَّةِ أَضْيَافُ الإِسْلَام، لَا يَأْوُونَ إِلَى أَهْلٍ وَلَا مَالٍ وَلَا عَلَى أَحَدٍ، إِذَا أَتَتْهُ صَدَقَةٌ بَعَثَ بِهَا إِلَيْهِمْ وَلَمْ يَتَنَاوَلْ مِنْهَا شَيْئًا، وَإِذَا أَتَتْهُ هَدِيَّةٌ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ وَأَصَابَ مِنْهَا وَأَشْرَكَهُمْ فِيهَا، فَسَاءَنِي ذَلِكَ، فَقُلْتُ: وَمَا هَذَا اللَّبَنُ فِي أَهْلِ الصُّفَّةِ، كُنْتُ أَحَقُّ أَنَا أَنْ أُصِيبَ مِنْ هَذَا اللَّبَنِ شَرْبَةً أَتَقَوَّى بِهَا، فَإِذَا جَاؤوا أَمَرَنِي، فَكُنْتُ أَنَا أُعْطِيهِمْ، وَمَا عَسَى أَنْ يَبْلُغَنِي مِنْ هَذَا اللَّبَنِ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ طَاعَةِ اللهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ ﷺ بُدٌّ، فَأَتَيْتُهُمْ فَدَعَوْتُهُمْ فَأَقْبَلُوا، فَاسْتَأْذَنُوا فَأَذِنَ لَهُمْ، وَأَخَذُوا مَجَالِسَهُمْ مِنَ البَيْتِ، قَالَ: «**يَا أَبَا هِرٍّ**». قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «**خُذْ فَأَعْطِهِمْ**». قَالَ: فَأَخَذْتُ القَدَحَ، فَجَعَلْتُ أُعْطِيهِ الرَّجُلَ فَيَشْرَبُ حَتَّى يَرْوَى، ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيَّ القَدَحَ، فَأُعْطِيهِ الرَّجُلَ فَيَشْرَبُ حَتَّى يَرْوَى، ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيَّ القَدَحَ فَيَشْرَبُ حَتَّى يَرْوَى، ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيَّ القَدَحَ، -والقدح لا يزال ملآن يترجرج في يد أبي هريرة قال:- حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ رَوِيَ القَوْمُ كُلُّهُمْ، فَأَخَذَ القَدَحَ فَوَضَعَهُ عَلَى يَدِهِ، فَنَظَرَ إِلَيَّ فَتَبَسَّمَ، -وكأنه قرأ ما كان في نفس أبي هريرة، وما حدثته به نفسه- فَقَالَ: «**أَبَا هِرٍّ**». قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «**بَقِيتُ أَنَا وَأَنْتَ**». قُلْتُ: صَدَقْتَ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «**اقْعُدْ فَاشْرَبْ**». فَقَعَدْتُ فَشَرِبْتُ، فَقَالَ: «**اشْرَبْ**». فَشَرِبْتُ، حتى استوى بطني فصار كالقِدْح[1]، فَمَا زَالَ يَقُولُ: «**اشْرَبْ**». حَتَّى قُلْتُ: لاَ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ، مَا أَجِدُ لَهُ مَسْلَكًا، قَالَ: «**فَأَرِنِي**». فَأَعْطَيْتُهُ القَدَحَ، فَحَمِدَ اللهَ وَسَمَّى وَشَرِبَ الفَضْلَةَ[2].

لقد شرب نبينا ﷺ فضلة أهل الصفة، فهل ثم إيثارٌ ومواساة وتمازج مع هؤلاء الفقراء أروع وأجمل من تلك المواساة النبوية.

٦- وكان ﷺ يعلمهم ويحفزهم للتعلُّم يقول أحدهم: خَرَجَ علينا رَسُولُ الله ﷺ وَنَحْنُ فِي الصُّفَّةِ فَقَالَ: «**أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى بُطْحَانَ أَوْ إِلَى العَقِيقِ فَيَأْتِيَ مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ فِي غَيْرِ إِثْمٍ وَلَا قَطْعِ رَحِمٍ؟**». فَقُلْنَا يَا رَسُولَ الله نُحِبُّ ذَلِكَ.

---

(١) القِدْح هو عود السهم يضرب به المثل في الاستقامة، يشير أبو هريرة إلى أن بطنه استوى مع صدره، وهذا في وقتهم غاية الامتلاء والشبع، لأن بطونهم في العادة ضامرة، فإذا امتلأت استوت مع الصدر، وهذا حالٌ غير حالنا في زماننا حيث تكورت البطون، وصار أحدنا يجوع وهو يحتضن في بطنه جراباً من الشحم المعتق.

(٢) «صحيح البخاري» (٦٤٥٢).

قَالَ: «**أَفَلَا يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى المَسْجِدِ فَيَعْلَمَ أَوْ يَقْرَأَ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ وَثَلَاثٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثٍ وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الإِبِلِ**»[(١)]. وهذا نوع من المواساة والتحفيز لتتحول الصفة من كونها مجرد مأوى وسكن إلى حلقة علم ومدرسة تعليم.

٧- بقي أن تعرف أن هؤلاء الذين كانوا في الصفة يواسيهم النبي ويعلمهم قد أغمض الدهر عنهم عينه ثم نظر فإذا كل منهم أمير في مصر، أو إمام في بلد، أو داعية في قبيلة، وأصبح الغرباء الفقراء أمراء وأئمة ودعاة، إنهم نتاج التربية النبوية التي تجاوزت بهم الإغاثة والإيواء إلى التربية والتنمية، وبذلك أُهلت القدرات وفُعلت الطاقات، وصار فقير أهل الصفة أبو هريرة أميراً على المدينة، وخطب عتبة بن غزوان وكان أميراً على البصرة، فقال: لقد رأيتني سابع سبعةٍ مع رسول الله ﷺ ما لنا طعام إلا ورق الشجر حتى قَرِحتْ أَشْداقُنا[(٢)]، فالتقطت بُردةً فشققتها بيني وبين سعد بن مالك فاتّزرت بنصفها واتّزر سعد بنصفها، فما أصبح اليوم منا أحد إلا أميراً على مصرٍ من الأمصار، وإني أعوذ بالله أن أكون في نفسي عظيمـًا وعند الله صغيراً[(٣)].

وكان تعامل النبي ﷺ مع أهل الصفة نموذجـًا لتعامله مع الفقراء والغرباء.

خلاصات:

١- الصُّفَّة هي العريش الذي في شمال المسجد النبوي، وأهلها هم نزّاع القبائل الذين لحقوا بالنبي ﷺ.

٢- كان أهل الصُّفَّة غرباء فقراء هم أضياف أهل الإسلام لا يأوون إلى أهل ولا مال.

٣- كان أهل الصُّفَّة يَكثرون ويَقلون بحسب وفودهم، ويقيمون مدداً متفاوتة بحسب أحوالهم.

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٦٢)، و«صحيح مسلم» (٨٠٣).

(٢) قَرحت أشداقنا: أي خرجت القروح من جوانب الفم وتجرّحت. ينظر: «شرح السندي على ابن ماجه» (٢/ ٥٣٩).

(٣) «صحيح مسلم» (٢٩٦٧).

٤- كان أهل الصُّفَّة فقراء، وكان فقرهم اضطرارياً وليس اختيارياً، فهم لم يختاروا الفقر على الغنى، ولكن تعرضوا للفقر بسبب هجرتهم إلى الرسول ﷺ وتركهم أموالهم وبلادهم.

٥- كانت الصُّفَّة مأوى وسكناً، ومدرسةً ودارَ علم، وكان النبي ﷺ يجلس إليهم فيها معلماً ومحفزاً.

٦- الذين كانوا في هذه الصُّفَّة تأهلوا علماء وقادة، ومعلمي خير في قبائلهم وأمصارهم.

الرسول ﷺ والضيافة

١- كرم الضيافة عادة عربية متأصلة في المجتمع القرشي، وممن اشتهر بالكرم فيها أجداد النبي ﷺ، فجده قصي كان يضع موائد الطعام للحجاج وشهر بذلك، وجده هاشم سمي بذلك لأنه هشم الثريد للحجاج فغلب هذا اللقب على اسمه مناف، وكان جده عبد المطلب من سادات مكة رئاسةً وكرمـاً، وكان إليه سقاية الحجاج وبقيت لبنيه من بعده، فبيته ﷺ وأسرته توارثوا كرم الضيافة واشتهروا بها.

وقبل ذلك كان أبوه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من كرام خلق الله، حيث قص الله خبر ضيافته للملائكة الذين أتوه بصفة بشرية، فقال: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ۝٢٤ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ۝٢٥ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۝٢٦ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٤-٢٧]، ومن مشاهد الكرم الإبراهيمي في هذه الآيات وصف الله الضيوف بأنهم مكرَمون؛ فقد تلقاهم إبراهيم بأنواع من الإكرام حتى صار وصفهم أنهم المكرمون، ثم حسن التحية والتلقي لهم مع أنهم قوم منكرون، ثم ذهابه خفية لإحضار الضيافة: ﴿فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾، ثم تقريبه إليهم ودعوتهم إليه: ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾، إنه كرم النبوة وكرم الأبوة، ومن ذاك النبي جاء هذا النبي الذي هو أشبه ولده به خَلْقـاً وخُلُقـاً.

٢- ثم كان كرم الضيافة صفة مشهورة عنه ﷺ قبل النبوة، ولذا قالت له خديجة عندما جاءها فزعـاً من غار حراء: كَلَّا وَاللهِ مَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَداً؛ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتُقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ[1].

(١) «صحيح البخاري» (٣).

ووصفه عمه أبو طالب في قصيدته اللامية:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

يلوذ به الهلاك من آل هاشم فهم عنده في نعمة وفواضل[1]

٣- ثم اتسع كرم ضيافته بعد النبوة فكان كما وصفه ابن عباس: أجود بالخير من الريح المرسلة.

ولذا كان بيته مقصد المحتاجين، وطعامه قرى الأضياف قليلاً كان أو كثيراً، فهو يجزل بالكثير من الكثير، ويواسي بالقليل من القليل.

ومن كرم ضيافته مشاهد منها:

أ- عن عبد الرحمن بن أبي بكر قال: إن أصحاب الصفة كانوا أناساً فقراء، وإن النبي ﷺ قال: «**مَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامُ اثْنَيْنِ فَلْيَذْهَبْ بِثَالِثٍ، وَإِنْ أَرْبَعٌ فَخَامِسٌ أَوْ سَادِسٌ**». وَأَنَّ أَبَا بَكْرٍ جَاءَ بِثَلَاثَةٍ، فَانْطَلَقَ النَّبِيُّ ﷺ بِعَشَرَةٍ[2].

ب- وعَنْ عَبْدِ الله بْنِ بُسْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أُهْدِيَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ شَاةٌ، وَالطَّعَامُ يَوْمَئِذٍ قَلِيلٌ، فَقَالَ لِأَهْلِهِ: «**أَصْلِحُوا هَذِهِ الشَّاةَ، وَانْظُرُوا إِلَى هَذَا الخُبْزِ فَأَثْرِدُوا وَاغْرِفُوا عَلَيْهِ**». وَكَانَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ قَصْعَةٌ[3] يُقَالُ لَهَا: الغَرَّاءُ يَحْمِلُهَا أَرْبَعَةُ رِجَالٍ، فَلَمَّا أَصْبَحُوا وَسَجَدُوا الضُّحَى، أُتِيَ بِتِلْكَ القَصْعَةِ وَقَدْ ثُرِدَ فِيهَا، فَالتَفُّوا عَلَيْهَا، فَلَمَّا كَثُرُوا جَثَا رَسُولُ الله ﷺ عَلَى رُكْبَتَيْهِ يَأْكُلُ، فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ: مَا هَذِهِ الجِلْسَةُ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ جَعَلَنِي عَبْداً كَرِيماً، وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً عَنِيداً**». ثُمَّ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**كُلُوا مِنْ جَوَانِبِهَا، وَدَعُوا ذِرْوَتَهَا يُبَارَكْ فِيهَا**»، ثُمَّ قَالَ: «**خُذُوا كُلُوا، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَيُفْتَحَنَّ عَلَيْكُمْ فَارِسُ وَالرُّومُ، حَتَّى يَكْثُرَ الطَّعَامُ فَلَا يُذْكَرُ اسْمُ الله عَلَيْهِ**»[4].

---

(١) «سيرة ابن هشام» (١/ ٢٤٨).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٠٢).

(٣) القصعة: إناء طعام كبير يشبع العشرة. «تاج العروس» (٢٤/ ٥).

(٤) «سنن أبي داود» (٣٧٧٣).

وإنما جثا ﷺ على ركبتيه حتى يتسع مكان الجلوس حول صحفة الطعام لمَّا كَثُرَ أضيافه، وإنما فعل ذلك من تواضعه لمن يجلس معهم، وهذه الجلسة على ركبتيه مما يترفع عنها الجبارون والمتكبرون، ولذا قال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ جَعَلَنِي عَبْداً كَرِيمـًا، وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً عَنِيداً**». كما أن في ذلك مظهراً لتواضع النبي ﷺ مع أضيافه وتوسعته من مكانه لهم.

ج- وقد يقل ما عند النبي ﷺ فيواسي من هذا القليل على قلته، فعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كُنْتُ جَالِسـًا فِي دَارِي، فَمَرَّ بِي رَسُولُ الله ﷺ فَأَشَارَ إِلَيَّ، فَقُمْتُ إِلَيْهِ، فَأَخَذَ بِيَدِي، فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَى بَعْضَ حُجَرِ نِسَائِهِ، فَدَخَلَ ثُمَّ أَذِنَ لِي، فَدَخَلْتُ، فَقَالَ: «**هَلْ مِنْ غَدَاءٍ؟**». قَالُوا: نَعَمْ، فَأُتِيَ بِثَلَاثَةِ أَقْرِصَةٍ مِنْ خُبْزٍ فَأَخَذَ رَسُولُ الله ﷺ قُرْصـًا فَوَضَعَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَأَخَذَ قُرْصـًا آخَرَ فَوَضَعَهُ بَيْنَ يَدَيَّ، ثُمَّ أَخَذَ الثَّالِثَ فَكَسَرَهُ بِاثْنَيْنِ، فَجَعَلَ نِصْفَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَنِصْفَهُ بَيْنَ يَدَيَّ، ثُمَّ قَالَ: «**هَلْ مِنْ أُدُمٍ؟**». قَالُوا: لَا، إِلَّا شَيْءٌ مِنْ خَلٍّ، قَالَ: «**هَاتُوهُ؛ فَنِعْمَ الإِدَامُ الخَلُّ! مَا أَقْفَرَ مِنْ أُدُمٍ بَيْتٌ فِيهِ خَلٌّ**». قَالَ جَابِرٌ: فَمَا زِلْتُ أُحِبُّ الخَلَّ مُنْذُ سَمِعْتُهَا مِنْ نَبِيِّ الله ﷺ[1].

وهنا نلحظ أن النبي ﷺ ابتدأ جابراً بالدعوة، وأتى به معه من بيته مع قلة ما عنده من طعام وهو ثلاثة أقرصة، ثم إن النبي ﷺ قسم هذا الطعام القليل حتى لا يقع جابر في الحرج أن يأكل ما يظن أنه نصيب النبي ﷺ، ولذا دفع إليه قرصـًا وأخذ قرصـًا وشق الثالث نصفين فأعطاه نصفـًا، وأبقى لنفسه نصفـًا، ولو دفعه إليه كاملاً لتحرج أن يأكل أكثر مما أكل النبي ﷺ، ولذا أعطاه نصفـًا وأخذ نصفـًا حتى تطيب نفس جابر بما أكل، وإن أُنسَ جابر بهذه الدعوة، وشعوره بإيثار الرسول ﷺ له بالقليل لا يساويه باذخات الموائد وإن زخرت بصنوف اللذائذ، فخير منها هذه اللقيمات القليلة يواسيه بها نبيه الكريم من طعامه القليل.

د- ومن ذلك: ما حدَّث به أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: انْطَلَقَ بِي رَسُولُ الله ﷺ إِلَى رَحْلِهِ، فَدَخَلَ فَوَجَدَ لَبَنـًا فِي قَدَحٍ، فَقَالَ: «**يَا أَبَا هِرٍّ، الحَقْ إِلَى أَهْلِ الصُّفَّةِ ادْعُهُمْ لِي**». فَدَعَوْتُهُمْ، ثُمَّ قَالَ: «**خُذْ فَأَعْطِهِمْ**». فَأَخَذْتُ القَدَحَ، فَجَعَلْتُ أُعْطِيهِ الرَّجُلَ، فَيَشْرَبُ حَتَّى رَوِيَ القَوْمُ كُلُّهُمْ، فَدَفَعْتُ القَدَحَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ: «**اقْعُدْ فَاشْرَبْ**». فَقَعَدْتُ فَشَرِبْتُ،

(١) «صحيح مسلم» (٢٠٥٢).

فَمَا زَالَ يَقُولُ: «**اشْرَبْ**». حَتَّى قُلْتُ: لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ، مَا أَجِدُ لَهُ مَسْلَكًا، قَالَ: «**نَاوِلْنِي القَدَحَ**». فَأَعْطَيْتُهُ القَدَحَ، فَحَمِدَ اللهَ وَسَمَّى وَشَرِبَ الفَضْلَةَ[1].

وهنا نجد أن النبي ﷺ ابتدأ أبا هريرة بالدعوة، ولما وجد اللبن دعا أهل الصفة معه، وكانت الضيافة هذا اللبن الذي أهدي له، ومن كرمه وإكرامه لضيوفه أنه بدأ بهم ليشربوا قبله، ولم يشرب حتى ارتوى آخرُهم وهو أبو هريرة، ثم شرب الفضلة بعد أن دار الإناء على أهل الصفة كلهم، كرمًا وتواضعًا.

هـ- وكان ﷺ حريصًا على أن يُقري الضيف عنده فإذا وفد عليه أحد سأل في بيوته عن الطعام فإن وجد شيئًا أطعمه وإلا عرض على أصحابه استضافته، ومن ذلك: ما حدَّث به أبو هريرة قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: إِنِّي مَجْهُودٌ، فَأَرْسَلَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى بَعْضِ نِسَائِهِ، فَقَالَتْ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ مَا عِنْدِي إِلَّا مَاءٌ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى أُخْرَى، فَقَالَتْ مِثْلَ ذَلِكَ، حَتَّى قُلْنَ كُلُّهُنَّ مِثْلَ ذَلِكَ: لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ مَا عِنْدِي إِلَّا مَاءٌ، فَقَالَ: «**مَنْ يُضِيفُ هَذَا اللَّيْلَةَ؟ رحمه الله**». فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ الأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ: أَبُو طَلْحَةَ فَقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ الله فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى رَحْلِهِ[2].

وهنا نرى النبي ﷺ أرسل إلى بيوت نسائه كلهن فاعتذرن بعدم وجود شيء عندهن، وهذا هو المتوقع فإذا لم يكن عند واحدةٍ، فلن يكون عند البقية؛ لأن بيوت النبي ﷺ كالبيت الواحد، ولكن النبي ﷺ فعل ذلك مبالغة في تطلب إكرام الضيف وإطعامه، ولم يعرض ﷺ على أصحابه استضافته إلا بعد أن طاف على بيوت نسائه كلهن يسألهن فلم يجد عندهن شيئًا، وفي هذا غاية المواساة، وهو من الإطعام في يوم ذي مسغبة.

٤- وكان يؤنس من يستضيفه ويرفع عنه الحرج والشعور بالتكلف له، فعَنْ أَبِي رَزِينٍ لَقِيطِ بْنِ صَبِرَةَ العُقَيْلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ وَافِدَ بَنِي المُنْتَفِقِ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ لَمْ نُصَادِفْهُ فِي مَنْزِلِهِ،

(١) «صحيح البخاري» (٦٤٥٢).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٠٥٤).

وَصَادَفْنَا عَائِشَةَ أُمَّ المُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَأَمَرَتْ لَنَا بِخَزِيرَةٍ[1] فَصُنِعَتْ لَنَا، وَأُتِينَا بِقِنَاعٍ، ثُمَّ جَاءَ رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ: «**هَلْ أُطْعِمْتُمْ شَيْئًا، أَوْ أُمِرَ لَكُمْ بِشَيْءٍ؟**». فَقُلْنَا: نَعَمْ يَا رَسُولَ الله قَالَ: فَبَيْنَمَا نَحْنُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ جُلُوسٌ إِذْ دَفَعَ الرَّاعِي غَنَمَهُ إِلَى المُرَاحِ[2] وَعَلَى يَدِهِ سَخْلَةٌ تَيْعَرُ[3] فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**هَلْ وَلَدَتْ يَا فُلَانُ؟**». قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «**فَاذْبَحْ لَنَا مَكَانَهَا شَاةً**». ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ: «**لَا تَحْسِبَنَّ أَنَّا ذَبَحْنَا الشَّاةَ مِنْ أَجْلِكَ، لَنَا غَنَمٌ مِئَةٌ لَا نُرِيدُ أَنْ تَزِيدَ، فَإِذَا وَلَّدَ الرَّاعِي بَهْمَةً ذَبَحْنَا مَكَانَهَا شَاةً**»[4].

فقوله له: «**لَا تَحْسِبَنَّ أَنَّا ذَبَحْنَا الشَّاةَ مِنْ أَجْلِكَ**». هو من رفع ما يمكن أن يشعر به الضيف من حرج إذا ظن أن مضيفه قد تكلَّف له، فرفع النبي ﷺ هذا الظن استطابة لنفسه وبيَّن أن ذبح هذه الشاة عادة جارية لهم وافقت قدومه.

خلاصات:

١- كان كرم الضيافة عادة متأصلة في المجتمع القرشي، وكان أجداد النبي ﷺ من أشهر كرماء قومه.

٢- عرف ﷺ بالكرم قبل النبوة كما وصفته خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

٣- ثم اتسع كرمه بعد النبوة فكان أجود بالخير من الريح المرسلة.

٤- كان ﷺ يسخو بالكثير من الكثير إذا كان عنده، ويواسي بالقليل من القليل إذا لم يجد غيره.

٥- كان ﷺ إذا لم يجد ما يضيف به ضيفه سأل أصحابه أن يضيفوه، فيسخو بماله وبشفاعته.

٦- كان يؤانس من يستضيفه، ويرفع عنه ما قد يشعر به من حرج مزيداً في الإكرام وطيب النفس.

---

(١) الخَزِيرَةُ: لَحْمٌ يُقَطَّع صِغَارًا ويُصَبُّ عَلَيْهِ ماءٌ كَثِير، فَإِذَا نَضِج ذُرَّ عَلَيْهِ الدَّقيق، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهَا لَحْمٌ فَهِيَ عَصِيدَة. ينظر: «النهاية» (٢/ ٢٨).

(٢) المُراح: الموضع الذي تروح إليه الماشية، أي: تأوي إليه ليلًا. ينظر: «النهاية» (٢/ ٢٧٣).

(٣) تيعر: من اليُعار وهو صوت الشاة. ينظر: «معالم السنن» (١/ ٥٣).

(٤) «سنن أبي داود» (١٤٢).

الرسول ﷺ ضيفاً

كانت ضيافته ﷺ الأولى في المدينة عند كلثوم بن الهدم في قباء حيث أقام أربعة عشرَ يوماً[1]، وكان يبيت عنده ويجلس في النهار في دار سعد بن خيثمة لأنه كان عزباً فيستقبل فيها القاصدين إليه.

ثم كانت ضيافته الكريمة عند أبي أيوب خالد بن زيد حيث نزل في ضيافته ستة أشهر يقاسمه منزله ويشاركه طعامه حتى بنى مسجده وحجراته.

وزيارة الناس في بيوتهم، وإجابة دعوتهم، وقبول ضيافتهم ومشاركتهم طعامهم من مفاتيح القلوب التي تفتح أغاليقها، فكيف كان حال النبي ﷺ إذا دعاه أصحابه فزارهم في بيوتهم، وآنس قلوبهم، وشاركهم طُعيِّمَهم الذي يقدمونه له، وإنا واجدون في هدي النبي ﷺ ضيفاً معالم مهمة، منها:

١- اتساع إجابة النبي ﷺ للدعوات في المدينة، حيث اتسعت مساحة هذه الزيارات لتصل إلى أطراف المدينة ونواحيها المتباعدة، فما من ناحية أو حي من أحياء الأنصار إلا وقد سعدوا بزيارة النبي ﷺ لهم وإكرامهم في دورهم.

ومن أطراف المدينة التي أجاب النبي ﷺ فيها الدعوة بنو سَلِمة ومكانهم يبعد عن المسجد النبوي قرابة (٤ كم)، فقد دعوا النبي ﷺ وقالوا: يا رسول الله عندنا جزور نريد أن ننحرها، ونريد أن تشهدها، وذلك أن نحر الجزور يعتبر احتفالية، ومناسبة سعيدة؛ لقلة اللحم عندهم، فطلبوا من النبي ﷺ أن يشهدها معهم ويشاركهم فرحتهم بها،

(١) اختلف في مدة إقامة النبي ﷺ في قباء، وهذا أحد الأقوال ولعله الأقرب.

فقال: «**نَعَمْ**». فلما صلى العصر ذهب إليهم فإذا الناقة قائمة لم تنحر بعد ينتظرون قدوم النبي ﷺ، فنحروها؛ ثم قالوا: يا رسول الله اجلس حتى تذوق من لحمها، فقطعوا من لحمها ثم طبخوه وقدموه إلى النبي ﷺ فطعم منه ثم عاد إلى المدينة فصلى فيها المغرب[١].

ودعونا نتساءل: ما شعور بني سَلِمة والنبي ﷺ يشهد معهم هذه الاحتفالية، ويأكل من طعامهم، ويشاركهم فرحتهم بنحر الجزور؟ إنه النبي الذي آتاه الله هذه البراعة وهذا الاقتدار لإسعاد النفوس وفتح مغاليق القلوب.

٢- كان ﷺ يقبل الدعوة ممن دعاه صغيراً وكبيراً، ولم يكن يزدري أحداً أو يتعالى على أحد إذا دعاه، ففي الوقت الذي يجيب فيه دعوة كبار الصحابة نجد خياطًا من الموالي يدعو النبي ﷺ، فيذهب إليه ويجيب دعوته ويأكل من طعامه[٢]، ونجد عجوزاً هي مُليكة جدة أنس بن مالك تدعو النبي ﷺ فيذهب إليها ويسعد قلبها ويأكل من طعامها[٣]، ولك أن تسأل عن مقدار السعادة التي كان النبي ﷺ يفتقها في تلك القلوب، ويبهج بها تلك النفوس.

٣- كان أصحاب النبي ﷺ إذا دعوه لا يتكلفون له ما يشق عليهم ويعسر، وإنما يقدمون له ما تيسر عندهم، فهو الذي قال: «**لَوْ دُعِيتُ إِلَى كُرَاعٍ لأَجَبْتُ**»[٤]. فهذا عتبان بن مالك يدعو النبي ﷺ إلى بيته، فيذهب النبي ﷺ إليه ويجيب دعوته فيقدم للنبي ﷺ الضيافة، فماذا كانت الضيافة؟ لقد كانت حساء دقيق فيه قطع صغيرة من اللحم يسمونها خزيرة، ويجلس لهذه الضيافة ويأكل معهم، ويدعو لهم ويصلي في بيتهم[٥].

وذاك الخياط الذي دعا النبي ﷺ فذهب إليه هو وأنس بن مالك، يقول أنس: فقدم إلينا أقراص شعير، ومرقة فيها دُبّاء وقَديد[٦]، فهذه كانت الضيافة، والعجيب أن هذا الخياط قدم لهم الطعام[٧] ثم جلس يكمل الخياطة، لانشغاله بعمله،

(١) «صحيح مسلم» (٦٢٤).
(٢) «صحيح البخاري» (٢٠٩٢)، و«صحيح مسلم» (٢٠٤١).
(٣) «صحيح البخاري» (٣٨٠)، و«صحيح مسلم» (٦٥٨).
(٤) «صحيح البخاري» (٢٥٦٨).
(٥) «صحيح البخاري» (٤٢٥)، و«صحيح مسلم» (٣٣).
(٦) الدباء: هو القرع، والقديد: هو اللحم المجفف. ينظر: «النهاية» (٢/ ٩٦) (٤/ ٢٢).
(٧) «صحيح البخاري» (٢٠٩٢)، و«صحيح مسلم» (٢٠٤١).

وهذا يدل على أن هذا الخياط لم يكن متهيباً ولا متوتراً، ولا كان يعيش حالة رهبة من النبي ﷺ، وإنما ابتهاجٌ وأنسٌ، ولذا رحب بهم وقدم لهم الضيافة ثم جلس يكمل عمله، ولا تسل عن إسعاد النبي ﷺ لقلبه بذلك، لقد كان مثل هذا الخياط المولى مزدرى عند العرب، لا يقبلون مجرد الجلوس معه، أما النبي ﷺ فيقبل دعوته، ويدخل داره، ويأكل من طعامه، إنها العظمة الأخلاقية للنبي ﷺ.

٤- كان النبي ﷺ إذا زار قوماً وأسعدهم بمشاركتهم طعامهم فإنه كان يسعدهم أيضاً بالدعاء لهم، يقول عبد الله بن بسر: قدم علينا النبي ﷺ فقدمنا له طعاماً فأصاب منه، ثم قدمنا له شراباً فأصاب منه، فلما أراد أن يخرج قال له أبي: يا رسول الله ادع لنا. قال: «**اللهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِيمَا رَزَقْتَهُمْ وَاغْفِرْ لَهُمْ وَارْحَمْهُمْ**»[(١)].

وذهب إلى سعد بن عبادة فقدم له أقراصاً من شعير فقال له النبي ﷺ: «**أَفْطَرَ عِنْدَكُمُ الصَّائِمُونَ وَأَكَلَ طَعَامَكُمُ الأَبْرَارُ وَصَلَّتْ عَلَيْكُمُ المَلَائِكَةُ**»[(٢)].

وذهب مرة إلى جابر بن عبد الله يزوره فقدم له ضيافة فلما أراد أن يخرج خرجت امرأة جابر فقالت: يا رسول الله صلى الله عليك، صلِّ عليَّ وعلى زوجي. قال: «**اللهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِمْ**»[(٣)].

يا لله ما هي السعادة التي غمرت قلب هذه المرأة والنبي يصلي عليها وعلى زوجها، ما البركة التي غمرت حياتهم بصلاة النبي ﷺ عليهم.

٥- كان ﷺ يجيب دعوة المسلم وغير المسلم ولم يكن يأنف أن يجيب دعوة غير المسلمين إذا دعوه، فدعاه يهودي على أقراص من شعير وإهالة سنخة وهي شحم مذاب قد تغيرت رائحته، فأجاب الدعوة[(٤)]، وعندما فتح خيبر دعته امرأة يهودية على طعام فقدمته وكان شاةً مسمومة، فأجاب الدعوة[(٥)] ولم يعلم أنها مسمومة حتى أكل منها.

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٠٤٢).
(٢) «سنن أبي داود» (٣٨٥٤).
(٣) «سنن أبي داود» (١٥٣٣).
(٤) «صحيح البخاري» (٢٠٦٩).
(٥) «صحيح البخاري» (٢٦١٧)، و«صحيح مسلم» (٢١٩٠).

٦- ومن الذوق النبوي في الزيارة أنه كان يستأذن عند الباب ثلاثاً، فإن أُذن له وإلا انصرف، يقول أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: استأذن رسول الله ﷺ على سعد بن عبادة، فقال: «**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ الله**». فقال سعد: وعليك السلام ورحمة الله، ولم يسمع النبي ﷺ حتى سلم ثلاثا، ورد عليه سعد ثلاثا ولم يسمعه. فرجع رسول الله ﷺ، فاتبعه سعد فقال: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، ما سلمت تسليمة إلا هي بأذني، ولقد رددت عليك، ولم أُسمعك، أحببت أن أستكثر من سلامك ومن البركة[١].

٧- ومن الذوق الرفيع في الزيارة أنه كان إذا وقف على باب من يزوره لا يقف مقابل الباب ولكن ينحرف عنه يميناً أو شمالاً حتى لا ينكشف من داخل البيت إذا فتح بابه ما لا تحسُن رؤيته فيحرج ذلك صاحب البيت[٢].

٨- وكان النبي ﷺ يسعد من يزورهم ويشعرهم بأن الذي قدموه شيء أسعده، دعاه جابر وقدم له لحماً فنظر إليه النبي ﷺ ثم قال: «**جَابِرُ! كَأَنَّكَ عَلِمْتَ اشْتِهَاءَنَا اللَّحْمَ؟**»[٣]. يا الله كيف تكون سعادة جابر وهو يشعر أن ضيافته لاقت شهوة النبي ﷺ وحبه.

وزار مرة أبا الهيثم بن التيهان ومعه أبو بكر وعمر فقدم لهم ماءً وعذقاً فيه رطب وبسر وتمر فقال النبي ﷺ لأصحابه: «**لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ يَوْمَ القِيَامَةِ؛ ظِلٌّ بَارِدٌ، وَمَاءٌ بَارِدٌ، وَتَمْرٌ طَيِّبٌ**»[٤]، إنه يصف هذا الطعام بالنعيم، فما وَقْع ذلك على مضيفهم أبي الهيثم بن التيهان وهو يسمع ثناء النبي ﷺ على ضيافته؟ إنه النبي الذي أوتي هذه المهارة الفائقة في إسعاد الناس وإبهاج قلوبهم ومشاركتهم فعاليات حياتهم.

٩- وكان من هديه الاستئذان لمن تبعه ولم يكن مدعواً حتى لا يحرج صاحب الدعوة بحضور من لم يستعد له، ومن ذلك: أن رجلاً من الأنصار يُقَالُ لَهُ: أَبُو شُعَيْبٍ، وَكَانَ لَهُ غُلَامٌ لَحَّامٌ،

---

(١) «مسند أحمد» (١٢٤٠٦).

(٢) «سنن أبي داود» (٥١٨٦).

(٣) «مسند أحمد» (١٤٢٤٥)، و«مسند الدارمي» (٤٦)، و«صحيح ابن حبان» (٩٨٤).

(٤) «جامع الترمذي» (٢٣٦٩).

فَقَالَ له: اصْنَعْ لِي طَعَامًا، أَدْعُو رَسُولَ الله ﷺ خَامِسَ خَمْسَةٍ، فَدَعَا رَسُولَ الله ﷺ خَامِسَ خَمْسَةٍ، فَتبِعَهُمْ رَجُلٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّكَ دَعَوْتَنَا خَامِسَ خَمْسَةٍ، وَهَذَا رَجُلٌ قَدْ تَبِعَنَا، فَإِنْ شِئْتَ أَذِنْتَ لَهُ، وَإِنْ شِئْتَ تَرَكْتَهُ**»، قَالَ: بَلْ أَذِنْتُ لَهُ[1].

وعَنْ أَنَسٍ، أَنَّ جَاراً لِرَسُولِ الله ﷺ فَارِسِيًا كَانَ طَيِّبَ المَرَقِ، فَصَنَعَ لِرَسُولِ الله ﷺ، ثُمَّ جَاءَ يَدْعُوهُ، فَقَالَ: «**وَهَذِهِ؟**». لِعَائِشَةَ، فَقَالَ: لَا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَا**». فَعَادَ يَدْعُوهُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**وَهَذِهِ؟**». قَالَ: لَا، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَا**». ثُمَّ عَادَ يَدْعُوهُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**وَهَذِهِ؟**». قَالَ: نَعَمْ فِي الثَّالِثَةِ، فَقَامَا يَتَدَافَعَانِ حَتَّى أَتَيَا مَنْزِلَهُ[2].

وإنما اشترط حضور عائشة معه لأن الدعوة كانت بحضرتها، ولعل بها من الجوع وشهوة الطعام ما به، فكره ﷺ الاختصاص بالطعام دونها، وهذا من جميل المعاشرة، وحقوق المصاحبة، وآداب المجالسة.

وأما الداعي فلعله اعتذر أولاً لأن حاله لم يكن مهيئًا لذلك فإن دعوة الرجل وامرأته تحتاج إلى تهيئة مناسبة، فلما تمكن من تهيئتها دعاهما جميعًا.

وهذا المعنى يتأكد في حال الناس في ذلك الناس، حيث الطعام قليل والداعي عادة إنما يستعد بالطعام لمن دعاهم كفافًا، فإذا جاء من لم يدع أحرجه ذلك وقصر الطعام على المدعويين.

وأما إذا تغيرت الحال وصارت أمور الناس متيسرة وعُرِفَ فرح الداعي بالحضور تغير الحكم بتغير الحال، فإن الغالب مع تيسر الأحوال ووفرة المال أن من حضر من غير دعوة يكون هو صاحب المكرمة والفضل لمبادرته بالحضور، وهذه أمور يضبطها حال الناس وعرفهم.

١٠- وكانت دعوات الصحابة للنبي ﷺ بدافع المحبة له والتبرك به والتشرف بزيارته، وربما حملهم على ذلك التفاعل النفسي مع ما يرونه على النبي ﷺ من علامات الجهد والجوع الظاهرة عليه، كما في حديث أبي طلحة حين رآه مع أهل الصفة، أو حال أبي شعيب الأنصاري حينما رآه كذلك.

---

(١) «صحيح البخاري» (٥٤٣٤)، و«صحيح مسلم» (٢٠٣٦).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٠٣٧).

ومن ذلك: خبر جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَبِثْنَا يَوْمَ الخَنْدَقِ نَحْفِرُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لَا نَذُوقُ ذَوَاقًا فَحَانَتْ مِنِّي التِفَاتَةٌ، فَإِذَا رَسُولُ الله ﷺ قَدْ شَدَّ عَلَى بَطْنِهِ حَجَراً مِنْ الجُوعِ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله ائْذَنْ لِي إِلَى البَيْتِ، فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي: رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ ﷺ خَمَصاً[1] شَدِيداً، فَهَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ؟ قَالَتْ: عِنْدِي شَعِيرٌ وَعَنَاقٌ فَذَبَحْتُ العَنَاقَ، وَطَحَنَتْ الشَّعِيرَ، حَتَّى جَعَلْنَا اللَّحْمَ فِي البُرْمَةِ ثُمَّ جِئْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَالعَجِينُ قَدْ انْكَسَرَ وَالبُرْمَةُ بَيْنَ الأَثَافِيِّ قَدْ كَادَتْ أَنْ تَنْضَجَ فَسَارَرْتُهُ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله طُعَيِّمٌ لِي، فَقُمْ أَنْتَ وَرَجُلٌ أَوْ رَجُلَانِ، فَقَالَ: «**كَمْ هُوَ؟**». فَذَكَرْتُ لَهُ، فَقَالَ: «**كَثِيرٌ طَيِّبٌ، فَقُلْ لَهَا لَا تَنْزِعْ البُرْمَةَ وَلَا الخُبْزَ مِنْ التَّنُّورِ حَتَّى آتِيَ**». ثُمَّ صَاحَ رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ: «**يَا أَهْلَ الخَنْدَقِ، إِنَّ جَابِراً قَدْ صَنَعَ سُوراً**[2]**، فَحَيَّ هَلًا بِكُمْ**». قَالَ: فَقَامَ المُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ، فَلَمَّا دَخَلْتُ عَلَى امْرَأَتِي قُلْتُ: وَيْحَكِ، جَاءَ رَسُولُ الله ﷺ بِالمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَمَنْ مَعَهُمْ فَقَالَتْ: بِكَ وَبِكَ، فَقُلْتُ: قَدْ فَعَلْتُ الَّذِي قُلْتِ، وَجَاءَ رَسُولُ الله ﷺ يَقْدُمُ النَّاسَ فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: «**ادْخُلُوا وَلَا تَضَاغَطُوا**». فَأَخْرَجْتُ لَهُ عَجِيناً، فَبَصَقَ فِيهِ وَبَارَكَ، ثُمَّ عَمَدَ إِلَى بُرْمَتِنَا، فَبَصَقَ وَبَارَكَ، ثُمَّ قَالَ: «**ادْعُ خَابِزَةً فَلْتَخْبِزْ مَعِي**». فَجَعَلَ يَكْسِرُ الخُبْزَ، وَيَجْعَلُ عَلَيْهِ اللَّحْمَ، وَيُخَمِّرُ البُرْمَةَ وَالتَّنُّورَ إِذَا أَخَذَ مِنْهُ، وَيُقَرِّبُ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَلَمْ يَزَلْ يَكْسِرُ الخُبْزَ وَيَغْرِفُ وَهُمْ ألفٌ فَأُقْسِمُ بِالله لَقَدْ أَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا، فَتَرَكُوهُ، وَإِنَّ بُرْمَتَنَا لَتَغِطُّ كَمَا هِيَ، وَإِنَّ عَجِينَنَا لَيُخْبَزُ كَمَا هُوَ، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ الله ﷺ: «**كُلُوا هَذَا وَأَهْدُوا؛ فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ أَصَابَتْهُمْ مَجَاعَةٌ**»[3].

ونلاحظ أن النبي ﷺ في حديث أبي طلحة وجابر دعا جمعًا لم يدعهم المضيف وفاجأه بهم، وذلك لما علم ﷺ من حاجة الناس ومن البركة الإلهية التي سينزلها الله في هذا الطعام بحيث يكفي القليل منه الفئام الكثيرة من الناس، وكانت هذه المعجزة تقع أمام أصحابه وتحت سمعهم وبصرهم ليزداد الذين آمنوا إيمانا، وليكون في ذلك مزيد يقين وثبات،

(١) خمصاً: أي ضموراً في بَطْنه من الْجُوع. ينظر: «فتح الباري» (١/ ١١٤).

(٢) السور بغير همز: الصنيع من الطعام الذي يدعى إليه، وقيل: الطعام مطلقا. ينظر: «فتح الباري» (٦/ ٢١٣).

(٣) «صحيح البخاري» (٤١٠١)، و«صحيح مسلم» (٢٠٣٩).

فهو من تثبيت الله لهم في هذه الشدائد والكروب، ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [ابراهيم: ٢٧].

كما نرى حال النبي ﷺ وهو يباشر بنفسه معونة أصحاب الضيافة ومشاركتهم في تهيئة الطعام وإعداده وتقديمه، وكأنه من أهل الدار، فيا لله أيُّ سعادة تغمرهم وهو ﷺ يدلي يده مع أيديهم معونة وبركة.

خلاصات:

١- كان ﷺ يقبل الدعوة من كل من دعاه، الرجال والنساء والموالي وغير المسلمين.

٢- لم يكن الذين يدعونه يتكلفون له وإنما يصنعون له ما تيسَّر عندهم.

٣- كان يجيب الدعوة إلى نواحي المدينة المتباعدة، ولذا سعد أهل كل ناحية بزياراته لهم.

٤- كان من هديه الاستئذان لمن تبعه ممن لم يُدع حتى يرفع الحرج عن الداعي.

٥- كانت دعوات الصحابة للنبي ﷺ بداعي الحب له والتبرك بزيارته وربما كانت للتأثر بحاله إذا رأوا عليه مظاهر الجهد والجوع.

٦- كان يستأذن على الباب ثلاثاً، ويقف متجافياً عن الباب ولا يواجهه.

٧- كان يدعو لمن زارهم وأكل عندهم ويظهر التلذذ بضيافتهم وما قدموه له.

الرسول ﷺ وأصحابه

أولاً: كم استوقفني هذا اللقب الشريف وما فيه من دلالة وإيحاء: صحابة رسول الله ﷺ.

إن لهذه التسمية الشريفة معناها الذي توحي به، وهو الاستقلالية، واستواء الشخصية مع النبي ﷺ، فلم يوصفوا بالأتباع ولا بالمريدين ولا الطلاب، ولكن الأصحاب الذين معه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [الفتح: ٢٩].

وكان الذي اختار لهم هذا الاسم الذي هو وسام شرف ولقب تشريف هو النبي ﷺ، فقد وقف ﷺ على قبور أصحابه في البقيع فسلم عليهم ودعا لهم ثم قال: «**وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا**». فقال أصحابه حوله: أَوَلَسْنَا إِخْوَانَك يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «**أَنْتُمْ أَصْحَابِي، وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ**»(١)، وكما سماهم أصحابه سمى نفسه صاحبهم، فقال وهو يصف أباه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**وَأَمَّا إِبْرَاهِيمُ، فَانْظُرُوا إِلَى صَاحِبِكُمْ**»(٢).

وكما كانت هذه التسمية التي سماهم بها لها هذه الدلالة، فكذلك كان تعامله معهم وفق هذه الحالة، وهي الصحبة التي يصف الله معالمها في قوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

(١) «صحيح مسلم» (٢٤٩).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٣٥٥)، و«صحيح مسلم» (١٦٦).

فهذه الآية كما هي ثناء على الخُلُقِ النبوي العظيم في التعامل مع الصحابة فهي ثناء على شخصيات الصحابة وأنهم لو عوملوا بغلظة لأَنَفُوا ونفروا، وذلك لكمال شخصياتهم، وأنهم اتبعوا النبي ﷺ إيمانًا واقتناعًا وليس عسفًا وإكراهًا، ولذا كانوا حول النبي بكامل شخصياتهم، وقد أطلق لهم ﷺ آفاق الاقتدار فكان كل منهم حاضراً باستواء، ليس فيهم منتقص الشخصية، ولا مقموع المواهب، ومع أنهم حول النبي ﷺ إلا أن وهج شمسه لم تطفئ أنوار نجومهم، وهذا خلاف ما تراه في كثير من الشخصيات القيادية التي تطمس مواهب من حولها، وتمتص قدراتهم، وتذيبهم في شخصية القائد.

أما أصحاب النبي ﷺ فكان وجودهم حوله فرصة لاستثارة مواهبهم وميزاتهم، وامتدادهم بكامل لياقتهم، فكان أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وأبو عبيدة وسلمان الفارسي وبلال الحبشي ومعاذ بن جبل وأبو موسى الأشعري وأبو ذر الغفاري وأبو هريرة الدوسي بكامل شخصياتهم حول النبي ﷺ، وبحضورهم الفاعل المميز في حياته، ولكلٍ مساره ومواهبه حتى لنجد سلمان الفارسي وهو حديث عهد بحرّيّة يشارك في غرفة القيادة قبل معركة الأحزاب، ويشير بالخطة العسكرية فتعتمد وتنفذ، ولم تغمر شخصيته ولا رأيه.

ويمر ﷺ في الطريق بجمع من أصحابه جلوس في فناء على الطريق فيقول: «**إِيَّاكُمْ وَالجُلُوسَ فِي الطُّرُقَاتِ**». قَالُوا: يَا رَسُولَ الله مَا لَنَا بُدٌّ مِنْ مَجَالِسِنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا المَجْلِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ**». قَالُوا: وَمَا حَقُّهُ؟ قَالَ: «**غَضُّ البَصَرِ، وَكَفُّ الأَذَى، وَرَدُّ السَّلَامِ وَالأَمْرُ بِالمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ**»[1].

إن هذا الحوار يبين كيف كان الصحابة في حال حوار حيوي مع النبي ﷺ، وتفاعل مع التوجيه حين يتلقونه منه، فعرضوا وجهة نظرهم، وفقهوا أن هذا النهي مقصودٌ لغيره وليس مقصودا لذاته، ولذا أبدوا رأيهم، وتلقاه النبي ﷺ فاستجاب لهم مع إعطائهم ضوابط لهذه الحالة.

(١) «صحيح مسلم» (٢١٢١).

ومثل ذلك: مبادرة الحباب بن المنذر يوم بدر حين قال عن منزل النبي ﷺ: أهو منزل أنزلكه الله أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال ﷺ: «**بَلْ هُوَ الرَّأْيُ وَالحَرْبُ وَالمَكِيدَةُ**»(١). فقال: ليس هو المنزل يا رسول الله، واقترح على النبي ﷺ أن ينزل في الماء الذي يلي القوم حتى يمنعهم مما وراءه، فاستجاب له النبي ﷺ وصوب رأيه.

وقد كان النبي ﷺ يستثير استقلالية الشخصية لديهم بكثرة المشورة لهم حتى قال أبو هريرة: ما كان أحد أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ(٢).

ثانيًا: نجد صحابة النبي ﷺ منذ بداية الدعوة الأولى متنوعين في أجناسهم وقبائلهم وبلدانهم، ففي طلائع البعثة النبوية في مكة كان معه أبو بكر القرشي، وبلال الحبشي، وابن مسعود الهذلي، وسالم مولى أبي حذيفة الفارسي، وصهيب الرومي، وأبو ذر الغفاري، ومنهم أهل المدن والأعراب فكان الصحابة تجمعا عالميا منذ بدايات الدعوة وإشراقها الأول(٣)، ثم كثر هذا التنوع بعد الهجرة، وكانت الصُفَّة تجمع النزّاع من القبائل، ثم بعد الفتح استقبل الوفود من جميع أنحاء الجزيرة ومع ذلك استوعب ﷺ هؤلاء كلهم على تنوعهم واحتواهم جميعا، ولم يشعر أحد بالبعد ولا الغربة بمحضر النبي ﷺ.

ثالثًا: الحضور النبوي في حياتهم، فكان ﷺ مشاركًا لهم في أفراحهم وآلامهم وأحزانهم، والمتأمل لحال النبي ﷺ في تواصله مع أصحابه ومشاركته لهم يشعر وكأن النبي ﷺ كان متفرغًا لهذا الأمر بكليته وكل وقته، فهو يقصدهم بالزيارة، ويجيب دعوتهم، ويشهد أفراحهم، فهؤلاء بنو سَلِمة يدعون رسول الله ﷺ ليشهد عندهم نحر جزور، وكان نحر الجزور مناسبةً لها احتفاليتها لقلة اللحم عندهم، ولذا دعوا النبي ﷺ لشهود هذه المناسبة فحضر إليهم بعد صلاة العصر والجزور لما تنحر، فنحرت ثم احتبسوا النبي ﷺ حتى يأكل منها(٤)، فإذا كان النبي ﷺ يشاركهم فرحة هذه المناسبة ويؤنسهم بالأكل منها فما بالك بأفراحهم في زواجهم ومسراتهم؟

---

(١) «المستدرك» (٥٨٠١).

(٢) «جامع الترمذي» (١٧١٤).

(٣) وللدكتور محمد أفندي أوغلو بحث عن الصحابة من غير العرب فذكر أن منهم (٤٥) من الأحباش، و(١٧) من الفرس، و(٨) من القبط، و(٧) من الروم، و(٤٣) من بني إسرائيل.

(٤) «صحيح مسلم» (٦٢٤).

ومن مشاركتهم أفراحهم ما حدث به أبو أسيد الساعدي أنه دَعَا النَّبِيَّ ﷺ لِعُرْسِهِ، فَكَانَتِ امْرَأَتُهُ خَادِمَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَهِيَ العَرُوسُ، فَقَالَتْ أَوْ قَالَ: أَتَدْرُونَ مَا أَنْقَعَتْ لِرَسُولِ الله ﷺ؟ أَنْقَعَتْ لَهُ تَمَرَاتٍ مِنَ اللَّيْلِ فِي تَوْرٍ[1]، فانظر إلى يسر الحياة مع الرسول ﷺ، فهذه دعوة لعرس والخادم هي العروس، والضيافة ماءٌ نقعت فيه تمرات.

وعن الربيع بنت معوذ قالت: دَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ غَدَاةَ بُنِيَ عَلَيَّ[2]، فَجَلَسَ عَلَى فِرَاشِي، وَجُوَيْرِيَاتٌ يَضْرِبْنَ بِالدُّفِّ، يَنْدُبْنَ مَنْ قُتِلَ مِنْ آبَائِهِنَّ يَوْمَ بَدْرٍ، حَتَّى قَالَتْ جَارِيَةٌ: وَفِينَا نَبِيٌّ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا تَقُولِي هَكَذَا، وَقُولِي مَا كُنْتِ تَقُولِينَ**»[3]. إنها دعوة عرس ولم يكن ثم فراش يجلس عليه إلا فراش العروس، فيشركهم فرحهم، ويسمع غناء الجواري حوله، لتبقى ذكرى الزيارة خالدة تُحدث بها هذه العروس التابعين إذا زاروها.

وكما كان يؤنسهم في أفراحهم كان يشاركهم آلامهم ويعودهم في أمراضهم يقول جَابِر بن عَبْدِ الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: مَرِضْتُ مَرَضًا، فَأَتَانِي النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُنِي، وَأَبُو بَكْرٍ، وَهُمَا مَاشِيَانِ، فَوَجَدَانِي أُغْمِيَ عَلَيَّ، فَتَوَضَّأَ النَّبِيُّ ﷺ ثُمَّ صَبَّ وَضُوءَهُ عَلَيَّ، فَأَفَقْتُ. فَإِذَا النَّبِيُّ ﷺ[4]. ولك أن تتخيل شعور جابر ومشاعره حين يفيق من إغمائه فإذا النبي ﷺ أمامه وأنوار وجهه تغمره.

وعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: اشْتَكَى سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ شَكْوَى لَهُ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ مَعَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، وَسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، وَعَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ فَوَجَدَهُ فِي غَاشِيَةِ أَهْلِهِ، فَقَالَ: «**قَدْ قَضَى؟**». قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ الله، فَبَكَى النَّبِيُّ ﷺ، فَلَمَّا رَأَى القَوْمُ بُكَاءَ النَّبِيِّ ﷺ بَكَوْا[5]. ولك أن تتخيل شعور سعد بن عبادة عندما يفيق من إغمائه فيعلم أن النبي ﷺ زاره، وأن دموعه تناثرت شفقةً عليه، وما أثر هذا المشهد على أبناء سعد وقرابته؟ إنها مشاهد آسرة للقلوب.

---

(١) «صحيح البخاري» (٥١٨٣). والتَّوْر: إناء من صُفر أو حجارة. ينظر: «النهاية» (١/ ١٩٩).

(٢) غداة بُنِي عَلَيَّ، أي: صبيحة عرسي.

(٣) «صحيح البخاري» (٤٠٠١).

(٤) «صحيح البخاري» (٥٦٥١)، و«صحيح مسلم» (١٦١٦).

(٥) «صحيح البخاري» (١٣٠٤)، و«صحيح مسلم» (٩٢٤).

وكانت مشاعره تتفاعل مع أفراحهم ومباهجهم فيغمره الفرح، ويطفح السرور على وجهه، فعندما نزلت توبة الله على كعب بن مالك بعد تخلفه عن غزوة تبوك توجَّه قاصداً مسجد رسول الله ﷺ ليسلم عليه، قال كعب: فلما سلَّمتُ عليه قال: «**أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُذْ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ**». فقلت: أمِنْ عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: «**لَا؛ بَلْ مِنْ عِنْدِ اللهِ**». وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه، حتى كأن وجهه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه[1]. فهذا السرور الطافح على محياه فرحٌ لهم.

وقالت عائشة: دخل عليَّ رسول الله ﷺ ذات يوم مسروراً تبرق أسارير وجهه، فقال: «**يَا عَائِشَةُ! أَلَمْ تَرَيْ أَنَّ مُجَزِّزاً الْمُدْلِجِيَّ دَخَلَ فَرَأَى أُسَامَةَ وَزَيْداً، وَعَلَيْهِمَا قَطِيفَةٌ، قَدْ غَطَّيَا رُؤُوسَهُمَا وَبَدَتْ أَقْدَامُهُمَا، فَقَالَ: إِنَّ هَذِهِ الأَقْدَامَ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ**»[2].

فحصل منه هذا الفرح لقول مجزِّز وهو معروف بالقيافة وإلحاق النسب؛ لأن زيداً والد أسامة، وزيد أبيض وأسامة أسود، فكان ذلك مما يُرجِف به مَن يطعنون في نسب أسامة، ففرح النبي ﷺ بكلام القائف، حتى جاء يبشر عائشة مسروراً بذلك وطفح السرور على محياه فاستنار وجهه حتى كأن ضياءَ البرقِ يسطعُ في أسارير جبينه فرحـًا لأسامة وزيد؛ لأنه سمع ما يدفع عنهما هذه المطاعن.

إن هذا التمازج المشاعري بينه ﷺ وبين وأصحابه جعلت أفراحه وأحزانه معهم ولهم، فعاشوا في وجدانه حبـًا، وفي مشاعره فرحـًا وحزنـًا.

ويجمع وصف النبي ﷺ في حضوره في حياة أصحابه، وخلطته بهم، والقيام بأمرهم قول عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنا والله قد صحبنا رسول الله ﷺ في السفر والحضر، وكان يعود مرضانا، ويتبع جنائزنا، ويغزو معنا، ويواسينا بالقليل والكثير[3].

رابعـًا: حضورهم في حياته بالسؤال عنهم وتفقدهم، وإنك لتعجب من كثرة مشاغل النبي ﷺ وضخامة مسؤولياته وكثرة الأصحاب حوله ثم نجده يسأل عمن يفتقده،

(١) «صحيح البخاري» (٤٤١٨)، و«صحيح مسلم» (٢٧٦٩).
(٢) «صحيح البخاري» (٦٧١١)، و«صحيح مسلم» (١٤٥٩).
(٣) «مسند أحمد» (٥٠٤).

ويتفقد من غاب عنه، فها هو يخرج إلى تبوك ومعه ثلاثون ألفاً فلما وصل تبوك سأل فقال: «**مَا صَنَعَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ؟**»[1]، فكيف فقده مع أشغال السفر ووعثائه وكثرة الجيش معه؟!

وفي حجة الوداع ومعه أكثر من مئة ألف يفتقد سعد بن أبي وقاص فيعوده وهو مريض ويدعو له ويبشره[2]، ويبقى المشهد خالداً في وجدان سعد يتذكره ويرويه إلى أن توفي بعد نصف قرن من تلك الزيارة.

وعن مُعَاوِيَةَ بْنَ قُرَّةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كَانَ نَبِيُّ الله ﷺ إِذَا جَلَسَ يَجْلِسُ إِلَيْهِ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَفِيهِمْ رَجُلٌ لَهُ ابْنٌ صَغِيرٌ يَأْتِيهِ مِنْ خَلْفِ ظَهْرِهِ، فَيُقْعِدُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَهَلَكَ فَامْتَنَعَ الرَّجُلُ أَنْ يَحْضُرَ الحَلْقَةَ لِذِكْرِ ابْنِهِ، فَحَزِنَ عَلَيْهِ، فَفَقَدَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «**مَا لِي لَا أَرَى فُلَانًا؟**». قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، بُنَيُّهُ الَّذِي رَأَيْتَهُ هَلَكَ، فَلَقِيَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَسَأَلَهُ عَنْ بُنَيِّهِ، فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ هَلَكَ، فَعَزَّاهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «**يَا فُلَانُ، أَيُّمَا كَانَ أَحَبَّ إِلَيْكَ أَنْ تَمَتَّعَ بِهِ عُمُرَكَ، أَوْ لَا تَأْتِي غَداً إِلَى بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ إِلَّا وَجَدْتَهُ قَدْ سَبَقَكَ إِلَيْهِ يَفْتَحُهُ لَكَ**». قَالَ: يَا نَبِيَّ الله، بَلْ يَسْبِقُنِي إِلَى بَابِ الجَنَّةِ فَيَفْتَحُهَا لِي لَهُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ، قَالَ: «**فَذَاكَ لَكَ**»[3].

فانظر كيف فقده حين غاب فسأل عنه، ثم سأله حين لقيه، ثم عزَّاه بولده وواساه وبشره بالمثوبة وعظيم الجزاء.

وعندما رجع النبي ﷺ من حجة الوداع جاءته أم معقل فلما سلمت عليه قال لها: «**يَا أُمَّ مَعْقِلٍ! مَا مَنَعَكِ أَنْ تَخْرُجِي مَعَنَا؟**». قالت: يا رسول الله، لقد تهيأنا، فهلك أبو معقل، وكان لنا جمل وهو الذي نحج عليه فأوصى به أبو معقل في سبيل الله، فقال: «**فَهَلَّا خَرَجْتِ عَلَيْهِ، فَإِنَّ الحَجَّ فِي سَبِيلِ الله، فَأَمَّا إِذْ فَاتَتْكِ هَذِهِ الحَجَّةُ مَعَنَا فَاعْتَمِرِي فِي رَمَضَانَ فَإِنَّهَا كَحَجَّةٍ**»[4].

ولك أن تتخيل أثر سؤال النبي ﷺ على أم معقل: «**مَا لَكِ لَمْ تَحُجِّي مَعَنَا؟**». كيف فقدها ومعه الألوف الزاحفة؟ كيف فقدها وهو المشغول بشأن الناس كلهم؟

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٤١٨)، و«صحيح مسلم» (٢٧٦٩).

(٢) «صحيح البخاري» (١٦٢٨)، و«صحيح مسلم» (١٦١٦).

(٣) «السنن الكبرى» للنسائي (٢٠٨٨).

(٤) «سنن أبي داود» (١٩٨٩).

كيف فقدها ثم ها هو الآن يسألها؟ لا أستطيع أن أتخيل فرحها وزهوها بهذا السؤال، وشعورها باهتمام النبي ﷺ بها.

إنها البراعة النبوية في إشعار كل أحد بأهميته، حتى تجد امرأة من عامة المسلمين مكانها من اهتمام النبي ﷺ وتفقده وسؤاله، فليس أحد في حياة النبي مغموراً أو مهمشاً!

فكل من غاب عن النبي ﷺ من أصحابه فهو حاضر عنده بالسؤال عنه، ومعرفة حاله وتعاهده، فعن أنس بن مالك أن فتى من الأنصار قال: يَا رَسُولَ الله، إِنِّي أُرِيدُ الجِهَادَ وَلَيْسَ عندي مَا أَتَجَهَّزُ بِهِ، قَالَ: «**اذْهَبْ إِلَى فُلَانٍ الأَنْصَارِيِّ؛ فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ تَجَهَّزَ فَمَرِضَ**». فَأَتَاهُ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ الله يُقْرِئُكَ السَّلَامَ وَيَقُولُ: أَعْطِنِي الَّذِي تَجَهَّزْتَ بِهِ، قَالَ: يَا فُلَانَةُ، أَعْطِيهِ الَّذِي تَجَهَّزْتُ بِهِ، وَلَا تَحْبِسِي عَنْهُ شَيْئًا، فَوَالله لَا تَحْبِسِي مِنْهُ شَيْئًا فَيُبَارَكَ لَكِ فِيهِ[1].

وهنا ترى معرفة النبي ﷺ بحال هذا الأنصاري وأنه تجهز واستعد للجهاد ثم مرض، ولذا أرسل الفتى إليه، وهذه المعرفة لا تكون إلا عن متابعة واهتمام بحاله.

خامساً: استيعابه لهم جميعاً واتساع حياته حتى شمل صغيرهم وكبيرهم واحتوى ضعفاءهم ومساكينهم، وواسى فقراءهم، وشملهم جميعاً بره وإحسانه، ولم يكن أحد منهم يشعر بإقصاء أو تهميش أو دونية مهما كان شأنه.

وكان يقول: «**هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعَفَائِكُمْ**»[2].

وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ بْنِ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ، أَنَّ مِسْكِينَةً مَرِضَتْ، فَأُخْبِرَ رَسُولُ الله ﷺ بِمَرَضِهَا، وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَعُودُ المَسَاكِينَ، وَيَسْأَلُ عَنْهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِذَا مَاتَتْ فَآذِنُونِي بِهَا**». فَخُرِجَ بِجَنَازَتِهَا لَيْلاً، فَكَرِهُوا أَنْ يُوقِظُوا رَسُولَ الله ﷺ، فَلَمَّا أَصْبَحَ رَسُولُ الله ﷺ أُخْبِرَ بِالَّذِي كَانَ مِنْ شَأْنِهَا، فَقَالَ: «**أَلَمْ آمُرْكُمْ أَنْ تُؤْذِنُونِي بِهَا؟**». فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله كَرِهْنَا أَنْ نُخْرِجَكَ لَيْلاً وَنُوقِظَكَ، فَخَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ، حَتَّى صَفَّ بِالنَّاسِ عَلَى قَبْرِهَا، وَكَبَّرَ أَرْبَعَ تَكْبِيرَاتٍ[3].

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٨٩٦).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٨٩٦).

(٣) «السنن الكبرى» للنسائي (١٩٠٧).

وعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إِنْ كَانَتِ الأَمَةُ مِنْ إِمَاءِ أَهْلِ المَدِينَةِ لَتَأْخُذُ بِيَدِ رَسُولِ الله ﷺ فَتَنْطَلِقُ بِهِ حَيْثُ شَاءَتْ[1].

سادسًا: وكان ﷺ شديد الرعاية لعلاقاتهم بحمايتها من تداعيات النزاع والاختلاف، ولذا يسعى في الإصلاح واحتواء الخلاف عند أي بادرة نزاع، ومن ذلك: سعيه إلى الإصلاح بين بني عمرو بن عوف لما حصلت بينهم الخصومة، فعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ صَاحِبِ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: أَتَى رَسُولَ الله ﷺ آتٍ فَقَالَ: إِنَّ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ قَدْ اقْتَتَلُوا وَتَرَامَوْا بِالحِجَارَةِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ الله ﷺ لِيُصْلِحَ بَيْنَهُمْ، وَحَانَتِ الصَّلَاةُ، فَأَقَامَ بِلَالٌ الصَّلَاةَ، وَتَقَدَّمَ أَبُو بَكْرٍ، فَلَمَّا دَخَلَ فِي الصَّلَاةِ جَاءَ رَسُولُ الله ﷺ مِنْ حَيْثُ ذَهَبَ، فَجَعَلَ يَتَخَلَّلُ الصُّفُوفَ حَتَّى بَلَغَ الصَّفَّ[2].

ويظهر في ذلك مسارعة النبي ﷺ إلى الإصلاح بين أصحابه مع أن هؤلاء في مكان بعيد، فإن منازل بني عمرو بن عوف في قباء جنوب المدينة وهي نائية عن مسجده، ومع ذلك ذهب إليهم من فوره وبقي عندهم حتى أصلح بينهم ولم يرجع إلى مسجده إلا وقد استبطأه الناس وأقاموا صلاتهم.

وكل ذلك مبادرة منه ﷺ إلى الإصلاح قبل أن يتطور الخلاف وتشتد الخصومة.

وعَنْ كَعْب بن مالك، أَنَّهُ تَقَاضَى ابْنَ أَبِي حَدْرَدٍ دَيْنًا كَانَ لَهُ عَلَيْهِ فِي المَسْجِدِ، فَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا حَتَّى سَمِعَهَا رَسُولُ الله ﷺ وَهُوَ فِي بَيْتِهِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمَا حَتَّى كَشَفَ سَجْفَ[3] حُجْرَتِهِ، فَنَادَى: «**يَا كَعْبُ**». قَالَ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «**ضَعْ مِنْ دَيْنِكَ هَذَا**». وَأَوْمَأَ إِلَيْهِ: أَيِ الشَّطْرَ، قَالَ: لَقَدْ فَعَلْتُ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «**قُمْ فَاقْضِهِ**»[4].

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٠٧٢).

(٢) «مسند أحمد» (٢٢٨٦٣).

(٣) السَّجْف: الستر. ينظر: «النهاية» (٢/ ٣٤٣).

(٤) «صحيح البخاري» (٤٥٧)، و«صحيح مسلم» (٢٥٠٤).

سابعًا: إظهار فضلهم ورعاية مكانة أهل السابقة منهم والدفاع عنهم أن يؤذوا أو ينتقصوا، ومن ذلك: أن ابْنَ مَسْعُودٍ كَانَ يَجْتَنِي سِوَاكًا مِنَ شجرة الأَرَاكِ، وَكَانَ دَقِيقَ السَّاقَيْنِ، فَجَعَلَتِ الرِّيحُ تَكْفَؤُهُ فتكشف عن ساقيه، فَضَحِكَ القَوْمُ مِنْهُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مِمَّ تَضْحَكُونَ؟**». قَالُوا: يَا نَبِيَّ الله، مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ، فَقَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَهُمَا أَثْقَلُ فِي المِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ**»[(١)].

وعَنْ عَائِذِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ، أَتَى عَلَى سَلْمَانَ، وَصُهَيْبٍ، وَبِلَالٍ فِي نَفَرٍ، فَقَالُوا: وَالله مَا أَخَذَتْ سُيُوفُ الله مِنْ عُنُقِ عَدُوِّ الله مَأْخَذَهَا وكان ذلك في فترة الهدنة قبل أن يسلم أبو سفيان، قَالَ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ لهم: أَتَقُولُونَ هَذَا لِشَيْخِ قُرَيْشٍ وَسَيِّدِهِمْ؟ فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: «**يَا أَبَا بَكْرٍ لَعَلَّكَ أَغْضَبْتَهُمْ، لَئِنْ كُنْتَ أَغْضَبْتَهُمْ، لَقَدْ أَغْضَبْتَ رَبَّكَ**». فَأَتَاهُمْ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: يَا إِخْوَتَاهْ أَغْضَبْتُكُمْ؟ قَالُوا: لَا، يَغْفِرُ اللهُ لَكَ يَا أَخِي[(٢)].

ثامنًا: وكان من أثر ذلك حياتُه في حياتِهم، وعمقه في قلوبهم، فما يشغله هو شُغلهم، وما يهمّه هو هَمُّهم، ومن ذلك: خبر عمر مع جاره الأنصاري؛ قال: كنت أنا وجار لي من الأنصار نتناوب النزول على النبي ﷺ، فينزل يومًا وأنزل يومًا، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الأمر وغيره، وإذا نزل فعل مثله، وكنا تحدثنا أن غسان تُنعِل الخيلَ لغزونا، فنزل صاحبي يوم نوبته، فرجع عشاءً، فضرب بابي ضربًا شديداً، وقال: أنائم هو؟ ففزعت، فخرجت إليه، وقال: حدث أمر عظيم، قلت: ما هو؟ أجاءت غسان؟ قال: لا، بل أعظم منه وأطول؛ طلق رسول الله نساءه، قلت: قد خابت حفصة وخسرت، كنت أظن أن هذا يوشك أن يكون، فجمعت علي ثيابي فصليت صلاة الفجر مع النبي ﷺ، فدخل مَشْرُبةً[(٣)] له فاعتزل فيها، فجئت المنبر، فإذا حوله رهط يبكي بعضهم[(٤)].

لقد كان استقرار البيت النبوي شاغِلُهم، ولذا لما ظنوا أن النبي ﷺ طلق نساءه كان ذلك أشد عليهم من غزو الروم للمدينة، وكان مصابًا عامًا لهم جميعًا، حتى أفزع جار عمر، فطرق عليه الباب طرقًا شديداً لشدة فزعه وتأثره، وعندما قال له عمر: هل جاء العدو؟

---

(١) «مسند أحمد» (٣٩٩١).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٥٠٤).

(٣) المشربة: الغرفة. ينظر: «النهاية» (٢/ ٤٥٤).

(٤) «صحيح البخاري» (٢٤٦٨)، و«صحيح مسلم» (١٤٧٩).

قال: بل أشد من ذلك وأطول، ولما دخل عمر المسجد وجد الناس جلوسًا عند المنبر يبكون، وكأن المصيبة في كل بيت من بيوتهم، بل في كل قلب من قلوبهم.

ولذا كان حديثهم بعده هو حديثهم عنه: كنت مع رسول الله، قال لنا رسول الله، خرج علينا رسول الله، رأيت رسول الله. وبقيت عواطفهم مرتبطة به، وأشواقهم متوجهة إليه، وألسنتهم لهجة بذكره.

خطب أبو بكر على منبر النبي ﷺ، وَقَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ الله ﷺ عَامَ أَوَّلٍ فَخَنَقَتْهُ العَبْرَةُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، سَلُوا اللهَ المُعَافَاةَ، فَإِنَّهُ لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ مِثْلَ اليَقِينِ بَعْدَ المُعَافَاةِ، وَلَا أَشَدَّ مِنَ الرِّيبَةِ بَعْدَ الكُفْرِ**»(١).

وعن أبي هريرة أنه مرَّ بقوم وبين أيديهم شاة مصلية فدعوه فأبى أن يأكل وقال: خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ مِنَ الدُّنْيَا وَلَمْ يَشْبَعْ مِنْ خُبْزِ الشَّعِيرِ(٢). إن أبا هريرة تذكر في تلك الساعة ما مر بالنبي ﷺ من القلة والشدة فالتاعت نفسه ولم يشته أكل اللحم المشوي في هذه الساعة لشدة انفعاله بذكرى النبي ﷺ، ولذا لم ينه الذين كانوا يأكلون ولم ينكر عليهم، ولكن ذكرى النبي ﷺ هيجته حتى أعرض عن الطعام.

وقال عمرو بن ميمون: قلما أخطأني ابن مسعود عشية خميس إلا أتيته فما سمعته لشيء قط يقول: قال رسول الله ﷺ، فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ عَشِيَّةٍ، قَالَ: وَهُوَ قَائِمٌ مَحْلُولٌ أَزْرَارُ قَمِيصِهِ، قَدِ اغْرَوْرَقَتْ عَيْنَاهُ، وَانْتَفَخَتْ أَوْدَاجُهُ، فَقَالَ: أَوْ دُونَ ذَاكَ، أَوْ فَوْقَ ذَاكَ، أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَاكَ، أَوْ شَبِيهًا بِذَاكَ(٣)، فانظر حال ابن مسعود وتهيجه لذكر النبي ﷺ، وهيبته لحديثه، وشدة تأثره بذلك.

تاسعًا: وكانوا يتحدثون بعد ذلك عن ذكرياتهم مع رسول الله ﷺ وكأنهم ما زالوا يعيشونها، ويجدون ذواق لذاذتها.

---

(١) «مسند أحمد» (٤٤).

(٢) «صحيح البخاري» (٥٤١٤).

(٣) «سنن ابن ماجه» (٢٣).

فعَنْ رَافِعِ بْنِ عَمْرٍو المُزَنِيِّ، قَالَ: أَقْبَلْتُ مَعَ أَبِي وَأَنَا غُلَامٌ فِي حَجَّةِ الوَدَاعِ، فَإِذَا رَسُولُ الله ﷺ يَخْطُبُ النَّاسَ عَلَى بَغْلَةٍ شَهْبَاءَ، وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُعَبِّرُ عَنْهُ، وَالنَّاسُ مِنْ بَيْنِ جَالِسٍ وَقَائِمٍ، فَجَلَسَ أَبِي، وتخلَّلْتُ الرِّكَابَ حَتَّى أَتَيْتُ البَغْلَةَ، فَأَخَذْتُ بِرِكَابِهِ، وَوَضَعْتُ يَدِي عَلَى رُكْبَتِهِ، فَمَسَحْتُ حَتَّى السَّاقِ حَتَّى بَلَغْتُ بِهَا القَدَمَ، ثُمَّ أَدْخَلْتُ كَفِّي بَيْنَ النَّعْلِ وَالقَدَمِ فَيُخَيَّلُ إِلَيَّ السَّاعَةَ أَنِّي أَجِدُ بَرْدَ قَدَمَيْهِ عَلَى كَفِّي[1].

وعَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ، قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ صَلَاةَ الأُولَى، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى أَهْلِهِ وَخَرَجْتُ مَعَهُ، فَاسْتَقْبَلَهُ وِلْدَانٌ، فَجَعَلَ يَمْسَحُ خَدَّيْ أَحَدِهِمْ وَاحِداً وَاحِداً، قَالَ: وَأَمَّا أَنَا فَمَسَحَ خَدِّي، قَالَ: فَوَجَدْتُ لِيَدِهِ بَرْداً أَوْ رِيحاً كَأَنَّمَا أَخْرَجَهَا مِنْ جُؤْنَةِ عَطَّارٍ[2].

وعن صَفِيَّةَ بِنْتِ بَحْرَةَ قَالَتْ: رَأَيْتُ أَبَا مَحْذُورَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِذَا قَعَدَ يَضَعُ قُصَّتَهُ[3] فِي الأَرْضِ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ: فَقَالَ مَسَحَ رَسُولُ الله ﷺ يَدَهُ عَلَى رَأْسِي، وَلَا أَحْلِقُ مَوْضِعَ يَدِ رَسُولِ الله ﷺ[4].

عاشراً: حَمَّلَهم مسؤولية ما بعث به حتى صارت أعمارهم كأنها بقية عمره، فقد نفروا لبلاغ دينه، ونشروا رسالته، وحفظوا ميراثه، ثم أدوه كما وعوه، فكانت حياتهم مع النبي ﷺ رَصْداً لحياته، وحفظاً لسنته، وتعظيما لشريعته؛ ولذا بلغوا سنته كما سمعوها، وبلغوا مع السنة توقيرها، ومع الدين تعظيمه، فكانوا خير رسول لرسول الله ﷺ، وأفضل مبلغ عنه.

وكان لهم غيرة على حديث النبي ومهابة وتعظيم له، فعَنْ أَبِي السَّوَّارِ العَدَوِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**الحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ**».

(١) «المعجم الكبير» للطبراني (٤٤٥٨).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٣٢٩). وجؤنة العطار: سلة صغيرة يحفظ فيها الطيب. ينظر: «النهاية» (١/ ٣١٨).

(٣) القُصّة هي شعر الناصية. ينظر: «فتح الباري» (٦/ ٥٩٦).

(٤) «أخبار مكة» للفاكهي (١٣١٢).

فَقَالَ بُشَيْرُ بْنُ كَعْبٍ: مَكْتُوبٌ فِي الحِكْمَةِ: إِنَّ مِنَ الحَيَاءِ وَقَاراً، وَإِنَّ مِنَ الحَيَاءِ سَكِينَةً. فَقَالَ لَهُ عِمْرَانُ: أُحَدِّثُكَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ وَتُحَدِّثُنِي عَنْ صَحِيفَتِكَ[1].

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ الله أَنْ يُصَلِّينَ فِي المَسْجِدِ**». فَقَالَ ابْنٌ لَهُ: إِنَّا لَنَمْنَعُهُنَّ، فَقَالَ: فَغَضِبَ غَضَباً شَدِيداً، وَقَالَ: أُحَدِّثُكَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ وتقولُ: إِنَّا لَنَمْنَعُهُنَّ؟[2].

إن هذا التعظيم البالغ لمقام النبي ﷺ وكلامه وسنته يبين عظيم مكانته، ورفيع منزلته في نفوس أصحابه، وأنه حب امتزج بالتعظيم له، والحمية لدينه، والغيرة على سنته، حتى تظهر منهم بادرات الغضب لما يرونه تقصيراً في تعظيم التلقِّي عنه ﷺ، فصلى الله على النبي الذي استنبت في قلوبهم هذا الحب الإيماني، ورضي الله عن أصحابه الذين بقوا أوفياء له محبةً وتعظيما، واتباعاً وتوقيراً.

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

خلاصات:

١- كان أصحابه حوله بكامل شخصياتهم واستقلالهم واستوائهم، ولم يكن وهج شمسه يطفئ أنوار نجومهم.

٢- كانوا متنوعين في أجناسهم وقبائلهم وبلدانهم، واحتواهم جميعاً، ولم يشعر أحد عنده بالبعد أو الغربة.

٣- كان له حضور قوي في حياتهم، ومشاركة في أفراحهم وأحزانهم وآلامهم.

٤- كانوا حاضرين في وجدانه، ولذا يفقدهم ويسأل عنهم، ويتابع شأنهم.

٥- شملت رعايته صغيرهم وكبيرهم، واحتوى ضعفاءهم ومساكينهم، وما شعر أحد بدونية أو تهميش.

---

(١) «صحيح البخاري» (٦١١٧)، و«صحيح مسلم» (٣٧).

(٢) «صحيح مسلم» (٤٤٢).

٦- سعيه في الإصلاح بينهم واحتواء خلافاتهم عند أي بادرة نزاع.

٧- حسن رعايته لمكانتهم وسابقة أهل السابقة منهم، وتوليه الدفاع عنهم.

٨- بقي حيـًا في حياتهم وذاكرتهم وذكرياتهم، فكان حديثهم في حياته معه، وبعد وفاته عنه، وبقوا يتذكرون مشاهدهم معه وكأنهم ما زالوا يعيشونها.

٩- حملهم مسؤولية بلاغ ما بلغه، واتبعوه بما بُعث به، فكأنما أعمارهم بقية عمره.

الرسول ﷺ والخاطئون

أحبَّ عبدُ الله رسولَ الله ﷺ كأشدِّ ما يكون الحب، وكان لحبه لرسول الله ﷺ يتشهَّى له كل طُرْفة طعام يراها تدخل المدينة؛ فربما جاء الأعرابي بعُكة[1] السمن أو العسل، فيأخذها منه، ويهديها للنبي ﷺ، فإذا جاءه صاحبها يتقاضاه الثمن جاء به إلى رسول الله ﷺ فقال: أعطِ هذا الثمن. فيقول رسول الله ﷺ: «**ألم تهدِه إليَّ؟**». فيقول: بلى، يا رسول الله، ولكن ليس عندي ثمنه[2]. فما يزيد رسول الله ﷺ أن يضاحكه، ويأمر لصاحبه بالثمن.

إن هذه الممازحة اللطيفة تعكس الإلف النفسي والعشرة الجميلة بينه وبين رسول الله ﷺ.

وكان عبد الله هذا مُبتلىً بشرب الخمر، مُكثِراً منها، وكثيراً ما أُتي به إلى النبي ﷺ ثَمِلاً من السُّكر؛ فيأمر بجلده، فجيء به يوماً كذلك، فلما جلده وانصرف، قال أحد الصحابة: اللهم العنْه، ما أكثر ما يُؤتى به. فإذا النبي ﷺ يرد هذه المقولة ويقول: «**لَا تَلْعَنُوهُ؛ فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ إِنَّهُ لَيُحِبُّ اللهَ وَرَسولَهُ، لَا تَكُونُوا عَوْنَ الشَّيْطَانِ عَلَى أَخِيكُمْ**»[3].

إن هذا الموقف النبوي يقدم لنا بصائر نبوية في التعامل مع الخطأ والخاطئين، منها:

(١) العُكّة: وعاء من جلود مستدير. ينظر: «النهاية» (٣/ ٢٨٤).

(٢) «مسند أبي يعلى» (١٢٧).

(٣) «صحيح البخاري» (٦٧٨٠).

أولاً: يشدُّ بصرك هذا التآلف، بل التمازج بين هذا الصحابي على ما وقع فيه من خطأ مع رسول الله ﷺ، إنه إلف وحب، وممازحة وموادة، مما يكشف لنا أنه لم يكن ثمَّة تشطير في مجتمع النبوة، أو عزل لفئة منه لمعرَّة خطأ كان منها، وإنما الاندماج والتمازج بينهم على تفاوت مقاماتهم في الخير؛ فمنهم السابق، ومنهم المقتصد، ومنهم مَن ظلم نفسه، ولكن لم يكن أحد يعيش النَّبْذ أو النَّبْز أو الإقصاء، وإنما كان التآلف والاحتواء، وبذلك تظلُّ الأخطاء التي يقع فيها بعضهم محدودة الأثر والتداعيات؛ لأنها محاصَرة بهذا الجو التآلفي الكريم، الذي لا يُتيح لها التطور ولا التكاثر، وكلما عَثَر أحد بخطيئته آنس أيدي إخوانه تمسك بضَبْعيه أن يهوي من هذه العثرة، أو ينقطع عنهم بسبب هذه الزَّلة.

ثانيـًا: النظر إلى المساحة الإيجابية في نفس عبد الله، وهو حبه الله ورسوله، وليست هذه مَنْقَبة خاصة بعبد الله، ولكنها الخصلة التي يشركه فيها كل مؤمن، فلا يصحُّ إيمانٌ إلا بحبِّ الله ورسوله، ولكن النبي ﷺ أبرز هذه الخصلة، وامتدح الرجل بها، وهو أسلوب تربوي فريد، يترتب عليه توسيع مساحة الخير في النفوس، وتأكيد انتسابها إليه، وارتفاعها به، وإن حصلت منها الهفوات فلا تكبِّلها، ولا تجترُّها للقاع، ولك أن تتصور نفس عبد الله هذا، وقد بلغته مقولة النبي ﷺ عنه، فأيُّ نشوة ورفعة تستثيرها فيه تلك المقولة، حتى لكأنما يُعرج بنفسه إلى أفق أعلى يسمو به فوق هذه الخطايا والهنَات؟!

إن هذا لمن أقوى الأسباب للتخلص من هذه الخطايا، والتأكيد لنفسه أن هذه هفوات عارضة، وليست الأصل في حاله، ولا الحاكم لنا عليه، فالأصل فيه حب الله ورسوله، وكما قال ﷺ عن حاطب بن أبي بلتعة عندما حاول إفشاء السر العسكري لأهل مكة قبل الفتح، فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال ﷺ: «**إنَّه شَهِدَ بَدْراً، وما يُدْرِيكَ؟ لَعَلَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ اطَّلَعَ علَى أهْلِ بَدْرٍ فَقالَ: اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ فقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**»[1]. فذكر سابقته وجهاده، ومساحة الخير الواسعة في نفسه، والتي لا يحجبها هذا الموقف ولا يلغيها.

(١) «صحيح البخاري» (٤٨٩٠)، و«صحيح مسلم» (٢٤٩٤).

ثالثًا: إن هذا الذنب خطأ ظاهر؛ بل كبيرة من الكبائر، لا مجال فيه لاحتمال الخطأ أو التأوُّل، إنها الخمر التي لعن فيها النبي ﷺ عشرة[1]، ومع ذلك فإن النبي ﷺ الذي أقام عليه حدَّ الخمر، قد حفظ حقَّه أن يُستطال عليه بأكثر من العقوبة الشرعية التي نالها، أما السب واللعن فهو قدر زائد عن العقوبة الشرعية ولذلك نهى عنه، ورأى ذلك من معونة الشيطان عليه.

رابعًا: ربما احتاج ﷺ في علاج بعض الأخطاء إلى قدرٍ من الشدة وإظهار التأثر الذي يبين مقدار الخطأ وليس ذلك مع كل خطأ ولا مع كل خاطئ، وإنما يكون ذلك مع الخطأ الكبير، ومع من يفيده ذلك ويؤثر فيه ولا يُنفِّره، ومن ذلك: موقفه من أسامة بن زيد لما قتل رجلا من المشركين بعد أن قال: لا إله إلا الله، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاستدعاه وقال له: «**يَا أُسَامَةُ! أَقَتَلْتَهُ بَعْدَمَا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؟!**». قال: يا رسول الله، إنما قالها مخافة السلاح والقتل. فقال: «**أَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ؛ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَمْ لَا؟! كَيْفَ تَصْنَعُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ القِيَامَةِ؟!**». فخاطب أسامة النبيَّ ﷺ خطاب المعترف المستعتب، قائلاً: يا رسول الله، استغفر لي، فأعاد عليه ما قال: «**كَيْفَ تَصْنَعُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ القِيَامَةِ؟!**». فكرر عليه أسامة: ورسول الله ﷺ لا يزيد في جوابه على قوله: «**كَيْفَ تَصْنَعُ بِلَا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ القِيَامَةِ؟!**»[2]. حتى كُرِب أسامة لذلك كَرْبًا شديداً، تمنَّى معه أنه لم يكن أسلم إلا هذه الساعة؛ حتى يهدم إسلامه ما كان قبله، ويأمن جَريرة فعلته.

وقد بقي أثر ذلك التأديب النبوي عميقًا في نفس أسامة، فكان أكف الناس عند كل فتنة يخشى أن يكون مِنْ قتلاها مَن يشهد أن لا إله إلا الله، حتى كان سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: لا أقاتل مسلمًا حتى يقاتله أسامة؛ لشدة ما يرى من توقِّيه واحتياطه فيما يلتبس من أمر الدماء[3].

---

(١) «سنن أبي داود» (٣٦٧٤).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٢٦٩)، و«صحيح مسلم» (٩٦).

(٣) «شرح مشكل الآثار» للطحاوي (٨/ ٢٦٥)، و«المفهم» للقرطبي (١/ ٢٩٣-٢٩٨)، و«شرح النووي على مسلم» (٢/ ٩٩)، و«فتح الباري» (٧/ ٥١٨)، (١٢/ ١٩٥)، و«عمدة القاري» (٢٤/ ٢٦٠).

وكذلك موقفه ﷺ من أبي ذر حينما عيَّر رجلا من الخدم بأمه السوداء فدعاه ﷺ وقال له: «**أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ**». قَالَ أبوذر: عَلَى سَاعَتِي هذه مِنَ الكِبَرِ؟ قَالَ: «**إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ**[1] **جَعَلَهُمُ اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِنْ طَعَامِهِ، وَلْيُلْبِسْهُ مِنْ ثِيَابِهِ، وَإِنْ كَلَّفَهُ مَا لَا يُطِيقُ فَلْيُعِنْهُ عَلَيْهِ**»[2].

وهذه الكلمة وهي الوصف بخلق الجاهلية، كلمة شديدة أثرت في أبي ذر حتى قال: على ساعتي هذه من كبر السن، فهو من السابقين الأولين إلى الإسلام فكيف يوصف بأن فيه جاهلية، فبين له النبي ﷺ مأخذ ذلك، وطريقة معاملة الخدم واستشعار حقوقهم.

ولذا أثر ذلك في أبي ذر والتزمه بقية عمره، وقد كان سبب روايته لهذا الحديث أنه في آخر عمره حين سكن الربذة كان معه خادم له وكان قد كساه حلة من جنس ما لبسه هو، فاستغرب ذلك بعض من رأوه وسألوه عن ذلك، فذكر لهم هذا الحديث، فانظر التزام أبي ذر بذلك إلى آخر عمره، وتطبيقه ذلك بأعلى صور المساواة بحيث قسم الحلة بينه وبين خادمه.

خامسًا: عندما يكون سبب الخطأ الجهل فإنه ﷺ يصحح الخطأ بالتعليم الرفيق، كما في حديث معاوية بن الحكم قال: بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ الله ﷺ، إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ، فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللهُ، فَرَمَانِي القَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَاثُكْلَ أُمِّيَاهْ، مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ؟ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي سَكَتُّ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ الله ﷺ، قَالَ: «**إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ القُرْآنِ**»[3].

وكما في حديث الأعرابي الذي بَالَ في المَسْجِدِ، فَثَارَ إِلَيْهِ النَّاسُ ليَقَعُوا به، فَقَالَ لهمْ رَسولُ الله ﷺ: «**دَعُوهُ، وأَهْرِيقُوا علَى بَوْلِهِ سَجْلاً مِن مَاءٍ؛ فإنَّما بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ، ولَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ**»[4].

---

(١) الخَوَل: هم حشَم الرجل وأتباعه. ينظر: «النهاية» (٢/ ٨٨).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٠)، و«صحيح مسلم» (١٦٦١).

(٣) «صحيح مسلم» (٥٣٧).

(٤) «صحيح البخاري» (٢٢٠).

ويلاحظ في هذه الأخطاء أنها بسبب الجهل وليس دافعها شهوة كشهوة الانتقام أو الغضب أو الطمع ونحوه، ولذا فإن النبي ﷺ يرفع الجهل بالتعليم الرفيق ولذا أثر ذلك في معاوية بن الحكم فقال: فبأبي هو وأمي، ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه، فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني.

وأثر في الأعرابي فقال بعد ما فَقِه: فَقَامَ إِلَيَّ بِأَبِي وَأُمِّي، فَلَمْ يُؤَنِّبْ، وَلَمْ يَسُبَّ، فَقَالَ: «**إِنَّ هَذَا المَسْجِدَ لَا يُبَالُ فِيهِ، وَإِنَّمَا بُنِيَ لِذِكْرِ اللهِ وَلِلصَّلَاةِ..**»[1].

سادساً: إغلاق الخطأ وعدم استتباعه باللوم والعتاب، فحين خَطَب يوم الجمعة وجاءت القافلة فانفضوا إليها وتركوه قائماً، نزل القرآن: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ [الجمعة: ١١]، فاكتفى ﷺ بالعتاب القرآني ولم يزد عليه، ولم يجعلها وصمة لمن قام، ومن ثمَّ نُقلت لنا أسماء بعض من جلسوا ولم تنقل أسماء من قاموا[2].

وفي الحديبية أمر الناس بالحلق والنحر فتأخروا عليه حتى غضب، فكان حل الموضوع أن يخرج فيحلق وينحر فتتابعوا بعده، ثم لم يعاتب ولم يعاقب[3].

وفي قصة حاطب استدعاه وسأله وقبل عذره، ثم أغلقت القضية فلم تذكر بعد لحاطب ولم يُذَكَّر بها[4].

والجامع بين هذه المواقف تصحيح الخطأ مع احتوائه فلا يتمدد، وعدم استتباع الخطأ بالملامة والعتاب، وإنما يغلق في حينه وتستأنف الحياة.

سابعاً: مساعدتهم على تجاوز الخطأ وعدم حبسهم في الإدانة، كما في قصة المخزومية التي سرقت وأَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقُطِعَتْ يَدُهَا، فَحَسُنَتْ تَوْبَتُهَا بَعْدَ ذَلِكَ وَتَزَوَّجَتْ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَكَانَتْ تَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ فَأَرْفَعُ حَاجَتَهَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ[5].

---

(١) «سنن ابن ماجه» (٥٢٩).
(٢) «صحيح البخاري» (٤٨٩٩)، و«صحيح مسلم» (٨٦٣).
(٣) «صحيح البخاري» (٢٧٣١).
(٤) «صحيح البخاري» (٣٠٠٧)، و«صحيح مسلم» (٢٤٩٤).
(٥) «صحيح البخاري» (٤٣٠٤).

فقد تم احتواء هذه التائبة بعد خطئها حتى كان بيته ﷺ مأواها لقضاء حوائجها.

ثامنًا: عدم مواجهة المخطئ والاكتفاء بالتوجيه العام إذا أمكن تصحيح الخطأ بذلك، ولذا كان ﷺ يصحح كثيراً من الأخطاء من غير تعيين المخطئ حتى لا يجرحه أو يحرجه، وإنما يكتفي بقوله: «**مَا بَالُ أَقْوَامٍ..**». كما في حديث بريرة، حين اشترتها عائشة فاشترط ملاكها أن يكون لهم الولاء، وهو شرط غير صحيح، فقام ﷺ فخطب الناس وقال: «**فَما بَالُ أَقْوَامٍ يَشْتَرِطُونَ شُرُوطًا لَيسَتْ في كِتَابِ الله، مَا كَانَ مِنْ شَرْطٍ لَيسَ في كِتَابِ الله عَزَّوَجَلَّ فَهو بَاطِلٌ، وإنْ كانَ مِئَةَ شَرْطٍ، كِتَابُ الله أَحَقُّ، وَشَرْطُ الله أَوْثَقُ، وَإِنَّمَا الوَلَاءُ لِمَنْ أَعْتَقَ**»[1].

ومن ذلك: حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كنا في غزاة، فكسع[2] رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري يا للمهاجرين، فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**مَا بَالُ دَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ؟**». قالوا: يا رسول الله كسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار. فقال: «**دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ**»[3].

إن ما حصل هو دعوة جاهلية ظاهرة بيِّنة، ومع ذلك كانت طريقة النبي ﷺ في تكييف المشكلة ذكرها بصيغة سؤال، لا يحمل اتهاما لأحد ولا انتقاصا من أحد.

ثم قال: «**دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ**». فانصب كلامه على الدعوى وقال: إنها منتنة، وليس وصفًا لمن دعا بها حتى يتوجه الانتقاص إليه.

لقد كان ﷺ يعالج الخطأ بطريقة فيها الكثير من اللباقة واللياقة والرفق، حتى كأنها عملية جراحية تجرى لمريض.

وبهذا الهدي الرفيق كان يصحح الخطأ فيهدي الضال، ويعلم الجاهل، ويأخذ بيد الضعيف، ويرد الشارد، دون استعلاء ولا استصغار.

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٥٦)، و«صحيح مسلم» (١٥٠٤).

(٢) كَسَعَه: أي ضرب دبره بيده. ينظر: «النهاية» (٤/ ١٦٣).

(٣) «صحيح البخاري» (٤٩٠٥)، و«صحيح مسلم» (٢٥٨٤).

خلاصات:

١- كان الذي يقع في الخطأ يبقى ممتزجاً مع المجتمع لا يُبعَد ولا يقمع، وإنما يحتويه التآلف المجتمعي الكريم.

٢- عند النظر إلى الخاطئ ينظر أيضاً إلى المساحة الإيجابية في نفسه وخصال الخير الباقية فيه.

٣- عندما توقع العقوبة الشرعية على الخاطئ فلا يجوز تخطيها أو البغي فيها، فحقه وعرضه محفوظ، والعقوبة بقدرها.

٤- ربما يحتاج في علاج بعض الأخطاء إلى قدر من الشِّدة التي تبيِّن مقدار الخطأ، وليس ذلك مع كل خطأ ولا كل خاطئ، ولكن حيث ينفع ذلك ولا يضر.

٥- عندما يكون سبب الخطأ هو الجهل فإنه يصحح بالتعليم الرفيق الحكيم.

٦- بعد تصحيح الخطأ يغلق ولا يستتبع بالملامة والتذكير.

٧- مساعدة المخطئ على تجاوز الخطأ، وعدم حبسه في الإدانة.

٨- الاكتفاء بالتعريض العام وعدم مواجهة المخطئ إذا كان ذلك كافياً في تصحيح الخطأ وتجاوزه.

الرسول ﷺ والمخالفون

من حكمة الله في بعث الرسل أن جعلهم بشراً من البشر، شأنُهم الخلطة بالناس والتعايش معهم. ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠].

وكان في بيوت بعض أنبياء الله المخالف لهم في دينهم، ففي بيت نوح زوجته وابنه، وفي بيت إبراهيم أبوه، وفي بيت لوط زوجته، وفي أسرة نبينا ﷺ عمه أبو طالب، وعمه أبو لهب.

والتعايش الإنساني فطرة بشرية، ولذا عاش الناس منذ الأزل في تجمعات بشرية لأن في كلٍّ منهم ما يجذبه إلى غيره، فالإنسان مدني بالطبع.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

ولذا فإن الهدي النبوي في ذلك يُمثِّل الاستواء الفِطْري، والكمال الإنساني.

وقد وصف الله خُلق نبيه ﷺ فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]

وهذا وصف لعظمة خلق النبي ﷺ مع كل من يتعامل معهم من المتَّبعين والمخالفين، وأمر الله بالقول الحسن لكل الناس فقال: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، ولفظ الناس عام يشمل المسلم والكافر، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، فالجدال والحوار مع أهل الكتاب إنما هو بالأحسن من القول. ولذا كان للتعامل النبوي مع المخالفين سماته ومعالمه ومنها:

أولاً: التعايش الاجتماعي:

المخالطة العامة هي سمة المجتمع النبوي، ويظهر ذلك:

في صحيفة المدينة وفيها تنظيم العلاقة بين مواطني دولة المدينة من المسلمين وغيرهم.

وفي التمازج الاجتماعي والخلطة بين المسلمين وغيرهم؛ فقد مرَّ النبي ﷺ بمجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين واليهود فنزل إليهم وتحدث معهم[1]، ولم ينكر على المسلمين جلوسهم في هذا المجلس المختلط وإنما شاركهم المجلس.

ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠]، فنهى الله المسلمين عن الجلوس مع المشركين إذا خاضوا في آيات الله كفراً واستهزاءً وبدأوا في هذا الحديث، فإذا خاضوا في حديث غيره ارتفع الحظر فهو حظر مؤقت مرتبط بحديث معين فيقوم عنهم المسلم الجالس معهم احتجاجاً على هذا الحديث الباطل، فإذا خاضوا في حديث آخر رجع الحكم إلى أصله وهو جواز المعاشرة والمحادثة.

ثانياً: التزاور:

كان اليهود يدخلون بيت النبي ﷺ فيستضيفهم، ويجلس معهم.

والبيت هو مأوى الإنسان، وفيه خصوصيته، وتكرمته وضيافته، وإدخال أحد إلى البيت إكرام وتقريب، ومن ذلك:

١- الغلام اليهودي الذي كان في بيته ﷺ، فعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ...[2]، وكان هذا الغلام يدخل بيته ويلى خاصة شأنه.

٢- وعَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ يَهُودِيَّةً كَانَتْ تَخْدُمُهَا، فَلَا تَصْنَعُ عَائِشَةُ إِلَيْهَا شَيْئًا مِنَ المَعْرُوفِ، إِلَّا قَالَتْ لَهَا اليَهُودِيَّةُ: وَقَاكِ اللهُ عَذَابَ القَبْرِ، قَالَتْ: فَدَخَلَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَيَّ،

(١) «صحيح البخاري» (٦٢٥٤)، و«صحيح مسلم» (١٧٩٨).

(٢) «صحيح البخاري» (١٣٥٦).

فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، هَلْ لِلْقَبْرِ عَذَابٌ قَبْلَ يَوْمِ القِيَامَةِ؟ قَالَ: «**لَا، وَعَمَّ ذَاكَ؟**». قَالَتْ: هَذِهِ اليَهُودِيَّةُ لَا نَصْنَعُ إِلَيْهَا مِنَ المَعْرُوفِ شَيْئًا، إِلَّا قَالَتْ: وَقَاكِ اللهُ عَذَابَ القَبْرِ، قَالَ: «**كَذَبَتْ يَهُودُ، وَهُمْ عَلَى الله** عَزَّوَجَلَّ **أَكْذَبُ، لَا عَذَابَ دُونَ يَوْمِ القِيَامَةِ**». قَالَتْ: ثُمَّ مَكَثَ بَعْدَ ذَاكَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَمْكُثَ، فَخَرَجَ ذَاتَ يَوْمٍ نِصْفَ النَّهَارِ مُشْتَمِلاً بِثَوْبِهِ، مُحْمَرَّةً عَيْنَاهُ، وَهُوَ يُنَادِي بِأَعْلَى صَوْتِهِ: «**أَيُّهَا النَّاسُ! أَظَلَّتْكُمُ الفِتَنُ كَقِطَعِ اللَّيْلِ المُظْلِمِ، أَيُّهَا النَّاسُ، لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ بَكَيْتُمْ كَثِيراً وَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً. أَيُّهَا النَّاسُ! اسْتَعِيذُوا بِالله مِنْ عَذَابِ القَبْرِ؛ فَإِنَّ عَذَابَ القَبْرِ حَقٌّ**»[(١)].

فهذه اليهودية كانت تخدم عائشة، وكانت عائشة تحسن إليها وتصنع لها المعروف، وكل ذلك كان بعلم النبي ﷺ ومراجعته.

٣- وعنها قَالَتْ: دَخَلَتْ عَلَيَّ عَجُوزَانِ مِنْ عُجُزِ يَهُودِ المَدِينَةِ، فَقَالَتَا لِي: إِنَّ أَهْلَ القُبُورِ يُعَذَّبُونَ فِي قُبُورِهِمْ، فَكَذَّبْتُهُمَا، وَلَمْ أُنْعِمْ أَنْ أُصَدِّقَهُمَا، فَخَرَجَتَا، وَدَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ عَجُوزَيْنِ، وَذَكَرْتُ لَهُ، فَقَالَ: «**صَدَقَتَا؛ إِنَّهُمْ يُعَذَّبُونَ عَذَابًا تَسْمَعُهُ البَهَائِمُ كُلُّهَا**». فَمَا رَأَيْتُهُ بَعْدُ فِي صَلَاةٍ إِلَّا تَعَوَّذَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ[(٢)].

قال الحافظ ابن حجر: وكلا الحديثين عن عائشة، وحاصله أنه لم يكن أوحي إليه أن المؤمنين يفتنون في القبور، فقال: «**إِنَّمَا يُفْتَنُ يَهُودُ**». فجرى على ما كان عنده من علم ذلك، ثم لما علم بأن ذلك يقع لغير اليهود استعاذ منه وعلمه وأمر بإيقاعه في الصلاة ليكون أنجح في الإجابة[(٣)].

٤- وعن عائشةَ، قالَت: لم يُقتَلْ مِن نسائِهِم -تعني بَني قُرَيْظةَ- إلَّا امرأةٌ، إنَّها لعِندي تُحدِّثُ تَضحَكُ ظَهْراً وبطنًا، ورسولُ الله ﷺ يقتلُ رجالَهُم بالسُّيوفِ، إذ هتفَ هاتفٌ باسمِها أينَ فُلانةُ؟ قالَت: أنا. قلتُ: وما شأنُكِ؟ قالَت: حدثٌ أحدثتُهُ. قالَت: فانطلقَ بِها فضُرِبَت عُنقُها، فما أنسَى عجبًا مِنها أنَّها تَضحَكُ ظَهْراً وبطنًا وقَد علِمَتْ أنَّها تُقتَلُ[(٤)].

---

(١) «مسند أحمد» (٢٤٥٢٠).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٣٦٦)، و«صحيح مسلم» (٥٨٦).

(٣) «فتح الباري» (١١/ ١٧٦).

(٤) «سنن أبي داود» (٢٦٧١).

إن نساء بني قريظة لم يقتل منهن إلا هذه المرأة المجرمة التي قتلت رجلاً من المسلمين[1]، ومع أنها قاتلة وستقتل فلم تعامل بما يخدش إنسانيتها وإنما كانت في ضيافة زوجة النبي ﷺ وفي بيته، وكان التآنس والحديث والمفاكهة الضاحكة بينها وبين عائشة التي لم تكن تعلم جنايتها ولا مصيرها.

فإذا كان هذا التعامل مع المخالف الجاني، فكيف بالمخالف المسالم الموادع؟

٥- وعنها قَالَتْ: دَخَلَ رَهْطٌ مِنَ اليَهُودِ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالُوا: السَّامُ[2] عَلَيْكُمْ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَفَهِمْتُهَا فَقُلْتُ: وَعَلَيْكُمُ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ، قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَهْلاً يَا عَائِشَةُ! إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ**». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**قَدْ قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ**»[3].

إن هؤلاء اليهود برغم وقاحتهم ودفين حقدهم، إلا أن بيوت النبي ﷺ تفتح لهم، وخلقه الكريم يستوعبهم، فيعاملهم بالرفق ويأمر به معاملتهم.

وكما استقبلهم في بيته فقد زارهم في بيوتهم، ومن ذلك:

١- عن أنس، أن يهوديا دعا النبي ﷺ إلى خبز شعير وإهالة سنخة، فأجابه[4].

٢- وعن جَابِرٍ أن يهُوديةً مِن أهلِ خيبرَ سمَّت شاةً مصليَّةً، ثم أَهدتْها لرسولِ الله ﷺ، فأخذَ رسولُ الله ﷺ الـذِّرَاعَ، فَأَكَلَ منها، وأكل رهطٌ مِنْ أصحابِه مَعَهُ، ثم قال لهم رسولُ الله ﷺ: «**ارفَعُوا أيدِيَكُمْ**». وأرسل رسول الله ﷺ إلى اليهوديةِ فدعاها، فقال لها: «**أَسَمَمْتِ هَذِهِ الشَّاةَ؟**». قالتِ اليهوديةُ: من أخبرَكَ؟ قال: «**أَخْبَرَتْنِي هَذِهِ فِي يَدِي**». للذراع، قالت: نعم...[5].

---

(١) «مغازي الواقدي» (٢/ ٥١٧).

(٢) السام: هو الْمَوْتُ الْعَاجِلُ. ينظر: «فتح الباري» (١١/ ٤٢).

(٣) «صحيح البخاري» (٦٠٢٤)، و«صحيح مسلم» (٢١٦٥).

(٤) «مسند أحمد» (١٣٢٠١). وإهالة سنخة: هي شحم مذاب قد تغيرت رائحته. ينظر: «فتح الباري» (١/ ٨٢).

(٥) «سنن أبي داود» (٤٥١٠).

ودعا عظيم أنباط الشام عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين إنا قد صنعنا لك وللمسلمين طعاما فإن رأيت أن تحضره؟ فقال: وأين؟ فقال: في الكنيسة، فقال عمر: إن في كنائسكم الصور، والملائكة لا تدخل بيتا فيه صورة، وإنا لا ندخل بيتا لا تدخله الملائكة، قالوا: يا أمير المؤمنين قد أنفقنا عليك نفقة وكلفنا فيه مؤنة، فقال عمر: يا علي انطلق فتغد وغد الناس، فقعد عليٌّ فجعل يتغدى ويغدي الناس، وعلي ينظر إلى تلك الصور التي في كنيستهم ويقول: ما كان على أمير المؤمنين أن لو دخل وتغدى[1].

ثالثاً: الاستعانة بذوي النفوذ من غير المسلمين، ومنها:

١- الهجرة إلى النجاشي في الحبشة والإقامة في كنفه وهو على النصرانية.

٢- نصرة أبي طالب لرسول الله ﷺ وحمايته له وهو على دين قومه.

٣- نصرة بني هاشم وبني المطلب -مسلمهم وكافرهم- له ﷺ في حصار الشعب.

٤- دخوله ﷺ مكة في جوار المطعم بن عدي، فإنه لما رجع من الطائف أرسل إلى المطعم بن عدي يطلب جواره ليدخلها آمنا من جراءة قومه عليه، وأذيتهم له، فأجاره المطعم بن عدي وسلَّمت قريش له جواره وذمته[2].

٥- ودخول أبي بكر مكة في جوار ابن الدغنة: فعن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ مُهَاجِراً قِبَلَ الحَبَشَةِ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَرْكَ الغِمَادِ لَقِيَهُ ابْنُ الدَّغِنَةِ، وَهُوَ سَيِّدُ القَارَةِ، فَقَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ يَا أَبَا بَكْرٍ؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَخْرَجَنِي قَوْمِي، فَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَسِيحَ فِي الأَرْضِ، فَأَعْبُدَ رَبِّي، قَالَ ابْنُ الدَّغِنَةِ: إِنَّ مِثْلَكَ لَا يَخْرُجُ وَلَا يُخْرَجُ، فَإِنَّكَ تَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ، وَأَنَا لَكَ جَارٌ، فَارْجِعْ فَاعْبُدْ رَبَّكَ بِبَلَادِكَ، فَارْتَحَلَ ابْنُ الدَّغِنَةِ، فَرَجَعَ مَعَ أَبِي بَكْرٍ، فَطَافَ فِي أَشْرَافِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ لَا يَخْرُجُ مِثْلُهُ وَلَا يُخْرَجُ، أَتُخْرِجُونَ رَجُلاً يُكْسِبُ المَعْدُومَ، وَيَصِلُ الرَّحِمَ، وَيَحْمِلُ الكَلَّ، وَيَقْرِي الضَّيْفَ، وَيُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ، فَأَنْفَذَتْ قُرَيْشٌ جِوَارَ ابْنِ الدَّغِنَةِ، وَآمَنُوا أَبَا بَكْرٍ[3].

---

(١) «تاريخ دمشق» (٤٢/ ٦).

(٢) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (١/ ١٨٠-١٨١).

(٣) «صحيح البخاري» (٢٢٩٧).

٦- والاستعانة بأدراع صفوان بن أمية وهو مشرك، فعن أمية بن صفوان بن أمية، عن أبيه، أن رسول الله ﷺ استعار منه يوم حنين أدراعا، فقال: أغصبا يا محمد؟ قال: «**بَلْ عَارِيَةٌ مَضْمُونَةٌ**». قال: فضاع بعضها، فعرض عليه رسول الله ﷺ أن يضمنها له، فقال: أنا اليوم يا رسول الله في الإسلام أرغب[1].

رابعاً: الاستعانة بذوي الأمانة والرأي منهم في المهمات، ومن ذلك:

١- حضور العباس بن عبد المطلب بيعة العقبة وهو مشرك ليستوثق لابن أخيه، وفي دعوة النبي ﷺ له، وإسناده أمر الحديث إليه وكأنه ولي أمر قرابته مشهد من التوقير النبوي لعمه وهو لا زال على دين قومه، ليت شعري لو أدرك النبي ﷺ أباه كيف سيكون بره وتوقيره له.

٢- اختيار عبد الله بن أريقط دليلاً في طريق الهجرة وهو مشرك ومع ذلك استأمنه على أمرٍ في غاية الأهمية والخطورة، وقد وافى ذلك عند ابن أريقط مروءةً ونبلاً وعزة نفس، ولذا كانت قريش تجزل العطاء لمن يدلها على رسول الله وصاحبه ومع ذلك لم تحدثه نفسه أن يخبر قريش فيفوز بالعطاء ويريح نفسه من عناء السفر، وإنما التزم بما عاهد عليه مروءة وحسن عهد.

خامساً: إقرار العلاقات الإنسانية:

العلاقات الإنسانية تعامل طبيعي كشأن التصرفات الحياتية التي تحتويها المساحة الواسعة في الدين وهي الإباحة والعفو، ولذلك لم يكن الصحابة يسألون النبي ﷺ عن كثير من تفاصيل التعامل مع غير المسلمين وإنما كانوا يعتبرونها شأناً حياتياً عاماً تحتويه مساحة الإباحة الواسعة ومن ذلك:

١- قصة سعد بن معاذ وكَانَ صَدِيقاً لِأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ، وَكَانَ أُمَيَّةُ إِذَا مَرَّ بِالمَدِينَةِ نَزَلَ عَلَى سَعْدٍ، وَكَانَ سَعْدٌ إِذَا مَرَّ بِمَكَّةَ نَزَلَ عَلَى أُمَيَّةَ، فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ المَدِينَةَ انْطَلَقَ سَعْدٌ مُعْتَمِراً، فَنَزَلَ عَلَى أُمَيَّةَ بِمَكَّةَ...[2]. ونلاحظ أن النبي ﷺ لم يحذره عندما ذهب، ولم يسأله حين رجع.

---

(١) «سنن أبي داود» (٣٥٦٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٩٥٠).

٢- قصة أبي ذر لما قدم مكة في أول البعثة فلقي النبي ﷺ وسمع منه فأسلم، فأمره ﷺ أن يلحق بقومه المشركين، ولم يأمره بمعاملة خاصة لهم وإنما سيعود وسيعيش بينهم كما كان يعايشهم من قبل[١].

٣- قصة عمرو بن عبسة: لما قدم مكة في أول البعثة فلقي النبي ﷺ وسمع منه فأسلم وقال: إِنِّي مُتَّبِعُكَ، قَالَ ﷺ: «**إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ يَوْمَكَ هَذَا، أَلَا تَرَى حَالِي وَحَالَ النَّاسِ، وَلَكِنِ ارْجِعْ إِلَى أَهْلِكَ فَإِذَا سَمِعْتَ بِي قَدْ ظَهَرْتُ فَأْتِنِي...**»[٢].

وكذلك السابقون إلى الإسلام من المهاجرين والأنصار الذين بقي آباؤهم وأقاربهم على الشرك، واستمر تعاملهم معهم تعاملاً إنسانيّاً طبيعيّاً.

سادساً: تبادل الهدايا معهم:

١- هدية أكيدر دومة إلى النبي ﷺ: فعَنْ أَنَسٍ، أَنَّ أُكَيْدِرَ دُومَةَ أَهْدِى إِلَى رَسُولِ الله ﷺ جُبَّةَ سُنْدُسٍ، فَلَبِسَهَا، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُحَرَّمَ الحَرِيرُ، فَتَعَجَّبَ النَّاسُ مِنْ حُسْنِهَا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَمَنَادِيلُ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنْهَا وَاليَنُ**»[٣].

٢- وهدية المقوقس إلى النبي ﷺ: فإنَّ رَسُولَ الله ﷺ بَعَثَ حَاطِبَ بْنَ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى المُقَوْقِسِ صَاحِبِ الإِسْكَنْدَرِيَّةِ -يَعْنِي بِكِتَابِهِ مَعَهُ إِلَيْهِ- فَأَكْرَمَ حَاطِبًا وَأَحْسَنَ نُزُلَهُ، ثُمَّ سَرَّحَهُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، وَأَهْدَى لَهُ مَعَ حَاطِبٍ كِسْوَةً وَبَغْلَةً بِسَرْجِهَا وَجَارِيَتَيْنِ، إِحْدَاهُمَا أُمُّ إِبْرَاهِيمَ[٤].

وقد كان ﷺ يقبل الهدية ويُثيب عليها، فالشأن أنه قد أثابهم عليها، أو أنه ابتدأهم بها.

٣- وعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: جَاءَتْ رسول الله ﷺ حُلَلٌ، فَأَعْطَى رَسُولُ الله ﷺ عُمَرَ مِنْهَا حُلَّةً، فَكَسَاهَا عُمَرُ أَخًا لَهُ بِمَكَّةَ مُشْرِكًا[٥].

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٨٦١).
(٢) «صحيح البخاري» (٢٦١٥)، و«صحيح مسلم» (٨٣٢).
(٣) «صحيح مسلم» (٢٤٦٩).
(٤) «شرح مشكل الآثار» للطحاوي (٢٥٧٠).
(٥) «صحيح البخاري» (٨٨٦)، و«صحيح مسلم» (٢٠٦٨).

٤- وعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو، أَنَّهُ ذُبِحَتْ لَهُ شَاةٌ، فَجَعَلَ يَقُولُ لِغُلَامِهِ: أَهْدَيْتَ لِجَارِنَا اليَهُودِيِّ؟ أَهْدَيْتَ لِجَارِنَا اليَهُودِيِّ؟ سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ**»(١).

سابعاً: الإحسان إليهم والبر بهم:

قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

وقال: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨]، والأسير مخالف معاد، جاء مقاتلا ثم أُسر، فلما أُسر صار محلاً للإحسان، ولذلك قال النبي ﷺ: «**اسْتَوْصُوا بِالأُسَارَى خَيْراً**»(٢).

١-كَانَ أَبُو عَزِيزِ بْنُ عُمَيْرِ بْنِ هَاشِمٍ، أَخُو مُصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ فِي أسارى بدر. قَالَ: كُنْتُ فِي رَهْطٍ مِنَ الأَنْصَارِ حِينَ أَقْبَلُوا بِي مِنْ بَدْرٍ، فَكَانُوا إِذَا قَدَّمُوا غَدَاءَهُمْ وَعَشَاءَهُمْ خَصُّونِي بِالخُبْزِ، وَأَكَلُوا التَّمْرَ، لِوَصِيَّةِ رَسُولِ الله ﷺ إِيَّاهُمْ بِنَا، مَا تَقَعُ فِي يَدِ رَجُلٍ مِنْهُمْ كِسْرَةُ خُبْزٍ إِلَّا نَفَحَنِي بِهَا. قَالَ: فَأَسْتَحْيِي فَأَرُدُّهَا عَلَى أَحَدِهِمْ، فَيَرُدُّهَا عَلَيَّ مَا يَمَسُّهَا(٣).

٢- وعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنها قَالَتْ: قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ، فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ، قُلْتُ: إِنَّ أُمِّي قَدْ قدمت علي وَهِيَ رَاغِبَةٌ، أَفَأَصِلُ أُمِّي؟ قَالَ: «**نَعَمْ؛ صِلِي أُمَّكِ**»(٤).

٣- وعَنْ عِكْرِمَةَ، أَنَّ صَفِيَّةَ بِنْتَ حُيَيٍّ أم المؤمنين بَاعَتْ حُجْرَتَهَا مِنْ مُعَاوِيَةَ بِمِئَةِ ألفٍ، وَكَانَ لَهَا أَخٌ يَهُودِيٌّ، فَعَرَضَتْ عَلَيْهِ أَنْ يُسْلِمَ فَيَرِثَ، فَأَبَى فَأَوْصَتْ لَهُ بِثُلُثِ المِئَةِ(٥).

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٠١٥)، و«صحيح مسلم» (٢٦٢٥).
(٢) «المعجم الكبير» للطبراني (٩٧٧).
(٣) «سيرة ابن هشام» (١/ ٦٤٥).
(٤) «صحيح البخاري» (٢٦٢٠)، و«صحيح مسلم» (١٠٠٣).
(٥) «مصنف عبد الرزاق» (١٩٣٢٧).

٤- وأتت جارية لها عمر بن الخطاب فقالت: إن صفية تحب السبت، وتصل اليهود، فبعث عمر يسألها، فقالت: أما السبت فلم أحبه منذ أبدلني الله به الجمعة، وأما اليهود فإن لي فيهم رحمًا فأنا أصلها[١].

ثامناً: عيادة مرضاهم، والقيام لجنائزهم:

١- كان غلام مِنَ اليَهُودِ يَخدُمُ النَّبِيَّ ﷺ فَمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِندَ رَأسِهِ، فَقَالَ: «**أَسلِمْ**». فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِندَ رَأسِهِ، فَقَالَ لَه: أَطِع أَبَا القَاسِمِ ﷺ. فَأَسلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: «**الحَمْدُ لله الذِي أَنقَذَهُ بِي مِنَ النَّارِ**»[٢].

٢- وكَانَ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ، وَقَيْسُ بْنُ سَعْدٍ قَاعِدَيْنِ بِالقَادِسِيَّةِ، فَمَرُّوا عَلَيْهِمَا بِجَنَازَةٍ، فَقَامَا، فَقِيلَ لَهُمَا إِنَّهَا مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ أَيْ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ، فَقَالَا: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّتْ بِهِ جِنَازَةٌ فَقَامَ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهَا جِنَازَةُ يَهُودِيٍّ، فَقَالَ: «**أَلَيْسَتْ نَفْسًا؟!**»[٣].

تاسعاً: دخولهم المساجد ودخول المسلمين معابدهم:

١- قدم وفد ثقيف على رسول الله ﷺ فضرب لهم قبة في مؤخرة المسجد؛ لينظروا صلاة المسلمين، إلى ركوعهم، وسجودهم، فقيل: يا رسول الله، أتنزلهم المسجد وهم مشركون؟ قال: «**إِنَّ الأَرْضَ لَا تَنْجُسُ، إِنَّمَا يَنْجُسُ ابْنُ آدَمَ**»[٤].

٢- ولما قدم وفد نجران على رسول الله ﷺ دخلوا عليه مسجده بعد صلاة العصر، فحانت صلاتهم، فقاموا يصلون في مسجده، فأراد الناس منعهم، فقال رسول الله ﷺ: «**دَعُوهُمْ، فَاسْتَقْبَلُوا المَشْرِقَ، فَصَلُّوا صَلَاتَهُمْ**»[٥].

وكذلك سائر وفود العرب، كلهم كانوا يدخلون المسجد إلى النبي ﷺ ويجلسون فيه عنده مسلمهم ومشركهم.

---

(١) «الاستيعاب» لابن عبد البر (٤/ ١٨٧٢).
(٢) «صحيح البخاري» (١٣٥٦).
(٣) «صحيح البخاري» (١٣١٢)، و«صحيح مسلم» (٩٦١).
(٤) «المراسيل» لأبي داود (ص: ٨٠).
(٥) «سيرة ابن هشام» (٢/ ١٥٩-١٦٠).

وكذا دخول المسلمين إلى كنائسهم ومعابدهم.

٣- ولَمَّا اشْتَكَى النبيُّ ﷺ ذَكَرَتْ بَعْضُ نِسَائِهِ كَنِيسَةً رَأَيْنَهَا بأَرْضِ الحَبَشَةِ يُقَالُ لَهَا: مَارِيَةُ، وكَانَتْ أُمُّ سَلَمَةَ، وأُمّ حَبِيبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَتَتَا أَرْضَ الحَبَشَةِ، فَذَكَرَتَا مِن حُسْنِهَا وتَصَاوِيرَ فِيهَا، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: «**أُولَئِكِ إِذَا مَاتَ منهمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ بَنَوْا علَى قَبْرِهِ مَسْجِداً، ثُمَّ صَوَّرُوا فيه تِلكَ الصُّورَةَ؛ أُولَئِكِ شِرَارُ الخَلْقِ عِنْدَ الله**»[١].

فحذَّر ﷺ من عمل هؤلاء في معابدهم ولم ينكر على زوجاته دخولهن الكنيسة ونظرهن إلى ما فيها.

٤- ودخل عمر بن الخطاب بيت المقدس، وجاء كنيسة القيامة فجلس في صحنها، وحان وقت الصلاة فقال للبطرك: أريد الصلاة، فقال له: صلِّ موضعك، فامتنع وصلَّى على الدرجة التي على باب الكنيسة منفرداً، فلما قضى صلاته قال للبطرك: لو صليتُ داخل الكنيسة أخذها المسلمون بعدي وقالوا هنا صلَّى عمر، وكتب لهم أن لا يجمع على الدرجة للصلاة ولا يؤذن عليها[٢].

عاشراً: المشاركة معهم في الاتفاقات والمعاهدات:

قال ﷺ عن حلف الفضول: «**لقدْ شَهِدْتُ في دارِ عبدِ الله بنِ جُدْعانَ حِلْفًا، لو دُعِيتُ به في الإسلامِ لأَجَبْتُ، تَحالَفوا أنْ يَرُدُّوا الفُضولَ على أهْلِها، وأنْ لا يعد ظالمٌ مَظلومًا**»[٣].

وقَالَ ﷺ وهو متوجه إلى مكة عام الحديبية: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ الله إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا**»[٤].

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٢٧)، و«صحيح مسلم» (٥٢٨).
(٢) «تاريخ ابن خلدون» (٢/ ٢٢٥).
(٣) «مسند البزار» (١٠٠٠)، و«السنن الكبرى» للبيهقي (١٣٠٨٠).
(٤) «صحيح البخاري» (٢٧٣١).

وهذا من التعاون في مساحة الحق المشترك بيننا وبينهم، كفضائل الأخلاق المذكورة في حلف الفضول، وتعظيم حرمات الله المذكورة في خبر الحديبية، وقد علق ابن القيم على ذلك بقوله: وَهَذَا مِنْ أَدَقِّ الْمَوَاضِعِ وَأَصْعَبِهَا وَأَشَقِّهَا عَلَى النُّفُوسِ، وَلِذَلِكَ ضَاقَ عَنْهُ مِنَ الصَّحَابَةِ مَنْ ضَاقَ[1].

حادي عشر: الاعتراف بالفضل لذوي الفضل منهم:

عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: لما ضاقت علينا مكة، وأوذي أصحاب رسول الله فقال لهم ﷺ: «**إِنَّ بِأَرْضِ الحَبَشَةِ مَلِكًا لَا يُظْلَمُ أَحَدٌ عِنْدَهُ فَالحَقُوا بِبِلَادِهِ حَتَّى يَجْعَلَ اللهُ لَكُمْ فَرَجًا وَمَخْرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ**»[2].

وَعَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله فِي أُسَارَى بَدْرٍ: «**لَوْ كَانَ المُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ حَيًّا، ثُمَّ كَلَّمَنِي فِي هَؤُلَاءِ النَّتْنَى لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ**»[3].

ووصفت أم سلمة صنيع عثمان بن طلحة حين هجرتها من مكة لتلحق بزوجها أبي سلمة، فقالت: لَقِيتُ عُثْمَانَ بْنَ طَلْحَةَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ أَخَا بَنِي عَبْدِ الدَّارِ، وكان حينها مشركًا، فَقَالَ لِي: إِلَى أَيْنَ يَا بِنْتَ أَبِي أُمَيَّةَ؟ قَالَتْ: فَقُلْتُ: أُرِيدُ زَوْجِي بِالمَدِينَةِ. قَالَ: أَوَمَا مَعَكِ أَحَدٌ؟ قَالَتْ: فَقُلْتُ: لَا وَالله، إِلَّا الله وَبُنَيَّ هَذَا. قَالَ: وَالله مَا لَكَ مِنْ مَتْرَكٍ، فَأَخَذَ بِخِطَامِ البَعِيرِ، فَانْطَلَقَ مَعِي يهوي بي، فوالله مَا صَحِبْتُ رَجُلاً مِنْ العَرَبِ قَطُّ أَرَى أَنَّهُ كَانَ أَكْرَمَ مِنْهُ، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي، ثم استأخر عني، حتى إذا نزلت استأخر ببعيري، فحط عنه -أي الرحل- ثم قيده في الشجرة، ثم تنحى عني إلى شجرة، فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح، قام إلى بعيري فقدمه فرحله، ثم استأخر عني، فقال: اركبي، فإذا ركبت واستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه، فقاده حتى ينزل بي، فلم يزل يصنع ذلك بي حَتَّى أَقْدَمَنِي المَدِينَةَ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَى قَرْيَةِ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ بقُبَاءٍ قَالَ: زَوْجُكِ فِي هَذِهِ القَرْيَةِ -وَكَانَ أَبُو سَلَمَةَ بِهَا نَازِلاً- فَادْخُلِيهَا عَلَى بَرَكَةِ الله، ثُمَّ انْصَرَفَ رَاجِعًا إِلَى مَكَّةَ.

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٢٦٩).

(٢) «السنن الكبرى» للبيهقي (١٧٧٣٤).

(٣) «صحيح البخاري» (٣١٣٩).

فكانت أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تقول: والله ما رأيت صاحبا قط أكرم من عثمان بن طلحة[1].

وهذه مروءة من رجل كان حينها مشركًا تذكرها أم سلمة بوفاء واحتفاء.

ثاني عشر: المحبة الفطرية لغير المسلمين:

وهي الاستجابة المشاعرية الفطرية لدواعي الحب من قرابة أو صداقة أو إحسان.

كحب الإنسان لوالديه، وحب الرجل لزوجته، وحب الصديق لصديقه، وحب المرء لمن أحسن إليه، وهذا شعور فطري دل على وجوده بين المسلمين والمسالمين من الكفار قوله تعالى لنبيه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦].

قال ابن جرير: ﴿إِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ هدايته... ثم قال: ولو قيل: معناه: إنك لا تهدي من أحببته لقرابته منك، ولكن الله يهدي من يشاء، كان مذهبا[2].

وسبب نزولها: أن أبا طالب لما حضرته الوفاة، دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية، فقال: «**يَا عَمِّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَا اللهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عَنْدَ الله!**». فقال له أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فقال النبي ﷺ: «**لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْهُ**». فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣]، ونزلت: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[3].

ومن المحبة الفطرية ما دل عليه قوله تعالى عن أهل الكتاب: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥]، فأحلَّ الله نكاح نساء أهل الكتاب، ومعلوم أن الزواج لابد أن يكون فيه بين الزوجين السكنُ والمودةُ والرحمةُ التي جعلها الله بين الأزواج كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

---

(١) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٨١).

(٢) «تفسير الطبري» (١٩/ ٥٩٨).

(٣) «صحيح البخاري» (٣٨٨٤)، و«صحيح مسلم» (٣٤).

وكذلك من كان أبواه كافرين فإن عدم إسلامهما لا يزيل فطرة المحبة لهما، ولذا قال تعالى مؤكداً حقهما حتى وإن أمرا بالشرك: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا﴾ [لقمان: ١٥].

ولا نظن أن الصحابة كانوا جفاة مع أقاربهم المشركين، ولا كانوا يستبطنون بغضهم.

وكذا من أحسن إلينا من غير المسلمين فإن أنفسنا ستميل إلى حبه، فقد جبلت النفوس على حب من أحسن إليها.

ولا نحسب الصحابة وهم عند النجاشي في ظل حمايته وإحسانه يستبطنون بغضه، إن الفطرة السوية لا تستجيب لذلك، وقد جاء نبينا ﷺ ليتمم مكارم الأخلاق، لا ليعلمنا اللؤم وسيء الأخلاق.

ولا يمكن أن يتقبَّل أحد دعوتَك إلا إذا علم أنك تحبه وتحب الخير له.

وهل نقبل أن يقال عن المسلمين: إنهم يعاملون غيرهم بالحسنى ظاهراً ويضمرون بغضهم باطناً؟!

والذي يقابل هذا الحب الفطري لغير المسلم هو البغض الفطري للمسلم لإساءة تصدر منه أو خصومة بينك وبينه، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ۝٤٥ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ۝٤٦ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٥-٤٧]، ﴿مِّنۡ غِلٍّ﴾ أي: من حقد وعداوة كانت في الدنيا[1]، فأثبت الله لهم وصف التقوى والمصير إلى الجنة وأن ما كان في صدورهم في الدنيا من غل -وهو أشد البغض- قد نزع منها.

عَنْ رِبْعِيِّ بْنِ حِرَاشٍ، قَالَ: قَالَ عَلِيٌّ: إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ مِمَّنْ قَالَ اللهُ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ﴾[2].

وكما أن البغض الفطري بين بعض المؤمنين لا يقدح في عقيدة الولاء، فكذلك الحب الفطري لغير المسلم لإحسانٍ منه أو قرابةٍ أو صداقةٍ بينك وبينه لا يقدح أيضا في عقيدة البراء.

(١) «المفردات في غريب القرآن» (ص: ٦١٠)، و«لسان العرب» (١١/ ٤٩٩).

(٢) «مصنف ابن أبي شيبة» (٣٧٧٩٥).

ثالث عشر: حفظ حقوقهم:

فقد كان المخالفون لرسول الله ﷺ من اليهود والمشركين مصاني الحقوق يتمتعون بالحماية الكاملة لدمائهم وأموالهم وحقوقهم، ومن ذلك: أنه توفي ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعاً من شعير فما وجد ما يفتكّها به حتى توفي[1]، وإنك لتعجب أن يقترض النبي من هذا اليهودي وهو في عز دولته، وقد فتح مكة ودانت له الجزيرة العربية كلها، ومع ذلك لا يقرضه هذا اليهودي حتى يأخذ رهناً، ومات النبي ﷺ قبل أن يتمكن من إيفاء القرض وافتكاك الرهن، فأداه علي واسترد الدرع.

وعندما هاجر ﷺ من مكة خلف عليا بعده حتى يؤدي عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس، وكان رسول الله ﷺ وليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده لما يعلم من صدقه وأمانته[2]، وأصحاب الودائع هؤلاء هم المشركون في مكة.

ومن حفظ حقوقهم حرمة دمائهم وصيانتها والوعيد الشديد على التعدي عليهم فقال ﷺ: «**مَنْ قَتَلَ مُعَاهَداً لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَاماً**»[3]، والمعاهَد هو من دخل بلاد المسلمين بعهد وأمان أو كان من أهل الذمة.

رابع عشر: الحرص على هدايتهم:

وعندما ننظر إلى حرص النبي ﷺ على هداية المخالفين نجده يتوقد بعاطفة مشبوبة هي كحرص الوالد على ولده أو أشد، حتى كادت نفسه أن تذهب حسرات عليهم، فعاتبه ربه الذي أرسله فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦] باخع نفسك أي مهلكها، وقال: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ [فاطر: ٨].

ومن أمثلة ذلك:

١- موقفه حين عاد من الطائف إلى مكة مهموماً فاستفاق في قرن الثعالب قال: «**فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ:**

(١) «صحيح البخاري» (٢٩١٦)، و«صحيح مسلم» (١٦٠٣).
(٢) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٩٩).
(٣) «صحيح البخاري» (٣١٦٦).

إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ: ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ؟»، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»**[(١)].

فاحتمل ﷺ هموم الدعوة ولأواءها، ومصابرة الملأ من قريش طمعًا في إسلامهم أو إسلام ذرياتهم.

٢- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بَيْنَمَا نَحْنُ فِي المَسْجِدِ إِذْ خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ، فَقَالَ: **«انْطَلِقُوا إِلَى يَهُودَ»**. فَخَرَجْنَا مَعَهُ حَتَّى جِئْنَا بَيْتَ المِدْرَاسِ، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ فَنَادَاهُمْ: **«يَا مَعْشَرَ يَهُودَ! أَسْلِمُوا تَسْلَمُوا»**. فَقَالُوا: قَدْ بَلَّغْتَ يَا أَبَا القَاسِمِ، فَقَالَ: **«ذَلِكَ أُرِيدُ»**[(٢)].

٣- ولما زار النبي ﷺ الغلام اليهودي الذي كان يخدمه وهو مريض مدنف فدعاه إلى الإسلام فأسلم ثم مات، ففرح ﷺ بإسلامه وقال: **«الحَمْدُ لله الَّذِي أَنْقَذَهُ بِي مِنَ النَّارِ»**[(٣)].

وهذا الفرح بإسلام فتى أسلم ثم مات هو فرح بالهداية التي كان نبينا ﷺ يذيب مهجته في بلاغها.

٤- وفي غزوة أحد عندما شُج رأسه ﷺ وكسرت رَباعيته[(٤)] فجعل يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ: **«اللهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»**[(٥)].

قال القرطبي: وإذا تأمل الفطن هذا الدعاء في مثل تلك الحال علم معنى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] فإنه ﷺ لم يدع عليهم فينتصر، ولم يقتصر على العفو حتى دعا لهم، ولم يقتصر على الدعاء لهم حتى أضافهم لنفسه على جهة الشفقة،

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٢٣١)، و«صحيح مسلم» (١٧٩٥).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٩٤٤)، و«صحيح مسلم» (١٧٦٥).

(٣) «صحيح البخاري» (١٣٥٦).

(٤) الرَبَاعِيَة: هِيَ السِّنُّ الَّتِي تَلِي الثَّنِيَّةَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَلِلإِنْسَانِ أَرْبَعُ رَبَاعِيَاتٍ. ينظر: «شرح النووي على مسلم» (١٢/ ٤٨١).

(٥) «صحيح ابن حبان» (٩٧٣).

ولم يقتصر على ذلك حتى جعل لهم جهلهم بحاله كالعذر، وإن لم يكن عذراً، وهذا غاية الفضل والكرم التي لا يشارك فيها ولا يوصل إليها[1].

إن التعايش والسلم هو مناخ الدعوة، ولذا كان السلم بعد صلح الحديبية سبباً في انتشار الإسلام في بقية قبائل العرب، وخروجه خارج الجزيرة العربية، ولقد جاء النبي ﷺ إلى عمرة الحديبية ومعه ألف وأربعمئة، وبعد سنتين جاء إلى مكة فاتحاً ومعه عشرة آلاف، ولذا قال الزهري: لم يكن فتحٌ أعظم من صلح الحديبية، وذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين، فسمعوا كلامهم، فتمكن الإسلام في قلوبهم، وأسلم في ثلاث سنين خلق كثير[2].

وكان تعامل المسلمين الفاتحين مع أهل الأديان سبباً في إسلامهم، وتمسكهم بالدولة الإسلامية.

فهذا هدي النبي ﷺ وهداه، وهذه عظمته الأخلاقية في تعامله مع من يخالفون دينه، ويتأبون عن اتباعه، فكيف سيكون تعامله وحسن خلقه مع المؤمنين به، المحبين له، المعظمين لدينه وأمره.

وإذا كان هذا هو الهدي النبوي في التعامل مع المخالف دينا فكيف بالتعامل مع الأخ المسلم الذي يخالفنا في شأن جرى الخلاف فيه قديماً من غير أن يكون مخرجا عن دائرة الإسلام.

وعندما نرى بغي بعض المسلمين على بعض بسبب بعض الاختلافات العقدية أو الفقهية التي جرى الخلاف فيها قديماً نقول: ليت المسلمين اليوم يعامل بعضهم بعضا كما كان النبي ﷺ يعامل غير المسلمين.

وليت بعض إخواننا من المسلمين يعاملوننا كما كان النبي ﷺ يعامل غير المسلمين[3].

---

(١) ينظر: «المفهم» للقرطبي (٣/ ٦٥٠).

(٢) «التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ١٣٣).

(٣) كلمة لأخي الشيخ عائض القرني.

تتمة:

وبعد ذكر هذه الآداب العالية بأدلتها النيرة قد يرد تساؤل حول التوفيق بين ذلك كله وما ورد في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صلى عليه وسلم قال: «**لَا تَبْدَؤوا اليَهُودَ وَلَا النَّصَارَى بِالسَّلَامِ، فَإِذَا لَقِيتُمْ أَحَدَهُمْ فِي طَرِيقٍ، فَاضْطَرُّوهُ إِلَى أَضْيَقِهِ**»[(١)]، وما ورد في معناه.

والجواب -والله أعلم-: أن فهم هذا الحديث إنما يكتمل بجمع رواياته وتطبيقاته، والأدلة التي في معناه، ليتضح من خلالها المقصود به.

فإذا جمعنا رواياته اتضح أن هذا الحديث مخصوص بحالةٍ خاصة وهي حال الحرب والقتال، والدليل ما رواه أَبو عَبْدِ الرَّحْمَنِ الجُهَنِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنِّي رَاكِبٌ غَداً إِلَى اليَهُودِ فَلَا تَبْدَؤوهُمْ بِالسَّلَامِ، فَإِذَا سَلَّمُوا عَلَيْكُمْ فَقُولُوا: وَعَلَيْكُمْ**»[(٢)]، ونحوه عَنْ أَبِي بَصْرَةَ الغِفَارِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنِّي مُنْطَلِقٌ غَداً إِلَى يَهُودَ فَلَا تَبْدَؤوهُمْ بِالسَّلَامِ، فَإِنْ سَلَّمُوا عَلَيْكُمْ فَقُولُوا: وَعَلَيْكُمْ**»[(٣)].

فقوله: «**إِنِّي رَاكِبٌ إِلَى يَهُودَ**» أو «**إِنّا غَادُونَ إِلَى يَهُودَ**»، يدل أن هذا كان عند التجهيز لإحدى غزواته لبعض اليهود، وإلا فاليهود موجودون في أنحاء المدينة وأحيائها فتخصيص المقالة بهذه الحالة يدل على أن ذلك وقع لما غدر اليهود وذهب النبي ﷺ إليهم محاربـًا، فكان يقول ذلك لأصحابه[(٤)]؛ لأن إلقاء السلام لا يتطابق مع إرادة القتال، فهو عهد وميثاق بالمسالمة لا يجوز نقضه.

ويزيد الأمر وضوحـًا النظر إلى تطبيقات الحديث، فإنه لم يؤثر في هدي النبي ﷺ ولا أصحابه أنهم لقوا ذميـًا فاضطروه إلى أضيق الطرق، ولا نقل ذلك عنهم[(٥)].

---

(١) «صحيح مسلم» (٢١٦٧).

(٢) «سنن ابن ماجه» (٣٦٩٩).

(٣) «الأدب المفرد» (١١٠٢).

(٤) «زاد المعاد» (٢/ ٣٨٨).

(٥) «الصحوة الإسلامية، ضوابط وتوجهات» لابن عثيمين (١٨٩).

ولم يكن هذا هو الهدي العملي الذي يسلكونه على كثرة خلطتهم لليهود في المدينة والبلاد التي فتحوها بعد ذلك.

وكذا إذا نظرنا إلى بدئهم بالسلام فإن الملاحظ في تطبيقات الصحابة عدم تحري ذلك، ولا تطبيقه مع من يلقونه من قراباتهم ومعارفهم.

وإذا نظرت إلى أحوالهم استبان ذلك.

فهل نتوقع أن النبي ﷺ ومعه أبو بكر ويصحبهم ذاك المشرك النبيل عبد الله بن أريقط في طريق الهجرة أنه إذا أقبل عليهم سلم عليهم، وإذا جاؤوا إليه لم يسلموا؟ ما شعور العربي الحر إذا أحس بهذه المعاملة هل سيكمل الطريق معهم؟

وهل نتوقع أن سعد بن معاذ عندما نزل ضيفًا على صديقه أمية بن خلف في مكة كان يتوقى بداءته بالسلام وقد نزل داره وأكل طعامه؟

وقد أسلم بعض الشباب قبل آبائهم وأمهاتهم فهل كانوا يعاملونهم كذلك؟

ولذا فإن الذي يوضح معيار التعامل هو قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]، فكيف يجوز ابتداؤهم بالبر والمعروف، ولا يجوز ابتداؤهم بالسلام؟!

وقد قال إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لأبيه بعد جداله له: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

فإذا جمعت هذه النصوص والتطبيقات اتضح أن هذا الحديث قد ورد لحالة خاصة وهي حال التحضير للحرب.

وأما في حالات الذمة والسلم فترجع العلاقة إلى هداية قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾، والله أعلم[1].

(١) ينظر: «خزانة المراسلات» للشيخ سلمان العودة.

خلاصات:

١- التعايش الاجتماعي والمخالطة مع المخالفين سمة المجتمع النبوي.

٢- ومن مظاهر هذا التعايش التزاور بزيارتهم في بيوتهم، واستضافتهم في بيت النبي ﷺ.

٣- الاستعانة بذوي النفوذ والرأي ومن تحسن الاستعانة به منهم.

٤- إقرار العلاقات والتعاملات الإنسانية مع غير المسلمين.

٥- قبول الهدايا منهم وإثابتهم عليها.

٦- الإحسان إليهم والبر بهم.

٧- عيادة مرضاهم والقيام لجنائزهم.

٨- المشاركة معهم في الاتفاقات والمعاهدات.

٩- المحبة الفطرية لمن يُحَبُّ منهم لقرابته أو إحسانه.

١٠- حفظ حقوقهم، وحمايتهم من التعدي عليهم.

١١- الحرص على هدايتهم.

١٢- التعاون مع المخالف في مساحة المشترك والمتفق عليه.

الرسول ﷺ والأعداء

لا يمكن لصاحب رسالة أو دعوة أن يقوم بواجبه ودعوته دون أن تواجهه خصومات وعداوات، يمكن التقليل منها ومداراتها، ولا يمكن تجاوزها وإلغاؤها بالكلية، كما قال جل وعز: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١] هادياً لأوليائه، ونصيراً لهم على أعدائهم، ولذلك واجه النبي ﷺ في رسالته ودعوته عداوات كثيرة متنوعة، وحينما نقف مع حال النبي ﷺ مع أعدائه والعداوات حوله نلاحظ:

أولاً: أن النبي ﷺ واجه منذ بداية دعوته عداوات أعداء عظام، ولا يصلح أن نهون من شأن أعداء النبي ﷺ ونقدمهم بصورة ساخرة أو واهنة، فقد كانوا عظماء في مواهبهم وقدراتهم وأقدارهم، فكان أبو جهل عبقريّاً في القيادة استطاع أن يقود زعماء قريش وفيهم من هو أكبر وأجل منه، وكان حيي بن أخطب داهية في دبلوماسيته قديراً على تكوين التحالفات، استطاع أنه يجمع عشرة آلاف مقاتل حول المدينة من قبائل شتى، واستطاع أن يغري بني قريظة حتى نقضوا العهد مع النبي ﷺ وذلك ببراعته الدبلوماسية، وكان عبدُ الله بنُ أُبَيٍّ ابنُ سَلول زعيماً عظيماً في زعامته، فهو الرجل الذي استطاع أن يَجمع عليه الأوس والخزرج قبل مقدم النبي ﷺ فيتفقوا أن يكون ملكاً عليهم، وكان من الصعوبة أن يتفقوا على غيره لشدة العداوة فيما بينهم.

فتهوين شأن أعداء النبي ﷺ تهوينٌ لشأن انتصاره وغلبته عليهم، لقد كانوا ذوي مواهب وقدرات لكنهم كانوا مع الباطل ضد الحق، والله غالب على أمره، ولذلك انتهى كيدهم، وفشلت عداوتهم، وكان عاقبة أمرهم خسراً.

ثانيًا: واجه النبي ﷺ أشد العداوات، وأمرّها، وأمضّها، وهي عداوة ذوي القربى.

وَظُلْمُ ذَوي القُربى أَشَدُّ مَضاضَةً عَلى المَرءِ مِن وَقعِ الحُسامِ المُهَنَّدِ[1]

فكان أعداؤه في مكة، هم عشيرته، وذوو قرباه.

فأبو لهب عمه الذي يجمعه وإياه جده عبد المطلب، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، أبناء عمه، يجمعهم وإياه جده عبد مناف، وعقبة بن أبي مُعيط يلتقي معه في جده عبد مناف، والنضر بن الحارث يلتقي معه في جده قصي بن كلاب، والوليد بن المغيرة وأبو جهل يلتقيان معه في جده مرّة بن كعب، وأمية بن خلف يلتقي معه في جده كعب بن لؤي.

ولذا ناشدهم المودة في القربى، ورعاية الرحم والنسب، قال الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]، قال ابن عباس: كان لرسول الله ﷺ قرابة في جميع قريش، فلما كذبوه وأبوا أن يبايعوه قال: «**يَا قَوْم! أَرَأَيْتُمْ إِذَا أَبَيْتُمْ أَنْ تُتَابِعُونِي فَاحْفَظُوا قَرَابَتِي فِيكُمْ، وَلَا يَكُونُ غَيْرُكُمْ مِنَ العَرَبِ أَوْلَى بِحِفْظِي وَنُصْرَتِي عَنْكُمْ**»[2].

ثالثًا: برغم تلك العداوة وشدة الأذى إلا أن حرص النبي ﷺ كان على هدايتهم، وليس على الانتقام منهم، ولذا دعا الله: أن يعز الإسلام بأحد العمرين: أبي جهل عمرو بن هشام، أو عمر بن الخطاب، فعَنْ ابْنِ عُمَرَ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**اللهُمَّ أَعِزَّ الإِسْلَامَ بِأَحَبِّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ أَوْ بِعُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ**». فَكَانَ أَحَبُّهُمَا إِلَى الله عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ[3].

وعندما قال الطفيل بن عمرو إن دوسًا عصت وأبت فادع عليهم، دعا لهم ولم يدع عليهم، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَدِمَ طُفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو الدَّوْسِيُّ وَأَصْحَابُهُ، عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ دَوْسًا عَصَتْ وَأَبَتْ، فَادْعُ اللهَ عَلَيْهَا، فرفع النبي ﷺ يديه فَقِيلَ: هَلَكَتْ دَوْسٌ، فقَالَ: «**اللهُمَّ اهْدِ دَوْسًا وَأْتِ بِهِمْ**»[4].

---

(١) «ديوان طرفة بن العبد» (ص٢٧).

(٢) «تفسير الطبري» (٢١/ ٥٢٥)، و«المعجم الكبير» للطبراني (١٣٠٢٦).

(٣) «جامع الترمذي» (٣٦٨١).

(٤) «صحيح البخاري» (٢٩٣٧)، و«صحيح مسلم» (٢٥٢٤).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ الله ادْعُ عَلَى المُشْرِكِينَ قَالَ: «**إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً**»(١).

وفرح بإسلام مَن أسلم منهم، فقال: «**مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ**». فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ عَامَ الفَتْحِ، جَاءَهُ العَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ بِأَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ فَأَسْلَمَ بِمَرِّ الظَّهْرَانِ، فَقَالَ لَهُ العَبَّاسُ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ يُحِبُّ هَذَا الفَخْرِ، فَلَوْ جَعَلْتَ لَهُ شَيْئًا، قَالَ: «**نَعَمْ، مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ**»(٢).

وعندما فتح مكة وجاءت قريش تبايعه على الإسلام جلس يبايعهم والسرور باد عليه والفرح يطفر من وجهه حتى خاف الأنصار أنه سيبقى في مكة ولا يرجع معهم، فقالوا: أما الرجل فقد أدركته رغبةٌ في قريته ورأفة بعشيرته قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَجَاءَ الوَحْيُ، وَكَانَ إِذَا جَاءَ لَمْ يَخْفَ عَلَيْنَا، فَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ يَرْفَعُ طَرْفَهُ إِلَى رَسُولِ الله حَتَّى يَقْضِيَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ**» قَالُوا: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «**قُلْتُمْ: أَمَّا الرَّجُلُ فَأَدْرَكَتْهُ رَغْبَةٌ فِي قَرْيَتِهِ؟**»، قَالُوا: قَدْ كَانَ ذَاكَ، قَالَ: «**فَمَا اسْمِي إِذَنْ؟ كَلَّا، إِنِّي عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ، هَاجَرْتُ إِلَى الله وَإِلَيْكُمْ، وَالْمَحْيَا مَحْيَاكُمْ وَالْمَمَاتُ مَمَاتُكُمْ**»، فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَبْكُونَ وَيَقُولُونَ: وَالله، مَا قُلْنَا الَّذِي قُلْنَا إِلَّا الضِّنَّ بِالله وَبِرَسُولِهِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ الله وَرَسُولَهُ يُصَدِّقَانِكُمْ، وَيَعْذِرَانِكُمْ**»(٣).

وأعطى أبا سفيان مئة من الإبل، وأعطى ابنيه يزيد ومعاوية مئة مئة.

وأبو سفيان هو الذي قاد الجيوش لحربه في أحد، والخندق، لكن إرادة الهداية أعظم من شهوة الانتقام.

رابعًا: نلاحظ نجاح النبي ﷺ الفائق في تحويل عداوات شديدة إلى محبة شديدة، ولذلك يمر عليك في سير بعض الصحابة قولهم له: ما كان وجه أبغض إلي من وجهك، وإن وجهك اليوم لأحب الوجوه إلي، وما كان دين أبغض إلي من دينك، وإن دينك لأحب الدين إلي.

(١) «صحيح مسلم» (٢٥٩٩).
(٢) «سنن أبي داود» (٣٠٢١)، وأصله في «صحيح مسلم» (١٧٨٠)، مختصراً.
(٣) «صحيح مسلم» (١٧٨٠).

هذه يقولها ثمامة بن أثال الذي جاء من نجد[١]، ويقول مثلها عمرو بن العاص الذي جاء من مكة[٢]، ويقولها صفوان بن أمية بن خلف، وتقولها هند بنت عتبة بن ربيعة[٣]، إنها براعة النبي ﷺ في احتواء العداوات وتحويلها إلى مودات.

خامسًا: نلاحظ أن العداوات حول النبي ﷺ كانت تضيق ولا تتسع، وتنكمش ولا تتمدد، فلم يكن النبي ﷺ يجعل العداوات تتداعى وتنتشر، ولكن يضيقها في أضيق نطاق، ولم يكن النبي ﷺ يجعل العداوات تسري من الآباء إلى الأبناء، بل لم يكن ﷺ يذكر للأبناء عداوات آبائهم مهما بلغت شدةً وكيداً، ولما فتح مكة هرب عكرمة بن أبي جهل إلى البحر فأرسل النبي ﷺ إليه بالأمان، فلما عاد جعل ﷺ ينقي الأجواء لاستقباله فقال لأصحابه: «**لا تَسُبُّوا الأَمْوَاتَ** -يَعْنِي أَبَا جَهْلٍ- **فَإِنَّ ذَلِكَ يُؤْذِي الحَيَّ وَلَا يَضُرُّ المَيِّتَ**»[٤]. فلما أقبل عكرمة قام النبي ﷺ يتلقَّاه ويقولُ له: «**مَرْحَبًا بِالرَّاكِبِ المُهَاجِرِ**»[٥]. ولم يُذْكَر لنا أن النبي ﷺ ذكَّره بعداوة أبيه أو ذَكَرها له، ولذا أسلم وصحب النبي ﷺ مَن كان آباؤهم أشد أعدائه، ووجدوا في كنفه الرعاية والحب والاحتواء، مثل أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معُيط، وعبدُ الله بنُ عبدِ الله بنِ أُبَيٍّ ابنِ سَلولَ، وعكرمة بن أبي جهل، والوليد وخالد ابني الوليد بن المغيرة، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وصفوان بن أمية بن خلف، وغيرهم.

سادسًا: هذه العداوات لم تكن تستفز النبي ﷺ فتصنع أهدافه أو تقود اتجاهه، وإنما كان الذي يقود أهدافه ويحدد اتجاهه رسالتُه ومسؤوليتُه وليس ردات الفعل مع العداوات، رجع من الطائف بعد أن كذبه أهلها وردوا دعوته إلى مكة مكروبًا كربًا شديداً لأنه إذا دخلها فستواجهه قريش بالشماتة وشدة العداوة والجرأة على الإيذاء، فنزل عليه ملك الجبال، وعرض عليه أن يطبق على أهل مكة الأخشبين -وهما جبلا مكة اللذان يحيطان بها- فيدفنهم تحت أحجارها، إلا أن الجواب من النبي ﷺ جاء سريعًا حاسمًا: «**لَا، بَلْ أَسْتَأْنِي بِهِمْ،**

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٣٧٢)، و«صحيح مسلم» (١٧٦٤).

(٢) «صحيح مسلم» (١٢١).

(٣) «صحيح البخاري» (٣٨٢٥)، و«صحيح مسلم» (١٧١٤).

(٤) «جامع الترمذي» (١٩٨٢).

(٥) «جامع الترمذي» (٢٧٣٥).

لَعَلَّ اللهَ يُخْرِجُ مِنْ أَصْلابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»[1]. فكان الذي يقود النبي ﷺ هو هدفه وهو إرادة هداية الناس، وليس ردة الفعل مع العداوات، ولذلك أسعد الله قلبه وأقر عينه، ورأى الذين عادوه وقد خرج من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئًا، ورأى أبناء الذين قاتلوه يشهدون معه أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

سابعًا: مع كثرة العداوات وشدتها إلا أن النبي ﷺ لم يتطامن في التعامل مع الأعداء إلى ما لا يليق بمقامه الكريم، فلم تُؤثر عنه كلمة فاحشة، ولا تصرف قبيح، بحيث تروى لنا اليوم سيرته، فلا نجد فيها ما يخدش الحياء، أو يزري بالمروءة، برغم ما لاقى من أنواع العدوات والاستفزازات، فما كان فاحشًا ولا متفحشًا ولا صخابًا في الأسواق.

كما أنَّا لا نجد مع شدة العداوات التي لقيها أنه ﷺ أهان كرامة إنسان مهما كانت عداوته، حتى من استحقوا القتل أمر بقتلهم بدون مثلة أو تعذيب أو تشفٍّ.

ثامنًا: إن النبي ﷺ نجح في احتواء أكثر العداوات، وتحويلها إلى مودات، أما العداوات التي لم يمكن احتواؤها فهي العداوات التي كان منطلقها الحسد، فالذين عادوا النبي ﷺ حسداً لجوا في عداوتهم إلى آخر حياتهم، فأبو جهل لم يمنعه من الإيمان برسالة النبي ﷺ عدم قناعته بها، ولكن استكبر أن يكون النبي ﷺ من بني عبد مناف وهو من بني مخزوم، ولا يريد أن تستأثر بنو مناف بالنبوة فيهم، فلم يستجب له حسداً، وحيي بن أخطب اليهودي كانت مشكلته مع النبي ﷺ أن النبي كان عربيًا وليس إسرائيليًا، وهو ينتظر النبوة في بني إسرائيل، فحسده لذلك، ولذلك لجَّ في عدواته، وعبدُ الله بنُ أُبَيٍّ ابنُ سَلولَ كانت مشكلته مع النبي ﷺ أنه نَفَس عليه الزعامة، حيث أتى النبي ﷺ وهم على وشك أن ينصبوه ملكًا على المدينة فلما جاء النبي ﷺ انفضوا عنه، ولذلك شَخَّص سعد بن عبادة عداوة عبدِ الله بنِ أُبَيٍّ ابنِ سَلولَ للنبي ﷺ فقال: يا رسول الله إنك أتيتنا وكنا ننظم له الخرز لِنُتَوِّجَهُ علينا، ولذلك حسدك[2].

(١) «صحيح البخاري» (٣٢٣١)، و«صحيح مسلم» (١٧٩٥).

(٢) «سيرة ابن هشام» (٢/ ١٦٨).

فهؤلاء الذين كانت عداوتهم مع النبي ﷺ حسداً من عند أنفسهم لجوا في عداوتهم وذهبوا بحسدهم معهم إلى قبورهم، أما رسولنا ﷺ فقد أظهر الله دينه على الدين كله ولو كره المشركون، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

تاسعاً: لم يكن ﷺ يعامل الأعداء على أنهم نوع واحد، ولذا تنوع تعامله معهم بحسب ما يناسب كل حالة، ويظهر ذلك جلياً في تعامله مع أسرى بدر؛ فقد مَنَّ على بعضهم وأطلقهم من غير فداء كأبي عزة الجمحي، وأخذ الفداء من بعضهم، وقتل مجرمي الحرب منهم وهم النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط.

وكذا تعامله مع هوازن بعد معركة حنين، حيث رد عليهم أسراهم، واستمال قائدهم مالك بن عوف النصري حتى صار من أتباعه.

وهذه براعة نبوية في التعامل مع الأعداء، بحيث يتفتت تكتلهم، ويستدرج من فيه قابلية للإصلاح منهم.

عاشراً: أن الله أقر عينه، وشفى صدره، من أعدائه، فقد قرت عينه بإسلام كثير منهم بعد طول العداوة، كعمرو بن العاص وخالد بن الوليد، وأبي سفيان بن حرب، أو بإسلام أبنائهم كعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، وأم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط.

وأما الذين لجوا في عدواتهم فقد شفى الله صدره، وأذهب غيظ قلبه منهم، حيث رأى مصارعهم وعاقبة أمرهم، فبعد معركة بدر، سحبت جثث رؤوس الكفر، عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو جهل، وغيرهم، وألقيت في بئر مهجورة في بدر.

فعن أَنَس بْن مَالِكٍ، عَنْ أَبِي طَلْحَةَ، أَنَّ نَبِيَّ الله ﷺ أَمَرَ يَوْمَ بَدْرٍ بِأَرْبَعَةٍ وَعِشْرِينَ رَجُلاً مِنْ صَنَادِيدِ قُرَيْشٍ، فَقُذِفُوا فِي طَوِيٍّ مِنْ أَطْوَاءِ بَدْرٍ خَبِيثٍ مُخْبِثٍ، وَكَانَ إِذَا ظَهَرَ عَلَى قَوْمٍ أَقَامَ بِالعَرْصَةِ ثَلَاثَ لَيَالٍ، فَلَمَّا كَانَ بِبَدْرٍ اليَوْمَ الثَّالِثَ أَمَرَ بِرَاحِلَتِهِ فَشُدَّ عَلَيْهَا رَحْلُهَا، ثُمَّ مَشَى وَاتَّبَعَهُ أَصْحَابُهُ، وَقَالُوا: مَا نُرَى يَنْطَلِقُ إِلَّا لِبَعْضِ حَاجَتِهِ، حَتَّى قَامَ عَلَى شَفَةِ الرَّكِيِّ، فَجَعَلَ يُنَادِيهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ: «**يَا فُلَانُ بْنَ فُلَانٍ، وَيَا فُلَانُ بْنَ فُلَانٍ، أَيَسُرُّكُمْ أَنَّكُمْ أَطَعْتُمُ اللهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنَّا قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًا، فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًا؟**». فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ الله، مَا تُكَلِّمُ مِنْ أَجْسَادٍ لَا أَرْوَاحَ لَهَا؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ:

«وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ». قَالَ قَتَادَةُ: أَحْيَاهُمُ اللهُ حَتَّى أَسْمَعَهُمْ قَوْلَهُ تَوْبِيخًا وَتَصْغِيراً وَنَقِيمَةً وَحَسْرَةً وَنَدَمًا[1].

وقتل النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط، صبراً[2] بين يديه، لسابق عداوتهم وأذاهم، وأما حيي بن أخطب الذي كاد المكايد، وحزّب الأحزاب، فقد جيء به مغلولاً، مع بني قريظة في أسوأ عاقبة وأخزى مصير، ثم قتل مهزومًا مخذولاً.

خلاصات:

١- واجه النبي ﷺ عداوات من أعداء كانوا عظماء في مواهبهم وقدراتهم ومكانتهم، ولكن الحق كان أغلب.

٢- كانت أشد العداوات وأمضّها عداوات ذوي قرباه في مكة فناشدهم: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ [الشورى: ٢٣].

٣- كانت أشد العدوات التي لقيها ﷺ هي تلك العداوات الإبليسية التي كان باعثها الحسد.

٤- برغم شدة العداوة منهم إلا أن حرصه على هدايتهم كانت أعظم في نفسه ولذا قال: «اللهُمَّ أَعِزَّ الإِسْلَامَ بِأَحَدِ العُمَرَيْنِ».

٥- نجح ﷺ في تحويل أكثر العداوات إلى مودات واحتواها بحسن خلقه وسياسته.

٦- كانت العداوات حول النبي ﷺ تضيق ولا تتوسع، وتزول ولا تتعمق.

٧- هذه العدوات على شدتها وضراوتها لم تحرف النبي ﷺ عن أهدافه ولم تغير أولوياته.

٨- لم يتطامن ﷺ في تعامله مع أعدائه، ولم يتخل عن عظمته الأخلاقية.

٩- أقر الله عين نبيه بهداية كثير من أعدائه بعد طول عداء أو هداية أبنائهم، وشفى صدره وأذهب غيظه ممن لجّوا في عداوته واستطالوا في أذاه فشهد هلاكهم وسوء عاقبتهم.

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٩٧٦)، و«صحيح مسلم» (٢٨٧٤).

(٢) كل من قتل في غير معركة ولا حرب ولا خطأ فإنه مقتول صبراً. ينظر: «النهاية» (٣/ ٨).

الرسول ﷺ والمنافقون

بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة بقي بعض زعمائها على شركهم وقد شَرِقُوا بالرسول والرسالة فلم يؤمنوا به ولم يتبعوه، ومع ذلك فلم يعرض لهم ﷺ بغير الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة.

ثم نجم النفاق في المدينة حين كثر المسلمون وقوي أمرهم وكانت وقعة بدر المؤذنة بغلبة هذا الدين وظهوره، فقال كبيرهم عبدُ الله بنُ أُبَيٍّ ابنُ سَلولَ: هذا أمرٌ قد توَجّه، فأظهر هو وأتباعُه الدخولَ في الإسلام وهم يستبطنون الكفر وبغض الرسول ﷺ والكيد له ما أمكنهم، ولذا تنزلت آيات القرآن تحذر منهم، وتذكر صفاتهم، وتفضح مكائدهم، فهم في المجتمع قلة، ولكنها قلة خطرة مدمرة ما لم يُتعامل معها بيقظة وحذر.

على أن وجود النفاق مظهر قوة للمسلمين، حيث أدت غلبتهم إلى إسرار هؤلاء بكفرهم، والإعلان بالإيمان الزائف، وهو عكس حال المسلمين في حال الضعف في مكة حين اضطر بعضهم أن يكتم إيمانه ويستخفي بدينه.

ومن مظاهر ضعف المنافقين وقوة المسلمين وغلبتهم اضطرار بعضهم للخروج مع النبي ﷺ في غزواته حتى لا يفتضحوا، كالذين خرجوا معه في أُحد ثم قالوا: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤]، أو الذين خرجوا معه في تبوك وقالوا: ما رأينا مثل قرّائنا هؤلاء، أرغبَ بطونًا، ولا أكذبَ ألسنة، ولا أجبن عند اللقاء. فنزل القرآن يفضحهم: ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ٦٤]. فجاؤوا يعتذرون ويقولون: إنما كنا نخوض ونلعب.

قال عبد الله بن عمر يصف حال أحدهم: فأنا رأيته متعلقاً بحَقَب[1] ناقة رسول الله ﷺ تنكبه الحجارة وهو يقول: يا رسول الله: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُۚ﴾ [التوبة: ٦٥] ورسول الله ﷺ يقول: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْۚ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦].

والتصور الذي يتحصل من مجموع الأخبار عن المنافقين أنهم بعض كبار السن من طبقة عبدِ الله بنِ أُبَيٍّ ابنِ سَلولَ وأتباعهم شَرِقوا بدعوة النبي ﷺ لما قدم المدينة، ورأوا انجفال الناس إليه، وظنوا أن مجيئه سيذهب بجاههم ومكانَتِهم، فتمنعوا عن متابعته، ثم تظاهروا بالإسلام بعد بدر، لما غمرهم المسلمون كثرةً ومنعةً.

وهم يقابلون في مكة ملأ قريش وأشياخها الذين واجهوا الدعوة كأبي جهل، وعتبة بن ربيعة، وأمية بن خلف، والوليد بن المغيرة وطبقتهم.

علماً أن هؤلاء فئة من الكبراء وليسوا الأكثر، فكثير من أشياخ الأنصار أسلموا وأبلوا في الإسلام البلاء الحسن، مثل عبد الله بن حرام، وسعد بن عبادة، وعمرو بن الجَمُوح، واليمان بن حِسْل، وغيرهم رضي الله عنهم.

والدليل على ذلك أن حذيفة لما سئل عنهم قال: لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ -أي مَن يَعرفُ من المنافقين- إِلاَّ أَرْبَعَةٌ، أَحَدُهُمْ شَيْخٌ كَبِيرٌ لَوْ شَرِبَ المَاءَ البَارِدَ لَمَا وَجَدَ بَرْدَهُ[2].

وهذا مما يدل على أنهم انقرضوا في حياة النبي ﷺ أو بعدها مباشرة.

وقد كان النفاق يتقلّص ويذوب وتنحصر مساحته في حياة النبي ﷺ، فلم يبق المنافقون على تكتلهم الأول، وإنما تفتتوا، وتاب كثير منهم تأثراً بصحبة النبي ﷺ وحسن تعامله معهم، ورؤيتهم دلائل نبوته، ودلت آيات القرآن على توبة فئةٍ منهم وصلاح حالهم، كما في قوله تعالى:

---

(١) حقب الناقة: الحبْل المشْدُود عَلَى حَقْو البَعِير، أَوْ مِن حَقِيبَتِه، وَهِيَ الزِّيَادَةُ الَّتِي تُجْعل فِي مؤخَّر القَتَب، وَالوِعَاءُ الَّذِي يَجْمع الرجلُ فِيهِ زادَه. ينظر: «النهاية» (١/ ٤١٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٦٥٨).

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤٥، ١٤٦]، وقوله تعالى: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٤]، فهذه الآيات دعوة لهم إلى التوبة وإطماع لهم بالقبول.

كما أن النفاق لم يكن شيئًا موروثًا، فلم يكن أبناء المنافقين منافقين كأبناء اليهود، فلم ينتقل للجيل الثاني، ولم يورث في الشباب، وإنما كان حالة خاصة في كبار السن انتهى بانتهائهم أو بصلاح حالهم.

ولذا فإنا إذا نظرنا إلى رقعة وجودهم في خارطة الصحابة نجدها رقعة صغيرة منحسرة، وإن كانوا في مرحلة من تاريخ النبوة مصدر فتنة وإرجاف إلا أن ذلك انحسر ولم يتسع.

وليتضح ذلك فكل المهاجرين ليس فيهم نفاق، سواء المهاجرون من مكة أو غيرها من البلاد والقبائل الأخرى، كأبي هريرة، وأبي ذر، وأهل الصفة.

وشباب الأنصار ليس فيهم نفاق لأنهم لم يعيشوا شعور المنافسة الذي عاشه بعض آبائهم، وحال عبد الله بن عبد الله بن أُبَيّ دليل على ذلك.

وكل قبائل العرب غير الأوس والخزرج ليس فيهم نفاق إلا بعض الأعراب حول المدينة كما قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ [التوبة: ١٠١]، وتعبير القرآن عن الأعراب بقوله: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم﴾ دليل أن هؤلاء الأعراب الذين نجم فيهم النفاق هم ممن حول المدينة متأثرين بالمنافقين داخلها لقوة صلتهم بهم، أما الأعراب البعيدون عن المدينة فمنهم من بقي على الشرك إلى الفتح ومنهم من أسلم مخلصاً كأسلم وغفار الذين قال فيهم النبي ﷺ: «**أَسْلَمُ سَالَمَهَا اللهُ، وَغِفَارُ غَفَرَ اللهُ لَهَا**»[1].

(١) «صحيح البخاري» (١٠٠٦)، و«صحيح مسلم» (٦٧٩).

ويدل على قلتهم أنهم لم يستتروا بالنفاق إلا لكثرة المؤمنين وقوتهم وظهورهم عليهم، ويوضح قلتهم أيضاً حديث كعب بن مالك في تخلفه عن غزوة تبوك وفيه قوله عن رجوع النبي ﷺ من تبوك: وَجَاءَهُ المُخَلَّفُونَ، فَطَفِقُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ وَيَحْلِفُونَ لَهُ، وَكَانُوا بِضْعَةً وَثَمَانِينَ رَجُلًا[1].

وهؤلاء هم المغموصون بالنفاق، وإذا كانوا ثمانين رجلا سنة تسع، فقد كان الجيش مع رسول ﷺ ثلاثين ألفا، وهذا دليل قلتهم وتلاشيهم.

وأما ما يثار من أن بعض أحاديث الرسول ﷺ قد تكون من رواية هؤلاء المنافقين، والتشكيك في الحديث النبوي لذلك، فإن الله قد حفظ السنة أن تعبر إلى الأمة عن طريق متهمٍ بالنفاق، لأن هؤلاء الذين مردوا على النفاق وشاخوا في حياة النبي ﷺ لم يحدِّثوا عنه ﷺ بعد وفاته؛ لأنهم شرِقُوا بالرسالة فما كانوا يطيبون بذكر النبي ﷺ نفساً.

ولأنهم ماتوا قديماً فرأس المنافقين عبدُ الله بنُ أُبَيٍّ ابنُ سَلولَ مات في حياة النبي ﷺ، وكذا بقية كبرائهم تفارطوا في هذه الفترة، ومن أظهر الأدلة على تلاشيهم وانقراضهم في حياة النبي ﷺ عدم وجود دور لهم أو ذكر عند وفاة النبي ﷺ، وكانت هذه فرصتهم لو كان لهم أولو بقية، وليس لهم ذكر أيام الردة وهي حال كان يمكن أن تطل فيها رؤوسهم، فضلاً أن يكون لهم ذكر فيما جرى بعد ذلك من فتن بين الصحابة، مع أن هذه كلها من فرص الكيد والإثارة التي كانوا يستغلونها، وهذا دليل على تلاشي أثرهم وتأثيرهم.

ومن بقي منهم كانوا مغمورين في حياة جِلَّة الصحابة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وكان أهلُ السابقة من الصحابة متوافرين، فما كان أحد يحتاج إلى حديثهم لو تحدثوا، ولذا لا نجد لهم ذكرا في عصر الخلافة الراشدة لانقراضهم أو تلاشي أثرهم.

ومن ثمَّ فإن من يقرأ السنة النبوية يكون في غاية الطمأنينة أنه لن يعبر إلى حديث النبي ﷺ عبر منافق.

ولو سئل أحدٌ ممن يثيرون شبهة رواية المنافقين لحديث النبي ﷺ أن يذكر مثالاً لروايةٍ أو راوٍ يتهم بالنفاق ما وجد إلى ذلك سبيلا.

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٤١٨).

إن الله قد تكفل بإظهار دين نبيه على الدين كله: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣] ولا يمكن أن يظهر الله دينا مشوبا بدسائس المنافقين ومكايدهم، وقد سخر الله علماء الحديث ففتشوا روايات الواهمين والمختلطين والوضاعين، فهل يغفلون عن رواية المنافقين لو كان لهم رواية، قَالَ الحَافِظُ المِزِّيُّ: مِنْ الفَوَائِدِ أَنَّهُ لَمْ يُوجَد قَطُّ رِوَايَةٌ عَمَّنْ لُمِزَ بِالنِّفَاقِ، يَعْنِي مِمَّنْ يُعَدُّ مِنْ الصَّحَابَة[1].

أما تعامل النبي ﷺ مع المنافقين فله معالم منها:

أولاً: أن تعامل النبي ﷺ مع المنافقين يقوم على الاحتواء، والأخذ بالظاهر، وعدم التنقيب عن الباطن، والتظاهر بعدم العلم بحالهم، ولا أدل على ذلك من أنه لم يواجه أحدا منهم بوصف النفاق، وبذلك يبقى طريق العودة مفتوحا لهم ويضمن عدم تكتل فئة معهم بدافع العصبية والحمية والقبلية.

ومن ذلك: أن عبدَ الله بنَ أُبَيٍّ ابنَ سَلولَ انخذل في الطريق إلى معركة أحد بثلاثمئةٍ من الجيش، واختار أن ينسحب بعد أن يسير مع الجيش حتى يفت في عزائمهم، ومع أن المصيبة قد وقعت على جيش المسلمين في أُحد إلا أنه لم ينقل أن النبي ﷺ عاتب عبد الله بن أُبَيٍّ، ولا ذَكَر أحداً من الذين عادوا معه، وإنما احتوى الموقف ومرره ولم يتوقف عنده.

ومن ذلك: ما ورد في حديث كعب بن مالك لما رجع النبي ﷺ من غزوة تبوك فجاءه المخلفون، وهم المتخلفون عن غزوة تبوك ممن كان يتهم بالنفاق يعتذرون إليه ويحلفون له، فقبل منهم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله[2].

ثانيًا: لا يعلم أن النبي ﷺ ترك الصلاة على أحد من الناس بحجة النفاق مع أن الله أنزل عليه: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٨٤]، ولم يفعل ذلك أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي ولا أحد من الصحابة سوى ما يروى عن عمر وسؤاله حذيفة.

(١) «شرح الكوكب المنير» لابن النجار (٢/ ٤٧٧).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٤١٨)، و«صحيح مسلم» (٢٧٦٩).

وذلك أن النفاق ليس أمراً ظاهراً، وإنما هو سريرة قلبية، لا يجوز البهت بها، ولا التنقيب عنها، والأصل في المسلمين البراءة منها.

وفي ذلك محافظة على سِلْم المجتمع ووفاقه، ولأن المتأذي من عدم الصلاة عليه ليس الميت بل قرابته وعشيرته؛ وبالتالي يفشو الشقاق في المجتمع.

وتبقي الآية وعيداً ونذيراً لهم بأنهم غير جديرين بصلاته ﷺ عليهم، وأن صلاته واستغفاره لهم لن ينفعهم.

ثالثًا: كان النبي ﷺ يعالج كل موقف يمكن أن يثير فتنة أو يحدث مواجهةً مع المنافقين؛ لأن فرصة الحركة لديهم هي الأجواء المتوترة المشحونة والتي يستغلونها في زيادة الشحن والتصعيد لإحداث الفرقة والاصطفاف.

ومن ذلك: ما رواه جابر قال: غزونا مع النبي ﷺ وَقَدْ ثَابَ مَعَهُ نَاسٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ حَتَّى كَثُرُوا، وَكَانَ مِنَ المُهَاجِرِينَ رَجُلٌ لَعَّابٌ، فَكَسَعَ أَنْصَارِيًا، فَغَضِبَ الأَنْصَارِيُّ غَضَبًا شَدِيداً حَتَّى تَدَاعَوْا، وَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: يَا لَلْأَنْصَارِ، وَقَالَ المُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: «**مَا بَالُ دَعْوَى أَهْلِ الجَاهِلِيَّةِ؟**». ثُمَّ قَالَ: «**مَا شَأْنُهُمْ؟**». فَأُخْبِرَ بِكَسْعَةِ المُهَاجِرِيِّ الأَنْصَارِيَّ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**دَعُوهَا فَإِنَّهَا خَبِيثَةٌ**». وَقَالَ عَبْدُ الله بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ: أَقَدْ تَدَاعَوْا عَلَيْنَا، لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ، فَقَالَ عُمَرُ: أَلَا نَقْتُلُ يَا رَسُولَ الله هَذَا الخَبِيثَ؟ لِعَبْدِ الله بن أبي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِذَنْ تَرْعَدُ لَهُ آنُفٌ كَثِيرَةٌ بِيَثْرِبَ**». قال عمر: فإن كرهت أن يقتله رجل من المهاجرين فمر سعد بن معاذ، أو محمد بن مسلمة فليقتلوه، فقال ﷺ: «**لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ محمداً يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**»[1]، ولكن آذن الناس بالرحيل، وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها، وذلك ليشغل الجيش بالسرى والمسير عن الحديث فيما تحدث به ابن أُبي فتنطفئ مقالته ولا يتداعى أثرها وتأثيرها.

وكان من نتيجة ذلك أن أقبل قومه يلومونه على مقالته تلك، وجاء ابنه عبد الله بن عبد الله بن أبي وكان رجلاً صالحًا فقال: يا رسول الله إن كنت تريد أن تقتل أبي فمرني آتك برأسه،

(١) «صحيح البخاري» (٣٥١٨)، و«صحيح مسلم» (٢٥٨٤).

فما علمت أحداً أبرَّ بأبيه مني، وإني إن رأيت قاتل أبي يمشي في الناس لا أملك أن أدعه فأقتل مؤمناً بكافر، فدعا له النبي ﷺ بخير وقال: «**لَا؛ بَلْ نَتَرَفَّق بِهِ، وَنُحْسِنُ صُحْبَتَهُ مَا بَقِيَ بَيْنَنَا**»(١).

وفي ذلك احتواء للموقف، وإطفاء للفتنة، وحفظ لوئام المجتمع.

رابعًا: كان ﷺ يغلق أبواب الاتهام بالنفاق والتوجس من الناس فيه، وذلك حتى لا يرجم أحد بتهمةٍ هو بريء منها، ولأن النفاق أمرٌ خفي ينكره صاحبه فمواجهته به قد تزيده لجاجة وإيغالاً فيه، ويقطع عليه طريق المراجعة والعودة، ولذا فلا يحفظ عن النبي ﷺ اتهام أحدٍ بعينه بالنفاق، وإنما كان يحذر من أوصاف المنافقين من غير تعيين، ويحذر من اتهام أحد بالنفاق بعينه، ومن ذلك: حديث عِتْبَانَ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَصَابَنِي فِي بَصَرِي بَعْضُ الشَّيْءِ، فَبَعَثْتُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ أَنِّي أُحِبُّ أَنْ تَأْتِيَنِي فَتُصَلِّيَ فِي مَنْزِلِي، فَأَتَّخِذَهُ مُصَلًّى، قَالَ: فَأَتَى النَّبِيُّ ﷺ، وَمَنْ شَاءَ اللهُ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَدَخَلَ فصلى ركعتين ثم سلم، فحبسته على خزيرة(٢) صُنعَت له، فسمع أهل الدار(٣) أن النبي ﷺ في بيتي فثاب رجال منهم حتى كثر الرجال في البيت، فقال رجل ما فعل مالك بن الدُخْشُم؟ لا أراه، فقال رجل منهم: ذاك منافق لا يحب الله ورسوله، فقال رسول الله ﷺ: «**لَا تَقُلْ ذَلِكَ؛ أَلَا تَرَاهُ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ الله؟**». فقال: الله ورسوله أعلم، أما نحن والله لا نرى وُدَّه وحديثه إلا إلى المنافقين، فقال رسول الله ﷺ: «**فَإِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ، مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ الله**»(٤).

وهنا نلاحظ أن النبي ﷺ أغلق وصف النفاق عن كل من قال لا إله إلا الله، فَذَكَرَ شعار الإسلام العام الذي يشترك فيه جميع المسلمين حتى لا يبقى أحد في متناول التهمة.

وليت شعري ما هو شعور مالك بن الدُخْشُم إذا بلغه أن النبي ﷺ قد ذبَّ عنه وزكَّاه؟

---

(١) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٢٩٢).

(٢) الخَزِيرَةُ: لَحْمٌ يُقَطَّع صِغَارًا ويُصَبُّ عَلَيْهِ ماءٌ كَثِير، فَإِذَا نَضِج ذُرَّ عَلَيْهِ الدَّقيق، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهَا لَحْمٌ فَهِيَ عَصِيدَة. ينظر: «النهاية» (٢/ ٢٨).

(٣) أهل الدار: أي أهل الحي.

(٤) «صحيح البخاري» (١١٨٦)، و«صحيح مسلم» (٣٣).

ولاحظ وصف الرجل له حين قال: لا نرى وُدَّه وحديثه إلا إلى المنافقين، فلم ينكر النبي ﷺ على مالك ذلك؛ لأن هؤلاء المتهمين بالنفاق ربما يكونون بريئين منه كحال مالك، ولأن العلاقة الإنسانية مع المنافقين وداً وحديثًا هي من أسباب علاجهم وعافيتهم وبهذه المخالطة احتواهم المجتمع وذابوا فيه ولم يتكتلوا أو يتكاثروا.

بقي أن نعلم أن مالك بن الدُخْشُم الذي اتهم بالنفاق كان ممن شهد بدراً، وأنه هو الذي أرسله النبي ﷺ ليحرق مسجد الضرار فأخذ من بيته سعفًا مشتعلاً ثم قصد مسجد الضرار فأحرقه[1]، فهو البريء البعيد أشد البعد عن النفاق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

خامسًا: ومع حسن الظن وحسن المعاملة إلا أن النبي ﷺ كان في غاية اليقظة لمكائدهم، وكان يُحذِّر من أوصافهم من غير تعيين لهم، وبذلك انحصرت حركتهم كقوله: «**أَثْقَلُ الصَّلَاةِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ الْعِشَاءُ وَالْفَجْرُ وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ، لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا**»[2]، وقوله: «**آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ**»[3].

ومع ما يتنزل به القرآن من فضح أوصافهم ونزول سورةٍ باسمهم، هي سورة المنافقين: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]، وسميت سورة التوبة بالفاضحة؛ لأنها ذكرت أوصافهم، قال ابن عباس: التَّوْبَةُ هِيَ الفَاضِحَةُ، مَا زَالَتْ تَنْزِلُ، وَمِنْهُمْ وَمِنْهُمْ، حَتَّى ظَنُّوا أَنَّهَا لَنْ تُبْقِيَ أَحَداً مِنْهُمْ إِلَّا ذُكِرَ فِيهَا[4].

ولشدة تحذيره ﷺ من النفاق خشي بعض أفاضل الصحابة على أنفسهم منه، كما في خبر حنظلة الأسيدي الذي جاء إلى أبي بكر يقول: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، قَالَ: سُبْحَانَ الله مَا تَقُولُ؟ قَالَ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ، يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ الله ﷺ، عَافَسْنَا[5] الأَزْوَاجَ وَالأَوْلاَدَ وَالضَّيْعَاتِ، فَنَسِينَا كَثِيراً، قَالَ أَبُو بَكْرٍ:

---

(١) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٥٣٠).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٤٤، ٦٥٧)، و«صحيح مسلم» (٦٥١).

(٣) «صحيح البخاري» (٢٦٨٢)، و«صحيح مسلم» (٥٩).

(٤) «صحيح البخاري» (٤٨٨٢)، و«صحيح مسلم» (٣٠٣١).

(٥) المعافسة: المعالجة والممارسة والملاعبة. ينظر: «النهاية» (٣/ ٢٦٢).

فَوَالله إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا، قال: فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ، حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، فقُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ الله، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ «**وَمَا ذَاكَ؟**». قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله نَكُونُ عِنْدَكَ، تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ، عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، نَسِينَا كَثِيراً، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي، وَفِي الذِّكْرِ، لَصَافَحَتْكُمُ المَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً**» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ[1].

فلشدة التحذير والوعيد القرآني والنبوي من النفاق، خشي فضلاء الصحابة من التلبس ببعض خصال النفاق من حيث لا يشعرون.

ومن حيطة النبي ﷺ وحذره منهم أنه عندما سلك طريق العقبة وهي طريق ضيّق وعر وكان ذلك في رجوعه من غزوة تبوك ليلاً، أمر ألا يسلكها أحد معه لأنها عقبةٌ ضيقة؛ ويمكن أن تنجفل الناقة فتقع ويقع راكبها، ولأن في هذا المضيق مع الليل فرصة للمنافقين أن يسلكوا الطريق فيرجفوا بالناقة فتنجفل فتسقط النبي ﷺ، وهكذا كان فإنهم سبقوا النبي ﷺ حتى يجفلوا الناقة فتسقط به، فعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ اليَمَانِ قَالَ: إِنِّي لَآخِذٌ بِزِمَامِ نَاقَةِ رَسُولِ الله ﷺ أَقُودُهُ وَعَمَّارٌ يَسُوقُ بِهِ، أَوْ عَمَّارٌ يَقُودُهُ وَأَنَا أَسُوقُ بِهِ، حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالعَقَبَةِ فَإِذَا أَنَا بِاثْنَيْ عشر راكبا، قد اعْتَرَضُوهُ فِيهَا، قَالَ: فَأَنْبَهْتُ رَسُولَ الله ﷺ بِهِمْ، فَصَرَخَ بِهِمْ فَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ الله ﷺ: «**هَلْ عَرَفْتُمُ القَوْمَ؟**». قُلْنَا: لَا، يَا رَسُولَ الله، كَانُوا مُتَلَثِّمِينَ، وَلَكِنَّا قَدْ عَرَفْنَا الرِّكَابَ، قَالَ: «**هَؤُلَاءِ المُنَافِقُونَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ مَا أَرَادُوا؟**». قُلْنَا: لَا، قَالَ: «**أَرَادُوا أَنْ يَزْحَمُوا رَسُولَ الله ﷺ فِي العَقَبَةِ، فَيُلْقُوهُ مِنْهَا**». قُلْنَا: يَا رَسُولَ الله أَوَ لَا تَبْعَثُ إِلَى عَشَائِرِهِمْ حَتَّى يَبْعَثَ إِلَيْكَ كُلُّ قَوْمٍ بِرَأْسِ صَاحِبِهِمْ؟ قَالَ: «**لَا، أَكْرَهُ أَنْ تَحَدَّثَ العَرَبُ بَيْنَهَا: أَنَّ مُحَمَّداً قَاتَلَ بِقَوْمٍ، حَتَّى إِذَا أَظْهَرَهُ اللهُ بِهِمْ أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ يَقْتُلُهُم**»[2].

وعندما وصل المدينة أرسل في تحريق مسجد الضرار الذي ابتناه المنافقون ليجعلوه مكاناً لاجتماعهم، وليتخذوه ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين، حيث أنزل الله فيه:

(١) «صحيح مسلم» (٢٧٥٠).

(٢) «دلائل النبوة» للبيهقي (٥/ ٢٦١).

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٠٧ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗا﴾ [التوبة: ١٠٧، ١٠٨].

وقد كانت هذه اليقظة والاحتراس سبباً في إفشال مكائدهم، وإطفاء فتنهم، وفي التعامل الاحتوائي من النبي ﷺ معهم سبب تفتت جماعتهم واضمحلال أمرهم فلا بقية لهم، قال حذيفة: إنما كان النفاق على عهد رسول ﷺ فأما اليوم فإنما هو الكفر بعد الإيمان[1].

خلاصات:

١- نجم النفاق في المدينة من مجموعة من الكبراء الذين شَرِقوا بالإسلام ورأوا أنه يذهب بزعامتهم.

٢- النفاق لم يورث للأبناء ولم ينتقل للجيل الثاني، وقد تفتت تجمعهم وانقرضوا بعد وفاة النبي ﷺ بقليل.

٣- لم تنقل السنة عن متهم بالنفاق ولم يتصدروا هم لرواياتها.

٤- كان تعامل النبي ﷺ معهم يقوم على الاحتواء والأخذ بالظاهر ولذا لم يصف النبي ﷺ أحداً بالنفاق.

٥- لا يعلم أن النبي ﷺ ترك الصلاة على أحد بحجة النفاق حتى عبدَ الله بنَ أُبَيٍّ ابنَ سَلولَ.

٦- كان ﷺ يعالج كل موقف يمكن أن يثير مواجهة مع المنافقين أو اصطفافاً داخل صف المسلمين بما يخمد فتنته، ويطفئ ثائرته.

٧- كان يغلق أبواب الاتهام بالنفاق ويمنع من أن يوصف أحد به.

٨- كثرة تعداد أوصاف المنافقين في القرآن والسنة ساعدت على محاصرة ظاهرة النفاق وتضييق حركتها.

٩- كان ﷺ في غاية اليقظة لمكائد المنافقين، ويُحذِّر من أوصافهم من غير تعيين لهم.

---

(١) «صحيح البخاري» (٧١١٤).

الرسول ﷺ وعالم الجن

١- الجن من العوالم التي خلقها الله وتعبَّدها، كعالم الإنس، وعالم الملائكة، وهم خلق مكلف بعبادة الله كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، قال الرازي في تفسيره: اتفق الكل على أن الجن كلهم مكلّفون[١]، وقد جاءتهم رسل منهم قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠]

وأُرسل نبينا ﷺ إلى الجن والإنس عامة، فهو رسول الله إلينا وإليهم وليس ذلك لغيره من الأنبياء، فإن كل نبي يُبعث إلى قومه خاصة والجن ليسوا من قومه، قال ابن حزم: لم يُبعث إلى الجن نبي من الإنس قبل محمد ﷺ لأنه آخر المرسلين بإجماع، وقد قال النبي ﷺ: «**وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً**»[٢].

وباليقين ندري أنهم قد أنذروا، فصح أنه قد جاءهم أنبياء منهم كما في قوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾[٣].

قال ابن عبد البر: لا خلاف في أن محمداً ﷺ رسول الله إلى الإنس والجن بشيراً ونذيراً، وهذا مما فضل به على الأنبياء[٤].

(١) «تفسير الرازي» (٢٨/ ٢٨).
(٢) «صحيح البخاري» (٣٣٥).
(٣) «الفصل في الملل والأهواء والنحل» (٣/ ١٤٧).
(٤) «التمهيد» (١١/ ١١٧).

وأخرج ابن جرير عن الضحاك أنه سئل عن الجن: هل كان منهم من نبي قبل أن يبعث النبي ﷺ؟ فقال: ألم تسمع إلى قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾؟[1].

٢- وكان سماعهم لنبينا ﷺ ولقاؤهم به عند رجوعه من الطائف وهو يقرأ القرآن ببطن وادي نخلة، فلما سمعوه قالوا أنصتوا، فأنزل الله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩] في ربيع الأول سنة إحدى عشرة من البعثة[2].

وكان في ذلك تأييدٌ وتثبيت من الله لنبيه ﷺ، فبعد وفاة أبي طالب في السنة العاشرة من النبوة زادت جرأة قريش وأذاهم، فذهب إلى الطائف، فردوا دعوته وأعرضوا عنه فرجع مكروبًا مغمومًا، فكان في إيمان الجن به في هذه الحال مدد وتثبيت، فلئن كان هؤلاء وأولئك قد أعرضوا فإن خلقًا من خلق الله قد آمنوا واتبعوا، ورجعوا رسلاً إلى قومهم، دعاة ومنذرين.

وقد تعددت وفادات الجن على رسول الله بعد ذلك، فعن ابن عباس قَالَ: انْطَلَقَ النَّبِيُّ ﷺ فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ، وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ، فَرَجَعَتِ الشَّيَاطِينُ إِلَى قَوْمِهِمْ، فَقَالُوا: مَا لَكُمْ؟ فَقَالُوا: حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ، قَالُوا: مَا حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ إِلَّا شَيْءٌ حَدَثَ، فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، فَانْظُرُوا مَا هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، فَانْصَرَفَ أُولَئِكَ الَّذِينَ تَوَجَّهُوا نَحْوَ تِهَامَةَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ بِنَخْلَةَ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ، وَهُوَ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ الفَجْرِ، فَلَمَّا سَمِعُوا القُرْآنَ اسْتَمَعُوا لَهُ، فَقَالُوا: هَذَا وَاللهِ الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، فَهُنَالِكَ حِينَ رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ، وَقَالُوا: يَا قَوْمَنَا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ١، ٢]، فَأَنْزَلَ اللهُ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ١]، وَإِنَّمَا أُوحِيَ إِلَيْهِ قَوْلُ الجِنِّ[3].

---

(١) «تفسير الطبري» (١٢/ ١٢١)

(٢) «دلائل النبوة» لأبي نعيم الأصبهاني (٢٦٠).

(٣) «صحيح البخاري» (٧٧٣)، و«صحيح مسلم» (٤٤٩).

وعن ابن مسعودٍ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله ذَاتَ لَيْلَةٍ فَفَقَدْنَاهُ فَالتَمَسْنَاهُ فِي الأَوْدِيَةِ وَالشِّعَابِ. فَقُلْنَا: اسْتُطِيرَ أَوِ اغْتِيلَ، فَبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ فَلَمَّا أَصْبَحْنَا إِذَا هُوَ جَاءٍ مِنْ قِبَلِ حِرَاءٍ. فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ الله فَقَدْنَاكَ فَطَلَبْنَاكَ فَلَمْ نَجِدْكَ فَبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ. فَقَالَ: «**أَتَانِي دَاعِي الجِنِّ فَذَهَبْتُ مَعَهُ فَقَرَأْتُ عَلَيْهِمُ القُرْآنَ**». فَانْطَلَقَ بِنَا فَأَرَانَا آثَارَهُمْ وَآثَارَ نِيرَانِهِمْ وَسَأَلُوهُ الزَّادَ فَقَالَ: «**لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ الله عَلَيْهِ يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحْمًا وَكُلُّ بَعْرَةٍ عَلَفٌ لِدَوَابِّكُمْ**». فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**فَلَا تَسْتَنْجُوا بِهِمَا فَإِنَّهُمَا طَعَامُ إِخْوَانِكُمْ**»[1].

٣- وكانت استجابة المؤمنين من الجن لدعوته ﷺ استجابة إيمانٍ ويقين، تبعتها دعوةٌ صادقةٌ لقومهم كما حكى الله عنهم: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن: ١-٣]، وقالوا: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ [الجن: ١٣]، وبيَّنَ أنهم حضروا صلاته ودعاءه: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩]، أي: جماعات متراكمة من شدة ازدحامهم عند سماعهم قراءته القرآن.

وأنهم صاروا نذراً إلى قومهم يبلغونهم: ﴿يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٠ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠، ٣١]، وكانت هذه الاستجابة والاتباع والنبي ﷺ لا زال في مكة، وقد عرضت للنبي ﷺ بعد ذلك شدائد وكروب عظيمة، ومنها هجرته مستخفياً إلى المدينة، وحاله في بدر، وأحد، والخندق، وغيرها.

ومع ذلك لم يرد أن النبي ﷺ استعان بمؤمني الجن في شدةٍ من هذه الشدائد، ولم يَرِد عنهم مبادرتهم بالإعانة في موقف من هذه المواقف مع شدة الاحتياج.

فكل مَن ادّعى تسخير الجن والاستعانة بهم لقضاء حاجاته، والدلالة على ما يخفى عليه فقد ادّعى ما لم يدعه أفضل الخلق وأحبهم إلى كل مؤمن إنسي أو جني.

---

(١) «صحيح مسلم» (٤٥٠).

وقد ثبت أنه ﷺ قال: «**إِنَّ عِفْرِيتًا مِنْ الجِنِّ تَفَلَّتَ عَلَيَّ البَارِحَةَ لِيَقْطَعَ عَلَيَّ الصَّلَاةَ، فَأَمْكَنَنِي اللهُ مِنْهُ، فَذَعَتُّهُ**[1]**، فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ إِلَى سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي المَسْجِدِ حَتَّى تُصْبِحُوا فَتَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلُّكُمْ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ أَخِي سُلَيْمَانَ:** ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ [سورة ص: ٣٥]»[2].

وهذا يدل على أن تسخير الجن إنما كان لنبي الله سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولا ينبغي لأحدٍ من بعده، ولذا كفَّ عنه نبينا محمد ﷺ.

وكل هذا يكشف الزيف الذي يفعله الدجالون والمشعوذون من دعوى التعامل مع عالم الجن واستخدامهم والاستعانة بهم، ويروجون ذلك على المرضى، ومن أعمتهم الضرورة.

٤- وعالم الجن محجوب عنا رؤيةً وتخيُّلاً، ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧]، وفي الكتب المتعلقة بأحكام الجن خلاف في أوصافهم، وكلُّه من التكلف، والصواب أنهم من عالم الغيب الذي نؤمن به ولا نتكلف صفته، كما نؤمن بأحوال الآخرة ولا نتكلف صفاتها ولا تصورها، ونؤمن بعالم الملائكة ولا نتكلف صفته، وهكذا كل محجوب عنا نؤمن بخبر الله عنه وخبر رسوله ﷺ، ولا نزيد ولا نتزيد ونكل علم حاله إلى عالمه ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٢، ٣].

(١) فَذَعَتُّهُ أي: خنقته، والذعت: المعك في التراب. ينظر: «النهاية» (٢/ ١٦٠).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٦١).

٥- طوال فترة الحياة النبوية لم يثبت أن أحداً من المسلمين أو المشركين أصيب بتلبُّس الجن[١]، ولم يرد عن أحد من الصحابة أنه كان يَرْقي من مس الجن، ولا أن الجن كانت تتلبس بأحد من الناس.

بل صحَّ عنه ﷺ ما يدل على أن ما يجري للمصروع ليس تسلطاً شيطانيّاً، ولكنه مرض يؤجر الإنسان بالصبر عليه كما يؤجر بالصبر على غيره من الأمراض، فعن عطاء بن أبي رباح قال: قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ: أَلَا أُرِيكَ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ؟ قُلْتُ بَلَى، قَالَ: هَذِهِ المَرْأَةُ السَّوْدَاءُ، أَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ: إِنِّي أُصْرَعُ، وَإِنِّي أَتَكَشَّفُ، فَادْعُ اللهَ لِي، قَالَ: «**إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُعَافِيَكِ**». فَقَالَتْ: أَصْبِرُ، فَقَالَتْ: إِنِّي أَتَكَشَّفُ، فَادْعُ اللهَ أَنْ لَا أَتَكَشَّفَ. فَدَعَا لَهَا[٢].

---

(١) وردت أخبار ضعاف أو معلولة، منها: عَنْ المنهال بن عمرو، عن يَعْلَى بْنِ مُرَّةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّهُ أَتَتْهُ امْرَأَةٌ بِابْنٍ لَهَا قَدْ أَصَابَهُ لَمَمٌ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**اخْرُجْ عَدُوَّ اللهِ، أَنَا رَسُولُ اللهِ**». قَالَ: فَبَرَأَ، فَأَهْدَتْ لَهُ كَبْشَيْنِ وَشَيْئًا مِنْ أَقِطٍ وَسَمْنٍ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا يَعْلَى، خُذِ الأَقِطَ وَالسَّمْنَ، وَخُذْ أَحَدَ الكَبْشَيْنِ، وَرُدَّ عَلَيْهَا الآخَرَ**». «مسند أحمد» (١٧٥٦٣). قال الأرناؤوط: إسناده ضعيف؛ المنهال بن عمرو لم يسمع من يعلى بن مرة.
وعن عُثْمَانَ بْنِ أَبِي العَاصِ قَالَ: لَمَّا اسْتَعْمَلَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الطَّائِفِ جَعَلَ يَعْرِضُ لِي شَيْءٌ فِي صَلَاتِي حَتَّى مَا أَدْرِي مَا أُصَلِّي، فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ رَحَلْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «**ابْنُ أَبِي العَاصِ؟**»، قُلْتُ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: «**مَا جَاءَ بِكَ؟**»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، عَرَضَ لِي شَيْءٌ فِي صَلَوَاتِي حَتَّى مَا أَدْرِي مَا أُصَلِّي قَالَ: «**ذَاكَ الشَّيْطَانُ ادْنُهْ**»، فَدَنَوْتُ مِنْهُ، فَجَلَسْتُ عَلَى صُدُورِ قَدَمَيَّ، فَضَرَبَ صَدْرِي بِيَدِهِ، وَتَفَلَ فِي فَمِي وَقَالَ: «**اخْرُجْ عَدُوَّ اللهِ**»، فَفَعَلَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قَالَ: «**الحَقْ بِعَمَلِكَ**». فَقَالَ عُثْمَانُ: فَلَعَمْرِي مَا أَحْسِبُهُ خَالَطَنِي بَعْدُ. «سنن ابن ماجه» (٣٥٤٨)، وفيه محمد بن عبد الله الأنصاري قال أبو داود: تغير تغيراً شديداً، وقد أخرج مسلم الحديث عن عثمان بن أبي العاص أنه أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي يلبسها علي، فقال رسول الله ﷺ: «**ذَاكَ شَيْطَانٌ يُقَالُ لَهُ خَنْزَبٌ، فَإِذَا أَحْسَسْتَهُ فَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْهُ، وَاتْفِلْ عَلَى يَسَارِكَ ثَلَاثًا**»، فَفَعَلْتُ ذَلِكَ فَأَذْهَبَهُ اللهُ عَنِّي. «صحيح مسلم» (٢٢٠٣)، وعنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهُ: «**أُمَّ قَوْمَكَ**»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أَجِدُ فِي نَفْسِي شَيْئًا قَالَ: «**ادْنُهْ**»، فَجَلَّسَنِي بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ وَضَعَ كَفَّهُ فِي صَدْرِي بَيْنَ ثَدْيَيَّ. ثُمَّ قَالَ: «**تَحَوَّلْ**»، فَوَضَعَهَا فِي ظَهْرِي بَيْنَ كَتِفَيَّ، ثُمَّ قَالَ: «**أُمَّ قَوْمَكَ. فَمَنْ أَمَّ قَوْمًا فَلْيُخَفِّفْ، فَإِنَّ فِيهِمُ الكَبِيرَ، وَإِنَّ فِيهِمُ المَرِيضَ، وَإِنَّ فِيهِمُ الضَّعِيفَ، وَإِنَّ فِيهِمْ ذَا الحَاجَةِ، وَإِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ وَحْدَهُ، فَلْيُصَلِّ كَيْفَ شَاءَ**». «صحيح مسلم» (٤٦٨)، والإمام مسلم أتقن رواية الحديث وأحسن سياقته، وليس في روايته: «**اخْرُجْ عَدُوَّ اللهِ**»، وتدل روايته على أن كيد الشيطان هو الوسوسة، وليس الصرع والتلبس.

(٢) «صحيح البخاري» (٥٦٥٢)، و«صحيح مسلم» (٢٥٧٦).

فلو كان الشيطان هو الذي يتلبّسها، ويتكلم على لسانها وقت صرعتها، ويستولي على جسدها وعقلها، لم يكن رسول الله ﷺ ليتركه يصرعها ويتلبسها، ولكان دعا لها بلا شك، لكنه بيَّن لها أن الأفضل لها أن تصبر وأن لا يدعو لها، وإلا فالتخلص من الشيطان والاستعاذة بالله من وسوساته أمر واجب ومندوب، ولا يؤجر المرء على ترك ذلك، وهذه صحابية تصلي مع رسول الله ﷺ وتسمع قراءته، فكيف لا يطرد هذا الشيطان المتلبس، لو كان هو سبب الصرع[1]؟

قال ابن حزم: وأما كلام الشيطان على لسان المصروع فهذا من مخاريق العزامين، ولا يجوز إلا في عقول ضعفاء العجائز، ونحن نسمع المصروع يحرك لسانه بالكلام، فكيف صار لسانه لسان الشيطان، وقل عن هذا التخليط ما شئت. وإنما يلقي الشيطان في النفس يوسوس فيها، كما قال الله تعالى: ﴿يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٥]، وكما قال تعالى: ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢]، فهذا هو فعل الشيطان فقط، وأما أن يتكلم على لسان أحد فحمق عتيق وجنون ظاهر، فنعوذ بالله من الخذلان والتصديق بالخرافات[2].

وقال الرازي: إن الشيطان لا قدرة له البتة على إيقاع الناس في الأمراض والآلام، والدليل عليه وجوه:

الأول: أنَّا لو جوَّزنا حصول الموت والحياة والصحة والمرض من الشيطان، فلعل الواحد منا إنما وجد الحياة بفعل الشيطان، ولعل كل ما حصل عندنا من الخيرات والسعادات، فقد حصل بفعل الشيطان، وحينئذ لا يكون لنا سبيل إلى أن نعرف أن معطي الحياة والموت والصحة والسقم، هو الله تعالى.

الثاني: أن الشيطان لو قدر على ذلك فلم لا يسعى في قتل الأنبياء والأولياء؟ ولم لا يخرب دورهم؟ ولم لا يقتل أولادهم؟

---

(١) ينظر: مقالة: «من هم الجن والشياطين؟ وما هو تأثيرهم علينا؟».

(٢) «رسائل ابن حزم» (٣/ ٢٢٨).

الثالث: أنه تعالى حكى عن الشيطان أنه قال: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ﴾ [ابراهيم: ٢٢]، فصرح بأنه لا قدرة له في حق البشر إلا على إلقاء الوساوس والخواطر الفاسدة[١].

ولذا فما يعمله بعض قسس النصارى من ادّعاء إخراج الأرواح الشريرة، وبعض الرقاة من المسلمين من احتفاليات إخراج الجن فأكثرها تلبيس على الناس وخداع للبسطاء.

وكذلك لم يثبت وجود علاقة أحدٍ من الصحابة بالجن ولا صحبتهم له، ولذا فكل ما يروى من لقاء الإنس بالجن والزواج بهم فكلها أحاديث غير صحيحة، وما يذكر عن بعض العلماء كالأعمش وشيخ الإسلام ابن تيمية وغيرهم من أخبار زواج الجن بالإنس ونحوه فهي جزء من الثقافة الشعبية، وليست من العلم الشرعي.

٦- وكان فيما أخبر الله به وأخبر به رسوله ﷺ عن الجن ما يبين ضعفهم قال تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

وأخبر ﷺ أن عمر ما سلك فجّاً إلا سلك الشيطان فجّاً غيره، فقال: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ قَطُّ سَالِكًا فَجًا إِلَّا سَلَكَ فَجًا غَيْرَ فَجِّكَ**»[٢]، وأخبر أنه يكفي في حجبهم إغلاق الباب، ويكفي في منعهم ذكر الله ووضع عود على الإناء، فقال ﷺ: «**غَطُّوا الإِنَاءَ، وَأَوْكُوا السِّقَاءَ، وَأَغْلِقُوا البَابَ، وَأَطْفِئُوا السِّرَاجَ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لا يَحُلُّ سِقَاءً، وَلا يَفْتَحُ بَابًا، وَلا يَكْشِفُ إِنَاءً، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ أَحَدُكُمْ إِلَّا أَنْ يَعْرِضَ عَلَى إِنَائِهِ عُوداً، وَيَذْكُرَ اسْمَ الله، فَلْيَفْعَلْ**»[٣].

وأخبر ﷺ أن الشيطان يتعاظم عند سبِّه ولعنه، ويتضاءل عند ذكر الله عليه، فعَنْ أَبِي المَلِيحِ، عَنْ رَجُلٍ، قَالَ: كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ ﷺ، فَعَثَرَتْ دَابَّةٌ، فَقُلْتُ: تَعِسَ الشَّيْطَانُ، فَقَالَ: «**لا تَقُلْ تَعِسَ الشَّيْطَانُ، فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ ذَلِكَ تَعَاظَمَ حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ البَيْتِ، وَيَقُولُ: بِقُوَّتِي، وَلَكِنْ قُلْ: بِاسْمِ الله، فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ ذَلِكَ تَصَاغَرَ حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ الذُّبَابِ**»[٤].

---

(١) «تفسير الرازي» (٢٦/ ٣٩٧).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٢٩٤).

(٣) «صحيح مسلم» (٢٠١٢).

(٤) «سنن أبي داود» (٤٩٨٢).

ولذا فالتهويل من قدرات الجن وتصرفهم بالأرض ومن عليها، وما نسمعه من أقاصيص تذكر في كتب الحكايات والأخبار غير الموثوقة فهو تراث الثقافة الشعبية وليس حقائق العلم وصادق أخباره.

خلاصات:

١- أُرسل نبينا ﷺ إلى الجن والإنس عامة، ولم يُبعث نبي من البشر إلى الجن إلا هو ﷺ.

٢- استمعت الجن إلى النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن في وادي نخلة فآمنوا به، ثم تعددت لقاءاتهم بالنبي ﷺ بعد ذلك.

٣- كانت استجابة الجن الذين سمعوا القرآن استجابة إيمان ويقين، ولذا رجعوا دعاة منذرين إلى قومهم.

٤- لم يثبت عنه ﷺ أنه استعان بالجن في أمر من أموره مع الشدائد الكثيرة التي مرت به، مما يدل على بطلان دعاوى الاستعانة بالجن.

٥- جاء النص القرآني قاطعاً بعدم رؤية الجن، فمن ادَّعى رؤيتهم فقد ادَّعى ما نفاه القرآن.

٦- لم يثبت أن أحداً في زمن النبي ﷺ تلبَّسته الجن، أو أن النبي ﷺ أخرج جناً من أحد، وما ورد من ذلك فروايات لا تثبت.

٧- لم يثبت وجود علاقة لأحد من الصحابة بالجن ولا صحبتهم له، ولذا فما يحكى عن علاقة الجن بالإنس وزواجهم منهم ونحو ذلك فحكايات لا تصح.

٨- دلَّت دلائل القرآن والسنة على ضعف الجن، ولذا فالتهويل من قدرات الجن وتصرفهم بالإنس هو من الثقافات الشعبية وليس من حقائق العلم.

الباب الثالث

الرسول ﷺ وعبادته

الدعاء النبوي[1]

كيف يكون دعاء من هو أعلم الخلق بالله، وأخشاهم لله، وأتقاهم لله؟ كيف تكون مسألته وضراعته ومخافته ونجواه؟

١- إننا نستشف من أدعية الرسول ﷺ وحاله وهو يدعو أن دعاءه تلذذٌ بالمسألة لله، واستشعارٌ لشرف العبودية له حال الضراعة إليه، وأن الدعاء والضراعة حال قرب من الله يستشعر فيها العبد ربوبية الله وعظمته، ورحمته وكرمه، وغناه وعظيم قدرته ونفوذ مشيئته، يتجلى لنا ذلك من حال النبي ﷺ في دعائه فهو يستفتح الدعاء بجوامع الثناء على الله والتعظيم له حتى تستشعر أن روحه تعرج إلى الملأ الأعلى في سبح قدسي مع مشاعر التعظيم والإجلال لله بحسن الثناء عليه.

٢- إن هذه الفواتح في الدعاء تبين لنا حالة التلذذ بالدعاء، وجميل الثناء بجوامع الثناء والتعظيم لربه الذي يدعوه ويسأله، فمن ثنائه في دعائه: «**اللهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَرَبَّ الأَرْضِ وَرَبَّ العَرْشِ العَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الحَبِّ وَالنَّوَى وَمُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالفُرْقَانِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ، اللهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ البَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ وَأَغْنِنَا مِنْ الفَقْرِ**»[2].

(١) استفدت من كتاب: «فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء» للشيخ محمد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٢) «صحيح مسلم» (٢٧١٣).

وكان يقول: «**اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْ تُضِلَّنِي، أَنْتَ الحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَالجِنُّ وَالإِنْسُ يَمُوتُونَ**»(١).

إن هذا الثناء العظيم في فواتح الدعاء وخواتمه يبين أن الدعاء النبوي حالة استغراق في معاني العبودية لله والتعظيم له.

٣- ومن تلذذه بالدعاء الثناء على الله بالامتنان له بعظيم إنعامه ففي دعاء سيد الاستغفار: «**أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي**»(٢).

٤- وكما كانت الضراعة في دعائه ومناجاته كانت الضراعة في حاله حين يدعو ربه ومن ذلك: رفع يديه وبسطهما وربما رفعهما حتى يبدو بياض إبطيه، وعندما وقف بعرفة يدعو رفع يديه إلى صدره كاستطعام المسكين، مبالغة في إظهار الافتقار والذل لله عَزَّوَجَلَّ.

ومن مشاهد ضراعته وإلحاحه في دعائه مناشدته ربه يوم بدر، ففي ليلة المعركة استقبل ﷺ القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه: «**اللهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ العِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ**»(٣). فما زال يهتف بربه مادا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك(٤).

إن هذا المشهد يبين حالة الانفعال الشديد في الدعاء، إنه دعاء بكل المشاعر، وبكامل الاستغراق في المناجاة الضارعة حتى يسقط رداؤه من منكبيه وهو على هذه الحالة، وحتى يشفق عليه صاحبه، فيلتزمه من خلفه لما يرى من شدة تأثره.

(١) «صحيح البخاري» (٧٣٨٣)، و«صحيح مسلم» (٢٧١٧).
(٢) «صحيح البخاري» (٦٣٠٦).
(٣) «السنن الكبرى» للنسائي (٨٥٧٤).
(٤) «صحيح البخاري» (٢٩١٥)، و«صحيح مسلم» (١٧٦٣).

ومن مشاهد الضراعة في دعائه ﷺ، وبراءته من حوله وقوته، ولياذه بحول الله وقوته، كثرةُ دعائه بالثبات على الدين حتى عجبت أمنا أم سلمة من كثرة ما يقول: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**». فقال لها: «**إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ**»[1].

إن هذا الرسول الكريم الذي جاء بالهدى للعالم، وعلَّم البشرية دين ربها، ودلها على الصراط المستقيم بل لا تعرف البشرية هدى ودينًا حقًّا إلا ما علمها وهداها إليه، ومع ذلك يُكثر سؤال ربه الثبات على دينه.

إنه مشهد الإعراض عن النظر إلى النفس، وتوجيه النظر بإجلال وتعظيم إلى فضل الله ومنته وكريم عطائه، وأن كل هُدىً أصبناه وطريق حقٍّ سلكناه فهو محض فضل الله علينا بالهداية والتوفيق والإعانة كما كان إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يحطم الأصنام ثم يدعو ربه: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ [ابراهيم: ٣٥]، وكما كان يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد العمر المديد في الدعوة والإحسان يدعو ربه: ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

إن رسل الله هم أعلم الخلق بالله، وأعظمهم امتنانا له، وضراعة في دعائهم إذا دعوه ومسألتهم إذا سألوه.

٥- كما نلاحظ شمول الدعاء لكل حال من أحوال حياته، فعندما يضع جنبه لينام يدعو، وعندما يخرج من بيته يدعو، وعندما يدخل المسجد يدعو، وفي صلاته يدعو، وفي خروجه من المسجد، وعندما يريد سفراً، وعندما يدخل بلداً، وعندما يعود من سفره، وهكذا فكل حال من أحواله لها عبوديتها ودعاؤها الذي يناسبها.

كما أنه كان في أدعيته يستوعب حاجات الدنيا والآخرة، فيسأل الله لشأن دنياه كما يسأله لشأن آخرته، وانظر في هذا الدعاء كيف أورد فيه الاستعاذة بالله واللجوء إليه أن يجيره من منغصات الحياة الدنيا ومكدرات صفو العيش فيها:

---

(١) «جامع الترمذي» (٣٥٢٢).

«**اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ الهَمِّ وَالحَزَنِ، وَالعَجْزِ وَالكَسَلِ، وَالجُبْنِ وَالبُخْلِ، وَضلع الدَّيْنِ**[1] **وَغلبة الرِّجَالِ**»[2]، وكان يستعيذ بالله كثيراً من المأثم والمغرم فيُسأَلُ عن ذلك فيقول: «**إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَرِمَ حَدَّثَ فَكَذَبَ وَوَعَدَ فَأَخْلَفَ**»[3].

وإذا سافر سأل ربه صحبته في سفره، ووقايته من وعثاء السفر، وما يعرض فيه من أخطار واستودع ربه أهله وماله: «**اللهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ، اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ**[4]**، وَكَآبَةِ المَنْظَرِ، وَسُوءِ المُنْقَلَبِ فِي المَالِ وَالأَهْلِ**»[5].

بل حتى لحظات القرب الحميمية إلى الزوجة لها دعاؤها: «**بِاسْمِ الله، اللهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبْ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا**»[6]، لقد اتسعت عبودية الدعاء لتشمل مناحي حياته كلها.

ومن دعائه لدينه ودنياه: «**اللهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي، وَاجْعَلْ الحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلْ المَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ**»[7].

وكان الرجل إذا أسلم علَّمه النبي ﷺ الصلاة، ثم أمره أن يدعو بهؤلاء الكلمات: «**اللهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي وَاهْدِنِي وَعَافِنِي وَارْزُقْنِي**». ثم يقول له: «**فَإِنَّ هَؤُلَاءِ تَجْمَعُ لَكَ دُنْيَاكَ وَآخِرَتَكَ**»[8].

وهكذا تتسع مساحة الدعاء لتشمل ما يهمه في دنياه وأخراه.

---

(١) ضلَع الدين: أي ثقله، والضلَع: الاعوجاج، أي: يثقله حتى يميل صاحبه عن الاستواء والاعتدال. ينظر: «النهاية» (٣/ ٩٦).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٨٩٣).

(٣) «صحيح البخاري» (٨٣٢)، و«صحيح مسلم» (٥٨٩).

(٤) وَعْثاء السفر: أي شدته ومشقته، وأصله من الوعْث وهو الرمل، والمشي فيه يشتد على صاحبه ويشق. ينظر: «النهاية» (٥/ ٢٠٦).

(٥) «جامع الترمذي» (٣٤٣٨).

(٦) «صحيح البخاري» (١٤١)، و«صحيح مسلم» (١٤٣٤).

(٧) «صحيح مسلم» (٢٧٢٠).

(٨) «صحيح مسلم» (٢٦٩٧).

٦- وكان في دعائه يتقصَّد جوامع الدعاء الجامعة لخيري الدنيا والآخرة، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كان رسول الله ﷺ يستحب الجوامع من الدعاء ويدَع ما سوى ذلك، ولذا كان أكثر دعائه: «**رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**»(١).

وعلَّم عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن تدعو بهذا الدعاء: «**اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ الخَيْرِ كُلِّهِ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ الشَّرِّ كُلِّهِ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا سَأَلَكَ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا عَاذَ بِهِ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ النَّارِ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، وَأَسْأَلُكَ أَنْ تَجْعَلَ كُلَّ قَضَاءٍ قَضَيْتَهُ لِي خَيْراً**»(٢).

فانظر هل ثمة خير يدعى به لم يحوه هذا الدعاء، وهل ثمة شر يستعاذ منه لم يستدفع بهذا الدعاء النبوي الجامع؟

وقد أخذ الصحابة عنه فقه الدعاء، وحسن المسألة واختيار الجوامع من الدعاء وترك التكلف والاعتداء فيه، سمع سعد بن أبي وقاص ابنه يدعو ويقول: اللهم إني أسألك الجنة ونعيمها وبهجتها وكذا وكذا، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها وكذا وكذا، فقال له: يا بني إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: سيكون قوم يعتدون في الدعاء، فإياك أن تكون منهم، إن أعطيت الجنة أعطيتها وما فيها من الخير، وإن أعذت من النار أعذت منها وما فيها من الشر(٣).

٧- وقد سعد أصحابه بدعواته الطيبة المباركة فقد دعا لهم أحياء وأمواتا، قال عوف بن مالك: صَلَّى رَسُولُ الله ﷺ عَلَى جَنَازَةٍ فَحَفِظْتُ مِنْ دُعَائِهِ وَهُوَ يَقُولُ: «**اللهُمَّ اغْفِرْ لَهُ وَارْحَمْهُ، وَعَافِهِ وَاعْفُ عَنْهُ، وَأَكْرِمْ نُزُلَهُ، وَوَسِّعْ مُدْخَلَهُ، وَاغْسِلْهُ بِالمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالبَرَدِ، وَنَقِّهِ مِنْ الخَطَايَا كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الأَبْيَضَ مِنْ الدَّنَسِ، وَأَبْدِلْهُ دَاراً خَيْراً مِنْ دَارِهِ، وَأَهْلاً خَيْراً مِنْ أَهْلِهِ، وَزَوْجاً خَيْراً مِنْ زَوْجِهِ، وَأَدْخِلْهُ الجَنَّةَ، وَأَعِذْهُ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ أَوْ مِنْ عَذَابِ النَّارِ**». قَالَ: حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنْ أَكُونَ أَنَا ذَلِكَ المَيِّت(٤).

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٣٨٩)، و«صحيح مسلم» (٢٦٩٠).

(٢) «سنن ابن ماجه» (٣٨٤٦).

(٣) «سنن أبي داود» (١٤٨٠).

(٤) «صحيح مسلم» (٩٦٣).

ومن ذلك: دعاؤه لخادمه أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**اللهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ وَبَارِكْ لَهُ فِيمَا أَعْطَيْتَهُ**». قال أنس: فَوَالله إِنَّ مَالِي لَكَثِيرٌ وَإِنَّ وَلَدِي وَوَلَدَ وَلَدِي لَيَتَعَادُّونَ عَلَى نَحْوِ المِئَةِ اليَوْمَ[1].

وسعدت أمّته بدعواته التي كان يدعو بها بضراعة وإلحاح، وشدة مناشدة لربه، فعندما كسفت الشمس خشي أن تكون تلك عقوبة عجلت على أمته فَسُمع في سجوده ينفخ وينادي ربه: «**رَبِّ أَلَمْ تَعِدْنِي أَنْ لَا تُعَذِّبَهُمْ وَأَنَا فِيهِمْ؟ أَلَمْ تَعِدْنِي أَنْ لَا تُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ؟**»[2].

إن هذه المناشدة اللحوح في استدفاع العذاب عن أمته تبين كيف كانت أمته همه الأكبر وكيف كانت رأفته ورحمته بها، ودعاؤه لها.

وفي موقف آخر تلا ﷺ قَوْلَ الله عَزَّوَجَلَّ فِي إِبْرَاهِيمَ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [ابراهيم: ٣٦]، وَقَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: «**اللهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي وَبَكَى**». فَقَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: «**يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ**». فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ الله ﷺ بِمَا قَالَ وَهُوَ أَعْلَمُ فَقَالَ اللهُ: «**يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسُوءُكَ**»[3].

وقد دعا ربه لأمته أن يدفع عنها الجوائح العامة المهلكة في صلاة أطال دعاءها ومناشدة ربه فيها، يقول سعد بن أبي وقاص: أقبل رَسُول الله ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ مِنْ العَالِيَةِ حَتَّى إِذَا مَرَّ بِمَسْجِدِ بَنِي مُعَاوِيَةَ دَخَلَ فَرَكَعَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ وَصَلَّيْنَا مَعَهُ وَدَعَا رَبَّهُ طَوِيلاً ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَيْنَا فَقَالَ ﷺ: «**سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا فَأَعْطَانِي ثِنْتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالغَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا**»[4].

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٣٣٤)، و«صحيح مسلم» (٢٤٨١).

(٢) «سنن أبي داود» (١١٩٤).

(٣) «صحيح مسلم» (٢٠٢).

(٤) «صحيح البخاري» (٦٣٠٤)، و«صحيح مسلم» (١٩٩).

ولإن كانت هذه الدعوات لأمته في عمرها الدنيوي فإنه ﷺ قد ادَّخر أغلى دعواته وهي الدعوة المستجابة ليدعو بها لأمته أحوج ما تكون إليها، وذلك يوم القيامة فقال: «**لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ يَدْعُو بِهَا وَأُرِيدُ أَنْ أَخْتَبِئَ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي فِي الآخِرَةِ**»[1]. لقد دعا لأمته في حياته وأكثر وألح، ثم ادخر هذه الدعوة المتحققة الإجابة والتي أعطيها كل نبي ليدعو بها لأمته في يوم الهول والشدة، فما أعظم بركة هذا النبي على أمته، وما أسعد هذه الأمة بنبيها بدعوته ودعائه.

لقد كان دعاء النبي ﷺ ربه دعاء ضراعة وإلحاف، ودعاء تذلل وتلذذ، وكان دعاؤه جوامع الدعاء، التي اتسعت لتشمل خيري الدنيا والآخرة، واتسعت دعواته لتشمل أمته لخير دنياها وأخراها.

خلاصات:

١- كان دعاؤه ﷺ دعاء التذلل والتلذذ بالضراعة لله، والغنى بمسألته.

٢- كانت فواتح دعائه الثناء على الله وتعظيمه، والامتنان له بعظيم إنعامه.

٣- ومن ضراعته خضوعه حال الدعاء برفع يديه، وشدة مناشدته ربه وإلحافه في مسألته.

٤- كان يدعو الله على كل أحواله، كما كان يذكره على كل أحواله.

٥- كانت أدعيته شاملة لحاجات دنياه وآخرته.

٦- سعد أصحابه بدعائه، وسعدت أمته بدعواته، وادَّخر دعوته المجابة شفاعة لأمته أحوج ما تكون إليها.

(١) «صحيح البخاري» (٦٣٠٤)، و«صحيح مسلم» (١٩٨).

الاستغفار النبوي

عندما تجمع أحاديث استغفار النبي ﷺ ربه، وأحواله في هذا الاستغفار، ثم تنظر إليها من زوايا متنوعة سوف تلحظ أموراً مدهشة منها:

١- كثرة الاستغفار واللهَج به بحيث يُحصي له أصحابه في المجلس الواحد أكثر من سبعين مرة: «**أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ**». ولك أن تتساءل فكم استغفر إذن قبل أن يحضر هذا المجلس؟ وكم استغفر بعد أن قام منه؟!

ويخرج على أصحابه يوماً وهم جلوس فيقول لهم: «**مَا أَصْبَحْتُ غَدَاةً قَطُّ، إِلَّا اسْتَغْفَرْتُ اللهَ فِيهَا مِئَةَ مَرَّةٍ**»[١]. والغداة هي الصباح ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس، ففي بكور يومه يستغفر مئة مرة، فكم يكون استغفاره بقية يومه؟!

٢- كما نلاحظ أن النبي ﷺ إذا دعا ربه فإنه يدعو بجوامع الدعاء من خيري الدنيا والآخرة من غير تفصيل في الدعاء، إلا في الاستغفار فإنه يفصِّل فيه ما لا يفصَّل في غيره فيقول: «**رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي كُلِّهِ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطَايَايَ، وَعَمْدِي وَجَهْلِي وَهَزْلِي، وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي، اللهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ المُقَدِّمُ وَأَنْتَ المُؤَخِّرُ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**»[٢].

(١) «السنن الكبرى» للنسائي (١٠٢٠٢).

(٢) «صحيح البخاري» (١١٢٠).

ومعلوم أنه لو قيل: اغفر لي كل ما صنعت كان أوجز، ولكن ألفاظ الحديث في مقام الاستغفار والتضرع، وإظهار العبودية والافتقار، واستحضار الأنواع التي يتوب العبد منها تفصيلاً أحسن وأبلغ من الإيجاز والاختصار.

فإن الاستغفار عبودية لله، وافتقار إليه، وتذلل بين يديه، فكلما كثَّرَهُ العبد وطوَّلَه وأعاده وأبداه ونوَّع جُمَلَه؛ كان ذلك أبلغ في عبوديته، وإظهار فقره، وتذلله، وحاجته، وكان ذلك أقرب له من ربه، وأعظم لثوابه[1].

وهذا التفصيل في الاستغفار له دلالته على تأكيد الاعتراف، ودلالته على مزيد التذلل لله والإلحاح في طلب المغفرة، والاستعلان بالتقصير في أداء الحق وما يجب تجاه الرب المنعم المتفضل.

٣- وهنا نتساءل: ممَّ وعمَّ يستغفر النبي ﷺ هذا الاستغفار بهذا الإكثار وهذا التفصيل؟ وما هو الذنب الذي يُذكِّرُه به ربه فيقول: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر: ٥٥]، ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]؟ مع أنَّا نعلم من سيرته ﷺ أن حياته صافية كالزجاجة، فلا إثم ولا خطأ ولا خطيئة، فممَّ يستغفر من كانت حياته صافية هذا الصفاء، وأوقاته متواصلة بالعبادة لله والتقرب إليه؟!

إن الجواب عن هذا التساؤل هو: أن هذا النبي ﷺ هو أعلم الخلق بالله، وأعظمهم له تقوى وخشية، ولكمال معرفته بربه فإنه يعلم أن كل ما يعمله العبد مهما عمل، ومهما توقى واتقى فسيظل قاصراً ومقصراً عما يجب أداؤه للرب الجليل الذي غمر فضله وتتابعت نعمه وتوالى إحسانه.

ولذا فإنه يستغفر استشعاراً للتقصير فيما وجب عليه من أداء هذا الحق.

فتراه يستغفر كل غداة مئة مرة، ولك أن تتساءل ما الذي سبق هذا الاستغفار الصباحي من عمل عند النبي ﷺ؟ لقد سبقه قيام الليل، والوتر، وركعتي سنة الفجر، ثم صلاة الفجر، وقرآن الفجر، ثم أذكار الصباح، ثم يعقب كل هذه العبادات المتتابعة بالاستغفار مئة مرة.

---

(١) «جلاء الأفهام» لابن القيم (٣٤٣).

إن هذا الاستغفار ليس لخطيئة سلفت أو ذنب مضى، ولكنه استشعار لعظيم حق الله ونعمته وفضله مع التقصير في أداء هذا الحق، فحق الله أعظم من أن يؤديه مخلوق، وحقه أعظم من عبادة عباده، ولذا يلح في الاستغفار.

ويأتي استغفار النبي ﷺ بعد أداء الأعمال الصالحة، فبعد السلام من الصلاة يستغفر ثلاثًا، مع أنه فرغ من عبادة من أعظم العبادات وأفضلها.

وعندما بشر بالفتح جاءته معه البشرى بمغفرة ذنوبه ما تقدم وما تأخر: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ١، ٢].

فلما وقع الفتح جاءه الأمر بكثرة الاستغفار: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ١-٣]، قالت عائشة رضي الله عنها: ما صلى رسول الله ﷺ صلاة بعد أن نزلت عليه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ إلا يقول في ركوعه وسجوده: «**سُبْحَانَكَ اللهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، اللهُمَّ اغْفِرْ لِي**»، يتأول القرآن[1].

فبعد عشرين سنة من الجهد والجهاد والدعوة والبلاغ، وبعدما تحققت الهداية ودخل الناس في دين الله أفواجًا، يلح في الاستغفار زيادة على إلحاحه، ويكثر منه زيادة على إكثاره، وكأنما يقول لربه: ومع كل ما عملت لك يا رب فإني استغفر من تقصيري عن أداء حقك، وشكر فضلك، فاغفر لي تقصيري فيما عملت، فعملي قليل وجهدي قاصر، وحقك علي عظيم، فاغفر عظيم تقصيري في أداء عظيم حقك.

ولما قال ﷺ: «**لَنْ يُدخِلَ أَحَداً الجَنَةَ عَمَلُهُ**». قالوا: ولا أنت يا رسول الله. قال: «**وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ مِنْهُ بِرَحْمَةٍ**»[2].

فالعمل مهما وُفِّي وكُمِّل قاصر عن أداء الحق الإلهي العظيم.

---

(١) «صحيح البخاري» (٨١٧)، و«صحيح مسلم» (٤٨٤). وقولها: يتأول القرآن: أي يعمل بما أمر به. ينظر: «عمدة القاري» (٦/ ٩٥).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٤٦٣)، و«صحيح مسلم» (٢٨١٦).

والنعم من الله إلى عبده غير متناهية، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾، فإذا كان العبد عاجزاً عن إحصاء نعم الله عليه فكيف بشكرها وأداء حق الله فيها، فما بقي إلا الاعتراف بالتقصير الكبير، والاستغفار الكثير، والاستعتاب إلى الله، والاعتراف بالتقصير في عظيم حقه.

ويوضح ذلك جوابه ﷺ للصديق عندما سأله فقال: علمني دعاءً أدعو به في صلاتي فقال: «**قُلْ: اللهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيراً وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي؛ إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ**»[1].

فهذا الصديق أفضل هذه الأمة بعد نبيها، وهو الذي يدعى من أبواب الجنة الثمانية كلها، ومع ذلك يعلّمه المصطفى دعاء فيه الاعتراف بظلم النفس، وليس أي ظلم ولكن ظلماً كثيراً، ثم يستجدي ربه ويستغفره بهذا التذلل والاسترحام: «**وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ**». أي: مغفرة تبتدئني بها وتتفضل بها علي، «**وَارْحَمْنِي؛ إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ**».

إن هذا المعنى إذا تجلى لنا لفت بصائرنا إلى حاجتنا للاستغفار، وأننا عندما نستغفر فلا يلزم أن نتذكر ذنباً نراه نصب أعيننا، ولكن نتذكر عظيم حق الله علينا، وسابغ إنعامه وفضله، وعظيم تقصيرنا في حق الله، كما علمنا نبينا ﷺ في دعاء سيد الاستغفار: «**أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي؛ فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ**»[2].

فلا ينفك العبد آناء ليله ونهاره من حاجة إلى الاستغفار، لأنه لا ينفك آناء ليله ونهاره من تتابع أفضال الله وإنعامه التي يتقاصر عمله مهما عمل عن شكرها وأداء حقها، فكيف إذا حصلت مع ذلك الهفوات والخطايا والذنوب، فالرب يُعطي والعبد يُخطئ، فيبوء العبد لله بإنعامه عليه، ويبوء بخطئه وذنبه.

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٣٢٦)، و«صحيح مسلم» (٢٧٠٥).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٣٠٦).

وعندما نتذوق الاستغفار بهذا المعنى فإنا ننفذ إلى حقيقته، ونؤديه لله بتلذذ وذوق، واستشعار لعظيم الاحتياج إلى تلقي مغفرة الله، والإلحاح على الله في سؤالها، عسى أن نكون ممن يتلقى ربُّنا استغفارَه بقوله: «**عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، أُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ**»(١).

خلاصات:

١- كان ﷺ يكثر الاستغفار فيستغفر في كل صباح مئة مرة، ويُعَد له في المجلس سبعين مرة.

٢- كان يُفصِّل في الاستغفار ما لا يفصل في غيره من الدعاء، مبالغة في التذلل والخضوع له.

٣- لم يكن استغفار النبي ﷺ من خطيئةٍ قارفها، أو إثم ارتكبه، ولكنه استغفار المستشعر تقصيره في عظيم حق الله عليه.

٤- لا يلزم حين نستغفر أن نتذكر خطيئة أمام أعيننا نرقبها ونستغفر الله منها، بل نستغفر من تقصيرنا في أداء ما يجب من حق الله علينا.

(١) «مسند أحمد» (٧٩٤٨).

الرسول ﷺ وقيام الليل

كيف يكون قيام من أُنزل عليه: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [المزمل: ٢]؟ وكيف يكون حال من أُنزل عليه: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩]؟ إن حال النبي ﷺ مع قيام الليل حال عاجبة، عندما نقف معها ونتأملها نشعر أن النبي ﷺ وهو يقوم الليل كأنما تعرج روحه وأشواقه إلى الملأ الأعلى، ويتضح ذلك من:

١- اختيار وقت الاستيقاظ لقيام الليل، فيستيقظ النبي ﷺ في نصف الليل الآخر وقت التنزل الإلهي، وإذا نظرنا إلى هذا الوقت بالنسبة ليوم النبي ﷺ الكامل نلاحظ أن هذا الوقت هو ذروة نشاط النبي ﷺ لأنه مسبوق بأطول فترة نوم ينامها، فهي من أول الليل إلى نصفه، أما بقية فترات نومه فهي أوقات قصيرة في آخر الليل أو القيلولة، وكأنما فترة النوم الطويلة تهيئة لانبعاث لعمل مهم، ونشاط يحتاج إلى استيقاظ كامل فيختار له النبي ﷺ الوقت الذي قد استجم فيه جسده، واستجمع فيه قوته وعافيته ويقظة ذهنه.

٢- وإذا نظرنا إلى النبي ﷺ حين يستيقظ في نصف الليل نلاحظ أنه يتهيأ للقيام بمجموعة استعدادات تشعرك أنه يتهيأ بها للدخول في عبادة يستغرق فيها استغراقًا كاملاً، فعندما يستيقظ من النوم يمسح النوم عن وجهه المقدس، ويطيب فمه الطيب بالسواك، ثم ينظر إلى السماء كأنما يتناجى مع نجومها وينظر إلى عظمة صنع الله فيها وهو يقرأ: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]،

حتى يتم عشر الآيات من آخر سورة آل عمران، ثم يقوم ﷺ إلى شَنٍّ[1] معلقة فيتوضأ منها ثم يلبس ﷺ لباسه ويتهيأ للصلاة[2]، ومن تهيؤه للصلاة الذكر قبلها، تذكر أمنا عائشة أنه كان قبل أن يصلي صلاة الليل يسبح عشراً، ويكبر عشراً، ويهلل عشراً[3]، ثم يبدأ الليل بركعتين خفيفتين كأنما هي تحضير لطول القيام[4].

٣- فإذا صلى ﷺ صلاة التهجد صلى صلاة تشعر من وصفها أنه مستغرق فيها كامل الاستغراق، ومن استغراقه فيها أنه يبدأها إذا كبر بأدعية الاستفتاح وبأذكار مفصلة طوال كلها تعظيم لله وثناء عليه وتوسل إليه، فيستفتح استفتاحًا طويلا غير استفتاحه عندما يصلي الصلوات المكتوبة التي يُقصِّر فيها الاستفتاح، فتستشعر أنها نجوى مع الله عَزَّوَجَلَّ فيها تعبد وتلذذ، ومن استفتاحه في صلاة الليل أن يقول: «**اللهُمَّ لَكَ الحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ لَكَ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ، أَنْتَ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ الحَقُّ، وَوَعْدُكَ الحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ المُقَدِّمُ وَأَنْتَ المُؤَخِّرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**»[5].

كل هذا التأنُّي قبل أن يقرأ الفاتحة، فإذا قرأ الفاتحة قرأ قراءة مترسّلة يقف عند كل آية، ثم قرأ فأطال القراءة كأنما روحه تعرج إلى السماء، لقد كان ﷺ إذا صلى بالناس فهو أخف الناس صلاةً، أما إذا قام إلى صلاة الليل فهو أطول الناس صلاةً، صلى معه حذيفة ليلةً قال: فاستفتح سورة البقرة فقلت يركع عند المئة، فمضى، فقلت يركع عند المئتين، فمضى،

---

(١) هي القربة القديمة اليابسة وهي أشدُّ تبريدا للماء من الجدد. ينظر: «النهاية» (٢/ ٥٠٦).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٥٦٣)، و«صحيح مسلم» (٧٦٣).

(٣) «السنن الكبرى» للنسائي (١٦١٧).

(٤) «صحيح مسلم» (٧٦٧).

(٥) «صحيح البخاري» (١١٢٠).

فقلت يتم البقرة ثم يركع، فمضى، فاستفتح النساء ثم استفتح آل عمران يقرأ قراءة مترسلة مرتلة، لا يمر بآية رحمة إلا سأل، ولا يمر بآية عذاب إلا استعاذ، ولا يمر بآية تسبيح إلا سبح.

ثُمَّ رَكَعَ، فَجَعَلَ يَقُولُ: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ العَظِيمِ**». فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْواً مِنْ قِيَامِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ**». ثُمَّ قَامَ طَوِيلاً قَرِيباً مِمَّا رَكَعَ، ثُمَّ سَجَدَ، فَقَالَ: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى**». فَكَانَ سُجُودُهُ قَرِيباً مِنْ قِيَامِهِ(١).

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ لَيْلَةً، فَلَمْ يَزَلْ قَائِماً حَتَّى هَمَمْتُ بِأَمْرِ سَوْءٍ. قالوا: وَمَا هَمَمْتَ؟ قَالَ: هَمَمْتُ أَنْ أَقْعُدَ وَأَذَرَ النَّبِيَّ ﷺ(٢).

وقد يتأثر بآية فيقف عندها ويكررها خشوعاً ودعاءً، فعن أبي ذر قال: قَامَ النَّبِيُّ ﷺ بِآيَةٍ حَتَّى أَصْبَحَ يُرَدِّدُهَا: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨](٣).

ثم يناجي ربه في ركوعه وسجوده مناجاة ضارعة فيها ذل المسألة، والإلحاف في الدعاء، والتلذذ بالنجوى.

وكانت صلاته متقاربة في الطول بين أركانها، فكان قيامه وركوعه وسجوده قريباً من السواء.

٤- أتخيل النبي ﷺ في تلك الحال، وأتخيل سكون ليل المدينة الساكن، وهذا النبي يُقطِّع هذا الليل بقراءة خاشعة، ودعوة ضارعة، وتسبيح قدسي، فأتخيل جبال المدينة كأنما تستمع إليه وتأوِّب معه، أتخيل نجوم السماء تومض في السماء كأنما تنظر إليه، أتخيل النجوى بين آيات الله في كونه بين الأرض وجبالها، والسماء ونجومها، وكأنما يناجي بعضها بعضاً، تقول: انظروا إلى قيام هذا النبي الذي أنزل عليه: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل: ٢]، استمعوا إلى ترتيل هذا النبي الذي أنزل عليه: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤]، وأتخيل النبي ﷺ في سبح قدسي كأنما ارتفع إلى الملأ الأعلى، فهو ينظر إلى عرش ربه بارزاً،

(١) «صحيح مسلم» (٧٧٢).
(٢) «صحيح البخاري» (١١٣٥)، و«صحيح مسلم» (٧٧٣).
(٣) «سنن ابن ماجه» (١٣٥٠).

وكأنما سبحات الأنوار الإلهية تغشاه فهو في حال آخر، وفي شأن آخر، وفي استغراق آخر، في استغراق التلذذ بالعبودية لله عَزَّوَجَلَّ، ولذا فلا عجب أن يقوم فيطول قيامه حتى تفطرت قدماه، وتشقق الأقدام في البيئة الصحراوية الجافة معروف ومألوف، يعرض لأصحاب المهن والأعمال الشاقة، أما النبي ﷺ فكانت قدماه تتفطر من طول القيام في صلاة الليل.

فلما قيل له: لم تصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «**أَفَلا أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً؟**»[1].

يا رَبِّ صَلِّ وَسَلِّم ما أَرَدتَ عَلى ... نَزيلِ عَرشِكَ خَيرِ الرُسلِ كُلِّهِمِ
مُحيِي اللَيالي صَلاةً لا يُقَطِّعُها ... إِلا بِدَمعٍ مِنَ الإِشفاقِ منسَجِمِ
مُسَبِّحاً لَكَ جُنحَ اللَيلِ مُحتَمِلاً ... ضُرّاً مِنَ السُهدِ أَو ضُرّاً مِنَ الوَرَمِ
رَضِيَّةٌ نَفسُهُ لا تَشتَكي سَأَماً ... وَما مَعَ الحُبِّ إِن أَخلَصتَ مِن سَأَمِ[2]

٥- بقي أن تعلم أن هذا النبي يصلي هذه الصلاة في بيت زويت عنه أمتعة الدنيا ومتاعها، فليس فيه ما يصلي عليه إلا حصير صغير يسمى الخُمرة، لا يتسع إلا لموضع السجود، وربما لم يجد في بيته ما يصلي عليه إلا فراشه الذي تنام عليه زوجته فإذا أراد أن يسجد غمزها فكفت رجليها فإذا قام بسطتهما، وربما خرج رفقًا بزوجته فصلى في المسجد، تقول أمنا عائشة: فقدت رسول الله ﷺ ذات ليلة، فقمت وقلت ربما خرج إلى إحدى نسائه وجعلت ألتمسه فإذا هو راكع أو ساجد يقول: «**سُبْحَانَكَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**». فقلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله أنا في شأن وأنت في شأن آخر[3]. ذاك نبينا الذي قال فيه ابن رواحة:

يبيت يجافي جنبه عن فراشه ... إذا استثقلت بالمشركين المضاجع[4]

(١) «صحيح البخاري» (٤٨٣٦)، و«صحيح مسلم» (٢٨٢٠).
(٢) «نهج البردة» لأحمد شوقي.
(٣) «صحيح مسلم» (٤٨٥).
(٤) «صحيح البخاري» (٢/ ٥٥).

٦- وكان ورده المعتاد من القيام أن يقوم ثلث الليل كقيام نبي الله داود عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال ﷺ: «**أَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللهِ صَلَاةُ دَاوُدَ** عَلَيْهِ السَّلَامُ، **كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ**»(١).

فيقوم منتصف الليل فيصلي إحدى عشرة ركعة إلى أن يبقى نحو سدس الليل فيرجع فينام إلى الفجر، قالت عائشة: مَا الفَى رَسُولَ الله ﷺ السَّحَرُ الأَعْلَى فِي بَيْتِي إِلَّا نَائِمًا(٢).

فيجمع في ليله بين الصلاة والنوم، كما قالت عائشة: لا أعلم رسول ﷺ قرأ القرآن كله في ليلة، ولا قام ليلةً حتى الصباح، ولا صام شهراً قط كاملاً غير رمضان(٣)، وذلك لمراعاة حقوق البدن، والمحافظة على القوة من الإنهاك.

٧- وكان يوقظ أهله لصلاة الليل ويترفّق بهم، فعن علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ طَرَقَهُ وَفَاطِمَةَ بِنْتَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَيْلَةً، فَقَالَ: «**أَلَا تُصَلِّيَانِ؟**». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، أَنْفُسُنَا بِيَدِ الله، فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعَثَنَا، فَانْصَرَفَ حِينَ قُلْنَا ذَلِكَ وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ شَيْئًا، ثُمَّ سَمِعْتُهُ وَهُوَ مُوَلٍّ يَضْرِبُ فَخِذَهُ، وَهُوَ يَقُولُ: «﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤]»(٤).

٨- وفي آخر عمره ﷺ حَطَمه الناس لكثرة الوفود عليه فبدن جسمه وفقد لياقته، وما عاد يطيق من الصلاة قائماً ما كان يطيق، فصار يصلي قيام الليل قاعداً، قالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: لَمْ يَمُتِ النَّبِيّ ﷺ حَتَّى كَانَ كَثِيرٌ مِنْ صَلَاتِهِ وَهُوَ جَالِسٌ(٥).

وقالت: لَمَّا بَدَّنَ رَسُولُ الله ﷺ، وَثَقُلَ، كَانَ أَكْثَرُ صَلَاتِهِ جَالِسًا(٦).

وكان ذلك قبل وفاته بعام أو عامين، فما ترك ﷺ قيام الليل في حضرٍ ولا سفر ولا صحة ولا مرض، ولذا قالت عَائِشَة: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ لَا يَدَعُ قِيَامَ اللَّيْلِ، وَكَانَ إِذَا مَرِضَ، أَوْ كَسِلَ، صَلَّى قَاعِداً(٧).

---

(١) «صحيح البخاري» (١١٣١)، و«صحيح مسلم» (١١٥٩).
(٢) «صحيح مسلم» (٧٤٢).
(٣) «صحيح مسلم» (٧٤٦).
(٤) «صحيح البخاري» (١١٢٧)، و«صحيح مسلم» (٧٧٥).
(٥) «صحيح مسلم» (٧٣٢).
(٦) «صحيح مسلم» (٧٣٢).
(٧) «سنن أبي داود» (١٣٠٧).

خلاصات:

١- صلاته ﷺ بالليل هي أطول صلاته وأكثرها استغراقًا وترسلاً وتألهًا، أما صلاته بالناس فيوجزها في تمام.

٢- كان يستيقظ للتهجد منتصف الليل، ويصلي نحو ثلث الليل ثم يرجع فينام آخر الليل، وهو قيام نبي الله داود عَلَيْهِ السَّلَامُ.

٣- وقت استيقاظه للتهجد هو وقت ذروة نشاطه وحيويته لأنه بعد أطول فترة نوم نامها.

٤- كان يتهيأ للقيام باستعدادات تشعرك أنه يتهيأ للدخول إلى الصلاة ليستغرق فيها استغراقا كاملا.

٥- كان يوقظ أهله لصلاة الليل بما يطيقونه فيوقظ زوجته إذا أراد أن يوتر، ويطرق على علي وفاطمة يدعوهم للقيام.

٦- كان ﷺ يصلي لربه هذه الصلاة في بيت زويت عنه أمتعة الدنيا وزهرتها، ومصلاه فيه هو حصير أو فراش نومه مع زوجته.

٧- قام ﷺ حتى تفطّرت قدماه من طول القيام فلما قيل له في ذلك قال: «**أَفَلَا أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً؟!**».

الرسول ﷺ والقرآن

كيف تكون حال الذي أنزل عليه القرآن مع القرآن؟ كيف تكون حال أعلم الخلق بالله مع كلام الله؟

١- عندما ننظر إلى حال النبي ﷺ مع القرآن نجدها حالاً واسعة، وعندما ننظر إلى استغراق النبي ﷺ مع القرآن نجده استغراقًا عميقًا، يتجلى ذلك في تلاوة النبي ﷺ للقرآن، فما ظنك بمن أنزل عليه: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ [الكهف: ٢٧]، كيف ستكون تلاوته للقرآن، إنها القراءة المستديمة للقرآن التي تستغرق أوقاته وتستوعب حياته، فكان يقرأ القرآن قائمًا وقاعداً ومضطجعًا ومتوضئًا وبغير وضوء، حتى لحظات الأنس والقرب من زوجاته نراه يقرأ فيها القرآن، تقول أمنا عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ يتكئ في حجري وأنا حائض فيقرأ القرآن[(١)]. فإذا كان في لحظة القرب من الزوجة والأنس بها لا ينقطع عن قراءة القرآن، فكيف حاله في سعة يومه وفسحة وقته.

بل حتى في لحظات الفزع والكرب كانت سكينته بالقرآن، ففي حديث سراقة بن مالك حين اتبع النبي ﷺ وأبا بكر في طريق هجرتهما إلى المدينة وقد استُنفِرَ الطلب للحاق بهم، قال سراقة: فركبت فرسي تقرب بي حتى إذا سمعت قراءة النبي ﷺ وهو لا يلتفت وأبو بكر يكثر الالتفات، ساخت[(٢)] يدا فرسي في الأرض حتى بلغت الركبتين فَخَرَرْتُ عَنْهَا[(٣)].

(١) «صحيح البخاري» (٢٩٧)، و«صحيح مسلم» (٣٠١).
(٢) ساخت: غاصت في الأرض. ينظر: «النهاية» (٢/ ٤١٦).
(٣) «صحيح البخاري» (٣٩٠٦).

فإذا كان في هذه الحال المخوفة والفارس خلفهم يطلبهم لم يدع الأنس بالقرآن وتلاوته فكيف بحال السعة وطمأنينة البال؟ وهكذا فلم تكن ساعات الأنس تلهيه، ولا ساعات الفزع تذهله عن قراءة القرآن.

وكان إذا أوى إلى فراشه ختم صحو يقظته واستقبل إغفاءة نومه بقراءة ما تيسر من القرآن قبل أن ينام، فربما قرأ: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾ [الملك: ١][1]، وأحيانا سورة «الزمر» و«الإسراء»[2].

٢- وكان إذا أراد القراءة يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم كما أمره الله بقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨].

وربما كان يقول: «**اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ، مِنْ هَمْزِهِ، وَنَفْثِهِ، وَنَفْخِهِ**»[3].

وكانت قراءة النبي ﷺ للقرآن قراءةً مرتلة، فهو الذي تلقى القرآن من ربه مرتلاً: ﴿وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا﴾ [الفرقان: ٣٢]، وأُمر بتلاوته مرتلاً: ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ [المزمل: ٤]، وكان صوته بالقرآن أعذب صوت، وتلاوته أجمل تلاوة، قال البراء بن عازب: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَرَأَ فِي العِشَاءِ بِالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ فَمَا سَمِعْتُ أَحَداً أَحْسَنَ صَوْتاً مِنْهُ[4].

وكان ﷺ إذا قرأ القرآن قرأه قراءةً مترسلة مرتلة حتى تقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كان رسول الله ﷺ يرتل السورة حتى تكون أطول من أطول منها[5]، وتقول أم سلمة: كانت قراءة النبي ﷺ مداً يمد الرحمن، ويمد الرحيم، وكانت قراءته آية آية يقف على رؤوس الآي[6].

---

(١) «جامع الترمذي» (٣٤٠٤).

(٢) «جامع الترمذي» (٣٤٠٥).

(٣) «مسند أحمد» (١٦٧٣٩)، و«سنن أبي داود» (٧٧٥). هَمْزُهُ: المُوتَةُ، وَنَفْثُهُ: الشِّعْرُ، وَنَفْخُهُ: الكِبْرُ.

(٤) «صحيح مسلم» (٤٦٤).

(٥) «صحيح مسلم» (٧٣٣).

(٦) «سنن أبي داود» (٤٠٠١).

وكان ﷺ يتغنى بالقرآن ويرجع صوته به أحيانًا كما رجع يوم الفتح وهو يدخل مكة في قراءته: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١]، وحكى عبد الله بن مُغَفَّل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ترجيعه آآآ ثلاث مرات[١].

وكان يقول: «**زَيِّنُوا القُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ**»[٢]، وقال: «**مَا أَذِنَ اللهُ لِشَيْءٍ، مَا أَذِنَ لِنَبِيٍّ حَسَنِ الصَّوْتِ، يَتَغَنَّى بِالقُرْآنِ، يَجْهَرُ بِهِ**»[٣].

وكل هذا يبين لنا أنه وهو يقرأ القرآن يقرأه بتلذذ واستغراق، فكل آية يعيش معها، تتجلى له كل معانيها، وتفتح له كل مغاليقها، فيعيش معها بغاية التفاعل والتلذذ والاستغراق، وكأنما يترشف معانيها ترشفًا، حتى يتروى منها، ولذلك لما صلى معه حذيفة صلاة الليل وصف قراءته القرآن فقال: فقرأ قراءة مترسلة إذا مر بآية فيها تسبيح لله تتجلى له فيها عظمة الله عَزَّوَجَلَّ سبح، وإذا مر بآية فيها رحمة تشوف إليها فوقف وسأل، وإذا مر بآية فيها عذاب فَرِق منها فوقف واستعاذ[٤]. إنها القراءة المتفاعلة مع القرآن المستغرقة مع معانيه، المعظِّمة لآياته، كأنما يستشعر وهو يقرأ القرآن كلام الله حين تكلم به إليه، وتَنَزُّل جبرائيل حين تنزَّل به عليه.

٣- وكان ﷺ يعلم أصحابه قراءة التذوق والترتيل التي تتشرب النفس معناها، وترتوي لذتها.

ولذا نهى ﷺ أصحاب الهمة والنشاط من الشباب عن قراءة القرآن في ليلة؛ كما في خبر عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال له: «**اقْرَأِ القُرْآنَ فِي كُلِّ شَهْرٍ**». قال: قُلْتُ: إني أجد قوة، قال: «**فَاقْرَأْهُ فِي عِشْرِينَ لَيْلَةً**». قال: قُلْتُ: إني أجد قوة، قال: «**فَاقْرَأْهُ فِي سَبْعٍ، وَلَا تَزِدْ عَلَى ذَلِكَ**»[٥].

---

(١) «صحيح البخاري» (٧٥٤٠)، و«صحيح مسلم» (٧٩٤).
(٢) «سنن أبي داود» (١٤٦٨).
(٣) «صحيح البخاري» (٥٠٢٣)، و«صحيح مسلم» (٧٩٢).
(٤) «صحيح مسلم» (٧٧٢).
(٥) «صحيح البخاري» (١٩٧٦)، و«صحيح مسلم» (١١٥٩).

وعن شقيق بن سلمة أن رجلاً جاء إلى ابن مسعود فقال: إِنِّي قَرَأْتُ المُفَصَّلَ كُلَّهُ فِي رَكْعَةٍ فَقَالَ عَبْدُ الله: هَذّاً كَهَذِّ الشِّعْرِ، لَقَدْ عَرَفْتُ النَّظَائِرَ الَّتِي كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَقْرُنُ بَيْنَهُنَّ. قَالَ: فَذَكَرَ عِشْرِينَ سُورَةً مِنَ المُفَصَّلِ، سُورَتَيْنِ سُورَتَيْنِ فِي رَكْعَةٍ(١).

لقد فقه ابن مسعود القراءة النبوية ووعاها، ولذا أنكر على الرجل الذي قال له أنه قرأ المفصل كله في ركعة؛ لأن ذلك لا يكون إلا بهَذٍّ سريعٍ كهَذِّ الشعر، وبَيَّنَ له هدي النبي ﷺ في قراءته وترسله فيها.

٤- أما قراءة القرآن التي يطيلها ويستغرق معها كامل الاستغراق فكان يدخرها لتهجده في صلاة الليل.

فكان ﷺ إذا قام في صلاة الليل قرأ تلك القراءة المترسلة الخاشعة، وتلك القراءة الطويلة التي يطيلها لكمال تلذذه بها، قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ لَيْلَةً، فَلَمْ يَزَلْ قَائِمًا حَتَّى هَمَمْتُ بِأَمْرِ سَوْءٍ. قالوا: وَمَا هَمَمْتَ؟ قَالَ: هَمَمْتُ أَنْ أَقْعُدَ وَأَذَرَ النَّبِيَّ ﷺ(٢). لأن للنبي ﷺ حالًا مع القرآن غير حال غيره، فإذا قرأ القرآن تجلت له كل تلك المعاني العظيمة فقام وأطال القيام وترسل في القراءة بترتيل وتلذذ.

٥- وكان لرمضان خصوصية بالقرآن، ففيه أنزل: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فكان اللقاء الأول مع روح القدس والتلقِّي الأول للقرآن في غار حراء في شهر رمضان، ثم صار هذا الموسم الكريم موعداً لتجديد الذكرى بمدارسة القرآن مع جبرائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكان ﷺ يجد لهذه المدارسة القرآنية مع جبرائيل نشوة وأريحية غامرة يشعر بها الصحابة حوله، قال ابن عباس: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ القُرْآنَ، فَلَرَسُولُ الله ﷺ أَجْوَدُ بِالخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ المُرْسَلَةِ(٣)، فكانت هذه الأريحية والكرم المتضاعف من أثر مدارسة القرآن مع جبرائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(١) «صحيح البخاري» (٧٧٥)، و«صحيح مسلم» (٨٢٢).
(٢) «صحيح البخاري» (١١٣٥)، و«صحيح مسلم» (٧٧٣).
(٣) «صحيح البخاري» (٦)، و«صحيح مسلم» (٢٣٠٨).

٦- وكما كان يتعبد بتلاوة القرآن كان يتعبد باستماعه والإنصات إليه، مر ﷺ في الليل في أحد سكك المدينة ببيت فيه امرأة تقرأ القرآن فسمع قراءتها وهي تقرأ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١]، وإذا بنبيك ﷺ يقف منصتاً ثم يتفاعل ويتجاوب فيقول: «**نَعَمْ، نَعَمْ، قَدْ جَاءَنِي**»[(١)]. كأنما خطاب الآية توجه إليه تلك الساعة، يخفق لها قلبه، ويتجاوب معها وجدانه.

وقال مرة لابن مسعود: «**اقْرَأْ عَلَيَّ القُرْآنَ**». قال: يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «**إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي**». فجعل ابن مسعود يقرأ القرآن ونبيك ﷺ يستمع إليه فاستفتح سورة النساء حتى إذا بلغ قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، قال النبي ﷺ: «**حَسْبُكَ الآنَ**». قال ابن مسعود: فَالتَفَتُّ إِلَيْهِ، فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ[(٢)].

ومرَّ على أبي موسى الأشعري وهو يقرأ في الليل فوقف يستمع لقراءته، فلما لقيه من الغد قال له: «**لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَسْتَمِعُ لِقِرَاءَتِكَ البَارِحَةَ، لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَاراً مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ**». قال أبو موسى: يَا رَسُولَ الله لو علمت مكانك لحبرته لك تحبيرا[(٣)].

ومن مقاماته مع القرآن قيامه بتعليمه لأمته وتلقينه لأصحابه، فهو ﷺ الذي فتق أفواه الخلق بالقرآن، وإليه تنتهي روايات التلقي للقرآن على تباعد الأزمان وتفرق الأوطان، قال ابن مسعود أخذت من فيِّ رسول الله ﷺ سبعين سورة من فيه إلى فيَّ[(٤)]، ومر أبو طلحة وهو ﷺ يقرئ أهل الصفة القرآن وقد بدا عليهم أثر الجهد والجوع فأمر امرأته أم سليم فصنعت طعاماً لرسول الله ﷺ فدعى إليه من كانوا معه فبورك فيه وكفاهم[(٥)].

---

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (١٠/ ٣٤٢٠).
(٢) «صحيح البخاري» (٥٠٥٠).
(٣) «صحيح مسلم» (٧٩٣).
(٤) «مسند أحمد» (٤٣٣٠).
(٥) «صحيح البخاري» (٣٥٧٨)، و«صحيح مسلم» (٢٠٤٠).

وكما كان القرآن يُقرأ أول ما يُقرأ تلقيًا منه، فكذلك كان يُكتب أول ما يُكتب بين يديه، فكان إذا نزلت عليه آية دعا زيد بن ثابت أو غيره من كتاب الوحي فأمره بكتابتها، وبين لهم مكانها من سورتها، قال عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كان رسول ﷺ تتنزل عليه السورة ذات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول: «**ضَعُوا هَذِهِ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا**»(١).

٧- وكان ﷺ إذا وقف يصلي في الليل يُسمع لصدره أزيز(٢) كأزيز المرجل من البكاء.

قال عبد الله بن الشِّخير: رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ يُصَلِّي وَفِي صَدْرِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ الرَّحَى مِنَ البُكَاءِ(٣)، ذاك البكاء المكتوم، الذي تحسه ولا تسمعه، ليس له نشيج أو ضجيج، ولكن أزيز مكتوم داخل الصدر، هكذا كان النبي ﷺ مع القرآن تلاوة بتلذذ، وترتيل باستغراق وتأثر.

٨- أما المشهد الأعظم للنبي ﷺ مع القرآن فهو العيش بالقرآن، فعن سعد بن هشام بن عامر أنه قدم المدينة فأتى عائشة يسألها عن مسائل فقال: يا أم المؤمنين انبئيني عن خُلُق رسول الله ﷺ، فقالت: ألست تقرأ القرآن؟ قال: بلى، قالت: فإن خلق النبي ﷺ كان القرآن، قال الله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، قال: فهممت أن أقوم فلا أسأل أحداً عن شيءٍ حتى أموت(٤)، أي: أن هذا الجواب الجامع سيكفيه عن كل مسألة بعدها.

قال ابن رجب: يعني أنه ﷺ كان يتأدب بآدابه، ويتخلق بأخلاقه، فما مدحه القرآن كان فيه رضاه، وما ذمه القرآن كان فيه سخطه، وجاء في رواية عنها: كان خلقه القرآن، يرضى لرضاه ويسخط لسخطه(٥).

---

(١) «مسند أحمد» (٤٩٨)، و«سنن أبي داود» (٧٨٦).

(٢) أَيْ خَنين مِنَ الخَوْفِ، وَهُوَ صَوْتُ البُكَاءِ. وَقِيلَ هُوَ أَنْ يَجِيش جوفُه ويَغْلي بِالبُكَاءِ. ينظر: «النهاية» (١/ ٤٥).

(٣) «سنن أبي داود» (٩٠٤).

(٤) «صحيح مسلم» (٧٤٦).

(٥) «جامع العلوم والحكم» (١/ ١٤٨).

خلاصات:

١- كانت تلاوة النبي ﷺ للقرآن تلاوة مستديمة يصحبها في ساعات الصفاء وحالة الكرب.

٢- كانت قراءته القرآن قراءة مرتلة يقف على رؤوس الآيات، وكان صوته بالقرآن أجمل صوت، وتلاوته أعذب تلاوة.

٣- كان ورد النبي ﷺ في صلاته من قيام الليل هو أطول تلاوته وأكثرها استغراقًا.

٤- كان يتعبد باستماع القرآن كما يتعبد بتلاوته.

٥- كان بكاؤه عند تلاوة القرآن وسماعه ذرف الدمع وأزيز الصدر.

٦- كان معتنيًا بتعليم الأمة القرآن، وعنه تلقاه أصحابه وإليه تنتهي وعنده تلتقي روايات القراءة والإقراء.

٧- كما قُرِئَ القرآن أول ما قُرِئَ تلقيًّا منه، فقد كُتِبَ القرآن أول ما كُتِبَ بإملائه وترتيبه، وبين يديه.

٨- كانت التلاوة ممارسة عملية في حياته، فكان خُلُقه القرآن.

الرسول ﷺ والجمعة

١- كان للنبي ﷺ حفاوة بيوم الجمعة وتعظيم له، فكان يذكر فضل الله به على أمته وهدايتهم له، وتميزهم به على غيرهم من الأمم، فقال ﷺ: «**أَضَلَّ اللهُ عَنِ الجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا، فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمُ السَّبْتِ، وَكَانَ لِلنَّصَارَى يَوْمُ الأَحَدِ، فَجَاءَ اللهُ بِنَا فَهَدَانَا اللهُ لِيَوْمِ الجُمُعَةِ، فَجَعَلَ الجُمُعَةَ وَالسَّبْتَ وَالأَحَدَ، وَكَذَلِكَ هُمْ تَبَعٌ لَنَا يَوْمَ القِيَامَةِ، نَحْنُ الآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَالأَوَّلُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، المَقْضِيُّ لَهُمْ قَبْلَ الخَلاَئِقِ**»(١).

ويذكر ما فيه من الخير، وما قدر الله فيه من أحداث الكون فيقول: «**خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الجَنَّةَ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا**»(٢).

وهو عيد الأسبوع؛ فله بهاؤه وزينته، واجتماعه وهيئته، ولذا نهى عن صيامه فقال: «**إِنَّ يَوْمَ الجُمُعَةِ يَوْمُ عِيدٍ، فَلَا تَجْعَلُوا يَوْمَ عِيدِكُمْ يَوْمَ صِيَامِكُمْ**»(٣)، وقال: «**لاَ يَصُومَنَّ أَحَدُكُمْ يَوْمَ الجُمُعَةِ إِلَّا يَوْمًا قَبْلَهُ أَوْ بَعْدَهُ**»(٤). وهو بهذا يشبه يوم العيد الذي يحرم صيامه، وذلك أن تخصيصه بالصيام يضعف الإنسان عما فيه من الشعائر، ولا يناسب صيامه مع حال الزينة والاجتماع فيه.

(١) «صحيح مسلم» (٨٥٦).
(٢) «صحيح مسلم» (٨٥٤).
(٣) «مسند أحمد» (٨١٤٠).
(٤) «صحيح البخاري» (١٩٨٥)، و«صحيح مسلم» (١١٤٤).

٢- وكان ﷺ يعظم هذا اليوم ويخصه بعبادات فيه دون غيره من الأيام؛ فمن ذلك أنه كان يقرأ في فجر الجمعة سورتي «**السجدة**» و«**الإنسان**»؛ لما اشتملت عليه هاتان السورتان مما كان ويكون في ذلك اليوم، فإنهما اشتملتا على ذكر خلق آدم، وذكر المعاد وحشر العباد، وذلك يكون يوم الجمعة، وفيهما تذكير بأحوال الآخرة، وحال أهل الجنة ونعيمهم، وحال أهل النار وعذابهم، ففيهما موعظة وذكرى.

وأمر بالتهيؤ لصلاة الجمعة والاستعداد لحضورها بالنظافة وجمال الملبس وطيب الرائحة، وحسن الأدب في المسجد.

فأمر بالاغتسال لحضورها فقال: «**الغُسْلُ يَوْمَ الجُمُعَةِ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُحْتَلِمٍ**»(١)، وعن طَاوُس قال: قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: ذَكَرُوا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**اغْتَسِلُوا يَوْمَ الجُمُعَةِ، وَاغْسِلُوا رُؤُوسَكُمْ، وَإِنْ لَمْ تَكُونُوا جُنُبًا، وَأَصِيبُوا مِنَ الطِّيب**». قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَمَّا الغُسْلُ فَنَعَمْ، وَأَمَّا الطِّيبُ فَلَا أَدْرِي(٢).

وعن عبد الله بن سلام أنه سمع رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر يوم الجمعة: «**مَا عَلَى أَحَدِكُمْ لَوِ اشْتَرَى ثَوْبَيْنِ لِيَوْمِ الجُمُعَةِ سِوَى ثَوْبَيْ مِهْنَتِهِ؟**»(٣).

وكان ﷺ يلبس ليوم الجمعة أجمل ثيابه، وهذا من الحفاوة بالشعيرة وباجتماع الناس لها، ويدل على ذلك حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما رَأَى عُطَارِداً يَبِيعُ حُلَّةً مِنْ دِيبَاجٍ، فَأَتَى رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، إِنِّي رَأَيْتُ عُطَارِداً يَبِيعُ حُلَّةً مِنْ دِيبَاجٍ، فَلَوِ اشْتَرَيْتَهَا فَلَبِسْتَهَا لِلْوُفُودِ وَلِلْعِيدِ وَلِلْجُمُعَةِ، فَقَالَ: «**إِنَّمَا يَلْبَسُ الحَرِيرَ مَنْ لَا خَلَاقَ لَهُ فِي الآخِرَةِ**»(٤).

وإنما قال عمر: لو اشتريتها فلبستها للوفود وللعيد وللجمعة؛ لِما علم من عادته ﷺ في التجمل باللباس للعيد والجمعة.

---

(١) «صحيح البخاري» (٨٥٨)، و«صحيح مسلم» (٨٤٦).
(٢) «صحيح البخاري» (٨٨٤)، و«صحيح مسلم» (٨٤٨).
(٣) «سنن أبي داود» (١٠٧٨).
(٤) «مسند أحمد» (٦٤٥٠).

٣- ومن كمال الاحتفاء بيوم الجمعة التطيب له بما يجد الإنسان من الطيب حتى يكون لاجتماع الناس في المسجد عبق ورائحة زكية، ولذا حث ﷺ على التطيب لشهود الجمعة فقال: «**لَا يَغْتَسِلُ رَجُلٌ يَوْمَ الجُمُعَةِ، وَيَتَطَهَّرُ مَا اسْتَطَاعَ مِنْ طُهْرٍ، وَيَدَّهِنُ مِنْ دُهْنِهِ، أَوْ يَمَسُّ مِنْ طِيبِ بَيْتِهِ، ثُمَّ يَخْرُجُ فَلَا يُفَرِّقُ بَيْنَ اثْنَيْنِ، ثُمَّ يُصَلِّي مَا كُتِبَ لَهُ، ثُمَّ يُنْصِتُ إِذَا تَكَلَّمَ الإِمَامُ، إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجُمُعَةِ الأُخْرَى**»[(١)]، وقال ﷺ: «**مَنْ اغْتَسَلَ يَوْمَ الجُمُعَةِ وَمَسَّ مِنْ طِيبِ امْرَأَتِهِ إِنْ كَانَ لَهَا، وَلَبِسَ مِنْ صَالِحِ ثِيَابِهِ، ثُمَّ لَمْ يَتَخَطَّ رِقَابَ النَّاسِ، وَلَمْ يَلْغُ عِنْدَ المَوْعِظَةِ كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا بَيْنَهُمَا، وَمَنْ لَغَا وَتَخَطَّى رِقَابَ النَّاسِ كَانَتْ لَهُ ظُهْراً**»[(٢)].

ومِن ثَمَّ كان الصحابة بعد أن وسع الله عليهم يُبخِّرون المسجد بروائح البخور الزكية يوم الجمعة قبل الصلاة، فعن نعيم بن عبد الله المُجْمِر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمر أن يبخر مسجد المدينة كل جمعة حين ينتصف النهار، وكان نُعيم بن عبد الله هو الذي يتولَّى ذلك فيهيئ الجمر للبخور ويبخر به المسجد فسُمِّي: نُعيم المُجْمِر[(٣)].

٤- ومن آداب يوم الجمعة التي أكد عليها ﷺ وأمر أصحابه بها: السكينة حين السعي إليها، والنهي عن أذية الناس بتخطي رقابهم، والإنصات للخطيب حين يخطب فلا يعبث ولا يتكلم مع أحد، وقد جمع هذه الآداب في قوله ﷺ: «**مَنِ اغْتَسَلَ يَوْمَ الجُمُعَةِ وَمَسَّ مِنْ طِيبٍ إِنْ كَانَ عِنْدَهُ، وَلَبِسَ مِنْ أَحْسَنِ ثِيَابِهِ، ثُمَّ خَرَجَ وَعَلَيْهِ السَّكِينَةُ حَتَّى يَأْتِيَ المَسْجِدَ فَيَرْكَعَ إِنْ بَدَا لَهُ، وَلَمْ يُؤْذِ أَحَداً، ثُمَّ أَنْصَتَ إِذَا خَرَجَ إِمَامُهُ حَتَّى يُصَلِّيَ، كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الجُمُعَةِ الأُخْرَى**»[(٤)].

وفي هذه الآداب من النظافة، وحسن الهيئة، وطيب الرائحة، وأدب المعاشرة، تعظيمٌ للشعيرة ولليوم المبارك، كما أنها تربية للناس على آداب السلوك في المجامع العامة.

وقد كان ذلك في بيئة فقيرة صحراوية لم تكن تتعاهد ذلك أو توليه هذه العناية، فكان في هذا الأدب النبوي تأهيلٌ للأمة لرعاية الذوق العام في الهيئة والتعامل.

---

(١) «صحيح البخاري» (٨٨٣).

(٢) «سنن أبي داود» (٣٤٧).

(٣) «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٥/ ٢٢٧)، و«تهذيب الكمال» للمزي (٣/ ١٤٢١).

(٤) «مسند أحمد» (٢٤٠٥٥).

٥- وكان أهل المدينة يقصدون مسجد النبي ﷺ ويشهدون معه الجمعة، فيأتون من نواحي المدينة المتفرقة عاليتها وسافلتها فكان يوم الجمعة يوم اجتماع أهل المدينة من أحيائهم المتفرقة المتباعدة ليلتقوا بالنبي ﷺ ويستمعوا إليه، ويَلْقى بعضهم بعضاً، فهي الجمعة الجامعة.

فإذا اجتمع الناس وزالت الشمس خرج ﷺ بعد الزوال مباشرة فإذا دخل المسجد سلم عليهم، ثم يصعد المنبر ويستقبل الناس بوجهه ويسلم عليهم ثم يجلس، فيأخذ بلال في الأذان، فإذا فرغ قام ﷺ فخطب خطبتين يجلس بينهما جلسة خفيفة.

وكان منبره ثلاث درجات، يقف على الثانية ويجلس على الثالثة، وكان غربي المسجد وهو مكان المنبر اليوم.

وكان قبل اتخاذ المنبر يخطب مستنداً إلى جذع في قبلة المسجد، فلما وضع المنبر وقام عليه أول مرة حن الجذع حنيناً كصوت العِشار[١] حتى سمع صوتَه أهلُ المسجد، فنزل ﷺ وضمه فسُمِع صوتُه كالصبي الذي يسكَّت حتى سكت، فَقَالَ ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ تَرَكْتُهَا لَحَنَّتْ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ**»[٢].

وكان ﷺ إذا خطب أقبل على الصحابة بوجهه وأقبلوا إليه بوجوههم، وكان يأمرهم بالدنو منه والإنصات له، ويخبرهم أن الرجل إذا قال لصاحبه: أنصت، فقد لغا، وإذا مس الحصا فقد لغا، ومن لغا فلا جمعة له[٣].

وكان من عادته إذا خطب أن يعتمد على عصا[٤] أو قوس[٥]، واعتماد الخطيب على قوس أو عصا عادة عربية جرى فيها النبي ﷺ على عادة قومه[٦]،

---

(١) العِشار: جمع عُشَراء وهي الناقة الحامل التي مضت لها عشرة أشهر. ولا يزال ذلك اسمها إلى أن تلد، مثّل صوت الجذع بحنين العشار عند فراق أولادها. ينظر: «عمدة القاري» (٦/ ٢١٧).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٥٨٤).

(٣) «مسند أحمد» (٧٣٠)، و«صحيح البخاري» (٩٣٤)، و«صحيح مسلم» (٨٥١).

(٤) «مصنف عبد الرزاق» (٥٤٠٠).

(٥) «مصنف عبد الرزاق» (٥٣٣٠).

(٦) ينظر: «البيان والتبيين» (٣/ ٨٠)، و«تاريخ الأدب العربي» لشوقي ضيف (٤١٦).

كما كان من عادته أن يحمل في يده عصا أو عسيب نخل يتوكأ عليه إذا مشى[١] على عادة العرب في ذلك، ولذا فإن حمل العصا في الخطبة من سنن العادة لا العبادة[٢].

٦- وكان ﷺ إذا خطب بدأ بحمد الله والثناء عليه بما هو أهله، ثم يتشهد الشهادتين، وكان يقول: «**كُلُّ خُطْبَةٍ لَيْسَ فِيهَا تَشَهُّدٌ فَهِيَ كَاليَدِ الجَذْمَاءِ**»[٣].

وكان كثيراً ما يخطب بآيات القرآن، وسوره الواعظة، قال جابر بن سمرة: كان رسول الله ﷺ يخطب قائماً... ويقرأ آيات من القرآن ويذكُر الله[٤]، وقالت أم هشام بنت الحارث بن النعمان: ما أخذت ﴿قٓ ۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ [سورة ق: ١] إلا من رسول الله ﷺ يقرؤها كل جمعة على المنبر إذا خطب الناس[٥].

وذلك لما في سورة ﴿قٓ ۚ﴾ من المواعظ والتذكير بالموت والبعث وأحوال الآخرة.

وكانت خُطَبه في الجمعة مواعظ يؤكد فيها على قضايا الدين الكبرى، وتقرير أصول الإيمان، وذكر الجنة والنار، وما أعد الله لأوليائه وأهل طاعته، وما توعد به أعداءه وأهل معصيته.

فيملأ القلوب إيمانًا بالله وتعظيمًا وإجلالاً له، ومهابة للقائه والمنقلب إليه، حتى كأنما الجنة والنار رأي عين، فتوجل القلوب وتذرف العيون، حتى يُكب الصحابة رؤوسهم ولهم خنين من البكاء[٦].

٧- فإذا فرغ من خطبته الثانية أقام بلال الصلاة فصلى ﷺ بالناس، وكان يقرأ في الجمعة بـ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ [الأعلى: ١] و﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١]، وتارةً بسورة «**الجمعة**» لما تضمَّنته من الأمر بهذه الصلاة وإيجاب السعي إليها، وترك العمل العائق عنها.

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٧٢١)، و«صحيح مسلم» (٢٧٩٤).

(٢) ينظر: «السلسلة الصحيحة» للألباني (٢/ ٢٠).

(٣) «مسند أحمد» (٨٠١٨).

(٤) «صحيح مسلم» (٨٦٢).

(٥) «صحيح مسلم» (٨٧٣).

(٦) ينظر تفصيل ما يتعلق بخطب النبي ﷺ في فصل: «**الرسول ﷺ خطيبًا**».

ويقرأ في الثانية بسورة: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ [المنافقون: ١] تحذيراً للأمة من النفاق المُرْدي، وتحذيراً لهم أن يشغلهم أموالهم وأولادهم عن صلاة الجمعة وعن ذكره، وأنهم إن فعلوا ذلك خسروا ولا بدَّ، وحضًا لهم على الإنفاق الذي هومن أكبر أسباب سعادتهم، وتحذيراً لهم من هجوم الموت وهم على حالةٍ يطلبون الإقالة ويتمنَّون الرَّجعة فلا يُجابون إليها(١).

وكان إذا صلى الجمعة دخل إلى منزله فصلى ركعتين سنتها، فعن ابن عمر أن النبي ﷺ كان يصلي بعد الجمعة ركعتين في بيته(٢).

وأمر من صلى الجمعة أن يصلي بعدها أربع ركعات فقال: «**إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ الجُمُعَةَ فَلْيُصَلِّ بَعْدَهَا أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ**»(٣).

وجمع بعض العلماء بينها أن من صلاها في المسجد صلاها أربعًا، ومن صلاها في بيته صلاها ركعتين(٤).

٨- وكان ﷺ يبادر إلى صلاة الجمعة في أول وقتها فينصرف الناس منها يتتبعون الظل. قال سلمة بن الأكوع: كنا نُجمع مع رسول الله ﷺ إذا زالت الشمس ثم نرجع نتتبع الفيء(٥)، أي: نتتبعه لقلته حيث لم يمتد بعد. وفي رواية: كنا نصلي مع رسول الله ﷺ وليس للحيطان ظل يستظل به(٦). أي: ليس ظلًا واسعًا يُستظل به، وإنما ظل قليل، ولذا فهم يتتبعونه.

٩- وفي يوم الجمعة ينشغل ﷺ وينشغل الناس معه بالاستعداد للصلاة وشهود الجمعة، ولذا يتغير نظام اليوم عن بقية الأيام بسبب ذلك، ومن ذلك: تأخيرهم للغداء وهو الطعام الذي يؤكل غُدوة في أول النهار فيؤخرونه بعد الجمعة لانشغالهم قبلها بالاستعداد لها والسعي

(١) «زاد المعاد» (١/ ٥٢٩-٥٣٠).
(٢) «صحيح البخاري» (٩٣٧)، و«صحيح مسلم» (٨٨٢).
(٣) «صحيح مسلم» (٨٨١).
(٤) «زاد المعاد» (١/ ٥٥٢).
(٥) «صحيح مسلم» (٨٦٠).
(٦) «صحيح البخاري» (٤١٦٨)، و«صحيح مسلم» (٨٦٠).

إليها، وكذا يؤخرون القيلولة وهي النوم قبل الظهر فيجعلونها بعد الجمعة لانشغالهم قبلها. قال سهل بن سعد: ما كنا نقيل ولا نتغدى في عهد رسول الله ﷺ إلا بعد الجمعة[1]، أي أنهم ينشغلون عن الغداء والقيلولة بالتهيؤ للجمعة، ثم يتداركون طعامهم ونومهم وراحتهم بعدها، وقال جابر: كنا نصلي مع رسول الله ﷺ ثم نرجع إلى نواضحنا فنريحها[2]، أي أنهم يريحون جمالهم التي يستقون عليها بعد صلاة الجمعة لأنهم سيتغدون وينامون بعد صلاة الجمعة.

١٠- ومما ذكره ﷺ من فضائل يوم الجمعة أن فيه ساعة لا يوافقها عبد يسأل الله شيئًا من خيري الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه. فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ذكر يوم الجمعة فقال: «**فِيهِ سَاعَةٌ لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ، وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي، يَسْأَلُ اللهَ شَيْئًا، إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ**». وأشار بيده يقللها[3].

وقد اختُلِف في تحديد وقتها، وأقرب الأقوال في ذلك قولان:

الأول: أنها في صلاة الجمعة في مواطن الدعاء منها كالسجود ودبر الصلاة، لحديث: «**لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ، وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي، يَسْأَلُ اللهَ شَيْئًا، إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ**». وأفضل الصلاة يوم الجمعة صلاة الجمعة، ولحديث أبي موسى قال عن ساعة الجمعة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**هِيَ مَا بَيْنَ أَنْ يَجْلِسَ الإِمَامُ، إِلَى أَنْ تُقْضَى الصَّلَاةُ**»[4].

الثاني: أنها في آخر ساعة من يوم الجمعة، لحديث: «**إِنَّ فِي الجُمُعَةِ سَاعَةً لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ فِيهَا خَيْرًا، إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ، وَهِيَ بَعْدَ العَصْرِ**»[5].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الجُمُعَةِ؛ فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الجَنَّةَ، وَفِيهِ أُهْبِطَ مِنْهَا، وَفِيهِ سَاعَةٌ لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ يُصَلِّي فَيَسْأَلُ اللهَ**

(١) «صحيح البخاري» (٩٣٩)، و«صحيح مسلم» (٨٥٩).
(٢) «صحيح مسلم» (٨٥٨).
(٣) «صحيح البخاري» (٩٣٥)، و«صحيح مسلم» (٨٥٢).
(٤) «صحيح مسلم» (٨٥٣).
(٥) «مسند أحمد» (٧٨٠٣).

فِيهَا شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ». قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَلَقِيتُ عَبْدَ الله بْنَ سَلَامٍ فَذَكَرْتُ لَهُ هَذَا الحَدِيثَ، فَقَالَ: أَنَا أَعْلَمُ بِتِلْكَ السَّاعَةِ، فَقُلْتُ: أَخْبِرْنِي بِهَا، وَلَا تَضِنَّ بِهَا عَلَيَّ. قَالَ: هِيَ بَعْدَ العَصْرِ إِلَى أَنْ تَغْرُبَ الشَّمْسُ، قُلْتُ: فَكَيْفَ تَكُونُ بَعْدَ العَصْرِ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ وَهُوَ يُصَلِّي**». وَتِلْكَ السَّاعَةُ لَا يُصَلَّى فِيهَا؟ فَقَالَ عَبْدُ الله بْنُ سَلَامٍ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَنْ جَلَسَ مَجْلِسًا يَنْتَظِرُ الصَّلَاةَ فَهُوَ فِي صَلَاةٍ**»؟ قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: فَهُوَ ذَاكَ[1].

وهذا قول أكثر السلف، ولذا كانوا يتفرغون عصر الجمعة للذكر والدعاء وانتظار الصلاة.

ولم أقف في الأحاديث على ما يدل أن النبي ﷺ كان يخص عشية الجمعة بعمل خاص، ولا أن نمط حياته يتغير آخر يوم الجمعة عن بقية الأيام، ولم أجد فيما روي عن الصحابة رضي الله عنهم ما يدل على ذلك، والله أعلم.

خلاصات:

١- كان للنبي ﷺ حفاوة بيوم الجمعة وتعظيم له، فكان يذكر فضل الله به على أمته وهدايتهم له، وتميزهم به على غيرهم من الأمم.

٢- ليوم الجمعة بهاؤه وزينته، واجتماعه، وهيئته، فهو عيد الأسبوع، ولذا نهى ﷺ عن إفراده بالصوم.

٣- كان ﷺ يعظم هذا اليوم ويخصه بعبادات فيه دون غيره من الأيام.

٤- أمر ﷺ بالتهيؤ لصلاة الجمعة والاستعداد لحضورها بالنظافة، وجمال الملبس، وطيب الرائحة، وحسن الأدب في المسجد.

٥- أمر ﷺ أمته بالسكينة حين السعي إلى الجمعة، والإنصات للخطيب حين يخطب، ونهى عن أذية الناس بتخطي رقابهم.

٦- كان أهل المدينة يقصدون المسجد النبوي من نواحي المدينة المتفرقة، فكان يوم الجمعة يوم اجتماعهم ليلتقوا بالنبي ﷺ ويستمعوا إليه، ويَلْقى بعضهم بعضاً.

---

(١) «الموطأ» (٣٦٤)، و«سنن أبي داود» (١٠٤٦)، و«جامع الترمذي» (٤٩١).

٧- كان من عادته ﷺ إذا خطب أن يعتمد على عصا أو قوس على عادة العرب.

٨- كانت خُطَبه ﷺ في الجمعة مواعظ يؤكد فيها على قضايا الدين الكبرى، وتقرير أصول الإيمان، والجزاء الأخروي.

٩- كان ﷺ يبادر إلى صلاة الجمعة في أول وقتها فينصرف الناس منها يتتبعون الظل.

١٠- كان نظام اليوم في الجمعة يتفاوت عن بقية الأيام، فيؤخرون الغداء والقيلولة لانشغالهم بالاستعداد للصلاة وشهود الجمعة، ثم يستدركونها بعد الصلاة.

١١- مما ذكره ﷺ من فضائل يوم الجمعة أن فيه ساعة لا يوافقها عبد يسأل الله شيئًا من خيري الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه.

الرسول ﷺ ورمضان

شهر رمضان هو موعد اللقاء الأول مع تنزل القرآن، واللقاء الأول مع روح القدس يوم نزلت أول آيات القرآن على رسول الله ﷺ وهو في غار حراء.

وكل ما حوله ظلمة وسكون، فليس هناك حركة ولا نأمة، أتخيَّل النبي ﷺ في هذا الغار وهو يسمع صوت نَفَسه، وتردد زفيره وشهيقِهِ المتتابع، لا يسمع شيئًا آخر.

في ذاك السكون الرهيب المهيب، والنبي ﷺ في هذا الغار الشاهق الذي لا يُتوقع مرور أحد حوله، أو مجيء أحد إليه، وإنما هو السكون والصمت المطبق، ونبيك ﷺ في سكينة التأمل واستغراقه كأنما يستمع إلى الصمت وينظر إلى السكون، إذ فَجَأه الحق، وجاءه جبرائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ثم كانت المفاجأة الثانية أنْ أمَره بالقراءة وهو الأمي الذي ما قرأ يومًا مكتوبًا ولا كتب مقروءاً، فقال له: اقرأ، فأجاب النبي ﷺ بالجواب التلقائي الذي لا يمكن أن يجيب بغيره: «**مَا أَنَا بِقَارِئٍ**». ما أنا بالذي يقرأ، قَالَ: «**فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ. قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ. فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ. فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ:** ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ١-٥]»[1].

(١) «صحيح البخاري» (٣)، و«صحيح مسلم» (١٦٠).

كانت هذه الليلة التي تنزَّل فيها أول الوحي، وأول آيات القرآن على قلب محمد ﷺ مبشرة البشرية بالنور والضياء، وبرسالة هي رحمة للعالمين، وسعادة للبشر أجمعين.

وَنـــودِيَ اِقـــرَأ تَـعـالـى اللهُ قـائِـلُـهـا ... لَـم تَـتَّـصِـل قَـبـلَ مَـن قـيـلَـت لَـهُ بِـفَـمِ

هُـنـاكَ أَذَّنَ لِـلـرَحـمَـنِ فَـامـتَـلأَتْ ... أَسـمـاعُ مَـكَّـةَ مِـن قُـدسِـيَّـةِ الـنَـغَـمِ[1]

وكان هذا في شهر رمضان، ولذا عرَّف الله عَزَّوَجَلَّ شهر رمضان بأنه: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

فهو الموسم الأول لنزول أول آيات القرآن، وهذه إشادة بأن هذا الشهر هو وعاء هذا الخير العظيم وهو نزول القرآن، فإن البشرية لم تسعد بحدثٍ في طول تاريخها منذ أهبط آدم إلى الأرض وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها مثل سعادتها بنزول القرآن في رمضان.

وما إن استوعب النبي ﷺ الحدث، وعرف أن هذا رسولٌ من عند الله حتى صار يتشوَّق لهذا اللقاء، وينتظر جبرائيل ويتحرى لقاءه، وقال ﷺ لجبرائيل بعد ذلك: «**أَلَا تَزُورُنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا**». فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾ [مريم: ٦٤][2]، فنزول جبرائيل إنما هو بأمرٍ من الله.

١- ولذا جعل الله عَزَّوَجَلَّ رمضان مناسبة اللقاء بين جبرائيل ومحمد عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ لتدارس القرآن، وفي كل رمضان يزداد القدر الذي يتدارسانه، واستمر هذا اللقاء إلى شهر رمضان من السنة العاشرة، وفيها دارسه جبرائيل القرآن مرتين[3]، بعد ثلاث وعشرين سنة، فعرف النبي ﷺ من تكرار المدارسة في هذا الشهر أن القرآن قد اكتمل نزوله فما نزل بعد ذلك إلا آيات معدودة، وما دام أن القرآن قد اكتمل نزوله فهي إشارة إلى أن مهمة النبي ﷺ على الأرض قد اكتملت وعليه أن يتهيَّأ للحاق بالرفيق الأعلى والمحل الأسنى.

(١) «نهج البردة» لأحمد شوقي.

(٢) «صحيح البخاري» (٣٢١٨).

(٣) «صحيح البخاري» (٤٩٩٨).

يُحدثنا ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن هذا اللقاء الرمضاني القرآني، بين روح القدس ونبينا ﷺ، وكيف يكون تأثر النبي ﷺ بهذا اللقاء الذي يجدد ذكرى اللقاء الأول، فيقول: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ القُرْآنَ، فَلَرَسُولُ الله ﷺ أَجْوَدُ بِالخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ المُرْسَلَةِ ما سُئل شيئًا إلا أعطاه[1].

إن ابن عباس يصور لنا في هذا الحديث النشوة التي يعيشها النبي ﷺ في رمضان حين تتجدد ذكرى اللقاء الأول بجبرائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ وتتم مدارسة القرآن بينهما في هذا الشهر، وهذه النشوة النفسية كانت تغمر قلب النبي وتظهر في أريحية نفسه وطيبها، وقد وصف ابن عباس أحد مظاهر حالة النبي ﷺ هذه، وهي تَضاعفُ جوده، فجود النبي ﷺ ليس طارئًا في رمضان فهو أجود الناس ولكنه جود متضاعف لصلة النبي ﷺ في رمضان بالملأ الأعلى وهي مدارسة كلام الله المنزل عليه مع من نزل به أول مرة.

وأما تشبيه ابن عباس لجود النبي ﷺ بالرِّيحِ المُرْسَلَةِ -وهي الريح التي تحمل المطر- فأكثر من يفهمه هم العرب الذين يعيشون في تلك البلاد القاحلة الصحراوية، فهم يعلمون أن الريح إذا جاءت تحمل المطر فإذا أمطرت أنبتت الأرض، وشبعت سائمة البادية، واغتنوا، وكثر الماء عندهم فنزلوا في أماكنهم، وسمنت ماشيتهم فباعوها وربحوا، وباعوا السمن والأقط وتكون سنة الربيع عندهم هي سنة الثراء واليُسر، وإذا نزل المطر ارتفع منسوب المياه عند الفلاحين وجمَّت آبارهم وارتفع الماء وسهل عليهم تحصيله، وما عادوا يستخرجون الماء بكلفة ومؤونة فأينعت ثمارهم وأعطت زروعهم وكثر الخير عندهم، وإذا نزل المطر أنبتت الأرض فسارت القوافل وكثرت تجارة التجار، وأصبحوا يُصدِّرون ويستوردون؛ فيعم الغنى عند التجَّار وعند البادية وعند الفلاحين.. إذن هو عطاء عام غامر وفير يغتني به الناس كلهم، ولذلك شبَّه ابن عباس جود النبي ﷺ بجود الغيث على أهل البادية والحاضرة وهذا من أروع التشبيه لجود النبي ﷺ.

(١) «صحيح البخاري» (٦)، و«صحيح مسلم» (٢٣٠٨).

ويا لله إذا كان هذا جود الرسول فكيف بجود المُرسِل؟ وإذا كان هذا جود المخلوق فكيف بجود الخالق؟!

٢- ومن تهيئته لرمضان استقباله بالصيام في شهر شعبان قالت عائشة: كَانَ يَكُونُ عَلَيَّ الصَّوْمُ مِنْ رَمَضَانَ، فَمَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقْضِيَ إِلَّا فِي شَعْبَانَ[١]، وما كان رسول الله ﷺ يصوم شهراً أكثر من شعبان كان يصومه كله ويصومه إلا قليلا، قَالَتْ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ يَصُومُ شَهْراً أَكْثَرَ مِنْ شَعْبَانَ، فَإِنَّهُ كَانَ يَصُومُ شَعْبَانَ كُلَّهُ[٢]، وقالت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كَانَ يَصُومُ حَتَّى نَقُولَ: قَدْ صَامَ وَيُفْطِرُ حَتَّى نَقُولَ: قَدْ أَفْطَرَ، وَلَمْ أَرَهُ صَائِمًا مِنْ شَهْرٍ قَطُّ، أَكْثَرَ مِنْ صِيَامِهِ مِنْ شَعْبَانَ كَانَ يَصُومُ شَعْبَانَ كُلَّهُ، كَانَ يَصُومُ شَعْبَانَ إِلَّا قَلِيلاً[٣].

وهذا الصيام في شعبان من التهيئة لصيام رمضان ولذا شبهه العلماء بسنة الراتبة قبل صلاة الفريضة.

ومن ذلك: تبشير أصحابه برمضان وذكر فضائله؛ مثل قوله ﷺ: «**إِذَا دَخَلَ رَمَضَانُ فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الجَنَّةِ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ وَسُلْسِلَتِ الشَّيَاطِينُ**»[٤]، وقوله ﷺ: «**مَنْ صَامَ رَمَضَانَ، إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»[٥]، وقوله: «**مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»[٦]. وقوله: «**مَنْ قَامَ لَيْلَةَ القَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»[٧].

---

(١) «صحيح البخاري» (١٩٥٠)، و«صحيح مسلم» (١١٦٤).
(٢) «صحيح البخاري» (١٩٧٠)، و«صحيح مسلم» (١١٩٥).
(٣) «صحيح مسلم» (١١٥٦).
(٤) «صحيح البخاري» (٣٢٧٧)، و«صحيح مسلم» (١٠٧٩).
(٥) «صحيح البخاري» (٣٨)، و«صحيح مسلم» (٧٥٩).
(٦) «صحيح البخاري» (٣٧).
(٧) «صحيح البخاري» (١٩٠١)، و«صحيح مسلم» (٧٦٠).

فكان رمضان شهر التطهير من كل ما تقدم من الذنوب لكثرة أسباب المغفرة فيه، فمن صامه غفر له، ومن قامه غفر له، ومن قام ليلة القدر غفر له، فلا يحرم المغفرة فيه إلا معرض عنها، ولذا قال جبرائيل للنبي ﷺ: «**رَغِمَ أَنْفُ عَبْدٍ أَدْرَكَ رَمَضَانَ فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ، قُلْ: آمِينَ**». فقال ﷺ: «**آمِينَ**»[1].

٣- وفي رمضان يتطلَّب النبي ﷺ ليلة القدر في العشر التي يتحراها فيها.

يقول أبو سلمة بن عبد الرحمن: انْطَلَقْتُ إِلَى أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ فَقُلْتُ أَلَا تَخْرُجُ بِنَا إِلَى النَّخْلِ نَتَحَدَّثْ، فَخَرَجَ. فَقَالَ: قُلْتُ: حَدِّثْنِي مَا سَمِعْتَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ فِي لَيْلَةِ القَدْرِ. قَالَ أبو سعيد: اعْتَكَفَ رَسُولُ الله ﷺ عَشْرَ الأُوَلِ مِنْ رَمَضَانَ، وَاعْتَكَفْنَا مَعَهُ، فلما انتهت العشر الأول وتهيَّأ النبي ليخرج من معتكفه أَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: إِنَّ الَّذِي تَطْلُبُ أَمَامَكَ، قال أبو سعيد: فاعتكف رسول الله ﷺ العشر الوسطى، فلما انتهت العشر الوسطى وتهيَّأ الناس للخروج قَامَ النَّبِيّ ﷺ خَطِيبًا صَبِيحَةَ عِشْرِينَ مِنْ رَمَضَانَ فَقَالَ: «**إِنَّ جبْرِيلَ أَتَانِي، فَقَالَ: إِنَّ الَّذِي تَطْلُبُ أَمَامَكَ، فَمَنْ كَانَ اعْتَكَفَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَلْيَرْجِعْ، فَإِنِّي أُرِيتُ لَيْلَةَ القَدْرِ، وَإِنِّي نُسِّيتُهَا، رَأَيْتُ كَأَنِّي أَسْجُدُ فِي طِينٍ وَمَاءٍ**». يقول أبو سعيد: وكنا ننظر إلى السماء ليس فيها سحاب، فاعتكف النبي العشر الأواخر، قال: فلما كانت ليلة إحدى وعشرين، غشيت المدينة سحابة فأمطرت، وَكَانَ سَقْفُ المَسْجِدِ جَرِيدَ النَّخْلِ، فلما أمطرت وكَفَ[2] السقف، فَصَلَّى بِنَا النَّبِيُّ ﷺ الفجر والأرض مبتلَّة، فلما انصرف النبي ﷺ من صلاة الفجر، نظرت إلى وجهه فَرَأَيْتُ أَثَرَ الطِّينِ وَالمَاءِ عَلَى جَبْهَةِ رَسُولِ الله ﷺ وَأَرْنَبَتِهِ[3] تَصْدِيقَ رُؤْيَاهُ[4].

وعندما ننظر إلى حياة النبي ﷺ في العشر الأواخر من رمضان نجدها استنفاراً في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، واحتشاداً للعبادة وتفرغًا لها.

---

(١) «المعجم الكبير» للطبراني (٢٠٢٢).

(٢) وكف: أي تقاطر. ينظر: «عمدة القاري» (١١/ ١٣٥).

(٣) الأرنبة: طرف الأنف. ينظر: «النهاية» (١/ ٤١).

(٤) «صحيح البخاري» (٨١٣)، و«صحيح مسلم» (١١٦٧).

روي عنه ﷺ أنه كان يخلط رمضان بقيام ونوم فإذا دخل العشر الأواخر أحيا ليله، وجعل الليل مفرغا كلَّه للعبادة، من مدارسة القرآن مع جبريل، والتهجد، والمناجاة في السحر، فيكون في الليل كله حيًا، ومن أجمل وأجمع وصف لحال النبي ﷺ في عشر رمضان ما اختصرته لنا أمنا عائشة عندما وصفت برنامجه اليومي في ليالي رمضان قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا دَخَلَ العَشْرُ أَحْيَا اللَّيْلَ، وَجَدَّ وَشَدَّ المِئْزَرَ، وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ[1].

لقد كان شأن النبي ﷺ المعتاد أن يقوم ثلث الليل ثم ينام سدسه، ولكنه في العشر يحيي الليل كله بالصلاة وقراءة القرآن والدعاء والمناجاة إلى أن يوافيه وقت السحور إن كان سيتسحر وإلا واصل قيامه ودعاءه وذكره إلى الفجر وكأنما يَضِنُّ بهذا الوقت أن يصرف في غير القيام.

٤- وكان ﷺ يخصُّ العشر الأواخر من رمضان بعبادات لا يفعلها في غيرها ومنها الاعتكاف، وهو الانقطاع عن شواغل الدنيا والتفرغ للخلوة بالله والتعبد له في بيت من بيوته، وكان النبي ﷺ يعتكف في مسجده في الزاوية الشرقية الجنوبية؛ لأنها هي التي تفتح على بيته، ويرفع له حصير يحجبه عن الناس، ومرة اعتكف في قبة تركية، واعتكاف النبي ﷺ في المسجد معناه الانقطاع عن خلطة الناس، فالصائم يدع الطعام والشراب والمعاشرة الزوجية، والمعتكف يدع مع ذلك فضول خلطة الناس ليتفرغ للخلوة بربه.

وكان اعتكاف النبي ﷺ في المسجد، وليس في كهف ولا مغارة ولا صحراء، لأن رسالة النبي ﷺ تفاعل مع الحياة وليست اعتزالاً للحياة، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾ [الأنفال: ٢٤].

٥- ومن العبادات التي كان النبي ﷺ يفعلها في العشر مواصلة الصيام، فكان ﷺ يواصل اليومين والثلاثة بدون إفطار ولا سحور، فعجب الصحابة من هذا الانقطاع عن الطعام، وتفرغ النبي عن الأكل للعبادة، فقالوا: يا رسول الله نريد أن نواصل مثلك،

(١) «صحيح البخاري» (٢٠٢٤)، و«صحيح مسلم» (١١٧٤).

قال: «**لا، لَسْتُمْ مِثْلِي؛ إِنِّي أَبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِ**»[(١)]، وهذه خصوصية للنبي ﷺ لأن حال اليقين التي كان فيها النبي ﷺ لا يشركه فيها أحد، فهو الذي قد خُرقت له السبع الطباق، ورُفع إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام عند سدرة المنتهى، وكلَّمه ربه في الملأ الأعلى، ورأى الجنة رأي عين، ورأى النار رأي عين، ولذلك فأشواقه ﷺ وتلذذه بالعبادة ليس كغيره، ولذلك يكتفي عن الأكل والشرب بالاستغراق في العبادة.

لَـهَـا أَحَـادِيـثُ مِـنْ ذِكْـرَاكَ تَشْغَلُهَا ... عَـنْ الـشَّـرَابِ وَتُـلْـهِـيـهَـا عَـنْ الـزَّادِ

لَـهَـا بِـوَجْـهِـكَ نُـورٌ تَـسْـتَـضِـيءُ بِـهِ ... وَمِـنْ حَـدِيـثِـك فِـي أَعْـقَـابِـهَـا حَـادِي

إِذَا شَـكَـتْ مِـنْ كَـلالِ الـسَّـيْـرِ أَوْعَـدَهَـا ... رُوْحُ الـقُـدُومِ فَـتَـحْـيَـا عِـنْـدَ مِـيـعَـاد[(٢)]

٦- ومع استغراق النبي ﷺ في عشر رمضان في العبادة وانقطاعه لها إلا أنه كان متواصلاً بالبر والإيناس مع أهله غير منقطع عنهم، تقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُدْنِي إِلَيَّ رَأْسَهُ، فَأُرَجِّلُهُ وَأَنَا حَائِضٌ، وَهُوَ مُعْتَكِفٌ، وَكَانَ لَا يَدْخُلُ البَيْتَ إِلَّا لِحَاجَةِ الإِنْسَانِ[(٣)].

ويقيني أن تسريح النبي لشعره ما كان فقط احتياجه هو، وإنما كان يُلبي فيه حاجة مشاعر زوجته؛ لأن المرأة وهي تُسرِّح شعر زوجها تسعد بذلك، فمن أجمل لحظات القرب هذه اللحظة، فأراد النبي ﷺ أن يُسعد زوجته فيُخرج إليها رأسه لترجله، ولك أن تتخيل شعور عائشة وهي تُسرِّح شعره وتبادله الحديث مع أنه في حال اعتكاف، والنبي ﷺ بهذا الفعل يجمع بين عبادتين في وقت واحد؛ الاعتكاف، والإحسان إلى الأهل والخيرية معهم.

ومن ذلك: أنه كان يقبّل نساءه وهو صائم فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُقَبِّلُ إِحْدَى نِسَائِهِ، وَهُوَ صَائِمٌ[(٤)]. وعَنْها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُقَبِّلُ وَهُوَ صَائِمٌ، وَيُبَاشِرُ وَهُوَ صَائِمٌ، وَلَكِنَّهُ أَمْلَكُكُمْ لِإِرْبِهِ[(٥)].

---

(١) «صحيح البخاري» (١٩٦١)، و«صحيح مسلم» (١١٠٣).

(٢) «ديوان المعاني» للعسكري (١/ ٦٣).

(٣) «صحيح البخاري» (٢٠٢٩)، و«صحيح مسلم» (٢٩٧).

(٤) «صحيح البخاري» (١٩٢٨)، و«صحيح مسلم» (١١٠٦).

(٥) «صحيح البخاري» (١٩٢٧)، و«صحيح مسلم» (١١٠٦).

وعَنْ حَفْصَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُقَبِّلُ وَهُوَ صَائِمٌ[1]. وهذا التقبيل أثناء الصيام رسالة حب وإسعاد يشعر الزوجة بمكانتها وحظوتها.

وكان زوجاته يجتمعن عنده في الليل وهو معتكف، فما جعل ﷺ الاعتكاف انقطاعاً عن الحياة، فتأتي إليه زوجاته في الليل مع أنه ممنوع من المباشرة، ولكن هناك حاجة نفسية بين الزوجين وهي الحديث والتخاطب والمؤانسة؛ فيجتمعن عنده ويتحدثن إليه ثم يذهبن واحدة إثر أخرى.

وفي إحدى الليالي ولعلها كانت ليلة صفية -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- أطالت الجلسة عنده حتى ذهبت كل نساء النبي ﷺ فلما أرادت أن ترجع إلى بيتها وكان بيتها خارج المسجد قامَ مَعَهَا النَّبِيُّ ﷺ يماشيها ويؤانسها في الطريق إلى أن تصل إلى بيتها، حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ بَابَ المَسْجِدِ مَرَّ بِهِمَا رَجُلَانِ مِنَ الأَنْصَارِ فَسَلَّمَا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ ثُمَّ أسرعا لما رأيا النبي ﷺ ومعه امرأة، فَقَالَ لَهُمَا رَسُولُ الله ﷺ: «**عَلَى رِسْلِكُمَا، إِنَّمَا هِيَ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ**». قَالَا: سُبْحَانَ الله يَا رَسُولَ الله، وَكَبُرَ عَلَيْهِمَا. يعني هل يمكن أن نظن بك سوءاً؟! فقَالَ ﷺ الرحيم بأمته: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنِ ابْنِ آدَمَ مَبْلَغَ الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا**»[2].

إنه مشهد قد يستغله الشيطان فيقذف الشر وسيئَ الظن في قلب هذا المسلم الخيِّر، فأراد النبي ﷺ أن يُطهر قلوبهما حتى لا يتسلل إليها كيد الشيطان ووسوسته.

فيا ترى ما الذي يجعل النبي ﷺ يخرج من معتكفه حتى يوصل زوجته إلى بيتها ويشعر أنه لا زال معتكفاً، وأن اعتكافه لم ينقطع؟

إن إيصال زوجته إلى بيتها ومؤانستها في الطريق في ظلام الليل هي عبادة أخرى مع الاعتكاف، فإذا كان هذا هو ود النبي مع أهله وإيناسه لهم وخيريته معهم مع كمال استغراقه تلك الأيام في العبادة فما ظنك بحاله مع أهله في سعة الوقت وأنس الحياة؟!

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

---

(١) «صحيح مسلم» (١١٠٧).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٠٣٨)، و«صحيح مسلم» (٢١٧٥).

٧- ومع اجتهاده ﷺ في العبادة في رمضان إلا أنه كان يحتاط لأمته أن تقتدي به فيما يشق عليها لو كلّفت به، فكان يواصل فأرادوا أن يواصلوا فنهاهم وقال: «**إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ إِنِّي أَبِيتُ لِي مُطْعِمٌ يُطْعِمُنِي، وَسَاقٍ يَسْقِينِ**»(١).

ولما رأى حرصهم على الوِصَالِ، وَاصَلَ بِهِمْ يَوْمًا، ثُمَّ يَوْمًا، ثُمَّ رَأَوُا الهِلَالَ، فَقَالَ: «**لَوْ تَأَخَّرَ لَزِدْتُكُمْ**». كَالتَّنْكِيلِ لَهُمْ حِينَ أَبَوْا أَنْ يَنْتَهُوا(٢)، وصلى مرةً في معتكفه فصلى أناس بصلاته فلما كان الليلة الثانية كثروا، فلما كان الليلة الثالثة كثروا حتى ضاق بهم المسجد فلم يخرج ولم يصل ثم قال لهم: «**أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّهُ لَمْ يَخْفَ عَلَيَّ شَأْنُكُمُ اللَّيْلَةَ، وَلَكِنِّي خَشِيتُ أَنْ تُفْرَضَ عَلَيْكُمْ صَلَاةُ اللَّيْلِ فَتَعْجِزُوا عَنْهَا**»(٣).

٨- ومن هديه في رمضان إيقاظ أهله للصلاة مع أنه كان يوقظهم أثناء العام ليصلوا ما يطيقون، لكنه في رمضان يؤكد ذلك بحضهم على المشاركة في القيام واغتنام الليالي الفاضلة، قالت عائشة: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا دَخَلَ العَشْرُ شَدَّ مِئْزَرَهُ، وَأَحْيَا لَيْلَهُ، وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ(٤)، وقال عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُوقِظُ أَهْلَهُ فِي العَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، وَكُلَّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ يُطِيقُ الصَّلَاةَ(٥).

ويتحرى في ذلك تحقيق أمر الله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢]، ولذا نقلت زوجاته لنا غالب هديه في رمضان لأنهن كن يشاركنه فيه.

---

(١) «صحيح البخاري» (١٩٦٣)، و«صحيح مسلم» (١١٠٢).
(٢) «صحيح البخاري» (١٩٦٥)، و«صحيح مسلم» (١١٠٣).
(٣) «صحيح مسلم» (٧٦١).
(٤) «صحيح البخاري» (٢٠٢٤)، و«صحيح مسلم» (١١٧٤).
(٥) «المعجم الأوسط» للطبراني (٧٤٢٥).

خلاصات:

١ - كان شهر رمضان موعد اللقاء الأول مع تنزل الوحي ونزول القرآن ولذا ارتبط رمضان بالقرآن: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

٢- وكما كان رمضان شهر نزول القرآن كان شهر المدارسة السنوية للقرآن مع جبرائيل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.

٣- كان ﷺ يعيش في شهر رمضان نشوة واغتباطاً بعظيم فضل الله، ويلاحظ ذلك في تضاعف جوده ﷺ فيه.

٤- كان ﷺ يتحرّى ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان فيحيي ليله، ويوقظ أهله، ويشد مئزره.

٥- كان ﷺ يعتكف في العشر الأخير في المسجد وينقطع للقيام والقرآن، ويواصل الصيام وينهى غيره عن الوصال.

٦- كان ﷺ يحشد في شهر رمضان أعمال الخير، ففيه الصيام والقرآن والإنفاق والاعتكاف والقيام والوصال.

٧- ومع هذا الاستغراق العظيم في العبادة ما كان ينقطع عن أهله، بل يجمع مع هذه العبادات عبادة أخرى وهي مؤانسة الأهل والحديث إليهم.

الرسول ﷺ والعيد

قَدِمَ ﷺ المدينة وكان لهم يوما عيد يلعبون فيهما هما يوم النيروز والمهرجان. والنيروز: أول برج الحمل وهو أول السنة الشمسية، والمهرجان: أول يوم الميزان، وهما يومان معتدلان يستوي فيهما الليل والنهار. وكانت أعياداً وثنية، فجاء ﷺ وأبدلهما بهما يومين شريفين عظيمين مرتبطين بشعيرتين هما من أركان الإسلام، فعيد الفطر فرح بإكمال العدَّة وإتمام صوم شهر رمضان، وعيد الأضحى فرح بإكمال شعائر الحج للحجاج، وأعمال العشر لغيرهم، وليس لأهل الإسلام أعياد دينية غير هذين اليومين.

ولذا كان للعيد مع النبي ﷺ شعائر ومظاهر تدل على الفرح بفضل الله، وتعظيمه والامتنان له، وذلك في الاجتماع الحاشد، والمظهر الجميل، والفرح المعلن، ومن ذلك:

١ - كان ﷺ يلبس للخروج إلى العيدين أجمل ثيابه وكان له حلةٌ جميلة يلبسها للعيدين والجمعة، ومرةً يلبس بُردين أخضرين[١]، ومرةً بُرداً أحمر[٢].

وكان يأكل قبل خروجه لعيد الفطر تمراتٍ، ويأكلهن وتراً[٣]، وأما في عيد الأضحى فكان لا يطعم حتى يرجع من المصلى فيأكل من أضحيته[٤].

(١) «سنن أبي داود» (٣٠٢١).
(٢) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (١/ ٣٨٨).
(٣) «صحيح البخاري» (٩٥٣).
(٤) «مسند أحمد» (٢٢٩٨٤).

وكان يغتسل للعيدين، ويدل على ذلك ثبوته عن الصحابة[1]، ولأنه مشهد عام كمشهد الجمعة.

ويتطيب لخروجه، ويدل عليه ثبوته عن بعض الصحابة[2]، ولثبوت الأمر به لمشهد الجمعة.

وفي هذا تعظيم للشعيرة، وتجاوب مع ما في الفطرة السوية من حب الزينة والجمال، وحسن المظهر في المجامع العامة.

٢- مكان مصلى العيد والاستسقاء في عهد النبي ﷺ، هو موضع مسجد الغمامة الآن، ويبعد اليوم عن المسجد النبوي نحو خمسمئة مترٍ في الجهة الجنوبية الغربية منه.

ولم يكن المصلى في حياة النبي ﷺ مسجداً، بل كان فضاءً خارج المدينة لا بناء فيه، والمسجد اليوم إنما هو في بعضه، وهو المحل الذي كان يقوم فيه النبي ﷺ، والظاهر أن بناءه الأول كان في زمن عمر بن عبد العزيز.

فكان النبي ﷺ يخرج بالناس، فيصلي بهم صلاة العيد في هذا الفضاء؛ لأن مسجد النبي ﷺ لا يتسع لأهل المدينة إذا اجتمعوا كلهم في صلاة العيد، فإن صلاة العيد يهبط إليها أهل العوالي والنواحي المتباعدة عن الحرم، ومعهم النساء حيث أكد ﷺ عليهن الخروج إلى صلاة العيد، قالت أم عطية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أُمرنا أن نُخرج الحيض يوم العيدين وذوات الخدور، فيشهدن جماعة المسلمين ودعوتهم، ويعتزل الحيض عن مصلاهن، قالت امرأةٌ: يا رسول الله، إحدانا ليس لها جلبابٌ! قال: «**لِتُلْبِسْهَا صَاحِبَتُهَا مِنْ جِلْبَابِهَا**»[3].

وهذا الاجتماع الحاشد حيث يجتمع أهل النواحي المتباعدة في مكان فضاء يستوعبهم رجالا ونساء هو نوع من تعميق الانتماء إلى الجماعة وتقوية لحمتها، فبعد الاجتماع اليومي في الأحياء لصلاة الجماعة، والاجتماع الأسبوعي في الناحية لصلاة الجمعة، يأتي هذا الاجتماع السنوي الحاشد ليجمع من لم يجتمعوا لتفرق نواحيهم وتباعدها،

(١) «البدر المنير» لابن الملقن (٥/ ٤١).

(٢) «البدر المنير» (٥/ ٤٥).

(٣) «صحيح البخاري» (٣٢٤)، و«صحيح مسلم» (٨٩٠).

ولذا أمر ﷺ النساء أن يخرجن لصلاة العيد وقال: «**يَشْهَدْنَ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ**». فهو اجتماع جماعة المسلمين الجامع لهم.

٣- إذا خرج ﷺ حُملت العنَزة[١] بين يديه حتى تنصب أمامه؛ لأنه يصلي في الفضاء إلى غير سترة، فتكون سترة له، وهذه العنَزة كانت للزبير رضي الله عنه، أعطاها إياه النجاشي، فوهبها للنبي ﷺ فكان يخرج بها بين يديه يوم العيد[٢].

ويظهر من فعل الصحابة أنه ﷺ كان يَجْهر ويكثر من التكبير في الطريق إلى صلاة العيد[٣]، امتثالا وإشهاراً لقوله تعالى: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

فإذا وصل إلى المصلى بدأ بالصلاة قبل الخطبة من غير أذان ولا إقامة[٤] فيصلي ركعتين، يكبر في الأولى سبع تكبيراتٍ متواليةٍ بتكبيرة الافتتاح[٥]، يسكت بين كل تكبيرتين سكتةً يسيرةً.

فإذا أتم التكبير أخذ في القراءة، فقرأ فاتحة الكتاب، ثم قرأ بعدها: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [سورة ق: ١] في إحدى الركعتين، وفي الأخرى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١][٦].

وربما قرأ فيهما: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١][٧].

---

(١) العنزة: هي الرمح القصير. ينظر: «النهاية» (٣/ ٣٠٨).
(٢) «صحيح البخاري» (٩٧٣)، و«صحيح مسلم» (٥٠١).
(٣) «صحيح البخاري» (٩٧١)، و«صحيح مسلم» (٨٩٠).
(٤) «سنن أبي داود» (١١٤٦).
(٥) «سنن أبي داود» (١١٤٩).
(٦) «صحيح مسلم» (٨٩١).
(٧) «صحيح مسلم» (٨٧٨).

فإذا فرغ من القراءة كبر وركع، ثم إذا أكمل الركعة وقام من السجود كبر خمسًا متواليةً، فإذا أكمل التكبير أخذ في القراءة.

٤- فإذا أكمل الصلاة انصرف فقام مقابل الناس، والناس جلوسٌ على صفوفهم، ولم يكن هناك منبرٌ يرقى عليه، وإنما كان يخطبهم قائمًا على الأرض، وكان يفتتح خطبته بالحمد لله، ويكثر التكبير في أضعاف الخطبة، ويعظ الناس ويذكرهم.

قال أبو سعيدٍ الخدري: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَخْرُجُ يَوْمَ الفِطْرِ وَالأَضْحَى إِلَى المُصَلَّى، فَأَوَّلُ شَيْءٍ يَبْدَأُ بِهِ الصَّلَاةُ، ثُمَّ يَنْصَرِفُ، فَيَقُومُ مُقَابِلَ النَّاسِ، وَالنَّاسُ جُلُوسٌ عَلَى صُفُوفِهِمْ فَيَعِظُهُمْ، وَيُوصِيهِمْ، وَيَأْمُرُهُمْ، فَإِنْ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَقْطَعَ بَعْثًا قَطَعَهُ، أَوْ يَأْمُرَ بِشَيْءٍ أَمَرَ بِهِ، ثُمَّ يَنْصَرِفُ[(١)].

وقال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: أشهد على رسول الله ﷺ لصلى قبل الخطبة ثم خطب فرأى أنه لم يسمع النساء، فأتاهن فذكرهن ووعظهن، وأمرهن بالصدقة، وبلالٌ قائلٌ بثوبه[(٢)]، فجعلت المرأة تلقى الخاتم والخرص وَالشَّيْءَ[(٣)].

وقال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: شهدت مع رسول الله ﷺ الصلاة يوم العيد، فبدأ بالصلاة قبل الخطبة، بغير أذانٍ ولا إقامةٍ، ثم قام متوكئًا على بلالٍ، فأمر بتقوى الله، وحث على طاعته، ووعظ الناس وذكرهم، ثم مضى حتى أتى النساء، فوعظهن وذكرهن، فقال: «**تَصَدَّقْنَ؛ فَإِنَّ أَكْثَرَكُنَّ حَطَبُ جَهَنَّمَ**». فقامت امرأةٌ مِنْ سِطَةِ النِّسَاءِ[(٤)] سَفْعَاءُ[(٥)] الخَدَّيْنِ،

(١) «صحيح البخاري» (٩٥٦).

(٢) أي: فاتح ثوبه للأخذ فيه، وفي الرواية الأخرى: «وبلال باسط ثوبه»، معناه أنه بسطه ليجمع الصدقة فيه. ينظر: «شرح النووي على مسلم» (٦/ ٤٨١).

(٣) «صحيح البخاري» (١٤٣١)، و«صحيح مسلم» (٨٨٤). والخِرْصُ: الحلقة الصغيرة من الحلي، وهو من حلي الأذُن. ينظر: «النهاية» (٢/ ٢٢).

(٤) سطَة النساء: أي ليست من علية النساء، ويدل عليه قوله: «سفعاء الخدين». ينظر: «إكمال المعلم» (٣/ ٢٩٤).

(٥) السُّفْعَةُ: نَوْعٌ مِنَ السَّوَادِ لَيْسَ بِالكَثِيرِ. وَقِيلَ: هُوَ سَوَادٌ مَعَ لَوْنٍ آخَرَ. ينظر: «النهاية» (٢/ ٣٧٤).

فقالت: لم يا رسول الله؟ قال: «**لِأَنَّكُنَّ تُكْثِرْنَ الشَّكَاةَ، وَتَكْفُرْنَ العَشِيرَ**». قال: فجعلن يتصدّقن من حليهن، يلقين في ثوب بلالٍ من أقرطتهن وخواتمهن[١].

ورخص ﷺ لمن شهد العيد أن يجلس للخطبة، وأن يذهب، ورخص لهم إذا وقع العيد يوم الجمعة أن يجتزئوا بصلاة العيد عن حضور الجمعة[٢].

وهذا من تيسير الشعائر على الناس لأن اجتماعهم للصلاة من النواحي المتباعدة ثم انشغالهم بأعمال يوم العيد قد يعوق بعضهم عن الجلوس الطويل، أو الرجوع لصلاة الجمعة فكان ذلك من يسر التشريع وتيسير الشعيرة.

وكان ﷺ يخالف الطريق يوم العيد، فيذهب في طريقٍ، ويرجع في آخر[٣]، فقيل: لينال بركته من في الطريقين، ولأن في ذلك إيناس لأهل الأحياء والدور الذين هم في طريقه ذهاباً وإياباً[٤].

وقد ذهبت تلك الطرق كلها، وصار المصلى بارزاً، وما بينه وبين المسجد النبوي ساحة واسعة.

٥- والعيد موسم الفضل والرحمة الإلهية؛ وبهما يكون الفرح ويظهر السرور، وشَرْعُ النبي ﷺ وتقريره إظهار الفرح وإعلان السرور في الأعياد، قال أنس رضي الله عنه: قدم رسول الله ﷺ المدينة ولهم يومان يلعبون فيهما، فقال: «**إِنَّ اللهَ قَدْ أَبْدَلَكُمْ بِهِمَا خَيْراً مِنْهُمَا: يَوْمَ الأَضْحَى وَيَوْمَ الفِطْرِ**»[٥].

ففيه دليل على أن إظهار السرور في العيدين مندوب، وأن ذلك من الشريعة التي شرعها الله لعباده؛ إذ في إبدال عيد الجاهلية بالعيدين المذكورين دلالة على أنه يفعل في العيدين المشروعين ما يفعله أهل الجاهلية في أعيادهم من اللعب مما ليس بمحظور؛ لأن النبي ﷺ إنما خالفهم في تعيين الوقتين.

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٠٤)، و«صحيح مسلم» (٨٨٥).
(٢) «سنن أبي داود» (١٠٧٠).
(٣) «صحيح البخاري» (٩٨٦).
(٤) «فتح الباري» (٢/ ٤٧٢).
(٥) «السنن الكبرى» للنسائي (١٥٥٦).

ومما يؤكد ذلك أنه ﷺ كان ينهى عن صيام العيدين، فعن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه خطب يوم النحر فقال: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَدْ نَهَاكُمْ عَنْ صِيَامِ هَذَيْنِ العِيدَيْنِ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَيَوْمُ فِطْرِكُمْ مِنْ صِيَامِكُمْ، وَأَمَّا الآخَرُ فَيَوْمٌ تَأْكُلُونَ مِنْ نُسُكِكُمْ[1].

وذلك أن حال الصيام لا توافق حال الفرح بالعيد والتمتع بنعمة الله وما أباح لعباده وتفضل به عليهم، ولذا قال ﷺ: «**يَوْمُ عَرَفَةَ، وَيَوْمُ النَّحْرِ، وَأَيَّامُ التَّشْرِيقِ عِيدُنَا أَهْلَ الإِسْلَامِ، وَهِيَ أَيَّامُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ**»[2].

ويبين هذا أيضاً خبر عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: دخل علي رسول الله ﷺ وعندي جاريتان تغنيان بدفين بغناء بعاث، فاضطجع على الفراش، وتسجى بثوبه، وحول وجهه إلى الجدار، وجاء أبو بكر فانتهرهما، وقال: مزمارة الشيطان عند النبي ﷺ، فكشف النبي وجهه، وأقبل على أبي بكر، وقال: «**دَعْهُمَا يَا أَبَا بَكْرٍ؛ إِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ عيداً، وَهذَا عيدُنَا**»[3].

ومن مشاهد السرور بالعيد بين يدي النبي ﷺ ما فعله الحبشة، حيث اجتمعوا في المسجد يرقصون بالدَّرَق[4] والحراب، واجتمع معهم الصبيان حتى علت أصواتهم، فسمعهم النبي ﷺ فنظر إليهم، ثم قال لعائشة: «**يَا حُمَيْرَاءُ! أَتُحِبِّينَ أَنْ تَنْظُرِي إِلَيْهِمْ؟**». قالت: نعم، فأقامها ﷺ وراءه خدها على خده يسترها، وهي تنظر إليهم، والرسول ﷺ يغريهم، ويقول: «**دُونَكُمْ يَا بَنِي أَرْفِدَةَ، لِتَعْلَمَ يَهُودُ أَنَّ فِي دِينِنَا فُسْحَةً، إِنِّي بُعِثْتُ بِالحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ**»[5].

(١) «صحيح البخاري» (٥٥٧١)، و«صحيح مسلم» (١١٣٧).
(٢) «سنن أبي داود» (٢٤١٩).
(٣) «صحيح البخاري» (٢٩٠٦)، و«صحيح مسلم» (٨٩٢).
(٤) الدَّرَق: جمع دَرَقة، وَهِي الترس الَّذِي يتَّخذ من الجُلُود. ينظر: «عمدة القاري» (٦/ ٢٦٧).
(٥) «صحيح البخاري» (٩٨٦)، و«صحيح مسلم» (٨٩٢)، و«السنن الكبرى» للنسائي (٨٩٠٢).

فهذه مشاهد الفرح بالعيد ومظاهر السرور والبهجة تقام بين يدي النبي ﷺ فيقرها ويحتفي بها، ولذا قال العلماء: إظهار السرور في الأعياد من شعار الدين.

قال قيس بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما كان شيء على عهد رسول الله ﷺ إلا وقد رأيته، إلا شيء واحد، فإن رسول الله ﷺ كان يُقَلَّس[1] له يوم الفطر[2].

وعن عياض الأشعري أنه شهد عيدا بالأنبار فقال: ما لي لا أراكم تقلسون، كانوا في زمان رسول الله ﷺ يفعلونه. في رواية: مَا لِيَ لَا أَرَاهُمْ يُقْلِسُونَ كَمَا كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَفْعَلُ أَوْ يَصْنَعُ[3].

ونلاحظ أن إظهار الفرح والتفاعل مع بهجة العيد كان فعلاً عفوياً يفعله كل قوم حسب ثقافتهم وموروثهم التقليدي، فالحبشة احتفلوا على طريقة قومهم الأحباش بالدرق والحراب والرقص في المسجد.

والجاريتان عند عائشة غنتا بتراث قومهم من الدفوف والغناء وأنشدوا قصائدهم في الجاهلية أيام بعاث[4].

ولكل قوم وزمان وسائلهم وطرائقهم في اللعب واللهو التي تستوعبها مساحة الإباحة الواسعة في الدين.

إن في ديننا فسحة، إن نبينا بُعِثَ بالحنيفية السمحة.

---

(١) التقليس: اللعب واللهو اللذان ليسا بمكروهين. ينظر: «شرح مشكل الآثار» للطحاوي (٤/ ١٣١).
(٢) «مسند أحمد» (١٥٤٧٩).
(٣) «سنن ابن ماجه» (١٣٠٢). وينظر: «العلل» لابن أبي حاتم (٢/ ٥٧٥).
(٤) «صحيح البخاري» (٢٩٠٦)، و«صحيح مسلم» (٨٩٢).

خلاصات:

١- شرع ﷺ للمسلمين عيدين عظيمين عيد الفطر وعيد الأضحى مرتبطين بشعيرتين هما من أركان الإسلام.

٢- كان ﷺ يلبس للعيد أحسن لباسه، ويغتسل له ويتطيب.

٣- كان ﷺ يصلي العيد في المصلى وهو فضاء خارج المدينة ليسع أهل المدينة رجالاً ونساء إذا اجتمعوا فيه.

٤- كان يأمر بإظهار الفرح في العيد، ولذا حَرَّم صومه.

٥- ومما يشرع في العيد إظهار الفرح باللهو المباح المناسب، ولكل فئة وعمر ما يناسبهم، فكان الحبش يرقصون بطريقتهم الحبشية، والجواري في المدينة بطريقتهم العربية.

الرسول ﷺ والحج[1]

حجَّ النبي ﷺ بعد الهجرة حَجةً واحدة هي حجة الوداع، سنة عشر من الهجرة، فإن الحج فرض في السنة التاسعة، ولكن النبي ﷺ لم يحج تلك السنة لأسباب منها كثرة الوفود القادمة إليه في المدينة، فحبس نفسه لهم وأرسل أبا بكر ليقيم للناس حجهم.

فلما كانت سنة عشر أعلم الناس أنه سيحج سنته تلك، فقدم المدينة بشرٌ كثير كلهم يريد أن يحج مع رسول الله ﷺ، ولحقه أناس في الطريق، ووافته وفود في مكة فاجتمع إليه جموع لم تجتمع من قبل ولا بعد، ويظهر أنه لم يتكرر مثل هذا العدد بعد ذلك إلا لما تيسرت وسائل المواصلات في القرن الماضي.

وقد حفظ الصحابة للأمة تفاصيل أحواله في حجه واستقصوها ورووها، حتى إن من يجمع رواياته يتضح له المشهد كاملا كأنه حج معه ﷺ.

ولن نقتص في هذا الفصل سياق حجته، فقد أُلِّفت عنها كتب كثيرة جمعت ما أمكن الجمع، واستقصت ما بلغ الاستقصاء[2]، ولكنا سنقف مع النبي ﷺ في مشاهد من حجته نتروى من معانيها ودلالاتها وعظمة مشاهدها، فمن ذلك:

---

(١) باختصار من كتاب: «**صفة حجة النبي ﷺ، كأنك معه**» للمؤلف.

(٢) ومنها: «حجة الوداع» لأبي محمد بن حزم، و«صفوة القرى في صفة حجة المصطفى»، للمحب الطبري، و«حجة الوداع» لمحمد زكريا الكاندهلوي، و«صفة حجة النبي ﷺ كما رواها جابر» للألباني، و«صفة حجة النبي ﷺ» لعصام موسى هادي، و«الرسول ﷺ حاجا ومعتمراً» د. ناصر بن مسفر الزهراني، و«صفة حجة النبي ﷺ، كأنك معه» للمؤلف.

أولاً: عظمة عبوديته لله، وتعظيمه له، وتذلله بين يديه، فهو أعلم الخلق بالله وأعظمهم له خشية، فقد أحرم وركب راحلته على رحل رث وقطيفة لا تساوي أربعة دراهم وهو يقول: «**لَبَّيْكَ حَجَّةً لا رِيَاءَ فِيهَا وَلا سُمْعَةَ**»(١).

وكان يُلِظُّ بالتلبية ويأمر أصحابه برفع أصواتهم بها: «**لَبَّيْكَ اللهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالمُلْكَ، لا شَرِيكَ لَكَ**»(٢).

وتجاوب الصحابة مع تلبية النبي ﷺ فلم يصلوا الرَّوْحاء(٣) حتى بُحَّت حلوقهم.

وفي عرفة بعد أن صلى الظهر والعصر في أول وقت الظهر وقف على راحلته عند الجبل(٤) في حال من الضراعة والمسكنة لله، وكان في دعائه رافعاً يديه إلى صدره، حتى رؤي بياض إبطيه، باسطاً كفيه كاستطعام المسكين، منكسراً لربه عَزَّوَجَلَّ، خاضعاً خاشعاً متذلِّلاً له، مستغرقاً في مناجاته، كأنما يسارع لحظات هذا اليوم أن تفلت لحظة لا يَلْهَجُ فيها بذكر أو يُلِظُّ فيها بدعاء، حتى إنه عندما اضطربت به راحلته، فسقط خطامها تناوله بيد، وأبقى يده الأخرى مبسوطة يدعو بها.

وكان ﷺ لهجاً بالثناء على الله تهليلاً وتحميداً وتلبية: «**لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ، وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لَبَّيْكَ اللهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالمُلْكَ، لا شَرِيكَ لَكَ، لبيك إلهَ الحَقِّ لَبَّيْكَ**»(٥). وكأنما جاشت أشواق الرسول ﷺ، واستشرف قرب الأجل، فسُمع عشية ذلك اليوم وهو يزيد في تلبيته: «**لَبَّيْكَ، لا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الآخِرَةِ**»(٦).

---

(١) «سنن ابن ماجه» (٢٨٩٠).

(٢) «صحيح البخاري» (١٥٤٩)، و«صحيح مسلم» (١١٨٤).

(٣) موقع في الطريق إلى مكة تبعد عن المدينة (٧٠ كم). ينظر: «معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية» (ص١٦٤).

(٤) هو جبل إلال المعروف الآن بجبل الرحمة، وقد وقف على راحلته أسفل الجبل ولم يصعده.

(٥) «صحيح مسلم» (١٢١٨)، و«سنن ابن ماجه» (٢٩٢٠).

(٦) «مسند أحمد» (١٣٢٥٨).

وتقضَّت ساعات النهار، ورسولُ الله ﷺ على حاله تلك، خشوع وخضوع، ولهج بالدعاء والذكر.

وفي المزدلفة لما تنفَّس الصبحُ وأضاءت خيوط الفجر الأولى قام ﷺ مسارعًا إلى صلاة الفجر، فصلَّاها في غاية البكور في أول الوقت، حتى يقول قائل: قد طلع الفجر. ويقول قائل: لم يطلع الفجر؛ لشدة بكوره بها، وذلك ليتسع الوقت بعدها للذكر، وما يستقبل من المناسك، فلما قضى صلاته ركب راحلته، فرقى جبل قُزَح، وهو أَكَمَةٌ مشرفة على المسجد، ولعله صنع ذلك ليكون مشرفًا للناس يرونه كلهم، فاستقبل القبلة، ورفع يديه الشريفتين، فحمد الله وكبَّره وهلَّله ووحَّده ولبَّاه، عملاً بقول مولاه: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٩٨]، وكان يقول: «**لَبَّيْكَ اللهُمَّ لَبَّيْكَ**». ويدعو ربه ويذكره على حال من الضراعة والخضوع، حتى أوشكت الشمس أن تطلع[(١)].

وفي مِنىً بعدما رمى جمرة العقبة لهج بالتكبير وضج الناس معه حتى ارتجت منى بالتكبير[(٢)]، ثم لما انتصف النهارُ في اليوم الحادي عشر وزالت الشمس توجَّه ﷺ إلى الجمرات ماشيًا، فبدأ بالجمرة الصغرى، فرماها مستقبل القبلة بسبع حصيات، يكبِّر الله مع كل حصاة، ثم تقدَّم حتى أَسْهَلَ؛ ليبعد عن زحام الناس، فرفع يديه واستقبل القبلة، يكبِّر الله ويسبِّحه ويحمده، ودعا وتضرَّع طويلاً، ثم قصد الجمرة الوسطى، فرماها مستقبل القبلة بسبع حصيات، يكبِّر مع كل حصاة، كما صنع عند الصغرى، ثم أخذ ذات الشمال، واستقبل القبلة، ورفع يديه ذاكراً وداعيًا ومتضرِّعًا، وأطال الوقوف، وكان وقوفه عند الجمرتين قريبًا من قراءة سورة البقرة، وكان وقوفه عند الجمرة الثانية أطول من الجمرة الأولى، ثم مضى إلى جمرة العقبة فاستقبلها، فرماها، ولم يقف عندها.

وهكذا إذا تأملت مشاهد حجه فإذا هي مشاهد عبودية لله وخضوع له، وضراعة إليه يؤديها ﷺ وهو أعلم الخلق بالله وأخشاهم له، بغاية الاستغراق في العبودية لله وتعظيمه وحسن مسألته.

---

(١) «صحيح مسلم» (١٢١٨).

(٢) المروي في هذا عن عمر موقوفًا عليه، ويقيننا أن عمر فعله تأسِّيًا بالنبي ﷺ، وأن الناس فعلوه مع عمر لأنهم فعلوه من قبل مع النبي ﷺ. أثر عمر: «صحيح البخاري» معلقًا (٢/ ٢٠).

ثانيـًا: كان رسولُ الله ﷺ يقطع هذه الفَيافي الفِساحَ، وكأنما جبالها ووِهادها وآكامها وأوديتها تروِي له خبرها، وتحدِّثه بمَن مرَّ بها، فتراءت لرسول الله ﷺ أطياف الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ الذين ساروا يَؤمُّون هذا البيت قبله، كأنما يراهم أمامه، ويرافقهم في مسيره.

فلما مر بثَنِيَّة هَرْشى قال: «**أيُّ ثَنِيَّةٍ هذه؟**». قالوا: ثَنيَّة هَرْشَى. قال: «**كَأَنِّي أَنظُرُ إِلَى يُونُسَ بْنِ مَتَّى** عَلَيْهِ السَّلَامُ **عَلَى نَاقَةٍ حَمْراءَ جَعْدَةٍ**[1]، **عَلَيْهِ جُبَّةٌ مِنْ صُوفٍ، خِطَامُ نَاقَتِهِ خُلْبَةٌ**[2]، **وَهُوَ يُلَبِّي**»[3].

ولما مر بوادي الأزرق قال: «**أيُّ وادٍ هَذَا؟**». قالوا: وادي الأزرق. قال: «**كأَنِّي أَنظُرُ إلى مُوسَى عَلَى جَمَلٍ أَحْمَرَ مَخْطُوم بخُلْبَة، وَاضِعـًا إصبَعَيْهِ في أُذُنَيْهِ لَهُ جُؤَارٌ**[4] **إِلَى الله بِالتَّلْبِيَةِ، مَارّاً بِهَذَا الوَادِي**»[5].

ولما مر بوادي عُسْفانَ قال: «**يَا أَبَا بَكْرٍ! أَيُّ وَادٍ هَذَا؟**». قال: وادي عُسْفان. قال: «**لَقَدْ مَرَّ بِهِ هُودٌ وَصَالِحٌ عَلَى بَكَراتٍ**[6] **حُمْرٍ، خُطُمُها اللِّيفُ، أُزُرُهُمُ العَبَاءُ، وَأَرْدِيَتُهمُ النِّمَارُ**[7]، **يُلَبُّونَ، يَحجُّونَ البيتَ العَتِيقَ**»[8].

إنها شَعِيرة ضاربة في عمق الزمن، تتابع فيها أنبياءُ الله ورسلُه عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وسيتبعهم فيه عيسى ابنُ مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ في آخر الزمان، كما قال ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيُهِلَّنَّ ابْنُ مَرْيَمَ بِفَجِّ الرَّوْحَاءِ، حَاجـًا أَوْ مُعْتَمِراً، أَوْ لَيَثْنِيَنَّهُمَا**»[9].

---

(١) أي: مجتمعة الخلق شديدة. ينظر: «النهاية» (١/ ٢٧٥).

(٢) خُلْبة: هو الليف، ويطلق على الحبل المتخذ منه. ينظر: «النهاية» (٢/ ٥٨).

(٣) «صحيح مسلم» (١٦٦).

(٤) الجُؤَار: رَفْع الصَّوت والاسْتِغاثة. ينظر: «النهاية» (١/ ٢٣٢).

(٥) «صحيح مسلم» (١٦٦).

(٦) بَكَراتٍ: جمع بَكْرة، وهي: النوق الفتيَّة. ينظر: «النهاية» (١/ ١٤٩).

(٧) النِّمَار: جمع نَمرة، وهي ثياب صوف مخططة، كأنها أُخِذت مِنْ لون النَّمِر؛ لما فيها من السواد والبياض. ينظر: «النهاية» (٥/ ١١٨).

(٨) «مسند أحمد» (٢٠٦٧).

(٩) «صحيح مسلم» (١٢٥٢).

وإن المسلم وهو يسير هذا المَسِير يستشعر أنه ذو نسب في الهداية عريق؛ إنه مسير سار فيه أنبياءُ الله ورسلُه عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وها هو يقتفي أثرهم ويسير في مسيرهم.

ثالثًا: سار ﷺ في طريقه معلِّمًا وهاديًا، يُعلِّم الناسَ مناسكهم، ويبصِّرهم بأمور حجِّهم، ويجيبهم على أسئلتهم.

سمع رجلاً يلبِّي ويقول: لبَّيك عن شُبْرمةَ. فأرسلَ إليه فدعاه، فقال: «**وَمَنْ شُبْرُمَةُ؟**». قال: أخٌ لي، أو قريبٌ لي. قال: «**هَلْ حَجَجْتَ عَنْ نَفْسِكَ؟**». قال: لا. قال: «**فَاجْعَلْ هَذِهِ عَنْ نَفْسِكَ، ثُمَّ حُجَّ عَنْ شُبْرُمَةَ**»(١).

ورأى رجلاً حافيًا يسوق بَدَنةً مقلَّدةً نَعْلاً، وقد جهده المشيُ، فقال: «**ارْكَبْهَا**». فقال: إنها بَدَنةٌ! فقال: «**ارْكَبْهَا**». قال: إنها بَدَنةٌ! فقال: «**ارْكَبْهَا**». قال: إنها بَدَنةٌ! فقال في الرابعة: «**وَيْلَكَ! ارْكَبْهَا. وَيْلَكَ! ارْكَبْهَا**». قال أبو هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فلقد رأيتُه راكبها يسايرُ النبيَّ ﷺ، والنعلُ في عنقها(٢).

وكان ﷺ يمر بالرجال يمشون، فيأمرهم بركوب هديهم الذي ساقوه معهم.

وفي أمره ﷺ ذلك نقض ومخالفة لما كانوا عليه في الجاهلية من إكرام بُدْنِهم بترك ركوبها، كالبَحِيْرَة والسَّائِبَة والوَصِيْلَة والحام(٣).

ورأى في طوافه رجلاً قد ربط يده إلى رجل آخر بسير أو بخيط يقوده به، فقطعه النبي ﷺ بيده، ثم قال: «**قُدْهُ بِيَدِهِ**». قال يا رسول الله إنه نذر، إنا نذرنا لنقترنن حتى نأتي الكعبة، وكان من عادات الجاهلية الاقتران في الحج، فقال ﷺ: «**أَطْلِقَا أَنْفُسَكُمَا وَحُجَّا؛ لَيْسَ هَذَا نَذْراً، إِنَّمَا النَّذْرُ مَا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ الله، إِنَّ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ**»(٤).

---

(١) «سنن أبي داود» (١٨١١).

(٢) «صحيح البخاري» (١٧٠٦)، و«صحيح مسلم» (١٣٢٢).

(٣) هي من عادات الجاهلية الوثنية حيث يحمون ظهور بعض الإبل في حالات خاصة ويحرمون ركوبها، ثم يسيبونها فلا تركب ولا يحمل عليها.

(٤) «السنن الكبرى» للنسائي (٤٧٣٤).

وخطب الناس يوم عرفة، ويوم النحر، ويوم القَرّ وهو الحادي عشر، وكرر في خطبته تعظيم الدماء والأموال والأعراض، واستشهد الناس على بلاغ الرسالة، فعَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النَّبِيَّ ﷺ قَعَدَ عَلَى بَعِيرِهِ، وَأَمْسَكَ إِنْسَانٌ بِخِطَامِهِ -أَوْ بِزِمَامِهِ- قَالَ: «**أَيُّ يَوْمٍ هَذَا**». فَسَكَتْنَا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ سِوَى اسْمِهِ، قَالَ: «**أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ**». قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: «**فَأَيُّ شَهْرٍ هَذَا**». فَسَكَتْنَا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، فَقَالَ: «**أَلَيْسَ بِذِي الحِجَّةِ**». قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: «**فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ، وَأَمْوَالَكُمْ، وَأَعْرَاضَكُمْ، بَيْنَكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ، فَإِنَّ الشَّاهِدَ عَسَى أَنْ يُبَلِّغَ مَنْ هُوَ أَوْعَى لَهُ مِنْهُ**»[(١)].

لقد كان ﷺ هاديًا في سفره، وطوافه وسعيه، وفي المشاعر حال أداء مناسكه، وكان يحرص الناس على الأخذ عنه فيقول: «**خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ**»[(٢)].

رابعًا: تواضعه ﷺ، فقد سار بين الناس تحيط به القلوب، وترمُقُه المُقَلُ، وتُفَدِّيه المُهَجُ، فهو معهم كواحد منهم، لم توطَّأ له المراكب، ولم تتقدَّمه المواكب، ولم تُشق له الطُّرقات، ولم تُنصب له السُّرادقات، وإنما سار بين الناس، ليس له شارة تميِّزه عنهم، إلا بهاء النبوة وجلال الرسالة، يسير معهم وفي غِمارِهم، يقول أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كنتُ رَديف أبي طلحة على راحلته، وإن ركبته لتكاد تمَسُّ ركبةَ رسول الله ﷺ، وهو يقول: «**لبَّيكَ حجّةً وعُمرةً**»[(٣)].

وكان الناس حوله، يحيطون به كما تحيط الهالة بالقمر، قال جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: نظرتُ مَدَّ بصري بين يدي رسول الله ﷺ من راكب وماشٍ، وعن يمينه مثل ذلك، وعن يساره مثل ذلك، ومن خلفه مثل ذلك[(٤)].

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٧)، و«صحيح مسلم» (١٦٧٩).
(٢) «صحيح مسلم» (١٢٩٧)، و«السنن الكبرى» للبيهقي (٩٥٢٤).
(٣) «المعجم الأوسط» للطبراني (٨١٤).
(٤) «صحيح مسلم» (١٢١٨).

وكان ﷺ قريباً من الناس، والناس قريبون منه، يهابه كلُّ أحد، ويدنو منه كلُّ أحد؛ يسعهم بالخلق العظيم الذي جبله عليه ربه، فحدَّث أبو جُحَيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن مشهد من مشاهده مع النبي ﷺ أيامه تلك، حينما كان النبي ﷺ نازلاً بالأبطح وكان أبو جُحَيفة يومها غلاماً في نحو العاشرة من عمره، فقال: خرج رسولُ الله ﷺ بالهاجرة، وعليه حلة حمراء مُشمِّراً، كأني أنظر إلى بَرِيق ساقيه، فصلَّى بالناس ركعتين، فلما قضى صلاته قام الناس إليه، فجعلوا يأخذون بيديه فيمسحون بها وجوههم، فأخذتُ بيده فوضعتها على وجهي، فإذا هي أبرد من الثلج، وأطيب رائحةً من المسك[1].

يالله لهذه النفس الرضيّة يصل إليه كل الناس حتى يصل إليه فتى في العاشرة فيأخذ بيده ويضعها على وجهه فيحس بردها ويستنشق عطرها.

وحينما دفع ﷺ من عرفة إلى مزدلفة سار في حَطْمَة الناس وغِمارِهم، ليس له طريق خاصٌّ، ولا موكب خاصٌّ، وإنما هو ﷺ مع الناس، وهو إمام الناس، لا يُدفع أحدٌ أمامه، ولا يُصَدُّ أحدٌ من ورائه، وقد رفع يمينه المباركة، باسطاً بطن كفه إلى السماء، يشير إليهم قائلاً: «**أَيُّها النَّاسُ، عَلَيْكُمْ بالسَّكِينةِ والوَقارِ، فإنَّ البِرَّ ليس بإيجَافِ الخَيْلِ والإبِلِ**»[2]. وإذا سمع حَطْمَةَ الناس خلفه وتدافعهم وضربهم الإبل يميناً وشمالاً التفت إليهم، وأشار بسَوْطه قائلاً: «**رُويداً أَيُّها النَّاسُ، عَلَيْكُم السَّكِينةَ؛ فَإِنَّ البِرَّ لَيْسَ بِالإِيضَاع**»[3]. أي: السرعة. وكان يقول ذلك وهو أول مَن فعله؛ فقد شَنَقَ راحلته وكَبَحَ زمامها، حتى إن رأسها ليصيب مَوْرِكَ رَحْلِهِ[4] من شدة كَبْحِهِ لزمامها، فإذا أتى مرتفعاً أرخى لها حتى تصعد.

وعندما رمى جمرة العقبة رمى في غمرة الناس كما قال قدامة بن عبد الله الكِلَابي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: رأيتُ رسولَ الله ﷺ رمَى جمرة العقبة يوم النحر على ناقةٍ صَهْبَاءَ، بلا زَجْرٍ، ولا طَرْدٍ، ولا: إِلَيْكَ إِلَيْكَ[5].

(١) «مسند أحمد» (١٨٧٦٧).

(٢) «سنن أبي داود» (١٩٢٠).

(٣) «صحيح البخاري» (١٦٧١).

(٤) مورك الرحل: قطعة جلد يتورَّك عليها الراكب، تُجعل في مقدم الرحل، تشبه المخدة الصغيرة. ينظر: «النهاية» (٥/ ١٧٦).

(٥) «مسند أحمد» (١٥٤١٠).

وفي اليوم الحادي عشر خطب الناس في منى، قال رافع بن عمرو المزني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يصف ذاك المشهد: أقبلت مع أبي وأنا غلام في حجة الوداع، فإذا رسولُ الله ﷺ يخطب الناسَ على بغلة شهباء، وعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يعبِّر عنه، والناس بين جالس وقائم، فجلس أبي وتخللت الرِّكاب، حتى أتيتُ البغلة، فأخذتُ بركابه، ووضعتُ يدي على ركبته، فمسحتُ الساق حتى بلغتُ بها القدم، ثم أدخلتُ كفي بين النعل والقدم، فيخيل إليَّ الساعةَ أني أجد برد قدمه على كفي[1].

ولئن عجب رافع بن عمرو من برد قدم النبي ﷺ، فإننا نعجب من برد خلقه، وطيب نفسه، إنها النفس الرضيّة والخلق العظيم، أن يمضي ﷺ في خطبته، ويدع الغلام يمسح قدمه، ويدخل يده تحت شراك نعله، وهو ماضٍ في شأنه، معلِّم بحاله ومقاله.

خامسًا: تيسيره في أداء المناسك، فقد كان ﷺ سمحًا في إقامة المناسك، وهو المبعوث بالحنيفية السمحة، ميسِّراً للناس رفيقًا بهم، فمن ذلك أنه رخَّص للرعاة أن يرموا يوم النحر، ثم يدعوا يومًا، ثم يرموا من الغد، ورخَّص للعباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يبيت بمكة لأجل سقايته، ولم يحفظ عنه في حجته أنه أوجب دمًا على أحد، برغم كثرة الجموع معه، وكونهم حدثاء عهد بالإسلام، يؤدون حجهم أول مرة، وإنما كان هِجِّيرَاهُ[2] للناس: «**افْعَلْ وَلاَ حَرَجَ، لا حَرَجَ، لا حَرَجَ؛ قَدْ أَذْهَبَ اللهُ عَنْكُمُ الحَرَجَ**»[3]. مصدِّقًا قول ربه: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

وعندما جاءه عروة بن مُضَرِّس الطائي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: يا رسول الله، جئتك من جبلي طيء[4]، أتعبت نفسي، وأنصبت راحلتي، والله ما تركت من جبل إلا وقفت عليه، فهل لي من حج؟ فقال ﷺ: «**مَن شَهِدَ مَعَنَا هَذِهِ الصَّلَاةَ** -يعني صلاة الفجر- **بجَمْعٍ، وَوَقَفَ مَعَنَا حَتَّى نُفِيضَ مِنْهُ، وَقَدْ أَفَاضَ قَبْلَ ذَلِكَ مِنْ عَرَفاتٍ لَيْلاً أَوْ نَهَاراً، فَقَدْ تَمَّ حَجُّهُ، وَقَضَى تَفَثَهُ**»[5].

---

(١) «المعجم الكبير» للطبراني (٤٤٥٨).

(٢) الهِجِّيرُ: الدَّأبُ والعَادَةُ والدَّيْدَنُ. ينظر: «النهاية» (٥/ ٢٤٦).

(٣) «صحيح البخاري» (١٧٢١)، و«صحيح مسلم» (١٣٠٧).

(٤) جبلي طيء: هما جبلا: أجا وسلمى في منطقة حائل شمال المملكة العربية السعودية، وهي منازل قبيلة طيء. ينظر: «معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية» (ص١٧).

(٥) «صحيح مسلم» (١٣٠٧).

وبعد أن رمى جمرة العقبة ثار الناس إليه يسألونه عن أحكام المناسك، فجاءه رجل فقال: حلقت قبل أن أرمي؟ فقال: «**ارْمِ وَلَا حَرَجَ**». وجاءه رجل فقال: حلقت قبل أن أذبح؟ فقال: «**اذْبَحْ وَلَا حَرَجَ**». وجاءه رجل فقال: لم أشعر فنحرت قبل أن أرمي، فقال: «**ارْمِ وَلَا حَرَجَ**». وجاءه رجل فقال: طفت قبل أن أرمي؟ قال: «**لَا حَرَجَ**». فما سئل عن شيء إلا قال: «**افْعَلْ وَلَا حَرَجَ**»(١).

وجاءت الأعراب من هاهنا وهاهنا، فقالوا: يا رسول الله، أفتنا في كذا، أفتنا في كذا، فقال: «**أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ اللهَ قَدْ وَضَعَ عَنْكُمُ الحَرَجَ، إِلَّا رَجُلاً اقْتَرَضَ مِنْ عِرْضِ مُسْلِمٍ، وَهُوَ ظَالِمٌ، فَذَلِكَ الَّذِي حَرِجَ وَهَلَكَ**». قالوا: يا رسول الله نتداوى؟ قال: «**نَعَمْ تَدَاوَوْا؛ فَإِنَّ اللهَ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلَّا وَضَعَ لَهُ دَوَاءً، غَيْرَ دَاءٍ وَاحِدٍ**». قالو: وما هو يا رسول الله؟ قال: «**الهَرَمُ**». قالوا: ما خير ما أعطي الناس؟ يا رسول الله، قال: «**خُلُقٌ حَسَنٌ**»(٢).

سادسًا: وداعه للناس، فقد كان يتهيأ للحاق بالرفيق الأعلى وجاءته دلائل قرب أجله حين تنزّلت عليه سورة النصر، ثم دارسه جبريل في تلك السنة القرآن مرتين ولذا كان خطابه للناس خطاب مُودِّع فعندما خطب الناس قال: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ! خُذُوا مَنَاسِكَكُمْ، فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَحُجُّ بَعْدَ عَامِي هَذَا**»(٣).

وعن جبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ قَالَ: قَامَ رَسُولُ الله ﷺ بِالخَيْفِ مِنْ مِنىً فَقَالَ: «**نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَبَلَّغَهَا، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرِ فَقِيهٍ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ**»(٤).

ثم رفع رأسه إلى السماء، فقال: «**اللهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟ اللهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟**». قالوا: نعم بلَّغ رسولُ الله. فرفع يديه إلى السماء، ثم قال: «**اللَّهمَّ اشْهَدْ، اللَّهمَّ اشْهَدْ، اللَّهمَّ اشْهَدْ**»(٥).

---

(١) «صحيح البخاري» (١٧٢٢)، و«صحيح مسلم» (١٣٠٧).
(٢) «سنن ابن ماجه» (٣٤٣٦).
(٣) «السنن الكبرى» للنسائي (٣٠٦٢).
(٤) «سنن أبي داود» (٣٦٦٠)، و«جامع الترمذي» (٢٨٤٧)، و«سنن ابن ماجه» (٢٣٠).
(٥) «صحيح مسلم» (١٢١٨).

وجعل يتطاول ليُسْمِعَ الناسَ، ويقول: «**أَلَا تَسْمَعُونَ**». يُطوِّل في صوته. وينادِي: «**يا أُمَّتَاهُ! هَلْ بَلَّغْتُكُمْ؟**». حتى قال صبيٌّ في الموقِف لأمه: يا أُمَّهْ، ما له يدعو أمه؟ فقالت له: يا بني، إنه لا يدعو أمه، إنما يعني أُمَّتَهُ[1]. وودَّع ﷺ الناس، فسُمِّيت: حجة الوداع.

واستشعر الناس أنها موعظة مودع، فقال رجل من طوائف الناس: يا رسول الله، ماذا تعهد إلينا؟ قال: «**اعْبُدُوا رَبَّكُمْ، وَصَلُّوا خَمْسَكُمْ، وَصُومُوا شَهْرَكُمْ، وَأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ، وَأَطِيعُوا ذَا أَمْرِكُمْ تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ**»[2].

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كُنَّا نَتَحَدَّثُ بِحَجَّةِ الوَدَاعِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِنَا، وَلَا نَدْرِي مَا حَجَّةُ الوَدَاعِ[3]، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وقال: «**أَلَا إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟**»، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «**اللهُمَّ اشْهَدْ، ثَلَاثًا، وَيْلَكُمْ أَوْ: وَيْحَكُمُ انْظُرُوا، لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّاراً يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ**»[4].

وفي طريق رجوعه إلى المدينة نزل في غدير خم، فصلَّى الظهر، ثم قام في الناس خطيباً، فحمدَ اللهَ، وأثنى عليه، ثم وعظ وذكَّر، فقال: «**أيها الناسُ، هل بلَّغتُ**». قالوا: نعم. قال: «**اللهُمَّ اشْهَدْ، اللهُمَّ اشْهَدْ، اللهُمَّ اشْهَدْ**».

ثم قال: «**أَمَّا بَعْدُ، أَيُّهَا النَاسُ، فَإِنَمَا أَنَا بَشَرٌ، يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَنِي رَسُولُ رَبِّي** عَزَّوَجَلَّ **فَأُجِيبَهُ**»[5].

وهذا كله من تهيئة الناس وإعدادهم لخبر وفاته والذي وقع بعد ثلاثة أشهر، لتستعد الأمة لتلقِّي الحدث، وتتحمل المسؤولية ممن أداها، والرسالة ممن بلغها.

---

(١) «المعجم الكبير» للطبراني (٥٣٨).
(٢) «جامع الترمذي» (٦١٦).
(٣) «صحيح البخاري» (٤٤٠٢)، و«صحيح مسلم» (٦٦).
(٤) «صحيح البخاري» (٤٤٠٣).
(٥) «صحيح مسلم» (٢٤٠٨).

خلاصات:

١- حجّ النبي ﷺ بعد الهجرة حجة واحدة، هي حجة الوداع، وقد نقلت إلينا، تفاصيلها حتى كأنما نصحبه فيها.

٢- من مشاهد حجته عظمة عبوديته لله، وتعظيمه له، وتذلـله بين يديه، ولهجه بذكره.

٣- كان ﷺ، يقطع الطريق إلى مكة، وأطياف الأنبياء الذي سبقوه في هذا الطريق تتراءى له، فوصفهم كأنه ينظر إليهم.

٤- سار ﷺ في طريقه هاديـًا، ومعلمـًا، يعلم الجاهل، ويجيب السائل، ويصوب الخاطئ، وكرر الخُطَب في الوصاة، واستشهد على البلاغ.

٥- كان حجه ﷺ مشهداً من مشاهد تواضعه، وقربه من الناس، فلم يكن له موكب ولا مسار، ولا كانت الناس تطرد أمامه، ولا تصد خلفه، وإنما كان يسير في غمار الناس كواحد منهم.

٦- وفي حجه مشهد من يسره وتيسيره، فكان لهجـًا بقوله: «**لَا حَرَجَ، لَا حَرَجَ**». ولم ينقل عنه أنه أوجب دمـًا على أحدٍ مع كثرة الجموع معه.

٧- في حجته هذه ودَّع الناس، وقال: «**لَعَلِّي لَا القَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا**». وكان في هذا تهيئة للأمة لتلقي خبر وفاته، ولتستعد لحمل الرسالة والابتعاث بما بعث به نبيها ﷺ.

الباب الرابع

الرسول ﷺ وعالم المشاعر

الرسول ﷺ وعافيته النفسية

عند التعرف على شخصية النبي ﷺ ستعرف أنه كان يتمتع بصحة بدنية وعافية نفسية، وأنه كان يعيش توازنًا واستواء نفسيًا كاملاً، يظهر في أقواله وأفعاله وتعامله مع الناس والأحداث.

ومن مظاهر عافيته النفسية:

١- حالة البِشْر كانت تطفح على صفحة وجهه المقدَّس، وهي أول ما يراه من يلقاه، فقد كان أكثر الناس تبسمًا، يُقْرأُ البشر والبشرى في وجهه، ويَشْعر من يراه أنه يرى إنسانًا سعيداً تسري السعادة منه إلى من حوله، فكان لقاؤه بشرى وسعادة لأصحابه، وكأنَّ كل من جالسه أخذ معه إسعاداً من سعادته، وبُشرى من بِشره.

٢- ومن عافيته النفسية دوام فأله فقد كان يعجبه الفأل وينهى عن التشاؤم[١] وبرغم الشدائد التي مر بها وعايشها فلا يمكن أن ترى حالا منها مهما اشتدت أوصلته إلى حالة اليأس والقنوط، بل كان في أشد المواقف يمد بصره إلى أمل يرقبه، وفأل يستبشر به.

كان أشد ما مر به عندما عاد من الطائف بعد أن ردوا عليه دعوته أقبح الرد ليعود إلى مكة متوقعًا جرأة قومه عليه، وأذاهم له، فتنزل عليه ملك الجبال يستأذنه أن يطبق عليهم جبلي مكة ويدفنهم تحت أحجارها، فجاء جوابه سريعًا حاسمًا: «**لا، بَلْ أَسْتَأْنِي بِهِمْ، لَعَلَّ اللهَ يُخْرِجُ مِنْ أَصْلابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُهُ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**»[٢].

(١) «صحيح البخاري» (٥٧٥٦)، و«صحيح مسلم» (٢٢٢٤).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٢٣١)، و«صحيح مسلم» (١٧٩٥).

إنه الفأل وجميل الأمل الذي يتجاوز كفر الآباء ويتلمس الفأل وينتظره في صلاح الأبناء، لقد كانت آماله على موعد مع الأجيال القادمة أن ينقذها الله به من الشرك وإن لجّ آباؤهم في كفرهم وغلوائهم.

٣- ومن عافيته النفسية بعده عن الشكوك وسوء الظن بالناس ولذا لا تجده يتعامل مع الناس بتوجس وريبة وإنما يحملهم على أحسن المحامل، ويتعامل معهم بحسن الظن من غير انخداع أو اغترار، حتى قال عنه المنافقون: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ [التوبة: ٦١] أي يسمع كل ما يقال له ويصدقه، وأنه سليم القلب سريع الاغترار، فرد الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾ [التوبة: ٦١]، أي: يصدق المؤمنين وهم أهل للثقة بهم والتصديق لقولهم.

وحسن الظن بالناس والبعد عن الشكوك والتوجس دليل عافية نفسية واستقامة سلوكية.

كما أن سوء الظن بالناس وكثرة التوجس منهم، والإسراع إلى اتهامهم لا يكون إلا من عاهات نفسية وسلوك معوج.

إِذا ساءَ فِعلُ المَرءِ ساءَت ظُنونُهُ وَصَدَّقَ ما يَعتادُهُ مِن تَوَهُّمِ[1]

٤- ومن عافيته ﷺ النفسية قدرته على التجاوز والصفح بحيث تراه يتعامل مع أعدائه بعد العفو عنهم بصفاء ونقاء، حتى لتكاد تظن أنه يتعامل مع شخص آخر غير صاحب السابقة، فكأنَّ خالد بن الوليد بعد إسلامه شخص آخر غير خالد بن الوليد الذي كان قائد فرسان المشركين في أحد، وهو الذي أحدثت كرته على المسلمين يومها تلك المصيبة العظيمة فقتل من قتل، وأصيب من أصيب.

وكأن أبا سفيان بعد الفتح شخص آخر غير أبي سفيان الذي وقف يوم أحد يقول: أُعل هبل، إنكم ستجدون مُثْلة، لم آمر بها ولم تسؤني. وغير أبي سفيان الذي قاد جيش الأحزاب وحاصر المدينة حتى زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر.

(١) «الأمثال السائرة من شعر المتنبي» (ص٦٠).

بل إنك لا تجد في تاريخ أعدائه ومن آذوه ثم أسلموا أنه ذَكَر لهم أو ذكَّرهم بما سبق منهم من عداوة وإيذاء، وإنما استأنف معهم العلاقة، وأولاهم الثقة وأسند لهم المهمات.

إن هذه القدرة على التجاوز والعفو النقي لا تكون إلا مع لياقة نفسية كاملة.

٥- ومن دلائل عافيته النفسية تعامله الطبيعي مع المشاعر والانفعالات باستواء واعتدال بلا كبت ولا طيش، فيحزن إذا حزن بما يوجب الحزن، فلا يكبت هذا الشعور ولا يتنكر له، وإنما يظهر أثر الحزن عليه فيعرف في وجه، وتذرف له دموعه، ويعترف به ويعلنه فيقول: «**يَحْزَنُ القَلْبُ، وَتَدْمَعُ العَيْنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يُرْضِي رَبَّنَا**»[(١)].

ولكن لا يتحول ذلك الحزن إلى أحزان متواصلة أو كآبة دائمة، وإنما يعيش الحالة ويستجيب لها، ثم يعبرها إلى حالات الحياة المتجددة.

وكذلك الفرح فتراه يتجاوب مع المسرات، ويظهر أثر السرور في وجهه المبارك، وكان إذا سُرَّ استنار وجهه كأنه فلقة قمر[(٢)]، وكان أصحابه يعرفون ذلك منه، ولكن انفعالات الفرح لا يمكن أن تتجاوز إلى طيش وخفة.

ويغضب فتعرف الكراهية في وجهه، وربما احمر وجهه غضبا كأنه الصبغ الأحمر[(٣)] وكأنما يفقأ في وجهه حب الرمان من تلونه واحمراره[(٤)]، ولكن هذا الانفعال الفطري لا يتجاوز إلى بغي، ولا ينفس عن غضبه ببطش أو طيش.

إن هذا الاستواء في إظهار المشاعر فلا تكبت ولا يتنكر لها، ولا يتمادى معها فتتجاوز مداها، وتتداعى إلى مبالغة في التأثير، أو استدامة للأثر، وكل ذلك من مظاهر عافيته النفسية.

٦- ومن مظاهر عافيته النفسية أنه ﷺ برغم ضخامة المسؤولية وجلائل الأعمال التي يتحملها والشدائد التي يواجهها إلا أنك لا تلحظ في حياته توتراً أو قلقاً، ولا أنه في عجلة من أمره،

(١) «صحيح البخاري» (١٣٠٣)، و«صحيح مسلم» (٢٣١٥).
(٢) «صحيح البخاري» (٤٤١٨)، و«صحيح مسلم» (٢٧٦٩).
(٣) «صحيح مسلم» (١٠٦٢).
(٤) «سنن ابن ماجه» (٨٥).

ولكن تتجلى في حياته السكينة والطمأنينة والرفق في شأنه كله حتى ليظن كل من أقبل عليه أنه قد فرغ له فلا شأن له سواه، ولا تنظر إليه في حال أو عمل إلا ظننت أن هذا عمله الذي لا عمل له بعده، فلا توتر ولا انفعال، وإنما السكينة والرفق والطمأنينة وهدوء البال.

وإن هذا الكمال البشري والاستواء النفسي من نعيم العيش وطيب الحياة، وهو من مواضع القدوة ومجالات التأسِّي به صلوات الله وسلامه عليه.

خلاصات:

كان ﷺ معافى في بدنه وفي نفسه ومشاعره، ومن عافيته النفسية:

١- البشر الدائم، والابتسام لكل من يلقاه، وتفاؤله الدائم.

٢- بُعده عن الشكوك وسيء الظنون، وكثرة التوجس.

٣- قدرته على الصفح والتجاوز، واستئناف العلاقة بعيداً عن سوابق العداء.

٤- تعبيره عن مشاعره باستواء واعتدال فرحًا وحزنًا وغضبًا، فلا يكبت المشاعر ولا يتمادى معها، فَتجاوِزُ مداها وقدرها.

٥- حالة السكينة والاطمئنان التي كان يعيشها فلا تراه برغم ضخامة الأعمال وتتابعها في حال توتر أو قلق.

الرسول ﷺ والرحمة

كيف سيكون الحديث عن الرحمة النبوية الوارفة وهي تنبلج من قلب محمد ﷺ الكبير، وتتسع في كُلِّ أفق، وتسير في كل اتجاه، كالريح المُرسَلة غِياثًا وبِرّاً؟.

كان النبي ﷺ يعيش الرحمةَ حياةً متفاعلةً مع الحياة، فهو لا يُزجي الرحمةَ مجردَ حديثٍ يُنعش العاطفة، أو يُسعف في العزاء، وإنما يتحدث عن الرحمة حديثَ خبيرٍ بقيمتها، فيتتبع كل مواطن الحاجة إليها، وكأنه يُحيطها من كل جانب[1].

ويرفع الرحمة من عاطفةٍ إلى عبادة، ومن علاقةٍ إنسانيةٍ إلى علاقةٍ ربانيةٍ موصولةٍ برحمة أرحم الراحمين، فيقول: «**الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ**»[2].

وللحديث عن الرحمة النبوية لا بد من التأكيد على أمور، منها:

الأول: أن الرحمة النبوية واسعةٌ في مداها، فهي رحمةٌ للعالمين، كلِّ العالمين: الإنس والجن والحيوان والبيئة، فالحياةُ بِسَعَتِها وسِعَتْها رحمةُ النبي ﷺ، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، كلِّ العالمين.

وليس هناك جانب من جوانب سيرته إلا وللرحمة فيه حضور، فحياته رحمة، ورحمته حياة، ولذا فالحديث عن رحمته ﷺ هو الحديث عن سيرته كلها، فالرحمة معه لا تفارقه ولا يفارقها، ويكفي أن نأخذ في هذا الفصل رشَفات من بحر الرحمة النبوية الغامر الغزير.

---

(١) «إنسانيات محمد ﷺ» خالد محمد خالد (١٦).

(٢) «سنن أبي داود» (٤٩٤١)، و«جامع الترمذي» (١٩٢٤).

وكما كان تعامله رحمةً فكذلك دينه وشريعته، فكل أحكام شريعته رحمةٌ للخلق، وتيسير عليهم، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فدينُه رحمة، وتعامله مع مَن حوله رحمة، ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

الثاني: أن النبي ﷺ أتى بالرحمة وأعلنها ودعا إليها، وتمثلها في تعامله مع من يعاملهم، وكان بذلك يعالج قسوةً وجفاءً عند عرب ذلك الوقت، الذين كانوا يرون الرحمة ضعفـًا ينافي القوة التي يفاخرون بها.

ولذا كان ﷺ يُعلن رحمته على الملأ، ويُظهرها ليراها الناس حوله، وكثيراً ما كانوا يستغربون ذلك ويتعجبون منه، فهذا أعرابي يراه يُقبِّل ولدَه، فيقول: إن لي عشرةً من الولد ما قبَّلتُ واحداً منهم، فيستنكر عليه هذه القسوة، ويقول: «**أَوَ أَمْلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللهُ مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ؟**»[(١)]. ويبكي وحفيدُه يحتضر في حِجْره، فيَعجَبُ الصحابة لهذه الرقة، ويقولون: ما هذا يا رسول الله؟ فيقول: «**هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ**»[(٢)]. وكل ذلك ليعالج هذه القسوة، ويُطبِّعَ في الحياة رِقَّةَ الرحمة ورأفتها.

الثالث: أن رحمته ﷺ من تجليات رحمة الله الواسعة بخلقه، كما قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فمن رحمة الله بخلقه أن بعث فيهم رسولاً رؤوفـًا رحيمـًا بهم، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وهذه رحمات متتابعة من المرسِل والرسول والرسالة، فالمرسِل رحمان، والرسول رحيم، والرسالة رحمة.

الرابع: أن هذه الرحمة النبوية هي فطرة فطره الله عليها، فهي طبيعة فيه لا يتكلفها ولا يعانيها، ولكنها جِبِلَّة نفسية تدعوه فيستجيب لها، ولذا كانت هذه الرحمة حاضرة في حياته قبل النبوة وبعدها، كما وصفته أمنا خديجة رضي الله عنها عندما فزع من نزول الوحي عليه في غار حراء، فقالت تصف حاله قبل ذلك: إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ[(٣)]،

---

(١) «صحيح البخاري» (٥٩٩٨)، و«صحيح مسلم» (٢٣١٧).

(٢) «صحيح البخاري» (٧٣٧٧)، و«صحيح مسلم» (٩٢٣).

(٣) الكَلّ: هو الأمر الثقيل الذي يعجز عنه غيره.

وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ[1]، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ، وَتَصْدُقُ الحَدِيثَ، وَتُؤَدِّي الْأَمَانَةَ[2]، فهذه حالُه قبل النُّبُوّة فكيف بحالِه بعدها؟!.

وللرحمة النبوية تجلياتُها في سيرته الواسعة، ومن ذلك:

١- **رحمته ﷺ بأمته:**

فأمته حاضرةٌ في وجدانه، متحركةٌ مع خفقات قلبه، في أشد الساعات يذكرها، وفي الدعاء يُلحُّ في المسألة، مناشداً ربَّه لها.

ها هوَ يُفجَع بولده إبراهيم، ثم تنكسف الشمس، فيخشى أن تكون طليعةَ عقوبةٍ تُصيب أمته، فينسى القلبُ المحزون حزنَه، ويسارع إلى الصلاة في لهفٍ وفزعٍ، يستدفع العقوبةَ عن أمته، ويَسْمعُه أصحابه وهو يلحف في المناشدة، ساجداً ضارعـًا: «**رَبِّ، أَلَمْ تَعِدْنِي أَنْ لا تُعَذِّبَهُمْ وَأَنَا فِيهِمْ؟ أَلَمْ تَعِدْنِي أَنْ لا تُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ؟**»[3].

ويـراه أصحابه على المنبر رافعـًا يديه يناشد ربَّـه، ويناديه: اللهُمَّ إنَّ إبراهيم قال: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [ابراهيم: ٣٦] الآية، وإنَّ عيسى قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، ثم رفع يديه وقال: «**اللهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي**»، وبكى، فقال الله عَزَّوَجَلَّ: «**يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ، فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ؟**» فأتاه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال، وهو أعلم، فقال الله: «**يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ، وَلَا نَسُوءُكَ**»[4].

وصحبتْ هذه الرحمة أمتَه في الدنيا وفي الآخرة، فها هو يحمل همَّ الأمة وما ستواجهه يوم القيامة من كُرَب الموقف وعظمة الوقوف بين يدي الله، فيخبر أن لكل نبي دعوةً مستجابة، وأن كل نبي تعجَّل دعوتَه في الدنيا، «**وَإِنِّي اسْتَخْبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[5].

---

(١) تَكْسِبُ الْمَعْدُومَ: أي: تُعْطي الناس ما لا يجدونَه عند غيرك. ينظر: «فتح الباري» لابن حجر (١/ ٥٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٣)، و«صحيح مسلم» (١٦٠).

(٣) «سنن أبي داود» (١١٩٤).

(٤) «صحيح مسلم» (٢٠٢).

(٥) يُنظر: «مسند أحمد» (١٢٣٧٦)، و«صحيح البخاري» (٦٣٠٥).

وفي كرب يوم القيامة وذهول فزعها يموج الناس ويفزعون إلى الأنبياء، يسألونهم الشفاعة، فكلهم يعتذرون، ويقول كل منهم: نفسي نفسي، حتى يأتوا نبينا محمداً ﷺ، فيقول: «**أَنَا لَهَا**»، ثم ينطلق فيأتي تحت العرش، فيقع ساجدًا لربه، ثم يفتح الله عليه من محامده شيئًا لم يفتحه على أحد قبله، ثم يقول: «**يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ**»، فيرفع رأسه ويقول: «**يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي**»[1]. قال الشيخ محمد بن خفيف: انظر هل وصف الله عَزَّوَجَلَّ أحداً من عباده بهذا الوصف من الشفقة والرحمة التي وصف بها حبيبه ﷺ؟! ألا تراه في القيامة إذا اشتغل الناس بأنفسهم كيف يَدَعُ حديثَ نفسِه ويقول: «**أُمَّتِي أُمَّتِي**»؟ فيرجع إلى الشفقة عليهم ويقول ﷺ: إني أسلمت نفسي إليك فافعل بي ما شئت، ولا تَرُدَّني في شفاعتي لعبادك[2].

٢- رحمته ﷺ بأصحابه:

وهذه الرحمة عامةٌ واسعة، يعيشها كل مَن حوله، ويتنسم نعيمها كل من يلقاه.

جاءه وفدٌ من مُضَر، وقد قطعوا مسافةً طويلة، وسفراً مُجهداً على قلةٍ وفاقة، وكان زادُهم حبَّ رسول الله ﷺ والشوقَ إليه.

فلما أقبلوا عليه، رأى جوعًا وعُريًا، فليس عليهم من اللباس إلا أكسيةٌ قد شقوها وجمعوها على أجسادٍ مُجْهَدةٍ هَزْلى، فلما رأى ﷺ ما بهم من الفاقة والجهد تمعّر وجهُه وتلوّن مِنَ الكرب، رحمةً بهم وشفقةً عليهم، وقام إلى بيوته لعله يجد ما يُواسيهم به، فلم يجد شيئًا، فصلّى بالناس ثم خطبهم، وحثّهم على النفقة والمواساة، فتأخر الصحابة قليلاً، فجعل وجهُه يتلوّن من الكرب، فثار الصحابة جميعًا يأتون بالطعام والثياب، فإذا أمام النبي ﷺ كَوْمانِ من طعامٍ وثياب، فتهلّل وجهُ النبي ﷺ وأشرق مُحَيَّاه، واستطلقت أساريرُه، فإذا وجهُه الذي كان يتلوّن كربًا يُشعُّ ضياءً، كأنه إناء فضة مطهَّم بالذهب[3].

(١) «صحيح البخاري» (٤٧١٢)، و«صحيح مسلم» (١٩٤).
(٢) «الرحمة النبوية» محمد بن عبد الله اللعبون.
(٣) يُنظر: «صحيح مسلم» (١٠١٧).

ما هذه النفسُ الرقيقةُ الشفافة، التي تتألم كل هذا التألم لفاقة بعض أصحابه، وتسرُّ هذا السرور كلَّه لمواساتهم ورفدهم!.

وهذا وفدٌ آخر يأتيه، وهم شبابٌ متقاربون في السن، فأقاموا عنده عشرين ليلةً يتعلمون منه دينهم، قال أحدهم، وهو مالك بن الحويرث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وكان رسول الله ﷺ رحيمًا رفيقًا، فلما رأى أنَّا قد اشتقنا إلى أهلنا أذِن لنا وقال: «**ارْجِعُوا إِلَى أَهْلِيكُمْ، فَعَلِّمُوهُمْ وَمُرُوهُمْ، وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي**»[(١)].

إن هذه الرحمة النبوية كانت تستطلع من نفوس هؤلاء الشباب أشواقهم وحاجاتهم الفطرية، ولذا بادر بعرض العودة عليهم حتى لا تطول عليهم الغُربة ويقلقهم الشوق إلى الأهل، وكأنما يقرأ رغائبهم النفسية قبل أن يبوحوا بها، إنها الرحمة النبوية تتجلى في رهافة الشعور، ورِقّة المشاعر، وتفهّم مرادات النفوس وهي لا تزال خواطرَ وأحاسيس مضمرة لم تُعلَن.

وانظر إلى هؤلاء الشباب، أتوا النبي ﷺ وبقوا عنده مدة قصيرة، وهو مشغول بوفود كثيرة عنده، ومع ذلك كان الخُلُق الذي لفت انتباههم ولاحظوه في هذه الفترة الوجيزة، هو رحمة النبي ﷺ وشفقته[(٢)].

ومن رحمته ﷺ بأصحابه، وأمته كلها من ورائهم حرصُه على عدم المشقة عليهم في التكاليف والعبادات، فيقول ﷺ: «**لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ**»[(٣)]. وكان يدع العمل وهو يحب أن يعمل به خشية أن يعمل به الناس فيُفرض عليهم.

وكان ينهاهم عن إجهاد أنفسهم أو المشقة عليها، فيقول ﷺ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، خُذُوا مِنَ الأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ، فَإِنَّ اللهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا**»[(٤)]، ويقول: «**إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ، فَأَوْغِلُوا فِيهِ بِرِفْقٍ**»[(٥)].

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٠٠٨)، و«صحيح مسلم» (٦٧٤).

(٢) «الرحمة النبوية» محمد بن عبد الله اللعبون.

(٣) يُنظر: «صحيح مسلم» (٧٦١)، و«جامع الترمذي» (٢٣).

(٤) «صحيح البخاري» (٥٨٦١)، و«صحيح مسلم» (٧٨٢).

(٥) «مسند أحمد» (١٣٠٥٢).

وربما حملته الرحمة بهم إلى الغضب، فكان يأمرهم بما يطيقون فيتشوّقون إلى المزيد من العبادة والعمل، ويقولون: إنا لسنا كهيئتك يا رسول الله، إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فيغضب حتى يعرف الغضب في وجهه، ثم يقول ﷺ: «**إِنَّ أَتْقَاكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ بِاللهِ أَنَا**»[1]، إنه غضبٌ يكسو الرحمة، وشدةٌ تدفعها الشفقة، خوفًا أن يُجهد الناس أنفسهم بما لا يطيقون الاستمرار عليه، وإنك لتعجب لهذا النبي الذي يحمل نفسه على العزيمة حتى تتفطّر قدماه من طول القيام، ولكنه يطامن من اندفاع أصحابه رحمةً بهم وشفقةً عليهم.

٣- رحمته ﷺ بالمرأة:

فالمرأةُ هي موئلُ العطف النبوي، ومهبط الرحمة النبوية، وتحوّلَ ازدراءُ الجاهلية للمرأة واحتقارُها إلى رحمةٍ نبوية، بالإكرام لها، والإحسانِ إليها، وكانت كلُّ امرأةٍ تجد في قلب النبي ﷺ سَعة تتلقى حاجتها، وترحم ضعفها، وترفع معاناتها، ولا تتردد أي امرأة أن تطلب منه حاجتها أو تُفضي إليه بمعاناتها، فيتلقّاها القلبُ الرحيم، والنبيُّ الكريم، بحفاوة واهتمام.

يقول أنس رضي الله عنه: كانت امرأةٌ في المدينة في عقلها شيء، فقالت: يا رسول الله، إن لي إليك حاجة. فَقَالَ ﷺ: «**يَا أُمَّ فُلَانٍ، انْظُرِي أَيَّ السِّكَكِ شِئْتِ حَتَّى أَقْضِيَ لَكِ حَاجَتَكِ**». فخلا معها في بعض الطرق حتى فرغت من حاجتها[2].

لقد كان يسع النبي ﷺ أن يُحيلها إلى أحدِ أصحابه ليقضي حاجتها، لكنه فرّغ نفسه واهتم بشأنها، وجعلها هي مَن تحدد المكان، فيأتي إليها فيه، فأيُّ قربٍ ورعايةٍ تنالها هذه المرأة التي كان في عقلها شيءٌ مِن القصور! فلم يحمله قصورُ عقلها على ازدرائها أو إهمالها، بل دفعه إلى رحمتها والاهتمام بها.

وهو مشهدٌ متكرر في حياة النبي ﷺ، يضع فيه ضعفَ المرأة وحاجتها في مقدمة اهتماماته.

أتى إليه عديُّ بن حاتم الطائي، وهو ابنُ كريمِ العرب وأميرِ شمال الجزيرة، فرحّب ﷺ به واحتفى بلقائه، وانطلق به إلى بيته، وفي الطريق استوقفت النبي ﷺ امرأةٌ ومعها ابنٌ لها،

(١) «صحيح البخاري» (٢٠).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٣٢٦).

فوقف لها رسولُ الله ﷺ يكلمها، وعديٌّ يرقب المشهد، وينظر إلى النبي ﷺ، وهو الأمير الذي يَفِدُ على الملوك، ويرى مظاهر الأبهة والفخر عندهم. قال عديّ: فوقف لها رسول الله ﷺ حتى أشفقت عليه من طول القيام، وقلت: والله ما هذا بمَلِكٍ، فوقع حبُّه في قلبي[1].

ولا يتردد ﷺ أن يُعلن رحمته بكل امرأةٍ تستحق الرحمة، يقول ﷺ عن أم سليم، وكان يزورها كثيراً: «**إِنِّي أَرْحَمُهَا، قُتِلَ أَخُوهَا مَعِي**»[2].

ومن رحمته بالمرأة حثُّه على الإحسان إليها، وبخاصة الزوجة، والأم، والبنت. فيقول ﷺ: «**خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي**»[3].

ويقول ﷺ في البنات: «**مَنْ عَالَ جَارِيَتَيْنِ حَتَّى تَبْلُغَا، جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَا وَهُوَ**» وَضَمَّ أَصَابِعَهُ[4].

ويأتيه رجلٌ ليجاهد معه، فيقول: إني أتيتُك وتركتُ أبويَّ يبكيان، فيقول ﷺ: «**ارْجِعْ إِلَيْهِمَا فَأَضْحِكْهُمَا كَمَا أَبْكَيْتَهُمَا**»[5]. ويحذِّر ﷺ من انتقاص حق المرأة فيقول: «**إِنِّي أُحَرِّجُ حَقَّ الضَّعِيفَيْنِ: الْيَتِيمِ، وَالْمَرْأَةِ**»[6].

٤- رحمته ﷺ بالأطفال:

كان العرب يتحاشون إعلان عاطفة الرحمة للأطفال، ويرون هذه القسوة مظهراً من مظاهر القوة والرجولة، فجاء النبي ﷺ ليُعلن هذه الرحمة وينشرها ويبذلها لمن هو أحقُّ بها وأحوجُ إليها، وهو الطفل في مرحلة الضعف، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ [الروم: ٥٤]، فهو بحاجة إلى دعمٍ وإسنادٍ ومددٍ نفسي، فكان ﷺ يُغدق هذه الرحمة مُعلَنةً ظاهرة،

(١) يُنظر: «الأحاديث الطوال» للطبراني (١).
(٢) «صحيح البخاري» (٢٨٤٤)، و«صحيح مسلم» (٢٤٥٥).
(٣) «سنن ابن ماجه» (١٩٧٧)، و«جامع الترمذي» (٣٨٩٥).
(٤) «صحيح مسلم» (٢٦٣١).
(٥) «سنن ابن ماجه» (٢٧٨٢)، و«جامع الترمذي» (٤١٦٣).
(٦) «مسند أحمد» (٩٦٦٦)، و«سنن ابن ماجه» (٣٦٧٨).

وكانت رحمته بأبنائه إحدى تجليات هذه الرحمة، يقول أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما رأيت أحدا كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ، كان إبراهيم مسترضعا له في عوالي المدينة، فكان ينطلق ونحن معه فيدخل البيت، فيأخذه فيُقبله، ثم يرجع[1].

وانظر كيف يخرج ﷺ إلى ظاهر المدينة حيث كانت مُرضِعة ابنه هناك، فيذهب حتى يُقبِّله ثم يرجع، فهذا كان باعثه وهذه كانت حاجته.

ويقف ﷺ على منبره خطيباً، وأمامه أصحابه في مشهدٍ حافل، وخطابٍ وخطبةٍ لها أهميتُها ووقْعها، وبينا هو منطلقٌ في خطبته، منفعلٌ بها إذْ لفت نظرَه دخولُ طفلين صغيرين، هما ابناه الحسن والحسين، يخطوان إليه، وعليهما قميصان أحمران يمشيان، ويعثُران، فترك خطبته ونزل عن منبره، وتوجه إليهما، وحملهما بين يديه، ثم عاد إلى منبره وإلى خطبته وقال: «**صَدَقَ اللهُ:** ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]، **إِنِّي رَأَيْتُ هَذَيْنِ الْغُلَامَيْنِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ، فَلَمْ أَصْبِرْ حَتَّى نَزَلْتُ وَحَمَلْتُهُمَا**»[2]. وكان هذا المشهدُ العاطفي إعلاناً لرحمة الطفولة وإشادةً بها، وأنها كمالٌ إنسانيٌّ يُشهَر ويُظهَر، ولا يُحجَب بمكابرة الفطرة السوية.

وكان حبه ﷺ للأطفال يسع أطفالَ أصحابه كلهم بعذوبةٍ ورقةٍ دافقة، قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كان رسول الله ﷺ أحسنَ الناس خُلُقاً وكان يغشانا ويخالطنا، وكان لي أخٌ فَطِيم[3] يُقالُ له: أبو عُمير، وكان إذا زارنا يمازحه ويضاحكه، فزارنا ذات يوم فوجده حزيناً، فقال: «**يَا أُمَّ سُلَيْم، مَا لِي أَرَى ابْنَكِ أَبَا عُمَير حَزِينًا خَاثِرَ النَّفْسِ**[4]**؟**». قالت: يا رسولَ الله، مات نُغَيْرُه[5]الذي كان يلعب به. فأقبل عليه، وجعل يمسحُ رأسَه، ويقول: «**يَا أَبَا عُمَير، مَا فَعَلَ النُّغَيْر؟ يَا أَبَا عُمَير، مَا فَعَلَ النُّغَيْر؟**»، فانظر هذه الشفافية، حيث يلاحظ حزن الصبي وتغير مزاجه، فيتطامن إليه، ويُسرِّي عنه، ويشاركه مشاعره الطفولية.

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٣١٦).

(٢) «سنن النَّسائي الكبرى» (١٨٠٣)، و«صحيح ابن خزيمة» (١٤٥٦).

(٣) أخٌ فَطِيم أي بلغ سن الفطام ودخل الثالثة من عمره. ينظر: «لسان العرب» لابن منظور (١٢/ ٤٥٤).

(٤) خَاثِرَ النَّفْسِ: ثقيل النفس، غير طيب ولا نشيط. ينظر: «النهاية» (٢/ ١١).

(٥) النُّغَير: طائر صغير يشبه العصفور. ينظر: «النهاية» (٥/ ٨٦).

ويقف ﷺ، وهو العابد الأوّاه، في صلاته التي هي راحته وقرة عينه، ويبتدئ سورة طويلة من القرآن يرتلها في انتشاء وغبطة، ويريد أن يطيل في صلاته ويسترسل في تلاوته، ثم لا يلبث أن يسمع بكاء طفل رضيع، كانت أمه تصلي خلفه، فيضحي ﷺ بلذته، وبغبطته الكبرى، وحبوره الجياش، وينهي صلاته على عجل، رحمة للرضيع الذي يبكي، وبأمه المتفجعة ببكائه[1].

إن هذا النبي كان في عبادة، ولكن الرحمة عبادة أيضـًا، فهو لم يقطع العبادة، وإنما انتقل من عبادة إلى عبادة، ومن صلاة إلى رحمة.

وامتدت رحمته ﷺ بالطفولة لتشمل كل طفل، حتى وإن لم يره ولم يعرفه، جاءه رجل فقال: يا رسول الله، إنا كنا أهل جاهلية وعبادة أوثان، فكنا نقتل الأولاد، وكانت عندي ابنة لي، فلما أجابت، وكانت مسرورة بدعائي إذا دعوتها، فدعوتها يوما، فاتبعتني فمررت حتى أتيت بئرا من أهلي غير بعيد، فأخذت بيدها فرديت بها في البئر، وكان آخر عهدي بها أن تقول: «يا أبتاه، يا أبتاه»، فبكى رسول الله ﷺ حتى وكف دمعُ عينيه، فقال له رجل من جلساء رسول الله ﷺ: أحزنت رسول الله. فقال ﷺ له: «**كُفَّ، فَإِنَّهُ يَسْأَلُ عَمَّا أَهَمَّهُ**»[2]. هكذا تذرف الرحمة دموعـًا غزيرة على مشهدٍ لم يشهده، وطفولةٍ بريئةٍ اغتالتها قسوة الجاهلية، في تأثر شديد أشفق منه أصحابه عليه، وعادوا بالملامة على رجلٍ جدَّد الأحزان في قلب الأب الكبير، والرسولِ الرؤوفِ الرحيم.

٥- رحمته ﷺ بالمخالفين المعاندين:

وامتدت رحمته إلى المخالفين المعاندين، حين رأى إعراضهم عن الإيمان، وتخبُّطهم في متاهة الكفر، وتقحُّمهم دركات النار، فيأسى ويأسف، ويبلغ به الأسف مبلغـًا يؤلمه، حتى يعاتبه ربُّه الذي أرسله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨].

---

(١) «إنسانيات محمد ﷺ» خالد محمد خالد (١١).

(٢) «سنن الدارمي» (٢).

وعندما قال له أصحابه: ألا تدعو على المشركين؟ قال: «**إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً**»(١). ويظل ينتظر الهداية، وإن طال انتظارُها، ويتابع البلاغ، وإن كثر تكرارُه، ويقابل ضجرَ أصحابه من إصرار المعاندين بجميل الصبر والتأني وحسن التأتي.

يأتيه الطفيلُ بن عمرو الدوسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يشكو إليه إعراضَ قومه دوس، وتَمنُّعَهم عن الاستجابة للحق، ويقول: ادعُ الله عليهم، فرفع ﷺ يديه، فقالوا: هلكت دوس. وظنوا أنه سيدعو عليهم دعوةً تُهلكهم، فإذا رحمته ﷺ تغلب غضبهم، فيدعو قائلاً: «**اللهُمَّ اهْدِ دَوْسًا وَائْتِ بِهِمْ**»(٢).

وفي معركة أُحد أُصيب ﷺ والمؤمنون معه، فقُتل من أصحابه خيارُهم، ومُثِّل بجثثهم، وشُجَّ النبي ﷺ حتى سال الدم على وجهه، فجعل يمسح الدم عن وجهه ويقول: «**كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ؟!**». ثم خاف أن يُعاجَلوا بالعقوبة فقال: «**اللهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**»(٣).

يا لله، مع شدة المصيبة ووقع الفاجعة، لم يكتفِ بعدم الدعاء عليهم، بل تجاوز ذلك إلى الدعاء لهم، ثم أضافهم إلى نفسه فقال: «**لِقَوْمِي**» تقريباً لهم، ثم اعتذر عنهم فقال: «**فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**».

٦ ـ وللحيوان رحمته:

فهذه البهائم العَجماوات التي لا تُبين عن نفسها لها في سَعة قلب النبي ﷺ نصيبها من الرحمة والإحسان، فيأمر بالإحسان إليها ورحمتها حتى وهي تُذبح، فيقول ﷺ: «**إِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ**»(٤). ومرّ برجل أضجع شاةً لِيَذبحها وهو يُحِدّ السِّكين وهي تنظر إليه، فقال ﷺ: «**أَتُرِيدُ أَنْ تُمِيتَهَا مَوْتَاتٍ؟! هَلَّا حَدَدْتَ شَفْرَتَكَ قَبْلَ أَنْ تُضْجِعَهَا!**»(٥).

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٥٩٩).
(٢) «صحيح البخاري» (٤٣٩٢)، و«صحيح مسلم» (٢٥٢٤).
(٣) «صحيح ابن حبان» (٩٧٣)، «المُفهِم» للقرطبي (٣/ ٦٥٠).
(٤) «صحيح مسلم» (١٩٥٥)، و«جامع الترمذي» (١٤٠٩).
(٥) «المستدرك» للحاكم (٧٥٦٣).

ونهى ﷺ عن تعنيف الحيوان بالضرب والسبّ فقد ركبت زوجته عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا على جمل صعب، فجعلت تردده وتدفعه بعنف، فقال لها: «**عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ، فَإِنَّه لا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ**»(١).

وكان ﷺ في سفرٍ، فذهب لبعض حاجته، ورأى بعض أصحابه حُمَّرةً معها فرخان، فأخذوا فرخيها، فجعلت ترفرف حولهم، فرجع النبي ﷺ فرآها فقال: «**مَنْ فَجَعَ هَذِهِ بِوَلَدِهَا؟ رُدُّوا وَلَدَهَا إِلَيْهَا**»(٢). إنها الرحمة النبوية التي تشعر بلهفة طائرٍ على أفراخه، وتتألم لفجيعته، فيأمر ﷺ برَدِّ ولدها إليها.

ولم يكتفِ ﷺ بالرفق بالحيوان، بل أمر بالإحسان إليه، وبيّن أن ذلك قُربةٌ عند الله، فها هو يحدث عن رجل من بني إسرائيل، فقال: «**بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي، فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ العَطَشُ، فَنَزَلَ بِئْراً، فَشَرِبَ مِنْهَا، ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ العَطَشِ، فَقَالَ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مِثْلُ الَّذِي بَلَغَ بِي، فَمَلأَ خُفَّهُ، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ، ثُمَّ رَقِيَ، فَسَقَى الكَلْبَ، فَشَكَرَ اللهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ**». قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم أجرا؟. قال: «**فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ**»(٣).

وهكذا تتسع الرحمة في أوسع مدى، فتشمل: الرجل والمرأة، الصغير والكبير، المسلم والكافر، الإنسان والحيوان، إنها الرحمة الواسعة التي هي جزءٌ من رحمةٍ إلهيةٍ وضعها الله بين خلقه، فبها يتراحمون، كما أخبر ﷺ بقوله: «**جَعَلَ اللهُ الرَّحْمَةَ مِئَةَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءاً، وَأَنْزَلَ فِي الأَرْضِ جُزْءاً وَاحِداً، فَمِنْ ذَلِكَ الجُزْءِ يَتَرَاحَمُ الخَلْقُ، حَتَّى تَرْفَعَ الفَرَسُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا، خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ**»(٤).

وكما كان ﷺ يطبّق الرحمة بأزهى صورها وأرقّها وأجملها، فقد كان يحتفي بها، ويبشّر أهلها، ويذكر لهم أجرها وأثرها، جاءت امرأةٌ إلى عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تسألها، ومعها ابنتان لها، فأعطتها عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قليلاً من قليلها: ثلاث تمرات، فأعطت ابنتيها كل واحدةٍ

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٥٩٤).
(٢) «سنن أبي داود» (٢٦٧٥).
(٣) «صحيح البخاري» (٢٣٦٣)، و«صحيح مسلم» (٢٢٤٤).
(٤) «صحيح البخاري» (٦٠٠٠)، و«صحيح مسلم» (٢٧٥٢).

تمرة، ثم رفعت التمرة الثالثة إلى فمها لتأكلها، فرفعت ابنتاها يديهما إليها تنازعانها تمرتها، فردتها من فمها وقسمتها بينهما، فعجبت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا من حالها، وأخبرت النبي ﷺ بذلك، فقال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ قَدْ أَوْجَبَ لَهَا بِرَحْمَةِ ابْنَتَيْهَا الْجَنَّةَ**»(١).

وقد جعل ﷺ هذا الخُلُق الكريم، وهو الرحمة، من أخلاق أهل الإسلام العظيمة، فأمر به، ورغّب فيه، وبشّر أهله، فقال: «**الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ**»(٢)، وقال في وصف أهل الجنة: «**أَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ**» فذكر منهم: «**وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ**»(٣).

إن رحمة الخلق سببٌ لتلقّي رحمة الخالق عَزَّوَجَلَّ، والله عَزَّوَجَلَّ يحتفي بالرحماء من عباده، وهو أحقّ منهم بالرحمة، فيكافئ هؤلاء برحمته التي وسعت كل شيء.

وقد أخبر النبي ﷺ عن مشهدٍ من مشاهد رحمة الله للرحماء من عباده، فقال: «**إِنَّ رَجُلاً لَمْ يَعْمَلْ خَيْراً قَطُّ، وَكَانَ يُدَايِنُ النَّاسَ، فَإِذَا رَأَى مُعْسِراً قَالَ لِغُلَامِهِ: خُذْ مَا تَيَسَّرَ، وَاتْرُكْ مَا عَسُرَ، وَتَجَاوَزْ، لَعَلَّ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنَّا، فَلَمَّا هَلَكَ قَالَ اللهُ** عَزَّوَجَلَّ **لَهُ: «هَلْ عَمِلْتَ خَيْراً قَطُّ؟». قَالَ: لَا، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ لِي غُلَامٌ، وَكُنْتُ أُدَايِنُ النَّاسَ، فَإِذَا بَعَثْتُهُ لِيَتَقَاضَى قُلْتُ لَهُ: خُذْ مَا تَيَسَّرَ، وَاتْرُكْ مَا عَسُرَ، وَتَجَاوَزْ لَعَلَّ اللهَ يَتَجَاوَزُ عَنَّا. قَالَ اللهُ تَعَالَى: «قَدْ تَجَاوَزْتُ عَنْكَ»**(٤). إن رحمة هذا الرجل بالمُعسرين ورأفته بضعفهم وعوزهم كانت سببَ غشيان رحمة الله له وتجاوزه عنه، فالله أولى بالرحمة، والراحمون يرحمهم الرحمن، ومَن رَحِم مَن في الأرض رحمَه مَن في السماء.

خلاصات:

١- رحمة النبي ﷺ تشمل سيرته كلها، ففي كل نواحي سيرته تلاقينا رحمته وشفقته، فالحديث عن رحمته حديثٌ عن سيرته كلها.

---

(١) يُنظر: «صحيح مسلم» (٢٦٣٠).

(٢) «سنن أبي داود» (٤٩٤١)، و«جامع الترمذي» (١٩٢٤).

(٣) «صحيح مسلم» (٢٨٦٥).

(٤) يُنظر: «صحيح البخاري» (٢٠٧٨)، و«صحيح مسلم» (١٥٦٢)، و«السنن الكبرى» للنَّسائي (٤٦٩٤).

٢- رحمة النبي ﷺ رحمة واسعة تشمل الرجال والنساء، والكبار والصغار، والجن والحيوان والجماد.

٣- وكما كان تعاملُه رحمةً فإن دينه وشريعته رحمة لا عسر ولا حرجَ فيها، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ [النساء: ٢٨]، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

٤- رحمة النبي ﷺ رحمة فطرية، جبله الله عليها، يساعده عليها طبعه ولا يتكلفها، وكانت حاضرة في حياته قبل النبوة، كما وصفته خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فقالت: إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ[1].

٥- رحمة النبي ﷺ عامة في حياته وبعد مماته ففي حياته هو أَمَنة من العذاب:

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣]، وبعد مماته تعيش الأمة أمان دعوته التي دعاها واستُجِيبَتْ له: «**أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ**»، فهذه الأمة في أمان من عذاب الاستئصال بحياته، وبدعائه المستجاب بعد وفاته.

٦- ورحمته ﷺ عامة لأمته في الدنيا والآخرة، فقد ادخر دعوته شفاعة لأمته يوم القيامة، أحوج ما تكون إليها.

٧- رحمته ﷺ من مظاهر رحمة الله بخلقه، ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

٨- ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فالمرسِلُ رحمان، والمرسَل رحيم، والرسالة رحمة.

٩- اتسعت رحمته ﷺ لتشمل الكفار المعاندين، فكاد يُهلِك نفسَهُ حسرةً على ضلالهم، فعاتبه ربه الذي أرسله فقال: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨].

١٠ ـ في يوم القيامة يذهل الخلق، فدعوى كلٍّ منهم: نفسي نفسي، إلا هذا النبي الكريم ﷺ، لم يذهل عن أمته، وحضرت رحمته بهم، فإذا نداؤه: «**أُمَّتِي أُمَّتِي**».

---

(١) «صحيح البخاري» (٣)، و«صحيح مسلم» (١٦٠).

١١- مع سعة رحمته وسعادة الخلق بها، إلا أن أسعد الناس بها كان أهل بيته، فكان نموذجًا في الرحمة الزوجية، والعطف الأبوي، وهو القائل ﷺ: «**وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي**»[(١)].

١٢- وكما كان ﷺ يعيش الرحمة ويغدقها، فقد كان يأمر بها، ويحض عليها، ويبشر من يتخلق بها، «**الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ**»[(٢)].

(١) «سنن ابن ماجه» (١٩٧٧)، و«جامع الترمذي» (٣٨٩٥).

(٢) «سنن أبي داود» (٤٩٤١)، و«جامع الترمذي» (١٩٢٤).

الرسول ﷺ والمزاح

المزاح هو الذي يرفع عن الحياة صرامتها، فيلطف جديتها، ويجعلها حياة مأنوسة مبهجة، كما أنه من أسباب التواد والتواصل والألفة، لما يحدثه من التفاعل المفرح، وإدخال السرور على النفوس.

وسوف نجد أن حياة النبي ﷺ كانت مأنوسة بالمزاح، لكنه ذاك المزاح الجميل الذي لا يجرح ولا يُحرج، ولا يؤلم ولا يحزن، ولكن يُفرح ويُؤنس.

وكان مزاحه ﷺ راقيًا لطيفًا ليس فيه فحش ولا كذب ولا أذى، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنِّي لَا أَقُولُ إِلَّا حَقًّا**». قَالُوا: إِنَّكَ تُدَاعِبُنَا يَا رَسُولَ الله. قَالَ: «**إِنِّي لَا أَقُولُ إِلَّا حَقًّا**»(١).

وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنِّي لأَمْزَحُ وَلَا أَقُولُ إِلَّا حَقًّا**»(٢).

نجد المزاح في حياة النبي ﷺ منوعًا، فهناك مزاح يصدر منه لأصحابه، وهناك ممازحةٌ تصدر من أصحابه إليه، وهناك ممازحة تجري بين يديه، ويتفاعل هو معها، ومن ذلك:

١- مزاحه ﷺ مع أصحابه، ومنهم زاهر وكان أعرابيًّا يأتي ببضاعة الأعراب ويبيعها في المدينة كالسمن والأقط، وكان يحب النبي ويهدي له، وكان ﷺ يحبه ويجهزه إذا أراد أن يخرج ويقول: «**إِنَّ زَاهِراً بَادِيَتُنَا وَنَحْنُ حَاضِرَتُهُ**». فدخل ﷺ السوق مرة وإذا هو جالس يعرض بضاعته فأتاه النبي ﷺ من خلفه وهو لا يبصره واحتضنه فجعل يقول:

(١) «مسند أحمد» (٨٤٨١).

(٢) «المعجم الكبير» للطبراني (١٣٤٤٣).

من هذا؟ من هذا؟ أرسلني؟ حتى عرف ساعد النبي ﷺ ورمقه فجعل يلصق ظهره بصدر النبي ﷺ حتى ينال مس الجسد المبارك، وجعل النبي ﷺ ينادي عليه يقول: «**مَنْ يَشْتَرِي العَبْدَ؟ مَنْ يَشْتَرِي العَبْدَ؟**». وكان هذا الأعرابي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دميم الخلقة، فقال للنبي ﷺ: يا رسول الله إذن تجدني كاسداً، وإذا بالنبي ﷺ يلاطفه ويؤنسه ويقول: «**لَكِنَّكَ عِنْدَ الله لَسْتَ بِكَاسِدٍ؛ أَنْتَ عِنْدَ الله غَالٍ**»(١).

يا الله كم من أفواج الفرح التي دخلت إلى قلب زاهر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من هذه الممازحة الجميلة، وكم من البشائر تلقاها زاهر والنبي ﷺ يقول له: «**أَنْتَ عِنْدَ الله غَالٍ**». فانظر كيف تحول المزاح اللطيف إلى بشرى عظيمة من النبي ﷺ.

وكان ﷺ يلاطف أنسًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خادمه فيقول له: «**أَنَسُ يَا ذَا الأُذُنَيْنِ**»(٢). وهذا نوع من الممازحة التي تناسب أنسًا في سنه سن الصبا، وتؤنسه وتبهجه.

وجاءته امرأة فقالَ لها: «**مَنْ زَوْجُكِ؟**». فَسَمَّتْهُ لَهُ فقالَ: «**الَّذِي فِي عَيْنَيْهِ بَيَاضٌ؟**». فَرَجَعت فَجعلت تنظر إِلَى زَوجهَا فقالَ: مَا لَك؟ قالت: قالَ رسول الله ﷺ: «**زَوْجُكِ فُلَانٌ؟**». قلت: نعم. قَالَ: «**الَّذِي فِي عَيْنَيْهِ بَيَاض؟**». قال: أَو لَيْسَ البيَاض فِي عَيْني أَكثر من السوَاد(٣)، وكأني بزوجها يقول لها ذلك ضاحكا، وهي تتجاوب معه ضاحكة عاجبة، فكم من السرور يدخل قلب هذه المرأة من ملاطفة النبي ﷺ هذه لها، وكم من البهجة ستدخل قلب زوجها أن آنس النبي ﷺ زوجته ولاطفها.

وعَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَجُلاً أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، احْمِلْنِي، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّا حَامِلُوكَ عَلَى وَلَدِ نَاقَةٍ**». قَالَ: وَمَا أَصْنَعُ بِوَلَدِ النَّاقَةِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَهَلْ تَلِدُ الإِبِلَ إِلَّا النُّوقُ**»(٤).

---

(١) «مسند أحمد» (١٢٦٤٨).
(٢) «جامع الترمذي» (٣٨٢٨).
(٣) «تخريج أحاديث الإحياء» للعراقي (٢/ ٧٩٦).
(٤) «سنن أبي داود» (٤٩٩٨).

٢- بل كان للأطفال الصغار نصيبهم من ممازحة النبي ﷺ فقد دخل على أم سليم وعندها ابن لها فطيم في نحو الثالثة من عمره فرآه النبي ﷺ حزينًا فسأل أم سليم: «**مَا لِي أَرَى أَبَا عُمَيْرٍ خَاثِرَ النَّفْسِ**[١]؟». قالت: مات نُغَيْرُه، أي الطائر الذي كان يلعب به، فأقبل النبي ﷺ على الطفل وجعل يلاطفه ويمازحه ويقول له: «**يَا أَبَا عُمَيْرٍ، مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ؟ يَا أَبَا عُمَيْرٍ، مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ؟**»[٢].

وكان يمازح ابنه الحسن وهو طفل فيخرج له لسانه فإذا رأى الصبي حمرة لسان النبي ﷺ ضحك له[٣].

وكان يمازح ربيبته زينب بنت أم سلمة وهي طفلة في حجره، فيقول لها: «**يَا زُوَيْنِبُ، يَا زُوَيْنِبُ**». ملاطفة وتمليحا.

٣- وكما كان النبي ﷺ يمازح أصحابه كان يتقبل الممازحة منهم فكان أحد الصحابة يقال له عبد الله ويلقبونه عبد الله حمار، وكان يضاحك النبي ﷺ[٤]، وكان إذا رأى شيئًا طريفًا يباع يتشهاه للنبي ﷺ، فرأى مرة أعرابيا معه عكة[٥] عسل، فتشهاها للنبي ﷺ وشراها من الأعرابي بالأجل، وأتى بها إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله هذه هدية أهديها إليك. فقبلها النبي بقبول حسن ولاطف عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فلما جاء الأعرابي يطلبه الثمن انطلق به إلى النبي ﷺ قال: يا رسول الله إن العسل الذي أعطيتك إياه عسل هذا الأعرابي فأعطه ثمنه. فضحك النبي ﷺ وقال: «**أَلَيْسَ هَدِيَّةً مِنْكَ؟**». قال: بلى، ولكن أعطه الثمن أنت يا رسول الله فليس عندي ما أعطيه، فضحك النبي ﷺ[٦]، وتقبَّل هذه الملاطفة وتفاعل معها برحابة وود.

---

(١) أي: ثَقيل النَّفْس غَيْرُ طَيِّب وَلاَ نَشيط. ينظر: «النهاية» (٢/ ١١).

(٢) «صحيح البخاري» (٦١٢٩)، و«صحيح مسلم» (٢١٥٠).

(٣) «مسند أحمد» (١٦٨٤٨).

(٤) «صحيح البخاري» (٦٧٨٠).

(٥) العُكّة: وعاء من جلود مستدير. ينظر: «النهاية» (٣/ ٢٨٤).

(٦) «مسند أبي يعلى» (١٢٧).

وأحيانًا تقع الممازحة في مجلس النبي ﷺ فيجرأ الأعراب على ممازحة النبي ﷺ لأن النبي ﷺ آنسهم وأفسح لهم في قلبه كما أفسح لهم في مجلسه، فمن ذلك أن النبي ﷺ كان يحدث عن الجنة ونعيمها وفي المجلس أعرابي يستمع له فقال: «**إِنَّ رَجُلاً مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ اسْتَأْذَنَ رَبَّهُ فِي الزَّرْعِ فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ** عَزَّوَجَلَّ: **أَلَسْتَ فِيمَا شِئْتَ؟ قَالَ: بَلَى، وَلَكِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَزْرَعَ، قَالَ: فَبَذَرَ، فَبَادَرَ الطَّرْفَ نَبَاتُهُ وَاسْتِوَاؤُهُ وَاسْتِحْصَادُهُ**[1]، **فَكَانَ أَمْثَالَ الجِبَالِ فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ** عَزَّوَجَلَّ: **دُونَكَ يَا ابْنَ آدَمَ، فَإِنَّهُ لَا يُشْبِعُكَ شَيْءٌ**». فَقَالَ الأَعْرَابِيُّ: وَالله لَا تَجِدُهُ إِلَّا قُرَشِيًّا أَوْ أَنْصَارِيًّا، فَإِنَّهُمْ أَصْحَابُ زَرْعٍ، وَأَمَّا نَحْنُ فَلَسْنَا بِأَصْحَابِ زَرْعٍ. فَضَحِكَ رَسُولُ الله ﷺ وأصحابه[2].

٤- ويكون المزاح من أهله معه فيتقبله منهم، ويتفاعل معه، فقد صلى بالليل وصلت معه زوجته سودة، فأطال الصلاة، فلما كان من الغد أتت إليه وقالت: صَلَّيْتُ خَلْفَكَ البَارِحَةَ فَرَكَعْتَ بِي حَتَّى أَمْسَكْتُ بِأَنْفِي مَخَافَةَ أَنْ يَقْطُرَ الدَّمُ. فَضَحِكَ، وَكَانَتْ تُضْحِكُهُ الأَحْيَانَ بِالشَّيْءِ[3].

وأحيانًا يحصل المزاح بين أهله بحضرته ﷺ، ومن ذلك: أنه كان جالسًا بين زوجته عائشة وسودة وقد جعلت كل منهما قدمه في حجرها وكانت عائشة قد أعدت طعامًا يسمى: الخزيرة[4]، فأحضرت عائشة صحفة الطعام ووضعتها بينها وبين سَوْدة وقالت لسَوْدة: كلي، قالت سودة: لا أشتهيه، قالت: والله لتأكلن، قالت: والله لا آكل، وكان بين سودة وعائشة ملاطفة، فقالت عائشة: والله إن لم تأكلي لألطخن به وجهك. قالت: والله لا آكل، فأخذت عائشة كفًا منه وألقته على وجه سودة، فرفع النبي ﷺ قدمه عن حجر سَوْدة، كأنما يعطيها إشارة البدء لترد على عائشة فأخذت سودة غرفة بيدها وألقتها على وجه عائشة[5]،

(١) أي: فنبت واستوى وحُصد في طرفة عين. ينظر: «فتح الباري» (٥/ ٢٧).
(٢) «صحيح البخاري» (٢٣٤٨).
(٣) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٨/ ٤٤).
(٤) الخزيرة: حِساء يُتخذ من اللبن والدقيق. ينظر: «زاد المعاد» (١/ ١٤٢).
(٥) «السنن الكبرى» للنسائي (٨٨٦٨).

وضج المجلس بالضحك، ولك أن تتخيل المشهد، هذه الخزيرة تسيل على وجه سودة، وتسيل على وجه عائشة، وكلهم يضحكون ورسول الله ﷺ يضحك معهم، إنه المزاح في البيت النبوي حيث تشرق البسمات وترن الضحكات.

إن المزاح يبهج الحياة ويلطفها، فيبادر إليه ويتلقَّاه اللطفاء المتواضعون، ويتحاشاه أهل الكبرياء الذين يرون أنه ينقص هيبتهم وكبرياءهم، أما النبي ﷺ فكان يلاطف ويؤنس، ويرفع الكلفة، ويبهج من حوله بالمزاح اللطيف الذي لا فحش فيه ولا إيذاء ولا إحراج، ولكن إيناس وملاطفة وإبهاج.

ولقد أخذ الصحابة عن رسول الله ﷺ هذا الفقه فأعطوا نفوسهم حظها من اللهو الجميل؛ الذي يؤنس النفوس، ويعيد إليها حيويتها ونشاطها.

فهذا ابن عمر في حجة حجها بعدما كبر وكان معه أصحابه، فكان أحظاهم عنده شاب يُهازله ويُحدِّثه في شأن النساء.

وكان علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: أجموا هذه القلوب فإنها تمل كما تمل الأبدان[1].

وقال بَكْر بْن عَبْدِ الله: كَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ يَتَبَادَحُونَ[2] بِالبِطِّيخِ، فَإِذَا كَانَتِ الحقائِق كَانُوا هُمُ الرجال[3].

(١) «مكارم الأخلاق» للخرائطي (٧١٩).
(٢) يَتَبَادَحُون: أي يَتَرَامَوْن. ينظر: «غريب الحديث» للخطابي (٣/ ١١٤).
(٣) «الأدب المفرد» (٢٦٦).

خلاصات:

١- كانت حياته ﷺ مأنوسة بالمزاح الجميل.

٢- كان مزاحه ﷺ راقيًا لطيفًا ليس فيه فحش ولا كذب ولا أذى.

٣-كان ﷺ يؤانس أهله وأبناءه وخدمه بالمزاح الجميل الذي يشيع البهجة ويحكم الألفة.

٤- كان ﷺ يمازح أصحابه ويتلقَّى الممازحة منهم ويتفاعل مع تمازحهم.

٥- في مساحة المزاح في حياته ﷺ تلطفٌ وتواضعٌ وتباعدٌ عن طريقة المتكبرين والجبارين.

٦- ولقد أخذ الصحابة عن رسول الله ﷺ هذا الفقه فأعطوا نفوسهم حظها من المزاح الجميل؛ الذي يؤنس النفوس، ويعيد إليها حيويتها ونشاطها.

الرسول ﷺ واللهو

عندما تنظر إلى ضخامة مسؤوليات النبي ﷺ واتصاله بعالم الغيب، ورؤيته مشاهد الآخرة رأي عين فربما ظننت أن حياةً كهذه لن تكون إلا حياة جادة صارمة يلاحق فيها اللحظات أن تفلت في غير جدٍّ واجتهاد، ولكنك إذا نظرت إلى حياته وجدت غاية التفهُّم لرغائب النفوس، وإفساح مساحة المتعة والأنس باللهو الجميل؛ الذي يروِّح النفوس ويُعيد لها نشاطها وحيويتها، ويتطامن إلى نفوس الشببة وما فيها من تطلع لذلك فيشاركهم أُنسهم، ويفتح آفاق الحياة إلى السعة التي جاء بها إلى البشرية.

ها هو ﷺ مع زوجته يوم عيد وإذا به يسمع صوت ضجيج في المسجد، فنظر من ستر حجرته، فإذا الأحباش في المدينة قد جاؤوا إلى المسجد ومعهم الحراب والدَّرَق[1] وجعلوا يرقصون ويهزجون في ساحة المسجد، فرجع ﷺ من فوره إلى زوجته يعرض عليها النظر إلى هذا الاحتفال والأنس، فجاءت معه، ووقف لها، ووقفت وراءه، خدها على خده، وذقنها على كتفه، ورداؤه على رأسه يسترها، وكل من حوله في هذا الاحتفال يرونه وزوجته معه يسترها بردائه، وهو ينظر إلى هؤلاء الراقصين في المسجد ويرسل كلمات التشجيع والتحفيز والإيناس لفريق اللعب هذا فيقول: «**دُونَكُمْ يَا بَنِي أَرْفِدَةَ**»، «**العَبُوا يَا بَنِي أَرْفِدَةَ**»[2]، ولك أن تتخيَّل هؤلاء الذين يلعبون ويشعرون بسرور النبي ﷺ بلعبهم، ويسمعون تشجيعه لهم، لا أدري إلى أي مساحة يتسع سرورهم، ولا أي أفق يصل إليه حماسهم؟!

(١) الدَّرَق: جمع دَرَقة، وَهِي الترس الَّذِي يتَّخذ من الجُلُود. ينظر: «عمدة القاري» (٦/ ٢٦٧).

(٢) «صحيح البخاري» (٩٨٦)، و«صحيح مسلم» (٨٩٢)، و«السنن الكبرى» للنسائي (٨٩٠٢).

أتخيلهم يقفزون على الأرض وكأنهم يطيرون في السماء، وجعلوا يهزجون بلغتهم الحبشية، فاستعان ﷺ بالترجمة الفورية ممن يُحسن لغتهم فقالوا له: يقولون محمد عبد صالح.

وبينما هم في احتفالهم وحماسهم فوجئوا بعمر بن الخطاب يدخل عليهم مُغْضَبًا، ويهوي بيده إلى الحصباء يرميهم بها ويقول: مَهْ، أفي مسجد رسول الله ﷺ؟ فقال له رسول الله ﷺ: «**مَهْلاً يَا ابْنَ الخَطَّابِ**». ثم وجَّه الخِطَابَ إليهم: «**أَمْنًا بَنِي أَرْفِدَةَ**»، «**العَبُوا يَا بَنِي أَرْفِدَةَ، لِتَعْلَمَ يَهُودُ أَنَّ فِي دِينِنَا فُسْحَةً، إِنِّي أُرْسِلْتُ بِحَنِيفِيَّةٍ سَمْحَةٍ**»[(١)].

وعن قيس بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله ﷺ يُقْلَسُ له يوم الفطر[(٢)].

وعن عياض الأشعري أنه شهد عيداً بالأنبار فقال: مَا لِي لَا أَرَاكُمْ تُقَلِّسُونَ كَمَا كَانَ يُقَلَّسُ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ[(٣)]. والتَّقْليسُ هو الرقص في الغناء[(٤)] كما كانت الحبش تفعل يوم العيد. إن الحنيفية السمحة هي التي جاء بها متوافقةً مع فِطَر الناس ورغائبهم وما جُبلت عليه نفوسهم، وقد جاءت بالسعة ولم تجئ بالضيق ولا بالتضييق، ولذا انطلقت النفوس بين يديه على سجيَّتها، ومارست أنسها بكامل لياقتها، وأمدها هو بحمايته وتشجيعه: «**أَمْنًا بَنِي أَرْفِدَةَ**»، «**العَبُوا**».

وكان يتعاطى هذا الأنس مع أهله وينشر سروره عليهم، قالت عائشة: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ جَالِسًا فَسَمِعْنَا لَغَطًا وَصَوْتَ صِبْيَانٍ، فَقَامَ رَسُولُ الله ﷺ فَإِذَا حَبَشِيَّةٌ تَزْفِنُ وَالصِّبْيَانُ حَوْلَهَا، فَقَالَ: «**يَا عَائِشَةُ تَعَالَيْ فَانْظُرِي**». فَجِئْتُ فَوَضَعْتُ لَحْيَيَّ عَلَى مَنْكِبِ رَسُولِ الله ﷺ، فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ إِلَيْهَا مَا بَيْنَ المَنْكِبِ إِلَى رَأْسِهِ، فَقَالَ لِي: «**أَمَا شَبِعْتِ؟! أَمَا شَبِعْتِ؟!**». قَالَتْ: فَجَعَلْتُ أَقُولُ لَا لِأَنْظُرَ مَنْزِلَتِي عِنْدَهُ إِذْ طَلَعَ عُمَرُ، قَالَتْ: فَارْفَضَّ[(٥)] النَّاسُ عَنْهَا:

(١) «السنن الكبرى» للنسائي (٨٩٥١).
(٢) «مسند أحمد» (١٥٤٧٩).
(٣) «سنن ابن ماجه» (١٣٠٢). وينظر: «العلل» لابن أبي حاتم (٢/ ٥٧٥).
(٤) ينظر: «لسان العرب» (٦/ ١٨٠).
(٥) فَارْفَضَّ النَّاسُ: أي تفرَّقوا. ينظر: «النهاية» (٢/ ٢٤٣).

قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنِّي لَأَنْظُرُ إِلَى شَيَاطِينِ الإِنْسِ وَالجِنِّ قَدْ فَرُّوا مِنْ عُمَرَ**». قَالَتْ: فَرَجَعْتُ[1].

فانظر إلى هذه الأمَة؛ تمارس لهوها مع الأطفال، وتضاحكهم وترقص لهم قرب بيت النبي ﷺ حيث يصل صوتها إليه في بيته، ولم تشعر أن هذا يمكن أن يُنكر عليها أو تُلام عليه، فكيف لو علمت أنه خرج بزوجته ليسرها بهذا المشهد الترويحي.

وإنك لتعجب من جرأة الإماء والنساء في إعلان لهوهم واحتفالهم بين يديه ﷺ، ومن هذه المساحة الرحبة التي يفسحها؛ لتنطلق نفوسهم على سجيَّتها وبعفويتها وكامل لياقتها، فما جاء ليخنق البهجة ويقتل المسرات، ولكن ليوسِّع لها وهو يقول: إن في ديننا سعة.

وعاد ﷺ مرة من غزوة فجَاءَتْه جَارِيَةٌ سَوْدَاءُ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ الله إِنِّي كُنْتُ نَذَرْتُ إِنْ رَدَّكَ اللهُ سَالِمًا أَنْ أَضْرِبَ بَيْنَ يَدَيْكَ بِالدُّفِّ وَأَتَغَنَّى، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنْ كُنْتِ نَذَرْتِ فَاضْرِبِي وَإِلَّا فَلَا**». فَجَعَلَتْ تَضْرِبُ، فَدَخَلَ أَبُو بَكْرٍ وَهِيَ تَضْرِبُ، ثُمَّ دَخَلَ عَلِيٌّ وَهِيَ تَضْرِبُ، ثُمَّ دَخَلَ عُثْمَانُ وَهِيَ تَضْرِبُ، ثُمَّ دَخَلَ عُمَرُ فَالقَتِ الدُّفَّ، ثُمَّ قَعَدَتْ عَلَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَيَخَافُ مِنْكَ يَا عُمَرُ**»[2].

لقد حضرت وكان الدف معها، وما أحضرته معها إلا وهي تعلم أنه سيحتفي بفرحها، وسيطلق لمشاعرها العنان حتى تُعبِّر عن أفراحها بعودته إليها، ولذا بدأت تضرب بالدف على رأسه وهو يشاركها سرورها وأنسها بتقريره لها، وإعطائها الفرصة لتعيش احتفال الفرح الذي يغمرها، ولك أن تتخيل المشهد والرسول الذي أُلقيت عليه المهابة جالس والأمَة تضرب بالدف على رأسه وأصحابه حوله، أيّ نفس رَضيَّة هذه النفس التي تستوعب رغبات الناس، وتعطيهم مساحة الحركة الواسعة حتى تجرؤ أمَة أن تضرب بالدف على رأسه، وتقيم احتفالية لهو وسرور في مجلسه!

(١) «جامع الترمذي» (٣٦٩١).
(٢) «جامع الترمذي» (٣٦٩٠).

إن هذا الهدي النبوي ينقلنا للسماحة التي جاء بها ﷺ: «**إِنِّي أُرْسِلْتُ بِحَنِيفِيَّةٍ سَمْحَةٍ**». والسعة التي أفسحها لنا: «**لِتَعْلَمَ يَهُودُ أَنَّ فِي دِينِنَا فُسْحَةً**»(١).

وعَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: كَانَ فِي حِجْرِي جَارِيَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ، فَزَوَّجْتُهَا، فَدَخَلَ عَلَيَّ رَسُولِ الله ﷺ يَوْمَ عُرْسِهَا، فَلَمْ يَسْمَعْ غِنَاءً وَلَا لَعِبًا، فَقَالَ: «**يَا عَائِشَةُ! هَلْ غَنَّيْتُمْ عَلَيْهَا؟ أَوَلَا تُغَنُّونَ عَلَيْهَا؟**» ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ هَذا الحَي مِنَ الأَنْصَارِ يُحبُونَ الغِنَاءَ**»(٢).

وفي رواية: أَنْكَحَتْ عَائِشَةُ ذَاتَ قَرَابَةٍ لَهَا مِنَ الأَنْصَارِ، فَجَاءَ رَسُولُ الله ﷺ، فَقَالَ: «**أَهْدَيْتُمُ الفَتَاةَ؟**». قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «**أَرْسَلْتُمْ مَعَهَا مَنْ يُغَنِّي**». قَالَتْ: لَا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ الأَنْصَارَ قَوْمٌ فِيهِمْ غَزَلٌ، فَلَوْ بَعَثْتُمْ مَعَهَا مَنْ يَقُولُ: أَتَيْنَاكُمْ أَتَيْنَاكُمْ فَحَيَّانَا وَحَيَّاكُمْ**»(٣).

وعن الرُّبَيِّع بِنْتُ مُعَوِّذٍ قالت: جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَدَخَلَ حِينَ بُنِيَ عَلَيَّ، فَجَلَسَ عَلَى فِرَاشِي، فَجَعَلَتْ جُوَيْرِيَاتٌ لَنَا، يَضْرِبْنَ بِالدُّفِّ وَيَنْدُبْنَ مَنْ قُتِلَ مِنْ آبَائِي يَوْمَ بَدْرٍ، إِذْ قَالَتْ إِحْدَاهُنَّ: وَفِينَا نَبِيٌّ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ، فَقَالَ: «**دَعِي هَذِهِ، وَقُولِي بِالَّذِي كُنْتِ تَقُولِينَ**»(٤).

فساعات السرور يُعلن فيها الفرح، ومن مظاهر إعلانه مظاهر اللهو الجماعي المؤنس حيث تكبر الفرحة بمشاركة السرور والفرح، ويحصل التفاعل بأهازيج الأفراح ولهوها.

وكان يتفهّم لهو الفتيان والفتيات ويتفاعل معه، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها كانت تلعب بالبنات(٥) وهي عند رسول الله ﷺ قالت: وكانت تأتيني صواحبي يلعبن معي فكن يَنْقَمِعْنَ(٦) من رسول الله ﷺ، فكان رسول الله ﷺ يسربهن إليَّ فيلعبن معي(٧).

---

(١) «السنن الكبرى» للنسائي (٨٩٠٢).
(٢) «صحيح ابن حبان» (٥٨٧٥).
(٣) «سنن ابن ماجه» (١٩٠٠).
(٤) «صحيح البخاري» (٤٠٠١).
(٥) البنات: أي اللعب المصورة دمى للأطفال.
(٦) انْقَمع: أَيْ رَدّ بَصَرُهُ ورَجع. ينظر: «النهاية» (٤/ ١٠٩).
(٧) «صحيح مسلم» (٢٤٤٠).

وفي يوم عيد دعت عائشة صويحباتها ليشاركنها لهو العيد وأنسه فجئن إليها بدفوفهن، وجعلن يغنين في بيتها بأشعار من أشعار الجاهلية من قصائد الأوس والخزرج في يوم بعاث، فدخل النبي ﷺ وهذه الاحتفالية الغنائية على أشدها فرأت الجواري من أنسه بلهوهن ما جعلهن يسترسلن في غنائهن، ثم اضطجع على سريره وحوَّل وجهه للجدار حتى لا يحرجهن بالنظر إليهن، وكأنه بهذا يقول بلسان الحال: استمتعن بلهوكن، وكن كما أنتن، فاستمر الغناء وضرب الدفوف حتى سمعه أبو بكر وهو في المسجد فدخل مُغْضَبًا يوبخ ابنته عائشة قائلاً: أَمَزَامِيرُ الشَّيْطَانِ فِي بَيْتِ رَسُولِ الله ﷺ؟ فالتفت إليه رسول الله ﷺ وقال: «**دَعْهُنَّ يَا أَبَا بَكْرٍ، فَإِنَّهَا أَيَّامُ عِيدٍ**»(١).

إنه يوم فرح وهذه الاحتفالية الغنائية تفاعل مع الفرح وتعبير عنه، وللأفراح نشوتها وحيويتها.

وعَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى قُرَظَةَ بْنِ كَعْبٍ، وَأَبِي مَسْعُودٍ الأَنْصَارِيِّ، فِي عُرْسٍ، وَإِذَا جَوَارٍ يُغَنِّينَ، فَقُلْتُ: أَنْتُمَا صَاحِبَا رَسُولِ الله ﷺ وَمِنْ أَهْلِ بَدْرٍ، يُفْعَلُ هَذَا عِنْدَكُمْ؟ فَقَالَ: اجْلِسْ إِنْ شِئْتَ فَاسْمَعْ مَعَنَا، وَإِنْ شِئْتَ اذْهَبْ، قَدْ رُخِّصَ لَنَا فِي اللَّهْوِ عِنْدَ العُرْسِ(٢).

وعَن أَبِي الزِّنَادِ قَالَ: قُلْتُ لِخَارِجَةَ بْنِ زَيْدٍ: هَلْ كَانَ الغِنَاءُ يَكُونُ فِي العُرُسَاتِ؟

قَالَ: قَدْ كَانَ ذَاكَ، وَلَا يَحْضُرُ بِمَا يَحْضُرُ بِهِ اليَوْمَ مِنَ السَّفَهِ، دَعَانَا أَخْوَالُنَا بَنُو نَبِيطٍ فِي مَدْعَاةٍ لَهُمْ، فَشَهِدَ المَدْعَاةَ، حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ، وَابْنُهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَإِذَا جَارِيَتَانِ تُغَنِّيَانِ:

انْظُرْ خَلِيلِي بِبَطْنِ جِلَّقَ هَلْ ... تُونِسُ دُونَ البَلْقَاءِ مِنْ أَحَدِ

فَبَكَى حَسَّانُ وَهُوَ مَكْفُوفٌ وَجَعَلَ يُومِئُ إِلَيْهِمَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ أَنْ زِيدَا، فَلَا أَدْرِي مَاذَا يُعْجِبُهُ مِنْ أَنْ يُبْكِيَا أَبَاهُ(٣).

ولعل عبد الرحمن أراد أن تغنيا حتى يستثير أباه على نشوة الطرب لأن بكاءه بكاء شَجَىً لا بكاء حزن، وهو بكاء يُسري عن النفس وينفس عنها.

(١) «صحيح البخاري» (٢٩٠٦)، و«صحيح مسلم» (٨٩٢).
(٢) «السنن الكبرى» للنسائي (٣٣٨٣).
(٣) «تأويل مختلف الحديث» لابن قتيبة (ص:٤٢٢).

ونلاحظ هنا أن أبيات الغناء هي من شعر الجاهلية مما تقاولت به الأوس والخزرج في حروبها حينها، وأن آلات اللهو هي أيضاً من تراث الجاهلية ووسائل اللهو فيها، فاللهو واللعب والفن ليس له دين ولا وطن، وليس ثمة -فيما أحسب- ما نسميه فنّاً إسلاميّاً، ولكنه فن إنساني، فيه المباح وهو الأصل، وفيه المحرَّم وهو ما خالطه فحش أو ميسر أو كان شعاراً دينياً محرماً، فإذا حُرِّمَ اللهو فلما يشوبه من المحرَّمات، فإذا طرحت عاد إلى أصله وهو الإباحة.

ولكل زمان وسائله في اللهو وطريقته في التلهِّي، وهذه الوسائل التي كانت تمارس بين يدي النبي ﷺ كانت وسائل جاهلية، ولكنها بقيت في مساحة المباح.

ولذا فإن وسائل الترفيه والتسلية المعاصرة تأخذ حكمها؛ كالألعاب الضوئية، وحركات السيرك، وأنواع اللهو الأخرى ما لم يخالطها شيء من المحرمات فتحرم لوجود هذا المحرم فيها؛ كالقمار والفحش ونحو ذلك.

وكما كان الغناء في مناسبات الفرح والسرور كانت الأهازيج والحداء في مواضع الجَهْد والكد، بما ينشط النفوس ويزيل الملل والإجهاد، فعند بناء المسجد كانت الأهازيج:

لا يستوي من يعمر المساجدا
يظل فيها راكعاً وساجدا
ومن يرى عند التراب حائدا

وفي حفر الخندق كانت الأهازيج:

لَاهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا
وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا
فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا
وَثَبِّتْ الأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا
إِنَّ الأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا
إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

وفي السفر كان للنبي ﷺ حادٍ[1] حسن الصوت إذا حدا أطرب فأسرعت الإبل من نشوتها بسماعه، فقال له ﷺ: «**يَا أَنْجَشَةُ! رُوَيْدَكَ، رِفْقًا بِالقَوارِيرِ**». أي أن حداءك يجعل الإبل تسرع في مشيها فترجف بالنساء في هودجهن، فارفق في حدائك حتى ترفق الإبل في سيرها.

فكان الأنس واللهو في سعة الحياة يزيد الأنس، ويعلن الفرح، ويخفف الإجهاد والرهق، إن في ديننا سعة، إن نبينا بعث بالحنيفية السمحة.

خلاصات:

١- كان ﷺ مع ضخامة مسؤولياته، وجدية حياته، متفهمًا لرغائب النفوس، وإفساح مساحة المتعة واللهو الجميل.

٢- كان ﷺ يشرك أهله في المتعة، ويشاركهم اللهو، ويعيش معهم سرورهم به.

٣- كان يُرغِّب باللهو في مناسبات السرور والفرح كالزواج والأعياد؛ لأن فيه إشهاراً للفرحة، واحتفاءً بالنعمة.

٤- كان يُعلِّم الأمة أن متعة اللهو من فسحة الدين وسعته التي جاء بها: «**العَبُوا يَا بَنِي أَرْفِدَةَ؛ لتَعْلَمَ اليَهُودُ وَالنَّصَارَى أَنَّ فِي دِينِنَا فُسْحَةً، إِنِّي أُرْسِلْتُ بِحَنِيفِيَّةٍ سَمْحَةٍ**»[2].

٥- كان اللهو الموجود زمن النبي ﷺ هو نفسُه الذي كان لديهم قبل الإسلام، ولهو الحبشة هو لهوهم قبل أن يسلموا، فأقرهم عليه.

٦- كانت آلات اللهو الموجودة في زمنهم هي آلات اللهو الموجودة من قبل كالدف والطبل والمِزْهَر[3]، ولكل بيئة وعصر وسائلُ لهوها وآلاته.

٧- ليست أدوات اللهو توقيفية أو تعبدية يلتزم بها، بل هي مثل بقية وسائل الحياة تتغير وتتطور بتطور الحياة وتغيرها.

---

(١) الحادي هو الذي يسوق الإبل ويغني لها. ينظر: «لسان العرب» (١٤/ ١٦٨).

(٢) «صحيح البخاري» (٩٨٦)، و«صحيح مسلم» (٩٤٩)، و«السنن الكبرى» للنسائي (٨٩٠٢).

(٣) المزهر: هو العُودُ الَّذِي يُضْرَبُ بِهِ فِي الغِناء. ينظر: «النهاية» (٤/ ٣٢٥).

بسمات الرسول ﷺ

كان ﷺ متطلق الأسارير، مشرق المحيَّا، ضحوكًا بساماً، وفي بسمات الرسول ﷺ معالم منها:

١- أن النبي ﷺ كان أكثر الناس تبسماً، فالأصل في وجه النبي ﷺ استطلاقه وإشراقه بالابتسام، حتى قال عبد الله بن الحارث: ما رأيتُ أحداً أكثر تبسماً من رسول الله ﷺ[(١)]. فهذا الأصل في حال النبي ﷺ وهذه اللمحة الدائمة لوجه رسول الله ﷺ مع كل من يلقاه حتى لتظن أن الصحابة لا يتخيلون النبي ﷺ إذا تخيلوه ولا يتذكرونه إذا تذكروه إلا مشرق الوجه مبتسماً.

٢- كانت ابتسامة النبي ﷺ حيَّة مشعة، ولم تكن منطفئة باهتة، وإنما ابتسامة حيَّة متألقة تشعر من يلقاه بالخصوصية بها، بحيث يشعر من يتبسم له النبي ﷺ كأنما خزن هذه الابتسامة له وحده، ولذلك قال جرير بن عبد الله البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما حجبني رسول الله ﷺ منذ أسلمت، وما لقيني رسول الله ﷺ إلا تبسم في وجهي[(٢)]، لقد ظن جرير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن هذا شيء خاص به، مع أنه كان شأناً عاماً لرسول الله ﷺ مع كل مَن يلقاه.

٣- وكما كان كثير التبسم، كان يرغّب في الابتسامة وطلاقة الوجه فيقول: «**لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ**»[(٣)]، ويقول: «**تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ**»[(٤)]، وذلك لما للتلقي الباسم من إيناس النفوس، وتأليف القلوب، وإزالة الوحشة والشحناء.

(١) «جامع الترمذي» (٣٦٤١).
(٢) «صحيح البخاري» (٣٠٣٥)، و«صحيح مسلم» (٢٤٧٥).
(٣) «صحيح مسلم» (٢٦٢٦).
(٤) «جامع الترمذي» (١٩٥٦).

٤- وكان تبسمه ترحابًا وإيناسًا لكل مَن يلقاه أو يتلقَّاه، فعندما قدم عليه خالد بن الوليد مسلمًا تلقَّاه بوجه طلق مبتسم، قال خالد: فَاطَّلَعْتُ عَلَيْهِ، فَمَا زَالَ يَتَبَسَّمُ إِلَيَّ حَتَّى وَقَفْتُ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ بِالنُّبُوَّةِ، فَرَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ، فَقُلْتُ: إِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّكَ رَسُولُ الله. فَقَالَ: «**تَعَالَ**». ثُمَّ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**الحَمْدُ لله الَّذِي هَدَاكَ، قَدْ كُنْتُ أَرَى لَكَ عَقْلاً رَجَوْتُ أَنْ لَا يُسْلِمَكَ إِلَّا إِلَى خَيْرٍ**»[(١)].

٥- وكان ضحكه ﷺ تبسمًا مشرقًا، ولم يكن يضحك مستجمعًا بقهقهة وعلو صوت، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ما رَأَيْتُ النبيَّ ﷺ مُسْتَجْمِعًا قَطُّ ضَاحِكًا، حتَّى أرَى منه لَهَوَاتِهِ، إنَّما كانَ يَتَبَسَّمُ[(٢)]، فكان تبسمه وضحكه مع وقارٍ وحشمة، ولذا فغاية ما يوصف به ضحك النبي ﷺ أن يقول الراوي: فضحك حتى بدت نواجذه[(٣)].

وكان النبي ﷺ يُفَعِّل الابتسامة في الحياة فعند المعاتبة يعاتب بابتسام، رأى النبي ﷺ أبا بكر وهو يضرب غلامًا له أضل بعيراً، وكان هذا في الطريق لحجة الوداع، وأبو بكر محرم فجعل النبي ﷺ يضحك، ولم يوجه الخطاب لأبي بكر مباشرة وإنما يعنيه به ولا يوجهه إليه فيقول: «**انْظُرُوا إِلَى هَذَا المُحْرِمِ مَا يَصْنَعُ؟**»[(٤)]. يقولها وهو يضحك، وكان هذا القدر من العتاب اللطيف الباسم هو الذي يليق بأبي بكر الرقيق الشفاف.

وأرسل أنسًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حاجة فذهب أنس، فمر في الطريق بصبيان يلعبون فوقف يلعب معهم ونسي حاجة النبي ﷺ، يقول أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يصف حاله أثناء اللعب: فبينا أنا ألعب إذا إنسان يمسكني من خلفي فرفعت رأسي فإذا رسول الله ﷺ يضحك ويقول: «**أُنَيْسُ أَذَهَبْتَ حَيْثُ أَرْسَلْتُكَ؟**»[(٥)]. إن الرسول يقول ذلك وهو يعلم أنه لم يذهب، لكن طرح العتاب في هيئة سؤال فيه ملاطفة، ثم التصغير والتدليل حين ناداه: «**أُنَيْسُ**»،

---

(١) «دلائل النبوة» للبيهقي (٤/ ٣٥١).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٠٩٢)، و«صحيح مسلم» (٨٩٩).

(٣) «صحيح البخاري» (٦٠٨٧). ونواجذ: جمع ناجذ وهو آخر الأضراس، ولكل إنسان أربع نواجذ، وتطلق النواجذ أيضا على الأنياب والأضراس. ينظر: «فتح الباري» (١١/ ٣٧٤).

(٤) «سنن أبي داود» (١٨١٨).

(٥) «صحيح مسلم» (٢٣١٠).

مع ابتسامة مشرقة مؤنسة تذهب عنه رهبة الخوف، فأَنِسَ أَنسٌ برسول الله ﷺ وقال: أنا ذاهب يا رسول الله الآن. وكان هذا القدر كافيًا في عتاب أنس، وهو سؤال بابتسام.

بل إنه ﷺ يتلقَّى جفاء الجفاة وغلظ طبعهم بابتسام، فقد كان النبي ﷺ يومًا على وشك الدخول إلى بيته وقد اشتمل ببرد نجراني غليظ الحاشية ردّه على عاتقه، فجاء أعرابي من خلفه فأمسك بطرف ردائه ثم جذبه إليه حتى أثرت حاشية الرداء في صفحة عنق النبي ﷺ، وكاد النبي أن يقع إلى خلفه، ثم قال الأعرابي: أعطني مما أعطاك الله، فلم يُسْتفَز النبي ﷺ بجهل هذا الأعرابي وجفائه، وإنما التفت إليه وهو يضحك وأمر له بعطاء[1]، فغمرت ابتسامة هذا النبي الكريم جهل هذا الأعرابي وجفاءه، واسترضاه بعطاء.

بل حتى الغضب له ابتسامته التي تعبر عنه يقول كعب بن مالك وهو يصف لقاءه بالنبي ﷺ بعد تخلفه عن غزوة تبوك: فلما جلست إليه تبسَّم تبسُّم المغضب ثم قال: «**مَا خَلَّفَكَ؟**»[2]، يا لله حتى الغضب لا يحجب إشراق الابتسامة على محياه المبارك!

ولم يطفئ المرض وهج ابتسامته، فكان مؤنسًا بسَّامًا وهو يعاني آلام المرض، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: رَجَعَ إِلَيَّ رَسُولُ الله ﷺ، ذَاتَ يَوْمٍ مِنْ جِنَازَةٍ بِالبَقِيعِ وَأَنَا أَجِدُ صُدَاعًا فِي رَأْسِي وَأَنَا أَقُولُ: وَارَأْسَاهْ، فَقَالَ: «**بَلْ أَنَا يَا عَائِشَةُ، وَارَأْسَاهْ**». ثُمَّ قَالَ: «**وَالله مَا ضَرَّكِ لَوْ مُتِّ قَبْلِي فَغَسَّلْتُكِ وَكَفَّنْتُكِ وَصَلَّيْتُ عَلَيْكِ، ثُمَّ دَفَنْتُكِ**». قُلْتُ: لَكَأَنِّي بِكَ وَالله لَوْ فَعَلْتَ ذَلِكَ لَقَدْ رَجَعْتَ إِلَى بَيْتِي فَأَعْرَسْتَ فِيهِ بِبَعْضِ نِسَائِكَ. فَتَبَسَّمَ رَسُولُ الله ﷺ، ثُمَّ بُدِئَ بِوَجَعِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ[3]، فلم يحجب المرض ابتسامته، ولم يطفئ الألم إشراقها.

أما إذا ابتسم ابتسامة الفرح والسرور فإن وجهه يتطلق ويستنير حتى كأنه فلقة قمر، يقول كعب بن مالك وهو يصف قدومه على النبي ﷺ بعد أن نزلت توبة الله عليه قال: فلما سلمت عليه قال وهو يبرق وجهه من السرور: «**أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ**»[4]، وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه حتى كأن وجهه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه.

(١) «صحيح البخاري» (٣١٤٩)، و«صحيح مسلم» (١٠٥٧).
(٢) «صحيح البخاري» (٤٤١٨)، و«صحيح مسلم» (٢٧٦٩).
(٣) «سنن ابن ماجه» (١٤٦٥).
(٤) «صحيح البخاري» (٤٤١٨)، و«صحيح مسلم» (٢٧٦٩).

وكان يتفاعل مع المواقف الطريفة من أصحابه بالضحك الباسم المؤنس، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ يَنْتِفُ شَعَرَهُ وَيَدْعُو وَيْلَهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَا لَكَ؟**». فَقَالَ: هَلَكْتُ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «**وَمَا أَهْلَكَكَ؟**». قَالَ: وَقَعْتُ عَلَى امْرَأَتِي فِي رَمَضَانَ وَأَنَا صَائِمٌ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**هَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُعْتِقَ رَقَبَةً؟**». قَالَ: لَا، قَالَ: «**فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصُومَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ؟**». قَالَ: لَا، قَالَ: «**فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُطْعِمَ سِتِّينَ مِسْكِينًا؟**». قَالَ: لَا، قَالَ: «**اجْلِسْ**». فَجَلَسَ، فَأُتِيَ رَسُولُ الله ﷺ بِعَرَقٍ[1] فِيهِ خَمْسَةَ عَشَرَ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ فَقَالَ: «**أَيْنَ السَّائِلُ؟**». قَالَ: هَا أَنَا ذَا، قَالَ: «**خُذْ هَذَا فَأَطْعِمْهُ عَنْكَ سِتِّينَ مِسْكِينًا**». فَقَالَ الرَّجُلُ: أَعَلَى أَفْقَرَ مِنِّي يَا رَسُولَ الله؟ فَوَالله مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا أَهْلُ بَيْتٍ أَفْقَرُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي، فَضَحِكَ رَسُولُ الله ﷺ حَتَّى بَدَتْ أَنْيَابُهُ ثُمَّ قَالَ: «**اذْهَبْ فَأَطْعِمْهُ أَهْلَكَ، كُلْهُ أَنْتَ وَأَهْلُ بَيْتِكَ، وَصُمْ يَوْمًا مَكَانَهُ، وَاسْتَغْفِرْ الله**»[2].

وفي ضحك النبي ﷺ إيناس لهذا الرجل وعجب من حاله فقد جاء فزعًا يدعو ويله ويقول: يا رسول الله هلكت، فلما وجد السعة واليسر عند رسول الله ﷺ رغب في التمر أن يطعمه أهله، وكان في ضحك النبي ﷺ ما يطمئنه ويؤنسه، ولذا رجع إلى قومه يقول: وجدت عند رسول الله اليسر والسعة.

بقي أن نعرف أن آخر نظرة نظرها الصحابة إلى رسول الله ﷺ كان النظر إلى إشراق ابتسامته وذلك في اليوم الذي توفي فيه يقول أنس: رفع النبي ﷺ ستر حجرته يوم الاثنين ونحن نصلي صلاة الفجر، فما فجأنا إلا وجه رسول الله ﷺ ينظر إلينا يضحك فكدنا أن نفتتن في صلاتنا من الفرح، فما رأينا منظراً كان أعجب إلينا من وجه رسول الله ﷺ كأن وجهه ورقة مصحف[3].

كانت هذه آخر بسمات الرسول وأجملها وأثمنها، إنها ابتسامة الفرح والرضى بأمته وبحالهم التي رآهم عليها، ثم توفي النبي ﷺ بعدها بسويعات ضحوة ذلك اليوم، وبقيت عيون الصحابة تخزن آخر نظرة نظروها إلى النبي ﷺ، وهي رؤيتهم له وهو ينظر إليهم مبتسمًا.

---

(١) العرق: المكتل أو الزنبيل. ينظر: «النهاية» (٣/ ٢١٩).

(٢) «صحيح البخاري» (١٨٣٤)، و«صحيح مسلم» (١١١١).

(٣) «صحيح البخاري» (٦٨٠)، و«صحيح مسلم» (٤١٩).

خلاصات:

١- كان ﷺ أكثر الناس تبسُّمـًا.

٢- كانت ابتسامته حيَّة مشعة، يَشْعر من يتلقَّاه بها بالخصوصية كأنه ما تلقى بها غيره.

٣- وكما كان كثير التبسُّم كان يرغب أمته في الابتسام لبعضهم: «**وَتَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ صَدَقَةٌ**».

٤- كان ضحكه تبسُّمـًا، وما استجمع ضاحكـًا حتى ترى لهواته.

٥- كان يُفَعِّل الابتسامة في نواحي الحياة؛ فيبتسم معاتبـًا، ويبتسم مغضبـًا، ويبتسم فرحـًا.

٦- لم تنطفئ ابتسامته وأنسه حتى في وجعه وألم مرضه.

٧- كانت الابتسامة المشرقة هي آخر مشهد رآه فيه أصحابه قبيل وفاته ﷺ.

الرسول ﷺ والشجاعة

الشجاعة هي قوة القلب عند النوازل والثبات في مواقف الاضطراب، والعزيمة وقت التردد، وقوة النفس ومضاؤها عند الفزع والخوف، فالشجاعة صفة مشتركة في جميع الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وهي من أهم خصال القيادة، وكمال الشخصية، وقد كان ﷺ في الذروة من كمال الشجاعة، وما الظن بمن كانت قوته بالله، ومدده من الله، وتوكله على الله؟ وكيف سيكون قلبه ورباطة جأشه، وهو الذي يتلقَّى الوحي من ربه، ويرى من عوالم عظمته وقدرته ما لم يطلع عليه غيره؟ وكيف ستكون نظرته إلى قوة البشر الواهنة وقد رأى جبرائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ على هيئته التي خلقه الله عليها، قد سد أفق السماء، وعلم عاقبة من تكبروا على الله ورسله وكفروا برسالاته؟ ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل: ٥١]، ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الزخرف: ٢٥]، ولذا كان من أعظم الخلق شجاعة ومضاءً وثباتا.

فهي شجاعة فريدة تجمع القوة النفسية، واليقين الإيماني.

ومن مظاهر شجاعته ﷺ:

أولاً: انتدابه للدعوة أولَ ما دَعا، والدنيا كلها مطبقة على الوثنية، غارقة في الشرك، فيقف ﷺ هذا الموقف وليس معه أحد، هو في صف وحده، والبشرية كلها في صف تجاهه، فيقف لها بثبات وقوة، وينادي فجاج مكة وهو على الصفا حتى اجتمعوا إليه، فيواجههم بدعوته بثبات وقوة، ووضوح وجلاء، ويسمعهم النداء الذي لم يسمعوه من قبل هم ولا آباؤهم الأولون[1]، إن هذه المواجهة لا تكون إلا من قلب جريء ثابت، وشجاعة فائقة.

(١) «صحيح البخاري» (٤٩٧١)، و«صحيح مسلم» (٢٠٨).

ومن ذلك: ذهابه إلى الطائف وحده ليس معه إلا مولاه زيد بن حارثة ليعرض دعوته على عَبَدةِ اللات، فيقول لهم: اعبدوا الله وحده لا شريك له، ثم تحَمَّل عنادهم وسيئ ردهم، وعاد إلى قريش وهو يعلم جراءتهم عليه، وتقصدهم أذاه وما يكرهه[1]، وكل ذلك بثبات وجرأة، ومضاء لما هو متوجه إليه.

وكذا ثباته في الغار، حين أطافت به قريش تتطلب دمه، ودم صاحبه، ونظر أبو بكر إلى أقدامهم عند الغار فقال: يا رسول الله لو نظر أحدهم إلى موضع قدمه رآنا، فقال ﷺ بسكينة وثبات: «**لَا تَحْزَنْ؛ إِنَّ اللهَ مَعَنَا. يَا أَبَا بَكْرٍ! مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا؟!**»[2].

إنها لحظة يخفق فيها القلب، ويزيغ البصر، ويحدق الخطر، ولكن كان في سكينة النبي ﷺ ورباطة جأشه وقوة قلبه ما سكب الطمأنينة في قلب الصديق، وأزاح غيوم القلق عن نفسه.

ثانياً: ثباته عند الفزع، ويظهر في مشاهد كثيرة، منها:

١- في طريقه من مكة إلى المدينة مهاجراً كان الرصد أمامه والطلب خلفه، وقد نَذِرَت به القبائل وتطلبته فما ذُعِر ولا فزَع، وأخبر عن حاله ممن تطلبه وطارده حتى وصل إليه، فعن سُراقةَ بن مالكٍ قال وهو يحكي قصة طلبه النبي ﷺ في طريق الهجرة: رَكِبْتُ فَرَسِي أتبعهم، حَتَّى إِذَا سَمِعْتُ قِرَاءَةَ رَسُولِ الله ﷺ، وَهُوَ لَا يَلْتَفِتُ، وَأَبُو بَكْرٍ يُكْثِرُ الِالتِفَاتَ، سَاخَتْ يَدَا فَرَسِي فِي الأَرْضِ، حَتَّى بَلَغَتَا الرُّكْبَتَيْنِ، فَخَرَرْتُ عَنْهَا، ثُمَّ زَجَرْتُهَا فَنَهَضَتْ، فَلَمْ تَكَدْ تُخْرِجُ يَدَيْهَا، فَلَمَّا اسْتَوَتْ قَائِمَةً، إِذَا لِأَثَرِ يَدَيْهَا عُثَانٌ[3] سَاطِعٌ فِي السَّمَاءِ مِثْلُ الدُّخَانِ، فَنَادَيْتُهُمْ بِالأَمَانِ فَوَقَفُوا، فَرَكِبْتُ فَرَسِي حَتَّى جِئْتُهُمْ، وَوَقَعَ فِي نَفْسِي حِينَ لَقِيتُ مَا لَقِيتُ مِنَ الحَبْسِ عَنْهُمْ، أَنْ سَيَظْهَرُ أَمْرُ رَسُولِ الله ﷺ. فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّ قَوْمَكَ قَدْ جَعَلُوا فِيكَ الدِّيَةَ، وَأَخْبَرْتُهُمْ أَخْبَارَ مَا يُرِيدُ النَّاسُ بِهِمْ، وَعَرَضْتُ عَلَيْهِمُ الزَّادَ وَالمَتَاعَ، فَلَمْ يَرْزَآنِي وَلَمْ يَسْأَلَانِي،

(١) «صحيح البخاري» (٣٢٣١)، و«صحيح مسلم» (١٧٩٥).
(٢) «صحيح البخاري» (٤٦٦٣).
(٣) عثان: أَيْ دُخَان. ينظر: «النهاية» (٣/ ١٨٣).

إِلَّا أَنْ قَالَ: «**أَخْفِ عَنَّا**». فَسَالتُهُ أَنْ يَكْتُبَ لِي كِتَابَ أَمْنٍ، فَأَمَرَ عَامِرَ بْنَ فُهَيْرَةَ فَكَتَبَ فِي رُقْعَةٍ مِنْ أَدِيمٍ، ثُمَّ مَضَى رَسُولُ الله ﷺ[1].

فأعجب من هذا الثبات حيث يسير ﷺ ولا يلتفت، ويستمر في قراءة ورده من القرآن، وقد نذرت به القبائل تطلبه، وجعلت قريش فيه الدية لمن ظفر به، ومع ذلك كان في غاية الثبات والسكينة في هذه اللحظة الخطرة.

٢- وفي حالات الفزع المفاجئ يتلقَّى ﷺ الفزع بثبات، ويقتحم مواضع الفزع ومواقع الخطر، فعَنْ أَنَسٍ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ، وَأَجْوَدَ النَّاسِ، وَأَشْجَعَ النَّاسِ، وَلَقَدْ فَزِعَ أَهْلُ المَدِينَةِ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَانْطَلَقَ النَّاسُ قِبَلَ الصَّوْتِ، فَاسْتَقْبَلَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ سَبَقَ النَّاسَ إِلَى الصَّوْتِ، وَهُوَ يَقُولُ: «**لَنْ تُرَاعُوا، لَنْ تُرَاعُوا**». وَهُوَ عَلَى فَرَسٍ لِأَبِي طَلْحَةَ عُرْيٍ مَا عَلَيْهِ سَرْجٌ، فِي عُنُقِهِ سَيْفٌ، فَقَالَ: «**لَقَدْ وَجَدْتُهُ بَحْراً**». أَوْ: «**إِنَّهُ لَبَحْرٌ**[2]»[3].

وهذا حال الشجعان حيث بادر إلى جهة الصوت، وسبق الناس إلى حيث الفزع ليواجه الخطر ويستبرئ الخبر، ثم كفى الناس مؤنة الذهاب، وبيَّن لهم أنه ليس ثمّ فزع ولا ارتياع.

٣- وكان في ثباته وقوة قلبه وبريق عينيه ما يطير الشجاعة من قلب الشجاع إذا واجهه، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله، قَالَ: قَاتَلَ رَسُولُ الله ﷺ مُحَارِبَ خَصَفَةَ[4] بِنَخْلٍ، فَرَأَوْا مِنَ المُسْلِمِينَ غِرَّةً، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالَ لَهُ: غَوْرَثُ بْنُ الحَارِثِ، حَتَّى قَامَ عَلَى رَأْسِ رَسُولِ الله ﷺ بِالسَّيْفِ، فَقَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ: «**اللهُ**». فَسَقَطَ السَّيْفُ مِنْ يَدِهِ، فَأَخَذَهُ رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ: «**مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟**». قَالَ: كُنْ كَخَيْرِ آخِذٍ، قَالَ: «**أَتَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**». قَالَ: لَا، وَلَكِنِّي أُعَاهِدُكَ أَنْ لَا أُقَاتِلَكَ، وَلَا أَكُونَ مَعَ قَوْمٍ يُقَاتِلُونَكَ. فَخَلَّى سَبِيلَهُ[5].

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٩٠٦).

(٢) قال الأصمعي: يقال للفرس بحر إذا كان واسع الجري، أو لأن جريه لا ينفذ كما لا ينفذ البحر. ينظر: «فتح الباري» (٥/ ٢٨٥).

(٣) «صحيح البخاري» (٢٩٠٨)، و«صحيح مسلم» (٢٣٠٧).

(٤) خصفة: هو ابن فهر بن مالك، أي محارب منسوب لهذه القبيلة. «فتح الباري» (٧/ ٤١٧).

(٥) «مسند أحمد» (١٤٩٢٩).

إن هذا الرجل كان شجاعاً جريئاً، ولذا استطاع بقوة قلبه أن يتخلل جيش المسلمين حتى وصل إلى النبي ﷺ ثم وقف مشهرا سيفه ومتهدداً، فطارت شجاعته وانخلع قلبه بكلمة النبي ﷺ الواثقة: «**اللهُ**». وأحسب أن نظرات النبي ﷺ الثابتة والثاقبة خلعت قلب هذا الفارس المسلح، وبدل أن يُفزعَ النبي ﷺ فَزِعَ هو، وسقط السيف من يده، فاستمسك بمكارم أخلاق النبي ﷺ، وبدلاً من أن يهدده صار يتوسل إليه، فقال: كُنْ كَخَيْرِ آخِذٍ. فكان ﷺ كذلك.

٤- ومن ذلك: لَمَّا بلغ رَسُولَ الله ﷺ خبرُ نقض بني قريظة العهد في معركة الأحزاب، فبَعَثَ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ سَيِّدُ الأَوْسِ، وَسَعْدَ بْن عُبَادَةَ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ سَيِّدُ الخَزْرَجِ، فَقَالَ: «**انْطَلِقُوا حَتَّى تَنْظُرُوا، أَحَقٌّ مَا بَلَغَنَا عَنْ هَؤُلاءِ القَوْمِ أَمْ لا؟ فَإِنْ كَانَ حَقًا فَالحَنُوا لِي لَحْنًا أَعْرِفُهُ، وَلا تَفُتُّوا فِي أَعْضَادِ النَّاسِ، وَإِنْ كَانُوا عَلَى الوَفَاءِ فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ فَاجْهَرُوا بِهِ لِلنَّاس**». فَخَرَجُوا حَتَّى أَتَوْهُمْ، فَوَجَدُوهُمْ عَلَى أَخْبَثِ مَا بَلَغَهُمْ عَنْهُمْ، وَقَالُوا: لَا عَهْدَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ وَلَا عَقْدَ، فأَقْبَلَ سَعْدٌ وَسَعْدٌ، إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَسَلَّمُوا عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالُوا: عَضَلٌ وَالقَارَّةُ، أَيْ أنهم غدروا كَغَدْرِ عَضَلٍ وَالقَارَّةِ بِأَصْحَابِ الرَّجِيعِ[(١)]، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**اللهُ أَكْبَرُ! أَبْشِرُوا يَا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ**»[(٢)].

لقد كان يوم الأحزاب يوم شدة وكرب، وكان جيش الأحزاب يحاصر المدينة بعشرة آلاف، والمسلمون في غاية الجهد والرهق، وفي هذه الشدة يأتي خبر نقض بني قريظة العهد، ليتضاعف الرهق ويحدق الخطر بالمسلمين من فوقهم ومن أسفل منهم، ومع هذه الشدة الشديدة فإن النبي ﷺ كان في غاية الثبات، يستقبل الخبر مكبّراً مبشّراً، يبث السكينة والثبات في قلوب المؤمنين معه، حتى تحققت لهم البشرى بالنصر ودارت الدائرة على بني قريظة وباؤوا بحوبة غدرهم.

---

(١) عن عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ، قَالَ: قَدِمَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ بَعْدَ أُحُدٍ رَهْطٌ مِنْ عَضَلٍ وَالقَارَّةِ. فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ فِينَا إِسْلَامًا، فَابْعَثْ مَعَنَا نَفَراً مِنْ أَصْحَابِكَ يُفَقِّهُونَنَا فِي الدِّينِ، وَيُقْرِئُونَنَا القُرْآنَ، وَيُعَلِّمُونَنَا شَرَائِعَ الإِسْلَامِ. فَبَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ نَفَراً سِتَّةً مِنْ أَصْحَابِهِ حَتَّى إِذَا كَانُوا عَلَى الرَّجِيعِ، مَاءٍ لِهُذَيْلٍ بِنَاحِيَةِ الحِجَازِ، فَلَمْ يَرُعْ القَوْمَ، وَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ، إِلَّا الرِّجَالُ بِأَيْدِيهِمْ السُّيُوفُ، قَدْ غَشُوهُمْ، وقتلوهم. «سيرة ابن هشام» (٢/ ١٦٩)، و«فتح الباري» (٧/ ٣٨٠).

(٢) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٢٢١).

ثالثاً: شجاعته في المعارك:

١- عَنْ عَلِيٍّ، قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُنَا يَوْمَ بَدْرٍ وَنَحْنُ نَلُوذُ بِرَسُولِ الله ﷺ، وَهُوَ أَقْرَبُنَا إِلَى العَدُوِّ، وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ بَأْسًا[١].

٢- وفي معركة أُحُد عندما انكشف جيش المسلمين، وتفرَّق الناس بعد الهزيمة، وقال بعضهم: قُتل رسول الله، فكان أول من عرف رسولَ الله ﷺ كعبُ بن مالك قال: عرفته بعينيه تزهران من تحت المغفر، فناديت بأعلى صوتي: يا معشر المسلمين هذا رسول الله[٢].

لقد عرف كعب النبيَّ ﷺ ببريق عينيه تحت المغفر، وإشعاعُ العين وبريقها في هذه الشدة دليل ثبات وقوة، فإن الخائف يزيغ بصره، وتنطفئ عيناه، أما النبي ﷺ فكانت عيناه تزهران في هذا الموقف العصيب وكأنهما لسانان ناطقان.

ففي هذه المعركة أصيب النبي ﷺ إصابات شديدة فكسرت رَباعيته[٣]، وهشمت البيضة[٤] على رأسه، وغاصت حلقتان من حلق المغفر في وجنته، وشج جبينه ونزف الدم على وجهه، وكل هذه الإصابات لا تكون إلا لمن انغمس في مواقف الخطر، وتقدم في صفوف المواجهة، وقصد الأبطال وتصدى لهم.

٣- وفي معركة حنين حين انهزم الناس ثبت ﷺ ولم يبق معه إلا عدد قليل[٥].

قال رَجُلٌ لِلْبَرَاءِ بن عازب: أَكُنْتُمْ وَلَّيْتُمْ يَوْمَ حُنَيْنٍ يَا أَبَا عُمَارَةَ؟ فَقَالَ: أَشْهَدُ عَلَى نَبِيِّ الله ﷺ مَا وَلَّى، وَلَكِنَّهُ انْطَلَقَ أَخِفَّاءُ مِنَ النَّاسِ، وَحُسَّرٌ[٦] إِلَى هَذَا الحَيِّ مِنْ هَوَازِنَ،

---

(١) «مسند أحمد» (٦٥٤).

(٢) «المعجم الأوسط» للطبراني (١١٠٤).

(٣) الرَبَاعِيَة: هِيَ السِّنُّ الَّتِي تَلِي الثَّنِيَّةَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَلِلإِنْسَانِ أَرْبَعُ رَبَاعِيَاتٍ. ينظر: «شرح النووي على مسلم» (١٢/ ٤٨١).

(٤) هشمت البيضة على رأسه: الهشم: الكسر، والبيضة: الخوذة. ينظر: «النهاية» (٥/ ٢٦٤).

(٥) «صحيح البخاري» (٢٨٦٤)، و«صحيح مسلم» (١٧٧٦).

(٦) حُسَّرٌ: والحُسَّرُ جَمْعُ حَاسِر وَهُوَ الَّذِي لا دِرْع عليه ولا مِغْفَر. ينظر: «النهاية» (١/ ٣٨٣).

وَهُمْ قَوْمٌ رُمَاةٌ، فَرَمَوْهُمْ برشْق مِنْ نَبْل كَأَنَّهَا رِجْلٌ مِنْ جَرَادٍ[1]، فَانْكَشَفُوا، فَأَقْبَلَ القَوْمُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ الحَارِثِ يَقُودُ بِهِ بَغْلَتَهُ، فَنَزَلَ وَدَعَا وَاسْتَنْصَرَ، وَهُوَ يَقُولُ: «**أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ، اللهُمَّ نَزِّلْ نَصْرَكَ**». قَالَ البَرَاءُ: كُنَّا وَالله إِذَا احْمَرَّ البَأْسُ نَتَّقِي بِهِ، وَإِنَّ الشُّجَاعَ مِنَّا لَلَّذِي يُحَاذِي بِهِ، يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ[2].

وقَالَ العَبَّاس بن عبد المطلب: شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ، فَلَزِمْتُ أَنَا وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ الحَارِثِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ رَسُولَ الله ﷺ فَلَمْ نُفَارِقْهُ، وَرَسُولُ الله ﷺ عَلَى بَغْلَةٍ لَهُ بَيْضَاءَ، فَلَمَّا التَقَى المُسْلِمُونَ وَالكُفَّارُ وَلَّى المُسْلِمُونَ مُدْبِرِينَ، فَطَفِقَ رَسُولُ الله ﷺ يَرْكُضُ بَغْلَتَهُ قِبَلَ الكُفَّارِ، قَالَ عَبَّاسٌ: وَأَنَا آخِذٌ بِلِجَامِ بَغْلَةِ رَسُولِ الله ﷺ أَكُفُّهَا إِرَادَةَ أَنْ لَا تُسْرِعَ، وَأَبُو سُفْيَانَ آخِذٌ بِرِكَابِ رَسُولِ الله ﷺ[3].

فكان ﷺ هو الثابت حين فر الناس، وهو المُقدِمُ حين انهزموا، وجعل يركض بغلته يقتحم بها ومن معه يمسكون بها حتى لا تسرع به فيفوتهم، فلما لم تسعفه ترجل عنها، وأعلن عن نفسه: «**أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ**».

وهذا غاية الشجاعة والإقدام أن يثبت مع أن جيشه قد انهزموا عنه، فثبت واقتحم وجعل يناديهم حتى ثابوا إليه.

رابعاً: ومع فرط هذه الشجاعة فلم يقتل ﷺ بيده إلا شخصاً واحداً وهو أُبَيّ بن خَلَف.

وذلك أنَّ أُبَيَّ بْنُ خَلَفٍ قَالَ: وَالله لَأَقْتُلَنَّ مُحَمَّداً، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَ: «**بَلْ أَنَا أَقْتُلُهُ إِنْ شَاءَ اللهُ**». فَانْطَلَقَ رَجُلٌ مِمَّنْ سَمِعَ ذَلِكَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى أُبَيٍّ بْنِ خَلَفٍ فقال له: إِنَّهُ لَمَّا قِيلَ لِمُحَمَّدٍ ﷺ مَا قُلْتَ قَالَ: «**بَلْ أَنَا أَقْتُلُهُ إِنْ شَاءَ اللهُ**». فَأَفْزَعَهُ ذَلِكَ، وَقَالَ: أُنْشِدُكَ بِالله أَسَمِعْتَهُ يَقُولُ ذَلِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَوَقَعَتْ فِي نَفْسِهِ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ قَوْلاً إِلَّا كَانَ حَقاً، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ خَرَجَ أُبَيُّ بْنُ خَلَفٍ مَعَ المُشْرِكِينَ فَجَعَلَ يَلْتَمِسُ غَفْلَةَ النَّبِيِّ ﷺ لِيَحْمِلَ عَلَيْهِ، فَيَحُولُ رَجُلٌ مِنَ المُسْلِمِينَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ،

(١) رِجْلٌ مِنْ جَرادٍ: الرِّجْلُ بِالكَسْرِ: الجَرَاد الكَثِيرُ. ينظر: «النهاية» (٢/ ٢٠٣).
(٢) «صحيح البخاري» (٢٩٣٠)، و«صحيح مسلم» (١٧٧٦).
(٣) «صحيح مسلم» (١٧٧٥).

فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ رَسُولُ الله ﷺ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: «**خَلُّوا عَنْهُ**». فَأَخَذَ الحَرْبَةَ، فلما أخذها رسول الله ﷺ انتفض بها انتفاضة تطاير عنه أصحابه تطاير الشعر من ظهر البعير، ثم استقبله فطعنه بها طعنة تردى بها عن فرسه مراراً[1]، وطعنه بِهَا فِي تَرْقُوَتِهِ تَحْتَ تَسْبِغَةِ البَيْضَةِ[2]، وَفَوْقَ الدِّرْعِ، فَلَمْ يَخْرُجْ مِنْهُ كَبِيرُ دَمٍ، وَاحْتَقَنَ الدَّمُ فِي جَوْفِهِ، فَجَعَلَ يَخُورُ كَمَا يَخُورُ الثَّوْرُ، فَأَقْبَلَ أَصْحَابُهُ حَتَّى احْتَمَلُوهُ وَهُوَ يَخُورُ وَقَالُوا: مَا هَذَا فَوَالله مَا بِكَ إِلَّا خَدْشٌ، فَقَالَ: وَالله لو بصق علي لقتلني، أَلَيْسَ قَدْ قَالَ: أَنَا أَقْتُلُهُ إِنْ شَاءَ اللهُ، وَالله لَوْ كَانَ الَّذِي بِي بِأَهْلِ ذِي المَجَازِ لَقَتَلَهُمْ. قَالَ: فَمَا لَبِثَ إِلَّا يَوْماً أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ حَتَّى مَاتَ إِلَى النَّارِ[3].

وهنا يرد التساؤل الذي يثار أحياناً وهو: إذا كان لرسول ﷺ هذه الشجاعة المفرطة فكيف لم يقتل فيما روي إلا رجلاً واحداً؟

والجواب: أن هذه خصلة يجب أن تذكر في فضائله وكمالاته ﷺ، فإنه مع فرط شجاعته ما قتل أحداً إلا أُبيَّ بن خلف الذي أتى ليقتله؛ لأن الشجاع عادة يكون عنده إقدام وانتقام وتلذذ بالقتل والبطش، أما النبي ﷺ فإن شجاعته قوة وثبات وإقدام لا يشوبها بغي ولا انتقام، ولذا قالت عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: مَا انْتَقَمَ رَسُولُ الله ﷺ لِنَفْسِهِ إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ الله، فَيَنْتَقِمَ لله بِهَا[4].

وقَالَتْ: مَا ضَرَبَ رَسُولُ الله ﷺ خَادِماً وَلَا امْرَأَةً قَطُّ[5].

ثم إن شجاعة القائد ليست كشجاعة الجندي، فعندما يوصف القائد بالشجاعة فشجاعته هي في قدرته على الثبات، وعدم اضطرابه في مواقف الاضطراب، وقدرته على بث الشجاعة في قلوب جيشه، أما شجاعة الجندي فهي في إقدامه على خصمه الذي يقاتله، وشجاعة الجندي مستمدة من شجاعة قائده.

---

(١) «سيرة ابن اسحاق» (ص:٣٣١).

(٢) تسبغة: شيء مِنْ حَلَق الدُّرُوع والزَّرَد يُعَلَّق بالخُوذَة دَائِراً مَعَهَا لِيَسْتُرَ الرّقبة وجيب الدّرع. ينظر: «النهاية» (٢/ ٣٣٧).

(٣) «مصنف عبد الرزاق» (١٠٥٧٥).

(٤) «صحيح البخاري» (٣٥٦٠)، و«صحيح مسلم» (٢٣٢٧).

(٥) «صحيح مسلم» (٢٣٢٨).

والشجاعة القيادية ثابتة عن النبي ﷺ، ولذا قال البراء عندما سئل: أَفَرَرْتُمْ يَوْمَ حُنَيْنٍ؟ قال: لَكِنَّ رَسُولَ الله ﷺ لَمْ يَفِرَّ(١)، فتخيل قائداً معه اثنا عشر ألفاً ثم تقع هذه الهزيمة ويفرون، فالمتوقع أن يذهب معهم، بينما النبي ﷺ ثبت، وعندما لم تسعفه البغلة التي هو عليها ترجَّل عنها، وجعل يُعرِّفُ بنفسه، ويقول: «**أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ**»(٢)، حتى عادوا إليه، واجتمعوا حوله، وقاتلوا بين يديه، وبذا تغيَّرت موازين المعركة ونتيجتها.

وفي أُحد بعدما وقعت المصيبة وأصابهم القرح خرج ﷺ بمن شهد المعركة معه يتبع قريشاً إلى حمراء الأسد، ويتطلبهم لجولة ثانية فلما بلغ ذلك قريشا ذعروا وعجلوا بالرجوع إلى مكة، وقويت عزائم المسلمين وارتفعت معنوياتهم بذلك، ولا يكون ذلك إلا من نفس شجاعة لم تطفئها مصيبة المعركة الأولى ولم توهن عزيمتها.

خلاصات:

١- الشجاعة هي قوة القلب عند النوازل، والثبات عند الفزع، والإقدام وقت التردد والحيرة، وكان رسول الله ﷺ كذلك، وأكثر من ذلك.

٢- من شجاعته ثباته في مواقف الفزع، وسكينته، ورباطة جأشه.

٣- ومن شجاعته انتدابه للدعوة حين وقف في صف وحده أمام البشرية كلها، يدعوها إلى التوحيد، وهي غارقة في الشرك.

٤- ومن شجاعته شجاعته في المعارك، وانغماسه فيها، حتى إن أشجع الناس من يكون قريباً منه.

٥- مع فرط شجاعته فلم يكن مسرفاً في القتل، ولا متلذذاً بالبطش، وما قتل بيده إلا رجلاً واحداً، هو أُبي بن خلف، حين قصد قتله.

٦- شجاعة القائد هي في ثباته وإقدامه، وقدرته على بث الشجاعة في جنده، ولا تقارن بشجاعة الجندي المقاتل، الذي شجاعته في التغلب على خصمه، وقد كانت شجاعة النبي ﷺ هي شجاعة القائد الجريء بثبات الذي تسري شجاعته إلى أتباعه ثباتاً وإقداماً.

---

(١) «صحيح البخاري» (٢٨٦٤)، و«صحيح مسلم» (١٧٧٦).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٨٦٤)، و«صحيح مسلم» (١٧٧٦).

الرسول ﷺ والبكاء

البكاء تجاوبًا مع ما يثيره من حزن وأنس وحسرة، فطرة بشرية فطر الله عليها الخلق، ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ﴾ [النجم: ٤٣] وفيه تنفيس عن موجدة النفس، وتسكين للمصيبة وإخراجٌ لأحزان القلب.

وعندما يحصل من الإنسان في مناسبة فإنه يدل على كمال بشري واستواء فطري وتوازن في المشاعر والانفعالات.

وكذا تذرف عبرات الرسول في مواقف البكاء التي يكون التجاوب معها كمالا فطريا، وحياة مشاعرية، ويكون التنكر لها جفاء وغلظة.

يبكي النبي ﷺ في مواقف التأثر، ويكون بكاؤه دلالة على كماله البشري واستوائه النفسي، وما تحمله نفسه الكريمة من مشاعر الرحمة وعواطف الشفقة.

١- وكان النبي ﷺ يُظهر بكاءه في مواضعه، ويتجاوب مع الآلام والأحزان المؤثرة إذا أثارت البكاء، ولم يكن يكابر أحزانه، ولا يستتر ببكائه، ولذا يتعجب أصحابه من بكائه ويتساءلون: حتى أنت يا رسول الله؟

وكان ذلك في بيئة ترى بكاء الرجل ورقّة قلبه ضعفًا، وكانوا يكابرون مشاعر الرقة وبكاء الرحمة ويتنكرون لها ولا يظهرونها، ويرون البكاء من الأحزان شأن النساء، ولا يزال هناك من يرث هذه الخصلة الجاهلية ويردد: لم يخلق الدمع لعيون الرجال.

سبحان الله؛ أما بكى يعقوب حتى ابيضت عيناه من الحزن، وبكى سيد ولد آدم عندما فجع ببنيه وبناته؟ أليس الذي خلق فسوى هو الذي أضحك وأبكى؟

ولذا فإن نبينا ﷺ عندما يبكي فإنما يعيد البشرية إلى استوائها الفطري وتوازنها النفسي، ولما سأله أصحابه عن بكائه على فقد الأبناء قال: «**إِنَّهَا رَحْمَةٌ وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ**»(١).

٢- أما بكاؤه ﷺ إذا بكى فهو ذرف الدمع بلا ضجيج ولا عويل ولا صخب، وإنما السكينة والخشوع.

ولما قرأ عليه ابن مسعود سورة النساء فبلغ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ۝٤١ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤١، ٤٢]، قال: «**حَسْبُكَ**»(٢).

إنه الاعتدال في الانفعال فكما كان ضحكه تبسُّمًا كان بكاؤه ذرفًا، فإذا عيناه تذرفان، فلم يشعر ابن مسعود ببكائه حتى التفت إليه.

٣- وأما مثيرات بكائه فإنه يبكي في مواقف الخشية والتعظيم لله، حينما يترسل بقراءة القرآن في صلاته فيسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء(٣)، إنه ذاك البكاء الذي يضج في الصدر تحسه ولا تسمعه فلا يصحبه نشيج وعويل ولكن السكينة والخشوع.

وكما كان يبكي وهو يرتل القرآن، كان يبكي وهو يستمع إليه، كما بكى وهو يستمع قراءة ابن مسعود.

٤- ومن مواقف بكائه بكاءُ الشفقةِ على أمته والحرص عليها، ومن ذلك: أنه تَلَا قَوْلَ الله عَزَّوَجَلَّ فِي إِبْرَاهِيمَ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾ [ابراهيم: ٣٦]، وَقَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: «**اللهُمَّ أُمَّتِي، أُمَّتِي**». وَبَكَى، فَقَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: «**يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ، فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ؟**». فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ الله ﷺ بِمَا قَالَ،

(١) «صحيح البخاري» (١٢٨٤)، و«صحيح مسلم» (٩٢٣).
(٢) «صحيح البخاري» (٥٠٥٠).
(٣) «سنن أبي داود» (٩٠٤).

وَهُوَ أَعْلَمُ، فَقَالَ اللهُ: «**يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ، وَلَا نَسُوءُكَ**»(١).

وعندما كسفت الشمس خشي أن يكون ذلك طليعة عذاب على أمته؛ فسمع في سجوده يبكي وينفخ ويناشد ربه: «**رَبِّ أَلَمْ تَعِدْنِي أَنْ لَا تُعَذِّبَهُمْ وَأَنَا فِيهِمْ؟ أَلَمْ تَعِدْنِي أَنْ لَا تُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ؟**»(٢).

لقد كان يبكي وهو يستدفع العذاب عن أمته شفقة عليها، لقد كانت أمته حاضرة في شعوره ومشاعره فيهيج بكاءً وهو يناشد ربه من أجلها، ويهيج بكاءً وهو يستدفع العذاب عنها وصدق الله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

ومن ذلك: بكاؤه لما نزل العتاب الإلهي على أخذ فداء الأسرى في بدر فإنه ﷺ استشار أصحابه بعد معركة بدر في أمر الأسرى فأشار عمر بقتلهم وأشار أبو بكر بأخذ الفداء منهم رجاء إسلامهم، فهَوِيَ النبي ﷺ رأي أبي بكر واختار الفداء فدخل عليهما عمر وَإِذَا هُمَا يَبْكِيَانِ، فَقال: يَا رَسُولَ الله، أَخْبِرْنِي مَاذَا يُبْكِيكَ أَنْتَ وَصَاحِبَكَ؟ فَإِنْ وَجَدْتُ بُكَاءً بَكَيْتُ، وَإِنْ لَمْ أَجِدْ بُكَاءً تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**الَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنَ الفِدَاءِ، وَلَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُكُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ**» - لِشَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ - وَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧، ٦٨] أي: أخذتم مِنَ الفِدَاءِ، ثُمَّ أُحِلَّ لَهُمُ الغَنَائِمُ(٣).

٥- ومن مواقف بكائه بكاء الرحمة يظهر ذلك في رحمته لابنه وهو يموت، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: دَخَلْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ عَلَى أَبِي سَيْفٍ القَيْنِ، وَكَانَ ظِئْراً(٤) لِإِبْرَاهِيمَ،

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٠٢).

(٢) «سنن أبي داود» (١١٩٤).

(٣) «مسند أحمد» (٢٠٨).

(٤) الظِّئْر: المُرْضِعَةُ غَيرَ ولَدها. ويقَعُ عَلَى الذَّكَر والأُنْثَى، وأبو سيف هو أبو إبراهيم من الرضاعة. ينظر: «النهاية» (٣/ ١٥٤).

فَأَخَذَ رَسُولُ الله ﷺ إِبْرَاهِيمَ، فَقَبَّلَهُ، وَشَمَّهُ، ثُمَّ دَخَلْنَا عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ وَإِبْرَاهِيمُ يَجُودُ بِنَفْسِهِ، فَجَعَلَتْ عَيْنَا رَسُولِ الله ﷺ تَذْرِفَانِ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَأَنْتَ يَا رَسُولَ الله؟ فَقَالَ: «**يَا ابْنَ عَوْفٍ إِنَّهَا رَحْمَةٌ**». ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِأُخْرَى، فَقَالَ ﷺ: «**إِنَّ العَيْنَ تَدْمَعُ، وَالقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ**»[1].

وعنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: زَارَ النَّبِيُّ ﷺ قَبْرَ أُمِّهِ، فَبَكَى وَأَبْكَى مَنْ حَوْلَهُ، فَقَالَ: «**اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَهَا فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي، وَاسْتَأْذَنْتُهُ فِي أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأُذِنَ لِي، فَزُورُوا القُبُورَ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ المَوْتَ**»[2].

ويظهر ذلك في رقة مشاعره ﷺ مع أصحابه فقد دخل على سعد بن عبادة يعوده وهو مريض، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ فَوَجَدَهُ فِي غَاشِيَةِ أَهْلِهِ، فَقَالَ: «**قَدْ قَضَى؟**». قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ الله، فَبَكَى النَّبِيُّ ﷺ، فَلَمَّا رَأَى القَوْمُ بُكَاءَ النَّبِيِّ ﷺ بَكَوْا، فَقَالَ: «**أَلَا تَسْمَعُونَ؟ إِنَّ اللهَ لَا يُعَذِّبُ بِدَمْعِ العَيْنِ، وَلَا بِحُزْنِ القَلْبِ، وَلَكِنْ يُعَذِّبُ بِهَذَا** -وَأَشَارَ إِلَى لِسَانِهِ- **أَوْ يَرْحَمُ، وَإِنَّ المَيِّتَ يُعَذَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ**». وَكَانَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَضْرِبُ فِيهِ بِالعَصَا، وَيَرْمِي بِالحِجَارَةِ، وَيَحْثِي بِالتُّرَابِ[3].

ويدخل ﷺ على عثمان بن مظعون وقد توفي وغسل وكفن فيكشف عن وجهه فيكب عليه ويقبل ما بين عينيه، ويرى الصحابة النبي ﷺ وهو مكب على وجه عثمان بن مظعون فلما رفع ﷺ رأسه رأوا دموع النبي ﷺ وقد تساقطت على وجه عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[4] فأدرج عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكفنه ووجهه مرطب مطيب بعبرات رسول الله ﷺ.

أشعر بغبطة لعثمان بن مظعون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي ذهب إلى قبره وعبرات الرسول ﷺ ترطِّب وجهه.

---

(١) «صحيح البخاري» (١٣٠٣)، و«صحيح مسلم» (٢٣١٥).
(٢) «صحيح مسلم» (٩٧٦).
(٣) «صحيح البخاري» (١٣٠٤)، و«صحيح مسلم» (٩٢٤).
(٤) «مسند أحمد» (٢٤١٦٥).

كيف فاضت هذه العبرات من رسول الله ﷺ وهو يعود أحد أصحابه مريضاً، ويودع أحدهم ميتاً؟ إنها المشاعر الصادقة والعواطف الجياشة، لقد كان النبي ﷺ يتبادل مع أصحابه مشاعر الحب كأصدق ما تكون المشاعر، وتفيض عواطفه تجاههم، وتفيض عواطفهم تجاهه جليّة ظاهرة لا يكابرونها ولا يستخفون بها، فكان بكائه ﷺ كمالاً بشرياً، واستواء فطرياً.

ومن ذلك: بكاؤه عند نعي زيد وجعفر وابن رواحة رضي الله عنهم وعيناه تذرفان، فعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَعَى زَيْداً، وَجَعْفَراً، وَابْنَ رَوَاحَةَ لِلنَّاسِ، قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ خَبَرُهُمْ، فَقَالَ: «**أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَ جَعْفَرٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَ ابْنُ رَوَاحَةَ فَأُصِيبَ** -وَعَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ- **حَتَّى أَخَذَ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ الله حَتَّى فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِمْ**»[1].

ويبكي ﷺ رحمة ورقة حين يسمع بما يهيج مشاعره ويتفاعل مع مشاعر من حوله، ومن ذلك: أن رجلاً جاءه يسأل عن حاله في الجاهلية فقال: يَا رَسُولَ الله إِنَّا كُنَّا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ وَعِبَادَةِ أَوْثَانٍ، فَكُنَّا نَقْتُلُ الأَوْلَادَ، وَكَانَتْ عِنْدِي بِنْتٌ لِي فَلَمَّا أَجَابَتْ، وَكَانَتْ مَسْرُورَةً بِدُعَائِي إِذَا دَعَوْتُهَا، فَدَعَوْتُهَا يَوْماً، فَاتَّبَعَتْنِي فَمَرَرْتُ حَتَّى أَتَيْتُ بِئْراً مِنْ أَهْلِي غَيْرَ بَعِيدٍ، فَأَخَذْتُ بِيَدِهَا فَرَدَّيْتُ بِهَا فِي البِئْرِ، وَكَانَ آخِرَ عَهْدِي بِهَا أَنْ تَقُولَ: يَا أَبَتَاهُ يَا أَبَتَاهُ. فَبَكَى رَسُولُ الله ﷺ حَتَّى وَكَفَ دَمْعُ عَيْنَيْهِ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْ جُلَسَاءِ رَسُولِ الله ﷺ: أَحْزَنْتَ رَسُولَ الله ﷺ، فَقَالَ لَهُ: «**كُفَّ فَإِنَّهُ يَسْأَلُ عَمَّا أَهَمَّهُ**». ثُمَّ قَالَ لَهُ: «**أَعِدْ عَلَيَّ حَدِيثَكَ**». فَأَعَادَهُ، فَبَكَى حَتَّى وَكَفَ الدَّمْعُ مِنْ عَيْنَيْهِ عَلَى لِحْيَتِهِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: «**إِنَّ اللهَ قَدْ وَضَعَ عَنِ الجَاهِلِيَّةِ مَا عَمِلُوا، فَاسْتَأْنِفْ عَمَلَكَ**»[2].

٦- لقد كان النبي ﷺ يبكي البكاء الفطري والـذي هو فيض رحمة في القلوب الرحيمة، وتنفيس عن هيجان المشاعر ولوعة الحزن، وينهى عما يجاوز ذلك من العويل والنياحة والتسخط ولغو القول.

(١) «صحيح البخاري» (٣٧٥٧).

(٢) «مسند الدارمي» (٢)، رجاله ثقات، وهو مرسل.

ولذا قال: «**إِنَّ اللهَ لَا يُعَذِّبُ بِدَمْعِ العَيْنِ، وَلَا بِحُزْنِ القَلْبِ، وَلَكِنْ يُعَذِّبُ بِهَذَا** -وَأَشَارَ إِلَى لِسَانِهِ- **أَوْ يَرْحَمُ**»، ولذا حذر من عادات الجاهلية في الأحزان من مثل لطم الخدود، وشق الجيوب، والنياحة، وما يدل على التسخط من قدر الله، والجزع من المصيبة، وعدم التسلم لله فيما قَدَّر وقضى.

خلاصات:

١- تذرف عبرات الرسول ﷺ في مواقف التأثر التي يكون البكاء فيها كمالاً فطرياً، وحياة مشاعرية.

٢- كان ﷺ يُظهر بكاءه في مواضعه، ويتجاوب مع الآلام والأحزان ولا يتنكر لها.

٣- كان بكاؤه ذرفاً بالعين بلا ضجيج ولا عويل ولا صخب.

٤- من مواقف بكائه بكاء الخشوع والخشية حين قراءة القرآن أو سماعه.

٥- من مواقف بكائه البكاء شفقة على أمته، ومناشدته لربه من أجلها.

٦- ومن مواقف البكاء استدفاعه العقوبات عن أمته وخوفه عليها أن تعاجل بها.

٧- ومن مواقف بكائه بكاء الرحمة لأصحابه وأبنائه تجاوباً مع آلامهم وأحزانهم وفواجعهم.

الرسول ﷺ والحزن

١- أجار الله نبيه ﷺ أن تستوطن الأحزان قلبه، فهو الذي كان يستعيذ ربه من الهم والحزن، فلم تكن الأحزان علامة فارقة في وجهه ﷺ، بل كان دائم البشر، كثير التبسُّم، أليس هو الذي بعث بالبشرى؟ إن البشرى لا يمكن أن تشع من وجه كاسف حزين، لقد كان الأغلب على حياة النبي ﷺ البهجة والبشر والتبسم، مع أن الأحزان عبرت حياته ولكنها لم تستوطن قلبه.

٢- زارته الأحزان في طفولته عندما ماتت أمه أمام ناظريه في الأبواء وعمره ست سنوات، وزارته الأحزان يوم مات أبوه عبد المطلب وعمره ثماني سنوات، وزارته الأحزان بعد بعثته ﷺ وهو في الخمسين من عمره يوم توفي عمه أبو طالب ثم بعد ثلاثة أيام توفيت زوجته خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، حتى سمي ذلك العام: عام الحزن، وزارته الأحزان يوم فجع بأبيه حمزة بن عبد المطلب في أُحد، وعَمُّ الرجل صنو أبيه، وزارته الأحزان يوم فجع عام مؤتة بجعفر بن أبي طالب، وحِبِّه زيد بن حارثة، وعبدالله بن رواحة، قالت عائشة: فجلس رسول الله ﷺ يعرف الحزن في وجهه[1]، وزارته الأحزان يوم فجع بأبنائه وبناته فكان يجلس على شفير القبر الذي ستدفن فيه بنته وعيناه تذرفان.

لقد زارته الأحزان، فكيف كان حاله مع الحزن؟

(١) «صحيح البخاري» (٤٢٦٣).

٣- لقد كان النبي ﷺ يتفاعل مع الحزن تفاعلاً فطرياً طبيعياً، فلم يكن يتنكر للفطرة ولا يكابر المشاعر، فإذا أتته ظروف الحزن حزن، وتداعى مع الحزن، وظهر أثر الحزن في وجهه ﷺ وكان محيّاه ﷺ شفافاً تظهر عليه مشاعره، ولذلك قالت عائشة لما نعي إليه قواد مؤتة الثلاثة: جلس يعرف الحزن في وجهه. وقال أنس رضي الله عنه يصف حال النبي ﷺ لما أتاه خبر القراء السبعين الذين قتلوا في بئر معونة: فما وجد رسول الله ﷺ على أحد كما وجد على القراء أهل بئر معونة[١]. يعني ما رأينا الحزن في رسول الله ﷺ كما رأيناه في تلك الحال، وإن كنا رأيناه في أحوال أخرى.

وكان يعبر عن حزنه بذرف العيون دموعاً تسيل على وجهه المقدس، أو بكاء يجهش به فيفيض فيه لوعته وأساه.

ومن ذلك أنه ﷺ لما رأى حمزة قتيلاً سَارَ نَحْوَهُ، فَلَمَّا رَأَى جَبْهَتَهُ بَكَى، وَلَمَّا رَأَى مَا مُثِّلَ بِهِ شَهِقَ.

وقال عبد الله بن مسعود: ما رأينا رسول الله ﷺ باكياً قط أشد من بكائه على حمزة لما قُتِلَ، فوقف ﷺ على جنازته وانتحب حتى نشغ من البكاء[٢].

وعندما دخل على ابنه إبراهيم وهو يجود بآخر أنفاس الحياة جعل يخاطبه ويقول: «**يَا إِبْرَاهِيمُ! إِنَّا لَا نَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ شَيئًا، لَوْلَا أَنَّهُ أَمْرٌ حَقٌّ، وَوَعْدٌ صِدْقٌ، لَحَزِنَّا عَلَيْكَ حُزْنًا أَشَدَّ مِنْ هَذَا؛ وَلَكِنْ تَبْكِي العَيْنُ، وَيَحْزَنُ القَلْبُ، وَلَا نَقول إِلَّا ما يُرْضِي رَبنَا، وَإِنَّا بفرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ**»[٣].

إن النبي ﷺ يعلن الحزن صريحاً بقوله: «**وَإِنَّا بفرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ**». إنه الحزن الفطري الذي لا يكابَر ولا يغالَب.

---

(١) «صحيح مسلم» (٦٧٧).

(٢) «المستدرك» (٤٩٠٠)، و«ذخائر العقبى» للمحب الطبري (ص١٨١).

(٣) «صحيح البخاري» (١٣٠٣)، و«صحيح مسلم» (٢٣١٥).

٤- لكن النبي ﷺ وإن كان يظهر منه الحزن في حال الحزن، ويتفاعل مع الحزن بالبكاء وبظهور أثر الحزن على الوجه إلا أن الأحزان لم تكن تستوطن حياته ولم يكن يحفر للأحزان بئراً عميقاً في قلبه، وإنما كانت الأحزان تعبر ولا تستقر، فكان ﷺ يستأنف الحياة ولا يستصحب الحزن، ولذلك لا يعرف أن النبي ﷺ جدد المآتم ولا جعل للأحزان مواسم وذكريات ولا أياماً ومناسبات، وإنما يستأنف الحياة ويتفاعل معها.

٥- كما كان يتفهّم حزن المحزونين وحالتهم النفسية، مر بامرأة تبكي عند قبر فقال لها: «**اتَّقِي اللهَ وَاصْبِرِي**». قَالَتْ: إِلَيْكَ عَنِّي، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبْ بِمُصِيبَتِي، وَلَمْ تَعْرِفْهُ.

لاحظ أن النبي ﷺ نصحها ولم يلمها أو يعنفها، واحتمل بادرتها عندما قالت: إليك عني. فمضى ولم يكرر لها القول مراعاة لحالها النفسية.

فلما عرفته أتته معتذرة وقالت: لَمْ أَعْرِفْكَ، فَقَالَ: «**إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى**»[(١)]، ولاحظ هنا أنه لم يتكلم معها فيما يخصه وإنما تكلم فيما يخصها وهو مقام الصبر، فلم يحوجها لاعتذار أو يعرضها للوم.

وكان يقف مع المحزونين، فيمسح أحزانهم ويداوي أوجاع قلوبهم، ويسكب البشائر على القلوب المفجوعة فتتجاوز أحزانها وهي تتلقى كريم البشرى من نبيها ﷺ.

لقي ﷺ جابر بن عبد الله وكان فتى في قرابة العشرين من عمره وقد استشهد أبوه في أحد فرآه كاسفاً حزيناً قال جابر: فقال لي رسول الله ﷺ: «**يَا جَابِرُ! مَا لِي أَرَاكَ مُنْكَسِراً؟**». فقلت: يا رسول الله، استشهد أبي، قتل يوم أحد، وترك عيالاً ودَيْناً، قال: «**أَفَلَا أُبَشِّرُكَ بِمَا لَقِيَ اللهُ بِهِ أَبَاكَ؟**». فقلت: بلى يا رسول الله، قال: «**مَا كَلَّمَ اللهُ أَحَداً قَطُّ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَأَحْيَا أَبَاكَ فَكَلَّمَهُ كِفَاحاً. فَقَالَ: يَا عَبْدِي تَمَنَّ عَلَيَّ أُعْطِكَ. قَالَ: يَا رَبِّ تُحْيِينِي فَأُقْتَلَ فِيكَ ثَانِيَةً. قَالَ الرَّبُّ** عَزَّوَجَلَّ: **إِنَّهُ قَدْ سَبَقَ مِنِّي أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يُرْجَعُونَ**». قَالَ: وَأُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتَۢاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩][(٢)].

(١) «صحيح البخاري» (١٢٨٣).

(٢) «جامع الترمذي» (٣٠١٠).

ولك أن تتخيل حال جابر عندما يرى النبي ﷺ يوليه هذا الاهتمام حتى إنه يستشف مشاعره النفسية ويسائله عنها ويستكشف أسبابها: «**مَا لِي أَرَاكَ مُنْكَسِراً؟**». ثم يداوي اللوعة بذكر هذه الكرامة العظيمة، لتحل البشرى محل الفجيعة، والسلوى محل المصيبة.

وجاءته أم حارثة وقد استشهد ولدها في بدر تسأله بلوعة فتقول: يا رسول الله حدثني عن ابني، فإن كان في الجنة صبرت، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء، فقال لها: «**يَا أُمَّ حَارِثَةَ! أَجَنَّةٌ وَاحِدَةٌ؟ إِنَّهَا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ، وَإِنَّ حَارِثَةَ فِي الفِرْدَوْسِ الأَعْلَى**»[1].

ياالله لهذه البشائر التي تُفيض على القلوب السكينة، وتتجاوز بها الحزن إلى الاستبشار والرضا.

ولما استشهد جعفر بن أبي طالب دخل النبي ﷺ على زوجته أسماء بنت عميس وقال لها: «**ادْعُوا لِي بَنِي أَخِي**». قال عبد الله بن جعفر: فَجِيءَ بِنَا كَأَنَّا أَفْرُخٌ، فأمر بحلق رؤوسنا، ثم قال: «**أَمَّا مُحَمَّدٌ فَشَبِيهُ عَمِّنَا أَبِي طَالِبٍ، وَأَمَّا عَبْدُ الله فَشَبِيهُ خَلْقِي وَخُلُقِي**». ثم أخذ بيدي، ثم قال: «**اللهُمَّ اخْلُفْ جَعْفَراً فِي أَهْلِهِ، وَبَارِكْ لِعَبْدِ الله فِي صَفْقَةِ يَمِينِهِ، اللهُمَّ اخْلُفْ جَعْفَراً فِي أَهْلِهِ، وَبَارِكْ لِعَبْدِ الله فِي صَفْقَةِ يَمِينِهِ، اللهُمَّ اخْلُفْ جَعْفَراً فِي أَهْلِهِ، وَبَارِكْ لِعَبْدِ الله فِي صَفْقَةِ يَمِينِهِ**»[2].

فانظر إلى هذه الأبوة الحانية والمواساة الرقيقة، والطمأنينة التي أشاعها في نفوسهم، ثم تأمَّل دعاءه الأطفال: «**ادْعُوا لِي بَنِي أَخِي**». وطلبه حلق رؤوسهم لإزالة الشعث عنهم، ثم حديثه عن شبهه لعمه أبي طالب وله ﷺ، ثم دعائه لهم هذا الدعاء الكريم المبارك، إن هذه التفاصيل في التعامل جرعات متوالية من الإيناس والطمأنينة لا تفطن لها إلا النفوس المرهفة الكريمة، ولك أن تتخيل حال أسماء زوجة جعفر وقد نعي زوجها في غربتها الثانية في المدينة بعد غربتها الطويلة في الحبشة، ما حالها لو لم يقف النبي ﷺ معها هذا الموقف، ويواسيها هذه المواساة؟!

(١) «صحيح البخاري» (٢٨٠٩).

(٢) «مسند أحمد» (١٧٥٠).

٦- بقي أن نتذكر أن أشد الأحزان التي مرت بقلب النبي ﷺ لم تكن فقده من فقد، أو فجيعته بمن مات، وإنما كانت أشد الأحزان التي مرت بقلبه حتى عاتبه الله عليها هي أحزانه من أجل أمته، حين يعرض الهدى على الناس، فلا يقبلونه، حتى عاتبه ربه فقال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ﴾ [الكهف: ٦] أي: مهلك نفسك على آثارهم ﴿إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦] ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ [فاطر: ٨]، كانت أعظم أحزان النبي ﷺ أحزانه من أجل أمته، أَلَّا تقبل هدى الله الذي جاء به، فصلى الله وسلم على هذا النبي الذي كانت أعظم أحزانه مرتبطة بدعوته، ومن أجل أمته.

خلاصات:

١- لم يكن الحزن سمة ملامحه بل كان مشرق الوجه بسَّامًا.

٢- زارته الأحزان منذ طفولته وتتابعت عليه في مراحل حياته.

٣- كان يتفاعل مع الحزن ولا يتنكر له، وكان تفاعله فطريًا عفويًا بلا تكلف ولا تعمق.

٤- لم تكن الأحزان تستوطن قلبه، فيعيشها في حينها ثم يعبرها ويستأنف الحياة، ولا يجددها ولا يسترجعها.

٥- كان يتفهَّم مشاعر المحزونين، ويمسح أحزانهم ويداوي أوجاع قلوبهم.

٦- كانت أشد أحزانه حزنه من أجل أمته ودعوته، حتى عاتبه ربه على شدة حزنه عليهم.

الرسول ﷺ والحب

لولا الحب ما مال غصن على غصن، ولا أومضت نجمةٌ لنجمة، ولا حنى الجبل على الرابية، ولولا الحب ما بكى الغمام لجدب الأرض، ولا ضحكت الأرض بزهر الربيع، ولا كانت الحياة.

الحب هذه الكلمة القليلة الواسعة ترمز لهذه العاطفة ولا تعبر عنها ولا تصفها، وإن اللغة تغدو شحيحة، والكلمات قليلة حينما تريد أن تعبر عن هذه العاطفة الآبدة الخالدة الموجودة مع الحياة ما وجدت حياة، فالحياة الحب والحب الحياة.

وكيف تصف الكلمات لهفة الحب وشوقه، أو فجيعة الفقد ولوعته، أو نشوة اللقاء وفرحته، مَن يصف الدموع الذارفات شوقًا، أو الهاطلات فرحا؟!

أفسر ماذا والهوى لا يفسر

مَن يصف وجيف القلب، ورعشة الوجدان، وشهقة فجاءة اللقاء؟!

بقلبي شيء لست أعرف وصفه ... على أنه ما كان فهو شديد

تمر به الأيام تسحب ذيلها ... فتبلى به الأيام وهو جديد

مَن يريد وصف هذه العاطفة، ويروي حديث هذه المشاعر هو كالذي يريد أن يضع القمر في حقيبة، أو يسكب البحر في كأس[1].

(١) اقتباسات من مقالة الشيخ علي الطنطاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الحب.

والحياة بالحب حياة بهيجة مأنوسة مشعة بالحيوية والجمال، والحياة بلا حب حياةٌ قفرٌ موحشةٌ، بائسةٌ يابسةٌ.

ولقد جاء هذا النبي فأعاد الحب إلى الحياة، وأعاد الحياة إلى الحب.

أعاد الحب إلى الزوجة فجعله عبادة: «**حَتَى اللُّقْمَةَ تَرْفَعُهَا إِلى فيِّ امْرَأتِكَ**»(١). وإلى الأطفال فجعله رحمة: «**إِنَّها رَحْمة وإِنَّما يَرْحمُ اللهُ مِنْ عِبادِه الرُحَماءَ**»(٢). وإلى الأخوة فجعله إيمانا: «**لا تَدْخُلُوا الجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا**»(٣).

وأشاع الحب في الطبيعة وتبادل الحب مع مظاهرها فقال عن جبل أُحُد: «**هَذَا أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ**»(٤).

ثم استنبت الحب في تلك البيئة الجافة الجافية وأعاد إليها وعيها بالحياة، فتناثر الحب في حياتها، وزرعه في قلوبها، فأورقت وأزهرت، واهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج.

وعندما تتأمل حياة الصحابة حول رسول الله ﷺ تكاد تظن أنهم يتنفسون الحب مع الهواء الذين يستنشقونه، ويرتوونه مع الماء الذي يشربونه، قد سرى الحب في فجاج حياتهم كلها، مع قرب العهد بعماية الجاهلية، وجفاء الصحراء، وقساوة الطباع، وإذا بحثت عن السبب وجدت أن أنوار النبوة أشرقت على نفوسهم فأضاءت جوانحها من تلك الشخصية المشعة؛ حيث كان رسول الله ﷺ يسرج قناديل الحب في كل نواحي الحياة، فهو الذي إذا دخل بيته تعاطى الحب الزوجي في أجمل صوره، مع شربة الماء يحسوها من القدح الذي شربت منه زوجته، فيتحرى أن يلاقي فمه الطيب موضع فمها بعد أن شربت، وفي لقمة الطعام يتناولها بعد أن أكلت بعضها فيضع فمه حيث وضعت فمها، فيا لله كم من رسائل الحب يحملها هذا التعاطي الجميل، وبذلك تحوَّلت حجراته الصغيرة إلى خزائن كبيرة للحب.

---

(١) «صحيح البخاري» (٢٧٤٢)، و«صحيح مسلم» (١٦٢٨).
(٢) «صحيح البخاري» (١٢٨٤)، و«صحيح مسلم» (٩٢٣).
(٣) «صحيح مسلم» (٥٤).
(٤) «صحيح البخاري» (١٤٨١).

يقرؤون الحب النبوي في عاطفة الأبوة تتدفّق حبًّا في مشهد عناق النبي ﷺ لِبُنَيِّه الحسن وقد ارتمى على صدره فجعل يشمه ويقبله ويعلن حُبَّه فيقول: «**اللهُمَّ إِنِّي أُحِبُّهُ فَأَحِبَّهُ، وَأَحْبِبْ مَنْ يُحِبُّهُ**»(١).

كان الحب يسري في حياتهم وهو ﷺ يتعاطاه معهم، يسكبه في آذانهم؛ فتنتعش به نفوسهم، وتشرق وترف، فها هو يأخذ بيد معاذ فيقول له: «**يَا مُعَاذُ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ**». فيقول معاذ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ الله، وَأَنَا وَالله أُحِبُّكَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ، لَا تَدَعَنَّ أَنْ تَقُولَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ: اللهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**»(٢).

وكان ينثر الحب في طرقات المدينة وسككها، مرَّ مرةً بدُور بني النَّجَّار، فتلقَّاه جواري الأنصار، وجعلن يضربن بالدُّفوف ويتغنَّين ويَقُلْنَ:

نحن جَوارٍ من بني النَّجَّارِ ... يا حبَّذا محمدٌ من جارِ

فقال ﷺ: «**اللهُ يَعْلَمُ أَنَّ قَلْبِي يُحِبُّكُنَّ، اللهُمَّ بَارِكْ فِيهِنَّ**»(٣).

وعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى صِبْيَانًا وَنِسَاءً مُقْبِلِينَ مِنْ عُرْسٍ، فَقَامَ نَبِيُّ الله ﷺ مُمْثِلاً(٤)، فَقَالَ: «**اللهُمَّ أَنْتُمْ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ، اللهُمَّ أَنْتُمْ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ**». يَعْنِي الأَنْصَارَ(٥).

وعنه: جَاءَتِ امْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، قَالَ: فَخَلَا بِهَا رَسُولُ الله ﷺ، وَقَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّكُمْ لَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ**» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ(٦).

---

(١) «صحيح البخاري» (٢١٢٢)، و«صحيح مسلم» (٢٤٢١).
(٢) «سنن أبي داود» (١٥٢٢).
(٣) «سنن ابن ماجه» (١٨٩٩).
(٤) أي: قَائِمًا مُنْتَصِبًا. ينظر: «شرح النووي على مسلم» (١٦/ ٦٨).
(٥) «صحيح البخاري» (٣٧٨٥)، و«صحيح مسلم» (٢٥٠٨).
(٦) «صحيح مسلم» (٢٥٠٩).

وكان الحب يسري في الحياة، مع الأحياء والأموات فهو ﷺ يتحدث عن زوجته خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بعد وفاتها بسنين طوال فيقول: «**إِنَّهَا كَانَتْ وَكَانَتْ، وَإِنِّي قَدْ رُزِقْتُ حُبَّهَا**»[(١)]، وانظر إلى روعة التصوير للحب بأنه رزق، وهبة من كريم هبات الله عَزَّوَجَلَّ.

وكأن هذا الحب يسري إلى مظاهر الطبيعة من حولهم؛ فهذا جبل أحد أشهر معالم مدينتهم الطبيعية يشير إليه ﷺ ويقول: «**هَذَا أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ**»[(٢)].

كان ﷺ يرفع الستور عن هذه العاطفة الجميلة، فبدل أن تكون شعوراً مستكنـًا يستر ولا يشهر إذا به يَستعلن به ويُظهره، ولا يداريه، ويجيب عمرو بن العاص وقد سأله: مَن أحب الناس إليك؟ فيأتي الجواب -سريعـًا كالطلقة-: «**عَائِشَةُ**»[(٣)].

لقد كان ﷺ يعلن بهذا أن الحب كمال إنساني واستواء فطري يُتعاطى ويُشهر فيزيد الحياة جمالاً وبهجة.

وكان يتفنن في التعبير عن الحب، ونثره في فعاليات الحياة، في شربة الماء، وفي لقمة الطعام؛ تقول عائشة: كُنْتُ أَشْرَبُ مِنَ القَدَحِ وَأَنَا حَائِضٌ فَأُنَاوِلُهُ النَّبِيَّ ﷺ فَيَضَعُ فَاهُ عَلَى مَوْضِعِ فِيَّ فَيَشْرَبُ مِنْهُ، وَأَتَعَرَّقُ مِنَ العَرْقِ[(٤)] وَأَنَا حَائِضٌ فَأُنَاوِلُهُ النَّبِيَّ ﷺ فَيَضَعُ فَاهُ عَلَى مَوْضِعِ فِيَّ[(٥)].

يا ألله كم من رسائل الحب تضج في هذه المشاهد وتعلن هذه العاطفة وتعبر عنها!

وعندما أرادت زوجته صفية أن تركب جملها جلس لها حتى تصعد وتكون الدرجة التي تصعد عليها هي رِجلُهُ التي ثناها لها، فوضعت قدمها على ركبته حتى تصعد على جملها[(٦)]،

(١) «صحيح البخاري» (٣٨١٨)، و«صحيح مسلم» (٢٤٣٥).
(٢) «صحيح البخاري» (٤٤٢٢)، و«صحيح مسلم» (١٣٩٢).
(٣) «صحيح البخاري» (٣٦٦٢).
(٤) العَرْق العظم الذي عليه بقية من لحم. ينظر: «شرح النووي على صحيح مسلم» (٣/ ٥٤١).
(٥) «مسند أحمد» (٢٥٥٩٤، ٢٥٧٩٢).
(٦) «صحيح البخاري» (٢٢٣٥).

ولك أن تتخيل شعورها ومشاعرها وهي تصعد جملها ويدها في يده، وقدمها على ركبته، وتعيش مشهد الحب المعلن بمرأى من الناس حوله.

كان ﷺ يتعاطى الحب ويأمر بتعاطيه والإعلان به؛ فقد كان جالساً مع أصحابه فجاء رجل فسلَّم عليه ثم وَلَّى. فقال أحد أصحابه: يا رسول الله والله إني لأحب هذا. فقال: «**هَلْ أَعْلَمتَهُ؟**». قال: لا، قال: «**قُمْ فَأَعْلِمْهُ**». فَقَامَ إِلَيْهِ فَقَالَ: يَا هَذَا، وَالله إِنِّي لَأُحِبُّكَ فِي الله. قَالَ: أَحَبَّكَ الَّذِي أَحْبَبْتَنِي لَه[1].

وكان يقول: «**إِذَا أَحَبَّ الرَّجُلُ أَخَاهُ فَلْيُخْبِرْهُ أَنَّهُ يُحِبُّهُ**»[2].

لقد أصبح الحب عاطفة مبثوثة في حياتهم كلها.

وكما كانوا يرون القدوة في الحب في شخص النبي ﷺ كانوا يتلقون منه التحفيز لنشر الحب وإعلانه في حياتهم.

وهل أعظم من أن جعل النبي ﷺ الحب شرطاً للإيمان: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا تَدْخُلُوا الجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا**»[3].

لذا سرى الحب في حياتهم فإذا النفوس التي كانت في الجاهلية تتوارث الإحن وتُورِّث التِّرات، وتُعمَّر في قلوبها الضغائن والأحقاد تتجاوز ذلك كله، فتعيش عافية نفسية وابتهاجاً مع الحياة ساعدها على تجاوز المشاعر السلبية، وتَخَطِّي الآلام والوثوب إلى الأمام، كانوا في المدينة يتعاطون الحب صنوفاً؛ وكانت مدينتهم تتنفس حباً وتعطر حياتهم بالحب.

ومن أعظم مشاهد الحب المعلنة حب الصحابة للنبي ﷺ وإعلانهم بذلك.

ولما رجع عروة بن مسعود إلى قريش يوم الحديبية جعل يصف لهم حب الصحابة للنبي ﷺ فقال: أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إن رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدا،

(١) «مسند أحمد» (١٢٤٣٠).

(٢) «سنن أبي داود» (٥١٢٤).

(٣) «صحيح مسلم» (٥٤).

والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وما يحدون النظر إليه تعظيماً له[1].

وقال أبو سفيان قبل أن يسلم: ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً[2].

وكان هذا الحب العميق العظيم حبّاً إيمانيّاً ووجدانيّاً استنبته ﷺ بلين المعاملة وحسن الخلق ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

إن النبي ﷺ استنبت الحب في قلوبهم، فأصبح الحب عنوان العلاقة بينهم، والجسر الواصل بينه وبين قلوب أصحابه، ولذلك وصف الصحابة علاقتهم بالنبي ﷺ بأنها الحب: ما كان وجه أبغض إليَّ من وجهك وإن وجهك لأحب الوجوه إليَّ، وما كان دين أبغض إليَّ من دينك وإن دينك لأحب الدين إليَّ، كما في حديث ثُمامة بن أُثال[3]، وعمرو بن العاص[4]، وهند بنت عُتْبة[5]، وهذا يبين أن القناعة في النبي ﷺ لم تكن مجرد قناعة عقلية، بل كانت قناعة عقلية وعاطفة وجدانية وعلاقة مشاعرية.

كما مد أبصارهم إلى أعظم الحب، إلى الحب العظيم المقدس الذي هو حب الله لعباده وحبهم له: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، حتى سمت أشواقهم إلى هذا الأفق الأعلى وهو تطلّبُ حب الله عَزَّوَجَلَّ بما دلهم عليه ﷺ من أسباب ذلك كما في الحديث القدسي أن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: «**وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ**»[6]،

(١) «صحيح البخاري» (٢٧٣١).
(٢) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٢٧٢).
(٣) «صحيح البخاري» (٤٣٧٢)، و«صحيح مسلم» (١٧٦٤).
(٤) «صحيح مسلم» (١٢١).
(٥) «صحيح البخاري» (٣٨٢٥)، و«صحيح مسلم» (١٧١٤).
(٦) «صحيح البخاري» (٦٥٠٢).

وتنزلت آيات القرآن تصف أحباب الله بصفاتهم وأخلاقهم وعباداتهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤]، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦]، ووصف لهم ﷺ محبة الله لعبده وأثرها فقال: «**إِذَا أَحَبَّ اللهُ العَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبْهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فِي الأَرْضِ**»[(١)].

وقد تحققوا بهذه الأوصاف فتلقوا البشائر بحب الله لهم فقال ﷺ عن علي: «**لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَداً رَجُلاً يُفْتَحُ عَلَى يَدَيْهِ، يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ**»[(٢)]، وقال عن الأنصار: «**الأَنْصَارُ لَا يُحِبُّهُمْ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يُبْغِضُهُمْ إِلَّا مُنَافِقٌ، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ اللهُ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ اللهُ**»[(٣)].

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ رَجُلاً عَلَى سَرِيَّةٍ، وَكَانَ يَقْرَأُ لِأَصْحَابِهِ فِي صَلَاتِهِمْ فَيَخْتِمُ بِـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «**سَلُوهُ لِأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ؟**». فَسَأَلُوهُ، فَقَالَ: لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ، وَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللهَ يُحِبُّهُ**»[(٤)].

ويا لله أي أفق قدسي سمت إليه تلك النفوس حيث كانت تمشي على الأرض وقلوبها في الملأ الأعلى، يعاطيها الله حبه، ويأمر به ملائكته ويلقيه في قلوب عباده؟!

إن هذا هو أفق الحب الأعلى والأقدس الذي تسمو إليه تلك النفوس التي لها طهر الملائكة، ولذا تعيش نعيم الحب الأقدس بقلوب تطير إلى الله بحب وشوق، تحب لقاء الله ويحب الله لقاءها.

إن خفقة قلبية من هذا الشعور تغمر نعيم الدنيا كله وتتجاوزه إلى لذائذ قلبية هي من نعيم الجنة يستروحه أحباب الله في دنياهم قبل أن يصيروا إليه في أخراهم.

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٢٠٩)، و«صحيح مسلم» (٢٦٣٧).
(٢) «صحيح البخاري» (٣٠٠٩)، و«صحيح مسلم» (١٨٠٧).
(٣) «صحيح البخاري» (٣٧٨٣)، و«صحيح مسلم» (٧٥).
(٤) «صحيح البخاري» (٧٣٧٥)، و«صحيح مسلم» (٨١٣).

خلاصات:

١- نقل النبي ﷺ الصحابة إلى حياة معطرةٍ بالحب، ونداوة المشاعر وأنسها، بعد أن كانت حياتهم الجاهلية حياة القسوة والجفاء والجفاف.

٢- جعل ﷺ الحب فيما بينهم شعيرة معلنة يتعاطونها بينهم ويبثونها في حياتهم.

٣- نشر ﷺ الحب مع فعاليات الحياة ففي مجالسه وطرقاته وبيته كان يعلن الحب ويتعاطاه.

٤- جعل ﷺ المحبة من لوازم الإيمان فقال: «**وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا**».

٥- كانت علاقة الصحابة بالنبي ﷺ علاقةً وجدانية قلبية كما كانت قناعة عقلية، فكانت قلوبهم تجمع بين صدق اليقين وخالص الحب.

٦- وجه ﷺ الأشواق إلى الحب القدسي الأعلى، حب الله والتطلع إلى محبته، فتحققوا بأوصاف أحباب الله، وتلقوا البشائر بحب الله لهم.

حبنا لرسول الله ﷺ

كيف سيكون الحب لمن علّم الدنيا نقاء الحب وسموّه، وأفشاه وأعلنه، وعلّمنا أن الحب عبادة نتعبد بها لربنا، وعاطفة حيّة نتواصل بها بيننا؟!.

علّم الحب فأحبَّتْه القلوب الواجعة، والعيون الوامقة، وأحبَّتْه الجمادات الصامتة، فجبل أُحُدٍ يحبّه، كما قال ﷺ: «**هَذَا أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ**»(١).

والجِذع يحنّ إليه، فقد كان ﷺ يعتمد عليه إذا خطب، فلمّا اتخذ المنبر وقام على منبره سمِع الناس لِهذا الجذع صوتـًا كصوتِ العِشار(٢)، حتى ارتجّ المسجد بخواره، وكثر بكاء الناس لِما رأوا به، حتى جاء النبي ﷺ فوضع يده عليه فسكت، وقد كان الحسن البصري إذا ذكر حنين الجذع شوقـًا لرسول الله ﷺ يبكي ويقول: يا عباد الله، الخشبة تحن إلى رسول الله ﷺ شوقا إليه لمكانه مِنَ الله، فأنتم أحَقُّ أن تشتاقوا إلى لقائه(٣).

وكيف لا تحنّ إليه قلوبٌ عرفته، فعرفت فيه عظمة الخُلُق، ورقّة الرحمة، وشدة الحرص والشفقة؟!.

كيف لا تتلهف القلوب إلى مَنِ امتزج حبّه لنا بكل عواطفه، فلنا يفرح، وعلينا يحزن، يعزّ عليه ما يُعنِتُنا، ويشُقّ عليه ما يشقّ علينا، ويستبشر ويبشّر بكل هبات الله لنا، ﴿عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ١٢٨].

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٤٢٢)، و«صحيح مسلم» (١٣٩٢).

(٢) العِشار: النُّوق التي مضى على حملها عشرة أشهر.

(٣) «مسند أبي يعلى» (٢٧٥٦).

إذا أحببناه فإنَّ لحبه ﷺ بواعِثَهُ في نفوسنا، فمِن بواعث حبنا له:

أولاً: أن الله عَزَّوَجَلَّ يحبه، فهو أحب الخلق إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وهو خليل الله.

ومن محبة الله عَزَّوَجَلَّ له أنه لما أمرنا أن نصلي عليه لم يقل: «صلّوا عليه» مباشرةً، وإنما قدّم ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، فعندما نصلي عليه فنحن في معية الله الذي يصلي عليه، وعندما نحبه نكون في معية الله الذي يحبه.

ولن يتحقق حبنا للنبي لله إلا إذا أحببنا محبوبه، وأحبُّ محبوبٍ إلى الله نبينا محمد ﷺ، فكيف سيكون شعورك عندما تحب من تعلم أن الله يحبه ويأمر بحبه؟!.

ثانيًا: نحب هذا النبي الكريم لأنه أعظم الخلق إحسانًا لنا وتفضلاً علينا، ولا منّة لمخلوق علينا أعظم من منّته، ولا فضل أعظم من فضله، ولا إحسان أبلغ من إحسانه، فلولاه لكانت أعيننا عُمْيًا، وآذاننا صُمّاً، وقلوبنا غُلفاً، ولكُنّا حطباً في جهنم، فأنقذنا الله به، ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

لقد كان ﷺ هو المستنقذ لنا من الهلكة، ولِذا وصف حاله معنا فقال: «**فَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ**[1] **عَنِ النَّارِ وَأَنْتُمْ تَقَحَّمُونَ فِيهَا**»[2]. وإذا كانت النفوس قد جُبلت على حُب مَن أحسن إليها، «فأيُّ إحسان أجل قَدرا، وأعظم خطَرا، مِن إحسانه ﷺ إلى جميع المؤمنين، وأي إفضال أعم منفعة وأكثر فائدة من إنعامه على كافة المسلمين؟! إذ كان ذريعتَهم إلى الهداية، ومُنقذَهم من العماية، وداعيَهم إلى الفلاح والكرامة، ووسيلتهم إلى ربهم، وشفيعهم والمتكلِمَ عنهم، والشاهد لهم، والمُوجب لهم البقاء الدائم، والنعيم السَّرْمَد»[3].

ثالثًا: نحبه لأنه يحبنا ويشتاق إلينا، ويتمنى رؤية مَن لم يره منا، لقد اشتاق إلينا ونحن في لُجّة الغيب البعيد، فبعث أشواقه ترويها الأجيال للأجيال، خرج إلى المقابر، ووقف على قبور أصحابه الذين مضوا قبله فزارهم ودعا لهم، ثم التفت إلى أصحابه الذين معه فقال لهم:

---

(١) الحُجَز: جمع حُجْزة، وهي موضع شَدِّ الإزار.

(٢) «صحيح البخاري» (٦٤٨٣)، و«صحيح مسلم» (٢٢٨٤).

(٣) «الشِّفا» للقاضي عياض (٢/ ٣٠).

«**وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا**»، قالوا: ألسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال: «**أَنْتُمْ أَصْحَابِي، وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ**»(١). فقد أرسل إلينا حبه وأشواقه، أفلا نحب مَن أحبنا ونشتاق لـمَن اشتاق إلينا؟!.

رابعًا: نحبه لأنه عاش ﷺ ونحن قضيتُه وهمّه، إن دعا دعا لنا، وإن شفع شفع لنا، وإن حزن حزن من أجلنا، وإن فرح فَلِفَرحنا، كانت كل مشاعره متجهة إلى أمته، يرفع يديه على المنبر، ويرفع صوته مناشداً ربه باكيًا متلهفًا: «**اللهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي**»، حتى يرسل الله إليه جبريل: «**يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسُوءُكَ**»(٢).

ولما أحس بقرب وفاته نادى: «**أَلَا وَإِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الحَوْضِ، وَأُكَاثِرُ بِكُمُ الأُمَمَ، فَلَا تُسَوِّدُوا وَجْهِي**»(٣). فهو يودّع أمته، ويتلقاهم عند الحوض ليسقيَهم يوم القيامة، ويناشدُهم بلهفة: إني أنتظركم فلا تُسوِّدوا وجهي، إن الذي يُسوِّد وجهه الأنور كربًا وحزنًا فقدانُ مَن يفقد من أمته التي سيكاثر بها الأُممَ فرحًا وحبًا.

وفي آخر أنفاس حياته ولحظات عمره كانت أمته ﷺ حاضرة في أهم اهتماماته، فلم يوصِ لنفسه، وإنما أوصى أمتَه بأمر دينها الذي يجمعها به، فكانت آخرُ وصاياه مع آخر أنفاس حياته: «**الصَّلَاةَ الصَّلَاةَ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ**»، تتقطّع مع حشرجات نفَسه حتى ما يُبِينُ بها(٤)، فكيف سيكون حبنا لمن يذكرنا بهذا اللهف، وفي هذه الحالة الحرجة والكربة الشديدة، ليُنفِذَ الوصاة لنا، مع آخر لحظات عمره وآخر أنفاس حياته.

وأعظم أمته حبًا له، ومعرفة بحقه هم أصحابه، لأنهم الذين عاشوا معه، وتذوقوا بهجة حبه، ورقّة رحمته، وصفوّ وداده، ولذا كان أحبَّ إليهم من كل محبوب، فهو أحب إليهم من أنفسهم، وآباءهم، وأمهاتهم، وأولادهم، وأنفاسهم، ونفائسهم.

وكان حبهم له عجَب عاجب أصاب أعداءَه بالذهول والدهشة، لأنهم لم يعرفوا منه ما عرفه أصحابه المؤمنون به.

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٤٩).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٠٢).

(٣) يُنظر: «مسند أحمد» (٢٣٤٩٧)، و«سنن ابن ماجه» (٣٠٥٧).

(٤) يُنظر: «مسند أحمد» (٢٦٤٨٣).

فهذا زيدِ بنِ الدَّثِنَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الذي أُسر وبيع لبعض أهل مكة ليقتلوه ثأراً لِمَن قُتل من قرابتهم في بدر، فخرجوا به من الحرم إلى الحِلّ، واجتمع رهط من قريش، فيهم أبو سفيان بن حرب وكان مشركـًا، فقال أبو سفيان لزيد حين قُدِّم ليُقتل: أنشدك الله يا زيد، أتحب أن محمدا عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه، وأنك في أهلك؟ قال: والله ما أحب أن محمدا الآن في مكانه الذي هو فيه تُصيبه شوكة تؤذيه، وأني جالس في أهلي. فقال أبو سفيان بتعجب واندهاش: ما رأيت من الناس أحدا يُحِب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا[1].

وفي عمرة الحديبية، لما صدّت قريش نبينا محمداً ﷺ عن دخول مكة، ونزل النبي ﷺ بالحديبية، جاءه عروة بن مسعود الثقفي وسيطـًا في المفاوضات بينه وبين قريش، وكان حينها مشركـًا، فجلس إلى النبي ﷺ ورأى حفاوة الصحابة به وحبهم له، فرجع إلى قريش مذهولاً بما رأى، وقال لهم: يا قوم، والله لقد وفدت على قيصر في ملكه، وعلى كسرى في ملكه، وعلى النجاشي في ملكه، والله ما رأيت ملكـًا يعظمه أصحابه كما يعظم أصحاب محمد محمداً، إذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدّون النظر إليه تعظيمـًا له، ولقد رأيت قومـًا لا يُسْلِمُونه لشيء أبداً[2].

لقد وفد عـروة على الملوك في ملكهم وأبّهتهم، ورأى جنودهم وحاشيتهم كيف يعظمونهم، ولكنه عرف بفطنته أن ذلك تعظيم خوف أو طمع، أما تعظيم أصحاب رسول الله ﷺ له فتعظيم محبة وإجلال وإيمان، وشتّانَ شتّانَ بين هذا وذاك، ولذا قال لقريش ناصحـًا: لقد رأيت معه قومـًا لا يُسْلِمونه.

ومن مشاهد الحب الفائقة خبرُ عُمر مع جاره الأنصاري حين كانا يتناوبان الحضور عند رسـول الله ﷺ، فيخبر من حضر بخبر رسـول الله ﷺ لـمَنْ لم يحضر، فجاء الأنصاري يومـًا فزِعـًا، وقرع الباب قرعـًا شديداً وهو ينادي: يا عمر، يا عمر. ففزع عمر لفزع جاره، وكانوا يتوقعون وصول جيش من نصارى الغساسنة والـروم لغزو المدينة،

(١) يُنظر: «مختصر السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ١٧٣)، و«تاريخ الطبري» (٢/ ٥٤٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٧٣١).

فنادى عمر قبل أن يصل: هل جاءت غسان؟. فرد عليه الجار الأنصاري: أشد يا عمر. فناداه: وما ذاك؟. وتساءل عمر: يا لله! ما هذا الذي هو أشد من جيش عظيم جاء ليجتاح المدينة، ما هذا الفزع، وما الخبر المفزع؟!. فقال جاره: طلّق رسول الله ﷺ نساءه. وكانت فاجعة أشدّ، فلم يصبر عمر، فشدّ عليه ثيابه وذهب مبكراً إلى المسجد يستجلي الخبر، فإذا رسول الله ﷺ قد صعد إلى مَشرُبَتِه[1]، وأصحابه جلوس حول المنبر يبكون، كأنّ في بيت كل واحد منهم مأتم، لأنهم رأوا أن النبي ﷺ قد اعتزل نساءه، فظنوا أنه طلّقهن[2]، فرأوا أن هذه مصيبةٌ فاجئة فاجعة، أن يختل استقرار البيت النبوي وأن يُزعَجَ خاطرُ النبي ﷺ حتى يعتزل نساءه، ورأوا أن هذا أعظم من غزو الروم لو جاؤوا لحربهم، فقتال الروم أهون عليهم من أن يتكدّر صفو البيت النبوي.

يا لله! أي حب هذا الحب الذي يجعل الصحابة يهون عليهم أمنهم، ولا تهون عليهم سكينة بيت النبوة؟!.

ومن مشاهد حب الصحابة للنبي ﷺ حديثهم إذا حدّثوه ونظرهم إذا نظروا إليه، فكانوا إذا حدّثوه خفضوا أصواتهم تعظيماً وإجلالاً، حتى كان عمر بن الخطاب، وهو القوي الجَهْوَرِيّ، إذا حدّث النبي ﷺ كان حديثه إليه كأخي السرار[3]، أي يخفض صوته كأنه يُسرّ إليه، وإذا جلسوا حوله لا يُحِدّون النظر إليه، وإنما يغضّون أبصارهم هيبة له، حتى قال عمرو بن العاص، وهو الذي صحب النبي ﷺ ثلاث سنين: لو سألتموني أن أصف لكم رسول الله ﷺ ما استطعت أن أصفه لكم، وذلك أني لم أكن أملأ عيني منه[4]. فعمرٌو مع قربه منه ﷺ لم يكن يملأ عينيه من النظر إليه تعظيماً ومهابة له ﷺ.

ومن عظيم حبهم له أنه بقي حيًا في قلوبهم بعد وفاته ﷺ، فعاشوا بقية أعمارهم يذكرونه ويشتاقون إليه، وتذرف دموعهم لوعةً على فقده ولهفة إلى لقائه.

---

(١) المَشْرُبة: الغرفة العالية، يخزن فيها الطعام والمتاع وغيره. ينظر: «شرح النووي على مسلم» (١٢/ ٢٩)، و«فتح الباري» لابن حجر (٨/ ٤٣).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٤٦٨)، و«صحيح مسلم» (١٤٧٩).

(٣) «صحيح البخاري» (٧٣٠٢).

(٤) «صحيح مسلم» (١٢١).

وقف أبو بكر على منبر النبي ﷺ، ثم بكى وقال: قام رسول الله ﷺ عامَ الأولِ على المنبر، ثم بكى، ثم قال: سلوا الله العافية، فإن أحداً لم يُعطَ بعد اليقين خيراً من العافية[١].

وكان ابن مسعود يحدث أصحابه كل خميس، قال عمرو بن ميمون: ما أخطأني ابن مسعود عشية خميس إلا أتيته فيه، قال: فما سمعته يقول لشيء قَطُّ: قال رسول الله ﷺ. فلما كان ذات عشية قال: قال رسول الله ﷺ. فنكس رأسه، فنظرت إليه، فإذا هو قائم محللة أزرارُ قميصه، قد اغرَوْرَقَت عيناه، وانتفخت أوداجه[٢].

إن هذا الانفعال والتأثر من ابن مسعود إنما حصل له لمَّا جَرى ذكرُ النبي ﷺ على لسانه، وهذه الهيبة له وهو يحدث عنه، فكيف حاله حين كان ينظر إليه ويتلقى الحديث منه؟!.

ولما سئل علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كيف كان حبكم لرسول الله ﷺ؟ قال: كان والله أحبَّ إلينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأمهاتنا، ومن الماء البارد على الظمأ[٣].

بل كان الشوق إلى رسول الله ﷺ ينازعهم وهم في نَزْعِ الموت، فهذا بلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما حضرته الوفاة جعلت امرأته تبكي وتقول: وَاحُزناه!. فقال لها: وافَرَحَاه! غداً نلقى الأحبة، محمداً وصحبه[٤]. فهل رأيتَ حباً أصدق وأكمل وأجمل من حب الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لأحق الخلق بحبهم، وصدق ودادهم؟! فصلى الله عليه وسلم، ورضي عنهم وأرضاهم.

ومن شدة حبهم له أحبوا ما يحبه ﷺ، وتشبَّهوا به في أحواله، وأبقوا بقاياه، وعاشوا معها وبها.

فهذا أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يذهب مع النبي ﷺ إلى دعوة خياطٍ دعا النبي ﷺ، ثم قدّم لهم مرَقةً فيها قرع[٥]، فرأى أنس النبي ﷺ يأكل من تلك الدُّبَّاءِ ويتَتَبَّعُها، وقد أعجبته، فجعل أنسٌ يقرّبها له ويلقيها إليه، قال أنس: فما زلت بعد ذلك يُعجِبني الدُّبّاء،

(١) «سنن ابن ماجه» (٣٨٤٩)، و«جامع الترمذي» (٣٥٥٨).
(٢) «سنن ابن ماجه» (٢٣).
(٣) «الشفا» للقاضي عياض (٢/ ٢٢).
(٤) «المحتضَرون» لابن أبي الدنيا (٢٩٤).
(٥) القرع ويسمَّى الدُّبّاء.

وما صُنِع لي طعام بعد أقدر على أن يصنع فيه دُبَّاء إلا صُنِع[1]. فانظر كيف أحب أنس القرع، وصارت تعجبه، ويتحرّى أن تُوضع له في طعامه، لأنه رأى النبي ﷺ أحبَّها، فأحبَّ ما أَحَبَّ رسول الله ﷺ، مع أن هذا أمر راجع للطبيعة والتذوق، ولكن شدة المحبة جعلتهم يجدون ذَواقًا لما يحبه النبي ﷺ ويتذوقه، فإذا كان هذا في الطعام، وهو شأن ذوقي خاص، فما الظن بتأسّيهم به في العبادات والأخلاق والأحوال؟!.

ومن المحبة تشبّههم به في الحال التي يرونه عليها، فعن معاوية بن قرة عن أبيه قال: أتيت النبي ﷺ في رهط من مُزَينة، فبايعوه، وإنه لمطلق الأزرار. قال عروة[2]: فما رأيت معاوية ولا ابنه في شتاء ولا حَرٍّ يُزرِّرَان أزرارهما أبداً[3].

فانظر إلى شدة تعلقهم بالنبي ﷺ وحبهم له، وللحال التي رأوه عليها، فقد اتفق أنهم أتوه وهو محلول الأزرار، وما كان هذا شأنه دائمًا، لكنِ اتَّفق قدومهم عليه وهو على هذه الحال، إما لشدة الحر أو نحو ذلك، فالتزموا هذه الحال التي رأوه عليها من شدة حبهم له ومتابعته على حاله تلك التي رأوه عليها.

وهذا أبو محذورة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لقي النبي ﷺ وهو فتى حين رجع من حنين، فعلّمه النبي ﷺ الأذان، وأعطاه صرّة فيها مال، ومسح بيده على ناصيته، ثم أمرَّها على وجهه ثم على صدره حتى بلغت يدُ النبي ﷺ سُرَّتَه، ثم قال له: «**بَارَكَ اللهُ فِيكَ، وَبَارَكَ عَلَيْكَ**»[4]. وعاش أبو محذورة إلى أن مات لم يحلق رأسه، وكان إذا ألقى شعر ناصيته أمامه وقع في حِجْرِه، لأنّ رسول الله ﷺ مسح عليها بيده[5].

إن هذا مشهد الحب العميق، الذي يريد أن يستصحب أثر رسول الله ﷺ ولمسة يده لتعيش معه بقية عمره لا تفارقه، فإذا كان هذا وقع لمسة يده على قلوبهم، فكيف بقراءة القرآن على مسامعهم، ورؤية أنوار وجهه في عيونهم، وإشراق ابتسامته على نفوسهم؟! وما مكانة دينه وهداه في حياتهم؟!.

---

(١) «صحيح البخاري» (٢٠٩٢، ٥٤٢٠، ٥٤٣٥)، و«صحيح مسلم» (٢٠٤١).

(٢) هو عروة بن عبد الله راوي الحديث عن معاوية بن قرة.

(٣) «سنن أبي داود» (٤٠٨٢).

(٤) يُنظر: «مسند أحمد» (١٥٣٨٠)، و«سنن ابن ماجه» (٧٠٨).

(٥) «معجم الصحابة» للبغوي (١/ ٢١٦).

كيف نزيد محبة النبي ﷺ في قلوبنا؟

لقيت في المكسيك شاباً لم يمضِ على إسلامه سبعة أشهر، وفاجأني بسؤاله: كيف أزيد محبتي للرسول ﷺ؟ فبشّرته أن سؤالك هذا علامة صادقة على حبك للنبي ﷺ، ولكن الحب عاطفة نامية، وسيزداد حب المحبين كما يزداد إيمان المؤمنين: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: ٣١].

ومن أقوى وسائل زيادة المحبة للنبي الكريم ﷺ:

١- التعرف عليه، وقراءة سيرته وسنته، والتعرف على شمائله وأخلاقه وهديه، وكلَّما ازددتَ معرفة به ازددتَ حباً له.

ولذا وجدنا أن نقطة التحول العاطفي عند مَن آمنوا بالنبي ﷺ وأحبوه كانت تعرّفَهم عليه، ولذا فإن ثُمامةُ بن أَثال، الذي راقب النبي ﷺ ثلاثة أيام وهو أسير في مسجده، لما أُطلق سراحه وملك حريته أسلم ثم قال للنبي ﷺ: والله ما كان على وجه الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك، وإن وجهك اليوم لأحب الوجوه إليّ[(١)].

وقال عمرو بن العاص: ما كان أحد أشد بغضاً لرسول الله ﷺ مني، ولا أَحبَّ إليّ أن أكون استمكنت منه فقتلته، ولكنه لما أسلم قال: ما كان أحد أحب إليّ من رسول الله ﷺ، ولا أجلّ في عيني منه[(٢)].

وهذا التحول في المشاعر صنعته المعرفة بحال النبي ﷺ، فكل أحواله داعية إلى حبه، ولذا فزيادة المحبة له تكون بزيادة التعرف عليه، وقراءة سيرته وحديثه، وما صح من سنته.

٢- التفكر في نعمة الهداية التي وصلتنا بدعوته، فلولا جهده وصبره وجهاده لَما وصلتنا الهداية، فقد كنا على شفير حفرة من النار، فأنقذنا الله به منها، ولولا دعوته الدائمة الدائبة لَكُنا في متاهة الجاهلية، نصارى نغدو إلى كنيسة، أو يهوداً نغدو إلى كنيس، أو مشركين نجثو عند أصنام، فلله الحمد على هدايته، ولنبينا الأجر والشكر على دعوته.

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٣٧٢)، و«صحيح مسلم» (١٧٦٤).

(٢) «صحيح مسلم» (١٢١).

٣ - التفكر في شفقته على أمته، ورحمته بهم، وشدة مناشدته ربه من أجلهم، وحمل هم الأمة في الدنيا والآخرة، ومَن عرف هذه الرأفة والرحمة بالأمة علم أنها تفُوق رحمة الأب الشفوق والأم الحانية، وقرأ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «النبيُّ أَوْلَى بالمؤمنين من أنفسهم، وهو أبٌ لهم، وأزواجه أمهاتهم»(١). وقال ﷺ: «**إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ بِمَنْزِلَةِ الْوَالِدِ أُعَلِّمُكُمْ**»(٢).

٤- اللهج بذكره، وذلك بكثرة الصلاة والسلام عليه، فإن مَن أحب شيئًا أكثر من ذكره، والصلاة عليه صِلة به بعد موته، فقد قال ﷺ: «**مَا مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمْ عَلَيَّ إِلَّا رَدَّ اللهُ عَلَيَّ رُوحِي حَتَّى أَرُدَّ عليه السلام**»(٣). وقال: «**إِنَّ للهِ مَلَائِكَةً سَيَّاحِينَ فِي الْأَرْضِ يُبَلِّغُونِي عَنْ أُمَّتِي السَّلَامَ**»(٤). فالمصلي المُسَلِّم عليه متصل به بالصلاة والسلام، كما أن الصلاة عليه استمدادٌ لصلاة الله المباركة عليك، كما قال ﷺ: «**مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْراً**»(٥).

٥- الاقتداء به في كل ما يُشرع الاقتداء به فيه، فهو القدوة والأسوة، ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، والعمل بما نعلمه من سنته، قال الإمام أحمد: ما كتبت حديثا إلا وقد عملت به ولو مرة، لِئَلّا يكون علي حجة(٦).وبهذا الاقتداء والتأسي يكون النبي ﷺ حاضراً في حياتنا.

وهذا الحب لرسول الله ﷺ هو بُرهان الإيمان، وعلامة تحققه وتحقيقه، ولِذا فلا حقيقة لإيمانٍ لا يُصاحبه الحب الصادق العميق لرسول الله ﷺ، قال ﷺ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**»(٧).

---

(١) «التمهيد» لابن عبد البر (٧/ ٣٢٨).
(٢) «سنن أبي داود» (٨).
(٣) «مسند أحمد» (١٠٨١٥)، و«سنن أبي داود» (٢٠٤١).
(٤) «مسند أحمد» (٣٦٦٦)، و«سنن النَّسائي» (١٢٨٢)، و«صحيح ابن حِبّان» (٩١٤).
(٥) «صحيح مسلم» (٣٨٤).
(٦) «أدب الإملاء والاستملاء» للسَّمعاني (١٠٩).
(٧) «صحيح البخاري» (١٥)، و«صحيح مسلم» (٤٤).

ولما قال عمر: يا رسول الله، لأنت أحبُّ إليَّ من كل شيء إلا من نفسي قال ﷺ: «**لَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ**». فقال له عمر: فإنه الآن، والله، لَأنتَ أحب إلي من نفسي، فقال النبي ﷺ: «**الآنَ يَا عُمَرُ**»(١).

ولهذا الحب مكانته وله جزاؤُه ومثوبته، فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بينما أنا ورسول الله ﷺ خارجَان من المسجد لقيَنا رجلٌ عند سُدّة المسجد(٢)، فقال: يا رسول الله، متى الساعة؟ فقال ﷺ: «**وَيْحَكَ، وَمَا أَعْدَدْتَ لِلسَّاعَةِ؟**»، فكأن الرجل استكان وفوجئ بالسؤال، فقال: والذي بعثك بالحق نبيًّا ما أعددت لها كثير عمل أحمدُ عليه نفسي من صَلَاةٍ، وَلَا صِيَام، وَلَا صَدَقَةٍ، ولكني أحب الله ورسوله. فقال رسول الله ﷺ: «**فَأَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**». فقال أصحاب رسول الله ﷺ: ونحن كذلك يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «**وَأَنْتُم**». قال أنس: فما رأيت أصحاب رسول الله ﷺ فرحوا بشيء بعد الإسلام ما فرحوا بهذا من قول رسول الله ﷺ، فنحن نحب رسول الله ﷺ ولا نستطيع أن نعمل كعمله، فإذا كنا معه فحسْبنا، وإني لأرجو أن أكون مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر لحبي إياهم وإن كنت لأقصر عن أعمالهم(٣).

وهكذا يضج أصحاب رسول الله ﷺ فرحًا بهذه البشرى النبوية حين يخبرهم النبي ﷺ أن الحب عاطفة لها مكانتها ومثوبتها، وأن المحب قد يدرك بمحبته ما يعجز عن إدراكه بعمله(٤).

وسيبقى حب هذا النبي ﷺ متواصلاً عبر الزمن، تتوارثه القلوب المؤمنة جيلاً بعد جيل، وستمتد الأشواق إليه ﷺ في آماد الزمن، وآفاق الأرض، ما دام في الأرض إسلام وإيمانٌ، قال ﷺ: «**مِنْ أَشَدِّ أُمَّتِي لِي حُبًّا نَاسٌ يَكُونُونَ بَعْدِي، يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ رَآنِي بِأَهْلِهِ وَمَالِهِ**»(٥).

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٦٣٢).

(٢) سُدة المسجد: بابه.

(٣) يُنظر: «مسند أحمد» (١٣٣١٦)، و«صحيح البخاري» (٦١٧١، ٧١٥٣)، و«صحيح مسلم» (٢٦٣٩)، و«صحيح ابن حِبّان» (١٠٥).

(٤) «إنسانيات محمد ﷺ» خالد محمد خالد (١٠٤).

(٥) «صحيح مسلم» (٢٨٣٢).

خلاصات:

١- نحب النبي ﷺ لأن الله يحبه، فهو خليل الله وحبيبه، فنحبه في الله.

٢- نحب النبي ﷺ لأنه أعظم الخلق إحساناً إلينا ومعروفاً علينا.

٣- ونحبه لأنه كما صاحبنا في الدنيا بشفقته وبرّه فسيتلقانا في الآخرة، فهو الشافع لنا في كرب يوم القيامة، وهو سابقنا الذي ينتظرنا على الحوض، وهو المستفتح لنا باب الجنة، وهو الحاشر الذي يُحشر الناس على عقبه.

٤- نحبه لأنه بادلنا حبّاً بحب، وشوقاً بشوق، فتمنى رؤيتنا قبل أن نوجد في هذه الحياة.

٥- ونحبه لِما وهبه الله من صفات الكمال والجلال والعظمة، فهو الحقيق بأن يُحَبَّ.

٦- أعظم حب للنبي ﷺ وأصدقُه كان حبَ الصحابة له ﷺ، فكان أحب إليهم من آبائهم وأمهاتهم وأولادهم، ومن أنفسهم التي بين جوانحهم.

٧- وكما أحب الصحابة النبي ﷺ فقد أحبَّتْه مظاهرُ الطبيعة حوله، الجامدةُ الصامتة، فجبل أُحد يحبه، وجذع النخلة يحنّ إليه.

٨- محبتنا للنبي ﷺ عبادة من أعظم العبادات، لا يتحقق الإيمان إلا بتحقيقها، «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**»[1].

٩- محبة النبي ﷺ هي وسيلتنا إلى مرافقته، والعلو إليه في منزلته، فالمرء مع مَن أحب.

١٠- أن المحب قد يُدرِك بمحبته ما يعجز عن إدراكه بعمله.

(١) «صحيح البخاري» (١٥)، و«صحيح مسلم» (٤٤).

الرسول ﷺ والغضب

إن المساحة الواسعة في حياة النبي ﷺ هي مساحة الرضا والحلم، واحتمال الأذى، والصبر على جهل الناس وجفائهم، فإذا حصل الغضب منه في مواقف فإنه الاستثناء النادر القليل في سعة حياة النبي الهادئة الرضية، فهو الذي أوصى فقال: «**لَا تَغْضَبْ**»[1]، وهو القائل: «**لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ**[2]**، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ**»[3].

ولذا نجد النبي ﷺ قد تعرض لمثيرات تستفز الغضب وتثير الانفعال ولكنه احتواها بالحلم الواسع والصبر الجميل، فها هو ﷺ يسير وعليه برد نجراني غليظ الحاشية قد ارتداه فأداره على عنقه وألقى طرفه على عاتقه، فأدركه أعرابي من خلفه وجذب الرداء جذبة شديدة فأثرت حاشية الرداء في صفحة عنق النبي ﷺ، وارتد النبي ﷺ إلى الخلف فكاد أن يقع على قفاه، وانشق الرداء من شدة جذبة الأعرابي، ثم نادى الأعرابي رسولَ الله ﷺ قائلاً: مُرْ لِي مِنْ مَالِ الله الَّذِي عِنْدَكَ[4].

فانظر كم جمع هذا الأعرابي في هذا الموقف من جفاء القول والفعل؟! إن كل واحد من هذه المثيرات كاف في استثارة الغضب وإهاجة الانفعال، ولكن نبيك ﷺ ملك نفسه، وسيطر على انفعاله بغاية السكينة وحسن الخلق، والتفت إلى الأعرابي، وتبسم في وجهه، وأمر له بعطاء.

---

(١) «صحيح البخاري» (٦١١٦).

(٢) الصُّرَعَة: المبالغ في الصراع الذي لا يُغلب. ينظر: «النهاية» (٣/ ٢٣).

(٣) «صحيح البخاري» (٦١١٤)، و«صحيح مسلم» (٢٦٠٩).

(٤) «صحيح البخاري» (٣١٤٩)، و«صحيح مسلم» (١٠٥٧).

إن هذا الاقتدار على ضبط الانفعال وامتلاك السيطرة على ردات الفعل، هو التفسير العملي لقوله ﷺ: «**إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ**». فأي امتلاك للنفس أقوى وأرضى وأهدى من ذلك؟

إنك تدهش وأنت تتأمل هذا المشهد النبوي لتقول: لو أن أحداً فكر طويلا عن أفضل وأجمل ردَّةِ فعلٍ يمكن أن تصدر ممن يتعرض لهذا الموقف فلن يجد أروع وأجمل من ردة فعل النبي ﷺ هذه، والتي تمت بطريقة فورية تلقائية، فقد التفت ولم يعرض، وابتسم ولم يغضب، وأعطى ولم يعاقب.

وها هو ﷺ يرسل خادمه أنسـًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حاجة فمر بصبيان يلعبون في الطريق فقام يلعب معهم وترك ما أرسله النبي ﷺ له، فما فَجِأَهُ إلا وإنسان يمسكه من خلفه فرفع رأسه فإذا رسول الله ﷺ قائم يضحك ويقول: «**يَا أُنَيْسُ، أَذَهَبْتَ حَيْثُ أَمَرْتُكَ؟**». قال: نَعَمْ، أَنَا أَذْهَبُ يَا رَسُولَ الله[1].

إن هذا التصرف من أنس وانشغاله باللعب عن الحاجة التي أرسل لها مما يثير غضب الأب لو فعله ابنه فكيف إذا فعله خادمه؟! ولكن النبي ﷺ الذي وجد الفتى يلعب في الطريق أمسكه من خلفه وهو يضحك حتى يسكب في قلبه السكينة والأمان فلا يفزع، ثم طرح العتاب على شكل تساؤل: «**يَا أُنَيْسُ، أَذَهَبْتَ حَيْثُ أَمَرْتُكَ؟**».

وبأبي هو وأمي لقد كان يعلم أنه لم يذهب، وأنه كان في لعبه ولهوه مع أترابه، لكنه لم يطرح الأمر بتوبيخ وتعنيف فيقول: كيف أرسلك ثم تلعب في الطريق وتدع ما أرسلتك إليه؟! ولكن سأله ضاحكا: «**أَذَهَبْتَ حَيْثُ أَمَرْتُكَ؟**» ثم تركه.

ولذا بقي هذا الموقف الجميل راسخـًا في ذاكرة أنس يذكره عن رسول الله ﷺ بتلذذ وابتهاج.

لكنه ﷺ قد يغضب أحيانـًا ويظهر أثر الغضب عليه، ولكنه في غاية الامتلاك لنفسه عند الغضب، فعندما قسم غنائم حنين أعطى من الخُمسِ ناسـًا من أشراف العرب يتألفهم ويستطيب نفوسهم فقال رجل: والله إن هذه لقسمة ما عُدل فيها وما أُريد بها وجه الله،

(١) «صحيح مسلم» (٢٣١٠).

فأبلغ ابنُ مسعود رسول الله ﷺ بذلك فغضب رسول الله ﷺ وتغيّر وجهه حتى كأنه الصبغ الأحمر ثم قال: «**فَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ يَعْدِلِ اللهُ وَرَسُولُهُ؟! رَحِمَ اللهُ مُوسَى، قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ**»(١).

لقد غضب النبي ﷺ غضبًا شديداً، وَاحْمَرَّ وجهه حتى أشفق عليه ابن مسعود وقال: تمنيت أني لم أذكره له.

وإن مما نلاحظه أن النبي ﷺ في هذا الموقف كان في غاية قوته؛ فقد فتح مكة وانتصر على هوزان وحاز غنائمهم ومعه نحو خمسة عشر ألف مقاتل، فهو في غاية القوة والتمكين، ومع ذلك ومع شدة غضبه من هذه المقالة فإنه لم يسأل عن قائلها من هو؟! ولم يأمر بإحضاره، فضلا عن توبيخه أو عقابه، وإنما كظم غيظه، وملك غضبه، وتَعزَّى بصبر أولي العزم من أنبياء الله قبله.

بل إن هذا الكلام الذي بلغ النبي ﷺ في شأن القسمة قد وُوجهَ به النبي ﷺ مباشرة، فقد جاءه رجل وهو في الجعرانة منصَرفه من حُنين، وفي ثوب بلال فضة ورسول الله ﷺ يقبض منها ويعطي الناس، فقال الرجل: يا محمد اعدل، فقال ﷺ: «**وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ؟ لَقَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ**»(٢). فقال عمر بن الخطاب: دعني يا رسول الله فأقتل هذا المنافق، فقال ﷺ: «**مَعَاذَ اللهِ أَنْ يَتَحَدَّثَ النَّاسُ أَنِّي أَقْتُلُ أَصْحَابِي**»(٣).

لقد كانت كلمة هذا الرجل جائرة جافية، فهي غمز في عدل النبي ﷺ في قسمته هذه واتهام له بالجور والحيف في القسمة وعدم العدل فيها، ثم إنه كان في غاية الجفاء وسوء الأدب في خطاب النبي ﷺ، فلم يقل: يا رسول الله، وإنما قال: يا محمد، ومع ذلك لم تكن هذه الاستثارة سببًا لينفس النبي ﷺ عن غضبه بعقوبة أو انتقام، بل إن الصحابة لما غضبوا لرسول الله ﷺ واستأذنوا في قتل الرجل نهاهم، وبيَّن لهم أن محافظته على سمعته، وعلى مصلحة الدعوة أهم من التشفِّي وإنفاذ الغضب.

---

(١) «صحيح البخاري» (٣١٥٠)، و«صحيح مسلم» (١٠٦٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٦١٠)، و«صحيح مسلم» (١٠٦٣).

(٣) «صحيح مسلم» (١٠٦٣).

وقد كان ﷺ يغضب إذا تعرض لما يثير غضبه، ويغضب حتى يعرف الغضب في وجهه الشريف فيتلون الوجه الأزهر بالحمرة حتى وصفوه فقالوا: كأنما يُفْقأُ في وجهه حب الرمان[١]، ويحمر حتى يكون كالصبغ الأحمر[٢]، إلا أنه ﷺ في كل مواقف غضبه وشدة انفعاله في غاية الامتلاك لنفسه، فهو في حال الغضب أبعد ما يكون عن الفحش في قوله، وعن الطيش في فعله.

وعندما ننظر إلى مثيرات غضبه ﷺ فإن الجامع الغالب لها هو الغضب لله أن تنتهك محارمه أو تتعدى حدوده، وبخاصة إذا كان ذلك هو التعدي على الناس أو الإضرار بهم، كما غضب على أسامة حين قتل من قال لا إله إلا الله، وعلى أبي ذر حينما عيّر رجلا بأمه، وعلى معاذ حين كان يطيل صلاته بالناس، وعلى الرجل الذي رآه لابسًا خاتمًا من ذهب فغضب ونزعه من يده وألقاه في الأرض فعَن ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ رَأَى خَاتَمًا مِنْ ذَهَبٍ فِي يَدِ رَجُلٍ، فَنَزَعَهُ فَطَرَحَهُ، وَقَالَ: «**يَعْمِدُ أَحَدُكُمْ إِلَى جَمْرَةٍ مِنْ نَارٍ فَيَجْعَلُهَا فِي يَدِهِ**». فَقِيلَ لِلرَّجُلِ بَعْدَ مَا ذَهَبَ رَسُولُ الله ﷺ: خُذْ خَاتِمَكَ انْتَفِعْ بِهِ، قَالَ: لَا وَالله، لَا آخُذُهُ أَبَداً وَقَدْ طَرَحَهُ رَسُولُ الله ﷺ[٣]، ونحو ذلك.

وأما الغضب لنفسه والانتصار لها فحسبنا وصف أمنا عائشة رضي الله عنها له حين قالت: مَا ضَرَبَ رَسُولُ الله ﷺ شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ، وَلَا امْرَأَةً وَلَا خَادِمًا، إِلَّا أن يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ الله، وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ إِلَّا أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ الله فَيَنْتَقِمَ لله عز وجل[٤]، وقال أنس: لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ سَبَّابًا، وَلَا فَحَّاشًا، وَلَا لَعَّانًا، كَانَ يَقُولُ لِأَحَدِنَا عِنْدَ المَعْتَبَةِ: «**مَا لَهُ تَرِبَ جَبِينُهُ**»[٥]، وهذه كلمة تقولها العرب جرت على ألسنتهم، أي سقط جبينه للتراب، وهي كلمة تجري على ألسنتهم ولا يريدون حقيقتها.

(١) «سنن ابن ماجه» (٨٥).
(٢) «صحيح مسلم» (١٠٦٢).
(٣) «صحيح مسلم» (٢٠٩٠).
(٤) «صحيح مسلم» (٢٣٨٢).
(٥) «صحيح البخاري» (٦٠٣١).

وجاء في صفته ﷺ: لا تغضبه الدنيا وما كان لها، فإذا تُعرِّض للحق لم يعرفه أحد، ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له، لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها[1].

وكان ﷺ إذا بدرت منه بادرة غضب بشرية ثم رأى في الرجوع عنها خيراً سارعَ إلى الرجوعَ لما هو خير، ولم يأنف أو يستنكف أن يراجع ما قال ويرجع عنه، فقد جاءه أبو موسى الأشعري مرسلاً من أصحابه الأشعريين يسأله الحملان معه في جيش العسرة فقال: يا نبي الله إن أصحابي أرسلوني إليك لتحملهم، فقال: «**وَاللهِ لَا أَحْمِلُكُمْ، وَمَا عِنْدِي مَا أَحْمِلُكُمْ**». قال: ووافقته غضبان ولا أشعر، فرجعت إلى أصحابي فأخبرتهم بالذي قال النبي ﷺ، فلم يلبث إلا قليلاً حتى دعاهم رسول الله ﷺ فأعطاهم ستة أبعرة ابتاعها لهم، وقال: إن رسول الله يحملكم على هؤلاء فاركبوهن، فلما أخذوهن تحدثوا بينهم فقالوا: غافلنا رسول الله ﷺ عن يمينه، لا يبارك لنا فيهن، فلو رجعنا فَذَكَّرناه يمينه، فرجعوا فقالوا: يا رسول الله إنك حلفت أن لا تحملنا، فقال ﷺ: «**إِنِّي وَاللهِ إِنْ شَاءَ اللهُ لَا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ، فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْراً مِنْهَا، إِلَّا أَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ، وَتَحَلَّلْتُهَا**»[2].

إن الغضب النبوي في هذا الموقف هو الحالة الاستثنائية التي تُبرز عظمة القاعدة العامة في حال النبي ﷺ، الذي كان شديداً في امتلاك نفسه عند الغضب. وليتضح من هذا الموقف الاستثنائي أنَّ صَفْح النبي ﷺ وحِلْمه في مواقف الغضب ليس لكونه ذا طبيعة ملائكية لا تقبل هذا الانفعال، بحيث يستثار فلا يغضب، بل لأنه كان يغضب كما يغضب البشر، ولكنه يملك نفسه عند الغضب، فيكظم الغيظ ويعفو ويُحسن. وكانت عظمته الأخلاقية تجعله مسيطراً على انفعالاته في أحواله كلها.

ومن شفقته على أمته ورحمته بأصحابه أن دعا ربه أن يجعل ما يصدر منه في حال الغضب من دعوة على أحد من أمته صلاةً ورحمةً فقال لأم سليم: «**يَا أُمَّ سُلَيْم، أَمَا تَعْلَمِينَ أَنِّي اشْتَرَطْتُ عَلَى رَبِّي فَقُلْتُ: إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَرْضَى كَمَا يَرْضَى الْبَشَرُ، وَأَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ، فَأَيُّمَا أَحَدٍ دَعَوْتُ عَلَيْهِ مِنْ أُمَّتِي بِدَعْوَةٍ لَيْسَ لَهَا بِأَهْلٍ أَنْ يَجْعَلَهَا لَهُ طَهُوراً، وَزَكَاةً، وَقُرْبَةً يُقَرِّبُهُ بِهَا مِنْهُ يَوْمَ القِيَامَةِ؟**»[3].

(١) «الشمائل» للترمذي (٢١٥).

(٢) «صحيح البخاري» (٣١٣٣)، و«صحيح مسلم» (١٦٤٩).

(٣) «صحيح مسلم» (٢٦٠١).

إن الدعاء الذي يبدر من النبي ﷺ على أصحابه حال الغضب هو من جنس ما كان يجري على ألسنة العرب من غير أن يقصدوا حقيقته كقولهم: تربت يمينك، رغم أنفك، ونحو ذلك، ومع ذلك سأل النبي ﷺ ربه أن تكون هذه الدعوة طهوراً وقربة وزكاة لمن قيلت له.

فما أرق هذه الرحمة في قلب هذا النبي الرؤوف الرحيم، وما أعظم بركة هذا النبي ﷺ على أمته، حتى تكون دعوته على من أغضبه طهوراً وزكاة وقربة!

إن مواقف غضبه ﷺ تبين لنا أنها الاستثناء القليل النادر في سعة حلمه، وأنه إذا غضب كما يغضب البشر فهو الذي يملك نفسه عند الغضب، فلا طيش ولا اهتياج، وإنما غاية الاقتدار في امتلاك الانفعال، وحسن إدارة الغضب إذا غضب.

إن قلة الغضب من النبي ﷺ دليل على قوة نفسه، وغضبه لله دليل على قوة إيمانه، ووقوع الغضب البشري منه أحياناً لبيان التأسِّي به، بحيث لا يدفع الغضب إذا وقع إلى تجاوزٍ للحد أو بغيٍ أو لجاجة، فهو سريع الفيئة، لا تملكه كلمة قالها عند الغضب: «**إِنِّي وَاللهِ -إِنْ شَاءَ اللهُ- لَا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ، فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْراً مِنْهَا، إِلَّا أَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَتَحَلَّلْتُهَا**»[1].

كما أن الغضب النبوي في هذه المواقف جزء من الطبيعة البشرية، ظهر من النبي الكريم ﷺ؛ ليؤكد اللافتة الضخمة في أداء النبي ﷺ لدعوته: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣]، فيحدث منه الانفعال الغضبي؛ ليشرِّع لأمته ما تفعله حال الغضب، كما يَعْرِض له النسيان؛ ليُشرِّع لأمته ما تفعله حال النسيان، ولتعلم الأمة عظيم حكمة الله تعالى يوم جعل الرسالة والقدوة للبشر بشراً مثلهم، له غرائزهم ومشاعرهم وانفعالاتهم، ليكون قدوة لهم فيما يصدر منهم في لحظة الانفعال هذه.

إن الغضب إذا تغلب على الإنسان وملكه فهو شعبة من الجنون يدفعه إلى البغي والبطش والعدوان، ولذا فهي لحظة ضعف يستغلها الشيطان ليدفع الإنسان إلى تصرف طائش يطول عليه ندمه بعد أن يزول غضبه، ولذا أرشد ﷺ إلى الاستعاذة من الشيطان حال الغضب، فقد رأى رجلين يستبّان وقد احمر وجه أحدهما من الغضب فقال: «**إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً، لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ الَّذِي يَجِدُ**». فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ رجُلٌ فَأَخْبَرَهُ بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ وَقَالَ:

(١) «صحيح البخاري» (٥٥١٨)، و«صحيح مسلم» (١٦٤٩).

«**تَعَوَّذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ**». فَقَالَ: أَتُرَى بِي بَأْسٌ، أَمَجْنُونٌ أَنَا، اذْهَبْ[1]، وهذا من شدة الانفعال، وغياب الرشد حالة الغضب.

وأرشد ﷺ إلى السكوت حال الغضب فقال: «**إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْكُتْ**»[2]، وذلك أن الإنسان حال الغضب يفقد السيطرة على منطقه واختيار كلماته، فقد يتسرع بطلاق يندم عليه، أو يتلفظ بلعن أو سب يجلب عداوة ويثير فتنة.

وأرشد إلى السكون فقال ﷺ: «**إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ، فَإِنْ ذَهَبَ عَنْهُ الغَضَبُ وَإِلَّا فَلْيَضْطَجِعْ**»[3]، وفي ذلك كف للإنسان أن يتداعى به الغضب إلى تصرفات فيها بطش وطيش وإيذاء لنفسه أو لغيره، فإن القائم متهيئ للحركة والبطش، والقاعد دونه، والمضطجع دونهما، فأمر بالقعود أو الاضطجاع حتى لا تبدر منه بادرة يندم عليها[4].

خلاصات:

١- المساحة الواسعة في حياة النبي ﷺ هي مساحة الحلم واحتمال الأذى، وحالات الغضب هي الاستثناء النادر.

٢- يغضب النبي ﷺ أحياناً وتظهر علامات الغضب على ملامحه، ولكنه في غاية الاقتدار على امتلاك نفسه عند الغضب.

٣- إذا بدرت منه بادرة عند غضبه ثم رأى في الرجوع خيراً سارع إلى الرجوع وأتى الذي هو خير.

٤- ومن شفقته على أمته اشتراطه على ربه أن يجعل دعاءه على من دعا عليه حال غضبه بدعوة وليس لها بأهل، طهوراً وزكاة وبركة.

٥- لحظات الانفعال والغضب التي تحدث منه ﷺ تبين أنه يغضب كما يغضب البشر، وأن حلمه لقوة امتلاكه نفسه.

٦- حذر ﷺ من الغضب بكبت ما يثيره، وعدم الاستجابة لثورة انفعاله.

٧- أرشد ﷺ إلى وسائل تهدئة الغضب وإطفاء ثائرته والسيطرة على انفعاله.

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٠٤٨).

(٢) «مسند أحمد» (٢١٣٦).

(٣) «سنن أبي داود» (٤٧٨٢).

(٤) «معالم السنن» (٤/ ١٠٨).

الرسول ﷺ والجمال

إن الله جميل يحب الجمال، ولذا خلق الكون جميلاً مُزَيناً: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: ٥]، وخلق الإنسان جميلاً: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، وجعل في الحيوان جمالاً: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: ٦]، وفي الأشجار جمالاً، في قوامها وثمارها: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ [سورة ق: ١٠]، وجعل في نبات الأرض جمالاً وبهجة: ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ [النمل: ٦٠].

وجعل حُب الجمال فطرةً في النفوس السوية، تُعجَب به، وتتطلبه وتهفو إليه، ولذا فإن لنبينا ﷺ مع الجمال حال تتضح في معالم منها:

١- أنه ﷺ كان جميلاً في خَلْقه فما وقعت عين من رآه على أجمل منه خَلْقا وأعظم خُلقا، يقول جابر بن سمرة رضي الله عنه: رأيت رسول الله ﷺ ليلة البدر فجعلت أنظر إلى رسول الله ﷺ وإلى القمر فلرسول الله ﷺ أجمل من القمر[١].

ولما قال رجل لجابر بن سمرة: هل كان وجهه رسول الله ﷺ مثل السيف؟ قال: لا، بل كان مستديراً مثل الشمس والقمر[٢].

فهو في الأرض شمسها وقمرها وضياؤها، يقول عنه من رآه: لم أر قبله ولا بعده مثله، وكان جمال المصطفى ﷺ جمالاً يكسوه الجلال، فهو في غاية الجمال مع البهاء والهيبة والجلال.

---

(١) «جامع الترمذي» (٢٨١١).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٥٥٢)، و«صحيح مسلم» (٢٣٤٤).

٢- وكما كان جميلاً في منظره كان جميلاً في مظهره؛ فكان أنيقًا في لباسه، حسن الهندام والهيئة، يقول البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: رأيت رسول الله ﷺ في حلة حمراء فلم أر شيئًا أحسن منه[١]، وقد لبس أنواع الثياب الجميلة فلبس حلة حمراء[٢]، وبرداً أخضر[٣]، وجُبَّة رُوميَّة[٤]، وحلة من حرير مكفوفة بالذهب أهداها له أكيدر دومة[٥]، ولعنايته بلباسه لم يؤثر أنه لبس لباسًا رثًّا غير لائق به، وكان اللباس يزهو عليه ويجمل به إذا لبسه كأنما لا يصلح إلا له.

ومن اعتنائه بالجمال وحسن المظهر أنه ﷺ وهو في حال اعتكافه وانقطاعه للعبادة كان يدني رأسه لعائشة فترجل شعره وهو معتكف.

٣- وكما كان ﷺ جميلاً في منظره ومظهره كان جميلاً في اختياره؛ فكان أزواجه أمهات المؤمنين جميلات، وعندما أتت جويرية بنت الحارث إلى النبي ﷺ تستعينه في أداء كتابتها بعد غزوة بني المصطلق قالت عائشة: وكانت امرأة حلوة ملاحة لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه، فوالله ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتي فكرهتها، وعرفت أن رسول الله ﷺ سيرى منها ما رأيت، فدخلَتْ عليه وسألته أن يعينها في أداء كتابتها فقال: «**هَلْ لِكِ فِيما هُوَ خُيرٌ مِنْ ذَلِكَ؟**». قَالتْ: بَلى، قَالَ: «**أُؤدِي عَنْكِ كِتابتكِ وَأَتَزَوَجُكِ**». فقالت: نعم يا رسول الله قد قبلت، فتزوجها ﷺ[٦].

وعندما أتته امرأة وقالت: يا رسول الله إني قد وهبت لك نفسي، صوَّب بصره فيها وصعده ثم طأطأ رأسه وسكت[٧]، ولعل هذا لأن جمالها ليس مما يختاره، ولكلٍّ في الجمال ذوقه واختياره، وهذا الميل للجمال في الاختيار هو كمال فطري واستواء نفسي.

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٥٥١)، و«صحيح مسلم» (٢٣٣٧).
(٢) «صحيح البخاري» (٣٥٥١)، و«صحيح مسلم» (٢٣٣٧).
(٣) «سنن أبي داود» (٣٠٢١).
(٤) «السنن الكبرى» للنسائي (١٢٥).
(٥) «صحيح البخاري» (٢٦١٥)، و«صحيح مسلم» (٢٤٦٩).
(٦) «سنن أبي داود» (٣٩٣١).
(٧) «صحيح البخاري» (٥٠٣٠)، و«صحيح مسلم» (١٤٢٥).

وقد أشاع حب الجمال وعرف به، وتعامل به أهله له، فعندما جاء يدعو ابنه الحسن وينادي: «**أَثَمّ لُكَع؟**»[1]. فحبسته فاطمة حتى تصلح هيئته وتغسله وتلبسه سِخاباً، وهي قلادة من الخرَز وطيب القرنفل يلبسها الصبيان والجواري[2]. فانظر إلى اهتمام فاطمة بنظافة الصبي وجماله قبل خروجه إلى النبي ﷺ لما عرفت من ذوقه وحبه للجمال.

٤- وكما كان يختار الجمال فيما يرى كان يختاره فيما يسمع، فعندما أخبره عبد الله بن زيد أنه رأى الأذان قال له: «**أَلْقِهِ عَلَى بِلَالٍ؛ فَإِنَّهُ أَنْدَى مِنْكَ صَوْتاً**»[3]. وعندما سمع قراءة أبي موسى استمع إليها ثم قال له: «**لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَاراً مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ**»[4]. فللمنظر جماله في الحسن والبهاء، وللصوت جماله في الجَرس والشجى، وللكلمة جمالها في الإيقاع والتعبير، وقال: «**لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ خَبُثَتْ نَفْسِي، وَلَكِنْ لِيَقُلْ لَقِسَتْ نَفْسِي**»[5].

٥- وكان يحتفي بحب الناس للجمال ويتفاعل معهم في ذلك فقد قال يوماً وحوله أصحابه: «**لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**»، وكان في المجلس أحد الصحابة وكان جميلا أنيقا فقال: يا رسول الله إن الله قد قسم لي من الجمال ما ترى، وإنه يعجبني أن يكون ثوبي حسنا ونعلي حسنا، أفمن الكبر ذلك؟ فقال ﷺ: «**لَا، إِنَّ ذَلِكَ لَيْسَ مِنَ الكِبرِ، إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ، الكِبرُ بَطَرُ الحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ**»[6].

فطمأن هذا الرجل بأن حبه للجمال ليس من الكبر ولكنه أحب ما يحبه الله وهو الجمال.

---

(١) «صحيح البخاري» (٢١٢٢)، و«صحيح مسلم» (٢٤٢١). ولكع هنا أي الصغير. ينظر: «النهاية» (٤/ ٢٦٨).

(٢) «فتح الباري» (٤/ ٣٤٢).

(٣) «سنن أبي داود» (٤٩٩).

(٤) «صحيح البخاري» (٥٠٤٨)، و«صحيح مسلم» (٧٩٣).

(٥) «مسند أحمد» (٢٤٢٤٤)، و«صحيح البخاري» (٦١٧٩). لقست وخبثت معناهما واحد، وإنما كره من ذلك لفظ الخبث وبشاعة الاسم منه، وعلمهم الأدب وأرشدهم إلى استعمال الحسن وهجران القبيح. ينظر: «معالم السنن» (٤/ ١٣١).

(٦) «صحيح مسلم» (٩١).

وكما كان يتفهّم هذه الفطرة وهي حب الجمال فإنه كان يتفاعل معها فيشارك أصحابه تذوق الجمال والسعادة به.

وأهديت للنبي ﷺ أقبية من ديباج مُزَرَّرَة بالذهب فقسمها بين أصحابه، فعلم بذلك مخرمة بن نوفل وكان شيخًا كبيراً في خُلُقِهِ شِدَّة فقال لابنه المسور بن مخرمة: انطلق بنا إلى رسول الله ﷺ عسى أن يعطينا منها شيئًا، فلما وقف على باب النبي ﷺ وتكلم عرف النبي ﷺ صوته فخرج إليه ومعه قباء منها فاستقبله بأزراره المذهبة وجعل يريه محاسنه وهو يقول: «**يَا أَبَا المِسْوَرِ خَبَأْتُ هَذَا لَكَ، يَا أَبَا المِسْوَرِ خَبَأْتُ هَذَا لَكَ**». فنظر إليه مخرمة وقال: رضيتُ، فقال ﷺ: «**رَضِيَ مَخْرَمَةُ**»(١).

إن النبي ﷺ يعرض الكساء على مخرمة ويريه محاسنه ومواضع الجمال فيه ليسعده بذلك، وقد سعد بذلك ورضي فقال ﷺ: «**رَضِيَ مَخْرَمَةُ**».

وعندما قسم أكسية على نساء أصحابه استبقى كساء منها ملونًا بأعلام صُفر، وقال: «**ائْتُونِي بِأُمِّ خَالِدٍ**» -بنت خالد بن سعيد- وهي طفلة صغيرة في الرابعة من عمرها، ولدت في أرض الحبشة حين هاجر أبوها وأمها هناك، فجيء بها إليه فألبسها الكساء ثم جعل يريها ألوانه الصفراء وينشره لها ويقول: «**يَا أُمَّ خَالِدٍ هَذَا سَنَاهْ**»(٢)، أي: حسن بلسان الحبشة.

إن النبي ﷺ في هذين المشهدين يخاطب فطرة حب الجمال، والتي يشترك فيها الصغير والكبير والذكر والأنثى.

٦- وكما كان يحب الجمال في هيئته ومظهره فقد كان يحبه في أصحابه فيوجههم إلى التجمل والعناية بالمظهر، يقول جابر: أتانا رسول الله ﷺ زائراً منزلنا فرأى رجلاً شعثًا فقال: «**أَمَا يَجِدُ هَذَا مَا يُسَكِّنُ بِهِ شَعْرَهُ؟**»(٣).

ورأى رجلا آخر وعليه ثياب وسخة فقال: «**أَمَا يَجِدُ هَذَا مَاءً يَغْسِلُ بِهِ ثِيَابَهُ؟**»(٤).

---

(١) «صحيح البخاري» (٢٥٩٩)، و«صحيح مسلم» (١٠٥٨).
(٢) «صحيح البخاري» (٣٠٧١).
(٣) «سنن أبي داود» (٤٠٦٢).
(٤) «سنن أبي داود» (٤٠٦٢).

ولما جيء بأبي قحافة والد أبي بكر الصديق إلى النبي ﷺ وكان شيخًا كبيراً أبيض الرأس كأن رأسه الثغامة[1] فقال ﷺ: «**غَيِّرُوا هَذَا بِشَيْءٍ**»[2].

إن أمره بترجيل الشعر ونظافة الثياب وتغيير الشيب، هي من التربية على مراعاة الجمال في المظهر.

ولذا فإن النبي ﷺ كما كان جميلا متجملا فقد أعلى ذائقة الجمال فيمن حوله، وأعطى للجمال قيمته وأهميته، واحتفى بالفطرة البشرية التي تتطلبه، وهل أعظم من أن يحتبس بجيشه على مشارف المدينة يبحث عن عقد لعائشة فقدته بالليل، ولم يكونوا على ماء وليس معهم ماء، إن هذا العقد جمال تتجمل به عائشة فكان له شأن عندها وعنده من أجلها[3].

وبذا نرى أن من حول النبي ﷺ قد تجاوب مع جماله وتجمله وحبه للجمال، فأصبح حب الجمال وتطلبه ذائقة عامة، فصلى الله وسلم على من أعاد إلى الحياة البشرية جمالها وكمالها.

خلاصات:

١- كان ﷺ جميلاً في محيّاه، فما رأت عينا من رآه أجمل منه.

٢- كان جميلاً في مظهره، أنيقًا في لباسه.

٣- كان جميلاً في اختياره، فيختار الجمال ويميل إليه.

٤- كان يختار الجمال فيما يرى، ويختاره فيما يسمع، فيعجب بالصوت الجميل والأداء الجميل.

٥- كان يحتفي بحب الجمال ويتفاعل معه.

٦- كان يوجه إلى العناية بالجمال ويحث عليه ويعلي ذائقته.

---

(١) الثغامة: نبت أبيض الزهر والثمر يشبَّه به الشيب. ينظر: «النهاية» (١/ ٢١٤).

(٢) «صحيح مسلم» (٢١٠٢).

(٣) «صحيح البخاري» (٣٣٤)، و«صحيح مسلم» (٣٦٧).

الرسول ﷺ والذوق

الذوق كمال في الشخصية، ورقي في السلوك، ولياقة في التعامل، يفطن لها أصحاب الذائقة المرهفة والنفوس الشفافة، وتقل هذه اللياقة الذوقية عند أهل الجفاء وغلظ الطباع.

وعندما ننظر إلى الذوق النبوي نجد رقيًّا وتألقًا عاجبًا، وتربية للأمة على كمالات مبهرة في الآداب والسلوك والتعامل.

١- فكان ذوقه ﷺ متكاملاً في شخصيته وسلوكه وتعامله، يظهر هذا الذوق في الحفاوة بالنظافة، فكان ﷺ طيِّبًا نظيفًا نقيًّا في جسده وملبسه وهيئته. وكان أنيقًا فيما يلبس حتى تكون الحُلَّة عليه أجمل ما تكون على لابس، يقول البراء بن عازب رضي الله عنه: رأيته وعليه حلة حمراء، فما رأيت أجمل منه فيها[١].

ومن ذوقه في اللِّباس اعتناؤه بلباس المجامع العامة في الجمعة والأعياد ولقاء الوفود، فيلبس ما يليق بالحفاوة بهذه الاجتماعات وبإكرام مَن يأتيه، ولذا لما رأى عمر رضي الله عنه حلة ثمينة أخذها فأتى بها رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله لو اشتريتها فلبستها للعيد وللوفود[٢]؛ وذلك لأن عمر رضي الله عنه رأى من النبي ﷺ عناية خاصة بلباسه في المجامع ولقاء القادمين إليه، وفي العناية باللِّباس الجميل في هذه المجامع، دلالة إكرام للجمع وإظهار للاحتفاء بهم.

(١) «صحيح البخاري» (٣٥٥١)، و«صحيح مسلم» (٢٣٣٧).

(٢) «صحيح البخاري» (٨٨٦)، و«صحيح مسلم» (٢٠٦٨).

٢- ومن الذوق النبوي عنايته ﷺ بالرائحة الزَّكية، ولذا كان يحب الطِّيب ويتعاهد به جسده الطَّيِّب، فكان إذا مد يده الكريمة تضوعت طيبا كأنما أخرجها من جؤنة عطار[١]، وإذا أقبل من طريق سبقته رائحة طيبه، وإذا مضى من طريق وجد الذي يسلك في أثره عبق طيبه في طريقه.

قال أنس رضي الله عنه: مَا مَسِسْتُ حَرِيراً وَلَا دِيبَاجاً الينَ مِنْ كَفِّ النَّبِيِّ ﷺ، وَلَا شَمِمْتُ رِيحاً قَطُّ أَوْ عَرْفاً قَطُّ أَطْيَبَ مِنْ رِيحِ النَّبِيِّ ﷺ[٢].

٣- ومن الذوق عنايته برائحة فمه الطَّيِّب، فكان إذا دخل بيته بدأ بالسواك؛ لأن الداخل إلى بيته سيدنو من زوجته ويقبِّل فيطيِّب فمه لهذا اللقاء، فهل ثمة رهافة في الذوق أشف من ذلك؟ وإذا استيقظ من نومه بدأ بالسواك ليزيل ما عسى أن يكون أصاب الفم من تغير بسبب النوم، وكذا تجنبه أكل الأطعمة شديدة الرائحة كالبصل والثوم فقد قدم إليه ﷺ طَبَقٌ، فِيهِ خَضِرَاتٌ مِنْ بُقُولٍ، فَوَجَدَ لَهَا رِيحاً، فَسَأَلَ عَنْهَا فَأُخْبِرَ بِمَا فِيهَا مِنَ الْبُقُولِ، فَقَالَ: «**قَرِّبُوهَا**». فَقَرَّبُوهَا إِلَى بَعْضِ أَصْحَابِهِ كَانَ مَعَهُ، فَلَمَّا رَآهُ كَرِهَ أَكْلَهَا قَالَ: «**كُلْ فَإِنِّي أُنَاجِي مَنْ لَا تُنَاجِي**»[٣]. فكان يتجنب الروائح لمناجاة جبرائيل وحتى لا تتأذى منه الملائكة.

٤- ومن الذوق النبوي اختياره ﷺ أحسن القول وأطيب الكلام في حديثه، ولذلك لا نجد فيما رُوي لنا من حديثه الكثير الطَّيِّب لفظة نابية أو كلمة فاحشة، فما كان فاحشاً ولا متفحِّشاً.

وكان يتحاشى التصريح بالكلمات المحرجة، وإنما يُكنِّي عنها ويُلمح إليها إلماحاً؛ فقد جاءت إليه امرأةٌ تسأله عن الحَيضِ كَيْفَ تَغْتَسِلُ مِنْهُ إِذَا طَهُرَتْ؟ فقال لها رسول الله ﷺ: «**تَأْخُذُ إِحْدَاكُنَّ مَاءَهَا وَسِدْرَتَهَا فَتَطَهَّرُ فَتُحْسِنُ الطُّهُورَ، ثُمَّ تَصُبُّ عَلَى رَأْسِهَا، فَتَدْلُكُهُ دَلْكاً شَدِيداً حَتَّى تَبْلُغَ شُؤُونَ رَأْسِهَا، ثُمَّ تَصُبُّ عَلَيْهَا المَاءَ، ثُمَّ تَأْخُذُ فِرْصَةً مُمَسَّكَةً[٤] فَتَطَهَّرُ بِهَا**». قَالَتْ المرأة: وَكَيْفَ أَتَطَهَّرُ بِهَا يَا رَسُول الله؟ قَالَ: «**تَطَهَّرِي بِهَا**». قَالَتْ: كَيْفَ؟

(١) جؤنة العطار: سلة صغيرة يحفظ فيها الطيب. ينظر: «النهاية» (١/ ٣١٨).
(٢) «صحيح البخاري» (٣٥٦١)، و«صحيح مسلم» (٢٣٣٠).
(٣) «صحيح البخاري» (٧٣٥٩)، و«صحيح مسلم» (٥٦٤).
(٤) الفرصة: قطعة من صوف أو قطن أو خرقة. والممسكة: المطيبة بالمسك. ينظر: «النهاية» (٣/ ٤٣١).

قَالَ: «**سُبْحَانَ الله، تَطَهَّرِي**». قَالَتْ عَائِشَةُ: ثُمَّ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ اسْتَحْيَا فَأَعْرَضَ بِوَجْهِهِ، فَعَرَفْتُ الَّذِي يُرِيدُ رَسُولُ الله ﷺ فَجَذَبْتُهَا إِلَيَّ، فَقُلْتُ: تَتَبَّعِي بِهَا أَثَرَ الدَّمِ[1].

فانظر إلى لطافة التعبير عما يحرج المرأة ذكره، وكيف كان يعرض بوجهه حياءً عند هذا الحديث.

٥- ومن ذوقه في الحديث اختيار الكلمات الجميلة الرائعة يصف بها أصحابه، ومن ذلك:

أ- أن جرير بن عبد الله البجلي دخل المسجد، فالتفت الناس إليه فقال لرجل بجانبه: هل ذكرني رسولُ الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: ماذا قال؟ قال: قال ﷺ: «**يَدْخُلُ عَلَيْكُمْ مِنْ هَذَا البَابِ مِنْ خَيْرِ ذِي يَمَنٍ، عَلَى وَجْهِهِ مَسْحَةُ مَلَكٍ**»[2].

فأي بهاء وجمال يحمله هذا الوصف الرائع، وكيف كانت مشاعر جرير وهو يسمع كلمات النبي ﷺ هذه عنه؟!

ب- وعندما قدم عكرمة بن أبي جهل عليه بالأمان بعد هروبه إلى البحر تلقَّاه ﷺ وهو يقول: «**مَرْحَبًا بِالرَّاكِبِ المُهَاجِرِ**»[3].

فانظر إلى الذوق النبوي في هذه الكلمات التي تصف رجوع عكرمة من الهروب، لقد سمَّاه مهاجراً، إنها كلمة احتفاء وترحيب، لا عتب فيها ولا لوم.

ج- وعندما خرج من مكة بعد عمرة القضاء تبعتهم ابنة عمه حمزة تنادي: يَا عَمِّ يَا عَمِّ، فَتَنَاوَلَهَا عَلِيٌّ فَأَخَذَ بِيَدِهَا، وَقَالَ لِفَاطِمَةَ: دُونَكِ ابْنَةَ عَمِّكِ، احْمِلِيهَا. فَاخْتَصَمَ فِيهَا عَلِيٌّ وَزَيْدٌ وَجَعْفَرٌ، فَقَالَ عَلِيٌّ: أَنَا أَحَقُّ بِهَا وَهْيَ ابْنَةُ عَمِّي. وَقَالَ جَعْفَرٌ: ابْنَةُ عَمِّي وَخَالَتُهَا تَحْتِي. وَقَالَ زَيْدٌ: ابْنَةُ أَخِي. فَقَضَى بِهَا النَّبِيُّ ﷺ لِخَالَتِهَا، وَقَالَ: «**الخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الأُمِّ**». وَقَالَ لِعَلِيٍّ: «**أَنْتَ مِنِّي وَأَنَا مِنْكَ**». وَقَالَ لِجَعْفَرٍ: «**أَشْبَهْتَ خَلْقِي وَخُلُقِي**». وَقَالَ لِزَيْدٍ: «**أَنْتَ أَخُونَا وَمَوْلَانَا**»[4].

---

(١) «صحيح البخاري» (٣١٤)، و«صحيح مسلم» (٣٣٢).
(٢) «مسند أحمد» (١٩١٨٠)، و«السنن الكبرى» للنسائي (٨٢٤٤).
(٣) «جامع الترمذي» (٢٧٣٥).
(٤) «صحيح البخاري» (٢٦٩٩).

فانظر هذا الذوق الجميل في توزيع هذه الأوصاف الكريمة على كل واحد منهم بحيث نال كل منهم وسام شرف ووصف تكريم.

٦- ومن مراعاته الذوق في الألفاظ والكلمات تغييره الأسماء القبيحة إلى أسماء جميلة، فقد غيّر اسم امرأة كانت تسمى عاصية إلى جميلة[١]، وَسَمَّى بَنِي مُغْوِيَةَ بَنِي رِشْدَةَ[٢]، وكأنما كان ﷺ ينقي لغة التخاطب ويرفع ذائقة الجمال فيها.

٧- ومن ذوقه الرفيع مراعاة الأحاسيس والمشاعر على تفاوتها بين الناس، فيزيد من الاحتشام عند الحيي ما لا يحتشم عند غيره حتى لا يُحرج أو يستحيي، ومن ذلك أَنَّ أَبَا بَكْرٍ اسْتَأْذَنَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ عَلَى فِرَاشِهِ، لَابِسٌ مِرْطَ عَائِشَةَ، فَأَذِنَ لِأَبِي بَكْرٍ وَهُوَ كَذَلِكَ، فَقَضَى إِلَيْهِ حَاجَتَهُ، ثُمَّ انْصَرَفَ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُمَرُ، فَأَذِنَ لَهُ وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الحَالِ فَقَضَى إِلَيْهِ حَاجَتَهُ، ثُمَّ انْصَرَفَ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ عثمان فَجَلَسَ وسوَّى عليه ثيابه، وَقَالَ لِعَائِشَةَ: «**اجْمَعِي عَلَيْكِ ثِيَابَكِ**». فقضى إليه حاجته ثم انصرف، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ الله مَالِي لَمْ أَرَكَ فَزِعْتَ لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ كَمَا فَزِعْتَ لِعُثْمَانَ؟ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ عُثْمَانَ رَجُلٌ حَيِيٌّ، وَإِنِّي خَشِيتُ، إِنْ أَذِنْتُ لَهُ عَلَى تِلْكَ الحَالِ، أَنْ لَا يَبْلُغَ إِلَيَّ فِي حَاجَتِهِ**»[٣].

ومن ذلك ما رواه أبو مُوسَى الأَشْعَرِيُّ أَنَّهُ طلب النبي ﷺ فوجده فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ عَلَى بِئْرِ أَرِيسٍ، وَتَوَسَّطَ قُفَّهَا[٤] وَكَشَفَ عَنْ ساقيه وَدَلاَّهُمَا فِي البِئْرِ فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه فَدَخَلَ ثُمَّ جَلَسَ عَنْ يَمِينِ رَسُولِ الله ﷺ مَعَهُ فِي القُفِّ، وَدَلَّى رِجْلَيْهِ فِي البِئْرِ كَمَا صَنَعَ رَسُولُ الله ﷺ، ثُمَّ جاء عمر فَجَلَسَ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي القُفِّ عَنْ يَسَارِهِ، وَدَلَّى رِجْلَيْهِ فِي البِئْرِ، ثم جاء عثمان فَلَمَّا دَخَلَ غَطَّى رَسُولُ الله ﷺ رُكْبَتَيْهِ، فَوَجَدَ عُثْمَانُ القُفَّ قَدْ مُلِئَ فَجَلَسَ وِجَاهَهُ مِنْ الشَّقِّ الآخَرِ[٥].

---

(١) «صحيح مسلم» (٢١٣٩).

(٢) «سنن أبي داود» (٤٩٥٦).

(٣) «صحيح مسلم» (٢٤٠٢).

(٤) قُفّ البئر: هو الدكة التي تجعل حولها. ينظر: «النهاية» (٤/ ٩١).

(٥) «صحيح البخاري» (٣٦٧٤)، و«صحيح مسلم» (٢٤٠٣).

وكل هذا من مراعاة حساسية عثمان وشدة حيائه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولذا قال ﷺ: «**أَلَا أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ المَلَائِكَةُ؟!**»[1].

٨- وكما كان ﷺ يتعامل بهذا الذوق الرَّفيع كان يربِّي على مراعاة الذوق في السلوك والتعامل، فقد روى جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ دخل عليهم في مسجدهم، وفي يده عرجون[2] نخل، فرأى نُخامة في قبلة المسجد فغضب وأنكر ذلك وحكها بالعُرْجون الذي في يده، ثُمَّ قَالَ: «**أَرُونِي عَبِيراً**». فقام فتىً من الحيِّ يشتدُّ إلى أهله، فجاء بخَلُوق في راحتيه، فأخذَه رسولُ الله ﷺ فجعلَه على رأس العُرْجون، ولَطَخَ به على أَثَر النُّخامة[3].

إن هذه تربية للمجتمع على هذه الذوقيات الجميلة، وإزالة ما يشوه جماليات الحياة، ولذلك أزال هو بنفسه النخامة ووضع العطر مكانها، وكأنما يريد أن يمحو أثرها وذكراها.

ومن رعايته للذوق نهيه عن الجشاء في المجالس، فكان يقول لمن تجشأ: «**كُفَّ عَنَّا جُشَاءَكَ**»[4]، ونهيه عن فغر الفم عند التثاؤب، وكان يقول عن المتثائب: «**فَلْيَكْظِمْ مَا اسْتَطَاعَ**»[5]، وأمره بتغطية الوجه عند العطاس[6] حتى لا يتطاير الرذاذ من فم العاطس على من حوله، وينهى عن النفخ في الإناء عند الشرب منه[7]، لأن الآنية كانت مشتركة، فإذا نفخ كرَّهَه على من بعده، ومن التربية الذوقية أمره بحسن الهيئة في المجامع العامة ومنها يوم الجمعة،

(١) «صحيح مسلم» (٢٤٠١).
(٢) العرجون: هُوَ العُود الأصْفر الَّذِي فِيهِ شَمَاريخ العِذْق. ينظر: «النهاية» (٣/ ٢٠٣).
(٣) «صحيح مسلم» (٣٠٠٨).
(٤) «جامع الترمذي» (٢٦٤٦). والجشاء: هو صوت خروج الريح من الفم لامتلاء المعدة. ينظر: «لسان العرب» (١/ ٤٨).
(٥) «صحيح مسلم» (٢٩٩٤).
(٦) «جامع الترمذي» (٢٧٤٥).
(٧) «صحيح البخاري» (١٥٣)، و«صحيح مسلم» (٢٦٧).

ولذا أمر بالاغتسال ليوم الجمعة وأن يمس الرجل من الطيب فيشهد اجتماع الجمعة نظيف البدن والملبس زكي الرائحة فقال ﷺ: «**مَنْ اغْتَسَلَ يَوْمَ الجُمُعَةِ وَمَسَّ مِنْ طِيبِ امْرَأَتِهِ إِنْ كَانَ لَهَا، وَلَبِسَ مِنْ صَالِحِ ثِيَابِهِ، ثُمَّ لَمْ يَتَخَطَّ رِقَابَ النَّاسِ، وَلَمْ يَلْغُ عِنْدَ المَوْعِظَةِ كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا بَيْنَهُمَا، وَمَنْ لَغَا وَتَخَطَّى رِقَابَ النَّاسِ كَانَتْ لَهُ ظُهْراً**»[1].

وكل ذلك من التربية على ذوقيات جميلة في السلوك كانت البيئة العربية تتجاوزها حيث كان يغلب على كثير منها الفقر والجفاف والجفاء، فكان النبي ﷺ يُعيد تأهيل الذوق العام ليُراعي جماليات الحياة، وآداب السلوك، واللياقة والرقي في التعامل بهذا الأدب الرفيع والذوق العالي الكريم.

خلاصات:

١- كان الذوق النبوي ﷺ راقيًا غاية الرقي، مهذبًا غاية التهذيب.

٢- فكان أنيقًا في لباسه، عطراً في رائحته.

٣- ومن ذوقه ابتعاده عن الكلمات الخادشة أو الفاحشة.

٤- ومن ذوقه مراعاة أصحاب المشاعر المرهفة والنفوس الحساسة فيحتشم عند الحيي ويراعي حياءه.

٥- ومن ذوقه وصف أصحابه بالأوصاف الجميلة الرائعة.

٦- وكان يربي على الذوق الاجتماعي، فينهى عن كل ما ينافي الذوق العام، من التصرفات، ليعيد للحياة جماليتها ورقيها.

(١) «سنن أبي داود» (٣٤٧).

الرسول ﷺ والهدية

الهدية رسول الحب ومفتاح القلب، وتقديم الهدية إكرام لمن أهديت له، وقبولها إكرام لمن أهداها، وببذل الهدية تستل الضغائن، وتتوثق الأواصر، وتطيب النفوس، وتفتح مغاليق القلوب، ولذا أمر النبي ﷺ بالتهادي فقال: «**تَهَادَوا تَحَابُّوا**»(١). ونهى عن رد الهدية فقال: «**أَجِيبُوا الدَّاعِيَ، وَلَا تَرُدُّوا الهَدِيَّةَ**»(٢)، وله ﷺ في الهدية ذوقه وهديه فمن ذلك:

١ - قبوله الهدية وإن قلَّت وكانت شيئًا يسيراً، وكان يقول: «**لَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ ذِرَاعٌ أَوْ كُرَاعٌ**(٣) **لَقَبِلْتُ**»(٤)، ولذا كانت تأتيه الهدايا اليسيرة فيقبلها، وقد تكون شربة لبن، أو قرص شعير.

وكان يقبل الهدية من كل أحد، وما كان أحدٌ يتهيب أن يهدي له، وما كان يترفع على أحد أن يقبل هديته، فقد أكل من لحم تصدق به على خادمته بريرة وقال: «**هُوَ لَهَا صَدَقَةٌ وَهُوَ لَنَا هَدِيَّةٌ**»(٥).

ويا لله كم من البهجة والسرور تملأ قلب الخادمة بريرة حينما تجد نفسها تهدي للرسول ﷺ فيقبل هديتها، ويأكل اللحم منها ويقول: «**هُوَ لَنَا هَدِيَّةٌ**».

---

(١) «جامع الترمذي» (٢١٣٠).

(٢) «مسند أحمد» (٣٨٣٨).

(٣) الكراع من الدابة ما دون الكعب، وخص الذراع والكراع بالذكر ليجمع بين الحقير والخطير، لأن الذراع كانت أحب إليه من غيرها، والكراع لا قيمة له. ينظر: «فتح الباري» (٥/ ٢٣٦).

(٤) «صحيح البخاري» (٢٥٦٨).

(٥) «صحيح البخاري» (١٤٩٣)، و«صحيح مسلم» (١٠٧٤).

٢- وكما كان يقبل الهدية فقد كان يكافئ عليها قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كَانَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَقْبَلُ الهَدِيَّةَ وَيُثِيبُ عَلَيْهَا(١).

وأهدى له أعرابي ناقة فأثابه عليها ست بكرات(٢).

وأهدى له ملك أيلة بغلة بيضاء فكساه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ برداً(٣).

وفي تبادل الهدية قبولاً ومكافأة تأكيدٌ للتواصل، وحفاوةٌ وإكرام متبادل.

وكان يقبل الهدية من المسلم، وغير المسلم؛ فقد قبل هدية المقوقس عظيم القبط وكانت حماراً يقال له عفير وجاريتين هما مارية وسيرين(٤)، وقبل هدية ملك أيلة يوحنا بن رؤية وكانت بغلة بيضاء(٥)، وقبل هدية أكيدر دومة وكانت حلة حرير مكفوفة بالذهب(٦)، وعندما افتتح خيبر أهدته يهودية شاة مشوية فقبلها وأكل منها.

٣- وكما كان يقبل الهدية من غير المسلمين، كان يهدي إليهم؛ فقد عُلِمَ من حاله أنه كان يقبل الهدية ويثيب عليها، فأهدى يوحنا بن رؤية ملك أيلة برداً، وفقه الصحابة منه ذلك فكانوا يتهادون مع المشركين ومن ذلك أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أعطى عمر حلة إستبرق فأهداها عمر إلى أخ له بمكة مشرك.

لقد كانت حلة إستبرق ثمينة ثم هي هدية الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومع ذلك سخت بها نفس عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمشرك في مكة، لتبقى للعلاقات الإنسانية حيويتها وجميل اتصالها، وكان هذا من البر الذي شرعه الله بين المسلمين ومخالفيهم في الدين بقوله: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

---

(١) «صحيح البخاري» (٢٥٨٥).

(٢) «جامع الترمذي» (٣٩٤٥).

(٣) «صحيح البخاري» (١٤٨١)، و«صحيح مسلم» (١٣٩٢).

(٤) «شرح مشكل الآثار» للطحاوي (٢٥٧٠).

(٥) «صحيح البخاري» (١٤٨١)، و«صحيح مسلم» (١٣٩٢).

(٦) «صحيح البخاري» (٢٦١٥)، و«صحيح مسلم» (٢٤٦٩).

فكان التعامل معهم بالبر ومكارم الأخلاق من الهدي النبوي الكريم، ومن مظاهره الإهداء إليهم، وقبول الهدايا منهم.

٤- ومن ذوقه في الهدية الاحتفاء بها والإشعار بقبولها، فعندما أهدى له أكيدر دومة حلة حرير لبسها وصعد بها المنبر[١]، ولا أحسب أنه فعل ذلك إلا ليصل خبر ذلك إلى الأكيدر فيعلم أن النبي ﷺ قد قبل هديته ولبسها.

وأهدت له امرأة بردة قالت: نسجتها لك بيدي. فلبسها وخرج بها إلى أصحابه[٢]، ولا أحسب هذه المرأة إلا قد علمت بذلك وسرت بلبسه ما أهدته له.

٥- ومن ذوقه في الهدية أنه إذا ردها لسبب بين ذلك السبب، وطيب قلب مهديها.

فعندما نزل ﷺ الأَبْوَاءَ في طريقه لحجة الوداع أهدى له الصَّعْبُ بن جَثَّامة رضي الله عنه لحم صيد، وكان عَجُزَ[٣] حمار وحش يقطرُ دمًا، فردَّه ﷺ، فلما رأى في وجهه كراهية رد هديته قال له معتذراً مؤانسًا: «**إِنَّا لَمْ نَرُدَّهُ عَلَيْكَ كَرَاهِيَةً لَهُ، ولَكِنَّا حُرُمٌ لا نَأْكُلُ الصَيْدَ، وَلَوْلا أَنَّا مُحْرِمُونَ لَقَبِلْنَاهُ مِنْكَ**»[٤].

إنه مشهد غاية في التلطُّف؛ حيث قرأ ﷺ مشاعره النفسية، وسارع إلى بيان السبب الذي جعله يرد هديته، ولم يترك مشاعره نهبًا لاحتمالات مؤلمة، ثم طيَّب قلبه فأخبره بأنه سيقبل هذه الهدية لو كان غير مُحرم، فصلوات الله على مَن وصفه ربه فقال: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

٦- وأما هداياه ﷺ إذا أهدى فهي الهدايا الكريمة الجزلة يرسلها بسخاوة نفس يستطيب بها النفوس، ويتألف بها القلوب، ويكرم بها الأصحاب، أرسل له علي رضي الله عنه بذهبة من اليمن فقسمها بين أربعة من زعامات العرب، الأقرع بن حابس الحنظلي، وعيينة بن بدر الفزاري،

(١) «صحيح البخاري» (٢٦١٥)، و«صحيح مسلم» (٢٤٦٩).
(٢) «صحيح البخاري» (١٢٧٧).
(٣) العجز: مؤخر الحمار، وكان رجله. ينظر: «فتح الباري» (٤/ ٣٢).
(٤) «صحيح البخاري» (١٨٢٥)، و«صحيح مسلم» (١١٩٣).

وعلقمة بن علاثة العامري، وزيد الخير الطائي، فعتب عليه بعض قريش والأنصار فقال: «**إِنِّي إِنَّمَا فَعَلْتُ ذَلِكَ لأَتَأَلَّفَهُمْ**»(١).

وجاءته حلل حرير فأعطى أسامة بن زيد منها حلة، وأعطى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ منها حلة، وأعطى علي بن أبي طالب منها حلة(٢)، ولما أرسل إليه المقوقس بجاريتين مارية وسيرين تسرى بمارية، وأهدى سيرين إلى حسان بن ثابت(٣).

٧- وكما كان يقبل الهدية وإن قلَّت، فإنه كان يهدي الهدية وإن قلَّت، قال أنس: أُهدي إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تَمرٌ فأخذ يُهديه ها هنا وها هنا(٤).

والهدية وإن قلَّت إلا أنها رسالة حب وتطييب خاطر وبخاصة إذا جاءت في حالة تحتاج إلى مثل ذلك، ومن ذلك ما حدَّث به أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوهن في البيوت، فسأل أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ النبي، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢] إلى آخر الآية، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلاَّ النِّكَاحَ**». فَبَلَغَ ذَلِكَ اليَهُودَ فَقَالُوا: مَا يُرِيدُ هَذَا الرَّجُلُ أَنْ يَدَعَ مِنْ أَمْرِنَا شَيْئًا إِلاَّ خَالَفَنَا فِيهِ، فَجَاءَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ وَعَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ فَقَالَا: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ اليَهُودَ تَقُولُ: كَذَا وَكَذَا، أَفَلَا نُجَامِعُهُنَّ؟ فَتَغَيَّرَ وَجْهُ رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنْ قَدْ وَجَدَ عَلَيْهِمَا، فَخَرَجَا فَاسْتَقْبَلَهُمَا(٥) هَدِيَّةٌ مِنْ لَبَنٍ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَأَرْسَلَ فِي آثَارِهِمَا فَسَقَاهُمَا، فَعَرَفَا أَنْ لَمْ يَجِدْ عَلَيْهِمَا(٦).

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٣٤٤)، و«صحيح مسلم» (١٠٦٤).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٠٦٨).

(٣) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٤/ ٣٢٢).

(٤) «مسند الدارمي» (٦٥١).

(٥) فاستقبلهما هدية: أي: جاءت مقابلة لهما في حال خروجهما من عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فصادف خروجهما مجيء الهدية مقابلة لهما. ينظر: «عون المعبود» للعظيم آبادي (١/ ١٠٧).

(٦) «صحيح مسلم» (٣٠٢).

لقد أزال النبي ﷺ بهذه الهدية اليسيرة هاجس الغضب والموجدة التي ظن أصحابه أنه وجدها على أسيد وعباد، ولا أحسب إلا أن فرحتهما بهديته وسعادتهما بدعوتهما إليها غامرة؛ فهي رسالة اختصاص بالحب، وعلامة على طيب قلبه لهما وأنه لا عتب ولا موجدة ولا غضب عليهما، وتحمل كل هذه المعاني الجميلة الدعوة إلى هدية يسيرة هي شربة لبن يشركهما فيها.

وهكذا كانت الهدايا النبوية تأليفاً للقلوب، وتطييباً للنفوس، وتوثيقاً للأواصر، وإفشاء للمكارم.

وكان هدي النبي ﷺ في الهدية قبولاً وبذلاً من مظاهر ذوقه الرفيع، وخلقه العظيم، ويا لله كم من الإسعاد والبهجة والسرور زخرت به نفوس أولئك الكرام الذين أهدوا للنبي ﷺ فسعدوا بقبوله هداياهم واحتفائه بها.

وسعادة أولئك الذين تلقوا هدايا النبي ﷺ فشعروا بسعادة اختصاصه لهم بها، وذكره إياهم بهذه الهدايا الكريمة، فكأنما الهدايا منه وإليه ﷺ طيور حب تطير بين قلوبهم وقلبه الكبير الكريم.

خلاصات:

١- كان ﷺ يقبل الهدية ويثيب عليها.

٢- كان يقبل الهدية وإن كانت شيئاً يسيراً ويقول: «**لَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ ذِرَاعٌ أَوْ كُرَاعٌ لَقَبِلْتُ**».

٣- كان يقبل الهدية من غير المسلمين ويهدي إليهم.

٤- إذا رد الهدية لسبب، بيَّنَ ذلك السبب وطيَّبَ قلب مهديها.

٥- كان هدي النبي ﷺ في الهدية قبولاً وبذلاً من مظاهر ذوقه الرفيع وخلقه العظيم.

الرسول ﷺ ورعاية المشاعر

لما نزل ﷺ الأَبْوَاءَ في طريقه إلى حجة الوداع أهدى له الصَّعْبُ بن جَثَّامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لحم صيد، وكان عجز[1] حمار وحش يقطرُ دمًا، فردَّه ﷺ، فلما رأى في وجهه كراهية رد هديته قال له معتذراً مؤانسًا: «**إِنَّا لَمْ نَرُدَّهُ عَلَيْكَ كَرَاهِيَةً لَهُ، ولَكِنَّا حُرُمٌ لا نَأْكُلُ الصَيْدَ، وَلَوْلا أَنَّا مُحْرِمُونَ لَقَبِلنَاهُ مِنْكَ**»[2].

إنه مشهد غاية في التلطُّف؛ حيث قرأ ﷺ مشاعره النفسية، وسارع إلى بيان السبب الذي جعله يرد هديته، ولم يترك مشاعره نهبًا لاحتمالات مؤلمة، ثم طيَّب قلبه فأخبره بأنه سيقبل هذه الهدية لو كان غير مُحرم، فصلوات الله على مَن وصفه ربه فقال: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

ولما دخل ﷺ مكة عام الفتح بجيشه كانت راية الأنصار مع سعد بن عبادة سيد الخزرج فمرَّ بأبي سفيان سيد قريش فقال له: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستباح الكعبة، فجزع أبو سفيان وذهب إلى النبي ﷺ يشكو إليه ما قاله سعد، فقال ﷺ: بل هو يوم تعظم فيه الكعبة، ثم نزع الراية من سعد ودفعها إلى ابنه قيس بن سعد[3] وبهذا راعى النبي ﷺ مشاعر قريش وقائدها أبي سفيان حيث لم يقر سعداً على كلمته الجارحة لمشاعر قريش ونزع الراية منه، ولم يثر الأنصار وزعيمهم سعد الذي نزعت الراية منه لأنها دفعت لابنه فهي لم تخرج عنه.

(١) العجز: مؤخر الحمار، وكان رجله. ينظر: «فتح الباري» (٤/ ٣٢).

(٢) «صحيح البخاري» (١٨٢٥)، و«صحيح مسلم» (١١٩٣).

(٣) «صحيح البخاري» (٤٢٨٠).

وكأنا بالمشهد نراه وأبو سفيان يرى أنه قد أُخِذَ برأيه وحُفِظ لقريش مكانتها، وسعد بن عبادة يعيش زهو إكرام النبي ﷺ لابنه ولا يشعر أن الراية خرجت منه، ومن طبيعة الإنسان ألا يحب أن يكون أحد أفضل منه إلا ابنه، فعالج النبي ﷺ الموقف في لحظة توتر، وحال دون مواجهة محتملة بين الأنصار وقريش، وحافظ على مشاعر الجميع ومكانتهم، وهي براعة بالغة في رعاية المشاعر النفسية.

ومن مراعاته للمشاعر رفع معنويات الجيش إذا لم يتحقق هدفهم، وتسمية الانسحاب الذي قد يسمى فراراً وهزيمة بالكُرّار والعَكّارين، كما في حديث ابن عمر قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ الله ﷺ فِي سَرِيَّةٍ، فَحَاصَ النَّاسُ حَيْصَةً، فَقَدِمْنَا المَدِينَةَ، فَاخْتَبَأْنَا بِهَا وَقُلْنَا: هَلَكْنَا، ثُمَّ أَتَيْنَا رَسُولَ الله ﷺ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ الله، نَحْنُ الفَرَّارُونَ، قَالَ: «**بَلْ أَنْتُمُ العَكَّارُونَ، وَأَنَا فِئَتُكُمْ**»[1].

ومثله لما رجع خالد بجيش المسلمين من مؤتة فقال بعض الناس: فررتم يا فُرّار فقال ﷺ: «**لَيْسُوا بِالفُرَّارِ، وَلَكِنَّهُمُ الكُرَّارُ إِنْ شَاءَ اللهُ**»[2]، وفي ذلك محافظة على معنوياتهم ورعايةٌ لمشاعرهم ومد لأفق المواجهة وأن هذه النتيجة ليست النهائية بل سيعقبها كرة ومواجهة أخرى ونصر موعود.

وعندما خرج النبي ﷺ من مكة عام عمرة القضاء وتبعته ابنة عمه حمزة وكانت جارية تسعى وتنادي: يَا عَمِّ يَا عَمِّ، فَتَنَاوَلَهَا عَلِيٌّ فَأَخَذَ بِيَدِهَا، وَقَالَ لِفَاطِمَةَ: دُونَكِ ابْنَةَ عَمِّكِ، احْمِلِيهَا. فَاخْتَصَمَ فِيهَا عَلِيٌّ وَزَيْدٌ وَجَعْفَرٌ، فَقَالَ عَلِيٌّ: أَنَا أَحَقُّ بِهَا وَهِيَ ابْنَةُ عَمِّي. وَقَالَ جَعْفَرٌ: ابْنَةُ عَمِّي وَخَالَتُهَا تَحْتِي. وَقَالَ زَيْدٌ: ابْنَةُ أَخِي. فَقَضَى بِهَا النَّبِيُّ ﷺ لِخَالَتِهَا، وَقَالَ: «**الخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الأُمِّ**». وَقَالَ لِعَلِيٍّ: «**أَنْتَ مِنِّي وَأَنَا مِنْك**». وَقَالَ لِجَعْفَرٍ: «**أَشْبَهْتَ خَلْقِي وَخُلُقِي**». وَقَالَ لِزَيْدٍ: «**أَنْتَ أَخُونَا وَمَوْلَانَا**»[3].

---

(١) «سنن أبي داود» (٢٦٤٧)، و«جامع الترمذي» (١٧١٦). وَقَوْله: فَحَاصَ النَّاسُ حَيْصَةً، يَعْنِي: أَنَّهُمْ فَرُّوا مِنَ القِتَالِ، وَمَعْنَى قَوْلِهِ: «بَلْ أَنْتُمُ العَكَّارُونَ». وَالعَكَّارُ: الَّذِي يَفِرُّ إِلَى إِمَامِهِ لِيَنْصُرَهُ لَيْسَ يُرِيدُ الفِرَارَ مِنَ الزَّحْفِ.

(٢) «سيرة ابن هشام» (٤/ ٢٤).

(٣) «صحيح البخاري» (٢٦٩٩).

فانظر هذه البراعة في رعاية المشاعر عند معالجة الموقف حيث قضى بها لخالتها ولم يقل لجعفر حتى يظهر أن المراعاة لطرف خارجي غير الثلاثة المتنازعين، وهي خالتها أسماء زوجة جعفر، وقال: «**الخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الأُمِّ**».

ثم وزَّع عليهم هذه الأوسمة الرفيعة التي تشعر كلا منهم أن له حَظوتُه وقدرُه، فلا يشعر أحد منهم أنه أدنى منزلة أو أقل قدراً إذ لم يقض له بما طلب، وهي براعة أخرى في رعاية المشاعر النفسية.

وإذا بدرت منه بادرة يمكن أن تفهم فهما يشعر بالمعتبة والغضب فإنه لا يدع صاحبها لظنون الغضب والعتاب ولكن سرعان ما يتبعها بما يصحح التصور ويشعر الصاحب بمكانه ومكانته وطيب النفس عليه.

ففي معركة حنين زَحَم رجل رَسُولَ الله ﷺ وَفِي رِجْلِه نَعْلٌ كَثِيفَةٌ، فَوَطِأ بِهَا عَلَى رِجْلِ رَسُولِ الله ﷺ فَنَفَحَه نَفْحَةً بِسَوْطٍ فِي يَدِهِ، وَقَالَ: «**بِسْمِ الله أَوْجَعْتَنِي**». قَالَ: فَبِتُّ لِنَفْسِي لَائِمًا أَقُولُ: أَوْجَعْتُ رَسُولَ الله ﷺ. قَالَ: فَبِتُّ بِلَيْلَةٍ كَمَا يَعْلَمُ اللهُ، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا إِذَا رَجُلٌ يَقُولُ: أَيْنَ فُلَانٌ؟ قَالَ: قُلْتُ: هَذَا وَالله الَّذِي كَانَ مِنِّي بِالأَمْسِ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مُتَخَوِّفٌ، فَقَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّكَ وَطِئْتَ بِنَعْلِكَ عَلَى رِجْلِي بِالأَمْسِ فَأَوْجَعْتَنِي، فَنَفَحْتُكَ نَفْحَةً بِالسَّوْطِ، فَهَذِهِ ثَمَانُونَ نَعْجَةً فَخُذْهَا بِهَا**»[1].

فانظر لطف التصرف النبوي واحتواء المعتبة، مع أن ذاك تصرف انفعالي معتاد يصدر من الإنسان إذا فاجأه ما يؤلمه، ومع ذلك يعتني ﷺ برعاية مشاعر ذاك الرجل وتطييب نفسه حتى لا يظن أن النبي ﷺ عاتب عليه.

وكان لشدة رعايته مشاعر من حوله إذا بلغه عن الرجل شيء لم يقل: ما بال فلان يقول، ولكن يقول: «**مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَقُولُونَ كَذَا وَكَذَا**»[2].

ولم يكن يواجه أحداً بما يكره، وكان إذا كره شيئا عرفه أصحابه في وجهه.

(١) «سنن الدارمي» (٧٣).

(٢) «صحيح مسلم» (١٤٠١).

وكان أسعد الناس برعايته ومراعاته لمشاعرهم، فكان خير الناس للناس وخيرهم لأهله، فكانت رعايته لمشاعر أزواجه غاية في الذوق والرفق، ومن ذلك ما حدثت به أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أنها كانت مع النبي ﷺ في فراشه فحاضت، قالت: فانسللت من فراشي ولبست ثياب حيضتي ثم جئته فقال: «**مَا لَكِ أَنَفِسْتِ؟**». قالت: نعم فاستدناني وألقى علي الخميصة[1].

إن هذا العارض النسائي لامرأة كانت تنتظر زوجها ثمانية أيام حتى إذا أتاها ودخلت في فراشه فاجأها موعدها مما يسبب لها حرجا وانكساراً نفسيّاً، فلم يتركها النبي ﷺ لمشاعرها هذه وإنما أشعرها بالقرب والاهتمام فأدناها إليه وألحفها الكساء وأشعرها بالمودة والاحتفاء، وكل ذلك رعاية للمشاعر وإشعارٌ بالاهتمام.

وفي حجة الوداع وعندما تهيّأ ﷺ للنفر من مكة ليطوف طواف الوداع قالت له عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: يا رسولَ الله، يرجع الناسُ بعمرة وحجة، وأرجع أنا بحجة؟! تشير إلى أنها لم تأتِ بعمرة مستقلة قبل حجها، كما صنع بقية أزواج النبي ﷺ، وإنما كانت قارنة بسبب حيضتها، فقال لها رسولُ الله ﷺ: «**يَسَعُكِ طَوَافُكِ بِالبيتِ لِحَجِّكِ وعُمْرَتِكِ**». فأبتْ، وقالت: يا رسولَ الله، ينطلق الناسُ بحج وعمرة وأنطلق بحج، ويرجع الناس بأجرين وأرجع بأجر واحد؟!. قال: «**إِنَّ لكِ مِثْلَ مَا لَهُمْ**». قالت: إني أجد في نفسي أني لم أطف بالبيت حتى حججت. وكان رسولُ الله ﷺ رجلاً سهلاً، إذا هويت شيئًا تابعها عليه، فدعا أخاها عبدالرحمن، فقال: «**اُخْرُجْ بِأُخْتِكَ إِلى التَّنْعِيمِ، فَإِذَا هَبَطْتَ مِنَ الأَكَمَةِ، فَلْتُهِلَّ بِعُمْرَةٍ، فَإِنَّها عُمرةٌ مُتَقبَّلة، ثُمَّ افْرُغَا مِنْ طَوَافِكُما، أَنْتَظِرُكُما هَا هُنا**»[2].

فانظر هذه الرعاية لمشاعر زوجته عائشة وتخيل المشهد، فبعد سفر شاق، وعند التهيؤ للرحيل تقول له: أرجع أنا بحجة؟ وتطلب أن تأتي بعمرة مفردة، ومع أنه بيَّن لها وأفتاها وهو المبلغ عن الله دينه إلا أن نفسها لم تطب، وبقيت متشوفة لأداء العمرة فتابعها على ذلك حتى تطيب نفسها ولا تشعر أن غيرها حَصَّل ما لم تُحَصِّله، وانتظرها حتى تفرغ من ذلك.

---

(١) «صحيح البخاري» (٢٩٨)، و«صحيح مسلم» (٢٩٦).

(٢) «صحيح البخاري» (١٧٨٨)، و«صحيح مسلم» (١٢١١).

يا لله كيف يملك هذه السهولة الأخلاقية والمراعاة للمشاعر النفسية في هذا الظرف الذي غالبًا ما يكون الناس فيه على حال من التوتر وضيق الخلق وقلة الصبر.

ومع ذلك لم يرد النبي ﷺ طلبها، ولم يجرح مشاعرها، وإنما أبلغها مرادها واستوعب رغبتها، وتابعها على ما هويت.

وكما كان له ﷺ براعته في رعاية المشاعر فقد كان ينهى عن جرح المشاعر وإيلامها، ومن ذلك نهيه عن تناجي اثنين دون الثالث؛ لأن ذلك يؤذي مشاعره، فعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً فَلَا يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ الآخَرِ، حَتَّى تَخْتَلِطُوا بِالنَّاسِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُحْزِنَهُ**»[1]، ومن ذلك نهيه عن احتقار أحدٍ أو ازدرائه قال ﷺ: «**المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا** -وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ- **بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ المُسْلِمَ، كُلُّ المُسْلِمِ عَلَى المُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ**»[2]، والاحتقار إيذاء للمشاعر وانتقاص للشخصية، وغضب ﷺ على أبي ذر عندما عيَّر رجلاً بأمه وقال: «**أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟! إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ**». وتعيير أحد بأمه اعتداء على مشاعره وتقصدٌ له بالإيذاء وفيه نعرة جاهلية من الفخر بالأحساب والطعن في الأنساب.

ونهى عن التفاخر المشعر بالتعالي على الآخرين فقال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ**»[3].

وكل ذلك مما يحفظ المشاعر الاجتماعية أن تُخدش والقلوب أن تُوحش، ويحفظ وئام المجتمع ووداده وسلامه.

فصلوات الله وسلامه على أعظم الخلق خلقًا.

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٢٩٠)، و«صحيح مسلم» (٢٤٨٤).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٥٦٤).

(٣) «صحيح مسلم» (٢٨٦٥).

خلاصات:

١- كان للنبي ﷺ حساسية مرهفة في مراقبة المشاعر، وبراعة بالغة في رعايتها.

٢- إذا بدرت منه بادرة يمكن أن تفهم بما يجرح أو يحرج فإنه يسارع إلى تصحيح هذا التصور، ويشعر من يعامله بمكانه ومكانته وطيب نفسه عليه.

٣- لم يكن يواجه أحداً بما يكره، وإذا كره شيئا عرف في وجهه.

٤- كان أسعد الناس برعايته لمشاعرهم هم أهله، فكان خير الناس للناس وخيرهم لأهله.

٥- وكما كان له براعته في رعاية المشاعر فقد أمر بحماية المشاعر من الإيذاء ونهى عن كل ما يَخدشها أو يوحشها كالتفاخر والتنابز واحتقار الآخرين.

الرسول ﷺ ومفاتح القلوب

كان من مظاهر عظمة الخُلُق النبوي ذاك الاقتدار على احتواء القلوب، والبراعة في إسعاد من حوله، والتحبب إليهم حتى ملأ حبه فجاج نفوسهم، وله طرائق مأنوسة في فتح أغاليق القلوب واستنبات الود فيها، فمن ذلك:

أولاً: الابتسامة، فكان محيا رسول الله ﷺ طلقًا مشرقًا بابتسامة عذبة رضيَّة، فيتبسَّم في وجه كل مَن يلقاه، وكانت الابتسامة النبوية تضج برسائل الود والمحبة والخصوصية، بحيث يشعر كل من يتبسَّم النبي ﷺ في وجهه كأنما هي ابتسامة مدخرة له.

يقول جرير بن عبد الله البجلي: مَا حَجَبَنِي رَسُولُ الله ﷺ مُنْذُ أَسْلَمْتُ وَلَا رَآنِي إِلاَّ تَبَسَّمَ فِي وَجْهِي[1]، لقد كان رسول الله ﷺ يتبسَّم في وجه كل من يلقاه لكن جريراً شعر أن هذه الابتسامة رسالة خاصة له، لأن تلك الابتسامة كانت محمَّلة برسائل المودة والمحبة والاهتمام، فأحسَّ جرير أن هذه المعاملة خاصة له مع أن النبي ﷺ كان يتبسّم في وجه كل من يلقاه.

وعن خالد بن الوليد قال: لَمَّا أَرَادَ اللهُ بِي مَا أَرَادَ مِنَ الخَيْرِ، قَذَفَ فِي قَلْبِي الإِسْلَامَ، وَحَضَرَنِي رُشْدِي، فَقُلْتُ: قَدْ شَهِدْتُ هَذِهِ المَوَاطِنَ كُلَّهَا عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، فَلَيْسَ فِي مَوْطِنٍ أَشْهَدُهُ إِلَّا أَنْصَرِفُ وَأَنَا أَرَى فِي نَفْسِي أَنِّي مَوْضِعٌ فِي غَيْرِ شَيْءٍ، فَأَجْمَعْتُ الخُرُوجَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَأُخْبِرَ بِي وسُرَّ بذلك، فَلَبِسْتُ مِنْ صَالِحِ ثِيَابِي، ثُمَّ عَمَدْتُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَلَقِيَنِي أَخِي، فَقَالَ: أَسْرِعْ، فَإِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَدْ أُخْبِرَ بِكَ، فَسُرَّ بِقُدُومِكَ،

(١) «صحيح البخاري» (٣٠٣٥)، و«صحيح مسلم» (٢٤٧٥).

وَهُوَ يَنْتَظِرُكُمْ. فَأَسْرَعْنَا المَشْيَ، فَاطَّلَعْتُ عَلَيْهِ، فَمَا زَالَ يَتَبَسَّمُ إِلَيَّ حَتَّى وَقَفْتُ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ بِالنُّبُوَّةِ، فَرَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ، فَقُلْتُ: إِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّكَ رَسُولُ الله. فَقَالَ: «**تَعَالَ**». ثُمَّ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**الحَمْدُ لله الَّذِي هَدَاكَ، قَدْ كُنْتُ أَرَى لَكَ عَقْلاً رَجَوْتُ أَنْ لَا يُسْلِمَكَ إِلَّا إِلَى خَيْرٍ**». قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، قَدْ رَأَيْتَ مَا كُنْتُ أَشْهَدُ مِنْ تِلْكَ المَوَاطِنِ عَلَيْكَ مُعَانِداً لِلْحَقِّ، فَادْعُ اللهَ أَنْ يَغْفِرَهَا لِي، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**الإِسْلَامُ يَجُبُّ مَا كَانَ قَبْلَهُ**». قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، عَلَى ذَلِكَ. قَالَ: «**اللهُمَّ اغْفِرْ لِخَالِدِ بْنِ الوَلِيدِ كُلَّ مَا أَوْضَعَ فِيهِ مِنْ صَدٍّ عَنْ سَبِيلِكَ**»[1].

كانت الابتسامة النبوية مفتاحاً يفتح أغاليق القلوب وعلَّمنا أن الابتسامة معروف وإحسانٌ فقال: «**لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ المَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ**»[2].

فقوله: «**بِوَجْهٍ طَلْقٍ**»، معناه أن الوجه كله يبتسم وليست الابتسامة مسجونة في شفتيك، ولكن تشرق من كل محيَّاك، فتشع من عينيك، وتفتر من ثغرك، وتتراقص على وجنتيك، وتقول كل ملامح وجهك: أهلاً وسهلاً ومرحبًا إني أحبك.

ثانيًا: الإشعار بالأهمية، فكان ﷺ يشعر كل أحد بمكانته وأهميته وحظوته حتى ليظن أنه آثر لديه من كل من حوله، ومن ذلك أن النبي ﷺ كان يخطب يومًا على المنبر، وأصحابه جلوس وجوههم مقبلة إليه، وفي هذه الأثناء دخل من باب المسجد الشمالي جرير بن عبد الله البجلي فما هو إلا أن دخل حتى التفت الناس كلهم ينظرون إليه، وشعر أن هذا الالتفات الجماعي له سبب محفز فسأل الذي بجانبه وقال: هل ذكرني رسول الله قبل أن أدخل؟ قال: نعم، قال: «**يَدْخُلُ عَلَيْكُمْ مِنْ هَذَا البَابِ مِنْ خَيْرِ ذِي يَمَنٍ، عَلَى وَجْهِهِ مَسْحَةُ مَلَكٍ**»[3]، وكان جرير وسيمًا وضيئًا، ولك أن تتخيل أثر هذه الكلمة في نفس جرير ومشاعره وهو يسمعها ويرى أثرها.

---

(١) «دلائل النبوة» للبيهقي (٤/ ٣٥١).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٦٢٦).

(٣) «مسند أحمد» (١٩١٨٠)، و«السنن الكبرى» للنسائي (٨٢٤٤).

ولما أسلم عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شعر بأهميته عند رسول الله ﷺ، حيث كان النبي ﷺ يُسرّب إليه رسائل تشعره بالأهمية، حتى شعر أنه أحب الناس إلى رسول الله ﷺ، مع أنه أسلم سنة سبع من الهجرة، بعد عشرين سنة من بعثة النبي ﷺ ومع ذلك ظن أنه أحب إلى رسول الله ﷺ من أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، ولذلك سأل النبي ﷺ قائلاً: يَا رَسُولَ الله مَنْ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيْكَ؟ وكان يسأل هذا السؤال وهو يحسب أن النبي ﷺ سيقول له على الفور: أنت، وذلك لكثرة ما وصل إليه من رسائل الأهمية، أما الجواب النبوي فجاء سريعًا: «**عَائِشَةُ**». فقال عمرو: ومِنَ الرِّجَالِ؟ قَالَ: «**أَبُوهَا**». قال: ثم من؟ قال: «**عُمَرُ**»(١).

ما الذي دفع عَمْراً أن يسأل هذا السؤال؟ إنه إشعار النبي ﷺ له بالأهمية حتى ظن أنه الأحب لديه، وله ﷺ في الإشعار بالأهمية فنون متنوعة، منها: مشهد كعب بن مالك عندما أتى إلى النبي ﷺ مع قومه -وهو شاب في قرابة العشرين من عمره- ليُبايع النبي ﷺ بيعة العقبة، فكان الذي يُعرِّف بهم رسول الله ﷺ هو عمه العباس بن عبد المطلب فيقول: هذا فلان وهذا فلان، فلما قال: هذا كعب بن مالك، قال النبي ﷺ: «**الشَّاعِرُ؟**». إن كلمة «**الشَّاعِر**» التي قالها النبي ﷺ هي رسالة تقول: لقد سمعت به، وسمعت شعره، هذا رجل معروف، لقد أوصل ﷺ من خلال هذه الكلمة رسائل عديدة إلى كعب بن مالك تشعره بأهميته عند النبي ﷺ، ولذلك ظل صدى هذه الكلمة يرن في أذن كعب بن مالك حتى قال بعد أن كبر: فلا أنسى قول رسول الله ﷺ: «**الشَّاعِرُ**»(٢).

ثالثًا: الاهتمام بهموم أصحابه فيشعر كل شخص أن همومك تهمني، ومشاغلك تشغلني، وقضاياك قضايا عندي، وهذه تحمل رسالة ضخمة من الإشعار بالرعاية والخصوصية والحب.

(١) «صحيح البخاري» (٣٦٦٢).
(٢) «مسند أحمد» (١٥٧٩٨).

ومثال ذلك: خبر جابر بن عبد الله بن حرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ الذي توفي أبوه شهيداً في معركة أحد، وترك تسع بنات وولداً هو جابر، فتزوج جابر ثم سار مع النبي ﷺ في غزوة، وفي طريق الرجوع انقطع جمل جابر وضعف سيره وصار آخر جمل في القافلة، ثم ابتعد الجيش عنه واحتار جابر حتى همّ أن يترك الجمل ويتبع الجيش ماشيًا، وبينما هو يعزم على اتخاذ هذا القرار إذا هو يسمع صوتًا من خلفه يقول: «**جَابِر**». فالتفت فإذا رسول الله ﷺ، وكان النبي ﷺ يتخلَّف أحيانًا في أخريات الجيش؛ حتى يعين المنقطع ويدرك المتخلف، قال: نعم؛ لبيك يا رسول الله، قال: «**مَا لَكَ؟**». قال: يا رسول الله جملي انقطع وأُعيي، وكان مع النبي ﷺ عصا فنخس النبي ﷺ الجمل بها فانطلق الجمل، وإذا جابر الذي كان يحاول أن يجرجر الجمل حتى يسير إذا به يحاول أن يكف الجمل حتى لا يندفع ويسبق النبي ﷺ، وصار جابر في هذا الفضاء يسير ليس معه إلا رسول الله ﷺ، وفي سكون الصحراء وهدوء الليل وهذان الراكبان يسيران؛ وإذا نبيك ﷺ يسأل جابراً ويقول: «**تَزَوَّجْتَ يَا جَابِرُ؟**». قال: نعم يا رسول الله، قال: «**بِكْراً أَمْ ثَيِّبًا؟**». قال: بل ثيبًا، قال: «**أَفَلَا تَزَوَّجْتَ بِكْراً تُلَاعِبُكَ وَتُلَاعِبُهَا؟**». قال: يا رسول الله إن أبي استشهد وترك تسع بنات فكرهت أن أضم إليهن فتاة صغيرة مثلهن، فأردت أن أتزوج امرأة قد جربت حتى تقوم عليهن جميعًا، فأُعجب النبي ﷺ برجاحة عقله وقال له: «**أَحْسَنْتَ بَارَكَ اللهُ لَكَ**». ثم قال: «**يَا جَابِرُ إِذَا اقْتَرَبْنَا مِنَ المَدِينَةِ كَأَنِّي بِامْرَأَتِكَ تَنْفضُ نَمَارِقَهَا**». قال: يا رسول الله ليس عندنا نمارق، فقال له النبي ﷺ: «**أَمَّا إِنَّهُ سَتكُونُ لَكُمْ نَمارِق**»[1]. يا ترى ما شعور جابر وهو يسير مع النبي ﷺ والرسول يسأله عن أخص خصوصياته عن زواجه وزوجته، ويُشعره بالاهتمام بهمومه، إنني أتخيل جابراً حينها وكأنه يسير في أفق عالٍ بين السماء والأرض، نشوة وسعادة وبهجة أنه من رسول الله ﷺ بهذه المكانة، حتى إنه يسأله عن زوجته وحاله في زواجه.

(١) «مسند أحمد» (١٥٠٢٦).

إن أشد القلوب قساوة تفقد مقاومتها أمام هذا المفتاح، أشْعِر كل إنسان بأنك تهتم بالشيء الذي يهتم به تفتح أغاليق قلبه، ولذلك نرى الذين استخدموا هذا الأسلوب النبوي ببراعة كيف أثروا في النفوس.

ومثل ذلك: سؤال النبي ﷺ للأشعث بن قيس الكندي عندما أتى إليه فقال له: «**يَا أَشْعَث، أَلَكَ وَلَدٌ؟**». فقال: غُلَامٌ وُلِدَ لِي فِي مَخْرَجِي إِلَيْكَ مِنَ ابْنَةِ جَمْدٍ، وَلَوَدِدْتُ أَنَّ مَكَانَهُ شِبَعُ القَوْمُ، قَالَ: «**لَا تَقُولَنَّ ذَلِكَ، فَإِنَّ فِيهِمْ قُرَّةَ عَيْنٍ وَأَجْراً إِذَا قُبِضُوا، ثُمَّ لَئِنْ قُلْتَ ذَاكَ، إِنَّهُمْ لَمَجْبَنَةٌ مَحْزَنَةٌ، إِنَّهُمْ لَمَجْبَنَةٌ مَحْزَنَةٌ**»[1].

لكن ما شعور الأشعث بن قيس يوم سأله النبي ﷺ ألك ولد؟ وكأني به يقول: لقد تعدى اهتمامه بي إلى اهتمامه بأبنائي؛ لأن النبي ﷺ بسؤاله ذلك اقترب من المنطقة الأثيرة لدى كل إنسان، وهي أن يتحدث عن محبوباته وأحبها ولده.

إن من مفاتيح القلوب أن تهتم بما يهتم به من تلقاه، أولاده، عمله، إنجازاته، همومه، فأحب حديث يتحدَّث به الإنسان هو أن يتحدث عن نفسه.

رابعًا: اللمسات العاطفية، وكان للنبي ﷺ لمساته العاطفية التي بقي أصحابه يذكرونها وكأنهم لا زالوا يجدون لذتها ونشوتها، من ذلك خبر الشاب الذي أَتى إلى النبي ﷺ فقال: يَا رَسُولَ الله ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا. فَأَقْبَلَ القَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ وَقَالُوا: مَهْ مَهْ، فقال له النبي ﷺ: «**ادْنُهْ**». فَدَنَا حتى صار في متناول يد النبي ﷺ ثم سأله: «**أَتُحِبُّهُ لأُمِّكَ؟**». قَالَ: لَا وَالله، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاكَ. قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لأُمَّهَاتِهِمْ**». قَالَ: «**أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟**». قَالَ: لَا وَالله يَا رَسُولَ الله، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاكَ. قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ. أَفَتُحِبُّهُ لأُخْتِكَ؟**». قَالَ: لَا وَالله جَعَلَنِي اللهُ فِدَاكَ. قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لأَخَوَاتِهِمْ. أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟**». قَالَ لَا وَالله، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاكَ. قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ. أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟**». قَالَ: لَا وَالله، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاكَ. قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ**». ثم مدَّ النبي ﷺ يده المباركة الشريفة

(١) «مسند أحمد» (٢١٨٤٠).

حتى أفضى بها إلى صدر الشاب فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ حتى وجد هذا الشاب برد يد النبي ﷺ على صدره، فبماذا كان يشعر ذاك الشاب والنبي ﷺ يضع كفه الكريمة على صدره ويقربه هذا القرب منه؟ ثم قال النبي ﷺ: «**اللهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ**»(١). لقد كان يمكن أن يدعو له النبي ﷺ من دون أن يضع يده على صدره لكن لهذه اللمسة النبوية الحانية على صدر هذا الشاب أثرها، فأشعرته بالقرب والعاطفة الحانية من النبي ﷺ، وأن سؤاله ذاك لم يبعده عن النبي ﷺ ولم يوحشه منه، لقد غسلت هذه اللمسة من صدره وقلبه كل هَمٍّ بالفحشاء بعد ذلك، فَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ الفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ من ذلك بعد.

وهنا نتساءل: هل ظل ذلك الشاب يقارن بين الحنان النبوي واللمسة العاطفية النبوية وبين الزجر الذي تعرض له ممن كانوا حوله؟

إنها لمسات عاطفية حانية يسرّب نبيك ﷺ من خلالها رسائل الحب والاهتمام، فاللمسة الحانية مفتاح من مفاتيح القلوب.

خامسًا: وكان النبي ﷺ يفتح أغاليق القلوب بأن يهتم بالكبار عن طريق الاهتمام بالصغار، فيُشعر الكبار بالحب من خلال حب صغارهم.

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَكُنْتُ عَلَى بَكْرٍ صَعْبٍ(٢) لِعُمَرَ، فَكَانَ يَغْلِبُنِي، فَيَتَقَدَّمُ أَمَامَ القَوْمِ، فَيَزْجُرُهُ عُمَرُ وَيَرُدُّهُ، ثُمَّ يَتَقَدَّمُ، فَيَزْجُرُهُ عُمَرُ وَيَرُدُّهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعُمَرَ: «**بِعْنِيهِ**». قَالَ: هُوَ لَكَ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «**بِعْنِيهِ**». فَبَاعَهُ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**هُوَ لَكَ يَا عَبْدَ الله بْنَ عُمَرَ، تَصْنَعُ بِهِ مَا شِئْتَ**»(٣).

ولك أن تتخيل شعور عمر وهو يرى عطف النبي على ابنه يغلب عطفه، ويرى مكانة ابنه من النبي ﷺ واهتمامه به.

(١) «مسند أحمد» (٢٢٢١١).

(٢) هو البعير الفتي الشديد. ينظر: «كشف المشكل من حديث الصحيحين» (٢/ ٥٩١).

(٣) «صحيح البخاري» (٢١١٥).

إن الاهتمام بالصغار يفتح أغاليق قلوب الكبار، ولذلك قال ذو الأصبع العدواني، أحد سادة العرب وهو يوصي أبناءه: أكرموا صغارهم يكرمكم كبارهم، وينشأ على محبتكم صغارهم.

ولذلك فإنك تجد حفاوة النبي ﷺ بصغار أصحابه وأطفالهم متكاثرة في السنة تغني كثرتها عن تعدادها كحديث: «**يَا أَبَا عُمَيْرٍ مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ؟**»[(١)]، وخبر كساء أم خالد بنت خالد بن سعيد بن العاص[(٢)]، وقصة عبد الله بن أبي طلحة[(٣)] وغيرها، وفي كل مشهد منها معالم نبوية هادية في التعامل مع الصغار وإسعاد الكبار.

سادسًا: ومن مفاتح القلوب الهبات السخية التي كان ﷺ يتألف بها القلوب فيعطفها إليه بعد نفارها، ويشعرهم بالقرب والرعاية، فأعطى من الخمس المئات من الإبل لأبي سفيان بن حرب وابنيه يزيد ومعاوية، ولصفوان بن أُمَيَّة وعُيينة بن حصن والأقرع بن حابس والعباس بن مرداس، كما أعطى الحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى بن أبي قيس، والعلاء بن جارية الثقفي، ومالك بن عوف النصري، ومخرمة بن نوفل الزهري، وعمير بن وهب الجمحي، وهشام بن عمرو أخو بني عامر بن لؤي، وسعيد بن يربوع بن عنكشة بن عامر بن مخزوم السهمي، وغيرهم من الزعماء.

وكان لهذا أثره في الاحتواء وجبر القلوب وتأليفها ولذا قال صفوان بن أمية: لقد أعطاني رسول ﷺ يوم حنين وإنه لمن أبغض الناس إلي، فما زال يعطيني حتى إنه لأحب الخلق إلي[(٤)].

وعَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ، فَأَتَى قَوْمَهُ فَقَالَ: أَيْ قَوْمِ أَسْلِمُوا، فَوَاللهِ إِنَّ مُحَمَّداً لَيُعْطِي عَطَاءً مَا يَخَافُ الفَقْرَ. فَقَالَ أَنَسٌ: إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيُسْلِمُ مَا يُرِيدُ إِلَّا الدُّنْيَا، فَمَا يُسْلِمُ حَتَّى يَكُونَ الإِسْلَامُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا[(٥)].

(١) «صحيح البخاري» (٦١٢٩)، و«صحيح مسلم» (٢١٥٠).
(٢) «صحيح البخاري» (٣٠٧١).
(٣) «صحيح البخاري» (٥٤٧٠)، و«صحيح مسلم» (٢١٤٤).
(٤) «سنن الترمذي» (٦٦٦).
(٥) «صحيح مسلم» (٢٣١٢).

سابعـًا: ومن مفاتح القلوب الثناء الحسن على من يستحقه، وقد كان ﷺ يستخدم الثناء إسعاداً لمن يثني عليه وتأكيداً لفضله ورفعـًا من شأنه، وفي ذلك تحفيز للخير وتثبيت عليه، ومن ذلك قوله لأشج عبد القيس لما وفد عليه عبد القيس كما في حديث زَارِع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا قَدِمْنَا المَدِينَةَ فِي وَفْدِ عَبْدِ القَيْسِ، جَعَلْنَا نَتَبَادَرُ مِنْ رَوَاحِلِنَا فَنُقَبِّلُ يَدَ النَّبِيِّ ﷺ وَلَمْ نَلْبَسْ إِلَّا ثِيَابَ سَفَرِنَا، وَانْتَظَرَ المُنْذِرُ الأَشَجّ فَعَقَلَ رَكَائِبَ أَصْحَابِهِ وَبَعِيرَهُ ثُمَّ أَتَى عَيْبَتَهُ فَلَبِسَ ثَوْبَيْهِ -وَذَلِكَ بِعَيْنِ رَسُولِ الله ﷺ- ثُمَّ أَقْبَلَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ**». قَالَ: مَا هُمَا؟ قَالَ: «**الحِلْمُ، وَالأَنَاةُ**». وفي رواية: «**الحِلْمُ وَالحَيَاءُ**». فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، أَنَا أَتَخَلَّقُ بِهِمَا أَمْ اللهُ جَبَلَنِي عَلَيْهِمَا؟ قَالَ: «**بَلْ اللهُ جَبَلَكَ عَلَيْهِمَا**». فَقَالَ: الحَمْدُ لله الَّذِي جَبَلَنِي عَلَى خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا[1].

وقال عن زيد الخير الطائي لما وفد عليه: «**مَا ذُكِرَ لِي رَجُلٌ مِنَ العَرَبِ إِلا رَأَيْتُهُ دُونَ مَا ذُكِرَ لِي إِلا مَا كَانَ مِنْ زَيْدٍ فَإِنَّهُ لَمْ يَبْلُغْ كُلَّ مَا فِيهِ!**»[2].

وعندما جاءه خالد بن الوليد مسلمـًا قال له: «**قَدْ كُنْتُ أَرَى لَكَ عَقْلاً رَجَوْتُ أَلَّا يُسْلِمَكَ إِلَّا إِلَى خَيْرٍ**»[3].

وعندما أسلم أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وهو ابن عمه وكان يهجوه من قبل ذلك ويعاديه قال: «**أَرْجُو أَنْ تَكُونَ خَلَفـًا مِنْ حَمْزَةَ**»[4].

هذه بعض مفاتيح القلوب وثمَّ غيرها في كتب السنة النبوية، ويوجد قريب منها في بعض كتب العلاقات العامة وفنون التواصل مع الآخرين، لكننا عندما نطبق هذه الأساليب النبوية فإننا نشعر أننا نؤدي عبادة لله عَزَّوَجَلَّ؛ لأننا نشعر أن إسعاد الآخرين قربة نتقرب بها إلى الله، وأن الخُلُق الحسن هو أثقل شيء في ميزان العبد، فنشيع هذه المشاعر كشعائر تعبدية، لا كمهارات تواصلية، فإسعاد القلوب من شعائر الإسلام، وخلق من أخلاق المصطفى وهديه وهداه.

---

(١) «صحيح مسلم» (١٧).
(٢) «الطبقات الكبرى» (١/ ٢٤٣).
(٣) «الطبقات الكبرى» (٤/ ٢٥٢).
(٤) «البداية والنهاية» (١٠/ ١٠٦).

خلاصات:

من مفاتح القلوب النبوية:

١- التلقي بالابتسامة المشرقة المشعة، والمشعرة بالود والخصوصية.

٢- إشعار كل أحد بأهميته وقدره.

٣- الاهتمام بهموم أصحابه، وإشعار كل منهم بالمشاركة فيما يهمه.

٤- اللمسات العاطفية المؤنسة.

٥- الحفاوة بالصغار والاهتمام بهم، وفي ذلك إسعاد لهم ولآبائهم وأهلهم.

٦- تألف القلوب بالعطايا الكريمة والهبات السخية.

٧- تألف القلوب بالثناء الحسن الذي يحفز للخير ويثبت عليه.

الباب الخامس

الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأحوال حياته

الرسول ﷺ والنِعَم

كلما عظمت معرفة العبد بربه عظم امتنانه له، وحسُن تلقّيه لنعمه وفضله، واستشعر مع كل نعمة: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وعاش شعور ازدحام النعم وكثرتها ووفرتها، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨]، واستشعر عجزه عن شكر هذه النعم وباء بتقصيره في أداء حق الله بها: «**أَبُوءُ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ بِذَنْبِي**». فما ظنك بأعلم الخلق بالله، حين يتلقى نعم الله ونعماءه؟

كيف كان حاله ﷺ مع النِعَم؟ كيف كان يتذوقها؟ وكيف يتحدث عنها؟

لنرى النبي ﷺ وهو يفتق مع النعم تفاصيل التفاصيل، فلكل نعمة تذوقها، ولكل نعمة حديثها، ولكل نعمة ذكرها وشكرها.

لقد كان من أول ما نزل على النبي ﷺ في أول البعثة سورة الضحى، وختمت سورة الضحى بهذه الآية العظيمة: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، وجاء هذا التوجيه إلى النبي ﷺ في أول البعثة لأنه توجيه لأمر يحتاج إليه طوال بعثته، وبقية حياته.

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾، ولم يقل له من يحدث، فأول من تحدثه بالنعم نفسك، وأول من تتحدث إليه بالنعم ربك، تتحدث بها مع نفسك تذوقًا وعرفانًا، وتتحدث بها إلى ربك شكرانًا وامتنانًا.

ومن مشاهد تذوق النعم والتحدث بها في حياة نبينا ﷺ:

١- أنه كان إذا آوى إلى فراشه ليودع يقظة الحياة ويستقبل إغفاءة النوم، فإنه ينفصل عن الحياة بحديث النعم والشكر للمنعم جل وعز فيقول: «**الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا وَكَفَانَا وَآوَانَا، فَكَمْ مِمَّنْ لَا كَافِيَ لَهُ وَلَا مُؤْوِيَ**»(١)، ولا يذكر ماذا كفانا لأن ما كفاك الله شيء لا يمكن أن تحصيه، فأنت عرضة لأخطار وأضرار وأمراض، والله عَزَّوَجَلَّ كفاكها كلها: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١].

«**وَآوَانَا**» فرزقنا مأوى نأوي إليه بأمان وسكينة، ثم يكمل حديث الامتنان بقوله: «**فَكَمْ مِمَّنْ لَا كَافِيَ لَهُ وَلَا مُؤْوِيَ**». فكم غيرنا من خلق الله لم تحصل لهم هذه النعم التي حصلت لنا، فلم يكفَوْا شروراً كثيرة فتعرضوا لها، ولم يُرزقوا مأوى يأوون إليه بأمان، فهم في تشرد وضياع، ونحن قد كفينا وأُوِينا.

هذا التذوق للنعم يجعل الإنسان ينام قرير العين مغتبطاً بنعم الله التي عددها، وممتناً لله الذي وهبها، وتعداد هذه النعم يجدد في القلب الشعور بالوفرة وعطاء الله عَزَّوَجَلَّ الغامر ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [النحل: ١٨].

٢- ثم يغفو النبي ﷺ إغفاءته، وينام نومته فإذا استيقظ فإن أول حديث يتحدث به إلى ربه أن يتذكر النعم أول ما يتذكر إذا استيقظ فيقول: «**الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا، وَإِلَيْهِ النُّشُورُ**»(٢). يا الله تذوقَ نعمة الحياة بعد النوم، كأنما يقول: الحمد لله الذي وهب لي نوماً استغرقت فيه حتى كأنني ميت، وكم من إنسان جاء لينام فلم يستطع النوم من الألم، وكم من إنسان أتى لينام فلم يستطع النوم من الخوف، وأنا وهبني الله نوماً استغرقت فيه، وكم من إنسان نام ثم لم يستيقظ لأن روحه قبضت، أما أنا فرد الله إلي روحي وأحياني.

إنه تذوق نعمة الاستيقاظ من النوم، وهبة الحياة وتجددها في يوم جديد، إنه الشعور بالنعم، وتذكرها شكراً لله وعرفاناً بفضله، وعند تذكر النعم عند الاستيقاظ تعيش النفس انتعاشاً، وشعوراً بتجدد السعادة والامتنان لله عَزَّوَجَلَّ باستئناف الحياة.

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٧١٥).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٣١٢)، و«صحيح مسلم» (٢٧١١).

٣- وفي حياة النبي ﷺ مع أصحابه وقفات مع تذوق النعم، فقد خرج النبي ﷺ في الظهيرة في يوم شديد الحر لأنه لا يوجد في بيته شيء يأكله، فلقي أبا بكر، ثم لقيا عمر فقال لهما النبي ﷺ: «**مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ؟**» -لأن وقت الظهيرة ليس وقتًا يخرج الناس فيه- قَالَا: الجُوعُ، يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَأَخْرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا**». ثم انطلق بهم إلى أبي الهيثم بن التَّيِّهان وكان صاحب نخل، فدخلوا عليه ففرح بهم وقال: من أكرم أضيافًا مني؟ ثم انطلق بهم إلى حديقته وأجلسهم في الظل، ثم ذهب إلى عذق نخل فيه رطب وبسر وتمر فقطعه وأتى به إليهم، وأتى إليهم بالماء البارد وقال: كلوا، فأقبل النبي ﷺ على أصحابه وقال: «**لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هَذَا النَعِيمِ يَوْمَ القِيَامَةِ**»[(١)]. ثم بدأ يعدد لهم هذا النعيم، فقال: «**ظِلٌّ بَارِدٌ، وَرُطَبٌ طَيِّبٌ، وَمَاءٌ بَارِدٌ، لتُسأَلُنَّ عَنْ هَذَا النَعِيمِ**»[(٢)]. والسؤال عن هذا النعيم يوم القيامة ليس سؤال محاسبة عسيراً، ولكنه حساب عرض وتذكير بالنعم، لكن لاحظ تذوقها وتفصيلها وتعدادها، ظل بارد، وماء بارد، وتمر طيب.

٤- ومن حفاوته بالنعمة حسن استقبالها، وقد كانت بواكير النخل تحضر للنبي ﷺ فيضعها على ثَنِيّتيه ثم يقبّلها ثم يعطيها الأطفال الصغار في مجلسه.

وهذا مشهد احتفاء بالثمرة وإكرام للنعمة وشكر للمنعم بها.

فهل نقف مع النعم التي تغمرنا ولا نستطيع أن نحصيها عدّاً، فنتذكرها بعرفان وامتنان لله بها؟ هل نتذكرها فنشعر بالغنى والعطاء الإلهي يغمرنا؟ هل ننظر إلى النعم التي عندنا فنشعر بالوفرة والغنى بدل أن ننظر إلى النعم التي عند غيرنا فنشعر بالبؤس والحرمان؟ فلنأخذ من هذا الدرس النبوي هديًا في تذوق النعم، حتى لا يقتل الاعتياد بهجة النعمة ومذاقها، وإنما نتذوق النعم كأنما نتلقاها أول مرة، فنشعر ببهجتها وعظيم إنعام الله بها، نذكرها ونعلن لله شكرها، نذكرها ذكرَ شكر لا ذكر فخر.

كان قارون يذكر النعم لكن بفخر فيقول: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨] أما نبي الله سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ فيذكر النعم بامتنان وشكر فيقول: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٠٣٨).

(٢) «جامع الترمذي» (٢٣٦٩).

٥- ومن أعظم النعم وأجلها نعمة الهداية وفتح بصر البصيرة للتعرف على الله، وسلوك الطريق الموصل إليه، ولذا امتن الله بهذه النعمة على نبيه فقال: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧].

وعاش النبي ﷺ شعور الامتنان لله بهذه النعمة، ومن ذلك كثرة دعائه بالتثبيت عليها قالت أم سلمة: كَانَ أَكْثَرُ دُعَائِهِ: «**يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**». قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله مَا لِأَكْثَرِ دُعَائِكَ يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ؟ قَالَ: «**يَا أُمَّ سَلَمَةَ إِنَّهُ لَيْسَ آدَمِيٌّ إِلَّا وَقَلْبُهُ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الله، فَمَنْ شَاءَ أَقَامَ، وَمَنْ شَاءَ أَزَاغَ**»[(١)].

ومن ذلك استشعار نعمة الله وفضله في كل عمل صالح يوفقه له ويعينه عليه، وأنه لولا هداية الله وتوفيقه ما تيسَّر له هذا العمل ولا اهتدى إليه.

ولذا كان ﷺ وأصحابه وهم في شدة البرد وشدة الخوف وشدة الجوع يحفرون الخندق حول المدينة ويرتجزون:

لاهم لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا ... وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا

فهم في هذه الشدة يستشعرون نعمة الله بالهداية وأنها محض هبة وإنعام منه عَزَّوَجَلَّ.

وكذلك عندما دخل ﷺ مكة فاتحًا بعد جهاد عشرين سنة صبر فيها وصابر، ورابط وجاهد، وتحمل أنواع الأذى، وأخرج من وطنه، وقتل حوله أصحابه وأقاربه، طأطأ رأسه خشوعًا وخضوعًا وتواضعًا لله وهو يقرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١]، ويُرَجِّع في قراءته فيهتز صوته من شدة تأثره وكأنما يعلن لربه البراءة مِن حوله وقوته والامتنان لله بفضله ومعونته.

يا رب ما أنا فتحت ولكن أنت فتحت، وما أنا رميت ولكن أنت رميت، وما أنا انتصرت ولكن أنت نصرت، ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧].

(١) «جامع الترمذي» (٣٥٢٢).

٦- وفي رؤية النِعَم واستحضار فضل الله بها ترقٍّ في مقامات الشكر لله والتي كان أنبياء الله ورسله أعظم الخلق تحقيقًا لها، كما قال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، وكما قال سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩]، وقال جَلَّ وَعَلَا لموسى: ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُنْ مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، وقال لعبده لقمان: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان: ١٢]، وقال جل وعز لنبيه محمد: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٦].

ولذا قام ﷺ في أعلى مقامات الشكر باستشعار إنعام الله والامتنان له والاجتهاد في شكره، فقام ﷺ في صلاة الليل حتى تفطرت قدماه، فلما قيل له كيف تفعل ذلك وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال: «**أَفَلَا أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً**»(١).

(١) «صحيح البخاري» (٤٨٣٦)، و«صحيح مسلم» (٢٨٢٠).

خلاصات:

١- أنزل الله على نبيه ﷺ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، فكان أول من يحدث بها نفسه تعداداً وتذوقاً، وأول من يتحدث إليه بها ربه شكراً وامتناناً.

٢- كان تعداد النعم وشكرها آخر ما يتحدث به قبل أن ينام، وأول ما يتحدث به عندما يستيقظ.

٣- من حفاوته بالنعمة حسن تلقيها، فيتلقى بواكير النخل ويقبّلها احتفاء بها، وتعظيماً لإنعام الله المتفضل بها.

٤- النعم التي يذكرها النبي ﷺ ويجدد الشكر عليها هي نعم الحياة المعتادة، لكنه يتذوقها وكأنما يتلقاها جديدة كل يوم.

٥- الإحساس بالنعم المصاحبة للحياة كالصحة، والمطعم، والمأوى يشعر الإنسان بالغنى والاكتفاء، ووفرة العطاء الإلهي الغامر.

٦- الإحساس بالنعم وتعدادها بامتنان لله من شعائر الشكر لها.

٧- من أعظم النعم التي نستشعرها نعمة الهداية من الضلال والتوفيق لصالح الأعمال.

٨- ومما يثمره النظر إلى النعم والامتنان لله بها، الترقّي في مقامات الشكر لله، ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ [سبأ: ١٥].

الرسول ﷺ والشدائد

عبرت الشدائد حياة النبي ﷺ، وكان لكل مرحلة من حياته شدائدها، حتى لا تدري أيها أشدها، هل معاناته في حصار الشِّعْب، أم فجيعته عام الحزن، أم تركه لبلده وهجرته عنها، أم ما أصابه في أحد، أم حصار الخندق يوم الأحزاب، أم فجيعته بأصحابه القراء في بئر معونة؟

لكن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، جلت لنا الأمر حين سألت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ قَالَ: «**لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ العَقَبَةِ**[1]، **إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ**»[2]، وذلك حين ذهب إلى الطائف وعرض دعوته عليهم وقابل كبراءهم فلم يجيبوه إلى ما أراد لهم، فاغتم لذلك حيث سيرجع إلى قريش والتي زادت جراءتها عليه بعد وفاة أبي طالب، فكرب من إعراض أهل الطائف حين دعاهم ومن شماتة أهل مكة وجراءتهم إذا رجع إليهم، ودعا ربه بالدعاء المشهور: «**اللَّهمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، أَنْتَ رَبُّ المُسْتَضْعَفِينَ، وَأَنْتَ رَبِّي، إِلَى مَنْ تَكِلُنِي؟ إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي؟ أَمْ إِلَى عَدُوٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي؟ إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلَا أُبَالِي،**

---

(١) اختلف في تحديد العقبة، فذهب كثيرون إلى أنها عقبة منى في مكة، وقيل هي العقبة التي في قرن المنازل بين مكة والطائف، ولعل هذا هو الأرجح؛ لأن الذين عرض النبي ﷺ عليهم الإسلام في منى فلم يستجيبوا كثيرون، وما كان ذاك يكرب النبي ﷺ أو يغمه، ولكن الذي أكربه أن يذهب إلى الطائف يعرض عليهم دعوته فلم يجيبوه وسيعود إلى مكة فيشمتوا به ويزدادوا جراءةً عليه.

(٢) «صحيح البخاري» (٣٢٣١)، و«صحيح مسلم» (١٧٩٥).

وَلَكِنَّ عَافِيَتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَصَلُحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، مِنْ أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَكَ، أَوْ يَحِلَّ عَلَيَّ سَخَطُكَ، لَكَ العُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ»(١).

وكان ﷺ في حال من الكرب حين عاد إلى مكة يسير مستغرقًا لا يشعر بما حوله قال ﷺ: «**فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ؟**» فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**»(٢).

وفي هذا الحديث هدي النبي ﷺ في الشدائد والمحن التي عبرت حياته، ومن ذلك:

أولاً: أنه في وقت الشدائد والمحن يقوم بعبوديةِ الضراعة لله واستجداء عونه، واستنزال مدده، فعندما كان يسير مغمومًا كان دعاؤه لله وتوجه إليه بغاية الضراعة والصبر: «**اللهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِين أَنْتَ رَبُّ المُسْتَضْعَفِينَ، وَأَنْتَ رَبِّي**».

ومثل ذلك: دعاؤه في ليلة معركة بدر حيث قضى الليل في العريش يناشد ربه: «**اللهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ العِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ**»(٣)، حتى سقط رداءُهُ فأتاه أبو بكر والتزمه من ورائه وأخذ رداؤه فألقاه على منكبيه وهو مشفق عليه من شدة الضراعة يقول: «**يَا نَبِيَّ الله، كَفَاكَ مُنَاشَدَتكَ رَبَّكَ، فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ**»(٤).

---

(١) «سيرة ابن هشام» (١/ ٤٢٠).
(٢) «صحيح البخاري» (٣٢٣١)، و«صحيح مسلم» (١٧٩٥).
(٣) «السنن الكبرى» للنسائي (٨٥٧٤).
(٤) «صحيح البخاري» (٢٩١٥)، و«صحيح مسلم» (١٧٦٣).

وفي الأحزاب دعا في مسجد الفتح يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء حتى جاءته البشرى بالفتح[1].

وكان ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى[2]، امتثالا لأمر الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ١٥٣].

ثانيًا: أنه في شدة الكرب والمحنة في غاية الثبات ورباطة الجأش؛ فعندما أصيب المسلمون في أحد وانهزم من انهزم منهم قال كعب بن مالك: فعرفت رسول الله ﷺ بعينيه تبرقان تحت المغفر[3]، ففي هذه الشدة كانت عيناه تشعان ثقة وطمأنينة، وفي غزوة الخندق عندما بلغه نقض بني قريظة للعهد أرسل إليهم من يتأكد من ذلك فلما بلغه الخبر قال: «**اللهُ أَكْبَرُ، أَبْشِرُوا يَا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ**». ثم تقنّع بثوبه واضطجع، ومكث طويلا، فعرفوا أنه لم يأته خبر عن بني قريظة، ثم رفع رأسه وقال: «**أَبْشِرُوا بِفَتْحِ اللهِ وَنَصْرِهِ**»[4]، وفي حنين لما انهزم من حوله وبقي في نفر قليل معه اقتحم على بغلته وهو يقول: «**أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ المُطَّلِبْ**»[5].

ثالثًا: أنه في حال شدة البلاء والضر يكون في غاية الرضا والتسليم لله والصبر على بلائه، واحتساب الأجر والفضل منه، فصبره هو الصبر الجميل البعيد عن الجزع والضيق والتضجر، ومن جميل صبره هنا التسليم لله والرضا عنه: «**إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلَا أُبَالِي، وَلَكِنَّ عَافِيَتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي**».

ولما دخل عليه ابن مسعود وهو يوعك في مرض موته قال: فمسسته بيدي فقلت: يا رسول الله، إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعْكًا شَدِيداً، قال: «**إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ**».

---

(١) «مسند أحمد» (١٤٥٦٣).

(٢) «سنن أبي داود» (١٣١٩).

(٣) «المعجم الأوسط» للطبراني (١١٠٤).

(٤) «دلائل النبوة» للبيهقي (٣/ ٤٠٣).

(٥) «صحيح البخاري» (٢٨٦٤)، و«صحيح مسلم» (١٧٧٦).

قُلْتُ: إِنَّ ذَاكَ بِأَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ؟ قَالَ: «**أَجَلْ، مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذىً إِلَّا حَاتَّ اللهُ عَنْهُ خَطَايَاهُ، كَمَا تَحَاتُّ وَرَقُ الشَّجَرِ**»(١).

ولما دخل على ابنه إبراهيم وهو يجود بآخر أنفاس الحياة بكى وقال: «**تَدْمَعُ العَيْنُ وَيَحْزَنُ القَلْبُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنا، وَاللهِ يَا إِبْرَاهِيمُ إِنَّا بِكَ لَمَحْزُونُونَ**»(٢).

ويقول: «**إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ بَلَاءً الأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ**»(٣)، و«**مَا يَزَالُ البَلَاءُ بِالمُؤْمِنِ وَالمُؤْمِنَةِ فِي نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللهَ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ**»(٤).

رابعًا: أنه في الشدة لا يفقد أمله ويقينه، فهو في الشدائد متفائل ومبشر، ويظهر أمله في موقفه مع ملك الجبال حين قال له: «**بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**». فأمله ممتد إلى الأجيال القادمة وإن لجّ الملأ في غلوائهم.

وفي طريق الهجرة حين لحقه سراقة وقد نذرت به القبائل فكان يسير والرَّصْد أمامه والطلَب خلفه فلما ساخت قوائم فرس سراقة وعلم عجزه طلب أن يكلمهم، فلما وصل إليهم وجد النبي ﷺ في غاية التفاؤل يبشره بسواري كسرى، وكانت مفاجأة أخرى لسراقة فقال: كسرى أنوشروان؟ قال: «**نَعَمْ**». فخاف سراقة أن هذا الذي سيبلغ ملكه ملك كسرى سيطلبه وينتقم منه بعد ذلك، فطلب منه كتاب أمان هو أعجب كتاب أمان في التاريخ، يمنحه المطلوب للطالب، فكتبه له أبو بكر وأعطاه إياه(٥).

وفي غزوة الخندق عندما زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وزلزل المؤمنون زلزالاً شديداً، وعرضت لهم الصخرة وهم يحفرون الخندق قام إليها النبي ﷺ وقد عصب على بطنه حجراً من الجوع، فجعل يضرب فإذا قدح الشرر كبَّر وقال: «**اللهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ، وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ قُصُورَهَا الحُمْرَ مِنْ مَكَانِي هَذَا**»،

(١) «صحيح البخاري» (٥٦٤٨)، و«صحيح مسلم» (٢٥٧١).
(٢) «صحيح البخاري» (١٣٠٣)، و«صحيح مسلم» (٢٣١٥).
(٣) «جامع الترمذي» (٢٥٦١).
(٤) «جامع الترمذي» (٢٣٩٩).
(٥) «صحيح البخاري» (٣٩٠٦)، و«الاستيعاب» لابن عبد البر (٢/ ١٤٨).

ثُمَّ قَالَ: «**بِسْمِ اللهِ**» وَضَرَبَ أُخْرَى فَكَسَرَ ثُلُثَ الحَجَرِ فَقَالَ: «**اللهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ، وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ المَدَائِنَ، وَأُبْصِرُ قَصْرَهَا الأَبْيَضَ مِنْ مَكَانِي هَذَا**»، ثُمَّ قَالَ: «**بِسْمِ اللهِ**» وَضَرَبَ ضَرْبَةً أُخْرَى فَقَلَعَ بَقِيَّةَ الحَجَرِ فَقَالَ: «**اللهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ اليَمَنِ، وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذَا**»[(١)].

وهكذا هو في ذروة الأزمات والشدائد يبشر بتفاؤل، وينظر إلى موعود الله وكأنه رأي عين.

خامسًا: تعرض النبي ﷺ لأنواع شتى من الشدائد الحسية والمعنوية؛ فتعرض لشدة الإيذاء حين ألقي سلى الجزور على ظهره وهو ساجد عند الكعبة، وتعرض لشدة الجوع حتى ربط على بطنه الحجر، وتعرض لشدة الخوف في المدينة حين حاصرها الأحزاب، وتعرض لشدة الثُكل حين توفي أبناؤه وبناته، ولشدة المرض حتى قال: «**أَجَلْ إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ**»[(٢)]، وغيرها من الشدة في رجوعه من الطائف، وفي أُحد، وفي حادثة الإفك وغير ذلك.

وكل هذه الشدائد على تنوعها تلقَّاها ﷺ بالصبر الجميل، ويقين الرضا عن الله، واحتساب الأجر منه وكان يقول: «**إِنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ بَلَاءً الأَنْبِيَاءَ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**»[(٣)].

سادسًا: في الشدائد التي صاحبت النبي ﷺ في حياته سلوة لكل مكروب، وعزاء لكل مفجوع، وأسوة لكل مبتلى، ويعلم المسلم أن خيرة الله وأفضل خلقه قد لقوا في هذه الدنيا ما لقوا فصبروا واحتسبوا، وأن هذا من هوان الدنيا على الله، ولذا لم يجعلها نعيمًا لأوليائه، وإنما جعل لهم نصيبًا من لأوائها وشدائدها وكبدها، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤].

طُبِعَت عَلى كَدرٍ وَأَنتَ تُرِيدُها ... صَفواً مِنَ الأَقذاءِ وَالأَكدارِ

وادخر نعيمهم الكامل الذي لا كدر فيه ولا تحول عنه في دار المقامة والخلود.

(١) «مسند أحمد» (١٨٦٩٤).

(٢) «صحيح البخاري» (٥٦٤٨)، و«صحيح مسلم» (٢٥٧١).

(٣) «مسند أحمد» (٢٧٠٧٩).

سابعًا: عدم استصحاب ذكريات الشدائد وآلامها بعد تجاوزها، وفي هذا الحديث مشهد واضح من ذلك، فإن عائشة لو لم تسأل النبي ﷺ عن أشد ما لقي مما هو أشد من أُحد لما علمنا بذلك، ولا يوجد الخبر عن هذا الكرب في غير هذا الحديث.

وذلك أن النبي ﷺ لم يكن يتحدث به، ولا يجدد ذكراه، وإنما تجاوزه كما تجاوز أحزانًا وشدائد كثيرة.

وبرغم شدة المصيبة في أُحد إلا أنه لم يجعلها مأتمًا يتذكره ويجدد أحزانه، بل قال عن جبل أُحد الذي وقعت عنده المصيبة: «**هَذَا أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ**»[1]، ومع شدة حبه لخديجة إلا أنه كان يذكر حبها ولا يذكر حزنه بفقدها فيقول: «**إِنَّهَا كَانَتْ وَكَانَتْ، وَإِنِّي قَدْ رُزِقْتُ حُبَّهَا**»[2].

وتفارط أبناؤه وبناته في حياته وأهال التراب على قبورهم ولم يجعل موت أحدٍ منهم مأتمًا يتذكره ويجدد أحزانه، وكأنما دفن حزنه معهم في قبورهم، فالشدائد والمصائب لها آلامها وأحزانها الآنية، والتي يعبر عنها في حينها ولا يتنكر لها، لكنها لا تُعمّر ولا تتجدد ولا تستصحب في الحياة.

ثامنًا: القدرة على استئناف الحياة، وتجديد العزيمة فلا يتجاوز شدة إلا وهو أقوى عزمًا وأشد مضاء، يستقبل أمله ولا يجتر ألمه، ولذا لما هاجر إلى المدينة من بلده مكة التي هي أحب البلاد إلى الله وإليه، لم يجعل تَذَكُّرَ منازله ومرابعه وذكرياته فيها حديثه وشاغله، وإنما استأنف الحياة وكأنه انفصل عن ذلك الماضي تمامًا وتوجه إلى المستقبل قُدُمًا، وسرى ذلك إلى بقية المهاجرين فلا تجد مشاريعهم متوقفة، ولا نفوسهم متطلعة للعودة إلى بلدتهم ودورهم، بل كان من حكمة الشارع أن حرم عليهم العودة إلى مكة أو الإقامة بها فوق ثلاث[3].

وعندما عاد إلى مكة فاتحًا نزل الأبطح ولم يسأل عن بيوته ورباعه التي استولى عليها ابن عمه عقيل، وقال: «**وَهَلْ تَرَكَ لَنَا عَقِيلٌ مِنْ مَنْزِلٍ؟**»[4].

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٤٢٢)، و«صحيح مسلم» (١٣٩٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٨١٨)، و«صحيح مسلم» (٢٤٣٥).

(٣) «صحيح مسلم» (١٣٥٢).

(٤) «صحيح البخاري» (٤٢٨٢)، و«صحيح مسلم» (١٣٥١).

وعندما غادرت قريش المدينة بعد الخندق، ودعهم بقوله: «**الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلَا يَغْزُونَنَا**»[1]، وإذا به بعد سنة واحدة من غزوة الأحزاب يقصد مكة معتمراً عمرة الحديبية.

وهكذا فقه الصحابة منه هذه الروح فما إن نفضوا أيديهم من تراب قبره ﷺ بعد مصيبتهم بوفاته والتي هي أعظم المصائب في حياتهم حتى استأنفوا حياتهم، وانطلقوا في مشروعهم، وهو نشر رسالة نبيهم، وساحت جيوشهم في الأرض لا لتنعَى رسول الله ﷺ إلى البشرية ولكن لتبشر بدينه ورسالته، واستأنفوا مسيرة البلاغ والدعوة، وتحملوا مسؤولية ما بعث به ﷺ تجاه البشرية، وتناثرت قبورهم بين القارات الثلاث رسلاً لرسول الله ومبعوثين بما بعث به.

وهكذا كانت الشدائد تعبر حياة النبي ﷺ فيتلقَّاها بالرضا والتسليم، ويتحملها بالصبر الجميل، ويحتسب شدتها ولأواءها، ولا يفقد عندها أمله واستبشاره، ويستأنف الحياة بعد كل شدة أقوى عزيمة وأمضى عزما.

خلاصات:

١- عبرت الشدائد حياة النبي ﷺ، وصحبته في كل مراحلها.

٢- كان في الشدائد يقوم بعبودية الضراعة لله، ودعائه، واستنزال مدده.

٣- كان في الشدائد في غاية الثبات، ورباطة الجأش، لا يطيش ولا يتضعضع.

٤- تنوعت الشدائد التي مرت به ﷺ حسية ومعنوية، وتلقاها على تعددها وتنوعها بالصبر الجميل ويقين الرضا عن الله واحتسابه الأجر منه.

٥- لا يفقد أمله في الشدة، وإنما يستصحب فأله واستبشاره وثقته ويقينه.

٦- عدم استصحاب المعاناة واستذكار الشدائد، والقدرة على استئناف الحياة بعدها، والانطلاق قُدمًا.

٧- فيما أصاب النبي ﷺ من الشدائد سلوة لكل مصاب، وأسوة فيما يصنع المسلم عندما تعرض له الشدائد أو تحل به المصائب.

---

(١) «صحيح البخاري» (٤١١٠).

الرسول ﷺ والمال

جعل الله المال قياماً للناس فقال: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النساء: ٥]، وجعل في فطرة الإنسان حب المال فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨]، فهو يسعى لتحصيله وجمعه والاستكثار منه، ثم يشح ببذله ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨]، ولذا فإن تجاوز هذه الرغبات النفسية ببذل المال، والسخاء في الإنفاق، والكرم في العطاء، منقبة عظيمة وخلق كريم، يحبب صاحبه عند الله وعند الناس، وقد كان ﷺ أجود الناس بالمال وأسخاهم ببذله والمواساة به، وأزهدهم في ادخاره والاستكثار منه، وعندما ننظر إلى حال النبي ﷺ مع المال تتضح لنا معالم منها:

أولاً: كان ﷺ من أسرة ثرية، فجده هاشم الذي هشم الثريد للحجاج، وجده عبد المطلب كبير مكة وسيدها، ولا سيادة إلا بمال وثراء، ولم يذكر الفقر في أطوار حياته في مكة، وهذا يضعف روايات تردد حليمة في رضاعته ليتمه وفقره.

ثانيًا: كان له مال وتجارة قبل أن يتزوج بخديجة، وإذا كان في يفاعه قد رعى الغنم فلن يكون في شبابه عالةً أو عاطلاً ولكن عاملا وكاسبًا، وما كانت خديجة لتبعث بأموالها إلى الشام مع من لا خبرة له بالتجارة ولا مال له.

ومما ينبغي تصوره أن البيئة التجارية في مكة ليست كما يتصور في التجارة الحالية، من وجود محلات خاصة وتبادلٍ دائم، ولكنها كانت تجارة موسمية، فالتاجر يعرض بضاعته ويبيع ويشتري في الأسواق الموسمية مثل منى، وعكاظ، وذي المجاز، وعندما يحتاج الناس إلى بيع وشراء مع التاجر في غير الموسم فإنه يقصده في بيته فهو محله وخزائنه.

وعندما يبيع أو يشتري في الشام أو اليمن فلا يلزم أن يسافر مع كل رحلة فإن القافلة يكون فيها تجار وأموال لهم ولغيرهم ممن يرسل بماله معهم، ويوضح ذلك قول أبي سفيان عندما سافر بتجارة قريش بعد صلح الحديبية، قال: فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ بِمَكَّةَ امْرَأَةً وَلَا رَجُلاً إِلَّا وَقَدْ حَمَّلَنِي بِضَاعَةً[1].

ولذا فلن تجد وصف الحال التجارية المعهودة لدينا في حال النبي ﷺ لأن نمط التجارة في ذلك الوقت نمط موسمي وليس نشاطاً يومياً.

وهذا النوع من التجارة كان موجوداً مثله في مكة إلى أوائل القرن الماضي حين كانت مكة مقصداً في موسم الحج ثم ينقطع عنها الوافدون إلى الموسم القادم وكذا كان موجوداً مثله في بعض مدن نجد.

وأما قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٨] فهو مثل قوله قبلها: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٦، ٧] فليس معناها أنه كان في ضيعة في يتمه ثم آواه، ولا أنه وقع في الضلالة ثم هداه الله، ولكن المعنى أنه كان عرضةً لضيعة اليتم فآواه الله، وعرضة للضلال فهداه الله وحفظه، وعرضة للفقر فأغناه الله، فتلقته عناية الله إيواءً وهدايةً وإغناءً منذ مسيره الأول في الحياة.

ثالثًا: هاجر ﷺ إلى المدينة فصودرت عقاراته بمكة، ولكنه أخذ من المال ما يُحمل على الرواحل، مما أخذه معه في هجرته، أو ما تبعه به علي بعد ذلك، ويظهر ذلك من قوله لأبي بكر لما عرض عليه الراحلة فقال له: «**بِالثَّمَنِ**»[2]، ولم يقل له ذلك إلا أن المال متيسر عنده.

رابعًا: وفي المدينة ولي أمر المسلمين وتفرغ لشأنهم ولم ينقل عنه أنه عمل عملاً آخر من أعمال الكسب المالي سواء كان تجارة أو زراعة، أو عملا باليد.

وكانت معيشته ﷺ في المدينة أول الهجرة وإلى غزوة بدر على الكفاف والقلة، والظاهر أنه كان ينفق مما حمله من ماله من مكة، ويرتفق بما يصله به أصحابه من هداياهم له،

(١) «دلائل النبوة» للبيهقي (٤/ ٣٨١).
(٢) «صحيح البخاري» (٣٩٠٥).

ومن ذلك وصف عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لزواجها به ﷺ: قالت: بَنَى بِي رَسُولُ الله ﷺ فِي بَيْتِنَا، مَا نُحِرَتْ عَلَيَّ جَزُورٌ، وَلَا ذُبِحَتْ عَلَيَّ شَاةٌ، حَتَّى أَرْسَلَ إِلَيْنَا سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ بِجَفْنَةٍ كَانَ يُرْسِلُ بِهَا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، إِذَا دَارَ إِلَى نِسَائِهِ وَأَنَا يَوْمَئِذٍ بِنْتُ تِسْعِ سِنِينَ(١).

وعَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ قَالَ: كَانَ لِلنَّبِيِّ ﷺ مَعَ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ جَفْنَةٌ تَدُورُ مَعَهُ حَيْثُمَا دَارَ مِنْ نِسَائِهِ(٢).

خامسًا: مرت به في المدينة حالات قلة وفقر احتملها بجميل الصبر، وحسن التجمل، ومن ذلك:

١- قالت عائشة: إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلَى الهِلَالِ ثَلَاثَةَ أَهِلَّةٍ فِي شَهْرَيْنِ، وَمَا أُوقِدَتْ فِي أَبْيَاتِ رَسُولِ الله ﷺ نَارٌ. قيل: مَا كَانَ يُعِيشُكُمْ؟ قَالَتْ: الأَسْوَدَانِ التَّمْرُ وَالمَاءُ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ الله ﷺ جِيرَانٌ مِنَ الأَنْصَارِ، كَانَ لَهُمْ مَنَائِحُ(٣)، وَكَانُوا يَمْنَحُونَ رَسُولَ الله ﷺ مِنْ أَبْيَاتِهِمْ فَيَسْقِينَاهُ(٤).

٢- وعنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَجُلاً أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَبَعَثَ إِلَى نِسَائِهِ فَقُلْنَ: مَا مَعَنَا إِلَّا المَاءُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَنْ يَضُمُّ أَوْ يُضِيفُ هَذَا؟**». فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ: أَنَا(٥).

٣- وعنه قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ -أَوْ لَيْلَةٍ- فَإِذَا هُوَ بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَقَالَ: «**مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ؟**». قَالَا: الجُوعُ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «**وَأَنَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَأَخْرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا، قُومُوا**». فَقَامُوا مَعَهُ، فَأَتَى رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ فَإِذَا هُوَ لَيْسَ فِي بَيْتِهِ، فَلَمَّا رَأَتْهُ المَرْأَةُ، قَالَتْ: مَرْحَبًا وَأَهْلاً، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ الله ﷺ: «**أَيْنَ فُلَانٌ؟**». قَالَتْ: ذَهَبَ يَسْتَعْذِبُ لَنَا مِنَ المَاءِ، إِذْ جَاءَ الأَنْصَارِيُّ، فَنَظَرَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَصَاحِبَيْهِ،

---

(١) «مسند أحمد» (٢٥٧٦٩).

(٢) «مصنف ابن أبي شيبة» (٢٨٣١٨).

(٣) منائح: جمع منيحة وهي كعطية لفظا ومعنى، وأصلها عطية الناقة أو الشاة. ينظر: «فتح الباري» (٥/ ٢٣٥).

(٤) «صحيح البخاري» (٦٤٥٩)، و«صحيح مسلم» (٢٩٧٢).

(٥) «صحيح البخاري» (٣٧٩٨).

ثُمَّ قَالَ: الحَمْدُ لله مَا أَحَدٌ اليَوْمَ أَكْرَمَ أَضْيَافاً مِنِّي، فَانْطَلَقَ، فَجَاءَهُمْ بِعِذْقٍ فِيهِ بُسْرٌ وَتَمْرٌ وَرُطَبٌ، فَقَالَ: كُلُوا مِنْ هَذِهِ، وَأَخَذَ المُدْيَةَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِيَّاكَ، وَالحَلُوبَ**». فَذَبَحَ لَهُمْ، فَأَكَلُوا مِنَ الشَّاةِ وَمِنْ ذَلِكَ العِذْقِ وَشَرِبُوا، فَلَمَّا أَنْ شَبِعُوا وَرَوُوا، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ يَوْمَ القِيَامَةِ، أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمُ الجُوعُ، ثُمَّ لَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصَابَكُمْ هَذَا النَّعِيمُ**»[(١)].

وهذه الحالات من القلة حالات طارئة وليست مستديمة، ويظهر أنها كانت في أول الهجرة قبل أن يفتح الله عليه، وكانت جزءاً من الحالة العامة في المدينة وقتها، فهو عسر عام يشارك فيه النبي ﷺ الناس حالهم تلك، وليس حالاً خاصاً ببيت النبي ﷺ.

سادسًا: بعد معركة بدر أصاب نصيبه من الغنائم مما شكل توسعة نسبية في النفقة.

ثم حصل التوسع الأكثر بعد فتح بني النضير والتي كانت مما أفاء الله على رسوله، ولذا قالت عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: مَا شَبِعْنَا مِنَ الأَسْوَدَيْنِ حَتَّى أَجْلَى اللهُ النَّضِيرَ وَأَهْلَكَ قُرَيْظَةَ[(٢)].

وكان يدخر لنسائه قوت سنة، فعَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَبِيعُ نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ، وَيَحْبِسُ لِأَهْلِهِ قُوتَ سَنَتِهِمْ[(٣)].

وهذا الذي يبيعه ﷺ هو ما كان يعده لبيت المال ونوائب المسلمين، ولذا ورد أنه يضعه في الكراع والسلاح[(٤)]، أي في الخيل والإبل إعداداً للجهاد، أما المال الذي يملكه لنفسه فلم يرد أنه باع في المدينة شيئًا، ولم يخرج شيء من ملكه بالبيع وإنما يخرج هبةً أو صدقة.

ثم حصل التوسع إلى الغنى بعد فتح خيبر، وفدَك.

سابعًا: وكان المال يمر ولا يستقر في يدي النبي ﷺ، وإنما كان يعطي منه عطاء من لا يخشى الفقر، ولا يدقق في العطاء بل يجزل.

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٠٣٨).
(٢) «تهذيب الآثار» للطبري (١/ ٢٨٢).
(٣) «صحيح البخاري» (٥٣٥٧).
(٤) «صحيح مسلم» (١٧٥٧).

١- فعَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ، فَأَتَى قَوْمَهُ فَقَالَ: أَيْ قَوْمِ أَسْلِمُوا، فَوَاللهِ إِنَّ مُحَمَّداً لَيُعْطِي عَطَاءً مَا يَخَافُ الفَقْرَ. فَقَالَ أَنَسٌ: إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيُسْلِمُ مَا يُرِيدُ إِلَّا الدُّنْيَا، فَمَا يُسْلِمُ حَتَّى يَكُونَ الإِسْلَامُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا(١).

٢- وبعد معركة حنين قسم من الخمس الذي جعله الله له فكانت عطاياه بالمئات من الإبل لأشراف قريش وسادات القبائل يكرمهم بها ويتألفهم على الإسلام وما أخذ لنفسه ولا لقرابته شيئًا.

٣- وعنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِمَالٍ مِنَ البَحْرَيْنِ، فَقَالَ: «**انْثُرُوهُ فِي المَسْجِدِ**»، فَكَانَ أَكْثَرَ مَالٍ أُتِيَ بِهِ رَسُولُ الله ﷺ، إِذْ جَاءَهُ العَبَّاسُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، أَعْطِنِي إِنِّي فَادَيْتُ نَفْسِي وَفَادَيْتُ عَقِيلاً(٢). قَالَ: «**خُذْ**» فَحَثَا فِي ثَوْبِهِ، ثُمَّ ذَهَبَ يُقِلُّهُ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ، فَقَالَ: اؤْمُرْ بَعْضَهُمْ يَرْفَعْهُ إِلَيَّ. قَالَ: «**لا**»، قَالَ: فَارْفَعْهُ أَنْتَ عَلَيَّ، قَالَ: «**لا**»، فَنَثَرَ مِنْهُ ثُمَّ ذَهَبَ يُقِلُّهُ فَلَمْ يَرْفَعْهُ، فَقَالَ: اؤْمُرْ بَعْضَهُمْ يَرْفَعْهُ عَلَيَّ، قَالَ: «**لا**»، قَالَ: فَارْفَعْهُ أَنْتَ عَلَيَّ، قَالَ: «**لا**»، فَنَثَرَ ثُمَّ احْتَمَلَهُ عَلَى كَاهِلِهِ، ثُمَّ انْطَلَقَ، فَمَا زَالَ يُتْبِعُهُ بَصَرَهُ حَتَّى خَفِيَ عَلَيْنَا، عَجَبًا مِنْ حِرْصِهِ، فَمَا قَامَ رَسُولُ الله ﷺ وَثَمَّ مِنْهَا دِرْهَمٌ(٣).

٤- وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ القُرْآنَ، فَلَرَسُولُ الله ﷺ أَجْوَدُ بِالخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ المُرْسَلَةِ(٤).

ثامنًا: وأما هو ﷺ فلم يتأثل من هذا الغنى وما استكثر به، فما تغير بيتُه ولا أثاثه، وقد دخل عليه عمر في السنة التاسعة بعد فتح مكة ودينونة الجزيرة كلها له، قال عمر: وإنه على حصير وليس بينه وبينه شيء، تحت رأسه وسادة من أدم حشوها ليف،

(١) «صحيح مسلم» (٢٣١٢).

(٢) فادَيتُ نفسي وفاديْت عقيلا: أي: أعطيت فداء نفسي وفداء عقيل ابن أبي طالب حيث إنهما أسرا في غزوة بدر. ينظر: «عمدة القاري» (٤/ ١٦٠).

(٣) «صحيح البخاري» (٤٢١).

(٤) «صحيح البخاري» (٦)، و«صحيح مسلم» (٢٣٠٨).

وعند رجليه قَرَظٌ مصبوب[1]، وعند رأسه أُهُب[2] معلقة، فرأيت أثر الحصير في جنبه فبكيت، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَا يُبْكِيكَ؟**». فقلت: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ كِسْرَى وَقَيْصَرَ فِيمَا هُمَا فِيهِ، وَأَنْتَ رَسُولُ الله، فَقَالَ: «**أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الدُّنْيَا وَلَنَا الآخِرَةُ**»[3].

واجتمع إليه نساؤه في السنة التاسعة بعد أن فتح الله عليه وأوسع، فجعلن يسألنه التوسعة في النفقة، فاعتزلهن شهراً، ثم خيرهنَّ، وتلا عليهن الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٢٨ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٢٨، ٢٩]، فَبَدَأَ بِعَائِشَةَ. فقَالَ: «**يَا عَائِشَةُ! إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَعْرِضَ عَلَيْكِ أَمْراً أُحِبُّ أَنْ لا تَعْجَلِي فِيهِ حَتَّى تَسْتَشِيرِي أَبَوَيْكِ**». قَالَت: وَمَا هُوَ؟ يَا رَسُولَ الله، فَتَلَا عَلَيْهَا الآيَةَ. قَالَت: أَفِيكَ يَا رَسُولَ الله أَسْتَشِيرُ أَبَوَيَّ؟ بَلْ أَخْتَارُ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ[4]، وهكذا اختارت بقية أمهات المؤمنين الله ورسوله على متاع الدنيا الزائلة.

ومات ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي في ثلاثين صاعاً من شعير[5]. وعن عائشة قالت: لَقَدْ تُوُفِّيَ النَّبِيُّ ﷺ، وَمَا فِي بَيْتِي مِنْ شَيْءٍ، يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ، إِلَّا شَطْرُ شَعِيرٍ، فِي رَفٍّ لِي، فَأَكَلْتُ مِنْهُ، حَتَّى طَالَ عَلَيَّ، فَكِلْتُهُ فَفَنِيَ[6].

وما مر به ﷺ من أحوال القلة العارضة هي من تنوع ظروف حياته ليكون أسوة لكل أمته في غناه وفقره، وليس في ذلك تَطَلُّبٌ للفقر، ولا اختيار له، فقد كان ﷺ يستعيذ بالله من الفقر: «**اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الكُفْرِ، وَالفَقْرِ**». واستعاذ من أعراض الفقر وهي المغرم وغلبة الدين:

(١) القَرَظ: هُوَ وَرَقُ السَّلَم. وقوله مصبوب: أَيْ مَجْمُوع قَدْ جُعِل صُبْرَة كصُبْرَة الطعامِ. ينظر: «النهاية» (٣/ ٩) (٤/ ٤٣).

(٢) أُهُب: جمع إهاب، وهو الجلد الذي لم يدبغ. ينظر: «عمدة القاري» (١٩/ ٢٥١).

(٣) «صحيح البخاري» (٤٩١٣)، و«صحيح مسلم» (١٤٧٩).

(٤) «صحيح مسلم» (١٤٧٨).

(٥) «صحيح البخاري» (٢٩١٦)، و«صحيح مسلم» (١٦٠٣).

(٦) «صحيح البخاري» (٣٠٩٧)، و«صحيح مسلم» (٢٩٧٣).

«**اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ المَأْثَمِ وَالمَغْرَمِ**». فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ: مَا أَكْثَرَ مَا تَسْتَعِيذُ يَا رَسُولَ الله مِنَ المَغْرَمِ، قَالَ: «**إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَرِمَ حَدَّثَ فَكَذَبَ، وَوَعَدَ فَأَخْلَفَ**»(١).

وكان من سؤاله: «**اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الهُدَى وَالتُّقَى، وَالعَفَافَ وَالغِنَى**». وأخبر أن المال الصالح خير ونعمة لمن اتقى في كسبه وإنفاقه فقال: «**نِعْمَ المَالُ الصَّالِحُ للمَرءِ الصَالِحِ**»(٢). وقال: «**لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالاً فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ، وَآخَرُ آتَاهُ اللهُ حِكْمَةً، فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا**»(٣).

وقد كان الصحابة حول رسول ﷺ من أصحاب الأموال واليسار كأبي بكر وعمر وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام رضي الله عنهم.

فالعشرة المبشرون بالجنة في جملتهم من أصحاب اليسار.

ولذا فإن اكتساب المال ووفرته بأيدي الصالحين من مصلحة المجتمع المسلم ومظاهر قوته: «**المُؤْمِنُ القَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى الله تَعَالَى مِنَ المُؤْمِنِ الضَّعِيفِ**»(٤).

تاسعًا: ومن تمام زهده وعدم استتباعه الدنيا أنه لم يورث ديناراً ولا درهمًا، ولم تقسم له تركة وقال: «**لَا نُورَثُ مَا تَرَكْنَاهُ صَدَقَةً**»(٥)، وقال: «**لاَ يَقْتَسِمُ وَرَثَتِي دِينَاراً وَلاَ دِرْهَمًا مَا تَرَكْتُ بَعْدَ نَفَقَةِ نِسَائِي، وَمَئُونَةِ عَامِلِي فَهُوَ صَدَقَةٌ**»(٦). وفي مرضه الذي توفي فيه قال لعائشة: «**يَا عَائِشَةُ، مَا فَعَلَتِ الذَّهَبُ؟**». يعني دنانير كانت بقيت عنده، قالت عائشة: فجاءت ما بين الخمسة إلى السبعة أو الثمانية فجعل يقلبهن في يده ويقول: «**مَا ظَنُّ مُحَمَّدٍ لَوْ لَقِيَ اللهَ وَهَذِهِ عِنْدَهُ؟ أَنْفِقِيهَا**»(٧).

---

(١) «صحيح البخاري» (٢٣٩٧)، و«صحيح مسلم» (٢٩٧٣).
(٢) «الأدب المفرد» (٢٩٩).
(٣) «صحيح البخاري» (٧٣١٦).
(٤) «صحيح مسلم» (٢٦٤٤).
(٥) «صحيح البخاري» (٣٠٩٢)، و«صحيح مسلم» (١٧٥٧).
(٦) «صحيح البخاري» (٢٧٧٦)، و«صحيح مسلم» (١٧٦٠).
(٧) «مسند أحمد» (٢٤٢٢٢).

وعنها قالت: ما ترك رسول الله ﷺ ديناراً، ولا درهماً، ولا شاة، ولا بعيراً، ولا أوصى بشيء[1].

فلم يجمع المال ليتأثله ولا ليورثه، وكان المال يمر بيده ولا يستقر، كرماً وإيثاراً، ولذا استدان في آخر عمره مع أنه يدخر قوت سنة، ولكن آثر بما ادخره، وأنفقه قبل أن تنتهي السنة، فاقترض ورهن درعه ﷺ.

خلاصات:

١- كان ﷺ من أسرة ثرية، ولم يذكر الفقر في أطوار حياته في مكة.

٢- كان له مال وتجارة قبل أن يتزوج خديجة، وبعد زواجه تاجر معها في مالها.

٣- لما هاجر إلى المدينة ولي أمر المسلمين وتفرغ لشأنهم ولم ينقل أنه عمل عملاً يتكسب منه كالتجارة والزراعة.

٤- كانت معيشته أول الهجرة على الكفاف، وكان ينفق مما حمله من ماله من مكة، ومما يرتفق به من هدايا أصحابه، ولذا مرت به حالات قلة وفقر احتملها بجميل الصبر.

٥- بعد معركة بدر أصاب نصيبه من الغنائم والخمس، ثم حصلت التوسعة بعد فتح بني النضير وقريظة، ثم اتسعت الحال بعد فتح خيبر.

٦- كان المال يمر ولا يستقر في يد النبي ﷺ، فكان أجود الناس، وأكثرهم بذلاً وأوسعهم عطاءً.

٧- مع كثرة المال الذي يجتمع عنده إلا أنه ما استكثر منه، ولا تأثله، ولا ادَّخره لنفسه، وبقي يعيش على ذات المعيشة التي كان يعيشها.

٨- ومن تمام زهده وعدم استتباعه الدنيا أنه لم يورث ديناراً ولا درهماً، ولم تقسم له تركة، وأنفق آخر ما عنده صدقة، ولحق بالرفيق الأعلى ودرعه مرهون عند يهودي في أصواعٍ استلفها طعاماً لأهله.

---

(١) «صحيح مسلم» (١٦٣٥).

الرسول ﷺ ورياضة الأبدان

١- كانت طبيعة الحياة في البيئة العربية التي عاش فيها النبي ﷺ حافلة بالمجهود البدني الذي لم يكن رياضة مقصودة ولكنه جزء من فعاليات الحياة، فالمجهود البدني يبذله الزارع في مزرعته، والراعي مع غنمه، والتاجر في تجارته، وسير الناس في تنقلهم كان المشي السريع غالباً، ولذا فالرياضة البدنية جزء من نمط الحياة وضروراتها.

٢- كان النبي ﷺ يتمتع بلياقة بدنية عالية فكان جسده متينا مشتداً، وكانت حركته سريعة قوية، ولذا جاء في صفة مشيه أنه إذا مشى تقلّع أي: ينتزع قدميه ولا يجرها، ووصف عمر صعوده السلم وكان جذع نخلة مسندة إلى غرفة المشربة، فقال: فَنَزَلْتُ أَتَشَبَّثُ بِالجِذْعِ، وَنَزَلَ رَسُولُ الله ﷺ كَأَنَّمَا يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ مَا يَمَسُّهُ بِيَدِهِ[١]، وهذه لياقة بدنية.

وعندما سعى بين الصفا والمروة اشتد في الهرولة في بطن الوادي وهو يقول: «**لَا يُقْطَعُ الأَبْطَحُ إِلَّا شَدّاً**»[٢]، ووصفت سرعته بأن إزاره كان يدور على ركبتيه من شدة العدو.

وعندما دفن عثمان بن مظعون، أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلاً أَنْ يَأْتِيَهُ بِحَجَرٍ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ حملها، فَقَامَ إِلَيْهَا رَسُولُ الله ﷺ، وَحَسَرَ عَنْ ذِرَاعَيْهِ، قَالَ الراوي: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى بَيَاضِ ذِرَاعَيْ رَسُولِ الله ﷺ، حِينَ حَسَرَ عَنْهُمَا ثُمَّ حَمَلَهَا فَوَضَعَهَا عِنْدَ رَأْسِهِ، وَقَالَ: «**أَتَعَلَّمُ بِهَا قَبْرَ أَخِي، وَأَدْفِنُ إِلَيْهِ مَنْ مَاتَ مِنْ أَهْلِي**»[٣].

(١) «صحيح مسلم» (١٤٧٩).
(٢) «سنن ابن ماجه» (١٩٨٧).
(٣) «سنن أبي داود» (٣٢٠٦).

وعن البراء بن عازب قال: أمرنا رسولُ الله ﷺ بحَفْرِ الخَنْدَقِ، وعَرَضَتْ لنا في بعضِ الخَنْدَقِ صخرةٌ لا تأخذُ فيها المَعَاوِلَ، فاشتكَيْنا ذلك إلى النبيِّ ﷺ، فجاء فأخذ المِعْوَلَ فقال: «**بِاسْمِ الله**». فضرب ضربةً قدح الشرر منها، فبرقت منها برقة وصدعها فكسر ثُلُثَها، وقال: «**اللهُ أَكْبرُ! أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَامِ، وَالله إِنِّي لَأُبْصِرُ قُصُورَهَا الحُمْرَ السَاعَةَ**». ثم ضرب الثانيةَ فصدعها وبرقت منها برقة، فقطع الثلُثَ الآخَرَ فقال: «**اللهُ أَكْبرُ! أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ، وَالله إِنِّي لَأُبْصِرُ قَصْرَ المَدَائِنِ أَبْيَضَ**». ثم ضرب الثالثةَ وقال: «**بِاسمِ الله**»، فصدعها وبرقت منها برقة، فقطع بَقِيَّةَ الحَجَرِ فقال: «**اللهُ أَكْبرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ اليَمَنِ، وَالله إِنِّي لَأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذَا السَاعَةَ**»[(١)].

إن هذه الضربة القوية التي تقدح الشرر وتكسر الحجر تدل على لياقة بدنية وقوة جسدية، وكانت هذه اللياقة محفوفة بالرياضة التي يمارسها ﷺ نشاطاً حياتياً ضمن برنامجه اليومي.

٣- وهناك رياضات تمارس كمهارات يحصل فيها التنافس، وكانت معروفة في البيئة العربية قبل الإسلام فبقيت على أصل الإباحة الواسع، ومنها:

أ- السباق على الأقدام، وهي مهارة بدنية، ومنافسة عالمية توجد عند الشعوب منذ القدم.

ومما ورد في ذلك: حديث سلمة بن الأكوع في رجوعه ردف النبي ﷺ من غزوة ذي قَرَد قال: فبينما نحن نسير، وكان رجل من الأنصار لا يسبق شداً فجعل يقول: ألا مسابق إلى المدينة؟ هل من مسابق؟ فجعل يعيد ذلك فلما سمعت كلامه قلت: أما تكرم كريماً، ولا تهاب شريفاً؟ قال: لا، إلا أن يكون رسول الله ﷺ، قلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي ذرني فلأسابق الرجل، قَالَ: «**إِنْ شِئْتَ**». قُلْتُ: اذْهَبْ إِلَيْكَ وَثَنَيْتُ رِجْلَيَّ، فَطَفَرْتُ فَعَدَوْتُ، فَرَبَطْتُ عَلَيْهِ شَرَفًا أَوْ شَرَفَيْنِ أَسْتَبْقِي نَفَسِي[(٢)]، ثُمَّ عَدَوْتُ فِي إِثْرِهِ،

(١) «السنن الكبرى» للنسائي (٨٨٥٨).

(٢) أَيْ تمهلت قليلًا حتى أروح نفسي وأستجمع قوتي، حتى تجاوز شرفا أو شرفين، والشرف ما ارتفع من الأرض. ينظر: «إكمال المعلم» (٦/ ١٩٩).

فَرَبَطْتُ عَلَيْهِ شَرَفًا أَوْ شَرَفَيْنِ، ثُمَّ إِنِّي رَفَعْتُ حَتَّى الحَقَهُ، فَأَصُكُّهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، قُلْتُ: قَدْ سُبِقْتَ وَالله، قَالَ: أَنَا أَظُنُّ، فَسَبَقْتُهُ إِلَى المَدِينَةِ[1].

وهذه المسابقة بين سلمة وهذا الأنصاري هي منافسة بينهما، ومتعة للركب الذين يصحبونهم ويشاهدون تنافسهم، والرياضات التنافسية متعة للمتنافسين والمشاهدين.

وفي سفر الحج كان ثَمَّ فرصة لهذه الرياضة، فإن النبي ﷺ لما توجه من المزدلفة إلى منى انطلق أسامة بن زيد ونفر من سباق قريش عدواً على أرجلهم إلى منى[2].

وسابق ﷺ زوجته عائشة مرتين في أسفاره، فعنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: خَرَجْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، وَأَنَا جَارِيَةٌ لَمْ أَحْمِلِ اللَّحْمَ، وَلَمْ أَبْدُنْ، فَقَالَ لِلنَّاسِ: «**تَقَدَّمُوا**». فَتَقَدَّمُوا ثُمَّ قَالَ لِي: «**تَعَالَيْ أُسَابِقْكِ**». فَسَابَقْتُهُ عَلَى رِجْلَيَّ فَسَبَقْتُهُ فَسَكَتَ عَنِّي، حَتَّى إِذَا حَمَلْتُ اللَّحْمَ وَبَدُنْتُ وَنَسِيتُ، خَرَجْتُ مَعَهُ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَقَالَ لِلنَّاسِ: «**تَقَدَّمُوا**». فَتَقَدَّمُوا، ثُمَّ قَالَ لِي: «**تَعَالَيْ حَتَّى أُسَابِقَكِ**». فَسَابَقْتُهُ، فَسَبَقَنِي، فَجَعَلَ يَضْحَكُ وَهُوَ يَقُولُ: «**هَذِهِ بِتِلْكَ**»[3].

وهذه المسابقة بين النبي ﷺ وزوجته عائشة هي رياضة ومؤانسة، وملاعبة بين الرجل وامرأته، فهي أجمل الرياضة وأعذب اللهو.

ومن السباق السباقُ على الإبل قال أنس: كان للنبي ﷺ ناقة تسمى العضباء لا تكاد تُسْبَق، فجاء أعرابي على قعود فسبقها، فشق ذلك على المسلمين حتى عرفه ﷺ فقال: «**حَقٌّ عَلَى الله عَزَّوَجَلَّ أَنْ لَا يَرْفَعَ شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا وَضَعَهُ**»[4].

---

(١) «صحيح مسلم» (١٨٠٧).
(٢) «صحيح مسلم» (١٢٨٠).
(٣) «سنن أبي داود» (٢٥٨٧).
(٤) «سنن أبي داود» (٤٨٠٢).

وكذلك السباق بين الخيل فعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ سَابَقَ بَيْنَ الخَيْلِ الَّتِي أُضْمِرَتْ[1] مِنَ الحَفْيَاءِ، وَأَمَدُهَا ثَنِيَّةُ الوَدَاعِ، وَسَابَقَ بَيْنَ الخَيْلِ الَّتِي لَمْ تُضْمَرْ مِنَ الثَّنِيَّةِ إِلَى مَسْجِدِ بَنِي زُرَيْقٍ[2].

ب- ومن الرياضات المشهورة بين الفتيان المصارعة، ومما ورد في ذلك ما رواه سمرة بن جندب قال: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَعْرِضُ غِلْمَانَ الأَنْصَارِ، فِي كُلِّ عَامٍ فَيُلْحِقُ مَنْ أَدْرَكَ مِنْهُمْ. قَالَ: فَعُرِضْتُ عَامًا، فَأَلحَقَ غُلَامًا، وَرَدَّنِي فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، لَقَدْ أَلحَقْتَهُ وَرَدَدْتَنِي وَلَوْ صَارَعْتُهُ لَصَرَعْتُهُ. قَالَ: «**فَصَارِعْهُ**». فَصَارَعْتُهُ فَصَرَعْتُهُ فَأَلحَقَنِي[3].

ج- ومن المهارات الرمي، وكان الرمي حينها بالقسي والسهام، وقد ورد الحث عليها لأنها من المهارات الحربية، وتَعَلُّمها من الإعداد للجهاد، فعن عقبة بن عامر قال: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ وَهُوَ عَلَى المِنْبَرِ، يَقُولُ: «﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] **أَلَا إِنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ**»[4].

وعَنْ خَالِدِ بْنِ زَيْدٍ الأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال سمعت النبي ﷺ يقول: «**ارْمُوا وَارْكَبُوا، وَلَأَنْ تَرْمُوا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ تَرْكَبُوا، كُلُّ مَا يَلْهُو بِهِ الرَّجُلُ المُسْلِمُ بَاطِلٌ، إِلَّا رَمْيَهُ بِقَوْسِهِ، وَتَأْدِيبَهُ فَرَسَهُ، وَمُلَاعَبَتَهُ أَهْلَهُ، فَإِنَّهُنَّ مِنَ الحَقِّ**»[5].

وقوله: باطل لا يريد به الحرام، وإنما يريد أنه عار من الثواب، وأنه للدنيا محضاً ولا تعلق له بالآخرة وإن كان من المباح، وأما هذه الثلاث فلها ثواب خاص، قال ابن حجر: أطلق على الرمي لهواً لأنه في صورة اللهو، لكن المقصود من تعلمه الإعانة على الجهاد، وكذا تأديب الفرس وملاعبة الأهل للتأنيس[6].

---

(١) أُضْمِرَتْ: المراد به أن تُعلف الخيلُ حتى تَسْمَن وَتَقْوَى ثم يقلل علفها بقدر القوت حتى يشتد لحمها وتقوى على الجري. ينظر: «فتح الباري» (٦/ ٧٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٢٠).

(٣) «المستدرك» (٢٣٥٦)، ورويت في ذلك قصة مصارعة النبي ﷺ ركانة، ولكنها لا تثبت سنداً ولا متناً.

(٤) «صحيح مسلم» (١٩١٧).

(٥) «جامع الترمذي» (١٦٣٧).

(٦) من «فتح الباري» مختصراً (١١/ ٩١).

وعَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ قَالَ: رَأَيْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ الله، وَجَابِرَ بْنَ عُمَيْرٍ الأَنْصَارِيَّ يَرْتَمِيَانِ[1]، فَمَلَّ أَحَدُهُمَا فَجَلَسَ، فَقَالَ لَهُ الآخَرُ: كَسَلْتَ؟ سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**كُلُّ شَيْءٍ لَيْسَ مِنْ ذِكْرِ الله فَهُوَ لَهْوٌ وَسَهْوٌ، إِلَّا أَرْبَعَ خِصَالٍ: مَشْيُ الرَّجُلِ بَيْنَ الغَرَضَيْنِ[2]، وَتَأْدِيبُهُ فَرَسَهُ، وَمُلَاعَبَتُهُ أَهْلَهُ، وَتَعَلُّمُ السِّبَاحَةِ**»[3].

وعن سَلَمَةَ بْنِ الأَكْوَعِ رضي الله عنه قَالَ: مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى نَفَرٍ مِنْ أَسْلَمَ يَنْتَضِلُونَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ، فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِيًا، ارْمُوا وَأَنَا مَعَ بَنِي فُلَانٍ**». قَالَ: فَأَمْسَكَ أَحَدُ الفَرِيقَيْنِ بِأَيْدِيهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَا لَكُمْ لَا تَرْمُونَ؟**». قَالُوا: كَيْفَ نَرْمِي وَأَنْتَ مَعَهُمْ؟ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**ارْمُوا؛ فَأَنَا مَعَكُمْ كُلِّكُمْ**»[4].

وفي هذه المشاركة النبوية تحفيز في اكتساب هذه المهارة وإتقانها.

د- ومن الرياضات السباحة، وقد ورد أن النبي ﷺ تعلم السباحة في طفولته في آبار المدينة حينما جاء مع أمه، فعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**وَأَحْسَنْتُ العَوْمَ فِي بِئْرِ بَنِي عدي بن النَّجَّارِ**». قال: «**وَكَانَ قَوْمٌ مِنَ اليَهُودِ يَخْتَلِفُونَ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ**»[5].

وجاء الترغيب في تعلم السباحة في حديث جابر المتقدم وفيه: «**كُلُّ شَيْءٍ لَيْسَ مِنْ ذِكْرِ الله فَهُوَ لَهْوٌ وَسَهْوٌ، إِلَّا أَرْبَعَ خِصَالٍ..**» وذكر: «**تَعَلُّمُ السِّبَاحَةِ**»[6].

وجاء عن عمر رضي الله عنه أنه كتب إلى أبي عبيدة بن الجراح: أن علموا غلمانكم العوم، ومقاتلتكم الرمي[7].

(١) يَرْتَمِيَانِ: أي يرميان الغرض. ينظر: «النهاية» (٢/ ٢٦٩).
(٢) الغرضين: المقصود بهما مكان الرامي ومكان الهدف الذي يرميه. ينظر: «النهاية» (٣/ ٣٦٠).
(٣) «المعجم الأوسط» للطبراني (٨١٤٧).
(٤) «صحيح البخاري» (٢٨٩٩).
(٥) «الرصف لما روي عن النبي ﷺ من الفعل والوصف» (١/ ٣٥).
(٦) «المعجم الأوسط» للطبراني (٨١٤٧).
(٧) «مسند أحمد» (٣٢٣).

وكان عمر وابن عباس في طريق فنزلوا على غدير، فكان عمر وابن عباس يتباقيان في الماء، قال ابن عباس: قال لي عمر: أُبَاقِيكَ فِي المَاءِ أَيُّنَا أَطْوَلُ نَفَسًا، وَنَحْنُ مُحْرِمُونَ[1]، وهي رياضة الغطس.

هـ- رفع الأثقال، ومما ورد من ذلك ما رواه أنس بن مالك قال: مر النبي ﷺ بقوم يرفعون حجراً يريدون الشدة، فقال: «**مَا يَصْنَعُ هَـؤُلَاءِ؟**». فقالوا: يرفعون حجراً يريدون الشِّدة، فقال النبي ﷺ: «**أَفَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ؟ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ**»[2].

وهنا نجد أن النبي ﷺ أقر أصحابه على ممارسة هذه الرياضة التي تدل على الشدة والقوة، ثم لفت أنظارهم إلى القوة الأخلاقية، وهي قوة التحكم في انفعالات الغضب.

وهذه قوة نفسية، عبر عنها الرسول ﷺ بألفاظ شتى في مناسبات مختلفة، فقال: «**لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ**[3]، **إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ**»[4]. فإذا كانت القوة هي التي تصرع بها الخصم، فان القوة التي تحتاجها للتغلب على غضبك، وإطفاء ناره في صدرك، وأن تبدو هادئا في حركاتك وصوتك ولهجتك، أصعب من تلك وتحتاج إلى إرادة أقوى وأشد[5].

وممن عرف بالقوة من الصحابة الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ ففي معركة الخندق ضرب نوفلَ بن عبد الله بالسيف على رأسه فشقه نصفين، ووصلت الضربة إلى كاهل فرسه، فقيل له: يا أبا عبد الله ما رأينا مثل سيفك، فقال والله ما هو السيف ولكنها الساعد التي تحمله[6].

٤- وهذه المهارات البدنية مشهورة في بيئتهم وزمنهم، ولم تكن اختراعاً إسلامياً، ولكنها مهارات البيئة استوعبها التشريع في مساحة الإباحة الواسعة، ورغب ببعض ما كان فيه نفع منها.

---

(١) «السنن الكبرى» للبيهقي (٩١٣٤).

(٢) «السلسلة الصحيحة» للألباني (٣٢٩٥).

(٣) الصُّرَعَة: المبالغ في الصراع الذي لا يُغلب. ينظر: «النهاية» (٣/ ٢٣).

(٤) «صحيح البخاري» (٦١١٤).

(٥) باختصار من: «تعريف عام بدين الإسلام» (ص ١٧٦).

(٦) «مغازي الواقدي» (٢/ ٤٧٢)، و«السيرة الحلبية» (٢/ ٤٢٨).

ونهى عن ما فيه ضرر بالإنسان أو الحيوان، فنهى عن الخذف، وهو الرمي بالحصى[1]، وقال: «**إِنَّهَا لَا تَقْتُلُ الصَّيْدَ، وَلَا تُنْكِي العَدُوَّ، وَلَكِنَّهَا تَفْقَأُ العَيْنَ، وَتَكْسِرُ السِّنَّ**»[2]، لما يترتب عليها من أضرار وإتلاف.

ونهى ﷺ أن يتخذ شيء فيه روح غرضاً للرمي، فعن ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**لَا تَتَّخِذُوا شَيْئًا فِيهِ الرُّوحُ غَرَضًا**»[3]، لما في ذلك من تعذيب الحيوان والعبث بحياته.

ولذا فأي ألعاب رياضية توجد لدى بعض الشعوب أو في بعض الأزمنة مثل كرة القدم والطائرة والتنس والكركت والرجبى، وقفز الزانة، وغيرها من المهارات الرياضية فهي من المهارات المباحة، ولا تثريب على ممارسيها ولا مشجعيها ما لم يخالط هذا اللعب محرم كرياضات العنف مثل المصارعة العنيفة والملاكمة فتمنع لما يترتب عليها من ضرر، وكمصارعة الثيران فتحرم لما فيها من تعذيب الحيوان، أو الألعاب التي يخالطها الميسر والمقامرة فتحرم لما يخالطها.

وتبقى مساحة المباح واسعة تستوعب المهارات المتنوعة والمتجددة.

---

(١) الخذْف: هُوَ رَمْيك حَصَاة أَوْ نَوَاةً تَأْخُذُهَا بَيْنَ سبَّابَتَيك وتَرْمي بِهَا، أَوْ تَتَّخذُ مِخْذَفَةً مِنْ خَشَبٍ ثُمَّ تَرْمِي بِهَا الحَصَاةَ بَيْنَ إبْهامك وَالسَّبَّابَةِ. ينظر: «النهاية» (٢/ ١٦).

(٢) «سنن ابن ماجه» (٣٢٢٧).

(٣) «صحيح مسلم» (٥٨).

خلاصات:

١- كانت الحياة في البيئة العربية حافلة بالمجهود البدني الذي يعتبر رياضة غير مقصودة، ولكنه جزء من فعاليات الحياة.

٢- كان ﷺ يتمتع بلياقة بدنية عالية تظهر في مشيه إذا مشى وقوته إذا عمل.

٣- كانت المهارات الرياضية التي يحصل فيها التنافس تجري بين يدي النبي ﷺ، ومنها المصارعة والمسابقة والرمي.

٤- كانت هذه المهارات الرياضية معروفة في البيئة العربية فأقرها النبي ﷺ ورغب في النافع منها.

٥- الألعاب الرياضية التي توجد لدى بعض الشعوب أو في بعض الأزمنة هي من الرياضات المباحة ما لم يخالطها محرم، كرياضات العنف، أو ما يخالطه الميسر والقمار.

٦- نهى ﷺ عن الألعاب التي فيها ضرر بالإنسان أو الحيوان فنهى عن الخذف، ونهى أن يتخذ شيء فيه الروح غرضاً للرمي.

الرسول ﷺ والمرض[1]

كان نبينا ﷺ موفور الصحة، مستتم العافية، أيِّداً شديداً، وكان الذي يراه يحسب أنه أصغر من عمره، ولذا لما قدم المدينة مع أبي بكر قال الراوي: وكان أبو بكر شيخًا وكان رسول الله ﷺ شابًا مع أنه أكبر من أبي بكر سنًا.

وكان هناك جذع مسند إلى مشربة[2] يصعد إليها النبي ﷺ أحيانًا، يقول عمر: فَنَزَلَ رَسُولُ الله، وَنَزَلْتُ أَتَشَبَّثُ بِالجِذْعِ، وَنَزَلَ رَسُولُ الله ﷺ كَأَنَّمَا يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ مَا يَمَسُّهُ بِيَدِهِ[3].

وقال أبو هريرة: ما رأيت أحداً أسرع في مشيه من رسول الله ﷺ كأنما الأرض تطوى له، إنا لنجهد أنفسنا وإنه لغير مكترث[4].

وخرج ﷺ في جنازة عثمان بن مظعون إلى البقيع فلما دفنوا عثمان نظر النبي ﷺ إلى حجر كبير فأمر أحد الصحابة أن يحضره حتى يُعلم به قبر عثمان بن مظعون فذهب هذا الصحابي وأراد انتزاع الحجر فلم يستطع، فقام النبي ﷺ فحسر عن ذراعه يقول الصحابي: كأني أنظر إلى بياض ساعد النبي ﷺ فالتزم الحجر ثم رفعه فأتى به حتى جعله عند رأس القبر[5].

---

(١) ينظر: «التاريخ الصحي للرسول ﷺ»، د. حسين مؤنس.

(٢) المَشْرَبَةُ: كَالغُرْفَةِ يُخْزَنُ فِيهَا الطَّعَامُ وَغَيْرُهُ. ينظر: «شرح النووي على مسلم» (١٢/ ٢٩).

(٣) «صحيح مسلم» (١٤٧٩).

(٤) «جامع الترمذي» (٣٦٤٨).

(٥) «سنن أبي داود» (٣٢٠٦).

وكان في بدنه قوة ومناعة، فلما قدم المدينة أصابت الحمى كثيراً من أصحابه ولم يرد أنه أصيب بها قبل مرض وفاته، ولم يذكر أن مرضاً أصابه قبل مرض وفاته غير صداع الشقيقة أصابه مرتين، مرة في غزوة خيبر(١)، ومرة في طريقه لحجة الوداع(٢).

وهكذا كانت حياة النبي ﷺ في عمومها حياة الرجل القوي الأيد الشديد، ثم بدأت تعترضه الأوجاع وكان ذلك في آخر سنتين من حياته ﷺ، وكان من أسباب ذلك أن عام الوفود عام كثر فيه الناس على رسول الله ﷺ قالت أمنا عائشة: حَطَمَهُ النَّاس(٣). فلما كثرت عليه الوفود حبس نفسه لهم وجلس إليهم حتى فقد لياقته البدنية ﷺ وسمن، وكان هذا الجلوس للناس والتصدي لقضاياهم ووفودهم مما استنفد قواه وأجهد بدنه، ولولا معرفتنا بمرض وفاته لقلنا: إن الذي ذهب به هو الإجهاد الذي استهلك قوته وصحته.

وصار يصلي أكثر صلاة الليل جالساً؛ لأن بدنه قد ثقل بسبب حبس نفسه للناس، قالت عائشة: ما توفي رسول الله ﷺ حتى كان أكثر صلاته جالساً، وكان يقول لأصحابه إذا صلَّى بهم: «**إِنِّي قَدْ بَدَّنْتُ فَلَا تَسْبِقُونِي بِالرُّكُوعِ وَلَا بِالسُّجُودِ**»(٤).

وبدأت تعتريه الأوجاع، تقول عائشة: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ يَسْقَمُ عِنْدَ آخِرِ عُمْرِهِ، أَوْ فِي آخِرِ عُمْرِهِ(٥).

وأما حال النبي ﷺ مع المرض:

١ - كان النبي ﷺ يبوح بألمه، ولا يستنكف أن يذكر آلامه لمن يحبونه ويحبهم، يقول لعائشة وقد قالت له: وَارَأْسَاهُ، فقَالَ: «**بَلْ أَنَا يَا عَائِشَةُ وَارَأْسَاهُ**»(٦). وكانت بدايته مع الحمى ووجع الوفاة.

---

(١) «المستدرك» (٤٣٣٩).
(٢) «صحيح البخاري» (٥٧٠٠).
(٣) «صحيح مسلم» (١٢٩٠).
(٤) «سنن أبي داود» (٦١٩).
(٥) «مسند أحمد» (٢٤٣٨٠).
(٦) «صحيح البخاري» (٧٢١٧).

ودخل عليه عبد الله بن مسعود فرآه قد استعر جسده من الحرارة فقال: يا رسول الله إنك توعك وعكًا شديداً؟ قال: «**أَجَلْ، إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ**»(١). ولذلك أخذ العلماء من ذلك جواز أن يذكر المريض مرضه ويبوح بمعاناته وألمه على سبيل الإخبار لا على سبيل التسخط.

٢- وكان في أمراضه يتداوى بالرقية، وبالأدوية التي كانت معروفة في البيئة حينها من الحجامة، والتداوي بالأعشاب ونحوها.

فكان جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ يرقيه إذا اشتكى فعن أبي سعيد الخدري أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال: «**يَا مُحَمَّدُ اشْتَكَيْتَ؟**» قَالَ: «**نَعَمْ**»، فَقَالَ: «**بِسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ، أَوْ عَيْنِ حَاسِدٍ، بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ، وَاللهُ يَشْفِيكَ**»(٢).

وكان هو يرقي نفسه وكانت عائشة ترقيه، فعن عروة أن خالته أخبرته: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا اشْتَكَى نَفَثَ عَلَى نَفْسِهِ بِالمُعَوِّذَاتِ، وَمَسَحَ عَنْهُ بِيَدِهِ، فَلَمَّا اشْتَكَى وَجَعَهُ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ، طَفِقْتُ أَنْفِثُ عَلَى نَفْسِهِ بِالمُعَوِّذَاتِ الَّتِي كَانَ يَنْفِثُ، وَأَمْسَحُ بِيَدِ النَّبِيِّ ﷺ عَنْهُ(٣).

وتداوى بالحجامة وهي من الطب الشائع في الجزيرة العربية ويناسب بيئتها، فاحْتَجَمَ وَهُوَ مُحْرِمٌ فِي رَأْسِهِ، مِنْ شَقِيقَةٍ كَانَتْ بِهِ(٤).

وعَنِ ابْنِ بُحَيْنَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: احْتَجَمَ النَّبِيُّ ﷺ، وَهُوَ مُحْرِمٌ بِلَحْيِ جَمَلٍ(٥) فِي وَسَطِ رَأْسِهِ(٦).

وعَنْ جَابِرٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ احْتَجَمَ عَلَى وِرْكِهِ، مِنْ وَثْءٍ(٧) كَانَ بِهِ(٨).

---

(١) «صحيح البخاري» (٥٦٤٨)، و«صحيح مسلم» (٢٥٧١).
(٢) «صحيح مسلم» (٢١٨٦).
(٣) «صحيح البخاري» (٤٤٣٩).
(٤) «صحيح البخاري» (٥٧٠١).
(٥) لحي جمل: اسم موضع بين مكة والمدينة. ينظر: «معجم البلدان» (٥/ ١٥).
(٦) «صحيح البخاري» (١٨٣٦).
(٧) الوَثْء: هو وَهْنٌ في الرجل، دون الخلع، والكسر. ينظر: «شرح سنن أبي داود» لابن رسلان (١٥/ ٥٥٩).
(٨) «سنن أبي داود» (٣٨٦٣).

وكان يتداوى بالأعشاب والأخلاط، فعن عروة أنه سأل عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كيف عرفت الطب؟ فقالت: إن رسول الله ﷺ كان يسقم في آخر عمره، فكانت تقدم عليه وفود العرب من كل وجه، فتنعت له الأنعات وكنت أعالجها له، فمن ثَمَّ[1]، أي فمن ثمَّ عرفت الطب وتركيب الأدوية.

فقد تداوى ﷺ، وداوى بعض أصحابه، وأمر أمته بالتداوي فقال: «**تَدَاوَوْا عِبَادَ الله، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلَّا وَضَعَ مَعَهُ شِفَاءً إِلَّا الهَرَمَ**»[2].

٣- وفي مرض وفاته ﷺ وُجِعَ وَجعًا شديداً واشتد عليه الألم حتى قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ما رأيتُ أحداً أشد وجعًا من رسول الله ﷺ[3].

فإن بدنه استعر بالحمى، وكان ذلك في فصل الصيف في شهر يونيو/ حزيران، قال عبد الله بن مسعود: إن كنت لأضع يدي فوق غطاء النبي ﷺ فأجد حرارة بدنه من فوق الغطاء، وكان يغمى عليه من شدة الحرارة، وكان الماء يصب عليه من سبع قِرَب من آبار شتى لم تحلل أوكيتهن، لتبرد شدة الحرارة، فإذا أراد أن يقوم أغمي عليه حتى قال: «**مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ**»[4].

ويا لله لهذا النبي الكريم يستعر بدنه بحرارة الحمَّى في فصل الصيف فلا يوجد ما يطفئ التهاب الحرارة إلا الماء يصب عليه.

لقد كنت مرة مريضـًا في المستشفى وارتفعت حرارتي فأعطيت دواء لخفض الحرارة ووضعت كمادات الثلج حول رأسي فتذكرت حينها حال النبي ﷺ حين اشتدت عليه الحرارة والمعاناة التي كان يعانيها، ولا يوجد ما يعالجها به إلا وسائلهم البدائية كماء القِرَب، وتمر به هذه الآلام فيتلقَّاها بصبر ورضـًا، لم ينقل عنه ضجر أو تبرم،

---

(١) «مسند أحمد» (٢٤٣٨٠).

(٢) «سنن أبي داود» (٢٠١٥)، و«جامع الترمذي» (٢١٥٩)، و«سنن ابن ماجه» (٣٤٣٦).

(٣) «صحيح مسلم» (٢٥٧٠).

(٤) «صحيح البخاري» (١٩٨، ٦٦٤). والأوكية جمع وكاء، وهو الخيط الذي يشد به رأس القربة. ينظر: «عمدة القاري» (٣/ ٩١).

وإنما غاية الرضا والتسليم والاحتساب، وهو أكرم الخلق على الله وأحبهم إليه، فكان في تذكر هذا المشهد النبوي مواساة وسلوى، وعظة وذكرى، حتى نسيت ألمي لألمه، وذهلت عن حالي بحاله ﷺ.

٤- وكان النبي ﷺ مع هذه الآلام يحتسب أجر معاناته عند الله عَزَّوَجَلَّ، قيل له: يا رسول الله إنك توعك وعكًا شديداً. قال: «**أَجَلْ إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ**». قالوا: يا رسول الله ذلك أن لك أجرين؟ قال: «**أَجَلْ، مَا يُصِيبُ المُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ، وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ وَلَا أَذىً وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا**»[(١)]. فكان ﷺ وهو يتألم يحتسب عند الله عَزَّوَجَلَّ الأجر والتطهير، ويقدم لأمته القدوة الحسنة في التعامل مع آلام المرض بالصبر واحتساب الأجر.

٥- إن أوجاع النبي ﷺ وآلامه في مرضه لم تذهله عن علاقاته، فها هو في مرض موته يستدعي فاطمة عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ حتى إذا أتت إليه رحب بها وأجلسها إلى جنبه وسارَّها وأخبرها بدنو أجله فبكت، فبشرها أنها سيدة نساء أهل الجنة فضحكت.

ويدخل عليه أسامة بن زيد وقد اشتد به المرض فأُصمت فلا يستطيع أن يتكلم، فجعل يشير بأصبعه إلى السماء ثم يشير بها إليه، قال أسامة: فعلمت أنه يدعو لي[(٢)]. فآخر مشهد رآه أسامة بن زيد من رسول الله ﷺ حبه ودعاؤه له.

وكان يقول لعائشة: «**إِنَّهُ لَيُهَوِّنُ عَلَيَّ أَنِّي رَأَيْتُ بَيَاضَ كَفِّ عَائِشَةَ فِي الجَنَّةِ**»[(٣)]، فانظر إلى هذه المشاعر الجميلة يبوح بها ﷺ في شدة المرض.

٦- كما أن مرضه ووجعه وآلامه لم تذهله عن أحب شيء إليه، عن قرة عينه، وراحة نفسه، عن صلاته، فعندما أغمي عليه في مرض وفاته كان أهل بيته حوله ينظرون إلى وجهه ويرمقون شفتيه، فلما أفاق كان أول ما تكلم به أن قال: «**أَصَلَّى النَاسُ؟**». قالوا: لا، هم ينتظرونك[(٤)]، فكان أول ما سأل عنه حين أفاق الصلاة.

---

(١) «صحيح البخاري» (٥٦٤١، ٥٦٤٨)، و«صحيح مسلم» (٢٥٧١).

(٢) «جامع الترمذي» (٣٨١٧).

(٣) «مسند أحمد» (٢٥٠٧٦).

(٤) «صحيح البخاري» (٦٨٧)، و«صحيح مسلم» (٤١٨).

٧- ثم نجد آلام المرض لم تذهله عن أمته والاهتمام لها، فيتحامل في مرض موته على جسد واهن أضناه المرض فيخرج بين علي والعباس ورجلاه تخطان في الأرض لا تحملانه حتى أُجلس بجانب أبي بكر فصلى بالناس وخطبهم[١]، فكانت خطبة مودع.

وعندما اشتدت به كرب المرض ونزلت به سكرات الموت كان يضع خميصة على وجهه فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه وقال: «**لَعْنَةُ الله علَى اليَهُودِ والنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**». يُحَذِّرُ ما صَنَعُوا[٢]. وادخر آخر أنفاسه هاتفاً يهاتف به أمته في شأن الصلاة، فَسُمِع آخر ما قال أن قال: «**الصَلَاةَ، الصَلَاةَ وَما مَلَكَتْ أَيْمانُكُم**»[٣]. حتى ما يكاد يبين بها صوته، فما أذهلته آلام المرض وكرب الموت وسكراته عن أمته ودعوتها وهدايتها.

فيا أحبتي الراقدين على الأسرة البيضاء إذا اشتد بكم الألم وأضناكم المرض فتذكروا مرض نبيكم ﷺ، ففي مرضه لكم سلوة، وفي حاله مع الأوجاع أسوة، إنه أكرم الخلق على الله ومع ذلك كان يوعك ويقول: «**إِنِّي أَوعكُ كَمَا يوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُم**»[٤].

خلاصات:

١- كان ﷺ في عامة عمره موفور الصحة، مستتم العافية، ظاهر النشاط والقوة.

٢- اعترته الأوجاع في آخر سنتين من حياته لما حطمه الناس وفقد لياقته، وبَدُن جسمه.

٣- كان يتداوى وكان العرب يَفِدُون عليه فيصفون له أدويتهم فتصنعها له عائشة.

٤- كان يبوح بألمه لأهله وأصحابه، ويحتسب أجر شدة المرض إذا اشتد عليه.

٥- لم يذهله المرض عن إظهار حبه لمن يحبهم.

٦- لم يذهله المرض عن الاهتمام بأمته تعليماً ونصحاً ودعوة إلى آخر أنفاس حياته ﷺ.

---

(١) «صحيح البخاري» (٧١٣)، و«صحيح مسلم» (٤١٨).

(٢) «صحيح البخاري» (١٣٩٠)، و«صحيح مسلم» (٥٢٩).

(٣) «سنن أبي داود» (٥١٥٦).

(٤) «صحيح البخاري» (٥٦٤٨)، و«صحيح مسلم» (٢٥٧١).

الرسول ﷺ والطب[1]

جاء ﷺ بالرسالة الهادية للبشرية، والدالة على طريقها إلى الله، وتَرَكَ معايش الناس وأمور دنياهم في مساحة العفو والإباحة موكولةً لاجتهاد البشر؛ لتغيرها بتغير أحوال الناس وأزمانهم وأوطانهم، مع ضبط ذلك بمنعهم من المحرمات الضارة لهم في دينهم ودنياهم.

وكان منها شأن الطب، فهو كغيره من الخبرات البشرية تتكون بتراكم التجربة، كعلم الزراعة والصناعة والعمران وغيرها.

وإذا نظرنا إلى أحاديث الطب في سنة النبي ﷺ وتطبيقاتها في حياته فإنَّا نجدها في هذا السياق، وهذه المساحة الواسعة، وهي مساحة المباح الموكولة إلى اجتهاد البشر وخبراتهم.

ونجد لها في حياة النبي ﷺ معالم هادية، منها:

أولاً: أَمرُه بالتداوي، ففي حجة الوداع سأله الأعراب يوم النحر فقالوا: يا رسول الله أَنَتَدَاوَى؟ قَالَ: «**تَدَاوَوْا، فَإِنَّ اللهَ لَمْ يُنْزِلْ دَاءً، إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ، وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ**»[2].

وعن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ أَنْزَلَ الدَّاءَ وَالدَّوَاءَ، وَجَعَلَ لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءً، فَتَدَاوَوْا، وَلَا تَدَاوَوْا بِحَرَامٍ**»[3].

---

(١) ينظر في ذلك كتاب: «فقه الطب النبوي» للشيخ هانئ الجبير، وهو بحث متين محرر، ومنه استفدت في هذا الفصل.

(٢) «مسند أحمد» (١٨٤٥٦).

(٣) «سنن أبي داود» (٣٨٧٤).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول ﷺ: «**مَا أَنْزَلَ اللهُ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً**»(١).

ثانيًا: وكما أمر ﷺ بالتداوي فقد تداوى هو، وداوى بما هو معروف في زمانه من نمط التداوي، فتداوى بالحجامة، كما ورد عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ احْتَجَمَ وَهُوَ مُحْرِمٌ فِي رَأْسِهِ مِنْ شَقِيقَةٍ كَانَتْ بِهِ(٢).

وعن جابر، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ احْتَجَمَ عَلَى وَرِكِهِ مِنْ وَثْءٍ(٣) كَانَ بِهِ(٤).

وكان ﷺ يسقم في آخر عمره فكانت وفود العرب تنعت له من أدويتها(٥)، فعن عروة قال: سألت عائشة فقلت: يَا أُمَّتَاهُ، لَا أَعْجَبُ مِنْ فَهْمِكِ؛ أَقُولُ: زَوْجَةُ رَسُولِ الله ﷺ، وَبِنْتُ أَبِي بَكْرٍ، وَلَا أَعْجَبُ مِنْ عِلْمِكِ بِالشِّعْرِ، وَأَيَّامِ النَّاسِ؛ أَقُولُ: ابْنَةُ أَبِي بَكْرٍ، وَكَانَ أَعْلَمَ النَّاسِ أَوْ مِنْ أَعْلَمِ النَّاسِ، وَلَكِنْ أَعْجَبُ مِنْ عِلْمِكِ بِالطِّبِّ كَيْفَ هُوَ؟! وَمِنْ أَيْنَ هُوَ؟! قَالَ: فَضَرَبَتْ عَلَى مَنْكِبِهِ وَقَالَتْ: أَيْ عُرَيَّةُ، إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ يَسْقَمُ عِنْدَ آخِرِ عُمْرِهِ، أَوْ فِي آخِرِ عُمْرِهِ، فَكَانَتْ تَقْدَمُ عَلَيْهِ وُفُودُ العَرَبِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، فَتَنْعَتُ لَهُ الأَنْعَاتَ(٦)، وَكُنْتُ أُعَالِجُهَا لَهُ، فَمِنْ ثَمَّ(٧).

ثالثًا: وكما تداوى ﷺ فقد داوى غيره، جاءه رجل فقال: إن أخي قد استطلق بطنُه قَالَ: «**اسْقِهِ عَسَلاً**». فَذَهَبَ ثُمَّ جَاءَ، فَقَالَ: قَدْ سَقَيْتُهُ فَلَمْ يَزِدْهُ إِلَّا اسْتِطْلَاقًا، قَالَ: «**اسْقِهِ عَسَلاً**». فَذَهَبَ ثُمَّ جَاءَ، فَقَالَ: قَدْ سَقَيْتُهُ فَلَمْ يَزِدْهُ إِلَّا اسْتِطْلَاقًا، قَالَ: «**اسْقِهِ عَسَلاً**». فَذَهَبَ ثُمَّ جَاءَ، فَقَالَ: قَدْ سَقَيْتُهُ فَلَمْ يَزِدْهُ إِلَّا اسْتِطْلَاقًا، فَقَالَ لَهُ فِي الرَّابِعَةِ: «**اسْقِهِ عَسَلاً**». فَسَقَاهُ فَبَرَأَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ فِي الرَّابِعَةِ: «**صَدَقَ اللهُ وَكَذَبَ بَطْنُ أَخِيكَ**»(٨).

---

(١) «صحيح البخاري» (٥٦٧٨).

(٢) «صحيح البخاري» (٥٧٠١).

(٣) الوَثْء: هو وَهْنٌ في الرجل، دون الخلع، والكسر. ينظر: «شرح سنن أبي داود» لابن رسلان (١٥/ ٥٥٩).

(٤) «سنن أبي داود» (٣٨٦٣)، و«سنن ابن ماجه» (٣٤٨٥)، و«السنن الكبرى» للنسائي (٢٨٤٨).

(٥) «مسند أحمد» (٢٤٣٨٠).

(٦) أي تصف له الوصفات الدوائية.

(٧) «مسند أحمد» (٢٤٣٨٠).

(٨) «مسند أحمد» (١١١٤٦)، و«صحيح البخاري» (٥٦٨٤)، و«صحيح مسلم» (٢٢١٧).

وداوى جرح سعد بن معاذ، قال جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: رُمي يوم الأحزاب سعدُ بن معاذ، فقطعوا أكحله، فحسمه[1] رسول الله ﷺ بالنار، فانتفخت يده، فتركه، فنزفه الدم، فحسمه أخرى، فانتفخت يده، فلما رأى سعد ذلك، قال: اللهم لا تخرج نفسي حتى تقر عيني من بني قريظة، فاستمسك عرقه، فما قطر قطرة حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ، فلما فرغ من قتلهم انفتق عرقه فمات[2]، فقد مات سعد من جرحه ذلك، ولم يبرأ بعلاج النبي ﷺ له؛ لأن علاجه فعل بشري وليس وحيًا إلهيًا.

رابعًا: وجَّه النبي ﷺ إلى العلاج والتحصن بالأذكار والأوراد والأدعية والتعوذات، وهي الرقية الشرعية، والتي جماعها دعاء الله والتوجه إليه، وسؤاله وحده لا شريك له، لأن حال المريض حال ضرورة يتجرد فيها التوجه لله وحده، فيصادف الدعاء فيها حال اضطرار وإخلاص، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢]، ولذا كان ﷺ يرقي نفسه في مرضه، فعن عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ، إِذَا اشْتَكَى مِنَّا إِنْسَانٌ، مَسَحَهُ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**أَذْهِبِ الْبَاسَ، رَبَّ النَّاسِ، وَاشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا**»، فَلَمَّا مَرِضَ رَسُولُ الله ﷺ وَثَقُلَ، أَخَذْتُ بِيَدِهِ لِأَصْنَعَ بِهِ نَحْوَ مَا كَانَ يَصْنَعُ، فَانْتَزَعَ يَدَهُ مِنْ يَدِي، ثُمَّ قَالَ: «**اللهُمَّ اغْفِرْ لِي وَاجْعَلْنِي مَعَ الرَّفِيقِ الْأَعْلَى**»، قَالَتْ: فَذَهَبْتُ أَنْظُرُ، فَإِذَا هُوَ قَدْ قَضَى[3].

وكان جبريل يرقيه فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ؛ أَنَّ جِبْرِيلَ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «**يَا مُحَمَّدُ اشْتَكَيْتَ؟**» فَقَالَ: «**نَعَمْ**». قَالَ: «**بِاسْمِ الله أَرْقِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنِ حَاسِدٍ، اللهُ يَشْفِيكَ بِاسْمِ الله أَرْقِيكَ**»[4]، وكانت عائشة ترقيه، فعنها قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا مَرِضَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِهِ نَفَثَ عَلَيْهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ، فَلَمَّا مَرِضَ مَرَضَهُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ جَعَلْتُ أَنْفُثُ عَلَيْهِ وَأَمْسَحُهُ بِيَدِ نَفْسِهِ؛ لأَنَّهَا كَانَتْ أَعْظَمَ بَرَكَةً مِنْ يَدِي[5]، وكان يُعوِّذ الحسن والحسين؛

(١) أَيْ قَطع الدَّمَ عَنْهُ بالكَيِّ. ينظر: «النهاية» (١/ ٣٨٦).
(٢) «شرح مشكل الآثار» للطحاوي (٣٥٧٩).
(٣) «صحيح البخاري» (٥٧٥٠)، و«صحيح مسلم» (٢١٩١).
(٤) «صحيح مسلم» (٢١٨٦).
(٥) «صحيح البخاري» (٥٠١٦)، و«صحيح مسلم» (٢١٩٢).

فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعَوِّذُ الحَسَنَ وَالحُسَيْنَ وَيَقُولُ: «**إِنَّ أَبَاكُمَا كَانَ يُعَوِّذُ بِهَا إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ، أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ الله التَّامَّةِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ**»(١).

وأقر تداوي أصحابه بالرقية، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَتَوْا عَلَى حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ العَرَبِ فَلَمْ يَقْرُوهُمْ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ لُدِغَ سَيِّدُ أُولَئِكَ، فَقَالُوا: هَلْ مَعَكُمْ مِنْ دَوَاءٍ أَوْ رَاقٍ؟ فَقَالُوا: إِنَّكُمْ لَمْ تَقْرُونَا، وَلَا نَفْعَلُ حَتَّى تَجْعَلُوا لَنَا جُعْلاً. فَجَعَلُوا لَهُمْ قَطِيعًا مِنَ الشَّاءِ، فَجَعَلَ يَقْرَأُ بِأُمِّ القُرْآنِ، وَيَجْمَعُ بُزَاقَهُ، وَيَتْفِلُ، فَبَرَأَ، فَأَتَوْا بِالشَّاءِ، فَقَالُوا: لَا نَأْخُذُهُ حَتَّى نَسْأَلَ النَّبِيَّ ﷺ، فَسَأَلُوهُ فَضَحِكَ وَقَالَ: «**وَمَا أَدْرَاكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟ خُذُوهَا، وَاضْرِبُوا لِي بِسَهْمٍ**»(٢).

وقد كانت للعرب رقى يتعالجون بها، فأقرهم عليها إلا ما كان فيها شرك فقال: «**اعْرِضُوا عَلَيَّ رُقَاكُمْ لَا بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ تَكُنْ شِرْكًا**»(٣).

ودخل أبو بكر الصديق عَلَى عَائِشَةَ وَهِيَ تَشْتَكِي وَيَهُودِيَّةٌ تَرْقِيهَا فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: ارْقِيهَا بِكِتَابِ الله(٤).

فالرقية دعاء، والله يجيب دعوة الداع إذا دعاه سواء كان مسلمًا أو غير مسلم، وعرف ذلك مشركو العرب فكانوا إذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فيُجيبهم ويُنجيهم إلى البر.

خامسًا: نهى ﷺ عن أنواع من التداوي الشائعة عند العرب كالتداوي بالرقى الشركية، أو الكهانة، أو الاستعانة بالجن، أو التداوي بالمحرمات، فعن وائل الحضرمي أن طارق بن سويد الجعفي سأل النبي ﷺ عن الخمر؟ فنهاه، أو كره أن يصنعها. فقال: إنما أصنعها للدواء. فقال ﷺ: «**إِنَّهُ لَيْسَ بِدَوَاءٍ وَلَكِنَّهُ دَاءٌ**»(٥).

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٣٧١).
(٢) «صحيح البخاري» (٥٧٣٦).
(٣) «سنن أبي داود» (٣٨٨٦).
(٤) «الموطأ» (١٧٥٦).
(٥) «صحيح مسلم» (١٩٨٤).

وعن أُمِّ سَلَمَةَ قالت: اشْتَكَتْ ابْنَةٌ لِي، فَنَبَذْتُ لَهَا فِي كُوزٍ، فَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَغْلِي، فَقَالَ: «مَا هَذَا؟». فقلتُ: إِنَّ ابْنَتِي اشْتَكَتْ فَنَبَذْنَا لَهَا هَذَا، فَقَالَ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَمْ يَجْعَلْ شِفَاءَكُمْ فِي حَرَامٍ**»(١).

سادسًا: وردت عن النبي ﷺ أحاديث فيها ذكر أنواع من الأدوية:

١- فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال النبي ﷺ: «**الشِّفَاءُ فِي ثَلَاثَةٍ: شَرْبَةِ عَسَلٍ، وَشَرْطَةِ مِحْجَمٍ، وَكَيَّةِ نَارٍ، وَأَنْهَى أُمَّتِي عَنِ الكَيِّ**»(٢).

٢- وعَنْ أَنَسٍ رضى الله عنه، أَنَّ نَاسًا اجْتَوَوْا(٣) فِي المَدِينَةِ فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَلْحَقُوا بِرَاعِيهِ -يَعْنِي الإِبِلَ- فَيَشْرَبُوا مِنْ البَانِهَا وَأَبْوَالِهَا، فَلَحِقُوا بِرَاعِيهِ فَشَرِبُوا مِنْ البَانِهَا وَأَبْوَالِهَا، حَتَّى صَلَحَتْ أَبْدَانُهُمْ(٤).

٣- وعن أبي هريرة، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ فِي الحَبَّةِ السَّوْدَاءِ شِفَاءً مِنْ كُلِّ دَاءٍ إِلَّا السَّامَ**». وَالسَّامُ: المَوْتُ(٥).

٤- وعَنْ أُمِّ قَيْسٍ بِنْتِ مِحْصَنٍ قَالَتْ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**عَلَيْكُمْ بِهَذَا العُودِ الهِنْدِيِّ؛ فَإِنَّ فِيهِ سَبْعَةَ أَشْفِيَةٍ، يُسْتَعَطُ بِهِ مِنَ العُذْرَةِ(٦)، وَيُلَدُّ بِهِ مِنْ ذَاتِ الجَنْبِ**»(٧).

(١) «صحيح ابن حبان» (١٣٩١).

(٢) «صحيح البخاري» (٥٦٨٠). والكي: إلصاق الحَار من الحَدِيد أَو النَّار بالعضو حَتَّى يَحْتَرِق الجلد. ينظر: «عمدة القاري» (٨/ ٢٤٩).

(٣) اجتووا: أي: أصابهم الجَوى، وهو المرض وداء الجوف إذا تطاول، وذلك إذا لم يوافقهم هواؤها واستوخموها. ينظر: «النهاية» (١/ ٣١٨).

(٤) «صحيح البخاري» (٥٦٨٦)، و«صحيح مسلم» (١٦٧١).

(٥) «صحيح البخاري» (٥٦٨٨)، و«صحيح مسلم» (٢٢١٥).

(٦) العذرة: وجَعٌ فِي الحَلْق يَهيجُ مِنَ الدَّم. ينظر: «النهاية» (٣/ ١٩٨).

(٧) «صحيح البخاري» (٥٦٩٢)، و«صحيح مسلم» (٢٢١٤). وذات الجنب: الدمل الكبيرة التي تظهر في الجنب. ينظر: «النهاية» (١/ ٣٠٣).

٥- وعن سعد بن أبي وقاص قال: قال النبي ﷺ: «**مَنِ اصْطَبَحَ كُلَّ يَوْمٍ بِسبْعِ تَمَرَاتٍ عَجْوَةً، لَمْ يَضُرُّهُ سَمٌّ وَلَا سِحْرٌ ذَلِكَ اليَوْمَ إِلَى اللَّيْلِ**»[(١)].

وهنا يجدر التنبيه على الأمور التالية:

١- ذهب بعض العلماء إلى أن الأحاديث الواردة في الطب من الوحي المعصوم، وممن ذهب إلى ذلك النووي في «شرح مسلم»[(٢)]، وابن القيم في «زاد المعاد» وقال: نسبةُ طبِّ الأطبَّاء إليه -أي الطب النبوي- كنسبة طبِّ الطُّرُقيَّة والعجائز إلى طبِّهم[(٣)]، وقال الذهبي: كَانَ رَسُوْلُ الله ﷺ أَعْلَمَ النَّاسِ بِالطِّبِّ النَّبوِيّ، الَّذِي ثَبَتَ أَنَّهُ قَالَهُ عَلَى الوَجْهِ الَّذِي قَصَدَهُ، فَإِنَّهُ قَاله بِوَحْيٍ: «**فَإِنَّ اللهَ لَمْ يُنَزِّلْ دَاءً، إِلَّا وَأَنْزَلَ لَهُ دوَاءً**». فَعَلَّمَ رَسُولَهُ مَا أَخْبَرَ الأُمَّة بِهِ[(٤)].

وقال الحافظ في «الفتح»: قال بعضهم: طب النبي ﷺ متيقن البرء لصدوره عن الوحي، وطب غيره أكثره حدس أو تجربة[(٥)].

ولذا جمع بعضهم أحاديث الطب وأفردوها في مؤلفات كأبي نعيم، والضياء المقدسي، وابن القيم وغيرهم.

٢- وذهب فريق من العلماء المتقدمين واللاحقين إلى أن أحاديث الطب خبرة بشرية، وأنه طب البيئة القائم على التجربة، فقال ابن العربي: هذا الذي ذَكَرَ النبي من التَّدَاوِي والأدويةِ، ذكَرَ العلّماءُ أنّه خرَجَ على أحدِ قِسْمَي الطّبِّ، وهو الطبُّ التّجاربيُّ، وهو طبُّ الهند والعرَبِ، فخرَّجت أقوالُ النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ على مذاهب أهل التجربةِ، ليأتِيَ العربُ بما كانت تعتادُهُ، دُنُواً منها وتقريباً للمَرَامِ عليها، ففهمت ذلك منه، وبنحوه قال الخطابي، والقاضي عياض، وولي الله الدهلوي وغيرهم[(٦)].

---

(١) «صحيح البخاري» (٥٧٦٨)، و«صحيح مسلم» (٢٠٤٧).
(٢) «شرح النووي على مسلم» (١٤/ ٣).
(٣) «زاد المعاد» لابن القيم (٤/ ٨).
(٤) «سير أعلام النبلاء» (١٤/ ٢٩).
(٥) «فتح الباري» (١٠/ ١٧).
(٦) ينظر: «المسالك» لابن العربي (٧/ ٤٥٣)، و«أعلام الحديث» للخطابي (٣/ ٢١٠٧)، و«إكمال المعلم» للقاضي عياض (٦/ ٥٣١)، و«حجة الله البالغة» للدهلوي (١/ ٢٢٤).

وقال ابن خلدون: كان عند العرب من هذا الطّبّ كثير، وكان فيهم أطبّاء معروفون كالحارث بن كلدة وغيره. والطّبُّ المنقول في الشّرعيّات من هذا القبيل، وليس من الوحي في شيء، وإنّما هو أمر كان عاديّا للعرب. ووقع في ذكر أحوال النّبيّ ﷺ من نوع ذكر أحواله الّتي هي عادة وجبلّة لا من جهة أنّ ذلك مشروع على ذلك النّحو من العمل، فإنّه ﷺ إنما بعث ليعلّمنا الشّرائع ولم يبعث لتعريف الطّبّ ولا غيره من العاديّات، وقد وقع له في شأن تلقيح النّخل ما وقع فقال: «**أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ**»[1]. فلا ينبغي أن يحمل شيء من الطّبّ الّذي وقع في الأحاديث الصحيحة المنقولة على أنّه مشروع فليس هناك ما يدلّ عليه، اللّهمّ إلّا إذا استعمل على جهة التّبرّك وصدق العقد الإيمانيّ فيكون له أثر عظيم في النّفع. وليس ذلك في الطّبّ المزاجيّ وإنّما هو من آثار الكلمة الإيمانيّة كما وقع في مداواة المبطون بالعسل ونحوه[2].

٣- وهناك من العلماء من لم يصرح بأنها ليست وحيًا، ولكنه قال قولاً قريبًا من ذلك، حيث ضيق دلالتها، وقيد عمومها جداً، حتى يوائم ذلك مع ما ظهر في الواقع والتجربة من أثرها، مثل علاج الحمى بالماء، والتصبح بتمرات العجوة للوقاية من السم والسحر.

فقال ابن التين عن حديث: «**مَنْ تَصَبَّحَ بِسَبْعِ تَمَرَاتٍ عَجْوَةً لَمْ يَضُرَّهُ ذَلِكَ اليَوْمَ سُمٌّ وَلَا سِحْرٌ**»: يحتمل أن يكون المراد نخلاً خاصاً بزمانه ﷺ، وخصّه ابن القيم بأهل المدينة خاصة وأنه يناسبهم ولا يناسب غيرهم، وقال المازري: هذا مما لا يعقل معناه في طريق علم الطب، ولو صح أن يخرج لمنفعة التمر في السم وجه من جهة الطب لم يقدر على إظهار وجه الاقتصار على هذا العدد الذي هو السبع، ولا على هذا الجنس الذي هو العجوة، ولعل ذلك كان لأهل زمانه خاصة، أو لأكثرهم إذ لم يثبت استمرار وقوع الشفاء في زماننا غالبًا.

وقال القرطبي: ظاهر الأحاديث خصوصية عجوة المدينة بدفع السم وإبطال السحر، ثم هل هو خاص بزمان نطقه أو في كل زمان؟ هذا محتمل ويرفع هذا الاحتمال التجربة المتكررة[3].

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٣٦٣).

(٢) «مقدمة ابن خلدون» (١/ ٦٥١).

(٣) ذكر هذه الأقوال الحافظ في «فتح الباري» (١٠/ ١٧٧)، وابن القيم في «زاد المعاد» (٤/ ١٣٤).

فيلاحظ أن هؤلاء العلماء ضيّقوا دلالة الحديث بتخصيصه بمكان أو زمان.

وثمة استشكال آخر لم يتطرقوا له وهو إصابة النبي ﷺ في المدينة بالسحر والسم، مع أن التمر غالب طعامهم في المدينة كما في حديث عائشة قالت عن طعامهم: الأَسْوَدَانِ التَّمْرُ وَالمَاءُ[1].

وكذلك قوله ﷺ: «**إِنَّ الحُمَّى مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ فَأَبْرِدُوهَا بِالمَاءِ**»[2]، فقيل فيه: يحتمل أن يكون لبعض الحميات دون بعض، في بعض الأماكن دون بعض، لبعض الأشخاص دون بعض، فيحتمل أن يكون مخصوصاً بأهل الحجاز ومن والاهم[3].

ولعل الأقرب -والله أعلم- وصف أحاديث الطب بأنها من أمور الدنيا التي قال فيها ﷺ: «**أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ**»[4]، وأن ما ورد عنه ﷺ فهو مما لاحظه بالتجربة وظن فائدته، وليس مما تلقَّاه بالوحي، ولذا فهو مظنة موافقة الواقع أو مخالفته، فإن الطب من مسائل العاديات، فما ورد فيه من أحاديث لا يدخل في نطاق الوحي سواء صح أو لم يصح، فإن وظيفة النبوة طب النفوس لا طب الأبدان، وأن النبي ﷺ مع كونه نبياً لا ينفصل عن بشريته فيأكل ويشرب ويتزوج، ويتعاطى ما يتعاطاه قومه من معارف وأسباب في الأمور الحياتية، قال ابن حزم عند حديث تأبير النخل: فهذا بيان جلي في الفرق بين الرأي في أمر الدنيا والدين، وأنه ﷺ لا يقول الدين إلا من عند الله تعالى، وأن سائر ما يقول فيه برأيه ممكن أن يشار عليه بغيره فيأخذه، وأننا أبصر منه بأمور الدنيا التي لا خير معها إلا في الأقل، وهو أعلم منا بأمر الله تعالى وبأمر الدين المؤدي إلى الخير الحقيقي[5].

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٤٩٥).

(٢) «جامع الترمذي» (٢٠٧٤).

(٣) ينظر: «زاد المعاد» (٤/ ١٣٤)، و«فتح الباري» (١٠/ ١٧٧).

(٤) «صحيح مسلم» (٢٣٦٣).

(٥) «الإحكام في أصول الأحكام» لابن حزم (٥/ ١٣٨).

ومما يؤيد ذلك ويدل عليه:

١- أنا لا نجد أن الصحابة كانوا يتتبعون أدويته ﷺ، ويتقصدون العلاج بها، كما أن النبي ﷺ استعمل الأدوية التي وصفها له أطباء العرب، واستدعى الأطباء لأصحابه، وعرض الصحابةُ أنفسَهم على الأطباء واستشاروهم[١].

فعن سعد بن أبي وقاص قال: مرضت فأتانا النبي ﷺ فقال: «**إِنَّكَ رَجُلٌ مَفْؤُودٌ، ائْتِ الْحَارِثَ بْنَ كَلَدَةَ أَخَا ثَقِيفٍ فَإِنَّهُ رَجُلٌ يَتَطَبَّبُ**»[٢].

وكان يتخير أمهر الأطباء، فعن زيد بن أسلم، أن رجلاً في زمن النبي ﷺ أصابه جرح فاحتقن الجرح الدم، وَأَنَّ الرَّجُلَ دَعَا رَجُلَيْنِ مِنْ بَنِي أَنْمَارٍ فَنَظَرَا إِلَيْهِ، فَزَعَمَا أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ لَهُمَا: «**أَيُّكُمَا أَطَبُّ؟**». فَقَالَا: أَوَ فِي الطِّبِّ خَيْرٌ يَا رَسُولَ الله؟ فَزَعَمَ زَيْدٌ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**أَنْزَلَ الدَّوَاءَ الَّذِي أَنْزَلَ الأَدْوَاءَ**»[٣].

٢- أن أهل بيته ﷺ لَدّوه[٤] في مرضه، قَالَتْ عَائِشَةُ: لَدَدْنَاهُ فِي مَرَضِهِ، فَجَعَلَ يُشِيرُ إِلَيْنَا، أَنْ لَا تَلُدُّونِي، فَقُلْنَا كَرَاهِيَةُ المَرِيضِ لِلدَّوَاءِ، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ: «**أَلَمْ أَنْهَكُمْ أَنْ تَلُدُّونِي؟**». قُلْنَا: كَرَاهِيَةَ المَرِيضِ لِلدَّوَاءِ، فَقَالَ: «**لَا يَبْقَى فِي البَيْتِ أَحَدٌ إِلَّا لُدَّ -وَأَنَا أَنْظُرُ- إِلَّا العَبَّاسَ فَإِنَّهُ لَمْ يَشْهَدْكُمْ**»[٥].

فهم قد عالجوه باللدود، ورأوا رفضه لذلك فظنوا أنه فعل فطري وهو كراهية المريض للدواء، وعالجوه بما يرونه علاجاً، وهذا يدل على أنهم لا يرون رأيه في العلاج وحياً، وأمراً شرعياً.

٣- عندما توجه عمر إلى الشام بلغه خبر الطاعون قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَقَالَ عُمَرُ: ادْعُ لِي المُهَاجِرِينَ الأَوَّلِينَ، فَدَعَاهُمْ فَاسْتَشَارَهُمْ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ الوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بِالشَّامِ، فَاخْتَلَفُوا،

---

(١) «الطب النبوي» لأبي نعيم (١/ ١٩) (٢/ ٦٤٦)، و«فقه الطب النبوي» (٦١).

(٢) «سنن أبي داود» (٣٨٧٥). ومفؤود: أي مصاب في فؤادك.

(٣) «موطأ مالك» (١٢).

(٤) اللد: هو إدخال الدواء في فم المريض بغير اختياره. ينظر: «إرشاد الساري» للقسطلاني (٨/ ٣٧٦).

(٥) «صحيح البخاري» (٤٤٥٨).

فَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَدْ خَرَجْتَ لأَمْرٍ وَلَا نَرَى أَنْ تَرْجِعَ عَنْهُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعَكَ بَقِيَّةُ النَّاسِ وَأَصْحَابُ رَسُولِ الله ﷺ وَلَا نَرَى أَنْ تُقْدِمَهُمْ عَلَى هَذَا الوَبَاءِ، فَقَالَ: ارْتَفِعُوا عَنِّي، ثُمَّ قَالَ: ادْعُوا لِي الأَنْصَارَ، فَدَعَوْتُهُمْ فَاسْتَشَارَهُمْ فَسَلَكُوا سَبِيلَ المُهَاجِرِينَ، وَاخْتَلَفُوا كَاخْتِلَافِهِمْ، فَقَالَ: ارْتَفِعُوا عَنِّي، ثُمَّ قَالَ: ادْعُ لِي مَنْ كَانَ هَا هُنَا مِنْ مَشْيَخَةِ قُرَيْشٍ مِنْ مُهَاجِرَةِ الفَتْحِ، فَدَعَوْتُهُمْ فَلَمْ يَخْتَلِفْ مِنْهُمْ عَلَيْهِ رَجُلَانِ، فَقَالُوا: نَرَى أَنْ تَرْجِعَ بِالنَّاسِ، وَلَا تُقْدِمَهُمْ عَلَى هَذَا الوَبَاءِ، فَنَادَى عُمَرُ فِي النَّاسِ: إِنِّي مُصَبِّحٌ عَلَى ظَهْرٍ فَأَصْبِحُوا عَلَيْهِ. قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ: أَفِرَاراً مِنْ قَدَرِ الله؟ فَقَالَ عُمَرُ: لَوْ غَيْرُكَ قَالَهَا يَا أَبَا عُبَيْدَةَ؟ نَعَمْ، نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ الله إِلَى قَدَرِ الله، أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ إِبِلٌ هَبَطَتْ وَادِيًا لَهُ عُدْوَتَانِ إِحْدَاهُمَا خَصِبَةٌ وَالأُخْرَى جَدْبَةٌ، أَلَيْسَ إِنْ رَعَيْتَ الخَصْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ الله، وَإِنْ رَعَيْتَ الجَدْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ الله؟ فَجَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَكَانَ مُتَغَيِّبًا فِي بَعْضِ حَاجَتِهِ، فَقَالَ: إِنَّ عِنْدِي فِي هَذَا عِلْمًا، سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَاراً مِنْهُ**». فَحَمِدَ اللهَ عُمَرُ ثُمَّ انْصَرَفَ[1].

والذي نلاحظه في هذا الخبر أن مسلمة الفتح لم يختلفوا، وإنما اتفقوا جميعًا على الرجوع وعدم القدوم على الوباء، وسبب اتفاقهم هذا اعتمادهم الخبرة الطبية المنتشرة في وقتهم عن العدوى، فجاء الحديث النبوي موافقًا لهذه الخبرة الحياتية الملاحظة بالتجربة، بينما اختلف من قبلهم لأن بعضهم رأى أن في الرجوع قدحًا في التوكل.

ولذا فإن عدم القدوم على الوباء وعدم الخروج منه هو خبرة بشرية عرفتها الشعوب بالتجربة ومنهم العرب، ولا يصح أن نصفها بأنها طب نبوي فضلاً عن القول بالسبق النبوي إلى الحجر الصحي، وأنه موجود في السنة قبل أن تعرفه البشرية، ولسنا بحاجة إلى التزيد لإثبات صدق الصادق المصدوق ﷺ بهذه الدعاوى.

(١) «صحيح البخاري» (٥٧٢٩).

٤- قال ﷺ: «**لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَنْهَى عَنِ الغِيلَةِ**[١] **حَتَّى ذَكَرْتُ أَنَّ الرُّومَ وَفَارِسَ يَصْنَعُونَ ذَلِكَ فَلَا يَضُرُّ أَوْلَادَهُمْ**»[٢]، وهذا دليل جلي على أن هذا النهي كان الاعتماد فيه على الملاحظة البشرية وليس الوحي الإلهي، وعليه فإن بقية ما يتعلق بتدبير الصحة هو من هذا الباب.

٥- الأدوية التي ذكرها النبي ﷺ كانت مجملة، فلم يذكر مقاديرها، ولا طريقة تحضيرها، ولا طريقة التداوي بها، مثل قوله عن الكمأة: «**وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ**»[٣]، ولم يذكر ما هو ماؤها، هل يعصر منها أو يغلى معها؟ ولذا اختلف العلماء في طريقة تطبيق هذا الوصف، وذكروا أن هناك من استعمله على ظاهره فأضره وعمي بذلك، أو رمد[٤]، فعن صالح وعبدالله ابني الإمام أحمد أنهما اشتكت أعينهما فأخذا كمأة وعصراها واكتحلا بمائها فهاجت أعينُهما ورمدا، وذكر ابن الجوزي أن بعض الناس عصر ماء كمأة فاكتحل به فذهبت عينه[٥].

أما الصحابة فلم يستفصلوا ولم يسألوا مما يدل على أن ما ذكره النبي ﷺ كان نوعًا من التداوي معروفًا تفصيله لديهم، ويكفي من النبي الإشارة إليه فيعرفون الوصفة ومقدارها وطريقتها.

فكان ذكر التداوي بها مع من كانوا يعرفون طريقتها، ولا يمكن لنا اليوم ادّعاء معرفة طريقتها عندهم.

قال المازري: علم الطب من أكثر العلوم احتياجًا إلى التفصيل، حتى إن المريض يكون الشيء دواءه في ساعة ثم يصير داءً له في الساعة التي تليها لعارض يعرض له، وإذا فرض وجود الشفاء لشخص بشيء في حالة ما لم يلزم وجود الشفاء له أو لغيره في سائر الأحوال[٦].

---

(١) الغيلة: أَنْ يُجَامِعَ الرجُل زوْجَته وَهِيَ مُرْضِع، وَكَذَلِكَ إِذَا حَملت وَهِيَ مُرْضِع. ينظر: «النهاية» (٣/ ٤٠٢).

(٢) «صحيح مسلم» (١٤٤٢).

(٣) «صحيح البخاري» (٤٤٧٨)، و«صحيح مسلم» (٢٠٤٩).

(٤) الرمد: هيجان العين، وانتفاخها. ينظر: «تاج العرو س» (٨/ ١١٦).

(٥) «فتح الباري» (١٠/ ١٦٤).

(٦) «فتح الباري» (١٠/ ٧٧).

فأين هذا التفصيل الطبي في هذه الوصفات الواردة عنه ﷺ؟ وأي تكلف في تقديرها أو تفصيلها وطريقة التداوي بها فهو تكلف وادّعاء خارج عن النص الوارد.

ونحن بغنى عن ذلك كله إذا قلنا: إن النبي ﷺ كان يحكي خبرة بشرية وليس وحيًا سماويًا.

٦- يلزم من وصف الطب بالنبوي، أن نصف لباسه باللباس النبوي، وأكله بالأكل النبوي، وسفره بالسفر النبوي، وهكذا يتحول الهدي النبوي المتحرك إلى جمود لحركة الحياة وتطورها.

٧- هناك مجالات في الحياة أهم من الطب ولم يتخذ النبي ﷺ لها نظامًا خاصًا يعينه لها، كالشأن العسكري، ففي معركة أُحد جمع الصحابة واستشارهم، وعندما جاء الأحزاب لم ينتظر الوحي وإنما جمع الصحابة واستشارهم أيضًا، واتخذ استراتيجية في الخندق غير استراتيجيته في أُحد، فلكل معركة ظروفها وتطورها، وهكذا شأن أمور الحياة الدنيوية بعامة، الأصل فيها التطور والتغير، كطرائق الزراعة، والصناعة، والعمران، والطب ونحوها.

٨- لم يرد في شرائع الأنبياء تشريع في المعالجة الطبية وأدواتها، وما جاء عن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ هي معجزات دالة على نبوته وليست شريعة لأمته؛ وذلك لأن الأنبياء هداة إلى طريق العبودية لله وليسوا أطباء ولا صيادلة.

٩- الطب النبوي ينبغي أن يكون قاصراً على ما له تعلق بالتعبد كالرقى والدعوات والتعوذات ونحوها؛ لأنها تشريع مصدره الوحي، وهو تعامل مع الله وتعبد له وفق ما شرعه، أما ما كان من العلاج بالأغذية والأدوية، والأعشاب، فمرجعه للخبرة والتجربة.

١٠- من التكلف القول بأن ما ورد من الأدوية المذكورة في الأحاديث إنما تنفع إذا استعملت باعتقاد النفع، فإن ذلك يُخرج الطب عن كونه طبًا، إذ الطب محاولة لتلمس الأسباب الكونية الموصلة لدفع المرض واسترداد الصحة، فإن الله أجرى الكون على مقتضى هذه الأسباب غالبًا بغض النظر عن اعتقاد فاعلها[1].

(١) «فقه الطب النبوي» (٦٤).

١١- وهذه الوصفات الدوائية وصفات بسيطة غير معقدة ولا مركبة، وهي من جنس أغذية البيئة العربية والتي تكون غالباً بسيطة قليلة الأخلاط، والتداوي بها ثقافة عربية شائعة في ذلك العصر، وموجودة في البيئة العربية في بادية الحجاز، والبيئات المشابهة لها، كبلاد نجد وبادية العراق والشام، فهم يعرفونها ويتوارثونها، ويتداوون بها باعتبارها طباً تجريبياً وليس طباً نبوياً، بل لا يعلمون غالباً أحاديث الطب هذه ولا يروونها لغلبة الأمية فيهم، ومن أمثلة ذلك التداوي بأبوال الإبل وألبانها، فهي ثقافة طبية بدوية معروفة في بلاد العرب إلى اليوم يستخدمونها لعلاج الأمراض الباطنية من غير احتجاج بالحديث، وإنما بالخبرة والتجربة، فيخلطون حليب الإبل بقليل من بول ناقة بكر ويسمونه الوَزْر، وهي وصفة مناسبة للبيئة البدوية، ولذا أرشد النبي ﷺ إليها الأعراب، وأما أهل المدينة فلم يذكرها لهم، وعندما اشتكى إليه رجل أن أخاه قد استطلق بطنه أرشده إلى العسل، فهو طب المدن، ولذا فلا يعلم أن النبي ﷺ تداوى بألبان الإبل وأبوالها، ولا أرشد إليها أحداً من أصحابه، ولم يرو إلا في حديث العُرنِيّين لأنهم أعراب لم يناسبهم ريف المدينة فأعادهم إلى بيئتهم الصحراوية ليصحوا فيها.

ولذا فليس من الصواب تسمية جميع أحاديث الطب بالطب النبوي، لأن الإضافة إلى النبوة تجعل مصدرها الوحي، بينما مصدر أغلبها الخبرة البشرية، وثقافة البيئة، وهو ما يسمى اليوم بالطب الشعبي.

١٢- إذا كان قد حصل التوسع والتكلف والتأويل المستكره فيما يسمى بالإعجاز العلمي في القرآن والسنة، فحولت دلالات النصوص من كونها خطاباً للفطرة البشرية لدلالة الخلق على عظمة الخالق فيما خلق، ولإقامة الحجة عليهم حسب إدراكهم الفطري المشترك، ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [لقمان: ١١]، فحولت هذه النصوص إلى آيات في علم الفلك، وعلم الأجنة، والجيولوجيا، بحيث لا يُفْهم معناها إلا في المختبرات والمراصد وأجهزة الكمبيوتر.

فإن هذا التوسع حصل أشد منه فيما يسمى بالإعجاز العلمي في الطب النبوي، إلا أنه قد خالطه في أحاديث الطب النبوي معرة أخرى خطيرة، وهي شهوة الطمع والتجارة، واستغلال الدين للدنيا، بتحضير وصفات ومستحضرات وأخلاط على أنها من الطب النبوي،

وربما يتوسع باب الدجل والاحتيال إلى ادّعاء اكتشاف أدوية نبوية للأمراض المستعصية كالسرطان والإيدز، وادّعاء أن شركات الأدوية تحارب الطب النبوي، ليبقى هذا الكشف سراً لا يعرفه إلا هؤلاء المسوقون للغباء باسم الطب النبوي.

خلاصات:

١- أمر ﷺ بالتداوي فقال: «**تَدَاوَوْا، فَإِنَّ اللهَ لَمْ يُنْزِلْ دَاءً، إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً**».

٢- وكما أمر بالتداوي فقد تداوى هو ﷺ، وداوى غيره بما هو معروف في زمانه من أسباب التداوي.

٣- وجَّه ﷺ إلى التداوي والتحصّن بالرقية الشرعية والتي جماعها دعاء الله، وسؤاله وحده لا شريك له.

٤- نهى ﷺ عن أنواع شائعة من التداوي المحرم كالرقى الشركية، والاستعانة بالكهان أو التداوي بالمحرمات كالخمر.

٥- استعمل ﷺ الأدوية التي كان يصفها له أطباء العرب، واستدعى الأطباء لأصحابه، وعرض الصحابةُ أنفسَهم على الأطباء واستشاروهم.

٦- ذكر ﷺ أنواعاً من الأدوية التي كانت شائعة في وقته كالحجامة، والحبة السوداء، والعود الهندي ونحوها.

٧- ذهب بعض العلماء إلى أن الأحاديث الواردة في الطب من الوحي المعصوم، وذهب فريق من العلماء إلى تخصيصها وتضييق دلالتها فخصوها بالمدينة وما حولها، وهناك من خصصها بنوع من الأمراض وإن وردت عامة.

٨- وذهب فريق آخر إلى أن أحاديث الطب خبرة بشرية وليست وحياً يوحى، وأنها من طب البيئة القائم على التجربة.

٩- ومع هذا الخلاف فإن العلماء قرروا دلالة هذه الأحاديث على إباحة التداوي بما ورد، ولا يتعدى ذلك ليكون واجباً أو مندوباً.

الرسول ﷺ والقيادة[1]

القيادة هي القدرة على تحقيق الإنجازات من خلال كسب الناس وإقناعهم بتبني رؤية خاصة، وتحفيزهم لبذل كل ما في وسعهم من جهدٍ لإنجازها بإيمان وحماس، وهذا الوصف للقيادة تجده متحققاً تماماً في القيادة النبوية، فقد كسب ﷺ قلوب أصحابه فهو أحب الخلق إليهم، وأقنعهم بدينه ورسالته فكانوا في غاية اليقين الإيماني بالرسالة والرسول، وحفزهم لبذل جهدهم في سبيل الرسالة بتفان وحماس، فتحقق بذلك أعظم إنجاز وهو بلاغ الرسالة ودخول الناس في دين الله أفواجاً.

وكانت القيادة بمكوناتها وصفاتها ومهماتها مؤتلفةً في شخصية النبي ﷺ، فالقيادة إحدى وظائفه ومعالم شخصيته، والتي تحتويها وظيفته العظمى وهي بلاغ الرسالة من الله إلى عباده، وكانت قيادة البشرية إحدى وسائل أداء الرسالة، وتحقيق البلاغ، واستنقاذ البشرية وإسعادها، وليست قيادة الزعامة والعلو في الأرض، ولذا بقي هذا النبي الكريم على سمته الأخلاقي العظيم حينما دانت له الجزيرة العربية كلها وانقادت له ملوكها وزعماؤها كما هو حينما كان في مكة وأصحابه هم القلة المستضعفة فيها، ولم تزده القوة والفتح إلا تواضعا وقرباً، ورحمة وبراً.

ولذا فلا يصح مقارنة زعامته وقيادته بقيادات الزعماء والكبراء والملوك والأباطرة الذين كانت الزعامة طموحهم الأكبر وشهوتهم العظمى، ومؤهلاتهم لها مواهبهم الشخصية،

(١) ينظر: «القيادة وأثرها في كسب الولاء»، د. فيصل بن جاسم آل ثاني، و«قيادة الرسول السياسية والعسكرية»، أحمد راتب عرموش.

أما زعامة النبي ﷺ فإنه مع مواهبه وقدراته الفائقة إلا أن مؤهله كان الوحي المنزل عليه، والرسالة المبعوث بها؛ والتأييد الإلهي الذي يصاحبه، ولذا فقيادته هي القيادة للسعادة، واحتواء الناس بالحب، واستنقاذهم من الهلكة، من غير أن يختار لنفسه حظًا، أو يسألهم على ذلك أجراً.

وعندما ننظر إلى النبي ﷺ قائداً، فإنما ننظر إلى أحد جوانب العظمة في شخصيته التي هي مجموعة من الصفات والمهارات التي تتميز بها شخصيته ﷺ، والتي جعلت أصحابه يأتلفون حوله على تنوعهم في قبائلهم وبلدانهم وأعمارهم، يجمعهم الإيمان به، والحب له، والاقتناع اليقيني باتباعه وطاعته، فإذا هم بمجموعهم جسد واحد متناغم الحركة، وكأنما القيادة النبوية هي الروح الجامعة لهم، المؤلفة بينهم.

وعندما نستعرض صفات النبي ﷺ القيادية تتضح لنا معالم مضيئة، منها:

أولاً: وضوح الفكرة والهدف:

فقد كانت دعوته ﷺ واضحة لا لبس فيها، يفهمها الأعرابي والأمي كما يفهمها ذو العلم والمعرفة، ولذلك يشرحها جعفر بن أبى طالب وهو المؤمن بها للنجاشي كما يشرحها أبو سفيان الكافر بها لهرقل لشدة وضوحها، وعندما أمر ﷺ معاذاً أن يدعو أهل الكتاب في اليمن حدَّد له معالم واضحة لا التباس فيها ولا غموض: «**إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ الله، فَإِذَا عَرَفُوا اللهَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا فَعَلُوا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِذَا أَطَاعُوا بِهَا، فَخُذْ مِنْهُمْ وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ**»[1].

ومضامين هذه الدعوة مضامين نبيلة تستجيب لها الفِطر، وتأتلف عليها العقول، ليس فيها ما يجعل العقل في أزمة، ولا الإنسان في حرج.

وكما كانت الدعوة واضحة جلية فقد كان الهدف واضحًا عظيما تصغر أمامه الأهداف الدنيوية الصغيرة، والعاجلة الزائلة، إنه الجزاء الأخروي في دار الخلود الأبدي، وجعل هذا الموعود نصب أعينهم، ويظهر ذلك في بيعة العقبة الثانية، حيث قال ﷺ للأنصار:

(١) «صحيح البخاري» (١٤٥٨)، و«صحيح مسلم» (١٩).

«**فَإِنْ وَفَّيْتُمْ فَلَكُمْ الجَنَّةُ**»[1]. ولم يعدهم بشيءٍ آخر من أعراض الدنيا ومناصبها وجاهها، وقوله ﷺ لآل ياسر وهم يعذبون في مكة: «**صَبْراً آلَ يَاسِرٍ، فَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الجَنَّةُ**»[2]، وقد بقي هذا الهدف نصب أعينهم يسترخصون كل ما يبذلونه فيه، أرواحَهم وأموالهم.

إن كل موعود يتضاءل أمام هذا الموعود المرتقب في دار الخلود، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾.

ثانياً: التحفيز للمهمات:

وكانت للنبي ﷺ طرائقه في التحفيز بحسب الموقف والحال، فمن ذلك قوله ﷺ قبيل معركة بدر: «**لَا يُقَدِّمَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَى شَيْءٍ حَتَّى أَكُونَ أَنَا دُونَهُ**». فَدَنَا المُشْرِكُونَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ لأصحابه: «**قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ**». قَالَ عُمَيْرُ بْنُ الحُمَامِ الأَنْصَارِيُّ: يَا رَسُولَ الله، جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**». قَالَ: بَخٍ بَخٍ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ؟**». قَالَ: لَا وَالله يَا رَسُولَ الله، إِلَّا رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا، قَالَ: «**فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا**». فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرَنِهِ، فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ، ثُمَّ قَالَ: لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ، فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ التَّمْرِ، ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ[3].

وفي يوم أحد أخذ رَسُولُ الله ﷺ سَيْفًا فَقَالَ: «**مَنْ يَأْخُذُ هَذَا السَّيْفَ؟**». فَأَخَذَهُ قَوْمٌ فَجَعَلُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: «**مَنْ يَأْخُذُهُ بِحَقِّهِ؟**». فَأَحْجَمَ القَوْمُ، فَقَالَ أَبُو دُجَانَةَ سِمَاكُ بن خرشة: أَنَا آخُذُهُ بِحَقِّهِ. فَأَخَذَهُ فَفَلَقَ هَامَ المُشْرِكِينَ[4].

لقد كان هذا التحفيز قبل المعركة طاقة دافعة للجيش كله، ولذا ظهر أثر ذلك في تفاعل أبي دجانة وعمير بن الحمام وغيرهما.

(١) «مسند أحمد» (٢٢٧٥٤).
(٢) «المستدرك» (٥٦٦٦).
(٣) «صحيح مسلم» (١٩٠١).
(٤) «صحيح مسلم» (٢٤٧٠).

وكان ﷺ يحفز بالعطاء وبالثناء وبالمسؤولية ينيطها برجال يقدرون عليها فيشعرون بالثقة والمسؤولية، وبذلك احتوى الجميع، كلٌ بما يناسبه ويليق له.

فعن عمرو بن تغلب، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ أُتِيَ بِمَالٍ فَقَسَمَهُ، فَأَعْطَى رِجَالاً وَتَرَكَ رِجَالاً، فَبَلَغَهُ أَنَّ الَّذِينَ تَرَكَ عَتَبُوا، فَحَمِدَ اللهَ، ثُمَّ أَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «**أَمَّا بَعْدُ فَوَاللهِ إِنِّي لَأُعْطِي الرَّجُلَ، وَأَدَعُ الرَّجُلَ، وَالَّذِي أَدَعُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الَّذِي أُعْطِي، وَلَكِنْ أُعْطِي أَقْوَامًا لِمَا أَرَى فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الجَزَعِ وَالهَلَعِ، وَأَكِلُ أَقْوَامًا إِلَى مَا جَعَلَ اللهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الغِنَى وَالخَيْرِ، فِيهِمْ عَمْرُو بْنُ تَغْلِبَ**». قال عمرو: فَوَاللهِ مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِكَلِمَةِ رَسُولِ الله ﷺ حُمْرَ النَّعَمِ[1].

فكان ﷺ في عطائهم يراعي نفسيات الناس ومشاعرهم وقدراتهم، فيعطي من لديه التشوف للعطاء، ويثني على أهل الصبر بما هو أحب إليهم من كثير من العطاء.

وكذلك يحفز أصحاب المواهب ويستثير مواهبهم فعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**يَا أَبَا المُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ الله مَعَكَ أَعْظَمُ؟**». قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «**يَا أَبَا المُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ الله مَعَكَ أَعْظَمُ؟**». قُلْتُ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. فَضَرَبَ فِي صَدْرِي، وَقَالَ: «**وَاللهِ لِيَهْنِكَ العِلْمُ أَبَا المُنْذِرِ**»[2].

وعن عَمْرو بْنِ العَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، بَعَثَهُ عَلَى جَيْشِ ذَاتِ السُّلَاسِلِ، قال: فَأَتَيْتُهُ فَقُلْتُ: أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: «**عَائِشَةُ**». فَقُلْتُ: مِنَ الرِّجَالِ؟ فَقَالَ: «**أَبُوهَا**». قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «**ثُمَّ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ**». فَعَدَّ رِجَالاً[3].

لقد كانت تولية عمرو بن العاص على الجيش مع حداثة إسلامه تحفيزاً له وإشعاراً له بالثقة، ولذا شعر بالحظوة من رسول الله ﷺ فسأله: أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ وكأنه كان يطمع أن يكون أولهم.

لقد جعلت طرائق التحفيز النبوية الصحابة في حال استنفار، بل في سباق ومسارعة وتنافس في الخير.

---

(١) «صحيح البخاري» (٩٢٣).

(٢) «صحيح مسلم» (٨١٠).

(٣) «صحيح البخاري» (٣٦٦٢)، و«صحيح مسلم» (٢٣٨٤).

ثالثاً: الحكمة في اتخاذ القرار:

إن الحكمة والبراعة في اتخاذ القرارات، وحسن إدارة المواقف من ضرورات القيادة وأهم صفات القائد، وقد تجلّى ذلك في كثير من المواقف النبوية:

١- كما حدث في صلح الحديبية حيث تنازل لقريش عن كثير مما طلبوه حتى تم الصلح، ولم يتوقف عند مراغمات مفاوض قريش وتعنته في رفضه كتابة: «**بِسْمِ اللهِ الرَحْمَنِ الرَحِيمِ**» فقال: «**اكْتُبْ: بِاسْمِكَ اللهُمَّ**». وعندما كتب: «**مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ**»، قال: اكتب اسمك واسم أبيك، فأعطاه ذلك لأنه يرضيهم ولا يضره، وبذلك تم الصلح الذي كان فتحاً مبيناً[١].

٢- وكمنعه من قتل رأس المنافقين عبدِ الله بنِ أُبَيٍّ ابنِ سَلول على شدة أذاه وكيده، حتى لا يوحش نفوس الأنصار، وحتى لا يقال: بأنَّ محمداً يقتل أصحابه[٢].

٣- وكإشغاله الجيش بالسُّرى حتى لا تفشو مقالة عبد الله بن أُبيّ حين قال: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]، وكانت كلمة شنيعة منه يمكن أن تحدث لغطاً وفتنة، فأشغلهم ﷺ بالمسير المجهد عن الحديث الذي يثير الفتنة ويفشي المقالة[٣]، وبذا أطفأ الفتنة وقصر تداعي أثر هذه الكلمة.

وعندما ننظر في أفعاله ﷺ اليوم فإنا لا نجد فعلاً فَعَلَه وكان غيره أولى منه، ولا كلمة قالها وكان غيرها أحسن منها، فكل تصرفاته وأقواله وإدارته للمواقف كانت هي الحكمة والقرار الأنسب لموقفه ذلك.

رابعاً: حسن التخطيط:

ويظهر ذلك في تخطيط المعارك وإدارة الجموع واستيعاب الوفود، ومن ذلك ما عمله في معركة أحد حيث كان المشركون عند أحد مستقبلين المدينة ينتظرون وصول رسول الله ﷺ إليهم فلما أصبح قال لأصحابه: «**مَنْ رَجُلٌ يَخْرُجُ بِنَا عَلَى الْقَوْمِ مِنْ طَرِيقٍ لَا يَمُرُّ بِنَا عَلَيْهِمْ؟**»[٤]،

(١) «صحيح البخاري» (٢٧٣١)، و«صحيح مسلم» (١٧٨٤).
(٢) «صحيح البخاري» (٣٥١٨)، و«صحيح مسلم» (٢٥٨٤).
(٣) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٢٩١).
(٤) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٦٥).

فتخلل نخيل بني حارثة حتى خرج عليهم من خلف جبل الرماة ففاجأهم من خلفهم، ووجدوه من حيث لم يتوقعوه وترتب على ذلك إرباك تخطيطهم الذي بنوه على توقعهم.

وقبل بدء المعركة وضع فريق الرماة على جبل الرماة فعَنِ البَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَعَلَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى الرُّمَاةِ يَوْمَ أُحُدٍ وَكَانُوا خَمْسِينَ رَجُلاً عَبْدَ الله بْنَ جُبَيْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَوَضَعَهُمْ مَكَانًا فَقَالَ: «**إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَتَخَطَّفُنا الطَّيْرُ فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا قَدْ هَزَمْنَا القَوْمَ وَوَطَيْنَاهُمْ فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ**»[1]، وبذلك حمى ظهر الجيش وحصر المعركة في وادٍ ضيق قلَّل فاعلية الكثرة العددية للمشركين فتحقق النصر في الجولة الأولى من المعركة حتى انهزم المشركون وسقط لواؤهم، ولكن مخالفة الرماة للأمر ونزولهم من الجبل فتحت هذه الثغرة فنفذ منها فرسان المشركين وتغير مسار المعركة ونتيجتها.

وكذلك في غزوة الأحزاب حينما فاجأ قريش بخطوة لم تكن متوقعة، وهي حفر الخندق، فكانت مفاجأة أفشلت خطتهم، وجعلت جمعهم الهائل عبثًا عليهم، ووقف أبو سفيان أمام الخندق بحسرةٍ وهو يقول: هذه مكيدة ما كيدت بمثلها العرب[2].

وكذلك الضربات الاستباقية التي يفاجئ بها من كانوا يستعدون لقتاله فإذا به يسبقهم بالمبادرة كما في غزوة بني المصطلق، وهكذا كان تخطيطه محكمًا، وقراراته مدروسة، وخططه معدة بعناية.

خامساً: إدارة الأزمات:

وذلك بالثبات والصبر، وحسن التصرف في إدارة الأزمات والعبور منها بسلام، ومن ذلك إدارة الموقف بعد معركة أحد، حيث حفَّزَ المسلمين للحاق بجيش المشركين في حمراء الأسد، وكان في ذلك إرهابٌ للمشركين الذين شعروا أن المسلمين لا زالوا في حال تحفزٍ وعزم على القتال، وتقويةٌ لنفوس المسلمين بإعادة لحمتهم، وتجديد قوتهم، والربط على قلوبهم.

(١) «سنن أبي داود» (٢٦٦٢).

(٢) «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» (٢/ ٦٣٥).

وكذا إدارة الموقف في الخندق وهي ساعة شدةٍ ورعب زاغت فيها الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، وقد كان في عمله مع أصحابه في الخندق مدداً لعزائمهم، وهم يرونه يحمل التراب حتى غطى التراب بطنه، وفي هذه الشدة يرون استبشاره بالنصر القادم، والفتوح الموعودة، فكان في ذلك أعظم مدد للثبات والمصابرة.

وإدارة الموقف يوم فتح مكة فقد أعطى الأمان لكل من دخل داره، ثم أرسل الأنصار وخالد بن الوليد وأمرهم بالقضاء على كل فرقةٍ يجمعها الأوباش لمواجهة جيش الفتح، فجمع بين العفو والحزم.

سادساً: اليقظة، وأخذ الاستعداد:

فقد كان ﷺ في غاية الاحتراس واليقظة، وكان له عيون توافيه بالأخبار، وسرايا تستطلع له تحركات الأعداء وتعلَمُ له أخبارهم، ففي السنة الأولى من الهجرة أرسل سرية بقيادة عبد الله بن جحش وأعطاه كتاباً وأمره أن يفتحه بعد يومين من مسيره، فَلَمَّا سَارَ عَبْدُ الله بْنُ جَحْشٍ يَوْمَيْنِ فَتَحَ الكِتَابَ، فَنَظَرَ فِيهِ فَإِذَا فِيهِ: «**إِذَا نَظَرْتَ فِي كِتَابِي هَذَا فَامْضِ حَتَّى تَنْزِلَ نَخْلَةَ، بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ، فَتَرَصَّدْ بِهَا قُرَيْشًا وَتَعَلَّمْ لَنَا مِنْ أَخْبَارِهِمْ**»[1]. إنه الاستطلاع اليقظ، ومعرفة حال العدو عن قرب.

وعندما عادت عير أبي سفيان من الشام أرسل عيناً له يأتي بأخبارهم، قال أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: بَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ بُسَيْسَةَ عَيْنًا يَنْظُرُ مَا صَنَعَتْ عِيرُ أَبِي سُفْيَانَ، فَجَاءَ وَمَا فِي البَيْتِ أَحَدٌ غَيْرِي، وَغَيْرُ رَسُولِ الله ﷺ، فَحَدَّثَهُ الحَدِيثَ، قَالَ: فَخَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ فتكَلَّمَ، فَقَالَ: «**إِنَّ لَنَا طَلِبَةً، فَمَنْ كَانَ ظَهْرُهُ حَاضِراً فَلْيَرْكَبْ مَعَنَا**». فَجَعَلَ رِجَالٌ يَسْتَأْذِنُونَهُ فِي ظُهْرَانِهِمْ فِي عُلْوِ المَدِينَةِ، فَقَالَ: «**لَا، إِلَّا مَنْ كَانَ ظَهْرُهُ حَاضِراً**». فَانْطَلَقَ رَسُولُ الله ﷺ وَأَصْحَابُهُ حَتَّى سَبَقُوا المُشْرِكِينَ إِلَى بَدْرٍ[2].

وهنا يظهر الاستطلاع لمسار العدو واستخبار أحواله قبل وصوله، ثم المبادرة بالخروج بحيث طلب ألا يخرج إلا من كان ظهره حاضراً لأن الانتظار يفوت الفرصة.

---

(١) «سيرة ابن هشام» (١/ ٦٠٢).

(٢) «صحيح مسلم» (١٩٠١).

وعندما تهيأت قريش للمسير إليه في معركة أحد وصله كتاب العباس قبل مسير المشركين يخبره بمسيرهم وعددهم واستعدادهم، وكذا وصله خبر مسير قريش والأحزاب بحيث تمكن من اتخاذ الاحتياطات وحفر الخندق قبل وصولهم[1].

سابعاً: اختيار الكفاءات:

ويظهر ذلك في اختياره الكفاءات المناسبة للمهمات، فيضع كلا أمام المسؤولية التي تناسبه، ويكون لديه اقتدارٌ ومهارة على أدائها، **ولذلك أمثلة كثيرة، منها:**

عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ لَيْلَةَ الأَحْزَابِ، وَأَخَذَتْنَا رِيحٌ شَدِيدَةٌ وَقرٌّ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ القَوْمِ؟ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ القِيَامَةِ**». فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ: «**أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ القَوْمِ؟ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ القِيَامَةِ**». فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ: «**أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ القَوْمِ؟ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ القِيَامَةِ**». فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، فَقَالَ: «**قُمْ يَا حُذَيْفَةُ، فَأْتِنَا بِخَبَرِ القَوْمِ**». فَلَمْ أَجِدْ بُدّاً إِذْ دَعَانِي بِاسْمِي أَنْ أَقُومَ، قَالَ: «**اذْهَبْ فَأْتِنِي بِخَبَرِ القَوْمِ، وَلَا تَذْعَرْهُمْ**[2] **عَلَيَّ**». فَلَمَّا وَلَّيْتُ مِنْ عِنْدِهِ جَعَلْتُ كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَّامٍ حَتَّى أَتَيْتُهُمْ، فَرَأَيْتُ أَبَا سُفْيَانَ يَصْلِي ظَهْرَهُ بِالنَّارِ، فَوَضَعْتُ سَهْماً فِي كَبِدِ القَوْسِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْمِيَهُ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ رَسُولِ الله ﷺ: «**وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ**». وَلَوْ رَمَيْتُهُ لَأَصَبْتُهُ، فَرَجَعْتُ وَأَنَا أَمْشِي فِي مِثْلِ الحَمَّامِ، فَلَمَّا أَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِ القَوْمِ، وَفَرَغْتُ قُرِرْتُ[3]، فَأَلْبَسَنِي رَسُولُ الله ﷺ مِنْ فَضْلِ عَبَاءَةٍ كَانَتْ عَلَيْهِ يُصَلِّي فِيهَا، فَلَمْ أَزَلْ نَائِماً حَتَّى أَصْبَحْتُ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ قَالَ: «**قُمْ يَا نَوْمَانُ**»[4].

لقد كان حذيفة شابّاً يجمع الجرأة والحذر، ولذا دخل في غمار القوم بثبات، ولم يتجاوز وصاة النبي ﷺ فسرب فيهم من غير أن يذعرهم.

---

(١) ينظر فصل «**الرسول ﷺ والشجاعة**».

(٢) الذعر: الفزع، أي لا تفزعهم ولا تثيرهم علي. ينظر: «شرح النووي على مسلم» (١٢/ ١٤٥).

(٣) قُرِرْتُ: أي: بَرَدْتُ. ينظر: «شرح النووي على مسلم» (١٢/ ٤٧٨).

(٤) «صحيح مسلم» (١٧٨٨).

ومن ذلك إرساله عليًا والمقداد إلى المرأة التي كانت تحمل رسالةَ حاطب بن أبي بَلْتَعة ينذرهم بجيش النبي ﷺ القادم عليهم لفتح مكة، فعن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بَعَثَنِي رَسُولُ الله ﷺ أَنَا وَالزُّبَيْرَ، وَالمِقْدَادَ بْنَ الأَسْوَدِ، قَالَ: «**انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ، فَإِنَّ بِهَا ظَعِينَةً، وَمَعَهَا كِتَابٌ فَخُذُوهُ مِنْهَا**». فَانْطَلَقْنَا تَعَادَى بِنَا خَيْلُنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى الرَّوْضَةِ، فَإِذَا نَحْنُ بِالظَّعِينَةِ، فَقُلْنَا: أَخْرِجِي الكِتَابَ، فَقَالَتْ: مَا مَعِي مِنْ كِتَابٍ، فأنخنا بها، فابتغينا في رحلها فلم نر كتابا، فَقُلْنَا: لَتُخْرِجِنَّ الكِتَابَ أَوْ لَنُلْقِيَنَّ الثِّيَابَ، فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا، فَأَتَيْنَا بِهِ رَسُولَ الله ﷺ[1].

لقد كان علي والزبير والمقداد شبابًا جريئين ولذا عندما فتشوا متاع المرأة فلم يجدوا الرسالة لم يكتفوا بذلك فهددوها بتجريدها من ثيابها، ليقينهم بخبر رسول الله ﷺ، فلما رأت جرأتهم وعلمت عزمهم على تنفيذه أخرجته من داخل شعر رأسها، إن هذا الموقف يقدم عليه شباب جريئون، ولكن لو أرسل النبي ﷺ غيرهم من أشياخ المسلمين لربما احتشموا من هذا الموقف، فكان رجال المهمة هم علي والزبير والمقداد.

لقد كان ﷺ يحسن اختيار الكفاءات وتوزيع المسؤوليات؛ فيختار ذوي القدرات من أصحابه ويفوضهم بالصلاحيات، فقد أرسل معاذا واليًا ومعلمًا إلى اليمن وهو شاب، وأرسل أسامة قائدا لجيش فيهم أبو بكر وعمر وهو شاب، وولَّى القيادة لعمرو بن العاص وخالد بن الوليد على حداثة إسلامهما، ولم ينقل أنه ولَّى أبا ذر الغفاري ولا بلالا ولا ابن مسعود على فضلهم وسابقتهم لأن لكلٍ ما يناسب مواهبه.

ومن خلال هذه المهمات التي يسندها، والأعمال التي يكلف بها، وإحاطة المستشارين حوله، أعد ﷺ القيادات الواعدة التي سوف تتحمل المسؤولية بعده، وتتولى القيادة بعد وفاته، ولذا لم تقع الأمة في فراغ قيادي بوفاته، ولا فوضى واضطراب بعده وإنما تولى الأمر تباعًا أولئك القادة الذين أهّلهم ﷺ، فكانوا يمارسون مهامهم بين يديه في حياته، وأتموا المهمة باقتدار بعد وفاته.

(١) «صحيح البخاري» (٣٠٠٧)، و«صحيح مسلم» (٢٤٩٤).

ثامناً: الشورى:

أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نبيه بمشاورة أصحابه، فقال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال أبو هريرة: مَا رَأَيْتُ أَحَداً أَكْثَرَ مَشُورَةً لِأَصْحَابِهِ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ[١]، وفي المشورة إشراك لهم في القرار وتحمُّل المسؤولية.

وقد استشار النبي ﷺ أصحابه في مواقف كثيرة منها: عند خروجه لغزوة بدر حين بلغه خروج قريش للقتال فاستشار أصحابه، وقال: «**أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ**». فقال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فأحسن، ثم قام عمر فقال فأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال وأحسن، فقال لهم رسول الله ﷺ خيراً ودعا لهم بخير، ثم قال: «**أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ**». وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم عدد الناس، فكان رسول الله ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى أن عليها نصرته إلا بالمدينة، وأنه ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو بغير بلادهم، فلما قال ذلك رسول الله ﷺ قال سعد بن معاذ: والله لكأنك يا رسول الله تريدنا؟ قال: «**أَجَلْ**». قال سعد بن معاذ: فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به حق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك، ما تخلف منا واحد، وما نكره أن نلقى عدونا غداً، إنا لصُبُرٌ عند الحرب، صُدُق عند اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله، فُسرّ بذلك رسول الله ﷺ، ثم قال ﷺ: «**سِيرُوا وَأَبْشِرُوا، فَإِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ قَدْ وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ**»[٢].

إنك بذلك تشعر أنك أمام قائد عظيم يخاطب قادة أكفاء على قدر عال من العزة وقوة الإيمان وصدق اليقين بموعود الله على الرغم من ضعف الإمكانات المادية المتاحة لهم وقتها، ولذا ائتلف موقفهم، واتحدت كلمتهم، وشعروا أنهم شركاء في الرأي والمشورة.

---

(١) «مسند أحمد» (١٨٩٢٨).

(٢) «دلائل النبوة» للبيهقي (٣/ ٣٣-٣٤)، وأصله في «صحيح مسلم» (١٧٧٩).

ولو كان لشخص ألا يستشير لكان هو رسول الله ﷺ الذي يتنزّل عليه الوحي من السماء، ومع ذلك يُجري ﷺ هذا الحوار الراقي الرائع الذي يستطلع من خلاله آراء القيادات التي معه، ويطمئن إلى استعداد الجيش لخوض المعركة، ويجري هذه المشاورة التي يتجلى فيها أدب الحوار، وحسن التعامل مع الجنود، والحرص على معرفة جميع الآراء من كافة المجموعات.

ولما سار ﷺ ووصل أَدْنَى مَاءٍ مِنْ بَدْرٍ نَزَلَ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ الحُبَابُ بْنُ المُنْذِرِ: يَا رَسُولَ الله، مَنْزِلٌ أَنْزَلَكَهُ اللهُ لَيْسَ لَنَا أَنْ نَتَعَدَّاهُ وَلَا نُقَصِّرُ عَنْهُ؟ أَمْ هُوَ الرَّأْيُ وَالحَرْبُ وَالمَكِيدَةُ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**بَلْ هُوَ الرَّأْيُ وَالحَرْبُ وَالمَكِيدَةُ**». فَقَالَ الحُبَابُ: يَا رَسُولَ الله، فَإِنَّ هَذَا لَيْسَ بِمَنْزِلٍ، وَلَكِنِ انْهَضْ حَتَّى تَجْعَلَ القُلُبَ[1] كُلَّهَا مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِكَ، ثُمَّ غَوِّرْ كُلَّ قَلِيبٍ بِهَا، إِلَّا قَلِيبًا وَاحِداً، ثُمَّ احْفِرْ عَلَيْهِ حَوْضاً، فَنُقَاتِلُ القَوْمَ، فَنَشْرَبُ وَلَا يَشْرَبُونَ، حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، فَقَالَ ﷺ: «**قَدْ أَشَرْتَ بِالرَّأْيِ**». فَفَعَلَ ذَلِكَ[2].

ومثل ذلك: استشارته الصحابة قبل معركة أحد، فعن عُرْوَةَ بن الزبير أنه ذَكَرَ قِصَّةَ أُحُدٍ وَإِشَارَةَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى المُسْلِمِينَ بِالمُكْثِ فِي المَدِينَةِ، وَأَنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ أَبَوْا إِلَّا الخُرُوجَ إِلَى العَدُوِّ قَالَ: وَلَوْ تَنَاهَوْا إِلَى قَوْلِ رَسُولِ الله ﷺ وَأَمْرِهِ كَانَ خَيْراً لَهُمْ وَلَكِنْ غَلَبَ القَضَاءُ وَالقَدَرُ، قَالَ: وَعَامَّةُ مَنْ أَشَارَ عَلَيْهِ بِالخُرُوجِ رِجَالٌ لَمْ يَشْهَدُوا بَدْراً وَقَدْ عَلِمُوا الذِي سَبَقَ لِأَهْلِ بَدْرٍ مِنَ الفَضِيلَةِ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ الله ﷺ صَلَاةَ الجُمُعَةِ وَعَظَ النَّاسَ وَذَكَّرَهُمْ وَأَمَرَهُمْ بِالجِدِّ وَالِاجْتِهَادِ، ثُمَّ انْصَرَفَ مِنْ خُطْبَتِهِ وَصَلَاتِهِ، فَدَعَا بِلَأْمَتِهِ[3] فَلَبِسَهَا، ثُمَّ أَذَّنَ فِي النَّاسِ بِالخُرُوجِ، فَلَمَّا أَبْصَرَ ذَلِكَ رِجَالٌ مِنْ ذَوِي الرَّأْيِ، قَالُوا: أَمَرَنَا رَسُولُ الله ﷺ أَنْ نَمْكُثَ بِالمَدِينَةِ، فَإِنْ دَخَلَ عَلَيْنَا العَدُوُّ قَاتَلْنَاهُمْ فِي الأَزِقَّةِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالله وَبِمَا يُرِيدُ وَيَأْتِيهِ الوَحْيُ مِنَ السَّمَاءِ، ثُمَّ أَشْخَصْنَاهُ، فَقَالُوا: يَا نَبِيَّ الله أَنَمْكُثُ كَمَا أَمَرْتَنَا؟ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ:

(١) القُلُب: جمع قليب، وهي آبار المياه. ينظر: «النهاية» (٤/ ٩٨).

(٢) «المستدرك» (٥٨٠١).

(٣) اللَّأْمَة: الدِّرْع. وَقِيلَ: السِّلاح. ولْأَمَةُ الحَرب: أدَاتُه. ينظر: «النهاية» (٤/ ٢٢٠).

«لَا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ إِذَا أَخَذَ لَأْمَةَ الحَرْبِ وَأَذَّنَ فِي النَّاسِ بِالخُرُوجِ إِلَى العَدُوِّ أَنْ يَرْجِعَ حَتَّى يُقَاتِلَ، وَقَدْ دَعَوْتُكُمْ إِلَى هَذَا الحَدِيثِ فَأَبَيْتُمْ إِلَّا الخُرُوجَ، فَعَلَيْكُمْ بِتَقْوَى الله وَالصَّبْرِ إِذَا لَقِيتُمُ العَدُوَّ وَانْظُرُوا مَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوهُ»، فَخَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ وَالمُسْلِمُونَ مَعَهُ[1].

وهنا نلاحظ أن النبي ﷺ كان له رأي عرضه عليهم وهو عدم الخروج، فلما رأى أَكثرُهم الخروج نزل عن رأيه إلى رأيهم، ولبس لأمته وأخذ سلاحه وخرج، فلما تراجعوا عن رأيهم لم يرجع هو؛ لأن القائد لا يكون مترددا كثير الآراء، بل ذا عزم وثبات وقد أخذت المشورة نصيبها وجاء دور العزيمة، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

كما نلاحظ أنه ﷺ بعد المصيبة في أُحد لم يذكِّرهم برأيه ومشورته، ولم يَلُم الذين أشاروا بالخروج، ولم يرجع عليهم بالعتاب؛ لأن الرأي صار جماعيًا يتحمل الجميع مسؤوليته.

وفي معركة الخندق حين بلغه مسير قريش والأحزاب فاستشار الصحابة، فقرروا حفر الخندق، وكان الذي أشار بذلك سلمان الفارسي، فقال: يا رسول الله، إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا، فأمر النبي ﷺ بحفر الخندق، وعمل فيه بنفسه ترغيبا للمسلمين[2].

وكان سلمان حينها حديث عهد بِحُرية، ومع ذلك كان له مكانته ولمشورته قيمتها، وهذه براعة نبوية في استنفار الكفاءات واستثارة الطاقات.

تاسعاً: الشجاعة:

فقد كان النبي ﷺ شجاعًا مقدامًا يسير أمام الجيش، ويشارك في المعارك، وقاتل مع أصحابه، وكانوا يلوذون به عند اشتداد القتال، فقد آتاه الله تعالى قوةً وقدرةً وبأسًا شديداً، قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كُنَّا وَالله إِذَا احْمَرَّ البَأْسُ نَتَّقِي به، وإِنَّ الشُّجَاعَ مِنَّا لَلَّذِي يُحَاذِي به، يَعْنِي النبيَّ ﷺ[3].

---

(١) «السنن الكبرى» للبيهقي (١٣٢٨١).

(٢) «تاريخ الطبري» (٢/ ٥٦٦).

(٣) «صحيح البخاري» (٤٣١٧)، و«صحيح مسلم» (١٧٧٦).

والأتباع إنما يثقون وينقادون لقائد يفوقهم شجاعة وإقداما وقوة ورباطة جأش وهكذا كان ﷺ[1].

عاشراً: الصدق والأمانة:

وهذه الصفة التي شهد له بها الأعداء قبل الأصدقاء، وهي التي تورث الثقة بالقائد، وتجعل لكل ما يقوله مصداقية عالية في نفوس أتباعه، وكان لرسول ﷺ من ذلك الكمال كلُّه، فقد كان الرسول ﷺ يلقب قبل بعثته بالصادق الأمين، وهذه صفة الرسل، كما جاء على لسان هرقل عظيم الروم عندما سأل أبا سفيان عن النبي ﷺ فقال: وسَأَلْتُكَ: هلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بالكَذِبِ قَبْلَ أنْ يَقُولَ ما قَالَ، فَزَعَمْتَ أنْ لَا، فَعَرَفْتُ أنَّه لَمْ يَكُنْ لِيَدَعَ الكَذِبَ علَى النَّاسِ، ثُمَّ يَذْهَبَ فَيَكْذِبَ علَى الله[2].

الحادي عشر: العفو والاحتواء:

فكان ﷺ يُغلِّب الحِلم واللين، والعفو والتسامح ما أمكنه ذلك، وبذلك احتوى الأعداء، وأطفأ العداوات، وألف القلوب وجمعها، وكان إلى العفو والحلم أقرب منه إلى العقوبة، والشواهد على ذلك كثيرة منها: رفضهُ ﷺ إهلاك قومه عندما جاءه ملَك الجبال ليأتمر بأمره إن أراد أن يُطبقَ عليهم الجبلين، فاستدفع العقوبة أملاً في أن يهديهم الله أو ذراريهم للإسلام[3].

ومنها ما فعله عند فتح مكة من عفوٍ ورحمة، برغم ما فعله به أهلها وما ارتكبوه من جرائم في حق المسلمين، لكنَّه عفا عنهم ولم يعاقبهم.

وقال ﷺ للمشركين يوم فتح مكة: «**مَا تُرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ فِيكُمْ؟**». قَالُوا: خَيْراً، أَخٌ كَرِيمٌ وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ. قَالَ: «**اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلَقَاءُ**»[4]، فدخلوا الإسلام وصاروا جند الإسلام وحملته من بعده.

---

(١) ينظر فصل: «**الرسول ﷺ والشجاعة**»، ففيه مزيد تفصيل.

(٢) «صحيح البخاري» (٧)، و«صحيح مسلم» (١٧٧٣).

(٣) «صحيح البخاري» (٣٢٣١)، و«صحيح مسلم» (١٧٩٥).

(٤) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٤١٢)، و«تاريخ الطبري» (٢/ ١٦١)، و«زاد المعاد» (٣/ ٣٠٧-٣٠٩)، و«البداية والنهاية» (٦/ ٥٦٧-٥٦٨).

وتألَّف من كانوا أشد أعدائه ومحاربيه كأبي سفيان، وخالد بن الوليد، وعكرمة بن أبي جهل، وعوف بن مالك النصري، وعيينة بن حصن الفزاري وغيرهم.

الثاني عشر: حفظ مكانة الزعماء والكبراء:

ومن ذلك احتواؤهم وتأليفهم وإبقاء زعامتهم، فأبقى كل زعيم على زعامته وتألَّفهم بالأعطيات، ولم يفقد أحد مكانته بإسلامه، وطوى ما سبق من عداواتهم كعيينة بن حصن، وأبي سفيان، وعوف بن مالك النصري وغيرهم، وعندما قدم عليه عليّ بذهيبة من اليمن قسمها بين أربعة من الزعماء يتألَّفهم وهم: الأقرع بن حابس الحنظلي، وعلقمة بن علاثة العامري، وعيينة بن بدر الفزاري، وزيد الخير الطائي[1].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ: «**مَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ**»[2]، وذلك ليعطي لأبي سفيان تميزاً وفخراً، لسيادته ومكانته في مكة، وبذلك شعروا أنهم صاروا معه على مكانتهم وسيادتهم، وبكسبه للزعماء كسب أتباعهم ونظراءهم، وشعر الجميع أن في اتباعهم له ﷺ غنيمة في دينهم ودنياهم.

الثالث عشر: كسب قلوب الناس وقضاء حوائجهم:

كان تعامل النبي ﷺ مع الناس مما يستنبت الحب في قلوبهم ويفتح أغاليقها، حتى كان أحبَّ إليهم من أنفسهم، وقد كان يجمع إلى حسن الخلق معهم والتحبب إليهم السعيَ في قضاء حوائجهم والتصدي لمسألتهم بكرم ورحابة صدر، فعن أبي سعيد الخدري أنَّ نَاسًا مِنَ الأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ الله ﷺ، فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ، فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ، فَأَعْطَاهُمْ حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ: «**مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْراً وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ**»[3]، وهنا نجد أن النبي ﷺ أعطى ثم أعطى ثم أعطى ثم أخبر أنه لن يدخر عنهم شيئًا،

(١) «صحيح البخاري» (٣٣٤٤)، و«صحيح مسلم» (١٠٦٤).
(٢) «صحيح مسلم» (١٧٨٠).
(٣) «صحيح البخاري» (١٤٦٩).

ثم أوصى بجميل الصبر، وفي تصديه لحاجات الناس وإغاثة لهفتهم قيامٌ بأهم واجبات القيادة ومسؤولياتها، فهو مقصدهم فيما ينوبهم، وهم مقصده فيما ينوبه، بل كان يُحرض أصحابه على رفع مسألة السائل والشفاعة له حتى يكون للجميع صلةٌ حسنةٌ بالمعروف، فعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كانَ رَسولُ الله ﷺ إذَا جَاءَهُ السَّائِلُ أوْ طُلِبَتْ إلَيْهِ حَاجَةٌ قَالَ: «**اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا، ويَقْضِي اللهُ علَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ ما شَاءَ**»(١).

وكان يقول: «**مَنْ تَرَكَ مَالاً أَوْ ضيَاعًا فَلوَرثتِه، وَمنْ تَرَكَ دَينًا فَإليَّ وعليَّ، أَنَا أَوْلَى بِكُلِ مُسلم مِنْ نَفْسِه**»(٢)، وكان مقصد المحتاجين وملاذهم، فعَنْ قَبِيصَةَ بْنِ مُخَارِقٍ الهِلَالِيِّ قَالَ: تَحَمَّلْتُ حَمَالَةً، فَأَتَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ أَسْأَلُهُ فِيهَا، فَقَالَ: «**أَقِمْ حَتَّى تَأْتِيَنَا الصَّدَقَةُ، فَنَأْمُرَ لَكَ بِهَا**»(٣).

وبذلك احتوى ﷺ القلوب والعقول، وقاد الناس بعواطفهم وقناعاتهم، وقد جبلت النفوس على حب من أحسن إليها.

والاستعدادُ لمساعدة الآخرين ورعاية شؤونهم والاهتمام بهمومهم من أكثر مبادئ القيادة تأثيراً، فكيف إذا قدم للناس على أنه دين وعبادة لله عَزَّوَجَلَّ.

الرابع عشر: إقامة العدل:

كان ﷺ قائمًا بالعدل، والمحاسبة العادلة للجميع بلا تفريق ولا تمييز، ومن ذلك موقفه ﷺ من شفاعة أسامة بن زيد للمرأة المخزومية التي سرقت، حيث رفض ذلك الأمر وغضب غضبًا شديداً وقال: «**إنَّما هَلَكَ مَن كانَ قَبْلَكُمْ، أنَّهُمْ كَانُوا يُقِيمُونَ الحَدَّ علَى الوَضِيعِ ويَتْرُكُونَ الشَّرِيفَ، والذي نَفْسِي بيَدِهِ، لو أنَّ فَاطِمَةَ فَعَلَتْ ذلكَ لَقَطَعْتُ يَدَهَا**»(٤)، وبنو مخزوم من سادات مكة ووجهائها، وأهل الحلقة والسلاح فيها، وهم أخوال عبد الله والد النبي ﷺ، وهم أصهاره ﷺ فمنهم أم المؤمنين أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ومع ذلك لم تُؤثِّر هذه القرابة والقربى في إحقاق الحق وإقامة العدل وتطبيق الحكم.

---

(١) «صحيح البخاري» (١٤٣٢)، و«صحيح مسلم» (٢٦٢٧).
(٢) «صحيح البخاري» (٢٣٩٩)، و«صحيح مسلم» (٨٦٧).
(٣) «صحيح مسلم» (١٠٤٤).
(٤) «صحيح البخاري» (٣٤٧٥)، و«صحيح مسلم» (١٦٨٨).

وفي خطبته في حجة الوداع أعلن وَضْعَ دماء الجاهلية ورِبَاها تحت قدمه ثم قال: «**وَدِمَاءُ الجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ، وَإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَضَعُ مِنْ دِمَائِنَا دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الحَارِثِ، وَرِبَا الجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَأَوَّلُ رِبًا أَضَعُ رِبَانَا رِبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ**»[(١)]، فبدأ بأسرته وأهل بيته فأبطل ما كان لهم في الجاهلية من دماء وربا.

وعندما افتتح خيبر صالح أهلها أن يبقيها في أيديهم وجعلها بينهم وبينه بنصف ثمرتها، فبعث عبد الله بن رواحة يخرصها[(٢)] فخرصها عليهم ثم قال لهم: يا معشر يهود أنتم أبغض الناس إليَّ، قتلتم أنبياء الله، وكذبتم على الله عَزَّوَجَلَّ، وليس يحملني بغضي إياكم أن أحيف عليكم، قد خرصت عشرين ألفَ وسقٍ من تمر، فإن شئتم فلكم وإن أبيتم فلي، فقالوا: هذا الحق، وبِهَذَا قَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ، قَدْ رضينا[(٣)].

وبإقامة العدل وإحقاق الحق صار الناس في مأمن أن تنتقص حقوقهم، أو يستأثر عليهم، وشعر الجميع من مسلمين ومعاهدين بالطمأنينة والرضا، حتى قال اليهود: هذا الحق وبه قامت السماوات والأرض، قد رضينا.

الخامس عشر: القدوة الحسنة:

لقد كانت القيم والمبادئ التي يدعو إليها ﷺ متمثلة في حاله وأفعاله، فأداؤه لها هو الأداء الأكمل ولذا قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كَانَ خُلُقُهُ القُرْآنَ[(٤)]. فكانت كل هدايات القرآن تتجلى في أخلاقه، ولذا جعله الله القدوة لعباده لكمال تحقق تعاليم الدين في شخصه وسلوكه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

فكان التطبيق النبوي هو الأفق الأعلى الذي يحاول أتباعه الارتقاء إليه وإن لم يدركوه.

---

(١) «صحيح مسلم» (١٢١٨).

(٢) الخرص: تقدير ثمرة النخل وهو لا زال في رؤوس النخل، قبل أن يجفف ويكال. ينظر: «النهاية» (٢/ ٢٢).

(٣) «مسند أحمد» (١٤٩٥٣).

(٤) «صحيح مسلم» (٧٤٦).

وهذا هو مبدأ الأنبياء بعامة في بلاغ رسالتهم، وهو تمثلها في حياتهم والالتزام بها مع الدعوة إليها كما قال شعيب لقومه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨].

وهذا الخلق النبوي الذي يؤديه ﷺ تعبداً لله وانقياداً لأمره هو في الوقت ذاته من مبادئ القيادة الأساسية؛ فإن الأتباع ينظرون إلى أفعال القادة ويصدقونها أكثر مما يصدقون أقوالهم، والمقياس الوحيد الذي يقيسون به هو الفعل وليس القول، ولما جيء بغنائم فارس الثمينة إلى عمر بعد القادسية فرأى الخزائن الغالية قد وصلت إليه بتمامها قال: إن قوما أدوا هذا لأمناء، فقال علي بن أبي طالب: يا أمير المؤمنين، إِنَّكَ عَفَفْتَ فَعَفَّتْ رَعِيَّتُكَ، وَلَوْ رَتَعْتَ لَرَتَعَتْ[1].

إن هذه الصفات القيادية وغيرها من الكمالات في شخصية النبي ﷺ جعلته قائداً استثنائيًا لم يعرف التاريخ له نظيراً ولن يعرف، فقد قاد الأمة بالحب، وغرس في قلوبهم يقين الإيمان، ورفع نظرهم إلى أسمى الأهداف وأنبل الغايات، وحقق بهم أعظم إنجاز تحقق للبشرية في تاريخها الطويل كله.

خلاصات:

١- القيادة إحدى الوظائف التي تحتويها وظيفة النبي ﷺ العظمى، وهي بلاغ الرسالة من الله لعباده؛ ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩].

٢- وضوح الفكرة التي يدعو الناس إليها، ووضوح الهدف الذي يقصده.

٣- التحفيز لاستثارة المواهب، وتفجير الطاقات، وتفعيل التنافس في الخير.

٤- الحكمة في اتخاذ القرارات وتدبير الأمور.

٥- حسن التخطيط للمهمات، والاستعداد لما يعرض بالتخطيط المحكم، والتدبير الحسن.

(١) «البداية والنهاية» (١٠/ ١٧).

٦- الاقتدار على إدارة الأزمات، واحتواء المفاجآت بما يحفظ ثبات الجماعة، وصلابة الموقف.

٧- اليقظة والحذر وأخذ الأهبة، والاستعداد، ولذا كان له عيون واستخبارات توافيه بالأخبار، وما يُكاد له ويرصد، فيسبقها بالاستعداد لها، واتخاذ التدابير لمواجهتها.

٨- حسن اختيار ذوي الكفاءات للمهمات المتنوعة، فيختار الكفاءة المناسبة للوظيفة المناسبة، بحسب اللياقة والقدرة.

٩- من معالم القيادة في الحياة النبوية، الشورى، فلم يكن أحد أكثر مشورة لأصحابه من رسول ﷺ.

١٠- الشجاعة والجرأة والثبات، فكان ﷺ الشجاع عند الإقدام، والجريء عند الفزع، والثابت عند الاضطراب والخوف.

١١- الصدق والأمانة التي عرف بها ﷺ، مما يجعل لكل ما يقوله مصداقية عالية، وثقة تامة في نفوس أتباعه.

١٢- احتواء الزعماء، والكبراء، وتأليفهم وإشعارهم بمكانتهم؛ لأن في ذلك كسباً لأتباعهم، وتوجيهاً لقدراتهم في الخير.

١٣- قضاء حوائج الناس، واستقبال مسألتهم، فصار مقصداً وملاذا لهم، ولم يكن يدخر عنهم ما يمكن بذله، وبذلك كسب القلوب وتألَّفها.

١٤- إقامة العدل بين الناس، وعدم التفريق بينهم في إقامة الحق، واستيفاء الحقوق.

١٥- العفو والتسامح، وتغليب الحلم واللين، مما قصر أعمار العداوات، واحتوى الخلافات، وسهَّل الطريق للعائدين وأمَّنهم.

١٦- تمثل أقوالِه ﷺ في أفعالِه، وسَبْقُه إلى التخلق بما يأمر به ويهدي إليه، ولذا فهو أسوة الناس، به يقتدون وله يتبعون.

الرسول ﷺ ومعرفة الواقع

كانت معرفة النبي ﷺ بالواقع في زمنه معرفة واسعة ومدركة، على تباعد البلاد، وضعف التواصل، وصعوبة انتقال المعلومة، ومع ذلك نجد معرفة النبي ﷺ بالواقع معرفة مفصَّلة مستوعبة وواعية.

فمن ذلك معرفته بالواقع السياسي للدول حوله، ومعرفته بالقبائل والأشخاص والأديان والعادات والبيئة.

١- أما معرفته بالواقع السياسي فتظهر بجلاء في إرساله الصحابة إلى الحبشة، ووصفه لملكها بأنه ملك عادل لا يُظلم الناس عنده، فلما هاجروا إليه وجدوا عنده العدل والأمان، ثم ظهر أثر هذا الوعي في مراسلات النبي ﷺ إلى الملوك وحكام النواحي، ككسرى وقيصر والمقوقس وملك عُمان وغيرهم.

٢- وأما معرفته بالأشخاص، فيظهر في شواهد منها: حديث كعب بن مالك رضي الله عنه حينما قدم مع الأنصار في قدمتهم الأولى على النبي ﷺ في مكة قبل بيعة العقبة، وكان عمه العباس يعرِّفه بهم فلما قال: وهذا كعب بن مالك. قال النبيُّ ﷺ: «**الشَّاعِرُ؟**». قال كعب: فلا أنسى قوله: «**الشَّاعِرُ؟**»[1]. لقد كان كعب حينها شاباً، وما كان شعره بالشهير الذائع، ومع ذلك وصل خبره وحاله إلى النبي ﷺ.

ومن معرفته بالأشخاص: حديث مُنْقِذ بن حَيَّان، وكان من أهل جُواثَى في البحرين، وكان متجره إلى يثرب في الجاهلية، فشخص إليها بملاحف وتمر من هَجَرْ بعد هجرة النبي ﷺ،

(١) «مسند أحمد» (١٥٧٩٨).

فبينا مُنْقِذٌ قاعد إذ مر به النبيُّ ﷺ، فنهض مُنْقِذٌ إليه، فقال النبيُّ ﷺ: «**أَمُنْقِذُ بْنُ حَيَّانَ، كَيْفَ جَمِيعُ هَيْئَتِكَ وَقَوْمِكَ؟**». ثم سأله عن أشرافهم رجلاً رجلاً، يسمِّيهم بأسمائهم[1].

ولك أن تتساءل عن شعورِ غريب يجد في غربته مَن يسأله عن بلده وقومه ويعرف أسماء قرابته ورجال قريته، فأسلم منقذ ثم رحل إلى قومه برسالة النبي ﷺ يدعوهم إلى الإسلام، فأسلموا.

ولما جاءه خالد بن الوليد مسلماً قال له: «**الحَمْدُ لله الَّذِي هَدَاكَ، قَدْ كُنْتُ أَرَى لَكَ عَقْلاً رَجَوْتُ أَنْ لا يُسْلِمَكَ إِلَّا إِلَى خَيْرٍ**»[2].

لقد كان للنبي ﷺ معرفة بعقل خالد، وتوقع لما سينتهي إليه تفكيره وتبصره في أمره.

٣- وأما معرفته بالأديان، فيتجلَّى من حواره مع عدي بن حاتم، فإنه لما أتاه وكان نصرانيّاً قد تقلَّد الصليب، فعرض النبيُّ ﷺ عليه الإسلام فقال عديٌّ: إِنِّي مِنْ أَهْلِ دِينٍ. فقَالَ له: «**أَنَا أَعْلَمُ بِدِينِكَ مِنْكَ**». فقال: أَنْتَ أَعْلَمُ بِدِينِي مِنِّي؟ قال: «**نَعَمْ، أَلَسْتَ رَكُوسِيًّا؟**». قال: بَلَى. قال: «**أَلَسْتَ تَرْأَسُ قومَكَ؟**». قال: بَلَى. قال: «**أَلَسْتَ تأْخُذُ مِرْباعَ قومكَ؟**». قال: بَلَى. قال: «**فَإِنَّ هَذَا لا يَحِلُّ لَكَ فِي دِينِكَ**». قَالَ: فَلَمَّا قَالَ رَسُولُ الله ﷺ ذَلِكَ تَوَاضَعَتْ مِنِّي نَفْسِي[3].

فلفت نظره إلى أنه يتشبَّث بدين هو يخالفه، ولذا فُوجئ عديٌّ بمعرفة النبي ﷺ حكماً تفصيليّاً في دينه، ومعرفته بمخالفة عديٍّ لهذا الحكم.

٤- وأما معرفته بالعادات فيظهر في مواقف منها: حديث الحديبية حينما أرسلت قريش رجلاً من بني كِنانة ليفاوض النبيَّ ﷺ، فلما رآه النبيُّ ﷺ قال: «**هَذَا فُلَانٌ مِنْ قَوْمٍ يعظِّمونَ البُدْنَ، فَابْعَثُوهَا لَهُ**». فبُعثتْ، واستقبله القومُ يلبُّون، فلما رأى ذلك قال: سبحان الله،

(١) «شرح النووي على مسلم» (١/ ١٨١).
(٢) «دلائل النبوة» للبيهقي (٤/ ٣٥١).
(٣) «مسند أحمد» (١٨٢٦٠).

لا ينبغي لهؤلاء، أن يُصدُّوا عن البيت، ورجعَ إلى قريش، يقول لهم: رأيتُ البُدْنَ قد قُلِّدتْ وأُشعرت، فما أرى أن يُصَدُّوا عن البيت[1].

إن معرفة النبي ﷺ بحال هذا الرجل وقومه وتعظيمهم للبيت وما يُهدى إليه وطريقة عرض الهدي أمامه جعلته -وهو الذي جاء مفاوضاً عن قريش- يعود إليهم مُنْكِراً صدهم عن البيت من جاءه معتمراً معظماً له.

ومن معرفته بعادات الشعوب قوله: «**لَقَد هَمَمْتُ أنْ أَنْهَى عَنِ الغِيلَة**[2]، **فَنَظرتُ فِي الرُّومِ وَفَارسَ، فإذَا هُمْ يُغِيلونَ أَولادَهُم، فَلا يَضَرُّ أَوْلادَهُمْ ذَلِكَ شَيْئاً**»[3].

فقد علم أن مجامعة المرضع عادة عالمية فاشية في فارس والروم ولم تضرهم، ولذا عدل عن النهي عن ذلك.

ولما قدم عليه وفد عبد القيس -وهم من سكان هَجَر شرق جزيرة العرب- سألوه عن الأسقية التي ينتبذون فيها فقال: «**أَنْهاكُم عَنْ أَربَعٍ: عَنْ الدُّبَّاء، والنَّقِير، والحَنْتَم، والمُزَفَّت**». قالوا: وما علمُك بالنَّقِير؟ قال: «**بَلَى، جِذْعٌ يُنْقَرُ، ثُمَّ يُلْقُونَ فِيهِ مِنَ القُطَيْعَاءِ أَوِ التَّمْرِ وَالمَاءِ، حَتَى إِذَا سَكَنَ غَلَيَانُهُ شَرِبْتُمُوهُ، حَتَى إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَضْرِبُ ابْنَ عَمِّهِ بِالْسَيْفِ**». وفي القوم رجلٌ أصابته جِراحة من ذلك، قال: فجعلت أُخَبِّئُها حياءً من رسول الله ﷺ[4].

انظر إلى معرفته بعادات سكان شرق الجزيرة مع أنه يعيش في أقصى غربها.

٥- وأما معرفته بالبيئة فمن شواهد ذلك وصفه آخر أهل النار خروجاً منها، وهم الجهنَّميون، وأنهم يخرجون من النار وقد امتُحشوا[5]، فيُلقون في نهر الحياة،

(١) «صحيح البخاري» (٢٧٣١).

(٢) الغيلة: أَنْ يُجَامِعَ الرجُل زوْجَته وَهِيَ مُرْضِع، وَكَذَلِكَ إِذَا حَملت وَهِيَ مُرْضِع. ينظر: «النهاية» (٣/ ٤٠٢).

(٣) «صحيح مسلم» (١٤٤٢).

(٤) «صحيح البخاري» (٨٧)، و«صحيح مسلم» (١٧)، و«صحيح ابن حبان» (٤٥٤١).

(٥) قد امتحشوا: أي: احترقوا، والمحش: احتراق الجلد وظهور العظم. ينظر: «النهاية» (٤/ ٣٠٢).

فينبتون كما تنبت الحِبَّةُ في حَمِيل السَّيل[1]، ثم قال: «**أَلَمْ تَرَوْا أَنَّهَا تَنْبُتُ صَفْرَاءَ مُلْتَوِيَةً؟ أَلاَ تروَن مَا يَكُونُ إِلَى الشَّمْسِ أُصَيْفِرُ وَأُخَيْضِرُ، وَمَا يَكُونُ مِنْهَا إِلَى الظِّلِّ يَكُونُ أَبْيَضَ؟**». فقالوا: يَا رَسُولَ الله، كَأَنَّكَ كُنْتَ تَرْعَى بِالبَادِيَةِ؟![2]

لقد كان هذا الوصف عن معرفة بالبيئة حوله مع أنه ﷺ لم يستوطن البادية وإنما عبرها مسافراً، وليس للعابر ملاحظة المستوطن المستقر، ومع ذلك عجب الصحابة من معرفته من حال البادية ما لا يعرفه إلا من عاش بها.

ومن ذلك وصفه الكَلاليب التي على جهنم تخطف أهل النار فيلقون فيها: «**فِي حَافَّتَيِ الصِرَاطِ خَطَاطِيفُ وَكَلاليبُ وحَسَكَةٌ مُفَلْطَحَةٌ لَها شَوْكَةٌ عُقَيفاءُ مِثل شَوكٍ تَكوُنُ بِنَجْد يُقَالُ لَها: السَّعدانُ**». قال رسولُ الله ﷺ: «**هلْ رأيتُمْ شَوكَ السَّعْدانِ؟**». قالوا: نعم، قال: «**فَإِنَّها مِثلُ شَوكِ السَّعْدانِ، غَيرَ أَنَّهُ لا يَعْلَمُ قَدرَ عِظَمِها إِلَّا اللهُ**»[3]، وشوك السعدان من نبات البوادي.

ولما وصف ﷺ ورق سِدرة المنتهى قال: «**وَرَقُهَا مِثْلُ آذَانِ الفِيَلَةِ**»[4]، والفيل حيوان أفريقي لم يره النبي ﷺ في حياته ولكنه علم صفته فشبه به عظم ورق سدرة المنتهى.

وعندما وصف المنافق قال: «**ومَثَلُ المُنَافِقِ كَالأَرْزَةِ**[5]**، لاَ تَزَالُ حَتَى يَكُونَ انْجعَافُهَا مَرَةً وَاحِـدةً**»[6]. وشجرة الأرز ليست من شجر الجزيرة ولم يصل النبي ﷺ إلى منابتها في غرب الشام لكن عرف صفتها وشَبَّهه بها.

وما لم يكن النبي ﷺ يعلمه من المعارف ولكنه يحتاج إليه فإنه يستعين بمن يعلمونه، فقد كان ﷺ أميّاً ولكنه أحاط نفسه بمجموعة من الكتبة يكتبون له ويقرؤون بلغوا نحواً من (٤٨)[7]، وكتبوا القرآن بين يديه آية آية فور نزولها.

---

(١) حميل السيل: هو ما يجيء به السيل من طين أو غثاء وغيره. ينظر: «النهاية» (١/ ٤٤٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٥٦٠)، و«صحيح مسلم» (١٨٣، ١٨٤).

(٣) «صحيح البخاري» (٨٠٦)، و«صحيح مسلم» (١٨٢).

(٤) «صحيح البخاري» (٣٨٨٧)، و«صحيح مسلم» (١٦٢).

(٥) شجرة طويلة معروفة تنبت في الشام، وهي شعار علم لبنان.

(٦) «صحيح البخاري» (٥٦٤٣)، و«صحيح مسلم» (٢٨٠٩).

(٧) ينظر: «كتَّاب النبي» لمحمد مصطفى الأعظمي.

وكلف زيد بن ثابت بتعلم اللغة العبرانية ليتولى الكتابة ليهود وقراءة ما يكتبونه[١].

٦- وهنا يرد التساؤل: هل مصدر هذه المعرفة الخبرة والوعي أم التلقي من الوحي؟

والذي يظهر -والله أعلم- أن مصدر هذه المعرفة بالواقع هي دقة الملاحظة، وقوة الحفظ، وحسن استخدام المعلومة والاستفادة منها.

وقد كان النبي ﷺ بمكة وهي ملتقى القبائل ومحج الناس ومقصدهم، فالإقامة بها ولقاء من يقصدها وملاحظة أحوالهم، والوعي لأقوالهم يجمع متفرق المعلومات، ويقرب بعيد المعارف، كما كان سفره مرتين للشام مصدر إثراء معرفي لمن هو في مثل يقظته ودقة ملاحظته.

والذي يؤكد ذلك أن هناك معلومات من هذا الجنس لم يكن النبي ﷺ يعلمها وإنما استعان بمن يعلمها مثل معرفته بتأثير تأبير النخل[٢]، فقد ظن أن النخل لا يحتاج إلى التأبير ثم عرف ذلك من الأنصار وهم أصحاب نخل.

وكذلك لم يكن يعلم أن الملوك لا يقبلون كتاباً إلا مختوماً فأخبره أصحابه بذلك فاتخذ الخاتم[٣].

وكان يستعين بأصحاب الخبرة من أصحابه في معرفة ما لم يكن يعرفه، ومن ذلك أنه عندما كان يعرض نفسه على القبائل كان أبو بكر معه يُعرِّفه بالقبائل ورجالاتها[٤]، وعندما التقى بوفد الأنصار كان عمه العباس هو الذي يُعرِّفه برجالاتهم لمعرفته بهم لأنه كان يقدم عليهم في المدينة[٥].

إن هذه الحالات القليلة الاستثنائية تبين أن سعة معارف النبي ﷺ ومعرفته بواقعه كانت نتيجة وعي وملاحظة، وحسن تَحصُّلٍ على المعلومة وإحسان استخدامها.

---

(١) «جامع الترمذي» (٢٧١٥).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٣٦١).

(٣) «صحيح البخاري» (٢٩٣٨)، و«صحيح مسلم» (٢٠٩٢).

(٤) «تاريخ دمشق» لابن عساكر (١٧/ ٢٩٧)، و«الروض الأنف» (٤/ ٣٦)، و«فتح الباري» (٧/ ٢٢٠).

(٥) «مسند أحمد» (١٤٨٠٨).

وأن هذا هو الأصل في علمه بالشأن الدنيوي ولذا قال الله له: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

أما علمه فيما يبلغه عن الله من شرعه فمصدره الوحي المنزل عليه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤].

٧- إن سعة معارف النبي ﷺ ووعيه بواقعه الذي يعيشه ويعايشه تبين أهمية معرفة الداعي بحال المدعوين وظروفهم وما يحتاجون إليه.

ولتنوع مهمات النبي ﷺ رسولاً وإماماً وحاكماً وقائداً ومعلماً وقاضياً، تنوعت معارفه واتسعت، وقد لا يحتاج إلى هذا الاتساع والتنوع من اختص بمجال معين وأقبل على حال خاصة، فإنه يحتاج إلى العلم والمعرفة بما هو متوجه إليه، وهكذا كان جلُّ الصحابة رضي الله عنهم، فكان لكُلٍّ واحد منهم معارفه الواسعة في مجاله وما توجه إليه.

خلاصات:

١- كانت معارف النبي ﷺ واسعة ومتنوعة، في البلاد والأشخاص والأديان والعادات والبيئة.

٢- كان مصدر هذه المعرفة: الوعي والتواصل، وكان لبيئته في مكة وكثرة من يرد عليها وتنوعهم مصدر إثراء معرفي.

٣- نظراً لتنوع مهمات النبي ﷺ، رسولاً وإماماً وقائداً وقاضياً، وعموم رسالته للعالم فقد اتسعت معارفه وتنوعت.

٤- ما لم يكن من معارفه ﷺ فإنه كان يستعين فيه بمن يعلمه، كما أحاط نفسه بالكتاب، ومترجمي اللغات.

٥- هذا التنوع في المعارف يحتاجه كل داعية في بيئته التي يدعو فيها ومع الفئة التي يخاطبها.

الرسول ﷺ والسفر

كان للنبي ﷺ أسفاره قبل البعثة وبعدها، وقبل الهجرة وبعدها، وتنوّعت أغراض السفر وأسبابه في حياته.

فسافر طفلاً مع أمه إلى المدينة لزيارة قبر أبيه وأخوال جده[١]، وسافر وهو في الثانية عشرة إلى الشام رفقة عمه أبي طالب[٢]، ثم سافر وهو في الرابعة والعشرين مرة أخرى إلى الشام في تجارة خديجة[٣].

وسافر بعد البعثة إلى الطائف للدعوة[٤]، ثم إلى المدينة للهجرة، ثم كانت أسفاره للجهاد والفتح، وللعمرة والحج، وللنزهة حيث يبدو[٥] إلى التلاع التي حول المدينة إذا أعشبت[٦]، وكان السفر ذلك الوقت قطعة من العذاب فلا يتقحَّمه أحد إلا لحاجة، ويمكن تعداد أغراض النبي ﷺ في أسفاره قبل البعثة بالزيارة والتجارة، وبعد البعثة بالدعوة، والهجرة، والجهاد، والنزهة، والعمرة، والحج.

وعند النظر في حال النبي ﷺ مسافرا تتجلى لنا سمات منها:

---

(١) «سيرة ابن هشام» (١/ ٢٠٤).

(٢) «جامع الترمذي» (٣٦٢٠).

(٣) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (١/ ١٠٧).

(٤) «صحيح البخاري» (٣٢٣١)، و«صحيح مسلم» (١٧٩٥).

(٥) يبدو: أي: يخرج إلى البادية لحصول الخلوة وغيرها. ينظر: «عون المعبود» (٢/ ٣١٢).

(٦) «سنن أبي داود» (٤٨٠٨).

أولاً: الذكر في السفر، فكانت أسفاره عامرة بالذكر لله وتعظيمه وتوحيده وتحميده ودعائه جل وعز.

وكأن في هذا الإسفار بالسفر رؤية مشاهد متجددة من عظمة الله في خلقه وكونه، فكان ذلك مما يستوجب ذكره والثناء عليه جل وعز، وتبدأ أذكار السفر في بداية بدايته، فذُكِرَ عنه أنه كان يقول حين ينهض للسفر: «**اللهُمَّ بِكَ انْتَشَرْتُ، وَإِلَيْكَ تَوَجَّهْتُ، وَبِكَ اعْتَصَمْتُ، اللهُمَّ أَنْتَ ثِقَتِي، وَأَنْتَ رَجَائِي، اللهُمَّ اكْفِنِي مَا أَهَمَّنِي وَمَا لَا أَهْتَمُّ بِهِ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، وَزَوِّدْنِي التَّقْوَى وَاغْفِرْ لِي ذَنْبِي، وَوَجِّهْنِي لِلْخَيْرِ حَيْثُ مَا تَوَجَّهْتُ**»[(١)].

وإذا قدمت إليه دابته ليركبها يقول: «**بِسْمِ اللهِ**». حين يضع رجله في الركاب، وإذا استوى على ظهرها، قال: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٣][(٢)]، ثم يقول: «**الحَمدُ للهِ، الحَمدُ للهِ، الحَمدُ للهِ**»، ثم يقول: «**اللهُ أَكبَرُ، اللهُ أَكبَرُ، اللهُ أَكبَرُ**». ثم يقول: «**سُبْحَانَكَ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ**»[(٣)]، وكان يقول: «**اللهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا البِرَّ وَالتَّقْوَى، وَمِنَ العَمَلِ مَا تَرْضَى، اللهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا، وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ، اللهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ، اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ المَنْظَرِ، وَسُوءِ المُنْقَلَبِ فِي المَالِ وَالأَهْلِ**». وإذا رجع قالهن وزاد فيهن: «**آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ**»[(٤)]، وكان هو وأصحابه إذا علوا الثنايا كبروا، وإذا هبطوا الأودية سبحوا[(٥)].

وكان إذا أشرف على قرية يريد دخولها يقول: «**اللهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَمَا أَظْلَلْنَ، وَرَبَّ الأَرَضِينَ وَمَا أَقْلَلْنَ، وَرَبَّ الشَّيَاطِينِ وَمَا أَضْلَلْنَ، وَرَبَّ الرِّيَاحِ وَمَا ذَرَيْنَ، فَإِنَّا نَسْأَلُكَ خَيْرَ هَذِهِ القَرْيَةِ، وَخَيْرَ أَهْلِهَا وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ أَهْلِهَا وَشَرِّ مَا فِيهَا**»[(٦)].

---

(١) «مسند أبي يعلى» (٢٧٧٠).

(٢) «صحيح مسلم» (١٣٤٢).

(٣) «سنن أبي داود» (٢٦٠١).

(٤) «صحيح مسلم» (١٣٤٢).

(٥) «سنن أبي داود» (٢٥٩٩).

(٦) «صحيح ابن خزيمة» (٢٥٦٥).

وإذا دخل عليه وقت السحر في السفر قال: «**سَمِعَ سَامِعٌ بِحَمْدِ الله وَحُسْنِ بَلَائِهِ عَلَيْنَا، رَبَّنَا صَاحِبْنَا وَأَفْضِلْ عَلَيْنَا، عَائِذاً بِالله مِنَ النَّارِ**». يقول ذلك ثلاث مرات ويرفع بها صوته[(١)]. فكان للسفر أذكاره الخاصة في منازله وأقواته مع أذكاره اليومية المعتادة، إنه رسول الله الذي يذكر الله على كل أحواله وفي كل أحواله.

ثانيًا: مما يلاحظ في سفره تواضعه ومساواة حاله بحال أصحابه، فليس له شارة المتعاظمين، وإنما يسير مع أصحابه في غمارهم، لا يميزه في مظهره وحاله شيء عنهم، ولذا لما لقي ركبا وهو عائد من حجة الوداع قال: «**مَن القومُ؟**». قالوا: المسلمون، قالوا: مَن أنت؟ قال: «**رَسُولُ الله**». فَفَزِعت امرأةٌ منهم فأخذت بعَضُدِ صبيٍّ لها فأخرجته من محفَّتها[(٢)] فقالت: يا رسولَ الله، ألهذا حجٌّ؟ قال: «**نَعَمْ، وَلَكِ أَجْرٌ**»[(٣)].

وأعجب من سؤالهم رسولَ الله ﷺ: مَن أنت؟ فلم يكن لرسول الله ﷺ شارة تميِّزه، ولا هيئة ورسوم تخصُّه، ولكنه مع الناس بينهم، منغمر فيهم، قريب منهم، شأنَ إخوانه من أنبياء الله ورسله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠].

وقال أنس: حج رسول الله ﷺ على رحل رث وقطيفة لا تساوى أربعة دراهم، وهو يقول: «**لَبَّيْكَ حَجَّةً لا رِيَاءَ فِيهَا وَلا سُمْعَةَ**»[(٤)].

ثم سار ﷺ في غمار الناس حتى قال أنس: كنت ردف أبي طلحة على راحلته وإن ركبته لتكاد تصيب ركبة النبي ﷺ[(٥)]، وذلك لازدحام الناس حوله وانغماسه بينهم.

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٧١٨)، و«الدعوات الكبير» للبيهقي (٤٦٨).

(٢) المحفَّة: شبه الهودج، إلاَّ أنها لا قبة عليها. ينظر: «مطالع الأنوار على صحاح الآثار» (٢/ ٣٣٧)، و«عون المعبود» (٥/ ١١٠).

(٣) «صحيح مسلم» (١٣٣٦).

(٤) «سنن ابن ماجه» (٢٨٩٠).

(٥) «مسند أحمد» (١٢٧٤٥).

ثالثًا: ونظرا لطبيعة السفر في ذلك الوقت وأنه دخول في صحاري مقفرة، وفيافي خالية، والسالك فيها عرضة للمفاجآت فقد أرشد ﷺ إلى آداب وأحكام توجد كلما وجدت ظروفها ومنها:

١- أنه ﷺ نهى أن يسافر الرجل وحده، وقال: «**الرَّاكِبُ شَيْطَانٌ، وَالرَّاكِبَانِ شَيْطَانَانِ، وَالثَّلَاثَةُ رَكْبٌ**»(١).

٢- وأمرهم إذا كانوا ثلاثة فأكثر أن يُؤمِّروا أحدهم(٢).

٣- ونهى أن تسافر المرأة مسيرة يوم وليلة إلا مع ذي محرم(٣).

٤- ونهى عن التفرق في السفر، فعن أبي ثعلبة الخشني قال: كَانَ النَّاسُ إِذَا نَزَلُوا مَنْزِلاً تَفَرَّقُوا فِي الشِّعَابِ وَالأَوْدِيَةِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ تَفَرُّقَكُمْ فِي هَذِهِ الشِّعَابِ وَالأَوْدِيَةِ، إِنَّمَا ذَلِكُمْ مِنَ الشَّيْطَانِ**». فَلَمْ يَنْزِلْ بَعْدَ ذَلِكَ مَنْزِلاً إِلَّا انْضَمَّ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، حَتَّى يُقَالَ: لَوْ بُسِطَ عَلَيْهِمْ ثَوْبٌ لَعَمَّهُمْ(٤).

وذلك أن تفرقهم عرضة للضياع، وتشتت الرفقة، وانفراد بعضهم عن بعض يُسَهِّل استهدافهم من عدو أو قاطع طريق ونحوه.

رابعًا: وكان إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها سافر بها معه، ولما حج سافر بهن جميعًا معه.

خامسًا: كان في سفره كما في كل أحواله داعيًا ومعلِّمًا، ولذا وجدت اللفتات التعليمية والآداب المرعية في أسفاره، ومن ذلك ما جاء في حديث عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ: بَيْنَمَا رَسُولُ الله ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، وَامْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ عَلَى نَاقَةٍ، فَضَجِرَتْ فَلَعَنَتْهَا،

(١) «سنن أبي داود» (٢٦٠٧).
(٢) «سنن أبي داود» (٢٦٠٩).
(٣) «صحيح البخاري» (١٠٨٦)، و«صحيح مسلم» (٨٢٧).
(٤) «سنن أبي داود» (٢٦٢٨).

فَسَمِعَ ذَلِكَ رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ: «**خُذُوا مَا عَلَيْهَا وَدَعُوهَا، فَإِنَّهَا مَلْعُونَةٌ**». قَالَ عِمْرَانُ: فَكَأَنِّي أَرَاهَا الآنَ تَمْشِي فِي النَّاسِ، مَا يَعْرِضُ لَهَا أَحَدٌ[1].

وبذلك يقدم ﷺ درساً بالغاً في الأدب اللفظي، وصيانة المنطق من اللعن، فإذا كان هذا في لعن الدابة التي لا تعي ما يقال لها فكيف بلعن الأهل أو الأبناء أو الأصحاب؟

كما أن فيه إرشاداً إلى الرفق بالبهائم فإذا كان هذا النهي والعقوبة على لعنها، فكيف بضربها أو إجاعتها أو الحمل عليها بما لا تطيقه؟

ومن ذلك أنه لما مرَّ بجبل جُمْدانَ في طريقه في حجة الوداع قال: «**أَيْنَ السَابِقُونَ؟**». قالوا: يا رسولَ الله، قد مضى ناسٌ وتخلَّفَ ناسٌ. فقال: «**سِيرُوا، هَذَا جُمْدانُ، سَبَقَ المُفَرِّدُونَ، سَبَقَ المُفَرِّدُونَ**». قالوا: ومَا المُفَرِّدُونَ يا رسولَ الله؟ قال: «**الذَاكِرُونَ اللهَ كَثِيراً وَالذَاكِرَاتُ، الَذِينَ يُهْتَرُونَ[2] فِي ذِكْرِ الله، يَضَعُ الذِكرُ عَنهُم أَثْقَالَهُمْ، فَيأْتُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ خِفَافاً**»[3].

وجُمْدان جبل على الطريق من المدينة إلى مكة، وهو أقرب إلى مكة، فهو المبشِّر بقرب الوصول إليها، والسابق إليه قد سبق في سفره، والمُفَرِّدُ هو الذي ليس معه إلا بعيره، وهذا يكون خفيفاً سريعاً سابقاً، فلفت ﷺ البصائر إلى معنى أعظم، وهو السَّبْق في الآخرة، وأن الذين يأتون خفافاً من الأوزار فيسبقون فيها هم الذاكرون الله كثيراً والذاكرات؛ لأن إكثارهم للذكر يضع عنهم أثقال خطاياهم.

فانظر إلى لطف الإشارة، وقصر الدرس مع بلاغته، وكثرة الشواهد والمشاهد والأمثلة فيه، وحسن الربط بين معالم الطبيعة ومعالم الدِّين، بهذا الأسلوب الرَّشيق الوجيز.

سادساً: مع أن السفر شديد الرهق يستنزف الطاقة النفسية، ويسبب التوتر ويذهب بالحلم، ولكنك تجد النبي ﷺ في أسفاره على غاية الهدوء والحلم والبعد عن الانفعال، حتى كأنه في سعة الإقامة وليس في عجلة السفر، ومن ذلك أن رسول الله ﷺ عاد ذات مرة من سفر، فلما دنا من المدينة نزل في البيداء، وهي أَكَمة مشرفة على وادي العقيق قرب المدينة،

(١) «صحيح مسلم» (٢٥٩٥).
(٢) يهترون: أي يُولَعُون. ينظر: «النهاية» (٥/ ٢٤٣).
(٣) «صحيح مسلم» (٢٦٧٦).

فلما أراد النفير فقدت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عقدها الذي استعارته من أختها، فأخذتها الفجيعة لفقده، وشكت لرسول الله ﷺ حزنها، فإذا رسول الله ﷺ يلاقي همها باهتمامه، ويتفَّهم مكانة العقد عندها، وإن كان لا يساوي اثني عشر درهمـًا، فبعث فريقـًا من أصحابه يلتمسون العقد، على رأسهم أُسيد بن حُضير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأقام رسول الله ينتظرهم، وأقام الناس معه، حتى أمسوا وأظلم الليل، فبات رسول الله ﷺ والناس معه، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء، فأهمَّ الصحابة أمر الصلاة إذا حضرت، وكيف سيتوضؤون لها، وكربوا لذلك، فجاؤوا إلى أبي بكر يشكون إليه ابنته، فقالوا: ألا ترى ما صنعت عائشة؟ أقامت برسول الله ﷺ وبالناس معه، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء!

فكرب أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لذلك، ودخل عليها مغضبـًا ورسول الله ﷺ قد نام متوسداً فخذها، فقال لها بصوت مكظوم، حتى لا يوقظ رسول الله ﷺ: أفي كل مرة تكونين عناء، حبست الناس في قلادة! وجعل يتلوَّم عليها، ويشتد في عتابها، ويقول ما شاء الله أن يقول، وكان في أبي بكر سَورة من حدَّة تأخذه عند الغضب، فجعل يطعنها في خاصرتها، فكان بها كالموت من الألم، فلا يمنعها من التحرك والتأوُّه إلا مكان رسول الله ﷺ على فخذها؛ مخافة أن يستيقظ ﷺ، ونام رسول الله ﷺ حتى تنفَّس الصبحُ، وبرق الفجر، فأنزل الله آية التيمم ولما بعثوا جملها وجدوا العقد تحته[1].

إن السفر -وبخاصة في نهايته- مظنة التعب الجسدي، والإنهاك النفسي، بما يذهب بطاقة الإنسان النفسية، ويضعف قدرته على المداراة والصبر والتحمل، ولكنك ترى نبيك ﷺ في حاله تلك كما هو في سائر أحواله، رفيق يحب الرفق، بعيد عن التوتر والانفعال، هو خير الناس للناس، وخيرهم لأهله، ولم تستنزف مشقة الطريق ووعثاء السفر سكينته النفسية وعظمته الأخلاقية.

وفي أحد منازله ﷺ في الطريق إلى مكة حاجـًا جلس ﷺ وبجانبه زوجته عائشة، وجلس صاحبه أبو بكر وبجانبه ابنته أسماء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وكان أبو بكر ينتظر أن يطلع عليه غلامه براحلته التي كانت تحمل متاعه ومتاع النبي ﷺ، فطلع الغلامُ وليس معه بعيره،

(١) «صحيح البخاري» (٣٣٤)، و«صحيح مسلم» (٣٦٧).

فقال أبو بكر: أين بعيرُك؟ قال: أضللتُه البارحة. فطفق أبو بكر يضربه، ويقول: بعيرٌ واحدٌ وتضلُّه! وجعل النبيُّ ﷺ ينظر إليه ويتبسَّم، ويقول: «**انظُرُوا إلى هذا المُحْرِمِ ما يَصنَعُ!**». ثم قال له ﷺ: «**هَوِّنْ عَلَيْكَ يا أَبَا بَكْرٍ؛ فَإِنَّ الأمرَ لَيْسَ إِلَيْكَ وَلَا إِلَيْنَا مَعَكَ، وَقَدْ كَانَ الغُلَامُ حَرِيصًا عَلَى أَلَّا يَضِلَ بَعِيرُه**»[1].

فكان ﷺ في غاية الحلم والأناة وتفهم الموقف والاعتذار عن الغلام، مع أن مثل هذا الموقف قد يستثير كثيرين ويفقدهم السيطرة على انفعالاتهم.

سابعًا: وكان يجعل في السفر فسحة للهو والأنس ورفاهية النفس، ومن ذلك: حديث سلمة بن الأكوع في رجوعهم من غزوة ذي قرد، وكان سلمة رديف النبي ﷺ على ناقته العضباء، قال سلمة: فبينا نحن نسير وكان رجل من الأنصار لا يُسبق شداً، فجعل يقول: ألا مسابق إلى المدينة؟ هل من مسابق؟ فجعل يعيد ذلك، فلما سمعت كلامه قلت: أما تكرم كريمًا، ولا تهاب شريفًا؟ قال: لا، إلا أن يكون رسول الله ﷺ، قلت: يا رسول الله -بأبي أنت وأمي- ذرني فلأسابق الرجل، قال: «**إِنْ شِئْتَ**». قُلْتُ: اذْهَبْ إِلَيْكَ وَثَنَيْتُ رِجْلَيَّ، فَطَفَرْتُ فَعَدَوْتُ، فَرَبَطْتُ عَلَيْهِ شَرَفًا أَوْ شَرَفَيْنِ أَسْتَبْقِي نَفَسِي[2]، ثُمَّ عَدَوْتُ فِي إِثْرِهِ، فَرَبَطْتُ عَلَيْهِ شَرَفًا أَوْ شَرَفَيْنِ، ثُمَّ إِنِّي رَفَعْتُ حَتَّى أَلحَقَهُ، فَأَصُكُّهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، قُلْتُ: قَدْ سُبِقْتَ وَاللهِ، قَالَ: أَنَا أَظُنُّ، فَسَبَقْتُهُ إِلَى المَدِينَةِ[3]، فكان هذا السباق من لهو الرياضة وتنافس الفتيان في السفر، والذي يجم النفوس ويشارك فيه بقية المسافرين بالأنس والمشاهدة والمتابعة.

ومن أُنس السفر أنه كان للنَّبِي ﷺ حادٍ[4] حسن الصوت، مطرب الحداء هو أنجشة الحبشي، فكان يحدو في السفر فإذا غنى للإبل يحدوها طربت وأسرعت في سيرها فكان في حجة الوداع وأنجشة يحدو فطربت الإبل وأسرعت في السير فقال النَّبِيُّ ﷺ:

(١) «سنن أبي داود» (١٨١٨). وينظر: «شرح سنن أبي داود» لابن رسلان (٨/ ٤٠٠).

(٢) أَيْ تمهلت قليلًا حتى أروح نفسي وأستجمع قوتي، حتى تجاوز شرفًا أو شرفين، والشرف ما ارتفع من الأرض. ينظر: «إكمال المعلم» (٦/ ١٩٩).

(٣) «صحيح مسلم» (١٨٠٧).

(٤) الحادي هو الذي يسوق الإبل ويغني لها. ينظر: «لسان العرب» (١٤/ ١٦٨).

«**ارْفُقْ يَا أَنْجَشَةُ، وَيْحَكَ بِالقَوَارِيرِ**»[(١)]، أي بالنساء فإن سرعة الإبل بالحداء تتعب النساء، وهن في هوادجهن، فكان الحداء من أُنس السفر ولهوه.

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أنها كانت مع رسول الله ﷺ في سفر، وهي جارية، قالت: لم أحمل اللحم ولم أبدن، فقال لأصحابه: «**تَقَدَّمُوا**»، فتقدموا، ثم قال: «**تَعَالِي أُسَابِقُكِ**». فسابقته، فسبقته على رجلي، فسكت عني حتى إذا حملت اللحم وبدنت ونسيت، خرجت معه في سفر، فقال لأصحابه: «**تَقَدَّمُوا**»، فتقدموا ثم قال: «**تَعَالِي أُسَابِقُكِ**». ونسيت الذي كان وقد حملت اللحم، فقلت: كيف أسابقك يا رسول وأنا على هذا الحال؟ فقال: «**لَتَفْعَلِنَّ**»، فسابقته فسبقني فجعل يضحك ويقول: «**هَذِهِ بِتِلْكَ السَّبْقَة**»[(٢)].

ثامنًا: الحث على التعاون وخدمة الرفقة فعن أنس قال: كنا مع النبي ﷺ في سفرٍ فمنا الصائم ومنا المفطر، فنزلنا في يوم حار واتخذنا ظلالا فأما الذين صاموا فسقطوا ولم يعملوا شيئًا، وأما الذين أفطروا فبعثوا الركاب، وامتهنوا وعالجوا، فقال النبي ﷺ: «**ذَهَبَ المُفْطِرونَ اليَوْمَ بِالأَجْرِ**»[(٣)].

تاسعًا: كان إذا رجع من سفر نزل في مكان قريب من المدينة مثل صرار[(٤)] والبيداء[(٥)] ونحوها حتى يبلغ الخبر لأهل المدينة فتستعد النساء للقيا أزواجهن، وكان ينهى أن يأتي الرجل أهله فجاءةً ليلاً كأنه يتخونهم، ولأن المرأة قد تكون في هيئة مبتذلة لا تناسب لقاء الزوج فيفاجئها مجيء زوجها على هذه الحال فربما رأى منها ما يكره.

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٢٠٩)، و«صحيح مسلم» (٢٣٢٣).

(٢) «مسند أحمد» (٢٦٢٧٧).

(٣) «صحيح البخاري» (٢٨٩٠).

(٤) صرار: هي بئر قديمة على ثلاثةِ أميال من المدينةِ على طريقِ العراق. ينظر: «معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية» لعاتق البلادي (ص١٧٥).

(٥) البيداء: موضع قرب المدينة جنوباً يبعد عنها (٩ كم). ينظر: «المعالم الأثيرة في السنة والسيرة» (ص٦٧).

وكان هذا مناسبًا في ظروف ذلك الزمان حين كان خبر المسافر ينقطع منذ أن يغيب شخصه وإلى أن يرجع إلى أهله، وقد تغير هذا الواقع بوسائل الاتصال والتواصل وما عاد ثمَّ فجاءة في الوصول ليلاً أو نهاراً.

وكان ﷺ إذا أقبل إلى المدينة فظهرت له جدرانها ورأى مبانيها أسرع براحلته، وإن كان على دابةٍ حركها شوقًا إليها وحبًا لها، ثم ينفرط عقد الجمع الذين كانوا مع النبي ﷺ، ويسرع كلٌّ منهم راحلته تلقاء داره، وكان مشهد الرواحل وهي تعدو مسرعة وقد تفرَّقت وجهاتها وأسرع بها رُكَّابها مشهداً يضج بالفرح ويعلن البهجة، ولا يزال أهل المدينة إلى اليوم يسمون هذا المطلع: المفرِّحات؛ لما يَطْفِر على المسافرين من الفرح إذا وصلوها فأشرفوا على المدينة واستشرفت لهم.

وكان ﷺ يُتَلَقَّى بصبيان أهل بيته، فعَنْ عَبْدِ الله بْنِ جَعْفَرٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ تُلُقِّيَ بِصِبْيَانِ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَإِنَّهُ قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ فَسُبِقَ بِي إِلَيْهِ، فَحَمَلَنِي بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ جِيءَ بِأَحَدِ ابْنَيْ فَاطِمَةَ، فَأَرْدَفَهُ خَلْفَهُ، فَأُدْخِلْنَا المَدِينَةَ، ثَلَاثَةً عَلَى دَابَّةٍ[1].

وكان يقصد المسجد أول ما يصل فعن أبي ثعلبة الخشني قال: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ لَا يَقْدَمُ مِنْ سَفَرٍ إِلَّا فِي الضُّحَى، فَيَبْدَأُ بِالمَسْجِدِ فَيُصَلِّي فِيهِ رَكْعَتَيْنِ وَيَقْعُدُ فِيهِ[2].

ويجلس للناس، فيسلِّم عليه مَن كانوا ينتظرونه فيه، ثم يدخل على أهله، فيبدأ ببيت فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فيسلِّم عليها، ثم يأتي بيوت نسائه فيطوف عليهن[3]، وأما أهل المدينة فقد كانوا يتتابعون بعد إلى رسول الله ﷺ يسلمون عليه بقية اليوم وما بعده.

(١) «صحيح مسلم» (٢٤٢٨).
(٢) «مسند أحمد» (٢٧١٧٠).
(٣) «سنن أبي داود» (٤٢١٣).

خلاصات:

١- تعددت أغراض النبي ﷺ من السفر بعد البعثة للدعوة، والهجرة، والجهاد، والنزهة، والعمرة، والحج.

٢- كان للسفر أذكاره عند المسير، وفي الطريق، وعند الرجوع.

٣- كان ﷺ في سفره متواضعاً في مسيره، ليس له شارة خاصة ولا تميز في حال.

٤- كان السفر في الصحراء قديماً رحلة مخوفة، ولذا جاءت لها أحكام توجد كلما وجدت ظروفها.

٥- كان ﷺ في سفره داعياً ومعلماً، وجعل من أحوال السفر أدواتاً للتعليم.

٦- كان السفر شديد الرهق يستنزف القوة والطاقة النفسية، ومع ذلك كان ﷺ في غاية الرفق والحلم، فلا توتر ولا انفعال.

٧- كان ﷺ يجعل في السفر فسحة للأنس واللهو الجميل الذي يخفف وعثاء السفر، كالحداء والمسابقة.

٨- كان له ﷺ في الرجوع من السفر آداب، فلا يطرق أهله فجاءة، وإنما يصل خبره قبل وصوله، وكان يتلقى بالصبيان من أهل بيته.

٩- كان يقصد المسجد أول ما يرجع، ويجلس للناس يسلم عليهم، ثم يسلم على ابنته ويطوف على نسائه.

الرسول ﷺ والحرب

لم يعبر النبي ﷺ بدعوته إلا بعد أن سلك بها طريقاً شائكاً تعترضه العداوات والمكائد، ولا يمكن لصاحب دعوة مهما كان مسالماً أن يبقى سالماً من عداوة من يخالفون دعوته، وليس أرفق وأوفق في الدعوة من أنبياء الله ورسله ومع ذلك اعترضهم الأعداء بالمكائد وواجهوهم بالعدوان، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٣١].

ولذا فإن المواجهة مع العداوات الظالمة الباغية متكررة في أغلب الدعوات وبخاصة عندما تبادئ من يخالفونها في الدعوة، ولمواجهة هذه العداوات طرق ووسائل تتنوع بحسب حال الداعي ومن يعاديه، ومن ذلك ما يلجئ إلى مواجهة قتالية تزهق فيها النفوس وتسفك الدماء حينما يكون هذا هو الحل الأمثل لصد العدوان أو دمغه.

وقد كان للنبي ﷺ في مواجهاته القتالية هديه وهداه، ونقف معها في مسائل:

أولاً: أن القتال ليس مشروعاً مفتوحاً، ولا مطلباً مرغوباً لذاته، ولكنه وسيلة لغاية، تسلك عند الحاجة إليها، وتتقى عند العافية منها؛ ولذا قال ﷺ: «**لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ العَدُوِّ، وَسَلُوا اللهَ العَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا**»[1].

وعند النظر في أسباب القتال نجدها محصورة في أمرين:

١- دفع العدوان الواقع أو المتوقع، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

(١) «صحيح البخاري» (٢٩٦٥)، و«صحيح مسلم» (١٧٤٢).

وهذه آية محكمة حصرت القتال بالذين يُقاتِلون، وجعلت ما سواه عدوانًا، ولا يصح القول بأنها منسوخة؛ لأنه حكم علق بأمر اعتقادي وهو صفة من صفات الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ وهذا معنى لا يدخله النسخ، فمن قاتلنا، أو هدد بقتالنا، أو استعد لذلك وتهيَّأ له قاتلناه بأمر الله لنا: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾.

٢- قتال كل من يحول بين الناس واتباع الدين ويعرضهم للفتنة إن اتبعوا الحق، وهو بهذا معتدٍ يكف عدوانه ولو بالقتال، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥].

وأما من كفَّ فلم يعتد ولم يَفْتِن مؤمنًا في دينه ولم يحل بين أحد والحق الذي يختاره فليس محلاً للقتال، والتعدِّي عليه عدوان وتجاوز لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

والدليل على ذلك أن النبي ﷺ في المدينة كان على الطريق إلى الشام، وكانت عِيرُ القبائل تعبر ذاهبة وآيبة فلم يعترض لشيء منها إلا لعير قريش لما سبق من عدوانهم واستمرارهم في عداوتهم.

ولما ذهب ﷺ إلى غزوة العشيرة عاهد قبائل على ألا يقاتلوه ويكف عنهم ومنهم بنو ضمرة[(١)].

وبذلك وحَّد النبي ﷺ هدف القتال وأعلى غايته، فليس القتال للمطامع والغنائم، ولا للاستعلاء في الأرض، ولكن له هدف سام وغاية شريفة؛ «**مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ الله هِيَ العُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ الله** عَزَّوَجَلَّ»[(٢)].

(١) «البداية والنهاية» (٣/ ٢٩٨).

(٢) «صحيح البخاري» (٣١٢٦)، و«صحيح مسلم» (١٩٠٤).

ويا لله كم من الحروب والمعارك أزهقت فيها ملايين الأرواح ودمرت بلاد وهدمت مدن لشهوات عدوانية لفرد متجبر، فكم أزهقت من الأرواح في حروب الإسكندر المقدوني! وما غايتها؟ وفي حروب جنكيز خان وهولاكو وتيمور لنك! وفي الحربين العالميتين الأولى والثانية! وما غاياتها؟

قالوا غَزَوتَ وَرُسلُ الله ما بُعِثوا ... لِقَتلِ نَفسٍ وَلا جاؤوا لِسَفكِ دَمِ
جَهلٌ وَتَضليلُ أَحلامٍ وَسَفسَطَةٌ ... فَتَحتَ بِالسَيفِ بَعدَ الفَتحِ بِالقَلَمِ
لَمّا أَتى لَكَ عَفواً كُلُّ ذي حَسَبٍ ... تَكَفَّلَ السَيفُ بِالجُهّالِ وَالعَمَمِ
وَالشَرُّ إِن تَلقَهُ بِالخَيرِ ضِقتَ بِهِ ... ذَرعاً وَإِن تَلقَهُ بِالشَرِّ يَنحَسِمِ
عَلَّمتَهُمْ كُلَّ شَيءٍ يَجهَلونَ بِهِ ... حَتّى القِتالَ وَما فيهِ مِنَ الذِّمَمِ[1]

ثانيًا: مراعاته ﷺ لتوازن القوة مع العدو، وعدم تعريض الصحابة إلى مواجهات غير متوازنة، ومن ذلك كف الأيدي في مكة برغم أذى المشركين واستفزازهم، وكان الحكم في حقهم: ﴿كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النساء: ٧٧]، لأنه لم يكن من المصلحة الدخول في مواجهة عنيفة والدعوة ما زالت في طور النمو الأول والمسلمون في حال ضعف وقلة.

ومن ذلك تحصُّنه بالمسلمين يوم الخندق وعدم بروزه بالمسلمين للقتال لما كان عدد المشركين يفوق عدد المسلمين بثلاثة أضعاف وكانت المواجهة خطرة.

ولما طلب منه ملاعب الأسنة أن يرسل معه جمعًا من القرَّاء قال: «**إِنِّي أَخَافُ عَلَيْهِم**». قال: إني جار لهم، فأرسلهم بجواره[2].

ولما قتل هؤلاء القراء السبعون في بئر معونة[3] على يد عامر بن الطفيل وقبيلته لم يرسل جيشًا لتأديبهم مع أنهم لا يبعدون عن المدينة إلا نحواً من (١٩٠ كم)، وذلك لأن حال المسلمين بعد أُحُد لا تؤهلهم للمواجهة، فهم في حال ضعف وقرح.

(١) «نهج البردة» لأحمد شوقي.
(٢) «تاريخ الطبري» (٢/ ٥٤٦).
(٣) موضع بين جبال يقال لها أبلى في طريق المصعد من المدينة إلى مكة. ينظر: «معجم البلدان» (١/ ٣٠٢).

وعندما تكاثر الروم على المسلمين في معركة مؤتة، ورأى خالد بن الوليد صعوبة الاستمرار في القتال، وأن استمرارهم فيه يعني إبادة جيش المسلمين، انسحب بالجيش وعاد بهم إلى المدينة فسمى النبي ﷺ انسحابه فتحاً[1]؛ لأنه تخليص للجيش من هلكة.

وقد أكد الله هذا المعنى وقرره في آيات في كتابه منها قوله تعالى: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٦٦]، فلم يجعل المواجهة مفتوحة بأي قوة، وإنما أجاز الانسحاب إذا كان العدو أكثر من الضعف، مع أن الكثرة والقلة ليست هي ميزان القوة دائماً فقد تتغلب القلة المنظمة المتحفزة على الكثرة غير المنظمة[2].

وهذا النبي الكريم هو الموعود بالنصر المؤيَّد بمدد الملائكة، ومع ذلك لا تجد للمغامرة المتهورة حضوراً في حروبه امتثالاً لأمر ربه: ﴿خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١]، ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].

ولذا كفَّ الله يده وأيدي المؤمنين معه يوم الحديبية؛ حفاظاً على سلامة المؤمنين المستضعفين المستخفين بمكة حتى لا يكونوا ضحية هذه المواجهة، وقد يقتلهم إخوانهم المسلمون من حيث لا يشعرون، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَـٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الفتح: ٢٤، ٢٥].

ثالثًا: كانت الحروب ولا زالت تقوم على التشفِّي والانتقام والإبادة، وقتل من يمكن قتله، والتوحش في القتل، والتمثيل بالقتلى، والتنكيل بالأسرى، ولم يكن ثمَّ ضوابط للاقتتال، ولا أخلاق للحروب.

فلما جاء النبي الكريم جعل لحروبه قيماً وضوابط وأخلاقاً التزمها وألزم المسلمين بها ومن ذلك:

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٧٥٧).

(٢) ذكرت تطبيقات نبوية كثيرة لهذا المعنى في كتاب: «**سنام الإسلام**».

١- رأى النبي ﷺ وهو متوجه لفتح مكة امرأة مقتولة فأنكر ذلك وقال: «**مَا كَانَتْ هَذِهِ لِتُقَاتِلُ**». ثم أرسل إلى مقدمة الجيش فنهى عن قتل النساء والصبيان وقال: «**لَا تَقْتُلَنَّ ذُرِّيَّةً وَلَا عَسِيفًا**»[١]. أي أجيراً. ولم يقل أحد: يا رسول الله، إن قريشاً فعلوا بالمهاجرين كذا، وفعلوا في أُحدٍ كذا، وجعل يعدد جرائمهم السابقة.

٢- وكان إذا أمَّر رجلاً على جيش أوصاه فقال: «**اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا وَلَا تَغْدِرُوا وَلَا تُمَثِّلُوا وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيداً**»[٢]، وجمعها أبو بكر فيما رُوي عنه من طرق متعددة: لاَ تَقْتُلُوا صَبِيًا وَلاَ امْرَأَةً وَلَا شَيْخًا كَبِيراً، وَلَا مَرِيضًا، وَلَا رَاهِبًا، وَلَا تَقْطَعُوا مُثْمراً، وَلَا تُخْرِبُوا عَامِراً، وَلَا تَذْبَحُوا بَعِيراً وَلَا بَقَرَةً إِلَا لِمَأْكل، وَلَا تُغْرِقُوا نَخْلاً وَلَا تُحْرِقُوه[٣].

٣- ورُوي عنه ﷺ من حديث أنس أنه قال: «**انْطَلِقُوا بِاسْمِ اللهِ وَبِاللهِ وَعَلَى مِلَّةِ رَسُولِ اللهِ، وَلَا تَقْتُلُوا شَيْخًا فَانِيًا، وَلَا طِفْلاً وَلَا صَغِيراً، وَلَا امْرَأَةً، وَلَا تَغُلُّوا، وَضُمُّوا غَنَائِمَكُمْ، وَأَصْلِحُوا وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**»[٤]، وعَملُ المسلمين في فتوحاتهم جار على ذلك.

لقد أتى النبي ﷺ بهذه التعاليم والعالم كله لا يعترف بها ولا يطبقها، ومع ذلك ألزم النبي ﷺ المسلمين بها وإن تنكر العالم كله لها.

والتزم ﷺ الوفاء بالعهود مع أعدائه وحثَّ على الوفاء بها، فلما خرج إلى بدر وخرجت قريش لقتاله وقع في أيديهم حذيفة بن اليمان وأبوه يسيران قاصدين المدينة قال حذيفة: فَأَخَذْتنَا كُفَّارُ قُرَيْشٍ، فَقَالُوا: إِنَّكُمْ تُرِيدُونَ مُحَمَّداً، فَقُلْنَا: مَا نُرِيدُهُ إِنَّمَا نُرِيدُ المَدِينَةَ، فَأَخَذُوا عَلَيْنَا عَهْدَ اللهِ وَمِيثَاقَهُ، لَتصيرون إِلَى المَدِينَةِ، وَلا تُقَاتِلُوا مَعَ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَلَمَّا جَاوَزْنَاهُمْ أَتَيْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَذَكَرْنَا لَهُ مَا قَالُوا وَمَا قُلْنَا لَهُمْ، فَمَا تَرَى؟ فَقَالَ: «**نَسْتَعِينُ اللهَ عليهم ونَفِي بِعَهْدِهِمْ**»[٥].

---

(١) «سنن ابن ماجه» (٢٨٤٢).
(٢) «مسند أحمد» (١٨٠٩٧).
(٣) «الموطأ» (٩١٨).
(٤) «سنن أبي داود» (٢٦١٤).
(٥) «المستدرك» (٤٩٠٨).

وعَن أَبِي رَافِعٍ قَالَ: بَعَثَتْنِي قُرَيْشٌ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَلَمَّا رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ أُلْقِيَ فِي قَلْبِيَ الإِسْلَامُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله إِنِّي وَالله لَا أَرْجِعُ إِلَيْهِمْ أَبَداً، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنِّي لَا أَخِيسُ بِالعَهْدِ، وَلَا أَحْبِسُ البُرُدَ**[1]، **وَلَكِنِ ارْجِعْ فَإِنْ كَانَ فِي نَفْسِكَ الَّذِي فِي نَفْسِكَ الآنَ فَارْجِعْ**»[2].

وعندما شرع النبي ﷺ هذه الشرائع في القتال لم يكن يراعي رأيًا عامًا عالميًا، أو هيئات أممية، أو مواثيق دولية، ولكنه كان يعلن ويطبق شرعًا إلهيًا هاديًا يعيد البشرية إلى رشدها.

رابعًا: كان في قيادته العسكرية جامعًا لصفات القائد وأخلاقه ومواهبه، فكانت علاقة الجيش به هي المحبة الصادقة، والإيمان الموقن، وكان يشرك الجيش في قراراته ويأخذ الشورى من أهلها، ثم يتبعها بالعزيمة في القرار المحكم، مع أخذ الحيطة والحذر، وبث العيون واستباق خطة العدو، ومفاجأته بما لم يستعد له، وغير ذلك من مهارات الرسول القائد ﷺ[3].

خامسًا: وكان ﷺ في معاركه مثال الشجاعة والثبات ورباطة الجأش وذلك حين يحمى الوطيس ويشتد الكرب.

وفي معركة حنين لما انهزم أصحابه حوله اقتحم على بغلته وهو يقول: «**أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ المُطَّلِبْ، اللهُمَّ نَزِّلْ نَصْرَكَ**». وأبو سفيان بن الحارث والعباس بن عبد المطلب يمسكان بالبغلة حتى لا تقتحم بعيداً عنهم حتى تراجع أصحابه إليه[4].

ولذا لما قيل للبراء: أَكُنْتُمْ فَرَرْتُمْ يَوْمَ حُنَيْنٍ؟ قَالَ: أَمَّا رَسُولُ الله ﷺ فَلَمْ يَفِرَّ[5].

---

(١) البُرُد: جمع بريد وهو الرسول. ينظر: «النهاية» (١/ ١١٥).

(٢) «سنن أبي داود» (٢٧٥٨).

(٣) ينظر: فصل «**الرسول ﷺ والقيادة**».

(٤) «صحيح البخاري» (٢٨٦٤)، و«صحيح مسلم» (١٧٧٦).

(٥) «صحيح البخاري» (٢٩٣٠)، و«صحيح مسلم» (١٧٧٦).

وكان أشجع الصحابة في القتال هو الذي يكون قريباً من النبي ﷺ[1].

سادساً: كان الصحابة حوله جيشاً على أهبة الاستعداد، وكان يحفزهم للياقة العسكرية جميعاً بحيث كانوا فيما يشبه نظام التجنيد، فكانوا جميعاً مجندين مستعدين ويظهر ذلك من التحفيز على مهارات القتال والإعداد للمعارك والتي كان المجتمع عرضةً لها في أي وقت.

ومن الترغيب في مهارة الرمي قوله ﷺ: «**أَلَا إِنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ**»[2]. ورغب في المنافسة في هذه المهارة وقال: «**ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ، فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِيًا ارْمُوا، وَأَنَا مَعَ بَنِي فُلَانٍ**». قَالَ: فَأَمْسَكَ أَحَدُ الفَرِيقَيْنِ بِأَيْدِيهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَا لَكُمْ لَا تَرْمُونَ؟**». قَالُوا: كَيْفَ نَرْمِي وَأَنْتَ مَعَهُمْ؟ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**ارْمُوا فَأَنَا مَعَكُمْ كُلِّكُمْ**»[3].

ورغَّب في الإعداد بحيث يكون كل فردٍ جزءاً من آلة الدفاع، ورغَّب في اتخاذ السلاح واحتباسه للجهاد فقال: «**وَأَمَّا خَالِدٌ فَقَدِ احْتَبَسَ أَدْرَاعَهُ وَأَعْتُدَهُ فِي سَبِيلِ الله**»[4]. ورغَّب في اقتناء الخيل وإعدادها فقال: «**الخَيْلُ لِرَجُلٍ أَجْرٌ، وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ، وَعَلَى رَجُلٍ وِزْرٌ، فَأَمَّا الَّذِي لَهُ أَجْرٌ: فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ الله، فَأَطَالَ بِهَا فِي مَرْجٍ أَوْ رَوْضَةٍ، فَمَا أَصَابَتْ فِي طِيَلِهَا**[5] **ذَلِكَ مِنَ المَرْجِ أَوِ الرَّوْضَةِ كَانَتْ لَهُ حَسَنَاتٍ، وَلَوْ أَنَّهُ انْقَطَعَ طِيَلُهَا، فَاسْتَنَّتْ شَرَفًا أَوْ شَرَفَيْنِ**[6] **كَانَتْ آثَارُهَا، وَأَرْوَاثُهَا حَسَنَاتٍ لَهُ، وَلَوْ أَنَّهَا مَرَّتْ بِنَهَرٍ، فَشَرِبَتْ مِنْهُ وَلَمْ يُرِدْ أَنْ يَسْقِيَ كَانَ ذَلِكَ حَسَنَاتٍ لَهُ، فَهِيَ لِذَلِكَ أَجْرٌ، وَرَجُلٌ رَبَطَهَا تَغَنِّيًا وَتَعَفُّفًا ثُمَّ لَمْ يَنْسَ حَقَّ الله فِي رِقَابِهَا وَلَا ظُهُورِهَا، فَهِيَ لِذَلِكَ سِتْرٌ، وَرَجُلٌ رَبَطَهَا فَخْراً وَرِيَاءً وَنِوَاءً لِأَهْلِ الإِسْلَامِ، فَهِيَ عَلَى ذَلِكَ وِزْرٌ**»[7].

---

(١) ينظر: فصل «**الرسول ﷺ والشجاعة**».

(٢) «صحيح مسلم» (١٩١٧).

(٣) «صحيح البخاري» (٢٨٩٩).

(٤) «صحيح البخاري» (١٤٦٨).

(٥) أطال: أي شدّها في الحبل، والطِّيل: الحبل الطويل. ينظر: «النهاية» (٣/ ١٤٥).

(٦) استنت شرفا أو شرفين: أي عدا لمرحه ونشاطه شوطا أو شوطين ولا راكب عليه. ينظر: «النهاية» (٢/ ٤١٠).

(٧) «صحيح البخاري» (٢٣٧١).

وسَابَقَ بَيْنَ الخَيْلِ المُضَمَّرَةِ مِنْهَا مِنَ الحَفْيَاءِ إِلَى ثَنِيَّةِ الوَدَاعِ، وَالَّتِي لَمْ تُضَمَّرْ مِنْ ثَنِيَّةِ الوَدَاعِ إِلَى مَسْجِدِ بَنِي زُرَيْقٍ[1].

وكل ذلك من الإعداد المذكور في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

سابعًا: ومع شدة العداوات وكثرة الغزوات فإن النبي ﷺ لم يدخل في معركة قتالية من معاركه إلا في ثمان هي: بدر، وأحد، والمريسيع، والخندق، وقريظة، وخيبر، وفتح مكة، وحنين.

وعدد القتلى في كل معاركه من المسلمين وأعدائهم لم يتجاوز **(ألف قتيل تقريبًا)**.

وهذا يبين لنا أن النبي ﷺ لم يكن بالمتعطش للدماء ولا المتلذذ بالقتل، ولكن يقاتل وكأنه يعالج بمبضع جراح، فلا يتوجه إلى قتال إلا حيث يكون هو الخيار الوحيد، ولا يقتل إلا حيث يُستحقُّ القتل وتسد طرق الإصلاح.

ولذا فإن أكثر الذين انتصر عليهم عفا عنهم، وأكثر الذين قاتلوه قاتلوا بعد ذلك معه وعنه.

ثامنًا: وفاؤه للشهداء وبشرى أهليهم بحسن منقلبهم، فعَنْ جَابِرٍ قَالَ: جِيءَ بِأَبِي قَتِيلاً يَوْمَ أُحُدٍ، فَجَعَلَتْ فَاطِمَةُ أُخْتُهُ تَبْكِيهِ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَا تَبْكِيهِ، مَا زَالَتِ المَلَائِكَةُ تُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا حَتَّى رُفِعَ**»[2]، وعن أنس قال: أُصِيبَ حَارِثَةُ يَوْمَ بَدْرٍ وَهُوَ غُلَامٌ، فَجَاءَتْ أُمُّهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ الله، قَدْ عَرَفْتَ مَنْزِلَةَ حَارِثَةَ مِنِّي، فَإِنْ يَكُنْ فِي الجَنَّةِ أَصْبِرْ وَأَحْتَسِبْ، وَإِنْ تَكُ الأُخْرَى تَرَى مَا أَصْنَعُ، فَقَالَ: «**يَا أُمَّ حَارِثَةَ، إِنَّهَا لَيْسَتْ بِجَنَّةٍ وَاحِدَةٍ وَلَكِنَّهَا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ، وَإِنَّهُ فِي الْفِرْدَوْسِ الْأَعْلَى**»[3].

وعَنْ أَبِي بَرْزَةَ الأَسْلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قال رَسُولُ الله ﷺ لِرَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ: «**زَوِّجْنِي ابْنَتَكَ**». فَقَالَ: نِعِمَّ وَكَرَامَةٌ يَا رَسُولَ الله، وَنُعْمَ عَيْنِي، فَقَالَ: «**إِنِّي لَسْتُ أُرِيدُهَا لِنَفْسِي**».

(١) «صحيح البخاري» (٨٢٠).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٨١٦).

(٣) «مسند أحمد» (١٣٨٧١)، و«صحيح البخاري» (٣٩٨٢).

قَالَ: فَلِمَنْ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «**لِجُلَيْبِيبٍ**». فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، أُشَاوِرُ أُمَّهَا، فَأَتَى أُمَّهَا فَقَالَ: رَسُولُ الله ﷺ يَخْطُبُ ابْنَتَكِ، فَقَالَتْ: نِعِمَّ وَنُعْمَةُ عَيْنِي زَوِّجْ رَسُولَ الله ﷺ، فَقَالَ: إِنَّهُ لَيْسَ يُرِيدُهَا لِنَفْسِهِ، قَالَتْ: فَلِمَنْ؟ قَالَ: لِجُلَيْبِيبٍ، فَقَالَتْ: حَلْقَى[1]، أَجُلَيْبِيبٌ ابْنَهْ؟ أَجُلَيْبِيبٌ ابْنَهْ؟ لَا، لَعَمْرُ الله لَا أُزَوِّجُ جُلَيْبِيبًا، فَلَمَّا أَرَادَ أَبُوهَا أَنْ يَقُومَ لِيَأْتِيَ رَسُولَ الله ﷺ لِيُخْبِرَهُ بِمَا قَالَتْ أُمُّهَا، قَالَتِ الجَارِيَةُ: مَنْ خَطَبَنِي إِلَيْكُمْ؟ فَأَخْبَرَتْهَا أُمُّهَا، فَقَالَتْ: أَتَرُدُّونَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ أَمْرَهُ؟ ادْفَعُونِي إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَإِنَّهُ لَا يُضَيِّعُنِي، فَانْطَلَقَ أَبُوهَا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: شَأْنَكَ بِهَا، فَزَوَّجَهَا جُلَيْبِيبًا، فَخَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ فِي غَزْوَةٍ لَهُ، فَلَمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْهِ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: «**هَلْ تَفْقِدُونَ مِنْ أَحَدٍ؟**». قَالُوا: نَعَمْ، فُلَانًا، وَفُلَانًا، وَفُلَانًا، ثُمَّ قَالَ: «**هَلْ تَفْقِدُونَ مِنْ أَحَدٍ؟**». قَالُوا: نَعَمْ، فُلَانًا، وَفُلَانًا، وَفُلَانًا، ثُمَّ قَالَ: «**هَلْ تَفْقِدُونَ مِنْ أَحَدٍ؟**». قَالُوا: لَا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَكِنِّي أَفْقِدُ جُلَيْبِيبًا، فَاطْلُبُوهُ**». فَطُلِبَ فِي القَتْلَى، فَوَجَدُوهُ إِلَى جَنْبِ سَبْعَةٍ قَدْ قَتَلَهُمْ، ثُمَّ قَتَلُوهُ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله، هَا هُوَ ذَا إِلَى جَنْبِ سَبْعَةٍ، قَدْ قَتَلَهُمْ ثُمَّ قَتَلُوهُ، فَأَتَى رَسُولُ الله ﷺ فَوَقَفَ عَلَيْهِ فَقَالَ: «**أَقَتَلَ سَبْعَةً ثُمَّ قَتَلُوهُ؟ هَذَا مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ، هَذَا مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ**». فَوَضَعَهُ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى سَاعِدَيْهِ فَحُفِرَ لَهُ، مَا لَهُ سَرِيرٌ إِلَّا سَاعِدَا رَسُولِ الله ﷺ ثُمَّ وَضَعَهُ فِي لَحْدِهِ[2].

ومن وفائه لهم خلافتهم في أهلهم فقال في أم سُليم، كما عن أَنَسٍ، أَنَّه ﷺ لَمْ يَكُنْ يَدْخُلُ بَيْتًا بِالمَدِينَةِ غَيْرَ بَيْتِ أُمِّ سُلَيْمٍ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِ، فَقِيلَ لَهُ، فَقَالَ: «**إِنِّي أَرْحَمُهَا قُتِلَ أَخُوهَا مَعِي**»[3]، ومن وفائه لهم زيارتهم في قبورهم في أُحُد قبل وفاته كالمودع للأحياء والأموات.

تاسعًا: لم يكن قتاله للطمع الدنيوي وكسب الغنائم والتكثر منها، ولما سئل عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل للمغنم أي ذلك في سبيل الله؟ قال: «**مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ الله هِيَ العُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ الله**»[4].

---

(١) حلقى: أي: حلقها الله، يعني أصابها وجع في حلقها خاصة. ينظر: «النهاية» (١/ ٤٢٨).

(٢) «مسند أحمد» (١٩٧٧٨، ١٩٧٨٤)، و«صحيح مسلم» (٢٤٧٢).

(٣) «صحيح البخاري» (٢٨٤٤)، و«صحيح مسلم» (٢٤٥٥).

(٤) «صحيح البخاري» (٢٨١٠).

وعندما أرسل علياً بالراية إلى حصن خيبر، وكانت حصونها خزائن الذهب والفضة أمره بدعوتهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وقال: «**وَاللهِ لَأَنْ يُهْدَى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ**»[1]. هذا مع سابق عداوتهم وكيدهم الدافع للانتقام، وكثرة ثرواتهم ونخيلهم المغرية بالطمع، ولكن كانت الهداية أحب إليه من ذلك كله.

ومثل ذلك قسمته غنائم حنين على من كانوا أعداءً له من قريب يتألَّفهم بذلك ويستطيب قلوبهم.

خلاصات:

١- القتال ليس مطلباً مرغوباً لذاته، ولكنه وسيلة لغاية تسلك عند الحاجة إليها.

٢- مراعاة توازن القوة في القتال وعدم التقحُّم في مواجهة هي مظنة الهلكة.

٣- وضع النبي ﷺ أحكاماً للقتال وقيماً تراعى في الحروب، وضوابط التزمها وألزم المسلمين بها، وما كان شيئاً من هذه الضوابط يراعى في الحروب حينها.

٤- كان ﷺ في معاركه مضرب المثل في الشجاعة ورباطة الجأش، حين يشتد البأس.

٥- كانت قيادته ﷺ في الحروب مثال القيادة الراشدة الحازمة تحقيقاً للشورى، والعزيمة، والاحتراس، وحسن التخطيط.

٦- كان يحث الصحابة على الاستعداد للقتال بحيث كانوا جميعاً جيشاً احتياطياً مدرباً مستعداً.

٧- وفاؤه للشهداء وخلافتهم في أهلهم والبشرى بحسن منقلبهم، وزيارتهم في قبورهم.

٨- لم تكن المطامع والغنائم الدافع لحروبه، وكانت الهداية أغلى منها، وإعلاء كلمة الله غايتها، ولذا بذل الأموال الطائلة لمن كانوا أعداءه من قريب.

٩- مع شدة العداوات وكثرة الغزوات إلا أن مجموع القتلى في كل حروبه لم يتجاوز ألف قتيل تقريبا، وهذا يبين أن النبي ﷺ لم يكن بالمتعطش للدماء ولا المتلذذ بالقتل.

---

(١) «صحيح البخاري» (٢٩٤٢).

الرسول ﷺ والنصر

للنصر نشوة تطيش بالعقول، وسكر هو أشد من سكر الخمر، يصعب معه التحكم في الانفعالات، أو ضبط التصرفات، ونحن نرى نماذج لذلك في لحظات الانتصار المصغرة، كالانتصار في مباراة رياضية، فكيف إذا كان النصر هو النصر في معركة تعلم أن عدوك فيها كان شديد الحرص على أن يقضي عليك ويبيدك ثم تنتصر عليه وتتمكن منه، فكيف كانت حال النبي ﷺ مع النصر؟!

ليتضح الجواب فلنأخذ حالة النصر في فتح مكة نموذجًا، فهو الفتح المبين، والنصر العظيم، فنلاحظ من خلاله أموراً عجيبة منها:

١- أن النبي ﷺ في لحظة النصر وهي لحظة الزهو التي يدخل فيها المنتصرون بكامل زهوهم، والمتكبرون بكامل كبريائهم، أما هو -بأبي هو وأمي- فقد دخل في غاية التواضع والخشوع لله، دخل مكة وحوله عشرة آلاف سيف، وقد طأطأ رأسه على راحلته حتى إن جبينه المقدس ليمس مقدم رحله وهو يقرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١]، يقرأ ويُرجع بالقراءة يمد بها صوته[(١)]، وترتعش الأحرف ويتموج الصوت وهو يقرأ بالمد والترجيع خشية وتواضعا لله، كأنما يعلن لله عَزَّوَجَلَّ البراءة من رؤية النفس ومشاعر الزهو، ولسان حاله ينادي: يا ربي ما أنا فتحت لكن أنت فتحت، وما أنا انتصرت، لكن أنت نصرت، إنه التواضع لله، والامتنان له، ورؤية فضل الله ومنته وليس رؤية النفس وحظوظها.

(١) «صحيح البخاري» (٧٥٤٠)، و«صحيح مسلم» (٧٩٤).

وعندما تم الفتح وخضعت له مكة كلها لم يقم استعراضاً عسكرياً وإنما دخل بيت أم هانئ ابنة عمه فاغتسل ثم صلى صلاة الفتح ثمان ركعات شكراً لله عَزَّوَجَلَّ[1]، وإعلاناً لله بالخضوع والامتنان، لقد كان أول مظهر من مظاهر النصر عند النبي ﷺ هو التواضع لله عَزَّوَجَلَّ والامتنان له.

٢- ومن معالم النصر في حياة النبي ﷺ والتي نراها بجلاء في فتح مكة المسارعة إلى قوله: «**اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ**»[2]، «**مَنْ دَخَلَ بَيْتَهُ فَهُوَ آمِنٌ، ومَنْ دَخَلَ المَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ، ومَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفيان فَهُوَ آمِنٌ**»[3]. فانتشر الأمن، وعمت السكينة، وأشربت القلوب الطمأنينة.

كما نرى عدم التشفِّي والانتقام، فلم يُعمَل السيف، ولا استبيحت البلد، ولا نهبت الثروات، وإنما أبقى مكة قارّة آمنة وادعة مطمئنة، وجاء النصر النبوي ومعه الأمان والسكينة والاطمئنان.

٣- ومما نلاحظه في النصر النبوي عند فتح مكة احتواء العداوات وليس تعميقها، فسيد مكة أبو سفيان ينال وسام: «**مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفيان فَهُوَ آمِنٌ**». وعكرمة بن أبي جهل الذي فر من مكة إلى البحر يُتْبعه النبي ﷺ الأمان، فلما رجع نقى النبي ﷺ الأجواء قبل قدومه فقال: «**يَأْتِيكُمْ عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ مُؤْمِنًا مُهَاجِراً، فَلَا تَسُبُّوا أَبَاهُ، فَإِنَّ سَبَّ المَيِّتِ يُؤْذِي الحَيَّ، وَلَا يَبْلُغُ المَيِّتَ**»[4]. فلما أقبل عكرمة تلقَّاه النبي ﷺ متهللًا يضحك وهو يقول: «**مَرْحَبًا بِالرَّاكِبِ المُهَاجِرِ**»[5]. فانظر لطف العبارة النبوية حينما يصف الهارب بـ«**الرَّاكِبِ المُهَاجِرِ**».

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٥٧)، و«صحيح مسلم» (٣٣٦).

(٢) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٤١٢)، و«تاريخ الطبري» (٢/ ١٦١)، و«زاد المعاد» (٣/ ٣٠٧-٣٠٩)، و«البداية والنهاية» (٦/ ٥٦٧-٥٦٨).

(٣) «سنن أبي داود» (٣٠٢١).

(٤) «المستدرك» (٥٠٥٥).

(٥) «جامع الترمذي» (٢٧٣٥).

وعندما أراد الخروج إلى حنين استعار أدراع صفوان بن أمية وهو مشرك قال: أغصبًا يا محمد؟ قَالَ: «**بَلْ عَارِيَةٌ مَضْمُونَةٌ**». قَالَ: فَضَاعَ بَعْضُهَا، فَعَرَضَ عَلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ أَنْ يَضْمَنَهَا لَهُ، قَالَ: أَنَا اليَوْمَ يَا رَسُولَ الله فِي الإِسْلَامِ أَرْغَبُ[1].

٤- حاول ﷺ بعد النصر ترميم الجراحات واستطابة النفوس وإعادة لحمة المجتمع، ولذا أعطى من غنائم حنين لمسلمة الفتح عطايا سخية، فلما وجد الأنصار في نفوسهم أنه لم ينفلهم منها، قال: «**إِنَّ قُرَيْشًا حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ وَمُصِيبَةٍ، وَإِنِّي أَرَدْتُ أَنْ أَجْبُرَهُمْ وَأَتَأَلَّفَهُمْ**»[2].

وخرج معه صفوان بن أمية بن خلف إلى حنين وهو مشرك فلما تم النصر وجمعت الغنائم مَرُّوا على واد به غنم بين جبلين فجعل صفوان ينظر في هذا الوادي معجبًا بهذا المال الذي فيه، فلما رأى النبي إعجابه به قال: «**أَبَا وَهَب؛ أَيَسُرُّكَ أَنَّهُ لَكَ؟**». قال: نعم. قال: «**هُوَ لَكَ وَمَا فِيهِ**». قال: أشهد أنك رسول الله، والله ما طابت بذلك إلا نفس نبي[3].

وهكذا احتوى العداوات وردمها ولم يعمقها.

٥- كما نلاحظ أن النبي ﷺ يوم فتح مكة لم يؤثر أحداً من قرابته بمنصب أو هبة أو عطاء مع أن فيها العباس عمه، وفيها عقيل بن أبي طالب، وأبو سفيان بن الحارث ابني عمه، وغيرهم من قرابته وآل بيته، ولم ينقل لنا أن أحداً من أقاربه نال تكريمًا خاصًا، أو عطاءً خاصًا.

كما نلاحظ أن النبي ﷺ عندما غادر مكة لم يول عليها أحداً من بني هاشم وإنما ولى عليها شابًا من أقارب أبي سفيان هو عتاب بن أسيد وكان في العشرين من عمره.

بقي هناك تساؤل نتساءله ونقول: لقد دخل النبي ﷺ مكة فاتحًا ومعه عشرة آلاف فكان تعامله منتصراً هذا التعامل الرحيم الكريم، وقبلها بثلاث سنوات كان أبو سفيان ومعه عشرة آلاف من المشركين يحاصر المدينة وفيها رسول الله ﷺ،

(١) «مسند أحمد» (١٥٣٠٢). وأصله في «سنن أبي داود» (٣٥٦٢).
(٢) «صحيح البخاري» (٥/ ١٥٩).
(٣) «مغازي الواقدي» (٢/ ٨٥٥).

فماذا لو انتصر ودخلها كيف كان سيتعامل مع المدينة وأهلها؟ هل كان سيتعامل بذات الأخلاق وسيعامل أهل المدينة بتلك المعاملة؟ الجواب قاله أبو سفيان قبلها في أحد: إنكم ستجدون مُثْلَةً لم آمر بها ولم تسؤني[1].

إذن كيف عامل النبي ﷺ في لحظات الانتصار والظفر أهل مكة هذه المعاملة؟

الجواب ما قاله العباس عمه: إنها النبوة[2]، وإنها أخلاق الأنبياء.

خلاصات:

١- كان ﷺ في حالة النصر في غاية التواضع لله والخضوع له، بعيداً عن مظاهر الزهو والاستعلاء.

٢- في ساعة النصر يبادر إلى العفو في موضعه، ويتباعد عن التشفي والانتقام ما وسعه ذلك.

٣- في حالة النصر يحتوي العداوات ويردم الأحقاد ولا يعمقها.

٤- بعد النصر يتألَّف القلوب، ويجبر النفوس ويداوي الجراحات ليعيد للمجتمع سلمه ولحمته.

٥- لم يكن يستأثر بعد النصر بمغنم ولا يؤثر قرابته بغنيمة.

(١) «صحيح البخاري» (٣٠٣٩)، و«صحيح مسلم» (٣٣٦).

(٢) «تاريخ الطبري» (٣/ ٥٤).

الرسول ﷺ والسِّلم الاجتماعي[1]

السِّلم الاجتماعي اصطلاح حديث يدور معناه حول غياب مظاهر الشقاق والتفرق والعنف داخل المجتمع.

وللسِّلم الاجتماعي أهميته في استقرار المجتمع وأمنه، وأهميته في تطور المجتمع وازدهاره، وأهميته في نشر الدعوة وبلاغ الدين، ويعبر عن السِّلم الاجتماعي بالأمن العام، قال الماوردي متحدثًا عن قواعد صلاح الدنيا وانتظام أمورها وأحوالها: القاعدة الرابعة: أمنٌ عامٌ تطمئن إليه النفوس، وتنتشر فيه الهمم، ويسكن إليه البريء، ويأنس به الضعيف، فليس لخائف راحة، ولا لحاذرٍ طمأنينة، وقد قال بعض الحكماء: الأمن أهنأ عيش، والعدل أقوى جيش، لأن الخوف يقبض الناس عن مصالحهم، ويحجزهم عن تصرفاتهم، ويكفهم عن أسباب المواد التي بها قوام أودهم وانتظام جملتهم[2].

وفي أجواء السِّلم تتحقق الطمأنينة التي تنفي الخوف والفزع عن الأفراد والجماعات، فيتحقق التواصل والتعاون بينهم في ميادين العمران الدنيوي والمعاد الأخروي، والدليل على ذلك تسمية الله صلح الحديبية -والذي كان هدنة وسلمًا- فتحًا مبينًا: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١]، وذلك لما ترتب عليه من فتح القلوب، وانتشار الدين، وبلاغ الرسالة، فهو أعظم الفتح، فعَنِ البَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: تَعُدُّونَ أَنْتُمُ الفَتْحَ فَتْحَ مَكَّةَ، وَقَدْ كَانَ فَتْحُ مَكَّةَ فَتْحًا، وَنَحْنُ نَعُدُّ الفَتْحَ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ يَوْمَ الحُدَيْبِيَةِ[3].

(١) ينظر: «السلم الاجتماعي في السيرة النبوية» للولوة بنت محمد الليلي.

(٢) «أدب الدنيا والدين» للماوردي (١٤٢).

(٣) «صحيح البخاري» (٤١٥٠).

قال الزهري: فَمَا فُتِحَ فِي الإِسْلامِ فَتْحٌ قَبْلَهُ كَانَ أَعْظَمَ مِنْه، إِنَّمَا كَانَ القِتَالُ حَيْثُ التَقَى النَّاسُ، فَلَمَّا كَانَتِ الهُدْنَةُ، ووضعت الحرب أوزارها، وَأَمِنَ النَّاسُ كُلُّهُمْ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فَالتَقَوْا، وَتَفَاوَضُوا فِي الحَدِيثِ وَالمُنَازَعَةِ، فَلَمْ يُكَلَّمْ أَحَدٌ بِالإِسْلامِ يَعْقِلُ شَيْئًا إِلا دَخَلَ فِيهِ، فَلَقَدْ دَخَلَ فِي تَيْنِكِ السَّنَتَيْنِ فِي الإِسْلامِ مِثْلُ مَا كَانَ فِي الإِسْلامِ قَبْلَ ذَلِكَ وَأَكْثَرُ[1].

وقَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَالدَّلِيلُ عَلَى مَا قَالَهُ الزُّهْرِيُّ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ خَرَجَ إِلَى الحُدَيْبِيَةِ فِي ألفٍ وَأَرْبَعِمِئَةِ رَجُلٍ فِي قَوْلِ جَابِرٍ، ثُمَّ خَرَجَ عَامَ فَتْحِ مَكَّةَ بَعْدَ ذَلِكَ بِسَنَتَيْنِ فِي عَشَرَةِ آلَافٍ[2].

وذلك أن الدعوة انتشرت بهذه الاتفاقية السلمية، وانطلق الدعاة، وعرفت القبائل الإسلام فدخل فيه كثير، وراسل ﷺ الملوك داخل الجزيرة وخارجها، وانتشرت دعوة الإسلام إلى أفق عالمي، وكل ذلك قبل فتح مكة.

ولقد كانت للنبي ﷺ عناية بالغة بتعميق السلم الاجتماعي وحياطته، وإفشاء المحبة والسلام في المجتمع، وإزالة كل ما يثير سكينة المجتمع ويكدر سِلمه، ومن ذلك:

أولاً: المحافظة على السلم الاجتماعي:

وذلك بحرصه على استقرار المجتمع وسكينته، واستمرار ألفته، وبقاء التعايش بين أفراده، ولذلك كانت أول خطوة في تكوين المجتمع المدني هي ضمان السِّلم الاجتماعي بين مكوناته المتنوعة في أديانها وقبائلها، فقد كان في المجتمع حين الهجرة المسلمون واليهود والمشركون، وفيه القرشيون والأوس والخزرج والإسرائيليون، فكانت أول لحمة عقدها النبي ﷺ بين وشائج المجتمع هي المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، والتي تصل إلى التوارث بينهم، حتى نسخ بعد وبقيت الأخوة، وبهذه الأخوة الدينية بين المهاجرين والأنصار توثقت الآصرة وإن كانوا مختلفين نسبًا وداراً.

ثم كتب في صحيفة المدينة المواثيق التي تحفظ العلاقة السلمية بين جميع مكونات المجتمع، وتؤسس للتعايش بينها، ولذا نجد فيها من المواثيق ما يؤكد السلم ويحفظ استمراره ومنها:

---

(١) «تاريخ الطبري» (٢/ ٦٣٨).

(٢) «البداية والنهاية» (٦/ ٢٢١).

١- أن اليهود أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم نفسه.

٢- وأن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم.

٣- وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالمٍ أو آثم، وأنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة إلا مِن ظُلمٍ وإثم.

وبهذا اعتبر أهل الكتاب الذين يعيشون في المدينة مواطنين، وأنهم أمة مع المؤمنين ما داموا قائمين بالواجبات المترتبة عليهم، وأن اختلاف الدين ليس سببًا للحرمان من المواطنة وحقوقها، وقد طَبَّع النبي ﷺ التعايش بين مكونات المجتمع والخُلطَة فيما بينهم وأنشأ التعايش واستمرار العلاقات الإنسانية، ومن ذلك حديث أنس، أن النبي ﷺ ركب على حمار ليعود سعد بن عُبادة سيِّد الخزرج في داره قبل وقعة بدر، فمرَّ في طريقه بمجلس قد اجتمع فيه أخلاط من المسلمين والمشركين عبَدَة الأوثان واليهود، وفيهم عبدُ الله بنُ أُبَيٍّ ابنُ سَلولَ قبل أن يظهر إسلامه، وعبدُ الله بنُ رواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فعدَّل مسيره إليهم، فلما دنا منهم ثار غبار الحمار، وهو أمر معتاد في أرض المدينة، التي كانت سِبَاخًا[1]، يثور غبارها لوَقْع الأقدام وحوافر الدواب، فبادر عبدُ الله بنُ أُبَيٍّ ابنُ سَلولَ وغطَّى أنفه بردائه، وقال: لا تغبِّروا علينا. ثم قال: والله لقد آذاني نَتَنُ حمارك. وكان تصرفًا جافيًا؛ إذ بدل أن يقوم إليه ويتلقَّاه ويرحِّب به، كما هي عادة العرب مسلمهم ومشركهم في تَلَقِّي القادم وإكرامه، قابل ذلك بالتكرُّه والإعراض، ولكن النبي ﷺ تجاوز هذا الموقف، ولم يجعله مجال مراجعة، وإنما بادر بالسلام وإلقاء التحية، ثم نزل وجلس إليهم ودعاهم إلى الله، وقرأ عليهم القرآن، فما كان من عبد الله بن أُبَيٍّ الذي سمع آيات القرآن ودعوة رسول الله ﷺ، فلم يمكنه أن يشكِّك في وضوح برهانها، ولا أن يجادل في صحة حقائقها، ولكنه سلك طريقة أخرى في المشاغبة، فقال: يا أيها المرءُ، إنه لا أحسنَ مما تقولُ إن كان حقًّا، فلا تؤذنا به في مجلسنا، ارجع إلى منزلك، فمَن جاءك فاقصصْ عليه[2].

(١) سباخًا: أي الأرض التي لا تنبت. ينظر: «فتح الباري» (٥/ ٢٩٨).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٥٦٦)، و«صحيح مسلم» (١٧٩٨).

وكان أسلوبًا فيه دسٌّ خبيث، وتشكيك في صدق الصادق المصدوق ﷺ، ولذا غضب عبدُ الله بن رواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لهذه المخاطبة السيِّئة لرسول الله ﷺ، وأقبل على رسول الله قائلاً: بلى يا رسولَ الله فاغشنا به في مجالسنا؛ فإنا نحب ذلك. وقال رجلٌ من الأنصار: والله لحمارُ رسول الله ﷺ أطيبُ ريحًا منك. وتراجعوا في الكلام حتى استبَّ المسلمون والمشركون واليهود وتثاوروا، وكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال، فجعل رسولُ الله ﷺ يُخَفِّضهم، ويسكِّنهم؛ ونلاحظ هنا أن النبي ﷺ لم ينضم إلى من غضبوا له من المسلمين فينحاز إليهم ضد المشركين، وإنما سكن الجميع لأنه يهدف إلى استقرار المجتمع وسكينته.

ثم إنه ﷺ بعد أن سكنهم مضى حتى ينزع فتيل النزاع، لأنه لو بقي لاستمر النزاع والخلاف، وكان هذا الموقف الراقي مما أضعف موقف المشركين وأحرجهم.

كما نلاحظ أنه ﷺ لم ينكر على المسلمين جلوسهم في هذا المجلس المختلط، ولم يطلب منهم مغادرته بعد أن غادره، وذلك لأن الخلطة واللقاء من أسباب التعايش والائتلاف وبقاء السلم المجتمعي.

وأحسب أن عبد الله بن أُبَيٍّ واليهود معه شعروا أن فرصة أفلتت منهم فقد كان مرادهم تصعيد الموقف حتى يحصل الاصطفاف بين الفريقين والتمايز بينهم، وهذا ما لم يمكنهم منه النبي ﷺ، بل سلك طريق الاحتواء والمداراة وحسن الصحبة بما يُبقِي على المجتمع أمنه وسلمه، فتنتشر الدعوة متجاوزة حواجز الخصومة والشحناء.

وحينما مات عبد الله بن أُبَيٍّ وكان ذلك في السنة التاسعة بعد فتح مكة ودينونة الجزيرة العربية كلها لرسول الله، تصرف ﷺ بسمو أخلاقي عجيب، قَالَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَتَى رَسُولُ الله ﷺ عَبْدَ الله بْنَ أُبَيٍّ بَعْدَ مَا أُدْخِلَ حُفْرَتَهُ فَأَمَرَ بِهِ، فَأُخْرِجَ، فَوَضَعَهُ عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَنَفَثَ عَلَيْهِ مِنْ رِيقِهِ، وَالبَسَهُ قَمِيصَهُ. وَكَانَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ قَمِيصَانِ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عَبْدِ الله: يَا رَسُولَ الله، البِسْ أَبِي قَمِيصَكَ الَّذِي يَلِي جِلْدَكَ[1].

(١) «صحيح البخاري» (١٣٥٠)، و«صحيح مسلم» (٢٧٧٣).

وفي هذا الموقف مواساةٌ لآل عبد الله بن أبي واحتواء لهم ولبقية قبيلته من الخزرج، وطي لصفحة عداوته مع شدتها ومرارتها.

ثانياً: تجنب ما يكدر السِّلم الاجتماعي:

١- كان ﷺ حريصاً على إطفاء أسباب الإثارة التي قد تكدر السِّلم الاجتماعي، وتحدث الوحشة في النفوس، وتهيؤ للانقسام داخل المجتمع ومن ذلك: ما ورد عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: سُحِرَ رَسُولُ الله ﷺ حَتَّى إِنَّهُ لَيُخَيَّلُ لَهُ أَنَّهُ يَفْعَلُ الشَّيْءَ وَمَا يَفْعَلُهُ، حَتَّى إِذَا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ وَهُوَ عِنْدَهَا دَعَا اللهَ عَزَّوَجَلَّ، وَدَعَاهُ، ثُمَّ قَالَ: «**أَشَعَرْتِ أَنَّ اللهَ أَفْتَانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ؟**». قُلْتُ: وَمَا ذَاكَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ ﷺ: «**جَاءَنِي رَجُلَانِ فَجَلَسَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي، وَالآخَرُ عِنْدَ رِجْلَيَّ ثُمَّ قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: مَا وَجَعُ الرَّجُلِ؟ قَالَ: مَطْبُوبٌ، قَالَ: مَنْ طَبَّهُ؟ قَالَ: لَبِيدُ بْنُ الأَعْصَمِ اليَهُودِيُّ، قَالَ: فِيمَا ذَا؟ قَالَ: فِي مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ، وَجُفِّ طَلْعَةِ ذَكَرٍ، قَالَ: فَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ: فِي بِئْرِ ذَرْوَانَ**». فَذَهَبَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى البِئْرِ، فَنَظَرَ إِلَيْهَا وَعَلَيْهَا نَخْلٌ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى عَائِشَةَ، فَقَالَ: «**وَالله لَكَأَنَّ مَاءَهَا نُقَاعَةُ الحِنَّاءِ، وَلَكَأَنَّ نَخْلَهَا رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ**». قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، فَأَحْرِقْهُ، قَالَ: «**لا، أَمَّا أَنَا فَقَدْ عَافَانِي اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وَخَشِيتُ أَنْ أُثَوِّرَ عَلَى النَّاسِ مِنْهُ شَرّاً**»[(١)]، قالت عائشة: فما ذكر ذلك لذلك اليهودي، ولا رآه في وجهه قط[(٢)]. فانظر إلى قوله: «**وَخَشِيتُ أَنْ أُثَوِّرَ عَلَى النَّاسِ مِنْهُ شَرّاً**». فإن هذا اليهودي من قبيلة من قبائل الأنصار وهم بنو زُرَيق وهو حليف ليهود وكان منافقا تظاهر بالإسلام، فأخذُه قد يسبب فتنة وإثارة يستغلها اليهود والمنافقون، بل إنه ﷺ لم يذكر ذلك لليهودي ولم تتغير معاملته له، إطفاء للفتنة، وحتى لا يتداعى الأمر ويتطور فيثير شراً.

٢- وعندما سرت مقالة الإفك، واتُّهمت الطاهرة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بالبهتان العظيم، وصار الناس يتحدثون بذلك، وزعيم المنافقين عبد الله بن أُبيّ ابن سلول يفشي هذه المقالة وينشرها، وكرب من ذلك الرسول ﷺ وأهل بيته، والصديق وأهل بيته، واشتد الكرب برسول الله ﷺ حتى قام في الناس خطيباً على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «**أَمَّا بَعْد، يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، مَنْ يَعْذِرُنَا مِنْ رَجُلٍ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي؟**

(١) «صحيح البخاري» (٥٧٦٣)، و«صحيح مسلم» (٢١٨٩).

(٢) «مسند أحمد» (١٩٢٦٧).

فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ مِنْ أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا صَالحًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا». فقام سعد بن معاذ فقال: أنا والله أعذرك منه، إن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك.

فقام سعد بن عبادة سيد الخزرج، وأخذته الحمية لقومه، فقال لسعد: كذبت لعمر الله، لا تقتله ولا تقدر على قتله. فقام أُسيد بن حضير، وهو ابن عم سعد بن معاذ، فقال: كذبت لعمر الله، لنقتلنه، ولكنك منافق تجادل عن المنافقين.

فتثاور الحيّان، الأوس والخزرج حتى همّوا أن يقتتلوا، وقال بعضهم لبعض: موعدكم الحَرّة، أي خارج المدينة للقتال، وكادت الثائرة أن تثور، والفتنة أن تطل برأسها، ورسول الله ﷺ على المنبر.

وإذا برسول الله ﷺ يتجاوز قضيته، ويكتم حزنه وفجيعته، وينشغل بدرء الفتنة وإعادة السِّلم، وجعل يخفّضهم ويومئ بيده إلى الناس ها وهنا، ونزل عن منبره إليهم حتى سكنوا وسكتوا[1].

لقد قام النبي ﷺ مكروبًا لأمر يخصه في أهل بيته، واتهامهم بأشنع تهمة هم منها براء، ولكن لما رأى بوادر الشقاق تجاوز قضيته الخاصة، وانشغل بالشأن العام، وهو السِّلم الاجتماعي، ودوام الألفة بين الأوس والخزرج، ولم يعد لإثارة هذه القضية مرة أخرى، وبقي كاظمًا غيظه، يعاني كمده وكَرْبَه، حتى جاءه الفرج من الله ببراءتها وحيًا يوحى، وقرآنًا يُتلى.

٣- وعندما قسم النبي ﷺ غنائم حنين أعطى زعماء قريش وهم حديثو عهد بعداوة النبي ﷺ وحربه عطايا كريمة جزلة، ولم يعط المهاجرين ولا الأنصار منها، فوجد بعض الأنصار في نفوسهم من ذلك وقالوا: يغفر الله لرسوله يعطي قريشًا وسيوفنا تقطر من دمائهم، فجَمَعَ رَسُولُ الله ﷺ الأَنْصَارَ، فَقَالَ: **«أَفِيكُمْ أَحَدٌ مِنْ غَيْرِكُمْ؟»**. فَقَالُوا: لَا، إِلَّا ابْنُ أُخْتٍ لَنَا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«إِنَّ ابْنَ أُخْتِ القَوْمِ مِنْهُمْ»**. ثم خطبهم فَقَالَ: **«إِنَّ قُرَيْشًا حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ وَمُصِيبَةٍ، وَإِنِّي أَرَدْتُ أَنْ أَجْبُرَهُمْ وَأَتَأَلَّفَهُمْ، أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَرْجِعَ النَّاسُ بِالدُّنْيَا،**

(١) «صحيح البخاري» (٤٧٥٠).

وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ الله إِلَى بُيُوتِكُمْ؟ لَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِيًا، وَسَلَكَ الأَنْصَارُ شِعْبًا، لَسَلَكْتُ شِعْبَ الأَنْصَارِ»[1]، وهنا نلاحظ أنه عالج الجراح النفسية عند قريش بالعطاء الجزل الدال على الإكرام، واسترضى الأنصار ولم يدع هذا الشعور بالإيثار عليهم يكبر في نفوسهم، وقد تأثروا بكلامه وبكوا بين يديه، ورجعوا أغبط ما يكونون بمكانتهم عنده ﷺ، وكل ذلك محافظة على وئام المجتمع وسلمه.

٤- وعن عَائِشَةَ، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«يَا عَائِشَةُ، لَوْلَا أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُو عَهْدٍ بِشِرْكٍ، لَهَدَمْتُ الكَعْبَةَ، فَالزَقْتُهَا بِالأَرْضِ، وَجَعَلْتُ لَهَا بَابَيْنِ: بَابًا شَرْقِيًّا، وَبَابًا غَرْبِيًّا، وَزِدْتُ فِيهَا سِتَّةَ أَذْرُعٍ مِنَ الحِجْرِ، فَإِنَّ قُرَيْشًا اقْتَصَرَتْهَا حَيْثُ بَنَتِ الكَعْبَةَ»**[2].

إن النبي ﷺ قال ذلك بعد أن فتح مكة واستمكن له الأمر فصار هو القائد المطاع في الجزيرة، ولو فعل ذلك ما استطاع أحد أن يرد عليه أمره، ولكنه آثر سكينة النفوس حتى لا يحدث فيها نفرةً واستنكاراً لهذا الفعل، فقدم سلم المجتمع على رغبته بإعادة بناء الكعبة على قواعد أبيه إبراهيم؛ لأن بناء الدين وسلم المجتمع أهم من بناء الكعبة.

ثالثاً: معالجة المواقف المثيرة للنزاع:

تحدث أحيانا مواقف قد تكون سبب إثارة أو فتنة وقد تتطور إلى شقاق ونزاع واحتراب، ولذا كان ﷺ يبادر إلى احتوائها، ومعالجة تلك المواقف بما يحتوي تداعياتها، ويهدئ من ثائراتها وتأثيرها، ومن ذلك:

١- في غزوة بني المصطلق قال عبد الله بن أبي: لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ، ويعني بالأعز نفسه وبالأذل رسول ﷺ، وبلغ ذلك النبي ﷺ، وخشي ﷺ أن تفشو مقالته في الجيش فأمر بالسير في ساعة ما كان يسير فيها، ثم أشغلهم بالسرى ليلا، حتى لم يكن شيء أحب إليهم من أن يلقوا بأنفسهم إلى الأرض، وعندما أتاه عمر فقال: يا رسول الله دعني أضرب عنقه. قال ﷺ: **«لَا يَتَحَدَّثُ النَاسُ أَنَّ مُحَمَدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»**[3]،

(١) «صحيح مسلم» (١٠٥٩).
(٢) «صحيح البخاري» (١٥٨٥)، و«صحيح مسلم» (١٣٣٣).
(٣) «صحيح البخاري» (٣٥١٨)، و«صحيح مسلم» (٢٥٨٤).

وعندما خشي ابنه عبد الله أن يأمر النبي ﷺ بقتل أبيه جاء إلى النبي ﷺ فقال له: يَا رَسُولَ الله، إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكَ تُرِيدُ قَتْلَ عَبْدِ الله بْنِ أُبَيٍّ فِيمَا بَلَغَكَ عَنْهُ، فَإِنْ كُنْتَ لَا بُدَّ فَاعِلاً فَمُرْنِي بِهِ، فَأَنَا أَحْمِلُ إِلَيْكَ رَأسه، فوالله لَقَدْ عَلِمَتْ الخَزْرَجُ مَا كَانَ لَهَا مِنْ رَجُلٍ أَبَرَّ بِوَالِدِهِ مِنِّي، وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ تَأْمُرَ بِهِ غَيْرِي فَيَقْتُلَهُ، فَلَا تَدَعُنِي نَفْسِي أَنْظُرُ إِلَى قَاتِلِ عَبْدِ الله بْنِ أُبَيٍّ يَمْشِي فِي النَّاسِ، فَأَقْتُلَهُ فَأَقْتُلَ رَجُلاً مُؤْمِنًا بِكَافِرٍ، فَأَدْخُلَ النَّارَ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«بَلْ نَتَرَفَّقُ بِهِ، وَنُحْسِنُ صُحْبَتَهُ مَا بَقِيَ مَعَنَا»**(١).

فانظر كيف أشغل ﷺ الناس بالسرى عن الخوض في هذا الحديث والانشغال به، ثم كيف راعى تداعيات الحدث لو قُتِل وماذا سيقول الناس نتيجة ذلك، ثم انظر ترفقه بابنه عبد الله وكيف لم يقل: بل ندعه، بل قال: «**نَتَرَفَّقُ بِهِ، وَنُحْسِنُ صُحْبَتَهُ**».

٢- ومن ذلك أن رسول الله ﷺ جعل راية الأنصار يوم فتح مكة مع سعد بن عبادة فمرَّ سعد بأبي سفيان فقال له: يَا أَبَا سُفْيَانَ، اليَوْمَ يَوْمُ المَلْحَمَةِ، اليَوْمَ تُسْتَحَلُّ الكَعْبَةُ، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: يَا عَبَّاسُ حَبَّذَا يَوْمُ الذِّمَارِ، ثُمَّ جَاءَتْ كَتِيبَةٌ، وَهِيَ أَقَلُّ الكَتَائِبِ، فِيهِمْ رَسُولُ الله ﷺ وَأَصْحَابُهُ، وَرَايَةُ النَّبِيِّ ﷺ مَعَ الزُّبَيْرِ بْنِ العَوَّامِ، فَلَمَّا مَرَّ رَسُولُ الله ﷺ بِأَبِي سُفْيَانَ قَالَ: أَلَمْ تَعْلَمْ مَا قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ؟ قَالَ: «**مَا قَالَ؟**». قَالَ: كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ: «**كَذَبَ سَعْدٌ، وَلَكِنْ هَذَا يَوْمٌ يُعَظِّمُ اللهُ فِيهِ الكَعْبَةَ، وَيَوْمٌ تُكْسَى فِيهِ الكَعْبَةُ**»(٢)، ثُمَّ أَرْسَلَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى سَعْدِ بنِ عُبَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فنَزَعَ الرَّايَةَ مِنْ يَدِهِ وَجَعَلَهَا بِيَدِ ابْنِهِ قَيْسٍ(٣)، وبهذا راعى النبي ﷺ مشاعر قريش وقائدَها أبا سفيان عندما لم يقر سعداً على كلمته الجارحة لمشاعر قريش، ونزع الراية منه، ولم يثر الأنصار وزعيمهم سعداً الذي نزعت الراية منه لأنها دفعت لابنه فهي لم تخرج عنه.

رابعاً: الوقاية من أسباب الشقاق المجتمعي:

فقد كان ﷺ ينهى عن كل ما يثير الفتن ويحدث الشقاق داخل المجتمع، ومن ذلك التفاخر القبلي الذي كان إرثًا جاهليًا، وتقليداً راسخًا في المجتمع العربي حينها.

(١) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٢٩٢).
(٢) «صحيح البخاري» (٤٢٨٠).
(٣) «فتح الباري» (٨/ ٩).

فنهى عنه وحذَّرَ منه، لأنه سبب لتشطير المجتمع، وتفرقه إلى فئات متنافسة، ومنفذٌ للنعرات والأحقاد، ووحشة النفوس بدلا من ائتلافها وتعاونها، ومن ذلك:

١- قوله ﷺ: «**أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ، لَا يَتْرُكُونَهُنَّ: الفَخْرُ فِي الأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الأَنْسَابِ، وَالاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ**»[١]، وذلك أن التفاخر في الأحساب هو نوع من ادعاء الأفضلية، والتعالي على الآخرين وهذا من أكبر أسباب الشقاق المجتمعي، والتنافر بين فئات المجتمع وتمايز قبائله، وكذا الطعن في الأنساب سبب للتنافر والإحن؛ ولذا حذر منه ﷺ هذا التحذير البليغ حيث جعله من أمر الجاهلية وشأنها.

٢- وعن جَابِر بْن عَبْدِ الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كُنَّا فِي غَزَاةٍ فَكَسَع[٢] رَجُلٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ، رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: يَا لَلْأَنْصَارِ، وَقَالَ المُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَسَمِعَ ذَلِكَ رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ: «**مَا بَالُ دَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ؟!**». قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَالَ: «**دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ**»[٣].

فانظر كيف أنكر ﷺ التنادي بيَا لَلْأَنْصَارِ، مقابل يَا لَلْمُهَاجِرِينَ مع أنهما، اسمان شرعيان شريفان، ولكن التداعي بهما للتحيز والاصطفاف نقل الفعل إلى تداعي الجاهلية، ولذا حذر منه ﷺ بأبلغ تحذير حين قال: «**دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ**».

٣- وبيَّن ﷺ أن التحريش بينهم وإثارة النزاعات والفتن هي أمنية الشيطان ودأبه الذي لا ييأس من السعي فيه بينهم فقال ﷺ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ المُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ العَرَبِ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ**»[٤].

٤- ومن ذلك نهيه عن سبِّ الأموات ولو كانوا كفاراً لما يثيره في نفوس الأحياء من التنافر، فقال لأصحابه بعد فتح مكة: «**يَأْتِيكُمْ عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ مُؤْمِنًا مُهَاجِراً، فَلَا تَسُبُّوا أَبَاهُ، فَإِنَّ سَبَّ المَيِّتِ يُؤْذِي الحَيَّ، وَلَا يَبْلُغُ المَيِّتَ**»[٥].

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٨٥٠)، و«صحيح مسلم» (٩٣٤).

(٢) كسعه: أَيْ ضَرَب دُبُرَه بيَده. ينظر: «النهاية» (٤/ ١٧٣).

(٣) «صحيح البخاري» (٤٩٠٥)، و«صحيح مسلم» (٢٥٨٤).

(٤) «صحيح مسلم» (٢٨١٢).

(٥) «المستدرك» (٥٠٥٥).

٥- وكذا النهي عن أسباب الخلاف فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ، وَلَا تَحَسَّسُوا، وَلَا تَجَسَّسُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا**»(١).

خامساً: تأهيل المجتمع بأسباب التآلف والوئام المجتمعي:

فرغب ﷺ بأخلاق كريمة جميلة، تزيد الألفة، وترفع الشحناء، وتنشر التواد والمحبة في المجتمع في أحاديث كثيرة، منها:

١- عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**حَقُّ المُسْلِمِ عَلَى المُسْلِمِ خَمْسٌ: رَدُّ السَّلَامِ، وَعِيَادَةُ المَرِيضِ، وَاتِّبَاعُ الجَنَائِزِ، وَإِجَابَةُ الدَّعْوَةِ، وَتَشْمِيتُ العَاطِسِ**»(٢)، وهذه الخصال من أسباب التآلف وإشاعة السلام المجتمعي.

٢- وعنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**كُلُّ سُلَامَى(٣) عَلَيْهِ صَدَقَةٌ كُلَّ يَوْمٍ، يُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ، يُحَامِلُهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَرْفَعُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ، وَكُلُّ خَطْوَةٍ يَمْشِيهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ، وَدَلُّ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ**»(٤).

٣- وعنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَا تَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ**»(٥).

٤- وعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ، وَأَمْرُكَ بِالمَعْرُوفِ وَنَهْيُكَ عَنِ المُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَإِرْشَادُكَ الرَّجُلَ فِي أَرْضِ الضَّلَالِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَبَصَرُكَ لِلرَّجُلِ الرَّدِيءِ البَصَرِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَإِمَاطَتُكَ الحَجَرَ وَالشَّوْكَةَ وَالعَظْمَ عَنِ الطَّرِيقِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَإِفْرَاغُكَ مِنْ دَلْوِكَ فِي دَلْوِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ**»(٦).

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٠٦٤)، و«صحيح مسلم» (٢٥٦٣).

(٢) «صحيح البخاري» (٢١٦٢)، و«صحيح مسلم» (١٢٤٠).

(٣) السُّلَامَى: جَمْعُ سُلَامَيَة وَهِيَ الْأُنْمُلَة مِنْ أَنَامِلِ الْأَصَابِعِ. ينظر: «النهاية» (٢/ ٣٩٦).

(٤) «صحيح البخاري» (٢٨٩١)، و«صحيح مسلم» (٧٢٠).

(٥) «صحيح مسلم» (٥٤).

(٦) «جامع الترمذي» (١٩٥٦).

فالتبسُّم، وإفشاء السلام، والكلمة الطيبة، وعيادة المريض، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس، وصلاة الجماعة، والتعاون ولو بالأشياء اليسيرة كالإفراغ في دلو صاحبك، كل ذلك مما ينشر الود والتحاب في المجتمع، ويجعله مجتمع سلم ومحبة.

سادساً: التحذير من مفارقة الجماعة العامة:

حذر ﷺ من كل ما يشتت جماعة المسلمين ويضعف لحمتهم، ويتسبب في تفرقهم واحترابهم، ولذا أمر بلزوم الجماعة ونهى عن الفرقة، فقال ﷺ: «**ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ**[1] **عَلَيْهِنَّ صَدْرُ مُسْلِمٍ: إِخْلَاصُ العَمَلِ لله، وَمُنَاصَحَةُ أُولِي الأَمْرِ، وَلُزُومُ جَمَاعَةِ المُسْلِمِينَ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ**»[2]، فأمر بطاعة ولي الأمر وفي روايةٍ مناصحة ولي الأمر، وبلزوم جماعة المسلمين وعدم الافتراق عنهم.

وجاءت الأحاديث بوجوب السمع والطاعة لولي الأمر، وتحريم الخروج عليه لما يترتب على ذلك من احتراب داخل المجتمع، وتفتت لحمته، وتفرق جماعته، وإثارة للفتن الداخلية فيه. فقال ﷺ: «**اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَإِنِ اسْتُعْمِلَ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ**»[3].

وقال: «**إِنَّهُ سَيَكُونُ بَعْدِي هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ، فَمَنْ رَأَيْتُمُوهُ فَارَقَ الجَمَاعَةَ أَوْ يُرِيدُ أَنْ يُفَرِّقَ أَمْرَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ كَائِنًا مَنْ كَانَ فَاقْتُلُوهُ، فَإِنَّ يَدَ الله عَلَى الجَمَاعَةِ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ مَنْ فَارَقَ الجَمَاعَةَ يَرْكُضُ**»[4].

وذلك أن سلم المجتمع وأمنه في وحدته، وتمكن الولاية والحكم فيه، وباختلال الوحدة تحصل الفرقة، وبضعف الولاية تحصل الفوضى والفتنة.

---

(١) يُغِلّ من الإغلال، أي الخيانة، وروي: يَغلّ، من الغل وهو الحقد، والمعنى: أن هذه الخلال تستصلح بها القلوب، فمن تمسك بها طهر قلبه من الخيانة والشر. ينظر: «النهاية» (٣/ ٣٨١).

(٢) «مسند أحمد» (١٣٣٥٠)، و«سنن ابن ماجه» (٢٣١).

(٣) «صحيح البخاري» (٦٩٣).

(٤) «السنن الكبرى» للنسائي (٣٤٦٩).

خلاصات:

١- السلم الاجتماعي هو مناخ الدعوة، وبلاغ الدين.

٢- كان ﷺ يحافظ على سلم المجتمع ووحدته، وبقاء اجتماعه وألفته.

٣- كان يعالج المواقف المثيرة للنزاع بما يهدئ ثائرتها ويحتوي تأثيرها وتداعياتها.

٤- كان ﷺ يتجنب أسباب الإثارة التي تشوش السلم الاجتماعي وتثير سكينته.

٥- كان يحذر أمته من أسباب الشقاق والخلاف المجتمعي، ومثيرات الفرقة والخلاف.

٦- كان يحض على الأخلاق الاجتماعية التي تحقق الوئام المجتمعي، وتعمق المحبة والتآلف.

الرسول ﷺ والسياسة الخارجية

١- كان كثيرٌ ممن يعيش في نواحي جزيرة العرب قليلي التواصل مع السياسة الدولية، لبعد الجزيرة عن عواصم الإمبراطوريات ونفوذها، ولأن الحكم فيها لم يكن حكما إمبراطوريا، ولكنه حكم عشائري قبلي.

ولكن قريشـًا تميزت بتواصلهم الدولي، فقد كانت مكة بلداً اقتصاديّـًا متصلاً بالعالم ومتفاعلاً مع التحركات الدولية، ولأهلها وفادات على ملوك الروم والفرس والحبشة، ورحلات تجارية إلى هذه الدول واتفاقيات معهم.

٢- سافر ﷺ إلى الشام مرتين تعرَّف خلالها على الدول العظمى، والإمبراطوريات التي كانت تختلف في نظام حكمها عن نظام الحكم القبلي العشائري السائد في مكة وأكثر الجزيرة العربية، وصار لديه تصور مُشَاهَد عن الحال السياسية في الإمبراطورية الرومانية وما يتبعها من بلاد العرب الشمالية، ومن ينافسها من الشرق وهي الإمبراطورية الفارسية.

٣- لم تكن الجماعة المسلمة في مكة تشكل كيانـًا سياسيـًا ولا زعامة قبلية، ولذا كان التواصل السياسي بالمحيط الخارجي محدوداً، فكان الاتصال بملك الحبشة النجاشي في السنة الخامسة من البعثة لإيواء المهاجرين إليه، ثم كانت الهجرة الثانية إلى الحبشة في السنة السابعة من البعثة، ثم كانت بيعة العقبة الثانية من الأنصار لرسول الله ﷺ على الهجرة إلى المدينة وإيوائه ونصرته، وهي أهم بيعة واتفاقية في تاريخ البشرية، وبها تغير مسار التاريخ واتجاه أحداثه، ولا تزال آثارها ممتدة إلى اليوم وإلى يوم الدين، وبها تحول الدين من دعوة إلى دولة، ومن جماعة إلى مجتمع تتمثل فيه تعاليم الدين وأحكامه.

ثم بعد الهجرة تم الاتفاق بين النبي ﷺ والقبائل اليهودية المقيمة في المدينة على التعايش فيما بينهم والتناصر على عدوهم، وهي تشبه اتفاقية الدفاع المشترك.

ثم عاهد ﷺ القبائل التي كانت حول المدينة مثل جهينة وغفار وبنو ضمرة بما يشبه اتفاقية عدم اعتداء.

ثم كانت أهم معاهدة سياسية بعد الهجرة هي معاهدة الحديبية مع قريش، وهي الهدنة التي سماها الله فتحاً مبيناً، وبهذه المعاهدة قويت الجبهة الداخلية وامتدت العلاقات الخارجية.

٤ - في السنة السابعة من الهجرة، وبعد أن تم تأمين الجبهة الداخلية بصلح الحديبية أرسل النبي ﷺ رسائله إلى الدول العظمى في آسيا وأوروبا وإفريقيا، فأرسل رسالة إلى كسرى فارس، وقيصر الروم، وعظيم القبط في الإسكندرية، وكاتب الملوك والأمراء التابعين لهم مباشرة، فكاتب ملوك الحبشة والبحرين وعمان واليمن ونجران واليمامة وحضرموت وأيلة وغيرهم، فمنهم من أجاب فأفلح ومنهم من أدبر فهلك[(١)].

وفي كتبه ﷺ إلى الملوك نلاحظ الجمع بين التبشير والإنذار، وأنها دعوة إلى الإسلام وليس إلى الملك ولا التبعية، فعن أبي سفيان بن حرب قال: دعا هرقل بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به مع دحية إلى عظيم بصرى، فدفعه إلى هرقل، فقرأه، فإذا فيه: «**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ: سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الهُدَى، أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلَامِ أَسْلِمْ تَسْلَمْ، أَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَعَلَيْكَ إِثْمُ الأَرِيسِيِّينَ وَ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾** [آل عمران: ٦٤»][(٢)].

وفي كتابه إلى هوذة بن علي الحنفي ملك اليمامة قال: «**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ إِلَى هَوْذَةَ بْنِ عَلِيٍّ، سَلَامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى، وَاعْلَمْ أَنَّ دِينِي سَيَظْهَرُ إِلَى مُنْتَهَى الخُفِّ وَالحَافِرِ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، وَأَجْعَلُ لَكَ مَا تَحْتَ يَدَيْكَ**»[(٣)].

(١) باختصار من «مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشد» لمحمد حميد الله (٢٦، ٢٧).

(٢) «صحيح البخاري» (٧)، و«صحيح مسلم» (١٧٧٣).

(٣) «الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء» للكلائي (٢/ ٢٠).

والتخاطب مع الملوك من ملكٍ أو زعيم له معاييره، كما فعل نبي الله سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ مع ملكة سبأ حين كاتبها: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٠، ٣١].

ولذا نجد في خطابات النبي ﷺ التي نقلت لنا القوة والوثوق، والبشارة والإنذار، ووضوح الرسالة وجلاءها.

٥- وكان ﷺ مراعيًا للعرف العالمي والذي يشبه الاتفاقيات الدولية، مثل أن الرسل لا تقتل، فعن نعيم بن مسعود الأشجعي قال: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ لرسولي مسيلمة حِينَ قَرَآ كِتَابَه: «**مَا تَقُولَانِ أَنْتُمَا؟**». قَالَا: نَقُولُ كَمَا قَالَ. قَالَ: «**أَمَا وَالله لَوْلَا أَنَّ الرُّسُلَ لَا تُقْتَلُ لَضَرَبْتُ أَعْنَاقَكُمَا**»[(١)].

وراعى العرف الدولي في المكاتبة وهو أن تكون كتب المراسلات مختومة، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: كَتَبَ النَّبِيُّ ﷺ كِتَابًا -أَوْ أَرَادَ أَنْ يَكْتُبَ- فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهُمْ لَا يَقْرَؤُونَ كِتَابًا إِلَّا مَخْتُومًا. فَاتَّخَذَ خَاتَمًا مِنْ فِضَّةٍ نَقْشُهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله[(٢)].

٦- التعاون الدولي في مساحة الحق المشترك والمتفق عليه؛ فقال ﷺ عن قريش في الحديبية: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ الله إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا**»[(٣)].

وقال ﷺ: «**لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ الله بْنِ جُدْعَانَ حِلْفًا لَوْ دُعِيتُ بِهِ فِي الإِسْلَامِ لَأَجَبْتُ**»[(٤)]، ولاحظ أنه قال: «**لَوْ دُعِيتُ**»، ولم يقل: لو دعوت، فهو سيستجيب لكل دعوة مما يحقق التعاون فيها خيراً وبراً، وإن كان الداعي لها دولة أخرى مخالفة له دينًا.

٧- مع انتهاجه ﷺ الدعوة بالتي هي أحسن، واختيار اللين في القول فإنه عند المواجهة يأخذ جانب الحزم والقوة، كما صنع مع اليهود عندما غدروا، وكما صنع مع قريش حينما نقضت صلح الحديبية، ومن ذلك إرساله الجيش إلى مؤتة لما قتل رسوله إلى الشام.

---

(١) «سنن أبي داود» (٢٧٦١).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٥)، و«صحيح مسلم» (٢٠٩٢).

(٣) «صحيح البخاري» (٢٧٣١).

(٤) «البداية والنهاية» (٢/ ٦٩٢).

ولما سمع المسلمون أن غسان تُنعِل الخيل لغزو رسول الله ﷺ عاجلهم ﷺ فسار بالجيش إلى تبوك وهي أكثر من نصف المسافة إلى الشام، ومعه أكثر جيش جمعه ﷺ لغزوة، وأبعد مسافة سافرها ﷺ بعد النبوة، فلما وصل تبوك تراجعت غسان وحلفاؤها الروم فلم تقدم عليه فأجرى اتفاقيات استكمل بها فتح شمال الجزيرة مع أكيدر دومة الجندل، ويوحنا بن رؤبة ملك أيلة، وبذلك انفسحت الدولة إلى شمال الجزيرة فصارت متاخمة لحدود دولة الروم، فإن أيلة «**العقبة**» هي حد الحجاز عن الشام[1].

وقبل وفاته ﷺ جهَّز جيش أسامة للثأر لشهداء مؤتة فتوفي ﷺ قبل أن يسير أسامة، فسيّره أبو بكر.

وكأنما كانت هذه الغزوات الثلاث إعداداً للمسلمين وتهيئة لهم لفتح الشام بعد ذلك.

٨- وكانت السياسة الخارجية النبوية مؤسسة على المبادئ والقيم الشرعية، في حين كانت العلاقات بين الدول تقوم على الاحتراب والاستلاب، والتَّشفِّي والانتقام، ولذا جاءت الشريعة بالتعاون في المساحة المشتركة من الخير والتعاون على البر والفضل، وبحماية الحرية الدينية: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ومع حرص النبي ﷺ على هداية الناس واجتهاده في دعوتهم إلا أنه لم يُكره أحداً على دين، ولا يصح دين مع إكراه.

وعندما أتاه غورث بن الحارث فأشهر عليه السيف وقال: من يمنعك مني يا محمد؟ فقال ﷺ بوثوق: «**الله**». فسقط السيف من يده فأخذه النبي ﷺ وقال: «**مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟**». قال: كن خير آخذ، قال: «**أَتَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ الله**»؟ قال: لا، ولكن لا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك، فخلى سبيله[2].

فهنا نرى أن النبي ﷺ لم يكرهه على الدين واكتفى منه بالكف عن العدوان.

(١) «معجم البلدان» (١/ ٢٩٢).

(٢) «صحيح مسلم» (٨٤٣).

٩- كما راعى ﷺ تعظيم العقود والاتفاقيات وأكد على الوفاء بها، عملا بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ اليَمَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: مَا مَنَعَنَا أَنْ نَشْهَدَ بَدْراً إِلا أَنِّي وأَبِي أقبلنا نُرِيدُ رَسُولَ الله ﷺ، فَأَخَذَتنَا كُفَّارُ قُرَيْشٍ، فَقَالُوا: إِنَّكُمْ تُرِيدُونَ مُحَمَّداً، فَقُلْنَا: مَا نُرِيدُهُ إِنَّمَا نُرِيدُ المَدِينَةَ، فَأَخَذُوا عَلَيْنَا عَهْدَ الله وَمِيثَاقَهُ، لَتصيرون إِلَى المَدِينَةِ، وَلا تُقَاتِلُوا مَعَ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَلَمَّا جَاوَزْنَاهُمْ أَتَيْنَا رَسُولَ الله ﷺ، فَذَكَرْنَا لَهُ مَا قَالُوا وَمَا قُلْنَا لَهُمْ، فَمَا تَرَى؟ فَقَالَ: «**نَسْتَعِينُ اللهَ عليهم ونَفْي بِعَهْدِهِمْ**»(١).

وبعد صلح الحديبية رجع النبي ﷺ إلى المدينة فَجَاءَهُ أَبُو بَصِيرٍ -رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ- وَهْوَ مُسْلِمٌ، فَأَرْسَلُوا فِي طَلَبِهِ رَجُلَيْنِ، فَقَالُوا: العَهْدَ الَّذِي جَعَلْتَ لَنَا. فَدَفَعَهُ إِلَى الرَّجُلَيْنِ، فَخَرَجَا بِهِ...(٢).

وعن بريدة، قال: كان رسول الله ﷺ، إذا أمّر أميراً على جيش أو سرية، أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: «**اغْزُوا بِاسْمِ الله، وَفِي سَبِيلِ الله، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِالله، اغْزُوا وَلا تَغْدِرُوا، وَلا تَغُلُّوا، وَلا تُمَثِّلُوا**»(٣).

(١) «المستدرك» (٤٩٠٨).
(٢) «صحيح البخاري» (٢٧٣١).
(٣) «صحيح مسلم» (١٧٣١).

خلاصات:

١- تميزت قبيلة قريش على كثير من القبائل بتواصلها الدولي واتفاقياتها التجارية مع الدول العظمى، مما أعطى تصوراً للسياسة الدولية العالمية حينها لدى القرشيين.

٢- سافر ﷺ إلى الشام مرتين، اطلع من خلالهما على واقع الحكم الإمبراطوري المختلف عن الحكم العشائري في مكة.

٣- بدأ التواصل السياسي للجماعة الإسلامية في مكة بالهجرة إلى الحبشة، ثم بالتواصل مع الوفود القادمة في المواسم.

٤- بعد الهجرة تمت المعاهدات بين المسلمين كدولة مع القبائل اليهودية في المدينة، ومع القبائل المحيطة بالمدينة.

٥- كانت أهم اتفاقية سياسية قبل الهجرة هي بيعة العقبة الثانية، وأهم اتفاقية سياسية بعد الهجرة هي صلح الحديبية والتي سماها الله فتحاً مبيناً.

٦- بعد صلح الحديبية أرسل النبي ﷺ إلى الملوك والزعماء داخل الجزيرة وخارجها، ومنهم: كسرى وقيصر والمقوقس وغيرهم.

٧- كان ﷺ يراعي العرف العالمي والذي يشبه الاتفاقيات الدولية.

٨- كان ﷺ يحرص على التعاون الدولي في ساحة الحق المشترك، والخير المتفق عليه.

٩- مع انتهاجه ﷺ الرفق في الدعوة، واللِّين في القول، إلا أنه عند المواجهة يأخذ جانب الحزم والقوة، كما تعامل مع غدر يهود، ونقض قريش الصلح.

١٠- كانت السياسة النبوية مؤسسة على المبادئ والقيم الشرعية، في حين كانت العلاقات السياسية تقوم على الاحتراب والتشفِّي والانتقام.

١١- كما راعى ﷺ تعظيم العقود والاتفاقيات وأكد على الوفاء بها.

الرسول ﷺ والمستقبل

١- جاءت آيات القرآن الكريم مؤكدة عدم علم النبي ﷺ بغيوب المستقبل، وتبرئته من ادعائها: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ [الأنعام: ٥٠]، ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].

ولذا فما أخبر به ﷺ من غيوب المستقبل فليس إلا وحياً أوحاه الله إليه، وغيباً خاصاً أطلعه الله عليه كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

فالغيوب المستقبلية التي أخبر بها ﷺ ما وقع منها وما لم يقع هي غيب خاص مستثنى من عموم ما استأثر الله بعلمه، أطلع الله رسوله عليه لحكمة خاصة، تثبيتاً وبشارة، أو تحذيراً ونذارة، ومنها إخباره ببشائر ظهور الدين والفتوح المستقبلية، أو إخباره بنذر الفتن وأشراط الساعة.

وليس في هذه الغيوب ما يختار النبي ﷺ الاطلاع عليه، ولكن الله يكشف له من الغيوب المستقبلية ما فيه حكمة خاصة، ولذا تأخر الوحي عنه في حادثة الإفك مع ألم الموقف وشدته وكربه لحكم منها: إظهار أن النبي ﷺ لا يعلم الغيب، ولا يتلقى الوحي إلا بأمر الله؛ ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٦٤].

وفي أخبار السيرة أن ناقة النبي ﷺ فُقِدت في طريق رجوعه من غزوة تبوك فقال أحد المنافقين: يزعمُ مُحَمَّدٌ أَنَّهُ يَأْتِيهِ خبرُ السَّمَاءِ وَهُوَ لَا يَدْرِي أَيْنَ نَاقَتُهُ! فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ وَجَاءَهُ الخَبَرُ بِمَا قَالَ عدوُّ الله فِي رَحْلِهِ، ودَلَّ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رسولَه ﷺ عَلَى نَاقَتِهِ: «**إِنَّ قَائِلاً قَالَ: يزعمُ مُحَمَّدٌ أَنَّهُ يَأْتِيهِ خَبَرُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْرِي أَيْنَ نَاقَتُهُ، وَإِنِّي وَالله مَا أَعْلَمُ إِلَّا مَا عَلَّمني اللهُ، وَقَدْ دَلَّنِي اللهُ عَلَيْهَا، فَهِيَ فِي هَذَا الشِّعْب، قَدْ حَبَسَتْهَا شَجَرَةٌ بزمامِها**». فَذَهَبَ رِجَالٌ مِنْ المُسْلِمِينَ، فَوَجَدُوهَا حَيْثُ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ وَكَمَا وَصَفَ[1].

وكما أخبر ﷺ بالغيوب التي أوحاها الله إليه، فقد حذر من دعاوى علم الغيب، ادّعاء أو تصديقًا وكان ذلك فاشيًا عند العرب على أيدي الكهان والمنجمين والعيافة الذين يزجرون الطير فقال: «**إِنَّ العِيَافَةَ، وَالطَّرْقَ، وَالطِّيَرَةَ مِنَ الجِبْتِ**»[2]، وقال: «**مَنْ أَتَى كَاهِنًا، أَوْ عَرَّافًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ**»[3].

٢- جاءت أخباره ﷺ عن الغيوب المستقبلية بنصر الإسلام وظهوره في أحلك الظروف وأكثرها شدة، فهو في مكة ومعه القلة المستضعفة المضطهدة تشكو إليه الشدة والجهد فيقول: «**وَالله لَيُتِمَّنَّ اللهُ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مَا بَيْنَ صَنْعَاءَ وَحَضْرَمُوتَ مَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ تَعَالَى، وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَعْجَلُونَ**»[4].

وينزل عليه وهو في مكة وقريش في غلوائها وعنفوان زعامتها: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥]، وإخباره ﷺ عن فتح قصور الشام وفارس وصنعاء كان في ساعة الشدة والكرب في معركة الأحزاب حتى قال المنافقون: يعدنا بقصور الشام وفارس وأحدنا لا يستطيع أن يذهب إلى الخلاء لقضاء الحاجة، أما المؤمنون فقالوا: موعود صادق[5].

---

(١) «سيرة ابن هشام» (٢/ ١٢٥).

(٢) «مسند أحمد» (٢٠٦٠٤). والعيافة: زَجْر الطَّير والتَّفَاؤُل بأسْمائِها وأصْوَاتها ومَمرَّها، والطَّرق: الضَّرب بالحَصَا الَّذِي يَفْعله النِّسَاءُ. وَقِيلَ هُوَ الخطُّ فِي الرَّمْل. ينظر: «النهاية» (٣/ ١٢١) (٣/ ٣٣٠).

(٣) «مسند أحمد» (٩٥٣٦).

(٤) «سنن أبي داود» (٢٦٤٩).

(٥) «تفسير الطبري» (١٩/ ٣٩).

وفي هذه معجزة نبوية لأنه ﷺ يخبر بنتيجة لم تظهر أي من أماراتها ومقدماتها، وهي غلبة الدين وظهوره، بل النظرة العاجلة السطحية تدل على عكس ذلك، فأن يحدث به بيقين ووثوق فهذا من دلائل النبوة، ثم صَدَقَه الله وعده، ورأى هو أو رأى أصحابه ما بَشَّر به.

كما أن فيها تثبيتاً لقلبه ﷺ، وتثبيتاً ليقين أصحابه يجدون بها روح البشائر في ساعات الكرب والشدة.

٣- ما أخبر به وقع كثير منه في حياته، فقوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥]، وقعت في بدر، فعن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ، وَهُوَ فِي قُبَّةٍ: «**اللهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ**». فَأَخَذَ أَبُو بَكْرٍ بِيَدِهِ، فَقَالَ: حَسْبُكَ يَا رَسُولَ الله، فَقَدْ الحَحْتَ عَلَى رَبِّكَ وَهُوَ فِي الدِّرْعِ، فَخَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٥، ٤٦][(١)].

وقوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [النصر: ١، ٢]، وقع في حياته وسمى العام التاسع من الهجرة عام الوفود لكثرة وفود القبائل التي جاءت تبايع وتعلن إسلامها ودخولها في دين الله.

وقوله لعمرو بن عبسة حين جاءه في مكة فقال: إِنِّي مُتَّبِعُكَ، قَالَ: «**إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ يَوْمَكَ هَذَا، أَلَا تَرَى حَالِي وَحَالَ النَّاسِ، وَلَكِنِ ارْجِعْ إِلَى أَهْلِكَ فَإِذَا سَمِعْتَ بِي قَدْ ظَهَرْتُ فَأْتِنِي**»[(٢)]، قالها لهم وهو في مكة وقد لقي هو والمسلمون شدة وكرباً، ومع ذلك يعدهم إلى أمد وهو الظهور الذي أدركوه ولحقوا به عنده.

وقوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم: ٢، ٣]، نزلت عليه والروم قد هزموا هزيمةً ساحقة ماحقة حتى بلغ الحصار عاصمتهم القسطنطينية، وكل المؤشرات تدل على أنها لن تقوم لهم قائمة،

(١) «صحيح البخاري» (٢٩١٥)، و«صحيح مسلم» (١٧٦٣).

(٢) «صحيح مسلم» (٨٣٢).

ومع ذلك يؤكد القرآن أنهم سيغلبون في أمدٍ محدد: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾ [الروم: ٣، ٤]، وأدرك ذلك المسلمون الذين سمعوا تنزيله.

٤- ووقع كثير من أخباره المستقبلية في حياة الصحابة الذين حدثهم به، مثل إخباره عن فتح قصور الشام وفارس، وفتح بيت المقدس، ومسير الظعينة من الحيرة إلى مكة لا تخاف إلا الله، وقوله لأصحاب الصفة: «**كَيْفَ بِكُمْ إِذَا غَدَا أَحَدُكُمْ فِي حُلَّةٍ، وَرَاحَ فِي حُلَّةٍ، وَوُضِعَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ صَحْفَةٌ، وَرُفِعَتْ أُخْرَى؟**»[(١)].

وقوله لأم حرام بنت ملحان وقد استيقظ من نومه يضحك، ويقول: «**نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي عُرِضُوا عَلَيَّ غُزَاةً فِي سَبِيلِ الله، يَرْكَبُونَ ثَبَجَ هَذَا البَحْرِ مُلُوكًا عَلَى الأَسِرَّةِ**». قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَدَعَا لَهَا رَسُولُ الله ﷺ، ثُمَّ وَضَعَ رَأْسَهُ، ثُمَّ اسْتَيْقَظَ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَقُلْتُ: وَمَا يُضْحِكُكَ؟ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «**نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي عُرِضُوا عَلَيَّ غُزَاةً فِي سَبِيلِ الله**» -كَمَا قَالَ فِي الأَوَّلِ- قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، قَالَ: «**أَنْتِ مِنَ الأَوَّلِينَ**». فَرَكِبَتِ البَحْرَ فِي زَمَانِ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ، فَصُرِعَتْ عَنْ دَابَّتِهَا حِينَ خَرَجَتْ مِنَ البَحْرِ، فَهَلَكَتْ[(٢)]، وحين قال ذلك كان العرب لا علم لهم بالحروب البحرية، وكان تنقلهم غالبًا في الصحاري، وأما ركوبهم للبحر على قلته فكان للسفر أو التجارة وما كان للقتال، ومع ذلك يخبر ﷺ بهذا التحول، وتتلقى أم حرام ذلك بيقين المؤمن، فلم تقل كيف ذلك وأنى ذلك؟ ولكن قالت مباشرة: ادع الله أن يجعلني منهم، فكانت منهم وتوفيت معهم في غزوة قبرص.

ومن غيوب المستقبل ما أخبر به وتحقق من بَعْد على فترات متباعدة، مثل قوله: «**إِنَّ اللهَ زَوَى لِي الأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الكَنْزَيْنِ الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ**»[(٣)]، وقد حصل هذا الاتساع على مراحل حتى استوعب أقصى الشرق وأقصى الغرب.

(١) «جامع الترمذي» (٢٤٧٦).
(٢) «صحيح البخاري» (٢٧٨٨).
(٣) «صحيح مسلم» (٢٨٨٩).

ومثل إخباره عن انتشار الدين حتى لا يبقى بيت شجر ولا مدر إلا دخله[1] وهو ما نعيشه اليوم في ظل تنوع وسائل الإعلام وأدوات التواصل حتى لا تكاد توجد بقعة في العالم إلا وصلها بلاغ الإسلام.

ومثل إخباره عن تولي أبناء الإماء الملك في قوله: «**أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا**»[2]، وهو ما كانت العرب تأنف منه وتستبعد حصوله، وقد وقع في آخر خلافة بني أمية، وفي خلافة بني العباس.

٥- مع أنه ﷺ تلقّى بشائر النصر والظهور من الله، وتلقّاه هو وأصحابه بغاية اليقين الإيماني حتى كأنه رأي عين، إلا أن ذلك لم يصرفه عن بذل الأسباب، وتقدير الأمور وتدبيرها، وبذل الجهد في التوقّي وحسن الإعداد، وأخذ الحذر والحيطة، فهو في طريق الهجرة يبشر سراقة بسواري كسرى، ولكنه سلك طريق الساحل وتجنب الطريق السالك المعروف، وبالغ في التخفّي والتوقّي وإخفاء الأمر.

وفي معركة بدر خرج بأمر الله وقد وعده إحدى الطائفتين، وأخبر أصحابه عن مصارع المشركين في ميدان المعركة، ومع ذلك بقي تلك الليلة قائماً يصلي يستنزل نصر الله ومدده، ويلح في مسألته: «**اللهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ العِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ**»[3].

فالثقة بموعود الله لا تحجبه عن وظيفة العبودية لله، والافتقار إليه، والإلحاح في مسألته.

وفي غزوة الأحزاب كان يبشر بفتح مدائن فارس والروم، ولكنه كان يشارك أصحابه حفر الخندق حتى غطى التراب بطنه وأكمل تحصين المدينة وحراستها والدفاع عنها.

فاليقين بنصر الله وتحقق موعوده لا يعني إغفال عالم الأسباب، والسيرَ وفق سنن الله الجارية في ملكه، ولذا لا تجد في معاركه كلها تهوراً أو مغامرة غير محسوبة، ولكن غاية استفراغ الوسع، وأخذ الأسباب، والاحتياط البالغ في تدبير الأمور وتصريفها.

---

(١) «مسند أحمد» (٢٣٨١٤).

(٢) «صحيح مسلم» (٨).

(٣) «صحيح مسلم» (١٧٦٣).

٦- وكما أخبر ﷺ عن المستقبل الذي كشف غيبه بالوحي فإن هناك استشرافاً منه للمستقبل نتوقع أنه نتيجة بُعدِ النظر وصدق التوقع، مثل قوله عن قريش بعد الأحزاب عندما عادت خائبة إلى مكة: «**اليَوْمَ نَغْزُوهُم وَلَا يَغْزُونَنا**»[١]؛ لأن الحشود التي جمعتها في هذه المعركة الخاسرة لا يمكن أن تجتمع معها مرة أخرى، ولأنها استنزفت قُوْتها وقُوَّتها في مجيئها من مكة ومطاولة الحصار، وخسرته كله وعادت كالَّة منهكة، ولذا كان هذا بداية تفكر ذوي الرأي منهم كعمرو بن العاص وخالد بن الوليد بمراجعة مواقفهم العدائية السابقة واختيار الطريق الذي طالما حاربوه.

وتم ذلك، فقد أتى النبي ﷺ بعد عام واحدٍ إلى مكة لعمرة الحديبية ثم جاء بعد لفتح مكة.

ومثله قوله ﷺ لملك الجبال: «**بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**»[٢]. وهذا التوقع من النبي ﷺ يظهر أنه استنتاج من الحال التي كان يعايشها وهي اتساع دعوته في جيل الشباب والفتيان مع شدة تمنع الملأ والأشياخ، فكان نظره مصوباً إلى الجيل القادم.

ومثله قوله ﷺ عن قريش حين انصرفوا من أُحد: «**إِنْ كَانُوا قَدْ جَنَّبُوا الخَيْلَ وَامْتَطَوْا الإِبِلَ فَإِنَّهُمْ يُرِيدُونَ مَكَّةَ، وَإِنْ رَكِبُوا الخَيْلَ وَسَاقُوا الإِبِلَ، فَإِنَّهُمْ يُرِيدُونَ المَدِينَةَ**»[٣]، وهي نظرة تحليلية نتيجة خبرة عسكرية؛ لأن ركوب الإبل للسفر الطويل، وركوب الخيل للكر والفر، وليس للسفر.

وهذه ونظائرها من بُعد النظر وصدق التوقع حسب المعطيات الدالة عليها، ولا يلزم أن تكون وحياً، والفرق بينها وبين إخباره عن المغيبات التي أطلعه الله عليها أن تلك المغيبات كشف عن غيب لا يوجد من واقع الحال ما يدل عليه أو يوصل إليه إلا الوحي الإلهي، فهو معجزة نبوية وليس مهارة بشرية.

---

(١) «صحيح البخاري» (٤١١٠).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٢٣١).

(٣) «سيرة ابن اسحاق» (ص٣٣٤).

٧- ومن استشرافه للمستقبل تنويعه الخيارات وتطلب الفرص، وعدم الوقوف أمام الباب المغلق، ومن ذلك عرضه نفسه على القبائل لما اتضح له غلواء الملأ من قريش ولجاجتهم في الكفر، ثم سفره إلى الطائف بحثًا عن أرضٍ جديدة يستنبت فيها دعوته.

ومن ذلك الانفتاح على الآفاق الواسعة خارج الجزيرة فقد كاتب الملوك في آسيا وأوروبا وأفريقيا يدعوهم إلى الإسلام قبل فتح مكة.

ومن ذلك الإعداد للمراحل القادمة، وإحسان التَّهَيُّؤ لها، ففي مسيره إلى تبوك في أكبر جيش يقوده وأبعد مسافة يقطعها منذ بُعِث برغم الشدة والعسرة كان يقمع غلواء الروم وأتباعهم من الغساسنة الذين يشيعون أنهم ينعلون الخيل لغزو النبي ﷺ في المدينة، فلما شخص إليهم حتى وصل تبوك تراجعوا عن ذلك، مع أن سراياه انطلقت من تبوك إلى تخوم الشام في دومة الجندل وأيلة، والتي ضمها إلى الدولة الإسلامية وأصبحت دولتا فارس والروم متاخمة لحدوده.

وفي هذه الغزوة تحفيزٌ للأمة وتهيئةٌ لها لإكمال الفتوح بعد وفاته، وقد ترك بشراه لهم بفتح قصور كسرى وقيصر، ولذا فإن غزوة تبوك أشبه بالاستنفار والإعداد للفتوح التي توالت بعدها.

ولعله لهذا السبب حصل التحفيز والاستنفار الشديد للخروج والمشاركة فيها، كما حصل العتاب البليغ للمتخلفين عنها، وذلك حتى لا تفتر همة الأمة عن الجهاد، وبلاغ الرسالة، ونشر الدعوة.

ومن ذلك عمق النظر إلى المآلات، واعتبار تداعيات الأفعال وما تؤدي إليه، ويدل على ذلك قوله لعائشة: «**لَوْلَا أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُو عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ لَأَنْفَقْتُ كَنْزَ الكَعْبَةِ فِي سَبِيلِ الله، وَلَجَعَلْتُ بَابَهَا بِالأَرْضِ، وَلَأَدْخَلْتُ فِيهَا مِنَ الحِجْرِ**»[1].

(١) «صحيح مسلم» (١٣٣٣).

وكذلك قوله عن قتل بعض المنافقين: «**لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّهُ كَانَ يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**»[1]، وقوله: «**أَكْرَهُ أَنْ تَحَدَّثَ العَرَبُ بَيْنَهَا: أَنَّ مُحَمَّداً قَاتَلَ بِقَوْمٍ، حَتَّى إِذَا أَظْهَرَهُ اللهُ بِهِمْ أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ يَقْتُلُهُمْ**»[2].

وفي هذا مراعاة لتداعيات الفعل وآثاره المترتبة عليه، وهذا بعكس تصرف الشخصية الانفعالية التي تستجيب للموقف الضاغط، وتغفل عن آثاره البعدية، على حد قول القائل:

إذا هـمَّ ألـقـى بـيـن عـيـنـيـه همـه ... ونَـكَّـب عـن ذكـر الـعـواقـب جـانـبـا[3]

٨- ومن الغيوب التي أخبر بها ما يكون من الملاحم والفتن في آخر الزمان، وهذه ليست من استشراف المستقبل ولا مما تسعى الأمة إلى تحقيقه ووقوعه، ولكنه خبر عما سيقع، ومثله ما جاء في القرآن من أخبار إرهاصات القيامة، ومن المهم التنبه على أمور هامة:

أ- أن ما يروى من أخبار الملاحم والفتن دخل فيها الضعيف والشديد الضعف والموضوع، فأحاديث الفتن من مظان الضعاف والواهيات، ومن ذلك أحاديث الرايات السود، والسفياني.

ب- أن تطلب وقوعها ليس إلينا؛ فهي أحداث سوف تقع، ولا تنتظر أن نوقعها، وكم سفكت من الدماء وأشعلت من الحروب بدعاوى تطبيق بعض نصوص آخر الزمان، والزعم أن هذا هو تأويل الخبر ومصداقه، كما حصل في دعاوي المهدي، مثل مهدي الموحدين في المغرب، والمهدي في السودان، والاحتلال المسلح للحرم المكي عام (١٤٠٠هـ) وغيرها من الفتن، ولذا جاء عن سفيان الثوري أنه قال: إن مر على بابك المهدي، فلا تتابعه حتى يجتمع عليه الناس[4].

وقد انتشرت كتب ومقالات تنزل أحاديث الفتن وأشراط الساعة على أشخاصٍ أو أحداث بعينها، فهذا هو المهدي، وذاك السفياني، وتلك الرايات السود.

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٩٠٥).

(٢) «دلائل النبوة» للبيهقي (٥/ ٢٦١)، و«السيرة النبوية» لابن كثير (٤/ ٣٦).

(٣) «شرح ديوان الحماسة» (ص٥٦).

(٤) «تاريخ بغداد» (١٤/ ١٥٨).

ج- ومن أسباب رواج ذلك ضغط الواقع الشديد على المسلمين، وشدة المعاناة، وتتابع النكبات، فيلجأ بعض من قلَّ علمه إلى تتبع هذه الأخبار وتنزيلها على وقائع معينة هروبـًا من معاناة الواقع إلى ما يظنونه خلاصـًا وإنقاذاً للأمة، وفرجـًا متوقعـًا تقود إليه الأماني الخداعة، ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [النساء: ١٢٣]، وكم سفكت دماء، ووقعت حروب، وأضرمت فتن جراء الجراءة بجهل والتقول بغير علم[1].

خلاصات:

١- تظاهرت دلائل الكتاب والسنة أن رسول الله ﷺ لا يعلم الغيب إلا ما أظهره الله عليه.

٢- كما تبرأ ﷺ من دعوى علم الغيب، فقد حذر من ادّعاء ذلك أو تصديقه بطرائق الجاهلية من الكهانة والعيافة والتنجيم.

٣- أطلع الله نبيه على بعض غيوب المستقبل لحكمة خاصة، بشارة وتثبيتـًا، أو نذارة وتحذيراً.

٤- أخبر ﷺ عن مستقبل الإسلام فتوحـًا وظهوراً، وكان ذلك في أوقات الكرب والشدة، وكان ذلك من دلائل نبوته.

٥- وقع كثير مما أخبر به ﷺ من غيوب المستقبل في حياته، وبعضه في حياة أصحابه، ومنه ما وقع أو سيقع بعد ذلك.

٦- مع أنه ﷺ تلقى بشائر النصر والظهور وحيـًا من الله إلا أن ذلك لم يصرفه عن اتخاذ الأسباب، وإعداد العدة، وتقدير الأمور وتدبيرها.

٧- وكما علم غيوب المستقبل بالوحي، فقد كان لديه استشراف للمستقبل يدركه ببعد النظر وصدق التوقع.

٨- ومن استشرافه للمستقبل تنويع الخيارات، وتطلب الفرص، والإعـداد للمراحل القادمة.

---

(١) ينظر في ذلك كتاب: «معالم ومنارات في تنزيل أحاديث الفتن والملاحم» د. عبد الله العجيري.

٩- ومن استشرافه للمستقبل عمق النظر إلى المآلات، وتداعيات الأفعال وعواقبها.

١٠- ومن الأخبار المستقبلية ما أخبر به من الفتن والملاحم وأشراط الساعة؛ ولذلك حِكم منها: الإيمان بها، والاستعداد لها، ومعرفة قرب الساعة إذا جاء أشراطها.

١١- تنزيل أحداث آخر الزمان على أشخاص وأحداث معينة شابه كثير من الجهل والتهور، وترتب عليه كثير من المفاسد والفتن.

الباب السادس

الرسول ﷺ ودعوته

التعليم النبوي[1]

بعث الله نبيه ﷺ معلِّمًا، فكان خير معلِّم للناس الخير، قال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنِّتًا وَلَا مُتَعَنِّتًا، وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا**»[2]، وجاءت آيات القرآن تبين للأمة وظيفة النبي التي يقوم بها، والمهمة التي بُعث بأدائها، وتُكَلِّفُ الأمة بحسن التلقِّي عنه ﷺ فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وقد كان أسلوب النبي ﷺ في تعليمه ذا فنون متنوعة بما يناسب تنوع الناس في مداركهم وبيئاتهم، ولكن جماع هذه الأنواع هو بث التعليم في كل نواحي الحياة، وإشراك المتعلِّم في العملية التعليمية وتفاعله معها.

فعندما ننظر إلى التعليم النبوي نجده مدمجًا في الحياة، فلم يكن ثَمَّ مكان خاص للتعليم، ولا وقت خاص له، ولكن كان التعليم النبوي يتناغم مع إيقاع الحياة، وينتشر في فعاليتها، ولذا نجد النبي ﷺ يلتقط بيقظةٍ المواقفَ العارضة في طريقه الذي يمشي فيه، وعلى طعامه الذي يأكله، وفي مجلسه الذي يتحدث فيه، وفي مشهد يراه هو وأصحابه فيلفت النظر إلى معنى بعيد يدل عليه المشهد القريب، وهذا ما تجده مبثوثًا منتشراً في سيرته ﷺ ومن شواهد ذلك:

(١) ينظر في الموضوع: كتاب شيخنا عبد الفتاح أبو غدة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الرسول المعلم»، ومنه استفدت في هذا المبحث.

(٢) «صحيح مسلم» (١٤٧٨).

كان ﷺ وأصحابه جلوساً في الجعرانة، فرأوا امرأة تبحث بفجيعة وذهول عن ابن رضيع لها فقدته، وكان حالها مؤثراً ومثيراً، فقد زاغ بصرها، وانتفش شعرها، وتحلب ثدياها، وصار مشهدها مثيراً للرحمة لها وللرضيع الذي فقدها، وفي أثناء نظرهم رأوا الأم وقد وجدت الصبي، فانفرطت عاطفتها والتقطته بلهف واحتضنته مجهشة بالبكاء، وأخرجت ثديها تلقمه إياه غذاء وتحنانًا، وفي لحظة التفاعل والتعاطف مع المشهد إذا بالنبي ﷺ يسأل أصحابه: «**أَتَرَوْنَ هَذِهِ المَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟**» فجاء الجواب التلقائي: لَا وَاللهِ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ. هنا التقط النبي هذا المشهد القريب ليجعله وسيلة إيضاح ودلالة على معنى عظيم فقال: «**اللهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا**»[1].

إن هذا التعليم لم يأت بإعداد مسبق، ولم يفتعل الموقف من أجله، ولكن استغل دلالته وحالة التأثر به فجعله مشهد تعليم، وقد كان يمكن أن يكون منظراً عابراً كغيره من مشاهد الحياة، ولكن النبي ﷺ جعله مشهد تعليم بالغ الدلالة بالغ التأثير، وما كان الصحابة ليروا هذه الحادثة لولا ما ارتبط بها من التعليم النبوي.

ومن أمثلة ذلك: أن رجلاً مَرَّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَرَأَى أَصْحَابُ رَسُولِ الله ﷺ مِنْ جَلَدِهِ وَنَشَاطِهِ مَا أَعْجَبَهُمْ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله، لَوْ كَانَ هَذَا فِي سَبِيلِ الله؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**وَمَا سَبِيلُ الله إِلَّا مَنْ قُتِلَ؟! إِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى وَلَدِهِ صِغَاراً، فَهُوَ فِي سَبِيلِ الله، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَبَوَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ، فَهُوَ فِي سَبِيلِ الله، وَإِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ يُعِفُّهَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ الله، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى رِيَاءً وَتَفَاخُراً، فَهُوَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ**»[2].

إن هذا الرجل مرَّ بهم وهو يسير في طريقه متوجهًا إلى عمله، وكان يمكن أن يمضي المشهد كما يمضي غيره من العابرين، ولكن النبي ﷺ استغل إعجاب الصحابة بقوته، وتساؤلهم عن أفضل ما تكون فيه هذه القوة، فحوَّل هذا المشهد العابر إلى درس في قيمة العمل، وتحمل المسؤولية، وتوسيع معنى الجهاد في سبيل الله ليشمل كل عمل صالح مبرور.

(١) «صحيح البخاري» (٥٩٩٩)، و«صحيح مسلم» (٢٧٥٤).
(٢) «المعجم الأوسط» للطبراني (٦٨٣٥).

ولهذين المثالين نظائر كثيرة تجدها مبثوثة في نصوص السُّنة تخلص منها إلى أن تعليم النبي ﷺ كان مبثوثًا في مناشط حياته، ومتفاعلاً معها، ومدمجًا مع فعالياتها.

لم يكن من عادة النبي ﷺ إلقاء محاضرات عامة في بيان أحكام الإسلام، ولم يقم مدرسة لها ساعات ودروس، بل كان يبلغ ما يوحى إليه في البيت والمسجد والطريق، حين تدعو الحاجة إليه، يقول ذلك بلسانه وعمله، ويعبر عنه بقوله وفعله. فقد كان خُلُقه القرآن، ومعناه: أن كل فعل من أفعاله، وكل خُلق من أخلاقه، آيات تتلى، ومحاضرات تلقى، وحلقة درس ومجلس وعظ، لأنها كلها تنطق بما يأمر به القرآن[1].

والمعنى الآخر الجامع للتعليم النبوي هو إشراك المتعلم في العملية التعليمية، وذلك بإشراكه بالوصول للنتيجة؛ إما بالحوار المباشر أن يسأله فيجيب، أو الحوار الافتراضي بأن يسأل سؤالاً عامًا يجيب عنه كلٌ في نفسه.

ومثال ذلك: حديث المرأة التي سألت النبي ﷺ فقالت: إِنَّ فَرِيضَةَ الله -أي الحج- أَدْرَكَتْ أَبِي شَيْخًا كَبِيراً لَا يَثْبُتُ عَلَى الرَّاحِلَةِ، أَفَأَحُجُّ عَنْهُ؟ قَالَ: «**أَرَأَيْتِ لَوْ كَانَ عَلَى أَبِيكِ دَيْنٌ أَكُنْتِ قَاضِيَته؟**». قالت: نعم. قال: «**فَاقْضُوا الله، فَاللهُ أَحَقُّ بِالقَضَاءِ**»[2].

وذهب ﷺ إلى سعد بن عبادة يزوره، فسأله بشير بن سعد فقال: إن الله أمرنا أن نُصَلِّيَ عَلَيْكَ وَنُسَلِّمَ، أَمَّا السَّلَامُ فَقَدْ عَرَفْنَاهُ فَكَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ؟ فسكت النبي ﷺ برهة، فجعل الصحابة يقولون في أنفسهم: سمع ما قال فكره ما قال، وبعضهم يقول: بل لم يسمع ما قال، ومرت لحظات ذهبت فيها أذهان الصحابة إلى هذه الاحتمالات، وإذا بالنبي ﷺ يقطع هذه الحيرة ويقول: «**قُولُوا: اللهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، اللهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ**»[3].

ولك أن تتخيَّل وقع الجواب بعد لحظات الترقُّب والانتظار هذه، وكيف سيكون استيعابه ومكانه من الذاكرة.

---

(١) باختصار من كتاب: «تعريف عام بدين الإسلام» للطنطاوي (ص ١٧١).

(٢) «صحيح البخاري» (١٥١٣)، و«سنن ابن ماجه» (٢٩٠٩).

(٣) «صحيح البخاري» (٦٣٥٧)، و«صحيح مسلم» (٤٠٥).

أما طرائق النبي ﷺ في التعليم فهي متعددة ومتنوعة بحسب ما يناسب كل حالة ويليق بها، وجماعها لفت الانتباه وتفريغ الذهن وتوضيح المعنى، ومن ذلك:

١- طرح السؤال وطلب الإجابة عليه، ثم بيان الجواب المقصود، ومن ذلك: قوله ﷺ: «**إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لَا يَسْقُطُ وَرَقُهَا، وَإِنَّهَا مَثَلُ الْمُسْلِمِ، فَحَدِّثُونِي مَا هِيَ؟**». وكان يسأل هذا السؤال وبين يديه جُمَّارة نخل، فَوَقَعَ الصحابة فِي شَجَرِ البَوَادِي؛ وهي أشجار الصحراء التي تنبت فيها؛ كالسَّمُر، والسَّلَم، والطَّرْفاء ونحوها. ولم يصيبوا، فردَّ النبي ﷺ ثم قال: «**هِيَ النَّخْلَةُ**»(١).

٢- استخدام وسيلة الإيضاح، ومن ذلك: حديث مرور النبي ﷺ بالسوق، فعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ مَرَّ بِالسُّوقِ، دَاخِلاً مِنْ بَعْضِ العَالِيَةِ، وَالنَّاسُ كَنَفَتَهُ، فَمَرَّ بِجَدْيٍ أَسَكَّ(٢) مَيِّتٍ، فَتَنَاوَلَهُ فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ؟**». فَقَالُوا: مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ، وَمَا نَصْنَعُ بِهِ؟ قَالَ: «**أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟**». قَالُوا: وَاللهِ لَوْ كَانَ حَيًّا، كَانَ عَيْبًا فِيهِ، لِأَنَّهُ أَسَكُّ، فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ؟ فَقَالَ: «**فَوَاللهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ، مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ**»(٣).

فانظر إلى حشد هذه المثيرات في هذا المشهد القصير جداً البليغ جداً حيث جمع النبي ﷺ حشداً من طرائق التعليم منها: طرح السؤال، ووسيلة الإيضاح، وضرب المثل، وكان المخاطبون شركاء في التساؤل والوصول إلى النتيجة.

٣- الرسم التوضيحي، ومن ذلك: أن النبي ﷺ خَطَّ أمام أصحابه خَطًّا مُرَبَّعًا وَخَطَّ خَطًّا فِي الوَسَطِ خَارِجًا مِنْهُ، وَخَطَّ خُطَطًا صِغَاراً إِلَى هَذَا الَّذِي فِي الوَسَطِ، مِنْ جَانِبِهِ الَّذِي فِي الوَسَطِ، وَقَالَ: «**هَذَا الإِنْسَانُ، وَهَذَا أَجَلُهُ قَدْ أَحَاطَ بِهِ، وَهَذَا الخَطُّ الخَارِجُ أَمَلُهُ، فَبَيْنَا هُوَ يَنْظُرُ إِلَى أَمَلِهِ إِذْ أَحَاطَ بِهِ أَجَلُهُ، وَهَذِهِ الخُطَطُ الصِّغَارُ الأَعْرَاضُ، فَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا، وَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا، نَهَشَهُ هَذَا**»(٤).

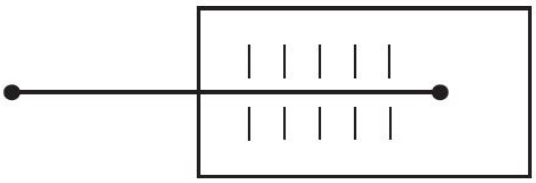
---

(١) «صحيح البخاري» (٦١)، و«صحيح مسلم» (٢٨١١).

(٢) الأسكّ: مقطوع الأذنين. ينظر: «النهاية» (٢/ ٣٨٤).

(٣) «صحيح مسلم» (٢٩٥٧).

(٤) «صحيح البخاري» (٦٤١٧).



إن هذه الصورة قد جمعت المعنى في لوحة بيانية وصورة واضحة معبرة، لا تحسب أن من شهدها سينسى المعنى ولا الصورة، وقدمت الصورة بطريقة مثيرة للانتباه حيث بدأ النبي ﷺ بالرسم، وكأني بالصحابة حوله ينظرون إليه وهو يخط على الأرض وكل منهم يتساءل سيخط ماذا ولماذا؟ ثم لما انتهى طرح سؤالاً: أتدرون..؟ ثم قدَّم الجواب بعد كل هذه التهيئة، فكيف سيكون تَلقِّي الأذهان لهذا المعنى؛ المقرون بالمثيرات والصور التوضيحية؟!

٤- ضرب المثال، وهذا باب واسع في التعليم النبوي، ولذا أُلفت كتب بعنوان: الأمثال النبوية، وهذه الأمثال التعليمية تفيد في تقريب المعنى وتوضيحه، وهي أمثلة من البيئة ومدركات المخاطبين بحيث يسهل تصورها.

ومن أمثلة ذلك: حديث: «**مَثَلُ المُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ القُرْآنَ كَمَثَلِ الأُتْرُجَّةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ المُؤْمِنِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ القُرْآنَ كَمَثَلِ التَّمْرَةِ لَا رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ، وَمَثَلُ المُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ القُرْآنَ مَثَلُ الرَّيْحَانَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ المُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ القُرْآنَ كَمَثَلِ الحَنْظَلَةِ، لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ**»[(١)].

٥- التقريب بالمشهد الخيالي، وذلك بأن يصور مشهداً مؤثراً في الخيال ثم يربط به المعنى، وهو نوع من ضرب المثل ولكنه بمشهد متخيل، ومثاله حديث: «**أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهرا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ[(٢)] شَيْءٌ؟**». قَالُوا: لاَ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ. قَالَ: «**فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ يَمْحُو اللهُ بِهِنَّ الخَطَايَا**»[(٣)].

(١) «صحيح البخاري» (٥٤٢٧)، و«صحيح مسلم» (٧٩٧).
(٢) الدَّرَنُ: الوسخُ. ينظر: «النهاية» (٢/ ١١٥).
(٣) «صحيح البخاري» (٥٢٨)، و«صحيح مسلم» (٦٦٧).

ولك أن تتخيل بيئة المدينة الصحراوية الجافة التي تنتظر أن يجري وادي العقيق يوماً في السنة فيخرج الرجال والنساء لرؤيته، والفرح ببهجة مسيله، فإذا بالنبي ﷺ يضع الصورة لهم نهراً غزيراً، وأين هو؟ بِبَابِ أَحَدِكُمْ. فهل تخيَّلت مشهد بيت على ضفة نهر غمر؟ إنه منظر غاية في الروعة، والري والجمال يوحي به هذا التصوير.

ثم يُكمل الصورة فيقول: «**يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ**».

لقد كان النبي ﷺ يأمرهم أن يغتسلوا في الأسبوع يوماً لتتحقق نظافتهم في اجتماع يوم الجمعة، فكيف بمن يغتسل كل يوم كيف ستكون نظافته؟ وكيف بمن يغتسل كل يوم خمس مرات كيف سيكون نقاؤه وطهره؟

أيّ صورة من النقاء يوحي بها هذا المشهد؟!

ثم يأتي التساؤل: «**هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ؟**» فجاء الجواب التلقائي: لا يا رسول الله، لَا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ. قال: «**فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ يَمْحُو اللهُ بِهِنَّ الخَطَايَا**».

لقد كان يكفي أن يقول النبي ﷺ: الصلوات تمحو الخطايا، ولكن شتان بين تقديم المعنى مجرداً وتقديمه محفوفاً بهذه المؤثرات والطرائق التعليمية، والإغراءات الخيالية، حتى تأخذ بكل مجامع النفس وأشواقها.

وبتتبع الطرائق النبوية في التعليم سنقف على مشاهد ووسائل أخرى في التعليم النبوي ليست هذه إلا عينة منها ونموذجاً يتعرف به على بقيتها، ويجد فيها كل معلمٍ ومربٍّ وأب وسائل تربوية وتعليمية غاية في الروعة والتأثير.

٦- كان له ﷺ حفاوة خاصة بذوي النباهة العلمية فيخصهم بالتحفيز والإشادة بكلمات هي شهاداتُ تخرّج وتفوق، فعَن أبي هُرَيرة، قال: قلت يا رَسولَ الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال: «**لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لَا يَسْأَلُنِي عَنْ هَذَا الحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الحَدِيثِ، أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ، مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، خَالِصاً مِنْ قَلْبِهِ**»[1].

(١) «صحيح البخاري» (٩٩).

وعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ الله مَعَكَ أَعْظَمُ؟**». قَالَ: قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «**يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ الله مَعَكَ أَعْظَمُ؟**». قَالَ: قُلْتُ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدْرِي، وَقَالَ: «**وَالله لِيَهْنِكَ العِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ**»(١).

٧- كما أن التعليم النبوي كان يُقدَّم في وعاء من المحبة والرحمة وشفقة الأبوَّة وإيناسها.

يقول معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أخذ النبي ﷺ بيدي وَقَالَ لي: «**يَا مُعَاذُ وَالله إِنِّي لأُحِبُّكَ، وَالله إِنِّي لأُحِبُّكَ، أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ، لا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاةٍ تَقُولُ: اللهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**»(٢).

فانظر إلى تقديم هذه الوصية بهذا القرب وإعلان الحب، والأخذ باليد وكأنما تسري هذه المحبة والمرحمة من كفه ﷺ إلى كف معاذ.

ياالله كيف تلقَّى وجدان معاذ هذا الإعلان النبوي: «**يَا مُعَاذُ وَالله إِنِّي لأُحِبُّكَ، وَالله إِنِّي لأُحِبُّكَ**»؟ كيف كان أنسه بالقرب من رسول الله وأنوار الوجه النبوي تغمره؟!

وما شعوره وكفه في يد المصطفى يعاطيه بها المحبة والوداد؟!

ومن ذلك: قول عبد الله بن مسعود: عَلَّمَنِي رَسُولُ الله ﷺ التَّشَهُّدَ كَفِّي بَيْنَ كَفَّيْهِ كَمَا يُعَلِّمُنِي السُّورَةَ مِنَ القُرْآنِ(٣). هل تخيَّلت يد ابن مسعود وقد احتواها النبي بكلتا يديه ووضعها بين كفيه وهو يُعلِّمه التشهد؟ وأيّ إيناس وإشعار بالخصوصية والمحبة والقرب يوحي به هذا القرب والاحتواء؟

وكيف سيكون رسوخ العلم حين يُقدّم بحب فيستقر في القلب؟!

---

(١) «صحيح مسلم» (٨١٠).

(٢) «سنن أبي داود» (١٥٢٢).

(٣) «صحيح البخاري» (٦٢٦٥)، و«صحيح مسلم» (٤٠٢).

٨- ونجد في المشهد التعليمي الواحد عدة أنواع من المثيرات والمحفزات والموضحات بحيث لا يجمعها عنوان واحد ومن ذلك ما حدَّث به معاذ بن جبل أنه كان رديف رسول الله ﷺ على حمار يقال له: عُفير، رَسَنُه من ليف، وليس بينه وبين رسول الله ﷺ إلا مُؤَخَّرة رحل الحمار.

وبينما هما في الطريق، إذا برسول الله ﷺ يناديه نداء البعيد على قربه، فيقول: «**يَا مُعَاذَ بنَ جَبَل**». قال: لبيك يا رسول الله وسعديك. فسكت رسول الله ﷺ، ثم ناداه بعد، فقال: «**يَا مُعَاذَ بنَ جَبَل**». فقال: لبيك يا رسول الله وسعديك. فسكت رسول الله ﷺ، ثم ناداه بعد، فقال: «**يَا مُعَاذَ بنَ جَبَل**». قال: لبيك يا رسول الله وسعديك. فقال ﷺ: «**يَا مُعَاذُ أَتَدْرِي مَا حَقُّ الله عَلَى العِبَادِ؟**». قال معاذ: الله ورسوله أعلم. فقال ﷺ: «**أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**». ثم سار ساعة ثم قال: «**يَا مُعَاذَ بنَ جَبَل**». قال: لبيك يا رسول الله وسعديك. قال: «**أَتَدْرِي مَا حَقُّهُمْ عَلَيْهِ إذا فَعلُوا ذلك؟**». قال: الله ورسوله أعلم. قال ﷺ: «**أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ، وَيَغْفِرَ لَهُم، وَيُدخِلَهُمُ الجنَّةَ، مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ، صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ، إِلَّا حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى النَّارِ**»، قَالَ يَا رَسُولَ اللهِ: أَفَلَا أُخْبِرُ بِهِ النَّاسَ فَيَسْتَبْشِرُوا؟ قَالَ: «**لَا؛ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَتَّكِلُوا عَلَيْهَا**» فأَخبرَ بِهَا مُعَاذٌ عِنْدَ مَوْتِهِ تَأَثُّمًا[1].

فانظر إلى هذه البراعةُ النبويةُ في التعليمِ، وتحفيزِ الذهنِ، وإشراكِ المتعلِّم في الوصول إلى المعلومة، وتحفيزِه لتلقِّيها؛ فقد اختار رسولُ الله ﷺ لإيصال هذه المعلومة ساعةً يكون فيها معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على حال من القرب الوجداني والنفسي الذي يستلزمه ذلك القرب الجسدي، والخصوصية المستشعرة من الإرداف على الحمار، وهي ساعة تهيُّؤٍ نفسيٍّ للتلقي من رسول الله ﷺ، ثم يعجبك ذاك النداء لمعاذ بن جبل باسمه واسم أبيه، وكأنَّما يناديه من مكان بعيد، مع أنه في أقرب أحواله إليه، حتى إذا لبَّاه معاذ وأسعده سكت، ويا لله كيف ذهب ذهنُ معاذٍ كلَّ مذهب في لحظات الصمت التي وزعها رسول الله ﷺ بين نداءاته الثلاثة!! لقد كان النداء محفِّزاً، وكان الانتظار الصامت محفِّزاً أيضاً، حتى إذا كان الذهنُ في غاية التيقُّظ لتلقي ما سوف يقوله رسول الله ﷺ، جاءت المعلومة على شكل سؤال:

(١) «صحيح البخاري» (١٢٨، ٧٣٧٣)، و«صحيح مسلم» (٣٠).

«**أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى العِبَادِ**». وأجاب معاذ جواب المتعلِّم المتلهِّفِ: أالله ورسوله أعلم. فلما جاء الجواب النبوي وافى ذهنًا يقظًا متحفِّزاً متشوِّقًا.

لقد توالت كل هذه المحفِّزات من الإردافِ والنداءِ والسكوتِ والتساؤلِ، وكل ذلك شَحَذَ الذهن وأَقْبَلَ بالقلب؛ لذلك فلا عجب أن لَقِفَ معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذا الحديث فوعاه وحفظه، وكأني به عاش عمرَه كلَّه ونداءُ النبيِّ ﷺ يملأ أذنيه، وهل أعجب من أنه ما أذهلته آلامُ المرضِ ولا كُرَبُ الموت، أن يتذكرَ هذا المشهدَ فيرويه بكل تفاصيلِهِ حين حضره الموت، وكأنما يحدِّث عن أمر للتوِّ حَدَثَ معه.

وكان يصاحب هذه الفنون النبوية في التعليم استنفار الناس لتعليم بعضهم بعضًا، فكل متعلم يصير معلمًا بما تعلم، ولذا انتشر العلم وفشا في وقت قياسي لتحفيز النبي ﷺ كل متعلم على التعليم، قد خطب ﷺ الناس ثم قال: «**نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ غَيْرَهُ، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ**»[1].

وعن مالك بن الحويرث قال: أَتَيْنَا رَسُولَ الله ﷺ وَنَحْنُ شَبَبَةٌ مُتَقَارِبُونَ، فَأَقَمْنَا عِشْرِينَ لَيْلَةً، وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ رَحِيمًا رَفِيقًا، فَلَمَّا ظَنَّ أَنَّا قَدِ اشْتَهَيْنَا أَهْلِينَا، أَوِ اشْتَقْنَا سَأَلَنَا عَمَّا تَرَكْنَا بَعْدَنَا، فَأَخْبَرْنَاهُ، فَقَالَ: «**ارْجِعُوا إِلَى أَهْلِيكُمْ، فَأَقِيمُوا فِيهِمْ وَعَلِّمُوهُمْ وَمُرُوهُمْ**»[2].

فانظر كيف أوكل إلى هؤلاء الشباب المتعلمين مهمة تعليم ما تعلموه إذا رجعوا إلى أهليهم، فكأنما التعليم النبوي ينتشر من المدينة كما تنداح دوائر الماء وتتابع وتتسع.

فصلوات الله وسلامه وبركاته على خير معلِّمٍ للناس الخيرَ.

---

(١) «سنن أبي داود» (٣٦٦٠)، و«جامع الترمذي» (٢٨٤٧)، و«سنن ابن ماجه» (٢٣٠).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٣١)، و«صحيح مسلم» (٦٧٤).

خلاصات:

١- كان التعليم النبوي مدمجاً في الحياة، ينساب مع مشاهدها وفعالياتها.

٢- كان النبي ﷺ يشرك المتعلم في العملية التعلمية بإشراكه بالوصول للنتيجة من خلال الحوار.

٣- من أساليبه التعليمية طرح السؤال وطلب الإجابة عليه.

٤- من أساليبه استخدام وسيلة الإيضاح.

٥- من أساليبه استخدام الرسم التوضيحي.

٦- من أساليبه ضرب المثل.

٧- من أساليبه التقريب بالمشهد الخيالي.

٨- عنايته بذوي النباهة العلمية وتحفيزهم.

٩- كان التعليم يقدم في وعاء من الحب.

١٠- كان يستنفر الناس للتعلم والتعليم، فكل متعلم يصير معلما لما تعلم.

الرسول ﷺ والقراءة

١- الأميَّة صفة نقص في حق كل أحد، إلا في حق النبي ﷺ فإنها صفة كمال؛ وذلك أن المتعلم يقرأ ما كتبه غيره، فالقراءة مصدر معرفة له، أما النبي ﷺ فإن العلم الذي أوتيه وبلَّغه للناس ليس مصدره ما كتبه الناس ولكن ما أوحاه الله إليه، فقد جاء هذا النبي ﷺ ليعلم الناس ما أُنزل عليه من السماء، وليس ما كُتب في الأرض، ولذا أكد القرآن صفة الأمية ليدل على مصدر التلقي عند هذا النبي الأمي: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

فلم يكن النبي ﷺ يعلِّم الناس مما في الكتب حتى يحتاج إلى القراءة، وإنما يعلِّمهم مما أوحاه الله إليه وأمره ببلاغه، فكانت وصف كمال فيه مع أنها في غيره وصف نقصان؛ لأنها دلالة على نبوته واستغنائه بما علَّمه الله عما يتعلَّمه الناس ويقرؤونه في الكتب.

ولم تكن الأمية مرادفة للجهل؛ فقد كان للنبي ﷺ علمه الواسع، وكانت طريقته في تلقي العلم هي التلقي الشفهي لا الكتابي، كعادة أكثر العرب، مع الملاحظة الدقيقة، والاتصال بوفود القبائل والأمصار.

والملاحظ لقرارات النبي ﷺ وإدارته يعلم أنها مبنية على اطلاع واسع بعلوم عصره، ومعارفه الجغرافية والسياسية والقبلية والأدبية وغير ذلك.

٢- وثم عاجبة أخرى وهي أن هذا النبي الأمي عندما تلقَّى الوحي، كانت أول كلمة تلقَّاها وألقاها إلى الناس وحيا من الله إليه وإليهم هي: ﴿ٱقْرَأْ﴾ [العلق: ١]، وفي نزول أول كلمة في القرآن عن القراءة على أمي لا يقرأ دلالة على صدق نبوته،

فلو كان هذا النبي ﷺ مدعيًا يختار قرآنه ما اختار البدء بكلمة هو لا يحسنها، فكل مُدعٍ يبدأ بما هو من مواطن القوة عنده، ولا يمكن أن يبدأ بما لا يُعرف عنه مَعرفتهُ والاقتدار عليه، فلما جاء الوحي بكلمة: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ وهو لا يقرأ ثم تلاها على الناس وبلّغها لهم دلّ على أنه لا يختار ما يبلغه للناس وإنما يتلقّاه وحيًا من الله ثم يبلغه كما تلقّاه، فكانت هذه مع أمية النبي ﷺ إحدى دلائل نبوته وأمارات صدقه.

بل إن هذا النبي الأمي الذي بعث في أمة أمية أتاها بكتاب يُقرأ فهو القرآن، ويكتب فهو الكتاب، وكانت آيات القرآن تذكره كتابًا وهو لا زال في طور التنزيل: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢].

٣- ونرى كيف اختار ﷺ الشباب أصحاب المواهب والقدرات العلمية، ووجههم إلى تعلم اللغات قراءة وكتابة، ولذا تعلم زيد بن ثابت اللغة السُّريانية والعبرانية في نصف شهر لأنها معروفة في المدينة فسهل عليه تعلمها كتابة حيث كان يعلمها نطقًا.

٤- لا يعرف في تاريخ العرب كتاب قبل القرآن، فهو أول كتاب عرفه العرب، وليس لهم كتب قبله، فما أعجب أن يكون أول كتاب عند هذه الأمة هو كتاب تلقته من نبي أمي! وما أعظم أن يكون أول كتاب في العربية هو كتاب الله المنزل على رسوله الأمي!

٥- ثم إن من عادة من لا يحسن أمراً أن يتباعد عنه ويزدريه، وقديمًا قيل: من جهل شيئًا عاداه، أما هذا النبي الأُمي فقد كان حفيًّا بالقراءة، ومن مظاهر ذلك كثرة الكتبة حوله من أصحابه حتى بلغ كُتَّاب النبي ﷺ نحواً من (٤٨) كاتبًا[1]، وكان خلفاؤه الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم وهم أقرب الناس إليه كلهم كتابًا.

وكان القرآن يُكتب بين يديه فور نزوله، فانتشرت الصحف والرقاع التي كتبت فيها آيات القرآن وسوره في أيدي الناس لتنقلهم من الأمية إلى القراءة والكتابة.

بل إن من اهتمامه بالقراءة والكتابة أن جعل فداء بعض الأسرى بعد معركة بدر أن يعلِّموا أولاد الأنصار الكتابة، ويكون هذا فداؤهم.

(١) «كُتَّاب النبي ﷺ». د. محمد مصطفى الأعظمي.

٦- وكان يوسع مساحة التعليم فيأمر بتعلم اللغات التي يخاطبها قراءة وكتابة، فعن زيد بن ثابت قال: لما قَدِمَ رسول الله ﷺ المدينة أَمَرَنِي أَنْ أَتَعَلَّمَ لَهُ كَلِمَاتٍ مِنْ كِتَابِ يَهُودَ قَالَ: «**إِنِّي وَاللهِ مَا آمَنُ يَهُودَ عَلَى كِتَابٍ**». فَمَا مَرَّ بِي نِصْفُ شَهْرٍ حَتَّى تَعَلَّمْتُهُ لَهُ، فَلَمَّا تَعَلَّمْتُهُ كَانَ إِذَا كَتَبَ إِلَى يَهُودَ كَتَبْتُ إِلَيْهِمْ، وَإِذَا كَتَبُوا إِلَيْهِ قَرَأْتُ لَهُ كِتَابَهُمْ[١].

إن الأمية كانت منقبة وكمالاً لنبينا ﷺ إلا أنه لم يجعلها منقبة لأحد من أمته، بل هو الذي بدأ حملة محو الأمية، وتعليم القراءة والكتابة، واتسعت مساحة القراءة والكتابة في عهده وما بعده، فهو الأُمي الذي رفع الأمية عن أمته.

٧- بقي أن نتذكر أن ذاك النبي الأمي الذي بعث أميّاً ولحق بالرفيق الأعلى أميّاً، بقيت الأمة وأجيالها تتعاقب تكتب علمه، فكم من العلوم لدى أمة محمد ﷺ فقهاً وحديثاً وتفسيراً وأصولاً وعقيدة! وكم كُتبَ في هذه العلوم من كُتُبٍ وأُلِّف فيها من مؤلفات!

وقد كنتُ يوماً أحادث شيخي عبد الفتاح أبو غدة رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن كتب الحديث وكثرة ما ألّف فيه وفي علومه من كتب، ثم ما ألف في بقية علوم الشريعة فإذا به يلتفت إلي وعيناه تبرقان وهو يقول: وكل ذلك علم نبي أمي ما قرأ مكتوباً ولا كتب مقروءاً.

ومن أجمل ما قيل عن أُميَّة نبينا ﷺ: العالم يقرأ مَا كَتَبَهُ غَيْرُهُ، وَنبينا ﷺ أُمي عَلَّم النَّاسِ مَا يَكْتُبُون[٢].

أَخـوكَ عيسى دَعـا مَيتـاً فَـقـامَ لَـهُ ... وَأَنـتَ أَحـيَـيـتَ أَجـيـالاً مِـنَ الـرِّمَـم

وَالـجَـهـلُ مَـوتٌ فَـإِن أوتـيـتَ مُـعـجِـزَةً ... فَابعَث مِنَ الجَهلِ أَو فَابعَث مِنَ الرَجَمِ[٣]

(١) «جامع الترمذي» (٢٧١٥).

(٢) ينظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١٦/ ٢٦٦).

(٣) «نهج البردة» لأحمد شوقي.

خلاصات:

١- الأمية صفة نقص إلا في نبينا ﷺ، فهي له صفة كمال لدلالتها على صدق نبوته.

٢- مع أنه أُمي فإن أول كلمة أوحي بها إليه وإلى أمته: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾.

٣- هذا النبي الأمي أتى إلى الأمة بأول كتاب في تاريخها، فلا يعرف عند العرب كتاب قبل القرآن.

٤- هذا النبي الأمي هو الذي رفع الأمية عن أمته واستنفرها للتعلم.

٥- العالِمُ يقرأ ما كتبه غيره، أما نبينا فأميٌّ علَّم الناس ما يكتبون.

الرسول ﷺ والدعوة

كانت حياته دعوة، ودعوته حياة.

وكيف ستكون دعوة من تلقَّى الأمر بالدعوة من ربه: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل: ١٢٥]؟!

والحديث عن دعوته هو الحديث عن حياته التي أوقفت على دعوته، ولذا فإنَّا نتجاوز التفصيل إلى الإجمال في نقاط تجمل الحال ولا تفصِّلها:

أولاً: أن الدعوة كانت استنفاراً كاملاً في حياته، فهو في كل أحواله وأوقاته لا يدع فرصة تسنح إلا ويجعلها تحمل رسالة من رسائل دعوته، حتى إنه لا يمكن فصل دعوته عن مناشط حياته كلها.

ولذا تراه داعية في مجلسه، وفي مسجده، وفي طريقه، وفي إقامته، وفي سفره وعلى طعامه، وعلى فراش مرضه، وفي آخر أنفاس حياته.

فعَنْ رَبِيعَةَ بْنِ عِبَادٍ الدِّيلِيِّ -وَكَانَ جَاهِلِيًّا أَسْلَمَ- قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ بَصَرَ عَيْنِي بِسُوقِ ذِي المَجَازِ، يَقُولُ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، تُفْلِحُوا**». وَيَدْخُلُ فِي فِجَاجِهَا وَالنَّاسُ مُتَقَصِّفُونَ عَلَيْهِ، فَمَا رَأَيْتُ أَحَداً يَقُولُ شَيْئًا، وَهُوَ لَا يَسْكُتُ، يَقُولُ: «**أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تُفْلِحُوا**». إِلَّا أَنَّ وَرَاءَهُ رَجُلاً أَحْوَلَ وَضِيءَ الوَجْهِ، ذَا غَدِيرَتَيْنِ يَقُولُ: إِنَّهُ صَابِئٌ، كَاذِبٌ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله، وَهُوَ يَذْكُرُ النُّبُوَّةَ، قُلْتُ: مَنْ هَذَا الَّذِي يُكَذِّبُهُ؟ قَالُوا: عَمُّهُ أَبُو لَهَبٍ، قُلْتُ: إِنَّكَ كُنْتَ يَوْمَئِذٍ صَغِيراً، قَالَ: لَا وَالله إِنِّي يَوْمَئِذٍ لَأَعْقِل[1].

(١) «مسند أحمد» (١٦٠٢٣).

وجلس مع أصحابه على الطعام فرفعت إليه الذراع، وكانت تعجبه، فنهس منها نهسة[١] ثم قال: «**أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ**»، ثم نَهسَ أخرى، فقال: «**أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ**»، فلما رأى أصحابه لا يسألونه قال: «**أَلَا تَقُولُونَ كَيْفَهْ؟**» قَالُوا: كَيْفَهْ يَا رَسُولَ الله؟ قال: «**يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي وَيَنْفُذُهُمُ البَصَرُ..**» ثم ساق حديث الشفاعة الطويل، وكان ذلك على مائدة الطعام[٢].

وكان في حجة الوداع يَسِيرُ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ فَمَرَّ عَلَى جَبَلٍ يُقَالُ لَهُ جُمْدَانُ فَقَالَ: «**سِيرُوا هَذَا جُمْدَانُ سَبَقَ المُفَرِّدُونَ**». قَالُوا وَمَا المُفَرِّدُونَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «**الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتُ**»[٣]، فكان في طريقه سائراً وداعيًا.

بل إن شدة المرض وآلامه وكربه ما كانت تنسيه أو تذهله عن دعوته، ففي مرض موته جعل يتغشَّاه الكرب وطَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا عَنْ وَجْهِهِ، فَقَالَ: «**لَعْنَةُ الله عَلَى اليَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**». قالت عائشة: يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا[٤].

وأنفاس الحياة وآخر لحظات العمر جعلها دعوة لأمته ووصاة لها، فكان همّ دعوته حاضراً في نفسه في هذه الساعة العصيبة المهولة، فما أوصى بمال ولا ولد، ولكن تذكَّر الدعوة والأمة فحشرجت روحه في صدره وأخذته بحَّة وهو ينادي: «**الصَّلَاةَ الصَّلَاةَ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ**»[٥]. حتى ما يُبينُ بها، فكانت هذه آخر وصاياه وعهده لأمته ﷺ.

فمن كان يؤدي الدعوة في لحظات الكرب العصيبة هذه فكيف حاله في سعة وقته ويسر حاله؟!

---

(١) النهس: أخذ اللحم بأطراف الأسنان. ينظر: «النهاية» (٥/ ١٣٦).
(٢) «صحيح البخاري» (٢٣٤٠)، و«صحيح مسلم» (١٩٤).
(٣) «صحيح مسلم» (٢٦٧٦).
(٤) «صحيح البخاري» (٣٤٥٣)، و«صحيح مسلم» (٥٢٩).
(٥) «مسند أحمد» (٢٦٤٨٣).

ثانيًا: نجد أن دعوته قد امتزجت بمشاعره وخلصت إلى وجدانه فمن أجلها يفرح ويحزن، ويأسف ويغتم، حتى إن ربه الذي أرسله يُعاتبه على ذلك فيقول: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، أي: مهلك نفسك، ويقول: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ [فاطر: ٨].

لقد كان يذيب حشاشة نفسه في دعوته حتى كادت أن تذهب حسرات على من لم يؤمنوا.

وكما كان يحزن لإعراض المعرضين كان يُسر ويفرح لإيمان المؤمنين، فجاء يعود غلامًا يهوديًا كان يخدمه، فلما جلس إليه وجده مدنفًا قد شارف، فقال له: «**أَسْلِمْ**». فنظر الفتى إلى أبيه ضارعًا بنظراته إليه، فقال أبوه: أطع أبا القاسم. فتشهَّد شهادة الحق ثم قضى، فخرج النبي ﷺ مسروراً بإسلامه وهو يقول: «**الحَمْدُ لله الَّذِي أَنْقَذَهُ بِي مِنَ النَّارِ**»[1].

وماذا كان النبي ﷺ يستفيد من غلام أسلم ثم مات؟! فلن يقوم له بعمل، ولن يؤدي إليه صدقة، ولن يقاتل معه في معركة، ولكن فرحه إنما كان بالهداية أن تشع في قلب يؤمن بها فينقذه الله به من النار.

وعندما جاء مسلمة الفتح جلس لهم يستقبل وفودهم يعرف السرور في وجهه وأطفأ فرحه بهدايتهم ما سبق من عداوتهم.

ثالثًا: كانت دعوته لأمته واستنقاذهم بالهداية هو الهدف الأكبر الذي يقود جميع الأهداف، ولذا فلا يمكن أن تحرفه الأهداف الصغيرة أو المؤقتة عن هدفه الكبير هذا.

ذهب الطفيل بن عمرو الدوسي إلى قومه يدعوهم فاستعصوا عليه، فعاد إلى النبي ﷺ حانقًا عليهم يقول: يا رسول الله إن دوسًا كفرت فادع الله عليهم. فقال ﷺ: «**اللهُمَّ اهْدِ دَوْسًا وَائْتِ بِهِمْ**»[2].

لقد جاء هذا النبي رحمة ولم يأت عذابًا ولا نقمة.

---

(١) «صحيح البخاري» (١٣٥٦).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٣٩٢)، و«صحيح مسلم» (٢٥٢٤).

ولما قيل له: يا رسول الله ادع على المشركين، قال: «**إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً**»(١).

بل كان يستدفع عن أمته العذاب ويستأني بهم لعل الهداية أن تدركهم أو تدرك أبناءهم.

رجع ﷺ من الطائف مكروبًا مغمومًا حيث جاء يعرض عليهم دعوته، وطاولهم قرابة نصف شهر يغشى أسواقهم ومجالسهم، ويقابل زعماءهم وكبراءهم، فأعرضوا عنه وردوا عليه أقبح الرد، فرجع آسفًا مغمومًا قد شق عليه إعراضهم، وشق عليه شماتة قريش به إذا رجع إليهم، فوصل إلى قرن الثعالب وهو يبعد عن الطائف قرابة (٥٠ كم)، ولم يشعر بنفسه لشدة استغراقه في الغم، وكان دعاؤه في طريقه: «**اللَّهمّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ، أَنْتَ رَبُّ المُسْتَضْعَفِينَ، وَأَنْتَ رَبِّي**»(٢).

فلما أفاق من غيبوبته إذا بالسماء وقد فتحت أبوابها وتنزَّلت عليه أملاكها وخاطبه جبرائيل قائلاً: «**إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ. ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلَكُ الجِبَالِ وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ فَمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ**». فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: «**بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**»(٣).

إن شهوة الانتقام من أشد الشهوات وأكثرها ضراوة، ولكنها تتضاءل أمام رغبة النبي ﷺ في الهداية، وأمله الطويل مع قومه حتى لو لم يؤمنوا هم فإن أمله يمتد إلى ذريَّاتهم وأجيالهم القادمة، وقد أقرَّ الله عينه بعد صبره واحتماله؛ فرأى عكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية بن خلف، وخالد بن الوليد بن المغيرة، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وأم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعَيْط.. وكل هؤلاء صحابة مرضيون وكان آباؤهم من رؤساء الكفر وأعداء الرسالة.

(١) «صحيح مسلم» (٢٥٩٩).
(٢) «سيرة ابن هشام» (١/ ٤٢٠).
(٣) «صحيح البخاري» (٣٢٣١)، و«صحيح مسلم» (١٧٩٥).

وبعد معركة أحد ورسول الله يعاني ثكله بمن قتل من أصحابه، ويعاني جراحاته التي أصابته حيث شج رأسه، وكسرت رَباعيته[1]، ونزف الدم على وجهه، فجعل يمسح الدم عن وجهه وهو يقول: «**كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ وَكَسَرُوا رَبَاعِيَتَهُ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ؟!**». ثم خاف أن يعاجلوا بالعقوبة فقال: «**اللهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**»[2]. فانظر إلى هذا التلطُّف في استدفاع العذاب عنهم حيث لم يكتف بالعفو عنهم، ولكن سأل الله المغفرة لهم حتى لا يُعاجلوا بالعقوبة، وشفع لهم بأن أضافهم إلى نفسه فلم يقل: اللهم اغفر لهم، وإنما قال: «**اللهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي**». ثم اعتذر لهم فقال: «**فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**».

فأيّ نفس تستطيع أن تتجرَّد عن ردات فعلها وانفعالاتها بمن هم الآن في حال حرب وعداء معه؟ ولكن النبي ﷺ خرج من حظ نفسه وبقي متعلقاً بدعوته متوجها بها ولها.

وأجاب الله دعوة نبيه، فبعد عشر سنين من معركة أُحد كان قواد جيش المشركين الثلاثة: أبو سفيان، وخالد بن الوليد، وعكرمة بن أبي جهل؛ يقاتلون جيش الروم في معركة اليرموك، فبعد أن كانوا يقاتلون رسول الله صاروا جنداً لدينه يقاتلون في سبيله.

رابعًا: استخدم ﷺ كل الوسائل المتاحة في وقته، فنادى على الصفا، ونادى في الأسواق والمواسم، وخطب ووعظ، وسافر وهاجر، وحاور وناظر، وأرسل الرسل، وابتعث الدعاة، واتخذ الشعراء والخطباء، وكاتب الملوك والأمراء، وتألَّف رؤساء القبائل وكبرائها، واستخدم كل الطرق الممكنة، واستعمل كل الوسائل المتيسرة، وتنوعت هذه الوسائل بما يناسب حال المدعو وظرف الزمان والمكان.

خامسًا: كان يبدأ دعوته بالأهم من القضايا فيتدرج فيها إلى ما بعدها، فيبدأ بأصل الأصول وهو عبادة الله وتوحيده كما في وصاته لمعاذ حين أرسله إلى اليمن فقال له: «**إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ الله، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ،**

(١) الرَبَاعِيَة: هِيَ السِّنُّ الَّتِي تَلِي الثَّنِيَّةَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَلِلإِنْسَانِ أَرْبَعُ رَبَاعِيَاتٍ. ينظر: «شرح النووي على مسلم» (١٢/ ٤٨١).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٤٧٧)، و«صحيح مسلم» (١٧٩٢).

فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ»(١).

وكما في رسالته إلى هرقل عظيم الروم وفيها: «**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ وَرَسُولِهِ، إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلَامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى، أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلَامِ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، وَأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ، فَعَلَيْكَ إِثْمُ الأَرِيسِيِّينَ وَ:** ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]»(٢).

سادسًا: أن الدعوة كانت استنفاراً جماعيّاً يبث النبي ﷺ في أصحابه مسؤولية الدعوة التي يقوم بها، ويُشعرهم أنهم مبعوثون بما بُعث به ﷺ.

فقال في خطبته في حجة الوداع: «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**»(٣)، وقال: «**نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَبَلَّغَهَا، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرِ فَقِيهٍ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ**»(٤).

وجاء أعرابي إلى النبي ﷺ وهو في المسجد فتنحَّى مكانًا غير بعيد في ناحية المسجد وجلس يبول، فنهره الصحابة وقالوا: مَهْ مَهْ. فقال ﷺ: «**لَا تُزْرِمُوهُ**(٥) **دَعُوهُ فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ، وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ**»(٦). فانظر إلى قوله: «**فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ**». فأسند البعث إليهم؛ ليُشعرهم بأنهم يتحمَّلون بلاغ ما بلغهم والدعوة إلى ما دعاهم، كما دعاهم هو برفق وعلَّمهم بيسر.

---

(١) «صحيح البخاري» (١٤٥٨)، و«صحيح مسلم» (١٩).

(٢) «صحيح البخاري» (٧)، و«صحيح مسلم» (١٧٧٣).

(٣) «صحيح البخاري» (٣٤٦١).

(٤) «سنن أبي داود» (٣٦٦٠)، و«جامع الترمذي» (٢٨٤٧)، و«سنن ابن ماجه» (٢٣٠).

(٥) لا تُزْرموه: من الإزرام، أي لا تقطعوا عليه بوله، يقال: زرم البول إذا انقطع. ينظر: «فتح الباري» (١/ ٤٦٤).

(٦) «صحيح البخاري» (٢٢٠)، و«صحيح مسلم» (٢٨٥).

وقد فقه أصحابه ذلك وتشبَّعوا بهذه القناعة وعبروا بذات التعبير الذي لقَّنهم إياه، فعندما سأل يزدجرد قائد الفرس ربعي بن عامر قبل معركة القادسية قائلاً: ما جاء بكم؟ قال له: إن الله ابتعثنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد.

انظر إلى قول النبي ﷺ «**فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ**». وقول ربعي: إن الله ابتعثنا؛ لتعلم أن الرسالة قد وصلت إليهم بوضوح وأنهم تحمَّلوها بقوة.

وعندما سار ﷺ بأصحابه إلى خيبر لفتحها، وهي حصون يهود وقلاعهم التي يكيدون منها ويحتمون بها، وهي خزائن ثرواتهم الطائلة، وغابات ثمارهم الوافرة، فلم تكن قناطير الذهب ولا أحمال الثمار هي ما يغريه، ولا هي مطمعه ومطمع أصحابه، ولكن كان ما يهمه ويوصي به ويحرص عليه هو هدايتهم، ولم يحمله سابق عداوتهم، وتتابع مكائدهم على اليأس من هدايتهم، فأعطى الراية علي بن أبي طالب وقال له: «**انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ، فَوَاللهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً واحداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ**»[1].

وبهذا كان همّ الدعوة ومسؤوليتها يغرس بعمق في نفوس الصحابة رضي الله عنهم، ولذا فإنهم ما إن نفضوا أيديهم من تراب قبر رسول الله ﷺ حتى ساحوا في الأرض يُبلِّغون رسالات الله، وينشرون دينه وهداه، وإذا الصحابة الذين كان يجمعهم مسجد في المدينة النبوية تتناثر قبورهم بين القارات الثلاث، وتتفرق مضاجعهم في فجاج الأرض ونواحيها المتباعدة، ومات كل منهم في صقع من الأرض إما شهيداً في معركة أو داعية ومعلِّمًا يستنقذ أمة هالكة، ولا زالت السرج التي أشعلوها في نواحي الدنيا ساطعة مضيئة، تتوارث الأجيال أنوارها ونعيم هداها.

(١) «صحيح البخاري» (٢٩٤٢)، و«صحيح مسلم» (٢٤٠٦).

خلاصات:

١- كانت حياته دعوة، ودعوته حياة.

٢- كانت الدعوة مستغرقة أوقاته وأحواله فلا يمكن فصلها عن أي منحى من مناحي حياته.

٣- امتزجت دعوته بمشاعره فلها يفرح ويحزن ويتألم، حتى كادت نفسه أن تذهب حسرات على من لم يؤمنوا.

٤- كان هدف الدعوة هو الهدف الذي يقود بقية الأهداف فلا تحرفه عنه الأهداف الصغيرة والعارضة.

٥- جعل ﷺ الدعوة استنفاراً جماعيّاً، فقد قذف همَّ الدعوة في قلوب أصحابه، وحملهم مسؤولية بلاغ ما بلَّغه، والدعوة لما دعا إليه.

الرسول ﷺ خطيباً

كانت الخطبة ولا زالت من أقوى وسائل التواصل، وأعظم وسائل التأثير، فهي تجمع العديد من المؤثرات كبلاغة الخطيب، وانفعاله، ولغة جسده، ويجتمع فيها التأثير السمعي والبصري والوجداني، فاشتهر الخطباء الفصحاء، وحفظت الخطب البليغة المؤثرة، وكانت خطب النبي ﷺ تجمع هذه الميزات مع صدق اللهجة وحرارة الانفعال، وقوة التأثير مع وجازة الخطاب.

قام ﷺ يوماً خطيباً فجعل يقول في خطبته: «**أَنْذَرْتُكُمْ النَّارَ، أَنْذَرْتُكُمْ النَّارَ، أَنْذَرْتُكُمْ النَّارَ**». حتى علا صوته، فسمعه من في السوق، وحتى سقطت بردة كانت على عاتقه عند رجليه(١).

إن هذا المشهد في مقام النبي ﷺ ذلك يبين مدى الانفعال والتفاعل منه ﷺ في خطبه مع ما يقول، وهذا الانفعال دليل من دلائل النبوة، فإنه يبين تشبعه بما يقول، وعظيم يقينه به، حتى يظهر منه هذا التأثر والانفعال.

وقد لاحظ الصحابة هذا التأثر منه في خُطَبِهِ فوصفوه بأنه كان إذا خطب علا صوته واحمرتا عيناه واشتد غضبه كأنه منذر جيش يقول: «**صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ**»(٢).

وكما يدل هذا على يقين النبي ﷺ بما يقول، فإنه يدل على خطر الأمر الذي يتكلم فيه، حتى تأثر هذا التأثر وانفعل هذا الانفعال.

(١) «مسند أحمد» (١٨٣٩٨).

(٢) «صحيح مسلم» (٨٦٧).

وإذا خطبت فللمنابر هزة تعرو الندي وللقلوب بكاء

١ - لقد كان حال النبي ﷺ وهو يخطب حال المستنقذ الذي يريد انقاذ الناس من هلكة يخشى أن يقتحموها، ولذا كانت نذارته بهذا التأثر والحرقة حتى كأنه منذر جيش يصيح بقومه قبل أن يصبحهم عدوهم، وهكذا وصف أصحابه حاله تلك وهو يخطب: كأنه منذر جيش يقول: «**صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ**».

لقد كان ﷺ يذيب نفسه مع أنفاسه وهو يخطب فتخرج كلماته وفيها صدق اللهجة، وحرارة العاطفة، وشدة التأثر والانفعال، خطب في منى فكان يتطاول ليسمع الناس ويقول: «**أَلَا تَسْمَعُونَ؟**»[(١)]. يطول بها صوته وينادي: «**يَا أُمَتَاه هَلْ بَلَّغْتُكُم؟**». حتى قال صبي في الموقف لأمه: يا أمه ما له يدعو أمه؟ فقالت: يا بني إنه لا يدعو أمه، إنما يعني أمته[(٢)].

إنك تستشعر في هذا النداء لوعة المشفق، ونداء المستنقذ حتى تأثر هذا الصبي وهو يسمع نداءه، فكيف بتأثر الذين عقلوا كلامه ووعوه، وأحست قلوبهم حرارة النداء، ولهفة المناشدة؟!

وقال أنس: خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط فقال: «**لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً**». فغطَّى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ولهم خنين من البكاء[(٣)].

إن رسول الله ﷺ أخبرهم أنه يعلم ما لا يعلمون ولم يفصل لهم ما يعلم ولكن انفعاله وتأثره كأنما هو تفصيل وبيان لهذا الأمر المهول الذي يحذرهم منه، ولذا أثر بهم هذا التأثير حتى غطوا رؤوسهم ولهم نحيب بالبكاء.

إن صدق اللهجة، وشدة التأثر والانفعال تنتقل إلى المستمع حتى كأنما يرى ما يسمع ويعيشه بوجدانه وأحاسيس قلبه، وهكذا كان الصحابة وهم يسمعون خطب النبي ﷺ المتأثرة المؤثرة.

---

(١) «مسند أحمد» (٢٢٢٥٨).

(٢) «المعجم الكبير» للطبراني (٥٣٨).

(٣) «صحيح البخاري» (٤٦٢١)، و«صحيح مسلم» (٢٣٥٩).

٢- وكان من أعظم ما يميز خطب النبي ﷺ أن لها رصيداً مشهوداً مشهوراً من واقع حاله، فإذا تكلم بأمر فإن فعله قد سبق قوله، وكانت طلائع الصدق تشرق من محياه الكريم، وحالهُ الشريفةُ تُصَدِّقُ ما يقول وتؤكده، فعندما خطب على الصفا وناشد قريشًا قائلاً: «**أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً بِالوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟**». قالوا جميعًا: نعم ما جربنا عليك إلا صدقا[١].

وعندما قدم المدينة جاءه عبد الله بن سلام فوجده يخطب الناس قال عبد الله بن سلام: «**لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ انْجَفَلَ النَّاسُ عَلَيْهِ، فَكُنْتُ فِيمَنِ انْجَفَلَ، فَلَمَّا تَبَيَّنْتُ وَجْهَهُ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ**»[٢].

ولما وقف في حجة الوداع يخطب يوم عرفة يضع للناس معالم استئناف الحياة بعد الجاهلية قال: «**أَلا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ، وَدِمَاءُ الجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ، وَإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَضَعُ مِنْ دِمَائِنَا دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الحَارِثِ، وَرِبَا الجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَأَوَّلُ رِبًا أَضَعُ رِبَانَا رِبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ**»[٣].

فلا يأمر بخير إلا وقد تمثل فيه، ولا ينهى عن سوء إلا وهو أبعد الناس عنه، لقد كانت حاله تتحدث قبل مقاله، ولذا كان لكلامه وقعه على القلوب وتأثيره في النفوس.

٣- وكان إذا خطب أقبل على الناس بوجهه وأقبلوا عليه بوجوههم وذلك لأهمية التواصل البصري بين الخطيب والحضور عنده، حتى تصل رسالته محفوفة بانفعالاتها وطرائق التعبير عنها، ولذا رمق الصحابة احمرار عينيه، وحركة أصبعه المسبحة يدعو بها، وإشارته بإصبعيه السبابة والوسطى وهو يقول: «**بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ**»[٤].

(١) «صحيح البخاري» (٤٧٧٠)، و«صحيح مسلم» (٢٠٨).
(٢) «سنن ابن ماجه» (١٣٣٤).
(٣) «صحيح مسلم» (١٢١٨).
(٤) «صحيح البخاري» (٤٩٣٦)، و«صحيح مسلم» (٢٩٥١).

ولأهمية التواصل البصري كان ﷺ يبرز للناس ويعلو لهم حتى يروه جميعاً؛ ولذا خطب على الصفا[١]، وخطب على الناقة في عرفة[٢]، وخطب على البغلة في منى[٣]، ولما كثر الناس في مسجده اتخذ المنبر بثلاث درجات[٤]، حتى يبرز لمن بعد عنه.

بل إنه عندما خطب يوم عرفة على ناقته القصواء أمكن قدميه في الغرز[٥] واعتمد بإحدى يديه على مقدم الرحل وبالأخرى على مؤخرته يتطاول بذلك للناس حتى يشرف لهم جميعاً[٦].

إن في حال الخطيب أثناء الخطبة مزيد بيان مع بيان كلامه يوضح مقصده، ويبلغ رسالته، ولذا كان ﷺ يشرف للناس على ما يرفعه إليهم كراحلته ومنبره ليتم هذا التواصل بينه وبين أصحابه حال خطبته.

٤- وكانت خطبه نوعان: راتبة كخطبة الجمعة والعيدين، وعارضة لسبب عارض يدعو إليها، كخطبة الكسوف، وخطبته حين قدم عليه وفد مضر فرأى ما بهم من الفاقة والحاجة فخطب الناس كما في حديث جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ الله البَجَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ فِي صَدْرِ النَّهَارِ، فَجَاءَهُ نَاسٌ مِنَ الأَعْرَابِ حُفَاةٌ عُرَاةٌ، مُجْتَابِي النِّمَارِ مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ، كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرَ، فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رَسُولِ الله ﷺ لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الفَاقَةِ فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ فَأَمَرَ بِلَالاً فَأَذَّنَ وَأَقَامَ، فَصَلَّى الظُّهْرَ، ثُمَّ صَعِدَ مِنْبَراً صَغِيراً، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «**أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللهَ أَنْزَلَ فِي كِتَابِهِ**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١]». وَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٞ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٧٧٠)، و«صحيح مسلم» (٢٠٦).

(٢) «السنن الكبرى» للنسائي (١٥٧٣).

(٣) «سنن أبي داود» (١٩٥٤).

(٤) «صحيح البخاري» (٤٩٣٦)، و«صحيح مسلم» (٥٤٤).

(٥) الغرز: هو موضع قدم الراكب على الجمل، كالركاب للفرس. ينظر: «النهاية» (٣/ ٣٥٩).

(٦) «مسند أحمد» (٢٢٢٥٨).

ثُمَّ قَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَسَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الله تَرْجُمَانٌ يُتَرْجِمُ لَهُ وَلَا حِجَابٌ يَحْجُبُهُ فَيَقُولُ لَهُ: أَلَمْ أُعْطِكَ مَالاً وَوَلَداً؟ وَأُفْضِلْ عَلَيْكَ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، فَيَقُولُ لَهُ: أَلَمْ أُرْسِلْ إِلَيْكَ رَسُولاً فَيُبَلِّغَكَ؟ فَيَقُولُ: بَلَى فَيَقُولُ: أَلَمْ أَجْعَلْ لَكَ سَمْعًا وَبَصَراً؟ فَيَقُولُ: بَلَى، فَيَقُولُ: أَيْنَ مَا قَدَّمْتَ لِنَفْسِكَ؟ فَيَنْظُرُ قُدَّامَهُ، وَبَعْدَهُ، وَعَنْ يَمِينِهِ، وَعَنْ شِمَالِهِ فَلَا يَجِدُ شَيْئًا يَقِي بِهِ وَجْهَهُ حَرَّ جَهَنَّمَ إِلَّا مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ ثُمَّ يَنْظُرُ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ فَتَسْتَقْبِلُهُ النَّارُ». ثُمَّ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «اتَّقُوا النَّارَ». ثُمَّ أَشَاحَ بِوَجْهِهِ ثُمَّ قَالَ: «اتَّقُوا النَّارَ». ثُمَّ أَشَاحَ بِوَجْهِهِ، ثُمَّ قَالَ: «اتَّقُوا النَّارَ». ثُمَّ أَشَاحَ بِوَجْهِهِ، حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا ثُمَّ قَالَ: «تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ، مِنْ دِرْهَمِهِ مِنْ ثَوْبِهِ مِنْ صَاعِ بُرِّهِ مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ». حَتَّى قَالَ: «مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَتِرَ مِنَ النَّارِ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَلْيَفْعَلْ فَإِنْ لَمْ يَجِدْ شِقَّ تَمْرَةٍ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ»[1].

وخطبته حين جاء ابن اللتبية بالصدقات فقال: هذا لكم وهذا أهدي إلي، فقَامَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى المِنْبَرِ فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَقَالَ: «مَا بَالُ العَامِلِ نَبْعَثُهُ فَيَجِيءُ فَيَقُولُ هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أُهْدِيَ لِي، أَلَا جَلَسَ فِي بَيْتِ أُمِّهِ أَوْ أَبِيهِ فَيَنْظُرَ أَيُهْدَى لَهُ أَمْ لَا؟ لَا يَأْتِي أَحَدٌ مِنْكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا جَاءَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ، إِنْ كَانَ بَعِيراً فَلَهُ رُغَاءٌ، أَوْ بَقَرَةً فَلَهَا خُوَارٌ، أَوْ شَاةً تَيْعَرُ». ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى رَأَيْنَا عُفْرَةَ إِبِطَيْهِ[2]، ثُمَّ قَالَ: «اللهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟ اللهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟»[3].

وهذه الخطب هي التي يتفاعل فيها النبي ﷺ مع الحوادث، ويعلق فيها على الأحداث فتقع الخطبة مرتبطة بالحدث الذي يوضحها ويعمق أثرها مثل سبب النزول للآية، مثل خطبته عندما شفع أسامة في المرأة المخزومية، فخطب فقال: «أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ الله؟». ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ، وَايْمُ الله لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»[4].

---

(١) «صحيح مسلم» (١٠١٧).

(٢) عُفْرَةَ إِبِطَيْهِ: أي بياض إبطيه. ينظر: «النهاية» (٣/ ٢٦١).

(٣) «صحيح البخاري» (٢٥٩٧)، و«صحيح مسلم» (١٨٣٢).

(٤) «صحيح البخاري» (٣٤٧٥)، و«صحيح مسلم» (١٦٨٨).

وربما كانت خطبه العارضة موعظة يذكرهم فيها، وهذه مما كان ﷺ يتخولهم فيه ولا يكثر عليهم كما قال ابن مسعود: يَتَخَوَّلُنَا بِالمَوْعِظَةِ فِي الأَيَّامِ، كَرَاهَةَ السَّآمَةِ عَلَيْنَا[١].

٥- وكان من عادته إذا خطب أن يعتمد على عصا[٢] أو قوس[٣]، وكان يخطب في مسجده إلى جذع يعتمد عليه قبل أن يتخذ المنبر[٤]، وبعد اتخاذ المنبر صار يعتمد إذا جلس على رمانة المنبر الشرقية وتسمى: الصلعاء.

واعتماد الخطيب على قوس أو عصا عادة عربية جرى فيها النبي ﷺ على عادة قومه[٥]، كما كان من عادته أن يحمل في يده عصا أو عسيب نخل يتوكأ عليه إذا مشى[٦] على عادة العرب في ذلك، ولذا فإن حمل العصا في الخطبة من سنن العادة لا العبادة[٧].

٦- وكان ﷺ يتجمَّل في لباسه لخطبة الجمعة، فعن عبد الله مولى أسماء قال: أخرجت إليَّ أسماء رضي الله عنها جبة من طيالسة كسروانية لها لبنة ديباج وفرجيها مكفوفين بالديباج فقالت: هذه جبة رسول الله ﷺ كان يلبسها للوفود ويوم الجمعة.

ولما رأى عمر رضي الله عنه حلة حرير تباع عند باب المسجد أخذها فأتى بها رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله لو اشتريتها فلبستها للعيد وللوفود إذا قدموا عليك ولبستها يوم الجمعة[٨]، فَعَرْضُ عمر رضي الله عنه على النبي ﷺ أن يشتري هذه الحلة الجميلة ليلبسها يوم الجمعة لما علم من حاله في التجمل ليوم الجمعة.

والتجمل من الخطيب لخطبة الجمعة تعظيم للشعيرة، واحترام للحاضرين بأن يظهر أمامهم على هيئة حسنة جميلة تليق بالموقف الذي يقفه أمامهم.

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٨)، و«صحيح مسلم» (٢٨٢١).
(٢) «مصنف عبد الرزاق» (٥٤٠٠).
(٣) «مصنف عبد الرزاق» (٥٣٣٠).
(٤) «صحيح البخاري» (٩١٨).
(٥) ينظر: «البيان والتبيين» (٣/ ٨٠)، و«تاريخ الأدب العربي» لشوقي ضيف (٤١٦).
(٦) «صحيح البخاري» (٤٧٢١)، و«صحيح مسلم» (٢٧٩٤).
(٧) ينظر: «السلسلة الصحيحة» للألباني (٢/ ٢٠).
(٨) «مسند أحمد» (٦٤٥٠).

٧- كان ﷺ إذا خطب بدأ بحمد الله والثناء عليه بما هو أهله، ثم يتشهد الشهادتين بعد الحمد والثناء، وكان يقول: «**كُلُّ خُطْبَةٍ لَيْسَ فِيهَا تَشَهُّدٌ فَهِيَ كَاليَدِ الجَذْمَاءِ**»(١).

وكان كثيراً ما يخطب بآيات القرآن، وسوره الواعظة، قال جابر بن سمرة: كان رسول الله ﷺ يخطب قائماً(٢)... ويقرأ آيات من القرآن ويذكُر الله، وقالت أم هشام بنت الحارث بن النعمان: ما أخذت «**ق وَالْقُرْآنِ المَجِيدِ**» إلا من في رسول الله ﷺ يقرؤها كل جمعة على المنبر إذا خطب الناس(٣).

وذلك لما في سورة «**ق**» من المواعظ والتذكير بالموت والبعث وأحوال الآخرة.

٨- وكانت خطبه في الجمعة مواعظ يؤكد فيها على قضايا الدين الكبرى، وتقرير أصول الإيمان، وذكر الجنة والنار، وما أعد الله لأوليائه وأهل طاعته، وما توعد به أعداءه وأهل معصيته.

فيملأ القلوب إيمانًا بالله وتعظيمًا وإجلالاً له، ومهابة للقائه والمنقلب إليه، حتى كأنما الجنة والنار رأي عين، فتوجل القلوب وتذرف العيون، حتى يُكب الصحابة رؤوسهم ولهم خنين من البكاء.

ولعل هذا هو ما يفسر عدم نقل خطب الجمعة التي خطبها النبي ﷺ في المدينة مع أنها نحو من خمسمئة خطبة، وذلك لأنها مواعظ عامة تؤكد على قضايا كبرى تكررت مضامينها في آيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ.

ويوضِّح ذلك حديث العرباض بن سارية قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب فقلنا: يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا، قال: «**أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى الله، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلَافًا كَثِيراً، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ فَإِنَّهَا ضَلَالَةٌ، فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَلَيْهِ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ**»(٤).

---

(١) «مسند أحمد» (٨٠١٨).

(٢) «صحيح مسلم» (٨٦٢).

(٣) «صحيح مسلم» (٨٧٣).

(٤) «سنن أبي داود» (٤٦٠٧).

فنلاحظ أن العرباض بن سارية ذكر الموعظة وبلاغتها وأثرها، ولكن لم يذكرها وإنما ذكر الوصاة بعدها، وذلك لأنها وعظ بالتذكير بما هو مذكور في غيرها من الآيات والأحاديث.

بينما نقل الوصاة بعدها لأن فيها معنى خاصاً، وحُكماً وتوجيهاً مفصلاً.

٩- وكان ﷺ يوجز الخطبة ويختصرها ولا يطيلها كما قال جابر بن سمرة: كان رسول الله ﷺ لا يطيل الموعظة يوم الجمعة إنما هن كلمات يسيرات وكان يقول: «**إِنَّ طُولَ صَلَاةِ الرَّجُلِ، وَقِصَرَ خُطْبَتِهِ، مَئِنَّةٌ مِنْ فِقْهِهِ، فَأَطِيلُوا الصَّلَاةَ، وَاقْصُرُوا الخُطْبَةَ، وَإِنَّ مِنَ البَيَانِ سِحْراً**»(١).

١٠- وكانت خطبه تجمع بين الإقناع العقلي، والتأثير الوجداني، وتصوير المعاني والمشاهد، فكانت تزيد الإيمان وتقوي اليقين حتى كأن الآخرة رأي عين، ومن ذلك خطبته حين كسفت الشمس كما في حديث عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: رَكِبَ رَسُولُ الله ﷺ مَرْكَبًا فِي يَوْمٍ شَدِيدِ الحَرِّ، فَانْكَسَفَتْ الشَّمْسُ فخرج فصلى بالناس فَفَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ وَقَدْ انْجَلَتْ الشَّمْسُ فَقَعَدَ عَلَى المِنْبَرِ فَخَطَبَ النَّاسَ فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ الله يُخَوِّفُ اللهُ بِهِمَا عِبَادَهُ، لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا كَذَلِكَ فَافْزَعُوا إِلَى المَسَاجِدِ**». وفي رواية: «**فَافْزَعُوا إِلَى الصَّلَاةِ**». وفي رواية: «**فَادْعُوا اللهَ، وَكَبِّرُوا، وَصَلُّوا، وَتَصَدَّقُوا حَتَّى يَنْجَلِيَا**». ثُمَّ قَالَ وَهُوَ يُنَادِي بِأَعْلَى صَوْتِهِ مُحْمَرَّةً عَيْنَاهُ: «**أَيُّهَا النَّاسُ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَالله مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنْ الله أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ، أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ، أَظَلَّتْكُمْ الفِتَنُ كَقِطَعِ اللَّيْلِ المُظْلِمِ، يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَالله لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً**». فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله، رَأَيْنَاكَ تَنَاوَلْتَ شَيْئًا فِي مَقَامِكَ، ثُمَّ رَأَيْنَاكَ تَكَعْكَعْتَ فَقَالَ ﷺ: «**مَا مِنْ شَيْءٍ تُوعَدُونَهُ إِلَّا قَدْ رَأَيْتُهُ فِي صَلَاتِي هَذِهِ، فَعُرِضَتْ عَلَيَّ الجَنَّةُ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الفُقَرَاءَ فَتَنَاوَلْتُ مِنْهَا عُنْقُوداً حِينَ رَأَيْتُمُونِي جَعَلْتُ أَتَقَدَّمُ فَقَصُرَتْ يَدِي عَنْهُ وَلَوْ أَصَبْتُهُ لَأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيَتْ الدُّنْيَا، ثُمَّ عُرِضَتْ عَلَيَّ جَهَنَّمُ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَذَلِكَ حِينَ رَأَيْتُمُونِي تَأَخَّرْتُ حَتَّى لَقَدْ جَعَلْتُ أَتَّقِيهَا مَخَافَةَ أَنْ يُصِيبَنِي مِنْ لَفْحِهَا، وَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ**». قَالُوا: لِمَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «**بِكُفْرِهِنَّ**». قِيلَ: يَكْفُرْنَ بِالله؟ قَالَ: «**يَكْفُرْنَ العَشِيرَ وَيَكْفُرْنَ الإِحْسَانَ لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ، ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْراً قَطُّ،**

(١) «صحيح مسلم» (٨٦٩).

وَرَأَيْتُ فِيهَا عَمْرَو بْنَ لُحَيٍّ يَجُرُّ قُصْبَهُ وَهُوَ الَّذِي سَيَّبَ السَّوَائِبَ، وَرَأَيْتُ فِيهَا امْرَأَةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ تُعَذَّبُ فِي هِرَّةٍ لَهَا رَبَطَتْهَا، فَلَمْ تُطْعِمْهَا وَلَمْ تَسْقِهَا وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ حَتَّى مَاتَتْ جُوعًا فَهِيَ إِذَا أَقْبَلَتْ تَنْهَشُهَا، وَإِذَا أَدْبَرَتْ تَنْهَشُهَا، وَرَأَيْتُ فِيهَا صَاحِبَ المِحْجَنِ مُتَّكِئًا عَلَى مِحْجَنِهِ فِي النَّارِ، يَقُولُ: أَنَا سَارِقُ المِحْجَنِ وَكَانَ يَسْرِقُ الحَجِيجَ بِمِحْجَنِهِ، فَإِنْ فُطِنَ لَهُ قَالَ: لَسْتُ أَنَا أَسْرِقُكُمْ، إِنَّمَا تَعَلَّقَ بِمِحْجَنِي، وَإِنْ غُفِلَ عَنْهُ ذَهَبَ بِهِ، وَالَّذِي سَرَقَ بَدَنَتَيْ رَسُولِ الله ﷺ فَلَمْ أَرَ مَنْظَرًا كَاليَوْمِ قَطُّ أَفْظَعَ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي القُبُورِ قَرِيبًا مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ يُؤْتَى أَحَدُكُمْ فَيُقَالُ لَهُ: مَا عِلْمُكَ بِهَذَا الرَّجُلِ؟ فَأَمَّا المُؤْمِنُ فَيَقُولُ: هُوَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله، جَاءَنَا بِالبَيِّنَاتِ وَالهُدَى، فَأَجَبْنَا، وَآمَنَّا، وَاتَّبَعْنَا ثَلَاثَ مِرَارٍ فَيُقَالُ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ إِنَّكَ لَتُؤْمِنُ بِهِ، فَنَمْ صَالِحًا، وَأَمَّا المُنَافِقُ أَوْ المُرْتَابُ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ فَاسْتَعِيذُوا بِالله مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، فَإِنَّ عَذَابَ القَبْرِ حَقٌّ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ المَوْتَى لَيُعَذَّبُونَ فِي قُبُورِهِمْ عَذَابًا تَسْمَعُهُ البَهَائِمُ كُلُّهَا». قَالَتْ عَائِشَةُ: فَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ صَلَّى صَلَاةً إِلَّا تَعَوَّذَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ[1].

١١- وربما جمعت خطبته على وجازتها أحكاماً كثيرة، وأموراً متعددة خصوصا خطبه في المجامع العامة كخطبته في عرفة، وخطبته يوم النحر، فإنه ذكر فيها أحكاماً ووصايا كثيرة، وذلك أنه قد أوتي جوامع الكلم واختصر له الكلام اختصاراً، فيذكر كل هذه الوصايا بأبلغ عبارة وأوجزها، ويتفرق الناس وقد حفظ كل منهم ما وعاه وكان الأهم عنده، فجميعها مجموع في رواياتهم، وإن لم يجمعها راو واحد منهم.

١٢- ومع إقباله على خطبته، وإقبال الناس عليه فيها إلا أنه لم يكن صارماً في خطبته إلى حد الزماتة والوقار الشديد المتكلف، ولم تكن مهابته تمنع أحداً أن يكلمه وهو يخطب، ولم يكن وقاره يمنعه أن يكلم أحداً وهو يخطب، أو يقطع خطبته لعارض يعرض له ثم يرجع فيتمها، فقد كان ﷺ يخطب يوم الجمعة فجاء سُلَيْك الغَطَفاني وهو يخطب فجلس فقال له: «يَا سُلَيْكُ قُمْ فَارْكَعْ رَكْعَتَيْنِ وَتَجَوَّزْ فِيهِمَا»[2].

(١) «صحيح البخاري» (٦٣٦٦)، و«صحيح مسلم» (٥٨٦).

(٢) «صحيح مسلم» (٨٧٥).

وكان يخطب يومًا على المنبر فدخل الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران فنزل ﷺ فأخذهما فصعد بهما المنبر ثم قال: «**صدق الله؛** ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]. **فَنَظَرْتُ إِلَى هَذَيْنِ الصَّبِيَّيْنِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ فَلَمْ أَصْبِرْ حَتَّى قَطَعْتُ حَدِيثِي وَرَفَعْتُهُمَا**» ثم أخذ في خطبته فأتمها.

وكان ﷺ يخطب مرة يوم الجمعة فدخل أعرابي فاستقبل رسول الله ﷺ قائمًا ثم قال: يا رسول الله هلكت الأموال وجاع العيال وانقطعت السبل فادع الله تعالى أن يسقينا.

وبأبي وأمي رسول الله ﷺ وهو يسمع هذا الأعرابي الذي لم يجلس فيستمع ثم يكلم النبي ﷺ بعد أن ينهي خطبته وصلاته، وإنما بادر بحاجته وقطع على النبي ﷺ خطبته، فما أغضب ذلك النبي ﷺ ولا أحفظه وإنما بادر بالاستجابة لهذا الأعرابي، واستشعر حاجته التي ألجأته لذلك، ورفع يديه يدعو ويستغيث حتى نزل المطر قبل أن ينزل هو عن منبره ﷺ[٢].

ودخل تَمِيم بن أَسَد المسجد ورسول الله ﷺ يخطب فتوجه إليه وقال: يا رسول الله رجل غريب يسأل عن دينه ولا يدري ما دينه، فأقبل عليه رسول الله ﷺ وترك خطبته حتى انتهى إليه، فأُتي بكرسي قوائمه من حديد فقعد عليه وجعل يعلمه مما علمه الله فلما فرغ أتى خطبته فأتم آخرها[٣].

إن أشق شيء على الخطيب أن يقاطعه أحدٌ أو يقطع عليه خطبته، ولكن نبينا ﷺ يتلقى هذا السائل الغريب بهذا الاهتمام والحفاوة، فيقطع الخطبة ويأتي هو إليه ولم يستدعه نحوه، ثم يجلس على كرسي حتى يسمع الناس حوله حوارهما فيتعلموا جميعًا، فيستمع إليه ويعلمه حتى إذا فرغ عاد إلى خطبته فأتمها.

إنه مشهد من مشاهد عظمة خلقه ﷺ وعظيم رأفته ورحمته بالمؤمنين.

---

(١) «سنن أبي داود» (١١٠٩).

(٢) «صحيح البخاري» (١٠١٣)، و«صحيح مسلم» (٨٩٧).

(٣) «صحيح مسلم» (٨٧٦).

وكان ﷺ يخطب الناس في منى في أوسط أيام التشريق على بغلة شهباء وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قائم يبلغ الناس عنه، والناس حوله بين جالس وقائم قال رافع بن عمرو المزني وكان حينها غلامًا صغيراً: فأقبلت أنا وأبي فجلس أبي مع الناس، وتخللت الركاب حتى أتيت البغلة فأخذت بركابها ووضعت يدي على ركبته فمسحت الساق حتى بلغت بها القدم ثم أدخلت كفي بين النعل والقدم فيخيل إلي الساعة أني أجد برد قدمه على كفي[1].

ولئن عجب رافع من برد قدم النبي ﷺ فإننا لنعجب من تلك النفس الرضية حيث يمضي النبي ﷺ في خطبته ويدٌ صغيرة تشاغله بالمسح على ساقه والعبث بما بين قدمه ونعله، ولم يستفزه ذلك فينهر الصبي أو ينظر إليه شزراً أو ينادي أباه ليبعده عنه، وإنما ترك الصبي وشأنه وأقبل هو على خطبته فهي همه وشأنه.

وإني لأحسب الناس حول النبي ﷺ منصتين بآذانهم إلى بليغ قوله، ومُشْرَئِبِّينَ بأبصارهم إلى جميل فعله.

لقد كان تعامل النبي ﷺ مع الصبي في مقامه ذلك خطبة أخرى مع خطبته التي يلقيها تحكي للناس كيف يكون حسن التعامل، وكيف تكون عظمة الخلق.

إن هذا يبين أن هذا النبي الكريم لم يكن يخطب كما يخطب الجبارون والمتكبرون، والذين يهمهم الحفاظ على رسومهم ومراسم هيبتهم، لكنه كان يخطب داعيا وهاديا، حتى في هذا المقام يَظْهر حسن تعامله وتواضعه، ولين جانبه واستيعابه لحاجات الناس، وتفهمه لظروفهم وطبائعهم، ولذا يقطع الخطبة لعثرات صبي جاء يمشي إليه، ولغريب جاء يسأله، ولمجهود جاء يطلب دعاءه.. فيسعهم جميعا خلقه وبره، بل إنه ﷺ كان يخطب أصحابه يوم جمعة فجاءت قافلة من الشام تحمل طعاماً فانفض الناس إليها حتى ما بقي مع النبي ﷺ إلا اثنا عشر رجلاً: فنزلت: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾ [الجمعة: ١١][2].

(١) «المعجم الكبير» للطبراني (٤٤٥٨).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٨٩٩)، و«صحيح مسلم» (٨٦٣).

ومع ذلك لم ينقل أن النبي ﷺ عاتبهم أو لامهم أو دعا أحداً منهم فساءله أو وبخه، وإنما اكتفى بالعتاب القرآني اللطيف: ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [الجمعة: ١١].

إنه ﷺ الداعية الذي يحمل في قلبه محبة الخلق، والرحمة بهم، والحرص على هدايتهم، وتفهّم ما يعرض للنفوس البشرية من ضعف ونقص يُسدَّد بالتربية الحكيمة والتوجيه الهادي الرفيق.

لقد كان ﷺ يذيب نفسه في كلماته إذا تكلم لشدة تأثره بما يقول، ولذا وقعت خطبه من القلوب موقعها، وأثرت أثرها، وتنزلت كلمات خطبه على النفوس غيثا أحياها فاهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج.

خلاصات:

١- كان ﷺ يتفاعل مع خطبته ويتأثر عند إلقائها.

٢- كانت أفعال النبي ﷺ تسبق أقواله، فلكل ما يقوله رصيده العملي من سيرته.

٣- كان إذا خطب أقبل على الناس بوجهه، وتواصل ببصره معهم، وإذا كان الجمع كثيراً أشرف عليهم.

٤- كان إذا خطب اعتمد على قوس أو عصا على عادة العرب في خطبهم.

٥- كان يتجمَّل في لباسه لخطبة الجمعة، تعظيماً للشعيرة، واحتفاء بالحاضرين.

٦- كان ﷺ يبدأ خطبه بحمد الله والثناء عليه، والشهادتين.

٧- كانت خطب الجمعة مواعظ عامة يؤكد فيها على قضايا الدين الكلية، وما أعد الله لمن أطاعه، وما توعد به من كفر به.

٨- لم تنقل لنا خطب الجمعة التي خطبها النبي ﷺ لأنها مواعظ تؤكد على قضايا تكررت مضامينها في آيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ.

٩- كان ﷺ يوجز الخطبة ويختصرها، ويأمر بإيجازها.

١٠- كانت خطبته على وجازتها تجمع أحكاماً كثيرة وأموراً متعددة.

١١- لم يكن صارماً في خطبته إلى حد الزماتة، ولذا كان يقطع خطبته ليكلم أحداً، أو ليستمع إلى من يكلمه، أو يستجيب لمن يدعوه.

الرسول ﷺ وأُمَّته

جعل الله هذا النبي الكريم منته العظمى على عباده أن بعثه فيهم، وأرسله إليهم؛ ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وإذا نظرنا إلى حال هذا النبي مع أمته علمنا عظيم منة الله به علينا.

لقد وصفه ربه الذي اختاره وأرسله فقال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

فكانت أمة النبي ﷺ حاضرة في وجدانه، فحرصُه عليها أشد الحرص، وشفقتُه عليها أعظم الشفقة، وتتجلى مكانة الأمة في وجدان نبيها ﷺ في معالم منها:

أولاً: شدة اهتمامه بها وحرصه عليها، حتى إن ربه الذي أرسله يعاتبه على تحسره عليهم، وأسفه الذي يكاد أن يذهب بنفسه ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨]، ﴿فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، و﴿بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ أي: مهلك نفسك.

إن النبي ﷺ لم يكن يدعوهم ليقيم الحجة عليهم فقط، ولكن يدعوهم بمشاعره وعواطفه مستنقذاً لهم أن يفلتوا منه فيقعوا في النار، وهو ما بيَّنه ﷺ بقوله: «**مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَوْقَدَ نَاراً، فَجَعَلَ الجَنَادِبُ وَالفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهَا، وَهُوَ يَذُبُّهُنَّ عَنْهَا، وَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ، وَأَنْتُمْ تَفَلَّتُونَ مِنْ يَدِي**»(١).

(١) «صحيح مسلم» (٢٢٨٥).

ولذا كان فرحُه عظيما بنجاة من آمن به، وأسفُه وحُزنه شديداً على من ضل وأعرض عنه.

ثانيـًا: كان ﷺ يحمل همّ الأجيال القادمة حرصـًا عليهم وشوقـًا إليهم، فعندما عرض عليه ملك الجبال أن يطبق على أهل مكة الأخشبين[1] فيدفنهم تحت أحجارها فقال له: «**إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ؟**». فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**بَلْ أَستأني بِهِم لَعَلَّ الله يُخْرِجَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئـًا**»[2].

لقد كان حرصه وأمله يمتد إلى الأجيال القادمة أن يهديها الله به فيستنقذها من الهلكة، وإن كان الآباء في حال عداءٍ ولجاجة.

وعندما وقف بالبقيع يدعو لمن مات من أصحابه قال: «**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ، وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا**». فَقال أصحابه: أَوَلَسْنَا إِخْوَانَكَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «**أَنْتُمْ أَصْحَابِي وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ**»[3].

لقد كانت أجيال الأمة حاضرة في وجدانه حتى كانت أشواقه إليهم تسابق وجودهم في هذه الحياة، فكان يتمنى رؤيتهم واللقاء بهم ﷺ.

ثالثـًا: من شفقته على أجيال أمته القادمة تحذيرهم من الفتن والاختلاف الذي سيواجههم، والعهد إليهم وتوصيتهم باتخاذ الموقف الصحيح من كل فتنة، والحذر من أسباب الضلال والهلكة.

ولذا فصل لهم الأحوال والتغيرات التي ستواجههم وأوصاهم بالموقف الرشيد أمامها، فلا تكاد تقع بوادر فتنة حادثة إلا استشعرنا أنه ﷺ قائم على رؤوسنا يناشدنا: إياكم إياكم، أما ذكرتكم، أما حذرتكم؟

وكان يقدم وصاياه المستقبلية بلهفة ولوعة تستشعر فيها حرارة اللهف ورقة الإشفاق؛ فعن العرباض بن سارية قال: وَعَظَنَا رَسُولُ الله ﷺ مَوْعِظَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا العُيُونُ،

---

(١) الأخشبان: جبلا مكة اللذان يكتنفانها جبل أبي قبيس وعليه الصفا، وجبل قعيقعان وعليه المروة. ينظر: «النهاية» (٢/ ٣٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٢٣١)، و«صحيح مسلم» (١٧٩٥).

(٣) «صحيح مسلم» (٢٤٩).

وَوَجِلَتْ مِنْهَا القُلُوبُ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ هَذِهِ لَمَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ، فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ قَالَ: «**قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى البَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ، وَمَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيراً، فَعَلَيْكُمْ بِمَا عَرَفْتُمْ مِنْ سُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ**»[1].

وأخبر أمته أن الدنيا ستفتح عليهم، وسيكثر المال في أيديهم فأوصاهم بتجنب الآثار الضارة لذلك كالتنافس فيها والشح بها والخلاف بسببها، فقال: «**فَوَاللهِ مَا الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ، كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ**»[2].

وحذر من فتن آخر الزمان، وما سيقع منها في الغيب البعيد، ومن ذلك: لما ذكر خروج الدجال فصَّل فيه وخفض ورفع حتى ظن الناس أنه قد وصلهم من أطراف المدينة عند نخيلها، فلما اجتمعوا عليه عرف الفزع في نفوسهم فقال: «**مَا شَأْنُكُمْ؟**»، فقالوا: يا رسول الله، ذكرت الدجال من الغداة فخفضت فيه، ورفعت حتى ظننا في طائفة النخل، فقال ﷺ: «**غَيْرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفُنِي عَلَيْكُمْ؛ إِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ، وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ فَامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِهِ، وَاللهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ**»[3]، ثم فصّل لهم من ذكر أوصافه وأحواله حتى كأنما ينظرون إليه الساعة.

رابعًا: محبته كثرة أمته وتفاخره بهم، فقال: «**مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ**»[4].

وعندما عُرضت عليه الأمم في المنام تشوق أن تكون أمته أكثرها عدداً فقال: «**عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ وَالنَّبِيَّانِ يَمُرُّونَ مَعَهُمُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، حَتَّى رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، قُلْتُ: مَا هَذَا؟ أُمَّتِي هَذِهِ؟ قِيلَ: بَلْ هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ، قِيلَ: انْظُرْ إِلَى الأُفُقِ،**

(١) «سنن ابن ماجه» (٤٣).
(٢) «صحيح مسلم» (٢٩٦١).
(٣) «صحيح مسلم» (٢٩٣٧).
(٤) «صحيح البخاري» (٤٩٨١)، و«صحيح مسلم» (١٥٢).

فَإِذَا سَوَادٌ يَمْلَأُ الأُفُقَ، ثُمَّ قِيلَ لِي: انْظُرْ هَا هُنَا وَهَا هُنَا فِي آفَاقِ السَّمَاءِ، فَإِذَا سَوَادٌ قَدْ مَلَأَ الأُفُقَ، قِيلَ: هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَيَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ هَؤُلَاءِ سَبْعُونَ الفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ»(١).

ولمحبته كثرة أمته وحرصه على ذلك، ومكاثرته بهم الأمم يوم القيامة رغَّبَ في الزواج والتكاثر وطلب الولد، فقال: «**تَزَوَّجُوا الوَدُودَ الوَلُودَ فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمُ الأُمَمَ**»(٢).

وكان يستبشر ويبشر بمن يدخل الجنة من أمته ولذا بشر أصحابه فعَنْ عَبْدِ الله، قَالَ: كنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي قُبَّةٍ نَحْوٌ مِنْ أَرْبَعِينَ، فَقَالَ: «**أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الجَنَّةِ؟**». قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: «**أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الجَنَّةِ؟**». قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَذَاكَ أَنَّ الجَنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ، وَمَا أَنْتُمْ فِي الشِّرْكِ إِلَّا كَالشَّعْرَةِ البَيْضَاءِ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَسْوَدَ، أَوِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَحْمَرَ**»(٣).

خامسًا: حرصه ألا يفرض عليهم ما يشق عليهم، ومحبته التيسير عليهم.

فقال: «**لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ، وَلَأَخَّرْتُ صَلَاةَ العِشَاءِ إِلَى ثُلُثِ اللَّيْلِ**»(٤).

وعن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ خَرَجَ ذَاتَ لَيْلَةٍ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ، فَصَلَّى فِي المَسْجِدِ، فَصَلَّى رِجَالٌ بِصَلَاتِهِ، فَأَصْبَحَ النَّاسُ، فَتَحَدَّثُوا، فَاجْتَمَعَ أَكْثَرُ مِنْهُمْ، فَصَلَّوْا مَعَهُ، فَأَصْبَحَ النَّاسُ، فَتَحَدَّثُوا، فَكَثُرَ أَهْلُ المَسْجِدِ مِنَ اللَّيْلَةِ الثَّالِثَةِ، فَخَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ، فَصَلَّوْا بِصَلَاتِهِ، فَلَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الرَّابِعَةُ عَجَزَ المَسْجِدُ عَنْ أَهْلِهِ حَتَّى خَرَجَ لِصَلَاةِ الصُّبْحِ، فَلَمَّا قَضَى الفَجْرَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَتَشَهَّدَ، ثُمَّ قَالَ: «**أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّهُ لَمْ يَخْفَ عَلَيَّ مَكَانُكُمْ، لَكِنِّي خَشِيتُ أَنْ تُفْرَضَ عَلَيْكُمْ، فَتَعْجِزُوا عَنْهَا**»(٥).

---

(١) «صحيح البخاري» (٥٧٠٥)، و«صحيح مسلم» (٢٢٠).

(٢) «سنن أبي داود» (٢٠٥٠).

(٣) «مسند أحمد» (٣٦٦١)، و«صحيح البخاري» (٦٥٢٨)، و«صحيح مسلم» (٢٢١).

(٤) «جامع الترمذي» (٢٣).

(٥) «صحيح البخاري» (٩٢٤)، و«صحيح مسلم» (٧٦١).

وعندما قال للناس: «**أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمُ الحَجَّ، فَحُجُّوا**». فَقَالَ رَجُلٌ: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ الله؟ فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ لَوَجَبَتْ، وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ**». ثُمَّ قَالَ: «**ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ**»(١).

فكان ﷺ يحتاط لهم أن يفرض عليهم ما يشق عليهم، وينهاهم عن التعرض للمشقة والحرج، ويحملهم على اليسر والتيسير، والحنيفية السمحة التي بُعث بها.

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ فَإِذَا حَبْلٌ مَمْدُودٌ بَيْنَ السَّارِيَتَيْنِ، فَقَالَ: «**مَا هَذَا الحَبْلُ؟**». قَالُوا: هَذَا حَبْلٌ لِزَيْنَبَ فَإِذَا فَتَرَتْ تَعَلَّقَتْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا، حُلُّوهُ، لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ، فَإِذَا فَتَرَ فَلْيَقْعُدْ**»(٢).

وكان يقول: «**اِكْلَفُوا مِنَ العَمَلِ مَا تُطِيقُونَ فَإِنَّ اللهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا**»(٣).

سادسًا: كثرة مناشدته ربه لأمته، فلهجُهُ ومناشدته لربه: «**اللهُمَّ أُمَّتِي، اللهُمَّ أُمَّتِي**». يناشد بها ربه في الدنيا، ويناشد بها ربه في الآخرة.

فعن عَبْدِ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَلَا قَوْلَ الله عَزَّوَجَلَّ فِي إِبْرَاهِيمَ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ [ابراهيم: ٣٦]، وَقَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: «**اللهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي**». وَبَكَى، فَقَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: «**يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ، فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ؟**». فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ الله ﷺ بِمَا قَالَ، وَهُوَ أَعْلَمُ، فَقَالَ اللهُ: «**يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ، وَلَا نَسُوءُكَ**»(٤).

وناشد ربه سلامة أمته وعافيتها من أن تنهكها المجاعات، أو تقضي عليها الجوائح، فأعطاه ربه ذلك فهي شهادة خلود لهذه الأمة إلى آخر الزمان، فعن سعد بن أبي وقاص،

---

(١) «صحيح مسلم» (١٣٣٧).
(٢) «صحيح البخاري» (١١٥٠).
(٣) «صحيح البخاري» (٤٣).
(٤) «صحيح مسلم» (٢٠٢).

أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ أَقْبَلَ ذَاتَ يَوْمٍ مِنَ العَالِيَةِ، حَتَّى إِذَا مَرَّ بِمَسْجِدِ بَنِي مُعَاوِيَةَ دَخَلَ فَرَكَعَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، وَصَلَّيْنَا مَعَهُ، وَدَعَا رَبَّهُ طَوِيلاً، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَيْنَا، فَقَالَ ﷺ: «**سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا، فَأَعْطَانِي ثِنْتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً، سَأَلْتُ رَبِّي: أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالغَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا**»[1].

وكما ناشد ربه لأمته في الدنيا، فسيناشده يوم القيامة، وسيكون دعاءه ولهجه في عرصات القيامة وشدائد الموقف والعرض الأكبر: «**أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ**».

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: أُتِيَ رَسُولُ الله ﷺ يَوْمًا بِلَحْمٍ، فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ فَنَهَسَ مِنْهَا نَهْسَةً[2] فَقَالَ: «**أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ بِمَ ذَاكَ؟ يَجْمَعُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، وَيَنْفُذُهُمُ البَصَرُ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الغَمِّ وَالكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ، وَمَا لَا يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: أَلَا تَرَوْنَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ؟ أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟..**».

فذكر الحديث وفيه ذهابهم إلى آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فيعتذرون كلهم عن الشفاعة، ويقولون: «**إِنَّ اللهَ قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ.. فَيَأْتُونِي فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ، أَنْتَ رَسُولُ الله، وَخَاتَمُ الأَنْبِيَاءِ، وَغَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَأَنْطَلِقُ، فَآتِي تَحْتَ العَرْشِ، فَأَقَعُ سَاجِداً لِرَبِّي، ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ وَيُلْهِمُنِي مِنْ مَحَامِدِهِ، وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ لِأَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهْ، اشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، أَدْخِلْ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنَ البَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الأَبْوَابِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّ مَا بَيْنَ المِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الجَنَّةِ لَكَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرٍ، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى**»[3].

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٣٠٤)، و«صحيح مسلم» (٢٨٩٠).

(٢) النهس: أخذ اللحم بأطراف الأسنان. ينظر: «النهاية» (٥/ ١٣٦).

(٣) «صحيح البخاري» (٤٧١٢)، و«صحيح مسلم» (١٩٤).

إن البشرية كلها تأتيه فيشفع لها، ولكن لهجه وهجيراه: «**أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ**». فأمته حاضرة في وجدانه وهمه، لا يطمئن حتى يسلمهم إلى منازلهم في الجنة.

فيا لله أي لهف ورأفة وشفقة ورحمة أعظم من رحمة هذا النبي ورأفته بأمته؟

سابعًا: ادخاره دعوته المستجابة لأمته أحوج ما تكون إليها، وذلك بالشفاعة لها يوم القيامة، فقال: «**لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ القِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا**»[1].

فادخر الدعوة الثمينة المتحققة الإجابة لأشد الساعات شدة، وأعظم المواقف خطراً، يوم الكرب والذهول ليدفع بها غضب الرب من يوم لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وانظر كيف وسع أثرها لتشمل أمة الاستجابة كلها، فلم يقل: هي نائلة المتصدقين أو المجاهدين أو المتهجدين، وإنما قال: «**فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا**».

ثامنًا: استدفاعه العقوبة عنهم، فعندما عرض عليه ملك الجبال أن يهلك قريشًا وقال له: «**إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ؟**»، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**»[2].

وفي غزوة أُحد عندما شُج رأسه ﷺ وكسرت رَباعيته[3] فجعل يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ: «**اللهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**»[4].

قال القرطبي: وإذا تأمل الفطن هذا الدعاء في مثل تلك الحال علم معنى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] فإنه ﷺ لم يدع عليهم فينتصر، ولم يقتصر على العفو حتى دعا لهم، ولم يقتصر على الدعاء لهم حتى أضافهم لنفسه على جهة الشفقة،

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٣٠٤)، و«صحيح مسلم» (١٩٩).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٢٣١)، و«صحيح مسلم» (١٧٩٥).

(٣) الرَبَاعِيَة: هِيَ السِّنُّ الَّتِي تَلِي الثَّنِيَّةَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَلِلإِنْسَانِ أَرْبَعُ رَبَاعِيَاتٍ. ينظر: «شرح النووي على مسلم» (١٢/ ٤٨١).

(٤) «صحيح ابن حبان» (٩٧٣).

ولم يقتصر على ذلك حتى جعل لهم جهلهم بحاله كالعذر، وإن لم يكن عذراً، وهذا غاية الفضل والكرم التي لا يشارك فيها ولا يوصل إليها[1].

فاستدفع ﷺ عنهم العقوبة التي خشي أن تعاجلهم لعظم ما جنوه على نبيهم، فاستجاب الله دعاءه لهم فإذا أكثر من قاتلوه في أُحُد أسلموا بعد وقاتلوا عن دينه في حياته وبعد وفاته، ومنهم قادة المشركين في هذه المعركة؛ أبو سفيان وعكرمة وخالد بن الوليد.

وعندما كسفت الشمس خرج النبي ﷺ فزعًا مسرعًا حتى إنه لبس درعًا لإحدى نسائه من الفزع والعجلة يخشى أن تكون الساعة، أو تكون عقوبة تعاجل بها أمته، فصلى صلاة طويلة وناشد ربه وألظّ في المناشدة، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: انْكَسَفَتِ الشَّمْسُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَلَمْ يَكَدْ يَرْكَعُ، ثُمَّ رَكَعَ فَلَمْ يَكَدْ يَرْفَعُ، ثُمَّ رَفَعَ فَلَمْ يَكَدْ يَسْجُدُ، ثُمَّ سَجَدَ فَلَمْ يَكَدْ يَرْفَعُ، ثُمَّ رَفَعَ فَلَمْ يَكَدْ يَسْجُدُ، ثُمَّ سَجَدَ فَلَمْ يَكَدْ يَرْفَعُ، ثُمَّ رَفَعَ وَفَعَلَ فِي الرَّكْعَةِ الأُخْرَى مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ نَفَخَ فِي آخِرِ سُجُودِهِ، فَقَالَ: «**أُفْ أُفْ**». ثُمَّ قَالَ: «**رَبِّ، أَلَمْ تَعِدْنِي أَنْ لَا تُعَذِّبَهُمْ وَأَنَا فِيهِمْ؟ أَلَمْ تَعِدْنِي أَنْ لَا تُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ؟**». فَفَرَغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ صَلَاتِهِ، وَقَدْ أَمْحَصَتِ الشَّمْسُ[2].

إن هذا اليوم الذي كسفت فيه الشمس هو اليوم الذي توفي فيه ولده إبراهيم، ولكن النبي ﷺ تجاوز أحزانه وفجيعته، وذُهِلَ عن ثكله بالخوف على أمته أن تعاجل بعقوبة، وخشي أن يكون هذا الكسوف آية عذاب فجعل يناشد ربه ويستدفع العذاب عن أمته: «**رَبِّ، أَلَمْ تَعِدْنِي أَنْ لَا تُعَذِّبَهُمْ وَأَنَا فِيهِمْ؟ أَلَمْ تَعِدْنِي أَنْ لَا تُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ؟**».

إنك تستشعر من هذا المشهد أن هذه الأمة بكل أجيالها كالابن الأحب للنبي ﷺ في حبه لها، وشفقته عليها، وصدق ﷺ حينما قال: «**إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ مِثْلُ الوَالِدِ**»[3]، وفي قراءةٍ: «**النَّبِيُّ أَوْلَى بِالمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَهُوَ أَبٌ لَهُمْ**»[4]، لقد كانت نبوة نبينا أبوةً لنا، فصلوات الله وسلامه وبركاته عليه وعلى آله.

---

(١) «المفهم» للقرطبي (٣/ ٦٥٠).

(٢) «سنن أبي داود» (١١٩٤). وأمحصت: أي ظهرت بعد الغروب. ينظر: «النهاية» (٤/ ٣٠٢).

(٣) «السنن الكبرى» للنسائي (٤٠).

(٤) «تفسير القرطبي» (٥/ ٣٥٩).

خلاصات:

كيف ستكون هذه الأمة في قلب من وصفه ربه بأنه: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، ويتجلى حرصه ورأفته ورحمته في مشاهد:

١- شدة حرصه على هدايتها حتى عاتبه ربه الذي أرسله فقال: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر: ٨].

٢- كان يحمل هَمَّ الأجيال القادمة حرصًا على هدايتهم، وشوقًا إلى لقائهم حتى كان شوقه إليهم يسبق وجودهم.

٣- ابتهاجه بكثرة أمته، ومكاثرته بهم الأمم يوم القيامة.

٤- حرصه ألا يفرض عليهم ما يشق عليهم، ومحبته التيسير عليهم وألا يتكلفوا ما لا يطيقون.

٥- كثرة مناشدته ربه لأمته في الدنيا والآخرة، فلهجه ومناشدته لربه: «**يَا رَبِّ، أُمَّتِي، أُمَّتِي**». ناشد بها ربه في حياته، ويناشده بها يوم القيامة.

٦- ومن شفقته على أمته وصفه ما يحدث لهم من تغير الأحوال في المستقبل، ومن فتن في آخر الزمان، ووصاتهم بما يواجهون به ذلك ويحتاطون له.

٧- ادخاره دعوته المستجابة شفاعة لأمته يوم القيامة.

٨- استدفاعه العقوبة والجوائح عنهم، ومناشدته ربه في ذلك، فأجاب الله دعوته وضمن له خلود أمته إلى قيام الساعة.

كلام الرسول ﷺ

حديث الرسول ﷺ إذا تحدَّث، وخطابه إذا خطب، هو وعاء بلاغه، وبيان رسالته، وخطاب دعوته، وقد آتاه الله مواهب الخطاب البليغ، والبيان الفصيح، فليس في لسانه عقدة، وليس في منطقه لثغة، وإنما كان منطقه صحيحاً فصيحاً، ولسانه بَيِّناً طليقاً، وتلاوته أجمل تلاوة، ومنطقه أوضح منطق، وكان أفصح خلق الله كلاماً، وأعذبهم حديثاً، وأبينهم أداء، ليس كلامه هذّاً مسرعاً، ولا بطيئاً متقطعاً.

١- كان يتكلم بأناة وترسُّل لا يسرد الحديث سرداً، ولا يهذ كلامه هذّاً، وإنما يتكلم بكلام فصل جزل، يسهل فهمه وحفظه، قالت عائشة: لم يكن رسول الله ﷺ يسرد الحديث كسردكم، ولكنه كان إذا جلس مجلساً يتكلم بكلامٍ بَيِّنٍ فصل، تفهمه القلوب، ويحفظه كل من سمعه، كان يتكلم كلاماً لو عدَّه العادُّ لأحصاه[1].

٢- ويتميز كلامه بالإيجاز الجامع فلا طول ولا استطراد، وإنما عبارات معدودة، يسهل عدها وحفظها، ولذا حفظ الصحابة كلامه، ووعوا ورووا عنه حديثاً طيباً كثيراً مباركاً فيه، وذلك لوضوحه واختصاره وسهولة حفظه وروايته.

وإذا نظرنا في الأحاديث النبوية فهي في معدّل سطرين أو ثلاثة لكل حديث، فإن طالت فذلك أنها في أثناء قصة.

(١) «صحيح البخاري» (٣٥٦٧)، و«صحيح مسلم» (٢٤٩٣).

وقد أوتي ﷺ في حديثه جوامع الكلم، واختصر له الكلام اختصارا، فيجمع المعاني الكثيرة في اللفظ الوجيز قال ﷺ: «**أُوتِيتُ جَوَامِعَ الكَلِمِ**»(١).

ولذا جُمعت مهمات الدين في كلمات جامعة من كَلِمِه الجوامع مثل قوله:

«**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**»(٢).

«**المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ**»(٣).

«**فَمَنْ اتَّقَى المُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ**»(٤).

«**دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ**»(٥).

«**مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ**»(٦).

٣- وكان إذا تكلم فإن حديثه يغلب عليه الحوار بأن يطرح سؤالاً، أو يثير تساؤلاً أو يضرب مثالاً، ولذلك يشترك المتلقِّي في التفاعل مع الحديث.

ومن ذلك قوله: «**أَتَدْرُونَ مَنِ المُفْلِسُ؟**». قَالُوا: المُفْلِسُ فِينَا يَا رَسُولَ الله مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، قَالَ ﷺ: «**المُفْلِسُ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ بِصَلَاتِهِ وَصِيَامِهِ وَزَكَاتِهِ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُقْعَدُ فَيَقْتَصُّ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْتَصّ مَا عَلَيْهِ مِنَ الخَطَايَا أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ**»(٧).

وربما مَثَّل الحال التي يحكيها وصورها حتى يقرن الحديث بالمشهد، كقوله: «**كَانَتِ امْرَأَةٌ تُرْضِعُ ابْنًا لَهَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَمَرَّ بِهَا رَجُلٌ رَاكِبٌ ذُو شَارَةٍ فَقَالَتْ:**

(١) «صحيح البخاري» (٧٠١٣)، و«صحيح مسلم» (٥٢٣).
(٢) «صحيح البخاري» (١)، و«صحيح مسلم» (١٩٠٧).
(٣) «صحيح البخاري» (١٠)، و«صحيح مسلم» (٤٠).
(٤) «صحيح البخاري» (٥٢)، و«صحيح مسلم» (١٥٩٩).
(٥) «جامع الترمذي» (٢٥١٨).
(٦) «جامع الترمذي» (٢٣١٧).
(٧) «صحيح مسلم» (٢٥٨١).

اللهُمَّ اجْعَلِ ابْنِي مِثْلَهُ، فَتَرَكَ ثَدْيَهَا وَأَقْبَلَ عَلَى الرَّاكِبِ، فَقَالَ: اللهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى ثَدْيِهَا يَمَصُّهُ». قَالَ: أَبُو هُرَيْرَةَ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَمَصُّ إِصْبَعَهُ[1].

وحديث: «**إِنَّ الكَافِرَ إِذَا خَرَجَتْ رُوحُهُ** -وَذَكَرَ مِنْ نَتْنِهَا، وَذَكَرَ لَعْنًا- **وَيَقُولُ أَهْلُ السَّمَاءِ رُوحٌ خَبِيثَةٌ جَاءَتْ مِنْ قِبَلِ الأَرْضِ. فَيُقَالُ: انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى آخِرِ الأَجَلِ**». قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَرَدَّ رَسُولُ الله ﷺ رَيْطَةً[2] كَانَتْ عَلَيْهِ عَلَى أَنْفِهِ هَكَذَا[3]، أي غطى بها أنفه كما يصنع من وجد ريحًا كريهة، وذلك حتى يصوّر المشهد ويتضح المعنى وترتبط الصورة بالرواية.

٤- وكان إذا تكلم بكلام له أهميته كرره ثلاثًا ليعقل عنه، وليبين أهميته، قال أنس: كان النبي ﷺ إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثًا حتى تفهم عنه[4]. ومثال ذلك: حديث عَبْدِ الله بن مسعود، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ، هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ، هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ**». قَالَهَا ثَلَاثًا[5].

وربما زاد على الثلاث لبيان الأهمية والخطورة كقوله: «**أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟ أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟ أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟**» ثَلَاثًا، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «**الإِشْرَاكُ بِالله، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ** -وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَقَالَ- **أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ**». قَالَ: فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قالوا: لَيْتَهُ سَكَتَ[6]، وذلك شفقة من أصحابه عليه لما رأوا من تأثره.

٥- ومما تميّز به حديثه العفة والجمال، فليس في حديثه كُلِّه كلمةٌ خادشة أو فاحشة، ولا محرجة أو جارحة، قال عبد الله بن عمرو: لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ فَاحِشًا وَلَا مُتَفَحِّشًا[7].

وإذا احتاج إلى ذكر ما يستحيى من ذكره كنَّى عنه بكناية جميلة تستره، كما في حديث عائشة أن امرأةً سألت النبي ﷺ: كيف تغتسل من الحيض؟ فذكرت أنه علمها الغسل ثم قال:

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٤٣٦)، و«صحيح مسلم» (٢٥٥٠).
(٢) الريطة: ثوب رقيق لين. ينظر: «النهاية» (٢/ ٢٨٩).
(٣) «صحيح مسلم» (٢٨٧٢).
(٤) «صحيح البخاري» (٦٢٤٤).
(٥) «صحيح مسلم» (٢٦٧٠).
(٦) «صحيح البخاري» (٢٦٥٤)، و«صحيح مسلم» (٨٧).
(٧) «صحيح البخاري» (٣٥٥٩).

«**ثُمَّ تَأْخُذُ فِرْصَةً مُمَسَّكَةً فَتَطَهَّرُ بِهَا**». قَالَتْ المرأة: وَكَيْفَ أَتَطَهَّرُ بِهَا؟ قَالَ: «**سُبْحَانَ الله، تَطَهَّرِي بِهَا**». واستتر بيديه على وجهه، حياءً أن يصرح لها، قالَتْ عَائِشَةُ: فاجتذبتها إليَّ وعرفت ما أراد النبي ﷺ، فقلت: تتبَّعِي بها أَثَرَ الدَّمِ[1].

وكقوله في حديث امرأة رفاعة القرظي لما أرادت فراق زوجها بعده عبد الرحمن بن الزَّبير: «**أَتُرِيدِينَ أَنْ تَرْجِعِي إِلَى رِفَاعَةَ؟ لا، حَتَّى تَذُوقِي عُسَيْلَتَهُ وَيَذُوقَ عُسَيْلَتَكِ**»[2]، أي لا تحلين له حتى يعاشرك الثاني معاشرة الأزواج.

وهذه الكنايات هي من تأديب الله لنبيه فيما أنزل في كتابه كما قال ابن عباس: الدُّخُولُ، وَالتَّغَشِّي، وَالإِفْضَاءُ، وَالمُبَاشَرَةُ، وَالرَّفَثُ، وَاللَّمْسُ، هَذَا الجِمَاعُ غَيْرَ أَنَّ اللهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يُكَنِّي بِمَا شَاءَ عَمَّا شَاءَ[3].

وكذا كان نبيه ﷺ حييا كريما يكني ولا يفحش.

٦- وكان يؤكد ما يستحق التأكيد، ويقسم على ما يستحق التعظيم، فيقول: والذي نفسي بيده، كقوله: «**فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ**»[4].

«**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ، فَيَحْتَطِبَ عَلَى ظَهْرِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَأْتِيَ رَجُلاً، فَيَسْأَلَهُ أَعْطَاهُ أَوْ مَنَعَهُ**»[5].

«**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ الله تَعَالَى مِنْ رِيحِ المِسْكِ**»[6].

٧- وكان لكلامه ﷺ وقعه في القلوب وتأثيره في النفوس حتى كأنهم يرون ما يحدثهم عنه، وينفعلون بما ينفعل به، قال حنظلة الأسيدي: لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ؟ يَا حَنْظَلَةُ، قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، قَالَ: سُبْحَانَ الله، مَا تَقُولُ؟ قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ،

---

(١) «صحيح البخاري» (٣١٤)، و«صحيح مسلم» (٣٣٢).
(٢) «صحيح البخاري» (٥٢٦٠)، و«صحيح مسلم» (١٤٣٣).
(٣) «مصنف عبد الرزاق» (١٠٨٢٦).
(٤) «صحيح البخاري» (١٤)، و«صحيح مسلم» (٤٤).
(٥) «صحيح البخاري» (١٤٧٠)، و«صحيح مسلم» (١٠٤٢).
(٦) «صحيح البخاري» (١٤٩٨)، و«صحيح مسلم» (١١٥١).

يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ الله ﷺ، عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، فَنَسِينَا كَثِيراً، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَالله إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ، حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، يَا رَسُولَ الله، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**وَمَا ذَاكَ؟**». قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله نَكُونُ عِنْدَكَ، تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ، عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، نَسِينَا كَثِيراً، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي، وَفِي الذِّكْرِ، لَصَافَحَتْكُمُ المَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً**» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ[1].

إن هذا الحديث يصور الحالة الوجدانية للصحابة وهم يستمعون إلى حديثه حتى كأنهم يرون ما يحدثهم عنه، فتتألق نفوسهم وتسمو إلى حالةٍ ملائكية، ولذا قال لهم ﷺ: «**لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي، وَفِي الذِّكْرِ، لَصَافَحَتْكُمُ المَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً**».

وعن أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَطَبَ رَسُولُ الله ﷺ خُطْبَةً مَا سَمِعْتُ مِثْلَهَا قَطُّ، قَالَ: «**لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً**». قَالَ: فَغَطَّى أَصْحَابُ رَسُولِ الله ﷺ وُجُوهَهُمْ ولَهُمْ خَنِينٌ من البكاء[2]، إن النبي ﷺ لم يفصل لهم ما يعلم، ولكن حال التأثر بما علمه انتقلت إليهم ولذا غطوا رؤوسهم ولهم خنين من البكاء.

وعن العرباض بن سارية قال: وَعَظَنَا رسول الله ﷺ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً، ذَرَفَتْ مِنْهَا العُيُونُ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا القُلُوبُ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ الله كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ، فَأوصنا...[3].

إن العرباض وصف بلاغة الموعظة وأثرها حتى وجلت القلوب وذرفت العيون، وشعروا من حرارة الموعظة بلوعة الوداع فاستوصوا منه وصاة مودع.

إنها مشاهد لتأثير كلامه وخطابه في نفوس مستمعيه، وأَخذِهِ بمجامع القلوب حتى تذرف العيون خشيةً وخشوعًا.

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٧٥٠).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٦٢١)، و«صحيح مسلم» (٢٣٥٩).

(٣) «سنن أبي داود» (٤٦٠٧).

ومع هذه الجاذبية والتأثير في حديثه ومع هذا التشوف من الصحابة للاستماع إليه فإنه كان يقتصد في الموعظة فلا يكثر الحديث، ولا يطيل إذا تحدَّث، وإنما يتعاهدهم به تعاهداً كما قال عبد الله بن مَسْعُودٍ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَخَوَّلُنَا بِالمَوْعِظَةِ فِي الأَيَّامِ، كَرَاهَةَ السَّآمَةِ عَلَيْنَا[1].

قال الجاحظ في وصف الكلام النبوي: كلامه ﷺ هو الكلام الذي قلّ عدد حروفه وكثر عدد معانيه، وجلّ عن الصنعة، ونزّه عن التكلف، وقد عاب التشديق، وجانب أصحاب التقعيب[2]، واستعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورغب عن الهجين السوقي، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة، وشيد بالتأييد، ويسر بالتوفيق. وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة، وغشاه بالقبول وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام، وقلة عدد الكلام، مع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته.

لم تسقط له كلمة، ولا زلت به قدم، ولا بارت له حجة، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب، بل يَبُذّ[3] الخطب الطوال بالكلام القصار، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتج إلا بالصدق، ولا يطلب الفَلْج[4] إلا بالحق، ولا يستعين بالخلابة[5]، ولا يستعمل المواربة، ولا يهمز ولا يلمز، ولا يبطئ ولا يعجل، ولا يسهب ولا يحصر. ثم لم يَسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً، ولا أقصد لفظاً، ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهباً، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح معنى، ولا أبين في فحوى، من كلامه ﷺ.

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٨)، و«صحيح مسلم» (٢٨٢١).

(٢) التقعيب في الكلام هو التقعر والتعمق فيه. ينظر: «لسان العرب» (١/ ٦٨٤).

(٣) يَبُذّ: يَغلب. ينظر: «تاج العروس» (٩/ ٣٧٤).

(٤) الفَلْجُ: الظَّفَرُ والفَوْز. ينظر: «تاج العروس» (٦/ ١٥٣).

(٥) الخلابة: الخِداع. ينظر: «تاج العروس» (٢/ ٣٧٧).

ولعل بعض من لم يتسع في العلم، ولم يعرف مقادير الكلم، يظن أنّا قد تكلفنا له من الامتداح والتشريف، ومن التزيين والتجويد ما ليس عنده، ولا يبلغه قدره! كلا والذي حرم التزيد على العلماء، وقبح التكلف عند الحكماء، وبهْرَجَ[1] الكذابين عند الفقهاء، لا يظن هذا إلا من ضل سعيه.

فمن كلامه ﷺ حين ذكر الأنصار فقال: «**أَنَا وَاللهِ مَا عَلِمْتُكُمْ إِلَّا تَقِلُّوْنَ عِنْدَ الطَّمَعِ، وَتَكْثُرُوْنَ عِنْدَ الفَزَعِ**»[2].

وقال: «**إِنَّمَا النَّاسُ كَأَسْنَانِ المُشْطِ**»[3].

«**لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»[4].

«**خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي**»[5].

«**فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ**»[6].

«**المُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ يَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ وَيُجِيرُ عَلَيْهِمْ أَقصَاهُمْ**[7] **وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ**»[8].

«**اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ**»[9].

---

(١) البَهْرَجُ: الباطِلُ والرديءُ مِن كلّ شيْءٍ. ينظر: «تاج العروس» (٥/ ٤٣٣).

(٢) «معالم السنن» (٤/ ٣٤)، و «شرح صحيح البخاري» لابن بطال (٩/ ٢٥٤).

(٣) «الكنى والأسماء» للدولابي (٢/ ٥٢٣).

(٤) «صحيح البخاري» (١٣)، و«صحيح مسلم» (٤٥).

(٥) «جامع الترمذي» (١١٦٢).

(٦) «صحيح البخاري» (٢٣٦٣)، و«صحيح مسلم» (٢٢٤٤).

(٧) أي إذا أجار واحد من المسلمين -حر أو عبد أو أمة- واحدا أو جماعة من الكفار وخفرهم وأمنهم جاز ذلك على جميع المسلمين، لا ينقض عليه جواره وأمانه. ينظر: «النهاية» (١/ ٣١٣).

(٨) «سنن أبي داود» (٢٧٥١).

(٩) «جامع الترمذي» (١٩٨٧).

«مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ»[1].

فتفهم رحمك الله، قلة حروفه، وكثرة معانيه[2].

يـا أَفـصَـحَ الـنـاطِـقـيـنَ الـضـادَ قـاطِـبَـةً ... حَـديـثُـكَ الـشَـهـدُ عِـنـدَ الـذائِـقِ الـفَـهِـمِ

حَـلَّـيـتَ مِـن عَـطَـلٍ جِـيـدَ الـبَـيـانِ بِـهِ ... فـي كُـلِّ مُـنـتَـثِـرٍ فـي حُـسـنِ مُـنـتَـظِـمِ

بِـكُـلِّ قَـولٍ كَـريـمٍ أَنـتَ قـائِـلُـهُ ... تُـحيِ الـقُـلـوبَ وَتُـحـيِ مَـيِّـتَ الـهـمَـمِ[3]

خلاصات:

١- كان ﷺ يتكلم بكلام بيِّن فصل، يفهمه ويحفظه كل من سمعه، ولو عدَّه العادّ لأحصاه.

٢- كان كلامه موجزاً جامعًا، فهو الذي أوتي جوامع الكلم واختصر له الكلام اختصاراً.

٣- يغلب على حديثه الحوار وإشراك المستمعين له بالتفاعل، بأن يسأل سؤالاً، أو يثير تساؤلاً، أو يضرب مثلاً.

٤- إذا تكلم بكلام له أهميته كرره ثلاثًا ليعقل عنه، ويبيّن أهميته.

٥- عرف حديثه بالعفة والجمال، فليس فيه كلمة فاحشة أو خادشة، أو محرجة أو جارحة.

٦- كان لكلامه وقعه في القلوب، وتأثيره على النفوس حتى كأنهم يرون ما يرويه لهم.

٧- مع جاذبية كلامه وشدة تأثيره وتشوق الصحابة له فقد كان يقتصد في الحديث، ويتخوّلهم بالموعظة كراهة السآمة عليهم.

(١) «صحيح البخاري» (٥٩٩٧)، و«صحيح مسلم» (٢٣١٨).

(٢) «البيان والتبيين» للجاحظ (٢/ ١٣-١٥)، مع إضافة بعض الأمثلة.

(٣) «نهج البردة» لأحمد شوقي.

الباب السابع

الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في بيئته

الرسول ﷺ وبيئة مكة

١- مكة بلد عريق في الهداية؛ ففيها إرث إبراهيم، وبيت الله الذي بناه، وأثره وأثر إسماعيل خالد في صخرة المقام.

وموطئ إبراهيمَ في الصَّخرِ رطْبَةٌ على قَدَميهِ حافياً غيرَ ناعِلِ

وبئر زمزم، ومشاعر الحج، ولذلك بقي في مكة بقايا من إرث إبراهيم وشعائر دينه، ومن أعظمها الحج والعمرة إلى البيت العتيق، وصار لها مكانة دينية في نواحي الجزيرة العربية كلها.

٢- تميزت مكة وأهلها عند العرب بمكانة خاصة لجوارهم البيت وقيامهم بأمر الحجيج رفادة وسقاية، ثم زادت هذه المكانة والشرف بعد عام الفيل حيث رأى سكان الجزيرة الذين تابعوا مسير الفيل وأصحابه من اليمن إلى مكة كيف أهلكهم الله بعقوبة إلهية لا يد لأحد فيها.

فانتصر الله لهم وأهلك عدوهم، وفَشَا أمر أصحاب الفيل في الجزيرة كلها وقالوا: أهل الله قاتل عنهم، وكفاهم مؤونة عدوهم.

ولذا كانت مكة مطمح عيون أهل الجزيرة، وتأكدت قدسية البيت المعظم وحرمته، وكثر قصاده حجاجًا وتجاراً، وصار ما يجري في مكة ينتشر خبره في أنحاء الجزيرة كلها، ولذا فشت دعوة النبي ﷺ وتناقل الناس خبرها، وتحدثت بها الوفود القادمة للحج في كل أنحاء الجزيرة في وقت قصير، فوفد عليه في مكة نزاع القبائل، والمتأثرون بالدعوة كأبي ذر الغفاري، وعمرو بن عبسةَ الأسلمي، والطفيل بن عمرو الدوسي، وغيرهم.

٣- كما تميزت مكة بموقعها الجغرافي؛ فليست في مكان قصيّ وليست في مكان دنيّ[١]، فهي بلد لا يصل إليه نفوذ القوى العظمى، في الشام أو العراق أو اليمن، وليست في مكان منعزل ومنقطع عن العالم، فهي متصلة بالعالم منقطعة عنه، بعيدة عن السلطان والنفوذ الكسروي والهرقلي والحبشي ومتواصلة معه، فإذا نظرت إلى مكانها الجغرافي شعرت أنه مكان متصل بالعالم، وبعيد عن نفوذ دوله العظمى، لتبقى لمكة ميزة المكان الذي لا تصل إليه هيمنة الدول الإمبراطورية ولا سطوتها.

٤- كانت مكة في مكان صعب التضاريس، صعب المناخ، شحيح الماء، في رقعة ضيقة تحاصرها الجبال وتُضَيق ساحتها ومساحتها، وكانت مساكن أهلها في الشعاب وخيوف[٢] الجبال، وهي أرض قاحلة كما وصفها الله: ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ [ابراهيم: ٣٧] ولذا كان من تعنت قريش على النبي ﷺ أن سألوه أن يبعد عنهم الجبال، ويجري لهم الأنهار، فقالوا له: إِنَّكَ قَدْ عَلِمْتَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ النَّاسِ أَحَدٌ أَضْيَقَ بَلَداً، وَلَا أَقَلَّ مَاءً، وَلَا أَشَدَّ عَيْشاً مِنَّا، فسَلْ لَنَا ربَّك الَّذِي بَعَثَكَ بِمَا بَعَثَكَ بِهِ، فليسيِّر عَنَّا هَذِهِ الجِبَالَ الَّتِي قَدْ ضيَّقت عَلَيْنَا، وَلْيَبْسُطْ لَنَا بلادَنا، وَلْيُفَجِّرْ لَنَا فِيهَا أَنهَاراً كَأَنْهَارِ الشَّامِ وَالعِرَاقِ[٣]، وهذا السؤال على ما فيه من تعنت فإنه يدل على ما كانوا فيه من ضيق، وما كانوا يعانون من شدة، وكان ذلك من أسباب انقطاع المطامع عن مكة، وعدم الرغبة فيها من غير أهلها.

٥- ومما تميزت به بيئة مكة نظام الزعامة فيها، فلم يكن أمر الزعامة مجتمعاً في يد ملك أو زعيم فرد، حيث لم يصح لقريش بعد موت قصي بن كلاب زعيم عام ترجع إليه القبيلة، وإنما يحكمها الملأ من رؤساء العشائر، وكانت الزعامة مشتركة بين رؤوس عشائر قريش لا يستبد أحد فيهم بالأمر دونهم، ولكل كبير عشيرة رأيه الذي يراعي فيه أمر عشيرته، وكل عشيرة تتمتع بالحرية التامة، ولا طاعة مفروضة عليها لأحد؛ ولذا لم يكن النبي ﷺ حين دعوته في مواجهة فرعونية أو نمرودية، كما جرى لموسى وإبراهيم عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

(١) «طلائع النور» لعباس العقاد (١٠٠).
(٢) الخيف: مَا ارْتفَع عَنْ مَجْرى السَّيل وانْحَدرَ عَنْ غِلَظِ الجبلِ. ينظر: «النهاية» (٢/ ٩٣).
(٣) «سيرة ابن هشام» (١/ ٢٦٣).

وكان لموقف بني هاشم وبني المطلب مع النبي ﷺ مسلمهم وكافرهم أثره في تفرق أمر قريش أن يستبد به مثل أبي جهل أو أمية بن خلف ونحوهم، وكان هذا من صنع الله وخيرته لنبيه ﷺ.

كما كان في هذا منعة لمن آمن بالنبي ﷺ من عشائر قريش، فلا يجرؤ عليه أحد من غير عشيرته، ولذا فكل ما تعرض له الصحابة في مكة من أذى كان من عشائرهم، ويدل على هذه الحماية العشائرية ما ذكره ابن إسحاق: أَنَّ رِجَالاً مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ مَشَوْا إِلَى هِشَامِ بْنِ الوَلِيدِ، حِينَ أَسْلَمَ أَخُوهُ الوَلِيدُ بْنُ الوَلِيدِ (بْنِ المُغِيرَةِ)، وَكَانُوا قَدْ أَجْمَعُوا عَلَى أَنْ يَأْخُذُوا فِتْيَةً مِنْهُمْ كَانُوا قَدْ أَسْلَمُوا، مِنْهُمْ: سَلَمَةُ بْنُ هِشَامٍ، وَعَيَّاشُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ. فَقَالُوا لَهُ وَخَشُوا شَرَّهُمْ: إِنَّا قَدْ أَرَدْنَا أَنْ نُعَاتِبَ هَؤُلَاءِ الفِتْيَةِ عَلَى هَذَا الدِّينِ الَّذِي أَحْدَثُوا، فَإِنَّا نَأْمَنُ بِذَلِكَ فِي غَيْرِهِمْ قَالَ: هَذَا فَعَلَيْكُمْ بِهِ، فَعَاتِبُوهُ وَإِيَّاكُمْ وَنَفْسَهُ، وَأَنْشَأَ يَقُولُ:

أَلَا لَا يُقْتَلَنَّ أَخِي عُيَيْشٌ ... فَيَبْقَى بَيْنَنَا أَبَداً تَلَاحِي

احْذَرُوا عَلَى نَفْسِهِ، فَأُقْسِمُ اللهَ لَئِنْ قَتَلْتُمُوهُ لَأَقْتُلَنَّ أَشْرَفَكُمْ رَجُلاً، فَقَالُوا: واللهِ لَوْ أُصِيبَ فِي أَيْدِينَا لَقُتِلَ أَشْرَفُنَا رَجُلاً، فَتَرَكُوهُ وَنَزَعُوا عَنْهُ، وَكَانَ ذَلِكَ مِمَّا دَفَعَ اللهُ بِهِ عَنْهُمْ[1].

وكذلك كان الموالي والعبيد لا يجرؤ على أذيتهم إلا أسيادهم دون غيرهم، فكان توزع النفوذ، وحمية كل عشيرة لأبنائها مما وفر حمايةً عشائرية للمؤمنين وكفَّ عنهم أذيةَ مخالفيهم.

٦- تميز أهل مكة بقيم وأخلاق شريفة يلتزمونها ويعظمونها في جاهليتهم، فكانت من مناقبهم، ومن أسباب عصمة الرسول وكف الأذى عنه بينهم، ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

فمن ذلك استقباحهم الكذب ونُفرتهم منه، وكانوا يرون أنه ينافي أخلاق السيادة كما قال أبو سفيان عندما سأله هرقل عن رسول الله ﷺ: ولولا أن يأثروا علي كذبة لكذبت عليه[2]، أي أن الذي منعه أن يكذب على هرقل نفرته أن يحفظ عليه أصحابه كذبة قالها له.

(١) «سيرة ابن هشام» (١/ ٣٢١).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٩٤١).

ومن ذلك موقف هند بنت عتبة مع زينب حين أرادت أن تسير إلى مكة وكان ذلك بعد غزوة بدر، حيث قَالَتْ لها هند: يَا بِنْتَ مُحَمَّدٍ، أَلَمْ يَبْلُغْنِي أَنَّكِ تُرِيدِينَ اللُّحُوقَ بِأَبِيكِ؟ قَالَتْ: فَقُلْتُ: مَا أَرَدْتُ ذَلِكَ، فَقَالَتْ: أَيْ ابْنَةَ عَمِّي، لَا تَفْعَلِي، إِنْ كَانَتْ لَكِ حَاجَةٌ بِمَتَاعٍ مِمَّا يَرْفُقُ بِكِ فِي سَفَرِكِ، أَوْ بِمَالٍ تَتَبَلَّغِينَ بِهِ إِلَى أَبِيكِ، فَإِنَّ عِنْدِي حَاجَتَكِ، فَلَا تَضْطَنِي[1] مِنِّي، فَإِنَّهُ لاَ يَدْخُلُ بَيْنَ النِّسَاءِ مَا بَيْنَ الرِّجَالِ. قَالَتْ: وَالله مَا أَرَاهَا قَالَتْ ذَلِكَ إِلَّا لِتَفْعَلَ[2].

وموقف هند هذا غاية في المروءة وكرم الخلق، فإنها عرضت على زينب المعونة والمؤونة، وقالت: إنه لا يدخل بين النساء ما بين الرجال، مع أنها أكثر النساء فجيعةً بعد بدر فقد قتل فيها أبوها وأخوها وابنها.

وكذلك موقف عثمان بن أبي طلحة حينما لقي أم سلمة وهي تريد الهجرة وحدها قالت: فقال لي: إلى أين يا ابنة أبي أمية؟ قُلْتُ: أُرِيدُ زَوْجِي بِالمَدِينَةِ، قَالَ: أَوَمَا مَعَكِ أَحَدٌ؟ قُلْتُ: مَا مَعِي أَحَدٌ إِلَّا اللهُ وَبُنَي هَذَا. فَقَال: وَالله مَا لَكِ مِنْ مَتْرَكٍ، فَأَخَذَ بِخِطَامِ البَعِيرِ فَانْطَلَقَ مَعِي يَهْوِي بِي، فوالله مَا صَحِبْتُ رَجُلاً مِنَ العَرَبِ قَطُّ أَرَى أَنَّهُ كَانَ أَكْرَمَ مِنْهُ، كَانَ إِذَا بَلَغَ المَنْزِلَ أَنَاخَ بِي، ثُمَّ اسْتَأْخَرَ عَنِّي حَتَّى إِذَا نَزَلْتُ اسْتَأْخَرَ بِبَعِيرِي فَحَطَّ عَنْهُ ثُمَّ قَيَّدَهُ فِي الشَّجَرِ، ثُمَّ تَنَحَّى إِلَى شَجَرَةٍ فَاضْطَجَعَ تَحْتَهَا، فَإِذَا دَنَا الرَّوَاحُ قَامَ إِلَى بَعِيرِي فَقَدَّمَهُ فَرَحَّلَهُ، ثُمَّ اسْتَأْخَرَ عَنِّي وَقَالَ: ارْكَبِي، فَإِذَا رَكِبْتُ فَاسْتَوَيْتُ عَلَى بَعِيرِي أَتَى فَأَخَذَ بِخِطَامِهِ فَقَادَنِي حَتَّى يَنْزِلَ بِي.

فَلَمْ يَزَلْ يَصْنَعُ ذَلِكَ بِي حَتَّى أَقْدَمَنِي المَدِينَةَ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَى قَرْيَةِ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْف بِقُبَاءٍ قَالَ: زَوْجُكِ فِي هَذِهِ القَرْيَةِ، وَكَانَ أَبُو سَلَمَةَ بِهَا نَازِلاً، فَادْخُلِيهَا عَلَى بَرَكَةِ الله، ثُمَّ انْصَرَفَ رَاجِعًا إِلَى مَكَّةَ[3].

فتحقق للدعوة وللمسلمين كثير من المصالح بسبب هذه الأخلاق، ومن ذلك موقف المطعم بن عدي وأبي البختري بن هشام من نقض صحيفة المقاطعة، وموقف المطعم بن عدي في جواره للنبي ﷺ حينما أتى إلى مكة من الطائف وغير ذلك.

(١) لا تضطني: أي: لا تبخلي بانبساطك إلي. ينظر: «النهاية» (٣/ ١٠٤).

(٢) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٢١٥).

(٣) «سيرة ابن هشام» (١/ ٤٧٠).

٧- تميز زعماء مكة بالحكمة والحلم ورجاحة العقل مما جعلهم يديرون خلافاتهم العشائرية بلياقة تمنع كل طيش ونزق، ولذا لم تقع الحروب فيما بين عشائرها كما وقعت بين قبائل بكر وتغلب، والأوس والخزرج مع أنهم تفرع لقبيلة واحدة.

وأَثَّر هذا في تعاملهم مع النبي ﷺ وأصحابه، فمع شدة العداوة وضراوة المواجهة لمن أسلم واجتهادهم أن يفتنوا المسلمين عن دينهم إلا أنهم لم يصلوا إلى خيار القتل، ولم يقتل أحد من المسلمين إلا ما كان من أمر سمية التي قتلها أسيادها بنو مخزوم، بل كان الرأي الرشيد يطرح من بعض زعماء المشركين في مكة، كما اقترح الوليد بن المغيرة حيث قال في بداية الدعوة: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَطِيعُونِي وَاجْعَلُوهَا بِي، وخلُّوا بَيْنَ هَذَا الرَّجُلِ وَبَيْنَ مَا هُوَ فِيهِ فاعتزِلوه، فَوَاللهِ لَيَكُونَنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي سمعتُ مِنْهُ نَبَأٌ عَظِيمٌ، فَإِنْ تصبْه العَرَبُ فَقَدْ كُفيتموه بغيرِكم، وَإِنْ يَظْهَرْ عَلَى العَرَبِ فملْكه ملكُكم، وعزُّه عِزُّكُمْ، وَكُنْتُمْ أَسْعَدَ النَّاسِ بِهِ؛ قَالُوا: سَحَرَكَ وَاللهِ يَا أَبَا الوَلِيدِ بِلِسَانِهِ؛ قَالَ: هَذَا رَأْيِي فِيهِ، فاصنعوا ما بدا لكم[(١)]، وكذا قال: عتبة بن ربيعة يوم بدر حيث أشار على قريش: فَقَالَ: يَا قَوْمِ، إِنِّي أَرَى قَوْمًا مُسْتَمِيتِينَ لَا تَصِلُونَ إِلَيْهِمْ وَفِيكُمْ خَيْرٌ، يَا قَوْمِ اعْصِبُوهَا اليَوْمَ بِرَأْسِي، وَقُولُوا: جَبُنَ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي لَسْتُ بِأَجْبَنِكُمْ[(٢)]، وقد كاد هذا الرأي أن يُبرم لولا لجاجة أبي جهل وقوة تأثيره فيهم، التي ساقتهم لحتفهم، ولذا قال ﷺ يومها: «**إِنْ يَكُنْ فِي أَحَدٍ مِنْ القَوْمِ خَيْرٌ فَعِنْدَ صَاحِبِ الجَمَلِ الأَحْمَرِ، إِنْ يُطِيعُوهُ يَرْشُدوا**»[(٣)]، يعني عتبة بن ربيعة.

٨- مكانة مكة الدينية والتجارية جعلتها مقصداً للناس من نواحي الجزيرة كلها، في موسم الحج وفي الأسواق الموسمية كسوق منى وعكاظ ومجنة وذي المجاز، وكانت ملتقيات الناس الجامعة هذه فرصة للقاء الوفود القادمة، وعَرْضِ النبي ﷺ دعوته عليهم، فانتشر خبر دعوته ودينه في أنحاء الجزيرة كلها.

---

(١) «سيرة ابن اسحاق» (ص٢٠٨).

(٢) «مسند أحمد» (٩٤٨).

(٣) «سيرة ابن هشام» (٢/ ١٩٢).

فإذا انقضت هذه المجامع كلها تحدث كل وفد إلى قومه بما سمع من رسول ﷺ، وقد سهل ذلك نشر تعاليم الإسلام ورسالته في نواحي الجزيرة بحيث كان كل من في الجزيرة متهيئين لاتباع الرسول ولكن كانوا ينتظرون ما يكون من شأنه مع قومه، فعَنْ عَمْرِو بْنِ سَلَمَةَ، قَالَ: كُنَّا بِمَاءٍ مَمَرَّ النَّاسِ، وَكَانَ يَمُرُّ بِنَا الرُّكْبَانُ فَنَسْأَلُهُمْ: مَا لِلنَّاسِ، مَا لِلنَّاسِ؟ مَا هَذَا الرَّجُلُ؟ فَيَقُولُونَ: يَزْعُمُ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَهُ، أَوْحَى اللهُ بِكَذَا، فَكُنْتُ أَحْفَظُ ذَلِكَ الكَلَامَ، وَكَأَنَّمَا يُقَرُّ فِي صَدْرِي، وَكَانَتِ العَرَبُ تَلَوَّمُ بِإِسْلَامِهِمُ الفَتْحَ، فَيَقُولُونَ: اتْرُكُوهُ وَقَوْمَهُ، فَإِنَّهُ إِنْ ظَهَرَ عَلَيْهِمْ فَهُوَ نَبِيٌّ صَادِقٌ، فَلَمَّا كَانَتْ وَقْعَةُ أَهْلِ الفَتْحِ، بَادَرَ كُلُّ قَوْمٍ بِإِسْلَامِهِمْ، وَبَدَرَ أَبِي قَوْمِي بِإِسْلَامِهِمْ[1].

ولذا لما فتحت مكة وأسلمت قريش تتابع الناس إلى الإسلام، ودخلوا في دين الله أفواجاً، لأنه كانت لديهم معرفة مسبقة بالدين وحقيقة الدعوة.

٩- عرفت قريش بمهارتها التجارية وبخاصة التجارة الخارجية، وهي تجارة الاستيراد والتصدير، وقد رحلوا بتجارتهم إلى الشام واليمن والحبشة والعراق، وقاموا باتصالات مع تلك الدول، وعقدوا معها معاهدات تجارية، فقد أخذ هاشم بن عبد مناف عهداً من الروم بالسماح لتجار قريش أن يدخلوا الشام ويتاجروا فيها، وأخذ إخوته المطلب وعبد شمس ونوفل عهوداً مماثلة من الأكاسرة والنجاشي والحميريين، وبذلك سيطرت قريش على التبادل التجاري بين الشمال والجنوب، ونظمت رحلة الشتاء إلى الجنوب ورحلة الصيف إلى الشمال، وهو ما ذكَّرهم الله به ممتناً به عليهم: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾ [قريش: ١، ٢،]إضافة إلى مشاركتهم الفاعلة في الأسواق الموسمية حول مكة مثل أسواق منى وعكاظ وذي المجاز وحباشة وغيرها.

وقد أفاد هذا التنقل والارتحال بين البلدان والقبائل شهرةَ قريشٍ وصلَتها بالدول والقبائل، ولذا كان بدء الدعوة في مكة مؤذنا بانتشار خبرها وما تدعو إليه في كل القبائل التي تتصل بها قريش أو البلاد التي تصل إليها.

(١) «صحيح البخاري» (٤٣٠٢).

١٠- قام التجمع البشري في مكة بعد نزول قبيلة جُرهم على أم إسماعيل وابنها، وكان لهم الكثرة والإمرة قروناً متتابعة حتى كاثرتهم قبيلة خزاعة وأخرجتهم من مكة وتولت أمرها نحواً من خمسة قرون، وفي ولاية خزاعة سربت الوثنية إلى مكة على يد زعيمها عمرو بن لحي الخزاعي، وتحولت من مثابة للتوحيد إلى تجمع للوثنية، وبقيت مكة في يد خزاعة حتى انتزعها قصي بن كلاب، الأب الخامس للنبي ﷺ وذلك قبل نحو مئة وخمسين سنة من البعثة.

وكان قصي زعيمها وولي أمرها، وهو الذي بنى بها داره دار الندوة، وأنزل عشائر قريش في شعاب مكة ونواحيها المطيفة بالكعبة، فكانت عشائر قريش في نواحي البيت متباعدة عنه، وكل عشيرة في ناحيةٍ أو شعب، ثم أصبحت زعامة قريش بعد قصي بين كبرائها مجتمعين، وكان هاشم من سادات مكة وسمي هاشما لأنه هشم الثريد للحجاج، ثم كان ابنه عبد المطلب من بعده سيد مكة وكبير زعمائها، وطال عمره واشتهر أمره وكثرت ذريته وكان المنظور إليه في مكة سيادة وشرفاً، ولذا عُرف النبي ﷺ به فيقال: ابن عبد المطلب، ويعرف النبي ﷺ نفسه به فيقول:

أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ

وكان تسلسل نسب النبي ﷺ من سروات قريش وخيارها وسادتها وذوي شرفها، ومكانهُ ومكانته في الذؤابة منها.

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**رَحْمَةُ الله عَلَى لُوطٍ إِنْ كَانَ لَيَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ، إِذْ قَالَ**: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠] **فَمَا بَعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ نَبِيًّا إِلَّا فِي ذِرْوَةٍ مِنْ قَوْمِهِ**»(١).

وقال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ**»(٢).

(١) «سنن الترمذي» (٣١١٦).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٢٧٦).

١١- قامت مكة حول الكعبة التي جعلها الله قياماً للناس، ومثابةً وأمنا، وكان للنبي ﷺ مشاركته في تجديد بناء الكعبة، فقد شارك في بنائها قبل البعثة وهو في الخامسة والثلاثين من عمره، وكان ينقل الحجارة مع عمه العباس من جبل أجياد إلى البيت، ثم كان له دوره المحمود في رفع النزاع بين قبائل قريش عند وضع الحجر الأسود حيث تنافروا حتى اتعدوا للقتال، كل قبيلة تدّعي أن لها الحق أن يكون ذلك على يدها، ثم اتفقوا على تحكيم أول داخل من باب بني شيبة، فدخل ﷺ فاختار لهم الرأي الحكيم المرضي، وهو أن يوضع الحجر في ثوب ثم يأخذ رجل من كل قبيلة بطرف منه فيرفعوه جميعاً، ثم وضعه بيده الكريمة.

ثم كان على يده ﷺ بعد ذلك تطهير الكعبة من أرجاس الوثنية وإعادتها إلى نقاء التوحيد ونصاعته، فعندما دخل الكعبة عام الفتح كان حول الكعبة ثلاثمئة وستون صنماً، وكان هبل في جوف الكعبة فجعل ﷺ يطعنها بعود في يده وهو يقرأ: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، فتقع على وجوهها وكانت مثبتة بالرصاص.

ثم دخل الكعبة فوجد فيها صورة إبراهيم وإسماعيل وهما يستقسمان بالأزلام، فقال: «**قَاتَلَهُمُ اللهُ، وَاللهِ إِنِ اسْتَقْسَمَا بِالأَزْلَامِ قَطُّ**»، ووجد بها حمامة من عيدان فكسرها[1].

وكما كان بناء البيت على يد أبويه إبراهيم وإسماعيل فقد كان له ﷺ مشاركته في إعادة بنائه بعدهما، ثم كان على يده تطهيره من أرجاس الوثنية وشعائر الشرك، وإعادته إلى ملة أبيه إبراهيم، حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين.

(١) «صحيح البخاري» (٣٣٥٢)، و«سنن ابن ماجه» (٢٩٤٧).

خلاصات:

١- مكة بلد عريق في الهداية، وفيها بقايا ميراث الأنبياء، بيت الله ومقام إبراهيم ومشاعر الحج.

٢- تميز أهل مكة بمكانة خاصة عند العرب لجوارهم البيت وقيامهم بأمر الحجيج.

٣- تميزت مكة بموقعها الجغرافي، فهي متصلة بالعالم وبعيدة عن سلطة الدول ونفوذهم.

٤- كان نظام الزعامة في مكة نظاماً جماعياً عشائرياً، لا يستبد فيه أحد بالأمر، مما وزع المسؤولية وأضعف النفوذ الفردي.

٥- كانت القيم ومكارم الأخلاق من شيم أهل مكة التي يرعونها ويعظمونها، وكانت هذه المروءات من أسباب عصمة النبي ﷺ والمؤمنين معه.

٦- مكانة مكة جعلتها مقصداً للناس من أنحاء الجزيرة كلها، وكان ذلك من أسباب انتشار دعوة النبي ﷺ وفشو خبره.

٧- تميز زعماء مكة برجاحة العقل وحسن إدارة الخلاف بينهم، ولذا لم تقع بينهم حروب كما وقعت بين غيرهم.

٨- عرفت قريش بمهارتها التجارية وتنقلها بين البلاد وصلتها بالدول العظمى، وكان ذلك من أسباب انتشار خبر الدعوة عالمياً منذ بداياتها.

٩- كان النبي ﷺ في الذؤابة وذروة الشرف بين بيوتات قريش، ولذا كان في منعة من قومه.

١٠- كما كان على يد إبراهيم وإسماعيل بناء البيت فقد شارك ﷺ في بناء البيت عندما جدد، ثم كان على يده تطهير البيت من أرجاس الوثنية، وجهالات الجاهلية.

الرسول ﷺ وبيئة المدينة

١- كانت علاقة النبي ﷺ بالمدينة تُنْسجُ في عالم الغيب البعيد، فقد بشَّر الله به وبها في رسالات الأنبياء قبله، وجاء وصفها لدى الأمم السابقة، ولذا جاء اليهود إلى جزيرة العرب يتتبعون وصفها: أرضاً ذات حِرارٍ ونخل، فنزلوا نواحي عدة ينطبق عليها الوصف، فنزلوا وادي القرى، وخيبر، وفَدَك، وفيهم من نزل المدينة لما رأوا من صفتها المذكورة في كتبهم، كما جاء بعد ذلك سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إليها؛ للوصف الذي أخبره به عنها علماء النصارى الذين لقيهم.

وفشا علم اليهود بين الأوس والخزرج، واتبعوهم في بعض عاداتهم من غير أن يتركوا دينهم الوثني، فكانت لهم أصنامهم، ومن أشهرها مناة بالمُشَلَّل[١] بين مكة والمدينة.

وأكثَرَ اليهود من إسماعهم أن نبيّاً سيخرج، وأنهم سيتبعونه ويقاتلونهم معه، وهي معلومة كان اليهود مصدَرها والمفاخِرَ بها، بل المتوعد بقرب وقوعها، وهو ما أخبر عنه القرآن في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

ثم كان من صنع الله لنبيه أن يمر بالمدينة جدُّه هاشم بن عبد مناف في سفره إلى الشام، فيتزوج بها من سلمى بنت عمرو بن زيد النجارية الخزرجية، فولدت له ولداً أسمتْه شيبة، وبنتاً أسمتْها رقية، ثم خرج هاشم إلى غزة، فمات فيها شابّاً[٢]،

(١) هي ثنيّة مشرفة على قديد. ينظر: «معجم ما استعجم من أسماء البلاد» (٤/ ١٢٣٣).

(٢) «البداية والنهاية» (٢/ ٢٥٣).

ونشأ شيبة في المدينة حتى جاء به منها عمه المطلب ولما أقبل به إلى مكة ظنوه عبداً له اشتراه، فقالوا: هذا عبدُ المطلب، فمن ذلك سمى شيبةُ عبدَ المطلب[١].

ثم وُلِد لعبد المطلب بنوه في مكة، ومنهم الشقيقان: عبد الله وأبو طالب، وتزوج عبد الله آمنة بنت وهب، ثم أرسله أبوه عبد المطلب إلى المدينة ليشتري منها تمراً، فخرج إليها وزوجته حامل برسول الله ﷺ، فلما وصل المدينة نزل على أخوال أبيه بني عدي بن النجار، فمرض عندهم، ثم توفي فدفن في المدينة في دار النابغة، وهو رجل من بني عدي بن النجار[٢].

ففي المدينة ولد جدُّ رسول الله ﷺ عبد المطلب، وفيها توفي أبوه عبد الله.

فلمّا بلغ ﷺ ست سنين، ذهبت به أمه إلى المدينة، ومعها أم أيمن بركة الحبشية حاضنته؛ لتزور قبر زوجها عبد الله، فنزلت به عند أخوال جدِّه، في دار النابغة التي دفن فيها أبوه، وأقامت عندهم شهراً عند قبر زوجها الذي أحبته وتأيمت منه، وكان ﷺ قد ميّز وتفتح وعيه، وكأنما هذه الزيارة المبكرة في الطفولة، هي التهيئة للهجرة النبوية الكبرى في الكهولة، فكان يذكر هذه الزيارة ومشاهدها، فكان ﷺ، يذكر أمورا كانت في مقامه ذلك، فلما نظر إلى أطم بني عدي بن النجار عرفه، وقال: كنت ألاعب أنيسة جارية من الأنصار على هذا الأطم، وكنت مع غلمان من أخوالي، نطيّر طائراً كان يقع عليه، ونظر إلى الدار، فقال: ها هنا نزلت بي أمي، وفي هذه الدار قبر أبى عبد اللهَ بن عبد المطلب، وأحسنت العوم في بئر بني عدي بن النجار، وكان قوم من اليهود يختلفون ينظرون إليه[٣].

ثم أراه الله بعد النبوة دار هجرته وهو في مكة، فرأى أرضها ونخيلها ولم يعلم مكانها، فظنها اليمامة أو هَجَر[٤]؛ لشهرتهما بالنخيل، فقال: «**أُرِيتُ دَارَ هِجْرَتِكُمْ، أُرِيتُ سَبْخَةً ذَاتَ نَخْلٍ بَيْنَ لَابَتَيْنِ، فَذَهَبَ وَهْلِي إِلَى أَنَّهَا اليَمَامَةُ أَوْ هَجَرُ**»[٥].

(١) «سيرة ابن هشام» (١/ ١٣٧-١٣٨).
(٢) «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم» (٢/ ٢٤٤).
(٣) «إمتاع الأسماع» (٨/ ١٤٣)، و«الرصف لما روي عن النبي ﷺ من الفعل والوصف» (١/ ٣٥).
(٤) هي ساحات الأحساء، وهي الآن في المنطقة الشرقية بالمملكة العربية السعودية.
(٥) «صحيح البخاري» (٣٦٢٢)، و«صحيح مسلم» (٢٢٧٢).

٢- ثم كان من صنع الله لرسوله ﷺ أن الأوس والخزرج، والذين كان بينهم خصومة وحروب تتابعت؛ فكان آخرها حرب يوم بُعاث[١] قبل الهجرة بثلاث سنين، وكانت معركة عظيمة انتصر الخزرج في أولها، ثم كان النصر النهائي للأوس وهم الأقل عدداً، وقُتل فيها سادة الأوس والخزرج وقادتهم، ومنهم رئيسا الخزرج والأوس، وعدد من أكابرهم ممن كان يظن أن سيتكبر ويأنف من الدخول في الإسلام؛ حتى لا يكون تحت حكم غيره، وانتقلت الزعامة إلى قيادات شابة، وقد بقي من كبرائهم عبدُ الله بنُ أُبَيٍّ ابنُ سَلولَ.

ثم كانوا بعد هذه المعركة متنافرين، فلا الأوس تُسلِّم الزعامة للخزرج؛ لأنهم قد انتصروا عليهم في هذه المعركة، ولا الخزرج تسلّمها للأوس؛ لأنهم أكثر منهم، فكان اجتماعهم على رجل من غيرهم مما يتقبله كلا الطرفين.

ولذا قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كَانَ يَوْمُ بُعَاثَ، يَوْمًا قَدَّمَهُ اللهُ لِرَسُولِهِ ﷺ، فَقَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ وَقَدِ افْتَرَقَ مَلَؤُهُمْ، وَقُتِلَتْ سَرَوَاتُهُمْ وَجُرِّحُوا، فَقَدَّمَهُ اللهُ لِرَسُولِهِ ﷺ فِي دُخُولِهِمْ فِي الإِسْلَامِ[٢].

فانظر إلى لطف الله في تقديره وتدبيره، وما أجراه من تصريف الأحوال في الغيب السحيق، تهيئةً لرسوله ﷺ؛ ليتبوأ المدينة مهاجَراً وسكنًا، وثِواءً ومثوى، ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

٣- وأما جغرافية المدينة فإنها، أرض خصبة وافرة الماء، وبها واحات النخيل المتناثرة، تعمرها قبائل الأوس والخزرج واليهود، وكانوا في تجمعات عشائرية متفرقة في نواحي المدينة عاليتها وسافلتها وتسمى كل ناحية بمن يسكنها فيقال: دور بني ساعدة، وبني النجار، وبني ظفر، وبني عمرو بن عوف، وبني حارثة، وقريظة، والنضير، وغيرهم، ويحيط بالمدينة حرار وعرة من جهاتها الثلاث الشرق والغرب والجنوب على هيئة حذوة الحصان مما شكل لها حماية طبيعية فكانت في مثل السور المحيط بها،

(١) هو مكان في المدينة معروف، ويسمى الآن «المبعوث»، وفيه جرت هذه المعركة فسميت باسمه. ينظر: «معجم ما استعجم من أسماء البلاد» (١/ ٢٥٩).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٧٧٧).

وواجهتها المفتوحة هي الجهة الشمالية، يواجهها جبل أُحد من الشمال وجبل عير من الجنوب، وجبالها متباعدة، ومساحاتها فسيحة رحبة، وليست مثل مكة التي تضايقها الجبال فيسكن أهلها في الشعاب والخيوف[1]، وتتخلل المدينة أودية منها وادي العقيق ورانونا وبطحان، وكانت المياه تتجمع مستنقعات في هذه الأودية، ولذا كثرت فيها حمى البلهارسيا المعروفة بحمى يثرب.

ولما نزل النبي ﷺ المدينة اتخذ مسجده الذي بوأه الله مكانه في منازل بني النجار، وهي المنطقة الوسطى بين نواحي المدينة، فهي النقطة المركزية وبقية الأحياء تحيط بها شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا.

٤- ويختلف تكوين المدينة السكاني عن التكوين في مكة، ففي مكة قبيلة واحدة، ودين واحد هو الوثنية، أما المدينة فتجمع قبلي عربي وإسرائيلي، فالعرب قبيلتا الأوس والخزرج، والإسرائيليون بنو النضير وبنو قريظة وبنو قينقاع.

وكان للعرب دينهم الوثني وأصنامهم المعظمة كغيرهم من قبائل العرب، وللإسرائيليين دينهم اليهودي وكتابهم ومدراسهم وكُنُسهم، وبعد الهجرة تعامل النبي ﷺ مع هذه التركيبة السكانية المتنوعة قبليًا ودينيًا.

فكان في المدينة المسلمون والمشركون واليهود، وقبائل الأنصار، وقبائل اليهود وانضاف إليهم المهاجرون القرشيون، ثم المهاجرون من القبائل الأخرى فكثر التنوع القبلي واتسع.

ولكن النبي ﷺ أذاب هذه الفروق القبلية بآصرة المؤاخاة، وأخوة الإيمان بين المسلمين، وكان التعامل مع هذا التنوع واستيعابه مقدمة لاستيعاب التنوع البشري العالمي الذي سيحتوي هذا الدين ويتمدد في مساحته الواسعة.

٥- بعث النبي ﷺ وليس بين قبيلتين من الشر كما بين الأوس والخزرج ولذا سهل اجتماعهم على زعامة خارج محيطهم القبلي وهو رسول الله ﷺ فجمعهم الله به.

(١) الخيف: ما ارتفع عن مجرى السيل وانحدر عن غلظ الجبل. ينظر: «النهاية» (٢/ ٩٣).

وقد وأد ﷺ كل ثائرة تستجلب عداوات الماضي وثاراته، ومن ذلك ما ذكرته عائشة في قصة الإفك، قالت: فقام رسول الله ﷺ فقال: «**مَن يَعْذِرُنِي مِن رَجُلٍ قدْ بَلَغَ أَذَاهُ في أَهْلِ بَيْتِي فَوَاللهِ ما عَلِمْتُ علَى أَهْلِي إلَّا خَيْراً، وَلقَدْ ذَكَرُوا رَجُلاً ما عَلِمْتُ عليه إلَّا خَيْراً، وَما كانَ يَدْخُلُ علَى أَهْلِي إلَّا مَعِي**». فَقَامَ سَعْدُ بنُ مُعَاذٍ الأَنْصَارِيُّ، فَقالَ: أَنَا أَعْذِرُكَ منه، يا رَسُولَ الله، إنْ كانَ مِنَ الأَوْسِ ضَرَبْنَا عُنُقَهُ وإنْ كانَ مِن إخْوَانِنَا الخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا أَمْرَكَ، قالَتْ: فَقَامَ سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ وَهو سَيِّدُ الخَزْرَجِ، وَكانَ رَجُلاً صَالِحًا، وَلَكِنِ اجْتَهَلَتْهُ الحَمِيَّةُ، فَقالَ لِسَعْدِ بنِ مُعَاذٍ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ الله لا تَقْتُلُهُ، وَلَا تَقْدِرُ علَى قَتْلِهِ، فَقَامَ أُسَيْدُ بنُ حُضَيْرٍ، وَهو ابنُ عَمِّ سَعْدِ بنِ مُعَاذٍ، فَقالَ لِسَعْدِ بنِ عُبَادَةَ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ الله لَنَقْتُلَنَّهُ فإنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عَنِ المُنَافِقِينَ، فَثَارَ الحَيَّانِ الأَوْسُ وَالخَزْرَجُ حتَّى هَمُّوا أَنْ يَقْتَتِلُوا وَرَسُولُ الله ﷺ قَائِمٌ علَى المِنْبَرِ، فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ الله ﷺ يُخَفِّضُهُمْ حتَّى سَكَتُوا وَسَكَتَ[1].

وقد حول ﷺ تنازعهم القبلي إلى تنافس على الفضائل، ومسارعة في الخيرات، فلا يرى الأوسُ الخزرجَ سبقوا إلى فضل إلا رغبوا أن يدركوا مثله ويسبقوا إليه، وكذا الخزرجُ مع الأوس، وبذا تحول التشاحن العدائي إلى تنافس إيجابي، ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

٦- كان وجود اليهود القديم في المدينة سببًا في انتشار العلم بالنبوات، خاصةً أن اليهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج الذين كاثروهم وتغلبوا عليهم فيتوعدونهم بقرب خروج نبي سيتبعونه ويظهرون على الناس به، ولذا كان الأوس والخزرج يترقبون معهم خروجه، فلما لقوا النبي ﷺ وتحدثوا إليه علموا أنه النبي الذي يوعدون به فقال بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: يَا قَوْم، تَعلموا وَاللهِ إنَّهُ لَلنَّبِيُّ الَّذِي تَوَعَّدَكُمْ بِهِ يَهُودُ، فَلَا تَسْبِقَنَّكُمْ إلَيْهِ. فَأَجَابُوهُ فِيمَا دَعَاهُمْ إلَيْهِ، بِأَنْ صَدَّقُوهُ وَقَبِلُوا مِنْهُ مَا عَرَضَ عَلَيْهِمْ مِنْ الإسلام، وَقَالُوا: إنَّا قَدْ تَرَكْنَا قومَنا، وَلَا قَوْمَ بَيْنَهُمْ مِنْ العَدَاوَةِ وَالشَّرِّ مَا بَيْنَهُمْ، فَعَسَى أَنْ يَجْمَعَهُمْ اللهُ بِكَ، فَسَنَقْدَمُ عَلَيْهِمْ، فَنَدْعُوهُمْ إلَى أمرك، ونعرض عَلَيْهِمْ الَّذِي أَجَبْنَاكَ إلَيْهِ مِنْ هَذَا الدِّينِ، فإن يجمعهم الله عليك فَلَا رَجُلَ أَعَزُّ مِنْكَ[2].

---

(١) «صحيح البخاري» (٢٦٦١).

(٢) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٥٥).

وكم تعجب أن يكون اليهود سبب هداية الأنصار وإيمانهم، وأن يستفيد الأنصار من علمهم في حين لجّوا هم في طغيانهم، واختاروا أشد العداوة للرسول والرسالة حسداً من عند أنفسهم، ونفاسةً ألا يكون الرسول منهم، وصدق ﷺ إذ قال: «**فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرِ فَقِيهٍ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ**»(١).

ولما وصل النبي ﷺ المدينة مهاجراً احتوى اليهود بعقد اتفاق معهم تضمنته صحيفة المدينة يقوم على التعاون والتناصر في حماية الوطن ودفع العدوان عنه.

وكان ﷺ في بداية قدومه المدينة يحب موافقتهم وتألفهم فصام عاشوراء معهم وقال: «**نَحْنُ أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْكُمْ**». وكانت قبلته في الصلاة إلى بيت المقدس، وكان يسدل شعره مثلهم ولا يفرقه، وهو بذلك يوثق الصلة بهم، ويرجو هدايتهم فهم أهل كتاب وعلم، وأولى الناس باتباعه، ومن احتوائه لهم وتواصله معهم إدخالهم بيته ففي بيته غلام يهودي يخدمه، ولعائشة خادمة يهودية في بيتها، وكانوا يزورونه في بيته، ويدعونه فيجيب دعوتهم، وعاد مرضاهم وقام لجنائزهم.

وكان في تعامله معهم أسوة حسنة في التعامل مع المخالف إذا كان مسالماً، وهو التعايش والبر والقسط.

لكن حسدهم جعلهم يلجون في العداوة ويبلغون منها أشدها: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ [المائدة: ٨٢]، وتواصوا فيما بينهم على ذلك، ولذا قال ﷺ: «**لَوْ آمَنَ بِي عَشَرَةٌ مِنَ اليَهُودِ، لآمَنَ بِي اليَهُودُ**»(٢)، أي عشرة من أحبارهم عندما قدم المدينة، ومع ذلك فقد آمن به بعد ذلك جماعة منهم(٣)، وأما غالبهم فاتبعوا أحبارهم وزعماءهم على العداوة والحسد، وتجاوزوا المخالفة وعدم الإيمان إلى العداوة والكيد، ولذا انتهج النبي ﷺ معهم المفاصلة الدينية فكان يفرق وهم يسدلون، وعزم على صيام تاسع المحرم مع العاشر مخالفة لليهود.

---

(١) «سنن أبي داود» (٣٦٦٠)، و«جامع الترمذي» (٢٨٤٧)، و«سنن ابن ماجه» (٢٣٠).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٩٤١)، و«صحيح مسلم» (٢٧٩٣).

(٣) بلغ عدد اليهود الذين أسلموا قرابة (٦٣) فرداً، كما استقصاهم د. عمر صابونجي في كتابه: «الصحابة من أصول يهودية»، مطبوع باللغة التركية.

وأما كيدهم وحربهم فقد كان حازمـًا في مواجهتها ولذا دخل في حرب وإجلاء مع بني قينقاع عندما بادؤوا بالعداوة، ولم يُحمِّل بقية القبائل اليهودية جريرتهم، فبقي بنو النضير وبنو قريظة على حالهم، ثم نقضت بنو النضير وأعلنت العداوة بعد أُحد فحاربهم وأجلاهم، ولم يعرض لبني قريظة، فلما غدرت بنو قريظة يوم الأحزاب استأصلهم وعاملهم بما يليق بجرمهم وخيانتهم.

خلاصات:

١- ذُكِرَت المدينة بصفتها في كتب أهل الكتاب مهاجَراً للنبي الخاتم؛ ولذا نزلها اليهود، وقصدها سلمان الفارسي بالصفة التي عرفوها.

٢- نسجت علاقة النبي ﷺ بالمدينة في الغيب البعيد، فولد فيها جده عبد المطلب، وتوفي فيها أبوه عبد الله.

٣- زارها ﷺ طفلاً في السادسة مع أمه، وكأنما هذه الزيارة طليعة لهجرته إليها بعد ذلك.

٤- كان التنافس بين الأوس والخزرج وشدة العداوة مما سهل اجتماعهم على النبي ﷺ وائتلافهم حوله.

٥- كان وجود اليهود القديم في المدينة سببـًا في انتشار العلم بالنبوات وترقب النبي الذي سيبعث، فانتفع الأنصار بهذه المعلومة ولم ينتفع بها اليهود الذين حملوها.

٦- كانت بيئة المدينة السكانية متنوعة قبليـًا ودينيـًا وتعامل النبي ﷺ مع هذا التنوع بلياقة واستيعاب.

٧- كانت بيئة المدينة الجغرافية تحقق لها حماية طبيعية وأمنـًا غذائيـًا، فهي واحات نخيل محاطة من نواحيها الثلاث بحرار وعرة كالسور عليها.

البيت النبوي[1]

بيوتات النبي ﷺ التي عاش فيها، هي تلك البيوت التي أذهب الله عنها الرجس وطهرها تطهيراً، هي البيوت المعطرة بأنفاس النبوة، وتلاوة القرآن، وتنزُّلِ روح القدس؛ ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣، ٣٤].

فإلى بيت من بيوتات النبي ﷺ، إلى بيت عائشة الصديقة رضي الله عنها، البيت الذي آوى النبي ﷺ عشر سنين من عمره المبارك.

هو البيت الذي شهد إغفاءةَ نومِه، وقيام تهجده، وشهد تسابيح السَّحر، وقرآن الفجر، شهد النبي ﷺ وهو يفتق حيوية الحياة أُنساً وبهجة، وطيب عشرة مع أهل بيته، فقد كان ﷺ أعظم الناس خُلقاً، وكان أسعدَ الناس بحسن خُلقه أهلُ بيته.

فبسم الله نستأذن ونستأنس ونسلم..

فلو اقتربنا إلى بيت النبي ﷺ وجدناه ملتصقاً بالمسجد من الجهة الجنوبية الشرقية، ينفذ بابه إلى المسجد من حائط المسجد الشرقي، فهو أقرب إلى زاوية المسجد الشرقية الجنوبية، وعلى هذا الباب سترٌ هو مِسحٌ[2] من صوف، يستر هذه الحجرة والبيت عن المسجد النبوي، فإذا أراد النبي ﷺ أن يخرج كشف هذا الستر، فأشرق محياه على المسجد الشريف.

(١) ينظر: كتاب «بيوت النبي ﷺ وحجراتها» لأستاذنا د. محمد بن فارس الجميل، ومنه استفدت في هذا المبحث.

(٢) مسح: كساء غليظٌ من الشَّعرِ. ينظر: «تاج العروس» (٧/ ١٢٢).

وعلى هذا الباب وقف ﷺ آخر موقف في حياته، في آخر يوم من أيام عمره؛ ليلقي نظرة الوداع على أمته، ويودعها قبل أن يودع الحياة، ينظر إليهم كأن وجهه ورقة مصحف[١].

فإذا رفعنا الستر ودخلنا، وجدنا دار عائشة مكوَّنة من وحدتين متلاصقتين:

١- الحجرة، وهي الفناء المكشوف.

٢- والبيت، وهو البناء المسقوف.

أما الحجرة فإنا ندخل إليها من المسجد، أي: بمجرد كشف الستر ونقل القدم من عتبة الباب، نكون في هذه الحجرة، وهي عند العرب: الفناء المحتجَر غير المسقوف.

سورها من الشمال والجنوب جريد النخل مصفوفة بعضها إلى بعض، مربوطة بحبال من صوف إلى خشبات منصوبة من العرعر[٢] حتى تشد إليها، أما جدارها الغربي فهو جدار المسجد، وأما جدارها الشرقي فهو جدار البيت.

أما مساحة هذه الحجرة المكشوفة فهي ستة أذرع في سبعة أذرع[٣]، ما يقارب (٣ × ٣,٥م٢)، ويبلغ مجموع مساحتها (٥ , ١٠م٢).

فهذا الفناء المكشوف هو ما يسمى: حُجرة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وهو المكان الذي تقع فيه الشمس، ولذا حدّثت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله ﷺ كان يصلي العصر والشمس في حجرتها لم يظهر الفيء بعد[٤].

وهو فِناء البيت الذي يجلسون في دفْء شمسه شتاءً، وفي برد ظله صَيفاً.

في هذا الفِناء توضع البُرمة التي يُطبخ فيها الطعام، وهي قِدر من الفخّار أو من الحجارة؛ لأن النار لا توقد داخل البيت، وإنما توقد في الفِناء، وفيه أيضاً القربة المعلقة التي يُبرَّد فيها الماء.

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٨٠)، و«صحيح مسلم» (٤١٩).

(٢) العَرْعر: شجر السرو. ينظر: «تاج العروس» (١٣/ ١٣).

(٣) ينظر: «الأدب المفرد» (٤٥١).

(٤) «صحيح البخاري» (٥٤٥)، و«صحيح مسلم» (٦١١).

والذي يجلس في هذه الحجرة لا يكون بينه وبين المسجد إلا هذا الستر الذي على الباب، ولذلك يسمع من كان في المسجد قريباً من الحجرة ما يكون فيها، يقول ربيعة بن كعب الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كُنْتُ أَبِيتُ عِنْدَ حُجْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَكُنْتُ أَسْمَعُهُ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ، يَقُولُ: «**سُبْحَانَ اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ**» الهَوِيَّ من الليل[1]، ثُمَّ يَقُولُ: «**سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ**» الهَوِيَّ من الليل[2].

وكانت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تصلي الضحى، فيسمع من في ناحية المسجد القريبة منها صوت استنانها بالسواك إذا أرادت أن تصلي[3].

وذلك للقرب الشديد من المسجد وعدم وجود حواجز سوى هذا الستر.

أما بيت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فهو البناء المسقوف، ويسمى البيت: أي مكان البيات الذي يبيت فيه أهله، ويكون مسقوفاً، وله باب يغلق.

فإن سألت عن بنائه فهو على ذات الطراز الذي بني عليه المسجد، فأساسه من الحجارة؛ لأنهم يضعون الحجارة في أساس البناء، وهو جزء الجدار الأسفل مما يلي الأرض، إذ لو كان الأساس لَبِناً من الطين لأذابه جريان السيل فانهار، فيجعلون الأساس حجارة، ثم يبنى عليها بلَبِن الطين.

أما مساحة هذا البيت فهو عشرة أذرع في سبعة أذرع (٥ × ٣,٥ م٢) تقريباً، أي أن مساحته أقل من عشرين متراً[4]، وأما ارتفاعه فهو كارتفاع المسجد خمسة أذرع، يقول الحسن البصري: كُنْتُ أَدْخُلُ بُيُوتَ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ فَأَتَنَاوَلُ سُقُفَهَا بِيَدِي[5].

---

(١) الهوي: طَائِفَة من اللَّيْل. ينظر: «الفائق في غريب الحديث» (٤/ ١١٩).

(٢) «جامع الترمذي» (٣٤١٦)، و«السنن الكبرى» للنسائي (١٦١٨).

(٣) «صحيح البخاري» (١٧٧٦)، و«صحيح مسلم» (١٢٥٥). واستنانها أي: تحريك السواك في فهما قبل الصلاة.

(٤) وقدّرها أستاذنا محمد بن فارس الجميل في كتابه: «بيوت النبي ﷺ وحجراتها» (ص:٤١) بـ(١٧،٥٠م)، سبعة عشر متراً مربعاً ونصف متر تقريباً.

(٥) «الأدب المفرد» (٤٥٠).

وأما سقفه فشقائق جذوع النخل، وعليها الجريد والإذخر، وفوقه طبقة غليظة من الطين، وعليه حائط قصير جداً، وفي السطح ميزاب من الخشب لنزول ماء المطر منه.

وللبيت بابان: باب يفتح إلى جهة الغرب في زاويته الغربية الشمالية، يخرج هذا الباب إلى الحجرة، وهو مصراع[1] واحد من خشب العرعر المصفوفة إلى بعضها، ولا تكون عادة متطابقة منضدّة، وإنما يكون بينها فجوات طولية هي خلل الباب بسبب عدم استقامة الأخشاب، ولذا ربما حاولت بعض العيون التي لم تفقه بعد في الدين النظر من خلل الباب لترى ماذا في بيت رسول الله ﷺ، وهو سلوك كان النبي ﷺ ينهى عنه ويحذر منه[2].

وباب آخر يفتح شمالاً في نهاية الجدار الشمالي عند الزاوية الشمالية الشرقية، وهو باب صغير يمكن تسميته: باب خدمات، يُخْرج منه إلى البقيع والمناصع[3].

ومما يوضح هذا التفصيل لمرافق البيت حديث: «**صَلَاةُ المَرْأَةِ فِي بَيْتِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي حُجْرَتِهَا، وَصَلَاتُهَا فِي مَخْدَعِهَا[4] أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي بَيْتِهَا**»[5].

فإن سألت عن المتاع في هذا البيت، فإنك إذا دخلت من الباب رأيت على اليمين سرير النبي ﷺ في الزاوية الجنوبية الغربية.

ولم يكن من عادة أهل المدينة اتخاذ الأَسِرَّة وإنما كانت عادة قريش، ولذلك لما جاء النبي ﷺ المدينة بحثوا له عن سرير، فوجدوه عند أسعد بن زرارة، فوضع له ﷺ[6]، وعلى هذا السرير فراش من جلد حشوه ليف، وعليه وسادة واحدة من جلد حشوها ليف؛

---

(١) المصراع: أحد البابين اللذين ينضمان جميعا إذا كان المدخل واسعا، وتسمى الدرفة، فإن كان ضيقاً كفاه مصراع واحد. ينظر: «لسان العرب» (٨/ ١٩٩).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٢٤٢)، و«صحيح مسلم» (٢١٥٧).

(٣) المناصع: موضع في الشمال الشرقي من المسجد شمال البقيع، وكان فضاء تخرج إليه النساء بالليل لقضاء الحاجة على عادة العرب قبل أن تتخذ الكنف في البيوت، وهي الآن داخلة في مساحة توسعة المسجد النبوي. ينظر: «المعالم الأثيرة في السنة والسيرة» (ص:٢٧٩).

(٤) المخدع: مكان صغير داخل الغرفة الكبيرة يكون كالخزانة. ينظر: «النهاية» (٢/ ١٤).

(٥) «سنن أبي داود» (٥٧٠).

(٦) «تركة النبي» لحماد بن إسحاق (ص١٠٤-١٠٥).

فإذا جاء ضيف إلى النبي ﷺ رمى له هذه الوسادة ليجلس عليها، كما في خبر عدي بن حاتم في قدومه على النبي ﷺ قال: ثُمّ مَضَى بِي رَسُولُ الله ﷺ حَتّى إِذَا دَخَلَ بِي بَيْتَهُ تَنَاوَلَ وِسَادَةً مِنْ أَدَمٍ مَحْشُوّةً لِيفاً، فَقَذَفَهَا إِلَيّ فَقَالَ: «**اجْلِسْ عَلَى هَذِهِ**». قَالَ: قُلْت: بَلْ أَنْتَ فَاجْلِسْ عَلَيْهَا، فَقَال: «**بَلْ أَنْتَ**». فَجَلَسْت عَلَيْهَا، وَجَلَسَ رَسُولُ الله ﷺ بِالأَرْضِ قَالَ: قُلْت فِي نَفْسِي: وَالله مَا هَذَا بِأَمْرِ مَلِكٍ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُ صَنَعَ مَا صَنَعَ وَقَعَتْ عَلَيَّ غَضَاضَةٌ[1] وَعَلِمْتُ أَنَّهُ لَيْسَ يُرِيدُ عُلُواً فِي الدُّنْيَا وَلَا فَسَاداً[2].

وحين نام ابن عباس رضي الله عنهما عند النبي ﷺ نام النبي ﷺ وزوجته ميمونة في طول الوسادة ونام ابن عباس في عرضها[3]، وكان نوم ابن عباس رضي الله عنهما عند النبي ﷺ في فصل الصيف، ولذا نام مع النبي ﷺ في الحجرة وليس في البيت، وعلى الأرض وليس على السرير.

فعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: تَضَيَّفْتُ مَيْمُونَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ، وَهِيَ خَالَتِي وَهِيَ لَيْلَةَ إِذْ لَا تُصَلِّي، فَأَخَذَتْ كِسَاءً فَشَتَتْهُ، وَأَلقَتْ عَلَيْهِ نُمْرُقَةً، ثُمَّ رَمَتْ عَلَيْهِ بِكِسَاءٍ آخَرَ، ثُمَّ دَخَلَتْ فِيهِ، وَبَسَطَتْ لِي بِسَاطًا إِلَى جَنْبِهَا، وَتَوَسَّدْتُ مَعَهَا عَلَى وِسَادِهَا، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ، وَقَدْ صَلَّى العِشَاءَ الآخِرَةَ، فَأَخَذَ خِرْقَةً فَتَوَزَّرَ بِهَا، وَأَلقَى ثَوْبَهُ، وَدَخَلَ مَعَهَا لِحَافَهَا، وَبَاتَ حَتَّى إِذَا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ، قَامَ إِلَى سِقَاءٍ مُعَلَّقٍ فَحَرَّكَهُ، فَهَمَمْتُ أَنْ أَقُومَ فَأَصُبَّ عَلَيْهِ، فَكَرِهْتُ أَنْ يَرَى أَنِّي كُنْتُ مُسْتَيْقِظًا[4].

وليس في البيت فراش آخر للجلوس؛ ولذلك فإن النبي ﷺ إذا قام يتهجد من الليل يصلي على فراشه الذي ينام عليه مع زوجته، فيصلي وعائشة رضي الله عنها معترضة بينه وبين القبلة، فإذا أراد أن يسجد غمزها فتكف رجلها، وإذا قام مدت رجليها[5]، وقد يظن من يقرأ هذا الخبر أن ذلك لضيق المكان، وليس كذلك، ولكن لضيق الفراش.

---

(١) غضاضة: أي: ذِلَّةٌ ومَنْقَصَةٌ وانكِسَارٌ. ينظر: «تاج العروس» (١٨/ ٤٦١).

(٢) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٥٨٠).

(٣) «صحيح البخاري» (٤٥٧٠)، و«صحيح مسلم» (٧٦٣).

(٤) «مسند أحمد» (٢٥٧٢).

(٥) «صحيح البخاري» (٣٨٢)، و«صحيح مسلم» (٥١٢).

وهناك أثاث قليل من ضرورات الحياة في ذلك الوقت، ومنه حصير صغير من السعف يسمونه: الخُمرة[1]، يتسع للوجه واليدين إذا سجد عليه المصلي، وهو يشبه سجادة الصلاة الآن، وكان يستعمل في ديارنا قديماً، فقد أدركنا كبار السن يصلون عليه، ويسمونه: المُصَلَّى.

وهناك سَهوة[2] في الجدار توضع فيها الأشياء الصغيرة عادة، ولما قَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ، أَوْ خَيْبَرَ، ورأى على سَهْوَة عائشة سِتْرٌ، فَهَبَّتْ الرِيحُ فَكَشَفَتْ نَاحِيَةَ السِّتْرِ عَنْ بَنَاتٍ لِعَائِشَةَ هي لُعَبُها، فَقَالَ: «**مَا هَذَا يَا عَائِشَةُ؟**». قَالَتْ: بَنَاتِي، وَرَأَى بَيْنَهُنَّ فَرَساً لَهُ جَنَاحَانِ مِنْ رِقَاعٍ[3]، فَقَالَ: «**مَا هَذَا الَّذِي أَرَى وَسْطَهُنَّ؟**». قَالَتْ: فَرَسٌ، قَالَ: «**وَمَا هَذَا الَّذِي عَلَيْهِ؟**». قَالَتْ: جَنَاحَانِ، فقال متعجباً: «**فَرَسٌ لَهُ جَنَاحَانِ؟**». قَالَتْ: أَمَا سَمِعْتَ أَنَّ لِسُلَيْمَانَ خَيْلاً لَهَا أَجْنِحَةٌ؟ قَالَتْ: فَضَحِكَ حَتَّى رَأَيْتُ نَوَاجِذَهُ[4].

وفي البيت رفٌّ، وهو خزانة من خشب، يوضع فيها التمر أو الشعير، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: تُوُفِّيَ رَسُولُ الله ﷺ وَمَا فِي بَيْتِي مِنْ شَيْءٍ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ، إِلَّا شَطْرُ شَعِيرٍ فِي رَفٍّ[5] لِي، فَأَكَلْتُ مِنْهُ حَتَّى طَالَ عَلَيَّ، فَكِلْتُهُ فَفَنِيَ[6].

وكان فيه أصواع من شعير استلفها النبي ﷺ من يهودي ورهنه درعه، قالت عائشة: تُوُفِّيَ رَسُولُ الله ﷺ وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ بِثَلَاثِينَ صَاعاً مِنْ شَعِيرٍ[7].

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٧٩)، و«صحيح مسلم» (٥١٣).

(٢) السهوة: تجويف في الجدار الطيني الذي يكون عريضاً، فيكون فيه تجويف مرتفع في عرض الجدار لرفع الأمتعة الصغيرة، وقد رأيت مثاله في بيوتنا الطينية، وفي مساجد الطين أيضاً، ترفع فيه المصاحف.

(٣) رقاع: جمع رقعة من ورق أو جلد أو نحوهما. ينظر: «شرح سنن أبي داود» لابن رسلان (١٩/ ١٣).

(٤) «سنن أبي داود» (٤٩٣٢).

(٥) الرف: شِبْهُ الطَّاقِ فِي الحَائِطِ. ينظر: «فتح الباري» (١١/ ٢٨٠).

(٦) «صحيح البخاري» (٣٠٩٧)، و«صحيح مسلم» (٢٩٧٣).

(٧) «صحيح البخاري» (٢٩١٦).

وفي البيت: الصَحفة[١]، والبُرمة[٢]، والشَّنُّ[٣]، والقدح[٤]، ونحوها من متاع الناس حينها.

ولم يكن في هذا البيت سراج للإضاءة؛ لأن وقود السراج الزيت؛ وهو قليل جداً، فإذا وجد فهم أحوج إليه إداماً للأكل[٥]، قالت عائشة: بَعَثَ إِلَيْنَا آلُ أَبِي بَكْرٍ بِقَائِمَةِ شَاةٍ لَيْلًا، فَأَمْسَكَ رَسُولُ الله ﷺ وَقَطَعْتُ، أَوْ أَمْسَكْتُ وَقَطَعَ، فَقَالَ الَّذِي تُحَدِّثُهُ: أَعَلَى غَيْرِ مِصْبَاحٍ؟ فَقَالَتْ: لَوْ كَانَ عِنْدَنَا مِصْبَاحٌ لَائْتَدَمْنَا بِهِ -أي جعلناه إداماً لطعامنا- إِنَّهُ كان يَأْتِي عَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ﷺ الشَّهْرُ مَا يَخْتَبِزُونَ خُبْزاً، وَلَا يَطْبُخُونَ قِدْراً[٦].

الحياة في البيت النبوي:

وهذا البيت النبوي على تقارب جُدُره، وتطامن سقفه، وصغر مساحته، وقلة متاعه، هو البيت الذي بناه ﷺ في السنة الأولى من الهجرة؛ ليسكنه مع أحب الناس إليه زوجته عائشة الصديقة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ثم تتابعت عشر سنين وتغيرت فيها أحواله من القلة إلى الكثرة، ومن الضيق إلى السعة، ومع ذلك بقي في بيته هذا فلم يغيره، ولم يزد فيه، مع أنه قد فتح الله له البلاد، وأفاء عليه أرض بني النضير وآطامهم، فما اختار منها بستاناً يسكنه، ولا حصناً يتعالى فيه.

وكانت الأموال تجبى إليه فينثرها في المسجد ويقسمها حثواً في الثياب، ثم ينقلب إلى بيته وينام على سرير مرمول بحبال ليف؛ إذا نام عليه أثَّر في جنبه الشريف.

(١) الصحفة: صحن خشبي يشبع الخمسة ونحوهم. ينظر: «لسان العرب» (٩/ ١٨٧).
(٢) البرمة: القدر المتخذة من الحجر. ينظر: «لسان العرب» (٩/ ٣).
(٣) الشَّنُّ: القربة القديمة من الجلد تستعمل لحفظ الماء وتبريده. ينظر: «لسان العرب» (١٣/ ٢٤١).
(٤) القَدَح: آنيَةٌ للشُّرْب. ينظر: «تاج العروس» (٧/ ٣٩).
(٥) ينظر في ذلك: «الدرة الثمينة» (١٢٠)، و«وفاء الوفاء» (٢/ ٥٢)، و«فصول من تاريخ المدينة» (١١٣)، و«طيبة المدينة النبوية» (١٦٣).
(٦) «مسند أحمد» (٢٥٨٢٥).

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: دَخَلَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ عَلَى حَصِيرٍ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ الله، لَوِ اتَّخَذْتَ فِرَاشًا أَوْثَرَ مِنْ هَذَا؟ فَقَالَ: «**مَا لِي وَلِلدُّنْيَا؟ مَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا، إِلا كَرَاكِبٍ سَارَ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ فَاسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا**»(١).

إنّ النبي الذي عاش على هذه الحال من الإيثار والكفاف، لم يُحَرّم الطيبات، ولم يأمر أتباعه بمجافاتها، فهو الذي أنزل عليه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ﴾ [الأعراف: ٣٢]، و﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾.

ولذا توسع بعض أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فيما أحل الله لهم، وابتغوا الطيبات من الرزق.

ولكن النبي ﷺ تجافى عنها فلم يتخذها ولم يدخرها؛ حتى لا يُظن أنه أخذ على دعوته عوضًا دنيويًا، ولا أصاب حظًا من أموال الناس مقابل تبليغ رسالته، فقد كان إعلانه وإعلان الرسل قبله: ﴿مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾، ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٤]، ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سبأ: ٤٧].

ولذا عاش ﷺ بين الناس، ثم لحق بالرفيق الأعلى، من غير أن يرزأ الناس شيئًا من دنياهم، أو يحتجز منها شيئًا يتمتع به دونهم.

كما أن أشواقه ﷺ كانت هناك في منازله العلى في الجنة، فعن سمرة بْنِ جُنْدَبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال في حديثه الطويل في رؤيا النبي ﷺ ودخوله الجنة: فقيل له: «**وَأَمَّا هَذِهِ الدَّارُ فَدَارُ الشُّهَدَاءِ، وَأَنَا جِبْرِيلُ، وَهَذَا مِيكَائِيلُ، فَارْفَعْ رَأْسَكَ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا فَوْقِي مِثْلُ السَّحَابِ، قَالَا: ذَاكَ مَنْزِلُكَ، قُلْتُ: دَعَانِي أَدْخُلْ مَنْزِلِي، قَالَا: إِنَّهُ بَقِيَ لَكَ عُمُرٌ لَمْ تَسْتَكْمِلْهُ، فَلَوِ اسْتَكْمَلْتَ أَتَيْتَ مَنْزِلَكَ**»(٢).

فكان ﷺ يعيش في هذه الدنيا، وهو في انتظار النقلة إلى منازله العُلَى في الجنة.

(١) «مسند أحمد» (٢٧٤٤).

(٢) «صحيح البخاري» (١٣٨٦)، و«صحيح مسلم» (٢٢٧٥).

أتخيل حاله كحال من كان يشيد قصراً يوشك أن يُتمه، وهو ساكن في بيت صغير؛ فإن نظره إلى القصر الذي يُشَيده وسينتقل إليه، وليس إلى البيت الذي يسكنه وسيغادره، وربما احتاج بيته هذا إلى إصلاح أو إضافة، فيقول: دعوه؛ فإنّا سننتقل عنه إلى بيتنا الآخر، فكيف بقصر في الجنة لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر!

ولما عاد النبي ﷺ من سفر دخل حجرة أم سلمة رضي الله عنها، وكانت محاطة بالجريد، فلما سافر ﷺ بَنَتْها باللَّبِن، فلما قدم ﷺ قال لها: ما هذا البنيان؟ فقالت: أردت أن أكف أبصار الناس، فقال: إن شر ما ذهب فيه مال المسلم البنيان[1].

إن هذا يشعرك بحال التهيؤ للنقلة، وأنه ﷺ كان ينظر إلى كل ما في هذه الحياة الدنيا على أنها فترة انتظار في الظل، ثم سيغادر شجرتها ويتركها إلى الدرجة العالية الرفيعة في الجنة.

خلاصات:

١- ابتنى النبي ﷺ بيته الأول عند وصوله المدينة بعد بناء المسجد، وما كان أحد يدري حينها أن النبي ﷺ كان يبني بيت حياته وقبر مماته.

٢- كان البيت النبوي مكونا من وحدتين متلاصقتين، الحجرة وهي الفناء المكشوف، والبيت وهو الغرفة المسقوفة.

٣- كان بيت عائشة في الزاوية الجنوبية الشرقية للمسجد، وبينه وبين المسجد باب عليه سترٌ من صوف.

٤- كانت مساحة الفناء ثلاثة أمتار طولاً، وثلاثة أمتار ونصف عرضـًا، وكان البيت المسقوف ثلاثة أمتار ونصف عرضـًا وخمسة أمتار طولا تقريبـًا.

٥- كان البيت مبنيـًا باللَّبِن، وأساسه الحجارة، وسقفه من شقائق جذوع النخل وعليها الجريد، والإذخر وفوقها طبقةٌ من الطين.

(١) «المراسيل» لأبي داود (٤٩٤).

٦- أما الحجرة فكانت محاطة بحاجزٍ من جريد النخل مربوطٌ بحبال الصوف إلى أعمدةٍ من خشب العرعر.

٧- لم يكن للبيت مرافق ولا ملاحق أخرى، وكان قضاء الحاجة يتم في الفضاء الشرقي خارج البيوت.

٨- كان أثاث البيت قليلاً يسيراً يناسب حال الناس ذلك الوقت، ففيه سرير النبي ﷺ وبرمة للطبخ، وحصير للصلاة، ورف خشبي للشعير ونحو ذلك.

٩- لم يكن في البيت سراج لقلة الزيت عندهم، فكانوا لا يجدونه للأكل فكيف به للإضاءة!

١٠- بنى النبي ﷺ بيته عند قدومه المدينة على حال من القلَّة ثم اتسعت الحال وكثر المال، ولكن النبي ﷺ عاش فيه، وتوفي فيه، من غير أن يحدث فيه زيادة أو إضافة أو توسعة، فقد كان يعيش في الدنيا وأشواقه إلى منازله في الجنة.

المسجد النبوي[1]

كأنما نرى ناقة النبي القصواء تَخُبُّ[2] به ﷺ وأبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ردفه، وهي منحدرة به من قباء، وقد خرجت أحياء الأنصار يتلقّونه في الطريق، ويرغب كل منهم أن ينزل عنده، فيمسك رجالاتهم بزمام الناقة ويقولون: انزل عندنا يا رسول الله حيث المنعة والقوة والسلاح، فيقول: «**دَعُوهَا، فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ**»[3].

حتى إذا أتت ديار بني مالك بن النجار دخلت مربداً[4] فبركت فيه، والنبي ﷺ على رحله لم ينزل منها، ثم جعلت تتلفت كأنها تبحث عن شيء، أو تتعرف على شيء، ثم قامت مرة أخرى والرسول ﷺ على ظهرها، فجالت ثم رجعت إلى مكانها الذي بركت فيه أولاً، فبركت وتحلحلت[5] ورزَمت[6]، وضربت بجرانها[7] الأرض، وكأنها تقول: هذا المنزل والخيار، وكان مكان بروك ناقة النبي ﷺ هو مكان منبره من بعد في مسجده.

(١) ينظر: «التعريف بالمسجد النبوي الشريف» للسيد عطار.
(٢) الخَبَبُ: ضَرْبٌ مِنَ العَدْوِ. ينظر: «النهاية» (٢/ ٣).
(٣) «المعجم الأوسط» للطبراني (٣٥٤٤).
(٤) المِربد: هو السقيفة أو العريش التي كانت تُجفَّف فيها التمور. ينظر: «النهاية» (٢/ ١٨٢).
(٥) أَيْ: أقامَت ولَزِمَت مَكَانَهَا وَلَمْ تَبْرح. ينظر: «النهاية» (٤/ ٢٣٩).
(٦) أَيْ: صَوَّتَت. والإِرْزَامُ: الصَّوْتُ لاَ يُفْتَح بِهِ الفَمُ. ينظر: «النهاية» (٢/ ٢٢٠).
(٧) الجران: ما يصيب الأرض من صدر الناقة وباطن حلقها. ينظر: «النهاية» (١/ ٢٦٣).

فلم يختر النبي ﷺ أين تبرك ناقته، وإنما كان ينتظر خيرة الله التي سيبوئه مكاناً يبنيه مسجداً، فكما بوأ الله لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مكان البيت بوأ لمحمد ﷺ مكان المسجد، حيث بركت ناقته؛ فنزل ﷺ، وقال: «**هَذَا المَنْزِلُ إِنْ شَاءَ اللهُ**»(١).

والعجيب أن هذا المكان يقع في وسط المدينة تماماً، وأحياؤها تحيط به شمالاً وجنوباً، وشرقاً وغرباً، فهو من المدينة سُرَّتها ومركزها.

ثم قال ﷺ لبني مالك بن النجار: «**يَا بَنِي النَّجَّارِ، ثَامِنُونِي بِحَائِطِكُمْ هَذَا**». وكان هذا الحائط لغلامين يتيمين ورثاه، فقال أهلهم: يا رسول الله لا نبغي به ثمناً، هو لك، ونحن نرضي اليتيمين، قال: «**لا، ثَامِنُونِي بِهِ**». وأبى إلا أن يقدر ثمنه، ويُعطى الأيتام حَقَّهم(٢)، فكان بداية النزول إعلاناً بحفظ الحقوق، ورعاية حق الأيتام والضعفاء.

وكان أول مشروع بدأه النبي ﷺ في المدينة هو بناء مسجده، يقول أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يصف ذاك المكان: وكان في ناحية من هذا الحائط قبور مشركين، وفي ناحية منه خِرَبٌ وبقايا جدر تهدمت، وفي ناحية منه نخل طوال، فأمر النبي ﷺ بالقبور فنبشت، وأمر بالخِرَبِ فسويت، وأمر بالنخل فقطعت وصارت جذوعاً(٣).

وعند بناء المسجد كان نمط البناء وهيئته على نمط أبنية المدينة، الجدر بالحجارة واللَّبِن والطين، والأعمدة بجذوع النخل، والسقف بشقائق الجذوع وجريد النخل وعليه طبقة من الطين.

ثم بدأ العمل لبناء المسجد، فاستنفر النبي ﷺ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وكان أعظم الاستنفار لهم أن يعمل معهم بنفسه ويشاركهم العمل، فألقى رداءه؛ ليأخذ هيئة العامل معهم، فألقوا أرديتهم وشدوا أزرهم، وجدّوا في العمل، وصار النبي ﷺ ينقل الحجارة معهم، فلما رآه أسيد بن حضير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والحجر بين يديه، قال: يا رسول الله، دعني أحمله عنك، قال: «**اذْهَبْ فَاحْتَمِلْ غَيْرَهُ**»(٤).

---

(١) «مصنف عبد الرزاق» (٩٧٤٣).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٢٨)، و«صحيح مسلم» (٥٢٤).

(٣) «صحيح البخاري» (٤٢٨).

(٤) ينظر: «وفاء الوفاء» للسمهودي (١/ ٢٥٦).

وكان هذا عملاً اشترك فيه المهاجرون والأنصار، وفي هذا إعادة دمج وتمازج بين مكونات المجتمع الجديد، وكان مشهد البناء مشهداً مبهجاً، كأنما هو مهرجان عمل جماعي.

هذا عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحمل لَبِنَتَيْن لَبِنَتَيْن؛ لأنه كان فتيًّا قويًّا، والناس يحملون لَبِنَة لَبِنَة، فيأتيه النبي ﷺ وينفض التراب عن رأسه، ويقول: «**وَيْحَ ابْنِ سُمَيَّةَ! تَقْتُلُهُ الفِئَةُ البَاغِيَةُ، يَدْعُوهُمْ إِلَى الجَنَّةِ، وَيَدْعُونَهُ إِلَى النَّارِ**». فيقول عمار: نعوذ بالله من الفتن، نعوذ بالله من الفتن[1].

ورأى الصحابة النبي ﷺ وقد علا التراب ثيابه وصدره، وهو يعمل معهم، فيقولون:

لئن قعدنا والنبي يعمل ... لذاك منا العمل المضلَّلُ

وأحياناً يقطعون كلال العمل بأهازيج العمال إذا عملوا؛ لكنها أهازيج ذات معانٍ سامية، فيشاركهم النبي ﷺ أهازيجهم، ويرتجز معهم.

لاهم إِنَّ العَيْشَ عَيْشُ الآخِرَهْ

فيقول ﷺ: الآخِرَهْ

فيقولون: فَاغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالمُهَاجِرَهْ

فيقول: وَالمُهَاجِرَهْ[2]

وقد تم بناء سور المسجد على مراحل، فحفروا الأساس، ثم بنوه ثلاثة أذرع بالحجارة: ذراع في الأرض، وذراعان فوقها، حتى لا يؤثر السيل إذا جرى في أساس البناء، ثم بنوا فوق الحجارة باللَّبِن والطين، ثم أقاموا الجذوع، وكانت من جذوع النخيل التي كانت في المربد ومن جذوع نخيل الدوم[3] فجعلوها أعمدة، وصفُّوها في قبلة المسجد،

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٤٧).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٩٠٦)، و«صحيح مسلم» (٥٢٤).

(٣) نخيل الدوم: شجرة تشبه النخلة إلا أنها متفرعة الجذوع تنمو في بوادي المدينة، وثمرها صلب يسمى المقل. ينظر: «نور النبراس» (٤/ ٩١)، و«لسان العرب» (١٢/ ٢١٨).

وكانت القبلة باتجاه الشمال إلى بيت المقدس، وكان الارتفاع -كما قال النبي ﷺ- كعريش موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ[1]، أي لو مدّ الرجل الطويل يده لنال السقف، ولذا قيل: كان ارتفاعه قامة وبسطة.

ويستشف من الروايات أن الجدار لم يكن يصل إلى السقف، وإنما كان جداراً يقصر قليلاً عن السقف، بحيث يبقى بينه وبين السقف مساحة مفتوحة تسمح بالنور والهواء بقدر ذراع، -أي: نصف متر- فكان الجدار خمسة أذرع: ذراع في الأرض، وأربعة أذرع فوقها، وذراع هو فراغ بين الجدار والسقف، فيكون ارتفاع السقف عن الأرض خمسة أذرع، أي: مترين ونصفاً تقريباً.

وأما سقفه، فقد كان شقائق جذوع النخل عرضت بين الأعمدة، ثم صفّ بينها الخشب، ووضع عليه جريد النخيل وسعفه، فكان عريشاً، ووضع فوقه طبقة من الطين تسد خلله، وتحجب الحرارة والمطر، فإذا كان المطر غزيراً وكَفَ السقف، ونفذ الماء إلى أرض المسجد.

وقد صلى النبي ﷺ الفجر في رمضان صبيحة إحدى وعشرين، وكان المطر قد نزل ليلتها، فرأى الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أثر الطين على جبينه وأرنبة أنفه[2].

واستسقى مرة على المنبر، فما نزل منه حتى وكَفَ السقف، وصار الماء يتقاطر على وجهه ولحيته ﷺ[3].

وجُعلت للمسجد ثلاثة أبواب: باب على اليمين، وباب على اليسار، وباب إلى الجنوب؛ لأن القبلة كانت إلى الشمال، وجعلت عضادات[4] هذه الأبواب من الحجارة،

(١) «الطبقات» لابن سعد (١/ ٢٠٦).

(٢) «صحيح البخاري» (٨١٣)، و«صحيح مسلم» (١١٦٧).

(٣) «صحيح البخاري» (٩٣٣).

(٤) عضادتا الباب: جانبا الباب اللذان يحملانه عن يمين الداخل منه وشماله، يكونان من الخشب، وهنا من الحجارة لأنه لم يكن ثمّ باب. ينظر: «فتح الباري» (١/ ١٥٧)، و«شرح أبي داود» للعيني (٢/ ٣٥٦).

ولم يكن لها مصاريع تغلق، وإنما كانت فتحة شارعة ليس لها أغلاق، فكان الأعرابي يدخل المسجد براحلته ثم ينيخها فيه[١]، وكانت الكلاب تقبل وتدبر في المسجد؛ لأنه بلا أبواب[٢].

أما أرضه فقد فرشت ببطحاء العرصة الحمراء من وادي العقيق، وذلك لأن البطحاء في أرض المسجد تَشْرب ماء المطر وتَحْفظ تراب الأرض فلا يثور غُبارها، وبنى ﷺ بيوته في الجهة الجنوبية الشرقية: بيت زوجاته عائشة وسودة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وبعد سنة وستة أشهر حولت القبلة إلى جهة الكعبة، فسقفت الجهة الجنوبية، وبقيت سقيفة الجهة الشمالية صُفّة يأوي إليها الغرباء، والذين عرفوا بأهل الصُّفّة[٣].

وببناء المسجد صار للمسلمين مكان عبادتهم الآمن، ومجتمعهم المعلن مع رسول الله ﷺ، وصار المسجد النبوي هو الصورة المقابلة للإجتماع السري في دار الأرقم بمكة، بينما الاجتماع هنا في المسجد في الهواء الطلق، والمجلس المفتوح، حيث لا أبواب ولا حجاب.

وصار المسجد مركز المدينة وملتقى أهلها، فالصلوات الخمس تجمع المسلمين خمس مرات في اليوم، وإمامهم رسول الله ﷺ، يسمعون القرآن بقراءته في صلاتهم وبقراءته لهم في مسجده.

وفي المسجد خُطَبُ النبي ﷺ ومواعظه وتعليمه، وفي المسجد مجلسه الذي يقصدونه، وكان له في المسجد مجلسان معتادان في مصلاه بعد صلاة الفجر حتى تطلع الشمس، ومجلس في شرقي المسجد ضحى إلى وقت القيلولة قبيل الظهر.

وكان للنبي ﷺ مع خطبة الجمعة مواعظ عارضة في المسجد يخطب أصحابه بها، وغالبًا ما تكون بعد صلاة الفجر أو بعد صلاة الظهر.

---

(١) «مسند أبي داود الطيالسي» (٢٤٤٩).

(٢) «صحيح البخاري» (١٧٤).

(٣) ينظر: فصل «**الرسول ﷺ وأهل الصفة**».

وصار الغريب يأتي إلى المدينة فيلقى النبي ﷺ في مسجده ويصلي خلفه، ويجلس مع أصحابه في مجلسه، وبذا قوي التواصل مع القبائل والنواحي، فثم جهة يقصدونها ومكان يلقون فيه النبي ﷺ فيصلُّون معه ويجلسون إليه ويرون حاله، ثم يعودون إلى قومهم وقد وعوا الإسلام برنامج عمل ونظام حياة، قال مالك بن الحويرث: قَدِمْنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ شَبَبَةٌ، فَلَبِثْنَا عِنْدَهُ نَحْواً مِنْ عِشْرِينَ لَيْلَةً، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ رَحِيمًا فَقَالَ: «**لَوْ رَجَعْتُمْ إِلَى بِلَادِكُمْ، فَعَلَّمْتُمُوهُمْ وَأَمَرْتُمُوهُمْ، مُرُوهُمْ فَلْيُصَلُّوا صَلَاةَ كَذَا فِي حِينِ كَذَا، وَصَلَاةَ كَذَا فِي حِينِ كَذَا، وَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ، فَلْيُؤَذِّنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ وَلْيَؤُمَّكُمْ أَكْبَرُكُمْ**»(١).

وفي هذا المسجد كانت المدرسة الأولى للمرأة، وذلك بحضور النساء المسجد وشهودهن الصلوات مع رسول الله ﷺ وسماعهن القرآن من تلاوته في الصلاة، وقد أكد النبي ﷺ على عدم منعهن من شهود المساجد والصلاة فيها فقال مخاطبًا الرجال: «**لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللهِ مَسَاجِدَ اللهِ**»(٢)، وقال: «**إِذَا اسْتَأْذَنَتِ امْرَأَةُ أَحَدِكُمْ فَلَا يَمْنَعْهَا**»(٣).

فكانت النساء يحضرن الصلوات مع رسول الله ﷺ في المسجد كما أخبرت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كُنَّ نِسَاءُ الْمُؤْمِنَاتِ يَشْهَدْنَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ صَلَاةَ الفَجْرِ مُتَلَفِّعَاتٍ بِمُرُوطِهِنَّ، ثُمَّ يَنْقَلِبْنَ إِلَى بُيُوتِهِنَّ حِينَ يَقْضِينَ الصَّلَاةَ، لَا يَعْرِفُهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الغَلَسِ(٤).

وكان رسول الله ﷺ يراعي حضورهن المسجد فربما قَصَّر الصلاة لأن امرأة معها صبي يبكي ويقول: «**إِنِّي لَأَقُومُ إِلَى الصَّلَاةِ وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أُطَوِّلَ فِيهَا، فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ، فَأَتَجَوَّزُ فِي صَلَاتِي كَرَاهِيَةَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمِّهِ**»(٥).

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٣١)، و«صحيح مسلم» (٦٧٤).
(٢) «صحيح البخاري» (٩٠٠).
(٣) «صحيح البخاري» (٨٧٥)، و«صحيح مسلم» (٦٧٤).
(٤) «صحيح البخاري» (٥٧٨)، و«صحيح مسلم» (٦٤٥).
(٥) «صحيح البخاري» (٨٦٨)، و«صحيح مسلم» (٤٧٠).

وكان ﷺ إذا سلم قام النساء حين يقضي تسليمه، ومكث يسيراً قبل أن يقوم، قال ابن شهاب: فَأَرَى -وَاللهُ أَعْلَمُ- أَنَّ مُكْثَهُ لِكَيْ يَنْفُذَ النِّسَاءُ قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُنَّ مَنِ انْصَرَفَ مِنَ القَوْمِ[1].

وفي حضور النساء الصلاة في المساجد دورة تدريبية في إقامة الشعائر وحفظ القرآن، والذي كان يتعاهد به الرجال والنساء جميعًا.

وكان لهن مع هذا الحضور مشاركة في السؤال والاستفصال والإجابة على ما يسأله الرسول ﷺ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: انْطَلَقَ رسول الله ﷺ يَمْشِي حَتَّى أَتَى مَقَامَهُ الَّذِي يُصَلِّي فِيهِ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِمْ وَمَعَهُ صَفَّانِ مِنْ رِجَالٍ، وَصَفٌّ مِنْ نِسَاءٍ، أَوْ صَفَّانِ مِنْ نِسَاءٍ وَصَفٌّ مِنْ رِجَالٍ، فَقَالَ: «**إِنْ أَنْسَانِي الشَّيْطَانُ شَيْئًا مِنْ صَلَاتِي فَلْيُسَبِّحِ القَوْمُ وَلْيُصَفِّقِ النِّسَاءُ**»[2].

وبهذا الحضور حفظت النساء المسلمات قرآنًا وذكراً، وتلقين أدبًا وعلمًا، وكان في هذا تحفيز لهن في المشاركة في حمل همّ الدين والعمل له، فَكُنَّ خير عونٍ لرجالهن على الخير.

(١) «صحيح البخاري» (٨٣٧).

(٢) «سنن أبي داود» (٢١٧٤).

خلاصات:

١- مكان المسجد اختيار الله لنبيه محمد ﷺ كما كان الحرم في مكة اختيار الله لنبيه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

٢- وقع المسجد في وسط المدينة تحيط به دورها وأحياؤها فصار مركز المدينة.

٣- تم بناء المسجد بذات النمط المعتاد والسائد في بناء دور المدينة، فلم يكن باذخاً في تشييده ولا دوناً في بنائه.

٤- كان بناء المسجد عملاً جماعياً اشترك فيه الصحابة كلهم، والنبي ﷺ يعمل معهم.

٥- صار المسجد مكان العبادة، وملتقى الجماعة، ومجلس الاجتماع المعلن بلا أبواب ولا حجاب.

٦- وفي المسجد كانت خطب النبي ﷺ ومواعظه ومجالس علمه، واستقبال الوافدين عليه.

٧- وكان المسجد المدرسة الأولى للمرأة فيشهد النساء فيه الصلاة، ويسمعن الذكر، والقرآن.

نهار الرسول ﷺ [1]

في هذه السيرة اليومية، نترحل مع ساعات يوم النبيِّ ﷺ، حيث كان يعقد صفقاته مع الحياة في كلِّ ثانية؛ في بيته، ومسجده، وطرقات مدينته، وبيوت أصحابه، على حصير مجلسه، وسفرة طعامه، وفراش نومه، وكأنا نعيش معه بساطة الحياة العظيمة، وعفويَّة الحياة الجادَّة، والتوازن بين مناشط الحياة.

إنَّ التاريخ لم يعرف إنجازاً تحقَّق على يد بشر أعظم من الإنجاز الذي تحقَّق على يد النبيِّ الإنسان ﷺ، وكان يومه هو الوعاء الزماني للإنجازات الكبرى التي تحقَّقت على يديه.

تتراءى لنا في هذا اليوم سكينة النبيِّ ﷺ نائماً، وحيويَّته جالساً، وتوثبه قائماً، ونسمع صوته الحاني معلماً، وصوته المخبت مصلياً، ونأكل من طعامه القليل الذي يُؤثر به، ونجلس على حصيره الذي يجلس عليه، ونمشي معه في طرقات مدينته، ونترحل مع ساعات يومه ساعة ساعة.

يصدع نور الفجر ظلمة الليل، ويصدح أذان بلال فيبدِّد سكون المدينة، ويستيقظ رسول الله ﷺ، فيتناول سواكه فيستاك به، ثم يقول: «**الحَمْدُ لله الَذِي أَحْيانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا، وَإِلَيْهِ النُّشُورُ**»[2]، ويجيب المؤذِّن بمثل ما يقول[3]، ثم ينبعث ﷺ، فإن كان به حاجة إلى الغسل اغتسل، وإن كان به حاجة إلى الوضوء توضأ.

(١) باختصار من كتاب: «اليوم النبوي» للمؤلف.

(٢) «صحيح البخاري» (٦٣١٢)، و«صحيح مسلم» (٢٧١١).

(٣) «صحيح البخاري» (٦١١)، و«صحيح مسلم» (٣٨٣).

ثم يصلِّي ركعتي الفجر؛ صلاةً خفيفة، يقرأ فيها بعد الفاتحة في الركعة الأولى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون: ١]، وفي الركعة الثانية: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، وربَّما قرأ بغير ذلك(١).

ولم يكن ﷺ على شيء من النوافل أشدَّ تعاهداً منه على هاتين الركعتين، وكان يقول: «**لَهُما أَحَبُّ إليَّ مِنَ الدُنْيَا وَمَا فِيهَا**»(٢)، فإذا فرغ من صلاته اضطجع على شقِّه الأيمن حتى يحين موعد إقامة الصلاة(٣).

فإذا اجتمع الناس خرج رسول الله ﷺ من بيته، فإذا دخل المسجد قال: «**اللهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ**»(٤).

ثم يقدم في مصلاه فيسوِّي الصفوف، ويقول لأصحابه: «**سَوُّوا صُفوفَكُمْ، فَإِنَّ تَسْوِيَةَ الصُفُوفِ مِنْ تَمَامِ الصَلاةِ**»(٥)، ثم يصلي صلاة الفجر ويطيل في القراءة ويترسل بقرآن الفجر، ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨](٦).

فإذا أتمَّ صلاته وسلَّم منها قال وهو في مكانه ووجهه تلقاء القبلة: «**أَسْتَغْفِرُ اللهَ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ، اللهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ يَا ذَا الجَلَالِ وَالإِكْرَامِ**»(٧)، ثمَّ ينصرف فيقبل على أصحابه بوجهه، ويقول: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير**»(٨)، ثمَّ يذكر الله بجوامع الذِّكر ويسبِّح الله ويَحْمَدُه ويكبِّره.

(١) «صحيح البخاري» (٦١٨)، و«صحيح مسلم» (٧٢٦).
(٢) «صحيح مسلم» (٧٢٥).
(٣) «صحيح البخاري» (٦٢٦)، و«صحيح مسلم» (٧٣٦).
(٤) «صحيح مسلم» (٧١٣).
(٥) «صحيح البخاري» (٧٢٣)، و«صحيح مسلم» (٤٣٣).
(٦) «مسند أحمد» (٨٣٦٦).
(٧) «صحيح مسلم» (٥٩١).
(٨) «صحيح البخاري» (٨٤٤).

ثم تتقارب أطراف الصفوف، فيطيف أصحاب رسول الله ﷺ به وهو جالس في مصلاه، مقبل بوجهه إليهم، فيسفر لهم ضوء الصباح عن ضياء وجه رسول الله ﷺ، وكان أبيضَ وضيئًا، كأنَّ الشمس تجري في وجهه[١]، يرى الناظرُ في مُحيَّاه بشائرَ الصِّدق، فيتحدث إلى أصحابه.

وربما سألهم: «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ رُؤْيَا فَلْيَقُصَّهَا أَعْبُرْهَا لَهُ**»[٢]، فيقصُّون عليه رؤاهم فيعبُرها لهم.

وربَّما حدَّثهم ﷺ برؤيا رآها هو، فيقصُّها عليهم ويعبُرها لهم[٣].

وربَّما وعظهم بموعظة، وكان يتخوَّلهم بها ويتعاهدهم من غير إملال.

ويتحدث الصحابة في هذا المجلس بين يدي رسول الله ﷺ، فيشاركهم الحديث والاستماع، فربَّما تحدَّثوا عن حياتهم في الجاهليَّة، وما كانوا يقعون فيها من أُحمُوقات الجهل التي تبدَّى لهم عوارها بعد أن منَّ الله عليهم بالإسلام، فإذا ذكروها ضحكوا من جهلهم في الجاهلية، ويتبسَّم رسول الله ﷺ معهم[٤].

ويتفقَّد أصحابه، ويسأل عمَّن غاب منهم، لا يعزب عن باله ولا يسقط من عينه أحد، فلكلٍّ من حضر حظُّه من الحفاوة والرعاية، ولمن غاب حظُّه من الاهتمام والتفقُّد؛ تقوية للحمة المجتمع، وتعميقًا للانتماء.

ولم يكن يقوم من مصلاه الذي يصلي فيه الفجر حتى تطلع الشمس حسناء[٥]، فإذا طلعت الشمس وأراد ﷺ الخروج من المسجد قال: «**اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ**»[٦]،

---

(١) «جامع الترمذي» (٣٦٤٨).
(٢) «صحيح مسلم» (٢٢٦٩).
(٣) «صحيح البخاري» (١٣٨٦)، و«صحيح مسلم» (٢٢٨٥).
(٤) «صحيح مسلم» (٦٧٠، ٢٣٢٢).
(٥) «صحيح مسلم» (٦٧٠).
(٦) «صحيح مسلم» (٧١٣).

ثم يذهب ﷺ إلى حُجَر نسائه، وأوَّل شيء يبدأ به إذا دخل بيته السِّواك يطيِّب به فمه الطيِّب المطيَّب[1]، ويسلِّم على أهله قائلًا: «**سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، كَيْفَ أَنْتُمْ يَا أَهْلَ الْبَيْتِ؟**». ويطوف على نسائه، يدخل على كلِّ واحدة في حجرتها، يسلِّم عليهنَّ ويدعو لهنَّ، ولا يطيل المكث، وربما دخل على إحداهنَّ وهي في مصلاها، تذكر الله وخرج وهي على حالها من الذِّكر[2].

وربما سأل أهله عن الطعام، فقال: «**هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ؟**». فإن كان ثمَّ طعام قرِّب إليه، وغالبًا ما يكون طعامًا خفيفًا كالتمر والأقط، أو شرابًا كاللبن أو النَّبيذ[3] ونحو ذلك، وربَّما قال أهله: يا رسول الله، ما عندنا شيء، فيقول: «**فَإِنِّي إِذَنْ صَائِمٌ**»[4].

فإذا أتمَّ ﷺ طوافه على نسائه عاد إلى المسجد، فإذا دخله صلَّى تحية المسجد عند سارية وسط الروضة الشريفة، ثم يجلس شرقي المسجد في الروضة الشريفة، مستنداً إلى حجرة عائشة رضي الله عنها، ويجتمع إليه أصحابه، وكان هذا اللقاء معهوداً، بحيث أن من أراد النبيَّ ﷺ في هذا الوقت، فإنه يأتي إليه في المسجد.

وقد يقلُّ أصحابه حوله أو يكثرون بحسب فراغهم وظروف حياتهم، فإن كانوا قليلاً تحلَّقوا حوله، وإن كانوا كثيراً جلسوا صفين عن يمينه ويساره، حتى يصل إليه الوافد، ويدنو منه السائل.

وهذا هو مجلس استقبال القادمين من الوفود، فكانوا يلقون النبيَّ ﷺ في هذا المجلس ضحىً.

وكان ﷺ يقسِّم بشره وتبسُّمه وإقباله في مجلسه بين أصحابه، حتى يتفرَّقوا عنه، وكلٌّ يظن أنه أكثرهم حظوة عنده.

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٥٣).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٧٢٦).

(٣) النبيذ هنا هو الماء الذي ينبذ فيه حبات التمر أو قبضات الزبيب حتى يصير طعمه حلواً، وليس هو النبيذ المسكر.

(٤) «صحيح مسلم» (١١٥٤).

وقد يطول هذا المجلس أو يقصر بحسب الحال والحاجة، وكان الصحابة يتناوبون على حضور هذا المجلس النبويِّ المبارك حتى لا يفوتهم ما فيه من علم، وما يكون فيه من أمور.

حتى إذا تعالى النهار قام ﷺ، ولم يكن يقوم من مجلسه إلا قال: «**سُبْحَانَكَ اللهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ**»[1]، ثم يتفرَّق أصحابه إلى أعمالهم أو إلى بيوتهم، للقيلولة قبل الظهر.

أما هو ﷺ فقد يرجع إلى بيته لنومة القيلولة، وربما تلقَّته أسواق المدينة ماشيًا فيها؛ مجيبًا لدعوة، أو قاصداً لزيارة، أو ساعيًا في قضاء حاجة من حاجاته.

وربَّما ذهب النبيُّ ﷺ في بعض ضحوات الأيام لقضاء بعض شأنه، أو لزيارة من يرغب زيارته من قرابته أو أصحابه، وكان يؤنس من يزورهم، ويسعهم جميعًا برُّه وحسن خلقه، حتى صبيتهم وصغارهم.

وكان ﷺ يأتي ضعفاء المسلمين، ويزورهم، ويعود مرضاهم، ويجيب دعوتهم، فتكون زيارته أنسًا لنفوسهم، وإكراماً لكبارهم، وبرّاً بصغارهم.

وربَّما ذهب ﷺ إلى بعض بساتين المدينة؛ يجمُّ نفسه فيها، ويستظلُّ بظلِّها، ويشرب من مائها ويجلس فيها إلى خاصة أصحابه، فكان يذهب إلى بيرحاء؛ وهي حديقة لأبي طلحة الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فيدخلها ويستظلُّ بها ويشرب من ماءٍ فيها طيِّب[2]، وكانت مستقبلة المسجد النبوي؛ شمالاً منه، وربَّما ذهب إلى غيرها من بساتين الأنصار.

وكان يذهب ضحى كلِّ سبت راكبًا وماشيًا إلى قباء، فيصلي في المسجد[3]، ويأتي إليه أهل قباء فيسلمون عليه.

وكان إذا ذهب إلى قباء ربَّما ذهب إلى بئر أريس، عند مسجد قباء، وهي البئر التي وقع فيها خاتم رسول الله ﷺ في خلافة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولم يمكن إخراجه منها[4].

---

(١) «سنن أبي داود» (٤٨٥٩).
(٢) «صحيح البخاري» (٥٦١١).
(٣) «صحيح مسلم» (١٣٩٩).
(٤) «صحيح البخاري» (٥٨٧٨).

وفي ذهابه ﷺ إلى بساتين المدينة إجمام للنفس واستبراد بظلِّ شجرها عن حرِّ المدينة اللافح، وتطرية للحياة، وتجديد لوتيرة النشاط اليومي، وإيناس لأصحاب هذه البساتين أن يروا رسول الله ﷺ يأوي إلى حوائطهم؛ فيصيبها من بركته وطهوره، وهو المبارك حيثما كان ﷺ.

وربَّما ذهب رسول الله ﷺ إذا تعالى الضحى إلى بيت زوجته التي هو عندها وفي يومها، فإذا دخل بيته كان أوَّل شيء يفعله عند الدخول الذِّكر، والسواك، والسلام على أهل البيت، وربَّما صادف طعامًا فأصاب منه، إذا لم يكن طَعِم في الصباح، وقد يعرض عليه الطعام وهو صائم فيفطر.

وكانت هذه ساعة خلوته في بيته مع أهله، وربَّما أتاه فيها بعض نساء المؤمنات يسألنه عن أمور دينهنَّ ممَّا لا يَجْرُؤنَ على السؤال عنه أمام الرجال، ويكون السؤال بمحضر أمهات المؤمنين، فحفظن للأمة هذه الفتاوى النبويَّة في خاصة أمور النساء، وربَّما زاره في هذا الوقت بعضُ خاصةِ أصحابه لأمر يعرض لهم.

وكان ينام القيلولة إلى قريب من صلاة الظهر، وكانت قيلولته في بيوته وعند أزواجه، ولم يكن يدخل على أحد من النساء إلا على أزواجه.

وربَّما دخل ونام القيلولة عند أمِّ سُليم أو أختها أم حرام وهن من محارمه[1].

وإذا زالت الشمس أذَّن بلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للظهر، فيستيقظ رسول الله ﷺ من قيلولته إن كان لا يزال نائمًا، ويجيب المؤذن بمثل ما يقول، ويتوضأ إن كان به حاجة إلى وضوء، ثمَّ يصلِّي في بيته أربع ركعات[2]، وكان يقول: «**إِنَّهَا سَاعَةٌ تُفْتَحُ فِيهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَأُحِبُّ أَنْ يَصْعَدَ لِي فِيهَا عَمَلٌ صَالِحٌ**»[3]، ثم ينتظر الصلاة حتى يؤذنه بلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فيخرج إلى الناس، وربَّما قبَّل إحدى زوجاته وهو خارج إلى الصلاة[4]، فإذا خرج أقام بلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الصلاة.

---

(١) «صحيح البخاري» (٢٧٨٨)، و«صحيح مسلم» (١٩١٢).
(٢) «صحيح البخاري» (١١٨٢).
(٣) «سنن أبي داود» (١٢٧٠).
(٤) «سنن أبي داود» (١٧٩).

وخرج مرَّة، وهو حامل الحسن أو الحسين[١]، وخرج مرة وعلى عاتقه أمامة بنت بنته زينب[٢]، وكأنما يقدم للبشرية درسًا في محبة الأطفال ورحمتهم.

وكان يصلِّي الظهر في أوَّل وقتها[٣]، فإذا فرغ من صلاته أقبل على أصحابه، فإن كان قد نزل أمر أو عرض عارض خطب الناس بعد صلاة الظهر؛ لأنها وقت اجتماع الناس؛ إذ هم قد نهضوا من قيلولتهم، فالاجتماع فيها أكثر، والنفوس مستريحة واعية لما يقال.

وهذه الخطب تكون في الأمر العارض والشأن العاجل الذي لا يحتمل التأخير إلى يوم الجمعة.

ثم يعود ﷺ إلى بيته الملاصق للمسجد، فيصلِّي راتبة الظهر ركعتين[٤]، ثمَّ يخرج إلى أصحابه، وربَّما جلس لهم إلى العصر، وربَّما ذهب في وقت الظهيرة لقضاء بعض حاجات المسلمين.

فإذا أُذِّنَ لصلاة العصر، انتظر حتى يجتمع الناس لها، فإذا اجتمعوا خرج فصلَّى العصر، وكان يصليها في أوَّل وقتها[٥]، وكان يجعل قراءته فيها على النِّصف من صلاة الظهر[٦]، فإذا انصرف من صلاته دخل على نسائه، فيطوف عليهنَّ جميعًا، فيدنو من كلِّ امرأة منهنَّ في مجلسه من غير مسيس، حتى ينتهي إلى التي هو في يومها، فيبيت عندها، وربَّما اجتمعن كلُّهنَّ في بيت التي هو عندها، فيقضي فترة بعد العصر غالبًا في بيته ومع نسائه، وكما يجري في مجلسه مع زوجاته الأنس الزوجي، تجري المذاكرة العلميَّة والأسئلة والاستشكال، ويتلقَّى ذلك رسول الله برحابة صدر وحسن تلقٍّ، وتُراجِعُه زوجاته فيما أشكل عليهنَّ، وما كانت هذه المراجعة بين المصطفى ﷺ وزوجاته لتتم لولا أنه استثار اليقظة العقلية، وفتح آفاق التفكير، وجعل المراجعة والتفاعل العقلي طريق القناعة واليقين.

---

(١) «سنن الكبرى» للنسائي (١١٤١).

(٢) «صحيح البخاري» (٥١٦)، و«صحيح مسلم» (٥٤٣).

(٣) «صحيح البخاري» (٤٩٥)، و«صحيح مسلم» (٦٤٧).

(٤) «صحيح البخاري» (١١٦٥)، و«صحيح مسلم» (٧٢٩).

(٥) «صحيح البخاري» (٥٤٤)، و«صحيح مسلم» (٦١١).

(٦) «سنن أبي داود» (٨٠٤).

وربَّما دعاه بعض أصحابه بعد صلاة العصر إلى الأمر يحبُّون أن يشهده معهم، فيجيبهم لذلك، فقد دعاه رجل من بني سلمة بعد صلاة العصر، فقال: يا رسول الله، إنا نريد أن ننحر جزوراً لنا، ونحبُّ أن تحضرها -وهذه من مناسبات السرور؛ لقلة اللحم عندهم- فقال ﷺ: «**نَعَمْ**». فانطلق وانطلق معه بعض أصحابه، فوجدوا الجزور لم تنحر فنُحرت، ثم قُطِّعت، ثم طبخ منها، فأكلوا قبل أن تغيب الشمس[1]، فشاركهم النبيُّ ﷺ هذه الاحتفاليَّة والابتهاج بنحر جزور، فيتسع سرورهم بحضوره، ويكبر فرحهم بمشاركته، وليتحوَّل الفرح من نحر جزور وأكلها إلى حضور النبيِّ ﷺ نحر الجزور ومشاركتهم أكلها.

وكان وقت العصر إلى غروب الشمس وأوَّل الليل هو وقت أذكار المساء.

(١) «صحيح مسلم» (٦٢٤).

ليل الرسول ﷺ[1]

تغرب الشمس ململمة آخر أنوار الضياء، ويصدح أذان بلال لصلاة المغرب، فكما يصحب التكبير أول أنوار الفجر، فكذلك يصحب التكبير أول ستور الظلام، ففاتحة النهار وفاتحة الليل ذكر وتكبير، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢]، فلا يلبث رسول الله ﷺ في بيته إلا قليلاً ثم يخرج للصلاة، فإذا خرج وجد أصحابه قد ابتدروا السواري يصلُّون خلفها ركعتين[2]، حيث كان ﷺ يرغِّب أصحابه فيهما ويقول: «**صَلُّوا قَبْلَ المَغْرِبِ**»[3]، ولم يكن بين أذان المغرب وإقامتها إلا وقت قليل، فإذا خرج أقيمت الصلاة فصلى المغرب، وكان يصلي المغرب أوَّل وقتها[4]، وينصرف منها قبل حلول الظلام، وكانت صلاته وقراءته فيها قصيرة غالبًا[5]، وربَّما أطال القراءة أحيانًا على ندرة، فقد صلَّى مرَّة فقرأ بـ«الطور»[6]، ومرَّة قرأ بـ«المرسلات»[7].

---

(١) باختصار من كتاب: «اليوم النبوي» للمؤلف.

(٢) «صحيح البخاري» (٥٠٣)، و«صحيح مسلم» (٨٣٧).

(٣) «صحيح البخاري» (١١٨٣).

(٤) يُنظر: «صحيح البخاري» (٥٦٠).

(٥) يُنظر: «مسند أحمد» (٧٩٩١)، و«سنن النَّسائي» (٩٨٢).

(٦) «صحيح البخاري» (٧٦٥)، و«صحيح مسلم» (٤٦٣).

(٧) «صحيح البخاري» (٤٤٢٩)، و«صحيح مسلم» (٤٦٢).

ولم يكن من عادته ﷺ أن يتحدَّث بعدها إلى أصحابه كما يتحدَّث في أعقاب الصلوات، وذلك لحاجة الناس إلى الانصراف إلى عَشائهم وراحتهم، فإذا صلَّى المغرب عاد إلى بيته فصلَّى فيه ركعتين سنة المغرب[١]، ثم تعشَّى، وهذا هو وقت العَشاء في الشِّتاء غالبًا، وكان يأخذ معه إلى عَشائه من الفقراء من أهل الصفة فربَّما أخذ ﷺ عشرة فذهب بهم إلى بيته، ليتعشَّى معهم، حسَب ما يجد من طعام يطعمه[٢].

وكان يأمر أصحابه أن يأخذوا معهم إلى عَشائهم فقراء المسلمين، فيقول: «**مَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامُ اثْنَيْنِ فَلْيَذْهَبْ بِثَالِثٍ، وَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامُ أَرْبَعَةٍ فَلْيَذْهَبْ بِخَامِسٍ أَوْ سَادِسٍ**»[٣].

فإذا تعشوا انصرفوا ويبقى رسول الله ﷺ في بيته إلى أذان العشاء، وكان لا يحبُّ النوم قبلها، ولا الحديث بعدها[٤]، فإذا أذَّن بلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لصلاة العِشاء لم يُعجِّل ﷺ بالصلاة، وإنما ينتظر، فإن رآهم اجتمعوا عجَّل، وإن رآهم تأخروا أخَّر[٥]، وكان يحب تأخيرها لولا خوف المشقة على الناس[٦].

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَعْتَمَ[٧] رسولُ الله ﷺ ذاتَ ليلةٍ بصلاة العشاء، فلم يخرج حتى ناداه عمر، فقال: الصلاةَ يا رسولَ الله، فقد نام النساءُ والصبيان. فخرج رسولُ الله ﷺ حين ذهب ثُلُثُ الليل أو بعده فقال لأهل المسجد حين خرج عليهم: «**إِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ يُصَلِّي هَذِهِ الصَّلَاةَ غَيْرُكُمْ**»، وذلك قبل أن يَفشوَ الإسلام، ولم يكن يُصلِّي يومئذٍ غيرُ أهل المدينة[٨]، ثم قال ﷺ: «**لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي، لَأَمَرْتُهُمْ أَنْ يُصَلُّوهَا هَذَا الوَقْتَ**»[٩].

---

(١) «صحيح البخاري» (١١٨٠)، و«صحيح مسلم» (٧٢٩).
(٢) «صحيح البخاري» (٦٠٢).
(٣) «صحيح البخاري» (٣٥٨١)، و«صحيح مسلم» (٢٠٥٧).
(٤) «صحيح البخاري» (٧٧١)، و«صحيح مسلم» (٦٤٧).
(٥) «صحيح البخاري» (٥٦٠)، و«صحيح مسلم» (٦٤٦).
(٦) «صحيح البخاري» (٥٧٠).
(٧) أَعْتَمَ: أخَّر الصلاة حتى دخلت العتَمة، وهي شدة ظلمة الليل.
(٨) «صحيح البخاري» (٥٦٦)، و«صحيح مسلم» (٦٣٨).
(٩) «صحيح البخاري» (٥٧٠).

ثم يرجع النبيُّ ﷺ بعد صلاة العشاء إلى بيته فيصلي ركعتين راتبة العشاء[١]، ثم يجلس سويعةً يتحدَّث مع أهله يؤانسهم ويسمر معهم قبل أن ينام، وربَّما ذهب يسمر عند بعض أصحابه، وغالبًا ما يكون عند أبي بكر وعمر للنظر في حاجة المسلمين، فإذا فرغوا عاد ﷺ ومشيا معه يشيعانه حتى يدخل بيته[٢].

والغالب نومه ﷺ بعد العشاء مباشرة، فقد كان يكره الحديث بعدها[٣].

فإذا انتصف الليل استيقظ ﷺ، ومسح النوم عن وجهه بيده، ويتناول سواكه فيدلك به فمه الطَّيِّب المبارك، ويرفع نظره إلى السماء، فينظر بتفكُّر في هدوء الليل وسكونه إلى عظمة الله في خلقه، وهو يتلو قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١][٤]، حتى يختم سورة آل عمران.

ثم يقوم ﷺ إلى قِربة معلَّقة فيطلق رباطها، ويسكب الماء منها في قدح عنده، ثمَّ يتوضأ وضوءاً مقتصداً سابغًا، ثم يلبس إزاره ورداءه، ويلهج لربِّه بالذِّكر والتسبيح والتعظيم قبل أن يبدأ صلاة التهجد[٥].

فإذا قام إلى صلاته، استفتحها استفتاح المعظِّم لربِّه، المحبِّ له، المشتاق إليه، فاستفتاحه جوامع التعظيم والحمد والثناء، وكان يبتدئ قيامه بركعتين خفيفتين، ثم يصلي صلاةً يطيل فيها القيام والركوع والسجود[٦]، فصلاته في الليل أطول صلاته استفتاحًا وقيامًا ودعاءً، ويقرأ قراءة مترسِّلة مرتَّلة، لا يمرُّ بآية رحمة إلا سأل، ولا آية عذاب إلا استعاذ،

---

(١) «صحيح البخاري» (١١٨٠)، و«صحيح مسلم» (٧٢٩).
(٢) «صحيح البخاري» (٥٩٩).
(٣) «صحيح البخاري» (٧٧١)، و«صحيح مسلم» (٦٤٧).
(٤) «صحيح البخاري» (٤٥٦٩)، و«صحيح مسلم» (٢٥٦).
(٥) يُنظر: «صحيح البخاري» (١٣٨)، و«صحيح مسلم» (٧٦٣)، و«المعجم الكبير» للطبراني (١٠٦٤٨).
(٦) «صحيح مسلم» (٧٦٧).

ولا آية تسبيح إلا سبَّح[1]، فإذا ركع أطال الركوع، وإذا سجد أطال السجود، فيسجد السجدة قدر خمسين آية قبل أن يرفع رأسه[2].

ولا يزال نبيُّك ﷺ يُقطِّع آناء الليل بين قراءة خاشعة، ومسألة ضارعة، وتسبيح قدسي، إلى أن يبقى سدس الليل.

فإذا أتمَّ ﷺ قيامه وأراد أن يوتر أيقظ زوجته لتوتر معه[3]، وكان يوتر بثلاث ركعات يقرأ في الأولى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، وفي الثانية: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون: ١]، وفي الثالثة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١][4].

وكان ﷺ يصلِّي في حجرته التي زوي عنها ترف العيش ونعيم الدنيا، فكان يصلِّي فيها على حصير صغير بقدر ما يسجد عليه، وربَّما صلَّى ولا فراش له إلا فراش زوجته، فيصلِّي وهي معترضة أمامه[5].

وربَّما خرج في الليل وقت التهجُّد إلى بيت ابنته فاطمة وزوجها عليٍّ عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ، فيطرقهما ويناديهما: «**أَلَا تَقُومَانِ فَتُصَلِّيَانِ؟**»[6]، وكان في آخر حياته يخرج كل ليلة إلى البقيع، فيسلم على أهل القبور ويدعو لهم[7].

فإذا تَصَرَّمَ الليل ولم يَبْقَ إلّا ساعته الأخيرة بقدر سُدُس الليل عاد ﷺ إلى فراشه فينام نومةً يستريح بها، ويستعد بعدها ليوم جديد بحيوية ونشاط، ليكون أول لقائه مع يومه صلاةُ الفجر، وقرآنُ الفجر، ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

---

(١) «صحيح مسلم» (٧٧٢).
(٢) «صحيح البخاري» (٩٩٤).
(٣) «صحيح البخاري» (٥١٢)، و«صحيح مسلم» (٥١٢).
(٤) «سنن أبي داود» (١٤٢٣)، و«سنن النَّسائي» (١٦٩٩).
(٥) «صحيح البخاري» (٣٨٢)، و«صحيح مسلم» (٥١٢).
(٦) «صحيح البخاري» (١١٢٧)، و«صحيح مسلم» (٧٧٥).
(٧) «صحيح مسلم» (٩٧٤).

ونلاحظ أن ليلَ النبي ﷺ ليلُ سكينةٍ وسكون، وهو بذلك تطبيقٌ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا﴾ [الأنعام: ٩٦]، أي تسكن فيه النفس من تعب العمل، وترتاح من سعي النهار لتستعيد نشاطها وقوتها، وأن الليل هو فترة النوم الطويلة والانقطاع عن الحياة والأحياء، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا﴾ [النبأ: ٩]، وفي النوم في الليل مناسبةٌ للظلمة والهدوء، أما النهار ففيه النشور والانبعاث لنشاط الحياة وفاعليتها[1]، وهذه طبيعة البيئة وطبيعة الحياة، وخاصة في ذلك الوقت.

خلاصات (النهار والليل):

١- اليوم النبوي هو الوعاء الزماني للإنجازات الكبرى التي تحقَّقت على يد النبي ﷺ، فلم يَعرفِ التاريخ إنجازاً تحقَّق على يد بشر كالإنجاز الذي تحقَّق على يد هذا الرسول الكريم العظيم ﷺ.

٢- يلفتُ نظرَك شدَّةُ الوضوح في حياته ﷺ اليومية، فليس في حياته زوايا مظلمة أو حلقات مفقودة.

٣- كان النبي ﷺ يبكر إلى أداء الصلوات في أول وقتها، إِلَّا العِشاء، فربما تراخى فيها قليلاً.

٤- خُطب النبيِّ ﷺ ومواعظه تكون عقب الصلوات، فكثيراً ما تكون بعد الفجر أو الظهر؛ لأن الناسَ في حال نشاط وراحة، فهاتان الصلاتان مسبوقتان بنوم الليل وقيلولة الضحى.

٥- أعمق عباداته ﷺ وأكثرها استغراقًا هي عبادات السر التي كان يفعلها في بيته وفي سكون الليل وغفلة الناس، وهي التي لزمها وداوم عليها حتى لقي ربه.

٦- **يمكن تقسيم فترات نشاطه ﷺ إلى ثلاثة أوقات:**

فترة النشاط والحيوية والصفاء في قيام الليل؛ لأن قيامه للتهجد هو بعد أطول فترة نوم ينامها في نصف الليل الأول، فكأنما كان يستجمع صفو نشاطه لهذا الحال، إذ صلاته هي راحته وقُرَّة عينه.

---

(١) يُنظر: «التحرير والتنوير» لابن عاشور (١٩/ ٤٥).

ثم بعد الفجر، إذْ هي تَعقب إغفاءة السَّحَر، فيصلِّي الفجر ويذكر ربه، ثم يجلس لأصحابه مؤانسةً ووعظًا وتعليمًا وتربية.

ثم بعد صلاة الظهر، إذ هي تعقب القيلولة، فيصلِّي الظهر ويخطب إن كان قد حدث أمر، أو يجلس لأصحابه يحدِّثهم ويقضي حوائجهم.

٧- يلاحظ أن الصلوات هي فواصل الأوقات، فالوقت يقسَّم إلى وحدات زمنية تفصلها الصلوات.

ويمكن تقسيم برنامج اليوم النبوي تقسيمًا تقريبيًّا على النحو التالي:

أ- **الفجر**: وبعده يستيقظ لصلاة الفجر، ثم يمكث في مصلَّاه مع أصحابه إلى طلوع الشمس.

فإذا تعالى الضحى، فإنه وقت النوم والقيلولة، فيَقِيل قبل صلاة الظهر.

ب - **الظهر**: يستيقظ لصلاة الظهر، فيصلِّي الظهرَ، فإن كان حدَثَ أمرٌ خَطَبَ بعد صلاة الظهر، ثم يجلس إلى أصحابه، أو يذهب لقضاء بعض شأنه، فقد كان ما بين الظهر والعصر وقت عمل وقضاء حاجات.

ج- **العصر**: يصلِّي العصر في أول وقتها، ثم يقوم بعد صلاة العصر بجولة مسائية على زوجاته، وكأنما وقتُ ما بين العصر والمغرب وقت راحة واجتماع أُسَري في الغالب.

د- **المغرب**: يصلِّي المغرب في أول وقتها، ثم يتعشَّى، ويبقى في بيته، وهذا هو وقت تناول الوجبة الرئيسة، وهي وجبة العَشاء.

هـ - **العِشاء**: يصلِّي العِشاء، ثم يعودُ إلى بيته، فينام إلى منتصف الليل، ويستيقظ إذا انتصف الليل ليصلِّي صلاة الليل، حتى إذا لم يبق إِلَّا سدس الليل عاد إلى فراشه؛ فينام نومة السَّحَر إلى صلاة الفجر.

٨- يشدنا هذا اليسر في حياة النبي ﷺ اليومية، فلا تجد في حياته توتّراً، ولا تكلّفًا، ولا عسراً ولا حرجًا، وهذا اليسر في حياته هو من اليسر في دينه، فقد رفع الله عن شريعته الحرج، وجعله قدوة فرفع عن سيرته العُسر والرَّهَق.

٩- لا ينظر أحد إلى البرنامج اليومي لرسول الله ﷺ إلا وجد أنه برنامج واقعي يمكن تطبيقه والتّأسّي به.

نوم الرسول ﷺ

النوم نعمةٌ من نعم الله السابغة، ولذّةٌ من لذائذ الحياة الطيبة، وراحةٌ للجسد والعقل تُهيئه لاستعادة النشاط وتجديد الحيوية، فهو راحةٌ للجسد بعد جهد العمل، وراحةٌ للعقل بعد إجهاد التفكير.

وكما أن النَّوم انقطاعٌ مؤقتٌ عن الحياة، فإن الاستيقاظ منه ميلادٌ جديد، ولن يعرف لذّة النوم إلا من حُرم منه لمرضٍ أو قلقٍ أو خوف.

ومع ذلك فهو مظهرٌ من مظاهر العبودية والضعف البشري، ومن كمال عظمة الله عَزَّوَجَلَّ أنه الحي القيوم الذي ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ**»(١).

أما نوم النبي ﷺ فهو أكملُ وأفضلُ برنامجٍ للنوم، مناسبٌ لحياته وبيئته ونشاطه، ونلاحظ أن فترة نومه لم تكن وجبةً واحدةً متصلة، بل كانت مقسّمةً في أوقات: أولُها وأطولُها نومُ ما بعد العشاء إلى منتصف الليل، ثم إغفاءةُ السَّحر إلى الفجر، ثم نومُ القيلولة قبل الظهر.

فأما أولُها: فهي نومة بعد العشاء وهي في الغالب أولَ الليل بعد العِشاء مباشرة، وقد يتأخر ﷺ أحيانًا لانشغاله بأمور المسلمين، فيسمُر مع أبي بكرٍ وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قضائها.

(١) «صحيح مسلم» (١٧٩).

فإذا دخل ﷺ بيته وأراد أن ينام تخفَّف من ثيابه، فأخذ خِرْقَة تُوضَع عند رأس فراشه، فاتَّزر بها، وخلع ثوبيه فعلَّقهما، ثم دخل ﷺ مع زوجته في لحافها[1].

وكان سريرُه ﷺ في زاوية بيته الجنوبية الغربية، وهو مكان قبره المقدس، فهذا المكان مرقده ﷺ حيًا ومثواه ميتًا.

فإذا أراد ﷺ أن ينامَ وضعَ سِواكه عند رأسه، والذي يظهر أنه ﷺ يستاك قبل أن ينام[2]، ويستاك كلَّما استيقظ، وكان لا يرقد من ليل ولا نهار فيستيقظ إلاَّ بدأ بالسِّواك[3].

وكان إذا استاك ﷺ أَعْطَى سواكه عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لتغسله، فتبدأ به فتستاك، لتصيب أثر ريقه الطيب المبارك، ثم تغسله وتدفعه إليه[4].

فكان سواكه ﷺ نظيفًا وقريبًا منه، يتعاهد به فمه الطَّيِّب المُطَيَّب تعاهداً شديداً.

ثم يؤانسُ زوجتَه بالحديث معها سُويعة، ولك أن تتخيَّل هذه النجوى بين زوج كريم محبٍّ وزوجة مُحِبَّة مَشُوقَة في هَدْأَة الليل وسكون المدينة الجميل، إنها عطاء وِجداني يفيض على النفس بأنواع المَسَرَّة والإبهاج، ويُعطي العلاقة الزوجية عُمْقًا وِجدانيًّا راسخًا في النفس.

وكما كان حديثُه ﷺ أولَ ما تسمعه زوجته عند صحوها فإنه كان آخرَ ما تسمعه قبل إغفائها، وللحديث والنجوى في لحظة القرب الزوجي هذه لذته وذواقه، وأثره في حيوية الحياة الزوجية، فهو أكثر حميمية وخصوصية، فتبقى نشوته وذكراه بهجةً لليوم كله، إنها سويعة الصفو في كَبَدِ الحياة.

---

(١) «مسند أحمد» (٢٥٧٢، ٣٤٩٠)، و«صحيح مسلم» (١٤٧٩، ٢٠٨٢).

(٢) لم أجد في هذا حديثًا صحيحًا صريحًا، ولكنْ وردت أحاديث فيها ضعف، ذكرها ابن الملقِّن في «البدر المنير» (٢/ ٣٨-٣٩).

(٣) «مسند أحمد» (٥٩٧٩، ٢٤٩٠٠)، و«صحيح البخاري» (٢٤٥)، و«صحيح مسلم» (٢٥٥).

(٤) «سنن أبي داود» (٥٢)، و«سنن البيهقي» (١٦٩).

ولذا كان استثناءً من كراهة السمر بعد العشاء، وكانت عائشة أعرفَ الناس بأهميته وأثره في حياة الأهل، فقد روي عنها أنها رأت قومًا يسمرون فقالت لهم: انصرفوا إلى أهليكم فإن لهم فيكم نصيبًا[١].

وبعد هذه المناجاة الجميلة، فإنْ كانَ به ﷺ حاجةُ الرجلِ إلى زوجته قضى الرغبةَ الزوجية الخاصة، وربما وافق زوجتَه أيامَ حيضِها، فلا ينقطع عنها الإسعاد الزوجي، فكان يباشر زوجته وهي حائض، ويأمرها أن تَأْتزر، فيصيبُ منها ما يصيبُ الزوج من زوجته، غير الجماع[٢].

وفي ذلك إشعار بالرغبة في الزوجة، وأن هذا العارض الطبيعي لا يقطع ألوانًا من التواصل الزوجي البَهِيج.

ومن ذلك: حديث أم سلمة رضي الله عنها قالت: كنتُ مع رسول الله ﷺ في لحافه، مضطجعة في خَمِيلة[٣]، فوجدتُ ما تجدُ النساءُ من الحيضة، فانْسَلَلْتُ من اللِّحاف، فأخذتُ ثيابَ حِيضتي فلبستها فقال لي رسولُ الله ﷺ: «**مَا لَكِ؟ أَنُفِسْتِ؟ ذَلِكَ مَا كَتَبَ اللهُ عَلَى بَنَاتِ آدَمَ**». ثم قال: «**تَعَالَيْ فَادْخُلِي مَعِي فِي اللِّحاف**». قالت: فأدخلني معه في لحافه[٤].

وكان ﷺ يغتسلُ من الجنابة قبل أن ينام، وربما توضَّأ ونام وأخَّر الغسل لحين استيقاظه[٥].

وكان ﷺ إذا أوى إلى فراشه قال: «**الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا، وَسَقَانَا، وَكَفَانَا، وَآوَانَا فَكَمْ مِمَّنْ لَا كَافِيَ لَهُ، وَلَا مُؤْوِيَ، الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي مَنَّ عَلَيَّ فَأَفْضَلَ، الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي أَعْطَانِي فَأَجْزَلَ، الْحَمْدُ لِلهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، اللَّهُمَّ رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، وَمَالِكَ كُلِّ شَيْءٍ، وَإِلَهَ كُلِّ شَيْءٍ، لَكَ كُلُّ شَيْءٍ، أَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ**»[٦].

---

(١) «مصنف ابن أبي شيبة» (٦٦٩٧)، و«فتح الباري» لابن رجب (٥/ ١٧٣).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٠٢)، و«صحيح مسلم» (٢٩٣)، وغيرها.

(٣) الخَمِيلة: القَطيفة، وهي كل ثوب له وبَر. وقيل: الخميل الأسود من الثياب.

(٤) «صحيح البخاري» (٣٢٢، ١٩٢٩)، و«صحيح مسلم» (٢٩٦)، و«سنن ابن ماجه» (٦٣٧).

(٥) «مسند أحمد» (١٨٠٤، ٢٤٤٥٣)، و«صحيح مسلم» (٣٠٧)، و«جامع الترمذي» (٢٩٢٤).

(٦) «مسند أحمد» (٥٩٨٣)، و«صحيح مسلم» (٢٧١٥)، و«سنن أبي داود» (٥٠٥٨).

ثم يجمع ﷺ كفيه المباركتين، فينفُث فيهما، ويقرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾،و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، ثم يمسح بهما رأسه ووجهه وما أقبل من جسده ثلاث مرات[١].

فإذا اضطجعَ ﷺ اضطجعَ على شِقِّه الأَيمن، ووضع يده اليمنى تحت خَدِّه الأيمن، والذي يظهر أنه كان ينام مستقبل القبلة، فإن فراشه في موضع قبره، فإذا نام على جنبه الأيمن، ورأسه إلى الغرب صار وجهه إلى الجنوب وهو قبلة المدينة[٢].

وكان ﷺ ينام على طهارة، فقد صحّ عنه الأمر بذلك[٣]، وما أمر به إلا أنه كان يفعله.

ثم يذكر الله بأذكار يقولها عند نومه، يقول هذه أحيانـًا وهذه أحيانـًا، ومنها:

«**بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ أَمُوتُ، وَبِاسْمِكَ أَحْيَا، اللَّهُمَّ رَبِّ قِنِي عَذَابَكَ يَوْمَ تَبْعَثُ عِبَادَكَ**»[٤].

ويقول: «**بِسْمِ اللهِ وَضَعْتُ جَنْبِي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبِي، وَاخْسَأْ شَيْطَانِي، وَفُكَّ رِهَانِي، وَثَقِّلْ مِيزَانِي، وَاجْعَلْنِي فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى**»[٥].

ويقول: «**اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبَّ الْأَرْضِ، وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، ربَّنا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، وَمُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ**[٦]**، اللهمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ،**

(١) «مسند أحمد» (٢٤٨٥٣)، و«صحيح البخاري» (٥٠١٧)، و«صحيح مسلم» (٢١٩٢).

(٢) وقد ورد ما يدل على ذلك عن بعض آلِ أمِّ سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قال: «كان فراش النبي ﷺ نحوا مما يوضع الإنسان في قبره وكان المسجد عند رأسه». «سنن أبي داود» (٥٠٤٤)، وهذه هيئة المتوجه في نومه إلى القبلة، ولكن الحديث مرسل.

(٣) «صحيح البخاري» (٢٤٧)، و«صحيح مسلم» (٢٧١٠).

(٤) «صحيح البخاري» (٦٣١٤، ٦٣١٥)، و«صحيح مسلم» (٢٧١١)، و«سنن أبي داود» (٥٠٤٥).

(٥) «سنن أبي داود» (٥٠٥٤)، و«شرح مشكل الآثار» للطحاوي (١١٢).

(٦) الناصية: الشعر في مقدم الرأس. والمقصود: أعوذ بك من شر كل شيء من المخلوقات، لأنها كلها في سلطانه، وهو آخذ بنواصيها. ينظر: «شرح النووي على صحيح مسلم» (١٧/ ١٩٩)، و«تاج العروس» للزَّبيدي (٤٠/ ٩٠).

وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ»[1].

ويقرأ ﷺ أحيانًا سوراً من القرآن، فيقرأ: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ [السجدة: ١، ٢]، و﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]، وأحيانًا سورة «الزمر»، و«الإسراء»[2].

ثم ينام، فإذا نام واستغرق في نومه نفخ -وهو صوت نَفَس النائم المرتفع- فإذا تقلَّب ﷺ في فراشه من الليل ذكر الله، وكان ربيعة بن كعب الأسلمي يبيت عند بيته ﷺ ليخدمه إذا بدت له حاجة من الليل، فكان يسمعه إذا قام من الليل يقول: «**سُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الْهَوِيَّ**»[3]، ثُمَّ يَقُولُ: «**سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ الْهَوِيَّ**»[4]. فحتّى فترات الصَّحْو العارضةِ أثناء النوم معمورةٌ بالذكر، حتى كأنما يسارع ﷺ بالذكر أوقات العمر ولحَظات الحياة.

وكان ﷺ يقول إذا استيقظ: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ، رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ**»[5].

وكان ﷺ يوصي بذلك ويحضّ عليه، فيقول: «**مَنْ تَعَارَّ مِنَ اللَّيْلِ، فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، الْحَمْدُ للهِ، وَسُبْحَانَ اللهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، أَوْ دَعَا، اسْتُجِيبَ لَهُ، فَإِنْ تَوَضَّأَ وَصَلَّى قُبِلَتْ صَلَاتُهُ**»[6].

وكان ﷺ لا يتقلَّب من الليل إِلَّا أجرى السواك على فمه، ثم يعود إلى نومه، إلى أن ينتصف الليلُ[7].

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٧١٣)، و«سنن ابن ماجه» (٣٨٧٣)، و«سنن أبي داود» (٥٠٥١).

(٢) «مسند أحمد» (١٤٦٥٩، ٢٤٣٨٨)، و«جامع الترمذي» (٢٨٩٢، ٣٤٠٥).

(٣) الهوي: طَائِفَة من اللَّيْل. ينظر: «الفائق في غريب الحديث» (٤/ ١١٩).

(٤) «مسند أحمد» (١٦٥٧٤)، و«سنن ابن ماجه» (٣٨٧٩)، و«جامع الترمذي» (٣٤١٦)، و«سنن النسائي» (١٦١٨).

(٥) «صحيح البخاري» (٦٩٨)، و«صحيح مسلم» (٧٦٣)، و«سنن النسائي» (٧٦٤١).

(٦) «صحيح البخاري» (١١٥٤). تَعَارَّ مِنَ اللَّيْلِ: هبَّ من نومه واستيقظ.

(٧) «مسند أحمد» (٣٥٤١، ٥٩٧٩)، و«صحيح البخاري» (٢٤٥)، و«صحيح مسلم» (٢٥٥، ٢٥٦).

فإذا انتصَفَ الليلُ استيقظَ رسولُ الله ﷺ لصلاة الليل، فيتبتل لربه تبتيلا، ويقوم قياما طويلا، ويقطع الليل تسبيحا وقرآنا، حتى إذا لم يبق من الليل إلا قليله الأخير عاد ليريح بدنه بإغفاءة قصيرة قبل الفجر.

وأما النومة الثانية: فهي إغفاءة السَّحر، فإذا قضى ﷺ صلاته ـ والتي تأخذ ثلثَ الليل ـ ولم يبق منه إلا صُبابته وسدسُه الأخير أَوَى ﷺ إلى فراشه، ليريح البدنَ الشريفَ بعد سَبْحٍ ليلٍ طويل، ذِكْراً وصلاةً ودعاءً وتعاهداً للأقارب الأحياء، وللأصحاب الأموات، فيَهْجَعُ ﷺ هجعةً يُجِمُّ بها بدَنَه بعد القيام، ويهيِّئه لاستقبال صلاة الصبح وعمل النهار بنشاط وإقبال، فتتقصَّف سُويعةُ السَّحَر ونبيُّك ﷺ مستغرق في نومه، تقولُ أُمُّنا عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ما أَلْفَى رسولَ الله ﷺ السَّحَر عندي إلا نائماً[1].

ويظلُّ ﷺ في نومته تلك حتى يَصْدَعَ نورُ الفجر ظلمةَ الليل، ويَصْدَعَ أذانُ بلالٍ سكونَ المدينة، فيستيقظُ رسولُ الله ﷺ، ويبتدئُ يومٌ نبويٌّ جديدٌ، معطَّرٌ بأنفاس النبوَّة، مُنَوَّر بأنوار الرِّسالة.

وهذا الترتيب بين النوم والصلاة في الليل هو قيام داود عَلَيْهِ السَّلَامُ ونومه الذي وصفه ﷺ بأنه أفضل القيام، فقال: «**أَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللهِ صَلَاةُ دَاوُدَ، كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ**»[2].

وأما النومة الثالثة: فهي القيلولة، وهي ساعة الظهيرة قبل زوال الشمس وصلاة الظهر، وكانت ساعة اشتداد الحر والحاجة إلى الراحة بعد إرهاق العمل، فينام الناس عادةً في هذه الساعة، وهي التي أشار إليها القرآن في قوله تعالى: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ [النور: ٥٨]، وهي عادةٌ شائعة في البيئة العربية لشدة الحرارة في الصيف.

وقد كان النبي ﷺ ينام هذه النومة في بيته، وأحيانًا حيث يتوافق وجودُه في بيوت أصحابه، وأكثرُ مَن كان يبيت القيلولة عندها أمُّ سليم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ وهي من مَحارمه ـ فكان يدخل بيتها وينام على فراشها، وهو فراشٌ من جلد، وقد حدّثنا عن ذلك ابنُها أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،

(١) «صحيح البخاري» (١١٣٣)، و«صحيح مسلم» (٧٤٢).
(٢) «صحيح البخاري» (٣٤٢٠)، و«صحيح مسلم» (١١٥٩).

فقال: دخل علينا النبي ﷺ فقال[1] عندنا، فعرِق، وجاءت أمي بقارورة، فجعلت تسلت العرق فيها، فاستيقظ النبي ﷺ فقال: «**يَا أُمَّ سُلَيْمٍ، مَا هَذَا الَّذِي تَصْنَعِينَ؟**»، قالت: هذا عرقك نجعله في طِيبنا، وهو مِن أطيب الطيب[2].

وكذلك كان يبيت عند أختها أمِّ حرام بنت ملحان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وهي من محارمه أيضًا، وقد حدثتْ عن قيلولته عندها، فقالت: نام رسولُ الله ﷺ، ثم استيقظ وهو يضحك، قالت: وما يضحكك يا رسولَ الله؟ قال: «**نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي عُرِضُوا عَلَيَّ غُزَاةً فِي سَبِيلِ اللهِ يَرْكَبُونَ ثَبَجَ هَذَا الْبَحْرِ**[3] **مُلُوكًا عَلَى الأَسِرَّةِ**». قالت: يا رسولَ الله، ادْعُ اللهَ أن يجعلَني منهم. فقال لها: «**أَنْتِ مِنْهُمْ**». ثم وضع رأسه، ثم استيقظ وهو يضحك، فقالت: وما يُضحكك يا رسولَ الله؟ قال: «**نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي عُرِضُوا عَلَيَّ غُزَاةً فِي سَبِيلِ اللهِ**». كما قال في الأول، قالت: يا رسولَ الله، ادْعُ اللهَ أن يجعلَني منهم. قال: «**أَنْتِ مِنَ الْأَوَّلِينَ**». فتزوجها عبادة بن الصامت بعد، فغزا في البحر فحملها معه، فلما قفلت قربت لها بغلة فركبتها، فصرَعَتْها، فاندقت عنقها[4].

وزار ﷺ جابرَ بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ضحًى فأَعَدّ له مقيلاً، قال جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: جاء ﷺ ومعه حواريّوه، قال: فجلسوا في الظل وسلم رسول الله ﷺ واستأذن ثم دخل علينا، فَفَرَشْتُ له فراشا ووسادة فوضع رأسه، فنام، فقلت لمولى لي: اذبح هذه العَناقَ[5] قبل أن يستيقظ رسول الله ﷺ فلما استيقظ قال: «**يَا جَابِرُ، ائْتِنِي بِطَهُورٍ**»، قال: نعم، فلم يفرغ من وضوئه حتى وضعت العَناق بين يديه، قال: فنظر إلي فقال: «**كَأَنَّكَ قَدْ عَلِمْتَ حُبَّنَا اللَّحْمَ**» ثم دعا حواريه، وقال: «**بِسْمِ اللهِ كُلُوا**» فأكلوا حتى شبعوا وفضَل منها لحم كثير، ثم قام، وقام أصحابه[6].

---

(١) قال عندنا: أي نام نَومة القيلولة.

(٢) «صحيح مسلم» (٢٣٣١).

(٣) ثبَج البحر: وسط البحر، أو ظهر البحر. يُنظر: «النهاية» لابن الأثير (١/ ٢٠٦).

(٤) ينظر: «مسند أحمد» (١٣٥٢٠)، و«صحيح البخاري» (٢٧٨٨، ٧٠٠١)، و«صحيح مسلم» (١٩١٢).

(٥) العَناق: الأنثى من ولد المَعْز.

(٦) «مسند الدارمي» (٤٦).

فكانت هذه أوقات نومه ﷺ، ونلاحظ أنه نومٌ مفرّقٌ بين أوقات الليل والنهار، حتى يريح البدن ويجدّد النشاط، وأن أطول فترة نومٍ ينامها هي نومُ نصف الليل الأول، وكأن هذه الراحة الطويلة هي إجمامٌ للبدن واستعدادٌ لسَبْحٍ طويلٍ مع قيام الليل، فبعد النومة المريحة هذه يقوم لتهجُّدِه ومناجاتِه لربه في صلاةٍ تستغرق قدرَ ثلثِ الليل، فيستعد لها بهذه الراحة والنومة المستغرقة.

وأما أقصر نومةٍ فهي إغفاءةُ السَّحر، وتكون بعد الوتر وقبل الفجر، وتُقارب سدسَ الليل، وربما استغنى عنها واكتفى بمحادثة زوجته إنْ كانت مستيقظة، وكأن ذلك يكون في ليالي الشتاء الطويلة.

وأما نومُ القيلولة فهو أطولُ مِن نَومة السَّحر، وأقصرُ مِن نَومة العشاء، وهي تقسّم وقت النهار وتجدّد النشاط وتهيّئ للعمل بقيةَ اليوم، ولذا كان النبي ﷺ يخطب بعدها في أصحابه عند الحاجة، ويجلس للوفود، ويزور مَن يحتاج زيارته.

ويظهر أن فترة القيلولة تتفاوت مدتها بحسَب طول الليل والنهار، فإذا طال الليل في الشتاء قصرت القيلولة في النهار، وإذا قصر الليل في الصيف طالت القيلولة في النهار.

وكان نومه ﷺ محفوفاً بالذكر والمناجاة والامتنان لله على نعمه المتجددة السابغة، فقبل النوم يذكر الله بجوامع الذكر وأفضل الدعاء، ويتذكر حامداً شاكراً نعم الله، فيقول: «**الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا، وَكَفَانَا وَآوَانَا، فَكَمْ مِمَّنْ لَا كَافِيَ لَهُ وَلَا مُؤْوِيَ**»[1]. إن هذه نعم عظيمة، ولكن حَجَب الإحساسَ بها بَلادةُ الاعتياد، أما النبي ﷺ فيتذكرها كلَّ يوم، فهي في كل يوم نعمةٌ جديدة، فكم ممَّن لم يأكل ولم يشرب لأنه لم يجد الطعام! أو وجده ولا يستطيع أكله! وكم مِن مشرّدٍ لا مأوى له! وكم من أخطارٍ وأمراضٍ كان الإنسان عرضةً لها في يومه فكفاه الله إيّاها!.

إن تذكُّر هذه النِّعم المتجددة هو من الامتثال لأمر الله عَزَّوَجَلَّ بالحديث عن نعمه، ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، وفيه تجديدُ الشكر والامتنان لله على إنعامه، وما استقرّت النِّعم ولا تكاثرت إلا بالشكر، ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [ابراهيم: ٧].

(١) «صحيح مسلم» (٢٧١٥).

وعندما يستيقظ ﷺ فإن أولَ ذِكرٍ تتحرك به شفتاه هو الامتنانُ لله: «**الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ**»[(١)]. إنه الامتنان لله على استرداد الحياة وعودتها، وكان يمكن أن تُستوفى ولا تعود، فكم ممن نام ولم يستيقظ، أو ناموا واستيقظوا ولكن من غير عافيتهم، فأن تعود إلى الحياة بعد نوم كالموات نعمةٌ من الله نمتنّ له بها، ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ﴾ [الزمر: ٤٢]، فله الحمد أن جعلَنا ممَّن أرسلها ولم يجعلنا ممَّن قضى عليها.

وكان ﷺ يستيقظ بنفسه، ولم يكن أحدٌ يوقظه، وإنما الإحساسُ الذي في نفسه يوقظه في الوقت الذي يريده، ولا نعلم أن أحداً كان يوقظه وقت الاستيقاظ، ولم يكن الصحابة يوقظونه إذا كان نائمًا، لأنهم لا يدرون ما يحدث له في نومه[(٢)]، فقد يكون يرى رؤيا أو يتلقّى وحيًا.

وكان ﷺ يقول: «**تَنَامُ عَيْنَايَ، وَلَا يَنَامُ قَلْبِي**»[(٣)]، فهو وإن كان نائمًا إلا أنه يحسّ بذاته، فهو نائمٌ ولكنّه يقظٌ حاضرٌ مع الله عَزَّوَجَلَّ، فيملك القيام في أي وقتٍ أراد[(٤)].

وكان ﷺ ينام على سريرٍ عليه فراشٌ من جلدٍ حَشْوُه ليفُ النخل، وله وسادةٌ من جلدٍ حشوها لِيف، وله لحافٌ يلتحف به هو وزوجته، وهذا إذا نام داخل بيته، وقد ينام ﷺ على جلدٍ مدبوغٍ يُسمّى النِّطْع، وقد ينام على كساءٍ من صوف، وقد ينام على حصيرٍ من سَعَف النخل، وقد ينام على الأرض[(٥)]، فكان ينام كيفما اتّفق وتيسّر، ولا يتكلّف لنومه كما كان يأكل ما تيسّر، ولا يتكلّف لطعامه، تواضعًا لله وشكراً لنعمه.

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٣١٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٤٤)، و«صحيح مسلم» (٦٨٢).

(٣) «صحيح البخاري» (٣٥٦٩)، و«صحيح مسلم» (٧٣٨).

(٤) وقد جُمِع بين هذا الحديث وحديث نوم النبي ﷺ في السفر عن صلاة الفجر حتى طلعت الشمس؛ بأنه يدرك حاله وما يحدث له، وإن كان لا يدرك ما يجري في الخارج. يُنظر: «فتح الباري» لابن حجر (٢/ ١٨٥).

(٥) «زاد المعاد» لابن القيم (١/ ١٤٩).

وكما أن هناك ساعاتٍ معيّنةً ينام فيها ﷺ، فهناك أوقاتٌ نعلم أنه لم يكن ينام فيها، فلم يكن ينام بعد الفجر، وإنما يجلس في المسجد مع أصحابه حتى ترتفع الشمس حَسْنَاء.

ولم يكن ﷺ ينام بعد العصر، وإنما كان يطوف على نسائه فيدنو من كل واحدةٍ منهن مِن غير مسيس.

ولم يكن ينام قبل صلاة العشاء، لأن النوم قبلها يُفوّتُها، وكان ﷺ ينهى عن النوم قبل صلاة العشاء وعن السهر بعدها[1].

وهذا النومُ بهذا الترتيب، وهذا النظامُ النبوي، كان هو الأنسبَ والموافقَ لأحوال النبي ﷺ، وبيئتِه ونمطِ الحياة المُعاش في ذلك الوقت، ولكنْ قد تتغيَّر أحوالُ الناس فيتغيَّر نمطُ حياتهم ومواعيدُ نومهم، وهذا من سَعة المباح إذا تمَّ الحفاظُ على الواجبات الشرعية في أوقاتها.

فمثلاً: لم تَعُد القيلولةُ متاحةً لكثيرين قبل الظهر، لأنَّه وقتُ عملٍ غالبًا، فربما يقيل بعضُ الناس بعد العصر، وهو أنسبُ لهم.

ولا يذهب بعضُ الناس إلى أعمالهم إلَّا الساعةَ التاسعة، فيناسبُه أن يتمَّ نومُه بعد الفجر، ولِكُلٍّ ما يناسبُه بحسب بيئتِه وظروفِ عمله.

ويشهدُ لذلك أنَّ النبي ﷺ أوصى أبا هريرة أن يُوتِر قبل أن ينام[2]، لأنَّه علم مِن حاله أنَّه يسهر أوَّلَ الليل، ويخشى أن لا يستيقظَ آخرَه، فأوصاه بالاحتياط، وهو الوتر قبل النوم.

وبعد، فإنَّ النوم حالة من حالات الإنسان الخاصة والخفية غالبًا، التي لا تظهر لكل الناس، وقلما نجد أحداً تُوصَف حاله في نومه بهذا التفصيل، أمّا نبينا ﷺ فإنّا نعلم حاله عند النوم: ماذا يقول، وماذا يفعل، وعلى أي جنب ينام، وأين يضع يده، في وصف دقيق كاشف لحاله ﷺ، حتى كأنما نرى سكينته نائمًا، ونسمع غَطيط نَفَسِه، وحركة جسده، وآخر كلمة يقولها قبل أن يغمض عينيه، وأول كلمة يقولها بعد أن يفتح عينيه، فنحن نعلم هدوء نومه كما نعلم حيوية يقظته، وليس ذلك لأحد إلا لهذا النبي الكريم ﷺ، وهذا من جوانب عظمة سيرته، وإشراقها، ووضوحها، فصلى الله وسلم وبارك على هذا النبي الكريم.

(١) «صحيح البخاري» (٧٧١)، و«صحيح مسلم» (٦٤٧).

(٢) «صحيح البخاري» (١٩٨١)، و«صحيح مسلم» (٧٢١).

خلاصات:

١- كان نومُه ﷺ محفوفاً بالذِّكر وتحقيقِ العبوديَّة.

٢- كان ﷺ ينام عند الحاجة، ويستيقظ عند الكفاية.

٣- نومُه ﷺ مُفَرَّقٌ في اليوم والليلة، حتى يُريح البدن ويُجَدِّد النشاط.

٤- لا نعرف أنَّ أحداً كان يُوقظه ﷺ من نومه وقت الاستيقاظ، وإنَّما كان يستيقظ بنفسه.

٥- لم يكن الصحابة يُوقظونه ﷺ، لأنهم لا يدرون ما يحدث له في نومه، فقد يكون يرى رؤيا أو يُوحى إليه.

٦- مكان نومه في بيته في حياته ﷺ، هو مكان قبره بعد مماته.

٧- تنوعت فُرُشُه التي كان ينام عليها ﷺ، فنام على الأرض، وعلى الفراش من الجلد، وعلى الكساء من الصوف، وعلى الحصير من السَّعَف.

٨- أطول فترة نوم هي النصف الأوَّل من الليل، وأقصرها نومة السَّحَر قبل الفجر، وبينهما نومة القيلولة قبل الظهر.

٩- أطول فترة نوم يعقبها أهم فترة عمل، وهو التهجُّد وقيام الليل، ومناجاة الجليل عَزَّوَجَلَّ، وكأنَّ هذا النوم تحضيرٌ للنشاط في هذا اللقاء.

١٠- كما أنَّ هناك أوقاتاً نعلم أنَّه ﷺ يتحرَّى النوم فيها، فهناك أوقات لم يكن ينام فيها، وهي بعد الفجر، وبعد العصر، وبعد المغرب، وكان ينهى ﷺ عن النوم قبل صلاة العشاء.

١١- نُقِلت لنا صفة نومه ﷺ وحاله إذا نام مع أن النوم حالة خاصة وخفيّة في الغالب، وذلك لتبقى سيرته واضحةً كلَّها لأمته، فهو الأسوة والقدوة ﷺ.

١٢- هذا النومُ بهذا الترتيب، وهذا النظامُ النبوي، كان هو الأنسبَ والموافقَ لأحوال النبي ﷺ، وبيئتِه ونمطِ الحياة المُعاش في ذلك الوقت، ولكنْ قد تتغيَّر أحوالُ الناس فيتغيَّر نمطُ حياتهم ومواعيدُ نومهم، وهذا من سَعة المباح إذا تمَّ الحفاظُ على الواجبات الشرعية في أوقاتها.

الرسول ﷺ والطعام[1]

ذكر اللهُ الأنبياء فذكر من شأنهم أنهم يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، وذكر عيسى بن مريم وأمّه عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فقال: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥].

وذلك للتأكيد على أن الرسل بشر لهم احتياجات البشر، وفيهم طبائع البشر ليكمل الاقتداء بهم، ولذا فإنا نجد في تعامل النبي ﷺ مع الطعام هديًا وهداية ومن ذلك:

١ - كان طعام النبي ﷺ من طعام البيئة، وطريقته فيه هي طريقة البيئة، فيأكل مما يأكل منه العرب في غرب الجزيرة في مكة والمدينة فطعامهم البر والشعير والتمر، وفاكهتهم الرطب والعنب، وإدامهم اللحم والسمن إن وجد، وحلواؤهم العسل والتمر ونحو ذلك من مطعوماتهم، والتي يلاحظ فيها؛ محدوديتها فليست كثيرة التنوع، وبساطة تركيبها، وليس فيها تفنن في مزج أنواع الطعام، حتى إن ألذ طعامهم وأطيبه هو الثريد وهو الخبز باللحم، ولذا قال ﷺ: «**فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ**»[2]، وكأن المقصود الرئيس بالطعام هو الشبع والقوت وليس التفنن والتنوق في أنواعه، فإن ذلك لا يتحقق إلا مع الوفرة والرفاهية وكثرة الخيارات، وقد لاحظت ذلك فيما أدركناه من أنواع الأكل في نجد[3] حين كانت على حالها الأولى، أي: كانت تشبه المدينة بيئة وحالًا،

(١) ينظر في ذلك: كتاب «الأطعمة والأشربة في عصر الرسول ﷺ» لأستاذنا د. محمد بن فارس الجميل.

(٢) «صحيح البخاري» (٣٤٣٣)، و«صحيح مسلم» (٢٤٣١).

(٣) هي المنطقة الوسطى من المملكة العربية السعودية، وتشبه في بيئتها بيئة المدينة النبوية، ولم يتغير نمط الحياة فيها إلا في القرن الأخير.

فكانت الأطعمة محدودة في أنواعها، بسيطة في تركيبها، وتتكرر في الأيام وقلَّما تتنوع، ولا يوضع على المائدة إلا نوع واحد من الطعام.

ومما روي أنه ﷺ أكل الحَلْوَى وَالعَسَلَ، وَكَانَ يُحِبُّهُمَا، وَأَكَلَ لَحْمَ الجَزُورِ وَالضَّأْنِ وَالدَّجَاجِ، وَلَحْمَ الحُبَارَى، وَلَحْمَ حِمَارِ الوَحْشِ وَالأَرْنَبِ، وَطَعَامَ البَحْرِ، وَأَكَلَ الشِّوَاءَ، وَأَكَلَ الرُّطَبَ وَالتَّمْرَ، وَشَرِبَ اللَّبَنَ خَالِصًا وَمَشُوبًا، وَالسَّوِيقَ، وَالعَسَلَ بِالمَاءِ، وَشَرِبَ نَقِيعَ التَّمْرِ، وَأَكَلَ الخَزِيرَةَ وَهِيَ حِسَاءٌ يُتَّخَذُ مِنَ اللَّبَنِ وَالدَّقِيقِ، وَأَكَلَ القِثَّاءَ بِالرُّطَبِ وَأَكَلَ الأَقِطَ، وَأَكَلَ التَّمْرَ بِالخُبْزِ، وَأَكَلَ الخُبْزَ بِالخَلِّ، وَأَكَلَ الثَّرِيدَ وَهُوَ الخُبْزُ بِاللَّحْمِ، وَأَكَلَ الخُبْزَ بِالإِهَالَةِ وَهِيَ الوَدَكُ، وَهُوَ الشَّحْمُ المُذَابُ، وَأَكَلَ مِنَ الكَبِدِ المَشْوِيَّةِ، وَأَكَلَ القَدِيدَ، وَأَكَلَ الدُّبَّاءَ المَطْبُوخَةَ وَكَانَ يُحِبُّهَا، وَأَكَلَ الثَّرِيدَ بِالسَّمْنِ، وَأَكَلَ الجُبْنَ، وَأَكَلَ الخُبْزَ بِالزَّيْتِ، وَأَكَلَ البِطِّيخَ بِالرُّطَبِ، وَأَكَلَ التَّمْرَ بِالزُّبْدِ وَكَانَ يُحِبُّهُ[1].

وقد كان النبي ﷺ يأكل من هذه الأنواع لأنها هي المتيسّرة المتاحة في بيئته، ولم يكن يختص نفسه بشيء يجلب له خاصة من نواحي البلاد، ولو شاء ذلك لفعل كما يفعل الملوك حيث تجلب لهم الأطايب التي لا تكون في بلادهم، ولكن كان يأكل مما يأكل الناس حوله ولم يترفّه بشيء يختص به عنهم.

٢- وكان الأكل بقدر الحاجة ولا يتجاوز إلى الامتلاء والاكتظاظ، ولذا قال: «**مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرّاً مِنْ بَطْنٍ، حَسْبُ الآدَمِيِّ لُقَيْمَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ غَلَبَتِ الآدَمِيَّ نَفْسُهُ، فَثُلُثٌ لِلطَّعَامِ، وَثُلُثٌ لِلشَّرَابِ، وَثُلُثٌ لِلنَّفَسِ**»[2].

وقال جابِرُ بْنُ عَبْدِ الله: كُنْتُ جَالِسًا فِي دَارِي، فَمَرَّ بِي رَسُولُ الله ﷺ، فَأَشَارَ إِلَيَّ، فَقُمْتُ إِلَيْهِ، فَأَخَذَ بِيَدِي، فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَى بَعْضَ حُجَرِ نِسَائِهِ، فَدَخَلَ ثُمَّ أَذِنَ لِي، فَدَخَلْتُ الحِجَابَ عَلَيْهَا، فَقَالَ: «**هَلْ مِنْ غَدَاءٍ؟**». فَقَالُوا: نَعَمْ، فَأُتِيَ بِثَلَاثَةِ أَقْرِصَةٍ، فَوُضِعْنَ عَلَى نَبِيٍّ[3]، فَأَخَذَ رَسُولُ الله ﷺ قُرْصًا، فَوَضَعَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَأَخَذَ قُرْصًا آخَرَ، فَوَضَعَهُ بَيْنَ يَدَيَّ،

(١) «زاد المعاد» (١/ ١٤٢).

(٢) «جامع الترمذي» (٢٣٨٠).

(٣) أي: وضع على شيء مرتفع عن الأرض. ينظر: «النهاية» (٥/ ١١).

ثُمَّ أَخَذَ الثَّالِثَ، فَكَسَرَهُ بِاثْنَيْنِ، فَجَعَلَ نِصْفَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَنِصْفَهُ بَيْنَ يَدَيَّ، ثُمَّ قَالَ: «**هَلْ مِنْ أُدُمٍ؟**». قَالُوا: لَا إِلَّا شَيْءٌ مِنْ خَلٍّ، قَالَ: «**هَاتُوهُ، فَنِعْمَ الإِدامُ الخل**»[1]، وهذا ثناء عليه بحسب الحال الحاضر لا أنه تفضيل له على غيره.

٣- وكان يأكل ما تيسَّر ومَا عَابَ طَعَامًا قَطُّ، إِنِ اشْتَهَاهُ أَكَلَهُ، وَإِلَّا تَرَكَهُ[2]، ولا تجد في طريقته في الأكل شدة التشهِّي والتنوع في المطاعم بل يأكل الموجود ولا يتطلَّب المفقود.

وإذا جاء إلى أهله قال: «**هَلْ عِنْدَكُمْ طَعَامٌ؟**». فما وجده ميسوراً أكله، وربما قال لهم: «**هَلْ عِنْدَكُمْ طَعَامٌ؟**». فيقولون: لَا، فيقول: «**إِنِّي إِذَنْ صَائِمٌ**»[3].

٤- ومرَّت به ﷺ حالات من قلة الطعام حتى كان يمر به الشهران وما أوقد في بيته نار يطبخ عليها وإنما كان طعامهم التمر والماء واللبن[4]، ومرت به أوقات يقل الطعام حتى لا يكون في بيته ما يأكله ذو كبد رطبة، وجاءه مرة ضيف فأرسل إلى بيوت زوجاته يسأل: «**هَلْ عِنْدَكُنَّ طَعَامٌ؟**»، فكلهن قلن: لا، والذي بعثك بالحق ما عندنا إلا الماء[5].

ومرَّ به أبو طلحة وهو يقرئ أهل الصفة القرآن فرأى فيه أثر الجوع وسمع صوته ضعيفًا فأمر أم سليم فصنعت قرص شعير ودعته إليه فجاء هو وأهل الصفة معه ودعا عليه وبَرَّك فأكلوا منه جميعًا[6].

وأما ربط الحجر على البطن من الجوع فهذا إنما حصل للنبي ﷺ وأصحابه نادراً كما حصل عند حفر الخندق[7] وليست حالة متكررة، ويفعل ذلك على عادة العرب إذا احتاجوا للعمل وهم جياع ربطوا حجراً مسطحًا على البطن، ويرون أنه يشد الصلب ويعين على العمل.

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٠٥٢).
(٢) «صحيح البخاري» (٣٥٦٣)، و«صحيح مسلم» (٢٠٦٤).
(٣) «سنن أبي داود» (٢٤٥٥).
(٤) «صحيح البخاري» (٢٥٦٧)، و«صحيح مسلم» (٢٩٧٢).
(٥) «صحيح البخاري» (٣٧٩٨)، و«صحيح مسلم» (٢٠٥٤).
(٦) «صحيح البخاري» (٣٥٧٨)، و«صحيح مسلم» (٢٠٤٠).
(٧) «صحيح البخاري» (٤١٠١)، و«صحيح مسلم» (٢٠٤٠).

وفعل ذلك النبي ﷺ معهم لأنه كان يشاركهم حالهم هذه في الجوع والعمل.

وهذه حالات عارضة وليست الحال الدائمة وأكثرها كان في أول الهجرة حين قدم المهاجرون ولم تكن مؤونة المدينة تكفيهم، وبعد فتح بني النضير ثم خيبر كثر الطعام حتى كان يدخر في بيوت أزواجه قوت سنة.

وربما عرضت قلة الطعام في وقت من السنة وهو أول الصيف حيث تكون ثمرة العام الماضي قد أكلت وثمرة هذه السنة لم تنضج بعد، وهذا معروف في بلاد النخيل في الجزيرة العربية ويسمونها في نجد القَعدَة، أي فترة ما بين الثمرتين، وأحسب أن هذا هو الوقت والسبب الذي خرج فيه الرسول وأبو بكر وعمر في الظهيرة في يوم شديد الحر من الجوع ثم التقوا في الطريق فقال النبي ﷺ: «**مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ؟**». قَالَا: الجُوعُ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «**وَأَنَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَأَخْرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا، قُومُوا**». فَقَامُوا مَعَهُ، فَأَتَى رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ فَإِذَا هُوَ لَيْسَ فِي بَيْتِهِ، فَلَمَّا رَأَتْهُ المَرْأَةُ، قَالَتْ: مَرْحَبًا وَأَهْلاً، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ الله ﷺ: «**أَيْنَ فُلَانٌ؟**». قَالَتْ: ذَهَبَ يَسْتَعْذِبُ لَنَا مِنَ المَاءِ، إِذْ جَاءَ الأَنْصَارِيُّ، فَنَظَرَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَصَاحِبَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: الحَمْدُ لله مَا أَحَدٌ اليَوْمَ أَكْرَمَ أَضْيَافًا مِنِّي، فَانْطَلَقَ، فَجَاءَهُمْ بِعِذْقٍ فِيهِ بُسْرٌ وَتَمْرٌ وَرُطَبٌ، فَقَالَ: كُلُوا مِنْ هَذِهِ، وَأَخَذَ المُدْيَةَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِيَّاكَ، وَالحَلُوبَ**». فَذَبَحَ لَهُمْ، فَأَكَلُوا مِنَ الشَّاةِ وَمِنْ ذَلِكَ العِذْقِ وَشَرِبُوا، فَلَمَّا أَنْ شَبِعُوا وَرَوُوا، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ يَوْمَ القِيَامَةِ، أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمُ الجُوعُ، ثُمَّ لَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصَابَكُمْ هَذَا النَّعِيمُ**»[1]، وذكر البسر والرطب عند الأنصاري في نخله يُبيِّن أنهم في أول الصيف وبداية نضج الثمرة قبل أن تطيب كلها وتكثر.

٥- ويظهر من حالهم أن وجبات الطعام اليومية وجبتان: الغداء والعشاء، والغداء: ما يؤكل في الغدوة وهي أول النهار وهو ما يسمى في وقتنا: الإفطار.

(١) «صحيح مسلم» (٢٠٣٨).

والعشاء: هو ما يؤكل في العشي[١] بعد العصر أو بعد المغرب، وكأن وجبة العصر تكون في الصيف حين يطول النهار، ووجبة المغرب تكون في الشتاء حين يقصر النهار.

٦- وكان ﷺ يتجنَّب من الأطعمة ما له رائحة قوية؛ كالثوم والبصل فيمتنع عن أكلها ولا ينهى عنها، ولكن ينهى مَن أكلها من دخول المساجد حتى لا يؤذي عُمّارها من الملائكة والمصلين برائحتها[٢].

فعَنْ أَبِي أَيُّوبَ الأَنْصَارِيِّ قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا أُتِيَ بِطَعَامٍ أَكَلَ مِنْهُ، وَبَعَثَ بِفَضْلِهِ إِلَيَّ، وَإِنَّهُ بَعَثَ إِلَيَّ يَوْمًا بِفَضْلَةٍ لَمْ يَأْكُلْ مِنْهَا، لِأَنَّ فِيهَا ثُومًا، فَسَالتُهُ: أَحَرَامٌ هُوَ؟ قَالَ: «**لا، وَلَكِنِّي أَكْرَهُهُ مِنْ أَجْلِ رِيحِهِ**». قَالَ: فَإِنِّي أَكْرَهُ مَا كَرِهْتَ[٣].

وعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ أَكَلَ ثُومًا أَوْ بَصَلاً فَلْيَعْتَزِلْنَا، أَوْ لِيَعْتَزِلْ مَسْجِدَنَا، وَلْيَقْعُدْ فِي بَيْتِهِ**». وَإِنَّهُ أُتِيَ بِبَدْرٍ يَعْنِي طَبَقًا، فِيهِ خَضِرَاتٌ مِنْ بُقُولٍ، فَوَجَدَ لَهَا رِيحًا، فَسَأَلَ عَنْهَا فَأُخْبِرَ بِمَا فِيهَا مِنَ الْبُقُولِ، فَقَالَ: «**قَرِّبُوهَا**». فَقَرَّبُوهَا إِلَى بَعْضِ أَصْحَابِهِ كَانَ مَعَهُ، فَلَمَّا رَآهُ كَرِهَ أَكْلَهَا قَالَ: «**كُلْ فَإِنِّي أُنَاجِي مَنْ لا تُنَاجِي**»[٤].

٧- وكان يتجنَّب ما تعافه نفسه لعدم الإلف والعادة، كما تجنب أكل الضب الذي قدم إليه مشويًا فلم يأكله: قال له خالد: أحرام هو يا رسول الله؟ قال: «**لا، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ بِأَرْضِ قَوْمِي فَأَجِدُنِي أَعَافُهُ**»[٥]، فاجترَّه خالد فأكله.

والضب يوجد بأرض نجد، ويأكله أهلها لقلة اللحم عندهم، ولكن منظره بشعٌ كأنه تمساح، وطعمه غير مستساغٍ عند من لم يعتده، ولذا عافته نفس النبي ﷺ، فأُكِلَ على مائدته ولم يأكله.

---

(١) العشي من زوال الشمس إلى المغرب، ومن المغرب إلى العِشاء. ينظر: «النهاية» (٣/ ٢٤٢).
(٢) «صحيح البخاري» (٨٥٣)، و«صحيح مسلم» (٥٦١).
(٣) «صحيح مسلم» (٢٠٥٣).
(٤) «صحيح البخاري» (٧٣٥٩)، و«صحيح مسلم» (٥٦٤).
(٥) «صحيح البخاري» (٥٣٩١)، و«صحيح مسلم» (١٩٤٦).

٨- وكان يأكل على الأرض على عادة العرب في زمانه حيث لم يكونوا يأكلون على الخوان[١] وإنما يبسطون الطعام على السفرة، وهي فراش الطعام يكون من جلد أو قماش أو حصير مدور من سعف النخيل.

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كان رسول الله ﷺ يجلس على الأرض ويأكل على الأرض[٢]، وقَالَ أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا عَلِمْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَكَلَ عَلَى سُكْرُجَةٍ[٣] قَطُّ، وَلَا خُبِزَ لَهُ مُرَقَّقٌ قَطُّ، وَلَا أَكَلَ عَلَى خِوَانٍ قَطُّ. قِيلَ لِقَتَادَةَ: فَعَلَامَ كَانُوا يَأْكُلُونَ؟ قَالَ: عَلَى السُّفَرِ[٤].

ولم يكن يأكل متكئًا وإنما يجلس على طعامه وَهُوَ مُقْعٍ[٥]، وَيُذْكَرُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَجْلِسُ لِلْأَكْلِ مُتَوَرِّكًا عَلَى رُكْبَتَيْهِ، وَيَضَعُ بَطْنَ قَدَمِهِ الْيُسْرَى عَلَى ظَهْرِ قَدَمِهِ الْيُمْنَى تَوَاضُعًا لِرَبِّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَأَدَبًا بَيْنَ يَدَيْهِ، وَاحْتِرَامًا لِلطَّعَامِ وَلِلْمُؤَاكِلِ[٦].

وعن عَبْد الله بْنِ بُسْرٍ، قَالَ: كَانَ لِلنَّبِيِّ ﷺ قَصْعَةٌ[٧] يُقَالُ لَهَا الغَرَّاءُ يَحْمِلُهَا أَرْبَعَةُ رِجَالٍ، فَلَمَّا أَضْحَوْا وَسَجَدُوا الضُّحَى أُتِيَ بِتِلْكَ القَصْعَةِ وَقَدْ ثُرِدَ فِيهَا فَالتَفُّوا عَلَيْهَا، فَلَمَّا كَثُرُوا جَثَا رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ: مَا هَذِهِ الجِلْسَةُ؟ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ جَعَلَنِي عَبْداً كَرِيماً، وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً عَنِيداً**». ثُمَّ قَالَ: «**كُلُوا مِنْ حَوَالَيْهَا، وَدَعُوا ذِرْوَتَهَا، يُبَارَكْ فِيهَا**»[٨].

وكان يأكل بأصابعه الثلاث، ويلعقها إذا فرغ[٩]، ولم يكن لهم مناديل يمسحون بها أيديهم، ولم يكن من عادتهم غسل أيديهم كلما أكلوا، فربما غسلوها وربما دعكوها بالتراب ثم نفضوها.

---

(١) هو ما يرفع عليه الطعام مثل الطبلية والطاولة. ينظر: «النهاية» (٢/ ٨٩).

(٢) «المعجم الكبير» للطبراني (١٢٤٩٤).

(٣) إناءٌ صغيرٌ يُؤكل فِيهِ الشَّيْءُ القليلُ مِنَ الْأُدْم. ينظر: «النهاية» (٢/ ٣٨٤).

(٤) «صحيح البخاري» (٥٣٨٦).

(٥) «سنن أبي داود» (٣٧٧١)، والإقعاء: إلصاق الأليتين بالأرض وينصب ساقيه، وقيل: هو أن يجلس على وركيه مستوفزاً. ينظر: «شرح سنن أبي داود» لابن رسلان (١٥/ ٣٥٩).

(٦) «زاد المعاد» (٤/ ٢٠٣).

(٧) القصعة: إناء طعام كبير يشبع العشرة. «تاج العروس» (٢٤/ ٥).

(٨) «سنن أبي داود» (٣٧٧٣)، و«سنن ابن ماجه» (٣٢٦٣).

(٩) «صحيح البخاري» (٥٤٥٦)، و«صحيح مسلم» (٢٠٣١).

عن عَبْد الله بْنِ الحَارِثِ بْنِ جَزْءٍ الزُّبَيْدِيِّ، قَالَ: أَكَلْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ شِوَاءً فِي المَسْجِدِ، فَأُقِيمَتِ الصَّلَاةُ، فَأَدْخَلْنَا أَيْدِيَنَا فِي الحَصَى، ثُمَّ قُمْنَا نُصَلِّي، وَلَمْ نَتَوَضَّأْ(١).

وكان يغسل فمه بعد كل طعام دسم فعن ابن عباس أن النبي ﷺ شرب لبنًا فمضمض وقال: «**إِنَّ لَهُ دَسَمًا**»(٢).

٩- ومن آداب الأكل ما علمه عمر بن أبي سلمة قال: كُنْتُ غُلَامًا فِي حَجْرِ رَسُولِ الله ﷺ، وَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ، فَقَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ: «**يَا غُلَامُ، سَمِّ الله، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ**». فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طِعْمَتِي بَعْدُ(٣).

١٠- وقد كان الطعام يبارك بين يديه، ولذا جرت معجزات تكثير الطعام وتكررت وشهدها كثير من الصحابة، منها:

أ- عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ قَالَ: بَيْنَا نَحْنُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ أُتِيَ بِقَصْعَةٍ فِيهَا ثَرِيدٌ. فَأَكَلَ وَأَكَلَ القَوْمُ، فَلَمْ يَزَلِ القَوْمُ يَتَدَاوَلُونَهَا إِلَى قَرِيبٍ مِنَ الظُّهْرِ يَأْكُلُ كُلُّ قَوْمٍ، ثُمَّ يَقُومُونَ، وَيَجِيءُ قَوْمٌ فَيَتَعَاقَبُونَهُ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: هَلْ كَانَتْ تُمَدُّ بِطَعَامٍ؟ قَالَ: أَمَّا مِنَ الأَرْضِ فَلَا، إِلَّا أَنْ تَكُونَ كَانَتْ تُمَدُّ مِنَ السَّمَاءِ(٤).

ب- وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ أَبَا طَلْحَةَ، لَمَّا رَأَى رَسُولَ الله ﷺ طَاوِيًا، جَاءَ إِلَى أُمِّ سُلَيْمٍ فَقَالَ: إِنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ طَاوِيًا فَهَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ؟ قَالَتْ: عِنْدَنَا نَحْوُ مُدَّيْنِ مِنْ دَقِيقٍ شَعِيرٍ، قَالَ: فَاعْجِنِيهِ وَاطْبُخِيهِ عَسَى أَنْ نَدْعُوَ النَّبِيَّ ﷺ يَأْكُلُ مِنْهُ. فَعَجَنَتْهُ وَخَبَزَتْهُ وَجَاءَ قُرْصٌ، فَقَالَ لِي: ادْعُ رَسُولَ الله. فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَمَعَهُ أُنَاسٌ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، أَبُو طَلْحَةَ يَدْعُوكَ. فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: «**أَجِيبُوا أَبَا طَلْحَةَ**». فَجِئْتُ مُسْرِعًا حَتَّى أَخْبَرْتُهُ أَنَّهُ قَدْ جَاءَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ، فَقَالَ: وَالله لَرَسُولُ الله أَعْلَمُ بِمَا فِي بَيْتِي مِنِّي. فَاسْتَقْبَلَهُ أَبُو طَلْحَةَ فَقَالَ: وَالله مَا عِنْدَنَا إِلَّا قُرْصُ رَأَيْتَكَ طَاوِيًا، فَأَمَرْتُ أُمَّ سُلَيْمٍ فَجَعَلَتْ لَكَ قُرْصًا. فَدَعَا بِالقُرْصِ،

---

(١) «سنن ابن ماجه» (٣٣١١).

(٢) «صحيح البخاري» (٢١١)، و«صحيح مسلم» (٣٥٨).

(٣) «صحيح البخاري» (٥٣٧٦)، و«صحيح مسلم» (٢٠٢١).

(٤) «مسند أحمد» (٢٠١٣٥).

وَدَعَا بِجَفْنَةٍ، فَوَضَعَهُ فِيهَا وَقَالَ: «**هَلْ مِنْ سَمْنٍ؟**». فَقَالَ: أَبُو طَلْحَةَ: قَدْ كَانَ فِي العُكَّةِ[1] شَيْءٌ. قَالَ: فَجَاءَ بِهَا، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَبُو طَلْحَةَ يَعْصِرَانِهَا حَتَّى خَرَجَ شَيْءٌ فَمَسَحَ النَّبِيُّ ﷺ بِهِ سَبَّابَتَهُ، ثُمَّ مَسَحَ بِالقُرْصِ، ثُمَّ قَالَ: «**بِسْمِ الله**». فَانْتَفَخَ القُرْصُ، فَلَمْ يَزَلْ يَصْنَعُ ذَلِكَ وَالقُرْصُ يَنْتَفِخُ حَتَّى رَأَيْتُ القُرْصَ فِي الجَفْنَةِ يَتَمَيَّعُ[2] فَقَالَ: «**ادْعُ لِي عَشَرَةً مِنْ أَصْحَابِي**». فَدَعَوْتُ لَهُ عَشَرَةً، فَوَضَعَ النَّبِيُّ ﷺ القُرْصَ وَقَالَ: «**كُلُوا بِسْمِ الله**». فَأَكَلُوا مِنْ حَوَالِيِّ القُرْصِ حَتَّى شَبِعُوا، فَلَمْ يَزَلْ يَدْعُو عَشَرَةً عَشَرَةً يَأْكُلُونَ ذَلِكَ القُرْصَ حَتَّى أَكَلَ مِنْهُ بِضْعٌ وَثَمَانُونَ رَجُلاً مِنْ حَوَالَيِّ القُرْصِ حَتَّى شَبِعُوا قَالَ: وَإِنَّ وَسَطَ القُرْصِ حَيْثُ وَضَعَ رَسُولُ الله ﷺ يَدَهُ كَمَا هُوَ[3].

ج- وعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله، قال: لَمَّا حُفِرَ الخَنْدَقُ رَأَيْتُ بِرَسُولِ الله ﷺ خَمَصاً[4]، فَانْكَفَأْتُ إِلَى امْرَأَتِي، فَقُلْتُ لَهَا: هَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ؟ فَإِنِّي رَأَيْتُ بِرَسُولِ الله ﷺ خَمَصاً شَدِيداً، فَأَخْرَجَتْ لِي جِرَاباً فِيهِ صَاعٌ مِنْ شَعِيرٍ، وَلَنَا بُهَيْمَةٌ دَاجِنٌ، قَالَ: فَذَبَحْتُهَا وَطَحَنَتْ، فَفَرَغَتْ إِلَى فَرَاغِي، فَقَطَّعْتُهَا فِي بُرْمَتِهَا، ثُمَّ وَلَّيْتُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَتْ: لَا تَفْضَحْنِي بِرَسُولِ الله ﷺ وَمَنْ مَعَهُ، فَجِئْتُهُ فَسَارَرْتُهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّا قَدْ ذَبَحْنَا بُهَيْمَةً لَنَا، وَطَحَنَتْ صَاعاً مِنْ شَعِيرٍ كَانَ عِنْدَنَا، فَتَعَالَ أَنْتَ فِي نَفَرٍ مَعَكَ، فَصَاحَ رَسُولُ الله ﷺ وَقَالَ: «**يَا أَهْلَ الخَنْدَقِ، إِنَّ جَابِراً قَدْ صَنَعَ لَكُمْ سُوراً فَحَيَّ هَلاً بِكُمْ**». وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَا تُنْزِلُنَّ بُرْمَتَكُمْ، وَلَا تَخْبِزُنَّ عَجِينَتَكُمْ حَتَّى أَجِيءَ**». فَجِئْتُ وَجَاءَ رَسُولُ الله ﷺ يَقْدُمُ النَّاسَ حَتَّى جِئْتُ امْرَأَتِي، فَقَالَتْ: بِكَ وَبِكَ، فَقُلْتُ: قَدْ فَعَلْتُ الَّذِي قُلْتِ لِي، فَأَخْرَجْتُ لَهُ عَجِينَتَنَا فَبَصَقَ فِيهَا وَبَارَكَ، ثُمَّ عَمَدَ إِلَى بُرْمَتِنَا فَبَصَقَ فِيهَا وَبَارَكَ، ثُمَّ قَالَ: «**ادْعِي خَابِزَةً فَلْتَخْبِزْ مَعَكِ، وَاقْدَحِي مِنْ بُرْمَتِكُمْ وَلَا تُنْزِلُوهَا**». وَهُمْ أَلفٌ، فَأُقْسِمُ بِالله لَأَكَلُوا حَتَّى تَرَكُوهُ وَانْحَرَفُوا، وَإِنَّ بُرْمَتَنَا لَتَغِطُّ كَمَا هِيَ، وَإِنَّ عَجِينَتَنَا لَتُخْبَزُ كَمَا هُوَ[5].

---

(١) العُكّة: وعاء من جلود مستدير. ينظر: «النهاية» (٣/ ٢٨٤).

(٢) أي: يتفتت ويسيل لكثرة السمن. ينظر: «النهاية» (٤/ ٣٨١).

(٣) «صحيح ابن حبان» (٥٢٨٥).

(٤) خمصاً: أي ضموراً فِي بَطْنه من الْجُوع. ينظر: «فتح الباري» (١/ ١١٤).

(٥) «صحيح البخاري» (٤١٠٢)، و«صحيح مسلم» (٢٠٣٩).

د- وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي مَسِيرٍ، فَنَفِدَتْ أَزْوَادُ القَوْمِ، حَتَّى هَمَّ بِنَحْرِ بَعْضِ حَمَائِلِهِمْ، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ الله، لَوْ جَمَعْتَ مَا بَقِيَ مِنْ أَزْوَادِ القَوْمِ، فَدَعَوْتَ اللهَ عَلَيْهَا، فَفَعَلَ، فَجَاءَ ذُو البُرِّ بِبُرِّهِ، وَذُو التَّمْرِ بِتَمْرِهِ، فَدَعَا عَلَيْهَا حَتَّى مَلَأَ القَوْمُ أَزْوِدَتَهُمْ، فَقَالَ عِنْدَ ذَلِكَ: «**أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ الله، لا يَلْقَى اللهَ بِهِمَا عَبْدٌ غَيْرَ شَاكٍّ فِيهِمَا، إِلَّا دَخَلَ الجَنَّةَ**»(١).

وهذه خوارق معجزة للنبي ﷺ ودلائل نبوية، وهي أيضاً كرامة لأصحابه ليزدادوا إيماناً ويقيناً وثباتا، فهم الذين آمنوا به وصدَّقوه والدنيا كلها مطبقة على الكفر معرضة عن الحق، فكانت هذه المعجزات تقع بمرأى أعينهم تأييداً وتثبيتاً وكرامة من الله لهم، وشتان بين سؤالهم من رسول الله الدعاء بإيمان ويقين، وسؤال الحواريين لعيسى المائدة بقولهم: ﴿هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ١١٢].

ولذا جاءت المكرمة لأصحاب النبي ﷺ بركة وامتناناً، وعرضت على الحواريين مع الوعيد: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٥].

١١- وأما الشراب فإن آبار المدينة كان يغلب عليها الملوحة، وكان ثمة آبار معينة هي أقل ملوحة من غيرها فكان الماء المعد للشرب يستعذب من هذه الآبار ومنها بئر غرس وبيرحاء وبئر رومة وبئر السقيا.

ولوجود هذه الملوحة في مياههم اعتادوا أن ينبذوا في الماء حبات من التمر أو قبضات من الزبيب حتى تذوب فيه وتغير طعمه إلى الحلاوة، ويسمونه: نبيذاً، أي: قد نبذ فيه التمر أو الزبيب ليكون مذاقه سائغاً وليس بمعنى النبيذ المسكر.

وقد كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُنْبَذُ لَهُ الزَّبِيبُ فِي السِّقَاءِ، فَيَشْرَبُهُ يَوْمَهُ، وَالغَدَ، وَبَعْدَ الغَدِ، فَإِذَا كَانَ مَسَاءُ الثَّالِثَةِ شَرِبَهُ وَسَقَاهُ، فَإِنْ فَضَلَ شَيْءٌ أَهْرَاقَهُ(٢).

(١) «صحيح مسلم» (٢٧).
(٢) «صحيح مسلم» (٢٠٠٤).

وكان الماء يبرد في القربة وهي جلد الشاة يسلخ منها بعناية ثم يدبغ وتخرز فتحاته إلا فتحة الرقبة، ثم يملأ بالماء ويعلق، فيتسرب الماء ببطء من مساماته فيبرد ما فيه، فإذا قَدُمَ الجلد سمي شنًا، وصار الماء فيه أكثر برودة.

وكان للنبي ﷺ شن[١] معلق يبرد فيه الماء[٢]، وكان إذا شرب الماء شرب قاعداً ونهى عن الشرب قائماً[٣]، وقد شرب قائماً من زمزم للحاجة[٤].

وإذا شرب الماء شربه على جرعات ولا يعبه عبّاً، ويتنفس حال الشرب ثلاثاً[٥].

وكان ينهى عن النفخ في الإناء[٦]، وذلك أن آنيتهم مشتركةٌ فالقدح الواحد يشرب منه الجماعة من الناس تباعاً فإذا نفخ فيه أحدهم كرَّهه على من بعده.

١٢- وكان ﷺ يؤاكل أصحابه ويؤثر بالقليل وذلك أن المؤاكلة توثيق للعلاقة ومؤانسة وإشعار بالقرب والصلة، وإحياء للمودات وتطييب النفوس، ولذا أكد ﷺ على إجابة الدعوة واعتبرها من حق المسلم على المسلم.

وكان ﷺ يدعو إلى طعامه وإن قلّ، ومن ذلك استضافته جابراً على ثلاثة أقرصة وإدام خل[٧].

وكان أسيد بن حضير وعباد بن بشر عنده، فلما خرجا أتي بلبن، فأرسل إليهما فدعاهما ليصيبا منه[٨].

---

(١) هي القربة القديمة اليابسة وهي أشدُّ تبريدا للماء من الجدد. ينظر: «النهاية» (٢/ ٥٠٦).
(٢) «جامع الترمذي» (١٨٩٢).
(٣) «صحيح مسلم» (٢٠٢٤).
(٤) «صحيح البخاري» (٥٦١٧)، و«صحيح مسلم» (٢٠٢٧).
(٥) «صحيح البخاري» (٥٦٣١)، و«صحيح مسلم» (٢٠٢٨).
(٦) «جامع الترمذي» (١٨٨٧).
(٧) «صحيح مسلم» (٢٠٥٢).
(٨) «صحيح مسلم» (٣٠٢).

وإذا كان في الطعام سعة أكثرَ المدعوين إليه؛ فعن عَبْد الرَّحْمَنِ بْن أَبِي بَكْرٍ، أَنَّ أَصْحَابَ الصُّفَّةِ كَانُوا نَاسًا فُقَرَاءَ، وَإِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ مَرَّةً: «**مَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامُ اثْنَيْنِ فَلْيَذْهَبْ بِثالث، وَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامُ أَرْبَعَةٍ فَلْيَذْهَبْ بِخَامِسٍ، بِسَادِسٍ**». وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ جَاءَ بِثَلَاثَةٍ، وَانْطَلَقَ نَبِيُّ الله ﷺ بِعَشَرَةٍ، وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ تَعَشَّى عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ لَبِثَ حَتَّى صُلِّيَتِ العِشَاءُ، ثُمَّ رَجَعَ، فَلَبِثَ حَتَّى نَعَسَ رَسُولُ الله ﷺ، فَجَاءَ بَعْدَمَا مَضَى مِنَ اللَّيْلِ مَا شَاءَ اللهُ، قَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ: مَا حَبَسَكَ عَنْ أَضْيَافِكَ، قَالَ: أَوَ مَا عَشَّيْتِهِمْ؟ قَالَتْ: أَبَوْا حَتَّى تَجِيءَ، قَدْ عَرَضُوا عَلَيْهِمْ فَغَلَبُوهُمْ، قَالَ: فَذَهَبْتُ أَنَا فَاخْتَبَأْتُ، وَقَالَ: يَا غُنْثَرُ[1]، فَجَدَّعَ وَسَبَّ، وَقَالَ: كُلُوا لاَ هَنِيئًا، وَقَالَ: وَالله لَا أَطْعَمُهُ أَبَداً، قَالَ: فَايْمُ الله، مَا كُنَّا نَأْخُذُ مِنْ لُقْمَةٍ إِلَّا رَبَا مِنْ أَسْفَلِهَا أَكْثَرَ مِنْهَا، قَالَ: حَتَّى شَبِعْنَا وَصَارَتْ أَكْثَرَ مِمَّا كَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ، فَنَظَرَ إِلَيْهَا أَبُو بَكْرٍ فَإِذَا هِيَ كَمَا هِيَ أَوْ أَكْثَرُ، قَالَ لِامْرَأَتِهِ: يَا أُخْتَ بَنِي فِرَاسٍ مَا هَذَا؟ قَالَتْ: لَا وَقُرَّةِ عَيْنِي، لَهِيَ الآنَ أَكْثَرُ مِنْهَا قَبْلَ ذَلِكَ بِثَلَاثِ مِرَارٍ، قَالَ: فَأَكَلَ مِنْهَا أَبُو بَكْرٍ، وَقَالَ: إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ يَعْنِي يَمِينَهُ، ثُمَّ أَكَلَ مِنْهَا لُقْمَةً، ثُمَّ حَمَلَهَا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَأَصْبَحَتْ عِنْدَهُ، قَالَ: وَكَانَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمٍ عَقْدٌ، فَمَضَى الأَجَلُ فَعَرَّفْنَا اثْنَا عَشَرَ رَجُلاً مَعَ كُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ أُنَاسٌ اللهُ أَعْلَمُ كَمْ مَعَ كُلِّ رَجُلٍ، إِلَّا أَنَّهُ بَعَثَ مَعَهُمْ فَأَكَلُوا مِنْهَا أَجْمَعُونَ[2].

١٣- وكان أغلب قدور الطعام من الفخار أو الحجارة وتسمى البرمة، وأطباق الأكل من الخشب وتسمى القصعة والصحفة، وآنية الشرب وهي القدح وتكون من الخشب أو الفخار، والركوة وتكون من الجلد، وكان عنده ﷺ كأس من زجاج أهداه له المقوقس[3].

١٤- وكان أكله الطعام مرتبطًا بالإيمان بالله الذي رزقه؛ فلا يأكل ما أهل لغير الله به وما لم يذكر اسم الله عليه[4]، ويذكر اسم الله عند بداية الطعام[5]، ويحمد الله بعد الفراغ منه[6].

(١) يا غُنْثَر: كلمة سب تعني الجاهل. ينظر: «النهاية» (٣/ ٣٨٩).
(٢) «صحيح مسلم» (٢٠٥٧).
(٣) «شرح مشكل الآثار» للطحاوي (٢٥٧٠).
(٤) «صحيح البخاري» (٢٤٨٨)، و«صحيح مسلم» (١٩٦٨).
(٥) «صحيح البخاري» (٥٣٧٦)، و«صحيح مسلم» (٢٠٢٢).
(٦) «صحيح البخاري» (٥٤٥٨).

وأرشد لاحتساب الأجر في كسب الطعام وإطعامه لمن يَعول فقال: «**إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ الله إِلَّا أُجِرْتَ عَلَيْهَا، حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فَمِ امْرَأَتِكَ**»[(١)]، وكان إذا شرب حمد الله، وإذا أكل استشعر عظيم نعمة الله بإطعام الطعام؛ حيث رزقه وأصح البدن ليشتهيه وينتفع به، ولذا يختم طعامه بأنواع من الحمد والاعتراف لله بالفضل ومنها: «**الحَمْدُ لله كَثِيراً طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ غَيْرَ مَكْفِيٍّ وَلَا مُوَدَّعٍ وَلَا مُسْتَغْنىً عَنْهُ رَبَّنَا**»[(٢)]، وربما قال: «**الحَمْدُ لله الَّذِي يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ، مَنَّ عَلَيْنَا فَهَدَانَا وَأَطْعَمَنَا وَسَقَانَا، وَكُلَّ بَلَاءٍ حَسَنٍ أَبْلَانَا، الحَمْدُ لله غَيْرَ مُوَدَّعٍ، وَلَا مُكَافَئٍ وَلَا مَكْفُورٍ، وَلَا مُسْتَغْنىً عَنْهُ، الحَمْدُ لله الَّذِي أَطْعَمَ مِنَ الطَّعَامِ، وَسَقَى مِنَ الشَّرَابِ، وَكَسَا مِنَ العُرْيِ، وَهَدَى مِنَ الضَّلَالَةِ، وَبَصَّرَ مِنَ العَمَى، وَفَضَّلَ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِهِ تَفْضِيلاً، الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ**»[(٣)]، ومما ورد عنه قوله: «**الحَمْدُ لله الَّذِي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا، وَجَعَلَنَا مُسْلِمِينَ**»[(٤)]، «**الحَمْدُ لله الَّذِي أَطْعَمَنِي هَذَا، وَرَزَقَنِيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي، وَلاَ قُوَّةٍ**»[(٥)].

(١) «صحيح البخاري» (٥٦)، و«صحيح مسلم» (١٦٢٨).
(٢) «صحيح البخاري» (٥٤٥٨).
(٣) «السنن الكبرى» للنسائي (١٠٠٦٠).
(٤) «سنن أبي داود» (٣٨٥٠).
(٥) «جامع الترمذي» (٣٤٥٨).

خلاصات:

١- كان طعامه ﷺ طعام البيئة العربية، والتي كانت محدودة قليلة التنوع، بسيطة التركيب.

٢- كان يأكل ما تيسَّر، وما عاب طعاماً قط، إن اشتهاه أكله، وإلا تركه.

٣- مرت به حالات من قِلَّة الطعام والجوع، وهي حالات عارضة وليست دائمة.

٤- كان يتجنَّب من الأطعمة ماله رائحة شديدة كالبصل والثوم من غير أن يحرمها أو ينهى عنها.

٥- كان يأكل على الأرض ويوضع الطعام أمامه على السفرة، على عادة العرب في زمانه.

٦- من آداب الأكل قوله: «**سَمِّ اللهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ**»[1]، ونهيه عن الشرب من فم السقاء أو النفخ في الإناء.

٧- كان الطعام من مواضع المعجزات النبوية فيكثر القليل ويبارك حتى يكفي العدد الكثير، وذلك معجزةٌ لنبيه وكرامةٌ لأصحابه ليزدادوا إيماناً.

٨- كان مجلس الطعام من مشاهد حب الصحابة للنبي ﷺ فيحبون ما يحب، ويشتهون ما يشتهي، ويتبعون أثره في الطعام محبةً وتبركاً.

٩- كان يشارك بطعامه فيؤثر بالقليل ويجمع على الكثير لما في الاجتماع على الطعام من الإيناس والتآلف.

١٠- كان الغالب على مياه الآبار الملوحة ولذا ينبذون فيها التمر أو الزبيب ليغير طعمها للحلاوة ويسمونه النبيذ، وليس هو النبيذ المسكر ولكن الماء المحلى.

١١- كان أكله الطعام مرتبطاً بالإيمان فيبدأ باسم الله، ويُختَتَمُ بالحمد والامتنان لله.

(١) «صحيح البخاري» (٥٣٧٦)، و«صحيح مسلم» (٢٠٢٢).

اللباس النبوي[1]

١- كان لباسه هو لباس البيئة العربية التي نشأ فيها، ولم يخالف بيئته في لباسها ولم يتغير لباسه بعد النبوة عما قبلها.

ولم يأمر أحداً أن يغير لباس قومه وهيئتهم إلى لباسه هو، وإنما ترك شأن اللباس إلى عادة كل قوم وعُرفِهم، ولذا كان لباسه مما يشترك فيه مع هيئة العرب بمكة والمدينة فلباسه كلباس العرب مسلمهم ومشركهم ليس في لباسه ما يميزه عنهم.

ولذا فإن اتباع سنته في اللباس ليس في اللبس كما كان يلبس بذات الهيئة، ولكن اتباعه في موافقة العرف العام كما فعل هو ﷺ، فلبس كما يلبس أهل زمانه ولم يتميز عليهم بشيء خاص يلفت إليه الأنظار.

وكان لباس العرب في زمانه يغلب عليه البساطة وعدم التعقيد والتزويق، وكان أغلب لباسهم عمامة على الرأس، وقد يلبسون تحتها القلنسوة أحيانـًا، وهي تشبه الطاقية التي يلبسها الناس في جزيرة العرب، وقميص على الجسد ويشبه الثياب المعروفة في الجزيرة العربية، وإزار يلف على وسط الجسد كإزار الإحرام، ورداء يلتحف به على المنكبين والظهر وهو من كمال الزينة وهو يشبه في استعماله البشت في الجزيرة العربية، والسلهام في المغرب، فهذا الشائع والغالب، وهناك ألبسة أخرى تستعمل حسب تيسّرها، ومنها الجبة، والبرنس،

(١) ينظر: كتاب «اللباس في عصر الرسول» لأستاذنا د. محمد بن فارس الجميل، ومنه استفدت.

والقباء، والخميصة[1] ونحوها، ويسمى ما يباشر الجسد شعاراً كالقميص والإزار، وإذا لبس من جنسٍ واحدٍ سميت حلة، ولا تسمى حلةً إذا كان الثوبان مختلفين كالرداء والإزار، أو الرداء والقميص.

وقد يقل ذلك عند الفقر والحاجة، فلا يجد بعضهم إلا إزاراً ورداءً، وربما لا يجد إلا كساءً واحداً يستر به أعلى جسده وأسفله معـًا، كما قال سهل بن سعد: لَقَدْ رَأَيْتُ الرِّجَالَ عَاقِدِي أُزُرِهِمْ فِي أَعْنَاقِهِمْ مِثْلَ الصِّبْيَانِ مِنْ ضِيقِ الأُزُرِ خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ. فَقَالَ قَائِلٌ: يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ لَا تَرْفَعْنَ رُؤوسَكُنَّ حَتَّى يَرْفَعَ الرِّجَالُ[2]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: رَأَيْتُ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ الصُّفَّةِ مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ عَلَيْهِ رِدَاءٌ، إِمَّا بُرْدَةٌ وَإِمَّا كِسَاءٌ قَدْ رَبَطُوهَا فِي أَعْنَاقِهِمْ فَمِنْهَا مَا يَبْلُغُ نِصْفَ السَّاقِ وَمِنْهَا مَا يَبْلُغُ الكَعْبَيْنِ فَيَجْمَعُهُ بِيَدِهِ كَرَاهِيَةَ أَنْ تُبْدُوَ عَوْرَتُهُ[3].

وأما ما تراه في المسلسلات التاريخية من الملابس المتراكبة والمزركشة فهي من خيالات المخرج ولا تمت إلى البيئة العربية في ذلك الوقت ولا إلى طريقة اللباس بصلة.

٢- وكان من لباسهم ما ينسج عندهم، ولبس ﷺ من ذلك؛ فعن سَهْلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ امْرَأَةً جَاءَتِ النَّبِيَّ ﷺ بِبُرْدَةٍ مَنْسُوجَةٍ، فِيهَا حَاشِيَتُهَا، أَتَدْرُونَ مَا البُرْدَةُ؟ قَالُوا: الشَّمْلَةُ، قَالَ: نَعَمْ، قَالَتْ: نَسَجْتُهَا بِيَدِي فَجِئْتُ لِأَكْسُوَكَهَا، فَأَخَذَهَا النَّبِيُّ ﷺ مُحْتَاجًا إِلَيْهَا، فَخَرَجَ إِلَيْنَا وَإِنَّهَا إِزَارُهُ، فَحَسَّنَهَا فُلَانٌ، فَقَالَ: اكْسُنِيهَا، مَا أَحْسَنَهَا! فقال النبي ﷺ: «نَعَمْ». ثم دخل فطواها وأعطاها إياه، فقَالَ القَوْمُ: مَا أَحْسَنْتَ، لَبِسَهَا النَّبِيُّ ﷺ مُحْتَاجًا إِلَيْهَا، ثُمَّ سَأَلتَهُ، وَعَلِمْتَ أَنَّهُ لَا يَرُدُّ سائلاً، قَالَ: إِنِّي وَاللهِ، مَا سَأَلْتُهُ لِأَلْبَسَهَا، إِنَّمَا سَأَلْتُهُ لِتَكُونَ كَفَنِي، قَالَ سَهْلٌ: فَكَانَتْ كَفَنَهُ[4]، وربما لبسوا غيره مما يجلب إليهم من اليمن ومصر والشام.

ومنه ما ينسج في عُمَان، ويسمونه: صحاري، نسبة إلى صحار.

---

(١) البُرْنُسُ: كلُّ ثوبٍ رأسُهُ منه ملتزقٌ به. والخَمِيصَةُ: كِسَاء أسوَدُ مُرَبَّع لَهُ عَلَمَانِ. ينظر: «النهاية» (١/ ١٢٢)، و«تاج العروس» (١٧/ ٥٦٦).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٦٢)، و«صحيح مسلم» (٤٤١).

(٣) «صحيح البخاري» (٤٤٢).

(٤) «صحيح البخاري» (١٢٧٧).

ولبس ﷺ مما ينسج في اليمن وكان أكثر لباسهم من نسج اليمن لقربها منهم، فقد سئل أنس: أي اللباس كان أحب إلى رسول الله ﷺ ؟ قال: الحِبَرة[1].

وعندما توفي النبي ﷺ كفن في ثلاثة أثواب بيض سَحولية[2]، وسَحول قرية في اليمن قريبة من مدينة إب.

وعَنْ أَبِي بُرْدَةَ قَالَ: أَخْرَجَتْ إِلَيْنَا عَائِشَةُ كِسَاءً وَإِزَاراً غَلِيظًا مما يصنع في اليمن، فَقَالَتْ: قُبِضَ رُوحُ النَّبِيِّ ﷺ فِي هَذَيْن[3].

ولبس ﷺ مما ينسج في الشام، فعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَذَهَبَ رَسُولُ الله ﷺ لِحَاجَتِهِ، فَلَمَّا رَجَعَ ذَهَبْتُ أَصُبُّ عَلَيْهِ، وَعَلَيْهِ جُبَّةٌ رُومِيَّةٌ ضَيِّقَةُ الكُمَّيْنِ، فَأَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ يَدَيْهِ مِنْهَا فَضَاقَتْ عَلَيْهِ، فَأَخْرَجَ يَدَيْهِ مِنْ تَحْتِ الجُبَّةِ، فَغَسَلَ وَجْهَهُ وَيَدَيْهِ، وَمَسَحَ بِرَأْسِهِ، وَمَسَحَ عَلَى خُفَّيْهِ[4].

ولبس مما ينسج في مصر وتسمى القباطي نسبة إلى القبط وهي من الكتان.

ويكون لباسهم أحيانًا ساذجًا غير ملون، ويكون أحيانًا ملونًا بخطوط تكون في أطرافه خضراء أو حمراء أو سوداء، ويسمون هذه الخطوط الملونة التي تكون في أطراف الكساء أعلامًا، وإذا وصف كساء بأنه أخضر أو أحمر فالمراد خطوطه لا أنه كله بهذا اللون.

فعَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى فِي خَمِيصَةٍ لَهَا أَعْلَامٌ، فَنَظَرَ إِلَى أَعْلَامِهَا نَظْرَةً، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ: «**اذْهَبُوا بِخَمِيصَتِي هَذِهِ إِلَى أَبِي جَهْمٍ وَأْتُونِي بِأَنْبِجَانِيَّةِ[5] أَبِي جَهْمٍ، فَإِنَّهَا الهَتْنِي آنِفًا عَنْ صَلَاتِي كُنْتُ أَنْظُرُ إِلَى عَلَمِهَا وَأَنَا فِي الصَّلَاةِ فَأَخَافُ أَنْ تَفْتِنَنِي**»[6].

---

(١) «صحيح البخاري» (٥٨١٢)، و«صحيح مسلم» (٢٠٧٩). والحبرة: ثوب مخطط من قطن أو كتان يصنع باليمن. ينظر: «النهاية» (١/ ٣٢٨).

(٢) «صحيح البخاري» (١٢٤٦)، و«صحيح مسلم» (٩٤١).

(٣) «صحيح البخاري» (٥٨١٨).

(٤) «السنن الكبرى» للنسائي (١١٠).

(٥) الأنبجانية: مَنْسُوبَةٌ إِلى مَوْضِعٍ اسْمُهُ أَنْبِجان وَهُوَ كِسَاءٌ يُتخذ مِنَ الصُّوفِ لَهُ خَمْلٌ ولا عَلَم له. ينظر: «لسان العرب» (٢/ ٣٧٢).

(٦) «صحيح البخاري» (٣٧٣)، و«صحيح مسلم» (٥٥٦).

٣- وكان يلبس القميص، وكان أحب الثياب إليه[١]، ولم يكن يطيل أكمامه ويوسعها، بل كانت كم قميصه إلى الرسغ لا يجاوز اليد[٢]، وكان إزاره إلى أنصاف الساقين ولا يتجاوز الكعبين[٣]، وكان أحب ألوان الثياب إليه البياض والحِبَرة[٤]، وهي البرود المحبرة، وكان يقول: «**البَسُوا مِنْ ثِيَابِكُمِ البَيَاضَ، فَإِنَّهَا مِنْ خَيْرِ ثِيَابِكُمْ، وَكَفِّنُوا فِيهَا مَوْتَاكُمْ**»[٥]، وربما أطلق أزراره وأبقاها محلولة، وكأن ذلك في حال الاسترخاء ووقت الحر، فعن معاوية بن مرة قال: أتيت النبي ﷺ في رهط من مزينة فبايعوه، وإنه لمطلق الأزرار، فأدخلت يدي في جيب قميصه فمسست الخاتم[٦].

وقد اتفق أن هذه هي الحال التي رأوه عليها لا أن هذا شأنه دائمًا، فإن الأزرار لا توضع في الثوب إلا لتزرر وتُغلِقَ الجيب.

ولم تكن عمامته بالكبيرة ولا بالصغيرة، بل وسطًا بين ذلك، وكان يرخيها بين كتفيه كما في حديث عمرو بن حريث قال: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ عَلَى المِنْبَرِ، وَعَلَيْهِ عِمَامَةٌ سَوْدَاءُ، قَدْ أَرْخَى طَرَفَيْهَا بَيْنَ كَتِفَيْهِ[٧]، وأحيانًا يديرها تحت حنكه، وتسمى المحنكة، ويُحتاج إلى ذلك عند ركوب الخيل والإبل.

٤- وكان يلبس النعال والخفاف، وأكثر ما يلبس النعال في الحضر، وأكثر ما يلبس الخفاف في السفر فعن عيسى بن طهمان قال: أَخْرَجَ إِلَيْنَا أَنَسٌ نَعْلَيْنِ جَرْدَاوَيْنِ لَهُمَا قِبَالَانِ، فَحَدَّثَنِي ثَابِتٌ البُنَانِيُّ بَعْدُ، عَنْ أَنَسٍ أَنَّهُمَا نَعْلَا النَّبِيِّ ﷺ[٨].

---

(١) «سنن أبي داود» (٤٠٢٥).

(٢) «سنن أبي داود» (٤٠٢٧).

(٣) «صحيح مسلم» (٢٠٨٦).

(٤) الحِبَرَةُ مِنَ البُرُودِ: مَا كَان مَوْشِيًّا مُخَططًا. ينظر: «النهاية» (١/ ٣٢٨).

(٥) «سنن أبي داود» (٣٨٧٨).

(٦) «سنن أبي داود» (٤٠٨٢).

(٧) «صحيح مسلم» (١٣٥٩).

(٨) «صحيح البخاري» (٣١٠٧). والجَرْدَاوَانِ: هي التي لاَ شعرَ عَليهما، والقِبالان، التي لها زِمامان. ينظر: «النهاية» (١/ ٢٥٦) و(٤/ ٨).

ويلبس الخفاف في السفر لحاجة الرجلين إلى ما يقيهما من الحر والبرد ومن حجارة الأرض وشوكها، فعن المغيرة بن شعبة قال: كنت مع النبي ﷺ في سفر فأهويت لأنزع خفيه فقال: «**دَعْهُما فَإنّي أَدْخَلتُهُما طَاهِرَتَيْنِ**». فمسح عليهما[١].

وكان له خفان أهداهما دِحْية الكلبي، قالَ المُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ: أَهْدَى دِحْيَةُ الكَلْبِيُّ لِرَسُولِ الله ﷺ خُفَّيْنِ وَجُبَّةً فَلَبِسَهُمَا حَتَّى تَخَرَّقَا[٢].

٥- وكما كان يأكل من الطعام ما تيسَّر من غير تكلف؛ كان يلبس من الثياب ما تيسر من غير تكلف، ولم يكن له شارة خاصة في لباسه يعرف بها، ولذا يتساءل الغريب إذا وصل إلى مجلسه فيسأل: أيكم ابن عبد المطلب؟ فيشير إليه الصحابة ويقولون: هو هذا الأبيض المتكئ[٣]، فيصفون وضاءته ولا يصفون لباسه لأنه يلبس كلباسهم، بل كان ينهى عن لباس الشهرة وهو الذي يُشْهِرُ الإنسان إذا لبسه، إما لرثاثته أو منافرته إلف الناس حتى يلفت أنظارهم فقال: «**مَنْ لَبِسَ ثَوْبَ شُهْرَةٍ أَلْبَسَهُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ ثَوْبًا مِثْلَهُ ثُمَّ تُلَهَّبُ فِيهِ النَّارُ**»[٤].

وعَنْ جَابِرِ بْنِ أَيُّوبَ قَالَ: دَخَلَ الصَّلْتُ بْنُ رَاشِدٍ عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ وَعَلَيْهِ جُبَّةُ صُوفٍ وَإِزَارُ صُوفٍ وَعِمَامَةُ صُوفٍ فَاشْمَأَزَّ عَنْهُ مُحَمَّدٌ وَقَالَ: أَظُنُّ أَنَّ أَقْوَامًا يَلْبَسُونَ الصُّوفَ، وَيَقُولُونَ: قَدْ لَبِسَهُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، وَقَدْ حَدَّثَنِي مَنْ لَا أَتَّهِمُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ لَبِسَ الكَتَّانَ وَالصُّوفَ وَالقُطْنَ، وَسُنَّةُ نَبِيِّنَا أَحَقُّ أَنْ تُتَّبَعَ[٥].

ومقصود ابن سيرين بهذا أن أقواماً يرون أن لُبس الصوف دائماً أفضل من غيره فيتحرونه ويمنعون أنفسهم من غيره، وكذلك يتحرون زياً واحداً، ورسوماً وأوضاعاً وهيئات يرون الخروج عنها منكراً، وليس المنكر إلا التقييد بها والمحافظة عليها وترك الخروج عنها.

---

(١) «صحيح البخاري» (١٧٩٩)، و«صحيح مسلم» (٢٧٤). وينظر: «زاد المعاد» (٤/ ٢١٧).
(٢) «جامع الترمذي» (١٧٦٩).
(٣) «صحيح البخاري» (٦٣).
(٤) «سنن أبي داود» (٤٠٢٩).
(٥) «أخلاق النبي» لأبي الشيخ الأصبهاني (٣٢٩).

وأفضل الطرق طريق رسول الله ﷺ التي سنَّها وأمر بها ورغَّب فيها وداوم عليها، وهي أن هديه في اللباس أن يلبس ما تيسَّر من اللباس من الصوف تارة والقطن تارة والكتان تارة، ولبِسَ البرود اليمانية والبرد الأخضر، ولبس الجبة، والقباء، والقميص، والسراويل، والإزار، والرداء، والخف والنعل، من غير أن يلتزم شيئًا من ذلك[١].

٦- وكما كان يتجنب من الطعام ما له رائحةٌ فكذلك كان يتجنب من اللباس ما تظهر له رائحة؛ فعن عائشة، أن رسول الله ﷺ لبس ثوبًا من الصوف فوجد له رائحة فنزعه.

وعَنْهَا قَالَتْ: صَنَعْتُ لِرَسُولِ الله ﷺ بُرْدَةً سَوْدَاءَ، فَلَبِسَهَا، فَلَمَّا عَرَقَ فِيهَا وَجَدَ رِيحَ الصُّوفِ، فَقَذَفَهَا وَكَانَ تُعْجِبُهُ الرِّيحُ الطَّيِّبَةُ[٢].

٧- وكان ﷺ أنيقًا في لباسه، فإذا لبس الثوب لابسه كأنما لا يصلح إلا له، قال البراء بن عازب: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ مَرْبُوعًا، بَعِيدَ مَا بَيْنَ المَنْكِبَيْنِ، رَأَيْتُهُ فِي حُلَّةٍ حَمْرَاءَ، لَمْ أَرَ شَيْئًا قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهُ[٣].

وعن جابر بن سمرة قال: رأيت رسول الله ﷺ في ليلة إِضْحِيَان[٤] وعليه حلة حمراء، فجعلت أنظر إليه وإلى القمر، فلهو عندي أحسن من القمر[٥].

وكان يلبس الثياب الحسنة والحلل الزاهية الجميلة يتجمَّل بها في المشاهد والأعياد ولقاء الوفود، قال ابن عباس: لَقَدْ رَأَيْتُ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ أَحْسَنَ مَا يَكُونُ مِنَ الحُلَلِ[٦].

وأهدى له أكيدر دومة جُبَّةَ سُنْدُسٍ، فلبسها فَعَجِبَ النَّاسُ مِنْهَا وجعلوا يلمسونها، فَقَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَمَنَادِيلُ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ فِي الجَنَّةِ أَحْسَنُ مِنْ هَذَا**»[٧]،

(١) «زاد المعاد» (١/ ١٣٨).
(٢) «سنن أبي داود» (٤٠٧٤).
(٣) «صحيح البخاري» (٣٥٥١)، و«صحيح مسلم» (٢٣٣٧).
(٤) ليلة إِضْحِيَان: أي مضيئة مقمرة، ويوم إِضْحِيان: أي مُضيء لا غَيْم فيه. ينظر: «النهاية» (٣/ ٧٨).
(٥) «جامع الترمذي» (٢٨١١).
(٦) «سنن أبي داود» (٤٠٣٧).
(٧) «صحيح البخاري» (٢٦١٥)، و«صحيح مسلم» (٢٤٦٩).

ورأى عُمَرُ حُلَّةَ إِسْتَبْرَقٍ تُبَاعُ فِي السُّوقِ، فَأَتَى بِهَا رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله ابْتَعْ هَذِهِ الحُلَّةَ، فَتَجَمَّلْ بِهَا لِلْعِيدِ وَلِلْوُفُودِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّمَا هَذِهِ لِبَاسُ مَنْ لَا خَلَاقَ لَهُ**»(١). وذلك بعد تحريم الحرير.

وفعل عمر هذا يدل على أن من فعل النبي ﷺ المعتاد التجمُّل بالثياب الحسنة في مشاهد الناس ومجتمعاتهم.

وقال مرةً: «**لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ، وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ**». فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ الله، قَدْ قُسِمَ لِي مِنَ الجَمَالِ مَا تَرَى، وَإِنَّهُ يُعْجِبُنِي أَنْ يَكُونَ ثَوْبِي حَسَنًا، وَنَعْلِي حَسَنَةً أَفَمِنَ الكِبْرِ ذَلِكَ؟ قَالَ: «**لَا، إِنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِالكِبْرِ، إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ، وَلَكِنَّ الكِبْرَ بَطَرُ الحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ**»(٢).

وكان يحضّ على حسن الهيئة في اللباس، قال أَبُو رَجَاءٍ العُطَارِدِيِّ: خرج علينا عمران بن حصين وعليه مِطْرفُ خَزٍّ(٣)، وقال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَنْعَمَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عَلَيْهِ نِعْمَةً فَإِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يُحِبُّ أَنْ يُرَى أَثَرُ نِعْمَتِهِ عَلَى خَلْقِهِ**»(٤)، وعن أبي الأحوص عن أبيه أنه أتى النبي ﷺ فرآه ﷺ أشعث أغبر في هيئة أعرابي فقال: «**مَالَكَ مِنَ المَالِ؟**». قال: من كل المال آتاني الله، قال: «**إِنَّ اللهَ إِذَا أَنْعَمَ عَلَى العَبْدِ نِعْمَةً أَحَبَّ أَنْ تُرَى بِهِ**»(٥).

٨- وقد لا يتوفر له ﷺ الأجود من الثياب فيلبس ما تيسَّر بلا تكلف فعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَذَبَهُ جَذْبَةً شَدِيدَةً، حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عنق النَّبِيِّ ﷺ قَدْ أَثَّرَتْ بِهِ حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَذْبَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: مُرْ لِي مِنْ مَالِ الله الَّذِي عِنْدَكَ، فَالتَفَتَ إِلَيْهِ فَضَحِكَ،

(١) «صحيح البخاري» (٣٠٥٤)، و«صحيح مسلم» (٢٠٦٨).
(٢) «صحيح مسلم» (٩١).
(٣) مطرف خز: أي الثوب الذي في طرفيه علَمان. ينظر: «النهاية» (٣/ ١٢١).
(٤) «مسند أحمد» (١٩٩٣٤).
(٥) «صحيح ابن حبان» (٥٤١٧).

ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ[1]، وعَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ ذَاتَ غَدَاةٍ وَعَلَيْهِ مِرْطٌ مُرَحَّلٌ[2] مِنْ شَعَرٍ أَسْوَدَ[3]. وعن أنس قَالَ: لَبِسَ رَسُولُ الله ﷺ الصُّوفَ، وَاحْتَذَى المَخْصُوفَ[4]. وَقَالَ: أَكَلَ رَسُولُ الله ﷺ بَشِعًا، وَلَبِسَ خَشِنًا[5].

وربما احتاج أن يخصف نعله أو يخيط ثوبه كما قالت عائشة: كَانَ يَخْصِفُ نَعْلَهُ، وَيَخِيطُ ثَوْبَهُ، وَيَعْمَلُ فِي بَيْتِهِ كَمَا يَعْمَلُ أَحَدُكُمْ فِي بَيْتِهِ[6].

وكان إذا استجد ثوبًا سمَّاه باسمه ويقول: «**اللهُمَّ لَكَ الحَمْدُ أَنْتَ كَسَوْتَنِيهِ، أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِهِ وَخَيْرِ مَا صُنِعَ لَهُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهِ، وَشَرِّ مَا صُنِعَ لَهُ**»[7]. وكان إذا لبس قميصه بدأ بميامنه[8].

٩- وكان يلبس من أنواع الألبسة، وينهى عن أنواع من طرائق اللبس، فنهى عن الذهب والحرير للرجال؛ قال عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَخَذَ رَسُولُ الله ﷺ حَرِيراً بِشِمَالِهِ، وَذَهَبًا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ رَفَعَ بِهِمَا يَدَيْهِ فَقَالَ: «**إِنَّ هَذَيْنِ حَرَامٌ عَلَى ذُكُورِ أُمَّتِي، حِلٌّ لِإِنَاثِهِمْ**»[9].

وعنه قَالَ: نَهَانِي حِبِّي ﷺ عَنْ ثَلَاثٍ: -لَا أَقُولُ: نَهَى النَّاسَ- نَهَانِي عَنْ تَخَتُّمِ الذَّهَبِ، وَعَنْ لُبْسِ القَسِّيِّ[10]، وَعَنِ المُعَصْفَرِ المُفَدَّمَةِ[11]، وَلَا أَقْرَأُ سَاجِداً وَلَا رَاكِعًا[12].

---

(١) «صحيح البخاري» (٣١٤٩)، و«صحيح مسلم» (١٠٥٧).

(٢) المُرَحَّل: الذي قد نقش فيه تصاوير الرحال. ينظر: «النهاية» (٢/ ٢١٠).

(٣) «صحيح مسلم» (٢٠٨١).

(٤) احتذى المخصوف: لبس النعل. ينظر: «شرح السندي على ابن ماجه» (٢/ ٣٢٠).

(٥) «سنن ابن ماجه» (٣٣٤٨).

(٦) «مسند أحمد» (٢٤٧٤٩).

(٧) «مسند أحمد» (١١٢٤٨)، و«سنن أبي داود» (٤٠٢٠).

(٨) «جامع الترمذي» (١٧٦٦).

(٩) «سنن أبي داود» (٤٠٥٧)، و«سنن ابن ماجه» (٣٥٩٥)، و«السنن الكبرى» للنسائي (٥١٤٤).

(١٠) القسي: هي ثياب من كتان مخلوط بحرير يؤتى بها من مصر، وقيل غير ذلك. ينظر: «النهاية» (٤/ ٥٩).

(١١) المُفَدَّمَةِ: المتشبِّعة التي بلغت الغاية. ينظر: «شرح السندي على سنن النسائي» (٢/ ٢١٧).

(١٢) «السنن الكبرى» للنسائي (٥١٨٧).

كما نهى لبسة الإسبال فكان إزاره وقميصه إلى أنصاف ساقيه وقال: «**كُلُّ شَيْءٍ جَاوَزَ الكَعْبَيْنِ مِنَ الإِزَارِ فِي النَّارِ**»(١). فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّهُ يَسْتَرْخِي إِزَارِي أَحْيَانًا. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَسْتَ مِنْهُمْ**»(٢).

ونهى عن اشتمال الصماء وهي لبسة عند بعض العرب يلتف بالثوب الواحد ويداه في داخله فيكون عرضة لانكشاف عورته إذا أخرج يده أو رفعها، فنهى عن ذلك حفاظًا على الستر والحشمة.

خلاصات:

١- كان لباسه ﷺ هو لباس البيئة التي عاش فيها، ولم يخالف بيئته في لباسها، ولم يغير لباسه بعد النبوة عما قبلها.

٢- اتباع سنة النبي ﷺ في اللباس ليست في لبس ما كان يلبسه، ولكن اتباعه في موافقة العرف العام في اللباس، وتجنب الشهرة والإغراب بما يلفت أنظار الناس.

٣- كان بعض لباسهم ينسج عندهم، وبعضه ينسج في اليمن وعمان، وبعضه في الشام ومصر، ولبس ﷺ من ذلك كله.

٤- كان يلبس من الثياب ما تيسر من غير تكلف، ولم يكن له لباس خاص يتميز به.

٥- كان أنيقًا في لباسه، ولبس أحسن الحلل إذا تيسرت، وكان إذا لبس لباسًا زها عليه كأنه لا يصلح إلا له.

٦- وكما لبس الثياب الجيدة الحسنة، فقد لبس الثياب الخشنة إذا لم يتيسر غيرها من غير أن يتقصّدها أو يجعلها شعاراً ونسكًا.

٧- وكان ينهى عن بعض الألبسة كالذهب والحرير للرجال والمعصفر، وينهى عن الإسبال.

---

(١) «المعجم الكبير» للطبراني (١١٨٧٨).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٠٦٢).

المجلس النبوي

كان للنبي ﷺ مجالس معتادة منتظمة ومجالس عارضة حيث يجلس عند من يزورهم، أو حيث يعرض له الجلوس مع أصحابه لحاجة، وأما مجالسه المعتادة فمنها:

١- مجلسه بعد صلاة الفجر، فإنه يجلس في مصلاه ثم يحف به أصحابه فيتحدثون إليه ويتحدث إليهم، وكثيراً ما سألهم عن رؤاهم أو يخبرهم بما رآه هو[١]، ويتفقّد من غاب منهم ويسأل عنه، ويتحدَّث الصحابةُ في هذا المجلس بين يدي النبي ﷺ، فيشاركهم الحديثَ والاستماع، فربما تحدَّثوا عن حياتهم في الجاهلية، وما كانوا يقعون فيه من أُحْمُوقات الجاهلية التي تَبَدَّى لهم عَوَارُها بعد أَنْ مَنَّ اللهُ عليهم بالإسلام، فإذا ذكروها ضحكوا من جهلهم، ويتبسَّم رسولُ الله ﷺ، وهو الذي كان ضحكه تبسُّماً[٢]، ولا يزال ﷺ في مجلسه هذا حتى تطلع الشمس حسناء[٣].

٢- ومن مجالسه المعتادة: مجلسه في صدر النهار ضحى، وكان شرقي المسجد في الروضة الشريفة، مستنداً إلى حُجرة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ويجتمع إليه أصحابه، وكان هذا اللقاء معهوداً، بحيث أن مَن أراد النبيَّ ﷺ في هذا الوقت، فإنه يأتي إليه في المسجد،

(١) «صحيح البخاري» (١٣٨٦)، و«صحيح مسلم» (٢٢٧٥).
(٢) «صحيح مسلم» (٦٧٠، ٢٣٢٢).
(٣) «مسند أحمد» (٢٠٩٦٨).

وكانوا يتناوبون الحضور إلى المسجد، كما وَرَدَ عَنْ عُمَرَ قَالَ: كُنْتُ أَنَا وَجَارٌ لِي مِنَ الأَنْصَارِ فِي بَنِي أُمَيَّةَ بْنِ زَيْدٍ وَهِيَ مِنْ عَوَالِي المَدِينَةِ وَكُنَّا نَتَنَاوَبُ النُّزُولَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، يَنْزِلُ يَوْمًا وَأَنْزِلُ يَوْمًا، فَإِذَا نَزَلْتُ جِئْتُهُ بِخَبَرِ ذَلِكَ اليَوْمِ مِنَ الوَحْيِ وَغَيْرِهِ، وَإِذَا نَزَلَ فَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ..[1].

وقد يقلُّ الصحابةُ حولَه أو يكثرون، بحسب فراغهم وظروف حياتهم، فإن كانوا قليلاً تحلَّقوا حوله، وإن كانوا كثيراً جلسوا صَفَّيْن عن يمينه ويساره، حتى يصل إليه الوافد، ويدنو منه السائل[2].

ولم يكن في المجلس بُسُط يفترشونها ولا وسائد يتكئون عليها، وإنما يجلسون على حصباء المسجد، ومن كان ظهره على الجدار استند إليه، ومن لم يكن وراءه ما يستند إليه واحتاج إلى ذلك احتبى[3] بردائه.

وكان الصحابة يحفُّون به عن يمينه وعن يساره، ولم يكن لأحد مكان خاص فكل من سبق إلى مكان جلس فيه، ومن جاء بعد جلس حيث ينتهي به المجلس، وربما كان الذي عن يمين النبي ﷺ صبيًّا كابن عباس، أو أعرابيًّا.

وكان الصحابة إذا جلسوا حوله يغضُّون أبصارهم ولا يؤبِّدونه نظرهم؛ إجلالاً ومهابة له، ولذا قال عمرو بن العاص وهو الذي صحب النبي ﷺ ثلاث سنين: لو سألتموني أن أصف لكم وجه رسول الله ﷺ ما استطعت أن أصفه، وذلك أني لم أكن أملأ عيني منه إجلالاً له[4].

---

(١) «صحيح البخاري» (٨٩)، و«صحيح مسلم» (٢٢٧٥).

(٢) «سنن أبي داود» (٤٦٩٨).

(٣) الاحْتِبَاء: هُوَ أَنْ يَضُمّ الإِنْسَانُ رِجْلَيْه إِلَى بَطْنه بثَوْب يَجْمَعُهُما بِهِ مَعَ ظَهْره، ويَشُدُّه عَلَيْهَا. وَقَدْ يَكُونُ الاحْتِبَاء باليَدَيْن عوَض الثَّوب. ينظر: «النهاية» (١/ ٣٣٥).

(٤) «صحيح مسلم» (١٢١).

كما كانوا يغضُّون أصواتهم فلا يتكلمون معه كما يتكلمون مع بعضهم؛ إجلالاً ومهابة وخضوعـًا لأمر الله الذي أدَّبهم به بقوله: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ [الحجرات: ٢].

وكان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو الجهوري الصوت إذا خاطب النبي ﷺ خاطبه وكأنه يُسِرّ إليه، ولم يسمعه حتى يستفهمه من شدة خفض صوته[(١)].

فإذا جلس ﷺ إلى أصحابه تحدَّث إليهم، وشاركهم ما يتحدثون فيه من أمور حياتهم وشؤون دنياهم، قال زيد بن ثابت: كُنْتُ جَارَهُ، وَكَانَ إِذَا نَزَلَ الوَحْيُ أَرْسَلَ إِلَيَّ، فَكَتَبْتُ الوَحْيَ، وَكَانَ إِذَا ذَكَرْنَا الآخِرَةَ ذَكَرَهَا مَعَنَا، وَإِذَا ذَكَرْنَا الدُّنْيَا ذَكَرَهَا مَعَنَا، وَإِذَا ذَكَرْنَا الطَّعَامَ ذَكَرَهُ مَعَنَا[(٢)]، وغالبـًا ما يأخذ حديثُه طابع الحوار وإشراك الحضور في الحديث، إما بسؤال يطرحه ويطلب منهم الإجابة، أو سؤال منهم فيجيب هو عليه.

وبذا يكون المجلس النبوي مجلسـًا تفاعليـًا، وليس كمجالس الكبراء والمتكبرين والتي يستبدون فيها بالحديث، كما يستبدون بالرأي.

ولم يكن ﷺ يستأثر بالحديث في مجلسه؛ فقد يكون متحدثـًا وقد يكون مستمعـًا، وقد يكون سائلاً وقد يكون مجيبـًا، وكان كل من في المجلس يشاركون في الحديث ويتفاعلون معه، ولا تمنع هيبة النبي ﷺ أحداً أن يقول قولاً يبتدئ به الحديث أو يشارك فيه.

وكان هذا المجلس مجلس علم ووعظ وذكرى، وكان مجلسه هو المساحة الواسعة للدعوة والتعليم، وغالب ما روي من أحاديثه هي أحاديثه في مجالسه ﷺ.

ولكن لم تكن المواعظ ولا التعليم تتم بأسلوب إلقائي أُحادي الاتجاه، وإنما بأسلوب حِواري يعتمد إشراك المتعلِّم في عملية التعليم، ويعتمد الحوار الذي يتيح النمو العقلي والفكري للمتعلِّم.

ولم يكن هذا مجلس علم ووعظ فقط، بل كان مجلس حيوية وتفاعل مع الحياة.

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٨٤٥).

(٢) «المعجم الأوسط» للطبراني (٨٦٩٧).

ففي مجلسه يُؤْتَى بصبيان المدينة، فيدعو لهم، ويحنِّكهم بتمرة يمضغها في فيه ثم يضع في أفواههم منها بريقته الطيِّبة المباركة، ويسمِّيهم، ويُبَرِّك عليهم[١].

ومن ذلك: أن أبا أُسيد مالك بن رَبِيعة السَّاعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَتَى بابنه المُنذر إلى رسول الله ﷺ حين وُلد، فوضعه النبيُّ ﷺ على فَخِذه، وأبو أُسيد جالس، فشُغل النبيُّ ﷺ بشيء بين يديه، فأَمَرَ أبو أُسيد بابنه فاحتُمل من على فَخِذ رسول الله ﷺ، وردُّوه إلى أهله، فاستفاقَ[٢] رسولُ الله ﷺ فقال: «**أَيْنَ الصَبِيُّ؟**». فقال أبو أُسيد: أقْلبناه يا رسولَ الله. فقال: «**مَا اسْمُهُ؟**». قال: فلانٌ يا رسولَ الله. قال: «**لَا، وَلَكِنْ اسْمُهُ الْمُنْذِرُ**». فسمَّاه يومئذ: المنذر[٣].

ويُؤتى في مجلسه ببَواكير ثمار النَّخِيل؛ حيث كان التمر فاكهة أهل المدينة وقوتهم وغذاءهم، فكانوا يفرحون إذا رَأَوْا أول الثمرة، ويأتون به إلى النبيِّ ﷺ، فإذا أخذه قال: «**اللهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي ثِمَارِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي مَدِينَتِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا وَمُدِّنَا، اللهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَبْدُكَ وَخَلِيلُكَ وَنَبِيُّكَ وَإِنِّي عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، وَإِنَّهُ دَعَاكَ لِمَكَّةَ وَأَنَا أَدْعُوكَ لِلْمَدِينَةِ بِمِثْلِ مَا دَعَاكَ بِهِ لِمَكَّةَ وَمِثْلِهِ مَعَهُ**». ثم يدعو أصغرَ مَن يحضره من الولدان، فيعطيه ذلك الثمر[٤].

وكان في هذا المجلس فسحة للطُّرْفَة والمزاح الجميل، ولم يكن وَقار المجلس النبوي ولا مَهابة محيَّاه ﷺ مما يحجز أصحابه عن عفوية الحياة، فها هو ﷺ يحدِّث أصحابه، وعنده رجلٌ من أهل البادية، فقال ﷺ: «**إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ قَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَبِّ، ائْذَنْ لِي فِي الزَّرْعِ، فَقَالَ اللهُ لَهُ: أَلَسْتَ فِيمَا شِئْتَ؟ قَالَ: بَلَى، وَلَكِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَزْرَعَ، فَبَذَرَ، فَبَادَرَ الطَّرْفَ نَبَاتُهُ وَاسْتِوَاؤُهُ وَاسْتِحْصَادُهُ[٥]، فَكَانَ أَمْثَالَ الجِبَالِ، فَيَقُولُ اللهُ: دُونَكَ يَا ابْنَ آدَمَ، فَإِنَّهُ لَا يُشْبِعُكَ شَيْءٌ**»، فلما فرغ النبيُّ ﷺ من حديثه قال الأعرابي: يا رسولَ الله،

---

(١) «صحيح البخاري» (٦١٩٨)، و«صحيح مسلم» (٢١٤٤).

(٢) أي: انتبه من شغله وفكره الذي كان فيه.

(٣) «صحيح البخاري» (٦١٩١)، و«صحيح مسلم» (٢١٤٩).

(٤) «صحيح مسلم» (١٣٧٣).

(٥) أي: فنبت واستوى وحُصد في طرفة عين. ينظر: «فتح الباري» (٥/ ٢٧).

والله لا تجد هذا الرجل إلَّا قرشيًّا أو أنصاريًّا؛ فإنهم أصحاب زرع، وأما نحن فلسنا بأصحاب زرع. فضحك مَن في المجلس، وضحك النبيُّ ﷺ[1].

وكان مجلسًا مفتوحًا في الهواء الطلق ليس عليه أبواب ولا حجاب، فيصل إلى النبي ﷺ فيه كل من قصده الصغير والكبير، والرجل والمرأة، والمقيم والغريب.

ويبدو أن هذا المجلس هو مجلس استقبال القادمين من الوفود؛ فإن المسافرينَ عادةً يبيتون خارج المدينة، ثم يدخلونها ضحىً، فيَلْقَون النبيَّ ﷺ في هذا المجلس.

ومن ذلك: وفد المُضَرِيِّين، وقد أَتَوْا إلى النبي ﷺ في صَدْر النهار، فرأى ما بهم من الفقر والفاقة، فَتَمَعَّر وجهُه أَلَمًا لحالهم، ثم خطبَ الناسَ بعد صلاة الظهر، وحثَّ على الصدقة، حتى اجتمع عنده كَوْمان من طعام وثياب[2].

ووفد عَبْد القَيْس الذين أَتَوْا إليه ﷺ من الأَحْساء، فرحَّب بهم وقال: «**مَرْحَبًا بِالوَفْدِ، غَيْرَ خَزَايَا وَلَا نَدَامَى**»[3].

ويغلب على الظن أنه المجلس الذي أتى فيه جبرائيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ في صورة رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشَّعر، لا يُرى عليه أثرُ السفر، ولا يعرفه أحدٌ، فسأل عن الإسلام والإيمان والإحسان وأشراط الساعة[4].

وأنه المجلس الذي أتى فيه ضِمامُ بن ثَعْلبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فأناخَ جمله في المسجد، ثم قال للنبي ﷺ: ابنَ عبد المطلب؟ قال: «**قَدْ أَجَبْتُكَ**». قال: إني سائلُك، فمُشدِّد عليك في المسألة، فلا تجد عليَّ في نفسك. قال: «**سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ**». فسأله عن أركان الإسلام، فَقَالَ الرَّجُلُ: آمَنْتُ بِمَا جِئْتَ بِهِ وَأَنَا رَسُولُ مَنْ وَرَائِي مِنْ قَوْمِي وَأَنَا ضِمَامُ بْنُ ثَعْلَبَةَ أَخُو بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ والذي بعثك بالحق، لا أزيدُ عليهن ولا أَنْقُصُ. فلما ولَّى قال النبيُّ ﷺ: «**فَقِهَ الرَّجُلُ، لَئِنْ صَدقَ لَيَدْخُلَنَّ الجَنَّةَ**»[5].

---

(١) «صحيح البخاري» (٢٣٤٨).
(٢) «صحيح مسلم» (١٠١٧).
(٣) «صحيح البخاري» (٥٣)، و«صحيح مسلم» (١٧).
(٤) «صحيح البخاري» (٥٠)، و«صحيح مسلم» (٨).
(٥) «صحيح البخاري» (٦٣).

وكان هذا المجلس هو مجلس شورى المسلمين فيما يقع لهم، وفيه كانت الشورى ثم قرار الخروج لأُحد، وفيه تقرَّر حفر الخندق، ونحو ذلك مما يستجد في أمور حياتهم، ولم يكن أحدٌ أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ[1]، كيف وهو المنزَّل عليه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وكان هذا المجلس من مشاهد تواضع النبي ﷺ وبُعده عن طرائق التكبر والمتجبرين.

فكان ﷺ يجلس في هذا المجلس مع أصحابه كأحدهم، ليس له شَارة تميِّزه عنهم، فيجيء الغريبُ فلا يعرفه من بينهم، وربما سأل: أيكم ابنُ عبد المطلب؟ فلا يجدون ما يميِّزون به رسولَ الله ﷺ، إلَّا وَضاءته وبهاءه، فيقولون: هو هذا الأبيض المُتَّكئ[2]. فلما رأى الصحابة ذلك، أشاروا على النبي ﷺ أن يعملوا له دَكَّةً من الطين؛ حتى يعرفه القادم، فأذن لهم، وكان ذلك في آخر حياته، عام الوفود، سنة تسع[3].

كما كان ينهى أصحابه عن القيام له بحيث يكون جالسًا ومن حوله قيام له كما يصنع ملوك الأعاجم تعاظمًا وكبراً فكان يقول: «**لا تَقُومُوا كَمَا يَقُومُ الأَعَاجِمُ تُعَظِّمُ بَعْضُهَا بَعْضًا**»[4]، وهذا غير قيام التلقِّي للقادم.

وكان الحضور في مجلسه ﷺ متنوعين في أعمارهم وفي بلدانهم، ففيهم الشيخ والشاب والفتى، والمهاجري والأنصاري والأعرابي، والمسافر العابر والمقيم المستوطن.

وكان للفتيان والشباب حضورهم مع الأشياخ من أصحاب رسول الله ﷺ، ومن مشاهد ذلك حديث ابن عمر قال: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَأُتِيَ بِجُمَّارٍ، فَقَالَ: «**إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً، مَثَلُهَا كَمَثَلِ المُسْلِمِ**». فَأَرَدْتُ أَنْ أَقُولَ: هِيَ النَّخْلَةُ، فَإِذَا أَنَا أَصْغَرُ القَوْمِ، فَسَكَتُّ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**هِيَ النَّخْلَةُ**»[5].

(١) «صحيح البخاري» (٢٧١١)، و«صحيح مسلم» (١٧٦٣).
(٢) «صحيح البخاري» (٦٣).
(٣) «سنن أبي داود» (٤٦٩٨)، و«السنن الكبرى» للنسائي (٤٩٩١).
(٤) «سنن أبي داود» (٥٢٣٠)، و«سنن ابن ماجه» (٣٨٣٦).
(٥) «صحيح البخاري» (٧٢)، و«صحيح مسلم» (٢٨١١).

وربما خص النساء بمجالس خاصة يجلس لهن فيها، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ قال: قَالَتِ النِّسَاءُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: غَلَبَنَا عَلَيْكَ الرِّجَالُ، فَاجْعَلْ لَنَا يَوْمًا مِنْ نَفْسِكَ، فَوَعَدَهُنَّ يَوْمًا لَقِيَهُنَّ فِيهِ، فَوَعَظَهُنَّ وَأَمَرَهُنَّ، فَكَانَ فِيمَا قَالَ لَهُنَّ: «**مَا مِنْكُنَّ امْرَأَةٌ تُقَدِّمُ ثَلَاثَةً مِنْ وَلَدِهَا، إِلَّا كَانَ لَهَا حِجَابًا مِنَ النَّارِ**». فَقَالَتِ امْرَأَةٌ: وَاثْنَتَيْنِ؟ فَقَالَ: «**وَاثْنَتَيْنِ**»[1].

وكان يحفظ غيبة من غاب عن مجلسه، ويدفع قالة السوء عنهم، فعندما أتي بعبد الله بن حمار ثملاً فجلد في مجلسه ثم ذهب، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ: اللهُمَّ العَنْهُ، مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتَى بِهِ! فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا تَلْعَنُوهُ، فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ إِنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ**»[2].

وعندما زار عتبان بن مالك واجتمع إليه أهل الحي في مجلسه فَقَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ: أَيْنَ مَالِكُ بْنُ الدُّخَيْشِنِ أَوِ ابْنُ الدُّخْشُنِ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: ذَلِكَ مُنَافِقٌ لَا يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا تَقُلْ ذَلِكَ، أَلَا تَرَاهُ قَدْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، يُرِيدُ بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ**». قَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّا نَرَى وَجْهَهُ وَنَصِيحَتَهُ إِلَى المُنَافِقِينَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فَإِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ**»[3].

وإني لأتساءل: كيف سيكون وقع هذه الكلمات النبوية في الدفاع عن هؤلاء الغائبين إذا بلغتهم، ويقيني أنها بلغتهم كما بلغتنا.

ولذا تربى الصحابة على ذلك وصاروا هم يدفعون قالةَ السوء أن تذكر في المجلس النبوي، فعندما جلس ﷺ في تبوك قال: «**مَا فَعَلَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ؟**». قَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ: يَا رَسُولَ اللهِ حَبَسَهُ بُرْدَاهُ وَالنَّظَرُ فِي عِطْفَيْهِ، فَقَالَ لَهُ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ: بِئْسَ مَا قُلْتَ، وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا[4].

وبذلك يحفظ النبي ﷺ نقاء المجلس أن يكون فيه غيبة لغائب، ويكف الألسنة أن تذكر غائباً إلا بخير.

---

(١) «صحيح البخاري» (١٠١)، و«صحيح مسلم» (٢٦٣٣).
(٢) «صحيح البخاري» (٦٧٨٠).
(٣) «صحيح البخاري» (٤٢٥)، و«صحيح مسلم» (٦٦).
(٤) «صحيح البخاري» (٤٤١٨)، و«صحيح مسلم» (٢٧٦٩).

وكان ﷺ يَقسِمُ بِشْرَه وإقباله في مجلسه بين أصحابه، حتى يتفرَّقوا عنه، وكلٌّ يظن أنه أكثرهم حُظْوَة عنده[١].

وكان إذا أُتي بشراب فشرب ناوله مَن كان على يمينه وإن كان من على يساره أكبر أو أجل، فقد أُتي بشراب فشرب وعن يمينه ابن عباس وعن يساره أشياخ من قريش، فلما فرغ قال لابن عباس: «**هَلْ تَأْذَن لِي أَنْ أُعْطِيَ أَعْمَامَكَ؟**». قال ابن عباس: لَا أُوثِرُ بِفَضْلَةِ رسول الله أَحَداً فأعطاه إياه[٢].

وكان جالسًا مرة وعن يمينه أعرابي وعن يساره أبو بكر فأُتي بشراب فشرب ثم أعطى الأعرابي[٣].

وربما أُهدي للنبيِّ ﷺ طعامٌ وهو مع أصحابه، فيأكلون جميعًا، قال سَمرة بن جُندب رضي الله عنه: بَيْنَا نَحْنُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ أُتِيَ بِقَصْعَةٍ[٤] فِيهَا ثَرِيدٌ. فَأَكَلَ وَأَكَلَ القَوْمُ، فَلَمْ يَزَلِ القَوْمُ يَتَدَاوَلُونَهَا إِلَى قَرِيبٍ مِنَ الظُّهْرِ يَأْكُلُ كُلُّ قَوْمٍ، ثُمَّ يَقُومُونَ، وَيَجِيءُ قَوْمٌ فَيَتَعَاقَبُونَهُ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: هَلْ كَانَتْ تُمَدُّ بِطَعَامٍ؟ قَالَ: أَمَّا مِنَ الأَرْضِ فَلَا، إِلَّا أَنْ تَكُونَ كَانَتْ تُمَدُّ مِنَ السَّمَاءِ[٥].

وأُهديت له ﷺ شاةٌ، والطعام يومئذ قليل، فقال لأهله: «**اطْبُخُوا هَذِهِ الشَّاةَ وَانْظُرُوا إِلَى هَذَا الدَّقِيقِ فَاخْبِزُوهُ وَأَثْرِدُوا عَلَيْهِ**»[٦].

ومما كان يَعْمُر هذا المجلس: الاستغفار الكثير؛ فقد كان الصحابة رضي الله عنهم يلحظون عدم فتور النبي ﷺ عن الاستغفار والتوبة، وربما عدُّوا له في المجلس الواحد مئةَ مرة[٧] قبل أن يقوم: «**رِبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الغَفُور**»[٨].

---

(١) «الشمائل» للترمذي (٣١٩).
(٢) «صحيح البخاري» (٥٦٢٠)، و«صحيح مسلم» (٢٠٣٠).
(٣) «صحيح البخاري» (٢٣٥٢)، و«صحيح مسلم» (٢٠٢٩).
(٤) القصعة: إناء طعام كبير يشبع العشرة. «تاج العروس» (٢٤/ ٥).
(٥) «مسند أحمد» (٢٠١٣٥).
(٦) «السنن الكبرى» للبيهقي (١٤٦٥٣).
(٧) «صحيح مسلم» (٢٧٠٢).
(٨) «جامع الترمذي» (٣٤٣٤).

ويطول هذا المجلس النبوي ويقصُر، بحسب الحال، وما يكون فيه من شأن، حتى إذا تعالَى النهارُ قام ﷺ، ولم يكن يقوم من مجلسه إلَّا قال: «**سُبْحَانَكَ اللهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ**». فقالوا: يا رسولَ الله، إن هذا قولٌ ما كنا نسمعُهُ منك فيما خلا؟ فيقولُ: «**هُوَ كَفَارَةٌ مَا يَكُونُ فِي المَجْلِسِ**»[(١)].

وكان يختم بهذا مجالسه كلها حتى مجالس العلم والذكر والدعاء.

فسألته عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فقالت: يا رسولَ الله، أراكَ تختمُ بهؤلاء الكلمات مجلسَكَ وقراءتَكَ وصلاتَكَ؟ فقال: «**مَنْ قَالَ خَيْراً كَانَ هَؤُلَاءِ الكَلِمَاتُ طَابِعاً**[(٢)] **عَلَيْهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، وَمَنْ قَالَ شَراً كُنَّ كَفَّارَةً لَهُ**»[(٣)].

وإذا كان ذاك المجلس النبوي الذي لا يقال فيه إلا خير ما يقال، ولا يفشو فيه إلا أعف القول وأفضله وأزكاه، يُختم بكفارة المجلس، فإن مجالسنا التي يسرب فيها لغو القول نقوله ونسمعه ما يجعلنا أشد تعاهداً لتطهيرها بهذا الذكر كفارة لما كان من زلل القول في مجالسنا.

وقلَّما يقوم من مجلس حتى يدعو لأصحابه بهذه الدعوات: «**اللهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا تُحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ، وَمِنَ اليَقِينِ مَا تُهَوِّنُ عَلَيْنَا مَصَائِبَ الدُّنْيَا، اللهُمَّ أَمْتِعْنَا بِأَسْمَاعِنَا، وَأَبْصَارِنَا، وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا، وَاجْعَلْهُ الوَارِثَ مِنَّا**[(٤)]**، وَاجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمَنَا، وَانْصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا، وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا، وَلَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا، وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا، وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لَا يَرْحَمُنَا**»[(٥)]. ثم يتفرَّق الصحابةُ إلى أعمالهم أو إلى بيوتهم؛ للقيلولة قبل الظهر.

أما هو ﷺ فقد يرجع إلى بيته؛ لنومة القَيْلولة، وربما تلقَّته أسواق المدينة ماشيًا فيها؛ مجيبًا لدعوة، أو قاصداً لزيارة، أو ساعيًا في قضاء حاجة من الحاجات.

---

(١) «سنن أبي داود» (٤٨٥٧-٤٨٥٩).

(٢) أي: خاتماً. ينظر: «لسان العرب» (٨/ ٢٣٢).

(٣) «السنن الكبرى» للنسائي (١٢٦٨).

(٤) أي: أبق هذه القوات صحيحة سليمة إلى الوفاة. ينظر: «تحفة الأحوذي» (٤/ ٢٥٩).

(٥) «جامع الترمذي» (٣٥٠٢)، و«السنن الكبرى» للنسائي (١٠١٦١).

خلاصات:

١- كان للنبي ﷺ مجالس معتادة بعد الفجر وفي الضحى، ومجالس عارضة بحسب ما يعرض له.

٢- كان الصحابة يجلسون حوله ﷺ على الأرض، ولم يكن لأحد مجلس خاص وإنما يجلس كل منهم حيث انتهى به المجلس.

٣- كان الصحابة يغضون أبصارهم بين يديه، ويغضون أصواتهم إذا تحدثوا إليه.

٤- يؤتى إليه في مجلسه بصبيان المدينة فيدعو لهم، وببواكير الثمار فيشارك الفرح بها والدعاء بالبركة عليها.

٥- كان الحديث في مجلسه حواريّاً بينه وبين أصحابه، فيسألهم ويسألونه، وكان فيه مساحة للطرفة والمزاح اللطيف.

٦- كان رسول الله ﷺ يجلس بين أصحابه كأحدهم ليس له مجلس يميزه ولا شارة تخصه.

٧- كان مجلسه مفتوحاً بلا أبواب ولا حجاب.

٨- ربما أحضر الطعام إليه في المجلس فيأكل هو وأصحابه في مجلسهم ذلك.

٩- كان يختم مجلسه بدعاء كفارة المجلس ليكون كالطابع على ما كان فيه من خير، وليكون لأمته كفارة لما يكون في المجلس من لغو أو شر.

الرسول ﷺ في الطريق

كانت المدينة أحياء متفرِّقة ما بين عالية المدينة؛ كقباء وبني سالم بن عوف، وسافلتها؛ كبني سلمة وبني حارثة، وكل حي هو تجمع عشائري لقوم من الأنصار؛ فهنا بنو زريق، وبنو ظفر، وهناك بنو ساعدة، وبنو النجار.. وهكذا.

والبيوت مختلطة بالحوائط والنخيل والبساتين، والطرق هي ما بين الدور في الحيِّ، وما بين الأحياء في المدينة.

١- وكان ﷺ يسير في طرق المدينة في زياراته الكثيرة لأحيائها وعشائرها، ولذلك انتشرت مساجده وأماكن صلاته في أنحاء المدينة حيث يصلي عند من يزورهم في مساجدهم.

وكان يسير في هذه الطرق راكبًا وماشيًا، ولعل غالب المشي في الشتاء، وغالب الركوب في الصيف؛ لأن تراب المدينة في الصيف رمضاء لاهبة وحجارتها جمرٌ متقدٌ.

وكان ﷺ متواضعًا في مركبه، ومن تواضعه ركوبه في الطريق على حمار، وأحيانًا يردف عليه بعض أصحابه معه[١].

ومن مركوبه في الطرق حماره عُفَيْر[٢]، وبغلته دُلْدُلُ[٣]، وناقته القَصْوَاء[٤].

(١) «صحيح البخاري» (١٥١٣)، و«صحيح مسلم» (١٢٨٢).
(٢) «صحيح البخاري» (٢٨٥٦)، و«صحيح مسلم» (٣٠).
(٣) «التاريخ الكبير» للبخاري (٥/ ١٤٩).
(٤) «صحيح البخاري» (٢٧٣١)، و«صحيح مسلم» (١٢١٨).

وأما المسافات القريبة فيقطعها ماشياً كالسير بين الدور أو الأنحاء المتقاربة.

٢- وكان ﷺ إذا مشى مشى بقوة وعزم، بعيداً عن التَّواقُر المتكلَّف الذي يتصنَّعه المتعاظمون؛ فينزع رجليه في خطوه كأنما يَتَقَلَّع عن الأرض، ويَتَكَفَّأ[١] كأنما يَنْحَدِرُ من عُلُوٍّ[٢]، يَعرف مَن يراه أنه ليس بعاجزٍ ولا كسلان، وإذا التفتَ التفتَ جميعاً[٣]، وكان إذا مشى معه أصحابه مَشَوْا أمامه وحوله، وتركوا ظهره للملائكة[٤]، ولم يكونوا يتبعونه من خلفه، ولم يطأ عَقِبَه رجلان[٥].

وهذا من تواضعه ﷺ أَلَّا يتقدَّم أصحابَه ويدعهم يتَّبعونه من خلفه، كما يفعل الجبابرة، ولا يرضى لأصحابه مظاهر الذُّل أو الاستصغار، بل يمشي فيهم وبينهم.

٣- وكان يسير في الطرق ببهائه وجماله وحسن مظهره فينفح طيباً إذا مشى، وإذا عبر من طريق بقيت رائحته العطرة فيه فيعلم من سلكه بعده أنه قد عبر منه.

فكان إذا مشى يتوكَّأ أحياناً على عصا من سَلَم أو عَسِيب نخل، وربما جعل في يده عُرجوناً أو مِحْجَناً[٦]، وكانت هذه عادة العرب؛ إذ كثيراً ما يعرض لهم ما يحتاجونها له[٧].

٤- وكان في مسيره يتلقَّى حاجات الناس، ويقف لمن يستوقفه، ويذهب في حاجة من يحتاجه، فعَنْ أَنَسٍ، أَنَّ امْرَأَةً كَانَ فِي عَقْلِهَا شَيْءٌ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ الله إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً.

(١) يتكفّأ: يرفع القدم من الأرض، ثم يضعها، ولا يمسح قدمه على الأرض كمشي المتبختر كأنما ينحط من صبب، أي يرفع رجله عن قوة وجلادة. ينظر: «عون المعبود» (١/ ٥٥).

(٢) «سنن أبي داود» (١٤٣).

(٣) «الأدب المفرد» (١٣١٥).

(٤) «سنن ابن ماجه» (٢٤٦).

(٥) «سنن أبي داود» (٣٧٧٠).

(٦) العرجون: هُوَ العُود الأصْفر الَّذِي فِيهِ شَمَاريخ العِذْق، والمحجن: هي العصا المنشعبة في أعلاها بحيث تكون رأساً ملتقى غصنين. ينظر: «النهاية» (٣/ ٢٠٣) (١/ ٣٤٧).

(٧) «صحيح البخاري» (١٢٥)، و«صحيح مسلم» (٢٧٩٤).

فَقَالَ: «يَا أُمَّ فُلَانٍ انْظُرِي أَيَّ السِّكَكِ شِئْتِ حَتَّى أَقْضِيَ لَكِ حَاجَتَكِ». فَخَلَا مَعَهَا فِي بَعْضِ الطُّرُقِ حَتَّى فَرَغَتْ مِنْ حَاجَتِهَا[1].

وعنه قال: إِنْ كَانَتِ الأَمَةُ مِنْ إِمَاءِ أَهْلِ المَدِينَةِ، لَتَأْخُذُ بِيَدِ رَسُولِ ﷺ، فَمَا يَنْزِعُ يَدَهُ مِنْ يَدِهَا حَتَّى تَذْهَبَ بِهِ حَيْثُ شَاءَتْ مِنَ الْمَدِينَةِ، فِي حَاجَتِهَا[2]، وفي هذا التعبير مبالغة في التواضع، لذكره المرأة دون الرجل، والأمة دون الحرة، حيث عمم بلفظ الإماء أيُّ أَمَةٍ كانت، وقوله: حيث شاءت، أي: من الأمكنة حتى لو كانت حاجتها خارج المدينة[3].

وعندما حدث عَدِيّ بن حَاتم الطائي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن أول لُقياه النبيَّ ﷺ فقال: بينا أنا أمشي معه، إذ نادتهُ امرأةٌ وَغلامٌ معها: يا رسولَ الله، إنَّ لَنا إليكَ حاجةً. فخَلَوْا به قائمـًا معهما حتى أَوَيْتُ له من طول القيام، قلتُ في نفسي: أشهدُ أنك بَرِيءٌ من ديني ودين النعمان بن المنذر، وأنك لو كنتَ مَلِكـًا لم يَقُمْ معه صبيٌّ وامرأة طولَ ما أرى، فَقَذَفَ اللهُ في قلبي له حُبّـًا[4].

٥- وكان يتبسَّم لكلِّ مَن يلقاه، قال جريرُ بنُ عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا حَجَبَنِي رَسُولُ الله ﷺ مُنْذُ أَسْلَمْتُ، وَلَا رَآنِي إِلَّا تَبَسَّمَ فِي وَجْهِي[5].

ما أروع هذه الابتسامة المشعَّة المرحِّبة، التي تُشعِر بالوُدِّ والاختصاص؛ حتى ظنَّ جريرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه ﷺ إنما يفعل ذلك معه وله؛ فوقعت من نفسه هذا الموقع، مع أنه ﷺ يفعل ذلك مع الناس كلهم، كما قال عبد الله بن الحارث بن جَزْء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما رأيتُ أحداً كان أكثرَ تَبَسُّمـًا من رسول الله ﷺ[6].

٦- وكان إذا مرَّ بصبيانٍ سلَّم عليهم، ومسح على وجوههم، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ مر على غِلْمَانٍ فسلَّم عليهم[7]، وقال جابر بن سمُرةَ: خرج النبيُّ ﷺ،

(١) «صحيح مسلم» (٢٣٢٦).
(٢) «صحيح البخاري» معلقـًا (٦٠٧٢)، و«سنن ابن ماجه» (٤١٧٧).
(٣) ينظر: «فتح الباري» (١٠/ ٤٩٠). والمقصود من الأخذ باليد لازمه، وهو الرفق والانقياد.
(٤) «الأحاديث الطوال» للطبراني (١).
(٥) «صحيح البخاري» (٣٨٢٢)، و«صحيح مسلم» (٢٤٧٥).
(٦) «جامع الترمذي» (٣٦٤١).
(٧) «صحيح مسلم» (٢١٦٨).

وخرجتُ معه، فاستقبله وِلدَانٌ، فجعلَ يمسحُ خَدَّيْ أحدهم واحداً واحداً، وأما أنا فمسحَ خَدِّي، فوجدتُ ليده برداً وريحًا، كأنما أخرجها من جُؤْنَةِ عطَّار[١]، فكان الخدُّ الذي مسحه النبيُّ ﷺ أحسنَ من الخدِّ الآخر[٢].

وكان يزورُ الأنصارَ، فإذا جاء إلى دُور الأنصار جاءه صبيان الأنصار، فيدُورونَ حوله، فيدعو لهم، ويمسحُ رؤوسَهم، ويسلِّمُ عليهم[٣].

ومرَّ بدُور بني النَّجَّار، فتلقَّاه جواري الأنصار، وجعلن يضربن بالدُّفوف ويتغنَّين ويَقُلْنَ:

نحن جَوارٍ من بني النَّجَّارِ ... يا حبَّذا محمدٌ من جارِ

فقال ﷺ: «**اللهُ يعلمُ أنَّ قلبي يحبُّكنَّ، اللهمَّ بارك فيهنَّ**»[٤].

ومرَّ في المسجد يومًا، وعصبةٌ من النساء قُعودٌ، فألوَى[٥] بيده إليهنَّ بالسَّلام[٦].

٧- وكان إذا لقي الرجلَ من أصحابه بدأه بالسلام وصافحه ودعا له، وكان إذا صافح أحداً لا ينزعُ يده من يده، حتى يكون هو الذي ينزعُ، وإذا لقي الرجلَ فكلَّمه، لم يصرف وجهه، حتى يكون الرجلُ هو الذي يصرفه[٧].

٨- وكان يمشي بعفوية وتدفُّق، بعيداً عن التزمُّت والتواقر المتكلَّف؛ فيتفاعل مع من يمر بهم مؤانسًا وملاطفًا، فقد مرَّ مرَّة في طريقه بشاب يَسْلُخُ شاةً، ولم يكن يُحسنُ السَّلْخَ، فحادَ إليه، فقال له: «**تَنَحَّ حَتَى أُرِيَكَ؛ فَإِنِّي لَا أَرَاكَ تُحْسِنُ تَسْلُخُ**». فأدخل يده بين الجلد واللَّحم، فدَحَسَ بها[٨] حتى توارت إلى الإِبْط، ثم قال ﷺ: «**هَكَذَا يَا غُلامُ فَاسْلُخْ**». ثم انطلق[٩].

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٣٢٩). وجؤنة العطار: سلة صغيرة يحفظ فيها الطيب. ينظر: «النهاية» (١/ ٣١٨).

(٢) «المعجم الكبير» للطبراني (١٩٠٩).

(٣) «السنن الكبرى» للنسائي (١٠٠٨٨).

(٤) «سنن ابن ماجه» (١٨٩٩).

(٥) أي: أشار.

(٦) «سنن أبي داود» (٥٢٠٤).

(٧) «سنن أبي داود» (٤٧٩٤).

(٨) أي: أدخلها ودسَّها. «النهاية» (٢/ ١٠٤).

(٩) «سنن أبي داود» (١٨٥).

وبذلك كان ﷺ يقيم جسور التواصل بين الأجيال بالاندماج معهم في أحوالهم، وحضوره في تفاصيل حياتهم.

وليت شعري! ما شعور هذا الشاب وهو يرى نبيه ﷺ ينغمس معه في شيء من شأنه الخاص ويعينه عليه؟!

وكيف سيتحدث بذلك مع أمه وأبيه، وكيف سيكون أثر ذلك عليهم ووقعه في نفوسهم؟!

وكان مرةً مع أصحابه في بيت رجل من أصحابه، فأتاه بلالٌ رضي الله عنه يؤذنه بالصلاة، فخرج فمرَّ في طريقه برجل قد وضع بُرْمَتَه[1] على النار، فقال له: «**أَطَابَتْ بُرْمَتُكَ؟**». قال: نعم بأبي أنت وأمي يا رسولَ الله. فتناول منها بَضْعَةً، فجعل يَعْلُكُها[2] وهو يسيرُ، حتى أَحْرَمَ بالصلاة[3].

إنها بساطة الحياة يعيشها مع أصحابه؛ ورفع للحواجز والحجب بينه وبينهم، فهو يتناول بَضْعةً يسيرةً ويظل يمضغها ويسير، ما أبعد ذلك عن سنن المتكبِّرين والجبَّارين!

أما صاحب البُرْمة؛ فكأني به يومه ذلك يحدِّث ويتحدَّث عن طلب النبي ﷺ بَضْعةً من طعامه، ثم أكلها أمامه، حتى لكأن الموقِف وسام العمر له.

٩- وكان يتفاعل مع مَن يلقاهم في الطريق ويظهر الود والمشاركة لهم، قال أنس: رأى النبي ﷺ صبيانًا ونساءً مقبلين من عرس، فقام نبي الله ﷺ مُمْثِلاً[4] فقال: «**اللهُمَّ أَنْتُمْ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ، اللهُمَّ أَنْتُمْ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ، اللهُمَّ أَنْتُمْ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ**»[5]. يعني الأنصار، وقال جابر رضي الله عنه: أتى رسول الله ﷺ بني سلمة يزورهم، فلما رجع اجتمع صبيان من صبيانهم، ونساء من نسائهم ينظرون إليه ويتبعونه، فالتفت إليهم فقال: «**أَمَا وَاللهِ إِنَّكُمْ لَئِنْ أَحبَبتمُونِي إِنَّكُمْ لأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ**»[6].

(١) البرمة: القِدْر من حجارة أو فخار. ينظر: «النهاية» (١/ ١٢١).
(٢) أي: يمضغها. ينظر: «النهاية» (٣/ ٢٩٠).
(٣) «سنن أبي داود» (١٩٣).
(٤) مُمْثِلًا: أَيْ مُنْتَصِبًا قَائِمًا. ينظر: «النهاية» (٤/ ٢٩٥).
(٥) «صحيح البخاري» (٣٧٨٥)، و«صحيح مسلم» (٢٥٠٨).
(٦) «مصنف عبد الرزاق» (٢٠٩٧٥).

أيُّ عمق في حياة الناس كان ﷺ يصل إليه بهذه اللفتات الأخَّاذة؟!

١٠- كان يجعل من مسيره في الطريق فرصة للتعليم والدعوة في الوقت والظرف المناسب، فعَنْ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ: عُفَيْرٌ، رسنه ليف فَقَالَ: «**يَا مُعَاذُ، هَلْ تَدْرِي حَقُّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ وَمَا حَقُّ العِبَادِ عَلَى اللهِ؟**». قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «**فَإِنَّ حَقَّ اللهِ عَلَى العِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقَّ العِبَادِ عَلَى اللهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ؟ قَالَ: «**لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا**»[(١)].

فتأمَّل مشهدَ نبيِّك ﷺ يمشي في الأسواق على حمار رسنُه ليف، يقاسم ظهره فتى من الأنصار، في مشهد من مشاهد العبودية والتواضع النبوي الذي يتناءَى به ﷺ عن حالِ الجبَّارين والمتكبِّرين.

إنه النبيُّ ﷺ الذي اختارَ أن يكون نبيًّا عبداً، ولم يخترْ أن يكون نبيًّا ملِكًا.

وعن أَبِي طَلْحَةَ زيد بن سهل قال: كُنَّا قُعُوداً بِالأَفْنِيَةِ نَتَحَدَّثُ، فَجَاءَ رَسُولُ الله ﷺ، فَقَامَ عَلَيْنَا فَقَالَ: «**مَا لَكُمْ وَلِمَجَالِسِ الصُّعُدَاتِ؟! اجْتَنِبُوا مَجَالِسَ الصُّعُدَاتِ**». فَقُلْنَا: إِنَّمَا قَعَدْنَا لِغَيْرِ مَا بَأْسٍ قَعَدْنَا نَتَذَاكَرُ وَنَتَحَدَّثُ. قَالَ: «**إِمَّا لَا فَأَدُّوا حَقَّهَا، غَضُّ البَصَرِ، وَرَدُّ السَّلَامِ، وَحُسْنُ الكَلَامِ**»[(٢)].

وفي هذا الحديث وضع آدابًا عامة للطريق تحقق التعاون بين الناس، وتحفظ حقوق السائرين، والجالسين في الطريق.

ومن أحكام الطريق التي كان النبي ﷺ يهذب بها سلوك الناس، ويحفظ للبيئة العامة نظافتها وطهارتها؛ تحريمه قضاء الحاجة في الطريق السالك؛ لما فيه من ضرر على السائرين وتلويث للبيئة، فقال ﷺ: «**اتَّقُوا اللَّعَّانَيْنِ**». قَالُوا: وَمَا اللَّعَّانَانِ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «**الَّذِي يَتَخَلَّى فِي طَرِيقِ النَّاسِ، أَوْ فِي ظِلِّهِمْ**»[(٣)].

---

(١) «صحيح البخاري» (٢٨٥٦)، و«صحيح مسلم» (٣٠).

(٢) «صحيح مسلم» (٢١٢١).

(٣) «صحيح مسلم» (٢٦٩).

ومن الآداب التي حثَّ عليها ورغب بها: إماطة الأذى عن الطريق، وأنها من الصدقة، وخصال الإيمان، فقال ﷺ: «**كُلُّ سُلَامَى**[1] **مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ، كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ، يَعْدِلُ بَيْنَ الِاثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَيُعِينُ الرَّجُلَ عَلَى دَابَّتِهِ فَيَحْمِلُ عَلَيْهَا، أَوْ يَرْفَعُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ، وَيُمِيطُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ**»[2].

ونلاحظ أن أكثر هذه الخصال في الطريق، حتى جعل صيانة الطريق من شعب الإيمان فقال: «**الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ -أَوْ: بِضْعٌ وَسِتُّونَ- شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ**»[3]، وقال: «**بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ عَلَى الطَّرِيقِ فَأَخَّرَهُ، فَشَكَرَ اللهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ**»[4].

وهكذا كان مسيره في الطرقات أنسًا وبركة، وهديه فيها نظافة وطهراً، وحسن تواصل بين العابرين والجالسين، وبذا تكون الطرقات إحدى مرافق المجتمع المطهرة والمأنوسة بالخير والمعروف.

خلاصات:

١- كان ﷺ إذا مشى في الطريق مشى بقوة وعزم كأنما يتقلع عن الأرض.

٢- لم يكن يتقدم أصحابه ويستتبعهم من خلفه وإنما يسير بينهم.

٣- كان يتلقَّى حاجات الناس في طريقه ويقف لمن يستوقفه، ويذهب في حاجة من يحتاجه.

٤- كان يسلم على كل من مر به، ويتبسم في وجه كل من يلقاه.

٥- كان يتفاعل مع من يمر بهم ملاطفًا ومؤانسًا.

٦- كان في طريقه معلمًا لمن يسير معه، أو من سيمر به.

٧- جعل للطريق أحكامًا وآدابًا وذوقًا، وجعل صيانته من الصدقات وخصال الإيمان.

---

(١) السُّلَامَى: جَمْعُ سُلَامِيَة وَهِيَ الْأُنْمُلَة مِنْ أَنَامِلِ الْأَصَابِعِ. ينظر: «النهاية» (٢/ ٣٩٦).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٩٨٩)، و«صحيح مسلم» (٧٢٠).

(٣) «صحيح مسلم» (٣٥).

(٤) «صحيح البخاري» (٦٥٢)، و«صحيح مسلم» (١٩١٤).

الرسول ﷺ والسوق

لقد كان من صُنع الله للنبي ﷺ أن خرج مع عمه أبي طالب وعمره اثنتي عشرة سنة في تجارته إلى الشام، ولك أن تتخيَّل فتى في الثانية عشرة من عمره يسير في صحبة قافلة من رجالات التجارة في مكة، وسيذهبون إلى الشام ليبيعوا ويشتروا وستكون أحاديثهم كلها حول تجارتهم، فكان يستمع إليها وكأنه بذلك يُهيَّأ لوعي تجاري يفوق عمره ويسبق سني حياته، ولذلك كانت هذه الرحلة التجارية هي التهيئة لرحلة أخرى بعد اثنتي عشرة سنة؛ عندما ذهب ﷺ إلى الشام مرة أخرى بتجارة خديجة، والتعامل التجاري هو نوع من التأهيل للرسالة؛ لأن التاجر يتعامل مع أنواع من الناس، فكما أن رعي الغنم نوع من تأهيل الأنبياء للرعاية، فكذلك التجارة نوع من التأهيل للتعامل مع أنماط الناس المتنوعة.

ولما رجع النبي ﷺ إلى مكة بتجارة خديجة ثم تزوجها بقي يعمل في أموالها ويتاجر بها، فكان للنبي ﷺ وعي تجاري مبكر.

فلما هاجر ﷺ إلى المدينة كان أول مشروع يقيمه هو مسجده؛ الذي هو مكان الصلاة والعلم والضيافة، والحاوي لأكثر الأنشطة الدعوية والتعليمية، وكما اختط رسول الله ﷺ المسجد فإنه كذلك اختط السوق، وذلك أن النبي ﷺ عندما قَدِم المدينة كان الاقتصاد في أيدي اليهود، أما الأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فكانوا فلاحين في حروثهم ونخيلهم، وكان اليهود قبائل؛ منهم بنو قينقاع، وسكنهم قريب من المسجد النبوي، ومكانهم هو الذي يسميه أهل المدينة اليوم: «سوق العيشة»؛ وهو قريب من أسواق التمر، وبنو قينقاع لم يكونوا فلاحين، وإنما كانوا صاغة وتجَّاراً، وبنو النضير كانوا أهل زراعة وحروث وأهل تجارة وأموال حتى إن ثروة واحد منهم وهو حيي بن أخطب كانت في جلد بقرة مملوء ذهبًا وفضة،

وهذه الثروة نمت عند يهود بني النضير من التجارة والربا والزراعة، فلما قَدِم النبي ﷺ إلى المدينة كان لابد من تخليص اقتصاد المهاجرين والأنصار من احتكار اليهود، وكان المهاجرون يتاجرون في سوق بني قينقاع؛ كما في قصة عبد الرحمن بن عوف أن النبي ﷺ آخَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ الأَنْصَارِيِّ، فَعَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يُنَاصِفَهُ ماله، وينزل له عن إحدى زوجتيه ليتزوجها فَقَالَ: بَارَكَ اللهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ، دُلُّونِي عَلَى السُّوقِ. فدلَّه على سوق بني قينقاع، فَأَتَى السُّوقَ فَرَبِحَ شَيْئًا مِنْ أَقِطٍ وَشَيْئًا مِنْ سَمْنٍ، فَرَآهُ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَ أَيَّامٍ وَعَلَيْهِ وَضَرٌ مِنْ صُفْرَةٍ. والصُفْرَة هي: صبغة الزينة للنساء، فإذا رئي الرجل وعليه صُفْرَة فمعناه أن هذا من أثر الصفرة التي كانت على زوجته، فقَالَ له: «**مَهْيَمْ**[1] **يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ؟**». فَقَالَ: تَزَوَّجْتُ امرأة من الأنصار. فقَالَ النبي ﷺ: «**فَمَا سُقْتَ إِلَيْهَا؟**». قَالَ: وَزْنَ نَوَاةٍ مِنْ ذَهَبٍ قَالَ: «**فَبَارَكَ اللهُ لَكَ، أَوْلِمْ وَلَوْ بِشَاةٍ**»[2].

لقد اتَّجر عبد الرحمن بن عوف وأصبح عنده المال وتزوج هذه المرأة، وكانت هذه التجارة في سوق بني قينقاع، فأراد النبي ﷺ أن يختط سوقًا لأهل المدينة لمصالح منها:

١- تخليص اقتصاد المدينة من احتكار اليهود.

٢- توظيف طاقات المهاجرين الذين كانوا في الأصل تجَّاراً، وهذه فرصة لإطلاق مواهبهم ليحولوا المدينة إلى مركز تجاري.

فتطلَّب النبي ﷺ في بقاع المدينة مكانًا يرتضيه، وقد وقف في أكثر من مكان فلم يرها مناسبة حتى جاءه رجل فقال: يا رسول الله قد وجدت لك مكانًا للسوق، فقال النبي ﷺ: «**أَرِنِيهِ**»، فخرج به إلى الجهة الغربية من المسجد ما بين مسجد الغمامة وثنيَّة الوداع، وهي تمر ببني زريق وبني ساعدة، وكان فيه أرض لبني ساعدة فلما رآها النبي ﷺ قال: «**هَذَا سُوقُكُمْ**»[3]، وضرب فيه برجله المباركة، واستوهب الأرض من بني ساعدة، ووضع قانون هذا السوق أنه لا يُحتكر، ولا تُضرب عليه الرسوم، ولا يكون فيه حمى لأحد،

(١) مَهْيَمْ: كلمة يَمَانِية مَعْنَاهَا: مَا أَمرك أَو مَا هَذَا الَّذِي أرى بك. ينظر: «غريب الحديث» لأبي عبيد (٢/ ١٩١).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٠٤٨)، و«صحيح مسلم» (١٤٣٧).

(٣) «سنن ابن ماجه» (٢٢٣٣).

وإنما يكون سوقًا مفتوحًا، أو حسب تعبيرنا سوقا حرة، ويسمى اليوم «سوق المناخة»، ويقع غربي المسجد النبوي ويمتد جنوبًا إلى مسجد الغمامة الذي كان مصلى العيد، وشمالاً إلى ثنيَّة الوداع، وطوله قرابة كيلومتر تقريبًا، أما عرضه فيتفاوت اتساعًا وضيقًا بحسب ما يزدحم حوله من المرافق والمباني.

ولو تفكَّرنا في المدينة النبوية وتخيَّلناها ذلك الوقت لرأيناها مدينة صغيرة، وواحات وقرى متناثرة، لا تحتمل أن يكون سوقها بهذه المساحة الواسعة، فلماذا اختط النبي ﷺ هذا السوق بهذه السعة؟

كأنما كان النبي ﷺ يكشف سُجُفَ الغيب فيرى المدينة وقد كثر أهلها، وازدحم سكانها، وعمرت أسواقها، وصارت مؤهلة أن يكون فيها سوق دولي، ولذلك اختط هذا السوق الواسع الذي بقي عامراً طوال تاريخ المدينة، ولا يزال.

وقد جعله سوقا حرّاً ليس فيه مكان خاص لأحد، فمَن أتى ببضاعته إلى مكان وسبق إليه فهو أحق به، فإذا انتهى النهار وأخذ بضاعته انتهى اختصاصه بهذا المكان، وبالتالي صار سوقًا جاذبًا للبوادي والأرياف التي حول المدينة.

وفي هذا السوق تفاعلت مواهب تجَّار المهاجرين فتحوَّل المهاجرون من كونهم مكفولين إلى أن أصبحوا تجاراً أثرياء أغنياء منفقين، فما كانوا عبئًا على المدينة، وإنما تحوَّلوا إلى قوة اقتصادية فاعلة، وصار هذا السوق يستقبل عبد الرحمن بن عوف، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، والزبير بن العوام، فيصْفقون فيه ويتاجرون، ولذلك كان عمر رضي الله عنه إذا سمع حديثًا لم يسمعه من النبي ﷺ قال: شَغَلنا الصَّفْقُ بِالأَسْوَاقِ[1]. فكان هذا السوق هو المعترك التجاري لهذه المواهب التجارية.

وهذا السوق الذي اختطه النبي ﷺ أول مجيئه إلى المدينة هو أول سوق اختطه نبي، وكأنما يُقدِّم للبشرية هوية الإسلام بهذا، وهو أن هذا الإسلام: دين ومعاملة، وأنه مستوعب لمناشط الحياة كلها.

(١) «صحيح البخاري» (١١٨)، و«صحيح مسلم» (٢١٥٣).

وقفات مع النبي ﷺ في السوق:

أولاً: كان النبي ﷺ يدخل السوق ويتخوَّل أهله بالزيارة، ويقوم بما يُعبَّر عنه الآن: بالرقابة على المواد التجارية، فقد دخل النبي ﷺ مرة السوق، فمَرَّ عَلَى صُبْرَةِ طَعَامٍ فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا فَنَالَتْ أَصَابِعُهُ بَلَلاً، فَقَالَ لصاحبه: «**مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟**». قَالَ: أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ الله، فقَالَ: «**أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ حَتَّى يَرَاهُ النَّاس؟! مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي**»[(١)]، فكان هذا نوعـًا من الرقابة على النشاط التجاري في السوق.

ثانيـًا: كان النبي ﷺ يربط المعاملات الاقتصادية والتعاملات التجارية بقيم المسلمين وتعاليم دينهم.

يقول أحد الصحابة التجَّار في هذا السوق: كُنَّا نُسَمَّى: السَّمَاسِرَةَ، فَمَرَّ بِنَا رَسُولُ الله ﷺ فَسَمَّانَا بِاسْمٍ هُوَ أَحْسَنُ مِنْهُ فَقَالَ: «**يَا مَعْشَرَ التُّجَّارِ، إِنَّ البَيْعَ يَحْضُرُهُ اللَّغْوُ وَالحَلِفُ فَشُوبُوهُ بِالصَّدَقَةِ**»[(٢)]. أي: تصدَّقوا حتى تكون الصدقة طُهرةً لبيعكم مما قد يشوبه من حلفٍ أو لغوِ قولٍ تذرف به ألسنتكم.

وقال ﷺ وهو يعظ التجَّار: «**إِنَّ التُّجَّارَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ فُجَّاراً إِلَّا مَنِ اتَّقَى اللهَ وَبَرَّ وَصَدَقَ**»[(٣)]. إذن فهو يربط التجارة بالبر وبالتُّقى وبالصدق.

وقال: «**البَيِّعَانِ بِالخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا**»[(٤)].

وأتى مرة من بعض نواحي المدينة فاختار أن يكون طريقه على السوق، فلما رآه أهل السوق مقبلاً ترك كل ما في يده وجاؤوا يتلقَّون النبي ﷺ فصار في السوق سِماطَيْن يعني صفين متقابلين، والنبي ﷺ يعبر من بينهما، إجلالاً للنبي ﷺ وشوقـًا إلى رؤيته ولقياه،

(١) «صحيح مسلم» (١٠٢).
(٢) «سنن أبي داود» (٣٣٢٦).
(٣) «جامع الترمذي» (١٢٥٣).
(٤) «صحيح البخاري» (٢٠٧٩)، و«صحيح مسلم» (١٥٣٢).

وإذا بالنبي ﷺ يتوجَّه إلى تيسٍ أسكّ[1] ميت، فيُمسكه بأذنه الصغيرة ثم يرفعه في السوق ويبدأ مزاداً على هذا التيس الميت، فيقول: «**أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ؟**». فتعجَّب أهل السوق، وهم تجَّار كيف يُقيم مزاداً على تيس ميِّت قد هان على أهله حتى تركوه؟! فقالوا: يا رسول الله، وَاللهِ لَوْ كَانَ حَيًّا كَانَ عَيْبًا فِيهِ لأَنَّهُ أَسَكُّ فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ؟! وإذا بالنبي ﷺ يُلقيه من يده ويقول لهم: «**فَوَاللهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ**»[2]. وألقاه ومضى.

وكأنما يقول لهم ﷺ: إن هذه الدنيا هيِّنة، إنها أهون على الله من هذا التيس الذي ألقيته وألقاه قبلي أهله، وأنتم ترونه ملقى ولا أحد منكم رغب فيه من هوانه عليكم، «**فَوَاللهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ**». وإذا كانت الدنيا كلها بهذا الهوان عند الله، فهل تستحق سلعةٌ تبيعها أو بضاعةٌ تُنفِّقها أن تحلف عليها يميناً كاذبة؟! أو تكسب بها كسباً حراماً؟! فانظر بلاغة الموعظة ومناسبتها للسوق.

ثالثاً: كان النبي ﷺ يحافظ على حرية السوق الاقتصادية وتفاعله، وأن لا يكون بيد فئة تحتكره، ومن ثمَّ قال: «**لَا يَحْتَكِرُ إِلَّا خَاطِئٌ**»[3]، ولما غلا السعر قال له الناس: يا رسول الله سعِّر لنا، فقال: «**إِنَّ اللهَ هُوَ الْمُسَعِّرُ، الْقَابِضُ الْبَاسِطُ الرَّازِقُ، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَلْقَى رَبِّي وَلَيْسَ أَحَدٌ يَطْلُبُنِي بِمَظْلِمَةٍ فِي دَمٍ وَلَا مَالٍ**»[4].

ونهى عن تلقِّي الركبان وهم الذين يأتون ببضائع أو أطعمة أو ماشية من خارج المدينة، فيأتي أحدهم وليس عنده علم بقيمة محصوله في السوق، فيتلقَّاهم السماسرة في الطرق قبل أن يدخلوا المدينة ثم يعرضون عليهم شراءها، فيشترونها بالسعر الذي يفرضونه هم وليس بسعر السوق، وربما اشتروها منهم برخص، ثم يبيعونها بسعر السوق لعلمهم بأثمانها، فنهى النبي ﷺ عن تلقِّي الركبان وقال: «**دَعُوا النَّاسَ يَرْزُقِ اللهُ بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ**». وفي هذا التوجيه النبوي فوائد منها:

---

(١) الأسك: هو صغير الأذن، ويعتبر عيباً في خلقته. ينظر: «غريب الحديث» للخطابي (٢/ ٣٥١).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٩٥٧).

(٣) «صحيح مسلم» (١٦٠٥).

(٤) «سنن أبي داود» (٣٤٥١).

١- أن في ذلك حماية للقادم إلى السوق أن يُغبن في سعر سلعته فتُشترى منه برخصٍ وتُباع بعد ذلك على يد السماسرة بسعر مرتفع، أما إذا قدم صاحب المال بماله إلى السوق فسيبيعه بما يناسبه، وبذلك ترخص البضاعة الغالية؛ لأنه لن يطلب فيها ما يطلبه التاجر المتربِّص.

٢- كما أنه عندما يُتلقَّى الركبان خارج المدينة، فإن البائع سيسلم سلعته ويرجع بالثمن معه، ولو أتى إلى السوق وباع بضاعته فيه واستلم ثمنها فسيشتري هو أيضاً حاجاته من السوق، فما باعه سيشتري بقيمته، وبالتالي تتحرك عجلة السوق أكثر.

ولقد بقي في حديثنا عن النبي ﷺ والسوق أن نشير إلى أن هذا النبي الذي اختط السوق، وفتح فيه هذا النشاط التجاري لم يُنقل لنا عنه منذ دخل المدينة وإلى أن توفي أنه باع شيئاً، ولا خرج من يده شيء بالبيع، فما كان من مالٍ بيده فإنه يخرج منها بالصدقة، أو الهبة، أو الهدية، أما البيع فلم يُنقل لنا أن النبي ﷺ باع مالاً له في المدينة، وهو الذي أشعل هذا النشاط التجاري الراشد، فأقام للناس دينهم ودنياهم ﷺ.

خلاصات:

١- تفتَّح وعي النبي ﷺ على النشاط التجاري في رحلاته إلى الشام، فكانت التجارة نوعاً من التأهيل للتعامل مع أنماط الناس المتنوعة.

٢- لما هاجر ﷺ إلى المدينة اختط فيها السوق كما بنى المسجد، فأقام للناس دينهم ودنياهم.

٣- كان سوق المدينة سوقاً حراً له نظامه، لا يُحتكر، ولا تضرب عليه الرسوم، ولا يكون فيه حِمى لأحد.

٤- في هذا السوق ظهرت مهارات المهاجرين التجارية وساهموا في تفعيل اقتصاد المدينة.

٥- كان ﷺ يدخل السوق ويقوم بالرقابة على طريقة البيع ونظامه.

٦- كان يربط التعامل التجاري بالقيم الأخلاقية والرقابة الدينية.

٧- كان يحافظ على حرية السوق الاقتصادية وألا يكون بيد فئةٍ تحتكره.

٨- لم ينقل أنه ﷺ باع شيئاً، وما كان شيء يخرج من ملكه إلا بصدقةٍ أو هبة.

الرسول ﷺ ومعاملة الحيوان

أرسل الله نبيه ﷺ رحمة للعالمين، فهو رحمة لعالم الإنس والجن والحيوان والهوام والبيئة، وكل ما جاء به يأتلف لإقامة الحياة وتوازن مكوناتها، وأن الرحمة والإحسان تتعدى الإنسان فتشمل الحيوان والطيور والهوام، ولذا فإن المعاملة النبوية للحيوان تتجاوز الرفق به إلى الإحسان إليه، واعتبار الإحسان إليه من الصدقة التي يتقرَّب إلى الله بها، والإشارة إلى أن الروح والإحساس الذي جعله الله فيه يجعله محلاً للمعروف والإحسان، «**فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطبةٍ أَجْرٌ**»(١).

وأن اقتدار الإنسان عليها إنما هو من تسخير الله وتذليل قيادها لنا: ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝٧٢ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٧٢، ٧٣]، وأن مِن شُكر الله على إحسانه بها الإحسانُ إليها، وتتجلى رعاية النبي ﷺ لحقوق الحيوان في معالم منها:

أولاً: النهي عن تعذيب الحيوان:

جاءت أحاديث النبي ﷺ محذرة من الإساءة إلى الحيوان بإجاعته أو إجهاده، أو فجيعته، أو تشويهه، أو العبث بحياته، واعتبار ذلك من كبائر الذنوب؛ حيث ورد اللعن على بعض ذلك والتوعد بعذاب النار عليه، ومن ذلك:

(١) «صحيح البخاري» (٢٣٦٣)، و«صحيح مسلم» (٢٢٤٤).

١- قوله ﷺ: «**عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعًا، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ، فقيل لها: لَا أَنْتِ أَطْعَمْتِهَا وَلَا سَقَيْتِهَا حِينَ حَبَسْتِيهَا، وَلَا أَنْتِ أَرْسَلْتِهَا فَأَكَلَتْ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ، فَلَقَدْ رَأَيْتُهَا تَنْهَشُهَا إِذَا أَقْبَلَتْ، وَإِذَا وَلَّتْ تَنْهَشُ اليَتَهَا**»[(١)].

٢- وعَنْ جَابِرٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مُرَّ عَلَيْهِ بِحِمَارٍ قَدْ وُسِمَ فِي وَجْهِهِ، فَقَالَ: «**أَمَا بَلَغَكُمْ أَنِّي قَدْ لَعَنْتُ مَنْ وَسَمَ البَهِيمَةَ فِي وَجْهِهَا أَوْ ضَرَبَهَا فِي وَجْهِهَا؟**»[(٢)].

٣- وعَنْ عَبْدِ الله بن مسعود قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي سَفَرٍ، فَانْطَلَقَ لِحَاجَتِهِ فَرَأَيْنَا حُمَرَةً مَعَهَا فَرْخَانِ فَأَخَذْنَا فَرْخَيْهَا، فَجَاءَتِ الحُمَرَةُ فَجَعَلَتْ تَفْرِشُ[(٣)]، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «**مَنْ فَجَعَ هَذِهِ بِوَلَدِهَا؟ رُدُّوا وَلَدَهَا إِلَيْهَا**». وَرَأَى قَرْيَةَ نَمْلٍ قَدْ حَرَّقْنَاهَا فَقَالَ: «**مَنْ حَرَّقَ هَذِهِ؟**». قُلْنَا: نَحْنُ. قَالَ: «**إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُعَذِّبَ بِالنَّارِ إِلَّا رَبُّ النَّارِ**»[(٤)].

٤- وعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: مَرَّ ابْنُ عُمَرَ بِفِتْيَانٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَدْ نَصَبُوا طَيْراً، وَهُمْ يَرْمُونَهُ، وَقَدْ جَعَلُوا لِصَاحِبِ الطَّيْرِ كُلَّ خَاطِئَةٍ مِنْ نَبْلِهِمْ، فَلَمَّا رَأَوْا ابْنَ عُمَرَ تَفَرَّقُوا، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: مَنْ فَعَلَ هَذَا؟ لَعَنَ اللهُ مَنْ فَعَلَ هَذَا، إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ لَعَنَ مَنِ اتَّخَذَ شَيْئًا فِيهِ الرُّوحُ غَرَضًا[(٥)].

وكذا النهي عن قتل الحيوان لغير حاجة:

٥- فعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**مَا مِنْ إِنْسَانٍ قَتَلَ عُصْفُوراً فَمَا فَوْقَهَا بِغَيْرِ حَقِّهَا، إِلَّا سَأَلَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عَنْهَا**». قِيلَ يَا رَسُولَ الله، وَمَا حَقُّهَا؟ قَالَ: «**يَذْبَحُهَا فَيَأْكُلُهَا، وَلَا يَقْطَعُ رَأْسَهَا يَرْمِي بِهَا**»[(٦)].

---

(١) «صحيح البخاري» (٢٣٦٥)، و«صحيح مسلم» (٢٢٤٢)، و«السنن الكبرى» للنسائي (١٤٨٢).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٥٦٤).

(٣) تفرش: مِنْ فَرَشَ الطَّائِرُ إِذَا تَرَفْرَفَتْ بِجَنَاحَيْهَا وَتَقَرَّبَتْ مِنَ الأَرْضِ. ينظر: «عون المعبود» (٣/ ٨).

(٤) «سنن أبي داود» (٢٦٧٥).

(٥) «صحيح مسلم» (١٩٥٨). وغَرَضًا: أي هدفا للرمي. ينظر: «شرح النووي على مسلم» (١/ ١١٤).

(٦) «السنن الكبرى» للنسائي (٤٣٤٩).

ثانياً: أمره بالرفق بالحيوان عند ذبحه:

جاءت النظرة الشرعية للحيوان متوازنة، ففيها جواز الانتفاع به ركوباً وأكلاً: ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧٢].

ثم جاء الأمر بالإحسان إليه والرفق به عند استخدامه، والرفق به ورحمته عند ذبحه، ومن ذلك:

١- عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ: ثِنْتَانِ حَفِظْتُهُمَا عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا القِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ**»(١).

٢- وعَنْ قرة بن إياس، أَنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا رَسُولَ الله إِنِّي لَأَذْبَحُ الشَّاةَ، وَأَنَا أَرْحَمُهَا -أَوْ قَالَ: إِنِّي لَأَرْحَمُ الشَّاةَ أَنْ أَذْبَحَهَا- فَقَالَ: «**وَالشَّاةُ إِنْ رَحِمْتَهَا رَحِمَكَ اللهُ، وَالشَّاةُ إِنْ رَحِمْتَهَا رَحِمَكَ اللهُ**»(٢).

٣- وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: مَرَّ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى رَجُلٍ وَاضِعٍ رِجْلَهُ عَلَى صَفْحَةِ شَاةٍ وَهُوَ يُحِدُّ شَفْرَتَهُ وَهِيَ تَلْحَظُ إِلَيْهِ بِبَصَرِهَا، فَقَالَ: «**أَفَلَا قَبْلَ هَذَا؟! تُرِيدُ أَنْ تُمِيتَهَا مَوْتَتَيْنِ؟!**»(٣).

٤- وعن جَابِر قال: نَهَى رَسُولُ الله ﷺ أَنْ يُقْتَلَ شَيْءٌ مِنَ الدَّوَابِّ صَبْراً(٤).

٥- ورأى عمر رضي الله عنه رجلا يجر شاة ليذبحها فضربه بالدّرة وقال: سقها -لا أمّ لك- إلى الموت سوقًا جميلاً(٥).

---

(١) «صحيح مسلم» (١٩٥٥).

(٢) «مسند أحمد» (١٥٥٩٢).

(٣) «المعجم الأوسط» للطبراني (٣٥٩٠).

(٤) «صحيح مسلم» (١٩٥٩). وقتله صَبْراً: أَنْ يُمسَك شيءٌ من ذوات الرُّوح حيًّا ثم يُرْمى بِشَيْءٍ حَتَّى يَمُوتَ. ينظر: «النهاية» (٣/ ٨).

(٥) «مصنف عبد الرزاق» (٨٨٧٦).

ثالثاً: الأمر بالرفق بالحيوان عند الاستخدام:

فجاء الأمر بالرفق به فلا يُحمل عليه ما يثقله، ولا يجهد في عمله، ولا يقصر عليه في طعامه، ولا يستخدم فيما لا حاجة إليه، وأكد ذلك بربطه بالتقوى والإيمان، وأن الإحسان سبب للثواب، وفي تعذيبها والمشقة عليها سبب للعقاب.

١- فعَنْ عَبْدِ الله بْنِ جَعْفَرٍ قَالَ: أَرْدَفَنِي رَسُولُ الله ﷺ خَلْفَهُ ذَاتَ يَوْمٍ، فَأَسَرَّ إِلَيَّ حَدِيثًا لَا أُحَدِّثُ بِهِ أَحَداً من النَّاسِ، وَكَانَ أَحَبُّ مَا اسْتَتَرَ بِهِ رَسُولُ الله ﷺ لِحَاجَتِهِ هَدَفًا، أَوْ حَائِشَ نَخْلٍ، قَالَ: فَدَخَلَ حَائِطًا لِرَجُلٍ من الأَنْصَارِ فَإِذَا جَمَلٌ، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ ﷺ حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ[١] فَسَكَتَ، فَقَالَ: «**مَنْ رَبُّ هَذَا الجَمَلِ، لِمَنْ هَذَا الجَمَلُ؟**». فَجَاءَ فَتًى مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالَ: لِي يَا رَسُولَ الله. فَقَالَ: «**أَفَلَا تَتَّقِي اللهَ فِي هَذِهِ البَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللهُ إِيَّاهَا؟! فَإِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ**»[٢].

٢- وعَنْ سَهْلِ ابْنِ الحَنْظَلِيَّةِ قَالَ: مَرَّ رَسُولُ الله ﷺ بِبَعِيرٍ قَدْ لَحِقَ ظَهْرُهُ بِبَطْنِهِ، فَقَالَ: «**اتَّقُوا اللهَ فِي هَذِهِ البَهَائِمِ المُعْجَمَةِ، فَارْكَبُوهَا صَالِحَةً، وَكُلُوهَا صَالِحَةً**»[٣].

وأمر بالرفق بها عند السفر عليها، وإعطائها حظها من الراحة والإطعام عند السير عليها، ففي الخصب تعطى حظها منه، فلا يسرع بها ولا يعجل عليها لترتع وتأكل من العشب وما أخرج الله من خيرات الأرض.

وفي موسم الجدب يأمر بالإسراع في السير لأنه لا مصلحة لها في أرض مجدبة فتحفظ عليها قوتها حتى تصل حيث تطعم وتراح.

فقال ﷺ: «**إِذَا سَافَرْتُمْ فِي الخِصْبِ فَأَعْطُوا هَذِهِ الدَّوَابَّ العُجْمَ حَظَّهَا مِنَ الأَرْضِ، وَإِذَا سَافَرْتُمْ فِي السَّنَةِ فَأَسْرِعُوا عَلَيْهَا السَّيْرَ**»[٤].

---

(١) ذِفري البعير: أصلُ أذنه. ينظر: «النهاية» (٢/ ١٦١).

(٢) «سنن أبي داود» (٢٥٤٩).

(٣) «سنن أبي داود» (٢٥٤٨).

(٤) «صحيح مسلم» (١٩٢٦).

ونهى عن استخدامها فيما ليس من حاجة الإنسان إليها كاتخاذها منابر وكراسي للخطب والحديث.

٣- فعَنْ معاذ بن أنس، عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ مَرَّ عَلَى قَوْمٍ وَهُمْ وُقُوفٌ عَلَى دَوَابَّ لَهُمْ وَرَوَاحِلَ، فَقَالَ لَهُمْ: «**ارْكَبُوهَا سَالِمَةً، وَدَعُوهَا سَالِمَةً، وَلَا تَتَّخِذُوهَا كَرَاسِيَّ لِأَحَادِيثِكُمْ فِي الطُّرُقِ وَالأَسْوَاقِ؛ فَرُبَّ مَرْكُوبَةٍ خَيْرٌ مِنْ رَاكِبِهَا، وَأَكْثَرُ ذِكْراً لله** تَبَارَكَ وَتَعَالَى **مِنْهُ**»[(١)].

٤- وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**إِيَّاكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا ظُهُورَ دَوَابِّكُمْ مَنَابِرَ، فَإِنَّ اللهَ إِنَّمَا سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُبَلِّغَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الأَنْفُسِ، وَجَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فَعَلَيْهَا فَاقْضُوا حَاجَتَكُمْ**»[(٢)].

وعلة النهي عن اتخاذها كراسي ومنابر لأنه إجهاد لها من غير ما حاجة، ونوع من التعالي والتكبر أن يقف على الأرض أو يجلس عليها.

ولا يعارض ذلك خطبة النبي ﷺ على راحلته يوم عرفة ويوم النحر وعلى بغلته يوم القر[(٣)]؛ فإنه فعل ذلك للحاجة، لكثرة الناس حتى يشرف عليهم ويَبلُغَهم صوتُه، وكانت خُطَبه قصيرة لا تطول بحيث ترهق الراحلة وتشق عليها، وكذا وقوفه عليها للدعاء يوم عرفة فإن هذه حاجة عارضة غير متكررة فعلها ﷺ ليشرف على الناس الذين يقصدونه، وليراه من بعد عنه ويراهم، فَفِعْلُه ذلك للحاجة مثل السير عليها.

رابعاً: النهي عن سب الحيوان:

والنهي عن لعن الحيوان وسبه هو نوع من حفظ حقوقه، وحمايةٌ له من تجاوز ذلك إلى ما هو أشد إيذاء أو إجهاداً.

---

(١) «مسند أحمد» (١٥٦٢٩).

(٢) «سنن أبي داود» (٢٥٦٧).

(٣) هو اليوم الحادي عشر من ذي الحجة، لأن الناس يقرون فيه بمنى.

١- فعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ: بَيْنَمَا رَسُولُ الله ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، وَامْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ عَلَى نَاقَةٍ، فَضَجِرَتْ فَلَعَنَتْهَا، فَسَمِعَ ذَلِكَ رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ: «**خُذُوا مَا عَلَيْهَا وَدَعُوهَا، فَإِنَّهَا مَلْعُونَةٌ**». قَالَ عِمْرَانُ: فَكَأَنِّي أَرَاهَا الآنَ تَمْشِي فِي النَّاسِ، مَا يَعْرِضُ لَهَا أَحَدٌ[١].

فإذا كان لعن الحيوان الذي لا يدركه الحيوان ولا يعيه، ولا يتأذى منه يمنع بهذا المنع البليغ، فكيف بتعذيبه، أو إجهاده؟

٢- ولما سار النبي ﷺ إلى مكة في عمرة الحديبية وبلغ الثنية الَّتِي يُهْبَطُ عَلَيْهِمْ مِنْهَا بَرَكَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ، فَقَالَ النَّاسُ: حَلْ حَلْ فَأَلَحَّتْ، فَقَالُوا: خَلأَتِ القَصْوَاءُ[٢]، خَلأَتِ القَصْوَاءُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَا خَلأَتِ القَصْوَاءُ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الفِيلِ**»[٣]، فانظر كيف دافع النبي ﷺ عن ناقته العجماء أن توصف بغير صفتها وبما ليس من خلقها، ثم بين عذرها وما الذي حبسها.

خامساً: الأمر بالإحسان إلى الحيوان:

وجعل ﷺ رحمة الحيوان من أسباب رحمة الله، فقال: «**والشَّاةُ إِنْ رَحِمتَها رَحِمَكَ اللهُ**»[٤]، والإحسان إليه سبب لإحسان الله ورحمته وغفرانه ذنوب عباده، ودل على ذلك بقوله وفعله.

١- فعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَضَعُ لَهَا الإِنَاءَ فَتَشْرَبُ، ثُمَّ يَتَوَضَّأُ بِفَضْلِهَا. يَعْنِي: الهِرَّةَ[٥].

٢- وعَنْ كَبْشَةَ بِنْتِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ - وَكَانَتْ تَحْتَ ابْنِ أَبِي قَتَادَةَ- أَنَّ أَبَا قَتَادَةَ، دَخَلَ فَسَكَبَتْ لَهُ وَضُوءاً، فَجَاءَتْ هِرَّةٌ فَشَرِبَتْ مِنْهُ، فَأَصْغَى لَهَا الإِنَاءَ حَتَّى شَرِبَتْ، قَالَتْ كَبْشَةُ:

(١) «صحيح مسلم» (٢٥٩٥).
(٢) أي امْتنعت من المَشْي. ينظر: «فتح الباري» (١/ ١١٣).
(٣) «صحيح البخاري» (٢٧٣١).
(٤) «الأدب المفرد» (٣٧٣).
(٥) «المعجم الأوسط» (٧٩٤٩).

فَرَآنِي أَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: أَتَعْجَبِينَ يَا ابْنَةَ أَخِي؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**إِنَّهَا لَيْسَتْ بِنَجَسٍ، إِنَّهَا مِنَ الطَّوَّافِينَ**[1] **عَلَيْكُمْ وَالطَّوَّافَاتِ**»[2].

٣- عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ، إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ**»[3].

٤- وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**بَينَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ اشْتَدَ بِه العَطشُ فَوَجَد بِئْراً فَنَزَلَ فِيهَا فَشرِبَ ثُمَّ خَرجَ فَإِذَا كَلْبٌ يَلهَثُ يَأكلُ الثرَى مِنَ العَطَشِ، فَقَالَ الرَّجل: لَقَدْ بَلغَ هَذا الكَلبَ مِن العَطشِ مِثْل الَّذِي كَانَ بَلغَنِي، فَنَزلَ البِئرَ فَمَلأَ خُفهُ ثُمَّ أَمْسَكَها بِفِيهِ فَسَقَى الكلْبَ فَشكَرَ اللهُ لَه فَغُفِرَ لَه**». قَالُوا: يَا رَسُولَ الله وإِنَّ لَنا فِي البَهائِم أَجْراً؟ قَالَ: «**فِي كُل كَبِدٍ رَطبَةٍ أَجرٌ**»[4].

وإن تعجب فحق لك أن تعجب أن النبي ﷺ كان يقرر حقوق الحيوان في ذلك الزمان والذي لم يكن يعرف حقوق الإنسان فضلاً عن حقوق الحيوان، وكانت الاحتفالات تقام في مسارح أوروبا كمسرح الكولسيوم في روما وغيره، وفيه تطلق السباع الضارية الجائعة على الأسرى للفرجة والتلهي بهذه الاحتفالية الدموية، ورؤية الدماء المتناثرة والأشلاء الممزقة للحيوان والإنسان، والذي هو عندهم أهون من الحيوان.

ولا تزال في بعض دول أوروبا إلى اليوم رعاية هذه الاحتفالية البشعة والتي تسمى: (مصارعة الثيران) فتحتشد الجماهير للتلهي بها، والاستمتاع بالتوحش عليها، ومبارزتها بالسيوف وهي الحيوانات العجماوات العزلاء البريئة، لتقتل تعذيباً وتمزيقاً، بينما النبي ﷺ يأتي في ذلك الزمن ليجعل للحيوان حقوقاً، ويجعل الإحسان إليه ديناً، ويتبع المسلمون هذا الهدي النبوي فتتابع الأوقاف في تاريخ المسلمين للإنفاق على الحيوانات والطيور لإطعامها والرفق بها، وكل ذلك قبل أن تعرف الحضارات كلها جمعيات للرفق بالحيوان.

---

(١) جمع الطواف وهو الخادمُ الَّذِي يَخْدُمُك برفْقٍ وعنَاية، وهنا شَبَّهها بالخَادمِ الَّذِي يَطُوف عَلَى مَولاهُ ويدورُ حَوله. ينظر: «النهاية» (٣/ ١٤٢).

(٢) «سنن أبي داود» (٧٥).

(٣) «صحيح البخاري» (٢٣٢٠)، و«صحيح مسلم» (١٥٥٢).

(٤) «صحيح البخاري» (٢٣٦٣)، و«صحيح مسلم» (٢٢٤٤).

خلاصات:

١- تجاوزت المعاملة النبوية، الرفق بالحيوان إلى الإحسان إليه، وترتيب الثواب العظيم على رحمته.

٢- أشار ﷺ إلى أن الروح والإحساس الذي جعله الله في الحيوان، يجعله محلاً للبر وتحصيل الأجر: «**فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطبَةٍ أَجرٌ**».

٣- جاء عنه ﷺ الوعيد الشديد في تعذيب الحيوان، مما يجعله من كبائر الذنوب.

٤- ورد عنه ﷺ الأمر بالرفق بالحيوان في معاملته، بل وعند ذبحه.

٥- جاء عنه النهي عن سب الحيوان ولعنه، مع أن الحيوان لا يدرك ذلك، وهذه رعاية بالغة لحق الحيوان.

٦- جاء عنه ﷺ الإحسان إلى الحيوان والترغيب فيه، وبيان الأجر العظيم المترتب على ذلك، وأن رحمة الحيوان من أسباب رحمة الله عَزَّوَجَلَّ.

٧- عندما جاء النبي ﷺ بهذه الشرائع لم تكن الدنيا تعرف حقوق الحيوان، بل لم تستكمل رعاية حقوق الإنسان، ليتضح للبشرية أن ما جاء به هذا النبي ﷺ ليس ثقافة بشرية، ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤].

الباب الثامن
خواتم الكتاب

الرسول ﷺ والموت

أخبر ﷺ أن للموت فزعًا وأمر بكثرة تذكره فقال: «**أَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ هَاذِمِ اللَّذَاتِ المَوْتِ**»[1]؛ لأن تذكر الموت والمصير إليه يجعل الدنيا في حجمها الطبيعي، ويقلل تشبث الإنسان بها، ومن تذكر الموت استعد له وأحسن استقباله وتلقّيه، فإن الموت انتقال من دار الفناء إلى دار البقاء، ومن دار العمل إلى دار الجزاء، قال أبو الدرداء: كفى بالموت واعظًا. ومن حضّه ﷺ على استحضار الموت أمره بزيارة المقابر فقال: «**قَدْ كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ القُبُورِ، فَقَدْ أُذِنَ لِمُحَمَّدٍ فِي زِيَارَةِ قَبْرِ أُمِّهِ، فَزُورُوهَا فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الآخِرَةَ**»[2]، وأول منازل الآخرة الموت.

وكل ميت فهو نذير للأحياء بعده أن هذا هو طريقهم الذي سيلقونه، ومصيرهم الذي ينتظرونه، وكان ﷺ إذا زار القبور قال: «**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ مِنَ المُؤْمِنِينَ وَالمُسْلِمِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُم لاحِقُون**»[3]، وقال عثمان: اعلم أن ملك الموت الذي وكل بك لم يزل يخلفك، ويتخطى إلى غيرك منذ أنت في الدنيا، وكأنه قد تخطى غيرك إليك وقصدك، فخذ حذرك واستعد له، ولا تغفل فإنه لا يغفل عنك[4].

(١) «مسند أحمد» (٧٩٢٥)، و «سنن الترمذي» (٢٣٠٧).
(٢) «جامع الترمذي» (١٠٥٤).
(٣) «صحيح مسلم» (٩٧٥)، و«السنن الكبرى» للنسائي (٢١٧٨).
(٤) «تاريخ دمشق» (٣٩/ ٢٣٨).

وفي الهدي النبوي في التعامل مع الموت معالم منها:

١- نهى ﷺ عن تمني الموت أو الدعاء به فقال: «**لا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ المَوْتَ مِن ضُرٍّ أصابَهُ، فإنْ كانَ لا بُدَّ فاعِلاً، فَلْيَقُلِ: اللهُمَّ أَحْيِنِي ما كانَتِ الحَياةُ خَيْراً لِي، وتَوَفَّنِي إذا كانَتِ الوَفاةُ خَيْراً لِي**»(١).

٢- وأمر باستقبال الموت بحمد الله فقال: «**إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يَقُولُ: إِنَّ عَبْدِي المُؤْمِنَ عِنْدِي بِمَنْزِلَةِ كُلِّ خَيْرٍ، يَحْمَدُنِي وَأَنَا أَنْزَعُ نَفْسَهُ مِنْ بَيْنِ جَنْبَيْهِ**»(٢).

وأن يحسن العبد ظنه بربه عند موته، قَالَ جابر: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ قَبْلَ مَوْتِهِ بِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، يَقُولُ: «**لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِالله عَزَّوَجَلَّ**»(٣).

٣- وأرشد من حضره الموت أن يكون آخر كلامه شهادة أن لا إله إلا الله، فقال: «**مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الجَنَّةَ**». وأمر من حضر محتضراً أن يلقنه إياها إذا لم يقلها فقال: «**لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»(٤).

٤- وكان إذا حضر الأموات تأثر لذلك ورقّ لحالهم وفاضت رحمته بهم عبرات تسيل على وجهه الكريم، فقد رفع إليه ابن بنته وَنَفْسُهُ تَقَعْقَعُ كأنها شَنٌّ(٥)، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، فَقَالَ له سَعْدٌ: يَا رَسُولَ الله، مَا هَذَا؟ فَقَالَ: «**هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ**»(٦).

---

(١) «صحيح البخاري» (٥٦٧١)، و«صحيح مسلم» (٢٦٨٠).
(٢) «مسند أحمد» (٨٤٩٢).
(٣) «صحيح مسلم» (٢٨٧٧).
(٤) «صحيح مسلم» (٩١٧).
(٥) شن: هي القربة القديمة اليابسة، يكون لها صوت إذا حُرِّكَت، شَبَّه حشرجة صدر الصبي المحتضر بصوت الشن عند تحريكه. ينظر: «النهاية» (٢/ ٥٠٦).
(٦) «صحيح البخاري» (١٢٨٤)، و«صحيح مسلم» (٩٢٣).

وعندما دخل على ابنه إبراهيم وهو في سياق الموت بكى وقال: «**يَا إبراهيمُ لَوْلَا أَنَّهُ أَمْرٌ حَقٌّ وَوَعْدٌ صِدْقٌ، وَسَبِيلٌ مَأْتِيَّةٌ، وَإِنَّ أُخْرَانَا ستلْحَقُ أُولَانَا لَحَزِنَّا عَلَيْكَ حُزْنًا أَشَدَّ مِنْ هَذَا، وَإِنَّا بِكَ لَمَحْزُونُونَ، تَبْكِي العَيْنُ، وَيَحْزَنُ القَلْبُ، وَلَا نَقُولُ مَا يُسْخِطُ الرَّبَّ**»[1].

وكان يشارك أصحابه فواجع الموت داعيًا للميت، ومواسيًا ومعزيًا للحي، وكانوا يخبرونه بمن حضره الموت من أصحابه فيحضره ويستغفر له وينتظر موته، قال أَبو سَعِيدٍ الخُدْرِيُّ: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ المدينة كُنَّا نُؤْذِنُهُ لِمَنْ حُضِرَ مِنْ مَوْتَانَا فَيَأْتِيهِ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ، فَيَحْضُرُهُ وَيَسْتَغْفِرُ لَهُ، وَيَنْتَظِرُ مَوْتَهُ، فَكَانَ ذَلِكَ رُبَّمَا حَبَسَهُ الحَبْسَ الطَّوِيلَ فَيَشُقُّ عَلَيْهِ، فَقُلْنَا أَرْفَقُ بِرَسُولِ الله أَنْ لَا نُؤْذِنَهُ بِالمَيِّتِ، حَتَّى يَمُوتَ، فَكُنَّا إِذَا مَاتَ مِنَّا المَيِّتُ، آذَنَّاهُ بِهِ، فَجَاءَ فِي أَهْلِهِ فَاسْتَغْفَرَ لَهُ، وَصَلَّى عَلَيْهِ، ثُمَّ إِنْ بَدَا لَهُ أَنْ يَشْهَدَهُ، انْتَظَرَ شُهُودَهُ، وَإِنْ بَدَا لَهُ أَنْ يَنْصَرِفَ انْصَرَفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ طَبَقَةً أُخْرَى، فَقُلْنَا: أَرْفَقُ بِرَسُولِ الله ﷺ أَنْ نَحْمِلَ مَوْتَانَا إِلَى بَيْتِهِ، وَلَا نُشْخِصَهُ، وَلَا نُعَنِّيَهُ، فَفَعَلْنَا ذَلِكَ فَكَانَ الأَمْرُ[2].

وحضر ﷺ أبا سلمة وقَدْ شَقَّ بَصَرُهُ، فَأَغْمَضَهُ، ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ الرُّوحَ إِذَا قُبِضَ تَبِعَهُ البَصَرُ**». فَضَجَّ نَاسٌ مِنْ أَهْلِهِ، فَقَالَ: «**لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ إِلَّا بِخَيْرٍ، فَإِنَّ المَلَائِكَةَ يُؤَمِّنُونَ عَلَى مَا تَقُولُونَ**». ثُمَّ قَالَ: «**اللهُمَّ اغْفِرْ لِأَبِي سَلَمَةَ وَارْفَعْ دَرَجَتَهُ فِي المَهْدِيِّينَ، وَاخْلُفْهُ فِي عَقِبِهِ فِي الغَابِرِينَ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلَهُ يَا رَبَّ العَالَمِينَ، وَافْسَحْ لَهُ فِي قَبْرِهِ، وَنَوِّرْ لَهُ فِيهِ**»[3].

٥- وأمر عند وقوع مصيبة الموت أن لا يقول أهل الميت إلا خيراً ولا يدعوا إلا بخير، فعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِذَا حَضَرْتُمْ المَرِيضَ أَوْ المَيِّتَ، فَقُولُوا خَيْراً فَإِنَّ المَلَائِكَةَ يُؤَمِّنُونَ عَلَى مَا تَقُولُونَ**»[4].

ودخل على عثمان بن مظعون يوم مات، فكشف عن وجهه وأكب عليه طويلاً يقبله، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَرَأَوْا فِي عَيْنَيْهِ أَثَرَ البُكَاءِ، ثُمَّ أَحْنَى عَلَيْهِ الثَّانِيَةَ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَرَأَوْهُ يَبْكِي، ثُمَّ أَحْنَى عَلَيْهِ الثَّالِثَةَ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَلَهُ شَهِيقٌ، فَعَرَفُوا أَنَّهُ قَدْ مَاتَ، فَبَكَى القَوْمُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

---

(١) «صحيح البخاري» (١٣٠٣)، و«صحيح مسلم» (٢٣١٥).

(٢) «مسند أحمد» (١١٦٢٨).

(٣) «صحيح البخاري» (٩٢٠).

(٤) «صحيح مسلم» (٩١٩).

«مَهْ؛ إِنَّمَا هَذَا مِنَ الشَّيْطَانِ، فَاسْتَغْفِرُوا اللهَ». ثُمَّ قَالَ: «أَذْهِبْ عَنْكَ أَبَا السَّائِبِ، فَلَقَدْ خَرَجْتَ وَلَمْ تَتَلَبَّسْ مِنْهَا بِشَيْءٍ»(١).

وأمر من أصيب بحبيب أو قريب أن يقول: اللهم أجرني في مصيبتي واخلفني خيراً منها، فعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ، فَلْيَقُلْ: إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، اللهُمَّ عِنْدَكَ أَحْتَسِبُ مُصِيبَتِي، فَأْجُرْنِي فِيهَا وَأَبْدِلْنِي بِهَا خَيْراً مِنْهَا». فَلَمَّا مَاتَ أَبُو سَلَمَةَ قُلْتُهَا، فَجَعَلْتُ كُلَّمَا بَلَغْتُ: وَأَبْدِلْنِي بِهَا خَيْراً مِنْهَا، قُلْتُ فِي نَفْسِي: وَمَنْ خَيْرٌ مِنْ أَبِي سَلَمَةَ؟ ثُمَّ قُلْتُهَا: فَلَمَّا انْقَضَتْ عِدَّتُهَا بَعَثَ إِلَيْهَا أَبُو بَكْرٍ يَخْطُبُهَا، فَلَمْ تَزَوَّجْهُ، فَبَعَثَ إِلَيْهَا رَسُولُ الله ﷺ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ يَخْطُبُهَا عَلَيْهِ، فَقَالَتْ: أَخْبِرْ رَسُولَ الله ﷺ أَنِّي امْرَأَةٌ غَيْرَى، وَأَنِّي امْرَأَةٌ مُصْبِيَةٌ(٢)، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَوْلِيَائِي شَاهِداً. فَأَتَى رَسُولَ الله ﷺ، فَذَكَرَ لَهُ ذَلِكَ فَقَالَ: «ارْجِعْ إِلَيْهَا، فَقُلْ لَهَا: أَمَّا قَوْلُكِ: إِنِّي امْرَأَةٌ غَيْرَى، فَسَأَدْعُو اللهَ عَزَّوَجَلَّ فَيُذْهِبُ غَيْرَتَكِ، وَأَمَّا قَوْلُكِ: إِنِّي امْرَأَةٌ مُصْبِيَةٌ فَسَتُكْفَيْنَ صِبْيَانَكِ، وَأَمَّا قَوْلُكِ: إِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَوْلِيَائِكِ شَاهِداً، فَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَوْلِيَائِكِ شَاهِدٌ وَلَا غَائِبٌ يَكْرَهُ ذَلِكَ»(٣).

٦- وكان يأمر بمواساة أهل الميت وصنع الطعام لهم، فعندما أتاه نعي جعفر بن أبي طالب قال: «اصْنَعُوا لِآلِ جَعْفَرٍ طَعَامًا، فَإِنَّهُ قَدْ جَاءَهُمْ مَا يَشْغَلُهُمْ»(٤)، فإن المحزون في حال ذهولٍ عن إعداد الطعام، فمن مواساته إعداد الطعام لأهله من أقاربه أو أصدقائه أو جيرانه.

٧- وأذن بالبكاء على الميت ونهى عن النياحة ورفع الصوت وشق الجيوب، فقال: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَطَمَ الخُدُودَ، وَشَقَّ الجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ»(٥)، لما في ذلك من التسخّط وعدم الرضا بما قضاه الله وقدره.

---

(١) «مسند أحمد» (٢٤١٦٥)، و«المعجم الكبير» للطبراني (١٠٨٢٦).

(٢) أَيْ ذاتُ صِبْيَانٍ وأيْتام. ينظر: «النهاية» (٣/ ١١).

(٣) «مسند أحمد» (٢٦٦٩٧).

(٤) «سنن أبي داود» (٣١٣٢)، و«جامع الترمذي» (١٠١٩)، و«سنن ابن ماجه» (١٦١٠).

(٥) «صحيح البخاري» (١٢٩٤)، و«صحيح مسلم» (١٠٣).

وأخبر أن الحزن عند الفقد شعور فطري لا يؤاخذ عليه فقال: «**إِنَّ اللهَ لَا يُعَذِّبُ بِدَمْعِ العَيْنِ، وَلَا بِحُزْنِ القَلْبِ، وَلَكِنْ يُعَذِّبُ بِهَذَا** -وَأَشَارَ إِلَى لِسَانِهِ- **أَوْ يَرْحَمُ**»[(١)]، ولكنه نهى عن استدامة الأحزان وإطالة مظاهرها فقال: «**لَا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ، أَنْ تُحِدَّ عَلَى مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلَاثٍ، إِلَّا عَلَى زَوْجٍ، فَإِنَّهَا تُحِدُّ عَلَيْهِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً**»[(٢)].

٨- وكان إذا مرت به جنازة قام لها حتى تغيب عنه، ومَرَّتْ بِهِ جِنَازَةٌ فَقَامَ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهَا جِنَازَةُ يَهُودِيٍّ، فَقَالَ: «**أَلَيْسَتْ نَفْساً؟**»[(٣)]. فقَامَ ﷺ وَأَصْحَابُهُ حَتَّى تَوَارَتْ[(٤)]. وقال جابر بن عبد الله: مَرَّتْ جَنَازَةٌ، فَقَامَ لَهَا رَسُولُ الله ﷺ، وَقُمْنَا مَعَهُ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ الله، إِنَّهَا يَهُودِيَّةٌ، فَقَالَ: «**إِنَّ المَوْتَ فَزَعٌ، فَإِذَا رَأَيْتُمُ الجَنَازَةَ فَقُومُوا**»[(٥)].

٩- وكان يصلي على أصحابه ويخلص الدعاء لهم، قال عوف بن مالك: صَلَّى رَسُولُ الله ﷺ عَلَى جَنَازَةٍ، فَحَفِظْتُ مِنْ دُعَائِهِ وَهُوَ يَقُولُ: «**اللهُمَّ اغْفِرْ لَهُ وَارْحَمْهُ وَعَافِهِ وَاعْفُ عَنْهُ، وَأَكْرِمْ نُزُلَهُ، وَوَسِّعْ مُدْخَلَهُ، وَاغْسِلْهُ بِالمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالبَرَدِ، وَنَقِّهِ مِنَ الخَطَايَا كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الأَبْيَضَ مِنَ الدَّنَسِ، وَأَبْدِلْهُ دَاراً خَيْراً مِنْ دَارِهِ، وَأَهْلاً خَيْراً مِنْ أَهْلِهِ وَزَوْجاً خَيْراً مِنْ زَوْجِهِ، وَأَدْخِلْهُ الجَنَّةَ وَأَعِذْهُ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ**»، أَوْ: «**مِنْ عَذَابِ النَّارِ**». قَالَ: حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنْ أَكُونَ أَنَا ذَلِكَ المَيِّتَ[(٦)].

وعَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الأَسْقَعِ قَالَ: صَلَّى رَسُولُ الله ﷺ عَلَى رَجُلٍ مِنَ المُسْلِمِينَ، فَأَسْمَعُهُ يَقُولُ: «**اللهُمَّ إِنَّ فُلَانَ بْنَ فُلَانٍ فِي ذِمَّتِكَ، وَحَبْلِ جِوَارِكَ، فَقِهِ مِنْ فِتْنَةِ القَبْرِ، وَعَذَابِ النَّارِ، وَأَنْتَ أَهْلُ الوَفَاءِ وَالحَقِّ، فَاغْفِرْ لَهُ وَارْحَمْهُ، إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ**»[(٧)]. وكان يقول: «**إِذَا صَلَّيْتُمْ عَلَى المَيِّتِ فَأَخْلِصُوا لَهُ الدُّعَاءَ**»[(٨)].

---

(١) «صحيح البخاري» (١٣٠٤)، و«صحيح مسلم» (٩٢٤).
(٢) «صحيح البخاري» (١٢٨٠)، و«صحيح مسلم» (١٤٨٦).
(٣) «صحيح البخاري» (١٣١٢)، و«صحيح مسلم» (٩٦١).
(٤) «صحيح مسلم» (٩٦١).
(٥) «صحيح البخاري» (١٣١١)، و«صحيح مسلم» (٩٦٠).
(٦) «صحيح مسلم» (٩٦٣).
(٧) «سنن أبي داود» (٣٢٠٢).
(٨) «سنن أبي داود» (٣١٩٩).

وكان يحرص أن يصلي على من مات من أصحابه ويقول: «**لَا يَمُوتَنَّ فِيكُمْ مَيِّتٌ مَا كُنْتُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ إِلَّا آذَنْتُمُونِي بِهِ، فَإِنَّ صَلَاتِي عَلَيْهِ لَهُ رَحْمَةٌ**»(١)، وإذا دفن أحد ولم يعلم به ذهب إلى قبره فصلى عليه، فقد اشْتَكَتِ امْرَأَةٌ بِالعَوالِي مِسْكِينَةٌ، وكان ﷺ يعود المساكين ويسأل عنهم، فَكَانَ يَسْأَلُهُمْ عَنْهَا، وَقَالَ: «**إِنْ مَاتَتْ فَلَا تَدْفِنُوهَا حَتَّى أُصَلِّيَ عَلَيْهَا**». فَتُوُفِّيَتْ، فَجَاؤوا بِهَا إِلَى المَدِينَةِ بَعْدَ العَشاء، فَوَجَدُوا رَسُولَ الله ﷺ قَدْ نَامَ، فَكَرِهُوا أَنْ يُوقِظُوهُ، فَصَلَّوْا عَلَيْهَا وَدَفَنُوهَا بِبَقِيعِ الغَرْقَدِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ رَسُولُ الله ﷺ جَاؤوا فَسَأَلَهُمْ عَنْهَا، فَقَالُوا: قَدْ دُفِنَتْ يَا رَسُولَ الله، وَقَدْ جِئْنَاكَ فَوَجَدْنَاكَ نَائِمًا فَكَرِهْنَا أَنْ نُوقِظَكَ، قَالَ: «**فَانْطَلِقُوا**». فَانْطَلَقَ يَمْشِي وَمَشَوْا مَعَهُ حَتَّى أَرَوْهُ قَبْرَهَا، فَقَامَ رَسُولُ الله ﷺ، وَصَفُّوا وَرَاءَهُ، فَصَلَّى عَلَيْهَا وَكَبَّرَ أَرْبَعًا(٢).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ امْرَأَةً سَوْدَاءَ كَانَتْ تَقُمُّ(٣) المَسْجِدَ فَفَقَدَهَا رَسُولُ الله ﷺ، فَسَأَلَ عَنْهَا فَقَالُوا: مَاتَت، قَالَ: «**أَفَلَا كُنْتُمْ آذَنْتُمُونِي؟!**». قَالَ: فَكَأَنَّهُمْ صَغَّرُوا أَمْرَهَا، فَقَالَ: «**دُلُّونِي عَلَى قَبْرِهَا**». فَدَلُّوهُ، فَصَلَّى عَلَيْهَا، ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ هَذِهِ القُبُورَ مَمْلُوءَةٌ ظُلْمَةً عَلَى أَهْلِهَا، وَإِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يُنَوِّرُهَا لَهُمْ بِصَلَاتِي عَلَيْهِمْ**»(٤).

١٠- وكان يصحب الجنازة وينتظرها حتى تدفن، قال البراء: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي جَنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ، فَانْتَهَيْنَا إِلَى القَبْرِ وَلَمَّا يُلْحَدْ، فَجَلَسَ رَسُولُ الله ﷺ وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ كَأَنَّمَا عَلَى رُؤُوسِنَا الطَّيْرُ، وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ بِهِ فِي الأَرْضِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: «**اسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ**». مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، ثم ذكر حديث القبر الطويل(٥).

وكان إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال: «**اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ وَسَلُوا لَهُ التَّثْبِيتَ؛ فَإِنَّهُ الآنَ يُسْأَلُ**»(٦).

---

(١) «السنن الكبرى» للنسائي (٢٠٢٢).

(٢) «سنن ابن ماجه» (١٥٢٩).

(٣) أَيْ تَجْمَعُ الْقُمَامَةَ وَهِيَ الْكُنَاسَةُ. ينظر: «فتح الباري» (١/ ٥٥٣).

(٤) «صحيح مسلم» (٩٥٦).

(٥) «سنن أبي داود» (٤٧٥٣).

(٦) «سنن أبي داود» (٣٢٢١).

١١- وكان يزور الأموات في قبورهم ويدعو لهم، فعَنْ عَائِشَةَ، أَنَّهَا قَالَتْ: كُلَّمَا كَانَ لَيْلَتُهَا مِنْ رَسُولِ الله ﷺ يَخْرُجُ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ إِلَى البَقِيعِ، فَيَقُولُ: «**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَأَتَاكُمْ مَا تُوعَدُونَ غَداً مُؤَجَّلُونَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ، اللهُمَّ اغْفِرْ لِأَهْلِ بَقِيعِ الغَرْقَدِ**»[1].

خلاصات:

١- أمر ﷺ بتذكر الموت، وزيارة القبور لتذكر النقلة إليها.

٢- نهى ﷺ عن تمني الموت، وأمر باستقباله بحسن الظن بالله.

٣- أرشد من حضره الموت أن يكون آخر كلامه: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»، وأمر من حضره أن يلقنه إياها.

٤- كان ﷺ يبكي عند موت من يموت ويقول: «**إِنَّها رَحْمَةٌ**».

٥- أمر ألا يقول أهل الميت عند موته إلا خيراً فإن الملائكة يؤمنون على ما يقولون، وأرشد إلى ما يقول من أصيب بمصيبة.

٦- كان يأمر بمواساة أهل الميت وصنع الطعام لهم.

٧- أذن بالبكاء ونهى عن النياحة، وأذن بالحزن ونهى عن استدامته بالإحداد فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً.

٨- كان يشارك أصحابه فواجع الموت فيدعو للميت ويعزي الحي ويواسيه.

٩- كان يقوم للجنازة إذا مرت به، وإن كانت لغير مسلم، ويقول: «**أَلَيْسَتْ نَفْساً؟**».

١٠- كان يصلي على من مات من أصحابه، ويأمرهم أن يؤذنوه بمن مات حتى يصلي عليه، ويتبع الجنائز إلى المقابر حتى تدفن.

١١- كان يزور الأموات في قبورهم، ويدعو لهم.

---

(١) «صحيح مسلم» (٩٧٤).

إلى الرفيق الأعلى

سبق لقاء النبي ﷺ بالموت التهيئةُ من ربه لذلك، فتنزَّلت آيات القرآن تهيئ الأمة لهذا الحدث الضخم والمصاب العظيم، وتهيئ النبي ﷺ لهذا الترقِّي إلى الرفيق الأعلى، فأنزل الله بعد معركة أُحد: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وذلك ليكون موته مما ينتظر في حياة أصحابه.

ثم أنزل الله على رسوله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ١-٣]، قال ابن عباس: هُوَ أَجَلُ رَسُولِ الله ﷺ أَعْلَمَهُ اللهُ لَهُ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾، فَتْحُ مَكَّةَ فَذَاكَ عَلَامَةُ أَجَلِكَ: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ٣][(١)]

وقالت عائشة: مَا صَلَّى النَّبِيُّ ﷺ صَلَاةً بَعْدَ أَنْ نَزَلَتْ عَلَيْهِ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ إِلَّا يَقُولُ فِيهَا: «**سُبْحَانَكَ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللهُمَّ اغْفِرْ لِي**»[(٢)].

وفي شهر رمضان من سنة عشر دارسه جبرائيل القرآن مرتين، وكان يدارسه قبل ذلك في كل سنة مرة فعلم أن ذلك لقرب أجله، لأنه إشارة إلى أن القرآن قد اكتمل نزوله، وأن مهمة النبي ﷺ في البلاغ قد انتهت، وأن عليه أن يتهيَّأ للحاق بالرفيق الأعلى والمحل الأسنى.

(١) «صحيح البخاري» (٤٢٩٤).

(٢) «صحيح البخاري» (٨١٧)، و«صحيح مسلم» (٤٨٤).

فلما حجَّ حجة الوداع ودَّع الناس وقال: «**خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ، لَعَلِّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا**»[(١)].

وقال: «**إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبَ**»[(٢)].

ولما مرض مرضه الأخير أسرَّ إلى ابنته فاطمة أن أجله قد اقترب، وأنه مقبوض في وجعه ذلك[(٣)].

ابتدأ رسول الله ﷺ بشكواه، الذي قبضه الله فيه، في أواخر ليالي شهر صفر، وكانت مدة مرضه ﷺ ثلاثةَ عشر يوما، وهو قول الأكثر، وقيل غير ذلك[(٤)].

وكان رسول الله ﷺ في مدة مرضه يصلي بالناس إلى أن ثقل به المرض جدّاً فانقطع عن الصلاة في المسجد، وأمر أبا بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يصلي بالناس.

وكان أول ما بُدِئ به رسول الله ﷺ من وجعه الصداع الشديد في رأسه الشريف، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: رَجَعَ إِلَيَّ رَسُولُ الله ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ مِنْ جَنَازَةٍ بِالبَقِيعِ، وَأَنَا أَجِدُ صُدَاعًا فِي رَأْسِي، وَأَنَا أَقُولُ: وَارَأْسَاهْ قَالَ: «**بَلْ أَنَا وَارَأْسَاهْ**». ثم قَالَ: «**مَا ضَرَّكِ لَوْ مِتِّ قَبْلِي، فَغَسَّلْتُكِ وَكَفَّنْتُكِ، ثُمَّ صَلَّيْتُ عَلَيْكِ، وَدَفَنْتُكِ؟**». قُلْتُ: لَكِنِّي أَوْ لَكَأَنِّي بِكَ، وَالله لَوْ فَعَلْتَ ذَلِكَ لَقَدْ رَجَعْتَ إِلَى بَيْتِي فَأَعْرَسْتَ فِيهِ بِبَعْضِ نِسَائِكَ، قَالَتْ: فَتَبَسَّمَ رَسُولُ الله ﷺ، ثُمَّ بُدِئَ فِي وَجَعِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ[(٥)].

ثم اشتد عليه المرض في بيت ميمونة فاستأذن أزواجه أن يمرّض في بيت عائشة فما عاد به قدرة على التنقل بينهن، وكان يحب أن يطبب في بيت عائشة فأذنَّ له فخرج معصوب الرأس بين الفضل بن العباس وعلي بن أبي طالب تخط قدماه في الأرض حتى انتهى إلى بيت عائشة[(٦)].

---

(١) «السنن الكبرى» للنسائي (٣٠٦٢).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٤٠٨).

(٣) «صحيح البخاري» (٣٦٢٣)، و«صحيح مسلم» (٢٤٥٠).

(٤) ينظر: «فتح الباري» (٨/ ٤٧٣).

(٥) «مسند أحمد» (٢٥٩٠٨)، و «سنن ابن ماجه» (١٤٦٥).

(٦) «صحيح مسلم» (٤١٨).

واشتدّ برسول الله ﷺ وجعه[1] وكانت آخر صلاةٍ صلاها بالناس صلاة المغرب، ثم اشتدّ عليه الوجع، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ثقل برسول الله وجعه فقال: «**أَصَلَّى النَّاسُ؟**». قُلْنَا: لَا، هُمْ يَنْتَظِرُونَكَ، قَالَ: «**ضَعُوا لِي مَاءً فِي المِخْضَبِ**». ففَعَلْنَا، فَاغْتَسَلَ، فَذَهَبَ لِيَنُوءَ[2] فَأُغْمِيَ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَفَاقَ، فَقَالَ ﷺ: «**أَصَلَّى النَّاسُ؟**». قُلْنَا: لَا، هُمْ يَنْتَظِرُونَكَ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «**ضَعُوا لِي مَاءً فِي المِخْضَبِ**». فَقَعَدَ فَاغْتَسَلَ، ثُمَّ ذَهَبَ لِيَنُوءَ فَأُغْمِيَ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَفَاقَ، فَقَالَ: «**أَصَلَّى النَّاسُ؟**». قُلْنَا: لَا، هُمْ يَنْتَظِرُونَكَ يَا رَسُولَ الله، فَقَالَ: «**ضَعُوا لِي مَاءً فِي المِخْضَبِ**». فَقَعَدَ، فَاغْتَسَلَ، ثُمَّ ذَهَبَ لِيَنُوءَ فَأُغْمِيَ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ: «**أَصَلَّى النَّاسُ؟**». فَقُلْنَا: لَا، هُمْ يَنْتَظِرُونَكَ يَا رَسُولَ الله، وَالنَّاسُ عُكُوفٌ فِي المَسْجِدِ يَنْتَظِرُونَ النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِصَلَاةِ العِشَاءِ الآخِرَةِ، فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى أَبِي بَكْرٍ بِأَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ، فَأَتَاهُ الرَّسُولُ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ يَأْمُرُكَ أَنْ تُصَلِّيَ بِالنَّاسِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ -وَكَانَ رَجُلاً رَقِيقًا-: يَا عُمَرُ صَلِّ بِالنَّاسِ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: أَنْتَ أَحَقُّ بِذَلِكَ، فَصَلَّى أَبُو بَكْرٍ تِلْكَ الأَيَّامَ، ثُمَّ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَجَدَ مِنْ نَفْسِهِ خِفَّةً، فَخَرَجَ بَيْنَ رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا العَبَّاسُ لِصَلَاةِ الظُّهْرِ وَأَبُو بَكْرٍ يُصَلِّي بِالنَّاسِ، فَلَمَّا رَآهُ أَبُو بَكْرٍ ذَهَبَ لِيَتَأَخَّرَ، فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ بِأَنْ لَا يَتَأَخَّرَ، قَالَ: أَجْلِسَانِي إِلَى جَنْبِهِ، فَأَجْلَسَاهُ إِلَى جَنْبِ أَبِي بَكْرٍ، قَالَ: فَجَعَلَ أَبُو بَكْرٍ يُصَلِّي وَهُوَ يَأْتَمُّ بِصَلَاةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَالنَّاسُ بِصَلَاةِ أَبِي بَكْرٍ، وَالنَّبِيُّ ﷺ قَاعِدٌ[3].

ثم خرج ﷺ إلى الناس في شدة مرضه متوكئًا على الفضل بن العباس عاصبًا رأسه بعصابة دسماء، وعليه ملحفة متعطفًا بها على منكبيه، فصعد المنبر ولم يصعده بعد ذلك اليوم، ثم جلس والناس مجتمعون حوله، فحمد الله وأثنى عليه واستغفر للشهداء الذين قتلوا في أُحد ثم قال: «**إِنَّ عَبْداً خَيَّرَهُ اللهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا مَا شَاءَ، وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ،**

---

(١) الذي يظهر -والله أعلم- أن المرض بدأ بالنبي ﷺ قبل ذلك ولكن لم يكن بالشديد ولا المتواصل، وأن مرضه كان حمى الملاريا، ولعله أصابته عند نزوله في غدير خم في رجوعه من حجة الوداع، وكان مكانًا وخمًا موبوءاً، وأن حمى الملاريا تضاعف تأثيرها مع أثر سم الزرنيخ الذي كان في الشاة المسمومة التي أكل منها في خيبر، وهذه توقعات تستشف ولا يجزم بها ولا يترتب عليها أثر. وينظر كتاب: «طبيب عبر الزمن»، د. منصور الجابري.

(٢) لينوء: لينهض بجهد. ينظر: «فتح الباري» (٢/ ٢٠٥).

(٣) «صحيح البخاري» (٦٨٧)، و«صحيح مسلم» (٤١٨).

فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ». فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ وَقَالَ: فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا، فعجب الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وقالوا: ما يبكي هَذَا الشَّيْخ إن يكن الله خَيَّر عبداً بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فاختار ما عنده؟! قال أبو سعيد: فَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ هُوَ المُخَيَّر، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ هُوَ أَعْلَمَنَا بِهِ، وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ مِنْ أَمَنِّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبَا بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً خَلِيلاً مِنْ أُمَّتِي لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، إِلَّا خُلَّةَ الإِسْلَامِ، لَا يَبْقَيَنَّ فِي المَسْجِدِ خَوْخَةٌ إِلَّا خَوْخَةُ أَبِي بَكْرٍ**»[1].

وعهد إليهم في الأنصار فقال: «**أُوصِيكُمْ بِالأَنْصَارِ، فَإِنَّهُمْ كَرِشِي وَعَيْبَتِي**[2]، **وَقَدْ قَضَوُا الَّذِي عَلَيْهِمْ، وَبَقِيَ الَّذِي لَهُمْ، فَاقْبَلُوا مِنْ مُحْسِنِهِمْ، وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ**»[3]، ثم نزل عن المنبر فكانت آخر مرة رأوه عليه.

وكانت آخر نظرةٍ نظرها الصحابة إلى رسول الله ﷺ يوم أشرق عليهم وجهه الكريم المبارك في يوم الاثنين، بعد أن غاب عنهم خمسة أيام، خيم عليهم فيها الوجوم والحزن؛ لغياب رسول الله ﷺ عن محرابه الذي طالما وقف فيه، فقد فقدوا تكبيره وقرآنه، وإشراق محيَّاه أياماً، وكان الشيخ المبارك أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يصلي بهم صلاة الفجر، وهو الأسيف الذي يُقَطِّع القرآن ببكائه، فما فجأهم إلا سترُ حجرته يُرفع، وإذا هو ﷺ قائم بالباب ينظر إليهم يضحك، وهو يراهم وقوفا كما علَّمهم، خشوعاً كما أدَّبهم، فطفح السرور على وجهه الكريم، فما رأى الصحابة منظراً أعجب إليهم من وجه رسول الله ﷺ وهو ينظر إليهم يضحك، كأن وجهه ورقة مصحف؛ حتى كادوا أن يفتتنوا في صلاتهم، واضطربت الصفوف، فقد ظنوا أنه خرج إليهم ليُصلي بهم، وإذا به يُشير إليهم أن أتموا صلاتكم، ثم أرخى ستر حجرته، فكانت هذه آخر نظرة نظرها إليهم، وآخر نظرة نظروها إليه[4].

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٦٧)، و«صحيح مسلم» (٢٣٨٢). والخوخة: باب صغير كالنافذة الكبيرة، وتكون بين بيتين ينصب عليها باب. ينظر: «النهاية» (٢/ ٨٦).

(٢) كَرِشِي وَعَيْبَتِي: أراد أنهم بطانته وموضع سره وأمانته، والذين يعتمد عليهم في أموره، واستعار الكرش والعيبة لذلك؛ لأن المجتر يجمع علفه في كرشه، والرجل يضع ثيابه في عيبته. ينظر: «النهاية» (٤/ ١٦٣).

(٣) «صحيح البخاري» (٣٧٩٩) و«صحيح مسلم» (٢٥١٠).

(٤) «صحيح البخاري» (٦٨٠)، و«صحيح مسلم» (٤١٩).

فلما تعالى النهار إذا بالنبي ﷺ يُودِّع الدنيا ويذرف آخر أنفاس الحياة، ويختار اللحاق بالرفيق الأعلى والمحل الأسنى، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: وكان بَيْنَ يَدَيْهِ رَكْوَةٌ[1] أَوْ عُلْبَةٌ فِيهَا مَاءٌ، فَجَعَلَ يُدْخِلُ يَدَيْهِ فِي المَاءِ فَيَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ، يَقُولُ: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ، اللهُمَّ أَعِنِي عَلَى سَكَرَاتِ المَوتِ**»[2]، ومع شدائد الموت وكربه فإنه ما ذهل عن أمته ودعوته، فأنفق آخر أنفاس الحياة، وآخر لحظات العمر وصاة لأمته، فعندما نزل به الموت طفق يطرح خميصة له على وجهه فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه، فقال وهو كذلك: «**لَعْنَةُ الله علَى اليَهُودِ والنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»[3]. قالت: يُحَذِّرُ ما صَنَعُوا. وجعل ﷺ وهو في سكرات الموت يقول: «**الصَّلَاةَ الصَّلَاةَ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ**». فَجَعَلَ يَتَكَلَّمُ بِهَا، وَمَا يَكَادُ يَفِيضُ بِهَا لِسَانُهُ[4].

قالت عائشة: وكان رسول الله وهو صحيح يقول: «**إِنَّهُ لَمْ يُقْبَضْ نَبِيٌّ قَطُّ حَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الجَنَّةِ، ثُم يُخَيَّرَ**». فَلَمَّا اشْتَكَى وَحَضَرَهُ القَبْضُ وَرَأْسُهُ عَلَى فَخِذِي غُشِيَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا أَفَاقَ شَخَصَ بَصَرُهُ نَحْوَ سَقْفِ البَيْتِ، ثُمَّ قَالَ: «**اللهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى**». فَقُلْتُ: إذن لَا يُجَاوِرُنَا، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ حَدِيثُهُ الَّذِي كَانَ يُحَدِّثُنَا وَهُوَ صَحِيحٌ[5]. ثُمَّ نَصَبَ يَدَهُ، فَجَعَلَ يَقُولُ: «**فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى**». وَمَالَتْ يَدُهُ[6].

وكان آخر ما تكلم به: «**اللهُمَّ اغْفِرْ لِي وَاجْعَلْنِي مَعَ الرَّفِيقِ الأَعْلَى**». قَالَتْ: فَذَهَبْتُ أَنْظُرُ، فَإِذَا هُوَ قَدْ قَضَى[7]. وتوفي ﷺ وهو بين يدي عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، مستنداً إلى صدرها.

---

(١) الركوة: إنَاءٌ صَغيرٌ مِن جلْدٍ يُشْرَبُ فِيهِ الماءُ، يشبه الدلو الصغير. ينظر: «تاج العروس» (٣٨/ ١٧٨).
(٢) «سنن ابن ماجه» (١٦٢٣).
(٣) «صحيح البخاري» (١٣٩٠)، و«صحيح مسلم» (٥٢٩).
(٤) «صحيح البخاري» (٣٤٥٣)، و«صحيح مسلم» (٥٢٩).
(٥) «صحيح البخاري» (٤٤٣٧)، و«صحيح مسلم» (٢٤٤٤).
(٦) «صحيح البخاري» (٤٤٤٩).
(٧) «صحيح مسلم» (٢١٩١).

قَالَتْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: قُبِضَ رَسُولُ الله ﷺ وَرَأْسُهُ بَيْنَ سَحْرِي[1] وَنَحْرِي، فَلَمَّا خَرَجَتْ نَفْسُهُ، لَمْ أَجِدْ رِيحًا قَطُّ أَطْيَبَ مِنْهَا[2].

وفاضت أطهر روح في الدنيا من جسدها، وصعدت إلى بارئها راضية مرضية، وخرج أكرم إنسان على الله تعالى في هذا الوجود من الدنيا كما جاء إليها، ولم يترك مالاً ولا متاعًا، ولا ولداً إلا فاطمة عَلَيْهَا السَّلَامُ، وإنما ترك هداية وإيمانًا، وشريعة عامة خالدة، وميراثًا نورانيًا عظيمًا[3].

وكان من حكمة الله وصُنعه لنبيه أن يموت في سنٍّ مبكرة نسبيًا، فمات ﷺ وهو مستجمع قوته ونشاطه ويقظته الذهنية، ولم يتمادَّ به العمر إلى مرحلة الوهن الشديد، ولم يدرك حالات العجز أو الحرج، وقد كان مما يستعيذ بالله منه أن يرد إلى أرذل العمر[4].

وبوفاته ﷺ انقطع الوحي من السماء، وأظلم من المدينة كل شيء، وكانت المصيبة به أعظم المصائب على الأمة كما قال ﷺ: «**فَإِنَّ أَحَداً مِنْ أُمَّتِي لَنْ يُصَابَ بِمُصِيبَةٍ بَعْدِي أَشَدَّ عَلَيْهِ مِنْ مُصِيبَتِي**»[5].

فهو الذي لم يوجد مثله يوم وُجد، ولن يُفقد مثله يوم فُقد:

وما فقد الماضون مثل محمد ... ولا مثله حتى القيامة يفقد[6]

ذهب الرسول وبقيت الرسالة، وتوفي الداعي وبقيت الدعوة، ومات النبي وبقيت الأمة.

توفي ﷺ بعد أن أكمل الله به الدين، وأتم النعمة، ورضي الإسلام دينًا، ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

---

(١) السحر: موضع الرئة، ويراد به هنا الصدر. ينظر: «عمدة القاري» (١٨/ ٧٠).

(٢) «مسند أحمد» (٢٤٩٠٥)، و«صحيح البخاري» (١٣٨٩)، و«صحيح مسلم» (٢٤٤٣).

(٣) باختصار من «السيرة النبوية الصحيحة في ضوء القرآن والسنة» (٢/ ٥٩٤) د. محمد أبي شهبة رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٤) «صحيح البخاري» (٦٣٩٠).

(٥) «سنن ابن ماجه» (١٥٩٩).

(٦) من شعر حسان بن ثابت. «سيرة ابن هشام» (٢/ ٦٦٨).

توفي ﷺ بعد أن بلَّغ الرسالة، وأدى الأمانة، وترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

يـا خـيـر مـن دُفـنـت بـالـقـاع أعـظـمـه ... فـطـاب مـن طـيـبـهـن الـقـاع والأكـمُ

نـفـسـي الـفـداء لـقـبـر أنـت ساكـنـه ... فـيـه الـعـفـاف وفـيـه الـجـود والـكـرمُ

أنـت الـشـفـيـع الـذي تـرجـى شفاعته ... عـنـد الـصـراط إذا مـا زلـت الـقـدم[1]

خلاصات:

١- سبقت وفاة النبي ﷺ إرهاصات التهيئة لهذه النقلة، ومنها: سورة النصر، ومدارسة جبرائيل القرآن مرتين في آخر رمضان، وتوديعه ﷺ الناس في حجة الوداع.

٢- خرج إلى الناس في مرضه الذي توفي فيه فألمح إلى وفاته، وأوصاهم وعهد إليهم.

٣- كانت آخر نظرة نظرها الصحابة إلى رسول الله ﷺ يوم وفاته حين كشف الستر ينظر إليهم في صلاة الفجر ضاحكا كأن وجهه ورقة مصحف.

٤- أنفق ﷺ آخر أنفاسه وصاة لأمته، يحذرها من أسباب الغلو، ويعهد إليها بالصلاة وما ملكت أيمانهم.

٥- ذهب الرسول وبقيت الرسالة، وتوفي الداعي وبقيت الدعوة، ومات النبي وبقيت الأمة.

(١) «الأذكار» للنووي (ص٢٠٦).

عالم الرسول الرحيب[1]

يتسع عالم الإنسان الذي يعيش فيه أو يضيق بحسب سعة علمه وضيقه، وييسر الله تعالى له أسباباً للعلم وكلما توفر له منها قدر أكبر كان علمه أكثر.

وأعظم العلم وأشرفه وحي الله تعالى، الذي يعلمه الأنبياء علماً مباشراً أو بوساطة ملائكته، ويَعْلَمُه سائر الناس بتبليغ الأنبياء.

ولما كان رُسُل الله أحب خلق الله إلى الله، فلا جرم آتاهم من العلم بنفسه تعالى وبخلقه ما لم يؤت غيرهم، وآتاهم من أسباب العلم ووسائله ما لم يؤت أحداً من سائر خلقه. ومحمد ﷺ هو أحب رسل الله إلى الله، فلا جرم كان أعلمهم به وبخلقه، ولا جرم كان عالمه الذي يعيش فيه أرحب عالم، وآفاقه الكونية الواسعة أرحب من مدركات البشر، ورؤيته للعالم تتجاوز هذا العالم المرئي، ونظره إلى الماضي والمستقبل مشاهدةٌ تُرفَعُ فيها حجب الزمن وأستار الغيب.

وإذا كان الله يرفع الولي إذا أحبه إلى منزلة عالية ليست لغيره من البشر؛ «**فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ المَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ**»[2].

(١) أصل المقال مذاكرة مع شيخي جعفر شيخ إدريس، وما كتبته هو صياغة لفكرته، وهذه مقدمة مختصرة من مقدمته لمقالة: «عالم النبوة الرحيب».

(٢) «صحيح البخاري» (٦٥٠٢).

فكيف بمنزلة الرسل وهم أفضل الخلق وأكرمهم؟ فكيف بسيدهم وأفضلهم وأحبهم إلى الله؟ وأقرب الخلق إليه من كل ملائكته ورسله، ومن له الوسيلة والفضيلة، والدرجة العالية الرفيعة، والمقام المحمود؟

وقد كان ﷺ يعيش في عالمٍ أرحب من كل عالم بشري، ويسَّر الله لنبيه من وسائل العلم ومصادره ما لم ييسره لأحدٍ غيره، وكانت المصادر الأساسية التي تلقَّى عن طريقها معارفه هي:

أولاً: فطرته السليمة وفؤاده الخير العاقل؛ ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم: ١١] وقال ابن مسعود: إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه وابتعثه برسالته[(١)].

ثانيًا: القرآن الذي أوحاه الله إليه، والسنة التي آتاه إياها؛ ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

ثالثًا: حواسه المتميزة، وملاحظته الدقيقة، وما وهبه الله من مواهب جعلت هذه العلوم تؤتي ثمارها إلى أقصى غاية، ويوضح ذلك حديثه عن الجهنميين الذين يخرجهم الله من النار، قال: «**يُخْرِجُهم مِنْهَا وهم لَمْ يَعْمَلُوا خَيْراً قَطُّ قَدْ عَادُوا حُمَمًا، فَيُلْقِيهِمْ فِي نَهَرٍ فِي أَفْوَاهِ الجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ: نَهَرُ الحَيَاةِ، فَيَخْرُجُونَ كَمَا تَخْرُجُ الحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ، أَلَا تَرَوْنَهَا تَكُونُ إِلَى الحَجَرِ، أَوْ إِلَى الشَّجَرِ، مَا يَكُونُ إِلَى الشَّمْسِ أُصَيْفِرُ وَأُخَيْضِرُ، وَمَا يَكُونُ مِنْهَا إِلَى الظِّلِّ يَكُونُ أَبْيَضَ؟**». فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله، كَأَنَّكَ كُنْتَ تَرْعَى بِالبَادِيَةِ[(٢)].

وبهذه المواهب اجتمع للمصطفى ﷺ من أنوع العلوم وكثرتها ونفعها ما لم يحظ بمثله بشرٌ قبله ولا بعده، فعاش بهذا العلم في عالم لا يدانيه عالمٌ في سعته ورحابته.

رابعًا: ما كشف الله له من الحجب، وأطلعه عليه من الغيوب، فقد كشف له من آفاق الكون، وعالم الغيب، وأحداث المستقبل ما لم يكشف لبشرٍ غيره كالذي رأى ليلة الإسراء والمعراج وما أوحي إليه من مستقبل الدنيا وأحوال الآخرة، مما لم يطلع عليه غيره، ولا أدركه علم أحدٍ سواه. ومن سعة علمه وعالمه:

---

(١) «مسند أحمد» (٣٦٠٠).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٥٦٠)، و«صحيح مسلم» (١٨٣).

١- علمه بالله:

أشرف علومه وأعظمها علمه بالله عَزَّوَجَلَّ، فكان ﷺ أعلم الخلق بالله، وقال عن نفسه: «**إِنَّ أَتْقَاكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ بِالله أَنَا**»(١).

وهنالك علاقة قوية بين العلم بالله وخشيته وتقواه كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨].

ولما كان رسول الله ﷺ أخشى الناس لله، فقد أحبه الله وجعل هذا الحب جوهر الصلة بينه وبين نبيه ﷺ، فكان حباً بلغ الغاية التي جعلت النبي ﷺ خليل الله، والخلة هي أعلى درجات المحبة، وهذه الخلة هي التي جعلت النبي يستغني بها عن اتخاذ أحد غير الله تعالى خليلاً، كما قال ﷺ: «**لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ خَلِيلاً، لاتَّخَذْتُ ابْنَ أَبِي قُحَافَةَ خَلِيلاً، وَلَكِنْ صَاحِبُكُمْ خَلِيلُ الله**»(٢).

وقد رتَّب الله تعالى على هذه الخلة بينه وبين عبده ونبيه محمد ﷺ أموراً كثيرة منها: أنْ جعل اتباعه دليلاً على حب العبد لله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

وجعل الله عَزَّوَجَلَّ طاعة خليله طاعة له سبحانه: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠].

وجعل تقديم حبه على حب غيره شرطاً في الإيمان، كما قال ﷺ: «**لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**»(٣).

وإذا كان الله تعالى قد أحب محمداً أكثر من حبه لغيره، فكيف يكون الإنسان مؤمناً وهو يحب أحداً غير محمد حبه لمحمد ﷺ؟

---

(١) «صحيح البخاري» (٢٠).
(٢) «صحيح مسلم» (٢٣٨٣).
(٣) «صحيح البخاري» (١٥).

ومنها أنه أعطاه الوسيلة التي هي أرفع درجات الجنة، كما أعطاه المقام المحمود، وكان النبي ﷺ بهذا سيد ولد آدم. وإذا كان سيد ولد آدم وكان بنو آدم هم أكرم الخلق كان محمد ﷺ أكرم الخلق أجمعين، وكانت نتيجة هذا الحب في حياة النبي ﷺ الدنيوية الواقعية، أن صارت حياته كلها معبرة عنه، فكان ﷺ يحب كل ما أحب الله ويكره كل ما كره الله، ولعل في قول أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كَانَ خُلُقُهُ القُرْآنَ[1]. إشارة إلى هذا المعنى.

وكان النبي ﷺ دائم الصلة بالله يظل عند ربه يطعمه ويسقيه، وكانت صلة لا يقطعها حتى النوم فكان ﷺ تنام عيناه ولا ينام قلبه. وهل تكون خلة مع انقطاع الصلة بين الخليل وخليله؟ وكانت قرة عينه في الصلاة التي تزيد العبد صلة بربه ولا سيما وهو ساجد. وكان مع مغفرة الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر يقوم حتى تفطَّرت قدماه فإذا سئل عن ذلك قال: «**أَفَلا أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً؟**». وكيف لا يشكر المحب حبيبه الذي حَبَاهُ وأعطاه ما لم يؤت غيره؟[2].

٢- اطلاعه على ما لم يطلع عليه غيره:

ومن سعة علمه وعالمه ﷺ اطلاعه على ما لم يطلع عليه غيره، ومن ذلك:

أ. علوه إلى الملأ الأعلى، وارتفاعه إلى مستوى لم يبلغه غيره، ولم يرتفع إليه سواه.

أَسرى بِكَ اللَهُ لَيلاً إِذ مَلائِكُهُ ... وَالرُسلُ في المَسجِدِ الأَقصى عَلى قَدَمِ

جُبتَ السَماواتِ أَو ما فَوقَهُنَّ بِهِمْ ... عَلى مُنَوَّرَةٍ دُرِّيَّةِ اللُجُمِ

حَتّى بَلَغتَ سَماءً لا يُطارُ لَها ... عَلى جَناحٍ وَلا يُسعى عَلى قَدَمِ

وَقيلَ كُلُّ نَبِيٍّ عِندَ رُتبَتِهِ ... وَيا مُحَمَّدُ هَذا العَرشُ فَاستَلِمِ[3]

فرفع إلى سدرة المنتهى، ووصل إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام، وتلقَّى الخطاب الإلهي، وغمرته أنوار الحجاب النوراني، فقال حين سئل: هل رأيت ربك؟

(١) «صحيح مسلم» (٧٤٦).

(٢) باختصار من مقال شيخنا جعفر شيخ إدريس: «عالم النبوة الرحيب».

(٣) «نهج البردة» لأحمد شوقي.

قال: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ، رَأَيْتُ نُوراً»[1]. وهو نور الحجاب النوراني الذي قال فيه ﷺ: «حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»[2].

ورأى الجنة رأي عين، فرأى قصورها وأنهارها وتربتها، فقال في حديث الإسراء: «ثُمَّ أُدْخِلْتُ الجَنَّةَ، فَإِذَا فِيهَا حَبَايِلُ اللُّؤْلُؤِ وَإِذَا تُرَابُهَا المِسْكُ»[3].

ورأى الكوثر الذي أعطاه ربه قال: «بَيْنَمَا أَنَا أَسِيرُ فِي الجَنَّةِ، إِذَا أَنَا بِنَهَرٍ، حَافَتَاهُ قِبَابُ الدُّرِّ المُجَوَّفِ، قُلْتُ: مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا الكَوْثَرُ، الَّذِي أَعْطَاكَ رَبُّكَ، فَإِذَا طِينُهُ مِسْكٌ أَذْفَرُ»[4].

ورأى قصره في الجنة مثل الغمام، فعن سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ، قال: صلى النبي ﷺ ثم أقبل بوجهه على الناس فقال: «هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُم رُؤيا؟». فقلنا: لا، قال: «لَكنّي رَأَيْتُ اللَيْلَةَ رَجُلَينِ أَتَيانِي فَأَخذَا بِيَدِي وَأَدْخَلَانِي دَاراً لَمْ أَرَ قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهَا، فِيهَا رِجَالٌ شُيُوخٌ وَشَبَابٌ، وَنِسَاءٌ، وَصِبْيَانٌ، ثُمَّ أَخْرَجَانِي مِنْهَا فَصَعِدَا بِي الشَّجَرَةَ، فَأَدْخَلَانِي دَاراً هِيَ أَحْسَنُ وَأَفْضَلُ فِيهَا شُيُوخٌ، وَشَبَابٌ، قُلْتُ: طَوَّفْتُمَانِي اللَّيْلَةَ، فَأَخْبِرَانِي عَمَّا رَأَيْتُ، قَالَا: نَعَمْ، وَأَمَّا هَذِهِ الدَّارُ فَدَارُ الشُّهَدَاءِ، وَأَنَا جِبْرِيلُ، وَهَذَا مِيكَائِيلُ، فَارْفَعْ رَأْسَكَ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا فَوْقِي مِثْلُ السَّحَابِ، قَالَا: ذَاكَ مَنْزِلُكَ، قُلْتُ: دَعَانِي أَدْخُلْ مَنْزِلِي، قَالَا: إِنَّهُ بَقِيَ لَكَ عُمُرٌ لَمْ تَسْتَكْمِلْهُ، فَلَوِ اسْتَكْمَلْتَ أَتَيْتَ مَنْزِلَكَ»[5].

ب. وعرضت عليه ﷺ الجنة في صلاة الكسوف حتى مد يده إليها، ورأى النار حتى تكعكع عنها، وقال: «قَدْ دَنَتْ مِنِّي الجَنَّةُ، حَتَّى لَوِ اجْتَرَأْتُ عَلَيْهَا، لَجِئْتُكُمْ بِقِطَافٍ مِنْ قِطَافِهَا، وَلَوْ أَخَذْتهُ لَأَكَلْتُم مِنْهُ إِلى مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا، وَدَنَتْ مِنِّي النَّارُ حَتَّى قُلْتُ: أَيْ رَبِّ، وَأَنَا مَعَهُمْ؟، فَلَمْ أَرَ كَاليَوْمِ مَنْظَراً أَفْظَعَ»[6].

---

(١) «صحيح مسلم» (١٧٨).

(٢) «صحيح مسلم» (١٧٩).

(٣) «صحيح البخاري» (٣٤٩)، و«صحيح مسلم» (١٦٣).

(٤) «صحيح البخاري» (٦٥٨١).

(٥) «صحيح البخاري» (١٣٨٦)، و«صحيح مسلم» (٢٢٧٥).

(٦) «مسند أحمد» (٣٣٧٤)، و«صحيح البخاري» (٧٤٥)، و«صحيح مسلم» (٢٢٧٥).

فرأى النار يحطم بعضها بعضاً، ورأى المعذبين فيها، فرأى عمرو بن لحي يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سيب السوائب، وَحمَلَ العَرَبَ عَلَى عِبَادَةِ الأَوْثَانِ[1]، ورأى امرأة تخدشها هرة قال: «**قُلْتُ: مَا شَأْنُ هَذِهِ؟ قَالُوا: حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعاً، لَا أَطْعَمَتْهَا، وَلَا أَرْسَلَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ**»[2].

ج. ورأى الملائكة فرأى جبرائيل وهو في مكة على هيئته التي خلقه الله عليها قد سد الأفق له ستمئة جناح، ورآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى.

ورأى خزنة كل سماء يوم اسْتَفْتَحَ له جبريل ليلة المعراج، فَقِيلَ مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَباً بِهِ فَنِعْمَ المَجِيءُ جاء، وهكذا استفتح كل سماء وتلقَّاه ورحب به ملائكتها[3].

وخاطبه ملك الجبال حين رجع من الطائف يستأمره أن يطبق الأخشبين على أهل مكة، فقال: «**بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً**»[4].

د. ورأى رسل الله الذين سلفت أزمانهم قبله، فرآهم في بيت المقدس حين أسري به وصلى بهم.

ورأى منازلهم في السماوات حين عرج به فرأى في السماء الأولى آدم، وفي الثانية يحيى وعيسى ابني الخالة، وفي الثالثة يوسف، وفي الرابعة إدريس، وفي الخامسة هارون، وفي السادسة موسى، وفي السابعة إبراهيم.

ووصف هيئاتهم فقال عن موسى: «**رَأَيْتُ مُوسَى رَجُلاً آدَمَ، كَثِيرَ الشَّعْرِ، طِوَالاً، جَعْداً، شَدِيدَ الخَلق، كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ**[5]». وقال عن عيسى: «**مَرْبُوعَ الخَلْقِ، حَدَيدُ البَصَرِ،**

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٥٢١)، و«صحيح مسلم» (٩٠١).

(٢) «صحيح البخاري» (٧٤٥)، و«صحيح مسلم» (٢٢٧٥).

(٣) «صحيح البخاري» (٣٤٩)، و«صحيح مسلم» (١٦٣).

(٤) «صحيح البخاري» (٣٢٣١)، و«صحيح مسلم» (١٧٩٥).

(٥) حي من اليمن ينسبون إلى شنوءة وهو عبد الله بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأزد، قال الداودي: رجال الأزد معروفون بالطول. ينظر: «فتح الباري» (٦/ ٤٢٩).

إِلَى الحُمْرَةِ وَالبَيَاضِ، سَبْطَ الرَّأْسِ كَأَنَّما خَرَجَ مِنْ دِيماس[1]»». وقال عن يوسف: «أُعْطِيَ شَطْرَ الحُسْنِ». وقال عن إبراهيم: «وأَمَّا إِبْراهِيمُ، فَلَا أَنْظُرُ إِلَى إِرْبٍ مِنْ آرَابِهِ[2]، إِلاَّ نَظَرْتُ إِلَيْهِ مِنِّي، فَانْظُرُوا إِلَى صَاحِبِكُمْ»[3].

٣- مشاهد الآخرة وتفصيل أحوالها:

وصف ﷺ مشاهد الآخرة وحال الناس إذا نشروا من قبورهم وعرضوا على ربهم، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً». قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله النِّسَاءُ وَالرِّجَالُ جَمِيعًا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، قَالَ ﷺ: «يَا عَائِشَةُ الأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ»[4].

وعن أبي هريرة قال: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي دَعْوَةٍ، فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ فَنَهَسَ مِنْهَا نَهْسَةً[5]، وَقَالَ: «أَنَا سَيِّدُ القَوْمِ يَوْمَ القِيَامَةِ، هَلْ تَدْرُونَ بِمَ؟ يَجْمَعُ اللهُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَيُبْصِرُهُمُ النَّاظِرُ وَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، وَتَدْنُو مِنْهُمُ الشَّمْسُ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ: أَلَا تَرَوْنَ إِلَى مَا أَنْتُمْ فِيهِ، إِلَى مَا بَلَغَكُمْ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ إِلَى مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ: أَبُوكُمْ آدَمُ فَيَأْتُونَهُ، فَيَقُولُ: إن رَبِّي غَضِبَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي»، فيذهبون إلى نوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، يسألونهم الشفاعة إلى ربهم، وكلهم يقول مثل ذلك، ثم يأتون إلى رسول الله ﷺ فيقولون: «يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ الله وَخَاتِمُ الأَنْبِيَاءِ، وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فأقول: أنا لها، فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ العَرْشِ، فَأَقَعُ سَاجِداً لِرَبِّي عَزَّوَجَلَّ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ سَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ»[6].

---

(١) الديماس: الحمام. ينظر: «النهاية» (٢/ ١٣٣).

(٢) إرب من آرابه: أي عضو من أعضائه. ينظر: «النهاية» (١/ ٣٦).

(٣) «صحيح البخاري» (٣٤٩)، و«صحيح مسلم» (١٦٣).

(٤) «صحيح البخاري» (٣٤٩)، و«صحيح مسلم» (٢٨٥٩).

(٥) النهس: أخذ اللحم بأطراف الأسنان. ينظر: «النهاية» (٥/ ١٣٦).

(٦) «صحيح البخاري» (٢٣٤٠)، و«صحيح مسلم» (١٩٤).

٤- أبعاد الزمان والمكان:

وكما رأى نبي الله الخَضِرُ المستقبلَ فرأى مستقبل السفينة، ومستقبل الغلام، وكنز اليتيمين، رأى النبي ﷺ مستقبل أمته في قابل أيامها فقال لعوف بن مالك: «**اعْدُدْ يَا عَوْفُ سِتًّا بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ أَوَّلُهُنَّ مَوْتِي**». قَالَ: فَاسْتَبْكَيْتُ حَتَّى جَعَلَ رَسُولُ الله ﷺ يُسْكِتُنِي. قَالَ قُلْتُ إِحْدَى. «**وَالثَّانِيَةُ فَتْحُ بَيْتِ المَقْدِسِ**». قُلْتُ: اثْنَيْنِ. «**وَالثَّالِثَةُ مُوتَانٌ يَكُونُ فِي أُمَّتِي يَأْخُذُهُمْ مِثْلَ قُعَاصِ الغَنَمِ**». قَالَ ثَلَاثًا. «**وَالرَّابِعَةُ فِتْنَةٌ تَكُونُ فِي أُمَّتِي -وَعَظَّمَهَا- قُلْ: أَرْبَعًا، وَالخَامِسَةُ: يَفِيضُ المَالُ فِيكُمْ حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيُعْطَى المِئَةَ دِينَارٍ فَيَتَسَخَّطُهَا، قُلْ: خَمْسًا، وَالسَّادِسَةُ هُدْنَةٌ تَكُونُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ بَنِي الأَصْفَرِ فَيَسِيرُونَ إِلَيْكُمْ عَلَى ثَمَانِينَ غَايَةً**». قُلْتُ: وَمَا الغَايَةُ؟ قَالَ: «**الرَّايَةُ تَحْتَ كُلِّ رَايَةٍ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا فُسْطَاطُ المُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ فِي أَرْضٍ يُقَالُ لَهَا: الغُوطَةُ، فِي مَدِينَةٍ يُقَالُ لَهَا: دِمَشْقُ**»[(١)].

ورأى مستقبل دينه الذي بعث به فقال: «**لَا يَبْقَى عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ بَيْتُ مَدَرٍ، وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ كَلِمَةَ الإِسْلَامِ، بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ ذُلِّ ذَلِيلٍ، إِمَّا يُعِزُّهُمُ اللهُ فَيَجْعَلُهُمْ مِنْ أَهْلِهَا، أَوْ يُذِلُّهُمْ فَيَدِينُونَ لَهَا**»[(٢)].

ورأى الفتن التي ستصيب أمته ورأى مواقعها كمواقع القطر: فعَنْ أُسَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَشْرَفَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى أُطُمٍ مِنَ الآطَامِ، فَقَالَ: «**هَلْ تَرَوْنَ مَا أَرَى؟ إِنِّي أَرَى الفِتَنَ تَقَعُ خِلَالَ بُيُوتِكُمْ مَوَاقِعَ القَطْرِ**»[(٣)].

٥- عالم الحيوان:

كما علم الله داود وسليمان منطق الطير فقد علَّم نبينا من أحوال الطير والبهائم ما لا يعلمه غيره، دَخَلَ ﷺ حَائِطًا لِرَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ فَإِذَا جَمَلٌ، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ ﷺ حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ فَسَكَتَ، فَقَالَ: «**مَنْ رَبُّ هَذَا الجَمَلِ،**

(١) «مسند أحمد» (٢٣٩٨٥).

(٢) «مسند أحمد» (٢٣٨١٤).

(٣) «صحيح البخاري» (٣٥٩٧)، و«صحيح مسلم» (٢٨٨٥).

لِمَنْ هَذَا الجَمَلُ؟». فَجَاءَ فَتىً مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالَ: لِي يَا رَسُولَ الله. فَقَالَ: «**أَفَلَا تَتَّقِي اللهَ فِي هَذِهِ البَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللهُ إِيَّاهَا؟ فَإِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ**»(١).

وعندما بركت ناقته القصواء فَقَالَ النَّاسُ: حَلْ، حَلْ خَلَأَت القَصْوَاءُ(٢) مَرَّتَيْنِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَا خَلَأَت، وَمَا ذَلِكَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الفِيلِ**»(٣).

وعندما جاءت حمرة ترفرف حوله قال: «**مَنْ فَجَعَ هَذِهِ؟**». فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ: أَنَا يَا رَسُولَ الله أَخَذْتُ بِيضَاتٍ لَهَا، أَوْ فِرَاخًا، فَأَمَرَهُ، فَرَدَّهَا(٤).

٦- عالم الجمادات:

وكما سخر الله مع داود عَلَيْهِ السَّلَامُ الجبال تسبح معه، سُخِّرت الجبال والأحجار والأشجار مع نبينا ﷺ، فكان يقول: «**إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجَراً بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الآنَ**»(٥). وكان يعتمد على جذع إذا خطب يوم الجمعة فلما عمل له المنبر ورقي عليه سُمِع لذلك الجذع حنين كحنين العشار، ثم نزل النَّبيّ ﷺ فضمَّه إليه فسُمِعَ يئن أنين الصبيِّ الذي يُسَكَّت، قال ﷺ: «**كَانَتْ تَبْكِي عَلَى مَا كَانَتْ تَسْمَعُ مِنَ الذِّكْرِ عِنْدَهَ**»(٦).

وعندما صعد جبل أُحد هو وأبو بكر وعمر وعثمان رجف بهم الجبل فخاطبه النبي ﷺ قائلاً: «**اثْبُتْ أُحُدُ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ، وَصِدِّيقٌ، وَشَهِيدَانِ**»(٧).

وتبادل الحب معه فقال: «**هَذَا أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ**»(٨).

---

(١) «مسند أحمد» (١٧٥٤)، و«سنن أبي داود» (٢٥٤٩).
(٢) أَي امْتنعت من المَشْي. ينظر: «فتح الباري» (١/ ١١٣).
(٣) «سنن أبي داود» (٢٧٦٥).
(٤) «سنن أبي داود» (٢٦٧٥).
(٥) «صحيح مسلم» (٢٢٧٧).
(٦) «صحيح البخاري» (٣٥٨٤).
(٧) «صحيح البخاري» (٣٦٧٥).
(٨) «صحيح البخاري» (٤٤٢٢)، و«صحيح مسلم» (١٣٩٢).

وهكذا نرى من خلال هذه المشاهد أن عالم النبي ﷺ في ملكوت الله غاية في الرحابة والسعة، وأن آفاقه المدرَكَة تتجاوز المدرَكَ البشري فتمتد إلى الملأ الأعلى والدار الأخرى، وأن عالمه في آماد الزمن يمتد في الغيب الماضي البعيد وفي الأحقاب القادمة حتى رأى مستقبل دينه ومُلك أمته، وملاحم آخر الزمان، ولحظة نهاية العالم، وانتهاء الدنيا حين ينفخ في الصور، فيكون أول من يسمعه رجل يلوط[1] حوض إبله فيصعق ويصعق الناس معه[2].

٧- رؤية مشارق الأرض ومغاربها:

ورأى نواحي الأرض وأقاصيها فقال: «**إِنَّ اللهَ زَوَى لِي الأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الكَنْزَيْنِ الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ**»[3].

ورأى قصور المدائن فقال: «**اللهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ، وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ المَدَائِنَ، وَأُبْصِرُ قَصْرَهَا الأَبْيَضَ مِنْ مَكَانِي هَذَا**».

ورأى قصور الشام فقال: «**اللهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ، وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ قُصُورَهَا الحُمْرَ مِنْ مَكَانِي هَذَا**».

ورأى قصر صنعاء فقال: «**اللهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ اليَمَنِ، وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذَا**»[4].

إنها رحابة عالم النبي ﷺ في المكان وفي الزمان، فهو الإنسان الكامل، والرسول الخاتم، والبشر الذي يوحى إليه، والمجتهد المعصوم، الذي اتصلت -في سيرته- الأرض والسماء، وامتزج فيها النسبي بالإطلاق والخلود، فهو ﷺ روح في جسد ككل البشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، لكن روحه ممدودة من الجلال الإلهي بما لا يمكن معه لنفس إنسانية أن تسطو عليه سطوة روحانية، وهو بمنزلة العقل من الإنسان، إنه إمام أولي العزم من الرسل، الذين ميزهم الله بالفطرة السليمة،

---

(١) يلوط: أي يطيّن ويصلح. ينظر: «النهاية» (٤/ ٢٧٧).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٩٤٠).

(٣) «صحيح مسلم» (٢٨٨٩).

(٤) «مسند أحمد» (١٨٦٩٤).

وبلغ بأرواحهم من الكمال ما يليقون معه للاستشراق بأنوار علمه، والأمانة على مكنون سره، مما لو انكشف لغيرهم لفاضت له نفسه، أو ذهبت بعقله جلالته وعظمته، فيشرفون على الغيب بإذنه، ويعلمون ما سيكون من شأن الناس فيه، ويكونون في مراتبهم العلوية على نسبة من العالمين، نهاية الشاهد وبداية الغائب، فهم في الدنيا كأنهم ليسوا من أهلها، وهم وفد الآخرة في لباس من ليس من سكانها.

نعم، لهذا التميز والامتياز الذي جعل من الرسول ﷺ نهاية عالم الشهادة وبداية عالم الغيب وعقل الإنسانية والبشرية، ولتميز رسالته بالإتمام والإكمال للدين والأخلاق، وبالعالمية والخلود، وبالدولة والاجتماع، والحضارة مع الدين، لكل ذلك تميزت سيرته ﷺ عن كل سير القادة والمصلحين والعظماء والأنبياء، والمرسلين[1].

خلاصات:

١- كان ﷺ يعيش في عالم أرحب من كل عالمٍ بشري، ويسَّر الله له من وسائل العلم ما لم ييسره لغيره.

٢- أشرفُ علومه وأعظمُها علمه بالله عَزَّوَجَلَّ، فهو أعلم الخلق بالله وأخشاهم له.

٣- اتسعت آفاق الرسول ﷺ بارتفاعه إلى الملأ الأعلى، وعلوه إلى سدرة المنتهى، ووصوله إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام.

٤- عُرِضت عليه الجنة والنار في صلاة الكسوف فرآها رأي عين.

٥- اتصل بعالم الملائكة ورأى جبرائيل على صورته، وسمع ملك الجبال، ورأى خزنة السماوات العلى.

٦- رأى رسل الله الذين سلفت أزمانهم، وصلى بهم في المسجد الأقصى، ولقيهم في منازلهم في السماوات، ووصف هيئاتهم وملامحهم.

٧- وصف لنا مشاهد الآخرة وأحوالها وأهوالها كأنا ننظر إليها.

---

(١) من مقدمة د. محمد عمارة لـ«النور الخالد» (٩).

٨- رأى مستقبل أمته، وعَلِمَ بأهم أحداثها، ورأى مستقبل دينه، والفتن التي ستقع لأمته، ورأى مواقعها كمواقع القَطْر.

٩- وعَلِمَ من منطق الطير والبهائم ما لا يعلمه غيره.

١٠- وسُخِّرَت معه الجبال، والأحجار، والأشجار وتعاطى معها الحب والخطاب.

١١- ورأى مشارق الأرض ومغاربها وما سيبلغه ملك أمته منها.

١٢- كان ﷺ يعيش في نهاية عالم الشهادة وبداية عالم الغيب، فهو وفد الآخرة إلى أهل الدنيا.

دلائل النبوة من سيرته[1]

كانت معجزة النبي ﷺ الكبرى والخالدة هي القرآن الكريم، وهي المعجزة التي وقع بها التحدي ولا يزال وسيبقى، وهي المعجزة المتجددة على تعاقب الأجيال، وتتابع الأزمان.

جاءَ النبيّونَ بِالآياتِ فَانصَرَمَتْ ... وَجِئتَنا بِحَكيمٍ غَيرِ مُنصَرِمِ

آياتُهُ كُلَّما طالَ المَدى جُدُدٌ ... يَزينُهُنَّ جَلالُ العِتقِ وَالقِدَمِ[2]

ولكن دلائل النبوة أوسع من المعجزات، ولا يلزم أن تكون الدلائل معجزات خارقة، بل إن الخوارق التي حصلت للنبي ﷺ كتكثير الطعام، ونبع الماء من بين أصابعه، وتسبيح الحصى في يده ونحوها، حصلت أمام قوم مؤمنين ليزدادوا إيمانًا، ولم تكن أمام كافرين على سبيل التحدي لهم.

وكان من أظهر دلائل نبوته سيرتُه ﷺ في حياته كلها، فإنها تدل على أنها سيرة نبي، وقد تجلى ذلك للصحابة الذين عرفوه فقد تبين لهم أن من كان هذا حاله فلا يمكن أن يكون مدَّعيًا ولا متقوِّلاً على ربه، ومن ذلك حديث عَبْدِ الله بْن سَلَام، قَالَ: لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ انْجَفَلَ النَّاسُ عَلَيْهِ، فَكُنْتُ فِيمَنِ انْجَفَلَ، فَلَمَّا تَبَيَّنْتُ وَجْهَهُ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ[3]. فكانت ملامحه تدل على صدقه؛ فليس وجهه وجه المريب، ولا حاله حال المدعي.

---

(١) ينظر: كتاب «الأدلة العقلية على نبوة خير البرية» د. عبد المحسن بن زبن المطيري، ومنه استفدت في هذا المبحث.

(٢) «نهج البردة» لأحمد شوقي.

(٣) «مسند أحمد» (٢٣٧٨٤).

ومن ذلك: حديث ثُمامة بن أُثال الذي كان يتوعد النبي ﷺ وهو في اليمامة فلما أُسِر وجِيءَ به إلى النبي ﷺ أمر بربطه في المسجد ثلاثة أيام، ولم ينله في أسره مساءة أو أذى، وهي ثلاثة أيام قضاها يراقب النبي ﷺ فيرى صلاته، ويستمع تلاوته، وينظر حاله مع أصحابه، ومجلسه معهم، ولم يَرِد أن النبي ﷺ عرض عليه الإسلام بالأمر أو بالقول المباشر، ولكن عرضه عليه بطريقة عملية يشاهدها، ثم بعد ثلاثة أيام أمر النبي ﷺ أن يحل رباطه ويخلى سبيله، فلما خرج من المسجد وملَكَ أمره عاد إلى النبي ﷺ معلنًا إسلامه، وشهد شهادة الحق بين يدي النبي ﷺ وهو يقول: وَاللهِ مَا كَانَ عَلَى الأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ، فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الوُجُوهِ إِلَيَّ، وَاللهِ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ، فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيَّ، وَاللهِ مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ، فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ البِلَادِ إِلَيَّ[1]. فما الذي استدل به ثمامة على النبي ﷺ وجعله يحبه أحب من كل أحد؟ إنه سيرته التي رآها خلال ثلاثة أيام.

وكذا لما جاء عدي بن حاتم إلى النبي ﷺ انطلق به النبي ﷺ إلى بيته وفي الطريق دعته امرأة ومعها صبي فنادته فقالت: يا رسول الله إن لي إليك حاجة، فوقف لها وعدي ينظر، قال: حتى أشفقت عليه من طول القيام وقلت: والله ما هذا بملك[2].

ولما سأل هرقل أبا سفيان عن النبي ﷺ لم يكن في أسئلته الأحد عشر سؤال عن معجزة خارقة، ولكنها كانت أسئلة عن حال النبي وسيرته، وفيها: هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ هَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ أَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ هَلْ يَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ هَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ هَلْ يَغْدِرُ؟... إلى آخرها، ثم استدل منها على صدق نبوته وقال لأبي سفيان: وَإِنْ يَكُ مَا قُلْتَ حَقًّا، فَيُوشِكُ أَنْ يَمْلِكَ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ، وَلَوْ أَرْجُو أَنْ أَخْلُصَ إِلَيْهِ لَتَجَشَّمْتُ لُقِيَّهُ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ قَدَمَيْهِ[3].

إنك متى وقفت على مجموعة صالحة من هذه السيرة الكريمة، لا تملك أن تدفع هذا اليقين عن نفسك بأنها لا يمكن أن تكون إلا سيرة نبي مبلغ عن الله رسالته.

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٣٧٢)، و«صحيح مسلم» (١٧٦٤).

(٢) «الأحاديث الطوال» للطبراني (١).

(٣) «صحيح البخاري» (٧)، و«صحيح مسلم» (١٧٧٣).

وذلك أن للحقيقة قوة غلابة تنفذ من حجب الكتمان، فتُقْرأُ بين السطور وتُعرَفُ في لحن القول، والإنسان مهما أمعن في تصنّعه ومداهنته لا يخلو من فلتات في قوله وفعله، تنمّ على طبعه إذا أُحفظ أو أُحرج، أو احتاج أو ظفر، أو خلا مع من يطمئن إليه.

وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مَنْ خَلِيقَةٍ وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمِ

فما ظنك بهذه الحياة النبوية، التي تعطيك في كل حلقة من حلقاتها مرآة صافية لنفس صاحبها، فتريك باطنه من ظاهره، وتريك الصدق والإخلاص ماثلاً في كل قول من أقواله وكل فعل من أفعاله. بل كان الناظر إليه إذا قويت فطنته وحسنت فراسته، يرى أخلاقه العالية تلوح في محيّاه ولو لم يتكلم أو يعمل.

ومن هنا كان كثير ممن شرح الله صدورهم للإسلام لا يسألون رسول الله على ما قال برهانًا؛ فمنهم العشير الذي عرفه بعظمة سيرته، ومنهم الغريب الذي عرفه بسيماه في وجهه[1].

وإذا نظرنا إلى سيرته ﷺ وجدنا دلالتها ظاهرة على صدق نبوته في مراحل حياته كلها فمن ذلك:

أولاً: أن النبي ﷺ عاش بين ظهراني قريش أربعين سنة قبل النبوة، ومجتمع قريش مجتمع عشائري محصور لا يخفى فيه حال أحد، فلما أعلن نبوته وأعلنت قريش عداوته لم تجد موقفًا واحداً في تاريخه السابق تذكره عنه فتعيبه به، بل إنه مع كثرة خصال الخير فيه والتي ذكرتها خديجة في قولها: إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ[2]، إلا أن أشهر ما عرفته قريش به الصادق والأمين -وهي أهم صفة تدل على صدق نبوته- ولذا قال هرقل: لقد علمت أنه لَمْ يَكُنْ لِيَدَعَ الكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى الله.

(١) «النبأ العظيم» (٦٤).

(٢) «صحيح البخاري» (٢)، و«صحيح مسلم» (١٦٠).

وقال النضر بن الحارث لقريش: إنه قد والله نزل بكم أمرٌ ما أتيتم له بحيلة بعد، قد كان محمد فيكم غلاما حدثاً أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثاً وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به قلتم: ساحر، لا والله ما هو بساحر...[1].

يـا جـاهِـلـيـنَ عَـلـى الـهـادي وَدَعـوَتِـهِ هَـل تَـجـهَـلـونَ مَـكـانَ الـصـادِقِ الـعَـلَـمِ

لَـقَّـبـتُـمـوهُ أَمـيـنَ الـقَـومِ فـي صِـغَـرٍ وَمـا الأَمـيـنُ عَـلـى قَـولٍ بِـمُـتَّـهَـمِ[2]

فكانت سيرته قبل النبوة من دلائل صدق نبوته بعد بعثته.

ثانيًا: عُرِفَ النبي ﷺ بصفات شريفة قبل النبوة لكن لم يعرف عنه المنافسة على الرئاسة والزعامة في قومه، ولم يؤثر عنه أنه دخل دار الندوة، وذلك حتى لا يظن ظان أنه أعلن النبوة ليكرس زعامةً، أو يستجلب سيادةً، بل لما عرضت عليه قريش أن يملكوه عليهم رفض ذلك بإباء، فلم تكن رسالته دعوة لحظ نفسه ولكن لهداية غيره.

ثالثًا: عندما نزل عليه الوحي أول مرة في غار حراء رجع خائفاً ترعد فرائصه، يقول: «**زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي**». ويقول لزوجته خديجة: «**لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي**»[3]، وهذا يدل على أنه لم يكن مستشرفاً للنبوة ولا متوقعاً لها، كما أخبر عنه ربه: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦] فلو كان مدّعياً لما رجع فزعاً خائفاً، وإنما جاء فرحاً صارخاً معلناً للناس في نواديهم، فكانت رهبة الفجاءة الأولى من دلائل الصدق فيما بلَّغ صلوات الله عليه[4].

رابعًا: عندما أعلن دعوته ونادى في قبائل قريش كان أول من تصدى له عمه أبو لهب فقال: تباً لك ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١][5] وكون عمه يكذّبه ويرفض دعوته، وكون عشيرته لم يبادروا إلى إجابة دعوته يبين أنها ليست دعوة عشائرية، وليست من المنافسة بين بني هاشم وبقية عشائر قريش.

---

(١) «سيرة ابن هشام» (١/ ٢٩٩).

(٢) «نهج البردة» لأحمد شوقي.

(٣) «صحيح البخاري» (٢)، و«صحيح مسلم» (١٦٠).

(٤) ينظر: «محمد الرسالة والرسول» د. نظمي لوقا (١٢٤).

(٥) «صحيح البخاري» (٤٨٠١)، و«صحيح مسلم» (٢٠٨).

خامسًا: أن النبي ﷺ بعث في مكة في وادٍ غير ذي زرع، ناءٍ في حاشية جزيرة العرب، ومع ذلك أعلن دعوته أول ما أعلنها على أنها رسالة عالمية لأهل الأرض كلهم، وكانت نداءات القرآن في مكة عالمية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، فهل يستطيع إنسان مهما بلغ خياله أن يتخيل أن صارخًا في مكة سيبلغ نداؤه أهل الأرض كلَّهم، خاصة إذا تصورنا صعوبة التواصل والبلاغ حينها؟!

إن هذا اليقين لا يمكن أن يتحقق بالمقاييس البشرية ما لم يكن وحيًا من الله.

سادسًا: أُمِّيَّةُ النبي ﷺ، وأنه ما قرأ مكتوبًا، ولا كتب مقروءاً، ومع ذلك جاء بكل هذا العلم الذي لا يحيط به العلماء، ليتضح أن مصدر علمه ليس ما هو مكتوب قبله، ولكن مصدره وحيُ الله إليه، قال ابن تيمية: وَكَوْنُ مُحَمَّدٍ كَانَ نَبِيًّا أُمِّيًّا هُوَ مِنْ تَمَامِ كَوْنِ مَا أَتَى بِهِ مُعْجِزاً خَارِقًا لِلْعَادَةِ، وَمِنْ تَمَامِ بَيَانِ أَنَّ تَعْلِيمَهُ أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ تَعْلِيمٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]

فَغَيْرُهُ يَعْلَمُ مَا كَتَبَهُ غَيْرُهُ، وَهُوَ عَلَّمَ النَّاسَ مَا يَكْتُبُونَهُ وَعَلَّمَهُ اللهُ ذَلِكَ بِمَا أَوْحَاهُ إِلَيْهِ[1]، وقال صاحب «المسكة الفائحة»: قلت لأبي: اذكر لي بعض المعجزات وأوجز، فقال: أحدنا يقرأ عمره ولا يحصل على شيء، وهذه الكتب التي ترى كلها إنما هي مستفادة من بعض علومه ﷺ، مع أنه لم يقرأ كتابًا، ولا خط حرفًا، فأي بيان أوضح من هذا البيان، وأي برهان أعظم من هذا البرهان؟![2].

سابعًا: أن المحن والشدائد التي مرت به كان بعضها يزلزل العزائم، ويذهبُ بالرجاء، ويصيب باليأس، ومع ذلك كان ﷺ أكثر ما يكون يقينًا وأثبت ثباتًا في هذه الشدائد، فعن خَبَّاب بن الأَرَتِّ قَالَ: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الكَعْبَةِ، وقد لقينا من المشركين شدة فقُلْنَا لَهُ: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلَا تَدْعُو اللهَ لَنَا؟ قَالَ:

(١) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١٦/ ٢٦٦).

(٢) «حاشية البردة» للزركشي (٢١٤).

«**وَاللهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ، أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ**»[(١)]. ففي أشد الشدائد عليه في مكة يبشر بالأمن بين صنعاء وحضرموت.

وفي الغار وقريش محيطة به وقد أهدرت دمه وخرجت تتعقّبه يقول لصاحبه: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

وفي طريق الهجرة يبشر سراقة الذي خرج يطارده بسواري كسرى[(٢)].

وفي شدة الفزع يوم الأحزاب يبشر بقصور فارس وقصور الشام وقصور اليمن[(٣)].

وفي وقت شدة الجوع الذي يشتكيه الصحابة إليه يقول لهم: «**كَيْفَ بِكُمْ إِذَا غَدَا أَحَدُكُمْ فِي حُلَّةٍ وَرَاحَ فِي حُلَّةٍ وَوُضِعَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ صَحْفَةٌ وَرُفِعَتْ أُخْرَى وَسَتَرْتُمْ بُيُوتَكُمْ كَمَا تُسْتَرُ الكَعْبَةُ؟**». قَالُوا: يَا رَسُولَ الله نَحْنُ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مِنَّا اليَوْمَ نَتَفَرَّغُ لِلْعِبَادَةِ وَنُكْفَى المُؤْنَةَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَأَنْتُمُ اليَوْمَ خَيْرٌ مِنْكُمْ يَوْمَئِذٍ**»[(٤)].

إن هذا اليقين في وقت الشدة والكرب لا يكون إلا بوحيٍ من الله.

ثامنًا: أنه أصيب في أُحُدٍ مصاباً شديداً فَقُتل عمُّه، واستشهد أصحابُهُ وكُسِرَت رباعيته[(٥)]، وسال الدم على وجهه، وهي حال تملأ النفس غيظاً وحنقاً، ثم ينزل القرآن ليقول له: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨][(٦)].

وهذا لا يمكن أن يصدر من بشر حديث عهد بمصيبة من عدوه، بل إن هذه الآية كانت مبشرة بتوبة الله عليهم، ولذا أسلم قواد جيش المشركين في أُحد جميعاً أبو سفيان وخالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل.

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٦١٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٩٠٦)، و«الاستيعاب» لابن عبد البر (٢/ ١٤٨).

(٣) «مسند أحمد» (١٨٦٩٤).

(٤) «جامع الترمذي» (٢٤٧٦).

(٥) الرَبَاعِيَة: هِيَ السِّنُّ الَّتِي تَلِي الثَّنِيَّةَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَلِلإِنْسَانِ أَرْبَعُ رَبَاعِيَاتٍ. ينظر: «شرح النووي على مسلم» (١٢/ ٤٨١).

(٦) «صحيح مسلم» (١٧٩١).

وكذلك لما صدَّته قريش عن مكة عام الحديبية وهو قد أحرم بالعمرة وساق الهدي وكذا المسلمون معه كلهم فصُدُّوا عن البيت ثم رجعوا ولم يعتمروا، وكان المسلمون مغيظون محنقون من صدِّ قريش لهم أشد الغيظ فأنزل الله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الممتحنة: ٧]، فهل يمكن أن يقول ذلك إنسان في مثل هذا الظرف؟ وهل تستجيب مشاعره أن يتحدث عمن صدوه عن دخول الحرم معتمراً بعد أن أحرم وساق الهدي وأن يبشر بأنه ستكون بينه وبينهم مودة، إلا إذا كان يتلقّى الوحي من الله؟

تاسعًا: عبادة السر التي رويت عنه، كما في حديث ابن عباس أنه بات عند رسول الله في بيت خالته مَيْمُونَةَ لَيْلَةً فلما كان نصف الليل استيقظ النَّبِيُّ ﷺ فنظر إليه وقال: «**نَامَ الغُلَيِّمُ؟**». ثم جلس يمسح النوم عن وجهه ويقرأ الآيات العشر الأخيرة من سورة آل عمران، ثم قام إلى شَنٍّ[1] مُعَلَّقٍ فتوضأ وُضُوءاً خَفِيفاً وَقَامَ يُصَلِّي، قال ابن عباس: فقمت فتمطّيت كما يصنع النائم، ثم تَوَضَّأْتُ نَحْواً مِمَّا تَوَضَّأَ، ثُمَّ جِئْتُ فَقُمْتُ، عَنْ يَسَارِهِ فَحَوَّلَنِي فَجَعَلَنِي عَنْ يَمِينِهِ، ثُمَّ صلى حتى ذهب هوي من الليل، وكانت صلاته ثلاث عشرة ركعة.[2] وهذا التهجد في جوف الليل وكل من حوله نيام لا يمكن أن يفعله مدع وإنما يفعله الموقن أشد اليقين.

وعَنْ مُطَرِّفِ بن عبد الله بن الشِّخِّير، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، وَهُوَ يُصَلِّي وَلِجَوْفِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ المِرْجَلِ من البكاء[3].

ولم يكن النبي ﷺ يعلم بمجيء عبد الله بن الشخير، ولكن توافق مجيئه والنبي ﷺ بهذا التأثر والبكاء.

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: افْتَقَدْتُ النَّبِيَّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُ ذَهَبَ إِلَى بَعْضِ نِسَائِهِ، فَتَحَسَّسْتُ ثُمَّ رَجَعْتُ، فَإِذَا هُوَ رَاكِعٌ أَوْ سَاجِدٌ يَقُولُ: «**سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**». فَقُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، إِنِّي لَفِي شَأْنٍ وَإِنَّكَ لَفِي شأن آخَرَ[4].

---

(١) هي القربة القديمة اليابسة وهي أشدُّ تبريدا للماء من الجدد. ينظر: «النهاية» (٢/ ٥٠٦).

(٢) «صحيح البخاري» (١٣٨)، و«صحيح مسلم» (٧٦٣).

(٣) «سنن أبي داود» (٩٠٤).

(٤) «صحيح مسلم» (٤٨٥).

وعنها قالت: فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش فالتمسته فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد وهما منصوبتان وهو يقول: «**اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أُحْصِي نِعَمَكَ وَلَا ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكِ**»[1].

فهذه العبادات الخفية لا يمكن أن تصدر من متقوِّل يتظاهر أمام الناس، ولكنها دليل على أنه أعظم الخلق يقيناً بما يدعو إليه.

عاشراً: قصة موت ابنه إبراهيم، فإنه لما مات قال الناس: كسفت الشمس لموت إبراهيم، وذلك بناء على عقيدة جاهلية هي أن الشمس تكسف لموت عظيم أو مولده، فقام النبي ﷺ وهو يغالب أحزانه ليصحح لهم هذا التصور الجاهلي: «**إِنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، وَلَكِنَّهُمَا آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ الله، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا، فَقُومُوا، فَصَلُّوا**»[2]، فلو كان مدّعياً لكانت هذه فرصته ليؤكد دعواه بهذا التصور، ولكن دلائل الحق معه أقوى من أن يتزيد لها، بل نفى تصور الجاهلية ذلك وأبطله.

يقول إميل در منغم: ولد لمحمد ابنه إبراهيم فمات طفلاً، فحزن عليه كثيراً ولحده بيده، ووافق موته كسوف الشمس، فقال المسلمون: إنها انكسفت لموت إبراهيم، ولكن محمداً كان من سمو النفس ما رأى به رد ذلك، فقال: «**إِنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ**...»؛ فقولٌ مثل هذا لا يصدر عن كاذب دجال[3].

الحادي عشر: التوازن في حياته ﷺ وهذه من معجزات سيرته، فإنك قلَّما تجد نابغاً في أمرٍ ومتميزاً في منحى من مناحي الحياة إلا وجدت هذا التميز على حساب نواح أخرى في حياته، فقد نجد النابغ في علمه ولكن ذلك على حساب علاقاته العامة، أو علاقاته الاجتماعية، وقد تجد القائد العظيم ولكن إقباله على ذلك أحدث ضموراً في حصيلته العلمية، أو أخلاقه في التعامل مع العامة ونحو ذلك،

(١) «صحيح مسلم» (٤٨٦).

(٢) «صحيح البخاري» (١٠٤١)، و«صحيح مسلم» (٩٠٤).

(٣) «الأدلة العقلية على نبوة خير البرية» عبد المحسن بن زبن المطيري (٨٢).

أما النبي ﷺ فلا تنظر إلى ناحية من نواحي حياته إلا شعرت أنها مشبعة تماماً وكأنه قد تفرغ لها وحدها، فإذا نظرت إليه ﷺ رسولاً، وداعياً، ومعلماً، وزوجاً، وأباً، وقائداً، وصاحباً، ومحارباً، ومسالماً إلى غير ذلك من مناحي حياته وجدتها كلها كاملة ليس في شيء منها نقص أو ضمور.

إن هذا التوازن والتكامل لا يمكن أن يتحقق بالمقاييس والقدرات البشرية ما لم تكن تأييداً ومدداً من الله.

الثاني عشر: عدم التكثُّر من الدنيا، بل عبَرها أزهد ما يكون فيها، فقد دخل المدينة على حالٍ من القلة، وبنى بيته فيها متقارب الجدر قليل المتاع صغير المساحة فالبيت غرفة واحدة وفناء صغير أمامها لكل واحدة من زوجاته، ثم فتح الله عليه وكثر أتباعه وقدمت عليه الأموال فلم يتغير بيته ولا أثاثه، ولم يتخول من هذه الدنيا شيئاً، بل قسم الأموال حثواً في الثياب، وعاد إلى بيته الأول الذي بناه أول ما قَدِم وعاش فيه ومات فيه، وكانت أشواقه هناك في الملأ الأعلى، أما الدنيا فما تأثلها ولا تكثر منها.

فعن عُمَرَ بْن الخَطَّابِ قال: دخلت على النبي ﷺ وَإِنَّهُ لَعَلَى حَصِيرٍ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ شَيْءٌ، وَتَحْتَ رَأْسِهِ وِسَادَةٌ مِنْ أَدَمٍ حَشْوُهَا لِيفٌ، وَإِنَّ عِنْدَ رِجْلَيْهِ قَرَظًا مَصْبُوبًا، وَعِنْدَ رَأْسِهِ أُهَبٌ مُعَلَّقَةٌ، فَرَأَيْتُ أَثَرَ الحَصِيرِ فِي جَنْبِهِ فَبَكَيْتُ، فَقَالَ: «**مَا يُبْكِيكَ؟**». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله إِنَّ كِسْرَى وَقَيْصَرَ فِيمَا هُمَا فِيهِ، وَأَنْتَ رَسُولُ الله، فَقَالَ: «**أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الدُّنْيَا وَلَنَا الآخِرَةُ؟**»[1].

وعَنْ عَبْدِ الله بن مسعود قَالَ: اضْطَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى حَصِيرٍ فَأَثَّرَ فِي جِلْدِهِ، فَقُلْتُ: بِأَبِي وَأُمِّي، يَا رَسُولَ الله لَوْ كُنْتَ آذَنْتَنَا فَفَرَشْنَا لَكَ عَلَيْهِ شَيْئًا يَقِيكَ مِنْهُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَا أَنَا وَالدُّنْيَا؟! إِنَّمَا أَنَا وَالدُّنْيَا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا**»[2].

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٩١٣)، و«صحيح مسلم» (١٤٧٩).

(٢) «سنن ابن ماجه» (٤١٠٩).

بل كان النبي ﷺ يلزم خاصته وأهله بالتقلل من الدنيا أيضـًا، فقد خير أمهات المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ بين البقاء معه على هذه الحال ولهن الجنة، وبين الدنيا ويطلقهن ويمتعهن ويسرحهن سراحـًا جميلاً، فاخترن كلهن البقاء معه على تلك الحال.

وجاءته ابنته فاطمة عَلَيْهَا السَّلَامُ تسأله خادمـًا من السبي، فوزعه النبي ﷺ على الناس، ولم يعط فاطمة منه شيئـًا، مع شدة حبه لها، وشدة حاجتها إليه، فعن عَلِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامُ أَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ تَشْكُو إِلَيْهِ مَا تَلْقَى فِي يَدِهَا مِنَ الرَّحَى، وَبَلَغَهَا أَنَّهُ جَاءَهُ رَقِيقٌ، فَلَمْ تُصَادِفْهُ، فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لِعَائِشَةَ، فَلَمَّا جَاءَ أَخْبَرَتْهُ عَائِشَةُ، قَالَ: فَجَاءَنَا وَقَدْ أَخَذْنَا مَضَاجِعَنَا، فَذَهَبْنَا نَقُومُ، فَقَالَ: «**عَلَى مَكَانِكُمَا**». فَجَاءَ فَقَعَدَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا، حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ قَدَمَيْهِ عَلَى بَطْنِي، فَقَالَ: «**أَلَا أَدُلُّكُمَا عَلَى خَيْرٍ مِمَّا سَالْتُمَا؟ إِذَا أَخَذْتُمَا مَضَاجِعَكُمَا فَسَبِّحَا ثَلَاثـًا وَثَلَاثِينَ، وَاحْمَدَا ثَلَاثـًا وَثَلَاثِينَ، وَكَبِّرَا أَرْبَعـًا وَثَلَاثِينَ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ**»[1].

ولما مات لم يورث مالاً لورثته، ولا منصبـًا لقرابته، وبلغ رسالات الله وعاش في الدنيا كفافـًا من غير أن يرزأ الناس شيئـًا من دنياهم وإنما تركها لهم ينتشلونها من بعده، وعبرها ولم يتأثلها، وقال لأهل الدنيا كلهم: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سبأ: ٤٧].

الثالث عشر: حاله مع زوجاته، فقد توفي ﷺ عن تسع زوجات، وإن الإنسان الكاذب قد يستطيع أن يتحرَّز من الناس في حياته الخارجية، لكن هذا لا يحصل للإنسان مع زوجته في حياته الخاصة؛ فإن العادة جرت بسقوط الكلفة، وانبساط الرجل مع أهله، وزوجته أعلم الناس بحاله وخاصة شأنه،

فالنبي ﷺ مع كثرة أزواجه وهنَّ من عدَّةِ قبائل ومن أعمارٍ متفاوتة، وكون آباء بعضهن أعداء له، ولكن لم تنقل إحداهن عن حياته الخاصة إلا كل كمال يمكن أن يوصف به إنسان، ولا يمكن أن يتواطأن كُلُهُنَّ على إخفاء ما ينافي حال نبوته وكماله؛ فهذا في غاية من البعد، وكن يعشن معه على الكفاف لا كما تعيش نساء الملوك، حتى اشتكين إليه ذلك فنزلت آية التخيير:

(١) «صحيح البخاري» (١١٢٧)، و«صحيح مسلم» (٧٧٥).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٢٨ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٢٨، ٢٩].

فكلهن اخترنه ولو كان فيهن من لم تكن على يقين من نبوته لكان هذا التخيير فرصتها؛ لكنهن آثرن الآخرة على الدنيا، وصبرن على تلك الحال، وبقين بعده وَفياتٍ لعشرتهن معه، متشوقات للحاق به في أكرم موعود.

الرابع عشر: بُعده عن الغرض الشخصي، فكان ينهى عن إطرائه بالغلو فيه ومجاوزة قدره ومنزلته، ويقول: «**لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**»(١). وينهى عن القيام له ويقول: «**لَا تَقُومُوا لِي كَمَا تَقُومُ الْأَعَاجِمُ، يُعَظِّمُ بَعْضُهَا بَعْضًا**»(٢)، وعَنِ الرُّبَيِّعِ بِنْتِ مُعَوِّذٍ، قَالَتْ: دَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ غَدَاةَ بُنِيَ عَلَيَّ، فَجَلَسَ عَلَى فِرَاشِي، وَجُوَيْرِيَاتٌ يَضْرِبْنَ بِالدُّفِّ، يَنْدُبْنَ مَنْ قُتِلَ مِنْ آبَائِهِنَّ يَوْمَ بَدْرٍ، حَتَّى قَالَتْ جَارِيَةٌ: وَفِينَا نَبِيٌّ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا تَقُولِي هَكَذَا وَقُولِي مَا كُنْتِ تَقُولِينَ**»(٣).

ولما توفي عثمان بن مظعون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالت أم العلاء -امرأة من الأنصار-: رَحْمَةُ الله عَلَيْكَ أَبَا السَّائِب، فَشَهَادَتِي عَلَيْكَ لَقَدْ أَكْرَمَكَ اللهُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**وَمَا يُدْرِيكِ أَن اللهَ قَدْ أَكْرَمَهُ؟**». فَقُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ الله، فَمَنْ يُكْرِمُهُ اللهُ؟ قَالَ: «**أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ، وَالله إِنِّي لَأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ وَالله مَا أَدْرِي وَأَنَا رَسُولُ الله مَا يُفْعَلُ بِي**»(٤).

فما الذي كان يمنعه أن يتقوَّل ما يشاء في شأنٍ هو بعد الموت، وهو لا يخشى من يراجعه فيه، إلا أنه رسول من عند الله صادق في بلاغه عن الله؟(٥).

(١) «صحيح البخاري» (٣٤٤٥).
(٢) «سنن أبي داود» (٥٢٣٠).
(٣) «صحيح البخاري» (٤٠٠١).
(٤) «صحيح البخاري» (١٢٤٣).
(٥) «الأدلة العقلية على نبوة خير البرية» (٦٨).

وهكذا لا يزال المرء يقلب نظره في سيرة هذا النبي الكريم ويتتبع أحواله في حياته حتى يثمر له يقينا راسخا أن هذه حال نبي كريم، وما هي بحال مدَّع ولا متقوِّل، وأن أحوال حياته شواهدُ على صدقه، ودلائلُ على نبوته ﷺ.

خلاصات:

١- معجزة النبي ﷺ الخالدة هي القرآن، ولكن دلائل النبوة كثيرة.

٢- ليست الدلائل كلها معجزات ولكن كل ما دل على صدقه فهو من دلائل نبوته.

٣- كانت سيرته بعمومها دالةً على صدقه، بل كل من نظر إليه رأى أخلاقه تشع من محيَّاه ولو لم يتكلم أو يعمل.

٤- من دلائل نبوته نقاء سيرته قبل البعثة، ولذا عندما عادته قريش بعد النبوة لم تأثر عنه ما تعيبه به قبل النبوة.

٥- برغم كثرة خصال الخير فيه إلا أنه عرف قبل النبوة بالصادق الأمين، وهي أهم ما تعرف به نبوة النبي ﷺ.

٦- لم يعرف عنه قبل النبوة ولا بعدها المنافسة على الرئاسة والزعامة فيقال إنه ادعى النبوة لتكريس زعامته.

٧- عندما نزل عليه الوحي أول مرة في حراء فزع وخاف على نفسه، ولو كان مدعيًا لرجع فرحًا صارخًا بذلك.

٨- عندما أعلن دعوته كان أول من تصدّى له عمه أبو لهب، وكان في ذلك برهان على أنها ليست دعوة عشائرية ولكنها رسالة عالمية.

٩- بعث النبي ﷺ في مكان ناءٍ من الأرض، ومع ذلك أعلن دعوته للعالمين كلهم، وهذا ما لا يدركه خيال أحد.

١٠- من دلائل النبوة: أُميَّة النبي ﷺ ومع ذلك أتى بعلم تفنى فيه الأعمار وتتعاقب في تحصيله الأجيال.

١١- ومنها: ثبات النبي ﷺ وتفاؤله في أشد الشدائد وأصعب المحن، ولا يكون هذا إلا بيقين الوحي.

١٢- ومنها: عبادة السر التي لا تكون إلا من مؤمن، ولا تكون من مدَّع متقوِّل.

١٣- ومنها: قصة موت ابنه إبراهيم وتصحيحه ظن الناس أن الشمس كسفت لموته، ولو كان مُدَّعيا لتكثَّر بها.

١٤- ومنها: التوازن في حياته، فليس ثمَّ جانب من جوانبها إلا وفيه كماله وعظمته.

١٥- ومنها: زهده في الدنيا وعدم تكثره منها، فلم يرزأ الناس شيئًا من دنياهم وإنما أحتسب أجرَه كله على الله.

١٦- ومنها: حاله مع زوجاته مع كثرتهن وتنوعهن واطلاعهن على ما لا يطلع عليه غيرهن، فإنهن اتفقن على اليقين الإيماني به ومحبته وتعظيمه.

١٧- ومنها: نهيه عن إطرائه والغلو فيه وتجاوز الحد في تعظيمه: «**فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا عَبْدُ اللهِ، وَرَسُولُهُ**»[1]. مما يدل على بعده عن الأغراض الشخصية.

(١) «صحيح البخاري» (٣٤٤٥).

نظرة إجمالية للحياة النبوية

باستعراض هذه الأحوال المتنوعة للحياة النبوية العريضة، يتجلَّى لنا من خلالها دلالات عامة منها[١]:

١- ترى في حياته ﷺ تحقيق قوله: «**وجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**»[٢]. فالصلوات منتشرة في مساحة يومه؛ فرائضَ وسُننًا وقيامَ ليل، فهي منازل الاستراحة النفسية في مسيرة اليوم، وكأنما يتلقَّى في صلاته تلك مَدَدَ ربه وفتوحه عليه؛ ليتجدَّد له بعد كل صلاة؛ قوة وعزم ومَضاء، لقد كانت الصلاة قُرَّة عينه وراحة نفسه، حتى كأنما يستبطئ الصلاةَ وقد حان وقتها، فيقول من شدَّة شوقه إليها: «**أَرِحْنَا بِهَا يَا بِلالُ**»[٣]. ولا أفصح ولا أدقَّ في تصوير أشواق روحه العالية من قوله: «**أَرِحْنَا بِهَا**» فهذا كمال الاتصال بينه وبين خالقه[٤].

وذكر ابن القيم أن مجموع وِرْده ﷺ الرَّاتب بالليل والنهار أربعونَ ركعةً، كان يحافظُ عليها دائمًا؛ سبعةَ عَشَرَ فرضًا، وعشرُ ركعات أو ثنتا عشرةَ سُنَّةً راتبةً، وإحدى عشرةَ أو ثلاثَ عشرةَ ركعةً قيامه بالليل، والمجموع أربعونَ ركعة، وما زاد على ذلك فعارضٌ غير راتب، كصلاة الضحى، وصلاته عند مَن يزوره، وتحية المسجد ونحو ذلك، فينبغي للعبد أن يواظب على هذا الورد دائمًا إلى الممات، فما أسرعَ الإجابةَ وأعجلَ فتْحَ الباب لمَن يَقْرَعُهُ كلَّ يوم وليلة أربعينَ مرَّةً[٥].

(١) باختصار من كتاب «اليوم النبوي» للمؤلف.
(٢) «السنن الكبرى» للنسائي (٣٩٣٩).
(٣) «سنن أبي داود» (٤٩٨٥، ٤٩٨٦).
(٤) «وحي القلم» (٢/ ٩).
(٥) «زاد المعاد» (١/ ٣٢٧).

٢- صلاته بالليل هي أعمق صلاته حضوراً واستغراقًا وتلذُّذاً بالمناجاة؛ بل هي حالة من حالات التجلِّي الروحي والاستغراق التعبُّدي.

٣- يلفت نظرَك إلى حد الإدهاش، أن هذا النبيَّ الذي تلقَّى بشائر الله له أنه قد غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر، هو أكثرُ الناس استغفاراً؛ فهو يَستقبل صَبِيحةَ كل يوم بالاستغفار مئةَ مرة، ويُعَدُّ له في المجلس الواحد أكثر من مئة مرة: «**رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الغَفُورُ**»(١). ثم يستغفر ربَّه بضراعة وخشوع في صلاته الليلية: «**اللهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ المُقَدِّمُ، وَأَنْتَ المُؤَخِّرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**»(٢).

يستغفرُ هذا الاستغفار، وهو الذي غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر، وهو المعصوم أن يقارف ذنبًا أو يكسب إثمًا، ماذا نقول نحن، وأوقات حياتنا لا تكاد تفلت من وقوع في خطأ، أو مقارفة لخطيئة؟! اللهمَّ غَفْراً.

٤- لَهَجُ النبيِّ ﷺ بالذِّكر؛ بحيث تستشعر أن هذا النبي الكريم يعيش حالة من الحب والشوق لله عَزَّوَجَلَّ، وكأنه يتراءى جلالَ ربه، فلا يفتُر لسانه عن ذكره، فهو أول ما ينطق به إذا استيقظ، وآخر ما تتحرَّك به شفتاه إذا نام، يستقبل بالذكر صَبَاحات نهاره، ومَسَاءات ليله، ولا يزال لسانه رَطْبًا بذكر الله فيما بين ذلك كله، إنه الاستحضار العميق لمعاني العبودية والحب والإجلال لله عَزَّوَجَلَّ.

٥- التوازن في أداء الحقوق، والتوازن في استيعاب مناشط الحياة؛ فأداؤه لعباداته، وبلاغه لرسالاته، وقيامه بحقوق أهله، وعشرته لأصحابه، ومراعاة حق نفسه، وغير ذلك من متطلباته؛ كل ذلك يسير متوازيًا متوازنًا، من غير أن تَرَى تقصيراً في حقٍّ، أو إخلالاً بواجب، وإنما الاستيعاب المتوازن للحقوق الخاصة والعامة، بحيث ترى في حياته التطبيق العملي لوُصاته يوم قال: «**إِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا،**

(١) «جامع الترمذي» (٣٤٣٤).
(٢) «صحيح البخاري» (١١٢٠).

وَإِنَّ لِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وإِنَّ لِوَلَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وإِنَّ لِصَدِيقِكَ عَلَيْكَ حَقًّا»[1]. وقد أعطى ﷺ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه.

٦- حياته ﷺ مزدحمة وحافلة، ولكنها ليست متوتِّرة ولا مرتبكة؛ فبرغم كثرة المشاغل وازدحامها، فإن نفْسَه هادئة مسترخية، فلا تجد اضطراباً ولا توتُّراً، وإذا نظرت إليه في حالٍ ظننتَ أن ليس له عمل قبلها ولا بعدها، فحاله في بيته لا تدل على أن أعباء الحياة ومشاغلها تنتظره في الخارج، وجلوسه مع أصحابه لا يَدُلُّكَ على أنه في حال تحفُّز أو قلق لعمل آخر ينتظره؛ فهو مقبل عليهم بكلِّه، مسترخٍ بنفسه معهم، يَسَعُهُم جميعاً حسنُ خلقه، وكأن عمله الوحيد هو هذا المجلس الذي هو فيه، إن هذه حالة استواء نفسي تستوعب الأعمال دون أن تتوتَّر أو ترتبك.

٧- حياته ﷺ حياة مُرَتَّبة وليست رَتِيبة، فهي مرتَّبة، ولكنها أيضاً مَرِنَة، بحيث تسمح بالتموُّج تبعاً لمقتضيات الحال؛ فليس في حياته فوضى أو ارتباك، وليس في حياته رَتَابة وصَرَامة، ولكن ترتيب ومرونة؛ فوقت الصلوات وقت محدَّد يرتِّب ما بينها، ومجلسُه ﷺ يمكن أن يطول ويقصُر بحسب مستجدات الأحوال، وبذلك تحقَّقت في حياته إيجابيات التنظيم، وتخلَّص من سلبيات الرَّتَابة وحَدِّيَّة الصرامة.

٨- في حياته ﷺ عَفْوية الحياة وبساطتها، فحياته ﷺ بعيدة عن التواقر المتكلَّف والجِديَّة الصارمة.

ولكن للعَفْوية والبساطة حضورها، فهو الذي يبتهج مع البهجة، ويأنس مع الأُنس، ويتوثَّب في نشوة الفرح، حتى يسقط رداؤه ليتلقَّى حبيباً جاء بعد طول غياب[2]، ويسير في طريقه ثم يحيد إلى شاب يسلخ شاة، فيَحْسِرُ عن ذراعه؛ ليُرِيَه كيف يُحْسِنُ السَّلْخ[3]، ويمرُّ برجل يطبخ لحماً في بُرْمة، فيقول: «**أَطَابَتْ بُرمَتُك؟**». ثم يتناول منها بَضْعَةً فيأكلها[4].

---

(١) «صحيح البخاري» (١٩٦٨، ١٩٧٥)، و«صحيح مسلم» (١١٥٩).

(٢) «الموطأ» (٢٠٠٣).

(٣) «سنن أبي داود» (١٨٥).

(٤) «سنن أبي داود» (١٩٣).

إن هذه العَفْويَّة في التعامل مع الناس حَطَّمت كل الحواجز؛ بحيث أفضى إليهم بقلبه، وأَفْضَوْا بقلوبهم إليه، وشعروا أنهم مع النبي ﷺ أبناءٌ مع أبٍ لهم.

٩- الأُنْس والبهجة حاضرةٌ في بيته؛ فقد كان في بيته ضَحُوكًا بَسَّامًا، وحاضرةٌ في مجلسه؛ ففيه فُسحة للطُّرْفَة الجميلة والمداعبة المُؤْنِسة، وحاضرةٌ في حياته؛ فهو الذي يخرج وينظر إلى الحبشة وهم يلعبون في المسجد، فيستمتع بمنظر لهوهم، ويدعو زوجته لتشاركه أُنْس المنظر، ثم يقول مؤصِّلاً لهذا الهَدْي: «**العَبُوا يَا بَنِي أَرْفِدَةَ تَعْلَمَ اليَهُودُ وَالنَّصَارَى أَنَّ فِي دِينِنَا فُسْحَةً، إِنِي أُرْسِلْتُ بِحَنِيفِيَّةٍ سَمْحَةٍ**»[(١)]. لقد كان في دينه سَعة، وفي حياته سَعة للأُنْس والبهجة.

١٠- قوة العلاقة العاطفية الزوجية، وإشباع هذه العاطفة، التي تظهر في مناولة قدح الماء، ومناولة لقمة الطعام، والمؤانسة في الحديث الليلي، والتعاهد بالزيارة النهارية، والمشاركة في مِهْنة البيت، والتواصل الزوجي الحميم على فراش الزوجية وتحت لحافها.

١١- تفهُّمه لفِطَر الناس وحاجاتهم ومشاغلهم، حتى في أدائه للعبادة، فكان أقصر الناس صلاة إذا صلَّى بالناس، مع أنه كان أطولهم صلاة إذا صلَّى لنفسه، وكان يدخل الصلاة وهو يريد إطالتها، فيسمع بكاء الصبيِّ فيخفِّفها؛ لِمَا يعلم من وَجْدِ أُمِّه[(٢)].

١٢- يظهر من أحوال حياته ﷺ أنه كان يعيش حياة طيبة سعيدة.

أما سعادته الإيمانية؛ فأُفُقٌ عالٍ لم يصل إليه بشر قبله؛ فهو أعرف الخلق بالله وأعظمهم إيمانًا وأصدقهم يقينًا.

وما ظنُّك بمَن رُفع فوق السَّبع الطِّباق إلى مستوى يسمع فيه صَرِيف الأقلام، ورأى الجنةَ رأي عين، حتى هَمَّ أن يتناول منها قِطْفًا، ورأى الكوثرَ الذي أعطاه ربُّه، فإذا طينُه المسك الأَذْفَرُ، وإذا رَضْرَاضُهُ اللُّؤْلُؤُ؟[(٣)].

---

(١) «صحيح البخاري» (٩٨٦)، و«صحيح مسلم» (٩٤٩)، و«السنن الكبرى» للنسائي (٨٩٠٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٨٦٨)، و«صحيح مسلم» (٤٧٠).

(٣) «صحيح البخاري» (١٢١٢)، و«صحيح مسلم» (٩٠١).

كيف سيكون حال نبي قُرِّب هذا القرب ورُفِع إلى تلك المنزلة حينما يناجي ربَّه ويدعوه ويمجِّده ويُثني عليه: «**إِنِّي أَظَلُّ عِنْدَ رَبِّي يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي**»؟![1].

إن تلذذه بالعبادة وتذوقه لحلاوة الإيمان لا يمكن مقارنته بأي لذة من لذائذ الحياة الدنيا.

وهو أيضاً سعيد في حياته الدنيوية، وهذه السعادة تجدها في لفتات حياته كلها، وتستشعر تذوقه لهذه السعادة وعميق امتنانه لربه بها؛ فقد أجاره ربه من الهم والحزن، وأعاذه من سيِّئ الأَسْقام، فعاش في عافية بدنية وعافية نفسية وعافية أُسرية، عاش في عفو وعافية ومعافاة دائمة.

فله ﷺ الزوجة الوَضِيئة التي يحبها وتحبه، يقاسمها أجمل عواطف المودة والحب.

وله الابنة الطاهرة وابناها ريحانتا دنياه، يُغْدِقُ عليهم أعذب مشاعر الأُبوَّة.

وله الأصدقاء الصادقون: أبو بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، يقاسمهما أعباء الحياة، فيُسمع كثيراً يقول: «**دَخَلْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَخَرَجْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَذَهَبْت أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ**»[2].

وله الصِّهر والنَّسيب القريب في نسبه وداره الذي يحبه، ويعلم أن الله في ملئه الأعلى يحبه: أبو الحسن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وله أصهارُ برٍّ ووفاء، حدَّثوه فصَدَقوه ووعدوه فوَفَوْا له: عثمان بن عفان وأبو العاص بن الرَّبيع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وله الأصحاب المرضيُّون الذين ينزل وحي ربه في تزكية سرائرهم وما في قلوبهم: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ١٨].

فكان سعيداً بمَن حوله ومَن معه.

---

(١) «صحيح البخاري» (١٩٦١)، و«صحيح مسلم» (١١٠٣).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٦٨٥)، و«صحيح مسلم» (٢٣٨٩).

ثم عاش حياةً تتدافع الإنجازات الكبار فيها، وأعظم السعادات في الحياة تحقيق الإنجازات، ثم تحقيق الهدف الأكبر له في الحياة، وهو بلاغ رسالات الله، ودخول الناس في دين الله أفواجـًا.

لا أستطيع أن أتخيَّل تلك السعادات على قلب الرسول ﷺ وهو يرى هذه الجموع في مسجده تكثر، ومساحة الإسلام تتَّسع، والناس يدخلون في دين الله أفواجـًا.

بل لا أستطيع أن أُصوِّر مشاعري لمجرد تخيل مشاعره ﷺ، وهو في حَجَّة الوداع يسمع تلك الجموع حوله من كل أنحاء الجزيرة، تقول بفم واحد: نشهد أنك قد بلَّغت ونصحت وأدَّيت الذي عليك.

إن هذا كله بعض عطاء الله الغامر له يوم قال: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٥].

١٣- تجد في حياته ﷺ تذوُّق لذائذ الحياة، واستشعار جمال ما يرى، ولذة ما يتذوَّق، والامتنان لله بالنعمة عليه بذلك، ففي الشَّربة يشربها واللُّقمة يأكلها يتذوق لذَّة ذلك بامتنان عظيم لله: «**الحَمْدُ لله كَثِيراً طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ غَيْرَ مَكْفِيٍّ وَلَا مُوَدَّعٍ وَلَا مُسْتَغْنىً عَنْهُ رَبَّنَا، الحَمْدُ لله الَّذِي يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ، مَنَّ عَلَيْنَا فَهَدَانَا وَأَطْعَمَنَا وَسَقَانَا، وَكُلَّ بَلَاءٍ حَسَنٍ أَبْلَانَا، الحَمْدُ لله غَيْرَ مُوَدَّعٍ، وَلَا مُكَافَىءٍ وَلَا مَكْفُورٍ، وَلَا مُسْتَغْنىً عَنْهُ، الحَمْدُ لله الَّذِي أَطْعَمَ مِنَ الطَّعَامِ، وَسَقَى مِنَ الشَّرَابِ، وَكَسَا مِنَ العُرْيِ، وَهَدَى مِنَ الضَّلَالَةِ، وَبَصَّرَ مِنَ العَمَى، وَفَضَّلَ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِهِ تَفْضِيلاً، الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ**»[(١)].

وفي يقظته من نومه يستشعر فضل الله عليه بنومة تتمنَّاها عيون مُؤرَّقة، ثم استيقاظه بعافية وحيويَّة، فيتذكَّر فضل واهب الفضل: «**الحَمْدُ لله الَّذِي أَحْيانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا، وَإِلَيْهِ النُّشُورُ**»[(٢)].

إذا كان هذا في الأَكْلة المعتادة والنومة المعتادة التي يُذهبُ الاعتيادُ استشعار نعيمها، فكيف بالنعم المتجدِّدة والأَفضال المتتابعة؟! إنك تستشعر أنه يقف عند كلِّ نعمة، فيتذوقها كاملة، ثم يستشعر فضل الله عليه بها، حتى لكأنك تسمعه يهاتف ربه قائلاً: «**الحَمْدُ لله الَّذِي مَنَّ عَلَيَّ فأَفْضَل، الحَمْدُ لله الَّذِي أَعْطَانِي فَأَجْزَل، الحَمْدُ لله عَلَى كُلِّ حَالٍ**».

---

(١) «السنن الكبرى» للنسائي (١٠٠٦٠).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٣١٢)، و«صحيح مسلم» (٢٧١١).

وإذا كان ﷺ يلفت أبصار بصائرنا إلى ما نألفه حتى لا نكاد نحس به؛ المبيت الآمن، مع طعام ليلة وعافية بدن، فيقول: «**مَنْ أَصْبَحَ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافىً فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ طَعَامُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا**»(١).

فكيف كان تذوقه هو ﷺ لذلك وما هو أكثر من ذلك؟!

إن استشعار النِعَم وتذوقها وتعظيمها في النفس يزيد مساحة السعادة بها، ويجعل الحياة أكثر بهجة ورُواءً، والنفس أعظم ما تكون سكينة ورضًا وامتنانًا للوهَّاب الذي هذه هبته، والكريم الذي هذا فضله، فتثمر النعمة نعمًا، وتزداد الحياة اتِّساعًا وتجدُّداً وتوهُّجًا، ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].

١٤- عندما ترى هذه الحياة النبوية الحافلة، وهذا التفاعل الحي مع الحياة، فَتَذَكَّر كَمَّ الآلام والأحزان التي استقبلها النبيُّ ﷺ في حياته ثم تجاوزها، لقد تلقَّاه في أول إقباله على الحياة؛ اليُتم المتكرِّر في الطفولة، ثم الأَذَى البالغ بعد البعثة، وفجيعته بزوجته خَدِيجة أحب الناس إليه، ثم ثكله ببنيه وبناته في حياته، وفراق بلده التي هي أحب البلاد إليه، ومصابه في قرابته وأصحابه في أُحُد، وآلام حادثة الإفك، وغير ذلك من أوصاب حياته وبلاءاتها.

ولكنه مع ذلك كله كان يتمتَّع بقدرة عظيمة عجيبة على تجاوز المشاعر السلبية، ولياقة فائقة على استئناف الحياة، والتفاعل الإيجابي مع كل لحظاتها!

إنك وأنت ترى هذا الزَّخَم العظيم في كل يوم من أيام حياته، لتكاد تقول: هذه سيرة مَن لم تمر به شدَّةٌ قطُّ، ولم يَعْرِض له بلاءٌ قطُّ.

وما كان -بأبي هو وأمي- كذلك، ولكنه يتجاوز هذه الآلام ولا يستصحب آلامها، فلكل لحظة في عمره مشروعها وإنجازها وبهجتها؛ إنها الحياة المتدفِّقة المتجدِّدة، إنها الحياة كما ينبغي أن تكون الحياة.

١٥- الرحلة مع المصطفى ﷺ في أحواله المتنوعة مددٌ لحبه العظيم في قلوبنا؛ ولذا كان صحابة رسول الله ﷺ أشدَّ الناس له حبًّا وأكملَ الخلق له تعظيمًا؛ لأن كل ما يرونه من لفتات حياته يُتْرِعُ قلوبهم حبًّا له وتعظيمًا، فحياته ﷺ بكل تفاصيلها حياة جاذبة،

(١) «جامع الترمذي» (٢٣٤٦).

ولئن فاتنا أن نرى ما رأوه، فلن يفوتنا أن نعلمَ به ونتعلَّمه، ولا تَزَال تتروَّى مما رآه الصحابة من رسول الله ﷺ وما سمعوه، حتى يعمُرَ قلبَك من حُبِّه ما عَمَرَ قلوبَهم، وإن صحبةَ النبي ﷺ في تفاصيل حياته مددٌ وِجداني لخزائن الحب النبوي في قلوبنا؛ فهو الذي كلما ازددت به معرفة ازددت له حبًّا، وكلما ازددت صحبةً لخبره ازددت شوقًا إلى رؤيته.

ويا لَكَمْ طوت لي حُجُبَ الزمن أخبارٌ أَتَرَوَّاها، حتى لكأني أعيشُ الخبرَ رأي عين، فأستشعر الدُّنو إليه، وأكاد أنغمرُ في أنواره، وأستنشق عطر أنفاسه، وأَهُمُّ أن أدنو منه الثَمُ يديه وأجد بَرْدَ كفَّيه، وأهتف في مسامعه من كل قلبي: والله يا رسولَ الله، لَأَنْتَ أَحَبُّ إليَّ من نفسي.

يـا رَبِّ هَـبَّـتْ شُـعـوبٌ مِـن مَنِيَّتِهـا ... وَاستَـيـقَـظَـت أُمَـمٌ مِـن رَقـدَةِ الـعَـدَمِ
فَـالـطُـف لأَجـلِ رَسـولِ الـعـالَـمـينَ بِنا ... وَلا تَـزِد قَـومَـهُ خَـسـفـًا وَلا تُـسِـمِ
يـا رَبِّ أَحـسَـنـتَ بَـدءَ المُسلِمينَ بِـهِ ... فَتَمِّمِ الفَضلَ وَامنَح حُسنَ مُختَتَمِ[1]

اللهمَّ إنَّا آمنا بنبيك محمد ﷺ، وأحببناه واتَّبعناه وما رأيناه، اللهمَّ فلا تحرمنا رؤيته يوم القيامة، واحشرنا في زمرته، وأنلنا شفاعته، وأوردنا حوضه، وارزقنا مرافقته في جنات الفردوس الأعلى مع الذين أنعمتَ عليهم من النبيين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين، وحَسُنَ أولئك رفيقًا.

ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين.

اللهمَّ صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد.

(١) «نهج البردة» لأحمد شوقي.

فهرس الموضوعات

إهداء ٥

شكر ودعاء ٦

مقدِّمة ٨

مسار الكتاب ١١

الباب الأول: طلائع الكتاب ١٣

المسيرة مع السيرة ١٥

خصائص السيرة النبوية ٢٠

ثمرات قراءة السيرة ٣١

الوجه النبوي ٣٨

الباب الثاني: الرسول ﷺ وعلاقاته ٤٥

الرسول ﷺ وأمه ٤٧

الرسول ﷺ زوجاً ٥٣

حديثه مع أهله ٧٠

الرسول ﷺ أباً ٧٥

الرسول وإخوانه عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ٨٧

الرسول ﷺ صَدِيقاً ٩٨
الرسول ﷺ والمرأة..... ١٠٥
الرسول ﷺ والخدم ١٢١
الرسول ﷺ والأطفال ١٢٧
الرسول ﷺ والشباب..... ١٣٦
الرسول ﷺ وأهل الصفّة..... ١٤٥
الرسول ﷺ والضيافة..... ١٥٤
الرسول ﷺ ضيفاً..... ١٥٩
الرسول ﷺ وأصحابه..... ١٦٦
الرسول ﷺ والخاطئون..... ١٧٩
الرسول ﷺ والمخالفون..... ١٨٦
الرسول ﷺ والأعداء..... ٢٠٥
الرسول ﷺ والمنافقون..... ٢١٢
الرسول ﷺ وعالم الجن..... ٢٢٢
الباب الثالث: الرسول ﷺ وعبادته..... ٢٣١
الدعاء النبوي..... ٢٣٣
الاستغفار النبوي ٢٤٠
الرسول ﷺ وقيام الليل ٢٤٥
الرسول ﷺ والقرآن ٢٥١
الرسول ﷺ والجمعة..... ٢٥٨
الرسول ﷺ ورمضان..... ٢٦٧
الرسول ﷺ والعيد ٢٧٧
الرسول ﷺ والحج..... ٢٨٥

الباب الرابع: الرسول ﷺ وعالم المشاعر ٢٩٧
الرسول ﷺ وعافيته النفسية..... ٢٩٩
الرسول ﷺ والرحمة ٣٠٣
الرسول ﷺ والمزاح..... ٣١٧
الرسول ﷺ واللهو ٣٢٣
بسمات الرسول ﷺ ٣٣٠
الرسول ﷺ والشجاعة..... ٣٣٥
الرسول ﷺ والبكاء..... ٣٤٣
الرسول ﷺ والحزن ٣٤٩
الرسول ﷺ والحب ٣٥٤
حبنا لرسول الله ﷺ ٣٦٢
الرسول ﷺ والغضب..... ٣٧٣
الرسول ﷺ والجمال..... ٣٨٠
الرسول ﷺ والذوق ٣٨٥
الرسول ﷺ والهدية ٣٩١
الرسول ﷺ ورعاية المشاعر..... ٣٩٦
الرسول ﷺ ومفاتح القلوب ٤٠٢
الباب الخامس: الرسول ﷺ وأحوال حياته ٤١١
الرسول ﷺ والنِعَم ٤١٣
الرسول ﷺ والشدائد..... ٤١٩
الرسول ﷺ والمال..... ٤٢٦
الرسول ﷺ ورياضة الأبدان ٤٣٤
الرسول ﷺ والمرض..... ٤٤٢

الرسول ﷺ والطب ٤٤٨
الرسول ﷺ والقيادة ٤٦٢
الرسول ﷺ ومعرفة الواقع ٤٨٠
الرسول ﷺ والسفر ٤٨٦
الرسول ﷺ والحرب ٤٩٦
الرسول ﷺ والنصر ٥٠٦
الرسول ﷺ والسِّلم الاجتماعي ٥١٠
الرسول ﷺ والسياسة الخارجية ٥٢٢
الرسول ﷺ والمستقبل ٥٢٨
الباب السادس: الرسول ﷺ ودعوته ٥٣٩
التعليم النبوي ٥٤١
الرسول ﷺ والقراءة ٥٥١
الرسول ﷺ والدعوة ٥٥٥
الرسول ﷺ خطيباً ٥٦٣
الرسول ﷺ وأُمَّته ٥٧٦
كلام الرسول ﷺ ٥٨٥
الباب السابع: الرسول ﷺ في بيئته ٥٩٣
الرسول ﷺ وبيئة مكة ٥٩٥
الرسول ﷺ وبيئة المدينة ٦٠٤
البيت النبوي ٦١١
المسجد النبوي ٦٢١
نهار الرسول ﷺ ٦٢٩
ليل الرسول ﷺ ٦٣٧

نوم الرسول ﷺ ٦٤٣
الرسول ﷺ والطعام ٦٥٤
اللباس النبوي ٦٦٧
المجلس النبوي ٦٧٦
الرسول ﷺ في الطريق ٦٨٦
الرسول ﷺ والسوق ٦٩٣
الرسول ﷺ ومعاملة الحيوان ٦٩٩
الباب الثامن: خواتم الكتاب ٧٠٧
الرسول ﷺ والموت ٧٠٩
إلى الرفيق الأعلى ٧١٦
عالم الرسول الرحيب ٧٢٣
دلائل النبوة من سيرته ٧٣٥
نظرة إجمالية للحياة النبوية ٧٤٨
فهرس الموضوعات ٧٥٧

كتب للمؤلف

اليوم النبوي



قصص نبوية



الحياة النبوية



أماكن نبوية



السيرة اليسيرة



سماء الذاكرة



حديث الغدير



سنام الإسلام



بداية التاريخ



تعرف على القرآن



على بصيرة



الحياة بعد الحياة



كأنك معه
صفة حجة النبي ﷺ



القبر المقدس



الآثار النبوية



إلى أخي وأختي



أما بعد



التواصل مع المؤلف

Website

Email

Facebook

Youtube

Telegram

TikTok

WhatsApp
(+90) 5467723779

X

الحياة النبوية

حياة الرسول ﷺ كأنك تعيش معه

لئن كان النبي ﷺ قد لحق بالرفيق الأعلى، فإنه بقي حاضرا في وجدان أمته كأنما تتراءاه رأي عين، فهي تعرف عنه تفاصيل حياته، ودقائق أحواله، تعرف ملامح وجهه، وخطوات مشيه، وكلامه إذا تكلم، وتلاوته إذا قرأ، وصلاته إذا صلى، تعرف لباسه الذي يلبسه، وطعامه الذي يأكله، وبيته الذي يسكنه، وتعرف عشرته مع أصحابه، وأنسه مع زوجاته، وحاله في كل شأنه، حتى كأنما هو حيٌّ يعيش بيننا.

وقد سبق أن جمعت كتيباً عن البرنامج اليومي لنبينا ﷺ، وما الذي يعمله في يومه من الصباح إلى الصباح، بعنوان: «اليوم النبوي»، فرأيت تتميماً لذلك جمع كتاب يقدم «الحياة النبوية» بامتدادها وسعتها وتنوعها، وينظر إليها من زواياها المتعددة، ويروي من أحواله وهديه ما يشترك الناس فيه معه.

مبرة الآل والأصحاب

هاتف: ٢٢٥٦٠٢٠٣ - ٢٢٥٥٢٣٤٠ فاكس: ٢٢٥٦٠٣٤٦

ص. ب: ١٢٤٢١ الشامية - الرمز البريدي ٧١٦٥٥ الكويت

E - mail: almabarrh@gmail.com

www.almabarrah.net